الكسى تولستوى

درب الآلام



الكسي تولستوي

درب الآلام

ثلاثية

الكتاب الاول

الشقيقتان

دار التقدم

موسكو

لذلك الزمن ، وكاتبة . (رواية «قلب قلق» وقصص بعنوان «مكان منسى» . وبعد ذلك جملة من كتب للاطفال واكثرها شعبية هو «الصديقة») . . .

انقضت طفولتى فى ضيعة زوج امى المسماة سوسنوفكا . بستان ، وبرك يحيط بها الصفصاف ، وينمو فيها القصب . والنهير السهبى تشاغرا . والرفقاء هم اولاد القرية . وخيول الركوب . والسهب المعشوشب ، حيث الربى وحدها كانت تكسر خط الافق الرتيب . . . وتعاقب فصول العام مثل احداث ضخمة وجديدة دائما . ان كل ذلك ولا سيما نشاتى وحيدا قد وسعت دائرة احلامى .

حين كان الشتاء يحل ، وتتراكم الثلوج فى البستان وحول البيت كان عواء الذئاب يرتفع فى الليل . وحين تغنى الريح فى مداخن المواقد ، يضاء مصباح معلق فوق مائدة مستديرة فى غرفة الطعام ، وهى حجرة مجصصة الجدران ومفروشة بشكل بائس ، ويقرا زوج امى فى العادة نكراسوف ، وليف تولستوى وتورغينيف بصوت عال . . .

وكانت امى تصغى وهى تحيك الجوارب . وكنت ارسم او الوّن صورا . . . ولم تستطع اية حادثة ان تخرق صمت تلك الامسيات فى ذلك البيت الخشبى القديم حيث تفوح حرارة المواقد المجصصة ، المدفاة بالروث المجفف او القش ، وحيث لا بد من شمعة للتنقل من حجرة مظلمة الى اخرى . . .

لم اقرا كتب اطفال غالبا ، فمن المحتمل انها لم تكن لدى . وكان كاتبى المفضل تورغينيف . وقد بدات اسمعه فى امسيات الشتاء وانا فى سن السابعة تقريبا . ثم ليف تولستوى ونكراسوف وبوشكين . (كان اهل البيت ينظرون الى دوستويفسكى بشىء من الرعب باعتباره كاتبا «قاسيا») .

وانا فى نحو العاشرة اخذت اكثر المطالعة ، كل ما لهؤلاء الكلاسيكيين . وبعد حوالى ثلاثة اعوام حين ادخلونى بصعوبة (لاننى حصلت فى امتحانات القبول على درجة سقوط تامة تقريبا) فى مدرسة ثانوية استطعت الحصول فى مكتبة المدينة على جيول فيرن وفينيمور كوبر وماين ريد والتهمتهم بتعطش ، رغم ان امى وزوجها كانا ينعيان على هذه الكتب تفاهتها .

وقبل دخولى الى المدرسة الثانوية كنت اتعلم فى البيت ، فقد استقدم زوج امى من سامارا معلما هو اركادى ايفانوفيتش سملوقواخوتوف وهو طالب مدرسة ثانوية دينية ، وكان مجدورا احمر كالنار وشخصا ممتازا انسجمنا معا ولكننا درسنا العلوم على مهل .

ذات شتاء ، وكنت فى نحو العاشرة ، نصحتنى امى بكتابة قصة . وكانت تود كثيرا ان اصبح كاتبا . وقد قضيت امسيات كثيرة منكبا على مغامرات الصبى ستيبكا . . . وانا لا اذكر شيئا من هذه القصة غير عبارة : كان الثلج يتلالأ تحت ضوء القمر كالالماس . وانا لم ار الالماس قط ، ولكن هذا التشبيه اعجبنى . ولم تكن قصة ستيبكا موفقة على ما يبدو ، فلم تكرهنى امى مرة اخرى على الابداع .

قبل الثالثة عشرة ، قبل دخولى الى المدرسة الثانوية عشت حياة تاملية حالمة . ولم يعفنى هذا بالطبع من ان اقضى اياما كاملة فى حصد العشب ومكان حصاد الحبوب ودراسها ، وعند النهر مع اولاد القرية ، والتردد شتاء الى المعارف من الفلاحين لاستمع الى الحكايات والحواديت والاغانى ، ولعب الورق والكعاب ، والعراك على اكوام الثلج بالقبضات ، والتقمص فى اعياد الميلاد ، وركوب الخيول غير المروضة بلا لجام ولا سرج ، والى غير ذلك .

تركت سنوات المجاعة الثلاث من عام ١٨٩١ حتى عام ١٨٩٣ اثرا عميقا فىّ ما زلت احسه حتى الآن . كانت الارض آنذاك مشققة ، والخضرة قد ذبلت قبل الاوان وتناثرت ، والحقول صفراء محروقة . وفى الافق عتمة كدرة احرقت كل شىء .

وفى القرى تعرت سطوح الاكواخ لان الناس استخدموا قشها علفا للمواشى ، وربطت المواشى النحيلة السليمة بالسيور الى الروافد . . . فى تلك السنوات نجت ضيعة زوج امى بالكاد من الخراب . . . ومع ذلك فقد اضطر بعد بضع سنوات الى بيعها . . . ان ولاية سامارا كلها اصبحت تعود الى كبير مالكى الاراضى شاخوبالوف الذى كان يشترى اراضى الاعيان كلها وياخذ من الفلاحين اجور الاستئجار السنوى بالقدر الذى كان يشتهيه . . .

في عام ١٩٠١ انهيت المدرسة الثانوية في سامارا وسافرت الى بطرسبورغ للاستعداد لامتحانات القبول ، واديت امتحان القبول الى المعهد التكنولوجي ودخلت فرع الميكانيك .

ارجع تجاربي الادبية الاولى الى سن السادسة عشرة ، وهي عبارة عن اشعار هي تقليد عاجز لنكراسوف ونادسون . وانا لا استطيع ان اتذكر السبب الذي حداني الى كتابتها ، فقد يكون الحلم الطائش الذي لم يجد شكلا له . كانت الاشعار فجة فتركت العكوف عليها .

ولكنني كنت اشتاق مرة بعد اخرى الى عملية خلق لم تتبلور بعد . واحببت الدفتر والحبر والريشة . وعندما كنت طالبا كنت اعود بين الفينة والاخرى الى تجربة الكتابة ، ولكن ذلك كان بداية شيء ما لا يستطيع ان يتشكل ، ان يكتمل . . .

تزوجت في وقت مبكر ، في التاسعة عشرة ، طالبة في معهد الطب ، وعشنا سوية عيشة طلابية عاملة اعتيادية حتى نهاية عام ١٩٠٦ . واشتركت مثل الجميع في الاضطرابات والاضرابات الطلابية ، وانضممت الى كتلة الاشتراكيين الديموقراطيين ، والى لجنة مطعم المعهد التكنولوجي . وفي عام ١٩٠٣ كدت اقتل بحجارة طائرة اثناء مظاهرة عند كاتدرائية قازانسكي ، فانقذني كتاب كنت قد حشرته تحت المعطف على صدري .

وعندما اغلقت المعاهد التعليمية العالية سافرت في عام ١٩٠٥ الى درزدن ، حيث قضيت سنة في مدرسة تكنيكية . وهناك عدت الى كتابة الشعر مرة اخرى ، وكانت هذه تجارب ثورية وغنائية . في صيف ١٩٠٦ عدت الى سامارا ، واطلعت والدتي عليها . فقالت في اسى انها جميعا غثة جدا .ولم احتفظ بهذا الدفتر .

ان لكل عصر شكله الذي يصوغ به الافكار والمشاعر والعواطف . ولم يكن لدى هذا الشكل الجديد ولم اكن قادرا بعد على خلقه .

في صيف ١٩٠٦ توفيت امي الكسندرا ليونتيفنا بالتهاب السحايا . فرحلت الى بطرسبورغ لاتابع دراستي في المعهد التكنولوجي .

وبدأ عهد الرجعية ، ويطلع الرمزيون معها على اضواء المسرح .

عند ذاك ، في ربيع ١٩٠٧ ، كتبت اول ديوان لي وهو اشعار «منحلة» . وكان ذلك كتيبا تقليديا ساذجا رديئا . ولكنه بالنسبة لي شققت به الطريق الى فهم الشكل الحديث للشعر .

وبعد عام اصدرت الديوان الثاني : «وراء الانهار الزرقاء» . وانا لا اتبرأ منه حتى يومنا هذا . فان «وراء الانهار الزرقاء» حصيلة اول تعرفي بالفولكلور الروسي ، بالابداع الشعبي الروسي .

حينذاك بدات تجاربي الاولى في النثر «حكايات القعقع» . وقد حاولت فيها ان اصف على شكل حكايات انطباعاتي في الطفولة . ولكن استطعت بعد سنوات عديدة ان اوفق في ذلك بقدر اكثر كمالا في قصة «طفولة نيكيتا» .

وانا مدين ببداية عملي ككاتب قصص لصلتي بالشاعر والمترجم م . فولوشين . في صيف ١٩٠٩ سمعت فولوشين وهو يقرا ترجماته من هنري دو رينيه . وقد بهرني سبك الصور . ان الرمزيين في بحثهم عن الشكل والجماليين ، مثل رينيه ، اعطوني مبادئ الشيء الذي لم يكن لدى آنذاك ، ولا سبيل للابداع والشكل والتكنيك بدونه .

في خريف ١٩٠٩ كتبت اول قصة طويلة لي هي «اسبوع في ضيعة تورغينيفو» وهي احدى القصص التي دخلت فيما بعد في كتاب «ما وراء الفولغا» وبعد ذلك في المجلد الموسّع «تحت اشجار الزيزفون القديمة» وهو كتاب عن تقليدات حياة الاعيان من ذلك القسم من اصحاب الاطيان الذين طحنهم سلاطين الارض الجدد — آل شاخوبالوف . لم يمس كتابي الاعيان المترسخين على الارض الذين انتقلوا الى الاشكال المكثفة من الاقتصاد . فلم اكن اعرفهم . ثم تتبع ذلك روايتان «السيد الاعرج» و«غريبو الاطوار» . وبذلك ينتهي عهدي الاول في الفن القصصي ، المرتبط بالبيئة التي كانت تحيطني في صباي .

استنفدت موضوع الذكريات ، واقتربت تماما من الواقع المعاصر . وهنا منيت بالفشل . فقد كانت قصص واقاصيص الواقع المعاصر فاشلة وغير نموذجية . والآن ادرك سبب ذلك . فقد واصلت العيش في دائرة الرمزيين الذين لم يكن فنهم الرجعي يتقبل الواقع المعاصر الفائر بعنف وتهديد في اتجاهه نحو الثورة .

ابتعد الرمزيون في التجريد ، في الغموض قابعين في «الابراج العاجية» حيث كانوا ينوون انتظار انتهاء ما كان يزحف .

لقد احببت الحياة ، وكرهت بكل جوارحي التجريد والمذاهب المثالية . والذي كان نافعا لي في عام ١٩١٠ اضرني واعاقني في عام ١٩١٣ .

كنت ادرك جيدا ان من المستحيل الاستمرار في ذلك . كنت اعمل كثيرا دائما ، والآن اعمل باصرار اشد ، ولكن النتائج كانت بائسة : فانا لم ار الحياة الحقيقية للبلاد والشعب .

وبدأت الحرب العالمية الاولى . وكنت في جبهات القتال كمراسل حربي لجريدة «روسكيه فيدوموستي» ، وزرت انجلترا وفرنسا (عام ١٩١٦) . وانا منذ زمان بعيد لا اعيد اصدار كتاب اللوحات الادبية عن الحرب لان الرقابة القيصرية لم تسمح لي بكل قوة ان اقول ما رايته وما شعرت به . ولم تدخل غير بضع اقاصيص ذلك الوقت في مجموعة مؤلفاتي .

ولكنني رايت الحياة الحقة ، وساهمت فيها بعد ان نزعت عني رداء الرمزيين الاسود المسدل كليا . ورايت الشعب الروسي .

في الاشهر الاولى من ثورة شباط تحولت الى موضوع بطرس الاكبر . ومن المرجح ان سليقة الفنان اكثر من الوعي هي التي جعلتني ابحث في هذا الموضوع عن مفاتيح لغز الشعب الروسي ، والدولة الروسية .

وانا ارجع بداية عملي المسرحي ككاتب مسرح الى الايام الاولى من الحرب . وقبل ذلك ، في عام ١٩١٣ ، كتبت كوميديا «المغتصبون» وعرضتها على مسرح «مالي» في موسكو .. وقد اثارت حماسة في قسم من المشاهدين ، وسرعان ما منعت من قبل مدير المسارح الامبراطورية .

ما بين عام ١٩١٤ و١٩١٧ كتبت وعرضت خمس كوميديات : «الطلقة» و«الشيطان» و«السنونو» و«الصاروخ» و«اللون المر» .

ومع قيام ثورة اكتوبر عدت الى النشر مرة اخرى ، وانهى المسودة الاولى لـ«يوم بطرس» واكتب قصة «كونوا رحماء !» التي هي اول تجربة لنقد المثقفين الليبراليين الروس في ضوء لهيب اكتوبر ،

وفي خريف عام ١٩١٨ سافرت مع العائلة الى اوكرانيا ، وقضينا الشتاء في اوديسا ، حيث كتبت كوميديا «الحب كتاب ذهبي» وقصة «كاليوسترو» . ومن اوديسا سافرت مع العائلة الى باريس ، وهناك بدات في تموز عام ١٩١٩ بكتابة ملحمة «درب الآلام» .

كانت الحياة في الهجرة اقسى فترة في حياتي . هناك ادركت ما تعني ان تكون منبوذا ، انسانا مقطوعا عن الوطن ، بلا وزن ولا ثمرة ، ولا حاجة لاحد بك في كل الاحوال .

وكتبت بحماس رواية «درب الآلام» (الجزء الاول «الشقيقتان») وقصة «طفولة نيكيتا» و«مغامرات نيكيتا روتشين» وبدات عملا كبيرا امتد عدة اعوام : اعدت من جديد عمل كل ما هو ثمين مما كتبته حتى ذلك الوقت . . .

وكان باكورة عملي بعد العودة الى الوطن مؤلفان : قصة «على العتبة» . وبذلك انقطعت في الحال كل صلاتي بالكتاب المهاجرين . و«لبس الحداد علي» اصدقائي السابقون . وفي ربيع ١٩٢٢ وصل من روسيا السوفييتية الكسي مكسيموفيتش بشكوف * . وانعقدت بيننا علاقات ودية .

في فترة اقامتي في برلين كتبت رواية «آيليتا» وقصص «الجمعة السوداء» ، و«مقتل انطوان ريفو» و«المخطوطة المكتشفة تحت السرير» وهي اكثر هذه الاعمال اهمية من حيث الموضوع . . .

في ربيع ١٩٢٢ سافرت مع العائلة الى روسيا السوفييتية .

وكان باكورة عملي بعد العودة الى الوطن مؤلفان : قصة «ايبيكس» وقصة غير طويلة هي «المدن الزرق» . . .

في عام ١٩٢٤ عدت الى المسرح : كوميديا «طرد الشيطان الضال» ومسرحيتا «مؤامرة الامبراطورة» و«آزيف» وكوميديا «اعاجيب في المنخل» و«الشباب العائد» وتحويلات مسرحية «تمرد الآلات» و«انا كريستي» و«رجل اعمال» (حسب موضوعات مسرحيات الشاعر الالماني غازينكليفر) .

---

* مكسيم غوركي .

وفى عام ١٩٢٦ كتبت رواية «هيبربولويد المهندس غارين» ، وبعد عام بدأت بكتابة الجزء الثانى من رواية «درب الآلام» وهو «عام ١٩١٨» .

وفى نفس الوقت لم اكف عن تحوير وتنقيح كل ما كتبته من قبل . . .

فى عام ١٩٣٠ كتبت الجزء الاول من رواية «بطرس الاول» . وبعد عام ونصف العام الرواية الهجائية : «الذهب الاسود» التى اعدت صياغتها فى عام ١٩٣٨ ونشرتها تحت عنوان «المهاجرون» ، وانهيت الجزء الثانى من «بطرس الاول» فى عام ١٩٣٤ .

ان كلا الجزئين اللذين نشرتهما من «بطرس الاول» ما هما الا مدخل الى الرواية الثالثة ، الى العمل الذى بدأت به (فى خريف ١٩٤٣) .

ما الذى ساقنى الى ملحمة «بطرس الاول» ؟ ليس صحيحا اننى اخترت ذلك العهد لتفسير الواقع المعاصر . لقد جذبنى الاحساس بكمال القوة الفوارة والابداعية للحياة التى تفتح فيها الخلق الروسى بنصوع فريد .

ان اربعة عهود تجذبنى الى التصوير لنفس هذه الاسباب : عهد ايفان الرهيب ، وعهد بطرس الاول ، والحرب الاهلية ١٩١٨-١٩٢٠ وعهدنا الحالى المنقطع النظير بسعة نطاقه واهميته . ولكن الكتابة عنه رهن بالمستقبل . ولفهم سر الشعب الروسى وعظمته يجب ان يُعرف ماضيه معرفة جيدة وعميقة : ان يُعرف تاريخنا ، وعقده الجذرية ، والعهود التراجيدية والابداعية التى تشكل فيها الخلق الروسى .

فى عام ١٩٣٥ بدأت بكتابة قصة «الخبز» التى هى نقلة ضرورية بين رواية «عام ١٩١٨» ورواية «صباح غائم» التى كنت اعمل الفكر فيها فى ذلك الوقت . وانهيت «الخبز» فى خريف ١٩٣٧ . وقد سمعت الى العديد من الانتقادات لهذه القصة ، وهى فى غالبها تنحصر فى انها جافة و«عملية» . ولتبرير ذلك استطيع ان اقول شيئا واحدا هو ان «الخبز» كانت محاولة لتمثيل مادة تاريخية دقيقة بوسائل فنية . ومن هنا جاء جموح الخيال . ولكن من الممكن ان تنفع هذه المحاولة احدا من الناس فى وقت ما . وأنا ادافع عن

الحق للكاتب فى التجربة وفى الاخطاء المرتبطة بها . ويجب احترام تجربة الكاتب ، فلا فن بلا جرأة . والطريف ان «الخبز» شأنها شأن «بطرس الاول» يمكن ان تترجم الى جميع لغات العالم تقريبا ، وربما فى اعداد كبيرة .

وسوية مع هذه الاعمال الادبية اقوم باعداد خمسة اجزاء من الفولكلور الروسى لدار النشر للاطفال . وانا ارفض تحوير وتنقيح الحكايات . وباحتفاظى بنقاء القصة الشفاهية اربط روايات الموضوع المروى فى موضوع واحد مع الاحتفاظ بجميع خصائص الكلام الشعبى ومع تنقية الموضوع من جميع التفاصيل والهوامش التى ادخلت اما بان يعمد الراوى على ادخال تفاصيل حكايات اخرى بشكل آلى ، واما بسبب عدم نضوج الراوى ، واما بسبب خصائص الكلام المحلية غير المميزة .

فى اليوم الذى بدأت فيه الحرب الوطنية الكبرى ، يوم ٢٢ حزيران ١٩٤١ ، فرغت من رواية «صباح غائم» . وعند اعدادى الثلاثية كلها للطبع قمت بتنقيح الكتابين الاولين من هذه الملحمة . وقد كتبت الثلاثية خلال اثنين وعشرين عاما . وموضوعها العودة الى البيت ، الطريق الى الوطن . والواقع ان كتابة السطور الاخيرة والصفحات الاخيرة من «صباح غائم» يوم كان وطننا فى نار الحرب تقنعنى بأن سبيل هذه الرواية صائب .

عندما اعود بنظرى الآن الى السنتين الرهيبتين المدمرتين من الحرب اجد ان الايمان بقوى شعبنا التى لا تنضب ، الايمان فى صحة طريقنا التاريخى ، الطريق الباهظ والصعب والمستقيم والانسانى نحو الحياة العظيمة ، وحب الوطن وحده ، والتألم الممض بعذاباته ، وكراهية العدو - كل هذا قد اعطى القوى للنضال والنصر . وقد آمنت بانتصارنا حتى فى اصعب الايام من تشرين الاول - تشرين الثانى عام ١٩٤١ . ويومذاك بدأت فى زيمينكي (على مقربة من مدينة غوركى على شاطئ الفولغا) قصتى الدرامية «ايفان الرهيب» . فكانت ردا على المهانة التى عرض الالمان وطنى لها . فاخرجت من العدم الروح الروسية الملتهبة - ايفان الرهيب - لاسلح «ضميرى المضطرم» . وواصلت كتابتى المقالات ، وأنا اعمل فى هذه المسرحية ، ومن بين اكثر هذه المقالات صدى :

«وايه ، ايتها الارض الروسية !..»
من قصيدة ملحمية قديمة بعنوان
«حديث عن فصيلة ايغور»

١

ان اى انسان غريب على بطرسبورغ يدخلها بعين مراقب من احد الشوارع الضيقة المعرشة بأشجار الزيزفون لأية بلدة نائية سينتابه ، فى لحظة الانتباه ، شعور معقد من الانفعال الذهنى والانسحاق النفسى .

انه يجوب شوارع مستقيمة ضبابية ، ويمر ببيوت كئيبة ذات نوافذ داكنة ، على بواباتها حجاب ناعسون ، ويطيل النظر الى انبساط نهر النيفا الغزيرة المياه العابسة ، والى الخطوط المزرقة للجسور ذات المصابيح التى تضاء قبل هبوط الظلام ، والقصور غير المريحة الخالية من البهجة المزينة واجهاتها بالاعمدة ، ويتطلع الى كتدرائية بطرس وبولس بارتفاعها الشاهق غير المالوف للهندسة الروسية والى القوارب البائسة المترائية فى الماء الداكن ، والى المراكب التى لا حصر لها مثقلة بالخشب الرطب ، وممتدة على الشطئان الغرانيتية ، ثم ينقل بصره فى وجوه المارة الشاحبة المهمومة ذات العيون الكدرة كدرة المدينة ذاتها ، ان هذا المراقب الدخيل بعد ان يمتلأ بصره وسمعه بكل ذلك سيخفى راسه عميقا فى ياقته ، اذا كان حسن النية ، اما اذا كان سيئ النية فانه سيتصور ان افضل شيء ان تسدد ضربة قاضية على كل هذه الفتنة الجامدة وتمزق اربا .

ذات مرة فى عهد امبراطور بطرس الاول تملك الرعب الشديد شماسا من كنيسة ترويتسكايا القائمة حتى الآن على مقربة من جسر ترويتسكى ، حين راى فى الظلام ، وهو نازل من برج الجرس ، شبح ساحرة نحيلة حاسرة الرأس ، وفيما بعد صرخ فى حانة :

كانت بطرسبورغ ، مثل اية مدينة اخرى ، تعيش حياتها الخاصة المتوترة المثقلة بالهموم . وكانت القوة المركزية فيها توجه هذه الحياة ، الا انها لم تكن مندمجة مع ما يمكن ان يدعى بروح المدينة : لقد كانت القوة المركزية تسعى الى استتباب النظام ، والهدوء ، والعقلانية ، بينما كانت روح المدينة تسعى الى تحطيم هذه القوة . وكانت روح التهديم منتشرة فى كل مكان تغذى بالسم الفتاك المضاربات الهائلة فى البورصة لساكيلمان الشهير ، والحنق القاتم فى نفس العامل فى مصنع الفولاذ ، والامنيات الشوهاء لشاعرة على الموضة جالسة حتى الساعة الخامسة صباحا فى قبو «الاجراس الحمراء» للفنانين . وحتى اولئك الذين كان عليهم ان يكافحوا هذا التهديم كانوا دون وعى منهم ياتون كل شىء لتسعيره وزيادة حدته .

ذلك زمن كان فيه الحب ، والمشاعر الطيبة والسليمة تعتبر ابتذالا ومن مخلفات الماضى ، وكان الناس فيه لا يحبون ، بل يشتهون الحب ، ويتهالكون ، كالمسمومين ، على كل ما هو حاد ومثير للالم فى بواطنهم .

كانت الفتيات يخفين بكارتهن ، والازواج وفاءهم . وكان التهديم يعتبر امارة على حسن الذوق ، والاعياء العصبى علامة على رهافة الحس . وكان المروجين لذلك كتاب على الموضة كانوا يبزغون من العدم خلال موسم واحد . وابتكر الناس لأنفسهم الموبقات والانحرافات لمجرد انهم لا يريدون ان يعتبروا عاديين .

تلك هى بطرسبورغ فى عام ١٩١٤ . كانت منهوكة بليالى السهر ، تغرق سامها بالخمور والذهب ، والحب الفارغ ، بانغام التانغو الممزقة لنياط القلب والحسية اللامتناهية – رقصة الموت – فكانها كانت تعيش على انتظار يوم مهلك رهيب . وكانت لذلك بوادره : فان شيئا جديدا غامضا كان يتسلل من كل الشقوق .

٢

– . . . نحن لا نريد ان نتذكر شيئا . نحن نقول : كفى ، ولندر ظهورنا الى الماضى ! ومن وراء ظهرى ؟ فينوس دو ميلو ؟ وهل هذه يمكن ان تؤكل ؟ ام تستطيع ان تطيل وتنمى شعرى ؟

انا لا افهم لماذا انا بحاجة الى هذا العملاق الرخامى ؟ ستقول انه الفن ، الفن . كفى ! اما تزال معجبا بدغدغة هذه الفكرة لك ؟ انظر الى يمينك وشمالك ، والى امامك ، وفى موضع قدميك . انك تحتذى حذاء امريكيا ! عاشت الاحذية الامريكية ! ان الفن هو سيارة حمراء ، واطارات من المطاط ، وصفيحة من البنزين ، وسبعون ميلا فى الساعة . فان ذلك يثير فى نفسى التهام المسافات . والفن ايضا اعلان مساحته ستون ذراعا يصور فتى انيقا عليه قبعة عالية مشعة كالشمس . والفن خياط فنان ، عبقرى يومنا هذا ! انا اريد ان التهم الحياة ، وانت تطعمنى ماء سكر يوصف لمن يعانون من الضعف الجنسى . . .

ارتفع ضحك وتصفيق من نهاية القاعة الضيقة وراء الكراسى ، حيث كان طلاب من الدورات الدراسية ومن الجامعة يقفون متزاحمين . عدّل المتحدث سيرغى سيرغييفيتش سابوجكوف من وضع نظارته الأنفية الناطة على أنفه الكبير ، متبسما من فم مبلل ، وهبط درجات المنبر البلوطى الكبير بحركة رشيقة .

كان اعضاء «جمعية الامسيات الفلسفية» يجلسون على جانب من القاعة وراء منضدة طويلة يضيؤها شمعدانان خماسيا الشموع وهؤلاء هم رئيس الجمعية انتونوفسكى الاستاذ فى اللاهوت ، ومحاضر اليوم المؤرخ فليامينوف ، والفيلسوف بورسكى ، والكاتب الماكر ساكونين .

وكانت «جمعية الامسيات الفلسفية» قد تعرضت فى هذا الشتاء الى هجوم شديد من جانب شبان مغمورين ولكنهم ذوو السنة لاذعة ، هاجموا الكتاب الموقرين ، والفلاسفة المحترمين بضراوة عنيفة ، وقالوا اشياء جريئة ومغرية جعلت الفيلا القديمة مقر الجمعية فى شارع فونتانكا تغص بالناس ايام السبوت ، حين تكون الدعوة مفتوحة للجميع .

وهذا ما حدث اليوم ايضا . عندما اختفى سابوجكوف فى الحشد وسط تصفيق صعد الى المنبر اكوتدين ، وهو رجل قصير ذو جمجمة حليقة الشعر ناتئة ، ووجه فتى اصفر بارز الوجنتين . كان حديث العهد فى الحضور الى مثل هذه الامسيات ، واقر الحظ من النجاح ولا سيما فى الصفوف الخلفية من القاعة . وكان العارفون

يبتسمون بغموض حين يتساءل المتسائلون : مَن هذا ومن اين جاء ؟ وعلى اية حال لم يكن اكونديين اسمه الاصلى ، وقد جاء من خارج الحدود ، ولم يكن تحدثه فى هذه الامسيات يخلو من غرض .

اجال اكونديين بصره فى القاعة التى خيم عليها السكون وهو يداعب لحيته الهزيلة الشعر ، واخذت شفتاه تنشقان عن بسمة خفيفة، وشرع يتحدث .

فى تلك الاثناء كانت فتاة شابة تجلس فى صف المقاعد الثالث عند الممر الاوسط تسند ذقنها بجمع يدها . كانت ترتدى فستانا اسود من الجوخ عاليا حتى العنق . وكان شعرها الناعم الرمادى مرفوعا فوق اذنيها ، ومعقوصا فى عقصة كبيرة ، يسندها مشط . كانت الفتاة تتمعن فى الجالسين وراء المنضدة الخضراء دون ان تتحرك ولا تبتسم ، واحيانا كانت عيناها تستقران على الشموع .

وعندما ضرب اكونديين المنبر البلوطى ، وصاح : «الاقتصاد العالمى يوجه اول ضربة من قبضته الحديدية الى قبة الكنيسة» زفرت الفتاة زفرة خفيفة ، وانزلت قبضتها من تحت ذقنها المحمر قليلا فى اسفله ، ووضعت قطعة ملبس فى فمها .

وتكلم اكونديين :

— ... وانتم ما تزالون تحلمون احلاما غامضة عن ملكوت الرب على الارض . بينما **هو** ماض فى سباته رغم كل جهودكم . ام لعلكم تاملون انه سيستيقظ فى آخر الأمر ، ويتكلم مثل اتان بلعام* ؟ اجل ، **انه** سيستيقظ ، ولكن لا على اصوات شعرائكم المعسولة ، ولا على دخان المباخر . بل ان صافرات المصانع وحدها قادرة على ايقاظ الشعب . انه سيستيقظ ، ويتكلم وسيكون صوته غير مريح لاسماعكم . ام لعلكم تعتمدون على سباتكم وجهالتكم ؟ اذكر لكم انكم تستطيعون ان تسدروا فيهما نصف قرن آخر . ولكن اياكم ان تسموا ذلك الخلاص المنتظر . ان ذلك ليس هو المستقبل بل الماضى . هنا فى بطرسبورغ فى هذه القاعة الفاخرة اختلقوا الفلاح الروسى على اوهامهم ، وكتبوا عنه مئات المجلدات ،

*حسب الانجيل تكلمت اتان بلعام بصوت انسانى احتجاجا على ضربات انزلت عليها . (المترجم) .

والفوا الاوبرات . وانا اخشى ان تنتهى هذه التسليـة بدم كثير يراق ...

الا ان رئيس الجمعية اوقف الخطيب فى هذه اللحظة . ابتسم اكونديين ابتسامة باهتة ، واخرج من جيب سترته منديلا كبيرا ، ومسح جمجمته ووجهه بحركة معتادة . وصدرت اصوات من اقصى القاعة :

— دعه يتكلم !

— من الفظاظة ان يغلق فم انسان .

— هذه سخرية !

— اسكتوا ، ايها الجالسون فى الخلف !

— اسكتوا انتم !

واستمر اكونديين يقول :

— ... الفلاح الروسى نقطة تجذب افكار الكثيرين . اجل . ولكن اذا لم تكن هذه الافكار مرتبطة ارتباطا عضويا بمطامحه العريقة ،وبمفهومه الفطرى عن العدالة وهو مفهوم الانسانية جمعاء ، فانها ستقع كما تقع البذور على الصخور . وطالما بقى الناس لاينظرون الى الفلاح الروسى كانسان ذى معدة خاوية ، وظهر موقر بالعمل ، ولا يجردونه من خصائصه المسيحية التى الصقها به بعض السادة فى حقبة من الزمن ، فسيبقى القطبان على وجودهما المأساوى : افكاركم الفخمة التى ولدت فى ظلام المكاتب ، والشعب الذى لا تريدون ان تعرفوا شيئا عنه . . . ونحن هنا لا نريد حتى ان نوجه نقدا حقيقيا لكم . فسيكون غريبا ان نضيع الوقت فى اعادة النظر فى هذه الكتلة الضخمة – هذه النزوات الانسانية . لا ، بل نقول لكم انقذوا انفسكم قبل فوات الاوان . لأن افكاركم وكنوزكم ستلقى فى مزبلة التاريخ دونما أسف . . .

لم تجد الفتاة ذات الفستان الاسود فى نفسها الرغبة لتفكر فيما قيل من على المنبر البلوطى . فقد كان يبدو لها ان جميع هذه الاقوال والمناقشات مهمة جدا بالطبع ، وكثيرة الدلالة ، الا ان الاكثر اهمية شيء آخر لم يتحدث عنه هؤلاء الناس . . .

وفى غضون ذلك ظهر رجل آخر وراء الطاولة الخضراء . جلس متمهلا الى جانب الرئيس ، واحنى راسه يمينا وشمالا بالتحية ،

ثم مرّر يده المحمرة على شعره الكتانى المبلل من الثلج . وبعد ان اخفى يديه تحت الطاولة جلس منتصبا فى سترته السوداء الضيقة جدا . كان لهذا الرجل شعر طويل وكثيف مثل قبعة ، ووجه نحيل كامد له حاجبان مقوسان ، تحتهما عينان رماديتان وسيعتان محاطتان بظلين . بيسونوف كان نسخة طبق الاصل للصورة التى نشرتها له مجلة اسبوعية فى عددها الاخير .

والآن لم تعد الفتاة ترى غير هذا الوجه الجميل بشكل يبعث على النفور . كانت تتمعن بما يشبه الرعب فى تلك التقاطيع الغريبة التى كثيرا ما راودت احلامها فى ليالى بطرسبورغ العاصفة .

ها هو الآن قد قرب اذنه من جاوه ، وابتسم بسمة مشوبة بسذاجة ، ولكن الغرور والعجرفة ، وشيئا آخر لم تستطع ان تتبينه ، وان كان اشد ما يثير قلقها لاح فى منحنيات منخريه الدقيقين وحاجبيه المفرطين انوثة ، وفى تلك الجاذبية الناعمة الخاصة المطلة من وجهه .

وفى اثناء ذلك كان المحاضر فليامينوف ، وهو رجل احمر الوجه مرسل اللحية ، ذو نظارة مذهبة وخصلات ذهبية شائبة تحيط بجمجمته الكبيرة يرد على اكونديين قائلا :

– انت محق احقية الانهيار الجليدى فى تدهوره من الجبال . ونحن ننتظر منذ زمن بعيد حلول العهد الرهيب ، ونتنبأ بانتصار حقيقتكم .

انتم ستتغلبون على عناصر الطبيعة ، لا نحن . ولكننا نعلم ان العدالة المثلى التى تصرخون لدعوتها بصفارات المصانع لن تكون الا كومة من حطام ، وفوضى يتيه فيها انسان مصعوق . ان هذا الانسان سيقول «انا عطشان» لأنه سيكون خلوا من اية قطرة من الفيض الآلهى . فحذار ، – وهنا رفع فليامينوف اصبعا طويلة كالقلم ، وراح ينظر الى صفوف المستمعين بحدة من خلال نظارته ، – انتم تريدون ان تحولوا الانسان فى الجنة التى تحلمون بها وباسم هذه الجنة الى آلة حية ، الى رقم كذا – الانسان الى رقم – وفى هذه الجنة الرهيبة يكمن خطر ثورة جديدة ، افظع كل الثورات ، ثورة الروح .

فقال اكونديين من مكانه ببرود :

– تحويل الانسان الى رقم هو مثالية ايضا .

مال فليامينوف على الطاولة ونشر ذراعيه فوقها فالقت الشموع لمعانا على صلعته . اخذ يتحدث عن الخطيئة التى سيتردى العالم فيها ، وعن القصاص الرهيب المقبل . وسرت نحنحة فى القاعة .

حلت فترة الاستراحة فخرجت الفتاة الى المشرب ، ووقفت فى بابه معبسة ومستقلة بنفسها . كان بعض المحامين وزوجاتهم يشربون الشاى ، ويتحدثون باصوات اعلى من اصوات الآخرين . وكان الكاتب الشهير تشيرنوبيلين ياكل السمك بمرق التوت قرب الموقد مديرا عينيه الخبيثتين الشملتين على الرائحين والغادين بين لحظة واخرى . وعند منصة المشرب وقفت سيدتان فى منتصف العمر من المشتغلات فى الادب لهما عنقان قذران وعقدتان كبيرتان على راسيهما تلوكان الشطائر . وكان القساوسة يقفون فى منأى وبتقوى ولا يختلطون بأهل الدنيا . بينما وقت تحت الثريا رجل وخَط الشيب شعره المنقوش بافراط وقد طوى ذراعيه خلفه تحت سترته الطويلة مهتزا على كعبيه . انه الناقد تشيرقا ينتظر ان يتقدم احد من الناس اليه . دخل فليامينوف ، فاندفعت احدى السيدتين الاديبتين نحوه ، وتشبثت بكمه ، وكفت الاخرى عن مضغ الطعام ، ونفضت عنها الفتات ، واحنت رأسها ، ووسعت عينيها . فقد تقدم بيسونوف منها موزعا الانحناءات المؤدبة من رأسه ذات اليمين وذات الشمال .

احست الفتاة ذات الفستان الاسود بكل جلدها ان الاديبة قد انكمشت بشدة داخل مشدها النسائى . قال بيسونوف شيئا لها ببسمة كسلى . فبسطت هذه ذراعيها الممتلئتين ، وضحكت مقلّبة عينيها .

هزت الفتاة كتفها ، وتركت المشرب . سمعت من يناديها . كان شاب اسمر نحيل فى سترة من المخمل يشق الجمع نحوها . انحنى لها فرحا ، وغضّن انفه امارة على الغبطة ، وامسك يدها . كانت كفه رطبة ، وعلى جبينه تدلّت خصلة مبللة من الشعر ، بينما كانت عيناه السوداوان الطويلتان تنظران اليها برقة طرية . ان هذا الفتى يدعى الكسندر ايفانوفيتش جيروف . قال لها :

– ما هذا ؟ ماذا تفعلين هنا ، يا داريا دميترييفنا ؟

– مثل ما تفعل انت .

ردت الفتاة عليه بذلك ، وحررت يدها منه ، ودستها فى الفراء الذى تدفئ فيه يديها ، ومسحتها بالمنديل الذى كان فى داخله .

قهقه الفتى ، وزادت نظرة عينيه رقة :

– عجيب اذا كان سابوجكوف لم يعجبك فى هذه المرة ايضا ! انه تكلم اليوم كنبى . وما يثيرك منه حدته وطريقته الفريـــدة فى التعبير . ولكن جوهر تفكيره ، اليس هو ما نريده فى سرنا ، ونخشى ان نبوح به ؟ بينما هو يملك الجراة على قوله . اسمعى :

كلنا شباب فى شباب
وفى المعدة جوع والتهاب
غدا سنلتهم السراب . . .

انه يا داريا دميتريبفنا شىء غير اعتيادى . جديد ، وجرىء . ليس من المعقول انك لا تحسين بذلك ! شىء جديـــد كل الجدة يشق طريقه ! انه منا ، جديد ، نهم ، جرىء . وكذلك اكوندين . حقا انه مفرط فى منطقيته ، لكنه جاد وجارح فى تعابيره . وما هو الا شتاء او شتاءان او ثلاثة من مثل شتائنـــا هذا حتى ينهـــار كل شىء ، ويتفتق ! عظيم جدا !

كان الشاب يتحدث بصوت خفيض ، مبتسما بحلاوة ونعومة .

واحست داشا * بان كل شىء فيه يرتعش ارتعاشا دقيقا ، وكانه من انفعال رهيب . احنت له رأسها دون ان تدعه يكمل كلامـــه ، وراحت تشق طريقها نحو مشجب المعاطف .

كان الحاجب الغاضب المزين صدره بالمداليات ، المو كل عن حفظ المعاطف مشغولا بتسلـــم المعاطف والكالوشات فلـــم يعر التفاتا الى داشا التى كانت تمد الفيشة له . كان عليها ان تنتظر طويلا ، وكان تيار من الهواء البارد يهب على قدميها من خلال باب دائما الانفتاح مفض الى رواق فارغ . وقف فيه حوذيـــة طوال فى قفاطين زرق مبللة يعرضون خدماتهم على الخارجين بمرح ووقاحة :

– على حصان سريع ، يا صاحب المقام !

---

* صيغة التحبب والتصغير لداريا ، وسترد هذه الصيغة كثيرا فيما بعد . (المترجم) .

– اركب معى ، الى منطقة بسكيه .

وفجاة صدر من وراء داشا صوت بيسونوف واضحا ، باردا :

– يا حاجب ، هات معطفى ، وقبعتى ، وعصاتى .

واحست داشا بمثل الأبر الدقيقة فى ظهرها . ادارت راسها بسرعة ، وحدقت بعينى بيسونوف . قابل بيسونوف نظرتها بهدوء كشىء يستحقه ، الا ان جفنيه رفا ، وظهرت نداوة حية فى عينيه الرماديتين ، وكانهما استسلمتا ، وشعرت داشا بخفقان قلبها .

قال بيسونوف وهو ينحنى لها :

– احسب اننا التقينا عند اختك ، ام انا مخطىء ؟

– نعم ، التقينا .

واختطفت معطفها من الحاجب ، وركضت الى المدخل الرئيسى .

وفى الخارج حركت الريح الرطبة الباردة ثوبها ، ورشقتها بقطرات صدئة . التفت داشا بياقتها الفرائية حتى عينيها . سبقها شخص ، وقال فى اذنيها : «يا للعينين !»

حثت داشا خطاها على الاسفلت المبلل ، عبر الاشرطة المهتزة من الضوء الكهربائى . وترامت الى سمعها انغام الكمان من بـــاب مطعم مفتوح . انها انغام للفالس جعلتهـــا تدندن مـــع نفسها مـــن خلال موقة الفراء الشعثاء التى تدفئ فيها يديها :

– ليس بالأمر السهل ، لا ، ابدا ، ابدا !

٣

سالت داشا خادمتها لوشا ، وهى تفك ازرار معطفها الفرائى المبلل :

– لا احد فى البيت طبعا ؟

وكانت لوشا تلقب بالمغولى العظيم لوجهها العريض الوجنتين كوجه صنم ، والمغطى بطبقة كثيفة من البودرة . اجابت لوشا بصوت نحيل وهى تنظر الى المرآة ، بان السيدة غائبة حقا ، الا ان السيد بالبيت فى غرفة مكتبه ، وانه سيتناول العشاء بعد نصف ساعة .

ذهبت داشا الى غرفة الجلوس ، وجلست الى البيانو ، ووضعت ساقا على ساق ، وطوقت ركبتها بيديها .

ما دام نيقولاى ايفانوفيتش زوج اختها فى البيت ، فمعنى ذلك انه قد تشاجر مع زوجته ، وانه الآن وعق المزاج وسيشكو لها . والساعة الآن الحادية عشرة ، وليس لديها ما تفعله حتى الساعة الثالثة حين يراود النوم مقلتيها . فهل تزجى الوقت بالقراءة ؟ ولكن ماذا تقرا وليس لها من رغبة فى القراءة ؟ ام تظل جالسة تفكر ، وذلك ابهظ على نفسها . حقا ، ما أتعب الحياة فى بعض الاحيان !

زفرت داشا ، وفتحت غطاء البيانو ، وجلست مولية جنبها الى المفاتيح ، وراحت تسترجع فى يد واحدة لحنا لسكريابين . ان الانسان ليجد عسرا فى الحياة اذا كان فى سن غير مريحة كان يكون فى التاسعة عشرة ، ولا سيما اذا كان فتاة ، وذكية جدا ، وصارمة كثيرا ، بسبب من نقاء ابله ، مع اولئك الذين كانوا يبدون رغبتهم فى تبديد ضجر الفتاة ، وما اكثرهم !

فى العام الماضى وصلت داشا الى بطرسبورغ قادمة من سامارا لتدخل دورات الحقوق ، واقامت عند اختها الكبيرة يكاترينا دميتريفنا سموكوفنيكوفا التى كانت متزوجة من محام يتمتع بشهرة كبيرة ؛ فكانت حياتهما صاخبة ومرفهة .

كانت داشا اصغر من اختها بحوالى خمسة اعوام ، وكانت ما تزال صبية حين تزوجت اختها ، فكانت لقاءات الشقيقتين فى الاعوام الاخيرة قليلة ، والآن بدات بينهما علاقات جديدة : علاقات محبة عند داشا ، وعلاقات حنان عند يكاترينا دميتريفنا .

كانت داشا فى البداية تحاكى شقيقتها فى كل شىء ، وتعجب بجمالها ، وذوقها ، وقدرتها على التصرف مع الناس . وكانت تخجل فى حضرة اصدقائها ، ولكن حياءها كان يجعل كلامها لاذعا مع بعضهم . كانت يكاترينا دميتريفنا تسعى الى ان تجعل بيتها نموذجا للذوق والجدة التى لم تصل بعد بين عامة الناس . وكانت لا تترك معرضا دون ان تشهده ، وتشترى اللوحات لرسامين مستقبليين . ومن جراء ذلك كانت لها مع زوجها احاديث شديدة فى السنة الاخيرة ، لأن الزوج كان يحب اللوحة التى تنم عن فكرة عميقة ، بينما كانت الزوجة بكل حماسها النسوى تفضل ان تعانى فى سبيل فن جديد على ان تعتبر متاخرة فى الذوق .

وكانت داشا ايضا معجبة بتلك اللوحات الغريبة المعلقة على جدران غرفة الجلوس ، الا انها كانت تقول لنفسها مفحومة : ان هذه الشخوص المربعة بوجوهها الهندسية وبعدد من الايدى والارجل اكثر من اللازم ، وتلك الالوان الباهتة كالصداع ما هى الا نوع ثقيل هازئ من الشعر اعلى بكثير مما تستوعبه مخيلتها الخاملة .

جرت العادة ان تجتمع فى بيت آل سموكوفنيكوف كل ثلاثاء مجموعة من الضيوف صاخبة مرحة لتتناول العشاء فى غرفة الطعام المؤثثة برياش مصنوع من خشب القيقب . كان بينهم محامون من هواة الكلام ، وزيرة نساء ، ومتتبعون متحمسون للتيارات الادبية ؛ وصحفيان او ثلاثة علامون فهامون باصول ممارسة السياسة الداخلية والخارجية ؛ والناقد العصبى المزاج تشيرفا المبيِّت ابدا لكارثة ادبية اخرى . وفى بعض الاحيان كان ياتى فى وقت مبكر شعراء شبان كانوا يتركون دفاتر اشعارهم فى جيوب معاطفهم فى رواق البيت . وقبيل بدء العشاء كانت تصل شخصية شهيرة ، وتتقدم من ربة البيت على مهل ، وتتخذ مجلسها فى مقعد وثير بعظمة ووقار . واحيانا ، والعشاء فى منتصفه كان الضيوف يسمعون خشخشة كالوشين جلديين يخلعان فى الرواق ، وصوتا مخمليا يقول :

«السلام عليك ، ايها المغولى العظيم !» وبعد ذلك كان وجه حليق ذو خيشومين متدليين ، وجه فنان يمثل على الدوام دور العاشق ينحنى على كرسى ربة البيت ، ويقول :

– يا عزيزتى كاتيوشا * ، هاتى يدك !

كانت داشا تعتبر اختها الشخص الرئيسى فى هذه الحفلات ، وتحنق على مَن كان لا يعيرها اهتماما كبيرا ، وهى العذبة الطيبة ، الصافية القلب ، وتغار ممن يفرط فى التودد اليها . فتحدجه بعينين غاضبتين .

ثم اخذت داشا تنفذ بالتدريج الى هذا العدد المذهل من الوجوه . فصارت الآن تزدرى مساعدى المحامين ، اذ لم تر شيئا مهما فيهم عدا سترهم الطويلة الوبراء ، واربطتهم البنفسجية ،

* او كاتيا صيغة التحبب والتصغير لاسم يكاترينا . (**المترجم**) .

ومفارقهم عبر رؤوسهم كلها . كما كرهت الفنان العاشق ، لانها لم تر له الحق فى ان يسمى اختها يكاترينا بـ«كاتيوشا» ولا ان يدعو المغولى العظيم بلقبها البيتى هذا ، ولا ان يقول وهو يضيق عينيه المرتخيتين صوب داشا ، ويجرع كاس الفودكا :

«اشرب نخب شجرة اللوز المتفتحة !»

وكانت داشا تتميز غيظا كلما اقدم الرجل على ذلك .

كانت وجنتاها متوردتين حقا ، ولكنها لم تستطع التخلص من لون زهر شجرة اللوز هذا ، اللـون الملعـون ، فكانت وهى وراء المائدة تحس وكانها دمية خشبية ملونة .

ولـم تسافر داشـا فى الصيف الى ابيهـا فى سامارا المغبرة القائظة ، وقبلت بفرح ان تظل عند اختها على ساحـل البحر فى سيستروريتسك . فالتقت هنا بنفس الناس الذين التقت بهم فى الشتاء ، لكنهم كانوا يلتقـون اكثر من قبل راكبين القوارب ، سابحين ، جالسين فى الغابة ياكلون الدوندرمه . وفى الاماسى كانوا يستمعون الى الموسيقى ، ويتناولون عشاءهم تحت النجوم ، فى شرفة الكازينو مضوضئين صاخبين .

وكانت يكاترينا دميتربيفنا قد اوصت لداشا على ثوب ابيض مطرز بالساتـان ، يتوسطـه نطاق حريرى عريض ينتهى بعقدة كبيرة عند ظهرها ، وقبعة كبيرة من الكريشة البيضاء محاطة بشريط اسود . واذا بداشا تجد نفسها موضع حب نكانـور يوريفيتش كوليتشيك مساعد زوج اختها ، وكانه فتحوا عينى هذا الرجـل فجاة .

الا انه كان من «المحتقرين» . وتميزت داشا غيظا ، ودعته الى الغابة ، ودون ان تتركه يتفوه بكلمة واحدة فى الدفاع عـن نفسه (كل ما استطاع هو ان مسح بمنديل يشد عليه قبضتـه) قالت له انها لن تسمح لأحد بان ينظر اليها كـ«انثى» ، وانها حانقة ، وتعتبر شخصا ذا مخيلة فاسقة ، وانها ستشكوه اليوم حالا الى زوج اختها .

وقد شكت الى زوج اختها فى ذلك المساء ذاته . اصغـى نيقولاى ايفانوفيتش الى قصتها كلها ، وهو يمسد لحيته المعتنى بها جيدا ، ناظرا بدهشة الى وجنتيها المتوردتين من الغيظ ، والى

قبعتها الكبيرة المهتزة غيظا ، والى كل قوامها الرشيق فى ثوبهـا الابيض ، ثم جلس على الرمل عند الماء ، وراح يقهقه حتى اخرج منديله من جيبه ، ومسح به عينيه قائلا :

– اذهبى ، يا داريا ، اذهبى ، ستجعلينني اموت مـن الضحك !

فانصرفت داشا غير فاهمة شيئا ، فى حيرة وارتباك . ومنذ ذلك الحين لم يجرا كوليتشيك على ان يرفع عينيه الى داشا ، وقد نحل ومال الى الوحدة . وانقذ شرف داشا . الا ان هذه القصة كلها اثارت فجاة مشاعر كانت غافية فى اعماق عذريتها . واختل التوازن الرقيق ، وكان ذاتا اخرى خانقة ، حالمة ، عديمة الشكل ، كريهة قد نمت فى جسم داشـا كله من الراس حتى اخمص القـدم . فاستشعرته بكل جلدها ، وتعذبت وكانما من دنس ، واستولت عليها الرغبة فى ان تزيل عن نفسها نسيج العنكبوت غير المرئى هذا وتعود من جديد غضة ، متبردة ، خفيفة .

وصارت تقضى ساعات بكاملها فى لعب التنس ، وتسبـح مرتين فى اليوم ، وتستيقظ فى الصباح الباكر حين تكون قطـرات الندى الكبيرة ما تزال متلالئة على اوراق الشجر ، والبخار يتصاعد من البحر الليلكى ، الصقيل كالمرآة ، المقاعد الندية موزعة عـلى الشرفة الفارغة ، والممرات الرملية الرطبة مكنوسة .

الا ان تلك الذات الثانية كانت ترتد حية بعد ان تتدفا فى الشمس ، او فى الفراش الناعم ليلا ، وتتسلل الى قلب داشا بحذر ، وتعصرها بيدها الطرية . وكان من المستحيل اقصاؤها عنها ، او ازالتها ، تماما مثل الدم على المفتاح المسحور فى حكاية اللحيـة الزرقاء .

وصار جميع المعارف ، واختها الاولى بينهم ، يرون داشا قد رقت محاسن فى هذا الصيف وهى تزداد حسنا كل يـوم . وذات صباح جاءت يكاترينا دميتربيفنا الى شقيقتها ، وقالت :

– ماذا سيكون علينا ان نفعل بعد الآن ؟

– ما الأمر ، يا كاتيا ؟

جلست داشا فى قميص النوم على السرير ، ولوت شعرها فى عقدة كبيرة .

– انت تزدادين حسنا ، فماذا سنفعل بعد هذا ؟

حدقت داشا الى شقيقتها بعينيها الصارمتين المظللتين برموش طويلة ، واعرضت عنها . ولون الدم وجنتيها واذنها .

– لا اريد ، يا كاتيا ، ان تتحدثي معي على هذا النحو . فان ذلك يضايقني . أتفهمين ؟

جلست يكاترينا دميتريفنا على السرير ، وضغطت خدها على ظهر داشا العاري ، وضحكت مقبلة شقيقتها ما بين دفتي كتفيها . وقالت :

–ما اسرع الغضب اليك ! من انت ؟ قنفذ او هرة برية ؟

ذات مرة ظهر في ساحة التنس رجل انجليزي نحيل ، حليق ، بارز الذقن ، طفولي العينين ، في قيافة لا شائبة فيها جعلت بعض الشبان من بطانة يكاترينا دميتريفنا في جزع من امرهم . دعا الانجليزي داشا الى اللعب ولعب معها كالآلة . وبدا للفتاة ان ملاعبها لم يلق نظرة عليها خلال اللعب كله . بل كان ينظر خلالها . وخسرت داشا اللعبة ، وعرضت عليه ان يلاعبها مرة اخرى . طوت داشا كمي بلوزتها البيضاء لتكون اخف حركة . وخلال اللعب تدلت خصلة شعر من تحت طاقيتها من البيكه ، ولكن داشا لم تعدها الى موضعها . وفكرت في سرها وهي تصد الكرة بضربة قوية قرب الشبكة تماما : .

«للفتاة الروسية البارعة رشاقة لا تلمع في كل حركاتها ، وتورد الوجنتين يلائم محياها» .

وربح الانجليزي اللعبة الثانية ايضا ، وانحنى لداشا بمنتهى الجفاف . واشعل سيكارة شذية الرائحة ، وجلس على مقربة ، بعد ان طلب لنفسه قدحا من شراب الليمون .

ولعبت داشا اللعبة الثالثة مع طالب مدرسة مشهور ، فكانت اثناء اللعب تلقي من طرف عينيها نظرات على الانجليزي ، فتراه جالسا وراء طاولة صغيرة وقد وضع ساقا على ساق وطوق بيديه رسغ قدمه بجوربها الحريري ، ودفع قبعة القش الى مؤخرة راسه ، وراح يحدق في البحر دون التفات .

وفي الليل ، حين كانت داشا مضطجعة على سريرها استرجعت كل ذلك ، متصورة نفسها بوضوح وهي تقفز في ساحة اللعب ،

محمرة الوجه ، متهدلة خصلة الشعر ، فاذا بها تبكي من كبريائها الجريحة ، ومن شيء آخر كان اقوى منها .

وكفت عن الخروج الى التنس منذ ذلك اليوم ، حتى قالت لها يكاترينا دميتريفنا ذات مرة :

– يا داشا ، ان مستر بيلس يسال عنك كل يوم لماذا كففت عن اللعب ؟

فغرت داشا فاها من شدة الفزع . ثم قالت حانقة انها لا تريد ان تسمع «اقاويل حمقاء» ، وانها لا تعرف شخصا بهذا الاسم ، ولا تريد ان تعرف ، وهو ، بصراحة ، وقح اذا كان يتصور انها بسببه قد كفت عن الاشتراك في «لعبة التنس الحمقاء هذه» .

ورفضت داشا الخروج الى الغداء ، ووضعت في جيبها خبزا وحبات من عنب الثعلب ، وخرجت الى الغابة . وبينما كانت تتمشى في ذلك الحرش الصنوبري الفواح برائحة صمغ حار ، بين الاشجار الطويلة الحمراء الجذوع باعاليها المتمايلة مع حفيف الريح قررت مع نفسها ان اية امكانية لم تبق للتمادي في اخفاء الحقيقة المؤسفة : غرامها بالانجليزي ، وتعاستها اليائسة .

وهكذا نما الشخص الثاني في نفس داشا ، رافعا راسه شيئا فشيئا . في بادىء الأمر كان وجوده كريها كالدنس ، مؤلما كالدمار . وبعد ذلك تعودت داشا هذه الحالة المعقدة ، مثلما تتعود النساء في الشتاء على المشد والثياب السميكة بعد انتهاء الصيف والنسيم الطري ، والماء المنعش ببرودته .

وقضت داشا اسبوعين في حبها الأنوف للانجليزي . كانت تكره نفسها ، وتحنق على هذا الرجل . وقد رأته عدة مرات من بعيد يلعب التنس بتكاسل وبراعة ، ويتعشى مع البحارة الروس ، فكانت تقول لنفسها انه اكثر رجال الارض جاذبية على الاطلاق .

الا ان فتاة فارعة الطول نحيلة ترتدي لباسا من الفانيلة البيضاء ، ظهرت الى جانبه فجأة . انها خطيبته الانجليزية . واذا بهما يرحلان . وقضت داشا ليلة مؤرقة ، وبغضت نفسها بغضا مشوبا باشمئزاز ضار . وقبيل الصباح قالت لنفسها : لتكن هذه آخر غلطة في حياتي .

وهدأت بهذا التفكير ، بل وادهشها ، فيما بعد ، ان يزول

كـل ذلك بمثل هذه السرعـة والسهولـة . ولكن لم يزل كـل شيء . فقد اضحت تحس الآن وكأن «الشخص الثانى» ذاك قد اندمج فيها ، وذاب فى داخلها ، واختفى ، وهى الآن فتاة اخرى : انها كما كانت من قبل خفيفة ، غضة ، ولكن كيانها كله كأنما اضحى اطرى وأرق ، واكثر غموضا ، وبشرتها اضحت اشف ، حتى انها لم تتعرف على وجهها فى المرآة . ثم ان عينيها بوجه خاص ، عينيهـا الرائعتين اضحتا عينين أخريين ، اذا نظر المرء فيهما صعد الدوار الى رأسه .

فى اواسط آب انتقل آل سموكوفنيكوف مع داشا الى شقتهما الكبيرة فى شارع بانتليمونوفسكايا بطرسبورغ . وعادت من جديد حفلات العشاء ايام الثلاثاء ، ومعارض الصور او حفلات العرض الاول الصاخبـة فى المسارح ، ودعاوى الفضائح فى المحاكـم ، وشراء اللوحات ، وتفخيم الماضى ، والرحلات الليلية الى الفجر فى مطعم «سمرقند» . وظهر الفنان العاشق من جديد وقد القى عن جسمه فى مصح المياه المعدنية ثلاثة وعشرين رطلا . واضيفت الى كل هذه المسرات اللاغبة شائعات مبهمة ، مثيرة وسارة عن حدوث تحول وشيك .

ولم يعد لداشا متسع من الوقت للتفكير ولا للشعور : فى الصباح كانت تختلف الى المحاضرات ، وفى الساعة ، الرابعة تخرج للتنزه مع اختها ، وفى المساء للمسارح والحفلات الموسيقيـة ، والدعوات الى العشاء ، والناس ، ولا دقيقة واحدة تخلو فيها الى نفسها .

وفى امسية من امسيات الثلاثاء ، بعد ان فرغ الضيوف من العشاء ، وراحوا يحتسون خمرة «الليكور» دخل الكسى الكسييفيتش بيسونوف غرفة الجلوس ، ولما وقع بصر يكاترينا دميتريفنـا عليه قرب الباب صبغت وجهها حمرة قانية . وقطـع الضيوف حديثهم المشترك . جلس بيسونوف على الأريكة ، وتناول فنجان القهوة من يد يكاترينا دميتريفنا .

جلس بالقرب منه محاميان ، هما من المتضلعين فى الادب ، الا ان بيسونـوف ابتدر يقول على غرة ، وهو يرمـق ربـة البيت بنظرة طويلة غريبة ، ان الفن لا وجود له على الاطلاق ، بل هناك دجل ، وشعوذة حاو يجعل قردا يتسلق السماء على حبل .

«ولا يوجد شعر ، ان كل شيء قد انقرض منذ زمان قديم : الناس ، والفن . اما روسيا فهى فطيسة يحوم عليها سرب مـن الغربان فى وليمة للغربان . وجميع الذين يكتبون الشعر سيدخلون جهنم» .

كان يتكلم بصوت واطئ النبرة خال من الرنين ، وتـوردت بقعتان على وجهه الحانق الشاحب . وكانت ياقة قميصه مدعوكة ، ورماد السيكائر متناثرا على سترته . وكانت القهوة تنسكب على البساط من القدح الصغير الذى يمسكه .

كان متضلعا الادب يريدان اثارة جدال ، الا ان بيسونوف ظل يتابع يكاترينا دميتريفنا بعينين غشتهما دكنـة ، دون ان يعيرهما التفاتا . ثم نهض وتقدم نحوها ، وسمعت داشا قوله :

— انا لا اطيق مجتمع الناس ، فاسمحى لى بالانصراف .

طلبت اليه يكاترينا دميتريفنا بوجل ان يقرأ شيئا . فهز رأسه ، ووقف طويلا ضاغطا يدها الى شفتيه ، يودعها ، حتى احمر ظهرها احمرارا شديدا .

وبدأ النقاش بعد انصرافه . اجمع الرجال على ان : «هناك حدودا ، على اية حال ، ولا يجوز له ان يحتقر مجتمعنا بهذا الشكل السافر» . وتنقل الناقد تشيرفا من واحد الى آخر ، وهو يكرر : «ايها السادة ، انه سكران كليا» . واتفقت السيـدات على ان «بيسونوف سواء اكان سكران ام منساقا مع مزاجه الخاص فانه رجل مثير على حد سواء ، وليكن ذلك معلوما للجميع» .

فى اليوم التالى قالت داشا عند الغداء انها تعتبر بيسونوف واحدا مـن اولئك الاشخاص «الحقيقيين» تعيش حلقة يكاترينـا دميتريفنا باسرها على انفعالاته ، وآثامـه ، وذوقه ، وكأنما على الضوء المنعكس منه . «انا افهم ، يا كاتيا ، ان مثل هذا الرجل يمكن ان يفقد المرأة صوابها» .

ارتبك نيقولاى ايفانوفيتش وقال : «مجرد ان شهرته قـد صعقتك ، يا داشا» . واعتصمت يكاترينا دميتريفنا بالصمت . ومنذ ذلك الحين لم يزر بيسونوف آل سموكوفنيكوف . وشاع انه يطيل البقاء فى غرفة الممثلة تشارادييفا وراء كواليس المسرح . وذهب كوليتشيك مع اصحابه ليروا تشارادييفا نفسها ، فاصيبوا

بخيبة ظن ، فقد كانت نحيلة كالهيكل العظمى مجرد تنورات مدنتلة .

ذات مرة التقت داشا ببيسونوف فى احد المعارض . كان واقفا عند النافذة يتصفح فهرس المعرض بلا مبالاة ، بينما وقفت امامه طالبتان قميئتان تنظران اليه بابتسامتين خامدتين ، وكأنهما امام تمثال فى متحف الشمع . مرت داشا به بطيئة الخطى ، ودخلت القاعة الأخرى وجلست على مقعد ، فقد شعرت بتعب فى قدميها ، وبكآبة .

وبعد هذا الحادث اشترت داشا تصوير بيسونوف ، ووضعته على الطاولة . وقصائده – المجموعة فى ثلاثة دواوين صغيرة بيضاء الغلاف – قد تركت فى نفسها بادئ الأمر شعورا بالتسمم : قضت ثلاثة ايام غير متمالكة شعورها ، وكأنها اضحت شريكة فى قضية سرية خبيثة . الا انها بعد ان اعادت قراءة قصائده صارت تجد متعة فى تلك الاحاسيس الموجعة بالذات وكان احدا يهمس لها داعيا اياها لان تفقد صوابها وترتخى ، وتنثر شيئا ما غاليا ، وتحن الى شىء لن يكون .

وبسبب بيسونوف اخذت تتردد على جمعية «الامسيات الفلسفية» . وكان بيسونوف يأتى الى الجمعية فى وقت متأخر ، ويتحدث بندرة ، الا ان داشا كانت تعود الى البيت فى كل مرة مستثارة وكانت مسرورة اذا رات فى البيت ضيوفا . صمتت كبرياؤها المهانة .

واليوم كان عليها ان تسترجع الحان سكريابين فى وحدة . كانت الأصوات ، كالكرات الثلجية ، تتساقط ببطء فى داخل صدرها ، نافذة الى اعماق تلك البحيرة المظلمة التى لا قعر لها ، وحين كانت تسقط كانت تغضن سطح الماء وتغرق . وبصير الماء بين مد وجزر ، وفى الظلمة الساخنة ، يدق القلب دقا اجوف مذعورا ، وكأن شيئا مستحيلا سيحدث عاجلا ، الآن ، فى هذه اللحظة .

ارخت داشا ذراعيها على ركبتيها ، ورفعت راسها . فى الضوء الهادئ لظليلة المصباح البرتقالية كانت وجوه قرمزية ، منتفخة ، ذات عيون جاحظة تطل من الجدران ، وكأنها اشباح فوضى ما

قبل الطوفان ، المتشبثة بعطش بسياج جنة عدن فى اليوم الاول للخليقة .

قالت داشا لنفسها : «نعم ، يا مولاتى ، ان قضيتنا لخاسرة» . وتحركت اصابعها سريعة فى سلم موسيقى من اليسار الى اليمين ، ثم انزلت غطاء البيانو دون ان تحدث صوتا ، واخرجت سيكارة من علبة يابانية ، واشعلتها . وسعلت ، وسحقتها فى النفاضة .

صاحت داشا بصوت يمكن ان يسمع عبر اربع حجرات :

– يا نيقولاى ايفانوفيتش ، كم الساعة ؟

سقط شىء فى المكتب ، ولم تتلق داشا جوابا . ظهرت «المغولى العظيم» ، واعلنت ، وهى تتطلع الى نفسها فى المرآة ، ان العشاء جاهز .

جلست داشا فى غرفة الطعام امام زهرية فيها زهور ذابلة . واخذت تقطعها بأصبعها فتتساقط اوراقها على مفرش المائدة . قدمت «المغولى العظيم» الشاى ، واللحم البارد ، والبيض المقلى ، واخيرا جاء نيقولاى ايفانوفيتش فى بدلة زرقاء جديدة ، ولكنها بدون ياقة . وكان شعره غير مصفف ، ولحيته مائلة الى اليسار ، وقد تعلقت فيها ريشة من وسادة الاريكة .

انحنى نيقولاى ايفانوفيتش لداشا عابسا ، وجلس فى طرف المائدة ، وقرب منه مقلاة البيض ، وشرع يأكل بنهم .

وبعد ذلك اسند مرفقه الى حافة المائدة ، ووضع خده على قبضته الكبيرة المشعرة ، وثبت عينيه غير الرائقتين الى كومة الوريقات المقطوعة ، وقال بصوت واطئ غير طبيعى تقريبا :

– فى الليلة الماضية خانتنى اختك .

٤

ان شقيقتها ، كاتيا ، اقترفت شيئا رهيبا ، غامضا ، اسود . فى الليلة الماضية استقر راسها على وسادة ، وقد اعرض عن كل شىء حى ، عزيز ، دافئ ، بينما انسحق جسدها ، وتشوه . على هذا

النحو فهمت داشا ، وهى ترتعش فزعـــا ، ما سماه نيقولاى ايفانوفيتش خيانة . وفوق كل ذلك لم تكن كاتيا فى البيت ، كانما لم يعد لها وجود فى الدنيا .

فى الدقيقة الاولى كادت داشا تغيب عن الوجود ، واظلم بصرها . وانتظرت مكتومة الانفاس ان ينفجر نيقولاى ايفانوفيتش منتحبا ، او يصرخ بشىء مفزع . الا انه لم يضف كلمة اخرى الى ما اعلنه ، وراح يدير بين اصابعه حمالة الشوكات . ولم تجرؤ داشا على النظر فى وجهه .

وبعد فترة طويلة من الصمت دفع الكرسى عن المائدة بحركة حادة وذهب الى مكتبه . وقالت داشا لنفسها : «سيطلق النار على نفسه» . ولكن هذا ايضا لم يحدث . وتذكرت داشا بأسف حاد خاطف يده الكبيرة المشعرة على المائدة . ثم اختفى عن بصرها ، وظلت داشا تكرر : «ما العمل ؟ ما العمل ؟» ورن فى راسها : كل شىء ، كل شىء قد فسد وتحطم .

ظهرت «المغولى العظيم» من وراء ستارة الجوخ تحمل صينية ؛ نظرت داشا اليها ، وادركت فى الحال ان «المغولى العظيم» لن تكون بعد الآن . فاضت دموعها من عينيها ، وصكت اسنانها بقـوة ، وركضت الى غرفة الجلوس .

هنا ، كانت كل الاشياء ، حتى اصغر الدقائق ، قد رتبتها ووصفتها يـدا كاتيا فى رعاية وحب . الا ان روح كاتيا قد غادرت هذه الغرفة ، وانقلب كل شىء فيها حوشيا وخاليا مـن الحياة . جلست داشا على الأريكة ، واستقر بصرها بالتدريج على لوحـة اشتريت منذ وقت قصير . ولأول مرة رات داشا وفهمت ما كان مرسوما فيها .

كانت اللوحة تصور امراة عارية رسمت بلون احمر متقيح ، وكان جلدها مسلوخ . فمها منحرف الى جانب ، وفى موضع انفها ثقب مثلث ، وراسها مـربع ، وقد الصقت بها قطعة قماش . والساقان مثل خشبتين مستديرتين منفصلتين . وفى اليدين زهرة . وبقية التفاصيل فظيعة . وافظع ما فى اللوحة الركن البنى الكدر الذى جلست فيه المراة منفرجة الساقين . وقد اطلق على اللوحة اسم «حب» . وكانت كاتيا تسميها فينوس الحديثة .

«لهذا السبب ، اذن ، كانت كاتيا معجبة كثيرا بهذه الأنثى الفاسقة . وهى الآن مثلها ، تحمل وردة فى ركن» . انبطحت داشا ، ووجهها الى الوسادة ، واخذت تبكى عاضة على شفتيها لتكتم صوت بكائها . وبعد برهة من الوقت دخل نيقولاى ايفانوفيتش غرفـة الجلوس ، باعد بين ساقيه ، وراح يضرب زناد قداحته فى غضب ، وتقدم من البيانو واخذ يدق على مفاتيحه . واذا بدقاته تتحول فجأة الى اغنية بسيطة . وشعرت داشا ببرودة تسرى فى اوصالها . صفق نيقولاى ايفانوفيتش غطاء البيانو ، وقال :

– كان يجب توقع ذلك .

اعادت داشا هذه الجملة فى سرها عدة مرات ، محاولـة ان تفهم معناها . وفجأة رن الجرس رنة حادة فى الـــرواق . امسك نيقولاى ايفانوفيتش لحيته ، الا انه قال بصوت مكتوم : «او – او او !» ولـم يفعل شيئا سوى انه اسرع فى الدخول الى مكتبـه . وارسلت خطوات «المغولى العظيم» فى الدهليز صوتا مثل صوت الحوافر . ووثبت داشا من الاريكة . غامت الدنيا امام عينيها ، وقلبها يخفق بشدة ، وخرجت الى الرواق .

كانت يكاترينا دميترييفنا هناك تفك الاشرطة الليلكيـة لقلنسوتها الفرائية بأصابع خدرها البرد ، وكانت تغضن انفها . عرضت لأختها خدها المتورد البارد لتقبله ، الا انها لـم تتلق القبلة المرجوة فنفضت راسها لتلقى القلنسوة عنـه ، وتفرست عيناها الرماديتان بأختها . وسالت بصوتها الواطىء العميق العذب الفاتن ابدا :

– هل حدث شىء عندكم ؟ هل تشاجرتما ؟

اخذت داشا تنظر الى كالوش نيقولاى ايفانوفيتش الجلدى ، وكان يسمى فى البيت بـ«الكالوش المتحرك بذاته» . وكان فى تلك اللحظة يقبع مهملا . وارتعش ذقن داشا .

– لا ، لم يحدث شىء . مجرد مزاج .

فكت يكاترينا دميترييفنا ببطء الازرار الكبيرة على معطفها من فراء السنجاب ونضته عنها بحركة من كتفيها العاريتين ، وها هى بكليتها دافئة ، حنون ، تعبى . وانحنت بشدة لتفك حذاءهـا الطويل ، وقالت :

– تبللت قدماى ،وانا ابحث عن سيارة .
عندئذ سالت داشا بحدة ، وهى مستمرة فى النظر الى كالوش نيقولاى ايفانوفيتش :
– اين كنت ، يا كاتيا ؟
– فى عشاء ادبى ، يا عزيزتى ، تكريما لشخص لا اعرف حتى اسمه ، قسما بالله . نفس النمط . انا تعبة الى حد الاعياء ، واريد ان انام .
ودخلت غرفة الطعام . والقت حقيبتها الجلدية على المفرش ، ومسحت انفها الصغير بمنديلها ، وسالت :
– مَن قطع وريقات الزهور ؟ واين نيقولاى ايفانوفيتش ؟ اهو نائم ؟
وتملكت الحيرة داشا ، فان شقيقتها لا تشبه المرأة الفاسقة فى اللوحة مطلقا ، ولم تكن غريبة عليها ، بل وهى اليوم ، لسبب ما ، اقرب اليها من اى وقت مضى ، حتى لودُت لو تمسد عليها بكليتها .
ومع ذلك فقد قالت داشا بكل ما فى روحها من حضور ، واظفرها يخدش المفرش فى الموضع الذى تناول فيه نيقولاى ايفانوفيتش البيض المقلى قبل نصف ساعة :
– يا كاتيا !
– ماذا ، يا عزيزتى ؟
– انا اعرف كل شىء .
– ماذا تعرفين ؟ بالله ، ما الذى حصل ؟
وجلست يكاترينا دميتربيفنا الى المائدة ، ماسة بركبتيها ساقى داشا ، متطلعة اليها بفضول من الاسفل الى الاعلى .
قالت داشا :
– كشف لى نيقولاى ايفانوفيتش كل شىء .
ولم تنظر الى وجه شقيقتها ، لترى ما يعصف فى داخلها .
وبعد صمت طويل جدا يكاد يفتك بالنفس قالت يكاترينا دميتربيفنا بصوت حانق :
– اى خبر عاصف اعلن نيقولاى ايفانوفيتش ؟
– انت تعرفين ، يا كاتيا .

– لا ، لا اعرف .
وقد فاهت بـ«لا اعرف» هذه ، وكان كرة ثلجية تكورت من هذه الكلمة .
وفى الحال هوت داشا على قدميها :
– اذن ، فقد يكون ذلك غير صحيح ؟ كاتيا ، يا عزيزتى ، ويا مهجتى ، يا شقيقتى الجميلة ، قولى لى : كل ذلك غير صحيح ؟
وغطت داشا بالقبل السريعة يد كاتيا الرقيقة ، العابقة بالعطر ، ذات العروق الزرقاء كالجداول .
اجابت يكاترينا دميتربيفنا ، مغمضة عينيها فى ونى :
– غير صحيح ، طبعا . وها انت تبكين فورا . وغدا ستصبح عيناك حمراوين ، وانفك منفوخا .
ورفعت داشا ، وظلت تطبق شفتيها على شعرها طويلا .
وهمست داشا فى صدرها :
– انا حمقاء !
وفى تلك اللحظة صدر صوت نيقولاى ايفانوفيتش العالى الواضح من وراء باب مكتبه :
– انها تكذب !
التفتت الشقيقتان فجاة ، الا ان باب المكتب كان مغلقا .
قالت يكاترينا دميتربيفنا :
– اذهبى للنوم يا صغيرتى ، اما انا فذاهبة لأستوضح الأمر . يا له من أمر ممتع ، وانا لا اكاد اقف على قدمى .
رافقت داشا الى غرفتها ، وقبلتها ساهمة ، ثم عادت الى غرفة الطعام ، فاختطفت محفظتها ، وعدلت من وضع المشط على راسها ، ودقت باب المكتب باصبعها بهدوء .
– افتح ، نيقولاى ، ارجوك .
الا انها لم تتلق جوابا . كان صمت منحوس ، اعقبه نخير من انف ، وقلقلة مفتاح ، ودخلت يكاترينا دميتربيفنا ، فرات ظهر زوجها العريض . لم يلتفت اليها ، بل سار نحو الطاولة ، وجلس فى المقعد الجلدى ، وتناول سكينا من عظم العاج ، ومرره بحدة على كتاب (هو رواية فاسيرمان «رجل الاربعين») .

فعل كل ذلك وكأن يكاترينا دميتربيفنا لم تكن في الغرفة . جلست يكاترينا دميتربيفنا على الأريكة ، وجذبت تنورتها على ساقيها ، واخفت منديلها في المحفظة ، وسدت قفلها . وبتلك الحركة ارتجفت خصلة الشعر على هامة نيقولاي ايفانوفيتش . قالت يكاترينا دميتربيفنا :

– شيء واحد لا افهمه . انت حر في ان تظن ما تشاء من الظنون ، ولكنني ارجو الا تشرك داشا في امزجتك .

عندئذ استدار على مقعده بحمية ، ومد رقبته ولحيته ، وقال من خلال اسنانه :

– اذن ، عندك الوقاحة الكافية لتسمي ذلك مزاجي ؟

– انا لا افهم .

– رائع ! لا تفهمين ؟ اما ان تتصرفي كامرأة رخيصة ، فانت تفهمين ، كما يبدو ؟

فتحت يكاترينا دميتربيفنا فمها قليلا عند سماعها هذه الكلمات . وقالت بهدوء وهي تنظر الى وجه زوجها المحمر بشدة حتى تفصد بالعرق ووجهه المشوه غيظا :

– قل لي : متى بدات تتحدث معي بهذه اللهجة المهينة ؟

– ارجو المعذرة ، يا مولاتي ! ولكنني لا اجيد التحدث بلهجة اخرى . وباختصار اود لو اعرف التفاصيل .

– اية تفاصيل ؟

– لا تكذبي علي في وجهي .

– هذا ما تعنيه اذن ، – قالت ذلك ، وتقلبت عيناها الوسيعتان وكأن ذلك من منتهى التعب ، – اليوم قلت لك شيئا ما . . . ونسيته مطلقا .

– اريد ان اعرف مع من حصل ذلك .

– انا لا اعرف .

– مرة اخرى ارجو الا تكذبي . . .

– انا لا اكذب . ولا داعي للكذب عليك . ولكنني قلت . وما اكثر ما اقول ساعة الغضب ! قلت ، ونسيت .

خلال هذا الكلام كان وجه نيقولاي ايفانوفيتش جامدا كالحجر ، الا ان قلبه غاص ووجب من الفرح : «حمدا لله ، كانت تكذب على

نفسها» . والآن كان من الممكن بأمان ان يتظاهر في صخب بانه لا يصدق شيئا تنفيسا عن كرب قلبه .

نهض من مقعده ، وراح يتمشى على البساط ، متوقفا بين الحين والآخر ، شاقا الهواء بضربات من سكينه العاجية ، وهو يتحدث عن سقوط العائلة ، وفساد الخلق ، وعن الواجبات المقدسة المهملة الآن ، واجبات المرأة – الزوجة ، ام اولادها ، ومساعدة زوجها . ولام يكاترينا دميتربيفنا على خوائها الروحي ، وعلى تبذيرها الأهوج للنقود المكتسبة بالدم (صححت يكاترينا دميتربيفنا : «ليس بالدم ، بل بتحريك اللسان») . لا ، بل وأكثر من الدم ، بحرق الاعصاب . ووبخها على عدم عنايتها باختيار الأصحاب ، وانعدام الترتيب في البيت ، وولعها بـ«تلك البلهاء» المغولي العظيم ، وحتى بـ«اللوحات التي تثير قرفي في غرفة جلوسك المبتذلة» .

وباختصار ، نفس نيقولاي ايفانوفيتش عما في صدره .

تجاوزت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . وعندما بح صوت الزوج وصمت ، قالت يكاترينا دميتربيفنا :

– لا يمكن ان يكون هناك ابغض من رجل سمين وهستيري .

ونهضت ، ودخلت مخدعها .

الا ان نيقولاي ايفانوفيتش لم يتكدر الآن حتى من هذه الكلمات . خلع ملابسه ببطء ، وعلقها على ظهر المقعد ، ودور الساعة ، واندس في الفراش النظيف المفروش على الأريكة الجلدية ، وارسل زفرة خفيفة .

فكر وهو يفتح كتابا ليهدئ نفسه بالقراءة انتظارا للنوم : «اجل ، ان نمط حياتنا رديء . ويجب ان نعيد تنظيم حياتنا كلها . مؤلم ، مؤلم» . الا انه انزل الكتاب في اللحظة التالية ، وارهف سمعه . كان الهدوء يسود البيت . مخط شخص من انفه ، فوجب قلبه لهذا الصوت . وفكر مع نفسه : «انها تبكي ، اي ، اي . يبدو انني تماديت في القول» .

وعندما اخذ يسترجع كل حوارهما ، وتمثل كاتيا جالسة تصغي ، اخذه الاشفاق عليها . رفع جسمه على كوعه ، واستعد

للخروج من تحت الدثار ، الا انه شعر باسترخاء يدب فى جسمه كله ، وكانه من تعب ايام كثيرة ، فالقى راسه على الوسادة ، وغفا .

خلعت داشا ملابسها فى غرفتها النظيفة المرتبة ، واخرجت المشط من شعرها ، وهزت راسها حتى تطايرت دبابيس الشعر فورا ، وانسلت فى فراشها الأبيض ، وسحبت الغطاء حتى ذقنها ، وقلصت عينيها ، وقالت لنفسها : «شكرا لله ، كل شىء على ما يرام ! وليس لى الآن ما يشغل بالى ، فلانم» . وتصورت امامها وجها صغيرا مضحكا . فابتسمت ، وعكفت ركبتيها قليلا ، وطوقت الوسادة . وغشتها سنة لذيذة مظلمة من النوم ، وفى الحال تردد فى ذاكرتها صوت كاتيا بوضوح : «غير صحيح ، طبعا» . فتحت داشا عينيها ، «لم اقل لكاتيا كلمة واحدة . سالتها فقط : صحيح ام غير صحيح . فاجابتنى وكانما كانت تفهم تماما مدار الحديث» . وكان الوعى يوخز جسمها كله وخز الأبر : «خدعتنى كاتيا !» ، وبعد ان تذكرت كل دقائق الحديث ، وكلمات كاتيا وحركاتها رأت بوضوح ان فى الأمر خدعة حقا . واحست داشا بصدمة . لقد خانت كاتيا زوجها ، ولكنها بعد اقتراف خيانتها ، واثمها ، وكذبها ، اضحت اكثر فتنة . والأعمى وحده لا يستطيع ان يلحظ فيها شيئا جديدا ، ورقة وافية ذات نكهة خاصة . وهى تكذب بطريقة تاخذ باللب ، تغرى بالحب . ولكنها جانية . انا لا افهم شيئا ، لا افهم .

وقلقت داشا وتحيرت . شربت ماء ، واشعلت المصباح ، ثم اطفاته ثانية ، وظلت تتقلب على الفراش حتى الصباح شاعرة بانها لا تستطيع ان تدين كاتيا ، ولا تدرك ما اقترفته .

ولم تستطع يكاترينا دميترييفنا ايضا ان تغفو فى تلك الليلة . انطرحت على ظهرها خائرة القوى ، ملقية ذراعيها فوق الدثار الحريرى ، وبكت ، دون ان تمسح دموعها ، على احساس مبهم فى نفسها سيىء ، وغير نظيف ، ولكونها غير قادرة على ان تغير من الأمر شيئا ، ولأنها لن تكون مثل داشا ابدا متقدة العاطفة وقوية الخلق ، كما بكت لأن نيقولاى ايفانوفيتش نعتها بالمراة الرخيصة ، ووصف غرفة الجلوس بالابتذال . وبكت مر البكاء لأن الكسى الكسييفيتش بيسونوف اخذها فى منتصف الليلة الماضية على عربة سريعة الخيول الى فندق خارج المدينة ،

وهناك امتلكها غير عارف ، ولا محب ، ولا شاعر بكل ما كان قريبا اليها ، عزيزا عليها ، امتلكها بتماهل وقرف وكانها دمية وردية ، من تلك الدمى الموضوعة فى مخزن مدام دوكليه للازياء الباريسية فى شارع مورسكايا .

٥

اتخذت جمعية اطلقت على نفسها اسم «المجمع المركزى لمكافحة العرف السائد» مقرا لها فى شقة المهندس ايفان ايليتش تليغين فى الطابق الخامس من بيت حديث البناء فى الشارع التاسع عشر فى جزيرة فاسيليفسكى .

وكان تليغين قد استأجر هذه الشقة «للسكن» لمدة عام ، بسعر مخفض . فخصص له غرفة واحدة . اما سائر الغرف المؤثثة باسرة حديدية ومناضد ومقاعد من خشب الصنوبر فقد خصصت للمستاجرين من «العزاب ايضا ، وعشاق المرح حتما» . ولم يجد صديقه وزميل صفه السابق سيرغى سيرغيفيتش سابوجكوف كبير عناء فى ان يوفر هؤلاء له .

فسكن الشقة طالب كلية الحقوق الكسندر ايفانوفيتش جيروف ، والمخبر الصحفى انتوشكا ارنولدوف ، والرسام فاليت ، والآنسة الشابة يلزافيتا راستورغوييفا ، التى لم تجد حتى الآن مشاغل على ذوقها .

كان نزلاء الشقة يستيقظون فى وقت متاخر – ساعة عودة تليغين من المصنع لتناول فطوره ، وكان كل واحد منهم يقبل على عمله متماهلا . كان انتوشكا ارنولدوف يستقل الترام الى مقهى فى جادة نيفسكى ، ليعرف آخر الأخبار ، ثم يذهب الى مقر جريدته . ويجلس فاليت فى العادة ليرسم صورة شخصية له . ويغلق سابوجكوف عليه الباب ليعد خطبا ومقالات عن الفن الجديد . وكان جيروف ينسل الى غرفة يلزافيتا كييفنا ، ويناقش معها امور الحياة بصوت ناعم كالمواء . وكان يكتب اشعارا ، ولكن كبرياءه تابى عليه ان يطلع احدا عليها . وكانت يلزافيتا كييفنا تعتبره نابغة .

كانت يلزافيتا كييفنا ، الى جانب احاديثها مع جيروف والنزلاء الآخرين تحوك من صوف متعدد الالوان اشرطة طويلة لا تنفع لأغراض محددة ، وتغنى بصوت عميق قوى زائف اغانى اوكرانية ، او تبتكر لنفسها تصفيفات شعر غير مالوفة ، او تكف عن الغناء ، وتفل شعرها ، وتستلقى على السرير تطالع كتابا ، وتنغمر فى المطالعة حتى تصاب بصداع . ويلزافيتا كييفنا جميلة فارعة موردة الخدين ، تبدو عيناها القصيرتا النظر وكانهما مرسومتان على صفحة وجهها ، وملابسها لا تنم عن ذوق ، فكانت موضع نقد حتى من نزلاء شقة تليغين .

حين كان يظهر شخص جديد فى البيت كانت تدعوه الى غرفتها ، ويبدا حديث يدير الراس ، قائم بكليته على التطرف فى الحدود ، وبعد ذلك كانت تستدرج محدثها لتعرف هل هو متعطش الى الجريمة ؟ وهل هو مقتدر على القتل ، مثلا ؟ وهل يستشعر فى نفسه «التحريض الذاتي» ؟ فقد كانت تعتبر هذه الخاصية علامة على روعة الانسان .

بل ان نزلاء شقة تليغين علقوا هذه الاسئلة على باب غرفتها . لقد كانت يلزافيتا كييفنا ، عموما ، فتاة غير راضية ، وكانت دائما تتوقع «تحولات» و«احداثا مروعة» تجعل الحياة جذابة تعاش بكل كيان الانسان ، بدلا من الملل قرب نافذة صغيرة اعتمها المطر .

وكان تليغين نفسه يجد غير قليل من التسلية فى مراقبة نزلائه ، ويعتبرهم جماعة من الممتازين وذوى الصَّبَوات ، الا انه لم يشترك فى ملاهيهم الا قليلا ، بسبب قلة الوقت .

وذات يوم فى عيد الميلاد جمع سيرغى سيرغيفيتش سابوجكوف نزلاء الشقة ، والقى عليهم الخطبة التالية :

— ايها الرفقاء ، ان اوان العمل قد حان . نحن كثيرون ، ولكننا مبعثرون . واعمالنا حتى الآن تتسم بطابع التشتت والتهيب . وعلينا ان نؤلف فصيلة ، ونسدد ضربة الى المجتمع البرجوازى . ولهذا الغرض ينبغى اول الأمر ان نكون من بيننا الجماعة المبادرة ، وبعد ذلك نذيع هذا البيان ، وفيه نقول : «نحن الكولومبسيون الجدد ! نحن الدعاة النوابغ ! نحن بذور الانسانية الجديدة ! نحن نطالب المجتمع البرجوازى السابح فى الدسم ان ينبذ

كل الخرافات . منذ الآن لن يكون هناك وجود للفضائل . تلغى العائلة والاعراف الاجتماعية ، وعقود الزواج . اننا نطالب بذلك : يجب على الانسان ، امراة كان او رجلا ، ان يكون عاريا طليقا . والعلاقات الجنسية ملك للمجتمع . ايها الشبان والشابات ، ايها الرجال والنساء ، اخرجوا من جحوركم ، واطلعوا عراة سعداء الى الرقص تحت شمس الحيوان المتوحش ! ..»

وبعد ذلك قال سابوجكوف ان الضرورة تستدعى اصدار مجلة مستقبلية باسم «طبق الآلهة» سيقدم تليغين قسما من المال المصروف عليها ، والقسم الآخر يجب ان ينتزع من فكوك البرجوازيين – والمجموع ثلاثة آلاف روبل .

وعلى هذا النحو اسس «المجمع المركزى لمكافحة العرف السائد» ، والاسم من ابتكار تليغين الذى ضحك بشدة من مشروع سابوجكوف ، حين عاد من المصنع . وجرى فى الحال الاعداد لاصدار العدد الاول من «طبق الآلهة» . قدم بعض رعاة الفنون الاغنياء ، والمحامين ، وحتى ساشكا ساكيلمان نفسه المبلغ المطلوب – ثلاثة آلاف روبل . واوصى بطبع استمارات على اوراق للف تحمل اسما غريبا هو «المركز النابذ» ، وبدات الدعوات توجه الى المحررين اللازمين ، وصارت المواد تجمع للمجلة . واقترح الرسام فاليت ان تشوه جدران حجرة سابوجكوف التي حولت الى مقر لهيئة التحرير ، بالرسوم الماجنة . فرسم على الجدران اثنتى عشرة صورة شخصية له ، ونوقشت مسالة تاثيث الغرفة مناقشة طويلة ، واخيرا اخليت الغرفة الا من طاولة كبيرة الصقت عليها اوراق مذهبة .

وبعد صدور العدد الاول من المجلة بدا الناس فى المدينة يتحدثون عن «طبق الآلهة» . فاعلن البعض عن سخطه ، واكد آخرون على ان الأمر ليس بالبساطة الذى يبدو فيها ، وفى المستقبل القريب قد تودع اعمال بوشكين فى الارشيف . واصيب الناقد تشيرفا بالذهول ، فقد نعت فى«طبق الآلهة» بالوغد . واسرعت يكاترينا دميتريبفنا بالاشتراك فى المجلة لسنة كاملة ، وعزمت على ان تنظم عشاء يوم ثلاثاء مع المستقبليين .

اوفد «المجمع المركزى» سيرغى سيرغيفيتش سابوجكوف للعشاء فى بيت سموكوفنيكوف . فجاء مرتديا سترة طويلة قذرة

من الفستيان الأخضر اخذها بالاستعارة من حلاقة المسرح ، وكانت قد استعملت فى مسرحية «مانون ليسكو» . واكل بافراط مبالغ فيه فى العشاء ، وضحك ضحكا مجلجلا بغيضا حتى لسمعه هو ، وسمى النقاد ، وهو ينظر الى تشيرفا ، بـ«بنات آوى اكلة الفطائس» . بعد ذلك استرخى ، وراح يدخن آ معدلا نظارته الانفية على انفه المبلل . وبشكل عام كان الحضور يتوقعون اكثر من ذلك .

بعد صدور العدد الثانى تقرر اقامة حفلات عشاء تحت اسم «التدنيسات الرائعة» . وقد شهدت داشا احدى هذه التدنيسات . فتح جيروف الباب الامامى لها ، وانشغل بها فى الحال . اخذ منها كالوشها ، ومعطفها الفرالى ، بل ورفع خيطا صغيرا كان عالقا بثوبها من الجوخ . ودهشت داشا لرائحة الكرنب فى الرواق . سار جيروف وراءها فى الممر جنبا الى مكان التدنيس ، وسالها :

— خبرينى باى العطور تتعطرين ؟ عطر رائع الشذى .

ثم ادهش داشا رخص كل هذه الجسارة المعلن عنها بضوضاء . حقا لقد كانت تتناثر على الجدران عيون ، وانوف وايد ، وشخوص مستهجنة ، وناطحات سحاب متهاوية ، وباختصار ، كل ما يؤلف اجزاء صورة فاسيلى فاليت الذى كان واقفا هناك صامتا ، وعلى خديه رسم خطان منكسران . وكان المضيفون والضيوف — ومن بينهم الشعراء الشبان الذين كانوا يحضرون عشاءات الثلاثاء فى منزل سموكوفنيكوف بمجموعهم تقريبا — يجلسون على الواح غير مسحوجة وموضوعة على كتل خشبية (هبة من تليغين) ، وكانوا يقراون الشعر باصوات مبالغ فى وقاحتها عن سيارات تدب على قبو السماء ، وعن «بصقة على المصاب بالزهرى السمارى» ، وعن فكين فتيين كسر بهما الشاعر قباب الكنائس ، كما يكسر الجوز ، وعن جندب غير مفهوم ابدا لابس معطفا غاليا يقفز من النافذة الى الرصيف وهو ممسك بمنظار مكبر ودليل سياحة . الا ان كل هذه البشائع بدت لداشا شوهاء . ولم يعجبها يصدق الا تليغين . تقدم منها اثناء الحديث ، وسالها بابتسامة حيية عما اذا كانت تريد شايا وشطائر .

— الشاى والسجق عندنا اعتياديان ، يعنى جيدان .

٥*

كان وجهه ملوحا ، حليقا ، عليه مسحة من السذاجة ، اما عيناه الزرقاوان الطيبتان فيبدو انهما ذكيتان وقاسيتان عند الضرورة .

وفكرت داشا بانها ستسره اذا قبلت بعرضه ، فنهضت ، ودخلت غرفة الطعام ، حيث رات مائدة عليها صحن الشطائر ، وسماور مبعوج . اسرع تليغين فى جمع الصحون المستعملة ، ووضعها على الارض فى احد اركان الغرفة ، والتفت باحثا بعينيه عن خرقة ، ومسح المائدة بمنديله ، وصب لداشا قدح شاى ، وانتقى لها «الذ» شطيرة . وقد قام بكل ذلك على مهل بيديه الكبيرتين القويتين ، وتكلم ، وكانما يجهد نفسه بشكل خاص لتكون داشا مرتاحة وسط هذه القذارة :

— شؤوننا البيتية فوضى لا نظام لها . هذا صحيح ، ولكن الشاى والشطائر من الدرجة الفاخرة ، مشتراة من مخزن يليسييف الشهير . وكانت هناك حلويات الا انها التهمت ، ولكن . . . — وهنا اطبق شفتيه ، ونظر الى داشا ، ولاح فى عينيه الزرقاوين خوف ، ثم تصميم ، وقال — هلا سمحت لى ؟ — واخرج من جيب صداره ملبستين ملفوفتين بورقتيهما .

وفكرت داشا مع نفسها «مع مثل هذا الرجل لا يتردى الانسان» ، ولكى تسره ايضا قالت :

— هذا النوع الذى افضله من الملبس .

ثم جلس تليغين مقابل داشا بانحراف ، واخذ يحدق فى علبة الخردل بانتباه . ونضح العرق على جبينه العريض الكبير من التوتر . اخرج منديله بحذر ، ومسح جبينه .

وافترت شفتا داشا عن ابتسامة لا ارادية : ذلك لان هذا الرجل الكبير الجميل كان على درجة من انعدام الثقة بالنفس تجعله يود لو يتوارى وراء علبة الخردل تلك . وتخيلت داشا ان امه العجوز النظيفة الملابس تعيش فى مدينة ارزاماس ، كما بدا لها ، وتكتب له من هناك رسائل حادة حول «عادته المستاصلة فى تسليف نقوده لمختلف الحمقى» ، وتعظه بأن «احترام الناس ، يا ابنى العزيز ، لا يمكن ان نكسبه الا بالتواضع والمثابرة» . وهو ، على ما يبدو ، يتافف من هذه

الرسائل ، مدركا كم هو بعيد عن الكمال . واستشعرت داشا رقة تجاه هذا الرجل . سألته :

– اين تشتغل ؟

رفع تليغين عينيه فى الحال ، ورأى ابتسامتها ، فابتسم هو الآخر ابتسامة عريضة .

– فى مصنع البلطيق .

– وهل عملك ممتع ؟

– لا اعرف . اعتقد ان كل عمل ممتع .

– اظن ان العمال يحبونك كثيرا .

– لم افكر فى ذلك قط . ولكن لا اظن انهم يحبوننى . ولماذا عليهم ان يحبوننى ؟ فانا شديد معهم . رغم ان علاقاتنا طيبة بالطبع ، علاقات رفاقية .

– قل لى هل اعجبك عن صدق كل ما جرى فى تلك الغرفة ، اليوم ؟

زالت غضون من على جبين ايفان ايليتش ، وانفجر ضاحكا بصوت عال .

– صبيان . اشقياء طائشون . فتية رائعون . انا راض عن نزلاء شقتى ، يا داريا دميترييفنا . فى بعض الاحيان تحدث منغصات فى عملنا ، واعود الى البيت منزعجا ، فأجدهم هنا قد ابتكروا هراء من هراءاتهم . . . وفى اليوم التالى حين اتذكر ما حصل اضحك وابتهج .

قالت داشا بلهجة حازمة :

– اما انا فلا تعجبنى هذه التدنيسات ابدا . انها سفاهة محض .

نظر فى عينيها بدهشة . فاكدت قولها : «لا تعجبنى ابدا» .

قال ايفان ايليتش مفكرا :

– انا المذنب فى ذلك بالطبع . فانا الذى شجعتهم عليه . حقا . ان تدعى ضيوفا ، وتقضى المساء كله فى قول سفاسف امر . . . من المؤلم جدا ان كل هذا لم يعجبك على هذا النحو .

حدقت داشا فى وجهه مبتسمة ، واحست بانها تستطيع ان تقول ما تشاء لهذا الرجل الغريب عليها تقريبا .

– اتصور ، يا ايفان ايليتش ، انك لا بد ان تهوى شيئا مختلفا تماما . يبدو لى انك رجل طيب ، احسن بكثير من تصورك انت لنفسك ، حقا ، حقا .

وركزت داشا كوعها على المائدة ، ووسدت حنكها على كفها ، ومست شفتيها بخنصرها . كانت عيناها تبتسمان ، الا انهما بدتا له مخيفتين ، جميلتين الى حد مذهل ، عينين رماديتين واسعتين باردتين قليلا . ولذهو له الشديد لوى ملعقة شاى ثم عدلها .

ولحسن حظه دخلت الغرفة يلزافيتا كييفنا ، كانت تلقى على كتفيها شالا تركيا ، وقد ضفرت شعرها فوق اذنيها بضفيرتين كقرنى الخروف . مدت لداشا يدا طويلة مقدمة نفسها باسم «راستورغويفا» وجلست وقالت :

– تحدث جيروف عنك كثيرا جدا . واليوم درست وجهك . وارى انك قد شعرت بالسأم ، وهذا شىء جيد .

اسرع ايفان ايليتش يسالها :

– يا ليزا ، اتريدين شايا باردا ؟

– لا ، يا تليغين . انت تعرف اننى لا اشرب الشاى ابدا . . . اذن قد تسائلين نفسك ، بالطبع ، اى مخلوق غريب هذا الذى يتحدث معك ؟ انا لا احد . شخص حقير . انا فاسدة وبليدة .

كان ايفان ايليتش واقفا عند المائدة ، فاشاح بوجهه يائسا . وغضت داشا من بصرها . فامعنت يلزافيتا كييفنا فيها النظر مبتسمة .

– انت انيقة ، مرفهة وبارعة الجمال . لا تنكرى ، فانت تعرفين ذلك بنفسك . انت موضع حب عشرات الرجال ، بالطبع . ومن المؤلم ان كل هذا سينتهى بغاية من البساطة . سياتى الذكر ، فتلدين له اولادا ، ثم تموتين . فما اضجر ذلك !

ارتعشت شفتا داشا تكدرا . واجابت :

– انا لا اريد ان اكون خارجة عن المالوف . ولا ادرى لماذا يقلقك مستقبلى الى هذا الحد .

ابتسمت يلزافيتا كييفنا بمرح اشد ، وبقيت عيناها حزينتين وديعتين .

– لقد حذرتك باننى حقيرة كانسان ، ومقززة كامرأة .

والذين يتحملونني قليلون جدا ، وعن شفقة فقط كما يفعل تليغين مثلا . فتمتم تليغين دون ان يرفع راسه :

– اى هراء هذا الذى تتحدثين به ، يا ليزا .

– انا لا اطالبك بشىء ، يا تليغين ، فهدئ من روعك . – والتفتت الى داشا مرة اخرى : – هل عانيت عاصفة ذات مرة ؟ اما انا فقد عانيت واحدة . كان هناك رجل ، وكنت احبه ، وكان يكرهني بالطبع . وكنت آنذاك اعيش على البحر الاسود . وثارت عاصفة . وقلت لذلك الرجل : «لنخرج الى البحر ...» فخرج معى موجدة وحنقا . وحملنا الى عرض البحر ... ما اروعها من تسلية ... وخلعت عنى ثوبى ، وقلت له ...

قال تليغين مغضنا شفتيه وانفه :

– اسمعى ، يا ليزا . انت تكذبين . لم يحدث ذلك ، انا اعرف .

عندئذ نظرت يلزافيتا كييفنا اليه بابتسامة مبهمة ، واخذت تضحك فجأة . وضعت كوعيها على المائدة ، واخفت وجهها بينهما ، وضحكت ، واهتزت كتفاها الممتلئتان . نهضت داشا ، وقالت لتليغين انها تريد ان تذهب الى البيت ، وتنصرف دون ان تودع احدا ، اذا امكن ذلك .

وقدم ايفان ايليتش لداشا معطفها بحذر شديد ، وكان المعطف جزء من كيانها ايضا . ونزل الى الاسفل على السلم المظلم ، مشعلا طوال الوقت اعواد الثقاب ، متكدرا من حلكة الظلام وهبوب الريح ، وزلق الارض ، واوصل داشا الى ركن الشارع ، واجلسها فى عربة زلاجة . كان الحوذى عجوزا ، والثلج يغمر حصانه . ظل ايفان ايليتش وقتا طويلا واقفا فى البرد حاسر الراس ، وبلا معطف ، ينظر الى الزلاقة الواطئة وهى تتلاشى وتذوب فى الضباب الأصفر ، ومعها يتلاشى ويذوب شبح الفتاة الجالسة فيها . وبعد ذلك عاد الى البيت متمهلا ، ودخل غرفة الطعام . فرأى يلزافيتا كييفنا فى جلستها تلك ، ووجهها بين يديها . حك تليغين ذقنه ، وقال عابس الاسارير :

– ليزا .

عندئذ رفعت ليزا راسها بسرعة شديدة .

– ليزا ، لأى سبب ، وارجو المعذرة ، تخوضين دائما فى حديث يجعل الجميع فى حرج وخجل ؟

قالت يلزافيتا كييفنا بصوت خافت وهى لا تفتأ تحدق فيه بعينيها الحزينتين ، القصيرتى النظر ، اللتين تبدوان مرسومتين على صفحة وجهها :

– احببتَ . رايت ذلك من الوهلة الاولى . اوه ، يا للضجر .

قال تليغين وقد صعد الدم الى وجهه :

– هذا غير صحيح البتة . غير صحيح .

– اذن ، فانا متاسفة .

ونهضت بتكاسل ، وخرجت ، ساحبة وراءها على الارض شالها التركى المغبر .

سار ايفان ايليتش بعض الوقت مغمورا فى افكاره ، شرب شايا باردا ، ثم رفع المقعد الذى جلست عليه داريا دميترييفنا ، وحمله الى غرفته . وهناك تروّى ، ووضعه فى احد الاركان ، واحتوى كل انفه براحته ، وقال ، وكأنما قد صعق صعقة هائلة :

– هراء ... سخافة !

كان هذا اللقاء بالنسبة لداشا مجرد لقاء من لقاءات عديدة . التقت برجل طيب ، وانتهى الأمر . كانت داشا فى سن لا يرى فيها المرء ولا يسمع بشكل جيد : فان سمعه موقر بضجيج الدم فى عروقه ، وعيناه فى كل مكان – وحتى فى وجه انسان امامه – لا تريان الا صورته هو ، وكأنها انعكاسه فى مرآة . والقبح وحده فى مثل هذه السن يثير الخيال ، اما جمال الناس ، ومناظر الطبيعة الخلابة ، وجمال الفن المتواضع فان كل ذلك يعتبر حاشية الحياة اليومية لملكة فى التاسعة عشرة من العمر .

ولم يكن الأمر كذلك مع ايفان ايليتش . والآن ، وقد انقضى اكثر من اسبوع على زيارة داشا ، فقد اخذ يتعجب من ان تظهر فى شقتهم هذه الفتاة ذات البشرة الوردية الرقيقة ، والثوب الاسود من الجوخ ، والشعر الاشقر الشاحب المرتفع فوق راسها ، والفم الطفولى المتكبر ، وتظهر دون ان تلحظ (حتى انه لم يسلم عليها راسا) تظهر ببساطة (فقد دخلت ، وجلست ، ووضعت على ركبتها موفة الفراء التى تدفئ بها يديها) . ولم يكن مفهوما كيف وافته

العزيمة ليتحدث معها ببساطة عن السجق المشترى من مخازن يليسييف .

والملبستان الدافئتان اللتان اخرجهما من جيبه ، وعرض عليها ان تاكلهما ؟ فيا له من نحس !

كان ايفان ايليتش خلال حياته (تخطى التاسعة والعشرين قبل حين) قد احب ست مرات : عندما كان تلميذ فى المدرسة الثانوية فى تازان احب فتاة ناضجة ، هى ماروسيا خفويفا ، ابنة طبيب بيطرى ، كانت تجوب الشارع الرئيسى فى الساعة الرابعة ، ولزمن طويل ، دون فائدة ، وهى فى معطف واحد لا يتغير مصنوع من قماش البلش ، الا ان ماروسيا خفويفا لم تكن فى وضع يقبل التمازح ، فنبذته ، وانصرف هو عنها ، دون مرحلة انتقالية ، الى آدا تيليه الفنانة المتجولة التى انتزعت دهشة اهل المدينة بظهورها فى جميع الاوبريتات ، من كل العصور ، على قدر الامكان بثوب سباحة ، وهو امر ابرزته ادارة المسرح فى اعلاناتها : «آدا تيليه الحائزة على المدالية الذهبية لجمال ساقيها» .

وتجرا ايفان ايليتش حتى على ان ينفذ الى بيت الفنانة ، ويحمل اليها باقة من الزهور ، المقطوعة من حديقة البلدية . الا ان آدا تيليه اعطت هذه الزهور لتشمها كلبتها الصغيرة الغزيرة الشعر ، وقالت لايفان ايليتش ان معدتها قد مرضت تماما من الطعام المحلى ، وطلبت اليه ان يهرع الى الصيدلية . وبهذا انتهى الأمر .

وبعد ذلك ، حين صار طالبا فى بطرسبورغ مال الى طالبة الطب فيلبوشيفيتش ، بل وكانت له مواعيد معها فى مسرح التشريح ، الا ان ذلك بحد ذاته لم يات بنتيجة مرجوة ، وغادرت فيلبوشيفيتش لتعمل فى مستشفى أحد الاقضية .

وذات مرة اغرمت به فتاة تدعى زينوتشكا تعمل فى مخزن كبير للقبعات ، غراما شديدا اسلمها الى الياس . واستجاب ايفان ايليتش لكل ما رغبت فيه ، لارتباكه ورقة قلبه . الا انه تنفس الصعداء حين رحلت الفتاة الى موسكو مع الفرع الذى تعمل فيه من الشركة ، فقد مضى معها شعور كان يراوده دائما بان ثمة واجبات لم يقم بها .

ويرجع تاريخ آخر عاطفة حب مست قلبه الى حزيران قبل

عامين . فقد كانت هناك فتاة نحيلة شاحبة تظهر كل يوم قبيل الغروب فى النافذة المقابلة لنافذته المطلة على الفناء وتفتح النافذة ، وتنظف بالفرشاة ، وبحرص شديد ، ثوبها البنى الذى لا يتغير ، ثم ترتديه ، وتخرج لتجلس قليلا فى المنتزه .

وفى المنتزه ، فى اوائل الغسق ، تحدث معها ايفان ايليتش ، ومنذ ذلك الحين اخذا يتنزهان سوية كل مساء ، ويبديان اعجابهما بلحظات الغروب فى بطرسبورغ ، ويتجاذبان اطراف الحديث .

كانت هذه الفتاة ، واسمها اوليا كوماروفا ، تعمل فى مكتب كاتب عدل ، وكانت وحيدة دائمة المرض والسعال . وقد تحادثا عن هذا السعال ، والمرض ، وعن الوحشة التى تهبط على صدر الانسان الوحيد عند المساء ، وعن صاحبة لها تسمى كيرا ، احبت رجلا طيبا ، ورحلت معه الى القرم . وكانت احاديثهما كئيبة . وكانت اوليا كوماروفا يائسة من امرها حتى انها لم تخجل ان تبوح لايفان ايليتش بافكارها المكنونة وهى متوقعة احيانا ان يقع فى غرامها فجأة ، ويتزوجها وياخذها الى القرم .

وكان ايفان ايليتش يشفق عليها كثيرا ، ويكن لها الاحترام ، الا انه لم يقدر ان يحبها ، ولو انه بعد احاديثهما احيانا كان يفكر وهو مستلق على الاريكة فى الظلمة بانه انسان انانى ، سيىء ، وبلا قلب .

وفى الخريف اصيبت اوليا كوماروفا بنزلة صدرية ووقعت طريحة الفراش . وقد اخذها الى المستشفى ، ومن هناك الى المقبرة . وقبيل موتها قالت له : «هل ستتزوجنى اذا شفيت ؟» فاجابها ايفان ايليتش : «كلمة شرف ، سأتزوجك» .

ولم يكن شعوره نحو داشا يشبه مشاعره السابقة . لقد قالت له يلزافيتا كييفنا «احببت» . ولكن الانسان يمكن ان يحب من يفترض ان يناله ، وليس من الممكن ان يحب تمثالا او غيمة .

وقد شعر نحو داشا بعاطفة فريدة ، جديدة عليه ، ومشوبة بالغموض ، لأن الاسباب الداعية لها قليلة – بضع دقائق من الحديث ، ومقعد فى ركن من الغرفة .

كما ان هذه العاطفة لم تكن على قدر كبير من الحدة ، الا ان ايفان ايليتش صار الآن يحس فى نفسه بالرغبة فى ان يكون

فريدا ، ويبدا بالاهتمام بنفسه كثيرا . وكان غالبا ما يقول لنفسه :

«قريبا سابلغ الثلاثين ، وانا ما ازال اعيش لنفسي وبلا غاية . خواء رهيب . انانية ولا مبالاة ازاء الناس . يجب ان اتماسك قبل فوات الاوان» .

في اواخر اذار ، وفي يوم من ايام بواكير الربيع ، الطالعة بغتة على المدينة البيضاء من الثلج ، المتدثرة طلبا للدفء ، حين تلمع قطرات الجمد منذ الصباح وتقطر من افاريز السطوح ويشرشر الماء في انابيب تصريف المياه من اعالي البنايات ، ويطفح في البراميل الخضراء الموضوعة تحتها ، ويهش الثلج في الطرقات ، ويتصاعد البخار من الاسفلت ، وتجف بقع منه ، ويحس المرء بثقل المعطف الشتائي على كتفيه ، وبين الحين والآخر تقع العين على رجل ذي لحية مدببة يسير بدون معطف ، واذا بالناس كلهم ينظرون اليه ويبتسمون ، وحين يرفع المرء راسه يرى السماء لا يسبر لها عمق ، زرقاء كانها غسلت بالماء ، في يوم كهذا اليوم ، وفي الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر خرج ايفان ايليتش من الدائرة الهندسية في جادة نيفسكي ، وفك معطفه ذا الحاشية الفرائية ، وقلص عينيه اتقاء الشمس .

«الحياة رائعة على اية حال» .

وفي تلك اللحظة وقع بصره على داشا . كانت تسير على حافة الرصيف وئيدة الخطى ، ترتدي معطفا ربيعيا ازرق ، وقبعة زرقاء شدت عليها زهورا اصطناعية بيضاء . وكانت تؤرجح طردا بيدها اليسرى فكانت الزهور على قبعتها تتمايل . وكان التامل والحزن يطفحان من محياها . ومن ورائها كانت الشمس الهائلة الشعثاء النور ، المتوهجة بوهج ربيعي في السماء الزرقاء النائية تنعكس على برك الماء ، وخطوط الترام ، والزجاج ، وظهور السابلة ، وتحت اقدامهم ، وعلى محاور عجلات العربات .

بدا وكان داشا قد خرجت من هذه الزرقة والنور ، وتراءت لحظة ، لتختفي بعدها في جمهور الناس . نظر ايفان ايليتش طويلا في تلك الناحية . وسمع قلبه يدق في صدره ببطء . كان الهواء كثيفا ، لاذعا ، يدير الراس .

سار ايفان ايليتش ببطء الى الناصية ، ووضع يديه وراء

ظهره ، ووقف طويلا امام اسطوانة الاعلانات . وقرا : «مغامرات جاك الجديدة الطريفة ، منتزع الاحشاء» ، وفكر بانه لا يفهم شيئا ، وبانه سعيد سعادة لم يذقها في حياته كلها .

ولما ابتعد عن اسطوانة الاعلانات رأى داشا ثانية . عادت على هيئتها تلك : الزهور البيضاء على قبعتها ، والطرد في يدها ، وقدماها تسيران على حافة الرصيف . تقدم منها ، وخلع قبعته .

– داريا دميتريفنا ، ما أروع هذا اليوم . . .

جفلت داشا قليلا . ثم رفعت اليه عينين باردتين قليلا لمعت فيهما من جراء النور نقاط خضر . وابتسمت برقة ، ومدت له يدها المقفزة في قفاز ابيض من جلد الجدي ، وصافحته بقوة ومودة :

– لطيف ان التقي بك . بل وفكرت اليوم فيك . . . صدقني ، لقد فكرت ، – وهزت راسها ، واهتزت الزهور البيضاء على قبعتها .

– كانت لدي مهمة في جادة نيفسكي ، وانا الآن حر طوال اليوم ، يا داريا دميتريفنا . ما اروع الطقس اليوم . . . – وغضن شفتيه محاولا بكل طاقته الا تنفرجا عن ابتسامة .

سالت داشا :

– يا ايفان ايليتش هل تستطيع ان توصلني الى البيت ؟

وانعطفا في شارع جانبي ، وسارا الآن في الظل .

– ايفان ايليتش ، هل سيبدو لك غريبا لو اسالك عن شيء ؟ لا ، بالطبع ، انا استطيع ان اتحدث معك . شرط ان تجيبني راسا . اجبني دون تردد ، وعلى الفور . اجبني في اللحظة التي اسالك فيها .

ولاح الهم على وجهها ، وقطبت حاجبيها . وقالت ، وهي تشق الهواء بذراعها :

– من قبل كنت اتصور ان هناك لصوصا ، وكذابين وقتلة . . . وهم موجودون في مكان ما ، مثل الثعابين ، والعناكب ، والفئران . ولكن البشر ، كل البشر – وقد تكون لهم مواطن ضعف ، ونزوات ، الا انهم جميعا طيبون ، واضحون . . . انظر الى تلك الفتاة القادمة . انها كما تراها وباطنا . وكان العالم كله يبدو لي وكانه ملون بالوان فاتنة . هل انت تفهمني ؟

– ذلك شيء رائع ، يا داريا دميتربيفنا . . .

– عـلى مهلك . امـا الآن فكانني اغوص فى هذه الصورة ، الى الظلام واحتباس الهواء . . . انا اعرف ، قد يكون الانسـان جذابا ، بل لطيفـا ، حلوا حلاوة يمكن ان تتلمسهـا ، ولكنـه فى نفس الوقت يذنب ذنوبا فظيعة . وانـا لا اقصد انـه يسرق الفطائر من الدولاب ، بل يأثم اثما حقيقيـا : يكذب ، – واشاحت داشـا بوجههـا ، وارتعش حنكهـا – ان هذا الرجـل فاسـق بامرأة متزوجـة . وانـا اريد ان اسالك : هـل يجوز هذا يـا ايفـان ايليتش ؟

– لا ، لا يجوز .

– ولماذا لا يجوز ؟

– لا استطيع ان اقول ذلك الآن ، ولكننى اشعر بانه لا يجوز .

– وهل تظن اننى لا اشعر بذلك ؟ منذ الساعة الثانية وانا اهيم حزينة . الجو اليوم صاف منعش ، بينما انا اتصور ان فى هذه البيوت ، وراء الستائر ، يختفى اناس سود القلوب . وعلى انا ان اعيش معهم . هل تفهم ؟

اجاب بسرعة :

– لا ، لا افهم .

– كلا ، على ان اعيش معهم . آه ، ما اعمق الحزن فى قلبى . اذن فانا مجرد فتاة صغيرة . وهذه المدينة لم تشيد للفتيـات الصغيرات ، بل للكبار .

وتوقفت داشا عند مدخـل البيت ، وراحت تدفـع على الاسفلت ، براس حذائها العالى ، جيئة وذهوبا ، علبة سيكارة فارغة رسمت عليها سيدة باللون الاخضر تنفث الدخان من فمها . واحس ايفان ايليتش ، وهو ينظر الى راس حذائها الصقيل ، وكان داشا تذوب ، وتتلاشى كالضباب . وكان يود لو يبقيها معه ، ولكن باى قوة ؟ وكان يعرف ان هناك مثل هذه القـوة ، ويشعر انهـا تعصر قلبه ، وتاخذ بخناقه . ولكن كل شعوره بالنسبة لداشـا مجرد ظل على حائط ، لأنه هو نفسه ليس الا «ايفان ايليتش الطيب واللطيف» .

– والآن ، مع السلامة ، وشكرا لك ، يا ايفان ايليتش . انت لطيف وطيب جدا . انا لم اشعر باى ترويح ، ولكننى شاكرة لك جزيل الشكر ، على اية حال . لقد فهمتنى ، اليس كذلك ؟ تلك هى امور الدنيا . يجب ان اصبح راشدة ، ولا مفر من ذلك . زرنا فى وقت فراغك ، ارجوك .

وابتسمت ، وهزت يده ، ودخلت البيت ، وغيبها الظلام .

٦

فتحت داشا باب غرفتها ، ووقفت مذهولة . فقد شمت فى الغرفة رائحة زهور رطبة ، وفى اللحظة التالية وقعت عيناهـا على سلة زهور عالية المقبض ، مزينة بشريط ازرق ، موضوعة على منضدة الزينة الصغيرة . ركضت نحوها ، وغمرت وجهها فيها ، انها زهور بنفسج مسحوقة مبللة .

وانفعلت داشا . كانت منذ الصباح تريد شيئا لا تعرف ما هو بالضبط ، اما الآن فقد ادركت انها كانت تريد زهر البنفسج . ولكن مَن ارسل هذه الزهور ؟ ومَن فكر فيها هذا اليوم باهتمام شديد حتى حزر ما كانت هى نفسهـا لا تعرف ما هو ؟ الا ان الشريط وحده لم يعجبها ، فقد كان فى غير محله . وفكرت داشا ، وهى تفكه :

«فتاة لا باس بها ، ولو كانت منفعلة . ستسير فى طريقها الخاص ، مهما اقترفتم من ذنوب ، ايها الآثمون . وربما تظنون انها تشمخ بانفها اكثر من اللازم ؟ ولكن هناك اناسا سوف يفهمون الانف الشامخ ، بل ويقدرونه .»

وتبين ان ورقة سميكة قد حشرت فى الشريط كتب عليها : «احبى الحب» . وفى الوجه الآخر من الورقة : «تربيـة زهور فى نيس» . اذن ، فقد كتب شخص فى محل بيع الزهور هذه جملة «احبى الحب» . وخرجت داشا الى الدهليز وسلة الزهور فى يديها ، وهتفت :

– يا مغولى ، من جلب لى هذه الزهور ؟

نظرت «المغولى العظيم» الى سلة الزهور ، وتنهدت بصدق . فان هذه الاشياء لم تكن تعنيها على الاطلاق .

– جلبها صبى من محل الزهور ليكاترينا دميتريفنا . ولكن السيدة امرتنى ان احملها لك .

– الم يقل ممن ؟

– لم يقل سوى : سلميها الى السيدة .

عادت داشا الى غرفتها ، ووقفت عند النافذة . كان الغروب يلوح من خلال زجاج النافذة ، غمر السماء من اليسار ، من وراء الحائط الآجرى للبيت المجاور ، ثم اخضوضر ، ونحل . وظهرت نجمة فى ذلك الخلاء الأخضر ، وتوامضت ، ولمعت وكانها قد غسلت لتوها . وفى الاسفل ، فى الشارع الضيق ، الذى اخذ الضباب يملاء ارجاءه ، انيرت المصابيح الكهربائية مرة واحدة على امتداده كله ، الا انها لم تكن ساطعة النور بعد ، ولا متالقة . وزعقت سيارة فى مكان قريب ، ورات داشا انها كانت تسير عبر الشارع مختفية فى ظلمة المساء .

تلبد الظلام فى الغرفة تماما ، وفاحت زهور البنفسج رائحة ناعمة . لقد ارسلها ذلك الرجل الذى اتمت كاتيا معه . كان ذلك واضحا . وقفت داشا تفكر بانها كذبابة وقعت فى شيء مثل نسيج العنكبوت ، رقيق ، ومغو . ان هذا «الشيء» كان فى رائحة الزهور الرطبة ، وفى الكلمتين المصطنعتين ، المثيرتين : «احبى الحب» ، وفى السحر الربيعى لهذا المساء .

وفجاة خفق قلبها خفقانا سريعا قويا . وشعرت داشا وكان اصابعها تمس شيئا محرما ، سريا ، لاذع الحلاوة وتراه ، وتسمعه ، وتحسه . واذا بها تطلق العنان لعواطفها ، وكانما قد صممت على ذلك بكل كيانها . وكان من المستحيل ان تفهم كيف وجدت نفسها فى تلك اللحظة فى الجانب الآخر . ذابت الصرامة ، ذلك الجدار الجليدى ، وتحولت الى ضباب ، مثل ذلك الضباب فى نهاية الشارع ، حيث انطلقت السيارة بلا صوت حاملة سيدتين فى قبعتين بيضاوين .

لم تشعر الا بخفقان قلبها ، وبدوار خفيف فى رأسها ، بينما

رنت فى جسمها كله موسيقى تلقائية مثل موجة برودة بهيجة : «انا احيا ، احب . البهجة ، الحياة ، كل الدنيا لى ، لى ، لى !»

فتحت داشا عينيها ، وقالت بصوت مسموع :

– اسمعى ، يا عزيزتى . انت ما تزالين فى نقاب عذرتك ، وخلقك وعق لا يحتمل ...

ومشت الى ركن الغرفة البعيد ، وجلست فى مقعد وثير كبير ، وراحت تسترجع كل ما حدث فى الاسبوعين ، وهى تفض الورقة عن قطعة شوكولاته بتان وبطء .

لم يتغير شيء فى البيت . بل واصبحت كاتيا تعامل نيقولاى ايفانوفيتش بمزيد من الرقة . وكان مرح الاعطاف ، وينوى بناء بيت ريفى فى فنلنده . وكانت داشا وحدها تعانى صامتة هذه «الماساة» لانسانين اصيبا بالعمى . لم تجرا ان تفاتح اختها فى الحديث . واختها التى كانت دائما شديدة الالتفات الى تقلب امزجة داشا ، لم تفطن هذه المرة الى شيء . اوصت يكاترينا دميتريفنا على بدلتين لها ولاختها بمناسبة عيد الفصح ، فكانت تقضى ساعات عند محل الخياطة وصناعة القبعات ، وتشترك فى اسواق البر والاحسان ، وتنظم برجاء من نيقولاى ايفانوفيتش ، امسية ادبية لغرض سرى ، هو جمع المال لمنفعة لجنة الجناح اليسارى للحزب الاشتراكى الديموقراطى – او من يسمون بالبلاشفة – وتجمع الضيوف فى ايام الخميس فضلا عن ايام الثلاثاء ، وباختصار لم تكن لديها دقيقة فراغ واحدة .

وخاطبت داشا نفسها : «وانت قد جننت فى هذا الوقت ، ولم تستقرى على شيء ، ورحت تفكرين فى اشياء انت فيها كالنعجة ، لم تفهميها ولن تفهميها حتى تحرقى جناحيك» ، وضحكت داشا بخفوت . ومن تلك البحيرة المظلمة التى كانت تتساقط فيها كرات الجليد الصغيرة ، والتى لم يكن من الممكن ان يرجى منها خير ، نهضت صورة بيسونوف اللاذعة الحانقة ، كما كان يحدث كثيرا فى هذه الأيام . اباحت هى نفسها ، فاستولى هو على افكارها . وهدات داشا ، وتكتكت الساعة فى الغرفة المظلمة .

ثم صفق باب فى مكان بعيد فى البيت ، وسمعت داشا صوت اختها وهى تسأل :

– هل عادت منذ وقت طويل ؟

نهضت داشا من المقعد ، وخرجت الى الدهليز . واذا بيكاترينا دميترييفنا تقول فى الحال :

– لماذا انت محمرة ؟

كان نيقولاى ايفانوفيتش يخلع معطفه السميك وهو يروى ملحة لاذعة من مُلَح عاشق المسرح . نظرت داشا نظرة كره الى شفتيه الكبيرتين الرخوتين ، وتبعت كاتيا الى مخدعها . وجلست هناك الى منضدة الزينة الأنيقة الرقيقة كاى شىء فى هذه الحجرة ، وراحت تسمع كلام اختها الطويل عن المعارف الذين التقت بهم اثناء النزهة .

وكانت يكاترينا دميترييفنا اثناء الحديث ترتب الاشياء فى دولابها ذى المرآة ، الحافل بالقفازات ، وقطع الدنتلا ، والبراقع ، والاحذية الحريرية – مجموعة كبيرة من الاشياء التافهة العابقة بالعطور التى تستخدمها : «يظهر ان كرينسكى خسر القضية مرة اخرى ، وهو الآن بلا نقود . التقيت بزوجته . انها تتشكى ، وتقول الحياة اضحت صعبة . وفى بيت تيميريازيف حسبة . وشينبرغ عاد الى امراته الهستيرية مرة اخرى ، بل ويقال انها اطلقت النار على نفسها فى شقة . هذا هو الربيع ! وما اجمل الطقس اليوم ! جميع الناس يتجولون فى الشوارع كالسكارى . عندى خبر آخر . التقيت باكوندين ، وهو يؤكد بان الثورة ستندلع عندنا فى القريب العاجل . الهيجان فى المصانع ، والقرى ، وفى كل مكان . ليتها تقع فى اقرب وقت . فرح نيقولاى ايفانوفيتش فرحا شديدا حتى انه اخذنى الى مطعم «بيفاتو» ، فشربنا هناك زجاجة شمبانيا ، نخب الثورة المقبلة ، هكذا ، راسا» .

كانت داشا تستمع الى اختها صامتة ، وهي ترفع وتنزل غطاءات القوارير البلورية . ثم قالت فجأة :

– كاتيا لا حاجة لأحد بى كما انا خُلِقت .

فالتفتت يكاترينا دميترييفنا وجوربها الحريرى فى يدها ، وتفرست فى اختها . فتابعت هذه قولها :

– والشىء المهم اننى انا ايضا ، لست بحاجة لنفسى وانا

على طبيعتى هذه . انا كمَن قرر ان يعيش على الجزر النى ، واعتبر نفسه ارفع بكثير من الآخرين .

قالت يكاترينا دميترييفنا :

– انا لا افهمك .

نظرت داشا الى ظهرها ، وتنهدت .

– جميع الناس ، حسب رأيى ، سيئون . وانا ادينهم . بعضهم حمقى ، وبعضهم مقرفون ، والبعض الآخر قذرون . وانا وحدى الفاضلة . انا هنا غريبة ، وذلك يرهقنى كثيرا . انا ادينك انت ايضا ، يا كاتيا .

فسالته يكاترينا دميترييفنا بهدوء ، دون ان تلتفت اليها :

– لأى شىء ؟

– ارجو ان تفهمينى . انا اسير شامخة الانف ، وهذا كل ما لدى . ان ذلك حماقة صرف ، وقد ضجرت من غربتى بين الناس . وباختصار ، انا معجبة كثيرا برجل ما .

كانت داشا تتحدث بذلك منكسة الراس ، فقد دست اصبعها فى فم قارورة بلورية ، ولم تستطع ان تخرجها منه .

– حمدا لله ، يا فتاتى ، على انك معجبة برجل . ستكونين سعيدة ، فان لم يسعدك الله فمن يسعد ؟

وارسلت يكاترينا دميترييفنا تنهيدة خفيفة .

– ولكن ذلك ليس بهذه البساطة . اظن اننى لا احبه .

– اذا كان يعجبك فسوف تحبينه .

– تلك هى المسالة . انه لا يعجبنى .

عند ذاك سدت يكاترينا دميترييفنا باب الدولاب ، وتوقفت عند داشا .

– قبل لحظة قلت انك معجبة . . . يا للغرابة . . .

– ارجوك ، يا كاتيا ، الا تتسرعى فى لومى . انت تذكرين الانجليزى الذى كان فى سيسترورتسك . لقد اعجبت به ، بل احببته . ولكننى كنت آنذاك على طبيعتى . حنقت ، وتواريت ، وبكيت فى الليالى . اما هذا الرجل . . . انا لا اعرف هل هو الذى . . . نعم ، هو ، هو . . . هز سكينة نفسى . . . وانا الآن فتاة اخرى كلية ،

كأننى شممت مبخرة ... لو دخل الى غرفتى الآن لاستطاع ان يفعل كل ما شاء دون اى اعتراض من جانبى ...

– ما هذا الذى تقولينه ، يا داشا ؟

وجلست يكاترينا دميتريبفنا على مقعد الى جانب اختهـا ، وجذبتها نحوها ، وامسكت يدها الحارة ، وقبلت باطن كفها ، الا ان داشا تحررت من طوقها ببطء ، وزفرت ، واسندت رأسها على يدها ، وحدقت طويلا فى النافذة ، المصطبغة بالزرقة ، والى النجوم .

– داشا ، ما اسمه ؟

– الكسى الكسيفيتش بيسونوف

عندئذ انتقلت كاتيا الى مقعد مجاور ، ووضعت يدها على حنجرتها ، وجمدت فى جلستها . لم تر داشا وجهها ، فقد كان كله فى الظل ، ولكنها شعرت بانها فاهت لها بشىء مريع .

«هذا افضل» فكرت داشا مع نفسها ، وهى تستدير بجسمها واشعرت بعد هذه الجملة بخفة وخواء .

– قولى لى ارجوك ، لماذا يستطيع الآخرون كل شىء ، وانا لا استطيع ؟ منذ عامين وانا اسمع عن الف اغراء واغراء وطوال حياتى لم اذق طعم القبل الا مرة واحدة ، قبلنى فيها تلميذ فى المدرسة الثانوية فى حلبة التزحلق .

وتنهدت بقوة ، وصممت . وكانت يكاترينا دميتريبفنا فى تلك اللحظة تجلس منحنية الظهر ، ويداها على ركبتيها . قالت :

– بيسونوف شخص سيىء جدا . انه فظيع ، يا داشا . هل تسمعيننى ؟

– نعم .

– انه سيحطمك كليا .

– وما العمل الآن ؟

– انا لا اريد ذلك . دعى الأخريات ... لا انت ، لا انت ، يا عزيزتى .

قالت داشا :

– يقولون ان الغراب الصغير سيىء لأنه اسود جسدا وروحا . قولى لى : بم بيسونوف سيىء ؟

– لا استطيع ان اقول ... لا اعرف ... ولكن الرجفة تسرى فى جسدى ، حين افكر فيه .

– ولكنك ، انت ايضا كنت معجبة به بعض الشىء ؟

– ابدا ... انا اكرهه ! .. فليحفظك الله منه .

– اذن سأقع فى شراكه لا محالة . سأقع فى حبائله .

– ما هذا الحديث ؟ .. لقد جننا ، كلتانا .

الا ان داشا راق لها هذا الحديث بالذات ، وكأنها كانت تسير على لوحة ضيقة على اطراف اصابعها . التذت بانفعال اختها . ولم تفكر فى بيسونوف تقريبا ، الا انها تعمدت اظهار عواطفها نحوه ، ووصفت لقاءاتهما ، ووجهه . وضخمت كل ذلك ، وبدا وكأنها تقضى الليالى بطولها مؤرقة تفكر فيه ، وهى الآن مستعدة للارتماء فى احضانه . واخيرا بدا الأمر مضحكا لها نفسها ، وودت ان تمسك كاتيا من كتفيها ، وتقبلها قبلا كثيرة قائلة لها : «اذا كانت ثمة حمقاء ، فهى انت ، يا كاتيا» . الا ان يكاترينا دميتريبفنا انزلقت فجأة من المقعد الى البساط ، وطوقت داشا ، ووضعت وجهها على ركبتيها ، وصرخت بصوت مفزع ، وجسمها كله يرتعش :

– اعذرينى ، اعذرينى ... داشا اعذرينى !

وهلعت داشا . انحنت نحو اختها ، ومن الفزع والشفقة اخذت تبكى هى ايضا مجهشة بالبكاء ، وراحت تتساءل : عم تتحدث ، وعلى اى شىء اعذرها ؟ الا ان يكاترينا دميتريبفنا كزت على اسنانها ، واكتفت بملاطفة اختها ، وتقبيل يديها .

اثناء الغداء نقل نيقولاى ايفانوفيتش بصره من واحدة الى اخرى، وقال :

– طيب . وانا ايضا الا يجوز ان اعرف سبب تلك الدموع ؟

ردت داشا فى الحال :

– سبب الدموع هو مزاجى المتعكر . فاطمئن ، ارجوك ، فانا اعرف بنفسى ، دون معونتك ، اننى لا اساوى خنصر زوجتك .

وجاء ضيوف فى وقت احتساء القهوة ، بعد الغداء . فقرر نيقولاى ايفانوفيتش ان من الضرورى الذهاب الى احد المطاعم بسبب حالة العائلة النفسية . واخذ كوليتشيك يتلفن الى الكراج ،

وطلبوا من كاتيا وداشا الذهاب لتتهيأ للخروج . وجاء تشيرفا ، ولما عرف انهم ينوون الذهاب الى مطعم اعتراه غضب مفاجيء .

– مَن المتضرر فى نهاية الأمر بنتيجة المنادمات التى لا تنتهى ؟ الادب الروسى ، بالطبع .

الا انهم اخذوه هو ايضا فى السيارة مع الآخرين .

كان مطعم «بلميرا الشمالية» غاصا بالناس وصاخبا . وكانت قاعته الهائلة فى الطابق الارضى مترعة بالضوء الساطع المشع من الثريات البلورية . وكانت المرايا – الجدران تضاعف بانعكاستها الثريات ، ودخان السيكائر ، المتصاعد من الأسفل ، والموائد المصفوفة بعضها قرب بعض ، والرجال فى بذلات الفراك ، واكتاف النساء العارية ، والباروكات الملونة على رؤوسهن – خضراء ، وليلقية ، وشائبة ، والزركشة الناصعة البياض على قبعاتهن ، والاحجار الكريمة ، المتلألئة على نحورهن وآذانهن ، بلالاء برتقالى ، وازرق ، وياقوتى ، والندل المارقين فى الظلام ، وشخصا مهزولا رافعا ذراعيه ، وعصاه السحرية تشق الهواء امام ستارة المخمل القرمزى ، والتماع ادوات الموسيقى النحاسية ، كل ذلك قد ضاعفته المرايا اضعافا مضاعفة ، حتى بدا وكان البشرية كلها ، والعالم اجمع يجلس فى منظورات لا نهائية .

كانت داشا تراقب الموائد وهى تمتص الشمبانيا من خلال قصبة . ها هو رجل حليق مبودر الخدين يجلس امام جردل شمبانيا مثلج ، وقشور سراطين البحر . عيناه نصف مغمضتين ، وفمه مزموم بازدراء . والظاهر انه فى جلسته هذه يفكر بأن الكهرباء ستنطفئ آخر المطاف ، ويموت جميع الناس ، ولا يستحق ان يفرح الانسان بشيء .

وها هى الستارة قد اهتزت ، وانفرجت الى الجانبين . وقفز الى المسرح يابانى صغير ذو غضون مفزعة ، ولاحت فى الهواء حوله كرات زاهية الالوان ، وصحون ، ومشاعل . وفكرت داشا مع نفسها : «لماذا قالت كاتيا : اعذرينى ، اعذرينى ؟» وفجأة شعرت وكان راسها يضغط ، وقلبها يتوقف عن الخفقان . «معقول ؟» غير انها هزت راسها طاردة الافكار ، وتنهدت بعمق ، واجبرت نفسها على الا تفكر بهذه الـ«معقول» . ونظرت الى اختها .

كانت يكاترينا دميتريفنا تجلس فى الطرف الآخر من المائدة ، متعبة ، حزينة ، وجميلة الى درجة جعلت عينى داشا تمتلئان بالدموع . رفعت اصبعا الى شفتيها ، ونفخت فيها خلسة . وكانت هذه اشارة متفق عليها . وقد رأتها كاتيا وفهمتها ، فابتسمت ببطء ابتسامة عذبة .

وحوالى الساعة الثانية بدأ الجدل حول المكان الذى سيذهبون اليه . طلبت يكاترينا دميتريفنا ان تستأذن بالعودة الى البيت . وقال نيقولاى ايفانوفيتش انه يلتزم بقرار الجميع . وقرر «الجميع» الاستمرار فى السهرة .

وعندئذ وقع بصر داشا على بيسونوف من خلال جمع الناس المتضائل . كان يجلس الى مائدة وقد وضع كوعه عليها فى بقعة بعيدة ، وهو يصغى باهتمام الى اكونديون الذى كان يحدثه عن شيء ما بحدة ، مخططا بظفره على غطاء المائدة ، وفى فمه سيكارة نصف مضغوطة . وكان بيسونوف ينظر الى ذلك الظفر المتحرك . كان وجهه شاحبا بادى الاستغراق . وبدا لداشا انها سمعت من خلال الصخب : «نهاية ، نهاية لكل شيء» . ولكن نادلا تتريا عظيم البطن حجبهما كليهما عن بصرها فى اللحظة التالية . نهضت كاتيا ونيقولاى ايفانوفيتش ، وناديا على داشا ، والفضول والانفعال ما برحا يعذبانها .

خرجوا الى الشارع فاذا بالقرس يباغتهم برائحة منعشة حلوة . كانت النجوم تتلألأ فى السماء السوداء الليلكية . وسمعت داشا من ورائها شخصا يقول بضحكة مقتضبة : «يالها من ليلة فاخرة على نحو شيطانى !» وتقدمت السيارة من الرصيف ، وطلع من وراء ، من غمامة البنزين المحروق رجل رث الثياب ، واختطف طاقيته ، وبحركة راقصة فتح باب السيارة امام داشا . القت داشا نظرة عليه ، وهى تدخل ، فرأته رجلا نحيلا ، وجهه غير حليق ، وفمه معوج ، وجسمه كله يرتعش ، وكوعاه مضغوطان على جبينه .

– تهانى على الامسية السعيدة فى معبد الترف وملذات الحواس !

هتف الرجل بصوت اجش وبحيوية ، ولقف بحذق قطعة نقود

صغيرة القيت له ، وادى التحية بطاقيته الممزقة . وشعرت داشا وكان عينيه السوداوين الغاضبتين تخدشانها بنظراتهما .

وصلوا الى البيت فى ساعة متأخرة . استلقت داشا فى السرير على ظهرها ، ولكنها لم تنم ، بل هومت ما بين اليقظة والنوم ، وكان جسمها كله قد تخدر تعبا شديدا .

وفجاة ازاحت الدثار عن صدرها بأنة ، وقعدت ، وفتحت عينيها . كانت الشمس تسطع من النافذة على ارض الغرفة . . . «يا الهى اى رعب كان منذ لحظة ؟!» وكادت تبكى من شدة الفزع ، ولكن حين استجمعت شتات نفسها كانت قد نسيت كل شيء . ولم يبق الا الم فى القلب من حلم رهيب كريه .

خرجت داشا ، بعد الفطور ، الى الدراسة ، وسجلت اسمها لتقدم امتحانا ، واشترت بعض الكتب ، وانغمرت فى حياة عملية صارمة حقا حتى وقت الغداء . ولكنها فى المساء اضطرت مرة اخرى ان تلبس جوربا حريريا (فى الصباح كانت قد قررت ان تلبس جوارب قطنية فقط) ، وتبودر يديها وكتفيها ، وتعيد تصفيف شعرها . «جميل لو استطيع ان ارتب عقدة من الشعر فى قفاى ذلك لان الجميع يصيحون : اعملى تصفيفة شعر عصرية ، وكيف اعملها والشعر يتهافت تلقائيا» . وباختصار عذاب فى عذاب . والتقطت عيناها بقعة من اثر الشمبانيا فى مقدمة ثوبها الحريرى الازرق الجديد .

وفجاة شعرت بأسف شديد على هذا الثوب ، بل وعلى حياتها الضائعة ، حتى انها جلست وفى يدها تنورتها التالفة ، وراحت تنتحب . مد نيقولاى ايفانوفيتش رأسه من الباب ، غير انه رأى داشا فى قميصها الداخلى تجلس باكية ، فاستدعى زوجته . جاءت كاتيا راكضة ، واختطفت الثوب وقالت «لا تفزعى ، ستزول اللطخة فى الحال» . ونادت المغولى العظيم ، فجاءت هذه ببنزين وماء ساخن .

ونظف الثوب ، وارتدته داشا . وزعق نيقولاى ايفانوفيتش من الرواق غاضبا : «انه العرض الاول ، ولا يجوز التأخر» . ولكنهم تأخروا عن بداية المسرحية ، بالطبع .

جلست داشا فى المقصورة الى جانب يكاترينا دميترييفنا . فشاهدت على المسرح رجلا ضخما ذا لحية مستعارة ، وعينين

متسعتين على نحو غير طبيعى يقف تحت شجرة مسطحة يقول لفتاة فى رداء وردى زاه :

«احبك ، احبك» وامسك الرجل يدها . ورغم ان المسرحية لم تكن شجية ، الا ان داشا كانت تغالبها العبرة طوال العرض ، مشفقة على الفتاة ذات الرداء الوردى الزاهى ، وكان يؤلمها ان سير المسرحية لا يجرى هذا المجرى . فقد اتضح من سياقها ان الفتاة قد تحبه ولا تحبه . كانت تجابه عناقه بضحكة حورية الماء ، وتهرب الى وغد كان بنطلونه الأبيض يلوح فى آخر المسرح . امسك الرجل برأسه ، وقال انه سيحرق مخطوطة ما ، عمل العمر كله ، وينتهى الفصل الاول من المسرحية .

جاء معارف الى المقصورة ، وبدا حديث مألوف ، سريع ، ومنشط .

وصف شينبرغ المسرحية بأنها مشوقة . وشينبرغ رجل ضئيل الجسم اصلع الجمجمة ، ذو وجه حليق متغضن يبدو وكأنه يوشك طوال الوقت ان ينط من ياقته المنشاة .

– مشكلة الجنس مرة اخرى ، ولكنها مطروحة بحدة . والبشرية يجب ان تتخلص من هذه المسألة اللعينة فى نهاية الأمر .

فرد عليه بوروف ، المحقق فى القضايا الهامة جدا ، وهو رجل ضخم جهم ، ليبرالى النزعة ، هربت زوجته فى عيد الميلاد مع صاحب اسطبل لخيول السباق :

– ذلك يتوقف على الاشخاص . فالمسألة بالنسبة لى محلولة . المراة تكذب بجوهر وجودها ذاته ، والرجل يكذب بمعونة الفن . المسألة الجنسية حقارة محض ، والفن هو احد انواع الجُرْم الجنائى .

قهقه نيقولاى ايفانوفيتش ، وهو ينظر الى زوجته . فتابع بوروف حديثه بكآبة :

– حين يحين الوقت يصنع الطائر بيضة ويزدهى الذكر بذيل زاه . وهذا كذب ، لأن ذيله الطبيعى رمادى وليس زاهيا . وعلى الشجرة تتفتح زهرة ، وهذا كذب ايضا ، خداع ، والحقيقة هناك ، فى الجذور الشوهاء تحت الارض . والانسان اكثر المخلوقات كذبا . فالزهور لا تنمو عليه ، وليس له ذيل يزدهى به ، فيضطر الى ان

يستخدم لسانه : ما يسمى بالحب كذب مضاعف ومقرف ، وكذلك كل ما لف حوله . انها اشياء محاطة بالغموض فقط للفتيات فى سن غضة – ورمق داشا بطرف عينه – وفى زماننا المثقل بالحماقة ينشغل الجديون من الناس بهذه السخافة . اجل . ان الدولة الروسية تعانى من فساد المعدة .

وانكب على علبة الحلويات بتقطيبة مرضية ، وحشر بأصبعه فيها ، ولم يقع اختياره على قطعة ، ورفع الى عينيه منظارا بحريا كان متعلقا بسير من رقبته .

وتحول الحديث الى الركود فى السياسة والرجعيـــة . وقص كوليتشيك بهمس منفعل آخر فضيحة فى البلاط .

فقال شينبرغ بسرعة :

– فظاعة ، فظاعة .

ولطم نيقولاى ايفانوفيتش ركبته ، وقال :

– نحن بحاجة الى ثورة ، ايها السادة ، الى ثورة فورا . وإلا فسنختنق كليا . وعندى معلومات – وخفض هنا صوته – فى المصانع اضطراب شديد .

طارت اصابع شينبرغ العشر كلها فى الهواء من شدة الانفعال .

– ولكن متى ، متى ؟ من المستحيل ان ينتظر الانسان الى ما لا نهاية .

فقال نيقولاى ايفانوفيتش بمرح :

– سنرى حتما ، يعقوب الكسندروفيتش ، وسنعهد لــك وزارة العدل يا صاحب المعالى .

سئمت داشا من الاستماع الى هذه القضايا ، والثـورات ، والمناصب الوزارية . وضعت كوعا على مخمل المقصورة ، وطوقت باليد الأخرى خصر كاتيا ، وحدقت فى قاعة المسرح ، هازة رأسها لمعارفها بابتسامة بين الحين والآخر . كانت داشا تعرف وترى انها واختها موضع اعجاب الناس ، فكانت تلك النظرات المندهشة بين جمع الناس – نظرات الرجال الرقيقة ، ونظرات النساء الحانقـة – ونتف العبارات ، والابتسامات تخلف فى نفسها ما يخلفه هواء الربيع من احساس بالسكر . وزايلها مزاجها الباكى . ودغدغت خصلة من شعر كاتيا خدها قرب اذنها .

همست داشا :

– كاتيا ، انا احبك .

– وانا ايضا .

– هل انت مسرورة لأننى اعيش معك ؟

– جدا .

وفكرت داشا بشىء آخر لطيف تقوله لكاتيا . وفجأة وقع بصرها على تليغين فى الأسفل . كان واقفا يرتدى سترة سوداء ، ويحمل فى يديه قبعته ، وبرنامج الحفلة ، وكان منذ وقت طويل يختلس النظر الى مقصورة آل سموكوفنيكوف ، دون ان يرفع رأسه مخافة ان يلحظ . وكان وجهه الملوح القوى يبرز واضحا بين الوجـوه الأخرى اما لشدة بياضها ، او هزالها . وكان شعره اكثر شقـرة مما كانت تتصوره ، فقد كان بلون الشوفان .

التقت عيناه بعينى داشا فانحنى تحية لها فى الحال ، ثـم استدار ، الا ان قبعته سقطت منه . ولما انحنى ليرفعها ، اصطدم بسيدة بدينة جالسة فى مقعد وثير ، فاخذ يعتذر ، وصعد الدم الى وجهه ، وتراجع وداس على قدم محرر المجلة الجمالية «جوقـــة الموزيات» . قالت داشا لاختها :

– هذا هو تليغين .

– أواه ، انه لطيف جدا .

– من لطفه وددت لو اقبله . ليتك تعرفين اى ذكاء له ، يا كاتيا .

– داشا ، هذا . . .

– ماذا ؟

الا ان اختها صمتت . وفهمت داشا فصمتت ايضا . وعــاد قلبها الى انقباضه ، وسرى الاضطراب داخل قوقعتها . سرحـت هنيهة ، وبعد ان نظرت من جديد الى تلك الاعماق ، رأت الظلام والرهبة هناك .

وحين انطفأت الانوار ، وانفرجت الستارة على الجانبين ، تنهدت داشا ، وكسرت كسرة من شوكولاته ، ووضعتها فى فمها ، واخذت تصغى بانتباه .

مازال الرجل ذو اللحية المستعارة يهدد بحرق المخطوطـة ،

والفتاة تسخر منه ، وهي جالسة الى البيانو . وكان واضحا ان من الضروري ان تتزوج هذه الفتاة باقصى سرعة ممكنة ، لكي لا يجرجر الحبل خلال ثلاثة فصول .

رفعت داشا عينيها الى سقف القاعة ، فرأت عليه صورة امرأة حسناء نصف عارية تطير بين السحب ، وعلى ثغرها ابتسامة صافية . وقالت لنفسها : «يا آلهي ، ما اشبهها بي !» وفي الحال رأت نفسها بعين اخرى : مخلوقة في مقصورة تأكل الشوكولاته ، وتكذب ، وتتورط ، وتنتظر ذلك الشيء غير المألوف يحدث من تلقاء نفسه . ولكن لا شيء يحدث «ولا حياة لي حتى اذهب اليه ، واسمع صوته ، واحس بكل كيانه . اما سائر الاشياء فكذب . المهم ان يكون المرء نزيها» .

ومنذ ذلك المساء كفت داشا عن التردد . لقد عرفت الآن انها لا بد ذاهبة الى بيسونوف ، وخشيت تلك الساعة . عزمت مرة ان تسافر الى ابيها في سامارا ، الا ان فكرت بان الالف والخمسمائة كيلومتر ، لا تحميها من الغواية ، فهزت يدها ، وكأنها تقول وليكن ما يكون .

وخنقت انوثتها العذراء الناضجة بالعافية ، ولكن ما كان في وسعها ان تفعل شيئا ازاء «الشخص الثاني» في داخلها اذا كان العالم كله يعينه عليها . واخيرا كان مهينا على نحو لا يطاق ، ان تتعذب وتفكر طويلا جدا ببيسونوف هذا ، الذي لا يريد حتى ان يعرفها ، ويعيش خالي البال مستمتعا بحياته في مكان قرب جادة كامينواوستروفسكي ، وينظم الاشعار عن فتاة ترتدي تنورات مدنتلة . بينما هي ، داشا ، قد امتلأت به الى آخر قطرة ، وذابت فيه .

واخذت داشا ، الآن ، تتعمد تصفيف شعرها مبسطا ، وتلفه كالعقدة على علياتها ، وتلبس ثوبا قديما – مدرسيا – جلبته من سامارا ، وتستظهر القانون الروماني حزينة جهماء ، ولا تخرج الى الضيوف ، وتمتنع عن التسليات . ولكن التمسك بالنزاهة لم يكن بالأمر الهين كما تبين . فقد جبنت داشا في الواقع .

في مساء منعش البرودة في بداية نيسان ، سارت داشا من الجزر الى البيت ماشية ، وكان الغروب قد خفت ، وشعت السماء

الليلكية الضاربة الى الخضرة ، بنور فسفوري ، دون ان تلقى ظلالا .

في البيت قالت داشا انها ذاهبة للدراسة ، وفي الحقيقة انها ركبت الترام الى جسر يلاغين ، وقضت المساء كله تجوب الممرات الجرداء الاشجار ، وتعبر القناطر ، وتنظر في الماء ، وفي الاغصان الليلكية المتسطحة في وهج الغروب البرتقالي ، والى وجوه المارة ، والى اضواء العربات ، ووراء جذوع الاشجار المطحلبة . وكان فكرها خاليا ، وخطواتها متئدة .

كانت السكينة ترين على نفسها ، وهواء البحر الربيعي المالح قليلا يتغلغل في كل كيانها . تعبت قدماها ، ولكنها لم ترد ان تعود الى البيت . كانت العربات تنطلق عدوا في جادة كامينواوستروفسكي ، وتمرق السيارات مروقا ، ويتمشى المتنزهون جماعات متبادلين النكات والضحكات . وانعطفت داشا في شارع جانبي .

كان الشارع هادئا تماما وخاليا . وكانت السماء فوق سقوف البيوت خضراء . وكانت الموسيقى تتسرب من خلال الستائر المسدلة في كل بيت . في هذا البيت يتعلم احد عزف سوناتة ، ومن ذاك تأتي موسيقى فالس مألوفة اليفة ، ومن تلك النافذة للعلية المصطبغة بحمرة الغروب الكامدة يصدح كمان .

وشعرت داشا ، وقد افعمت الاصوات قلبها ، بان كيانها كله يترنم ايضا ، ويحن . وبدا وكان جسدها قد امسى خفيفا نقيا .

استدارت في منعطف ، وقرأت رقم دار على الحائط ، وتبسمت . وتقدمت من بابه الامامي الذي دقت عليه تحت رأس اسد برونزي بطاقة زيارة كتب عليها «أ . بيسونوف» . وقرعت الجرس بقوة .

٧

كان الحاجب في مطعم «فينا» يساعد بيسونوف على خلع معطفه ، فقال له بلهجة ذات معنى :

– يا الكسي الكسييفتش ، ان شخصا ينتظرك .

– من ؟
– انثى .
– من هى ؟
– لا تعرفها .

سار بيسونوف الى الركن القصى من قاعة المطعم ، وهو ينظر فوق الرؤوس بعينين فارغتين . احنى لسكوتكين رئيس الندل سبلتيه الجانبيتين الشيباوين على كتفى بيسونوف ، وقال ان طبق اليوم الممتاز هو من لحم الضأن . فقال له بيسونوف :

– لا اريد ان آكل . قدم لى نبيذى الابيض المفضل .

وجلس بادى الوقار ، مرفوع الصدر ، واضعا يديه على الخوان . فى هذه الساعة ، وفى هذا المكان كانت تنتابه فى العادة حالة متكررة من الالهام الكئيب . كانت جميع انطباعات اليوم تندمج فى شكل منسق مدرك ، وفى داخله ، فى الأعماق المتأججة بعزف الكمانات الرومانية ، وروائح العطور النسائية ، واحتباس الهواء فى قاعة المطعم المكتظة بالناس كان يظهر ظل لهذا الشكل الآتى من الخارج ، وهذا الظل هو الالهام . وكان يشعر بانه يتوصل الى المعنى الخفى للاشياء والكلمات بحاسة تلمس داخلية عمياء .

رفع بيسونوف قدح النبيذ ورشف منه دون ان يباعد بين اسنانه . كان قلبه يخفق ببطء . وكان يخامره شعور بالراحة لا يوصف متغلغلا فى كامل كيانه المتشبع باصوات الموسيقى والناس .

وعلى مائدة مقابلة قرب المرآة كان يتعشى سابوجكوف ، وانتوشكا ارنولدوف ، ويلزافيتا كيبفنا . وكانت هذه قد ارسلت الى بيسونوف بالأمس رسالة طويلة ، وحددت له موعدا للقاء هنا ، وهى الآن جالسة محمرة منفعلة . كانت ترتدى ثوبا من قماش مخطط بالاسود والاصفر ، وتضع فى شعرها عقدة بهذا اللون . وحين دخل بيسونوف احست بضيق فى تنفسها .

– كونى على حذر ، انه هجر الفنانة ، وهو الآن من غير امرأة ، وخطر ، كالنمر ، — همس لها ارنولدوف كاشفا راسا عن اسنانه الذهبية والمسوسة .

وضحكت يلزافيتا كيبفنا ، واهتزت عقدتها المخططة ، وسارت بين الموائد الى بيسونوف ، تحت نظرات الناس وتكشيراتهم .

اضحت حياة يلزافيتا كيبفا فى المدة الأخيرة مضجرة للغاية ، كانت الايام تتابع دون ما عمل تنغمر به ، ودون امل فى حال افضل . وبكلمة واحدة سأم محض . وكان واضحا ان تليغين ينفر منها . كان يعاملها بلطف ، ولكنه كان يتجنب ان يتحدث اليها او يلتقى بها على انفراد . بينما كانت هى تشعر بانها بحاجة اليه بالذات . فكانت ، اذا تردد صوته فى الرواق ، تحدق فى الباب تحديقة نافذة . وكان يسير فى الممر على اطراف اصابعه دائما . بينما كانت هى تنتظر ، واجمة القلب ، والباب يتراءى ذائبا امام بصرها ، الا انه كان يمر بها ، شانه كل مرة ، دون ان يتوقف ليطرق الباب على الاقل ويطلب عود ثقاب .

قبل بضعة ايام اشترت احد كتب بيسونوف ، مناكدة جيروف الذى كان يعيب كل شىء فى هذه الدنيا بحذر قط ، قطعت اوراق الكتاب بمكواة الشعر وقراته عدة مرات متتابعة ، ودلقت عليه القهوة ، وجعدته وهى تقرا فى السرير ، واخيرا اعلنت ، عند الغداء انه عبقرى ... انفعل نزلاء شقة تليغين . ووصف سابوجكوف بيسونوف بانه دملة فى جسم البرجوازية المتفسخ . ونضح عرق على جبين جيروف . وكسر الرسام فاليت صحنا . وبقى تليغين وحده غير مبد اهتماما . وعند ذاك حدث فى نفسها ما يسمى بـ«لحظة استفزاز النفس» . فراحت تقهقه ، وذهبت الى غرفتها ، وهناك كتبت الى بيسونوف رسالة متحمسة سخيفة ، تطلب فيها ان تلتقى به ، وعادت الى غرفة الطعام ، والقت الرسالة على المائدة ، صامتة . قرا النزلاء الرسالة بصوت عال ، وتناقشوا طويلا . وقال تليغين :

– رسالة جريئة جدا .

عندئذ سلمت يلزافيتا كيبفنا الرسالة الى الطباخة ، لترميها فى صندوق البريد فى الحال . وشعرت بانها تندفع فى هاوية .

والآن ، وهى تتقدم من بيسونوف ، بادرته قائلة بخفة :

– كتبت لك ، فجئت . شكرا .

وجلست قبالته فى الحال ، مديرة جنبها الى المائدة ، واضعة ساقا على ساق ، مركزة كوعها على الخوان ، مسندة ذقنها على راحة يدها ، وانشأت تنظر الى بيسونوف بعينيها المرسومتين على ما تبدوان . لزم بيسونوف الصمت . جلب النادل قدحا ثانيا ، وصب فيه النبيذ ليلزافيتا كيبفنا . قالت الفتاة :

– ستسال ، طبعا ، لماذا اردت ان اراك .

– لا ، لن اطرح هذا السؤال . اشربى نبيذك .

– انت محق ، فليس عندى ما اقوله . انت تحيا ، يا بيسونوف ، وانا لا . مجرد انني ضجرة .

– ماذا تمارسين ؟

– لا شىء . – وضحكت ، وصعد الدم الى وجهها فى الحال . – يضجرني ان اصبح محظية . انا لا اعمل شيئا . انا فى انتظار ان تصدح الابواق ، ويندلع الوهج . . . ايبدو ذلك غريبا لك ؟

– ومن انت ؟

لم تجب ، واطرقت براسها ، وازداد احمرار وجهها ، ثم همست :

– انا طيف .

ابتسم بيسونوف ابتسامة متكلفة ، وفكر مع نفسه : «بلهاء انها بلهاء» . الا ان لشعرها الذهبى مفرقا محببا للنفس ، مفرق آنسة ، وبدت كتفاها الممتلئتان المكشوفتان بشدة نقيتين حتى ان بيسونوف ابتسم مرة اخرى اكثر طيبة ، ومص قدح النبيذ من خلال اسنانه ، وتولدت فى نفسه رغبة مفاجاة فى ان ينفث على هذه الفتاة الساذجة دخان خياله . فذكر لها ان ليل العقاب الرهيب فى سبيله الى ان يخيم على روسيا ، وانه يتحسس ذلك ، بامارات خفية منحوسة .

– لا بد انك قد شاهدت فى المدينة اعلانا ملصقا على الجدران يصور شيطانا مقهقها يندفع هابطا سلما هائلا على اطار سيارة . . . اتفهمين ما يعنى هذا ؟

نظرت يلزافيتا كيبفنا الى عينيه الثلجيتين وفمه الانثوى ، وحاجبيه النحيلين المرفوعين ، والى ارتجاف اصابعه الخفيف وهى تحمل القدح ، والى احتسائه النبيذ بنهم وببطء . ودار راسها

دورانا ممتعا . وعلى مسافة بعيدة بدا سابوجكوف يرسل الايماءات لها . وفجاة التفت بيسونوف ، وسال عبوسا :

– من هؤلاء الناس ؟

– انهم اصدقائى .

– لم تعجبنى ايماءاتهم .

عندئذ قالت يلزافيتا كيبفنا دون ترو :

– لنذهب الى مكان آخر ، الا ترغب ؟

تفرس بيسونوف فيها . كانت عيناها محولتين قليلا ، وفمها يفتر عن بسمة خفيفة ، وقد ظهرت حبات عرق صغيرة على صدغيها . وفجاة احس بلهفة الى هذه الفتاة القوية والمعافاة القصيرة النظر ، فامسك بيدها الكبيرة الحارة التى كانت مستقرة على المائدة ، وقال :

– اما ان تنصرفى الآن . . . واما ان تلزمى الصمت . تعالى – من الضرورى التصرف على هذا النحو .

اكتفت يلزافيتا كيبفنا بان ارسلت زفرة قصيرة ، وغاض الدم من وجنتيها . ولم تشعر كيف نهضت ، وامسكت بيسونوف بيدها ، وسار الاثنان بين الموائد . وحين جلسا فى العربة لم تستطع الريح نفسها ان تبرد جلدها الملتهب . قرقعت العربة على بلاط الشارع . استند بيسونوف على مقبض عصاه بكلتا يديه ، ووضع حنكه عليهما ، وقال :

– عمرى خمسة وثلاثون عاما ، ولكن الحياة انتهت ولن يخدعنى الحب بعد الآن . اى شىء اكاب من ان يكتشف المرء فجاة بان جواد الفارس ما هو الا حصان من خشب ؟ وما يزال الى الامام وقت طويل جدا – اجرجر نفسى فى هذه الحياة كالجثة – والتفت وانفرجت شفتاه عن بسمة هازئة – يبدو ان على ايضا ان انتظر مثلك حتى تصدح ابواق اريحا . حسنا ، جميل لو يرتفع فجاة من هذه المقبرة صداح الابواق ! وينتشر الوهج فى ارجاء السماء . . . نعم ، يبدو انك على حق . . .

وصلا الى فندق خارج المدينة . قادهما النادل الناعس عبر دهليز طويل الى الغرفة الوحيدة التى بقيت شاغرة . وهى غرفة واطئة السقف اوراق جدرانها حمراء ، مشققة ، مبقعة . وكان ثمة

سرير كبير قد وضع عند الجدار تحت ظليلة حائلة اللون ، وعند قدمي السرير مغسلة قصديرية . وكانت الحجرة تفوح برطوبة محبوسة ، وعطن تبغ . سألت يلزافيتا كييفنا ، وهى عند الباب ، بصوت لا يكاد يسمع :

— لماذا جئت بى الى هنا ؟

سارع بيسونوف يجيب :

— لا ، لا ، سنرتاح هنا .

خلع معطفها وقبعتها ، ووضعهما على مقعد مخلوع . جلب النادل زجاجة شمبانيا ، وتفاحات صغيرة ، وعنقود عنب معفر بالنشارة الفلينية ، ونظر الى المغسلة ، واختفى عبوسا كما كان .

ازاحت يلزافيتا كييفنا الستارة عن النافذة ، فرأت مصباحا غازيا يضئ وسط العراء الرطب ، وصهاريج ضخمة يسوقها أناس متكورون تحت ظليلات الخيش . ابتسمت بكآبة واقبلت على المرآة ، واخذت تسوى شعرها بحركات جديدة غير مألوفة اليها نفسها . وفكرت مع نفسها هادئة : «غدا حين اثوب الى رشدى اجن» وعدلت العقدة المخططة . سأل بيسونوف :

— اتريدين نبيذا ؟

— نعم ، اريد .

جلست على الاريكة ، واقعى هو عند قدميها على البساط ، وقال فى تأمل :

— ان لك لعينين مخيفتين : وحشيتين وبديعتين . عينان روسيتان . اتحبينني ؟

وعاودها الذهول مرة اخرى ، الا انها حدثت نفسها فى اللحظة التالية : «لا ، ذلك هو الجنون بعينه» . تناولت القدح من يديه مترعا بالنبيذ ، وشربت ، وفى الحال دار رأسها ببطء ، وكأنها تنهار . قالت وهى تتسمع كلماتها وكأنها ليست كلماتها وكأنها تتردد من بعيد :

— انني اخاف منك ، وسأكرهك لا بد لا تنظر الى هكذا ، تخجلني .

— انت فتاة غريبة .

— بيسونوف ، انت رجل خطير جدا . انا من عائلة على

المذهب الدينى القديم ، وانا اؤمن بوجود الشيطان . . . اوه ، يا آلهى ، لا تحدق بى هكذا . انا اعرف ، لماذا اردتنى . . . انا اخشاك .

وضحكت بصوت عال ، وارتج كل جسدها من ضحكها ، وطرطش النبيذ من القدح فى يدها . وانزل بيسونوف وجهه على ركبتها . وقال بصوت يائس ، وكان خلاصه كله الآن فى يديها :

— احبينى . . . اتوسل اليك ان تحبينى . . . انا مرهق . . . واحس بالرهبة . . . رهبة الوحدة . . . احبينى . . . احبينى . . .

وضعت يلزافيتا كييفنا يدها على رأسه ، واغمضت عينيها .

قال انه فى كل ليلة تتملكه رهبة الموت . ويجب ان يستشعر وجود انسان قريبا منه ، الى جانبه ، يأسو له ، ويدفؤه ، ويهب نفسه له . ذلك عقاب ، عذابات . . . «نعم ، نعم ، اعرف . . . ولكننى قد فقدت الحس بسبب البرد . وقلبى قد توقف . ادفئينى . انا بحاجة الى القليل . واشفقى على ، فانا اموت . لا تتركينى وحيدا ، ايتها الفتاة الطيبة ، الطيبة . . .»

صمتت يلزافيتا كييفنا رعبا واضطرابا . بينما راح بيسونوف يقبل راحتيها بقبلات تزداد طولا . وصار يقبل ساقيها الكبيرتين القويتين . شدت الفتاة على نفسها اقوى ، وبدا وكان قلبها قد توقف من الخجل الشديد .

وفجأة لفت نار صغيرة كل كيانها . فقد صار بيسونوف يبدو قريبا الى النفس ، بائسا . . . رفعت رأسه قليلا ، وقبلت شفتيها بقوة وبنهم . وبعد ذلك وقد زايلها الخجل خلعت ثيابها بعجالة ، واضطجعت على السرير .

وحين غفا بيسونوف ، واضعا رأسه على كتفها العارية ، ظلت تحدق طويلا بعينيها قصيرتى النظر فى وجهه الشاحب المصفر الذى انتشرت تجاعيد التعب عليه كله ، على الصدغين ، وتحت الجفنين ، وعند الفم المطبق . وجه غريب ، ولكنه الآن حبيب الى الأبد .

كان النظر الى النائم متعبا جدا حتى ان يلزافيتا كييفنا اخذت تبكى .

تصورت ان بيسونوف ، اذا ما استيقظ ، ورآها فى السرير ، مستلقية ، غير جميلة ، ذات عينين منتفختين من البكاء ، فانه سيسعى الى التخلص منها فى الحال ، ولا يمكن ان يحبها شخص

بعد الآن ، وسيتيقن الجميع من انها امراة متحللـــة ، بلهاء ، رخيصة ، وانها ستتعمد ان تفعل كل ما من شأنه ان يحملهم الى التفكير بانها تحب رجلا واحدا ، بينما منحت نفسها لرجل آخر ، وهكذا ستكون حياتها دائما مملوءة بالكدر والقذارة والاهانـــات الموجعة . اخذت يلزافيتا كيبفنا تنتحب بحذر ، وتمسح عينيها بطرف المفرش . حتى غلبها النوم ، على هذه الحال ، والدموع فى عينيها .

استنشق بيسونوف الهواء من انفـــه بعمق ، واستدار الى ظهره ، وفتح عينيه . كان جسمه كله يئن تحت وطأة انقباض لا يوصف من خمار البارحـــة ، وكان من المقرف التفكير بضرورة الشروع فى يوم جديد . امعن النظر طويلا فى كرة السرير المعدنية ، ثم تجرأ على النظـــر الى يساره . كانت امراة تنبطح الى جانبه ، على ظهرها ايضا مغطية وجهها بكوعها العارى .

«من هى ؟» وشحذ ذاكرته المضطربة ، غير انـــه لم يتذكر شيئا . سحب علبة سيكائره من تحت الوسادة بحذر ، واشعل سيكارة «اوه ، يا للشيطان ! نسيت ، نسيت ، فو ، فظاعة» .

قال بصوت متلطف :

– يبدو انك قد استيقظت . صباح الخير .

لزمت المراة الصمت ، ولم ترفع كوعها . فتابع يقول :

– بالأمس كنا غريبين . ونحن اليوم مربوطان بالعرى الخفية لهذه الليلة .

وتعبس . كان كل ذلك نوعا من الابتذال . والشىء الرئيسى انه لا يعرف ماذا ستفعل الفتـــاة الآن . اتبدى ندما وتبكى ، ام يستولى عليها فيض من مشاعر القربى ؟ مس كوعهـــا بحذر ، وتنحى . يبدو ان اسمها مارغريت . قال مهموما :

– هل انت غاضبة ، يا مارغريت ؟

عندئذ جلست مستندة على الوسائد ، واخذت ترمقه بعينيها الجاحظتين القصيرتى النظر ، وهى تمسك على صدرها قميصهـــا الليلى الساقط . كان جفناها منتفخين ، وفمها الممتلىء معوجا فى ابتسامة هازئة . وتذكر كل شىء واحس برقة كرقة اخ . قالت :

– لست مارغريت ، بل يلزافيتا كيبفنا . انا امقتك . انزل من السرير .

انسل بيسونوف من تحت الغطاء فورا ، واخذ يرتدى ملابسه ، على نحو ما ، وراء سدل السرير ، قرب المغسلة العفنة ، ثم ازاح الستارة عن النافذة ، واطفأ المصباح الكهربائى . وتمتم :

– هناك لحظات لا تنسى .

ظلت يلزفيتا كيبفنا تتابعه بعينيها الداكنتين . وحين جلس على الاريكة يدخن سيكارة ، قالت ببطء :

– سأذهب الى البيت ، وسأسمم نفسى .

– انا لا افهم مزاجك ، يا يلزافيتا كيبفنا .

– لا احتاج الى ان تفهمنى . اخرج من الغرفة ، فانا اريد ان ارتدى ثيابى .

خرج بيسونوف الى الدهليز حيث كان يسرى تيار قوى مـــن الهواء ، وتفوح رائحة غاز الكاربون . واضطر الى الانتظار طويلا . فجلس على افريز النافذة يدخن . ثم سار الى نهاية الدهليز ، حيث تنامت اليه من مطبخ صغير اصوات واطئة لنادل وخادمتين يتبادلون الحديث ، وهم يحتسون الشاى ؛ قال النادل :

– ملأت اسماعنا بقريتك . انها ليست روسيا . انت لا تفهمين شيئا ! تجولى ليلا فى الغرف ، وسترين روسيا امامك . الجميع اوغاد . اوغاد واوباش .

– كن ارق فى تعابيرك ، يا كوزما ايفانيتش .

– اذا كنت اعمل فى هذه الغرف ثمانيـــة عشر عاما ، فمعنى ذلك ان لى حقا فى ان اتكلم هكذا .

قفل بيسونوف عائدا ، فراى باب غرفته مفتوحا ، والغرفـــة فارغة . وكانت قبعته ملقاة على الارض .

وفكر : «وليكن . هذا افضل» ، وتثاءب ، وتمطـــى معدلا عظامه .

وهكذا بدا يوم جديد ، وكان يختلف عن اليوم الفائت بان ريحا قوية منذ الصباح بددت السحب الممطرة ، وساقتها نحو الشمال ، فتلبدت هناك كتلا بيضاء واسعة . كانت المدينة المبللة تغمر بسيول باكرة من نور الشمس وكانت الغيلان الهلامية الخفية

عن العين – نزلات البرد والسعال ، والعلل الخبيثة ، وعصبيات السل السوداوية تتكور على نفسها ، وتشوى ، وتغيب عن الوعى ، وحتى الميكروبات شبه الغامضة للنيورستنيا السوداء لاذت وراء الستائر ، فى ظلام الغرف والاقبية الرطبة . وكانت ريح خفيفة تهب على الشوارع . وفى البيوت كانت النوافذ تنظف وتفتح . وكان البوابون فى قمصانهم الزرق يكنسون الارصفة . وفى جادة نيفسكى كانت فتيات الشوارع ذوات الوجوه المخضرة يعرضن للسابلة باقات من زهور الثلجية المعطرة بانواع رخيصة من ماء الكولونيا . وفى المخازن كان يرفع ما هو شتوى على عجل ، وتظهر فى الواجهات الاشياء الربيعية البهيجة مثل الازهار الاولى .

طلعت صحف ما بعد الظهر كلها تحمل العناوين : «مرحبا بالربيع الروسى» . وكانت بعض القصائد ازدواجية المعنى بشكل بالغ . وباختصار استهبلت الرقابة .

وفى آخر الأمر سار فى شوارع المدينة المستقبليون من جماعة «المجمع المركزى» وسط صفير الاولاد وصيحاتهم . وكانوا ثلاثة : جيروف ، والرسام فاليت ، واركادى سيميسفيتوف الذى لم يكن معروفا لاحد آنذاك ، وهو شاب طويل القامة له وجه حصان .

كان هؤلاء المستقبليون يرتدون بلوزات قصيرة بلا احزمة من المخمل البرتقالى اللون المخطط بخطوط ملتوية سوداء ، وقد حمل كل واحد منهم منظارا احادى العدسة ، ورسم على خده سمكة ، وسهما ، وحرف «ر» . وفى حوالى الساعة الخامسة اعتقلهم مفتش الشرطة فى منطقة ليتينايا ، وحملهم فى عربة الى مركز الشرطة للتحقيق فى هوياتهم .

كانت المدينة كلها قد خرجت الى الشوارع . سارت العربات اللامعة وسيول الناس فى شارع مورسكايا ، والكورنيش ، وجادة كامينواوستروفسكى . وكانت كثرة كاثرة من الناس تتصور ان شيئا غير اعتيادى لا بد سيحصل اليوم : اما ان يوقع على بيان فى قصر الشتاء ، او ينسف مجلس الوزراء بقنبلة ، او عموما «سيبدأ» فى مكان ما . . .

الا ان الغسق قد خيم على المدينة ، واضيئت الانوار على طول

الشوارع والقنوات عاكسة على الماء الاسود ابرا متعرجة من الضوء ، ولاح غروب هائل ، داخن غائم ، من على جسور النيفا وراء مداخن مصانع انشاء السفن . ولم يحصل شىء . وومضت آخر لمعة على اشبيل قلعة بطرس وبولس ، وانتهى النهار .

عمل بيسونوف فى هذا النهار كثيرا وبشكل طيب . انعشته الاغفاءة بعد الفطور ، فاخذ يطالع جوته طويلا ، وقد اثارته المطالعة واقلقته .

سار بين رفوف الكتب ، وفكر بصوت مسموع ، وجلس بين الحين والآخر الى مكتبه يسجل الكلمات والابيات . جلبت مدبرة البيت العجوز التى كانت تعيش معه فى شقة العزوبة ابريقا من الصينى يتصاعد منه بخار قهوة الموكا .

كان بيسونوف فى لحظات من التجلى . فقد كتب ان الليل يخيم على روسيا ، وتنفرج ستارة المأساة ، والشعب الذى يعبد الله يتحول بمعجزة شان القوزاقى فى قصة غوغول «الانتقام الرهيب» الى متمرد على الله ، ويرتدى قناعا رهيبا . ويجرى الاعداد للاحتفال بالقداس الاسود على نطاق الشعب كله . وتنفتح الهاوية . وما من خلاص .

اغمض عينيه وتصور حقولا مقفرة ، وصلبانا على المدافن ، وسقوفا بددتها الريح ، وفى المدى البعيد ، وراء التلال ، هالة نيران الحرائق . امسك راسه بكلتا يديه ، وفكر بانه على هذه الصورة بالذات يحب تلك البلاد التى عرفها عن طريق الكتب والصور فقط . تغطى جبينه بالغضون العميقة ، وامتلأ قلبه برعب التنبؤ . وبعد ذلك وضع السيكارة المشتعلة بين اصبعيه وكتب ورقات مخشخشة بخطه الكبير .

وعند هبوط الظلام استلقى بيسونوف على الاريكة دون ان يشعل الضوء ، والقلق ما يزال يستولى على كيانه ، وراسه ملتهب ، ويداه نديتان . وبهذا انتهى عمله اليومى .

انتظمت دقات قلبه شيئا فشيئا ، وصارت اكثر هدوءا . والآن كان عليه ان يفكر كيف يمضى هذا المساء والليلة . اوف . . . لا احد تلفن له ، ولا زاره . يتعين عليه ان يصارع شيطان السأم وحده . ومن الطابق العلوى ، حيث كانت تعيش عائلة انجليزية ،

كان يتناهى الى سمعه عزف بيانو ، وقد بعثت هذه الموسيقى فى نفسه رغائب غامضة مستحيلة .

وفجاة رن جرس الباب الخارجى فى صمت البيت . وسمع بيسونوف خفق خطوات نعال مدبرة البيت على الارض وصوتا نسائيا معقدا :

— اود ان اراه .

ثم توقفت خطوات خفيفة دؤوب عند الباب . ابتسم بيسونوف هازئا ، ودون ان يتحرك . انفتح الباب قبل ان يطرق ، ودخلت الغرفة فتاة هيفاء نحيلة اضاءها من الخلف ضوء الدهليز ، كانت تضع على راسها قبعة كبيرة غرزت فيها زهور بيضاء ناتئة .

توقفت وسط الغرفة ، وهى لا تميز شيئا من الضوء ، وحين نهض بيسونوف من الاريكة صامتا ، تراجعت قليلا ، الا انها هزت راسها بعزيمة ، وقالت بنفس النبرة العالية :

— اتيت اليك فى امر مهم جدا .

تقدم بيسونوف من المكتب ، واضاء المصباح . تنورت ظليلة المصباح الزرقاء بين الكتب والمخطوطات ، وملأت الغرفة كلها بضوء خافت هادئ .

— ما الذى استطيع ان افعله لك ؟

قال الكسى الكسييفيتش ذلك ، وهو يشير للقادمة الى مقعد ، وجلس هو على كرسى مكتبه بهدوء ، واضعا يديه على مرفقى الكرسى . كان وجهه شديد الشحوب ، وتحت جفنيه ازرقاق . رفع عينيه الى زائرته على مهل ، وجفل ، وارتجفت اصابعه . وقال بخافت الصوت :

— داريا دميتربيفنا ، لم اعرفك فى اللحظة الاولى .

جلست داشا على المقعد بنفس الحزم الذى دخلت به ، ووضعت على ركبتيها يديها المقفزتين بقفازين من جلد الحمل ، وقطبت حاجبيها :

— انا سعيد فى زيارتك ، يا داريا دميتربيفنا . انها هدية كبيرة جدا .

قالت داشا دون ان تسمعه :

— لا تتصور ، ارجوك ، اننى من المعجبات بك . ان بعض قصائدك تعجبنى ، وبعضها الآخر لا يعجبنى ، انا لا افهمها ، ولا احبها ابدا . وانا لم اجىء مطلقا لأتحدث عن الأشعار . . . بل جئت لأنك قد عذبتنى .

وخفضت رأسها كثيرا ، فلاحظ بيسونوف ان عنقها قد احمر ، وكذلك معصماها ما بين نهاية القفازين وكمى الثوب الاسود . لزم بيسونوف الصمت ، ولم يبد حراكا .

— وبالطبع ان ذلك الامر لا يعنيك . وكم اود انا ايضا ان لا يعنينى . ولكننى اضطر الى ان اعانى ، كما ترى ، لحظات مؤلمة جدا . . .

ورفعت رأسها بسرعة ، وحدقت فى عينيه بعينيها الصارمتين الصافيتين . فاسبل بيسونوف جفنيه ببطء .

— لقد ولجت علىّ كالمرض . انا دائما اجد نفسى افكر فيك وذلك ، فى آخر الأمر ، فوق مستوى طاقتى . كان من الافضل ان اجىء ، واقول لك بصراحة . واليوم قد وطدت عزمى على ذلك . وها انا قد جئت لاعلن لك عن حبى . . .

وارتعشت شفتاها ، واسرعت فاشاحت بوجهها ، وراحت تنظر الى الجدار ، حيث علق قناع بطرس الاول مضاء من الاسفل بجفنيه المطبقين وبابتسامة ترف على فمه المطبق ، وكان محبوبا لدى جميع الشعراء فى ذلك الحين . وفى الطابق العلوى كانت عائلة الكاهن الانجليزى تغنى رباعية : «نموت» . «لا ، نطير» . «فى السماء البلورية» . «فى الفرح الخالد المخلد» .

وتكلمت داشا بسرعة وحرارة :

— وان اخذت تؤكد لى بانك تحمل مشاعر ما نحوى فاننى سأغادر على التو . انك لا تستطيع حتى ان تضمر لى الاحترام ، هذا شىء واضح . فان النساء لا يتصرفن تصرفى هذا . ولكننى لا اريد شيئا ، ولا اطلب شيئا . كنت اريد فقط ان اقول اننى احبك حبا مبرحا وعنيفا جدا . . . وقد هد هذا الحب كيانى . . . ولم يبق حتى على كبريائى . . .

وقالت لنفسها : «والآن جميل لو انهض واحيى بهزة ابية من راسى ، واخرج» . الا انها ظلت جالسة تحدق فى القناع الباسم .

وتملكها تعب طاغ يشلها حتى عن رفع يدها ، واحست فى تلك اللحظة بكل جسمها ، وبوقره ودفئه . وقالت فى سرها ، وكانها فى حلم : «اجب ، اجب الآن» . غطى بيسونوف وجهه بكفه ، واخذ يتحدث بصوت خافت مكتوم كما يتحدثون فى الكنيسة .

– لا استطيع الا ان اشكرك بكل روحى على هذا الشعور . ان مثل هذه اللحظات ، مثل هذا الشذى الذى غمرتنى به ، لا ينسى ابدا . . .

قالت داشا من خلال اسنانها :

– لا يراد منك ان تتذكرها .

صمت بيسونوف ، ونهض ، وابتعد ساندا ظهره على خزانة الكتب .

– لا يسعنى الا ان انحنى لك اجلالا ، يا داريا دميترييفنا . انا لا استحق ان اصغى اليك . ولعلى لم العن نفسى من قبل ، مثلما العنها فى هذه اللحظة . لقد بددتها ، وبذرتها ، واعتصرت نفسى كلها . بم ارد عليك ؟ ادعوك الى فندق خارج المدينة ؟ ساكون نزيها معك ، يا داريا دميترييفنا . ليس لى ما احب به . قبل بضعة اعوام كنت واثقا من اننى ما ازال قادرا على ان انهل من الشباب الابدى ، وما كنت لا سمح لك بان تغادرينى .

احست داشا ، وكانه يغرز فيها ابرا . فقد كان فى كلماته عذاب مستطيل . . .

– الآن ابدد الشراب الغالى ليس الا . ولا بد انك تدركين ما يكلفنى ذلك . ان امد يدى واتناوله . . .

همست داشا على عجل :

– لا ، لا .

– بلى . وانت تعرفين ذلك . ليس هناك احلى من اثم التبذير . والتبديد حتمى . وهذا ما جئت الىّ من اجله . من اجل تبديد كاس العفاف . . . وقد قدمتها لى . . .

وقلص عينيه ببطء . نظرت داشا الى وجهه مرعوبة مكتومة الانفاس .

– اسمحى لى بان اكون صريحا معك ، يا داريا دميترييفنا . انت شديدة الشبه باختك ، حتى من الوهلة الاولى . . .

صرخت داشا :

– ماذا ؟ ماذا قلت ؟

ووثبت من المقعد ، وتوقفت امامه . لم يدرك بيسونوف انفعالها ، ولم يحسن تأويله . شعر بانه فاقد صوابه لا محالة . استنشق منخراه طيب عطرها ، وتلك الرائحة غير المحسوسة تقريبا ، والقاهرة فى الوقت ذاته ، رائحة بشرة انثى تختلف من شخص لآخر .

– هذا جنون . . . انا اعرف . . لا استطيع صبرا . . .

همس بذلك باحثا عن يدها . الا ان داشا انتزعت نفسها ، وركضت . وعند العتبة نظرت بعينين وحشيتين ، واختفت . وصفقت الباب الخارجى بقوة . تقدم بيسونوف من مكتبه بخطوات بطيئة ، ونقر باظافره على علبة بلورية ، وتناول سيكارة . وبعد ذلك ضغط كفه على عينيه واحس بكل قوة خياله المخيفة بان الراهب الابيض المهيىء للمعركة الحاسمة قد بعث له هذه الفتاة العاطفية ، الرقيقة ، المغرية ، ليجذبه ، ويحوله ، وينقذه . الا انه واقع فى قبضة الراهب الاسود على نحو ميئوس منه ، ولا خلاص له الآن . فقد كان الجشع الذى لا يشبع والندم يحرقانه ببطء كسم يجرى فى دمه .

٨

– اهذا انت ، يا داشا ؟ ممكن ، ادخلى .

كانت يكاترينا دميترييفنا واقفة امام مرآة الصوان ، تشد عليها المشد . ابتسمت لداشا بسهوم ، وتابعت الدوران بجد واطئة البساط بنعليها الضيقين . كانت فى ملابسها الداخلية الرشيقة بالشرائط والمخرمات ، وذراعاها الجميلتان وكتفاها مبودرة ، وشعرها مصفف على شكل تاج فاخر . وعلى منضدة واطئة الى جانبها وضع قدح ماء حار ؛ وهنا وهناك مقصات للاظافر ومبارد ، واصابع احمر الشفاه وكحل الجفون ، وحقق البودرة . واليوم كان المساء بلا منهاج ، ويكاترينا دميترييفنا انشغلت «فى تنظيف ريشها» كما تعود اهل البيت ان يسموا ذلك .

قال وهى تشد جوربها :

– تصورى ان المشدات ذات الصفيحة المعدنية المستقيمة يبطل استعمالها الآن . انظرى الى هذا المشد الجديد من مدام ديوكليه . البطن اكثر تحررا بمقدار كبير ، بـــل وبارز بعض الشىء . ايعجبك هذا ؟

اجابت داشا : «لا ، لا يعجبنى» . وتوقفت عند الجوار ، ووضعت يديها وراء ظهرها . رفعت يكاترينا دميتربيفنا حاجبيها مندهشة .

– احقا لا يعجبك ؟ يا للاسف . ان لبسه مريح .

– ما هو المريح ، يا كاتيا ؟

– لعل المخرمات لا تعجبك ؟ يمكن استبدالها باخرى . عجيب ، على اية حال . لماذا لا يعجبك ؟

وادارت مرة اخرى جنبها الايمن ثم الايسر الى المرآة . قالت داشا :

– ارجوك ، اسالى غيرى هل تعجبه مشداتك .

– ولكن نيقولاى ايفانوفيتش لا يفهم شيئا فى هذا الأمر .

– لا يخص الأمر نيقولاى ايفانوفيتش ايضا .

– ما الخبر ، يا داشا ؟

بل وفغرت يكاترينا دميتربيفنا فاها اندهاشا . لاحظت الآن فقط ان داشا لا تكاد تتمالك نفسها ، وتتكلم من خلال اسنانها ، وعلى خديها بقع ملتهبة .

– يبدو لى ، يا كاتيا ، ان من الاحرى بك ان تكفى عـــن الدوران امام المرآة .

– ولكن ينبغى علىّ ان اكون فى مظهر لائق .

– لمن ؟

– ما هذا الذى تقولينه ! . .

– تكذبين .

وبعد ذلك لزمت كلتا الشقيقتين الصمت وقتا طويلا . رفعت يكاترينا دميتربيفنا من المقعد مبذلا من وبر الجمل له بطانة حريرية زرقاء ، وارتدته ، وربطت حزامه ببطء . راقبت داشا حركاتها باهتمام ، ثم قالت :

– اذهبى الى نيقولاى ايفانوفيتش ، واخبريه بكل شىء فى صدق .

ظلت يكاترينا دميتربيفنـــا واقفة تتحسس حزامها . وكان واضحا ان غصصا قد تصاعدت الى حلقومها عدة مرات ، فكانت تبلع ريقها وكأنها تبتلع طعاما . وسألت بخفوت :

– داشا ، هل عرفت شيئا ؟

– كنت لتوى عند بيسونوف (وهنا نظرت يكاترينا دميتربيفنا بعينين غير مبصرتين ، وشحبت فجأة شحوبا مرعبا ، وهزت كتفيها) يمكنك ان تطمئنى . لم يحصل معى شىء . لقد اعلن لى فى اللحظـة المناسبة . . .

رفعت داشا قدما ، ووضعت اخرى .

– منذ وقت طويل حدست انك . . . معه بالذات . . . الا ان ذلك كلـه مقرف جدا بحيث لا يصدق . . . لقد جبنت وكذبت . وانا لا استطيع ان اعيش فى هذه الوضاعة . . . اذهبى الى زوجك ، واخبريه بكل شىء .

ولم تستطع داشا ان تواصل كلامها ، فقد كانت شقيقتها تقف امامها مطاطاة الراس . وكانت داشا تنتظر كل شىء الا طاطاة الراس المستغفرة الطائعة هذه .

سألت كاتيا :

– هل اذهب الآن اليه ؟

– نعم ، هذه اللحظة . . . يجب ان تفهمى بنفسك . . .

ارسلت يكاترينا دميتربيفنا تنهيدة قصيرة ، وسارت نحو الباب ، وهناك ابطأت خطاها ، وقالت :

– لا استطيع ، يا داشا . – الا ان داشا لزمت الصمت – حسنا ، سأخبره .

كان نيقولاى ايفانوفيتش يجلس فى غرفة الاستقبال يطالع ، وهو يحك لحيته بسكين عاجى ، مقالة اكوندين المنشورة فى العدد الجديد لمجلة «روسكيه زابسكى» («المذكرات الروسية») .

كانت المقالة مخصصة لذكرى وفاة باكونين . وكان نيقولاى ايفانوفيتش يستمتع بها . وحين دخلت زوجته هتف :

– كاتيوشا ، اجلسى . واسمعى ماذا يكتب . هذه هـــى

الفقرة . . . «ان سحر هذا الرجل (يقصد باكونين) * لا يكمن فى طراز تفكيره ولا فى اخلاصه لقضيته فى النهاية ، بل فى الحماس الذى طبق افكاره فى الحياة العملية ، والذى تشبعت به كل حركة من حركاته ، والمناقشات المساهرة مع برودون ** ،والشجاعة الذى تقحم بها لهيب النضال ، وحتى هذا العمل الجميل الذى صوب به ، وهو الرجل الخارجى ، مدافع المنتفضين النمساويين ، قبل ان يعرف جيدا ضد من ولأجل اى شىء يناضلون . ان حماس باكونين هو رمز لتلك القوة الجبارة التى تنزل بها الطبقات الجديدة الى حلبة النضال . ومهمة العصر الطالع هى تجسيد الافكار ، لا انتزاعها من تحت اكوام الحقائق الخاضعة لزخم الحياة الاعمى ، ولا سحبها الى عالم مثالى ، بل عملية عكسية هى امتلاك العالم المادى بعالم الافكار . ان الواقع هو كومة من الوقود ، والافكار شرارات . وهذان العالمان المنفصلان والمتعاديان يجب ان يتحدا فى لهب الانقلاب العالمى . . .» فكرِّى بذلك ، يا كاتيوشا . . . انه واضح كبياض على سواد : عاشت الثورة . مرحى ، يا اكوندين ! انه الواقع الذى نعيشه ، بلا افكار كبيرة ولا عواطف كبيرة . الحكومة منساقة بشىء واحد فقط : الخوف الجنونى على المستقبل . والمثقفون متهالكون على الطعام والشراب . ونحن نقضى اوقاتنا بالثرثرة ، ولا شىء غير الثرثرة ، يا كاتيوشا ، بينما نحن غائصون بالحماة الى آذاننا . والشعب يتعفن حيا . وروسيا جمعاء قد تآكلها السفلس والفودكا . روسيا متهرئة ، ستتحول الى ركام من نفخة واحدة . والعيش على هذا النحو غير ممكن . . . نحن نحتاج الى نوع من حرق النفس ، التطهير بالنار . . .

كان نيقولاى ايفانوفيتش يتكلم بصوت منفعل رخيم ، شاقا الهواء بالسكين ، وعيناه قد استدارتا . وقفت يكاترينا دميتريفنا

---

* باكونين مخائيل الكسندروفيتش (١٨١٤ـ١٨٧٦) منظر الفوضوية وعدو لدود للماركسية . **(المترجم)** .

** برودون بيير جوزيف (١٨٠٩ـ١٨٦٥) . اشتراكى فوضوى فرنسى من البرجوازية الصغيرة **(المترجم)** .

على مقربة ممسكة بظهر مقعد . وحين فرغ من كلامه ، وعاد يشق صفحات المجلة بالسكين تقدمت منه زوجته ووضعت يدها على شعره :

– نيقولاى ، سيؤلمك كثيرا ما سأخبرك به الآن . اردت ان اخفيه ، ولكن اقتضى الأمر ان اخبرك به . . .

اطلق نيقولاى ايفانوفيتش راسه من يدها ، وامعن النظر فيها .

– نعم ، انا مصغ ، يا كاتيا .

– انت تذكر اننى قلت لك فى ساعة غضب حين تخاصمنا ذات مرة بأنك يجب الا تثق بى كثيرا . . . ولكنى عدت فنفيت ذلك .

– نعم ، اتذكر .

ووضع الملجة ، واستدار فى مقعده استدارة كاملة . وتقلبت عيناه ذعرا وهى تلتقيان بنظرة كاتيا البسيطة المطمئنة .

– حسنا . . . لقد كذبت عليك آنذاك . . لم اكن مخلصة معك آنئذ . . .

غضّن وجهه بشكل يثير الرثاء ، محاولا ان يبتسم . وشعر بجفاف فى حلقه . وحين لم يعد المضى فى الصمت ممكنا ، قال بصوت لا رنة فيه :

– حسنا فعلت حين قلت لى . . . شكرا ، يا كاتيا . . .

عندئذ امسكت يده ، مستها بشفتيها ، وضغطتها على صدرها ، الا ان اليد انسلت منها ، ولم تعمد هى الى الاحتفاظ بها . وبعد ذلك قعدت يكاترينا دميتريفنا على البساط بهدوء ، ووضعت راسها على ذراع المقعد الجلدية وقالت :

– الا تريد ان افضى اليك باكثر من ذلك ؟

– لا ، اذهبى ، يا كاتيا .

نهضت ، وخرجت ، وعند باب غرفة الطعام اندفعت داشا اليها على غرة ، وتشبثت بها ، وعصرتها ، وهمست مقبلة شعرها ، وجيدها ، واذنيها :

– اعذرينى ، اعذرينى . . . انت رائعة ، مدهشة ! . . سمعت كل شىء . . . اتصفحين عنى ، يا كاتيا ، تعذريننى ؟ كاتيا ؟

تحررت يكاترينا دميتريبيفنا منها بحذر ، وتقدمت من المائدة ، وعدلت ثنية كانت على المفرش ، وقالت :

– نفذت امرك ، يا داشا .

– كاتيا ، اتصفحين عني يوما ما ؟

– كنت على حق ، يا داشا . فان ذلك افضل .

– لم اكن على حق في شيء ! فعلت ذلك عن حقد . . . عن حقد . . . والآن ادرك ان ما من احد يجرؤ على ادانتك . لا يهم اننا جميعا نتعذب ، واننا سنتالم ، لكنك على حق ، وانا اشعر بانك على حق في كل شيء . . . اعذريني ، يا كاتيا .

وسالت على خدي داشا دموع كبيرة كحبات الحمص . كانت تقف الى الخلف ، على بعد خطوة من شقيقتها ، وتتكلم بصوت عال :

– اذا لم تصفحي عني ، فانني لا اريد ان اواصل الحياة .

التفتت يكاترينا دميتريبيفنا اليها بسرعة .

– ماذا تريدين مني ايضا ؟ انت تريدين ان يعود الصفاء والمودة الى كل شيء . . . ساقول لك اذن . . . لقد كذبت وكتمت لانه بذلك فقط كان من الممكن اطالة حياتي مع نيقولاي ايفانوفيتش قليلا . . . اما الآن ، فقد انتهى كل شيء . هل فهمت ؟ مضى زمن طويل وانا لا احب نيقولاي ايفانوفيتش ، ولا اخلص له . وانا لا اعرف ان كان يحبني او لا يحبني ، ولكن لا قرابة بيننا . هل فهمت ؟ اما انت فكالشرشر تخفين راسك تحت ابطك دائما لكيلا ترى الاشياء الفظيعة . بينما رايتها وعرفتها ، ولكنني عشت في هذا القذر ، لانني امراة ضعيفة . ورايت كيف تبتلعك هذه الحياة ، انت الأخرى . وقد حاولت ان اصونك ، ومنعت بيسونوف من زيارتنا ... كان ذلك حتى قبل انه ... ولكن لا اهمية لذلك ... الآن انتهى كل شيء ...

ورفعت يكاترينا دميتريبيفنا راسها فجاة ، مرهفة السمع . شعرت داشا بالبرودة تسري في ظهرها من الذعر . فقد ظهر نيقولاي ايفانوفيتش عند الباب خارجا بجنبه وراء الستارة . كان يخفي يديه وراء ظهره .

– بيسونوف ؟

سال ذلك هازا راسه بابتسام . ودخل غرفة الطعام .

لم تجب يكاترينا دميتريبيفنا . تبقع خداها ، ويبست عيناها ، وانطبق فمها .

– يبدو انك تظنين ، يا كاتيا ، ان حديثنا قد انتهى . انه ظن خاطئ .

وتابع يقول مبتسما :

– داشا ، اتركينا وحدنا ، ارجوك .

– لا ، لا اخرج .

وبقيت داشا الى جانب اختها .

– لا ، ستخرجين ، اذا طلبت منك ذلك .

– لا ، لن اخرج .

– في هذه الحال ، سيتعين علي ان اغادر البيت .

اجابت داشا ناظرة اليه نظرة ضارية :

– غادر .

احمر نيقولاي ايفانوفيتش ، ولكن في اللحظة التالية عاد الى عينيه التعبير السابق – الجنون المرح .

– هذا افضل ، ابقى . المسالة على هذا النحو ، يا كاتيا . . . قبل برهة كنت جالسا في المكان الذي تركتني فيه ، واذا اردت الحق ، فانني خلال بضع دقائق عانيت ما تصعب معاناته . . . وانتهيت الى استنتاج وهو ان عليّ ان اقتلك . . . نعم ، نعم .

حين سمعت داشا هذه الكلمات اسرعت فالتصقت بشقيقتها مطوقة اياها بذراعيها ، بينما راحت شفتا يكاترينا دميتريبيفنا ترتجفان ازدراء .

– انت في هستيريا . . . انت بحاجة الى ان تتناول قطرات الناردين ، يا نيقولاي ايفانوفيتش . . .

– لا ، يا كاتيا ، في هذه المرة ليست هستيريا . . .

صرخت يكاترينا دميتريبيفنا ودفعت داشا عنها ، واقتربت من نيقولاي ايفانوفيتش تماما صائحة :

– اذن ، افعل ما جئت من اجله . هيا ، افعل . ها انا اقول لك في وجهك : انا لا احبك .

تراجع خطوة ، واخرج من وراء ظهره مسدســـا «نسائيا» صغيرا ، ووضعه على الخوان ، ودس اطراف اصابعه فى فمــه ، وعضها ، واستدار وسار نحو الباب . راقبته كاتيـــا ببصرها ، وسمعته يقول دون ان يلتفت :

– انا متالم . . . متالم . . .

عند ذلك اندفعت نحوه ، وامسكت كتفيه ، وادارت وجهه اليها :

– انت تكذب . . . تكذب . . وتكذب الآن ايضا . . .

غير انه هز راسه ، وخرج . جلست يكاترينا دميتريفنا عند المائدة .

– ذلك ، يا داشا ، مشهد من الفصل الثالث ، وفيه طلقة مسدس . ساتركه .

– الله معك . . . كاتيوشا .

– اتركه ، لا اريد ان اعيش بهذا الشكل . بعد خمسة اعوام سيدركنى الكِبَر ، ويفوت الاوان . لا اريد ان اعيش هكذا . . . قذارة !

وغطت وجهها بيديها ، وانزلته من بين مرفقيها المستندين الى المائدة . جلست داشا على مقربة منها ، وقبلتها من كتفهـا قبلات سريعة حذرة . رفعت يكاترينا دميتريفنا راسها :

– اتظنين اننى لا اشفق عليه ؟ انا اشفق عليه دائمـا . ولكن تصورى ، اذا ذهبت اليه الآن ، فسيجرى بيننا حديث طويل ، زائف كليا . . . كان شيطانا يتدخل بيننا ، ويزيف . الحديث مع نيقولاى ايفانوفيتش مثل العزف على بيانو مختل . . . لا ، ساترك البيت . . . آه ، يا داشا ، داشا ، ليتك تعرفين اى شقـــاء اعانى ! . .

ومع ذلك فى آخر المساء ذهبت يكاترينـــا دميتريفنا الى زوجها فى مكتبه .

كان الحديث مع زوجها طويلا ، وقد تحدث كلاهما بصوت خافت ، وبشجى ، وحاولا ان يكونا نزيهين ، ولم يرحم احدهمـا الآخر ، ومع ذلك فقد شعر كلاهما بأنهما بهذا الحديث لم يتوصلا الى شىء ، ولم يتفاهما على شىء ، ولم يقترب احدهما من الآخر .

وبعد ان ترك نيقولاى ايفانوفيتش وحده لبث جالسا الى مكتبه حتى الفجر متاوها . وقد عرفت كاتيا فيما بعد انه فى خلال هذه الساعات فكر واستعرض كل حياته . وكانت نتيجة هذا رسالة مطولة الى زوجته ختمها بالآتى : «اجل ، يا كاتيا ، كلنا فى زقاق خلقى مسدود . فى الاعوام الخمسة الماضية لم اشعر بشعور قوى واحد ، ولم اقم بخطوة كبيرة واحدة . وحتى حبى لك وزواجنا مرا وكانما فى عجالة عاجلـة . كيان تافـه نصف هستيرى ، تحت فعل مخدر مستمر . وهناك مخرجان : اما قتل نفسى ، واما تمزيق هذا الغشاء الروحى المُثقل على افكارى ، وعلى مشاعرى ، وعلى وعى . ولست انا فى وضع اقوى فيه على ان افعل هذا او ذاك . . .»

وقد حدثت الكارثة العائلية بمباغتة شديدة ، وانهار العالم البيتى بسهولة يسيرة وبشكل كلى انصعقت داشا به ، ولم يخطر ببالها ان تفكر فى نفسها ، واهواؤها كفتاة بدت لها تفاهة ، شبحا رهيبا على الحائط ، كذلك الذى كانت المربية تخيفها وكاتيا به فى الزمن البعيد .

كانت داشا تقترب عدة مرات فى اليوم من باب حجرة كاتيا ، وتنقر عليها باصبعها نقرا خفيفا فتجيبها كاتيا :

– عزيزتى داشا ، لو سمحت ان تتركينى وحدى ، ارجوك .

وفى تلك الايام كان على نيقولاى ايفانوفيتش ان يترافع فى المحكمة . فكان يخرج فى الصباح الباكر ، ويتناول فطوره وغداءه فى المطعم ، ويعود الى البيت ليلا . وقد هزت مرافعته القضاة وقاعة المحكمة كلها . كان يترافع مدافعا عن زويا ايفانوفنا زوجة موظف مصلحة الضرائب لادنيكوف التى ذبحت عشيقها الطالب شليبه ابن صاحب عقارات فى بطرسبورغ ، وقد جرى الحادث ليلا فى السرير فى بيت فى شارع غوروخوفايا . بكت النساء ، وضربت المتهمـــة زويا ايفانوفنا متكأ المقعد براسها ، وافرج عنها .

احاط جمع من النساء بنيقولاى ايفانوفيتش لدى خروجه من المحكمة شاحب الوجه غائر العينين ، والقين الزهور عليه ، وهتفن ، وقبلن يديه . اتجه نيقولاى ايفانوفيتش من المحكمة الى البيت ، وتحدث مع كاتيا فى ارتخاء نفسى تام .

وكانت يكاترينا دميتريفنا قد هيأت الحقائب للسفـــر ،

فنصحها مخلصا بان تسافر الى جنوب فرنسا ، واعطاها اثنى عشر الف روبل لسد نفقات الرحلة . وكان هو قد قرر اثناء الحديث معها ايضا ، ان يسلم القضايا الى مساعده ، ويسافر الى القرم للاستراحة والتروى .

وفى واقع الأمر لم يكن واضحا ولا محددا ما اذا كان فراقهما لفترة من الزمن ام الى الأبد ، ومن منهما يهجر الآخر ؟ فان هذين الامرين الحادين قد حجبهما لغب السفر بعناية .

ونسيا داشا . وقد خطرت على بال يكاترينا دميترييفنا فى اللحظة الاخيرة فقط ، وكانت قد ارتدت بدلة السفر الرمادية ، وقبعة انيقة مبرقعة ، وبدت نحيلة ، حزينة ، رقيقة . وقع بصرها على داشا وهى جالسة على صندوق فى الرواق . كانت داشا تؤرجح ساقيها ، وتاكل خبزا ومربى لانهم نسوا ان يوصوا على غداء اليوم . قالت يكاترينا دميترييفنا ، وهى تقبلها من خلال البرقع :

– داشا ، يا حبيبتى . ماذا سيكون الأمر معك ؟ اترغبين فى السفر معى ؟

غير ان داشا قالت انها ستظل وحدها فى الشقة مع «المغولى العظيم» ، وانها ستؤدى الامتحانات ، وتسافر فى نهاية ايار الى ابيها لتقضى الصيف كله هناك .

٩

بقيت داشا وحدها فى البيت . الآن بدت لها الغرف الكبيرة غيرمريحة ، والاشياء فيها زائدة . وحتى اللوحات التكعيبية فى غرفة الجلوس فقدت برحيل سيد البيت وسيدته قدرتها على اثارة الرعب ، وبهت رواؤها . وتدلت الستائر بثنيات ميتة . ورغم ان «المغولى العظيم» كانت تطوف الحجرات كل صباح صامتة كالشبح ، نافضة الغبار بمنفضة من ريش الديك فقد كان يبدو وكان غبارا آخر غير منظور يغطى البيت متزايدا فى كثافته .

كان من الممكن ان تقرأ فى غرفة شقيقتها ، وكانما فى كتاب ، كل ما عاشت به يكاترينا دميترييفنا . فى احد الاركان حمالة عليها مشروع لوحة – فتاة تضع اكليلا ابيض على رأسها ، وعيناها تملآن نصف وجهها . كانت يكاترينا دميترييفنا تتشبث بهذه

الحمالة كطريقة لتخلص نفسها باية وسيلة من الهرج المجنون حولها ، الا انها لم تصمد بالطبع . وهذه منضدة قديمة مملوءة بالاشياء غير الكاملة وقطع قماشية زاهية مبعثرة على غير نظام ، وكلها غير كاملة ومهملة ، وهى محاولة اخرى للهروب . ومثل هذه الفوضى تشيع فى خزانة الكتب ايضا ، والظاهر ان يدا قد بدات فى ترتيبها ثم اهملتها . وفى كل مكان كتب مرمية ، ومحشورة ، ومقطوعة نصف اوراقها . كتب عن رياضة اليوغا ، ومحاضرات مبسطة عن التصوف ، وقصائد وروايات . الا كم من المحاولات والجهود الضائعة للبدء فى حياة طيبة ! وجدت داشا على منضدة الزينة مفكرة فضية الغلاف سجل فيها : «٢٤ قميصا داخليا ، ٨ حمالات صدر ، ٦ حمالات صدر مدنتلة . . . تذاكر لآل كرينسكى الى مسرحية «العم فانيا» . . .» ثم بخط كبير كخط طفل : «شراء كعكة تفاح لداشا» .

وتذكرت داشا ان كعكة التفاح هذه لم يكتب لها ان تشترى . ورثت لشقيقتها رثاء أسال دموعها . ان هذه الشقيقة العاطفية الطيبة الرهيفة الحس لتتحمل حياة كهذه كانت تتشبث بالاشياء والتوافه ، محاولة ان تثبت ، وتقى نفسها من التشتت والتحطم ، ولكن لم يسعفها شيء ولم يساعدها احد .

استيقظت داشا فى الصباح الباكر ، وجلست الى الكتب ، وادت الامتحانات ، فكانت متفوقة فى كل مادة تقريبا . كانت ترسل «المغولى العظيم» لترد على التلفون الذى كان يدق فى المكتب بلا انقطاع ، فكانت هذه تجيب جوابا واحدا لا يتغير «سافر السيد والسيدة ، والآنسة لا تستطيع ان تاتى لترد» .

كانت داشا تقضى اماسى بكاملها تضرب على البيانو . ولم تثر الموسيقى مشاعرها كما كانت تفعل من قبل ، ولم تجعلها تريد شيئا غير محدد ، ولم تجمد قلبها الحالم . الآن ، حين كانت تجلس وادعة رصينة امام دفتر النوتات مضاءة من الجانبين بشمعتين ، كانت وكانها تطهر نفسها بالاصوات المهيبة القوية التى كانت تملأ جنبات هذا البيت الخالى حتى آخر زاوية فيه .

واحيانا كانت يظهر وسط الموسيقى اعداء صغار – الذكريات غير مدعوة . فكانت داشا ترخى يديها ، وتتعبس . وعندئذ كان

يرين على البيت سكون مطبق حتى ليسمع هسيس الشمعة . وبعد ذلك ترسل داشا زفرة صاخبة ، ومن جديد تمس يداها المفاتيح الباردة بقوة ، فيتطاير الاعداء الصغار من الغرفة الكبيرة الى الدهليز المظلم ، وراء الدواليب والعلب الكارتونية ، مثل الغبار والاوراق اليابسة المتطايرة بالريح ... لقد اختفت الى الأبد داشا التي دقت الجرس على باب بيسونوف ، وقالت لكاتيا المجردة من الحماية كلمات حانقة . ان تلك الفتاة الهوجاء كادت تجلب الكوارث . يا له من أمر عجيب ! وكان الحب كل شيء في هذه الدنيا ، رغم انه لم يكن هناك اى حب .

وفي حوالى الساعة الحادية عشرة كانت داشا تغلق البيانو ، وتطفئ الشمعتين ، وتأوى الى فراشها . وكان كل ذلك يجرى دون تردد ، وبجدية . وخلال تلك الفترة وطدت العزم على ان تبدأ باقصى سرعة ممكنة حياة مستقلة – ان تكسب رزقها بنفسها ، وتضم كاتيا اليها .

ما كادت داشا تفرغ من الامتحانات في اواخر ايار حتى سافرت الى ابيها عن طريق الفولغا عبر مدينة ريبينسك . في المساء خرجت من القطار لتستقل على التو سفينة بيضاء ساطعة الاضاءة وسط الليل والماء الداكن ، وفكت امتعتها في المقصورة النظيفة ، وضفرت شعرها ، وفكرت في ان الحياة المستقلة تبدأ بداية طيبة ، وابتسمت سعادة وقد وسدت راسها كوعها ، وغفت على مدمدة السفينة الوادعة .

وايقظتها خطوات ثقيلة وركض على ظهر السفينة . كان ضوء الشمس ينسكب عبر مضلع النافذة ، متماوجا على خشب المغسلة الماهوغانى شعاعات ضعيفة . وكانت الريح التي تلاعب الستارة الحريرية تفوح بشذى زهر العسل . فتحت داشا المضلع قليلا . كانت السفينة راسية على شاطئ قفر وقفت تحت جرفه الواطئ المنهار عربات محملة بصناديق من خشب الصنوبر . وكان مهر اصهب يَرِد عند حافة الماء وقد افرج قوائمه النحيلة ذات الركب السميكة . وعلى الجرف صوة منار تبرز على شكل صليب احمر .

قفزت داشا من السرير ، ووضعت حوض الاستحمام على الارض ، اشبعت الاسفنجة بالماء ، ثم عصرتها على نفسها ، وشعرت

بانتعاش ورهبة عظيمين حتى اخذت تضغط ركبتيها على بطنها ضاحكة . ثم ارتدت جوربين ابيضين وفستانا ابيض ، وقبعة بيضاء ، وكانت قد اعدت ذلك كله منذ المساء . وقد انسجم عليها كل شيء ، واذ شعرت داشا باستقلالها ، خرجت الى ظهر السفينة رصينة ، ولكنها طافحة بالسعادة .

كان اللألاء الخفيف لانعكاس اشعة الشمس يلمع على السفينة البيضاء كلها ، وكان النظر الى الماء يزغلل البصر ، فقد كان النهر يتلألأ ويومض . وعلى الشاطئ الآخر المرتفع يلوح برج جرس ابيض قديم مختف الى النصف بين اشجار البتولا .

وحين غادرت السفينة الشاطئ ، استدارت نصف استدارة ، وسارت نازلة مع مجرى النهر ، وبدت الضفتان وكانهما تندفعان نحوها . وكانت اسقف الاكواخ القشية المعتمة تلوح هنا وهناك من وراء الاكمات ، وكانها تتداعى . وكانت السحب تتراكم في السماء مزرقة في اسافلها ، تلقى ظلالا بيضاء في اعماق النهر الزرقاء المصفرة .

جلست داشا في مقعد من الخوص المضفور ، واضعة ساقا على ساق ، مطوقة ركبتها ، وشعرت بأن منعطفات النهر اللامعة ، والسحب وظلالها البيضاء ، والتلال باشجار البتولا ، والمروج ، وتيارات الهواء الفواحة تارة بعشب المستنقعات ، وتارة بجفاف الارض المحروثة والبرسيم العسلى ، والافسنتين تنفذ خلال كيانها ، ويمتلئ قلبها ببهجة هادئة .

اقترب رجل بطئ الخطى ، وتوقف عند الحاجز مديرا له جنبه ، وراح يتطلع اليها ، كما يبدو . نسيته داشا عدة مرات ، الا انه بقى واقفا في مكانه لا يريم . عندئذ عزمت عزما ثابتا على الا تلتفت اليه ، الا ان ما جبلت عليه من طبع ملتهب جدا جعلها لا تتحمل هذه المعاينة بهدوء أعصاب . تورد وجهها ، والتفتت بسرعة وغيظ . فاذا بها ترى تليغين يقف امامها ، ممسكا بعمود مترددا بين التقدم والحديث وبين الاختفاء . وجدت داشا نفسها تضحك فجأة ، فقد ذكرها بشيء مرح طيب على نحو غير محدد . كما ان ايفان ايليتش (تليغين) كله العريض المنكبين ، القوى ، الخجول ،

في سترته البيضاء بدا وكأنه نتيجة ضرورية لكل هذه السكينة النهرية . مدت يدها له ، فقال تليغين :

– رايتك وانت تستقلين السفينة . في الواقع نحن سافرنا سوية من بطرسبورغ في عربة قطار واحدة . ولكنني ترددت في التقدم منك ، فقد كنت غارقة في افكارك كثيرا . . . الا اضايقك ؟

– اجلس – وقدمت منه مقعدا من الخوص المضفور قائلة : انا مسافرة الى ابي ، وأنت الى اين ؟

– انا ، اذا اردت الصراحة ، حتى الآن لا اعرف الى اين . سأذهب في المرحلة الاولى الى اقربائي في كينيشما .

جلس تليغين الى جوارها ، وخلع قبعته . وانعقد حاجباه ، وظهرت غضون على جبهته . وراح ينظر بعينين متقلصتين الى الماء الذي كان يخرج من تحت السفينة مثل درب مقعر مزبد . كانت طيور النورس باجنحتها الحادة تطير فوقه في مؤخرة السفينة ، وتسقط عليه ، وتقلع مرسلة صيحات جشاء شاكية ، وبعد ان تتخلف بعيداً ، تدور ، وتتخاصم على كسرة خبز طائفة .

– انه يوم جميل ، يا داريا دميترييفنا .

– انه يوم رائع ، يا ايفان ايليتش ، يوم رائع ! في جلستي هذه فكرت بانني قد انتزعت نفسي من الجحيم الى الحرية ! انت تذكر حديثنا في الشارع ؟

– اتذكره الى آخر كلمة ، يا داريا دميترييفنا .

– بعد ذلك الحديث حصلت اشياء اعاذنا الله منها ! سأحدثك عنها ذات يوم . – وهزت راسها مستغرقة الفكر . – كنتَ الانسانَ الوحيد الذي لم يفقد صوابه في بطرسبورغ ، حسب ما اتصور . – وهنا ابتسمت ، ووضعت يدها على كم سترته . رف جفنا ايفان ايليتش رهبة ، وانطبقت شفتاه . وتابعت داشا قولها : انا شديدة الثقة بك ، يا ايفان ايليتش . انت قوي جدا ؟ صحيح ؟

– هذا ظنك .

– وانسان موثوق .

واحست داشا بان كل افكارها طيبة وواضحة اريحية ، مثلما ان افكار ايفان ايليتش طيبة ، صادقة ، وقوية . وكان يسرها بشكل خاص ان تقول كلامها ليعبر بالذات عن هذه الدفقات المشرقة

من المشاعر القريبة الى فؤادها ، وقالت : اتصور ، يا ايفان ايليتش ، لو انك احببت فانك ستحب برجولة وثقة ، وانك اذا اردت شيئا ، فلن تحيد عنه .

ادخل ايفان ايليتش يده في جيبه بحركة بطيئة ، دون ان يرد عليها ، واخرج قطعة خبز ، واخذ يلقيها الى الطيور . اندفع سرب من طيور النورس البيضاء يلتقط فتات الخبز وهو تتصايح مستثارة . نهضت داشا وايفان ايليتش ، واتجها نحو حاجز السفينة . قالت داشا :

– ارم لهذا الطائر ، فانه يبدو شديد الجوع .

قذف تليغين بقية قطعة الخبز بعيدا في الهواء . انزلق نورس شحيم كبير الراس على جناحين ساكنين مسطحين كسكينين ، وانقض ، ولكنه اخطأ هدفه ، وفي الحال انطلق زهاء عشرة من الطيور على قطعة الخبز الساقطة حتى سطح الماء المطرطش بزبد دافيء من اسفل السفينة . قالت داشا :

– اتعرف اية امرأة اود ان اكون ؟ سأنهي الدراسة في العام المقبل ، وابدا بكسب فلوس كثيرة ، وآخذ كاتيا لتعيش معي . سترى ، يا ايفان ايليتش .

غضّن تليغين وجهه حين كانت تتكلم مجاهدا ليضبط نفسه ، واخيرا فتح فمه ، عن صف قوي نظيف من الاسنان الكبيرة وضحك ضحكا مرحا حتى تندّت رموش عينيه . احمر وجه داشا ، الا ان حنكها ارتعش ، وضحكت ، دون ارادتها ، كما ضحك تليغين ، دون ان تدري سببا لذلك .

واخيرا قال تليغين :

– انت رائعة ، يا داريا دميتريفنا . . . كنت اخاف منك خوف الموت . . . ولكنك رائعة تماما !

فقالت داشا غاضبة :

– هكذا اذن . . . تعال نتناول فطورنا .

– بكل سرور .

طلب ايفان ايليتش اخراج طاولة الى سطح السفينة ، واخذ يحك بسهوم ذقنه الحليق حلاقة ممتازة ، وهو ينظر في قائمة الطعام .

– ما رايك ، يا داريا دميتربيفنا ، فى زجاجة من النبيذ الأبيض الخفيف ؟

– سأشرب قليلا بسرور .

– أبيض ام احمر ؟

اجابت داشا محاكية لهجته الجدية :

– هذا او ذاك .

– فى هذه الحال لنشرب نبيذا فوارا .

مرت السفينة بضفة تلالية فيها شرائط خضراء لامعة من القمح ، وزرقاء خضراء من الجودار ، ووردية من الحنطة السوداء المزهرة . وراء منعطف النهر ، كانت الشمس تنعكس على زجاج نوافذ بيوت منخفضة ذات سقوف من القش قائمة على اكوام من الروث فوق مرتفع صلصالى . وابعد من ذلك لاح عدد من صلبان مقبرة القرية ، وطاحونة صغيرة كاللعبة ذات ستة اذرع مهدمة الجانب . وكان جمع من الاطفال يركض على طول الضفة المرتفعة من وراء السفينة ، قاذفا بحجارة لم تكن تصل حتى الى الماء . واستدارت السفينة ، وظهرت على الضفة الخالية أجمة منخفضة تحوم الغربان فوقها .

هبت نسمة دافئة تحت مفرش المائدة ، وفستان داشا . وبدا النبيذ الذهبى فى القدحين الكبيرين المضلعين هبة آلهية . قالت داشا انها تغبط ايفان ايليتش لأن له عمله ، ووثوقه فى الحياة ، بينما سيكون عليها ان تقضى عاما ونصف عام منكبة على الكتب ، فضلا عن تعاسة اخرى تقع من نصيبها ، وهى كونها خلقت امراة . ضحك تليغين ، واجاب :

– ولكننى طردت من العمل فى المصنع .

– احقا ؟

– طلبوا منى ان اتخلى عن العمل خلال اربع وعشرين ساعة ، ولو لا ذاك لما كنت على هذه السفينة الآن . احقا لم تسمعى اى احداث حدثت عندنا ؟

– لا ، لا .

– لقد انفصلت ببساطة ، نعم . . . – وصمت واضعا كوعيه على الخوان . – انظرى الى اى حد من الحماقة والهرجلة تجرى

الامور عندنا . شىء لا يصدقه العقل . والشيطان يعلم اى صيت سيكون لنا ، نحن الروس . شىء معيب ومخز . فكرى فى الأمر : شعب موهوب ، وبلاد فى غاية الثراء . ولكن ماذا ترى العين مقابل ذلك ؟ ترى مجموعة من الكتبة المتغطرسين . استعضنا عن الحياة بورق وحبر . لا يمكنك ان تتصورى كم نستهلك من الورق والحبر . منذ ان بدانا هذه البروقراطية فى عهد بطرس الاول ونحن لا نستطيع ان نتوقف حتى الآن . ولكن الحبر قد يكون شيئا ميتا . فتصورى ذلك .

ابعد ايفان ايليتش قدح النبيذ ، واشعل سيكارة . وكان من الواضح انه لم يكن مريحا له الاستمرار فى مثل هذا الحديث .

– لا داعى الى اثارة الذكرى . يجب ان نفترض بأن الامور عندنا ايضا ستكون حسنة يوما ما ، ليس اسوا مما لدى الآخرين .

قضت داشا وايفان ايليتش هذا النهار كله على سطح السفينة . كان من الممكن ان يبدو حديثهما الى المستمع الغريب ضربا من الهراء ، ولكن ذلك راجع الى انهما كانا يتحدثان حديث شفرة . فقد كانت الكلمات ، واكثرها اعتيادية ، تتخذ مدلولا مزدوجا بشكل غامض غير مفهوم ، فاذا اشارت داشا بعينيها الى فتاة ممتلئة الجسم قليلا ينتفخ وراء ظهرها لفاعها الليلكى ، والى مساعد القبطان الثانى الذى كان يسير الى جانبها مركزا كل انتباهه وقالت : «انظر ، يا ايفان ايليتش يبدو ان امورهما ماشية» . فمن الضرورى ان يفهم من ذلك : «لو حصل بيننا شىء ما ، فلن يكون بهذا الشكل» . وما كان فى مقدور احد منهما ان يتذكر باخلاص ما قاله ، الا انه بدا لايفان ايليتش ان داشا اذكى منه بكثير ، وارق وادق فى ملاحظتها ، بينما بدا لداشا ان ايفان ايليتش اطيب قلبا منها ، وافضل ، واذكى بالف مرة .

جمعت داشا شجاعتها اكثر من مرة لتحدثه عن بيسونوف ، الا انها كانت تحجم عن ذلك . كانت الشمس تدفىء ركبتيها ، والنسيم يمس وجنتها ، وكتفيها ، وجيدها ، مثل اصبع حنون مدورة . وفكرت داشا مع نفسها : «لا ، سأحدثه غدا ، سيسقط مطر ، وسأحدثه» .

وفى آخر النهار عرفت داشا – وكانت تهوى مراقبة الناس ،

ولها عين مدققة مثل سائر النساء – كل شيء تقريبا عن جميع المسافرين على السفينة ، الأمر الذى بدا لايفان ايليتش اعجوبة تقريبا .

ولسبب ما قررت داشا ان مدير جامعة بطرسبورغ – وهو رجل عبوس يضع نظارة شمسية ويرتدى لباس «الانفرناسية» – غشاش كبير فى الورق على ظهور السفن . ورغم ان ايفان ايليتش كان يعرف ان هذا الرجل هو عميد الجامعة بالفعل ، الا ان الشك اخذ يساوره الآن فى ان يكون غشاشا فى الورق فعلا . وبشكل عام لقد اهتز تصور ايفان ايليتش للواقع خلال هذا اليوم . احس بما يشبه دوار الراس ، او حلم اليقظة ، وكان عاجزا تقريبا عن ان يتحمل من حين لآخر موجة عارمة من الحب لكل ما يرى ويسمع ، ففكر بأن من الممتع حقا لو يلقى نفسه فى الماء ، مثلا ، لينقذ تلك الفتاة المقصوصة الشعر ، لو انها سقطت من فوق الحاجز . فليتها تسقط !

وفى منتصف الليل داهم داشا نعاس مفاجىء لذيذ ما كادت تصل معه الى مقصورتها ، وعند الباب قالت مودعة ، وهى تتثاءب :

– ليلة سعيدة . عاين وراقب غشاش الورق ذاك .

اتجه ايفان ايليتش الى الدرجة الاولى من ظهر السفينة فى الحال ، حيث كان عميد الجامعة المؤرق يقرا مؤلفات ديماس الأب . نظر ايفان ايليتش اليه بعض الوقت ، وفكر مع نفسه بأنه رجل رائع ، رغم انه غشاش ، ثم عاد الى الممر الساطع الاضاءة ، الذى كان يفوح بزيت المحركات ، والخشب المطلى باللاك ، وبعطر داشا ، ومر ببابها على اطراف اصابعه ، ودخل مقصورته ، واستلقى فى سريره على ظهره ، واغمض عينيه ، واحس بأن كيانه كله منصعق ، وبأنه مفعم كلية بالاصوات والروائح ، وحرارة الشمس ، وبفرح حاد ، كالألم فى القلب .

ايقظه صفير السفينة بعد الساعة السادسة صباحا . كانوا يقتربون من كينيشما . ارتدى ايفان ايليتش ملابسه بسرعة ، ونظر فى الممشى . كانت الابواب كلها مغلقة ، والجميع ما زالوا نياما . وداشا نائمة ايضا . وفكر ايفان ايليتش : «يجب ان انزل هنا ، والا فسيكون سلوكى غريبا» ، وخرج الى ظهر السفينة ،

ناظرا الى كينيشما هذه التى لاحت الى الانظار فى وقت غير مناسب كليا ، قابعة على ضفة عالية شديدة الانحدار ، بسلالمها الخشبية ، وبيوتها الخشبية المتراكمة كيفما اتفق ، واشجار الزيزفون الخضراء الصفراء الساطعة فى شمس الصباح فى منتزه البلدية ، وبغمامة الغبار الساكنة المعلقة فوق العربات الجارية على منحدر المدينة . ظهر ملاح يحمل حقيبة تليغين ، وهو يطأ بقوة ظهر السفينة بكعبى قدميه الحافيتين . قال له ايفان ايليتش بلهجة منفعلة :

– لا ، لا . غيّرت فكري . ارجعها الى مكانها . قررت ان اسافر الى نيجنى . ليس لى حاجة للنزول فى كينيشما . ضعها هنا ، تحت السرير . شكرا لك ، يا عزيزى .

لبث ايفان ايليتش جالسا فى المقصورة زهاء ثلاث ساعات ، مفكرا بالطريقة التى سيفسر فيها لداشا تصرفه المبتذل والمتطفل ، حسب رايه ، وبدا واضحا ان التفسير غير ممكن : ليس بوسعه ان يلجأ الى الكذب ، او يقول الحقيقة .

وبعد الساعة العاشرة خرج الى ظهر السفينة نادما ، كارها لنفسه مزدريا لها ، وقد وضع يديه وراء ظهره ، وسار فى مشية غالصة ، وعلا وجهه تعبير زائف ، وباختصار ، صورة للابتذال . الا ان القلق اخذ يساوره بعد ان دار دورة فى السفينة ، ولم يقع بصره على داشا . لم تكن داشا موجودة فى اى مكان . واحس ايفان ايليتش بجفاف فى حلقه . الظاهر ان شيئا ما قد حدث . وفجأة وقع عليها وقوعا . كانت جالسة على الكرسى المضفور فى المكان الذى جلست فيه امس ، بادية الحزن ساكنة . وكانت تضع على ركبتيها كتابا وكمثرى . ادارت راسها الى ايفان ايليتش ببطء ، واتسعت عيناها ، وكأنما ذلك عن فزع ، وامتلأتا بهجة ، وعلا خديها تورد ، وتدحرجت الكمثرى من ركبتيها . قالت خافضة الصوت :

– انت هنا ؟ لم تنزل ؟

ابتلع ايفان ايليتش غصته ، وجلس الى جوارها ، وقال بصوت لا رنة فيه :

– لا اعرف كيف ستنظرين الى تصرفى ، ولكننى لم انزل فى كينيشما عن عمد .

– كيف سانظر الى تصرفك ؟ لن اقول ذلك .

وضحكت داشا ، وفجأة وضعت يدها فى كفه ببساطة وحنان ، حتى ان راسه عاد يدور طوال اليوم اشد مما دار يوم امس .

١٠

وفى حقيقة الأمر حدث فى المصنع الميكانيكى ما يلى : فى مساء ماطر سرت فى سمائه الفسفورية غيوم تسوقها الريح ، ظهر رجل غريب يرتدى ممطرا مطاطيا مرفوع القلنسوة يسير بين جمع من العمال العائدين الى بيوتهم بعد العمل ، فى زقاق ضيق نتن موحل بوحل الفحم والحديد الخاص الذى يكثر عادة فى الشوارع الملتصقة بالمصانع الكبيرة .

سار بعض الوقت فى اثر الجميع ، ثم توقف وراح يوزع المنشورات ذات اليمين وذات الشمال ، قائلا بصوت خفيض :

– من اللجنة المركزية . . . ، اقراوه ، يا رفاق .

تناول العمال المنشورات اثناء سيرهم ، واخفوها فى جيوبهم ، وتحت قبعاتهم .

وحين وزع الرجل ذو الممطر المطاطى جميع المنشورات تقريبا ظهر احد الحراس بالقرب منه شاقا طريقه بكتفه خلال حشد العمال بقوة ، وقال على عجل «انتظر» وامسك ممطره من الخلف . الا ان الرجل ، وهو المبلل الزلق المتمسك ، خلص نفسه ، وركض . وصدرت صفارة حادة ، ردت عليها صفارة اخرى من بعيد . وسرت دمدمة خافتة بين الجمع المتضائل . الا ان المهمة قد تمت ، واختفى الرجل .

وبعد يوم او يومين من الحادث ، لم تبدأ ورشة البرادة العمل منذ الصباح ، مفاجئة بذلك ادارة المصنع الميكانيكى ، وقدمت مطاليب ليست خطيرة جدا ، ولكنها حازمة .

وسرت عبارات غير محددة ، وملاحظات وكلمات غاضبة متطايرة كالشرر فى مبانى المصنع الطويلة المتسرب اليها ضوء ضعيف من خلال النوافذ القذرة والسقوف الزجاجية المسخمة . وراح

العمال الواقفون عند المخارط ينظرون نظرات غريبة الى رؤسائهم وهم يمرون بهم ، وينتظرون بتاثر مكظوم التعليمات اللاحقة .

وبينما كان الاوسطة الأقدم بافلوف ، وهو واش ، يدور قرب مكبس يشتغل على القوة المائية ، سقطت مصادفة سبيكة حمراء متقدة على قدمه وسحقتها سحقا ، فارسل صرخات وحشية . وعندئذ شاع فى المصنع ان شخصا قد قُتِل . وفى الساعة التاسعة اندفعت سيارة الليموزين الهائلة العائدة لكبير المهندسين داخلة فناء المصنع كالصاعقة .

وصل ايفان ايليتش تليغين فى الساعة المعتادة الى ورشة الصهر ، وهى عبارة عن مبنى هائل دائرى ارضها طينية ، وافرانها مبنية عند الجدران ، وقد تحطم الزجاج فى بعض نوافذها ، وتدلت سلاسل من اذرع الرافعات . وتوقف تليغين عند الباب ، وحرك كتفيه من برودة الصباح ، وصافح الاوسطة بونكو بمرح ، وكان قد تقدم منه .

كانت ورشة الصهر قد تلقت طلبا مستعجلا لصنع قواعد متحركة للآلات ، فاخذ ايفان ايليتش يتحدث مع بونكو عن العمل القادم متشاورا معه باستغراق وبطريقة جدية حول اشياء ليست موضع شك عند اى واحد منهما . وقد ادت هذه الحيلة الصغيرة الى ان يخرج بونكو مطمئنا من المحاورة تماما ، وقد ارخى اعتزازه بنفسه لانه قد بدا العمل فى ورشة الصهر منذ خمسة عشر عاما كعامل بسيط ، وهو الآن اوسطة اقدم يعتز بمعارفه وخبرته اعتزازا كبيرا جدا ، بينما كان تليغين موقنا بان بونكو اذا اطمان الى عمل فان هذا العمل سيسير سيرا سريعا وجيدا .

تجول ايفان ايليتش فى ورشة الصهر متحدثا الى عمال الصهر والقولبة بلهجة رفاقية شبه مازحة كانت تفصح اكبر الافصاح عن العلاقات المتبادلة بينه وبين كل واحد منهم . وكانه يقول له : انا وانت نقوم بعمل واحد ، فمعنى ذلك اننا رفيقان . الا اننى مهندس وانت عامل ، اذن ، فنحن فى الواقع عدوان ، ولكن ما دام احدنا يحترم الآخر فلن يبقى امامنا الا ان ينكت الواحد على الآخر .

اتجهت رافعة الى احد المصاهر مخففة سلسلتها المصلصلة . واستقبلها عاملان ضليعان ضخمان هما فيليب شوبين ذو الشعر

الذى وخطه الشيب ، والنظارة المدورة ، وايفان اوريشنيكوف القوى ذو الجسم الرياضى واللحية الجعداء والشعر الفاتح اللون المشدود بنطاق ، والعينين الزرقاوين . واخذ الاول يزيح بالعتلة الغطاء الحجرى عن واجهة الفرن ، بينما شد الثانى كلابة الرافعة الى البوتقة الطويلة المبيضة من الحرارة . قرقعت السلسلة ، وتارجحت البوتقة ، وطافت فى الهواء الى وسط الورشة موشوشة ، متوهجة ، ناثرة قشرة من الخبث .

قال اوريشنيكوف :

– قف . اخفض .

ومرة اخرى قعقعت الرافعة ، ونزلت البوتقة ، وانصب على الارض سيل باهر اللون من البرنز ، قاذفا بنجيمات خضر متفجرة ، مضيئا سقف الورشة المقوس بوهج برتقالى . وفاحت رائحة النحاس الحلوة المقززة ، ورائحة احتراقه .

وفى اثناء ذلك انفتح مصراعا الباب المزدوج المؤدى الى المبنى المجاور ، ودخل الى ورشة الصهر عامل شاب بخطى سريعة حازمة وقد ارتسم الشحوب والغيظ على وجهه . وصاح بصوت حاد خشن :

– اوقفوا العمل . . . اخرجوا !

وحدج تليغين بنظرة جانبية ، وقال :

– هل سمعتمونى ، ام لا ؟

اجاب اوريشنيكوف بهدوء :

– سمعنا ، سمعنا . لا تصرخ – ورفع راسه الى الرافعة ، وقال : دميترى ، لا تنم ، تحرك .

وقال العامل حاشرا يديه فى جيبيه :

– حسنا ، اذا سمعتمونى فافعلوا ما ترونه صائبا . لن نطلب اليكم مرة اخرى .

واستدار بحركة شديدة ، وخرج .

كان ايفان ايليتش قد جلس الى قطعة مصبوبة حديثا وراح يكشط فى عناية التراب بقطعة سلك . اما بوتكو الجالس على مقعد عال الى منضدة عالية عند الباب فقد اخذ يحك بسرعة لحيته الشيباء الصغيرة الشبيهة بلحية العنز . وقال مديرا عينيه :

– اترك العمل سواء اردت ام لم ترد . ولكن هل يفكر هؤلاء بم ستطعم الاطفال اذا طردوك من المصنع ، ام تراهم لا يفكرون ؟

اجاب اوريشنيكوف بصوت كثيف :

– الافضل الا تمس هذه الأمور ، يا فاسيلى ستيبانوفيتش .

– وكيف لا امسها ؟

– لأن ذلك أمر يخصنا . فانت ستلجا الى الرؤساء وتحابيهم . فما عليك الا ان تصمت .

سال تليغين اخيرا ، ونظر الى اريشنيكوف :

– ما سبب الاضراب ؟ ما هى المطاليب ؟

اشاح اوريشنيكوف بصره . فاجاب بوتكو :

– اضرب عمال ورشة البرادة . فى الاسبوع الماضى حوّل ستون من مخارطهم الى العمل بالقطعة على سبيل التجربة . وفى النتيجة يظهر انهم لا يكسبون ما كانوا يكسبونه من قبل ، ويتعين عليهم ان يشتغلوا اوقاتا اضافية . وها هم قد علقوا قائمة كاملة عند الباب فى المبنى السادس بمطاليب مختلفة ، وليس كبيرة .

وغمس الريشة فى الدواة غاضبا ، وشرع فى تسجيل القائمة .

وضع تليغين يديه وراء ظهره ، وسار خلال الافران ، ثم قال ، وهو يعاين من خلال فتحة مستديرة يتراقص وراءها البرنز المذاب متلويا كالافاعى فى النار البيضاء التى لا تحتمل :

– يا اوريشنيكوف ، اظن ان هذه القطعة ظلت هناك وقتا اطول مما يجب . اليس كذلك ؟

خلع اوريشنيكوف مئزره الجلدى دون ان يجيب ، وعلقه على مسمار ، ولبس قبعة من جلد الخروف ، وسترة طويلة حسنة النوع ، وقال بصوت عميق كثيف تردد فى الورشة كلها :

– اوقفوا العمل ، يا رفاق . وتعالوا الى المبنى السادس ، الباب الاوسط .

وسار نحو باب الخروج . القى العمال الادوات صامتين . بعضهم نزل من الرافعة ، والبعض الآخر طلع من حفرة فى الأرض ، وسار الجميع فى حشد وراء اوريشنيكوف . وفجأة حدث شىء عند الباب . ارتفع صوت جنونى متحول الى زعيق :

— تكتب ؟ ... تكتب ، يا ابن الكلبة ؟ سجل اسمي ، واخبر الرؤساء ! . .

وكان ذلك صوت عامل القولبة الكسي نوسوف يصرخ ببونكو . وكان وجهه المتعب غير المحلوق منذ فترة طويلة بعينيه الكدرتين الغائرتين يختلج ويتلوى ، وقد انتفخ ودج في رقبته النحيلة ، وكان ، يضرب حافة المنضدة بجمع يده الأسود صارخا :

— مصاصو دماء ! . . معذبون ! . . سنجد لكم ما يسكتكم ايضا ! . .

عند ذاك مسك اوريشنيكوف بنوسوف من جذعه ، وابعده من المنضدة العالية بيسر ، وسار به الى الباب . فهدأ هذا حالا ، وفرغ الورشة .

وعند الظهر كان المصنع كله مضربا . وسرت شائعات بان ثمة قلاقل في مصنعي اوبوخوفسكي ونيفسكي للآلات . وكان العمال يقفون في باحة المصنع بجماعات كبيرة منتظرين نتيجة مفاوضات الادارة مع لجنة الاضراب .

وكان الاجتماع معقودا في دائرة المصنع . وقد فزعت الادارة ، وقامت بتنازلات ، ولم تبق الا عقبة واحدة ، هي مطلب العمال في فتح الباب الموجود في السياج المصنوع من الالواح الخشبية لئلا يضطروا الى الدوران وشق طريقهم خلال الوحل مسافة ربع فرسخ . ولم يكن هذا الباب يهم احدا في الحقيقة ، الا ان الأمر تحول الى نوع من الاعتداد لكل من الطرفين ، واصرت الادارة فجاة على رأيها ، وبدأت نقاشات طويلة . وفي تلك الاثناء جاء في التلفون امر من وزارة الداخلية : رفض جميع مطاليب لجنة الاضراب ، والامتناع عن اجراء اية مفاوضات معها حتى اشعار آخر .

وقد افسد هذا الأمر القضية كلها افسادا كبيرا حتى ان كبير المهندسين انطلق الى المدينة على الفور لتوضيح الأمر . وذُهِل العمال ، وكان الشعور السائد مسالما بالاحرى . دخل بعض المهندسين في الحشد شارحين باسطين اذرعهم . بل وصدر ضحك في مكان ما . واخيرا ظهر على مدخل الدائرة المهندس بولبين الضخم الركين الاشيب ، وصرخ بصوت تردد في الفناء كله بان المفاوضات ارجأت الى الغد .

بقي ايفان ايليتش في ورشة الصهر حتى المساء ، ولما رأى الافران ستنطفئُ على اية حال ، حك علباءه ، وذهب الى بيته . كان المستقبليون جالسين في غرفة الطعام ، وقد ابدوا جميعا اهتماما شديدا بما يحدث في المصنع . الا ان ايفان ايليتش لم يحدثهم بشيء ، وراح وهو مستغرق في افكاره يمضغ الشطائر التي قدمتها له يلزافيتا كيييفنا ، ثم انصرف الى غرفته ، واغلقها عليه بالمفتاح ، واستلقى لينام .

لدى اقترابه من المصنع في اليوم التالي رأى وهو ما يزال على مسافة بعيدة ، ان في الأمر سوءا . كانت جماعات العمال تقف في كل الزقاق تتشاور . وقد احتشد قرب بوابة المصنع جمهور غفير يقدر بعدة مئات ، يطن طنين خلية نحل مستثارة .

كان ايفان ايليتش يرتدي قبعة ناعمة ومعطفا مدنيا ، فلم يسترع انتباه احد . تسمع الى جماعات من المتجادلين فعرف ان اعضاء لجنة الاضراب جميعا قد اعتقلوا ليلا ، وان الاعتقال ما يزال جاريا بين العمال ، وان لجنة جديدة قد انتخبت ، والمطاليب التي اعلنوها الآن مطاليب سياسية ، وان فناء المصنع الآن مملوء بالقوزاق ، ويقال ان امرا قد صدر بتفريق الجمهور ، الا ان القوزاق قد رفضوا كما زُعِم ، واخيرا ان عمال مصنع اوبوخوفسكي ، ومصنع نيفسكي لبناء السفن وبعض المصانع الصغيرة قد انضموا الى الاضراب .

عزم ايفان ايليتش على ان يشق طريقه الى الدائرة ليطلع على الاخبار ، الا انه بعد جهد جهيد لم يستطع الا ان ينفذ حتى البوابة . وهناك كان قوزاقيان جسيمان انزلقت قبعتاهما على جانب وانفرجت لحيتاهما الى الجانبين يقفان الى جانب الحارس بابكين المعروف المتعبس في فروته الضخمة . وكانا ينظران بمرح ووقاحة الى وجوه العمال المؤرقة السقيمة ، وكلاهما متورد الوجنتين ، مشبعا غذاء ، ذا مظهر مشاكس وهازىء .

فكر ايفان ايليتش «اجل ، ان هذين القوزاقيين لن يرعويا عن شيء» وهمّ بالدخول الى الفناء ، الا ان اقرب القوزاقيين اليه سد طريق الدخول عليه ، وتفرس فيه بعينين وقحتين ، وقال :

— الى اين ؟ ابتعد !

– عليّ ان اذهب الى الدائرة . انا مهندس ،

– قلت لك : ابتعد !

عندئذ ترددت اصوات من المحتشدين :

– كفرة ! جلاوزة !

– لم يكفكم ما سفكتم من دمائنا !

– شياطين متخمون ! محتكرو اطيان !

وفى تلك البرهة شق شاب قصير ابثر الوجه ذو انف كبير معكوف طريقه الى الصفوف الامامية . كان يرتدى معطفا ضخما لا يناسب حجمه ، ويضع على شعره الأجعد قبعة عالية فى وضع اهوج ، وتكلم متعتعا هازا ذراعه الواهنة :

– ايها الرفاق القوزاق ! السنا روسا جميعا ؟ على من تشهرون السلاح ؟ على اخوتكم . وهل نحن اعداؤكم لتطلقوا النار علينا ؟ ماذا نحن نريد ؟ نحن نريد السعادة للروس جميعا . نريد ان يكون كل انسان حرا . نريد ان نقضى على التعسف . . .

زم احد القوزاقين شفتيه ، وتفحص الشاب بازدراء من راسه حتى قدميه ، واستدار ، واخذ يخطو على طول البوابة . بينما اجاب الثانى بصوت رسمى مهيب :

– لن نستطيع السماح باية تمردات ، لاننا اقسمنا اليمين .

وعندئذ صاح الاول بالشاب الأجعد الشعر ، بعد ان فكر بالجواب على ما يبدو :

– اخوان ، اخوان . . . شد بنطلونك ، فقد تفقده .

وضحك القوزاقيان كلاهما .

ابتعد ايفان ايليتش عند البوابة ، فان موجة الحشد كانت تدفعه جانبا ، نحو السياج ، حيث تكومت كومة حدائد صدئة . وبينما كان يحاول ان يصعد كومة الحدائد ، وقع بصره على اوريشنيكوف الذى كان يمضغ قطعة خبز بهدوء ، وقد سرح قبعته من فراء الخروف على مؤخرة راسه . غمز اوريشنيكوف لتليغين بحاجبيه ، وقال بصوت عميق :

– نعم الاحوال ، يا ايفان ايليتش .

– مرحبا ، يا اوريشنيكوف . بم سينتهى كل هذا ؟

– ونحن نهتف قليلا ، ثم نخلع قبعاتنا طائعين . وهذا كل

ما تبقى من التمردات . انهم ارسلوا القوزاق الينا . فبم سنحاربهم ؟ ااقذفهم بهذه البصلة فاقتل اثنين منهم ؟

وفى تلك الاثناء حدثت دمدمة فى الجمع ثم تلاشت . وفى السكون صدر عند البوابة صوت آمر حاد :

– يا سادة ، ارجوا ان تتفرقوا الى بيوتكم . وسينظرون فى رجاواتكم . ارجوكم ان تتفرقوا بهدوء .

اضطرب الجمع ، واندفع الى الوراء ثم الى ناحية . ابتعد فريق ، وتقدم آخر . واشتد لغط الكلام . وقال اوريشنيكوف :

– للمرة الثالثة يرجون دون تهديد .

– من يقول هذا ؟

– ضابط قوزاقى .

– يا رفاق ، يا رفاق ، لا تتفرقوا .

تردد صوت منفعل ، وقفز على كومة الحدائد الى الخلف من ايفان ايليتش رجل شاحب منفعل ذو قبعة كبيرة ، ولحية سوداء شعثاء ، كانت سترته الانيقة مزررة تحتها بدبوس انجليزى .

وقال الرجل بصوت جهير بعد ان مد يدين ضم قبضتيها :

– يا رفاق ، لا تتفرقوا مهما كلف الأمر . لقد عرفنا من مصدر مو ثوق ان القوزاق رفضوا اطلاق النار علينا . والادارة تجرى مفاوضات مع لجنة الاضراب عن طريق وسيط . وفضلا عن ذلك يناقش عمال السكك الحديد الآن اعلان اضراب عام . والحكومة فى ذعر .

زعق صوت جنونى :

– برافو !

وسرى طنين فى الحشد ، وغاص الخطيب فيه ، وغاب . وكان الناس يتوافدون ركضا الى الزقاق .

بحث ايفان ايليتش ببصره عن اوريشنيكوف ، الا ان هذا كان فى تلك اللحظة واقفا بعيدا عنه وقرب البوابة . وترددت كلمة «ثورة ، ثورة» غير مرة .

شعر ايفان ايليتش بان انفعالا بالخوف والفرح يملأ كيانه كله . ارتقى كومة الحدائد واجال بصره فى الحشد الذى صار الآن ضخما ، وفجأة راى اكوندين على بعد خطوتين منه . كان يضع على

عينيه نظارة ، وعلى راسه كيبيه لها طرف كبير ، ويلبس عباءة سوداء . شق طريقه اليه رجل فى قبعة مستديرة وشفتاه ترتجفان . وسمع تليغين ما قال الرجل لأكونديين :

— اذهب ، يا ايفان افاكوموفيتش ، انهم ينتظرونك .

رد اكونديين باقتضاب وغيظ :

— لا اذهب .

— اجتمعت اللجنة كلها . وهم لا يريدون ان يتخذوا قرارا بدونك ، يا ايفان افاكوموفيتش .

— انا باق على رأيى ، وهذا معروف .

— لقد فقدت صوابك . . . ها انت ترى ماذا يجرى . وانا اقول لك ان اطلاق النار سيبدا بين لحظة وأخرى . . .

واخذت شفتا الرجل ذى القبعة المستديرة ترتعشان .

قال اكونديين :

— قبل كل شيء لا ترفع صوتك . اذهب واتخذ قرارا مساوما . انا لا اشترك فى استفزاز . . .

— اللعنة ، اللعنة . جنون محض !

قال الرجل ذو القبعة المستديرة ، وشق طريقه فى الحشد . وتقدم جنبا من اكونديين العامل الذى دعا بالأمس عمال ورشة تليغين الى الاضراب ، فقال له اكونديين شيئا . اوما له العامل براسه ، واختفى . ثم حصل الشيء نفسه — عبارة قصيرة وهزة راس — مع عامل آخر .

ولكن صيحات تحذيرية ترددت بين الحشد فى تلك اللحظة . وفجاة صدرت ثلاث طلقات جافة قصيرة . وخيم سكون على الفور . وسُمع صوت مكتوم ممطوط وكأنه عن قصد «آ — آ — آ —» . وتحرك الحشد ، وتراجع عن البوابة . كان احد القوزاق يرقد فى الوحل الذى عجنته الاقدام ، ووجهه الى الارض ، وركبتاه معكوفتان على بطنه . وفى الحال سرت صيحة فى كتلة الناس كلها : «لا حاجة ، لا حاجة» . فقد فتحت البوابة . الا ان طلقة رابعة من مسدس صدرت من جانب ، وتطايرت بعض الحجارة ، فارتطمت فى الحديد . وفى تلك اللحظة راى تليغين اوريشنيكوف واقفا حاسر الرأس ، فاغر الفم ، وحيدا امام الحشد المتراكض فى فوضى . بدا وكأنه

قد انغرس فى الارض من الرعب بحذائيه الطويلين . وفى ذات الوقت رنت كضربات سوط طلقات طويلة من بندقية — واحدة وثانية واخرى ، واذا باوريشنيكوف يركع على ركبتيه برفق ، وينطرح على الارض .

بعد اسبوع انتهى التحقيق فيما حدث فى المصنع . فكان ايفان ايليتش فى قائمة الاشخاص الذين اشتبه فى عطفهم على العمال . وعندما استدعى الى الدائرة تحدث مع الادارة بحدة ، على غير توقع من الجميع ، وقدم استقالته .

١١

كان الدكتور دميترى ستيبانوفيتش بولافين والد داشا ، جالسا فى غرفة الطعام قرب سماور كبير متصاعد البخار يطالع الصحيفة المحلية «نشرة سامارا» وكان كلما احترقت سيكارته حتى عقبها القطنى يتناول سيكارة اخرى من علبة سيكائر سميكة مملوءة ، ويشعلها من عقب السيكارة . سعل ، وصعد الدم الى وجهه ، وحك صدره المشعر تحت قميصه المفتوح . كان يطالع ويرشف الشاى الخفيف من صحن الفنجان ناثرا الرماد على الصحيفة ، والقميص ، ومفرش المائدة .

ترامى صريف سرير من وراء الباب ، ووقع اقدام ، ودخلت داشا الغرفة وقد القت روبها على قميص النوم ، وهى ما تزال متوردة ناعسة . نظر دميترى ستيبانوفيتش الى ابنته من فوق نظارته الانيقة المصدوعة بعينين ساخرتين باردتين كعينى داشا ، وقرب خده لتقبله . قبلته داشا وجلست قبالته مقربة منها الخبز والزبدة . وقالت :

— الريح مرة اخرى .

والواقع ان ريحا قوية حارة ما تزالت تهب لليوم الثانى . كانت سحابة من الغبار الكلسى تجثم على المدينة ، وتبرقع الشمس . وكانت سحب كثيفة واخزة تجرى دفقات عبر الشارع ، وكان السابلة القلائل يديرون لها ظهورهم . وكان الغبار ينفذ فى كل شق ، وفى اطر النوافذ ، ويستقر بطبقة رقيقة على افاريز النوافذ ، ويهص بين الاسنان . وكانت الريح تهز زجاج الشبابيك ،

وتقعقع بالسقف الحديدى . وفى الوقت ذاته كان الجو حارا وغبرا ، بل وان رائحة الشارع نفذت الى الغرف .

قال دميترى ستيبانوفيتش :

– وباء من امراض العيون . شيء لطيف .

وتنهدت داشا .

قبل اسبوعين توادعت مع تليغين على سلم السفينة وقد رافقها فى آخر الأمر حتى سامارا ، ومنذ ذلك الحين وهى تعيش مع ابيها بدون عمل فى شقة جديدة فارغة غير مالوفة لها ، حيث كانت صناديق الكتب المغلقة تقف فى الصالة ، ولم تكن الستائر قد علقت بعد ، وكان من المتعذر العثور على شيء فيها ، كما لم يكن فيها مكان يستريح المرء فيه ، ان العيش فيها يشبه العيش فى حانة .

راحت داشا تقلب الشاى فى القدح ، وتنظر مكتئبة الى سحائب الغبار الرمادى تتطاير وراء النافذة من تحت الى فوق . كان يخيل اليها ان عامين قد انقضيا كالحلم ، وها هى قد عادت الى البيت ثانية ، ولم يبق من كل الأمانى والانفعالات وضروب الناس ، من بطرسبورغ الصاخبة غير هذه السحائب من الغبار .

قال دميترى ستيبانوفيتش ، وهو يقلب الصحيفة :

– قتلوا الارشيدوق .

– ايهم ؟

– كيف ايهم ؟ ارشيدوق النمسا اغتيل فى ساريفو .

– هل كان شابا ؟

– لا اعرف . صبى لى قدحا آخر .

القى دميترى ستيبانوفيتش قطعة سكر صغيرة فى فمه – وكان يحتسى الشاى دائما خلال قطعة سكر فى الفم – ونظر الى داشا نظرة هازئة . وسأل وهو يرفع صحن الفنجان .

– خبرينى ارجوك ، هل انفصلت يكاترينا عن زوجها نهائيا .

– لقد اخبرتك ، يا بابا .

– حسنا ، حسنا . . .

وتناول الصحيفة من جديد . مشت داشا الى النافذة . يا للسأم ! وتذكرت السفينة البيضاء ، والشيء الرئيسى ان الشمس

كانت تملأ الرحب : السماء الزرقاء ، والنهر ، وسطح السفينة النظيف ، وكل شيء ، كل شيء مغمور بالشمس ، والنداوة ، والطراوة . عندئذ بدا ان ذلك الطريق المتلألئ ، اى النهر العريض الملتوى ببطء ، والسفينة «فيودور دوستويفسكى» وعليها داشا وتليغين ، كل ذلك ينصب ويتداخل فى خضم من الضياء والبهجة ازرق بلا ساحل ويتحول الى نعيم .

آنذاك لم تتعجل داشا ، رغم انها كانت تدرك ان تليغين كان يعانى ، ولم تكن هى تعترض على هذه المعاناة . ولكن لم العجلة ، وكل لحظة من لحظات تلك السفرة كانت طيبة رغم ذلك ، وهما سيصلان الى السعادة على اية حال .

اصبح ايفان ايليتش لدى اقترابهما من سامارا شاحب الوجه ، وكف عن المزاح . حدثت داشا نفسها : نحن مبحران نحو السعادة ، وشعرت بنظرته اليها ، وكأنها نظرة رجل قوى مرح مرت عليه عجلة . كانت مشفقة عليه ، ولكن ماذا كان بوسعها ان تفعل ، وكيف تدعه يقترب منها ، ولو قليلا ، وقد كانت تدرك ان ذلك لو حدث لبدا فى الحال ما كان يجب ان يحدث فى آخر الرحلة . انهما ، عندئذ ، لن يصلا الى السعادة ، بل ستسرق منهما بجزع فى منتصف الطريق . ولهذا السبب اكتفت بان تكون حنونة معه فقط . اما هو ، فقد خيل اليه انه سيهين داشا اذا لمح ، ولو بكلمة واحدة ، الى ما كان السبب فى سهاده اربع ليالى ، احس بنفسه فى ذلك العالم الفريد نصف الشفاف ، حيث جميع المظاهر قد انزلقت عنه مثل ظلال فى ضباب ازرق ، وحيث كانت عينا داشا الرماديتان تشعان وعيدا وقلقا ، وحيث لا واقع غير الروائح ، وضوء الشمس ، والم فى القلب لا يفتر .

فى سامارا استقل ايفان ايليتش سفينة اخرى ، وعاد بها . واختفى بحر داشا المتلألئ الذى كانت تبحر عليه بهدوء غامر وتشتت ، وارتفعت سحائب من الغبار وراء زجاج النافذة المرتج .

قال دميترى ستيبانوفيتش :

– سيجر النمساويون آذان الصربيين هؤلاء – ثم خلع نظارته من انفه ووضعها على الصحيفة ، واكمل : – اما انت ، فما هو رايك فى المسألة السلافية ، يا قطيطة ؟

هزت داشا كتفيها ، وهي واقفة عند النافذة ، وسالت مغمومة :

– هل ستأتى للغداء ؟

– لا ، على الاطلاق . عندى حالة حمى قرمزية فى بيت بوستنيكوف .

تناول دميترى ستيبانوفيتش صدر قميصه الشكلي من على المنضدة بحركة بطيئة ، وارتداه ، وزرر سترته من قماش الشنتونغ ، وتفحص جيوبه ليطمئن الى ان كل شيء فى مكانه ، وشرع يمشط شعره الاشيب الأجعد على جبينه بمشط مثلوم .

– على كل حال ، ماذا بخصوص المسالة السلافية ؟

– أوه ، يا الهى . لا اعرف ، يا بابا . لماذا تلح علي ؟

– اما انا فلى رائى الشخصى ، يا داريا دميترييفنا .

كان يكره كثيرا ، كما يبدو ، ان يذهب الى بيت بوستنيكوف كما انه ، بوجه عام ، يهوى الكلام فى السياسة فى الصباح ، وهو وراء السماور . تابع قوله :

– المسالة السلافية – هل انت مصغية ؟ – مسمار السياسة العالمية . وكثير من الناس يفشلون فى هذه المسالة . ولهذا السبب فان البلقان موطن السلاف الأصلى انما هو الزائدة الدودية لاوربا ، ربما تريدين ان تساليني : لماذا ؟ فاجيبك . – وهنا اخذ يطوى اصابعه السميكة : اولا ، ان السلاف اكثر من مائتى مليون ، وهم يتوالدون كالارانب ، ثانيا انهم استطاعوا ان يخلقوا دولة عسكرية جبارة كالامبراطورية الروسية ، وثالثا ان الجماعات السلافية الصغيرة ، رغم الاندماج ، تنظم نفسها فى كيانات مستقلة ، وتطمح الى ما يسمى بالتحالف السلافى العام ، ورابعا – وهذا الأهم – ان السلاف يكونون طرازا من «الباحث عن الله» جديدا كليا من الناحية الخلقية ، وخطرا للغاية فى بعض الوجوه على الحضارة الاوروبية . ان «البحث عن الله» – هل انت تسمعيني ، يا قطيطة ؟ هو رفض وتهديم للحضارة الحديثة كلها . وانا ابحث عن الله ، اى عن الحقيقة فى نفسى انا . ولأجل ذلك يجب ان اكون حرا بشكل مطلق ، وانا اهدم الأسس الخلقية التى دُفنت تحتها ، اهدم الدولة التى تصفدنى بالاغلال .

قالت داشا جزعة :

– اذهب الى بيت بوستنيكوف ، يا بابا .

– لا ، ابحثى عن الحقيقة هناك .

ونقر باصبعه ، وكأنه يشير الى باطن الأرض ، الا انه صمت فجأة ، واستدار نحو الباب . كان الجرس يرن فى الرواق .

– داشا ، اذهبى لفتح الباب .

– لا استطيع ، فانا لم ارتد ثيابى .

صاح دميترى ستيبانوفيتش :

– ماتريونا ! آه ، امراة لعينة . – وذهب بنفسه ليفتح الباب ، وعاد فى الحال يحمل فى يده رسالة . وقال :

– انها من كاتيا . انتظرى ، ولا تلتقطيها من يدى ، سأكمل حديثى اولا . . . اذن ، ف «البحث عن الله» يبدأ ، قبل كل شيء ، من التهديم ، وهذه المرحلة خطرة جدا ، ومعدية . وروسيا الآن مصابة بهذه المرحلة من المرض بالذات . . . اخرجى مساء الى الشارع الرئيسى وستسمعين الناس يزعقون : «النجدة» . فى الشارع يتسكع قطاع الطريق . انها شقاوة فاحشة وقد عجز البوليس عن السيطرة عليها . ان اولئك الفتيان الذين لا خلاق لهم هم «باحثون عن الله» . هل فهمت ، يا قطيطة ؟ وهم اليوم يستهترون فى الشارع الرئيسى ، وغدا سيبدأون بالاستهتار فى ارجاء الدولة الروسية كلها . والشعب قاطبة يعانى من المرحلة الاولى من «البحث عن الله» مرحلة هدم الاسس .

وتنشق دميترى ستيبانوفيتش ، واشعل سيكارة . اختطفت داشا من اصابعه رسالة كاتيا ، وذهبت الى غرفتها . بينما مضى فى اثبات شيء ما بعض الوقت ، وسار صافقا الابواب فى الشقة الواسعة نصف الفارغة المغبرة بارضيتها المطلية ، ثم ذهب الى وجهته .

كتبت كاتيا فى رسالتها :

«عزيزتى داشا . انا لا اعرف حتى الآن شيئا عنك ولا عن نيقولاى . انا الآن فى باريس . والموسم هنا فى ذروته . والنساء يلبسن فساتين ضيقة جدا فى الاسفل . والشيفون فى الموضة . باريس جميلة جدا . ليتك ترين ذلك : وكل الناس فى

باريس بلا استثناء يرقصون التانغو . وفي الافطار في الفترة بين تقديم صحن وصحن ينهض الناس ، ويرقصون ، وفي الساعة الخامسة ايضا ، واثناء الغداء وهكذا دواليك حتى الصباح . ولا مكان لي اتحاشى فيه الموسيقى . وفيها شيء من الحزن والعذاب والحلاوة . ويخيل اليّ دائما انني اشيع شبابي ، وشيئا لا يمكن ان يرد حين انظر الى تلك النسوة بفساتينهن ذات الفتحات الواطئة ، وعيونهن المؤطرة بالازرق ، والى فرسانهن . وبشكل عام انا احس بضجر . واتصور دائما ان شخصا ما لا بد ان يموت . وانا اخاف على ابي كثيرا . فقد تخطى سن الشباب منذ زمان . الروس هنا يملأون كل مكان ، وجميعهم من معارفنا . وفي كل يوم نجتمع في مكان ما ، وكأننا لم نغادر بطرسبورغ . وبالمناسبة حدثوني هنا عن نيقولاي ، وزعموا انه كان على علاقة قريبة جدا من امرأة هي ارملة ولها ولدان وثالث طفل صغير . هل تفهمين ؟ وقد تألمت كثيرا جدا في بادىء الامر . وفيما بعد شعرت ، لسبب ما ، بالشفقة على ذلك الطفل الصغير . . . آه يا عزيزتي داشا ، اود احيانا لو يكون لي طفل . ولكن ذلك ممكن فقط اذا كان من رجل احبه . اذا تزوجت انجبي طفلا . ليكن ذلك في بالك» .

اعادت داشا قراءة الرسالة عدة مرات ، ودمعت عيناه لا سيما على ذلك الطفل البريء من كل ذنب ، وجلست تكتب جوابا وفرغت منه قبل الغداء ، وتغدت وحدها – لم تمس من الطعام الا قليلا – ثم ذهبت الى غرفة المكتب واخذت تنبش في المجلات القديمة ، ووجدت رواية طويلة جدا ، واستلقت على الأريكة وسط الكتب المبعثرة ، وطالعت حتى المساء . وجاء والدها اخيرا مغبرا تعبا ، وجلس الاثنان للعشاء ، وكان الوالد يرد على جميع اسئلتها بـ«أهـا» . الا ان داشا استخلصت منه ان الطفل في ربيعه الثالث ، والمصاب بالحمى القرمزية قد مات . وتنشق دميتري ستيبانوفيتش ، بعد ان نطق بهذا النبأ ، ووضع نظارته الانفية في محفظتها ، وذهب لينام . استلقت داشا في السرير ، وتغطت بالمفرش حتى رأسها . وافرغت ما في صدرها باكية على مختلف الانباء الحزينة .

انقضى يومان . وانتهت زوبعة الغبار برعود ومطر مدرار

ظل يقرع السقف طوال الليل ، وطلع صباح الأحد هادئا رطبا مغسولا .

ما كادت داشا تنهض في الصباح حتى جاء لزيارتها صاحب للعائلة قديم هو سيميين سيمينوفيتش غفيادين موظف الاحصاء في البلدية ، وهو رجل نحيل محدودب ، بادي الشحوب دائما ذو لحية شقراء ، وشعر مصفوف وراء اذنيه . وكانت تفوح منه رائحة تشندة . ولم يكن يعاقر الخمرة ، ولا يدخن ، ولا يأكل اللحم ، وكان تحت رقابة البوليس . سلّم على داشا ، وقال دون اية مناسبة بصوت هازئ : – لقد جئت اليك لنذهب الى الفولغا ، يا امرأة .

قالت داشا لنفسها : «وهكذا انتهى كل شيء بموظف الاحصاء غفيادين» . وتناولت مظلة بيضاء ، وسارت وراء سيميين سيمينوفيتش هبوطا الى الفولغا ، الى الرصيف الذي كانت الزوارق تقف عنده .

كان الحمالون والعتالون ، وهم رجال وشبان عراض المناكب واسعو الصدور حفاة حاسرو الرؤوس ، عراة الرقاب ، يطوفون بين عنابر الحبوب الخشبية الطويلة ، واكوام الأخشاب وبالات الصوف والقطن . كان بعضهم يلعب لعبة قذف النقود ، والبعض الآخر ينام على الاكياس والالواح . وعلى مسافة بعيدة كان زهاء ثلاثين رجلا يركضون على سلم المركب المهتزة حاملين الصناديق على اكتافهم . وكان ثمة رجل سكران يقف بين العربات وقد كساه الوحل والغبار ، وتضرجت وجنته بالدم وكان يشتم بتكاسل وفحش رافعا بنطلونه بكلتا يديه .

قال سيميين سيمينوفيتش بلهجة تهذيبية : – ان هذا الصنف من الناس لا يعرف اعيادا ولا استراحة ، اما انا وانت فذاهبان الى الاستمتاع بالطبيعة في وقت الفراغ كانسانين ذكيين مثقفين .

وطفر رجلين حافيتين ضخمتين تعودان لشاب واسع الصدر ضخم الشفتين كان مبطوحا على الأرض ، بينما جلس شخص آخر على جذع ، وراح يمضغ خبزا . وسمعت داشا قول الشاب المبطوح في اثرها :

– فيليب ليت لنا مثلها .

فاجاب الآخر من فم ممتلئ :

– مفرطة النظافة . تتطلب متاعب كثيرة .

كانت اشباح القوارب الصغيرة تتحرك فى النهر المصفر العريض على انعكاسات الشمس الرجراجة متجهة الى الشاطئ الرملي البعيد . وقد استأجر غفيادين واحدا من مثل هذه القوارب ، وطلب الى داشا ان تهتم بتدوير الدفة ، بينما جلس هو الى المجذافين ، واخذ يجذف بعكس التيار . وسرعان ما تفصد العرق على وجهه الشاحب .

– الرياضة شيء عظيم .

قال سيمين سيمينوفيتش ذلك ، واخذ يخلع عنه سترته ، وحلّ حمالة البنطلون بشيء من الحياء ، وحشرها بعيدا فى مقدمة القارب . كانت له ذراعان نحيلتان ضعيفتان عليهما شعر طويل ، وكان طرفا ردنيه مصنوعين من السيليولويد . فتحت داشا مظلتها ، وحدقت فى الماء مقلصة عينيها .

– اعذريني على سؤال غير متواضع ، ياداريا دميترييفنا . يقال فى المدينة انك موشكة على الزواج ، أهذا صحيح ؟

– لا ، غير صحيح .

عندئذ رسم تكشيرة عريضة كانت غير ملائمة لاسارير وجهه المفكرة الساهمة ، وحاول بصوت ضعيف ان يغنى «آه ، نحن منحدرون مع الفولغا الأم» الا ان الخجل ركبه ، وراح يجذف بكل قوته .

قابلهما من الاتجاه الآخر قارب مملوء بالناس . كانت ثلاث نساء من طبقة متوسطة فى فساتين خضراء وقرمزية من الكشمير يقضمن حب عباد الشمس ، ويلفظن القشور فى احضانهن . وقد جلس قبالتهن رجل له وجه سفاح ، فى غاية السكر ، اجعد الشعر ، اسود الشاربين ، يقلب عينيه ، وكانه يحتضر ، ويعزف «البولكا» على الاكورديون . وكان شخص آخر يجذف بجنون ، مرنحا القارب ، بينما لوح ثالث بمجذاف احتياطي ، وصاح على سيمين سيمينوفيتش :

– تنح عن الطريق ، يا رمة .

ومروا على قرب شديد صائحين لاعنين .

واخيرا انزلق القارب على القاع الرملي قرب شاطئ . قفزت داشا الى الشاطئ . اعاد سيمين سيمينوفيتش ارتداء حمالة البنطلون والسترة . وقال مقلصا عينيه :

– رغم انى من سكان المدن ، الا اننى اعشق الطبيعة دائما ، لاسيما اذا انضاف اليها قوام فتاة ، وفى ذلك اجد شيئا من تورغنيف . لنذهب الى الغابة .

وسارا على الرمل الحار ، غائصين فيه حتى الكاحل . وكان غفيادين يتوقف بين لحظة واخرى ويمسح وجهه بمنديله ، ويقول :

– انظرى ، اية بقعة فاتنة .

واخيرا انتهى الرمل ، وكان يجب ارتقاء عدوة قليلة الارتفاع تبدا بعدها مروج قطع العشب فى بعض اماكنها ، وتفشى الذبول فى صفوفه . كانت زهور العسل تعبق برائحة حارة هناك ، وكانت شجيرة جوز كثيفة الاوراق تحنو فوق الماء على شفا خندق ضيق . وكان جدول ماء يترقرق فى منخفض ريان العشب ليصب فى بركة اخرى مستديرة . وقد نمت على ضفتيها اشجار زيزفون معمرة ، وشجرة صنوبر وعرة انبسط فرعها الوحيد كاليد . وعلى مسافة ابعد نما حرش من الزهور البرية البيضاء على تلعة ضيقة من الارض . كان هذا المكان بقعة مفضلة لطيور الشنقب اثناء مجراتها . جلست داشا وسيمين سيمينوفيتش على العشب . كان الماء فى وهاد ملتوية صغيرة ، تحت اقدامهما ، يعكس زرقة السماء ، وخضرة الشجر .وكان طائران رماديان صغيران يقفزان فى اجمة غير بعيد عن داشا ، ويسقسقان سقسقة رتيبة . وكان حمام برى يهدل فى شجرة بوحشة هديل من فارقته اليفته . جلست داشا مادة ساقيها ، ملقية يديها على ركبتيها تصغى الى الحمام العاشق المهجور يناغيها من الاغصان بصوت رقيق :

«داريا دميترييفنا ، آه ما الذى دهاك – لِمَ انت حزينة هذا الحزن ، تريدين ان تبكى ؟ لم يحصل شيء بعد ، بينما انت كئيبة ، وكان الحياة قد انتهت انقضت ، توارت . مجرد انك متذمرة بطبعك» .

قال غفيادين :

– اريد ان اكون صريحا معك ، يا داريا دميتريبفنا ، فهل تسمحين لى ان القى جانبا بما يسمى بالمتعارف عليه ؟

– تكلم ، فسيّان عندى .

اجابت داشا ، وقد استلقت على ظهرها موسدة راسها على يديها لتنظر الى السماء ، لا الى عينى محدثها الصغيرتين الزائغتى النظر . وكان سيمين سيمينوفيتش يختلس النظر الى جوربيها الابيضين .

– انت فتاة ابية جريئة . وانت شابة جميلة تفور الحياة فى اعماق نفسك . . .

قالت داشا : ولنفرض ذلك .

– امعقول انك لم ترغبى مرة فى تحطيم هذه الاخلاق الموروثة من تربيتك ومحيطك ؟ امن المعقول انك باسم هذه الاخلاق المرفوضة من جميع ذوى المكانة مضطرة الى كبت غرائزك الجميلة ؟

– ولنفرض اننى لا اريد ان اكبت غرائزى الجميلة ، فماذا يكون ؟

سالت داشا ، وانتظرت جوابه بفضول كسول . كانت الشمس تدفؤها ، وتجد متعة فى النظر الى السماء ، والى الغبار المشمس ، الذى كان يملأ كل تلك الزرقة المترامية الاطراف ، حتى انها لم تجد رغبة فى التفكير او فى الحركة .

صمت سيمين سيمينوفيتش حافرا الارض باصبعه . كانت داشا تعرف انه متزوج من المولدة ماريا دافيدوفنا . وكانت زوجته تاخذ اطفالها الثلاثة اكثر من مرة فى كل عام ، وتهجره الى امها التى كانت تعيش فى بيت مقابل داره . وكان سيمين سيمينوفيتش يعزى فى البلدية هذه الهجرانات الى طبع زوجته الحساس والمضطرب . بينما عزتها هى فى مستشفى المدينة الى استعداد زوجها فى كل دقيقة الى ان يخونها مع كل امراة ، وهو لا يفكر بغير ذلك . الا انه لايخونها بسبب جبنه وخوره ، وذلك شىء مخجل تماما . وهى لم تعد تحتمل رؤية وجهه الطويل ، الشبيه بوجوه النباتيين . وكان سيمين سيمينوفيتش خلال هذه الخصامات

يعبر الشارع عدة مرات فى اليوم حاسر الرأس ، ثم يتصافى الزوجان ، وتنتقل الزوجة الى بيته مع الاولاد والوسائد .

– اذا اختلت امراة ورجل فان رغبة طبيعية تتولد لدى المراة فى ان تكون له ، ولدى الرجل فى ان يتملك جسدها – وسعل سيمين سيمينوفيتش ، ثم اردف قائلا – وانا ادعوك لان تكونى صادقة وصريحة . انظرى فى اعماق نفسك فستجدين الرغبة الطبيعية لاحساس سليم تضطرم فيها وسط الاهواء والاكاذيب .

– لا تضطرم اية رغبة فى نفسى الآن ، فما يعنى ذلك ؟

سالت داشا ، وكانت تحس بتسلية وارتخاء . ورات نحلة تطوف فوق راسها ، فى الاصفرار الشاحب لزهرة برية ، فى الغبار الاصفر ، بينما مضى الحمام العاشق المهجور يهدل فى شجيرة الحور : «داريا دميتريبفنا ، داريا دميتريبفنا ، ألعلك عاشقة ؟ عاشقة ، عاشقة ، كلمة شرف . ولذلك انت حزينة» . وشرعت داشا تضحك لدى سماعها ذلك .

– يبدو ان الرمل تسرب الى حذائك . اسمحى لى بنفضه .

قال سيمين سيمينوفيتش بصوت خافت غريب ، وسحبها من كعب حذائها . عندئذ جلست داشا بسرعة ، وانتزعت منه الحذاء ، وضربته به على خده . وقالت :

– يا سفيه . لم اتصور قط انك رجل بهذه الوضاعة .

لبست حذاءها ، ونهضت ، والتقطت المظلة ، وسارت نحو النهر ، دون ان تنظر الى غفيادين .

وفكرت داشا وهى تهبط من العدوة : «حمقاء ، حمقاء . لم تساليه حتى عن عنوانه لتكتبى له . اما هو فى كينيشما واما فى نيجنى . والآن ، اجلسى مع غفيادين . آه يا ربى» . التفتت ، ولمحت غفيادين يسير على المنحدر المعشوشب ، رافعا رجليه كاللقلق ، مديرا بصره الى ناحية . «ساكتب لكاتيا : «تصورى : يبدو اننى مغرمة ، هذا ما يبدو لى» » . ورددت داشا بصوت خافض ، مستمعة الى صوتها : «عزيزى ، عزيزى ، عزيزى ايفان ايليتش» .

وفى تلك اللحظة سمعت على مقربة منها صوتا يقول «لا ادخل ، لا ادخل ، اتركنى ، ستمزق التنورة» . ورات رجلا مسنا عاريا

يخوض فى الماء الى ركبتيه . له لحية قصيرة ، واضلاع مصفرة ، وقد تدلى شريط الصليب الاسود على صدره الغائر . كان مظهره وقحا وكان يسحب نحو الماء امراة كئيبة حانقا صامتا . وكانت المراة تردد : «اتركنى ، ستمزق التنورة» .

عندئذ ركضت داشا بكل قواها بحذاء الشاطىء نحو القارب ، وقد شعرت بتقلص فى حنجرتها من التقزز والعار . وبينما كانت تدفع القارب الى الماء جاء غفيادين راكضا متقطع الانفاس . ودون ان ترد عليه ، وتنظر اليه جلست على مقدمة القارب ، وتظللت بالمظلة ، ولزمت الصمت طوال طريق العودة .

بعد هذه النزهة اخذت داشا بطريقة غريبة غير مفهومة حتى لنفسها تشعر باستياء من تليغين ، وكانما هو الملوم على كل هذا الضيق من هذه البلدة النائية المغبرة المتوهجة بالشمس بأسيجتها المنتنة ، وبوّاباتها الكريهة وبيوتها الصغيرة الآجرية الشبيهة بالعلب ، وباعمدة للتلفونات وللترام بدلا من الاشجار ، والقيظ الثقيل عند الظهيرة ، حين تتجول فى الشارع الرمادى الابيض الخالى من الظل امراة كادت تصاب بدوار الشمس ، تعلق حزم السمك المجفف على كتفيها ، وتصرخ ناظرة فى الشبابيك المتربة «سمك مجفف ، سمك» ، الا ان كلبا مصابا بدوار الشمس مثلها ، نصف معتوه يتوقف بالقرب منها ، ويتشمم السمك ، بينما يترامى من فناء بعيد صوت ارغن الشوارع يعزف لحن الفالس القديم المشحون بالسأم .

كان تليغين ملوما على ان داشا تتلقى الآن بحساسية شديدة كل ما يحيط بها من هذا الركود الباطنى لحياة البرجوازية الصغيرة ، والذى لا ينوى ، كما يبدو ، ان يتزحزح من مكانه ابدا ، وحتى ولو خرجت الى الشارع وصرخت بصوت وحشى : اريد ان اعيش ، ان اعيش !» .

وكان تليغين ملوما على انه كان مبالغا فى تواضعه واستحيائه . فليس هى ، اى داشا ، من كان عليه ان يقول «اعلم اننى احبك» . وكان ملوما على انه لم يترك خبرا عنه ، وكانما غاص تحت الارض ، بل ولعله نسى التفكير فيها .

وبالاضافة الى كل هذا السأم ، رات داشا فى احد الليالى الحالكة اللاهبة كالفرن الحلم الذى راته فى بطرسبورغ ، حين هبت من نومها والدموع فى مآقيها ، وقد غاب عن ذاكرتها ايضا مثلما غاب آنذاك كبخار تصاعد من زجاج رطب . الا انه تصورت ان هذا الحلم المعذِّب الرهيب ينذر بمصيبة . نصح دميترى ستيبانوفيتش ابنته بان تحقن بالزرنيخ . وفيما بعد جاءت رسالة ثانية من كاتيا . كتبت :

«عزيزتى داشا ! بى حنين شديد اليك ، والى اصحابى ، والى روسيا . وانا اشعر اكثر فاكثر بان الذنب يقع علىّ فى الانفصال عن نيقولاى ايضا . استيقظ ، واقضى اليوم كله يلازمنى هذا الشعور بالذنب ، ونوع من التعفن الروحى . ثم – ولا ادرى هل كتبت لك عن ذلك – ان شخصا يلاحقنى منذ بعض الوقت . اخرج من البيت فاراه قادما من الجهة المقابلة . اصعد فى المصعد الى مخزن عام ، فاراه يقفز اليه اثناء صعوده . بالامس كنت فى اللوفر . وقد تعبت فى المتحف ، وجلست على مصطبة ، وفجاة احس وكان يدا تمر على ظهرى . التفت فاجده يجلس غير بعيد عنى . انه رجل نحيل ، تفشى الشيب فى شعره الاسود ، ولحيته تبدو وكانها مصمغة على خديه . كان يضع يديه على راس عصاه ، وينظر نظرة كالحة ، وعيناه غائرتان . وهو لا يتكلم ، ولا يضايقنى الا اننى اخاف منه . واشعر بانه يحوم حولى . . .» .

اطلعت داشا اباها على الرسالة . وفى الصباح التالى قال دميترى ستيبانوفيتش عرضا ، وهو يطالع صحيفته :

– سافرى الى القرم ، يا قطيطة .

– لماذا ؟

– ابحثى عن نيقولاى ايفانوفيتش هذا ، وقولى له : انه مغفل . دعيه يسافر الى زوجته فى باريس . وعلى العموم . . . حسب ما يريد . . . تلك قضيتهما الشخصية . . .

وظهر الغضب والانفعال على دميترى ستيبانوفيتش رغم انه كان يكره اظهار مشاعره . وفجاة احست داشا بالفرح . فقد كانت تتمثل القرم رحابا زرقاء ساحرة تزخر بالامواج . وتصورت

الظل الطويل لشجرة حور هرمية ، ومسطبة حجرية ، ولفاعا يرف على راسها ، وعينين قلقتين تنظران اليها .

جمعت امتعتها بسرعة ، وسافرت الى يفباتوريا ، حيث كان نيقولاى ايفانوفيتش يستحم فى البحر .

١٢

فى ذلك الصيف كان سيل غير اعتيادى من المصطافين قد جاء الى القرم من الشمال . كان الساحل باسره يغص بالمتنزهين المسلوخى الانوف من اهالى بطرسبورغ اللاذعين الجالبين معهم نزلاتهم الصدرية والتهاب القصبات ، ومن الموسكوفيين الضاجين المهملى الهندام بكلامهم المتراخى الناعم ، ومن اهالى كييف ذوى العيون السود غير عارفين الفرق بين الواو اللينة والواو المضخمة ، ومن اغنياء سيبيريا المزدرين لهذه الضوضاء الروسية . وكان الجميع يشوون ويلوحون جلودهم فى الشمس حتى الاسوداد : نساء شابات ، فتيان طويلو السيقان ، ورهبان ، وموظفون ، واناس مبجلون ، وازواج مع زوجاتهم يعيشون كلهم برخاوة ، كما كان الجميع يعيشون فى روسيا انذاك ، وكأن اسفل عمودهم الفقرى قد انقصم .

وفى منتصف الصيف ، وبسبب الماء المالح ، والحر وتلويح الشمس فقد هؤلاء الناس الشعور بالحياء ، وبدأت ملابس على طراز ما يلبسه اهل المدن تبدو ابتذالا زائدا عن الحاجة ، وظهرت على الساحل نساء لا تسترهن غير المناشف التترية ، ورجال يشبهون الصور المرسومة على المزهريات الاترورية .

وترنحت اسس العائلة فى هذا الجو غير الاعتيادى من الامواج الزرقاء ، والرمل الحار ، والاجساد العارية المبثوثة فى كل مكان . وبدا كل شيء هنا سهلا وممكنا . ولا حاجة الى التفكير فى تصفية الحساب ، فيما بعد ، فى الشقة الكئيبة فى الشمال ، حيث المطر يسح وراء النافذة ، والتلفون يدق فى الرواق ، ولكل فرد التزاماته . ماء البحر ينزلق على الساحل بقرقرة ناعمة ، ويمس الاقدام ، فيستشعر

الجسم الممدد على الرمل ، والاذرع المبسوطة ، والاجفان المسبلة بخفة وحرارة ولذة . ان كل الاشياء على الاطلاق ، حتى اخطرها سهلة ولذيذة .

فى هذا الصيف تخطى نزق المصطافين وتحللهم جميع الابعاد ، وكأن كلفا جبارا انفصل عن الشمس المتوقدة فى صباح من صباحات حزيران قد اصاب ذاكرة وتعقل سكان المدن هؤلاء بمئات الوفهم .

لم يكن فى طول هذا الساحل بيت واحد بخير . تقطعت الروابط الوثيقة فجأة . وبدا وكأن الهواء نفسه موقر بهمس الغرام والضحك الناعم ، والهذر الذى لا يوصف ، والمقول على هذه الارض الحارة المبثوثة فيها اطلال المدن القديمة . وعظام الشعوب المندثرة . وكان يبدو وكأن يوما لتصفية الحساب وللدموع المرة سيأتى مع امطار الخريف .

وصلت داشا الى يفباتوريا بعد الظهر . وبينما كانت تقترب من البلدة على الطريق المترب الذى كان يمتد كشريط ابيض فى سهب مستو مرورا بالبطائح الملحية ، واكداس القش لمحت سفينة خشبية كبيرة ازاء الشمس كانت تسير ببطء على بعد نصف ميل ، فتلوح وكأنها تسير فى السهب ، وسط الافسنتين ، واشرعتها السوداء منحرفة وممتدة من فوق السفينة حتى اسفلها . كان منظرا مذهلا انتزع منها آه تعجب . قال الارمنى الذى كان جالسا الى جوارها فى السيارة ، وهو يضحك : «سترين البحر الآن» .

استدارت السيارة مارة بملاحات مربعة الشكل ، وارتقت مرتفعا رمليا ، انفتح البحر من عليه . وبدا وكأنه اكثر ارتفاعا من الارض وكان ذا لون ازرق داكن ومفروشا بجدائل طويلة بيضاء من الزبد . اصفرت ريح مرحة فى الآذان . ضغطت داشا على الحقيبة الجلدية على ركبتيها ، وفكرت مع نفسها : «هذا هو يبدأ» .

فى هذا الوقت كان نيقولاى ايفانوفيتش سموكوفنيكوف جالسا فى سرادق اقيم على اعمدة عند البحر ، يحتسى القهوة مع الفنان العاشق . كان المصطافون يأتون الى هنا بعد ان استراحوا من الغداء ، ويجلسون الى موائد صغيرة ، ويتنادون ويتحدثون عن فائدة العلاج باليود ، وعن السباحة فى البحر وعن النساء . وكان

الجو داخل السرادق طريا ، وكانت الريح تحرك حـــوافى المفارش البيضاء . ولفاحات النساء . مر يخت بشراع واحد وتناهت مــن عليه اصوات مرحة . وجاء الموسكوفيون فى جمع ، واحتلوا مائدة كبيرة ، وجميعهم من ذوى الصيت العالمى . تجهم الفنان العاشق لدى رؤيته لهم ، وتابع حكاية محتوى مسرحية فكرَ فى كتابتها .

– موضوع المسرحية كله مدروس بعمق ، ولكننى لم اكتب غير الفصل الاول – قال ونظر فى وجه نيقولاى ايفانوفيتش متأمـلا مهيبا – ان لك راسا رائقا ، وانت تفهم فكرتى يا نيقولاى . امراة شابة جميلة ولكنها ضجرة تتهافت خمولا ، ومحاطة بالتفاهة . ان هؤلاء اناس طيبون ، ولكن الحياة قد امتصتهم امتصاصا ، مشاعر متعفنة ، وسكر . وباختصار ، انت تفهمنى . . . وفجأة تقول هذه المراة : «يجب ان ارحل ، اتخلص من هذه الحياة ، ارحل الى النور . . . بينما لها زوج وصديق . . . وكلاهما يعانى . . . افهمنى يــا نيقولاى . . . ان الحياة قد امتصت . . . وهى ترحل ولا اشير الى مَنْ . . . لا عشيق لها ، مجرد مزاج . . . ثم نرى الرجلين جالسين فى حانـــة يحتسيان الخمرة صامتين . . . يبتلعان الدموع مــع الكونياك . والريح تصفر فى مدخنة الموقد ، تنعيهمـــا . . . جو حزين . . . خاو . . . مظلم . . .»

سال نيقولاى ايفانوفيتش :

– هل تريد ان تعرف رايى ؟

– نعم ، قل لى فقط : «ميشا ، اترك الكتابة» وساتركها .

– مسرحيتك رائعـــة . انها الحياة بعينها – قال نيقــولاى ايفانوفيتش ، وقد اغمض عينيه ، وراح يهز رأسه – اجل ، يــا ميشا ، اننا لم نعرف كيف نقدر سعادتنا ، وقد رحلت عنا . وها نحن بلا امل ، ولا عزيمة جالسون نشرب . والريح تعول فـــوق مقبرتنا . . . ان مسرحيتك تؤثر فىّ للغاية . . .

ارتعش الانتفاخان تحت عينى الفنان العاشق ، رفع جسمه ، وقبل نيقولاى ايفانوفيتش بقوة ، ثم ملأ قدحيهما . قرع الصديقان القدحين ، ووضعا كوعيهما على المائدة ، ومضيا فى حديثهما الحميم .

قال الفنان العاشق ملقيا الى محدثه نظرة ثقيلة :

– نيقولاى ، اتعرف اننى احببت زوجتك ، كالاهة .

– نعم ، هذا ما بدا لى .

– لقد تعذبت ، نيقولاى ولكن كنتَ صديقى . . . وكم من مرة هربت مــن بيتك ، مقسما على الا اتخطى عتبة دارك مــرة اخرى . . . ولكن كنت اعاود الزيـــارة ، وامثل دور المهرج . . . ولكن اياك ، يا نيقولاى ، ان تلومها ،

ومط شفتيه بضراوة .

– انها تصرفت معى تصرفا فظا ، يا ميشا .

– ربما . . . ولكننا جميعا مذنبون ازاءها . آه ، يا نيقولاى ، شىء واحد لا استطيع ان افهمه فيك . كيف وانت تعيش مع مثل هذه المراة – وارجو المعذرة – كنت على علاقة قريبة فى الوقت ذاته مع تلك الارملة صوفيا ايفانوفنا ؟ لماذا ؟

– تلك مسالة معقدة .

– تكذب . لقد رأيتها . انها امراة بسيطة .

– اسمع ، يا ميشا . الآن صار الأمر فى حكم المـــاضى ، بالطبع . لقد كانت صوفيا ايفانوفنا مجرد انسان طيب . وقــد وهبتنى لحظات من الفرح ، ولم تطلب منى شيئا قط . بينما كان كل شىء فى البيت معقدا للغاية ، عسيرا ، معمقا . . . ولم تكن لى القوة الروحية الكافية لأؤثر بها على يكاترينا دميترييفنا . . .

– غير معقول ، يا نيقولاى . ها نحن سنعود الى بطرسبورغ وتقام امسية الثلاثاء ، وازوركم بعد العرض . . . واجـــد البيت فارغا . . . كيف اتحمل ذلك ؟ . . اسمع . . . اين زوجتك الآن ؟

– فى باريس .

– وهل تتراسل ؟

– لا .

– سافر الى باريس . لنسافر سوية .

– بلا فائدة . . .

– نيقولاى ، لنشرب نخب صحتها .

– لنشرب .

ظهرت الممثلة تشارودييفا فى السرادق ، بين الموائد . كانت ترتدى ثوبا اخضر شفافا ، وقبعة كبيرة . كانت نحيلة كالافعـــى يرتمى ظل ازرق تحت عينيها . ولربما كان عمودها الفقرى معطوبا ،

فقد كانت تتاود وتنحنى . نهض للقائها محرر المجلة الجماليـة «جوقة الموزيات» ، وامسك يدها ، ولثم ببطء ثنية المرفق .

قال نيقولاى ايفانوفيتش من خلال اسنانه :

– امراة مدهشة .

– لا ، يا نيقولاى ، لا ، ان تشارودبيفا فطيسـة لا غير . هل تريد ان تعرف سببا ؟ . . مجرد انها عاشت مع بيسونوف ثلاثة اشهر ، وتقرا الاشعار المنحلة فى الحفلات بصوت كالمـواء . . . انظر ، انظر . ان فمها يصل الى اذنيها ، والعروق بارزة فى رقبتها . انها ليست امراة ، بل ضبع .

ومع ذلك فحين اقتربت تشارودبيفا من المائدة ، هـازة قبعتها شمالا ويمينا ، مبتسمة من فم كبير وشفتين ورديتين نهض الفنـان العاشق ببطء ، وكانه قد صعق وحرك يديه مدهوشـا ووضعهما تحت حنكه .

– نينا . . . عزيزتى . . . يا للزينـة ! . . لا اتحمل ، لا اتحمل . . . نصحونى بالهدوء التام ، يا حبيبتى . . .

ربتت تشارودبيفا على خده بيدها العظمية ، وغضنت انفها .

– وماذا هذرت عنى يوم امس فى المطعم ؟

– هل اغلظت القول عليك ، يوم امس ، فى المطعم ؟ اوه يا نينا .

– نعم ، وبشدة .

– كلمة شرف ، انا المفترى عليه .

وضعت تشارودبيفا خنصرها على شفتيـه ضاحكة : «انت تعرف اننى لا استطيع ان اغضب عليك طويلا» . ثـم التفتت الى نيقولاى ايفانوفيتش وقالت بصوت مختلف تماما ، كانمـا تمثل تمثيلية دارجة .

– لقد مررت من توى بغرفتك . يبدو ان احدى قريباتك قد وصلت . فتاة ساحرة .

القى نيقولاى ايفانوفيتش نظرة سريعة على صديقه ، ثم تناول من صحن الفنجـان السيغار ، واخـذ يمتص الدخـان منـه مصات قوية ، حتى انتشر الدخان على لحيته كلها . قال :

– هذه مفاجاة . ماذا يمكن ان يعنى ذلك ؟ . . انا ذاهب .

والقى السيغار فى البحر ، واخذ يهبط السلم الى الساحل ، مديرا عصاه الفضية الراس . وقد دفع قبعته الى مؤخر راسه ، وعندما وصل الى الفندق كان لاهث الانفاس . . .

– داشا ، لماذا جئت ؟ ما الذى حصل ؟

سال ، وهو يغلق الباب وراءه . كانت داشـا جالسـة الى الارض قرب حقيبة مفتوحة ، تخيط جوربا . عندما دخل زوج اختها نهضت متثاقلة ، وعرضت له خدها ليقبلها ، وقالت مشتتة الفكر :

– يسعدنى جدا ان اراك . قررنا ، ابى وانا ، ان تسافر الى باريس . جلبت معى رسالتين من كاتيا . خذهما واقراهما ارجوك .

اختطف نيقولاى ايفانوفيتش الرسالتين من داشا ، وجلس عند النافذة . ذهبت داشا ، الى غرفة المغسلة ، واخذت تغير ملابسها ، وكانت تسمع زوج اختها يتصفح ورق الرسالتين ، ويزفر . ثـم سكن . تنصتت داشا حتى سمعته يسال فجاة :

– هل تناولت فطـورك ؟ اذا كنت جائعة فلنـذهب الى السرادق .

عندئذ فكرت مع نفسهـا : «لم يعد يحبهـا تمامـا» . سوّت قبعتها على راسها بكلتا يديها ، وعزمت على ان ترجئ الحديث عن باريس الى الغد .

فى الطريق الى السرادق لـزم نيقولاى ايفانوفيتش الصمت ونكس بصره الى الارض ، ولكن حين سالته داشا «هل انت تسبح ؟» رفع بصره بادى المرح ، وقال انهم الفوا هنا «جمعية مناهضة ثياب السباحة» التى ترمى بالدرجة الاولى الى اغراض صحية .

– تصورى ان الجسـم يتلقى من اليود خلال شهر مـن السباحة على هذا البلاج اكثر مما يمكن ان يتناوله باطنيا بطريقة اصطناعية خلال هذه المدة نفسها . وفضلا عن ذلك فانك تمتصين اشعة شمسية ودفئا من الرمل المحمى . ونحن الرجال يمكـن ان نحتمل ، فنحن لا نغطى الا ما تحت الخصر . اما النساء فيغطين ثلثى الجسم تقريبا . وقد اخذنا نناهض ذلك بحزم . . . يوم الاحـد سالقى محاضرة فى هذا الموضوع .

سارا بمحاذاة الماء على الرمل الاصفر الناعم كالمخمل والمكون من الاصداف الصغيرة المسطحة التى صقلتها امواج المد والجزر .

وهناك ، غير بعيد عنهما ، حيث كانت الامواج الصغيرة تجري وتنحسر عن الجرف مزبدة ، كانت فتاتان فى طاقتى سباحة حمراوين تتمايلان كالطوافتين .

قال نيقولاى ايفانوفيتش بلهجة جادة :

– من اتباعنا .

كان ينمو فى نفس داشا احساس يزداد قوة بين الاثارة والقلق . وقد ابدا حين رات السفينة ذات الاشرعة السوداء فى السهب .

توقفت داشا لتنظر الى الماء يسيح على الرمل كالغشاء الرقيق ، ثم يعود فيتراجع ، تاركا مسارب صغيرة ، وكان فى تماس الماء بالارض هذا شىء بهيج ازلى ، حتى ان داشا قرفصت ، ومدت يدها اليه . رات سرطانا صغيرا مسطحا يعدو جنبا ، مخلفا غميمة من الرمل ، واختفى فى الاعماق . وجاءت موجة وبللت ذراعى داشا الى المرفقين .

قال نيقولاى ايفانوفيتش مقلصا عينيه :

– ارى فيك تغيرا ، اما انك قد ازددت حسنا ، او نحفت قليلا ، او ان اوان زواجك قد حان .

التفتت داشا ، ونظرت اليه بغرابة ، ونهضت ، وسارت نحو السرادق دون ان تمسح يديها ، ومن هناك كان الفنان العاشق يلوح بقبعته القشية .

اكلت داشا فطائر اللحم واللبن الخاثر ، وشربت الشمبانيا ، وانشغل الفنان العاشق محتفيا بها ، وبين الحين والآخر كان يركس فى حالة جمود ، هامسا وكانما لنفسه : «يا آلهى ، ما الطفها !» ، ثم جاء ببعض الشبان ليتعرفوا عليها ، وهم طلاب فى الاستوديو المسرحى تحدثوا باصوات مكتومة ، وكانهم فى اعتراف امام كاهن . وكان نيقولاى ايفانوفيتش مغتبطا بهذا النجاح لقريبته داشا .

احتست داشا النبيذ ، وضحكت ، وكانت تمد يدها لهذا او ذاك ليقبلها ، ولم تصرف بصرها عن البحر المائج المتالق بزرقته . كانت تقول لنفسها : «انها لسعادة» .

بعد الاستحمام والنزهة ذهبوا لتناول عشائهم فى الفندق ، حيث كان الصخب والوضاءة والاناقة . تحدث الفنان العاشق عن

الحب طويلا وبحرارة . وسكر نيقولاى ايفانوفيتش قليلا ، وهو يتفرس فى داشا ، ويغرق فى حزن . بينما كانت داشا تراقب طوال الوقت ومن خلال فتحة فى ستارة النافذة ومضات ضعيفة تظهر وتختفى غير بعيد عنها ، وتختفى ، وتعود ثانية . واخيرا نهضت ، وخرجت الى الساحل . كان البدر المستدير الصافى ، القريب تماما كما فى حكايات شهرزاد يطل على درب حرشفى متلالئ عبر البحر كله . شبكت داشا اصابع يديها ، وفرقعتها .

تناهى اليها صوت نيقولاى ايفانوفيتش فاسرعت مبتعدة بمحاذاة الماء الذى كان يلعق الساحل وسنان . رات داشا شبح امراة جالسة على الرمل ، وبقربها شبحا آخر لرجل يوسد راسه ركبتيها . وكان راس انسان يعوم سابحا بين الومضات الزجراجة فى الماء الليلقى الداكن . نظرت الى داشا عينان انعكس فيهما نور القمر ، وظلتا تراقبانها طويلا . ثم ابصرت داشا شخصين متلاصقين ، وبعد ان مرت بهما سمعت تنهيدة وقبلة .

«داشا ، داشا !» – سمعت هذا النداء من بعيد . فجلست على الرمل ، وركزت كوعيها على ركبتيها ، واسندت حنكها على يديها . لو جاء تليغين الآن وجلس الى جانبها ، وطوق بذراعه ظهرها ، وسالها بصوت صارم وخافت «هل انت لى» فستجيبه «لك» .

تحرك شبح رمادى كان راقدا وراء تلة رمل ، وقعد متدلى الراس ، ونظر طويلا الى الدرب المتلالئ الذى رسمه القمر على الماء ، وكانما لتسلية الاطفال ، ونهض ، ومر بداشا متهافتا كالميت . وعرفت داشا بقلب واجف هالع انه بيسونوف .

وهكذا بدات بالنسبة لداشا هذه الايام الاخيرة للعالم القديم . ولم تكن كثيرة وهى مشبعة بقيظ صيف آخذ بالهمود ، بهيجة وسعيدة . ولكن الذين تعودوا على ان يفكروا بان يوم الغد واضح كمعالم الجبال البعيدة المزرقة ، وحتى الاذكياء منهم وذوو البصائر لم يستطيعوا ان يروا ، ولا ان يعرفوا ما وراء اللحظة التى يعيشونها . ولقد كان وراء هذه اللحظة الملونة ، المضمخة بالروائح ، والمفعمة بدفق نسغ الحياة بكل الوانه يرقد ظلام دامس . . . ما من نظرة ، ولا شعور ، ولا فكر نفذ قيد شعرة الى

هناك ، لم يكن هناك غير نفر تحسس ما هو قادم ، ربما بشعور مبهم فقط كشعور الحيوان عند دنو العاصفة . وكان هذا الشعور شبيها بقلق غير معروف الهوية . بينما كانت تنزل على الارض فى ذلك الوقت سحابة غير مرئية ، تدور دورانا مجنونا ، لها خطوط منتصرة ضارية هابطة ولم يكن الرمز الوحيد الى ذلك الا شريطا من ظل الشمس ممتدا من الجنوب الشرقى الى الشمال الغربى ماسحا كل الحياة القديمة المرحة الخاطئة على الارض .

١٣

كان بيسونوف يقضى اياما بكاملها منطرحا عند البحر . وكان وهو يتطلع الى الوجوه : النسائية الضاحكة الملوّحة قليلا بالشمس والرجالية النحاسية الحمراء المنفعلة ، يحس فى جزع بان قلبه ليس الا قطعة من الثلج ترقد فى صدره . وكان يفكر ، وهو ينظر الى البحر ، بانه باق كما هو منذ آلاف السنين يضرب الساحل بامواجه . وكان الساحل ، آنذاك ، مقفرا ، بينما هو اليوم ماهول بالناس ، وسيموت الناس ، ويقفر الساحل ثانية ، ويظل البحر يترامى على الرمل كديدنه . وكان بيسونوف ، وهو يفكر ، يقطب ويجمع باصابعه الاصداف فى كومة ، ويحشى فيها عقب سيكارته المنطفئة . ثم يذهب للسباحة . وبعد ذلك يتناول غداءه بتوان ، ثم يذهب لينام .

يوم امس جلست فتاة على الرمل عجلى ، غير بعيد عنه وراحت تحدق طويلا فى ضوء القمر ، وكانت تفوح منها رائحة خفيفة لعطر البنفسج . فرفت ذكرى فى ذهنه الراكد . وتململ بيسونوف ، وقال لنفسه «لا ، لا تلق بشصك عليها . . . الى الشيطان . . . انا ذاهب لانام» ، ونهض وذهب الى الفندق .

وتهيبت داشا بعد هذا اللقاء . خيل اليها ان حياة بطرسبورغ – كل تلك الليالى المضطربة – قد انقضت الى الابد وبيسونوف الذى فتنها ذات مرة بشىء غير مفهوم قد صار فى طى النسيان .

الا ان كل شىء قد استيقظ فيها بقوة جديدة من نظرة واحدة ، من تلك اللحظة التى مر فيها شبحا اسود ازاء ضوء القمر ، ولم يكن ذلك على شكل مشاعر مضطربة مبهمة ، بل هو الآن رغبة اكيدة حارة حرارة الظهيرة . انها متعطشة لتحس هذا الرجل . لا ان تحب ، ولا ان تتعذب ، ولا ان تتردد ، بل ان تحسه فقط .

كررت بصوت واهن وهى جالسة فى فراش ابيض فى غرفة بيضاء مغمورة بضوء قمرى :

– آه ، يا آلهى ، آه ، يا آلهى ، اى شىء هذا ؟

وفى الساعة السادسة صباحا خرجت داشا الى ساحل البحر ، وخلعت ملابسها ، ودخلت فى الماء الى ركبتيها ، وارسلت بصرها . كان البحر شاحب الزرقة ، ناحل اللون ، وهناك فى البعيد فى بعض الامكنة فقط كان يغطى سطحه تموج خفيف كامد . كان الماء يتماوج متماهلا فيرتفع الى ما فوق الركبة تارة ، ويهبط الى اسفلها تارة اخرى ، مدت داشا ذراعيها ، وارتمت على هذه الطراوة السماوية ، واخذت تسبح . ثم لفت جسمها فى روبها الموبر ، وقد انتعشت وكسا ملح البحر جسدها ، واستلقت على الرمل وقد سرى دفء فيه .

وفكرت مع نفسها . وقد اسندت خدها على مرفقها الفوّاح بالطراوة : «لا احب غير ايفان ايليتش . احبه ، احبه . وانا معه اشعر بالنقاء والنضارة والفرح . حمدا لله اننى احب ايفان ايليتش . وساتزوجه» .

واغمضت عينيها ، وغفت ، شاعرة بالماء يخفق بالقرب منها ، وكانه يتنفس منتظما مع انفاسها .

وكانت الغفوة هذه لذيذة . وقد لازمها الاحساس بجسمها دافئا خفيفا فى رقدته على الرمل . واغرمت بنفسها فى نومها .

فى الغروب حين كانت الشمس تنزل مثل قرص مسطح فى الوهج البرتقالى الخالى من كل غيمة ، التقت داشا ببيسونوف جالسا على صخرة عند درب يتعرج عبر حقل مسطح من الافسنتين . وكانت داشا قد وصلت الى هناك اثناء نزهتها وتوقفت فى الحال لدى رؤيتها لبيسونوف ، وارادت ان تستدير وتركض الا ان الخفة السابقة قد زايلتها مرة اخرى ، وثقلت رجلاها ، وكانهما

غاصتا فى الارض ، فراحت تنتظر اليه من تحت حاجبيها وهو يتقدم نحوها لا تكاد تظهر عليه الدهشة من اللقاء ، ويخلع قبعة القش ، وينحنى لها بخشوع انحناءة راهب .

– لم تخطئنى عيناى بالامس ، يا داريا دميتربيفنا ، انت التى كنت على ساحل البحر ؟

– نعم ، انا . . .

وصمت منكسا بصره ، ثم نظر الى قلب السهـــب ساحبا بصره على داشا .

– فى هذا الحقل يحس المرء عند الغروب وكانه فى صحراء . نادرا ما يتجول الناس هنا . فليس حولك غير الافسنتين والصخور وفى الغسق يخيل اليك ان الارض اقفرت من كل انسان .

وضحك بيسونوف كاشفا ببطء عن اسنان بيض ، نظرت داشا اليه نظرة طائر برى . ثم سارت الى جانبه على الدرب . كانت اجمات عالية من الافسنتين قد نمت على الجانبين وفى جنبات الحقل كله فوّاحة برائحة مرة ، وكان القمر يلقى على الارض الجافة عند كل اجمة منها ظلا شاحبا لما يزل . وكان خفاشان يطيران فوق راسيهما محلقين هابطين فى خط غير مستقيـــم ومصطفقين باجنحتهما ظاهرين بوضوح فى شريط الغروب .

قال بيسونوف :

– اغراءات ، اغراءات لا منجى لك منها . تغرى وتغوى واذا بك مرة اخرى واقعة فى وهم . انظرى باى دهاء قد نظم كـــل ذلك – واشار بعصاه الى قرص البدر المتدلى على انخفاض – طوال الليل سيحوك الشباك ، وسيدعى الدرب بانه جدول ، وستبدو كل اجمة ماهولة ، وحتى الجثة ستبدو جميلة ، والوجه النسائى غامضا ، ولكن قد يكون هذا ما يجب ان يكون حقا : كل الحكمـــة فى هذا الوهم . . . ما اسعدك ، يا داريا دميتربيفنا ، ما اسعد حظك . . .

قالت داشا باصرار :

– ولم تحسبه وهما ؟ اظن ان ذلك ليس بوهم اطلاقا . مجرد انه بدر ينير .

– بالطبع ، يا داريا دميتربيفنا ، بالطبـــع . . . «كونى كالاطفال» . ان الوهم فى اننى لا اصدق باى شىء من هذا . ولكن

«كونى ايضا كالافاعى» . ولكن كيف التوفيق بين الاثنين ؟ ماذا يحتاج ذلك ؟ . . يقولون ان الحب هو الموفق ؟ وانت ماذا تظنين ؟

– لا اعرف ، لا اظن شيئا .

– من اى اصقاع ياتى الحب ؟ وكيف اغواؤه ؟ باية كلمة يسحر ؟ ان يستلقى المرء فى التراب وبناديه : اوه يا الهى ، يسر لى حبا ! . .

وضحك ضحكة غير عالية مبديا اسنانه .

قالت داشا :

– لا اسير ابعد من ذلك . اريد ان اذهب الى البحر .

واستدارا ، وراحا يسيران على الافسنتين نحو مرتفع رملى . وفجاءة قال بيسونوف بصوت ناعم حذر :

– اتذكر الى آخر كلمة كل ما قلته عندما كنت فى بيتى فى بطرسبورغ . لقد افزعتك (سارت داشا بسرعة شديدة ناظرة امامها) . آنئذ كان يهزنى شعور واحد . . . ليس جمالـــك الفريد ، لا . . . بل الذى اذهلنى ونفذ الى اعماق نفسى موسيقى صوتك التى لا توصف . عندئذ نظرت اليك وفكرت مع نفسى : ذلك هو خلاصى كله – ان اهبك قلبى ، واصير شحاذا خنوعا ، اذوب فى ضيائك . . . لربما اكسب قلبك ؟ ان اصير غنيا غنى لا حد له ؟ فكرى يا داريا دميتربيفنا ، ها قد جئت ، وعلىّ ان افك اللغز .

سبقته داشا . وطلعت على كثيب رمل . كان الدرب العريض الذى يلقيه البدر متلالأ كالحراشف على صدر الماء الثقيل يمتـــد حتى نهاية البحر مقطوعا بشريط وضاء طويل ، وهناك ، فوق هذا الضوء ينهض الق داكن . وكان قلب داشا يخفق بشدة ، حتى انها اغمضت عينيها ، وفكرت فى سرها «يا آلهى ، انقذنى منه» . غرز بيسونوف عصاه فى الرمل عدة مرات .

– لقد حان الوقت لان تتخذى قرارك ، يا داريا دميتربيفنا . يجب ان يحترق احدنا فى هذه النار ، اما انت واما انا . . . فكرى ، اجيبى . . .

قالت داشا بحدة واقتضاب :

– انا لا افهم .

– عندما تصيرين متسولة فارغة النفس محروقة عندئذ فقط

تبدأ لك حياة حقيقية ، يا داريا دميتريفنا . . . بدون نور القمر هذا وهو اغراء رخيص . وستكون لك حكمة . وهذا لا يحتاج الا ان تخلعى عنك طوق العذرة .

تناول بيسونوف يد داشا بيده المتثلجة ، وحدق فى عينيها . فلم تستطع داشا الا ان تقلص عينيها ببطء . وبعد بضع لحظات طويلة من الصمت قال :

– على كل ، من الافضل ان ناوى الى بيوتنا لننام . تحدثنا ، وناقشنا المسالة من جميع الجوانب ، ثم ان الوقت متاخر ايضا . . .

صحب داشا الى الفندق ، وودعها باحترام ، ودفع قبعته الى مؤخر راسه ، وسار بمحاذاة الماء ، ناظرا الى اشباح المتنزهين المغبشة . ثم توقف فجاة واستدار ، وتقدم من امراة فارهة كانت واقفة بلا حراك ، وقد لفت جسمها بشال ابيض . القى بيسونوف عصاه عبر كتفه ، وامسك طرفيها ، وقال :

– نينا ، مرحبا .

– مرحبا .

– ماذا تفعلين وحدك على الساحل ؟

– اقف .

– لماذا وحدك ؟

– وحدى ، لأنى وحدى . – اجابت تشارودييفا بخفوت وغضب .

– اما زلت غاضبة ؟

– لا ، يا عزيزى ، هدات منذ زمان .

– نينا ، تعالى الىّ .

القت راسها الى الخلف . وصمتت طويلا ، ثم اجابت بصوت متهدج غير واضح :

– هل جننت ؟

– وانت ، الم تعرفى هذا ؟

امسك يدها ، الا انها سحبتها بحدة ، وسارت ببطء الى جانبه ، على طول انعكاسات ضوء القمر المنزلقة على الماء الاسود الزيتى اللون ، مع خطواتهما .

فى صباح اليوم التالى ايقظ نيقولاى ايفانوفيتش داشا بطرق حذر على بابها :

– عزيزتى داشا ، استيقظى . لنذهب لشرب القهوة .

انزلت داشا ساقيها من السرير ، ونظرت الى جوربها وحذائها . كان جميعها مغطى بطبقة من الغبار الرمادى . ان شيئا ما قد حصل . ام لعلها حلمت مرة اخرى بذلك الحلم المرعب ؟ لا لم يكن حلما بل شيئا اسوا منه بكثير . لبست داشا ثيابها على نحو ما ، واسرعت لتستحم فى البحر .

الا ان الماء قد اتعبها ، والشمس ارمضتها . فكرت وهى جالسة وروبها الموبر على كتفيها ، حاضنة ركبتيها العاريتين ، ان ما من شىء طيب يمكن ان يحصل هنا .

«لست ذكية بل جبانة وعاطلة . وخيالى مبالغ . وانا لا اعرف ماذا اريد . فى الصباح اريد شيئا ، وفى المساء شيئا آخر . وهذا هو بالذات الانسان الذى امقته» .

احنت داشا راسها ، وحدقت فى البحر . ان غموضا وحزنا شديدين اسالا الدموع من عينيها .

«يا لهذا الكنز العظيم الذى احرز عليه . ومَنْ له حاجة به ؟ لا احد فى هذه الدنيا . انا لا احب احدا حبا حقيقيا . يعنى انه على حق . من الافضل حرق كل شىء ، واحراق نفسى فيه لأكون شخصا فى صحو من امره . دعائى اليه ، ويجب ان اذهب اليه اليوم ، فى المساء و. . . آوه ، لا !»

انزلت داشا وجهها الى ركبتيها ، وهى تحس بحر شديد . وكان واضحا ان من المستحيل الاستمرار اطول فى العيش هذه الحياة المزدوجة . لا بد ان ياتى اخيرا الخلاص من العذرة التى لا تطاق . ولتكن مصيبة .

وهكذا راحت تتامل وهى فى جزء من امرها :

«لنفرض اننى سافرت من هنا ، الى ابى . الى الغبار والآلام . وابقى هناك حتى مجىء الخريف . وتبدا الدراسة . واصير اشتغل اثنتى عشرة ساعة فى اليوم ، وتجف نضارتى ، واصبح هولة . واحفظ القانون الدولى عن ظهر قلب . واصير ارتدى التنورات من

الفانيلة : المحامية المحترمة العانس بولافينا . انه لمخرج محترم جدا بالطبع» .

نفضت داشا الرمل الذى علق فى جلدها ، وذهبت الى الفندق . كان نيقولاى ايفانوفيتش مستلقيا فى الشرفة فى بيجامة حريرية يطالع رواية ممنوعة لاناطول فرانس . جلست داشا على ذراع المقعد الهزاز الذى كان يستلقى فيه ، وقالت فى استغراق وهى تهز نعلها فى قدمها .

– اردنا ان نتكلم حول كاتيا .

– نعم ، نعم .

– ترى ، يا نيقولاى ، ان حياة المرأة صعبة بشكل عام . حتى فى سن التاسعة عشرة لا اعرف ماذا افعل بنفسى .

– فى سنك ، ياعزيزتى داشا ، يجب ان يحيا الانسان حياته بكل ما فيه من طاقة ، ودون ان يتردد فى شىء . التفكير الطويل لا يوصلك الى شىء . افكر مع نفسى وانا ناظر اليك ، انك فائقة الجمال .

– هذا ما عرفته ! لا فائدة من الحديث معك يا نيقولاى . انت دائما غير لبق ولا تقول الشىء الذى يجب ان يقال ، ولهذا السبب تركتك كاتيا .

ضحك نيقولاى ايفانوفيتش ، ووضع رواية اناطول فرانس على بطنه ، والقى يديه الممتلئتين وراء راسه .

– ستبدأ الامطار ، ويعود الطائر بنفسه الى البيت . هل تذكرين كيف كانت تنظف ريشها ؟ . ومع ذلك احب فانا كاتيا كثيرا . فقد صفى كل واحد منا ديونه للآخر .

– أها ، اذن فانت تتحدث بهذا الشكل الآن ! ولكن لو كنت فى مكان كاتيا لسلكت نفس السلوك معك . . .

وسارت الى سياج الشرفة غاضبة .

– ستكبرين اكثر وسترين ان اخذ امور العيش بجدية مفرطة حماقة ومجلبة للاذى . تلك هى خاصية افراد آل بولافين ، تعقدون كل شىء . . . يجب ان يكون الانسان ابسط ، واقرب الى الطبيعة . . .

وتنهد ، وصمت ناظرا فى اظافره . مر بالشرفة طالب عرق يركب دراجة . وقد جلب البريد من البلدة .

قالت داشا باكتئاب :

– ساذهب للاشتغال معلمة ريفية .

فاستفهمها نيقولاى ايفانوفيتش فى الحال :

– الى اين ؟

غير انها لم تجب ، وذهبت الى غرفتها ، حمل البريد رسالتين الى داشا ، احداهما من كاتيا ، والثانية من دميترى ستيبانوفيتش . وقد كتب الاخير فى رسالته :

«ابعث اليك رسالة من كاتيا . وقد قراتها ، ولم تعجبنى . ولكن افعلوا ما يحلو لكم . . . كل شىء عندنا كما هو من قبل . الحر شديد . وبالاضافة الى ذلك يوم امس اعتدى احد الشقاة على سيمين سيمينوفيتش غفيادين بالضرب المبرح فى منتزه المدينة ، ولكنه يخفى الامر . تلك هى كل اخبارنا . ثم وصلتك بطاقة بريدية من شخص يدعى تليغين ، ولكننى اضعتها . يبدو لى انه فى القرم ايضا ، او فى مكان آخر» .

اعادت داشا قراءة السطرين الاخيرين بامعان ، وبدا قلبها يخفق فجأة خفقانا شديدا . بل وضربت الارض بقدمها بعد ذلك فى حسرة . يا للفرحة «يبدو لى انه فى القرم او فى مكان آخر» . ان اباها رجل مزعج حقا ، غير مبال ، واتانى . دعكت رسالته فى يدها ، وجلست طويلا الى منضدة الكتابة مسندة حنكها على راحة يدها .

وبعد ذلك اخذت تقرا رسالة كاتيا .

«انت تذكرين ، يا عزيزتى داشا اننى كتبت لك عن الرجل الذى يتعقبنى . يوم امس مساء جلس الى جانبى فى حديقة لوكسمبورغ . تهيبت فى بادىء الامر ، ولكننى بقيت جالسة . عندئذ قال لى : «كنت اتعقبك ، وقد عرفت اسمك ، ومَنْ انت . ولكن فيما بعد حلت بى محنة كبيرة : لقد وقعت فى غرامك» . نظرت اليه . انه يجلس بعظمة ، ووجهه صارم ، داكن وشاحب . «لا داعى الى ان تخافى منى . فانا رجل عجوز ، وحيد ، ومصاب بالذبحة الصدرية ، وقد اموت فى اية لحظة . وفجأة تحدث هذه المحنة» . وسالت الدموع على خده . ثم قال وهو يهز راسه :

«آوه ، ما احلى وجهك ، ما احلاه» . قلت : «كف عن ملاحقتي» . واردت ان انصرف ، الا انني احسست بالشفقة عليه ، وبقيت اتحدث معه . . . اصغى هو هازا راسه مغمضا عينيه . تصوري ، يـا عزيزتي داشا ، اليوم تلقيت رسالة من امراة ، يبدو انها بوابة البيت الذي كان يعيش فيه . . . انها تبلغني «بناء على طلبه» بانه قد توفى ليلا . . . ما ارعب ذلك . . . والآن ايضا ، اتقدم مـن النافذة ، وارى في الشارع آلاف والآف الانوار والعربات تعدو ، والناس يسيرون بين الاشجار . وبعد المطر يخيم الضباب . ويبدو لي كل ذلك يعود الى الماضي ، وان كل شيء قد مات ، وان هؤلاء الناس اموات ، وانني ارى ما فات وانقضى ، وان ما يحدث الآن ، وانا واقفة انظر اليه لا اراه ولكنني اعرف ان كل شيء قد انتهى ، وربما انا متوعكة المزاج تماما . احيانـا استلقي وانخرط بالبكاء متأسفة على ان الحياة قد ولت . لقد كانت هناك سعادة ، مهما كانت لونها واناس احبهم ولم يبق لذلـك اي اثر . . . جف قلبي في صدري ، وذبل . وانا اعرف ان المستقبل يضمر محنة كبيرة اخرى ، وكل ذلك جزاء على الحياة السيئة التي عشناها» .

اطلعت داشا نيقولاي ايفانوفيتش على هذه الرسالة .

اخذ يقرؤها متنهدا ، ثم قال انه كان دائما يشعر بذنبه نحو كاتيا .

– كنت اعرف ان حياتنا سيئة ، وان تلـك الملـذات المستمرة ستنتهي يوما ما بانفجار اليأس . ولكن ما كان في وسعي ان اعمل اذا كانت التسلية هي كل الشغل الشاغل لحياتي وحياة كاتيا وكل الذين كانوا يحيطون بنا . احيانا اتطلع الى البحر هنا واقول لنفسي ان هناك روسيا تحرث الارض وترعى الماشيـة وتستخرج الفحم ، وتنسج ، وتطرق المعادن ، وتبني ، وان هناك اناسا يحملونها على ان تفعل كل ذلك . اما نحن ارستقراطيـة البلاد الفكرية ، المثقفين ، جماعة ما ثالثة ، . . . فلا نمت بصلة لاي من طرفي روسيا هذه ، انها تعيلنا . ونحن فراشات . انهـا لمأساة . لو حاولت مثلا ان ازرع خضروات او اقوم بشيء آخر نافع لما اجديت فتيلا . لقد كتب لي حتى آخر ايام ان ارف كالفراشة . بالطبع نحن نكتب كتبا ، ونلقي خطبا ، ونصنع السياسة ، ولكن

كل ذلك لا يخرج عن نطاق تزجية الوقت ، حتى حين تحس بوخز الضمير . ان تلك الملذات المستمرة انتهت عند كاتيـا بخراب روحي ، وما كان من الممكن ان يحدث غير ذلك . . . آه ، لو كنت تعرفين اية امراة فاتنة رقيقة حنون كانت كاتيا ! وانا الذي افسدها ، حطمها . . . نعم انت على حق ، يجب ان اسافر اليها . . .

واستقر رايهما على ان يسافرا الى باريس فور حصولهما على جوازي السفر . وبعد الغداء نزل نيقولاي ايفانوفيتش الى البلدة ، بينما شرعت داشا في تحويل قبعتها القشية لتكون صالحة للسفر ، الا انها اتلفتها فقط واهدتها الى مرتبة الغرفة . ثم كتبت رسالة الى ابيها ، وعند حلول الظلام استلقت في الفراش ، بعد ان شعرت باعياء مفاجئ ، ووسدت خدها راحة يدها ، واصغت الى هديـر البحر يبدو ابعد فابعد ، واحلى فاحلى .

ثم خيل اليها ان شخصا ينحني عليها ، ويزيح خصلـة شعر من على وجهها ، ويقبلها في عينيها ، ووجنتيها ، وطرفي شفتيها ، يلثمها لثما خفيفا كالنَفَس . وسرت حلاوة هذا اللثم في كيانهـا كله . راحت داشا تستيقظ ببطء . رات في النافذة المفتوحـة نجوما قليلة ، وقد اطار النسيم اوراق الرسالـة ، وراح يخفق فيها . ثم ظهر من وراء الجدار شبح انسان . وركز كوعيه عـلى افريز النافذة الخارجي وصار يحدق في داشا ..

عندئذ استيقظت داشا تماما ، وجلست ، وضمت يديها الى صدرها ، في الموضع الذي كان فستانها فيه غير مزرر .

وسألت في صوت لا يكاد يسمع :

– ماذا تريد ؟

فقال الرجل عند النافذة بصوت بيسونوف :

– كنت انتظرك على الساحل . فلماذا لم تأتي ؟ اتخافين ؟

تريثت داشا قليلا ثم قالت :

– نعم .

عندئذ تسلق الرجل فوق افريز النافذة ، وازاح المنضدة ، وصار نحو السرير .

– قضيت ليلة فظيعة . اردت ان اشنق نفسي . اليست فيك ولو ذرة من الشعور نحوي ؟

هزت داشا راسها ، ولم تحرك شفتيها .

– اسمعى ، يا داريا دميتربيفنا ، ان هذا يجب ان يحدث ، ان لم يكن اليوم ، فغدا ، او بعد عام . لن استطيع ان اعيش بدونك . لا تجعلينى افقد صورتى الانسانية . – وكان يتحدث بخفوت وبحة ، ودنا من داشا تماما . فندت منها فجاة زفرة عميقة مقتضبة ، وواصلت تحديقها فى وجهه . – كل ما قلته البارحة كذب . . . انا فى عذاب مبرح . . . وليست لى القوة على محو ذكراك . . . كونى زوجتى .

وانحنى على داشا مستنشقا عبيرها ، واضعا يده وراء رقبتها ، وضغط شفتيه على شفتيها . صدت داشا صدره بيديها . الا ان يديها انطوتا . عندئذ مرت فكرة هادئة فى وعيها المشدوه ! «هذا ما كنت اخافه واشتهيه ، ولكن ذلك صنو القتل . . .» واشاحت وجهها ، وسمعت بيسونوف يتمتم شيئا فى اذنها مع انفاس الخمرة . وفكرت داشا مع نفسها ! «هذا ما حصل له تماما مع كاتيا» . وعندئذ انكمش جسمها كله من برودة صافية مقيتة ، وصارت رائحة الخمرة اكثر حدة ، والتمتمة اشد قرفا .

– اتركنى .

همست بذلك ، وازاحت بيسونوف بالقوة وهرعت الى الباب ، وزررت اخيرا فتحة فستانها .

عندئذ استولت على بيسونوف نوبة من الجنون . امسك داشا من يدها ، وضغطها على جسمه ، وصار يقبلها فى عنقها . صارعته صامتة مطبقة شفتيها . وحين استطاع ان يرفعها ، ويحملها قالت بهمس سريع :

– لن يكون ذلك ، ولو تموت . . .

ودفعته بقوة ، وحررت نفسها ، ووقفت عند الحائط . انهد بيسونوف على مقعد ، وهو ما يزال يتنفس بصعوبة ، وجلس دون حراك . مسدت داشا يديها فى المواضع التى انطبقت فيها آثار الاصابع .

قال بيسونوف :

– لم تكن هناك حاجة للتسرع .

اجابت :

– انت تشعرنى بالغثيان .

عندئذ القى راسه جنبا على متكا المقعد . قالت داشا :

– انت مجنون . . . اخرج حالا . . .

وكررت ذلك عدة مرات . ففهم اخيرا ، ونهض ، وتسلل خارج النافذة ثقيلا اهوج الحركة . سدت داشا صفاقة النافذة ، وراحت تذرع الغرفة المظلمة . لقد كانت تلك ليلة مؤرقة .

قرب الصباح تقدم نيقولاى ايفانوفيتش من بابها خافقا بقدميه الحافيتين ، وسأل بصوت ناعس :

– هل توجعك اسنانك ، يا داشا ؟

– لا .

– ولكن ما سبب تلك الحركة فى الليل ؟

– لا اعرف .

تمتم «امر غريب» وانصرف . لم تستطع داشا ان تجلس ولا ان تستلقى ، بل قضت الليلة تذرع الغرفة من النافذة الى الباب جيئة وذهوبا لتخنق من نفسها ذلك القرف الحاد كوجع الاسنان . لو ان بيسونوف اخذها اخذا لكان ذلك افضل ، على ما يبدو . وتذكرت بالم ممض السفينة البيضاء الغارقة بنور الشمس ، وذلك الحمام العاشق المهجور فى حرش الحور يهدل هديله الطويل يناغيها ليزعم لها كذبا انها عاشقة . نظرت داشا الى الفراش الذى ابيض فى الغبش ، والذى كان مكانا رهيبا تحول فيه وجه انسان قبل حين الى بوز شيطان ، واحست ان من المستحيل عليها ان تعيش وهذا الاحساس يلازمها . انها مستعدة لتحمل اى عذاب ما عدا الاحساس بهذا القرف . كان راسها يلتهب ، وكانت تود لو ترفع عن وجهها ورقبتها وجسمها كله شيئا كانت تحسه كنسيج العنكبوت .

واخيرا لاح الضوء المتسرب من خلال صفاقة النافذة ساطعا . وبدات الابواب تصفق فى الدار ، ونادى صوت رنان «ماتريوشا ، اجلبى ماء . . .» استيقظ نيقولاى ايفانوفيتش ، وسمعته وهو ينظف اسنانه خلف الجدار . بللت داشا وجهها بالماء ، وانزلت قبعتها على حاجبيها ، وخرجت الى الساحل . كان البحر ساخنا كالحليب الطازج ، والرمل رطبا . وفى الجو رائحة نباتات بحرية .

انعطفت داشا الى الحقل ، وسارت فى الطريق . كانت عربة من الاغصان المضفورة يجرها حصان واحد قادمة للقائها من الجانب الآخر من الطريق تثير عجلاتها سحابة صغيرة من الغبار ، وقد جلس تترى فى مقعد السائق ، وخلفه رجل عريض الكتفين فى ثياب بيض . نظرت داشا اليه ، وقالت لنفسها كالنائمة (انطبقت عيناها من الشمس ، ومن التعب) «هذا رجل لطيف سعيد آخر ، وليكن كذلك ، لطيفا سعيدا» وانحرفت عن الطريق . وفجاة صدر من العربة صوت مرهوب :

– داريا دميتربيفنا !

وقفز شخص الى الارض ، وركض نحوها وجمد قلب داشا ، وارتخت رجلاها من ذلك الصوت . التفتت . فرأت تليغين يجرى نحوها ملوح الوجه ، منفعل الاسارير ازرق العينين محببا الى القلب على نحو مفاجئ حتى ان داشا وضعت يديها على صدره بسرعة ، وضغطت وجهها عليه ، واجهشت تبكى بكاء طفوليا عاليا .

امسك تليغين كتفيها بقوة . وحين حاولت داشا ان تقوم ببعض التوضيح بصوت متقطع قال :

– ارجوك ، يا داريا دميتربيفنا ، ارجوك ، فيما بعد . هذا غير مهم . . .

تبلل صدر سترته الكتانية بدموع داشا . وخفت الدموع عنها . سالت :

– هل انت قادم الينا ؟

– نعم جئت لاودعك ، يا داريا دميتربيفنا . بالامس فقط عرفت انك هنا ، فاردت ان اودعك .

– تودعنى ؟

– استدعونى للخدمة ، ولا مفر من ذلك .

– استدعوك للخدمة ؟

– الم تسمعى حقا ؟

– لا .

– انها الحرب .

نظرت داشا اليه ، ورمشت ، ولم تكن فاهمة شيئا فى تلك اللحظة .

١٤

كان اجتماع استثنائى لهيئة التحرير يعقد فى مكتب رئيس تحرير الصحيفة الليبرالية الكبيرة «كلمة الشعب» . ولما كانت المشروبات الكحولية قد منعت يوم امس بموجب قانون ، فقد قدم الكونياك والروم مع شاى هيئة التحرير على خلاف العادة .

كان الليبراليون المحنكون الملتحون يجلسون فى مقاعد عميقة وثيرة ، يدخنون التبغ ، ويشعرون بأنهم فى حيص بيص . وكان المحررون الشبان يجلسون على افاريز النوافذ ، وعلى اريكة جلدية شهيرة ، هى قلعة المعارضة ، وصفها احد الكتاب المشهورين وصفا غير حذر ، فقال انها مباءة للبق .

كان رئيس التحرير ، وهو رجل اشيب مورد الوجنتين ، انجليزى المنحى يقول بصوت متشدق – كلمة بكلمة – احدى خطبه الشهيرة التى كان عليها ان ترسم – ورسمت بالفعل – خط سلوك الصحافة الليبرالية كلها .

– «. . . التعقيد فى مهمتنا يرجع الى اننا يجب ونحن امام الخطر الذى يهدد سلامة الدولة الروسية ، ان نمد يدنا الى السلطة القيصرية ، دون ان نتراجع عن معارضتها خطوة واحدة . ويجب ان يكون عملنا نزيها وصريحا . ان مسالة لوم الحكومة القيصرية على جرروسيا للحرب ، هى فى اللحظة الراهنة مسالة ثانوية . يجب ان ننتصر اولا ، ومن بعد نحاكم المذنبين . ايها السادة ، بينما نتحدث هنا ، تجرى معركة دموية قرب كراسنوستاف وقد ارسل حرسنا لسد الجبهة المصدوعة . ومصير هذه المعركة غير معروف الآن ، ولكن يجب الا يغيب عن الاذهان ان كييف مهددة . وليس من شك فى ان الحرب لا يمكن ان تستمر اكثر من ثلاثة او اربعة اشهر ، ومهما تكن نتيجتها فاننا سنقول للحكومة القيصرية مرفوعى الرؤوس : اننا كنا معكم فى الساعة الحرجة ، ونحن الآن نطالبكم كشفا بالحساب . . .

لم يتمالك نفسه احد قدامى المحررين ، واسمه بيلوسفيتوف ، وكان يكتب فى شؤون الادارة الذاتية فصاح محتدا :

– الحكومة القيصرية هى التى تحارب ، فلماذا نمد يدنا لها ؟ انا لا افهم ، ولو حطمت راسى . المنطق البسيط يحتم علينا ان نبعد انفسنا عن هذه المغامرة . ومن ورائنا جميع المثقفين . دعوا القياصرة يضرب احدهم عنق الآخر ، فان ذلك لن يكون الا لفائدتنا .

– نعم ، ان مد اليد الى نيقولاى الثانى شىء مقرف ، مهما قلتم فيه يا سادة – تمتم بذلك «القا» احد كتاب المقالات الافتتاحية ، واختار لنفسه قطعة كعكة من الصحن – ان ذلك يجعل المرء يتصبب عرقا باردا فى نومه . . .

وفى الحال تحدثت عدة اصوات :

– لا توجد ، ولا يمكن ان توجد ظروف تجبرنا على الاتفاق . . .

– ما هذا ؟ استسلام ؟ اريد ان اسأل .

– اهذه نهاية مخزية للحركة التقدمية كلها ؟

– اما انا ايها السادة ، فاريد على كل حال ان يشرح احد لى الغرض من هذه الحرب .

– ستعرف حين يقطع الالمان الرقاب .

– انت ، يا اخ ، تبدو قوميا متعصبا !

– مجرد اننى لا اريد ان أضرب .

– ولكنهم لايضربونك ، بل يضربون نيقولاى الثانى .

– المعذرة . . . وبولونيا ؟ وفولينيا ؟ وكييف ؟

– كلما ضربونا اكثر دنت الثورة اكثر .

– اما انا فلا ارغب فى ان اتخلى عن كييف فى سبيل اية ثورة .

– اخجل ، يا بيتر بيتروفيتش ، اخجل يا اخ . . .

شرح رئيس التحرير بعد ان اعاد النظام بصعوبة ، ان الرقابة العسكرية ستغلق الجريدة ، وفق احكام قانون الطوارئ* ، على اقل هجوم على الحكومة ، وستسحق براعم حرية الكلمة التى بذلت جهود كبيرة فى النضال فى سبيلها .

– . . . ولهذا اقترح على الاجتماع الموقر التوصل الى وجهة نظر مقبولة . ومن جهتى فانا اجرؤ على ان اعلن رايا قد يكون غريبا ، وهو اننا يجب ان نقبل هذه الحرب بكليتها ، وبكل

عواقبها . ولا تنسوا ان هذه الحرب تحظى بشعبية بالغة بين المجتمع . وقد اعتبرت فى موسكو الحرب الوطنية الثانية . – وهنا ابتسم ابتسامة خفيفة ، وغض بصره – وقد استقبل القيصر فى موسكو استقبالا حارا تقريبا . والتعبئة بين السكان البسطاء تجرى بطريقة لم يتوقعوها ، ولم يجرأوا على ذلك . . .

فهتف بيلوسفيتوف بصوت انقلب حزينا متشكيا :

– هل انت تمزح ، يا فاسيلى فاسيليفيتش ام كيف ؟ ذلك لانك تهدم فلسفة بكاملها . . . نذهب لمساعدة الحكومة ؟ وماذا عن عشرة آلاف روسى من افضل ابناء روسيا ، اولئك الذين يذوون فى سيبيريا منذ زمان ؟ . . والعمال الذين قتلوا رميا بالرصاص ؟ . . والدم بعد لم يجف .

كل هذه الاحاديث كانت بالغة الروعة والنبل ، الا انه صار واضحا لكل انسان ان لا مفر من الاتفاق مع الحكومة ، ولهذا فحين جلبت من المطبعة مسودة تصحيح المقال الافتتاحى الذى كان يبدا بهذه الكلمات : «يجب ان نرص صفوفنا فى جبهة موحدة امام الزحف الالمانى» نظر المجتمعون الى مسودة التصحيح صامتين ، وارسل احدهم زفرة كظيمة ، بينما قال آخر بكثير من الدلالة «عشنا وشفنا» . وزرر بيلوسفيتوف بعصبية جميع ازرار سترته السوداء المذرورة برماد التبغ ، الا انه لم يخرج ، وجلس فى المقعد ثانية ، وصدر العدد التالى بالعنوان التالى «الوطن فى خطر ، الى السلاح !» .

ومع ذلك فقد كان قلب كل واحد منهم مفعما بالاضطراب والهلع . فكيف تطاير السلم الاوربى الوطيد هباء فى الهواء خلال اربع وعشرين ساعة ، وكيف انقلبت الحضارة الاوربية الانسانية التى كانت «كلمة الشعب» تعير الحكومة بها كل يوم ، وتدعو عامة الشعب اليها ، كيف انقلبت الى بيت من ورق (لقد اخترعت طباعة الكتب والكهرباء ، وحتى الراديوم ، واذا بين عشية وضحاها يظهر من تحت القميص المنشى ذلك المخلوق البدائى المشعر الشبيه بالحيوان وفى يده هراوة) لا ، ان هذا يصعب على هيئة التحرير هضمه والاعتراف به ، فان مرارته لا تطاق .

وانتهى الاجتماع بصمت وكآبة . ذهب الكتاب الاجلاء لتناول الفطور فى مطعم كوبا ، واجتمع الشبان فى مكتب رئيس قسم

الاخبار . وتقرر القيام بتحقيق مفصل عن امزجة اكثر الاوساط والفئات تنوعا وعهد الى انتوشكا ارنولدوف قسم الرقابة العسكرية . وخلال الهرج والمرج حصل على سلفة ، وانطلق ، لا يلوى على شيء ، على عربة سريعة الخيول الى مقر هيئة الاركان فى جادة نيفسكي .

استقبل سولنتسيف رئيس قسم الصحافة وعقيد هيئة الاركان ارنولدوف فى مكتبه ، واستمع اليه بادب ، محدقا فى عينيه بعينين صافيتين مرحتين جاحظتين . وكان ارنولدوف قد اعد نفسه ليلتقى باحد العمالقة – بجنرال مورد الوجه امسدئ التقاطيع – سوط الصحافة الحرة ، ولكنه وجد امامه رجلا انيقا مهذبا لم يبح صوته ، ولم يجار عليه ، ولم يبد ميلا الى تعنت او ضغط او معارضة شيء ما . وكل ذلك لم يكن يلائم الصورة المالوفة عن المأجورين للقيصر .

— آمل ، يا حضرة العقيد ، الا ترفض ان تنير الاسئلة التى ساطرحها برايك الموثوق .

قال ارنولدوف ، ورمق بطرف عينه صورة نيقولاى الاول الداكنة التى تمثله واقفا بطول قامته ينظر بعين بلا رحمة وشفقة الى ممثل الصحافة ، وكانه يريد ان يقول له : «السترة قصيرة ، والحذاء اصفر ، والانف عرق . انه لمنظر مشين . انت خائف يا ابن الكلبة» . وتابع ارنولدوف قوله :

— انا لا اشك ، يا حضرة العقيد ، فى ان القوات الروسية ستكون فى العام القادم فى برلين ، الا ان هيئة التحرير مهتمة بشكل خاص ببعض التفاصيل . . .

قاطعه العقيد سولنتسيف بأدب :

— يبدو لى ان الراى العام الروسى لا يتصور بالقدر الكافى نطاق الحرب الحالية . وانا ، بالطبع ، لا يسعنى الا ان احيى امنيتك الجميلة فى ان يصل جيشنا الى برلين ، ولكننى اخشى ان يكون ذلك اصعب مما تتصور . وانا من ناحيتى ارى ان المهمة الاساسية للصحافة فى اللحظة الراهنة اعداد الراى العام الى فكرة وجود خطر جدى جدا محدق بدولتنا ، والتضحيات البالغة التى يجب ان نتحملها جميعا .

انزل ارنولدوف دفتر ملاحظاته ، ونظر الى العقيد بحيرة .

تابع سولنتسيف كلامه :

— نحن لم نبحث عن هذه الحرب ، ونحن فى اللحظة الراهنة ندافع عن وطننا فقط . والالمان يتفوقون علينا فى عدد المدافع ، وكثافة شبكات الخطوط الحديدية فى منطقة الحدود . ومع ذلك فنحن نفعل كل ما فى وسعنا لمنع العدو من تخطى حدودنا . والقوات الروسية تنفذ الواجب الملقى على عاتقها . ولكن من المستحسن كليا ان يتشرب المجتمع ، من جانبه ايضا ، بشعور الواجب تجاه الوطن . – وهنا رفع سولنتسيف حاجبيه . – انا ادرك ان شعور الوطنية بين بعض الفئات يشوبه بعض التعقيد . الا ان الخطر على درجة من الجدية تتيح – وانا واثق من ذلك – تأجيل جميع المجادلات والمحاسبات الى وقت افضل . ان الامبراطورية الروسية لم تمر بمثل هذه اللحظة الحرجة حتى فى عام ١٨١٢ * . ذلك كل ما اود ان تأخذه بعين الاعتبار . ثم يجب ان يذاع بين الناس ان المستشفيات العسكرية التى تملكها الحكومة لا تستطيع ان تستوعب كل الجرحى . لهذا ومن هذه الناحية ايضا ، يجب ان يكون المجتمع مستعدا لتقديم مساعدة كبيرة . . .

— اعذرنى ، يا حضرة العقيد ، انا لا افهم اى عدد من الجرحى يمكن ان يكون ؟

ومرة اخرى رفع سولنتسيف حاجبيه عاليا .

— يبدو لى ان من المحتمل توقع ما بين مائتين وخمسين وثلثمائة الف جريح فى الاسابيع القريبة .

بلع انتوشكا ارنولدوف ريقه ، وسجل الرقم ، وسأل بمزيد من الاحترام :

— وفى هذه الحال بكم تقدر عدد القتلى ؟

— فى العادة نقدر ما بين خمسة الى عشرة بالمائة من عدد الجرحى .

---

* المقصود هنا الحرب الوطنية التى خاضتها شعوب روسيا ضد الغزاة الفرنسيين تحت قيادة نابليون الاول ، وانتهت بانتصار روسيا . (المترجم) .

– اها ، شكرا لك .

ونهض سولنتسيف . فصافحه ارنولدوف بسرعة ، وحين فتح الباب البلوطي اصطدم باتلانت الذي كان داخلا . انه صحفي مسلول اشعث الشعر كان يرتدي سترة مدعوكة ، ولم يذق طعم الفودكا منذ يوم امس .

قال هذا ، وهو يحاول ان يغطي صدر قميصه القذر بكفه :

– يا حضرة العقيد ، جئت اليك بخصوص الحرب . ما رايك ، هل سنستولي على برلين قريبا ؟

خرج ارنولدوف من مقر هيئة الاركان الى ساحة القصر ، ولبس قبعته ، ووقف برهة مقلصا عينيه .

وتمتم من خلال اسنان مضمومة :

– الحرب حتى النصر . حذار ايها الهرمون سنصفي حسابنا معكم على روحكم الانهزامية .

كانت ارهاط من الفلاحين الملتحين الهُوج تملأ بالحركة ارجاء الساحة الهائلة المكنوسة جيدا ، بعمود الكسندر الغرانيتي الثقيل ، وكانت تسمع صيحات اوامر قوية . كان الفلاحون يصطفون ويركضون من مكان الى آخر ويستلقون على الارض . وفي احد الاماكن صاح زهاء خمسين رجلا بصوت متنافر ، وهم يصعدون على الرصيف «هورا» وانطلقوا في عدو متعثر . . . وصاح بهم صوت اجش غطى على صيحاتهم : «قف ، استعداديا اوغاد يا اولاد الكلاب ! . .» وكان يتناهى من مكان آخر : «الحق به ، واطعنه بالحربة في جسمه ، فاذا انكسرت الحربة فاضرب بالعقب» .

ان هؤلاء هم نفس الفلاحين المخشوشنين ذوي القمصان العريضة والاحذية الليفية وذوي اللحى المستديرة وآثار العرق الجاف الظاهر على دفاتهم ، اولئك الذين جاءوا قبل مائتي عام الى هذه الشطئان المستنقعية ليشيدوا المدينة . والآن قد دعوا مرة اخرى ليسندوا باكتافهم عمود الامبراطورية المتزعزع .

انعطف ارنولدوف الى جادة نيفسكي ، وهو لا يكف عن التفكير في المقال الذي سيكتبه . كانت سريتان في كامل عدة المسيرة ، بالحقائب الظهرية والقصعات والارفاش تسيران في وسط الشارع على انغام المزامير مثل عواء ريح الخريف . كان التعب والغبار

يبدوان على هؤلاء الجنود العراض الوجنات . وكان ضابطهم الصغير ذو القميص الاخضر والاحزمة الجديدة المتصالبة على صدره يرفع جسمه على اطراف اصبعه بين لحظة واخرى . ويلتفت جاحظ العينين ويصيح : «يمين ! يمين !» . ويسمع المرء وكانه يحلم بضجيج جادة نيفسكي ويراها جميلة متالقة بالعربات والزجاج . «يمين ! يمين ! يمين !» . وسار الفلاحون المنقادون الثقال الارجل وراء الضابط الصغير في ترنح رتيب . لحق بهم حصان عداء اسود فاحم يتطاير الزبد منه . وقد كبحه سائق عريض العجز ليوقف العربة التي يجرها . ونهضت في العربة سيدة حسناء ونظرت الى الجنود المارين . وبيدها المقفزة بقفاز ابيض رسمت لهم علامة الصليب .

مرّ الجنود ، وحجبهم سيل العربات . وكانت الارصفة حارة ومزدحمة ، وكان الجميع وكانهم ينتظرون شيئا . كان المارة يتوقفون ، ويصغون الى احاديث هنا وصيحات هناك ، ويشقون طريقهم وسط الزحام ويلقون اسئلة ، ثم ينصرفون منفعلين الى تجمعات اخرى .

وبالتدريج تحددت وجهة حركة السير الفالتة ، وتحولت الجموع من جادة نيفسكي الى شارع مورسكايا . وهناك راحت تسير وسط الشارع مباشرة . وتراكض شبان قصار صامتين مهمومين . وعند مفترق الشارع قذف بعض الناس قبعاتهم في الهواء ، ولوح آخرون بالمظلات ، وطنت في ارجاء الشارع «هورا ! هورا !» . وصفر الاولاد الصغار صفيرا حادا . واينما وجهت بصرك رايت عربات غير متحركة وقفت فيها نساء زاهيات الثياب . وتدفقت الجماهير الغفيرة نحو ساحة كاتدرائية اسحاق ، وانتشرت فيها ، وتسلل الناس من خلال قضبان الحديقة . وكانت جميع النوافذ والسطوح ودرجات الكاتدرائية الغرانيتية غاصة بالناس . وكان كل هؤلاء الناس ، بعشرات اولوفهم ، ينظرون الى اعمدة الدخان تتصاعد من النوافذ العليا لمبنى السفارة الالمانية الثقيل الداكن الحمرة . وكان بعض الناس يتراكضون وراء الزجاج المهشم ، ويلقون على الجموع حزما من الورق ، فتتطاير ، وتسقط ببطء . مع كل عمود دخان ، وكل شيء جديد يقذف من النوافذ كانت موجة من الهدير تسري في الحشد . وها هم هؤلاء الشبان المهمومون يظهرون على واجهة

المبنى حيث يقف على الجانبين عملاقان من البرنز يمسكان بمقودى حصانين برونزيين . وهدأ الحشد ، وارتفعت ضربات مطارق على معدن . وترنح احد العملاقين ، وانهبد على الرصيف . وهدر الحشد واندفع نحوه ، وبدا الازدحام ، وتراكض الناس من كل ناحية . «الى نهر مويكا ، خذوها الى مويكا .. الملاعين !» وسقط التمثال الثانى . امسكت بكتف انتوشكا ارنولدوف سيدة ممتلئة تضع على انفها نظارة انفية ، وهتفت به : «سنغرقها جميعا ، ايها الشاب» . وتحرك الحشد الى مويكا . وسمعت ابواق المطافىء ، ومن بعيد لمعت خوذ نحاسية . وظهرت الشرطة الخيالة من وراء المنعطفات . وفجاة راى ارنولدوف ، وسط المتراكضين والمتصايحين ، شخصا شديد الامتقاع حاسر الراس له عينان جامدتان زجاجيتان متسعتان . وعرف انه بيسونوف ، فتقدم منه . قال بيسونوف :

– هل كنت هناك ؟ سمعتهم يقتلون .

– احقا كان هناك قتل ؟ ومَنْ قتلوا ؟

– لا اعرف .

واستدار بيسونوف ، وسار فى الساحة فى مشية متخلخلة كمشية الاعمى . والآن كانت فلول الحشد تتراكض جماعات نحو جادة نيفسكى ، حيث بدا تحطيم مقهى «ريتر» .

فى ذلك المساء وقف انتوشكا ارنولدوف الى منضدة عالية ، فى احدى حجرات التحرير الغاصة بدخان التبغ ، وراح يكتب بسرعة وعلى قطع ورق ضيق :

«... اليوم شهدنا الغضب الشعبى بكل نطاقه وجماله . وتجدر الاشارة الى ان ما من زجاجة نبيذ من تلك التى كانت فى اقبية السفارة الالمانية قد شربت ، بل كُسِّر كل شىء ، وصب فى نهر مويكا . ان المساومة مستحيلة . وسنحارب حتى النصر ، مهما سنقدم من تضحيات . لقد ظن الالمان انهم سيجدون روسيا تغط فى النوم ، ولكن الشعب هبّ على الكلمات الراعدة «الوطن فى خطر» هبة رجل واحد . وسيكون غضبه رهيبا . ان الوطن كلمة جبارة ولكننا نسيناها . ومع الطلقة الاولى من مدفع الالمان عادت الى الحياة بكل جمالها الطاهر ، وشرعت تتالق بحروف من نار فى قلب كل فرد منا ...»

وقلّص انتوشكا عينيه ، واحس بقشعريرة خفيفة تسرى فى ظهره . يا لهذه الكلمات التى وجد نفسه منساقا لكتابتها ! ولكنها ليست كتلك التى كتبها قبل اسبوعين ، حين عهد اليه ان يكتب استعراضا للتسليات الصيفية . وتذكر ذلك الرجل الذى خرج الى خشبة المسرح الهزلى ، على هيئة خنزير وغنى «انا خنزير صغير ، ولا اخجل . انا خنزير صغير وافخر . امى كانت خنزيرة ، وانا اشبهها جدا ...»

وكتب انتوشكا والحبر يتناثر من ريشته :

«... نحن ندخل فى عهد بطولى . قد تعفنا طويلا ونحن احياء . والحرب تطهير لنا» .

وطبعت مقالة ارنولدوف رغم معارضة الانهزاميين بزعامة بيلوسفيتوف . ولكنها قد نشرت فى الصفحة الثالثة ، وتحت عنوان غير مثير هو «فى ايام الحرب» ، وذلك هو التنازل الوحيد عن عادة الصحيفة . واخذت ترد على هيئة التحرير رسائل من القراء فريق يعبر عن الارتياح الحار بالمقالة ، وفريق يعرب عن السخرية المرة . الا ان رسائل الفريق الاول كانت اكثر بكثير . وزيدت اجرة انتوشكا على السطر ، وبعد اسبوع استدعاه فاسيلى فاسيليفيتش رئيس التحرير الى مكتبه ، حيث استقبله الرئيس الاشيب مورد الوجنتين معطرا بماء كولونيا انجليزى ، ودعاه ليجلس فى مقعد ، وقال مهموما :

– عليك ان تسافر الى الريف .

– سمعا .

– ينبغى علينا ان نعرف ماذا يفكر الفلاحون وعمَّ يتحدثون – وضرب حزمة كبيرة من الرسائل بباطن كفه وقال – ظهر بين المثقفين اهتمام هائل فى الريف . ويجب ان تقدم فكرة حيّة مباشرة عن ابى الهول هذا .

– تدل نتائج التعبئة على نهوض وطنى هائل ، يا فاسيلى فاسيليفيتش .

– اعرف ، ولكن يا للغرابة ! من اين جاءهم ذلك ؟ سافر الى حيث تريد ، وتسمَّع ، واسال . وحتى يوم السبت انتظر منك خمسمائة سطر عن انطباعاتك حول الريف .

وخرج انتوشكا من هيئة التحرير الى جادة نيفسكى ، حيث اشترى بدلة سفر عسكرية الفصال وطماقين اصفرين ، وقبعة مدارة ، وارتدى كل ذلك ، وذهب ليتناول فطوره فى مطعم دونون ، حيث احتسى لوحده زجاجة شمبانيا فرنسية ، وانتهى الى قرار هو ان ابسط شىء ان يسافر الى قرية خليبى ، حيث كانت يلزافيتا كيبفنا تنزل عند اخيها كى كيبفيتش . وفى المساء شغل مقعدا فى مقصورة فى عربة قطار دولية واشعل سيغارا ، ونظر الى طماقيه الاصفرين الصارفين بشجاعة وقال لنفسه : «يا لها من حياة رائعة !»

كانت قرية خليبى تقع فى منخفض بين مستنقع والنهير سفينوخا ، وهى تتالف من اكثر من ستين بيتا محاطة بحدائق ينمو فيها عنب الثعلب بكثرة ، وشارعها تتوسطه اشجار زيزفون معمرة ، ومبنى مدرستها الكبير على رابية هو بيت سابق لاحد اصحاب الاطيان . كانت القرية الزراعية صغيرة وفقيرة ، فكان جميع الفلاحين تقريبا يسافرون الى موسكو للبحث عن عمل .

دخل انتوشكا القرية عند المساء على عربة فاذهله سكون فيها لم يعكره الا قاقاة دجاجة حمقاء خرجت من تحت اظلاف فرس ، ونباح كلب عجوز تحت شونة ، وصوت مخباط يضرب على غسيل يغسل فى النهير . وكان هناك كبشان يتناطحان وسط الشارع متشابكين بقرونهما .

اعطى انتوشكا الاجرة للعجوز الاصم الذى جلبه من المحطة ، وسار فى درب الى مكان لاحت فيه واجهة المدرسة القديمة المصنوعة من جذوع الشجر من خلال خضرة اشجار البتولا . وعلى درجات المدخل نصف المتاكلة كان يجلس كى كيبفيتش المعلم ويلزافيتا كيبفنا يتبادلان الحديث ببطء . وفى الاسفل كانت اشجار الصفصاف الضخمة تلقى ظلالا طويلة على المرج . وكانت الزرازير تطير كسحابة داكنة متلالئة . ومن بعيد ترامى صوت زمارة ليجمع القطيع . وخرجت بعض الابقار الحمراء من دغل للقصب ، وخارت واحدة منها بعد ان رفعت راسها . كان كى كيبفيتش الذى كان شديد الشبه باخته وذا عينين تبدوان مرسومتين مثل عينيها يقول وهو يقضم قشة :

— وفضلا عن ذلك ، فانت يا ليزا ، غير منظمة مطلقا فى الحياة الجنسية . واشخاص من مثلك هم فى الحقيقة فضلات كريهة للحضارة البرجوازية .

كانت يلزافيتا كيبفنا تنظر فى ابتسامة متراخية الى بقعة فى المرج كانت الاعشاب والظلال فيها تكتسى صفرة دافئة فى ضوء الشمس الغاربة .

— حديثك مضجر للغاية ، يا كى ، انك قد استظهرت كل شىء ، وكل شىء عندك واضح وكانه مكتوب فى كتاب .

— ان كل شخص ، ياليزا ، ملزم بالاهتمام فى ترتيب افكاره كلها فى نظام منسق ، لا فى كون هذا الحديث او ذاك مضجرا اوغير مضجر .

— اهتم انت ، كما يحلو لك .

كان المساء هادئا . كانت الاغصان الشفافة لاشجار البتولا المتهدلة ساكنة بلا حراك امام مدخل المدرسة . وكان طائر صفرد يصرصر عند اسفل التل . نظرت يلزافيتا كيبفنا حالمة الى الاشجار الذائبة فى الغسق الازرق . وظهر بين الاشجار رجل صغير خفيف الحركة يحمل حقيبة . هتف انتوشكا :

— هذه هى ليزا ، مرحبا ، ياست الحسن . . .

بشت يلزافيتا كيبفنا به بشاشة هائلة ، فنهضت بحماس وعانقته .

سلم كى كيبفيتش بجفاف ، ومضى يقضم القشة . استلقى انتوشكا على الدرجات ، واشعل سيغارا .

— جئت اليك طلبا للمعلومات ، يا كى كيبفيتش ، حدثنى بالتفصيل ماذا يفكر الناس فى قريتكم عن الحرب وماذا يقولون . . .

ابتسم كى كيبفيتش ابتسامة هازئة .

— الشيطان يعرف ماذا يفكرون . . . هم يصمتون . . . الذئاب ايضا تصمت حين تجتمع فى قطيع .

— يعنى لم تكن هناك مقاومة للتعبئة ؟

— لا ، لم تكن هناك مقاومة .

— وهل يعرفون ان العدو المان ؟

— لا ، لا مسالة المان هنا .

– فما هى المسالة اذن ؟
ابتسم كى كيبفيتش مرة اخرى ابتسامة هازئة .
– ليست المسالة مسالة المان ، بل بندقية . . . الحصول على بندقية فى ايديهم . . . الانسان ومعه بندقية تتغير نفسيته . سنعيش ، ونرى الى اى اتجاه ينوون تصويب بنادقهم . . . هذا هو الامر . . .
– وهم ، على اية حال ، يتحدثون عن الحرب .
– اذهب الى القرية ، واستمع . . .

عند حلول الظلام ذهب انتوشكا ويلزافيتا كيبفنا الى القرية . كانت نجوم آب تتناثر فى ارجاء السماء الآخذة بالبـــرود . وفى منخفض القرية كان الجو ميالا الى الرطوبة عابقا برائحة بقية الغبار التى تتطاير من اقدام القطيع ورائحة حليب طازج . والى جانب البوابات وقفت عربتان بلا خيول . وتحت اشجار الزيزفون التى احلولـك فيهـــا الظلام صرف دولاب بئر ، وزفر حصان ، وكـان يترامى الى الاذن صوت نخيره ، وهو يعب الماء . وفى مكان مكشوف عند شونة خشبية لها سقف من القش جلست ثلاث فتيات على جذوع يغنين بصوت خفيض . تقدمت يلزافيتا كيبفنا وانتوشكا وجلسا ايضا فى ناحية . كانت الفتيات يغنين :

خليبى القرية
جميلة فى كل شىء
بمقاعدها وازاهيرها
وفتياتهـــا الجميلات ...

التفتت احداهن الى القادمين ، وقالت بخفوت :
– ما رايكما ، يا صاحبتىّ ، الم يحن وقت النوم ؟
ولكنهن بقين على جلستهن ولم يتحركن . كان شخص ينشغل فى الشونة ، ثم صرّ باب ، وخرج فلاح اصلع فى سترة من فراء الخروف غير مزررة ، وصلصل طويلا ليغلق القفل ، ثم اقبل على الفتيات ، واضعا يديه على اسفل ظهره وابرز لحيته العنزية .
– ماضيات فى غنائكن ، يا شحرورات ؟

– نغنى ، لكننا لا نغنى عنك ، يا عم فيودور .
– ساطردكن من هنا بالمقرعة . . . انها عادة سيئة ان تغنين فى الليل .
– وانت تغار ؟
بينما قالت الاخرى متنهدة :
– لم يبق لنا الا ان نغنى عن قريتنا ، يا عم فيودور .
– نعم ، احوالكن سيئة . يتموكن .
قرفص العم فيودور قرب الفتيات . قالت اقربهن اليه :
– سمعنا نساء قرية كوزمودميا نسكويه يقلن ان رجالا كثيرين اخذوهم للحرب ، نصف العالم تقريبا .
– قريبا سيصلون اليكن ايضا ، يا فتيات .
– سياخذوننا الى الحرب ؟
وتضاحكن ، وسالت الاخيرة ايضا :
– مع مَنْ يتحارب قيصرنا ، يا عم فيودور ؟
– مع قيصر آخر .
وتبادلت الفتيات النظرات . تنهدت واحدة ، وعدّلـــت الاخرى المنديل على راسها ، بينما قالت الاخيرة :
– وهذا ما قالته نساء قرية كوزمودميا نسكويه لنا . مع قيصر آخر .
فى تلك اللحظة برز راس اجعد من وراء الجذوع وقـــال صاحبه بصوت مبحوح ، وهو يلبس فروته :
– كفاك كذبا ، يا هذا . ليس مع قيصر آخر ، بـــل الحرب مع الالمان .
اجاب فيودور :
– كل شىء جائز .
واختفى الراس ثانية . اخرج انتوشكا ارنولدوف علبـــة السيكائر ، وقدم لفيودور سيكارة ، وسال بحذر :
– ما رايك ، هل خرج الرجال من قريتكـــم الى الحرب راضين ؟
– كثيرون خرجوا راضين ، يا سيد .
– اذن ، كان هناك نهوض ؟

– نعم ، نهضوا ، ولماذا لا ينهضون ؟ على الاقل ليروا كيف تسير الامور هناك . اما اذا قتلوا ، فالأمر سيان ، لأنهم يموتون هنا ايضا . ان الارض فى قريتنا شحيحة . ونحن لا نجد ما ناكله غير الخبز وماء الخبز . بينما هناك ياكلون اللحم مرتين فى اليوم ، حسب الاقوال ، كما يوجد سكر وشاى وتبغ ، فدخن حسب ما تريد .

– ولكن اليس القتال مخيفا ؟

– وكيف لا ؟ مخيف بالطبع .

١٥

فى الطريق الواسعة المغطاة بوحل سائل كانت تتحرك عربات مكسوة بالمشمعات ، وعجلات تحمل القش والتبن ، وعربات اسعاف ، واحواض طوافات ضخمة مترنحة صارفة . وكان المطر ينهمر بلا انقطاع ، دقيقا مائلا . وكانت الاخاديد المحروثة والسواقى على جانبى الطريق مملوءة بالماء . وكانت الاشجار والادغال تلوح من بعيد مغبشة المعالم .

كانت قوافل الجيش الروسى المهاجم تتحرك كالسيل العرم فى الوحل والمطر وتحت الصيحات والشتائم ، وجلجلة السياط واصطدام محور بآخر . وعلى جانبى الطريق تناثرت خيول فاطسة ومحتضرة ، وعربات مقلوبة وعجلاتها بارزة الى الاعلى . وبين الحين والآخر كانت سيارة عسكرية تشق طريقها فى هذا السيل ، فيبدأ تصاعد الصياح والتاوهات ، وتقف الخيول على قوائمها الخلفية ، وتسقط عربة محملة على المنحدر ، وفى اثرها سواقها .

وحين كان ينقطع سيل العربات كان الجنود ياتون بعده سائرين على الاقدام فى خط طويل منزلقين فى الوحل ، حاملين على ظهورهم الاكياس والمشمعات . وكانت تشق حشدهم غير النظامى عربات الامتعة وعربات اخرى محملة بالبنادق تظهر بارزة من كل الجهات ، وقد جلس فوقها الجنود المرافقون للضباط . وبين الحين والآخر كان يخرج رجل من الطريق راكضا فى الحقل ، ويضع بندقيته على العشب ، ويجلس القرفصاء .

ثم كان يتبع ذلك مزيد من العربات والطوافات ، والعجلات ، وعربات مدنية يجلس فيها اناس مبللون بمعاطف مطر للضباط . وكان هذا السيل الهادر تارة يسقط فى منخفض ، ويتزاحم ، ويزعق ويتعارك رجاله على الاماكن ، وتارة يمتد صاعدا مرتفعا ببطء ، ويختفى وراء القمة . وكانت تصب فيه من الجانبين صفوف جديدة من العربات تحمل القمح والعلف والقذائف . وكانت وحدات صغيرة من الخيالة تاتى متسابقة فى الحقل .

واحيانا كانت تدخل المدافع فى صفوف العربات مقعقعة قعقعة حديدية . وكانت خيول ضخمة عريضة الصدور يمتطيها نتريون ذوو وجوه ملتحية ضارية التقاطيع يسوطون الخيول والناس لتشق هذه الخيول الطريق كالمحرات ساحبة وراءها مدافع فطساء متقافزة . وكان هناك اناس يتراكضون من كل الجهات ، وآخرون واقفون على العربات يلوحون بايديهم . ومرة اخرى كان السيل يتصل ، وينصب فى غابة فواحة برائحة قوية للفطر والاوراق المتفسخة يسرى ضجيج المطر فى ارجائها .

ثم تبرز امام البصر مداخن مواقد من بين اكوام القاذورات والاخشاب المحروقة على جانبى الطريق ، ويتأرجح فانوس مهشم ، وتخفق فى الريح ورقة اعلان سينمائى الصقت على جدار آجرى لبيت هدمته القنابل . وهنا ايضا كان يرقد فى عربة بلا عجلتين اماميتين نمساوى جريح بمعطفه الازرق ووجهه ممتقع ، وعيناه كدرتان حزينتان .

وعلى بعد حوالى خمسة وعشرين فرسخا من هذه الاماكن كان دوى المدافع يترامى خافتا فى الافق الداخن . لقد كانت هذه القوات وطوابير العربات تنصب الى تلك المنطقة ليل نهار ، كما تتجه اليها القطارات من جميع انحاء روسيا محملة بالقمح والناس والقنابل . كانت البلاد كلها تهتز على دوى المدافع . لقد انفجر اخيرا كل ما تراكم فيها تحت الكبت والقمع من شر جشع لا يشبع .

وبدا وكان سكان المدن المتخمين بحياة شائهة فاسدة قد استيقظوا من حلم خانق . لقد كان فى دوى المدافع صوت العاصفة العالمية المثير . وبدت الحياة السابقة غير محتملة بعد هذا . فحيا السكان الحرب بحماس مشؤوم .

في الريف لم يسأل الناس كثيرا : من نحارب ولاي شيء ؟ فان الامر سيان لديهم . لان الحقد والكراهية قد غشيا العيون منذ زمان بغشاوة دموية . ونضج وقت الاعمال الرهيبة . ترك الفتيان والفلاحون الشبان نساءهم وفتياتهم ، وتزاحموا في عربات البضائع خفافا متعطشين ، وانطلقوا عبر المدن بصفير واغان فاحشة . لقد انتهت الحياة القديمة ، وبدا وكأن ملعقة هائلة اخذت تقلب روسيا وتعكرها ، وسرى الدبيب والحركة في كل شيء ، وسكر سكرة الحرب .

كانت طوابير العربات والقوات العسكرية تتدفق وتذوب حين تصل الى منطقة القتال التي يترامى دويها عشرات الفراسخ . هنا كان ينتهي كل شيء حي وانساني . كان يخصص لكل فرد موضع في التراب ، في الخندق ، ينام فيه ويأكل ، ويقصع القمل ، ويطلق من بندقيته على شريط الظلام الماطر الى حد الذهول .

وفي الليل كان الافق كله يلتهب ببطء بنيران الحرائق القرمزية ، وتتخطط السماء بخطوط الشرر المنبعثة من انطلاق الصواريخ وتتناثر كالنجوم وتتلاحق القذائف بعويل مصم ، وتنفجر اعمدة من النار والدخان والغبار .

هنا كانت الاحشاء تتقلص من الرعب المقزز ، ويقشعر الجلد ، وتنعكف الاصابع . وعند منتصف الليل كانت تطلق الاشارات . فيتراكض الضباط وشفاههم ملتوية ، وينهضون الجنود المنتفخين بالنعاس والرطوبة ، شاتمين متصايحين متضاربين . وتركض مجموعات غير نظامية من الناس في العراء متعثرين متشاتمين عاوين عواء وحشيا ، يستلقون تارة ، ويثبون اخرى ، ويقذفون انفسهم في خنادق الاعداء مصعوقين مأخوذين فاقدين الذاكرة من الرعب والغيظ .

وبعد ذلك لا يتذكر احد قط ما حصل في تلك الخنادق ، هناك . وكانوا يضطرون الى التلفيق حين كانوا يريدون التباهي بمآثر بطولية من مثل كيف غرزت الحربة ، وكيف تهشم الراس تحت ضربة من كرنافة البندقية . وكان الهجوم الليلي يخلف جثثا .

وكان يحل نهار جديد ، وتأتي مطابخ الميدان ، ويأكل الجنود المتهالكون المتجمدون ويدخنون . ومن بعد ذلك يبدأون

الحديث عن السناج والنساء ، ويلفقون كثيرا ايضا ويبحثون عن القمل ، وينامون . وكانوا يقضون اياما كاملة نائمين في منطقة الرعد والموت هذه ، العارية الملوثة بالغائط والدم .

في مثل هذا الوضع ، في الوحل والرطوبة ، عاش تليغين ايضا غير خالع ملابسه وحذاءه الطويل اسابيع متتالية . كان الفوج الذي سجل فيه ملازما ثانيا قد خاض معارك هجومية ، وفقد اكثر من نصف ضباطه وجنوده ، ولم يعوض عن خسائره ، وكان الجميع ينتظرون شيئا واحدا : ساعة تحويلهم الى المؤخرة ، وهم اشباه الاموات من التعب ، والممزقو الثياب .

الا ان القيادة العليا كانت تسعى الى عبور جبال الكربات قبل حلول الشتاء ومهما يكن الثمن ، والدخول الى المجر ، وتدميرها . ولم يكونوا يبخلون في الارواح ، فقد كانت هناك احتياطات كبيرة من النفوس البشرية . وكانوا يتصورون ان مقاومة الجيوش النمساوية المتراجعة بلا نظام ستنهار تحت الضغط الطويل لقتال مستمر دخل شهره الثالث ، وستسقط كراكوفيا وفينا ، وسيتمكن الروس من الخروج من الجناح الايسر الى المؤخرة الالمانية غير المحمية .

وتطبيقا لهذه الخطة كانت القوات الروسية تزحف نحو الغرب بلا انقطاع آسرة عشرات الالوف من الاسرى ، واحتياطات هائلة من المواد الغذائية والقذائف والاسلحة والملابس . في الحروب الماضية كان جزء فقط من مثل هذه المغانم ، ومعركة واحدة فقط من هذه المعارك الدموية المستمرة التي كانت تسحق فيالق كاملة يمكن ان يقررا مصير الحملة . والآن ، وحتى رغم ان الجيوش النظامية قد تحطمت في المعارك الاولى فان حدة القتال قد استشرت . لقد خرج الجميع الى الحرب ، من الاطفال حتى الشيوخ – الشعب بأسره . فقد كان في هذه الحرب شيء فوق الادراك الانساني . كان يبدو وكان العدو على وشك ان يدحر ، وقد استنزف دمه ، وما هو الا جهد آخر ، ويهل النصر الحاسم . ويبذل الجهد ولكن كانت تطلع مكان جيوش العدو المتفتتة جيوش جديدة كانت تسير للقاء الموت في جموح قانط ، وتهلك ، لم تكن لا جحافل التتار ولا كراديس الفرس تقاتل بتلك القسوة ،

وتموت بالسهولة التي كان يموت فيها الاوروبيون الضعاف الاجسام المدللون ، او الفلاحون الروس الماكرون ، الذين راوا انهم ليسوا الا ماشية عجماء – لحوما فى هذه المجزرة التى دبرها السادة .

تخندقت بقايا الفوج الذى يخدم تليغين فيه على شاطىء نهير ضيق عميق . كان الموقع سيئا ، مكشوفا كليا ، والخنادق غير عميقة . وكان الفوج ينتظر بين لحظة واخرى امرا بالهجوم ، ولكن الجميع الآن كانوا مسرورين فى ان تسنح لهم فرصة للنوم ، وتغيير الاحذية ، ونيل شىء من الراحة ، رغم ان نارا حامية كانت تنطلق من الضفة الاخرى للنهير حيث كانت الوحدات النمساوية تتخندق .

وعند المساء ، حين هدا اطلاق النار حوالى ثلاث ساعات ، كما هى العادة ، ذهب ايفان ايليتش تليغين الى مقرقيادة الفوج ، التى كانت تحتل قلعة مهجورة على بعد زهاء فرسخين من موقع الفوج .

كان ضباب اشعث يرقد على صدر النهير المتلوى بين النباتات الكثيفة ويخيم على الاجمات عند الشاطىء . وكان الجو هادئا رطبا فيه رائحة اوراق اشجار رطبة . وبين الحين والآخر كانت اطلاقة وحيدة تنهبد فى الماء مثل كرة جوفاء .

قفز ايفان ايليتش عبر حفرة الى الطريق العامة وتوقف ، واشعل سيكارة . كانت الاشجار العالية الجرداء على جانبى الطريق تبدو فى الضباب شاهقة الطول على نحو مفزع . وعلى اطرافها كان منخفض مستنقعى يبدو وكانه مملوء بالحليب . وصفرت رصاصة فى السكون صفيرا شاكيا . زفر ايفان ايليتش زفرة عميقة ، وسار على حصى مصلصل ، رافعا راسه الى اشباح الاشجار . لقد استرخى كل ما فى نفسه بسبب هذا الهدوء المحيط به ، ومن كونه يسير ويفكر لوحده . لقد ابتعد ضجيج النهار الصاخب ، الا ان حزنا رقيقا نافذا تسلل الى قلبه . فتنهد ثانية ، والقى السيكارة ، ووضع يديه وراء رقبته ، وسار على هذا الوضع ، وكانه فى عالم

عجيب لم يكن فيه غير اشباح الاشجار ، وقلبه الحى الملتهب بالحب ، وسحر داشا غير المرئى .

كانت داشا معه فى ساعة الراحة والهدوء هذه ، وكان يحس بملامستها كلما هدا زئير القذائف الحديدى ، وازيز البنادق ، والصيحات ، والسباب – كل هذه الاصوات الغريبة على خليقة الله – وكلما كان من الممكن ان ينزوى فى ركن من المخبأ ، وعندئذ كان السحر يمس قلبه .

وكان يبدو لايفان ايليتش انه ، لو قسم له ان يموت ، فانه سيشعر بسعادة الاتصال هذه الى آخر لحظة فى حياته . ولم يكن يفكر فى الموت ، ولم يهابه . لا شىء بقادر الآن على ان ينتزعه من حالة الحياة المدهشة ولو كان الموت نفسه .

فى الصيف ، حين سافر الى يفباتوريا ليرى داشا لآخر مرة كما خيل له ، غمرته موجة من الحزن ، وقلق ، وفكر فى مختلف الاعتذارات . الا ان لقاءهما فى الطريق ، ودموع داشا المباغتة ، وراسها الاشقر مضغوطا على صدره ، وشعرها ، ويديها ، وكتفيها الفواحة برائحة البحر ، وفمها الطفولى حين نطق ، وقد رفعت اليه وجهها بالرموش المسبلة المبللة : «ايفان ايليتش ، عزيزى ، كم انتظرتك» – كل هذه الاشياء التى لا توصف ، والتى كانها هبطت عليه من السماء ، فى ذلك الطريق عند البحر قد حولت حياة ايفان ايليتش كلها فى بضع دقائق . وقال وهو ينظر الى الوجه الحبيب :

– ساظل احبك ، طيلة حياتى .

وفيما بعد بلغ به الوهم الى حد ان تصور انه لم ينطق بهذه الكلمات ، بل دارت فى ذهنه فقط ، وانها قد فهمت ما فى ذهنه . انزلت داشا يديها من كتفيه ، وقالت :

– عندى اشياء كثيرة ينبغى ان اخبرك بها . فلنذهب .

وسارا ، وجلسا على الرمل عند الماء . ملات داشا كفها بالحصباء الصغيرة ، واخذت تلقيها فى الماء على مهل .

– المسالة هى هل ستستطيع ان تحسن معاملتى ، حين تعلم بكل شىء ، رغم ان ذلك لا يهم ، عاملنى حسب ما تشاء . – وتنهدت . – عشت فى غيابك حياة سيئة يا ايفان ايليتش . فاعذرنى ، اذا كان ذلك فى امكانك .

وحدثته عن كل شيء بصدق وتفصيل . عن سامارا ، وعن مجيئها الى هنا ، وعن لقائها ببيسونوف ، وعن فقدانها الرغبة فى الحياة ، من شدة قرفها ، من ذلك الجو البطرسبورغى الخانق الذى تصاعد مرة اخرى ، وسمم الدم ، والهب الفضول . . .

— الى متى اشمخ بانفى ؟ وراودتنى الرغبة فى ان اغرق نفسى فى الحماة — لا بأس . ولكننى جبنت فى اللحظة الاخيرة . . . ايفان ايليتش ، عزيزى — وبسطت ذراعيها وقالت — ساعدنى ، لا اريد ، ولا استطيع ان امضى فى بغض نفسى ، ولكن لم يمت كل شيء فىّ . . . انا اريد شيئا مختلفا تماما ، مختلفا كليا . . .

وبعد هذا الحديث صمتت داشا طويلا ، وثبت ايفان ايليتش بصره فى الماء الصقيل الضارب الى الزرقة ، المتلألىء بالشمس . وكانت روحه ، رغم كل شيء ، طافحة بالسعادة .

ولم تدرك داشا ان الحرب قد بدأت ، وان تليغين يجب ان يسافر فى الغد للحاق بفوجه ، الا بعد فترة من الوقت ، حين تبللت قدماها بموجة اهاجتها الريح .

— ايفان ايليتش !

— نعم .

— هل ستحسن معاملتى ؟

— نعم .

— كثيرا ؟

— نعم .

عندئذ زحفت على ركبتيها على الرمل لتقترب منه اكثر ، ووضعت يدها فى يده ، كما فعلت عند ذاك على سطح السفينة .

— ايفان ايليتش ، وانا ايضا ساحسن معاملتك .

وضغطت بشدة على اصابعه المرتعشة ، وسألت بعد برهة من الصمت :

— ماذا قلت لى اذ كنا فى الطريق ؟ — وغضنت جبهتها — اى حرب ؟ مع من ؟

— مع الالمان .

— وانت ؟

— ساسافر غدا .

تاوهت داشا ، وصمتت مرة اخرى . ومن بعيد كان نيقولاى ايفانوفيتش يجرى على الساحل متجها نحوهما ، فى سترته المخططة ، وكأنه قد غادر سريره من توه على ما يبدو . كان يلوح بجريدة ، ويصرخ بشىء ما .

ولم يلق التفاتا الى ايفان ايليتش . عندئذ قالت داشا : «نيقولاى ، هذا اكبر صديق لى» . — امسك نيقولاى ايفانوفيتش تليغين من سترته ، وصرخ فى وجهه :

— هذا ما توصلنا اليه ، ايها الشاب ، ها ؟ ها هى حضارتك ، ها ؟ هذه فظاعة ! هل تفهم ؟ هذا هذيان !

وقضت داشا النهار كله قرب تليغين لا تبارحه ، وديعة مستغرقة . ولاح له هذا اليوم المملوء بنور الشمس المزرق قليلا ، وهدير البحر واسعا لا تستوعبه الظنون . وكل دقيقة فيه تمطت حتى لكأنها استحالت حياة كاملة .

تجول تليغين وداشا على الساحل ، واستلقيا على الرمل ، وجلسا فى الشرفة ، وكانا فى ذهول . وكان نيقولاى ايفانوفيتش يلاحقهما اينما ذهبا ، ولا ينفك عنهما ، ولا يفتأ يتحدث بأحاديث مطولة عن الحرب وتسلط الالمان .

وقبيل المساء استطاعا الانفلات من نيقولاى ايفانوفيتش . فخرجا وحيدين ، وتوغلا بعيدا بمحاذاة ساحل الخليج المنحدر انحدارا خفيفا . سارا صامتين ، فى خطو متساوق ، وهنا بدأ ايفان ايليتش يفكر بان الواجب يقتضيه ، على اية حال ، ان يقول شيئا ما لداشا . وبالطبع ، انها تنتظر منه بَوْحا حارا ومحددا فى الوقت ذاته . ولكن ماذا فى وسعه ان يتمتم ؟ وهل تستطيع الكلمات ان تفصح عما يملأ جوانحه ؟ لا ، ان ذلك غير قابل للافصاح .

وفكر مع نفسه ، وهو ينظر الى قدميه : «لا ، لا ، لو بحت لها بتلك الكلمات ، فان ذلك سيكون معيبا . انها لا يمكن ان تحبنى ، ولكنها كفتاة شريفة طيبة ستقبل ، اذا طلبت يدها . ولكن هذا سيكون اكراها . وفضلا عن ذلك لا يحق لى ان اقول لاننا نفترق لفترة غير محددة ، فاننى ، فى اغلب الاحتمالات ، لن اعود من الحرب . . .»

وكانت تلك نوبة من نوبات تعذيب النفس . توقفت داشا

فجأة ، وتعلقت بكتفه ، وخلعت نعلها مرددة «يا آلهي ، يا آلهي» واخذت تفرغ الرمل من النعل ثم ارتدته ورفعت قامتها وتنهدت :

– ساشعر بحب شديد لك ، حين ترحل ، يا ايفان ايليتش .

ووضعت يدها على رقبته ، وتفرست فى عينيه بعينيها الصافيتين ، الرماديتين الصارمتين تقريبا ، الخاليتين من كل ظل لبسمة ، وزفرت زفرة اخرى خفيفة .

– سنكون سوية ، هناك ايضا ، ها ؟

جذبها ايفان ايليتش جذبة رقيقة ، وقبل شفتيها الناعمتين المرتعشتين . فاغمضت داشا عينيها . وفيما بعد حين بُهرت منهما الانفاس كليهما تنحت داشا ، وامسكت يد ايفان ايليتش ، وسار الاثنان بمحاذاة الماء الثقيل الداكن اللاعق الساحل بالسنة قرمزية عند اقدامهما .

كان ايفان ايليتش يتذكر كل ذلك فى لحظات الهدوء بانفعال متجدد فى كل مرة . والآن ، وهو يسير فى الضباب ، على الطريق العامة ، بين الاشجار ، ويداه وراء رقبته عادت تتراءى له نظرة داشا المتفرسة ، واحس بقبلتها الطويلة .

– قف ! من القادم !

هتف صوت غليظ فى الضباب .

– من جماعتكم .

اجاب ايفان ايليتش ، وانزل يديه الى جيبى معطفه العسكرى . وانعطف عند اشجار بلوط نحو هيكل قلعة غير واضح المعالم ، حيث كان النور يلوح اصفر فى بعض نوافذها المضاءة . وعلى المدخل ابصر شخص تليغين فرمى سيكارته ، ووقف فى هيئة استعداد . «هل جاء البريد ؟» «لا ، ياحضرة الضابط ، نحن فى انتظاره» . دخل ايفان ايليتش الى الرواق . كانت طنفسة قديمة معلقة فوق درج بلوطى عريض فى آخر الرواق تصور آدم وحواء واقفين وسط الاشجار . كانت هى تمسك فى يدها تفاحة ، وهو غصنا مقطوعا عليه زهور . وكانت شمعة موضوعة فى فم زجاجة فى اسفل الدرج تضىء بضوئها الشاحب وجهيهما الحائلين وجسميهما المزرقين .

وفتح ايفان ايليتش بابا الى اليمين ، ودخل حجرة فارغة لها

سقف منحوت منهار فى احد الاركان من جراء قنبلة سقطت يوم امس على الجدار . كان الملازم الاول الامير بيلسكى والملازم مارتينوف جالسين على سرير قرب موقد مشتعل . سلم ايفان ايليتش ، وسأل متى من المتوقع ان تصل السيارة من مقر الاركان ، وجلس على كومة من علب الخراطيش غير بعيد عن الضابطين ، وقلص عينيه من الضوء .

سأل مارتينوف :

– اما زال اطلاق النار مستمرا هناك ، عندكم ؟

لم يجب ايفان ايليتش ، وهزّ كتفيه . ومضى الامير بيلسكى متابعا حديثه بصوت خافت :

– والاهم هى هذه الرائحة النتنة . لقد كتبت لاهلى ان الموت لا يخيفنى . فانا مستعد فى سبيل الوطن الى التضحية بحياتى ، ولاجل هذا ، اذا اردت الدقة ، انتقلت الى المشاة ، وها انا جالس فى الخنادق ، ولكن الرائحة النتنة هى التى تقتلنى .

اجاب مارتينوف ، وهو يعدل احدى كتفيتيه :

– الرائحة النتنة شىء تافه ، اذا لا تعجبك فلا تشمها . ولكن خلو المكان من النساء هو الشىء الجوهرى . ان ذلك لا يؤدى الى خير . احكم بنفسك : قائد الجيش هرم ، فاقاموا لنا هنا ديرا ، لا خمرة ، ولا نساء . ايمكن ان تدعو هذا اهتماما بالجيش ؟ اهذه حرب ؟

نهض مارتينوف من السرير ، واخذ يدفع براس حذائه خشبة محترقة ، وراح الامير يدخن مستغرقا ناظرا الى النار . وقال :

– خمسة ملايين جندى يروثون . وفضلا عن ذلك تتفسخ الجثث والخيول النافقة . ستظل الحرب طوال حياتى تذكرنى بشىء كريه الرائحة . بررررر . . .

سمع هدير محرك سيارة فى الفناء . وصاح صوت منفعل عند الباب :

– يا سادة ، جاء البريد .

خرج الضباط الى مدخل القلعة . كانت شخوص داكنة تتحرك عند السيارة ، وبعض الرجال يتراكضون فى الفناء . وكرر الصوت المبحوح : «يا سادة ، ارجو الا تتخاطفوا من الايدى» .

وجلبت اكياس البريد والطرود الى الرواق ، واخذوا يفكونها على الدرج تحت آدم وحواء . وكانت تحتوى على بريد الشهر كله . وظهر ان تلك الاكياس الجنفاصية القذرة كانت تحتوى على عالم كامل من الحب والحنين – حياة كاملة مهجورة ، رقيقة ، لا تسترد .

– يا سادة ، لا تتخاطفوا من الايدى – بحّ النقيب بابكين ، وهو رجل ضخم احمر الوجه – الملازم الثانى تليغين ست رسائل وطرد . . . الملازم الثانى نيشنى رسالتان . . .

– نيشنى قتل ، يا سادة . . .

– متى ؟

– اليوم صباحا . . .

سار ايفان ايليتش الى الموقد . كانت الرسائل الست كلها من داشا . وكان العنوان على الظروف مكتوبا بخط كبير . وغمر الحنان ايفان ايليتش على تلك اليد الحبيبة التى خطت هذه الحروف الكبيرة . انحنى على النار ، وفضّ الظرف الاول بحـذر . ففاحت منه ذكرى قوية جعلت ايفان ايليتش يغمض عينيه برهة . ثم قرأ :

«سافرنا – نيقولاى ايفانوفيتش وانا – الى سيمفروبـول فى اليوم الذى ودعناك فيه ، وفى المساء ركبنا قطار بطرسبورغ . ونحن الآن فى شقتنا القديمـة . نيقولاى ايفانوفيتش قلق جدا بسبب عدم ورود اى خبر من كاتيـا ، ونحن لا نعرف اين هى الآن . ان ما وقع لنا ، انت وانا ، كان عظيما جدا ومفاجئا جدا حتى اننى ما ازال غير متمالكة حواسى . اننى احبك ، وسيكون حبى لك صادقا وسيزداد قوة . اما الآن فان بلبلة شديدة تجتـاح النفس . القوات تمر فى الشوارع على انغام الموسيقى فتشيع فى الجو حزنا ممضا حتى لكأن السعادة تمضى راحلة مع الابواق ، مع هؤلاء الجنود . انا اعرف لا يجوز لى ان اكتب ذلك ، ولكن يجب ان تكون حذرا فى الحرب ، على اية حال» .

– يا حضرة الضابط ، يا حضرة الضابط .

التفت تليغين بصعوبة فراى جنديا مراسلا يقف عند الباب .

– برقية تلفونية ، يا حضرة الضـابط . . . يطلبونك فى الفوج .

– مَنْ ؟

– المقدم روزانوف . طلب ان تاتى باسرع ما يمكن .

طوى تليغين الرسالة التى لم يتم قراءتها وحشرها وراء قميصه مع الظروف الاخرى ، وانزل قبعته على عينيه ، وخرج .

كان الضباب قد ازداد كثافـة ، وحجب الاشجار ، والسائر يحس وكانـه يخوض فى حليب ، ولا يتعرف على الطريق الا من صلصلة الحصباء . اعاد ايفان ايليتش مع نفسه «سيكون حبى لك صادقا ، وسيزداد قـوة» . وفجـأة توقف مرهفا سمعـه . لم يكن يصدر من الضباب صوت ما عدا الصوت الذى يحدثه احيانا سقوط قطرة ثقيلة من شجرة . ثم اخذ يميز ، على مسافة غير بعيدة عنه ، قرقرة وخشخشة خفيفة . وواصل سيره ، فصارت القرقرة اكثر وضوحا . ارتد بقوة ، فانهدت كتلة الطين التى انخلعت من تحت قدميه ساقطة فى الماء بطرطشة ثقيلة .

كان ذلك ، على ما يبدو ، المكان الذى كانت الطريق العامة تقطعه فوق النهر عند جسر محروق . وعلى الضفة الاخرى من النهر، على بعد زهاء مائة خطوة كانت الخنادق النمساوية تصل الى حافة النهر . وكان ايفان ايليتش يعرف ذلك . وبالفعل ازت رصاصة من الجانب الآخر كالسوط على طرطشة الماء ، ورجع النهر صوتها ، وازت اخرى وثالثة ، ثم اعقبت ذلك صلية طويلة ، مثل قعقعـة حديد ، فردت عليها من كل جانب طلقات عجلى خنق الضبـاب اصواتها . وتوالى الازيز والدوى والزئير على النهر كلـه اقوى فاقوى ، وفى ذلك الضجيج اللعين ، لعلع مدفع رشاش بعجلة ، وسمع صوت انفجار فى الغابة . وجثم الضباب الممزق الهادر على الارض ساترا على هذا الامر الكريه المعتاد .

ولعدة مرات كانت احدى الرصاصات ترتطم بشجرة قرب ايفان ايليتش محدثة صوت قضم ، ويسقط غصن . ترك الطريق العامة الى الحقل ، واتخذ طريقه تلمسا بين الاجمات . هدا التراشق بغتة ، مثلما بدا ، ثم انتهى . خلع ايفان ايليتش قبعته ، ومسح جبينه الرطب . انسدل مرة اخرى سكون اشبـه بالسكون تحت الماء ، ولم يبق الا اصوات القطرات تقطر من الاشجار . حمدا لله ، اليوم سيقرأ رسائل داشا . وضحك ايفان ايليتش وقفز عبر

حفرة . وفجأة سمع ، على مقربة شديدة منه ، صوت رجل يتثاءب ثم يقول :

– يا فاسيلي اى نوم فى مثل هذه الاحوال ؟ اى نوم ؟

ردّ صوت مهتز :

– انتظر . هناك شخص قادم .

– مَنْ القادم ؟

– من جماعتكم ، من جماعتكم .

اسرع تليغين يقول ، وفى الحال راى المتراس الترابى للخندق ، ووجهين ملتحيين يتطلعان من تحت الارض . سأل :

– اية سرية هذه ؟

– الثالثة يا حضرة الضابط ، سريتك . ولماذا تسير على الارض المكشوفة ، يا حضرة الضابط ؟ قد يصيبونك .

قفز تليغين الى الخندق ، وسار فيه الى خندق الاتصال المؤدى الى مخبأ الضباط . كان الجنود الذين ايقظهم اطلاق الرصاص هذا يتحدثون :

– فى مثل هذا الضباب من السهل جدا ان يعبر العدو النهر فى مكان ما .

– انه شيء بسيط .

– فجأة رمى ودوى كثيف . ترى أيريد ان يخيفنا ام هو نفسه خائف ؟

– وانت ، لست خائفا ؟

– انا ، يا صاحبى ؟ انا جبان جدا .

– يا اولاد ، قطعت اصبع لغفريل .

– لو رأيتموه كيف يزعق رافعا اصبعه الى فوق .

– حظوظ ! . . سيرسل الى اهله .

– ابدا ! لو كانت ذراعه كلها قد قطعت لكانت له اجازة ! اما دون اصبع واحدة ، فسيحشرونه ليتعفن فى مكان قريب ثم يعودونه الى السرية ثانية .

– متى ستنتهى هذه الحرب ؟

– اوه ، كفى .

– ستنتهى ، ولكن لن نرى نحن نهايتها .

– على الاقل لو استولينا على فينا .

– وما حاجتك اليها ؟

– لا لشيء ، ولكن احسن .

– حتى اذا لم تنته الحرب فى الربيع ، فان الجميع سيهربون على اية حال . فمن سيزرع الارض ؟ النسوان ؟ الشعب سحق سحقا . كفى ، تشبعنا بالدم بما فيه الكفاية وزيادة ، وسنذهب الى بيوتنا من تلقاء انفسنا .

– ولكن الجنرالات لن يكفوا عن الحرب عن قريب .

– ما هذا الكلام ؟ . . من يقول هذا ؟

– كفى نباحا ، يا عريف . . . انصرف . . .

– لن يكف الجنرالات عن الحرب .

– انه على حق ، يا اولاد . فهم اولا يقبضون رواتب مضاعفة ، واوسمة ونياشين .

لقد قال لى احد الاشخاص ان الانجليز يعطون لجنرالاتنا ثمانية وثلاثين روبلا ونصف على كل مجند .

– اوه ، الاوباش ! كما يبيعون الماشية .

– لا بأس ، سنصبر ، ونرى .

عندما دخل تليغين المخبأ راى آمر الكتيبة المقدم روزانوف – وهو رجل بدين ذو نظارة ، وخصل شعر قليلة – جالسا على اغطية خيول موضوعة فى احد الاركان تحت اغصان الصنوبر ، وقد ابتدره قائلا :

– جئت اخيرا يا صاحبى .

– ارجو المعذرة ، يا فيودور كوزميتش ، فقد اضعت طريقى . الضباب كثيف .

– المسألة ، يا صاحبى ، ان هناك عملا ينبغى انجازه فى الليل .

ووضع فى فمه قطعة الخبز التى كان طيلة الوقت يمسكها بيده الوسخة . اطبق تليغين فكيه ببطء .

– الخلاصة ، يا عزيزى ايفان ايليتش ، ان الامر قد صدر الينا بالعبور الى الضفة الاخرى . وسيكون لطيفا لو ننجز ذلك

بشيء من اليسر . اجلس بجانبي . اتريد شيئا من الكونياك ؟ لقد عنت لى هذه الخطة ... اقامة جسر مقابل دغل الصفصاف الكبير تماما ، وتعبير فصيلتين على تلك الضفة ...

١٦

– سوسوف !
– نعم ، يا حضرة الضابط .
– احفر ... على مهلك ، لا تلق التراب فى الماء . يا اولاد تقدموا الى الامام ... زوبتسوف !
– نعم ، يا حضرة الضابط .
– انتظر ... ثبته هنا ... احفر قليلا ... خفّض ... على مهل ...
– على مهل ، يا اولاد ، ستخلعون كتفى ... ادفع ...
– هيا ، ادفع ...
– لا تصرخ ، هدوء ، يا حيوان !
– اسند الطرف الآخر ... يا حضرة الضابط ، هل نرفع ؟
– هل ربطتم الطرفين ؟
– نعم .
– ارفع ...

وارتفع فى غيوم الضباب المشرّب بضـــوء القمر عمودان مرتفعان تربط بينهما عوارض ، وقد صدر صريف من ذلك . انها جسر معلق . كانت اشباح المتطوعين تتحرك على الشاطئ وهى لا تكاد تبين . وكان الكلام والسباب يجريان بهمس عجول .

– هل استقر ؟ ها ؟
– استقر بصورة جيدة .
– خفّض ... بحذر اكثر ...
– برفق ، برفق يا اولاد ...

بعد ان تثبت العمودان بطرفيهما فى ضفة النهر ، فى اضيق موضع فيه ، اخذا يميلان ببطء الى الامام ، وتدليا فوق الماء فى الضباب .

– هل سينوش الضفة الثانية ؟
– خفض على مهل .
– ثقيل جدا .
– قف ، قف ... برفق ! ..

ومع ذلك فقد انطرح الطرف الثانى من الجسر على المـــاء بطرطشة عالية . اشار تليغين بذراعه قائلا :

– استلقوا !

استلقت اشباح المتطوعين على عشب الشاطئ بصوت غير مسموع . شفّ الضباب ، الا ان الظلام صار احلك ، والهواء اثقل عند السحر . وكان الهدوء يسود الضفة الاخرى . نادى تليغين :

– زوبتسوف !
– نعم !
– انزل الى الماء وصفّ الواحا !

نزل المتطوع فاسيلي زوبتسوف بجسمه الركين الناشر رائحة عرق نافذة من الشاطئ الى الماء مارا بتليغين . ورأى ايفـــان ايليتش يده الكبيرة تمسك بالعشب مرتجفة ، وتطلقه ، وتختفى .

– عميق ، – قال زوبتسوف بهمس مرتجف صدر من مكان فى الاسفل واستمر – ناولونى الالواح ، يا اولاد ...
– الالواح ، ناولونى الالواح !

وراحت الالواح تتناقل بين الايدى بسرعة وبلا صوت . وكان من المستحيل تسميرها خوفا من حدوث ضجة . صفّ زوبتسوف الصفوف الاولى ، وخرج من الماء الى الجسر ، وراح يقول بصوت خافت ، واسنانه تصطك :

– اسرع ، ناول بسرعة ... لا تبطئ ...

كان الماء القارس البرودة يرســـل خريره تحت الجسر ، والعمودان يتمايلان . وكان تليغين يميز معالم الاجمات الداكنة على الشاطئ الآخر ، وبالرغم من انها لم تكن تختلف عن الاجمات فى الجانب الروسى ، الا ان منظرها بدا مخيفا . عاد ايفان ايليتش الى الشاطئ حيث كان المتطوعون مستلقين ، وهتف بحدة :

– انهضوا !

وفى الحال نهضت فى الغمام المبيض شخوص ممسوحة المعالم كبيرة بشكل بالغ .

– واحدا بعد واحد ، اجر . ! ..

استدار تليغين نحو الجسر . وفى تلك اللحظة تنورت الالواح الصفر ، وراس زوبتسوف ذو اللحية السوداء الملقى الى الوراء من الرعب ، وكان شعاع شمس اصطدم بغمامة الشباب فجاة . انحرف شعاع المصباح الكاشف جانبا الى الاجمات ، وانتزع من الظلام غصنا معوجا عليه عساليج عارية ، وعاد ثانية ليتمدد على الالواح . ركض تليغين مطبق الاسنان عبر الجسر ، وفى تلك اللحظة بدا وكان كل ذلك السكون الاسود قد انفجر وانعكس كالرعد فى راسه . اخذت نيران البنادق والرشاشات تنهمر على الجسر من الجانب النمساوى . قفز تليغين على الشاطئ ، وقعد على رجليه ، واستدار . كان جندى طويل القامة لم يتعرف عليه ، يركض على الجسر حاضنا بندقيته على صدره ، ثم افلتت من يديه ، ورفع يديه ، وسقط الى الجانب فى الماء . كان احد الرشاشات يصب ناره على الجسر والماء والشاطئ . ركض جندى آخر هو سوسوف ، واستلقى بالقرب من تليغين . . .

– سامزق هؤلاء الاوغاد باسنانى !

وركض ثان ، وثالث ، ورابع ، وترنح آخر ، وزعق متخبطا فى الماء . . .

عبر الجميع الجسر راكضين ، وانطرحوا مكومين بالارفاش قليلا من التراب امامهم . والآن صار الرصاص يرعد على نحو جنونى فوق النهر كله . وكان من المتعذر على المرء ان يرفع راسه . فقد ظل الرشاش يمطر بوابل رصاصه هناك حيث استلقى المتطوعون على الارض . وفجاة ازّ شىء على ارتفاع واطئ مرة ومرتين . . . وست مرات ، ودوّت الى الامام ستة انفجارات خافتة . انهم الروس يقصفون وكر الرشاش .

قفز تليغين وفاسيلى زوبتسوف امامه وركضا حوالى اربعين خطوة ، ثم استلقيا . وعاد الرشاش الى العمل من الظلام الى اليسار . ولكن كان واضحا ان النار من الجانب الروسى كانت اشد ، وان النمساويين يبعدون داخل الارض . استغل المتطوعون فترات

السكون وركضوا نحو المكان ، حيث قد احدثت مدفعية الروس ثغرة فى الاسلاك الشائكة امام الخنادق النمساوية يوم امس .

وكان النمساويون قد بدأوا وصلها من جديد خلال الليل ، فتركوا جثة تتدلى عليها . قطع زوبتسوف الاسلاك ، وسقطت الجثة امام تليغين كالزكيبة . وثب المتطوع لابتيف الى الامام بدون سلاح زاحفا على الاربع سابقا الآخرين ، واستلقى امام المتراس تماما ، فصاح به زوبتسوف :

– انهض ، والق قنبلة !

الا ان لابتيف صمت ولم يتحرك ، ولم يلتفت ، فلا بد ان قلبه جمد من الرعب . اشتد اطلاق النار ، ولم يستطع المتطوعون التحرك ، والتصقوا بالارض ، واندفنوا فيها .

صاح زوبتسوف :

– انهض ، والق قنبلة ، يا ابن الكلبة ! اقذفها !

ومدّ جسمه ممسكا بندقيته من كرنافتها ، ووخز بحربته معطف لابتيف الذى برز كالحدبة . ادار لابتيف وجهه الغاضب ، وفك قنبلة يدوية من حزامه ، وقذفها فجاة ملقيا صدره على المتراس ، وقفز الى الخندق بعد انفجارها .

صاح زوبتسوف بصوت غريب عليه :

– اضرب ، اضرب !

نهض زهاء عشرة من المتطوعين ، وهرولوا ، وغيّبتهم الارض . وكان لا يسمع غير اصوات الانفجارات الحادة المتقطعة .

تحرك تليغين على المتراس جيئة وذهابا كالاعمى ولم يستطع ان يفك قنبلة ، فقفز اخيرا الى الخندق ، وركض ضاربا الطين اللزج بكتفيه ، متعثرا ، صارخا بملء فمه . . . ورأى وجها ابيض كالقناع لرجل منضغط على تجويف فى جدار الخندق ، فامسك الرجل من كتفيه ، وكان الرجل لايفتأ يهذر وكانه فى النوم . . .

– اسكت ، ايها الشيطان ، لن امسك بسوء .

صرخ تليغين فى الوجه الابيض كالقناع ، وهو يكاد يبكى ، وركض ، قافزا فوق الجثث . الا ان المعركة كانت تقترب من نهايتها . وطلع حشد من الناس الرماديين منسلين من الخنادق الى الحقل بعد ان القوا بنادقهم ، فدفعوهم بكرنافات البنادق . وكان

الرشاش ما يزال يلعلع فى وكره المسقوف على بعد زهاء اربعين خطوة ، مصوبا ناره الى معبر النهر . شق ايفان ايليتش طريقه بين المتطوعين والاسرى ، وصاح :

– ماذا تنتظرون ، ماذا تنتظرون ؟ اين زوبتسوف ؟

– انا هنا . . .

– ماذا تنتظر ، ايها الشيطان اللعين ؟

– وكيف استطيع ان اصل اليه ؟

وركضا .

– قف ! . . هذا هو ! . .

كان ممر ضيق فى الخندق يؤدى الى وكر الرشاش . ركض تليغين فيه طاويا جذعه ، وقفز الى مخبأ كان كل شىء فيه يرتج فى الظلمة من الذبذبة التى لا تطاق ، وقبض على شخص من مرفقيه ، وجره واذا بالسكون يسود ، ولم يبق الا فحيح الرجل الذى جره من وراء الرشاش ، وهو يقاوم .

– الوغد ، انه يمانع . . . اسمح لى .

تمتم زوبتسوف بذلك من الخلف ، واشفع ذلك فى الحال بثلاث ضربات بكرنافة البندقية على جمجمة النمساوى فارتجف هذا ، وتوجع ، ثم همد . . . تركه تليغين وخرج من المخبأ . صاح زوبتسوف فى أثره :

– يا حضرة الضابط ، انه موثق .

وبعد قليل انزاح الظلام تماما . وظهرت على الطين الاصفر بقع وخطوط دم ، وتناثرت جلود مسلوخة من عجل ، وعلب تنك ، ومقال ، بينهما جثث آدمية متكورة كالزكائب . وكان المتطوعون المنهكون الخاملون ، منهم من انطرح ارضا ، ومنهم من كان يأكل من معلبات ، ومنهم من كان ينبش فى الحقائب التى رماها النمساويون .

وكان الاسرى قد سيقوا منذ وقت طويل الى ما وراء النهر . وقد عبر الفوج النهر ، واحتل مواقعه ، وكانت المدفعية تقصف خطوط النمساويين الثانية ، فكان هؤلاء يردون عليها بنار ضعيفة . تساقط رذاذ ، وانقشع الضباب . وضع ايفان ايليتش مرفقه على حافة الخندق ، وحدق فى الحقل الذى ركضوا فيه ليلا . انه حقل

كسائر الحقول ، بنى التربة ، رطب تناثرت فيه هنا وهناك قطع من الاسلاك الشائكة ، وآثار سوداء لارض محفورة ، وبعض جثث المتطوعين . والنهر قريب جدا ، ولا وجود للاشجار التى تصورها بالامس جبارة ، ولا لاجمات مخيفة . ولكن ما اكثر الجهود التى بذلت لقطع هذه الخطوات الثلاثمائة !

استمر النمساويون فى تراجعهم ، ولاحقتهم الوحدات الروسية حتى الليل دون ان تنال قسطا من الراحة . وأمر تليغين بان يحتل مع متطوعيه غابة صغيرة كانت تتراءى مزرقة على قمة تل ، وقد احتلها عند المساء بعد فترة قصيرة من التراشق بالنيران . وتخندقوا على عجل ، ونصبوا نقاط حراسة ، واقاموا اتصالا تلفونيا مع وحدتهم ، واكلوا ما كان فى حقائبهم من طعام ، وغفا الكثيرون تحت الرذاذ وفى الظلام حيث تتصاعد رائحة تفسخ اوراق الاشجار فى الغابة ، رغم ان الامر قد صدر لهم بالاستمرار فى اطلاق النار طول الليل .

اقتعد تليغين قرمة ، واتكأ على جذع شجرة ناعمة مما علق بها من طحلب . وكانت بين الحين والآخر تسقط قطرة وراء ياقته ، وكان ذلك شيئا طيبا ، لانه كان يمنعه من الغفو . وكان اللغط الصباحى قد انقضى منذ وقت طويل ، وزال حتى ذلك الاعياء الرهيب عندما أمروا بالسير زهاء عشرة فراسخ على الجذامات المنتفخة من المطر ، وتخطى الاسيجة والسواقى ، حين صارت الاقدام المتخشبة تتخبط حيثما اتفق ، والرؤوس متورمة من الالم .

سمع شخص يسير على الاوراق المتساقطة ، وصوت زوبتسوف يقول بخفوت :

– اتريد بقسماطة ؟

– شكرا .

تناول ايفان ايليتش بقسماطة منه ، واخذ يمضغها . كانت حلوة فذابت فى فمه . قرفص زوبتسوف على مقربة منه :

– اتسمح لى بالتدخين ؟

– شرط ان تكون حذرا .

– عندى غليون .

– زوبتسوف ، ما كان لك ان تقتله ، ها ؟

– مَنْ ؟ جندى الرشاش ؟
– نعم .
– بالطبع .
– اتريد ان تنام ؟
– لا يهم . يمكن بدون ذلك .
– هزنى ، اذا غفوت .

كانت القطرات تتساقط ببطء على الاوراق المتفسخة وعلى يده ، وعلى سطح قبعتــه . كانت هذه القطرات بعــد الضجيج والصيحات ، واللغط المقرف ، بعد قتل جندى الرشاش تتساقط مثل كرات زجاجية صغيرة . تتساقط فى الظلام ، فى اعماق الغابة ، حيث تتصاعد رائحة الاوراق المتفسخــة . وكان الحفيف يذود النوم عن عينيــه المنطبقتين ... لا ، لا يجوز ... لايجوز ... وفتح ايفان ايليتش بقوة عينيه المنطبقتين ، ورأى خطوط الاغصان غير الواضحة ، وكأنها خطوط مرسومة بفحم ... ولكن من الحمق ايضا الاستمرار باطلاق النار طوال الليــل ... دعوا المتطوعين ينالون شيئا من راحة ... ثمانية قتلى ، واحد عشر جريحا ... طبعا يجب ان يكون الانسان حذرا فى الحرب ... آه ، داشا ، داشــا . والقطرات الزجاجية ستشيع السكينة فى النفس ، وتواسى ...

– ايفان ايليتش ! ..
– نعم ، نعم ، زوبتسوف ، لست نائما ...
– اليس من الخطا قتل الانسان ؟ .. اغلب الظن ان له بيتا ، وعائلة مهما تكن ، بينما غرزت الحربة فيه ، وكأنمــا اغرزها فى دمية انسان وقضى الامر . عندما قضيت لاول مرة فى حياتى على انسان ، لم استطع ان اذوق الطعام ، فقد شعرت بالغثيان ... اما الآن فانا اقضى على العاشر او التاسع ... شىء رهيب ها ؟ فهل هناك شخص يتحمل الخطيئة ؟
– اية خطيئة ؟
– خطيئتى مثلا . اقول ، ان شخصا يتحمل خطيئتى – جنرالا او شخصا آخر فى بطرسبورغ يتصرف بكل هذه الامور ...
– واية خطيئة لك ، اذا كنت تدافع عن وطنك ؟
– وليكن ... ولكن يبدو ان هنــاك من يتحمل الذنب ،

فلنبحث عنـــه . ان من اطلق هذه الحرب ، هو الذى سيتحمل وزرها ... وسيحاسب عن هذه الامور بشدة ...

رن فى الغابة صوت اطلاقة حاد . وجفل تليغين وصدرت عدة اطلاقات اخرى من الجانب الآخر .

وكان الامر يبدو اشد غرابة لان العدو لم يكن على احتكاك معهم منذ المساء . هرع تليغين الى التلفون . اخرج جندى التلفون رأسه من الحفرة .
– الجهاز لا يعمل ، يا حضرة الضابط .

والآن راحت الطلقات تتردد تترى فى الغابة كلها وترتطم الرصاصات فى الاغصان . تراجعت النقاط الامامية واخذت ترد على النار وظهر المتطوع كليموف قرب تليغين ، وقال بصوت وحشى غريب : «انهم يطوقوننا ، يـا حضرة الضابط» وقبض على وجهه ، وجلس على الارض ، ثم انطرح عليهـــا . وصرخ شخص آخر فى الظلام :
– يا اخوان ، انا اموت .

لمح تليغين بين جذوع الاشجار قامات المتطوعين الفارعــة الساكنة . وكانوا جميعا يتجهون بابصارهم اليه وقد احس بذلك . امر بان ينسلوا كل واحد على حدة الى شمال الغابة ، الجهة التى لم تطوق بعد ، فى اغلب الاحتمال . وسيبقى هو يقــاوم هنا ، فى الخنادق مع من يريد ان يبقى ، قدر ما تمكن المقاومة .
– المطلوب خمسة اشخاص ، فمن يرغب ؟

خرج من الاشجار زوبتسوف ، وسوسوف ، والشــــاب كولوف ، واتجهوا نحوه . التفت زوبتسوف وصاح :
– بقى اثنان ! ريابكين ، تعال .
– حسنا ، يمكننى ...
– الخامس ، الخامس .

نهض من الارض جندى قصير القامــة يرتدى فروة خروف وقبعة شعثاء :
– ربما انا ايضا .

واستلقى الستة وبين الواحد والآخر زهاء عشرين خطوة ، وراحوا يطلقون النار . واختفت الاشباح وراء الاشجار . افرغ ايفان

ايليتش بضع علب من الخراطيش وفجأة تراءى له بوضوح بالغ كيف ان الرجال ذوى المعاطف الزرق سيقلبون فى صباح الغد جثته المكسرة على ظهرها ، ويأخذون بتفتيشه ، وتمتد يد قذرة وراء القميص .

وضع بندقيته ، وحفر فى الارض الرطبة ، واخرج رسائل داشا ، وقبلها ، ووضعها فى الحفرة التى حفرها ، وطمرها ، وفرش فوقها اوراقا متفسخة . وفجأة سمع صوت سوسوف الى يساره : «اوى ، اوى ، يا اخوان !» لقد بقيت علبتان من الخراطيش .

زحف ايفان ايليتش نحو سوسوف المطرق برأسه واستلقى الى جانبه ، وتناول علبتين من حقيبته . والآن لم يبق احد يطلق النار غير تليغين وشخص آخر الى يمينه واخيرا انتهت الخراطيش . انتظر ايفان ايليتش ، ونظر فيما حوله ، ونهض ، واخذ ينادى على اسماء المتطوعين . ولم يرد على ندائه الا اسم واحد ، وتقدم كولوف منه معتمدا على بندقيته . سأل ايفان ايليتش :

– هل عندك خراطيش ؟
– لا .
– والآخرون لا يردون ؟
– لا ، لا .
– حسنا ، لنذهب . اركض .

القى كولوف بندقيته على ظهره ، وركض متخفيا وراء الاشجار . اما تليغين ، فما ان خطا عشر خطوات حتى احس بوخزة اصبع حديدية كليلة على كتفه من الخلف .

١٧

وتبين انها عتيقة بالية كل التصورات التى تصور الحرب هجوما جريئا للفرسان ومسيرات غير عادية ، ومآثر بطولية للجنود والضباط .

ان الهجوم الشهير لحرس الفرسان ، حين اجتازت ثلاث سرايا

مترجلة ، حواجز الاسلاك الشائكة دون ان تطلق رصاصة واحدة ، وعلى رأسها آمر الفوج الأمير دولغوروكوف الذى كان يتخطى تحت نيران الرشاشات والسيغار فى فمه ، ولسانه يرسل الشتائم باللغة الفرنسية كالعادة ، ان هذا الهجوم قد ادى الى ان يفقد حرس الفرسان نصف عدده ما بين قتيل وجريح ، ليستولى على مدفعين ثقيلين تبين انهما قد عطلا بسبب قدمهما ، وانهما كانا محميين برشاش واحد فقط .

وقد قال ضابط سرية قوزاقية فى هذا الصدد : «لو وُكل الأمر الىّ لاستوليت على هذه النفاية بعشرة من القوزاق» .

واتضح من الشهور الاولى ان لا فائدة من شجاعة الجندى السابق ، اى الرجل البطولى الضخم ذى الشاربين الذى يجيد العدو على الفرس وفلق الهام بالسيف دون ان يهاب الرصاص . فقد صار التكتيك وتنظيم المؤخرة يحتلان الصدارة فى الحرب . وطُلب من الجنود ان يموتوا بصلابة وطاعة فى الاماكن المحددة على الخريطة . ونشأت الحاجة الى عساكر مقتدرين على الاختفاء ، والتخندق فى الارض ، والتلاشى مع لون الغبار . ونُسخت كليا القواعد العاطفية التى وضعها مؤتمر لاهاى حول ما يجوز وما لا يجوز فى القتل . وتشتتت مع هذه الورقة الممزقة بقايا الأصول الخلقية التى لم تعد لأحد حاجة اليها .

وهكذا فان الحرب قامت ، خلال بضعة شهور ، بعمل قرن كامل . وحتى ذلك الحين كان الكثيرون ما يزالون يعتقدون بان الحياة الانسانية تحكمها قوانين الخير السامية . وان الخير منتصر على الشر فى آخر المطاف لا محالة وستبلغ الانسانية الكمال . ولكن لقد كان ذلك من بقايا القرون الوسطى التى اوهنت الارادة ، واعاقت سير الحضارة . والآن ، اصبح واضحا حتى للمثاليين الراسخين فى المثالية ان الخير والشر هما مفهومان فلسفيان محض ، وان العبقرية الانسانية قد دخلت فى خدمة سيد خبيث . . .

لقد كان ذلك زمنا اُوحى فيه حتى للاطفال الصغار ان القتل والتدمير والقضاء على امم بكاملها هى افعال شجاعة مقدسة . وكانت الصحف بملايين النسخ تردد ذلك يوميا وتزعق به وتدعوا اليه . وكان خبراء خصوصيون يتنبأون كل صباح بنتائج المعارك . وكانت

الصحف تنشر تنبؤات المتنبئة الشهيرة مدام تيب . وظهر العديد من العرّافات والعرّافين والمنجمين والعارفين بالغيب . ونقصت البضائع ، وارتفعت الاسعار ، وتوقف تصدير الخامات من روسيا . وكانت ثلاثة موانئ في الشمال والشرق – وهي المنافذ الوحيدة الباقية للبلاد المغلقة والمنعزلة انعزالا تاما – لا تستقبل غير القذائف واسلحة الحرب . واهملت زراعة الحقول . وشاعت المليارات من العملة الورقية في الريف حتى صار الفلاحون يبيعون القمح بلا رغبة .

في المؤتمر السري المنعقد في استوكهولم لاعضاء العصبة الصوفية السرية لانصار «الحكمة الانسانية» قال مؤسس هذه الجماعة ان الصراع الرهيب الذي يجري في الاجواء العليا قد انتقل الى الارض الآن ، وستحدث كارثة عالمية ، وستكون روسيا ضحية للتكفير عن الاوزار . وبالفعل كانت جميع الافكار العقلانية تغرق في اقيانوس من الدم يغمر خط الجبهة الهائل الممتد ثلاثة آلاف فرسخ والذي يطوق اوربا . وما من عقل كان قادرا على ان يوضح لماذا تدمر الانسانية نفسها في عناد بالحديد والديناميت والمجاعة . ان دمامل متقيحة تعود الى الزمن الغابر كانت تنفجر . كان الجميع يعاني تركة الماضي . ولكن حتى هذا لم يكن ليوضح شيئا .

وبدأت المجاعة في اقطار . وتوقفت الحياة في كل مكان . واخذت الحرب تبدو الفصل الأول فقط من تراجيديا .

وأمام هذا المشهد كان الفرد الذي اعتُبر الى فترة وجيزة «عالما صغيرا» وشخصا متضخما ، كان كل فرد يتضاءل ويتحول الى ذرة غبار لا حول لها . وخرجت الجماهير البدائية الى اضواء المسرح التراجيدي لتحل محله .

وكان حظ النساء اثقل الحظوظ . لقد كانت كل واحدة منهن وفق ما خصت به من جمال وسحر وذكاء ، قد نسجت لنفسها شبكة عنكبوتية من خيوط دقيقة متينة بما فيه الكفاية بالنسبة للحياة الاعتيادية . وكان كل من كتب له ان يسقط فيها يطن طنينا مسليا على اية حال .

الا ان هذه الحرب قد هتكت هذه الشبكات ايضا . وكان من المستحيل حتى التفكير في نسجها من جديد في ذلك الزمن القاسي .

فلا بد من انتظار ازمان افضل . فظلت النساء ينتظرن بصبر ، وكان الزمن ينقضي ، واعوام النساء المعدودة تمضي قاحلة حزينة .

اصبح الازواج والعشاق والاخوان والابناء – الذين صاروا الآن مجرد ارقام ، وحدات تجريدية محض – يرقدون تحت حدبات ترابية في الحقول على مشارف الغابات ، وعند الطرق . وكان من المستحيل على اية جهود ان تزيل الغضون الجديدة المتزايدة من وجوه النساء الشائخة قبل الاوان .

١٨

– قلت لأخي : انك جامد العقيدة . انا اكره الاشتراكيين الديموقراطيين ، سيتعذب الشخص في حكمكم ، اذا زل في كلامه . انت انسان نجمي . عندئذ طردني من البيت . وها انا في موسكو بلا نقود . انها لقضية مسلية جدا . ارجوك ، يا داريا دميترييفنا ان تطلبي الى نيقولاي ايفانوفيتش ان يجد لي عملا . وسيان عندي اي عمل ، وافضل كل شيء ، بالطبع ، ان يكون في قطار الاسعاف .

– حسنا ، سأقول له .

– ليس لي احد من المعارف هنا . هل تذكرين «مجمعنا المركزي» ؟ يقولون ان فاسيلي فنيامينوفيتش فاليت تدحرج الى مكان ما ، يبدو في الصين . . . سابوجكوف في مكان ما في الجبهة ، وجيروف في القفقاس يحاضر عن المستقبلية . وانا لا اعرف اين تليغين . يبدو انك كنت من معارفه المقربين ؟

سارت يلزافيتا كييفنا وداشا ببطء في شارع جانبي بين اكوام الثلج العالية . وكان الثلج يتساقط ندفا صغيرة ، ويهس تحت الاقدام . اخرج سائق زلاجة واطئة حذاءه اللبادي المتصلب من مقعده ، ومر في عدو بطيء . وقال :

– اوانس ، حذار من السحق !

في ذلك الشتاء تساقط الثلج بوفرة كبيرة . وكانت اغصان الزيزفون في ذلك الشارع تتدلى وهي مغطاة بالثلج . وكانت السماء البيضاء الثلجية بكاملها حافلة بالطيور . وكانت غربان الكنيسة تطير فوق المدينة ناعبة وباسراب متناثرة ، وتحط على الابراج والقباب ، وتحلق في العلو الزمهريري .

توقفت داشـا عند منعطف ، وعدّلت لفاعهـا الابيض . وكان معطفها من جلد عجل البحر وموفة اليدين الفرائية قد تغطيا بالثلج . وكان وجهها قد اصابه نحول ، وعيناها قد اتسعتا وازدادتا صرامة . قالت :

– ايفان ايليتش مفقود . وانا لا اعرف شيئا عنه .

ورفعت داشا عينيها ، ونظرت الى الطيور . لا بد ان الغربان كانت جائعة فى المدينة المكسوة بالثلج .

وقفت يلزافيتا كييفنا وعلى شفتيها الحمراوين جدا ابتسامـة متجمدة ، واطرقت براسها المعتمر بقبعـة اُذنيـة . وكانت ترتدى معطفا رجاليا ضيقا عليها عند النهدين ، ذا ياقة فرائيـة مفرطـة فى عرضها ، وكمّين قصيرين لا يغطيان يديها المحمرتين . وكانت بعض ندف الثلج تذوب على رقبتها المصفرة قليلا .

قالت داشا :

– سأتحدث هذا اليوم مع نيقولاى ايفانوفيتش .

– انا اقبل باى عمل – قالت يلزافيتـا كييفنـا ، ونظرت الى قدميها ، وهزت راسها – لقد احببت ايفان ايليتش حبا شديدا ، حبا شديدا جدا – وضحكت ، واغرورقت بالدموع عيناهـا القصيرتـا النظر – اذن ، سآتى غدا . الى اللقاء .

ودّعت ، وانصرفت تخطو خطوات عراضا بحذائهـا اللبادى ، حاشرة يديها المتجمدتين فى جيبيها كما يفعل الرجال .

نظرت داشـا فى اثرها ، ثم قطبت حاجبيهـا ، واستدارت فى المنعطف ، ودخلت الفيـلا الذى تستخدم الآن مستشفى عسكريـا للمدينـة . هنا ، فى غرف الفيلا العاليـة السقوف ، المغطاة بخشب البلوط ، الفوّاحـة برائحـة اليود كان الجرحى الحليقـو الرؤوس منطرحين على اسرة او قاعدين ، وقد ارتدوا ثياب المستشفى . وكان اثنان يلعبان الداما عند النافذة . وكان شخص آخر يذرع الغرفة من ركن الى ركن وهو يمس الارض بنعليـه مسا رقيقـا . وحين ظهرت داشا القى عليها نظرة سريعة وغضّن جبينـه المنخفض ، واستلقى على سريره ملقيا يديه وراء راسه .

نادى صوت واهن :

– يا ممرضة !

اقتربت داشـا من شـاب ضخم منتفخ ذى شفتين سميكتين . فقال هذا متأوها بعد كل كلمة :

– اديرينى على الجنب الايسر ، بحق المسيح .

امسكته داشا ، ورفعته بكل قوتها ، وقلبته كالزكيبة .

– حان وقت قياس حرارتى ، يا ممرضة .

نفضت داشا محرارا ، وحشرته تحت ابطه .

– انا اتقيأ ، يا ممرضة . ما ان آكل كسرة خبز حتى افرغ كل شىء . كل هذا فوق طاقتى .

غطته داشا ببطانيـة ، وانصرفت عنـه . لاحت ابتسامات على وجوه المرضى فى الاُسرة المجاورة ، وقال احدهم :

– انه يتظاهر من اجلك ، والا فهو معافى كالثور .

وقال صوت آخر :

– اتركوه يضطرب فهو لا يؤذى احدا . انه شغل للممرضـة ومتعة له .

– يا ممرضـة ، هذا سيمين يريد ان يسالك عن شىء ولكنـه يستحى .

تقدمت داشا من رجل كان قاعدا على سريره له عينان مرحتان مستديرتـان كعيون الغربان ، وفم صغير كفـم الدب . وقـد مشط لحيته الضخمة المستديرة كالمروحة . رفع لحيته ، ومط شفتيه باتجاه داشـــا .

– انهم يضحكون ، يا ممرضة . انا مرتاح من كل شىء ، ممتن تماما .

ابتسمت داشا . وزايل قلبها الثقل' الذى كان يجثم عليه قبل حين . جلست على حافة سرير سيمين . طوت كُمّ الجريح ، واخذت تعاين ضمادته . فراح هذا يصف لها مواضع الالم فيه بالتفصيل .

كانت داشـا قد وصلت الى موسكو فى تشرين الاول ، حين دخل نيقولاى ايفانوفيتش فى فرع موسكو من الاتحاد البلدى للدفاع محمولا بدوافع وطنية . وقد اعطى شقته فى بطرسبورغ الى انجليز من البعثة العسكريـة ، وعاش مع داشا فى موسكو حياة بسيطـة ، فكان يرتدى سترة من الشموا ، ويشتـم المثقفيـن الناعميـن ، ويعمـل كالحصان ، على حد تعبيره .

وكانت داشا تدرس القانون الجزائى ، وتقوم بشؤون المنزل الصغير ، وتكتب لايفان ايليتش كل يوم . وكانت مطمئنة النفس مستورة . وبدا الماضى بعيدا وكانه يعود الى حياة شخص آخر . كانت وكانها تعيش بنصف وجودها مفعمة بالقلق وانتظار الاخبار ، والحرص على ان تحفظ نفسها لايفان ايليتش فى طهارة وصرامة .

فى بداية تشرين الثانى ، وبينما كانت داشا تقلب صحيفة «الكلمة الروسية» وهى تحتسى قهوتها رات اسم تليغين فى قائمة المفقودين . كانت القائمة تشغل عمودين ببنط صغير . مرّت داشا على اسماء الجرحى ، واسماء القتلى ، ورات اسم تليغين الملازم الثانى فى آخر قائمة المفقودين .

وهكذا كان النبأ الذى سوّد كل حياتها لا يشغل الا سطرا واحدا من البنط الصغير .

وشعرت داشا بان كل هذه الحروف الصغيرة ، والسطور الجافة ، والاعمدة والعناوين تمتلىء بالدم . كانت هذه لحظة من الرعب لا توصف ، فقد تحولت صفحة الجريدة الى الشىء الذى كانت تكتب عنه ، الى كتلة شريرة دامية تفوح بالموت ، وتزار باصوات خفية .

هزّت القشعريرة داشا . وحتى ياسها غرق فى هذا الرعب الحيوانى والغثيان . انطرحت على الاريكة ، وغطت نفسها فى معطفها .

جاء نيقولاى ايفانوفيتش عند الغداء ، وجلس عند قدمى داشا ، ومسد عليهما صامتا ، قائلا :

— انتظرى ، يا داشا ، المهم ان تنتظرى . انه مفقود ، والظاهر انه وقع فى الاسر . وانا اعرف الف حالة مشابهة .

وفى الليل رات فى حلمها رجلا فى قميص جندى جالسا على سرير حديدى فى حجرة فارغة ضيقة يغطى نافذتها نسيج العنكبوت والغبار . وكان وجهه الرمادى يتلوى من الالم . وكان يشد على جمجمته الصلعاء بكلتا يديه ، ويقشرها وكانها بيضة ، وياخذ ما تحت القشرة وياكله ، داسا اصابعه فى فمه .

صرخت داشا فى الليل صرخة جعلت نيقولاى ايفانوفيتش يجد نفسه عند سريرها مغطى ببطانية ، وقضى وقتا طويلا قبل ان يقنعها على ان تقول ما حصل . ثم وضع قطرات الناردين فى قدح ، وقدمه لتشربها داشا ، وشرب هو ايضا .

كانت داشا ، وهى جالسة على سريرها ، تدق صدرها باصابعها المضمومة ، وتقول بخفوت ويأس :

— لا استطيع ان اعيش بعد الآن . افهمنى ، يا نيقولاى ، لا استطيع ، ولا اريد .

كان من الصعب جدا ان تعيش بعد ما حدث ، ومن المستحيل ان تعيش كما كانت تعيش قبل هذا .

مست الحرب داشا باصبعها الحديدية لا غير ، والآن صار كل الموت وكل الدموع من نصيبها . وحين مرّت الايام الاولى من اليأس الحاد اتخذت داشا الشىء الوحيد الذى تستطيع ان تفعله : اجتازت الدورة المستعجلة للممرضات ، واشتغلت فى مستشفى عسكرى .

فى بادىء الامر واجهت صعوبة كبيرة . فقد كان ياتى من الجبهة جرحى لم يغيروا ضماداتهم اياما عديدة ، وكانت ضمادات الشاش ترسل رائحة كريهة تبعث الدوار فى الممرضات . واثناء العمليات كان على داشا ان تمسك بالارجل والايدى المسودة التى كان يتساقط من جراحها قطع متخثرة من الدم والقيح ، وعرفت كيف يكز الرجال الاقوياء على اسنانهم ، وترتعش اجسامهم عاجزة عن تحمل الالم .

وكانت تلك العذابات من الكثرة بحيث لم تكن تكفيها كل الرحمة الموجودة فى هذه الدنيا لتشفق عليها . بدا لداشا انها قد ارتبطت الى الابد بهذه الحياة المشوهة المدماة ، ولا حياة اخرى غيرها . كانت ظليلة المصباح الخضراء تشتعل فى حجرة الخفارة الليلية ، وتترامى من وراء الجدار تمتمة شخص فى هذيانه . وكانت القوارير تصطك على الرف حين تمر سيارة فى الشارع . ويصبح هذا الانسحاق جزءا من الحياة الحقيقية .

وكانت داشا تسترجع الماضى ، وهى جالسة الى منضدة فى حجرة الخفارة ليلا ، فيلوح لها كالحلم فى وضوح متزايد . لقد عاشت ، كما عاش الجميع ، مفتونة بنفسها ، متعالية . واذا بها تجد نفسها تهبط من السحب لتسقط فى الدم ، فى الوحل ، فى هذا المستشفى العسكرى ، حيث رائحة الجسد العليل وحيث يئن الناس فى نومهم انينا ثقيلا ، ويهذرون ويتمتمون . وها هو الجندى التترى يحتضر ، وبعد عشر دقائق سيتعين عليها ان تذهب اليه وتحقنه بالمورفين .

اقلق داشا لقاؤها اليوم مع يلزافيتا كييفنا . كان اليوم متعبا ، فقد جلبوا من غاليسيا جرحى مثخنين ، حتى اضطروا الى قطع كف احدهم من الرسغ وبتر ذراع آخر من الكتف ، وكان اثنان منهم يهذيان هذيان الاحتضار . وقد تعبت خلال اليوم ، ومع ذلك فقد ظلت ايلزافيتا كييفنا عالقة فى ذهنها بيديها المحمرتين ، ومعطفها الرجالى ، والابتسامة البائسة ، والعينين الوديعتين .

جلست داشا فى المساء لتستريح ، وحدقت فى الظليلة الخضراء ، وفكرت فى ان تكون تلك المقدرة على البكاء فى منعطف الطريق ، وعلى القول لشخص غريب : «احببت ايفان ايليتش حبا شديدا ، حبا شديدا جدا ...»

قعدت داشا على مقعد كبير مائلة الى جنب تارة ، وضامة رجليها تارة اخرى ، وفتحت كتابا – هو تقرير عن «نشاط الاتحاد البلدى» خلال ثلاثة اشهر – اعمدة من الارقام والكلمات غير المفهومة كليا ، ولكنها لم تجد فى الكتاب سلوى . نظرت الى الساعة وتنهدت ثم مضت الى غرفة الجرحى .

كان الجرحى نائمين ، والهواء خانقا . وكان مصباح شاحب الضوء موضوع داخل طوق الثريا الحديدى ، يشتعل على ارتفاع عال تحت السقف البلوطى . وكان الجندى التترى الشاب الذى بترت ذراعه يهذى مقلبا رأسه الحليق على الوسادة . رفعت داشا قارورة الثلج من الارض ، ووضعتها على جبينه الملتهب ، وعدلت بطانيته . ثم طافت على الاسرة كلها وجلست على مقعد منخفض ، طاوية يديها على ركبتيها .

وقالت لنفسها «ان قلبى غير متمرن . تعلم فقط ان يحب الرشيق والجميل . ولم يتعلم ان يشفق ويحب ما لا يحب» . وسمعت صوتا رقيقا يقول : اتريدين ان تنامى يا ممرضة ؟ فالتفتت . كان سيمين ذو اللحية ينظر اليها من سريره .

سالته داشا :

– لماذا غير نائم ؟

– نمت فى النهار .

– هل توجعك يدك ؟

– هدات ... يا ممرضة .

– نعم ؟

– ان وجهك يبدو صغيرا . العلك تريدين النوم ؟ اذهبى لتاخذى غفوة ! وساراقب انا ، وادعوك اذا دعت الحاجة .

– لا ، لا اريد النوم .

– هل لديك اقارب فى الجبهة ؟

– خطيبى .

– يحفظه الله .

– انه مفقود .

– آى ، آى – وهز سيمين لحيته ، وتاوه – اخى الصغير كان مفقودا ، وبعد ذلك تلقينا رسالة منه . انه اسير . وهل خطيبك رجل طيب ؟

– طيب جدا جدا .

– ربما سمعت به . ما اسمه ؟

– ايفان ايليتش تليغين .

– سمعت . انتظرى على مهلك . لقد سمعت انه وقع فى الاسر . فى اى فوج ؟

– فوج قازانسكى .

– انه بالذات اسير ، وحى يرزق . انه انسان طيب ! لا باس ، يا ممرضة ، ما عليك الا ان تنتظرى . ستنتهى الحرب مع اقتراب الربيع . ستتصالح . ستلدين له ابناء . ثقى بى .

استمعت داشا اليه ، والدموع فى حلقومها . وكانت تعرف ان سيمين يلفق كل شىء ، وهو لا يعرف ايفان ايليتش . ومع ذلك كانت ممتنة له . قال سيمين بصوت خفيض :

– آه ، يا مسكينتى ...

ولما عادت الى حجرة الخفارة ، وجلست على المقعد واضعة وجهها على ظهره . احست وكأنهم قد قبلوها معهم فى ود ، وهى الغريبة ، قائلين لها : ابقى معنا . وبدا لها انها الآن تشمل بحنانها كل الجرحى والنائمين . ومع حنانها وتصوراتها تخيلت فجأة وبوضوح شديد ان ايفان ايليتش هو ايضا ينام ويتنفس مثل هؤلاء على سرير ضيق فى مكان ما ...

اخذت داشا تروح وتجىء فى الحجرة .وفجأة رن التلفون وبعث

فى جسمها رعدة قوية . فقد كان رنينه حادا جدا وغليظا فى السكون الغاق . لا بد انهم جلبوا جرحى آخرين فى القطار الليلى .

– نعم .

ردّت داشا ، فسمعت فى السماعة صوتـــا نسائيا رقيقــا منفعلا :

– اريد ان اكلم داريا دميترييفنا بولافينا .

– هذه انا – ردّت داشا ، وخفق قلبها خفقانا شديدا – من انت ؟ . . كاتيـــــا ؟ . . . . كاتيوشـــا ؟ اهذه انت ؟ . . . عزيزتى ! . .

١٩

– هـا نحن سويـة من جديد ، يا فتيـات – قـال نيقولاى ايفانوفيتش ، ساحبا سترته الشموا على بطنه وامسك حنك يكاترينا دميترييفنا ، وقبلها من خدها قبلـة رنانة قائلا : – صباح الخير ، يا حلوة ، كيف نمت ؟

ومرّ بداشا جالسة على مقعدها ، فقبلها من شعرها .

– انـا وهى الآن على اتـم وفاق ، يا كاتيوشا . انهـا فتاة رائعة ، محبة للعمل .

وجلس الى المائدة المغطـاة بمفرش ناصع البياض ، وقرب منه كاس البيضة الصينيـة التى وضعت فيها بيضـة ، واخذ يكسر راسها .

– تصورى ، يا كاتيوشا ، اننى احببت البيض على الطريقة الانجليزيـة مـع الخردل والزبدة ، فانـه لذيذ جدا . انصحك بـان تجربيه . اما فى المانيـا فيعطون لكل فرد بيضة واحدة مرتين فى الشهر . فما رايك فى ذلك ؟

وفتح فمه الواسع ، وضحك .

– ان هذه البيضة ذاتها ستتسبب الخراب لالمانيا . يقولون ان الاطفال اخذوا يلدون عندهــم بلا جلود . كان بسمارك يقول لهؤلاء الحمقى يجب ان يعيشوا مع روسيا فى سلام . ولم يصغوا ، واحتقرونا . والآن تفضلوا ، بيضتان فى الشهر .

قالت يكاترينا دميترييفنا ، وهى تخفض راسها :

– انه لشىء مريع ان يولد الاطفال بلا جلود ، مريع اينما ولد هؤلاء الاطفال ، سواء عندنا او عند الالمان .

– اعذرينى ، يا كاتيوشا ، انت تتكلمين سخافة .

– انا اعرف فقط ان من الفظاعة ان يقتل الناس كل يوم ، فظاعة مريعة تسلبك الرغبة فى ان تستمر فى العيش .

– وما العمل ، ياعزيزتى ؟ ان المرء يضطر الى ان يفهم من معاناته الخاصة ما هى الدولة . كنـــا نقرا فقط عند ايلوفايسكى واضرابه من المؤرخين كيف قاتل الفلاحون دفاعا عن اراضيهم فى معارك كوليكوفو * وبورودينو ** . وكنـــا ننظر الى الخارطة ، ونقول لانفسنا : «آه ، ما اكبر روسيا !» . والآن علينـــا ان نقدم نسبة معينة من الحيوات للحفاظ على سلامـــة تلك التى تلون فى الخرائط باللون الاخضر ، وتمتد عبر اوربا كلها وآسيا . انه لشىء مقبض . سأتفق معك اذا قلت ان جهاز الدولة عندنا سيى‌ء . والآن ، حين اخرج لاموت فى سبيل الدولة فانا قبل كل شىء اسأل اولئك الذين يرسلوننى الى الموت : هل انتم ذوو القوة القاهرة لحكمة الدولة . وهل استطيـع ان اريق دمى بارتيـاح فى سبيل الوطن ؟ نعـــم ، ياكاتيوشا ، ما تزال الحكومة على عادتها القديمة فى النظر شزرا الى المنظمات الاجتماعية . ولكن اضحى واضحا انهـــا لا تستطيع الآن الاستغناء عنا ابدا . نحن نتدخل شيئا فشيئا فى شؤون الدولة . انا متفائل جدا .

ونهض نيقولاى ايفانوفيتش ، وتناول علبة كبريت من رف

---

* معركة كوليكوفو (عام ١٣٨٠) معركة تاريخية انتصرت فيها القوات الروسية بقيادة الامير دميترى دونسكوى على جحافل التتار تحت قيادة خان ماماى انتصارا عظيما (**المترجم**) .

** معركة بورودينو (عام ١٨١٢) من اعظم معارك الحرب الوطنية الروسية بين القوات الروسية تحت قيادة ميخائيل كوتوزوف والقـــوات الفرنسية بقيادة نابوليون الاول . وقد وقعت فى ضواحى موسكو واصبحت انعطافا فى سير الحرب لصالح القوات الروسية وحددت حتمية هزيمة جيش نابوليون . (**المترجم**) .

قشرة البيضة . وتابع كلامه قائلا : لن يذهب الدم المراق جزافا . الموقد ، واشعل سيكارته واقفا ، والقى عود الثقاب المنطفىء فى وستنتهى الحرب بان يقف وراء دفة الدولة اخونا ، رجل المجتمع . ستفعل الحرب ما اخفقت عن فعله جماعة «الارض والارادة» ، والثوريون والماركسيون . مع السلامة ، يا فتيات .

وعدّل سترته ، وخرج ، وبدا من ظهره مثل امرأة بدينة متنكرة بلباس رجالى .

تنهدت يكاترينا دميتربيفنا ، وجلست عند النافذة مع حياكتها . وجلست داشا الى جانبها على ذراع المقعد ، وطوقت كتفى اختها . كانت كلتاهما فى ثوب اسود عالى الرقبة ، انهما الآن فى جلستهما الصامتة الهادئة هذه متشابهتان جدا . كانت ندف الثلج الصغيرة تتساقط ببطء وراء النافذة ، وكان الضوء الثلجى الصافى ينعكس على جدران الغرفة . ضغطت داشا بخدها على شعر كاتيا المعطر قليلا بعطر غير مالوف لها .

– كاتيوشا ، كيف قضيت تلك المدة ؟ انك لا تحدثيننى بشىء .

– وعم احدثك ، ياقطيطة ؟ لقد كتبت لك .

– ومع ذلك ، فانا لا افهم . انك ، يا كاتيوشا ، جميلة ساحرة ، طيبة . انا لا اعرف امرأة اخرى على غرارك . ولكن لماذا لا تبدين سعيدة ؟ وعيناك دائما حزينتان ؟

– اظن ان قلبى تعيس ؟

– لا ، انا اسالك جادة .

– انا نفسى دائمة التفكير فى ذلك ، يا اختى . من المرجح ان الانسان حين يمتلك كل شىء يشعر بتعاسة حقيقية . ان لى زوجا طيبا ، واختا محبوبة ، وحرية . . . بينما اعيش وكاننى فى سراب ، واسير كالشبح . . . اتذكر اننى قلت لنفسى فى باريس : ليتنى اعيش فى بلدة صغيرة نائية ، واربى الدواجن ، وازرع الحديقة بالخضروات ، وفى المساء التقى بصديقى العزيز وراء النهر . . . لا ، يا داشا ، ان حياتى قد انتهت .

– لا تتفوهى حماقة ، يا كاتيوشا .

نظرت كاتيا الى اختها بعينين فارغتين شابتهما دكنة :

– اتعرفين اننى اتحسس ذلك اليوم نفسه . واحيانا يتراءى لى بوضوح تلك الفرشة المخططة ، والمفرش المنزلق ، والحوض المملوء بالصفراء التى تقيأتها . . . وانا ارقد ميتة ، صفراء ، شائخة . . .

وانزلت يكاترينا دميتربيفنا طرة الحياكة الصوفية ، وحدقت فى ندف الثلج المتساقطة فى السكون الراكد . وفى البعيد ، من تحت برج الكرملين المستدق ، من تحت النسر الذهبى المقوس الساقين كانت الغربان تحوم مثل سحابة من الاوراق السوداء .

– اتذكر ، يا داشا ، اننى استيقظت مرة فى ساعة مبكرة جدا من الصباح . وكانت باريس تبدو من الشرفة ملفعة كلها بدخان مزرق ، ومن كل مكان فيها كانت تتصاعد ادخنة بيضاء ورمادية وزرقاء . وكان المطر قد هطل اثناء الليل ، وفى الجو رائحة طراوة وخضرة وفانيليا . وفى الشارع سار اطفال يحملون كتبا ، ونساء مع سلالهن ، وقد فتحت حوانيت الاطعمة ابوابها . وبدا ذلك ثابتا وسرمديا . وراودتنى الرغبة فى ان انزل الى الاسفل ، واختلط بالجمع ، والتقى برجل ذى عينين ودودتين ، واضع يدى على صدره . ولكن عندما نزلت الى الشوارع العريضة ، كان الجنون قد شمل المدينة كلها . كان باعة الصحف يركضون ، وجماهير الناس المضطربة فى كل مكان . والصحف كلها تتشبع برعب وموت وكراهية . لقد بدأت الحرب . ومنذ ذلك اليوم لم اسمع غير كلمة . . الموت ، الموت . . . فعلام التعويل بعد كل هذا ؟ . .

صمتت داشا قليلا ، ونادت :

– كاتيوشا . . .

– ماذا ، يا حبيبتى ؟

– كيف انت مع نيقولاى ايفانوفيتش ؟

– لا اعرف . يبدو ان احدنا صفح للآخر . انظرى لقد مرت ثلاثة ايام ، وهو رقيق جدا معى . لا مكان للحسابات النسائية . ومن يهتم بالمرأة حتى اذا فقدت عقلها مما تعانى من عذاب ؟ صوتى كطنين بعوضة ولا اكاد اسمعه . انا احسد العجائز ، فهن يأخذن كل شىء ببساطة : الموت قريب منهن ، لهذا فهن يتهيأن للقائه .

غيّرت داشا جلستها على ذراع المقعد ، وزفرت زفرات

عميقة ، وانزلت ذراعها عن كتفى كاتيا ، قالت يكاترينا دميترييفنا برقة :

– عزيزتى داشا ، لقد اخبرنى نيقولاى ايفانوفيتش بانك مخطوبة . صحيح ؟ يا عزيزتى المسكينة ! وتناولت يد داشا ، وقبلتها ، ووضعتها على صدرها ، واخذت تمسدها قائلة : انا اعتقد بان ايفان ايليتش حى . اذا كنت تحبينه جدا ، فانت فى غير حاجة الى شىء آخر فى الدنيا .

صمتت الشقيقتان مرة اخرى محدقتين فى الثلج المتساقط وراء النافذة . مرّت فى الشارع فصيلة من طلاب المدارس العسكرية تتزلق احذيتهم بين اكوام الثلج ، وكان كل واحد منهم يتأبط ليفة من اغصان البتولا وتبديلة ثياب داخلية . كانوا ذاهبين الى الحمام وكانوا ينشدون نشيدا بحنجرة فقط يتخلله الصفير :

حلقى ، يا صقور ، كالنسور
كفانا الحزن والكمد ...

بعد غياب عدة ايام عادت داشا مرة اخرى الى العمل فى المستشفى العسكرى . وبقيت يكاترينا دميترييفنا وحدها فى الشقة التى كان كل شىء فيها غريبا عليها : منظران طبيعيان مملان معلقان على الحائط يصوران كومة دريس ، وماء متخلف من ثلج ذائب يتجمع بين اشجار البتولا الجرداء . وفوق الاريكة فى غرفة الطعام صور فوتوغرافية لاناس لا تعرفهم ، وفى الزاوية حزمة من عشب السهب المغبر .

حاولت يكاترينا دميترييفنا ان تذهب الى المسرح ، حيث كان الممثلون القدامى يمثلون مسرحيات لاوستروفسكى ، والى معارض الصور والمتاحف ، الا ان كل ذلك بدا لها شاحبا ناصل الالوان ، نصف ميت ، وبدت هى لعينيها شبحا يطوف فى عالم هجره جميع الاحياء منذ زمان .

كانت يكاترينا دميترييفنا تقضى ساعات بكاملها جالسة عند النافذة بالقرب من انابيب التدفئة المشعة دفئا ، تنظر الى موسكو الثلجية الهادئة ، حيث كان رنين اجراس الكنائس الحزين يتردد فى الهواء الرقيق ، ومن خلال الثلج المتساقط ليعلن عن صلاة

تذكارية ، او عن جناز لقتيل جلب من الجبهة . كان الكتاب يسقط من يديها . فعمّ تقرأ الآن ؟ وبم تحلم ؟ وكم تبدو تافهة الآن جميع الاحلام والافكار السالفة !

وكان الوقت يمضى ما بين جريدة الصباح وجريدة المساء . وكانت يكاترينا دميترييفنا ترى جميع المحيطين بها يعيشون بالمستقبل وحده ، بايام تخيلية من النصر والسلام . وكان كل ما يعزز هذه التوقعات يستقبل بفرح غامر ، بينما كانت الاخفاقات تُسلم الناس الى الكآبة وتنكيس الرؤوس . وكان الناس كالمجانين فى تسقطهم للاشاعات ، ونتف العبارات ، والانباء غير المحتملة ، وفى التهابهم بما تنشره الصحف .

واخيرا قررت يكاترينا دميترييفنا ان تتحدث مع زوجها طالبة اليه ان يجد لها عملا . وفى بداية آذار بدأت العمل فى نفس المستشفى الذى كانت داشا تعمل فيه .

وفى الايام الاولى شعرت بما شعرت به داشا من نفور من القذارة والعذاب . الا انها تغلبت على نفسها ، واستأنست بالعمل تدريجيا . وقد بث هذا التغلب على نفسها الفرح فى اعطافها ، ولاول مرة احست بدنوها من الحياة المحيطة بها . واحبت العمل القذر المتعب ، واشفقت على الذين تعمل لهم . وذات مرة قالت لداشا :

– لماذا قالوا بوجوب ان نعيش حياة مصفاة غير اعتيادية ؟ نحن من حيث الجوهر ، امرأتان كبقية النساء . وبحاجة الى زوجين اكثر بساطة ، واطفال اكثر ، وعيشة اقرب الى الطبيعة .

فى اسبوع الآلام زارت الشقيقتان كنيسة نيقولا بقرب محطة رجيفسكى . واخذت يكاترينا دميترييفنا معها طعام عيد الفصح المعد للمستشفى لتباركه فى الكنيسة ، وفطرت مع داشا فى المستشفى . وكان على نيقولاى ايفانوفيتش ان يحضر اجتماعا استثنائيا فى تلك الليلة فجاء فى سيارة بعد الساعة الثانية ليلا لياخذ الشقيقتين من المستشفى . قالت يكاترينا دميترييفنا انها وداشا لا تشعران بنعاس ، وطلبت ان ياخذهما فى جولة فى السيارة . وكان ذلك غير معقول ، الا انهم قدموا للسائق قدح كونياك ، وذهبوا الى منطقة خودينسكويه بوليه ، فى اطراف موسكو .

كانت فى الجو لذعة من القرس برّدت الوجنات . والسماء خالية من الغيوم ، فيها القليل من النجوم المتلألئة . وكان الجليد يتكسر تحت عجلات السيارة . وكانت كاتيا وداشا تضغط احداهما على الاخرى فى مقعد السيارة العميق ، كانت كلتاهما فى منديل ابيض ومعطف فرالى رمادى . التفت نيقولاى ايفانوفيتش اليهما من مقعد الى جانب السائق – كانت كلتاهما سوداء الحاجبين واسعة العينين . فقال بصوت خفيض :

– اوه ، ياربى ، لا اعرف ايكما زوجتى .

اجابت واحدة منهما :

– لن تحزر .

وضحكت كلتاهما .

بدات حواف السمـــاء تخضوضر قليلا فوق الحقل الهائل المغبّش ، وفى البعيد لاحت معالم سوداء للغابة «سيريبريانى بور» .

قالت داشا خافتة الصوت :

– كاتيوشا ، كم اود ان اعشق !

فضغطت يكاترينا دميتريفنا على يدها ضغطة خفيفة . لمعت نجمة كبيرة فوق الغابـــة ، فى رطوبـــة الفجر الخضراء ، وتماوج لمعانها ، وكأنها تتنفس .

– نسيت ان اقـــول لك ، يـــا كاتيوشـــا – قال نيقولاى ايفانوفيتش ، واستدار على المقعد بكل جسمه . – قبل حين وصل مندوبنا المفوّض تشوماكوف ، وهو يقول ان الوضع فى غاليسيـــا حرج جدا . الالمان يقذفوننـــا بنار صاعقة ، حتى انهم يسحقون افواجا كاملة فى ضربة واحدة . ونحن نعانى نقصا فى القذائف . . . اللعنة ! . .

لم تجب كاتيـــا ، بـــل رفعت بصرهـــا الى النجوم . وضغطت داشا خدها على كتفهـــا بينما اطلق نيقولاى ايفانوفيتش لعنات اخرى ، وامر السائق بالعودة الى البيت .

فى اليوم الثالث من عيد الفصح شعرت يكاترينا دميتريفنا بتوعك ، ولم تخرج للخفارة ، ولزمت الفراش . وتبين انها مصابة بالتهاب الرئتين ، فلا بد ان بردا قد نفذ عميقا فى اوصالها .

٢٠

– تلك هى اوضاعنا ، بالغة السوء .

– كفاك بحلقة فى النار ، اذهب لتنام .

– تلك هى الاوضاع . . . آه ، يا اخوانى ، ان روسيـــا تضيع !

كان ثلاثة من الجنود يجلسون قرب نار آخذة بالهمود عند حائط طينى لزريبة مغطـــاة بسقف من القش مرتفع مثل كديسة تبن . كان احدهم يجفف لفافة ساقيه على اوتاد قرب النار ، ويراقبها لئلا تحترق . وكان الثانى يخيط رقعة على بنطالـــه ، ويسحب الخيط بحذر . اما الثالث ، وهو مجدر الوجه ، ذو انف كبير ولحية سوداء هزيلة الشعر ، فكان يحدق فى النـــار بعينين غائرتين ماخوذتين ، وقد طوى ساقيه وحشر يديه عميقا فى جيبى بنطاله . وقال بصوت خفيض :

– الخيانة فى كل مكان ، تلك هى المسالة . مـــا ان تبدأ قواتنا بالتفوق حتى تؤمر بالانسحاب . نحن لا نعرف الا ان نعلق اليهود على الاشجار ، بينما الخيانة تعشش فى القمة .

قال الجندى الذى كان يجفف لفافة الساقين :

– قرفت من هذه الحرب تماما ، ولكن لا توجد جريدة واحدة تكتب عن ذلك – ووضع عسلوجا على الجمر بحذر وتابع قوله : نزلنا نهاجم ، ثم انسحبنا ، وبعد ذلك عدنـــا الى الهجوم ، اوه ، اللعنة عليهم جميعا . وها نحن نعود الى موقعنـــا السابق بنفس الوضع ، بلا نفع ولا جدوى !

وبصق فى النار . وقال الجندى مرقع البنطال بضحكـة هازئـة دون ان يرفع رأسه من عمله :

– قبل حين جاء الملازم الاول جادوف الىّ . لا بأس . ربما من الضجر ضايقته الشياطين . فاخذ بدوره يضايقنى . ماسبب الثقب فى بنطالك ؟ ولمـــاذا تقف بهذا الشكل ؟ فاعتصمت بالصمت . وانتهى حديثنا بطريقة بسيطة جدا ، بلطمة على اسنانى .

ردّ الجندى الذى كان يجفف لفافة الساقين :

– لا بنادق ، ولا عتاد . وفى بطاريتنا لا توجد غير سبع قذائف لكل مدفع . فلا يبقى لهم الا الضرب على الاسنان .

نظر مرقع البنطال اليه مندهشا ، وهزّ راسه بتأييد . وقال الجندى ذو الشعر الاسود والعينين المخيفتين :

– استدعوا جميع الرجال ، وهم الآن يجندون الى سن الثالثة والاربعين . وبمثل هذه القوة يمكن اجتياح العالم كله . وهل نحن نرفض ان نقاتل ؟ شرط ان تؤدى واجبك ، مثلما نؤدى واجبنا .

هزّ مرقع البنطال راسه :

– تماما . . .

فقال اسود الشعر :

– لقد رايت حقلا قرب فارسوفيا كان يرقد على ارضه ما بين خمسة آلاف الى ستة آلاف مقاتل سيبيرى . وجميعهم قتلى ، مرتمين مثل احزمة من القش . فلماذا ؟ وما السبب ؟ ساقول لكم السبب . . . حين اخذ المجلس العسكرى يقرر هذا وذاك من الامور ، خرج احد الجنرالات من هناك فى الحال وبعث برقية سرية الى برلين . فهمت ؟ وخرج الفيلقان السيبيريان من محطة القطار واتجها قدما الى ذلك الحقل ، فاذا بهما يقعان تحت نيران الرشاشات المباشرة . وانت تحدثنى عن لطمة اصابت اسنانك . عندما كنت لا اركب النير على الحصان بشكل جيد ، كان ابى ياتى ويصفعنى على وجهى ، لكى يجعلنى اتعلم العمل احسن واشعر بالخوف . ولكن لاى شىء جندلوا المقاتلين السيبيريين كالخراف ؟ لقد قلت لكم ، يا اصحابى ، ان روسيا قد ضاعت . ونحن قد غدر بنا جميعا . غدر بنا فلاح هو من ابناء قريتى بوكروفسكويه ، صعلوك متشرد . ولا اريد ان اذكر اسمه . . . انه جاهل ، مشاكس يتصنع اللطافة ، ترك العمل ، واخذ يسرق الخيول ، ويتردد على الاديرة ، وتعلق بالنساء وشرب الخمور . . . وهو الآن فى بطرسبورغ يعيش كالقيصر يرقص حوله الوزراء والجنرالات ، نحن نقتل هنا بالآلاف ، ونرقد على الارض الرطبة ، بينما هم يسبحون فى الكهرباء فى بطرسبورغ ، ويشربون ، وياكلون ، وينفجرون سمنة .

وسكت فجاة . كان الصمت والرطوبة يلفان الجو . ثم ترامى من الزريبة صوت خيول تقضم باسنانها ، وارتطام احدها فى الجدار

ارتطاما خافتا . هبط طائر ليلى من وراء السقف نحو النار ، واختفى زاعقا زعيقا شاكيا . وفى تلك اللحظة صدر فى السماء البعيدة ، زئير هادر مقترب ، وكأن وحشا كان ينطلق بسرعة لا تصدق ، شاقا الظلام ببوزه ، وارتطم فى مكان ما ، وفى البعيد ، وراء الزريبة ، اندلع انفجار هزّ الارض هزا . ضربت الخيول الارض بحوافرها ، ورنت لجاماتها . قال الجندى مرقع البنطال مرتاعا :

– هذه هى الضربة !

– يا له من مدفع !

– انتظر !

رفع الثلاثة رؤوسهم . وصدر فى السماء الخالية من النجوم صوت ثان استمر حوالى دقيقتين ، ووقع الانفجار الثانى فى بقعة قريبة جدا وراء الزريبة ، وبرزت اشباح اشجار الشوح المخروطية ، واهتزت الارض مرة اخرى . وفى الحال سمعوا مسار القنبلة الثالثة . وكان صوتها متقطعا ثقيلا على السمع يجلب الانتباه ويجعل القلوب تتجمد فى الصدور . نهض الجندى ذو الشعر الاسود من الارض ، واخذ يتراجع . وانقض شىء من الاعلى وانزلق كالبرق الاسود ، واندفع الى الاعلى عمود نارى اسود بفرقعة مدوية .

وحين سقط العمود لم تبق الا حفرة عميقة فى المكان الذى كان فيه الجنود والنار . وكان السقف القشى يحترق مرسلا الدخان الاصفر فوق جدار الزريبة المنهار . اندفع حصان طويل العرف من اللهب شاخرا ، منطلقا نحو اشجار صنوبر كانت بارزة من الظلام .

وهناك ، وراء حواف السهل المسننة اخذت تبرق هالة النيران ، والمدافع تهدر ، وترتفع الصواريخ مثل ديدان طويلة ، فتطفىء نيرانها ، وهى تتساقط ، الارض الرطبة الداكنة . كانت القذائف تثقب السماء صافرة ، هادرة .

٢١

فى ذلك المساء ، وفى ملجأ للضباط يقع غير بعيد عن الزريبة ، كان ضباط احدى سرايا فوج اوسولسكى يقيمون حفلة بمناسبة تلقى النقيب تيتكين خبرا عن مولد طفل له . كان قبو

الملجأ الواطئ منغرزا عميقا فى الارض يحميه سقف ذو طبقات ثلاث ، وتضيؤه شموع مغروزة بزجاجات ، وقد جلس الى مائدة فيه ثمانية ضباط ، وطبيب ، وثلاث ممرضات من مستشفى الميدان .

شربوا كثيرا . وكان الاب السعيد ، النقيب تيتكين نائما ، وقد القى راسه فى صحن وضعت فيه فضلات الطعام وتدلت كفه القذرة على راسه الاصلع . وكانت الممرضات يبدون مليحات جدا بسبب انحباس الهواء ، والخمرة ، وضوء الشموع الناعم ، وكن يرتدين اثوابا رمادية ومناديل رمادية . كانت لاحداهن وتدعى موشكا ، عقصتان سوداوان من الشعر عند صدغيها ، وكانت تضحك دون كلل كاشفة عن حنجرة بيضاء . كان جاراها واثنان آخران يجلسان قبالتها يحدقون فيها بنظرات ثقيلة . وكانت الثانية ، ماريا ايفانوفنا ، بدينة تصل حمرة خديها الى حاجبيها ، تجيد اداء الاغانى الغجرية العاطفية بشكل مدهش . فكان المستمعون يخرجون عن اطوارهم ، ويضربون على المائدة ، مرددين : «آه ، اللعنة ، ما كان ابدعها من حياة !» اما ثالثة الجالسات الى المائدة فهى يلزافيتا كيبفنا . كانت اضواء الشموع تتفتت فى عينيها الى ذرات نارية صغيرة ، وتشع فيهما فترى الوجوه بيضاء من خلال الدخان ، ووجه جارها الملازم الاول جادوف وحده كان يبدو مخيفا وجميلا . كان رجلا واسع المنكبين ضخما ، حليقا وذا عينين شفافتين . وكان يجلس مستقيم الجذع ، ملفوفا بحزامه لفا قويا ، وقد افرط فى الشراب ، ولم يسكر بل امتقع لونه فقط . وحين كانت موشكا السوداء الشعر تتهافت من الضحك ، وماريا ايفانوفنا تتناول القيثار ، وتمسح وجهها بمنديل مدعوك ، وتغنى بصوت عميق حزين «ميلادى فى سهوب مولدافيا» كان جادوف يبتسم بطرف فمه ابتسامة بطيئة ، ويصب لنفسه مزيدا من الخمرة .

كانت يلزافيتا كيبفنا تحدق عن قرب فى وجهه الصافى الخالى من كل تغضن . وكان هو يسليها بحديث لبق وغير جدى . فقد روى لها ، مثلا ، ان نقيبا يدعى مارتينوف كان يخدم فى فوجهم اشتهر بانه كان جبريا يؤمن بالقضاء والقدر ، وبالفعل ، عندما كان يحتسى شيئا من الكونياك كان يخرج ليلا وراء الاسلاك الشائكة ، ويقترب من خنادق العدو ، ويشتم الالمان باربع لغات ، وقبل ايام دفع ثمن

غروره بان أصيب بجرح فى بطنه . تنهدت يلزافيتا كيبفنا ، وقالت : يعنى ان النقيب مارتينوف بطل . فضحك جادوف بهزء :

– اعذرينى ، هناك مغرورون ، وهناك حمقى ، ولكن ليس هناك ابطال .

– ولكن اليست بطولة ان تخرجوا فى هجوم ؟

– اولا ، انهم لا يخرجون فى هجوم، بل يجبرون على الخروج ، والذين يخرجون جبناء . بالطبع ، هناك اناس يجازفون بحياتهم دون اكراه ، ولكن هؤلاء فيهم تعطش عضوى الى القتل – وهنا نقر جادوف الطاولة باظافره الصلبة – هؤلاء الناس ، على الارجح ، يقفون على ارفع درجة من الوعى العصرى .

ورفع جسمه قليلا بخفة ، وتناول من طرف المنضدة البعيد علبة كبيرة من حلوى الفواكه ، وقدمها الى يلزافيتا كيبفنا .

– لا ، لا اريد – قالت واحست بان قلبها يخفق بشدة وجسمها يضعف – وانت ؟ حدثنى .

غضّن جادوف جلدة جبينه ، وتغطى وجهه بغضون صغيرة مباغتة جعلته يبدو عجوزا . وكرر بحدة :

– وما هذا . . . وانت ؟ بالامس رميت يهوديا وراء الزريبة . اتريدين ان تعرفى اهذا مريح ام لا ؟ اى هراء هذا !

واطبق اسنانه الحادة على سيكارة ، واشعل عود ثقاب . كانت اصبعه المسطحة التى تمسك به قوية الا ان السيكارة لم تقع فى لهب العود على اية حال ، ولم تشتعل .

وقال ، والقى عود الثقاب الذى احترق حتى اظفره :

– نعم ، انا سكران . ارجو المعذرة . لنخرج الى الهواء الطلق .

نهضت يلزافيتا كيبفنا ، وكانما فى نومها ، وسارت خلفه فى الفتحة الضيقة المؤدية الى خارج الملجأ . لاحقتها صيحات السكارى المرحة . ضربت ماريا ايفانوفنا على القيثار ، وغنت بصوت عميق : «كان الليل يعبق بنشوة اللذة . . .»

فى الخارج كان الهواء مشبعا برائحة ربيعية قوية للاوراق المتفسخة ، وكان الظلام والسكون يلفان كل شئ . سار جادوف على العشب الرطب بخطوات سريعة بعد ان دس يديه فى جيبيه ،

وسارت يلزافيتا كييفنا متأخرة عنه قليلا ، والبسمة لا تفارق ثغرها . وفجاة توقف جادوف ، وسال بنبرة جادة :

– ها ، ما رايك ؟

كانت اذناها تلتهبان . سيطرت على انقباض فى حلقومها واجابت بصوت لا يكاد يسمع :

– لا ادرى .

– لنذهب .

واوما براسه ناحية سقف الزريبة المسود . وبعد ان خطا عدة خطوات توقف ثانية ، وشد بيده المتشلجة على ذراع يلزافيتا كييفنا بقوة . وتحدث بحرارة مباغتة :

– لى بنية كبنية الارباب . استطيع ان اشطر العملة النقدية بيدى الى شطرين . وانفذ ببصرى خلال كل شخص ، وكانه من زجاج شفاف. . . . انا اكرههم ! – وتلعثم وكانه تذكر شيئا ، وضرب الارض بقدمه – كل هذه القهقهات والاغانى ، والاحاديث الجبانة وضاعة . انهم جميعا مثل ديدان فى روث دافئ . . . اسحقهم . . . اسمعى . . انا لا احبك : لا استطيع ! ولن احبك . . . فلا تخدعى نفسك . . . ولكننى بحاجة اليك . . انا اكره هذا الاحساس بالتبعية . . . يجب ان تفهمى . . . وحشر يديه تحت مرفقى يلزافيتا كييفنا ، وجذبها بقوة ، واطبق على صدغها شفتيه الجافتين الحارتين كالجمر .

واندفعت يلزافيتا كييفنا لتحرر نفسها ، الا انه كان يعصرها بقوة ، حتى ان عظامها قد قرقعت ، فالقت راسها الى الخلف ، وتدلت ثقيلة بين يديه . قال لها :

– لست مثل الاخريات . ساعلمك . . .

وصمت فجاة ، ورف راسه . كان صوت حاد نافذ يتنامى فى الظلمة . قال جادوف من خلل اسنانه :

– اوه ، اللعنة !

وفى الحال دوى انفجار على مسافة بعيدة . اندفعت يلزافيتا كييفنا مرة اخرى ، الا ان جادوف كان يعتصرها بقوة اشد . قالت باستماتة :

– اتركنى !

انفجرت قنبلة ثانية . واستمر جادوف يتمتم بشىء ما ، وفجاة تصاعد عمود نارى اسود على مقربة كلية وراء الزريبة ، وارسل دوى الانفجار حزم القش المحترقة عاليا فى الهواء .

افلتت يلزافيتا كييفنا من يدى جادوف ، وعدت نحو الملجا .

كان الضباط يخرجون سراعا من فتحة الملجا ، ويعدون على الارض التى بدت سوداء مخدودة من جراء الضوء المائل ، ملقين نظرات الى الزريبة المحترقة وراءهم . اتجه بعضهم يسارا نحو الغابة ، حيث كانت الخنادق ، واتجه الآخرون يمينا فى ممر الاتصال المؤدى الى تحصينات الجسر . كانت البطاريات الالمانية تهدر وراء النهر ، بعيدا خلف التلال . كان الرمى ياتى من اتجاهين : من اليسار مصوبا نحو الجسر ، ومن اليمين مصوبا نحو المعبر الذى كان يؤدى الى مزرعة كانت قد احتلتها سرية من فوج اوسولسكى قبل فترة فى الضفة الاخرى من النهر . وكان قسم من النار موجها على البطاريات الروسية .

رات يلزافيتا كييفنا النقيب جادوف يسير حاسر الراس ويداه فى جيبيه متجها فى خط مستقيم نحو وكر الرشاش . وفجاة ظهرت دائرة نارية سوداء شعثاء فى المكان الذى كان يقف فيه شخصه الطويل . اغمضت يلزافيتا كييفنا عينيها ، وحين نظرت ثانية رات جادوف يسير اكثر الى اليسار وكوعاه ما زالا منفرجين . صاح النقيب تيتكين غاضبا . كان واقفا قرب يلزافيتا كييفنا ومعه منظار :

– لقد قلت لهم اننا لسنا بحاجة الى هذه المزرعة والآن ، تفضلوا وانظروا . قلبوا المعبر كله . آه خنازير !

ونظر فى المنظار مرة اخرى – آه ، الخنازير يصوبون على المزرعة تماما ! هلكت السرية السادسة . آه ! – واستدار وحك علباءه الجرداء بشدة ، ونادى : شملابكين !

– نعم .

اسرع فى الرد عليه شخص صغير كبير الانف يرتدى قبعة قوزاقية .

– هل اتصلتم بالمزرعة ؟

– الاتصال مقطوع .

– اخبر الكتيبة الثامنة بان ترسل تعزيزات الى المزرعة .

– سمعا .
اجاب شلابكين ، وانزل يده من صدغيه بحركة قوية وابتعد خطوتين وتوقف .
ونادى النقيب ثانية بصوت وحشى :
– ملازم شلابكين .
– نعم .
– نفذ الامر .
– سمعا .
وابتعد شلابكين اكثر ، وانزل راسه ، واخذ يحفر الارض بقصبة . فصرخ النقيب :
– يا ملازم شلابكين !
– نعم .
– اتفهم لغة الانسان ام لا ؟
– نعم ،افهم .
– انقل الامر الى السرية الثامنة . ولك ان تقول لهم باسمك الا ينفذوه . فهم ليس من البلاهة بحيث يرسلون رجالا الى هناك . ليرسلوا زهاء خمسة عشر رجلا الى المعبر لاطلاق النار . وابلغ الفرقة حالا بان السرية الثامنة تجتاز المعبر بضربة بارعة . اما الخسائر فيمكن ان نقتبسها من السرية السادسة . اذهب ، اما انت يا آنسة ، فانصرفى – والتفت الى يلزافيتا كيبفنا – اقلعى من هنا الى الشيطان فان الرمى سيبدأ الآن .
وفى تلك اللحظة انطلقت قذيفة بازيز ، ووقعت وانفجرت فى الجوار .

٢٢

كان جادوف مستلقيا عند فتحة مخبأ الرشاش ، يتابع المعركة من خلال المنظار بلهفة غير صارف بصره عنها . كان المخبأ قد حفر على منحدر تل مشجر يجرى تحته نهر باستدارة خفيفة ، والى اليمين كانت اعمدة الدخان تتصاعد من الجسر الذى احترق قبل حين ، ووراءه ، فى الضفة الاخرى من النهر وفى مستنقع مكسو بالعشب كان

خط الخنادق الملتوى يرى من مخبأ الرشاش ، وكانت السرية الاولى من فوج اوسولسكى تتخندق فيها . والى اليسار من ذلك كان جدول صغير يتلوى فى مجرى ينمو فيه القصب ، ليصب فى النهر ، وابعد من ذلك يسارا ، ووراء الجدول كانت مبانى المزرعة الثلاثة تحترق ، ووراءها كانت السرية السادسة تتخندق فى خنادق تلتقى فى زاوية . وعلى بعد ثلثمائة خطوة تقريبا كانت تبدأ خطوط الالمان التى كانت تتجه بعد ذلك يمينا بعيدا نحو التلال المشجرة .
كانت النهر يبدو احمر متسخا من جراء لهب الحريقين ، وكان ماؤه يفور لكثرة ما تساقط فيه من قذائف ، ويتطاير كالنوافير ، ويتلفع بسحب بنية .
كانت المدفعية تركز اقوى نارها على المزرعة . وكانت انفجارات قذائف الشرابنيل لا تفتاء تتوهج فوق الابنية المحترقة ، وتتصاعد اعمدة سوداء شعثاء على جوانب خط الخنادق الملتقى فى زاوية . وكانت نيران البنادق تومض من وراء النهر فى القصب والعشب وميضا صغيرا .
وكانت انفجارات القنابل الثقيلة تهز الهواء ، وقذائف الشرابنيل ذات الشظايا تتطاير بصوت واهن فوق النهر وفوق المروج ، وفى هذه الضفة من النهر فوق خنادق السرايا الثانية والثالثة والرابعة . وكان هزيم الرعد يترامى من وراء التلال ، حيث كانت اثنتا عشرة بطارية المانية ترسل ومضات خاطفة . وكانت قذائف المدافع الروسية الجوابية تصفر فى الهواء ، منطلقة الى ما وراء هذه التلال . وكان الضجيج يشق الاذان ، ويضغط على الصدور ويفجر الغيظ فى القلب .
واستمرت الحال على هذا المنوال وقتا طويلا . نظر جادوف فى ساعته المضيئة فرآها تشير الى الساعة الثانية والنصف . فالفجر يوشك على الانبلاج ، والهجوم متوقع بين لحظة واخرى .
وبالفعل اشتد قصف المدفعية ، وفار ماء النهر فورانا اشد ، وكانت القذائف تتساقط على المعابر والتلال فى هذه الضفة من النهر . وكانت الارض احيانا تهتز اهتزازا خافتا ، وتتناثر كتل الطين والحصى من جدران المخبأ وسقفه . الا ان ساحة المزرعة المحترقة باتت هادئة . وفجأة تطايرت من البعيد عشرات الصواريخ مثل اشرطة

تارية ، منحرفة نحو النهر وانارت الارض كالشمس . وحين انطفأت الانوار خيم ظلام حالك لبضع دقائق . اذن ، فان الالمان نهضوا من الخنادق ، وخرجوا فى هجوم .

وفى الغبش المضبب لمح جادوف اخيرا شخوصا صغيرة متحركة بعيدا فى المروج . كانت تارة تسقط ، وتارة يلاحق بعضها بعضا . ولم تجابهها نار واحدة من المزرعة .

التفت جادوف ، وصاح :

– ذخائر !

ارتج الرشاش وكأنما تملكته ضراوة شيطانية ، وراح يرش الرصاص عجولا ، ويكتم الانفاس بدخان لاذع . وفى الحال عجّلت الشخوص الصغيرة حركتها على المرج وسقط بعضها . الا ان الحقل كله كان مغمورا بنقط المهاجمين . وكانت طلائعهم تركض نحو الخنادق المهدمة للسرية السادسة . فنهض من هناك زهاء عشرين رجلا . وتجمع حشد من الرجال بسرعة حول ذلك المكان .

لم تكن هذه المعركة فى سبيل المزرعة الا جزءا تافها من موقعة هائلة امتدت فى جبهة طولها مئات الفراسخ ، وكبدت الطرفين مئات الالوف من الانفس .

كان الروس قد احتلوا المزرعة قبل اسبوعين ليضمنوا لانفسهم راس جسر فى حالة الهجوم عبر النهر . وقرر الالمان الاستيلاء على المزرعة لوضع نقطة مراقبة فى مكان اقرب الى النهر . وكان هذا الهدف وذاك ضروريين فقط لقادتى الفرقتين – الالمانية والروسية – ومضمنين فى الخطة الاستراتيجية للحملة العسكرية لكلا الطرفين ، تلك الخطة التى ترووا عميقا فى كل دقائقها .

كان قائد الفرقة الروسية الجنرال دوبروف الذى كان له اسم عائلة غير روسى فابدله منذ نصف عام باسمه الحالى بترخيص من المراجع العليا يلعب الورق حين تلقى نبأ هجوم الالمان فى قطاع فوج اوسولسكى .

ترك الجنرال الورق ، وانتقل مع الضباط الكبار واثنين من المرافقين الى الصالة التى نشرت على منضدة فيها خرائط طوبوغرافية . وكانت قد وردت من الجبهة انباء عن قصف المعبر والجسر . ففهم الجنرال بان الالمان عازمون على الاستيلاء على

المزرعة ، اى بالذات على المكان الذى بنى عليه خطته الشهيرة للهجوم ، والتى وافقت عليهما قيادة الفيلق ، وقدمت الى قائد الجيش للتصديق عليها . الا ان هجوم الالمان على المزرعة افسد الخطة كلها .

كانت الاخبار التلفونية تؤكد هذا الخطر بين لحظة واخرى . انزل الجنرال نظارته الانفية من فوق انفه الكبير ، وقال بهدوء ولكن بحزم ، وهو يلاعبها :

– حسنا ، لن اتراجع قدما واحدة من المواقع التى احتلها .

وارسل امرا تلفونيا على الفور لاتخاذ تدابير مناسبة للدفاع عن المزرعة . وامر فوج كوندرافنسكى الاحتياطى من الدرجة الثالثة بالزحف فى كتيبتين نحو المعبر لتعزيز النقيب تيتكين . وفى تلك اللحظة وصل خبر من قائد المدفعية الثقيلة عن قلة القذائف ، وتحطم احد المدافع ، وانعدام امكانية الرد على نار العدو الصاعقة ردا مناسبا .

الا ان الجنرال دوبروف ردّ على ذلك ، وقد القى نظرة صارمة على الحضور :

– حسنا ، حين تنفد القذائف سنحارب بالسلاح الابيض .

واخرج منديلا ناصع البياض من سترته الرمادية ذات القلبة الحمراء ، ونفضه ، ومسح نظارته الانفية به ، وانحنى على خارطة .

وظهر فى الباب المرافق الاصغر الكونت بوبروبسكى الضابط فى بدلة من الكاكى البنى الداكن منسجمة مع جسمه كالقفاز . وقال وهو يبتسم ابتسامة لا تكاد تلحظ بطرف فمه الصبوى الجميل :

– ياصاحب السيادة ، يقول النقيب تيتكين ان السرية الثامنة تجتاز طريقها الى المعبر بضربة ماهرة ، رغم نار العدو المهلكة .

نظر الجنرال الى الضابط من فوق نظارته الانفية ، وحرك فمه الحليق ، وقال :

– حسن جدا .

ولكن رغم اللهجة المشجعة تواردت من الجبهة انباء مقلقة اكثر فاكثر . وصل فوج كوندرافنسكى الى المعبر وعسكر وتخندق . والسرية الثانية ماضية فى ضرباتها الماهرة ولكنها لم تعبر النهر بعد . ارسل النقيب اسلامبيكوف قائد كتيبة الهاون برقية ذكر فيها

ان مدفعين من مدافعه قد اصيبا ، وان قذائفه قليلة . وابلغ العقيد بوروزدين آمر الكتيبة الاولى من فوج اوسولسكي ان السرايا الثانية والثالثة والرابعة تتكبد خسائر كبيرة في الرجال من جراء مواقعها المكشوفة ، ولهذا فهو يطلب اذنا اما بالهجوم ودحر العدو الوقح ، واما بالتراجع الى حافة الغابة . ولم ترد انباء من السرية السادسة التي كانت تحتل المزرعة .

وفي الساعة الثانية والنصف من بعد منتصف الليل عقد مجلس عسكري . وقال الجنرال دوبروف انه سيتقدم بنفسه على راس القوات الموكلة له ، ولكنه لن يتراجع فترا واحدا عن راس الجسر المحتل . وفي اثناء ذلك وصل الخبر عن احتلال الالمان للمزرعة ، والقضاء على السرية السادسة الى آخر رجل . دعك الجنرال منديله الكتاني بين اصابعه ، واغمض عينيه . ورفع العقيد سفيتشين رئيس الاركان كتفيه الممتلئتين وامتلأ بالدم وجهه اللحيم الملتحي ، وتكلم ببحة ظاهرة :

— ياصاحب السيادة ،لقد ابلغتكم اكثر من مرة بان من المخاطرة احتلال مواقع في الضفة اليمنى . اننا سنفقد كتيبتين وحتى ثلاثا واربعا على هذا المعبر ، وحتى لو احتللنا المزرعة مرة اخرى ، فان الاحتفاظ بها سيكلفنا غاليا .

قال الجنرال دوبروف ، وقد تفصد انفه عرقا :

— ان راس الجسر ضروري لنا ، ويجب ان يكون لنا ، وسيبقى لنا . والمسالة هي اننا لو فقدنا راس الجسر فان خطتي الهجومية ستنهار .

واعترض العقيد سفيتشين وقد ازداد حمرة :

— ياصاحب السيادة ، القوات لا تقوى على عبور النهر تحت نار صاعقة اذا لم تسند بالمدفعية بالشكل المناسب ، وانت تعرف ان المدفعية ليس لها ما تسند به .

رد الجنرال على ذلك :

— حسنا ، في هذه الحال اخبر القوات بان نياشين القديس غيورغي معلقة على الاسلاك في الجانب الآخر من النهر . انا اعرف جنودي .

وبعد هذه الكلمات التي سيحفظها التاريخ حتما نهض

الجنرال ، واخذ يتطلع في النافذة ، وهو يدير نظارته الذهبية في اصبعه القصيرة وراء ظهره ، فرأى شجرة بتولا مبللة تنمو في المرج وملفوفة بالضباب الصباحي الازرق الرقيق ، وسربا من العصافير يحط على اغصانها الرقيقة اليانعة الخضرة ، ويزغرد في عجلة وقلق ، وينطلق فجأة ، ويغيب . وكانت اشعة الشمس الذهبية المنحرفة تنير المرج المضبب كله بمعالم الاشجار غير الواضحة عليها .

انتهى القتال عند مطلع الشمس . واحتل الالمان المزرعة ، والضفة اليسارية من الجدول ، ولم يبق بيد الروس من راس الجسر غير منخفض في الضفة اليمنى من الجدول حيث كانت السرية الاولى . واستمر تراشق واهن فوق الجدول طوال النهار ، ولكنه كان واضحا ان السرية الاولى تحت خطر التطويق ، وقد انقطع اتصالها المباشر بضفة النهر مع الروس بسبب احتراق الجسر ، وكان اعقل مخرج هو الخروج من المستنقع في الليلة ذاتها .

الا ان العقيد بوروزدين آمر الكتيبة الاولى تلقى بعد الظهر امرا بالاستعداد لخوض النهر في تلك الليلة للوصول الى المستنقع لتعزيز موقع السرية الاولى . واوعز الى النقيب تيتكين بتجميع قوى السرية الخامسة والسرية السابعة اسفل المزرعة ، والعبور على جسر عائم . واوعز الى الكتيبة الثالثة الاحتياطية من فوج اوسولسكي باتخاذ موقع هجومي ، والى فوج كوندرافتسكي بعبور النهر من المخاضة عند المعبر المحروق ، والقيام بهجوم جبهوي .

كان الامر جديا ، والترتيب واضحا : تطويق المزرعة بحركة كماشة بواسطة الكتيبة الاولى يمينا ، والكتيبة الثانية يسارا ، على ان يجذب فوج كوندرافتسكي اليه كل انتباه العدو ، وناره . وحدد منتصف الليل للبدء في الهجوم .

في الغبش ذهب جادوف للاشراف على وضع الرشاشات عند المعبر ، ونقل رشاش واحد في زورق ، في اشد ما تكون الحيطة ، الى جزيرة صغيرة لا تتجاوز مساحتها بضع عشرات من الامتار ، نمت عليها شجيرات الصفصاف . وبقي جادوف هناك .

وجهت البطاريات الروسية طوال النهار نارا ضعيفة على المزرعة ، واعمق منها على المواقع الالمانية المقتربة من النهر . وكانت تنطلق بين الحين والآخر طلقات منفردة من بندقية صوب

النهر . وفى منتصف الليل بدأ عبور النهر فى صمت من ثلاثة مواقع راسا . ولصرف انظار العدو بدأت وحدات فوج بيلوتسركوفسكى الواقعة على بعد زهاء خمسة فراسخ فى اعلى النهر بمناوشات قوية . والتزم الالمان الصمت حذرين .

راقب جادوف المعبر بعد ان ازاح اغصان الصفصاف المغطاة بنسيج العنكبوت . كانت الى يمينه نجمة صفراء متوامضة تتدلى على ارتفاع واطئ فوق التلال المشجرة ، وتنعكس على النهر الاسود شريطا من الضوء الكابى المرتعش اخذت تقطعه اشياء داكنة . وظهرت شخوص راكضة من مكان الى آخر على الجزر الرملية والمنبسط الرملى . وعلى مسافة غير بعيدة عن جادوف كان زهاء عشرة اشخاص يخوضون فى الماء الى صدورهم محدثين طرطشة واطئة ، مسكين بنادقهم وحقائب العتاد فى اذرعهم المرفوعة . ان هؤلاء كانوا من فوج كوندروفينسكى يعبرون النهر .

وفجأة نشبت نيران سريعة بعيدا فى الضفة الاخرى ، وصفرت القذائف فى طيرانها واخذت قنابل الشرابنيل تنفجر عاليا فوق النهر بقرقعة معدنية . وكان كل توهج يضيء وجوها ملتحية ناهضة من الماء . وكان المنبسط الرملى كله يغص بالرجال الراكضين . وانطلقت نوبة جديدة من النيران ، وصدرت صيحات . وتصاعدت صواريخ وتناثرت فى السماء كلها باضواء باهرة . ورعدت البطاريات الروسية . جرف التيار عند قدمى جادوف رجلا يتخبط ويردد بصوت مكتوم : «راسى ، اصابوا راسى !» وتشبث بالصفصاف . ركض جادوف الى الجانب الآخر من الجزيرة . ورأى ان العوامات الممتلئة بالناس كانت تتحرك عبر النهر على مسافة بعيدة ، والوحدات التى قد عبرت النهر كانت تجرى فى الحقل . وكانت زوبعة النار الصاعقة تهدر فوق النهر والمعابر والتلال كما كانت بالامس مُصيمةً مُبهرةً . وكان الماء الفائر يبدو موبوءا بالديدان . فقد كان الجنود يتخبطون وينسلون ويتصايحون من خلال اعمدة الدخان السوداء والصفراء ، وبين النوافير المائية . والذين وصلوا الى الضفة الاخرى اخذوا بالزحف الى الشاطئ . وكانت رشاشات جادوف تلعلع فى المؤخرة ، والقذائف الروسية تنفجر فى المقدم . وكانت سريتا النقيب كلتاهما تضربان

المزرعة بنار متقاطعة . تحولت الوحدات المتقدمة من فوج كوندروفينسكى - التى فقدت نصف رجالها اثناء العبور ، كما تبين فيما بعد - الى هجوم بالحراب . الا انها فشلت ، واستلقت تحت الاسلاك الشائكة . ومن وراء الجدول خرجت الكتيبة الاولى بصفوف كثيفة من خلل القصب . وتدفق الالمان من الخنادق .

كان جادوف يستلقى عند الرشاشة متشبثا بعدة الاطلاق المرتجة ارتجاجا مجنونا ويصب نارا مسفة على رابية معشوشبة وراء خنادق الالمان كان يجرى عليها رجلان تارة ، وثلاثة اخرى ، وجمع من الرجال تارة ثالثة ، وكانوا جميعا وبلا استثناء يتعثرون ، وينكفئون ارضا على وجوههم وجنوبهم .

وعد جادوف : «ثمانية وخمسون ، ستون» . ثم نهض شخص ضئيل الجرم ، وامسك براسه ، وسار مترنحا على الرابية . حول جادوف سبطانة الرشاشة فوقع الشخص على ركبتيه ، وانطرح . «واحد وستون» . وفجأة انبعث امام بصره ضوء محرق لايطاق . واحس جادوف بانه قد رفع فى الهواء وبأن وجعا حادا يشل ذراعه .

احتلت المزرعة وجميع خطوط الخنادق المجاورة لها واسر حوالى مائتى اسير ، وفى الفجر خمدت نار المدفعية فى كلا الجانبين . وبدا جمع القتلى والجرحى ووجد رجال الاسعاف عند تفتيش الجزر الصغيرة رشاشة مقلوبة فى الصفصاف المحطم ، وبالقرب منها جنديا مدفونا فى الرمل ، وقد شُجَّ يافوخه ، وعلى بعد عشرة امتار ، فى الجانب الآخر من الجزيرة رقد جادوف ورجلاه فى الماء . انهضوه فانّ ، وكانت قطعة من العظم الوردى تبرز من كمه الملطخ بالدم .

وحين جلبوه الى مستشفى الميدان صاح الطبيب على يلزفيتا كييفنا : «جاءوا بفتاك . الى طاولة العمليات راسا» . وكان جادوف فاقد الوعى مستدق الأنف ، اسود الفم . وحين خلعوا قميصه رأت يلزافيتا كييفنا على صدره الابيض العريض رسما من الوشم

لقردين متشابكين بذيليهمـــا . كز جادوف على اسنانـــه اثناء العملية ، واعترت التشنجات وجهه .

وبعد ان انتهى التعذيب ، وضُمد الجرح فتح عينيـه ، انحنت يلزفيتا كيبفنا عليه فقال :

– واحد وستون .

وظل جادوف يهذى حتى الصباح ، ثم غفا . طلبت يلزافيتا كيبفنا بان يعهدوا اليها بنقله الى المستشفى العسكرى الكبير التابع الى هيئة اركان الفرقة .

٢٣

دخلت داشا الى غرفة الطعـــام . كان نيقولاى ايفانوفيتش ودميترى ستيبانوفيتش يجلسان صامتين ، وكان الاخير قد قدم من سامارا فى اول الامس بناء على برقية مستعجلة . امسكت داشا لفاحها الابيض عند ذقنها ، ونظرت الى وجه ابيها الأحمـــر والى شعره المنفـوش ، كان دميترى ستيبـانوفيتش يجلس وقد طوى ساقا واحدة ، ثم حولت داشا بصرهـا الى نيقولاى ايفانوفيتش المعوج الاسارير الملتهب الجفنين وجلست الى المائدة ايضـــا ورات وراء النافذة هلالا نحيلا صافيا يتدلى فى الاغبشاش الضارب الى الزرقة .

كان دميترى ستيبانوفيتش يدخن ناثرا الرماد على صداره الموبر . وكان نيقولاى ايفانوفيتش يجهـد ليجمـع فتات الخبز فى كومة واحدة على الخوان . وساد الصمت وقتا طويلا .

وفى آخر الامر تكلم نيقولاى ايفانوفيتش بصوت مخنوق :

– لماذا تركناها جميعا ؟ هذا لا يصح .

– اجلس وسأذهب أنـا – ردت داشـا ، ونهضت . لم تعد تشعر بالم ولا بتعب وقالت لأبيها ، وهى تلف اللفاح على فمها : بابا ، اذهب واحقنها بحقنة اخرى .

نشق دميترى ستيبانوفيتش من انفه بشدة ، والقى عقب سيكارتـه النافذة عبر كتفـه . كانت الارض حولـه مزروعة كلها باعقاب السيكائر .

– احقنها مرة اخرى يا ابى ، اتوسل اليك .

عندئـــذ هتف نيقولاى ايفانوفيتش متضايقـــا وبصـوت مصطنع :

– لا يمكـن ان تعيش على الكافـور وحده . انهـا تحتضر ، ياداشا .

التفتت داشا نحوه بقوة .

– لا تتجرأ على هذا الكلام ! لاتتجرأ . انها لن تموت .

اختلج وجه نيقولاى ايفانوفيتش الاصفر . استدار نحـو النـافذة ، فشـاهد ايضا الهلال الرقيق النافذ فى الخواء المزرق . قال :

– اية وحشة لو ترحل . آه ، لا اطيق .

سارت داشا فى غرفة الجلوس على اطراف اصابعهـا . ونظرت فى النوافذ مرة اخرى ، فاستشعرت بالبرد الزمهريـــرى الابدى المترامى وراءها . انسلت الى مخدع كاتيا المضاء بمصباح ليلى اضاءة لا تكاد تغالب الظلمة .

هناك ، فى اعماق المخدع كان الوجه الصغيـــر يرقد على الوسائد ، كما كان بلا حراك ، على السرير العريض الواطئ ، وقد دفع شعره الجاف المسود الى فوق ، والى الاسفل من الوجـه كف نحيلة . ركعت داشـا على ركبتيهـا امام السرير . كان تنفّس كاتيا واهنا لا يكاد يسمع . وبعد وقت طويل قالت بصوت خافت متشنج :

– كم الساعة ؟

– الثامنة ، كاتيوشا .

استنشقت كاتيا بعض الانفاس ، وسالت مـرة اخرى وفى صوتها نبرة الشكوى :

– كم الساعة ؟

وطوال النهار كانت تعيد هذا السؤال . كان وجهها نصف الشفاف هادئا ، وعيناها مغمضتين . . . ومنذ وقت طويل وهـى تسير على البسـاط النـاعم فى الدهليز الطويـل الاصفر . كل شئ اصفر فيه : الجدران والسقف . وعاليا الى اليمين ينصب ضوء أصفر معذب من النوافـذ المتربـة . والى اليســـار عديـد من الابـواب

المسطحة . ووراءها – اذا ما فتحتها – حافة الارض ، اللاقرار . وكاتيا تسير ببطء شديد ، كما فى النوم ، مارة بهذه الابواب والنوافذ المتربة . وامامها دهليز طويل سطيح فى ضوء اصفر . والهواء مكتوم ، وكل باب ينشر وحشة الموت . متى ستحل النهاية يارب ؟ لو تتوقف ، وتسمع . . . لا شىء يسمع . . . ووراء الابواب ، فى العتمة يبدأ صوت بطىء خفيض يطن مثل صوت لولب الساعة الحائطية . . . آه ، ما اشد الوحشة ! . . ليتها تفيق . . . ليتها تقول شيئا بسيطا انسانيا . وعندئذ كانت كاتيا تردد بجهد ، وفى صوتها نبرة شكوى :

– كم الساعة ؟

– كاتيوشا ، عم تسالين طوال الوقت ؟

«جميل ان تكون داشا هنا . . .» ومرة اخرى كان بساط الدهليز يمتد تحت قدميها بغثيان ناعم وينصب الضوء الخشن المقبض من النوافذ المتربة . ويدق لولب الساعة من بعيد . . .

«ليتنى لا اسمع . . . لا ارى . . . لا احس . . . استلقى واتدثر . . . ليت النهاية قريبة . . . ولكن داشا تضايقنى ، لا تدعنى اغيب . . . تمسك يدى ، تقبل ، تدمدم ، وتدمدم . . . وكان تَنفّس حياة ينصب منها فى جسدى الفارغ الخفيف . . . ما اضجر ذلك ! . . كيف اشرح لها ان الموت سهل ، اسهل من ان احس بهذا النفس الحى فى كيانى . . . ليتها تتركنى لا» .

– كاتيوشا ، انا احبك ، احبك ، هل تسمعين ؟

«لا تتركنى ، تشفق علىّ . . . يعنى غير ممكن . . . ستبقى الفتاة وحدها ، تتيتم» .

– داشا !

– ماذا ؟

– لا اموت .

يبدو ان اباهما يقترب . فى الجو رائحة تبغ . ينحنى ، يزيح البطانية ، وتنغرز ابرة فى الصدر بالم حاد لذيذ . وتسرى فى الدم طراوة التسكين العذبة وتترنح جدران الدهليز الاصفر ، وتنفرج ، وينتشر برد منعش . وداشا تمسد الذراع المنطرحة فوق البطانية ، وتضغط شفتيها عليها ، وتبث فيها دفا . وبعد

دقيقة اخرى يذوب الجسد فى ظلمة النوم الحلوة . ولكن الشرطات الصفراء الصارمة تتطاير مجددا من الجانبين ومن وراء عينيها . . . وتتكون متباهية ، ومن تلقاء نفسها ، وتتضاعف ، وتقيم دهليزا خانقا ، معذبا .

– داشا ، داشا لا اريد ان ارحل الى هناك .

وتمسك داشا راسها بيديها ، وتستلقى على الوسادة الى جوارها ، وتضغط نفسها عليها وهى حية قوية ، وكانما تنبعث منها قوة الحياة الفظة الحارة !

ولكن الدهليز استطال مرة اخرى ، وكان يجب ان تنهض ، وتجرجر فيه قدميها ، وعلى كل قدم ثقل طن . لا يجوز ان تظل راقدة . وداشا تحتضنها ، وتنهضها ، وتقول لها : تعالى .

وهكذا صارعت كاتيا الموت ثلاثة ايام بلياليها . وكانت تحس فى نفسها دائما بارادة داشا المضطرمة ولولا داشا لخارت منذ زمان ، وارتاحت الى الابد .

فى اليوم الثالث قضت داشا المساء كله والليل عند سرير شقيقتها لا تبارحه . وكان الشقيقتين صارتا كيانا واحدا له الم واحد ، وارادة واحدة . وقبيل الصباح تصببت كاتيا اخيرا بعرق غزير ، وانقلبت على جنبها . وكانت انفاسها لا تكاد تسمع . ارتعبت داشا ، واستدعت اباهما . وقررا الانتظار . وفى الساعة السابعة صباحا زفرت كاتيا ، وانقلبت على جنبها الآخر . ومرت الازمة ، وبدات العودة الى الحياة .

ولاول مرة خلال تلك الايام غفت داشا ايضا على المقعد الكبير عند الفراش . وعندما علم نيقولاى ايفانوفيتش ان كاتيا قد خلصت من الموت طوق دميترى ستيبانوفيتش من صداره المو ّبر ، واجهش باكيا .

وبدا النهار الجديد بداية سارة ، وكان دافئا مشمسا ، وبدا كل واحد منهم طيبا مع الآخر . وجلبت من حانوت الزهور شجيرة من زهور الليلك الابيض ، ووضعت فى غرفة الجلوس .

واحست داشا بانها قد انتزعت كاتيا بيديها من الحفرة الباردة السوداء المؤدية الى الظلام الابدى . لم يكن على الارض شىء اغلى من الحياة ، وقد ادركت ذلك الآن ادراكا راسخا .

فى نهاية ايار نقل نيقولاى ايفانوفيتش يكاترينا دميتريفنا الى بيت ريفى مبنى من جذوع الشجر قرب موسكو ، له شرفتان كانت احداهما تطل على حرش من اشجار البتولا ينشر ظلا اخضر متحركا دائما تسرح فيه عجول رقشاء ، وتطل الثانية على حقل منحدر متموج .

وفى كل مساء كانت داشا ونيقولاى ايفانوفيتش ينزلان من قطار الضواحى الى محطة صغيرة ، ويسيران فى المرج المستنقعى . وكان البعوض يحوم حول راسيهما . ثم كان يتعين عليهما ان يصعدا فى مرتفع . وهنا كان نيقولاى ايفانوفيتش يتوقف عادة بحجة ان يلقى نظرة على الغروب ، ويقول لاهثا :

– يارب ، ما اروع ذلك !

كانت السحائب الليلقية الساكنة العقيمة ، وهى السحائب التى تكون عادة عند الغروب ، تجثم وراء السهب المظلم المزروع فى بعض اجزائه بشرائط من الحبوب ، وفى الاجزاء الاخرى باشجار الجوز اللفاء واياتك البتولا . وكان وهج الغروب السماوى يشع ضوءا كابيا من الفرجات الطويلة فى هذه السحائب ، وقد انعكس شريط برتقالى من السماء على مسافة غير بعيدة الى الاسفل عند خور الجدول . وكانت الضفادع لا تكف عن النقيق ، واكداس الدريس وسقوف القرية تلوح داكنة فى الحقل المنبسط الذى اوقدت نار فى ناحية منه . وهناك ، فى مكان ما وراء السدة والسياج العالى كان معسكر لص توشينو * فى غابر الازمان . ظهر قطار من

* – كان دميترى الدعى الثانى العوبة المتدخلين البولونيين والفاتيقان . وقد ادعى انه ابن قيصر روسيا ايفان الرابع . وقد دخل روسيا مع القوات البولونية فى سنة ١٦٠٧ وعسكر فى توشينو بالقرب من موسكو . فى عام ١٦١٠ قتله احد انصاره . (المترجم) .

وراء الغابة يصفر صفيرا طويلا ، ناقلا الجنود الى الغرب ، فى الغروب الخابى .

اقتربت داشا ونيقولاى ايفانوفيتش من البيت الريفى آخذين طريقهما فى طرف الغابة ، فرايا من خلال زجاج الشرفة المائدة معدة للعشاء ، ومصباحا على شكل كرة زجاجية مغبشة . ركضت للقائهما كلبة المنزل «شاريك» تنبح بحفاوة ، وحين وصلت اليهما مبصبصة بذيلها ، ابتعدت عنهما حيطة الى الافسنتين ، وراحت تنبح فى ناحية .

نقرت يكاترينا دميتريفنا باصابعها على زجاج الشرفة ، فقد كان ما يزال غير مسموح لها الطلوع الى الخارج بعد حلول الظلام . اغلق نيقولاى ايفانوفيتش باب السياج وراءه ، وقال : «فى رايى انه بيت ريفى فاتن» . وجلسوا الى العشاء . روت يكاترينا دميتريفنا اخبار المنطقة : جاءت كلبة مجنونة من توشينو ، وعضت دجاجتين من دجاجات عائلة كيشكين ؛ عائلة جيلكين انتقلت اليوم الى بيت سيموف الريفى ، واذا بسماورهم يسرق فى نفس اليوم . الطباخة ماتريونا جلدت ابنها مرة اخرى .

تناولت داشا طعامها صامتة ، فقد تعبت فى المدينة تعبا شديدا . اخرج نيقولاى ايفانوفيتش من حقيبته حزمة من الجرائد ، واخذ يطالعها ، مخللا اسنانه بعود التخليل ، وعندما كان يقع على انباء مؤسفة ، كان يحدث صريفا باسنانه الى ان تقول كاتيا له : نيقولاى ، ارجوك ، لا تصرف باسنانك . خرجت داشا الى مقدمة البيت ، وجلست ، واسندت حنكها على يدها ، وحدقت فى السهل المظلم المرصع بالنيران ، والى النجوم الصيفية الصغيرة المنثورة . كانت تنبعث من الحديقة رائحة احواض زهور مروية .

فى الشرفة كان نيقولاى ايفانوفيتش يقول وهو يقلب جرائده .

– لا يمكن ان تستمر الحرب طويلا بعد الآن لسبب واحد هو ان دول الوفاق ونحن – الحلفاء – ندمر انفسنا .

سالت كاتيا :

– اتريد شيئا من اللبن الخاثر ؟

– اذا كان باردا فقط . . . قطاعة ، قطاعة ! فقدنا المدينتين : لفوف وليوبلين . يا للعار ! كيف يمكن ان نقاتل اذا كان الخونة يغرزون السكين فى ظهورنا ! مستحيل !

– نيقولاى ، لا تَصِرف باسنانك .

– اتركينى وشانى ! اما اذا فقدنا فرسوفيا فذلك هو العار الاكبر ، وبعده سيتعذر العيش . حقا فى بعض الاحيان يتساءل المرء مع نفسه : اليس من الافضل عقد هدنة من نوع ما ، وتحويل الحراب نحو بطوسبورغ ؟

تناهى صفير قطار من بعيد ، وترددت قرقعة عجلاته على الجسر الملقى فوق الجدول الذى كان الغروب منعكسا عليه قبل حين ويبدو القطار ينقل الجرحى الى موسكو . خشخش نيقولاى ايفانوفيتش بصحفه مرة اخرى وقال :

– القطارات تنقل الجنود الى الجبهة بدون بنادق . وهم يقعدون فى خنادقهم مسلحين بالعصى . وبندقية واحدة لكل خمسة منهم . ويهاجمون بهذه العصى نفسها ، على آمل ان ياخذوا بندقية الجندى المجاور حين يصرع . أوه ، اللعنة ، اللعنة ! . .

نزلت داشا من مدخل البيت ، ووضعت مرفقها على باب الحديقة . كان ضوء الشرفة يسقط على اوراق الارقطيون اللامعة عند السياج ، وفى الطريق . مر بيتيا ، ابن ماتريونا ، منكس الرأس يائسا فاتر الهمة يثير الغبار بقدميه الحافيتين . لم يبق امامه الا ان يعود الى المطبخ ويقوم نفسه للجلد ، ويستلقى لينام .

خرجت داشا من باب الحديقة ، وسارت ببطء الى نهر خيمكى .

وهناك وقفت على الجرف فى الظلام وتسمعت . وترامى اليها خرير ينبوع لا يسمع الا فى الليل . دمدمت كتلة من التربة انخلعت من الجرف الجاف ، وتدحرجت عليه ، سقطت فى الماء بطرطشة . وكانت اشباح الاشجار السوداء تنتصب على جانبيها ساكنة . وفجاة بدأت اوراقها ترسل حفيفا ناعسا ، ثم عاد السكون . مرة اخرى . وساءلت داشا نفسها بصوت خفيض : متى ، متى ، متى !» وطقطقت باصابعها .

فى احد الاعياد فى اوائل حزيران استيقظت داشا فى ساعة مبكرة وذهبت لتغتسل فى المطبخ لئلا توقظ كاتيا . رات على المنضدة كومة من الخضار ، وفوقها بطاقة بريدية خضراء يبدو ان بائع الخضار جلبها من البريد مع الجرائد . كان بيتيا ، ابن ماتريونا ، يجلس على العتبة ناشقا ، وقد شد ساق دجاجة الى عصا صغيرة . وكانت ماتريونا تعلق الغسيل على اغصان الاقاصيا .

صبت داشا فى وعاء خزفى ماء فواحا برائحة النهر ونضت قميصها عن كتفيها ، ونظرت مرة أخرى لتعرف ما هذه البطاقة البريدية الغريبة . امسكت طرفها بأصبعين مبللتين ، فاذا بها تقرأ : «عزيزتى داشا ، انا قلق لأننى لم اتلق ردا على اية واحدة من رسائلى . امن المعقول انها فقدت ؟»

اسرعت داشا بالجلوس على المقعد ، فقد غامت الدنيا امام عينيها ، وارتخت رجلاها . . . «جرحى قد اندمل كليا وانا الآن امارس التمارين الرياضية يوميا وعلى العموم امسك زمام نفسى بيدى . بل واتعلم الانجليزية والفرنسية . اعانقك ، يا داشا ، اذا ما زلت تذكريننى . ايفان تليغين» .

سحبت داشا قميصها على كتفيها وقرات الرسالة للمرة الثانية :

«اذا ما زلت تذكريننى ! . .» وثبت واقفة وركضت الى كاتيا فى مخدعها ، وازاحت الستارة القطنية من على النافذة .

– كاتيا ، اقرئى بصوت عال ! . .

وجلست داشا على سرير كاتيا التى بدا عليها الفزع ، ولم تنتظر ان تقرأ اختها الرسالة ، واخذت تقراها بنفسها ، ونهضت مسرعة بعد هذا ، رافعة يديها :

– كاتيا ، يا كاتيا . ما افضع ذلك !

– ولكنه حى ، والحمد الله ، ياعزيزتى داشا .

– احبه ! . . يا الهى ، ماذا علىّ ان افعل ؟ . . اجبنى يارب ، متى تنتهى الحرب ؟

اختطفت داشا البطاقة البريدية ، وركضت الى نيقولاى ايفانوفيتش . وبعد ان تلتها عليه طلبت منه ماخوذة ادق جواب عن سؤالها : متى تنتهى الحرب ؟

– ياعزيزتى ، لا احد الآن يعرف هذا .
– فماذا تعمل انت ، اذن ، فى ذلك الاتحاد البلدى الاحمق ؟
لا شىء غير هراء يقوله الجميع من الصباح حتى المساء . ساذهب الى قائد القوات فى موسكو . . . واطلب منه . . .
– ماذا تطلبين منه ؟ . . آه ، يا داشا ، داشا ، داشا . ينبغى ان تتحلى بالصبر .
وظلت داشا بضعة ايام تلوب على نفسها ولا تستقر فى مكان ، ثم هدات ، وكانها انطفات . وكانت فى المساء تاوى الى غرفتها مبكرا ، وتكتب الرسائل لايفان ايليتش ، وتصنع الطرود له وتلفها بالجنفاص . وعندما كانت يكاترينا دميترييفنا تبادرها الحديث عن تليغين كانت داشا تصمت عادة . وتخلت داشا عن نزهة المساء ، وظلت تقضى معظم اوقاتها جالسة مع كاتيا وهى تخيط او تطالع . وكانت تحس ضرورة ان تخفى كل مشاعرها فى اعماق نفسها قدر الامكان ، وتغطى نفسها بجلدة عادية حصينة من الحياة .
اما يكاترينا دميترييفنا فرغم انها ابلت تماما خلال الصيف الا انها انطفات هى الاخرى مثل داشا . وكانت الشقيقتان غالبا ما تقولان انهما ترزحان مثل كل انسان الآن ، تحت ثقل كحجر الرحى . كانتا تجدان رهقا فى الاستيقاظ ، ورهقا فى السير ورهقا فى التفكير والالتقاء بالناس ، وتتلهفان الى الساعة التى تاويان فيها الى الفراش مرهقتين ، فان النوم والنسيان متعة لا تعادلها متعة . بالامس دعت عائلة جيلكين الضيوف لتذوق المربى التى صنعتها حديثا ، ووصلت الجريدة وهم يحتسون الشاى ، واذا بهم يجدون اخا جيلكين فى قائمة القتلى . لقد صرع فى ساحة المجد . دخل اهل المنزل الى البيت ، ومضى الضيوف على الشرفة فى الظلام بعض الوقت ، ثم انصرفوا صامتين . وهكذا الحال فى كل مكان . كانت تكاليف العيش عالية ، والمستقبل يبدو غامضا ، والياس يخيم على النفوس . وجرى التخلى عن فرسوفيا ، ونسفت بريست-ليتوفسك واستسلمت . وكان الجواسيس يعتقلون فى كل مكان .
وكثر قطاع الطرق فى المنخفض على نهر خيمكى . ولم يخرج

احد الى الغابة اسبوعا كاملا خوفا منهم . ثم طردهم الحراس من المنخفض ، واعتقلوا اثنين منهم ، ونجا ثالث وانسل الى قضاء زفينيغورود كما يقول الناس لينهب الضياع .

ذات صباح وصلت عدوا عربة الى الساحة الصغيرة قرب بيت عائلة سموكوفنيكوف ، وكان السائق واقفا على بسطة العربة . وتراكضت نحوه من كل الجهات النسوة والطباخات والصبيان . ان شيئا ما قد حدث . وخرج بعض المصطافين مستاجرى البيوت الريفية من ابواب حدائقهم . واندفعت ماتريونا عبر الحديقة وهى تمسح يديها . كان السائق يقول احمر ملتهبا وهو واقف على بسطة عربته :
– . . . جروه من الدائرة وهزوه وضربوه على الرصيف ، ثم قذفوه فى نهر موسكو . وكان حوالى خمسة المان مختفين فى المصنع . . . امسكوا ثلاثة ، الا ان الشرطة هربتهم ، والا لكان لهم نفس المصير فى نهر موسكو . . . وفى ساحة لوبيانسكايا كلها يتطاير الحرير والمخمل على الدوام . والنهب يجرى فى المدينة كلها . . . والناس حشود . . .
انزل سوطه بكل قوة على حصانه العداء المنحنى بعض الشىء بين عريشى العربة المعكوفين ، حاثا اياه وساطه مرة اخرى فانطلق الحصان بالعربة المتخلخلة وثبا فى الشارع ، ناخرا مزبدا ، وانعطف نحو الخمارة .
كانت داشا ونيقولاى ايفانوفيتش فى موسكو . وكان عمود اسود من الدخان يتصاعد من هناك والى سديم السماء الرمادى المسفوع بالشمس ، وينتشر كسحابة . وكان الحريق يشاهد جيدا من ساحة القرية حيث تجمهر حشد من سواد اهل الريف . وحين كان المصطافون مستاجرو البيوت الريفية يقتربون كانت الاحاديث تسكت : كانت الانظار التى توجه الى السادة مشوبة بالسخرية او التوقع الغريب . وظهر رجل قوى البدن وحاسر الراس يرتدى قميصا ممزقا ، وصاح وهو يتقدم الى كنيسة صغيرة مبنية بالآجر :

– فى موسكو يذبحون الالمان .

وما كاد ينتهى من صياحه حتى اخذت امرأة حبلى تنحب . وتدافع الناس الى الكنيسة ، وركضت يكاترينا دميتربيفنا ايضا الى هناك . واضطرب الحشد ، وضج .

– محطة فرسوفيا فى موسكو تحترق . احرقها الالمان .

– ذبحوا زهاء الفى المانى .

– بل ستة آلاف . والقى الجميع فى النهر .

– بدأوا بالالمان ، ثم مضوا يصفون بالتتابع . يقولون ان حوانيت شارع كوزنيتسكى موست * قد نهبت الى آخرها .

– هذا ما يستحقونه . سمنوا على عرقنا ، هؤلاء الاوغاد !

– من المستحيل ان توقف الشعب .

– فى منتزه بتروفسكى ، وانا لا اكذب قسما بالله ، فقد جاءت اختى لتوها من هناك ، فى هذا المنتزه ، كما يقول الناس ، عثروا على جهاز لاسلكى فى بيت ريفى ووجدوا بالقرب منه جاسوسين متنكرين بلحيتين مستعارتين . وقد فتكوابهما بالطبع .

– ينبغى ان تفتش جميع البيوت الريفية !

ورأى الناس فيما بعد فتيات قرويات يحملن اكياسا فارغة وهن يركضن هابطات التل نحو السدة التى يسير عليها طريق موسكو . اخذ الناس يصيحون عليهن . فالتفتن ، ولوحن بالاكياس وتضاحكن . سألت يكاترينا دميتربيفنا فلاحا هرما محتشم المظهر كان واقفا بالقرب منها يحمل عصا طويلة .

– الى اين هؤلاء الفتيات يركضن ؟

– لينهبن ، ايتها السيدة الكريمة .

واخيرا وبعد الساعة الخامسة وصلت داشا ونيقولاى ايفانوفيتش من المدينة فى عربة . كان كلاهما مضطربا ، وقد رويا ، واحدهما يقاطع الآخر ان الناس فى موسكو كلها يجتمعون

* شارع فى موسكو حيث كانت تقع حوانيت غالية كان اكثرها يعود الى الاجانب . (**المترجم**) .

حشودا ، ويحطمون بيوت الالمان والمخازن الالمانية . وقد احرقت عدة بيوت ونهب مخزن الملابس الجاهزة التابع لماندل ، وحطم مستودع بيكر للبيانوهات فى شارع كوزنتسكى موست . ورميت البيانوهات من نوافذ الطابق الثانى ، والقيت فى النار .

وتغطت ساحة لوبيا نسكايا بالادوية والزجاج المهشم . ويقال ان حوادث قتل قد وقعت . وبعد الظهر خرجت الدوريات ، واخذت تفرق الناس . والآن هذا كل شيء .

قال نيقولاى ايفانوفيتش وهو يرمش بعينيه من الانفعال :

– هذه هجمية ، بالطبع . ولكن تعجبنى هذه الروح الملتهبة ، جبروت الشعب . اذا كانوا اليوم قد نهبوا المخازن الالمانية فغدا سيقيمون المتاريس . والحكومة تهاونت فى هذه الاباحة عن قصد . نعم ، اؤكد لك لتنفس عن شدة غيظ الشعب . ولكن الشعب من خلال هذه الافعال سيطمع فى تذوق شيء اكثر جدية . . .

وفى تلك الليلة نهب قبو عائلة جيلكين ، وسرقت بياضات عائلة سفيتشنيكوف من العليّة . وظل الضوء مشتعلا فى الخمارة حتى الصباح . وبعد اسبوع صار اهل القرية يتهامسون ، وهم ينظرون نظرات مريبة الى المصطافين المتنزهين .

وفى بداية آب انتقلت عائلة سموكوفنيكوف الى المدينة . وعادت يكاترينا دميتربيفنا الى عملها فى المستشفى العسكرى . وكانت موسكو فى ذلك الخريف حافلة باللاجئين من بولنده . وكان من المتعذر على المرء ان يشق طريقه فى زحام شارع كوزنيتسكى موست ، وبتروفكا ، وتفيرسكايا . وكانت المخازن والمقاهى والمسارح غاصة بالناس ، وفى كل مكان كانت تسمع عبارة جديدة : «معذور» .

وكان هذا اللغط والترف والمسارح والفنادق المكتظة ، والشوارع المزدحمة السابحة بالضوء الكهربائى محمية عن جميع المخاطر بجدار حى يكوّنه جيش مؤلف من اثنى عشر مليونا من البشر ينزف دما .

واستمرت الاوضاع الحربية فى حالة لا تبعث على الاطمئنان

قط . وكان الناس فى كل مكان من الجبهة والمؤخرة يتحدثون عن تصرفات راسبوتين البغيضة ، وعن الخيانة ، وعن استحالـــة الاستمرار فى القتال اذا لم ينقذ القديس نيقولا بمعجزة .

وفى خضم اليأس والفساد هذا اوقف الجنرال روزسكـــى هجوم الجيوش الالمانية بشكل مفاجئ وفى ميدان مكشوف .

٢٤

كانت الريح الشمالية الشرقية تحنى اشجار الحور الجرداء على ساحل البحر فى الغسق الخريفى ، وتهز اطر النوافذ فى البيت القديم القائم على التل ببرجه الخشبى ، وتدمدم فى السقف دمدمة تخيل اليك ان انسانا ثقيل الوزن يتخطى على السطح الحديدى ، وتصفر فى المداخن ، وتحت الابواب ، وفى كل شق .

ومن نوافـــذ البيت كان فى مستطاع الناظر ان يرى الورود العارية تنحنى من جهة الى اخرى انحناء شديدا على الارض البنية المحروثة ، والسحب الممزقة تعوم فوق البحر المموج الرصاصى اللون . وكان الجو باردا وموحشا .

وكان اركادى جادوف جالسا على اريكة بالية فى الغرفـــة المأهولة الوحيدة فى الطابق الثانى من البيت . وكان الكم الفارغ من سترته ، التى كانت انيقة يوما ما ، محشورا تحت حزامها ، وكان وجهه بجفنيه المنتفخين محلوقا حلاقة جيدة وشعره مصففوفا بعناية ، وعلى وجنتيه عضلتان متحركتان .

قلص جادوف عينيه من دخان سيكارته ، واحتسى شيئا من النبيذ الاحمر المتبقى فى براميل موجودة فى قبو بيت ابيه . وكانت يلزافيتا كييفنـــا تجلس على الطرف الثانى من الاريكـــة ، وتحتسى النبيذ ايضا وتدخن مبتسمة ابتسامة رقيقة . وقد عودها جادوف ان تصمت اياما كاملة ، ان تصمت وتصغى ، بعـــد ان يحتسى زهاء ست زجاجات مـــن نبيذ «كابيرنيه» المعتق ويبدأ بالتحدث . وقد تراكمت فى نفسه افكار مريرة كثيرة اثناء الحرب

واثناء اقامته جائعا فى «قصر كابيرنيـــه» نصف المهدم وسط بضعة افدنة من دوالى الكروم – الثروة الوحيدة التى بقيت له بعد وفاة ابيه .

فى ليلة من الليالى التعسة فى المستشفـــى العسكرى فى المؤخرة قبل ستة اشهر حين كانت ذراعه المبتورة غير الموجودة توجعه وجعا ممضا قال ليلزافيتا كييفنا بغيظ وحنق وتكدر :

ـ بدلا من ان تبحلقى فىّ بعينيك العاشقتين طوال الليل ، ولا تدعينى انام استدعى القس غدا ليسوى هذه القضية المضجرة .

امتقعت يلزافيتا كييفنا ثم هزت راسها موافقة . وعقـــد قرانهما فى المستشفى العسكرى . وفى كانون الاول نقل جادوف الى موسكو ، حيث اجريت له عملية ثانية ، وفى بواكير الربيع سافر مع يلزافيتا كييفنا الى انابا ، وسكنا فى «قصر كابيرنيه» . ولم تكن لجادوف اية موارد للعيش ، فكانا يحصلان على ثمن خبزهما ببيع الاثاث القديم والادوات المنزلية . الا ان النبيذ الكابيرنيه كان متوفرا بكثرة والمخمر خلال سنوات الحرب .

وفى هذا البيت الخاوى نصف المهدم ذى البرج الملـــوث بذرق الطيور بدات البطالة الطويلة الميئوســـة . وقد استنفدت الاحاديث كلها منذ زمن طويل . والمستقبـــل لا ينطوى على شئ وكان الباب اغلق على الزوجين الى الأبد .

حاولت يلزافيتا كييفنـــا ان تملأ بوجودها فراغ الايام الطويلة بشكل معذب . ولكنها لم توفق كبير توفيق : فقد كانت رغبتها فىالحظوة بالاعجاب مضحكة وغير متقنة ، وبلا اقتدار . وقد عيرها جادوف على ذلك . فراحت تفكر فى يأس بأنها ، رغم سعة فكرها ، سريعة التأثر كامرأة . ومع ذلك فانها لن تستبدل باية حياة اخرى هذه الحياة المعدمة المملوءة بالاهانات ، المترعة بالسأم ، والخضوع للزوج ، واللحظات النادرة من النشـــوة المجنونة .

وفى الآونة الاخيرة ، حين اخذ الخريف يصفر على الساحل الأجرد اصبح جادوف متوتر الاعصاب بشكل خاص : فما تكاد تبدى حركة حتى ترتفع شفته فوق اسنانه الخانقة ، ويتفوه باشياء فظيعة من خلال اسنانه مقطعا الكلمات بوضوح . وكانت يلزافيتا

كيبفنا فقط ترعد داخليا فى بعض الاحيـــــان ، وتسرى القشعريرة فى جسدها من الاهانة . ومع ذلك كانت تصغى الى هذيانه ساعات طويلة غير صارفة عينيها عن وجهه الجميل الناحل .

وكان يرسلها لتجلب النبيذ من القبو الآجـــرى المقوس السقف ، مسرح العناكب الكبيرة الراكضة . فكانـــت تقرفص هناك عند برميل ، وتراقب نبيذ كابيرنيه الاحمر ينزل فى الجرة الخزفية وتطلق العنان لافكارها . وتفكر بمرارة منتشية فى ان اركادى سيقتلها ذات يوم هنا ، فى القبو ، ويدفنها تحت برميل . وستمر ليالى شتائية طويلة وذات ليلة يوقد شمعة ، وينـزل الى العناكب هنا . ويجلس امام البرميل ، ويراقب هذا النبيـــــذ النازل كما تراقبه الآن ، وينادى فجاة «ليزا . . .» وما من شىء غير العناكب تركض على الجدران . فيجهش لاول مرة فى حياتـه من الوحدة ، ومن الوحشة القاتلة . لقد كانت يلزافيتا كيبفنـا تعوض بمثل هذه الاحلام عن كل الاساءات ، فانها فى آخر المطاف ستكون هى الرابحة لا هو .

اشتدت الريح . واهتز الزجاج من عصفاتها . اعول صوت وحشى من البرج ، وسيظل يعول ، على ما يبدو ، طوال الليل . ولم تتوقد نجمة واحدة فوق البحر .

وكانت يلزافيتا كيبفنا قد نزلت ثلاث مرات الى القبو ، وملات الجرة . وبقى جادوف على جلسته الساكنة وعلى صمته . فى هذه الليلة لا بد ان تجرى احاديث من نوع خاص .

وتكلم جادوف فجاة وبصوت عال :

– اليست عندنا بطاطس ، على الاقل ؟ كان فى امكانك ، على ما يبدو ، ان تلاحظى أننى لم اتناول شيئا من الأكل منذ الامس .

وذهلت يلزافيتا كيبفنا . بطاطس ، بطاطس . . . انهــا منذ الصباح كانت مشغولة بافكارها ، بعلاقة اركادى بها حتى ان العشاء لم يخطر على بالها . وثبت من الاريكــة . فقــال جادوف بصوت متثلج :

– اجلسى ياقذرة . انا اعرف بدونك اننا لا نملك بطاطس . يجب ان اقول لك انك لا تجيدين شيئا فى الحياة خلا التفكير فى مختلف السفاسف .

– ساذهب الى جيراننا ، فقد يبادلوننا النبيذ بشىء من الخبز ومن البطاطس .

– افعلى ذلك حين افرغ من الحديث . اليوم حللت نهائيــا مسالة اباحـــة الجريمة . (وبهذه الكلمات لفت يلزافيتـــا كيبفنا اللفاع عليها ، وانزوت فى طرف الاريكة .) ان هذه المسالة استهوتنى منذ الطفولة . والنساء اللائى التقيت بهن اعتبرننى مجرمـــا ، واستسلمن لى بتعطش كبير . الا اننى لم احـل فكرة الجريمة الا فى الاربع والعشرين ساعة الماضية .

ومد يده الى القدح ، وشرب النبيذ بنهم واشعل سيكارة :

– تصورينى جالسا فى الخندق على بعد ثلثمائة خطوة عن العدو . فما الذى يمنعنى من تخطى المتراس ، والذهاب الى خندق العدو ، لاقتل مَنْ ينبغى ان يقتل ، وانهب فلوسهم وبطانياتهم والقهوة والتبغ ؟ لو كنت واثقا من انهـم لن يرمونى او يرموننى ولكن لا يصوبوننى فاننى بالطبع لذهبت وقتلت ونهبت ، ونشرت صورتى فى الصحف كبطل . ان ذلك يبدو واضحا ومنطقيـــا . والآن ، ها انا قاعد على بعد ستة فراسخ من أنابـــا ، فى «قصر كابيرنيه» وليس فى خندق ، فلماذا لا اذهب ليلا الى المدينة ولا اقتحم مخزن مورافيتشيك للمجوهرات ، واستولى على المجوهرات والذهب ، واذا صادفت مورافيتشيك نفسه ، فاغرز فيه سكينا بكـل سرور ، فى هذا الموضع – واشار باصبعه الى بدايــة الرقبة بحزم – لماذا لا افعل ذلك حتى الآن ؟ هذه المرة ايضا بدافع الخوف فقط . والخوف من الاعتقال ، والمحاكمة ، والاعدام . يبدو اننى اتحدث بمنطق . ها ؟ ان سلطة الدولة هى التى تبت فى مسالة قتل ونهب العدو . اى تبت فيها وفق الاخلاق التـــى ترسمها الحكومة ، اى بمجموعة القوانين الجنائية والمدنية ، فى المعنى الايجابى . ومعنى ذلك ان المسالة تنحصر فى احساسى الشخصى بمَنْ اعتبره انا عدوالى .

قالت يلزافيتا كيبفنا بصوت لا يكاد يسمع :

– العدو فى الحالة الاولى هو عدو الدولة وفى الحالة الثانيـة عدوك فقط .

– تهانىَّ ! حدثينى شيئا ما عن الاشتراكية . هراء ! الاخلاق

قائمة على حق الفرد ، لا المجموع . اعتقد بان التعبئة قد نجحت نجاحا باهرا فى جميع الاقطار والحرب ماضية فى سنتها الثالثة بكل معمعانها ، مهما احتج بابا روما ، فقط لأننا جميعا ، كل فرد منا ، قد تجاوزنا قماط الرضاعة . اننا نريد القتل والنهب ، واذا لا نريد بشكل مباشر فاننا لا نعترض عليهما فى شىء . والدولة تنظم القتل والنهب . والحمقى والقاصرون ماضون فى تسمية القتل والنهب قتلا ونهبا . وانا منذ الآن اسميهما التحقيق الكامل لحق الفرد . النمر يأخذ مايريد . وانا ارفع من النمر . فمن يجرؤ على تحديد حقوقى ؟ مجموعة القوانين ؟ لقد اكلتها الديدان .

وضم جادوف قدميه ، ونهض بخفة ، وراح يذرع الغرفة التى كان يتسلل اليها من خلال الزجاج المغبر خط كاب من الغروب لا يكاد ينيرها .

— ان مليارا من الناس يجدون انفسهم الآن فى حالة حرب . وخمسمائة مليون من الرجال يقاتلون فى الجبهات ، وهم منظمون ومسلحون . ويمثلون فى الوقت الحاضر مجموعتين متعاديتين . ولكن لا شىء يمنعهم من ان يوقفوا القتال فى احد الايام ، ويتحدوا وسيحدث هذا حين سيقول رجل لهذه الخمسمائة مليون من الرجال : «ايها الحمقى ، انكم لا تصوبون الى الهدف الصحيح» . ولا بد ان تنهى الحرب بتمرد ، بثورة ، بحريق يشمل العالم ، وتتحول الحراب الى داخل البلاد . وسيكون المجموع سيد الحياة وسيجلسون على العرش فقيرا من الحثالة ويقدمون له فروض الطاعة . وليكن ذاك . ان ذلك سيزيد من اطلاق يدىّ للنضال . فمن ناحية يوجد قانون الجماهير ، ومن الناحية الثانية يوجد قانون الفرد . أنتم الاشتراكية ونحن قانون الغاب ، نحن الفوضوية المقدسة ، المنظمة بانضباط جديدى .

كان قلب يلزافيتا كييفنا يخفق خفقانا مجنونا . انها هذه بالذات تلك «المهاوى» التى كانت تحلم بها حين كانت فى شقة تليغين . ولكنها لم تعد تلك المزحات المرحة المصاغة بالبنود الاثنتى عشرة «للاستفزاز الذاتى» التى علقها نزلاء شقة تليغين على باب ليزا . . . والآن فى الغسق مر بالنوافذ رجل رهيب حقا مثل حيوان الكوجر الامريكى فى قفص . كان يتحدث

لمجرد انه غير طليق . وحين اصغت يلزافيتا كييفنا اليه احست وكانها رأت عدوا مجنونا لخيول منطلقة ، وسهبا ، ووهجا . . . وتراءى لها انها تسمع صيحات ، وضجيج معركة والزعيق قبل الموت واغانى السهب .

٢٥

فى اوائل الشتاء من عام ١٩١٦ ، ووسط الجزع العام والتوقعات التى لا تحمل املا استولت القوات الروسية فجأة على قلعة ارضروم بالعنوة حافرة انفاقا عميقة خلال الثلوج ، متسلقة منحدرات كساها الجليد . وكان ذلك فى وقت مُنى فيه الانجليز بهزائم عسكرية فى ما بين النهرين وقرب القسطنطينية ، وجرى فيه قتال عنيد فى الجبهة الغربية على بيت المعدّاوى على نهر ايسر ، وكان الاستيلاء على بضعة امتار من الارض المروية بالدماء ريا كثيفا يعتبر نصرا كان برج ايفيل يسرع لاذاعته على جميع العالم .

وفى الجبهة النمساوية تحولت الجيوش الروسية بقيادة الجنرال بروسيلوف الى هجوم حاسم بنفس الفجاءة ايضا .

وحدثت بلبلة عالمية . وصدر فى انجلترا كتاب عن الروح الروسية الملغزة . وبالفعل ، وخلافا للفكر المنطقى ، وبعد سنة ونصف سنة من الحرب ، والهزيمة ، وفقدان ثمانى عشرة ولاية ، وخور العزيمة العام وبعد الخراب الاقتصادى ، والانحطاط السياسى عادت روسيا مندفعة الى الهجوم على طول جبهتها تمتد ثلاثة آلاف فرسخ . وارتفعت موجة معاكسة من القوة النضرة التى تبدو غير مستنفدة .

وسارت صفوف مئات الالوف من الاسرى داخل روسيا . وتلقت النمسا ضربة مميتة ونتيجة لها تهشمت بعد سنتين بسهولة وكأنها وعاء من الفخار . وعرضت المانيا الصلح سرا ، وارتفع سعر الروبل . وانبعثت من جديد الآمال بانهاء الحرب العالمية بضربة حربية . وراجت «الروح الروسية» رواجا فائقا بين الناس . وشُحنت بواخر المحيطات بالفرق الروسية . وغنى

فلاحو اوريول ، وتولا ، وريازان اغانى الجنود الروسية فى شوارع سلانيك ، ومارسيليا ، وباريس ، وشنوا هجمات جنونية بالحراب انقاذا للحضارة الاوربية .

واستمر الهجوم طيلة الصيف واستدعى للخدمة رجال من اعمار متزايدة ممن كانوا فى الاحتياط ، وانتزع الفلاحون فى سن الثالثة والاربعين من الحقل ، من العمل . وكان يجرى تشكيل الوحدات التكميلية فى جميع المدن . واقترب عدد المعبئين الى اربعة وعشرين مليونا وخيمت على المانيا ، واوربا كلها سحابة الرعب القديم من الجحافل الآسيوية .

وخلال هذا الصيف اقفرت موسكو اقفارا شديدا . فقد امتصت الحرب الرجال مثل مضخة ماصة . ورحل نيقولاى ايفانوفيتش الى الجبهة فى مينسك . وعاشت داشا وكاتيا فى المدينة عيشة هادئة منعزلة ، وكان العمل كثيرا ، واحيانا كانت تاتى من تليغين بطاقات بريدية مقتضبة حزينة ، فقد حاول كما يظهر ، الهروب من الاسر ، الا انه قبض عليه ، ونقل الى قلعة .

وفى احد الاوقات زار الشقيقتين رجل لطيف جدا هو النقيب روتشين الذى اوفد الى موسكو لتسلم الذخيرة . وكان نيقولاى ايفانوفيتش قد اخذه ذات مرة فى سيارته من الاتحاد البلدى ليتناول طعام الغداء فى البيت . ومنذ ذلك الحين اخذ روتشين يتردد على البيت .

كان جرس الباب الخارجى يدق عند حلول الظلام من كل مساء . فتتنهد يكاترينا دميتريفنا على الفور تنهيدة حذرة ، وتذهب الى الصوان ، وتضع مربى فى سكرجة او تشرح الليمون شرائح للشاى . ولاحظت داشا ان كاتيا حين يظهر روتشين فى غرفة الطعام ، بعد ان يدق الجرس ، لا تدير راسها اليه حالا ، بل تتباطأ برهة ، ثم تطل من شفتيها ابتسامتها الرقيقة المعتادة . وكان فاديم بيتروفيتش روتشين ينحنى بتحية صامتة . كان نحيلا ذا عينين داكنتين خاليتين من البهجة ، وراس حليق متناسق . . . وكان يجلس الى المائدة متمهلا ويشرع برواية الانباء الحربية . وكانت كاتيا تشرب الشاى ، وتنظر فى وجهه ، وكان يبدو من عينيها بحدقتيها الواسعتين انها تصغى اليه باهتمام خاص . وحين

تلتقى عيناه بعينيها كان يظهر على وجهه عبوس خفيف ويصلصل مهمازاه تحت المائدة . واحيانا يخيم على المائدة صمت طويل ، وفجاة تتنهد كاتيا وتحمر ، وتبتسم عن تقصير . وينهض روتشين فى نحو الساعة الحادية عشرة ويقبل يد كاتيا باحترام ويد داشا بذهول وينصرف ، راجيا الا يرافق الى الرواق . وكانت خطواته القوية تسمع وقتا طويلا فى الشارع الخالى . وكانت كاتيا تمسح الاكواب وتغلق الصوان ، دون ان تنطق كلمة واحدة ، وتاوى الى غرفتها ، وتدير المفتاح فى الباب .

ذات مرة كانت داشا تجلس قرب النافذة المفتوحة عند الغروب . كانت الخطاطيف تحلق عاليا فوق الشارع . واستمعت داشا الى اصواتها الرقيقة الرنانة ، وفكرت فى ان يوم غد سيكون حارا صاحيا ، ما دامت الخطاطيف تحلق عاليا . انها طيور سعيدة ما دامت لا تعرف شيئا عن الحرب .

غربت الشمس ، وتلوّن الغبار فوق المدينة بلون ذهبى . وجلس الناس فى الغبش عند البوابات ومداخل البيوت . وشاعت وحشة فى نفسها ، وانتظرت داشا شيئا ما وها هو اورغن الشوارع بدأ عزفه فى مكان غير بعيد مضيفا نغمة عاطفية متكررة مزمنة تعبر عن وحشة المساء . وضعت داشا مرفقها على افريز النافذة . كان صوت نسائى عال يرتفع الى سطوح البيوت نفسها مغنيا : «تغذيت على الخبز اليابس ، وشربت الماء القارس . . .»

تقدمت كاتيا نحو مقعد داشا من الخلف ، ويبدو انها سمعت ايضا ، فقد وقفت بلا حراك .

– انها تغنى جيدا ، يا كاتيوشا .

قالت كاتيا فجاة بصوت واطئ وغريب .

– لاى شىء هذا ؟ لِمَ قدُر لنا ؟ اى ذنب ارتكبنا ؟ عندما ينتهى هذا ساصير عجوزا ، هل فهمت ؟ لا اصطبر اكثر من هذا ، لا استطيع ! . .

ووقفت عند الحائط ، قرب الستارة شاحبة متقطعة الانفاس ، وقد ظهرت غضون عند فمها ، تنظر الى داشا بعينين جافتين داكنتين . وكررت بخفوت وبحة صوت :

– لا استطيع اكثر ، لا استطيع . ان ذلك لن ينتهى ابدا ! . . نموت . . . ولن نعرف الفرحة بعد الآن . . . اتسمعين عويلها ؟ . . انها تدفن احياء .

طوقت داشا اختها ، ومسدت عليها ، وارادت تهدئتها ، الا ان كاتيا رفعت كوعيها حيث ارادت ان تنحيها .

دق الجرس فى الرواق . ابعدت كاتيا اختها ، ونظرت الى الباب . دخل روتشين فى قميص خشن من الجوخ ، وحذاء جديد مدهون . سلم على داشا ببسمة ، ومد يده الى كاتيا ، وفجأة نظر اليها بدهشة وتجهم . انصرفت داشا الى غرفة الطعام فى الحال ومن هناك ، وبينما كانت تضع عدة الشاى على المائدة سمعت كاتيا تسأل روتشين بنفس الصوت الواطئ المبحوح ، ولكن بتحفظ :

– انت مسافر ؟

سعل واجاب بجفاف :

– نعم .

– غدا ؟

– لا ، بعد ساعة وربع .

– الى اين ؟

– الى الجبهة .

وبعد برهة من الصمت ، عاد يقول :

– المسألة ، يا يكاترينا دميتريفنا ، ان هذا هو لقاؤنا الاخير ، على ما يبدو ، ولهذا قررت ان اقول . . .

اسرعت كاتيا لمقاطعته :

– لا ، لا . . . انا اعرف كل شىء . . . وانت تعرف عنى . . .

– يكاترينا دميتريفنا ، انت . . .

صاحت كاتيا بصوت جنونى :

– نعم ، انت ترى بنفسك ! . . اتوسل اليك ان تنصرف . . .

ارتج الفنجان فى يدى داشا . واللذان كانا فى غرفة الجلوس صمتا . واخيرا تكلمت كاتيا بصوت خافت تماما :

– اذهب ، يا فاديم بيتروفيتش . . .

– وداعا .

وزفر زفرة قصيرة . وصرف حذاءه المدهون وانصفق الباب الخارجى . دخلت كاتيا غرفة الطعام ، وجلست الى المائدة وضغطت يديها على وجهها بكل قوة .

ومنذ ذلك الحين لم تذكر كاتيا الراحل بكلمة واحدة . تحملت الألم بشجاعة ، رغم انها كانت تستيقظ صباحا وعيناها محمرتان ، وفمها منتفخ . ارسل روتشين فى طريقه بطاقة بريدية – تحية للشقيقتين ، ووضعت هذه الرسالة على طوار الموقد حيث لوثها الذباب .

كانت الشقيقتان تذهبان فى كل مساء الى بولفار تفيرسكوى لكى تستمعا الى الموسيقى . وكانتا تجلسان على مسطبة ، وتنظران الى الفتيات والصبايا يتنزهن تحت الاشجار فى اثواب بيضاء ووردية ، وكان فى البولفار كثرة من النساء والاطفال ، ونادرا ما يمر عسكرى مرفوع الذراع فى ضمادة ، او مشوه حرب على عكازة . وكان فرقة من الآلات النحاسية تعزف فالس «على تلال منشوريا» . وكان صوت الابواق حزينا يتعالى فى السماء المسائية . وكانت داشا تمسك يد كاتيا الضعيفة النحيلة ، وتقول وهى تنظر الى ضوء الغروب المتسرب من بين الاغصان :

– كاتيوشا ، كاتيوشا ، اتذكرين :

ايه يا حبى الذى لم يكتمل ،
فى قلبى يبرد الحنان . . .

اعتقد اننا لو نتجمل بالشجاعة ، فسنرى الوقت الذى يتاح لنا فيه ان نحب ، دون عذاب . . . لأننا نعرف الآن ان الحب اسمى شىء فى الدنيا . انا اتصور احيانا ان ايفان ايليتش سيأتى من الأسر وسيكون مختلفا جدا ، جديدا كل الجدة . انا الآن احبه بينى وبين نفسى ، بالخيال . وسنلتقى وكأن احدنا قد احب الآخر فى حياة اخرى غير هذه الحياة .

قالت يكاترينا دميتريفنا ، وقد مالت الى كتفها :

– اما انا ، يا عزيزتى داشا ، فان قلبى قد شاخ لما فيه من المرارة والعتمة . سترين انت اوقاتا سعيدة ، اما انا فلن ارى . . . ذبلت كالزهرة العقيمة .

– من العيب ان تقولى ذلك ، يا كاتيوشا .

– لا ، يا فتاتى ، يجب ان اتحلى بالشجاعة .

وذات مساء من تلك الامسية على المسطبة جلس عسكرى على الطرف الآخر منها . وكانت الفرقة الموسيقية تعزف فالسا قديما . وكانت اضواء المصابيح ترسل ضوءا شاحبا من خلال الاشجار . وكان جارهما على المسطبة يتفرس فيها بشدة حتى ان داشا احست بتوتر فى رقبتها . التفتت ، وندت منها «لا !» فجائية مذعورة خفيفة .

كان بيسونوف يجلس الى جانبها نحيفا رث المظهر فى سترة عسكرية متهدلة كالكيس وقبعة عليها صليب احمر . نهض وسلم صامتا . قالت داشا «مرحبا» ، واطبقت شفتيها . دفعت يكاترينا دميترييفنا بجسها الى ظهر المسطبة ، محتمية بظل قبعة داشا ، واغمضت عينيها . كان بيسونوف رماديا اللون وكانه مسربل بالغبار ، او انه لم يغتسل .

قال لداشا رافعا حاجبيه :

– رايتك فى البولفار يوم امس واول امس ولكننى ترددت فى التقدم منك ... انا ذاهب لأقاتل . انهم وصلوا الىّ ايضا .

قالت داشا بعصبية مباغتة :

– كيف تذهب لتحارب ، وانت فى الصليب الأحمر ؟

– لنفرض ان الخطر قليل نسبيا – ، بالطبع . ولكن سواء لدى ان اقتل او انجو ، لا ابالى تماما ... الحياة مضجرة تماما ! يا داريا دميترييفنا – ورفع راسه ، ورمق شفتيها بنظرة كابية – مضجرة من كل هذه الجثث ، ولا شىء غير الجثث ...

سالت كاتيا دون ان تفتح عينيها :

– هل انت ضجر من هذا ؟

– نعم ، ضجر جدا ، يكاترينا دميترييفنا . فى الماضى كان ثمة شىء من الامل ... ولكن ، بعد هذه الجثث والجثث خيم ليل ابدى ... جثث ، ودم وفوضى . هكذا ... يا داريا دميترييفنا ، واذا اردت الحقيقة ، فقد جلست اليك راجيا تضحية نصف ساعة من الوقت لى .

– ولاى شىء ؟ – سالت داشا ، ونظرت فى وجهه الغريب

والسقيم ، وخيل اليها فجاة وبصفاء ادار راسها انها ترى هذا الرجل لأول مرة .

قال بيسونوف مغضنا وجهه :

– فكرت طويلا فيما جرى فى القرم واود ان اتحادث معك – ودس يده ببطء فى جيب سترته الجانبى ليخرج علبة السيكاير – اود ان ابدد بعض الانطباعات غير الحسنة ...

قلصت داشا عينيها ، لم تجد اى اثر للسحر فى هذا الوجه الكريه . فقالت بتصميم :

– احسب ان ليس بيننا ما نتحدث عنه – . واشاحت عنه .

– مع السلامة ، يا الكسى الكسييفتش .

تشوه وجه بيسونوف ببسمة معوجة ، ورفع قبعته ، وانصرف . نظرت داشا الى ظهره الواهن ، والى بنطاله العريض جدا وكانه يوشك ان يسقط على حذائه الثقيل الطويل المترب . أمن المعقول ان هذا المخلوق هو بيسونوف حلم لياليها المسهدة ؟

– كاتيوشا ، اجلسى ، وانتظرينى قليلا .

قالت بعجالة ، وركضت وراء بيسونوف الذى استدار فى ممر جانبى . لحقت به لاهثة الانفاس ، وامسكته من كمه . توقف ، واستدار ، وانسبل جفناه على عينيه الشبيهتين بعينى طائر مريض.

– الكسى الكسييفيتش ، لا تغضب منى .

– لست غاضبا ، بل انت لم تريدى ان تتحدثى معى .

– لا ، لا ... انت لم تفهمنى على الوجه الصحيح ... انا اقدرك كثيرا ، وارجو لك كل خير ... ولكن لا داعى لتذكر ما فات ... لا شىء يبقى من الماضى ... انا اشعر بالذنب واحس بالاشفاق عليك ...

هز كتفيه ، ونظر من خلال داشا الى السابلة ببسمة ساخرة.

– اشكرك على الاشفاق .

تنهدت داشا ، فلو كان بيسونوف غلاما صغيرا لأخذته الى بيتها ، وغسلته بماء دافىء ، واطعمته حلوى . ولكن ماذا تفعل مع هذا الرجل وهو الذى خلق له ما يؤلمه ويعذبه ويكدره .

– اكتب لى كل يوم ، اذا اردت ، يا الكسى الكسييفتش ، وسأرد عليك .

قالت له ، ونظرت فى وجهه باكثر ما يمكن من الطيبة . دفع راسه الى الوراء ، وضحك ضحكة باردة .

– شكرا ... ولكن بى نفـــور من الورق والحبر ... –

وتغضن وكأنما ابتلع شيئا حامضا – اما انت قديسة ، يا داريا دميترييفنا واما معتوهة ... انت عذاب الجحيم انزل علىّ ، وانا حى ، هل فهمت ؟

وجاهد لينصرف ، ولكن بدا وكأنـــه لا يستطيـــع ان ينتزع قدميه . وقفت داشا مطرقة الراس ، فقد كانت تحس بالرثاء ، ولكن قلبها بارد . نظر بيسونوف الى جيدها المحنى والى نهدها الرقيق الفتى البادى من فتحة الفستان الابيض ، وفكر بأن هذه هى النهاية ، الموت .

– كونى رحيمة .

قال بصوت بسيط خفيض انسانى . همست على الفور دون ان ترفع رأسها : «نعم ، نعم» وسارت بين الاشجـــار . وللمرة الأخيرة بحث بيسونوف ببصره عن راسها الأشقر الشعر بين حشد الناس . لم تبد منها التفاتة . وضـــع يده على شجرة ، تشبثت باصابعه بقشرتها الخضراء . فان الأرض ، ملجأه الأخير ، مادت من تحت قدميه .

٢٦

كان القمر يتدلى مثل كرة شاحبة فوق مستنقعـــات الخث المقفرة . وكان الضباب يتلوى فوق الخنادق المهجورة . وفى كل مكان قرم اشجار مقطوعة ، وهنا وهناك تلوح اشجـــار صنوبر قصيرة وفى الجو رطوبة وسكون . وصف من عربات الاسعاف يسير على درب ضيق مرصوف بجذوع الشجر . وخط الجبهة لا يبعد غير ما يقرب من ثلاثة فراسخ وراء حدود الغابة المسننة ، ولا صوت يترامى من هناك .

فى احدى هذه العربات كان بيسونوف منطرحا على القش ، مغطى بكسوة حصان مشبعة برائحته . كانت الحمى تنتابه كل مساء مع غروب الشمس ، وتصطك اسنانه من القشعريرة ، وكان يبدو ان جسده يجف وتمر فى ذهنه افكار صافية خفيفة ملونـــة

كفوران بارد . كان ذلك احساسا بهيجا بفقدان الوزن الجسدى .

سحب الكسوة الى ذقنه ونظر الى السماء المعتمة المحمومة .

هذه هى نهاية الطريق على الارض : الظلمة ، وضوء القمر ، والعربة المتارجحة كالمهد . وهكذا بعد ان تكتمل حلقة القرون تعود عجلات السكيثيين الى الدوران والصريف . ولكن كل الاشياء لم تكن الا احلاما : اضواء بطرسبورغ ، الأبهة الحادة لمبانيها ، والموسيقى فى صالاتها الدافئة المتالقة ، وفتنة ستارة المسرحية وهى ترتفع ، وسحر الليالى الثلجية ، واذرع النساء المطروحة على الوسائد ، والحدقات الداكنة المجنونة . . . إثارات الشهـــرة . . . سكرة المجد . . . الضوء الهادئ فى المكتب ، القلب الخافق حماســـا ، النشوة التى يبعثها خلق الكلمـــات . . . الفتـــاة ذات الزهور الاصطناعية البيضاء على قبعتها ، مندفعة من الرواق المضاء الى غرفته المظلمة ، الى حياته . . . كل ذلك مجرد احلام . . . والعربة تهتز . . . والى جنبها يسير فلاح بقبعة منكسة على عينيه . الفان من السنين وهو يسير جنب العربـــة . . . ذلك هو امتداد الزمن اللانهائى المكشوف فى ضوء القمر الكابى . . . ومن ظلام القرون تتحرك الظلال . ويتعالى صريف العربات ، وتشق العالم عجلاتها السود . وهناك ، فى الضباب الشاحب مداخن مواقد نائتة ، وادخنة الحرائق تتعالى الى السماء ، وصريف العجلات وقعقعتها . ويرتفع الصريف والقعقعة اكثر ، ويزداد اتساعا ، والسماء كلها مملوءة بهدير صاعق يمزق النفس . . .

توقفت العربـــة فجاة . ومن خلال الهدير الذى يملأ الليل الشاحب تبلغ السمع اصوات السواقين المذعورة . رفع بيسونوف جسمه قليلا . فراى فى ضوء القمر عمودا طويلا متلالئ الحوافى يعوم على ارتفاع واطئ فوق الغابة ، ويستدير ويلتمع ، ويهدر بزئير محركات ، ويخرج من بطنه شعاع من الضوء ابيض نحيل ميال الى الزرقة ، ويندفع فوق المستنقعات ، فوق قرم الاشجـــار ، فوق الاشجار المطروحة ، فوق شجيرات الشوح ، ويستقر على الطريق العامة ، على العربات .

وترامت من خلال الطنين اصوات ضعيفة مثل ضربات سريعة على بندول الايقاع . . . وتتاثر الناس من العربات . انحرفت عربة

اسعاف ذات عجلتين نحو المستنقع ، وانقلبت . . . وفى اللحظة التالية توهجت حزمة باهرة من الضوء على الطريق على بعد مائة خطوة من بيسونوف وارتفع حصان وعربة فى الهواء مثل كتلة سوداء ، وتصاعد عمود هائل من الدخان وانقلب طابور العربات كله فى زوبعة من الهدير . عدت الخيول فى المستنقع ساحبة وراءها الاجزاء الامامية من العربات ، وتراكض الناس . وانقذفت العربة التى يرقد بيسونوف عليها ، وهوت ، وتدحرج بيسونوف على منحدر الطريق الى الحفرة ، وانهبد كيس ثقيل على ظهره ، غمره القش .

القى المنطاد الالمانى قنبلة ثانية ، ثم اخذ دوى محركاته يبتعد ، وتلاشى . عندئذ بدأ بيسونوف يزيح القش من فوقه متوجعا ، وخرج بجهد من تحت الامتعة التى وقعت عليه ، ونفض نفسه وصعد الى الطريق . فراى بعض العربات تقف هناك بجنبها وقد فقدت انصافها الامامية . وكان احد الخيول يرقد فى المستنقع مع عريش عربته ، وراسه ملقى الى الوراء ، يسحب رجله الخلفية آليا .

تحسس بيسونوف وجهه وراسه . مست اصابعه بقعة لزجة عند اذنه . وضع منديله على الخدش ، وسار على الطريق نحو الغابة . كانت ساقاه ترتجفان بشدة من الخوف والسقطة ، فاضطر بعد بضع خطوات ان يجلس على كومة من الحجارة الغليظة . اراد ان يشرب جرعات من الكونياك إلا ان القارورة بقيت مع الامتعة فى الحفرة . اخرج بيسونوف الغليون وعلبة الكبريت من جيبه بصعوبة ، وشرع يدخن . كان دخان التبغ مرا وكريها . ثم تذكر الحمى ، ان حالته سيئة ، ويجب ، مهما يكن من شىء ، ان يصل الى الغابة ، فقد قيل له ان البطارية تعسكر هناك . نهض بيسونوف الا ان رجليه لم تطاوعاه قط ، وكانهما من خشب ، ولا تكاد تتحركان اسفل بطنه . فقعد ثانية على الارض ، واخذ يدلكهما ويمدهما ، ويقرصهما ، حتى اذا احس بالالم يسرى فيهما فنهض وسار .

كان القمر عاليا الآن والطريق يتلوى فى الظلمة عبر المستنقعات المقفرة حتى يبدو بلا نهاية . وضع بيسونوف يديه على حقوه ، وترنح رافعا ومجرجرا لذائيه الثقيلين بصعوبة ، وخاطب نفسه :

«جرجر نفسك ، جرجر حتى تسحقك العجلات . . . نظمت اشعارا ، واغويت حمقاوات . . . والآن تقذفوك . . . جرجر نفسك فى اتجاه الافول حتى تنهار . . يمكن ان تحتج ، تفضل احتج ، وازعق . . . حاول ، حاول ، اصرخ بافظع ما تستطيع ، اعول . . .»

والتفت بيسونوف فجاة . انزلق ظل رمادى من الطريق الى الأسفل . . . فسرت البرودة فى ظهره . ابتسم بتهكم ، ورفع صوته بعبارات متقطعة لا معنى لها ، وسار فى وسط الطريق . . . ثم القى نظرة حذرة الى الخلف وراى فى الواقع ان كلبا كبير الراس طويل القوائم كان يتبعه على بعد خمسين خطوة وراءه .

— الشيطان يعرف ماهذا !

غمغم بيسونوف ، واسرع فى سيره ، ثم القى نظرة اخرى عبر كتفه . كان هناك خمسة كلاب تسير خلفه فى صف واحد ، منكسة الابواز ، رمادية ، مرتخية المؤخرات . قذفها بيسونوف بحجر قائلا :

— ساضربكم . . . ابعدوا عنى ، ياقذارة . . .

انحدرت الوحوش الى اسفل ، الى المستنقع صامتة . جمع بيسونوف بعض الحجارة ، واخذ يتوقف بين الحين والاخر ويقذفها . . . ثم واصل سيره ، وصفر ، وصاح «هاى ، هاى . . .» خرجت الوحوش من اسفل الطريق وسارت وراءه ثانية .

بدأت شجيرات شوح صغيرة تظهر على جانبى الطريق . ثم ان بيسونوف لمح امامه ، عند المنعطف ، شبح شخص توقف متفرسا ، وبعد ذلك تراجع فى ظل شجيرات الشوح .

همس بيسونوف «اللعنة !» واختفى فى الظل ايضا ، ووقف طويلا محاولا السيطرة على خفقات قلبه ، توقفت الوحوش ايضا غير بعيد ، وجثم أولها واضعا بوزه على قائمتيه الاماميتين . ولم يتحرك الشخص الذى فى الأمام . راى بيسونوف بوضوح شديد عمامة طويلة بيضاء كالنقاب تبرقع وجه القمر . ثم صدر صوت وانغرز فى دماغه كالابرة ، هو صوت انسحاق غصن تحت قدم ، هى قدم ذلك الشخص بالتأكيد . طلع بيسونوف سريعا الى وسط الطريق ، وسار شادا على قبضتيه بجنون . واخيرا رآه الى

اليمين . كان جنديا مديد القامة ، محدودبا يلقي معطفه على كتفيه ، وكان وجهه بلا حاجبين ، يحاكي وجوه الموتى ، رماديا ، وفمه نصف مفتوح . صرخ بيسونوف :

– اى ، من اى فوج انت ؟

– من البطارية الثانية .

– اوصلني الى البطارية .

صمت الجندى ، ولم يبد حركة ، ونظر الى بيسونوف نظرة كدرة ، ثم ادار رأسه الى اليسار :

– ما هذه ؟

اجاب بيسونوف نافد الصبر : كلاب .

– لا ، ليست هذه كلابا .

– لنذهب ، اسرع ، اوصلني .

قال الجندى رافعا صوته :

– لا ، لا اذهب .

– اسمع ، انا مصاب بحمى ، ارجوك ، اوصلني ، وسأعطيك نقودا .

قال الجندى رافعا صوته :

– لا ، لن اذهب الى هناك . انا هارب .

– يا احمق ، انهم سيقبضون عليك ، على اية حال .

– كل شيء جائز .

القى بيسونوف نظرة جانبية عبر كتفه فلم ير الوحوش فلعلها اختفت بين اشجار الشوح .

– وهل البطارية بعيدة ؟

لم يجب الجندى . استدار بيسونوف ليذهب ، الا ان الجندى قبض على مرفقه بقبضة قوية كالكماشة .

– لا ، لا ادعك تذهب الى هناك . . .

– اترك يدى .

– لن اتركها ! – ونظر الجندى فى ناحية فوق اشجار الشوح ، دون ان يترك ذراع بيسونوف – منذ يومين وانا لم اتناول طعاما . . . قبل حين كنت غافيا فى الاخدود ، وسمعتهم قادمين . . . قلت لنفسى انهم رجال وحدتى . وبقيت مستلقيا .

انهم كثر يسيرون على الطريق على ايقاع واحد . فما هى الحكاية ؟ ونظرت من الاخدود . فاذا هم يسيرون مكفنين فى خط لا نهاية له . . . كالضباب . . .

صاح بيسونوف بصوت وحشى ، وهو يحاول فك ذراعه :

– ما هذا الذى تقوله لى ؟

– ما قلت الا الصدق ، فصدقنى ، ايها الوغد .

انتزع بيسونوف ذراعه ، وركض وكأنه يركض على رجلين قطنيتين ، لا على رجليه الاصليتين . وتبعه الجندى يطبطب بحذائه الثقيل لاهثا وامسكه من كتفه . وقع بيسونوف ، وغطى رقبته ورأسه بيديه . انهدّ الجندى عليه آزّا بأنفه وانشب اصابعه القاسية فى حلقومه ، وضغط . وبعد ذلك جمد وهمد .

همس الجندى من خلال اسنانه بذلك :

– اذن ، هذا انت !

عندما سرت رعشة طويلة فى جسد المطروح ، استطال الجسد ، وارتخى ، وكأنما تسطح على التراب . عندئذ فك الجندى قبضته ، ونهض ، وتناول طاقيته . وسار فى الطريق ، دون ان يلتفت الى ما صنعت يداه . ترنح ، وهز رأسه ، وجلس ممددا ساقيه على منحدر الاخدود .

وقال الجندى لنفسه :

– ما العمل الآن ؟ الى اين ؟ اوه ، يا منيتى ! تعالوا ، والتهمونى ، يا اوغاد . . .

٢٧

حاول ايفان ايليتش تليغين ان يهرب من معسكر الاعتقال ، الا انه قبض عليه ونقل الى قلعة ، وحبس حبسا انفراديا . وفى القلعة راح يخطط لهروب ثان ، وفى غضون ستة اسابيع انشغل فى قطع قضبان النافذة . وفى اواسط الصيف اخليت القلعة بشكل مفاجئ ، وارسل تليغين الى ماكان يسمى بـ«الجب العفن» كنوع من العقاب الاضافى . وكانت هذه مكانا رهيبا يكرب النفس هو عبارة

عن أربعة عنابر طويلة محاطة بأسلاك شائكة مقامه فى منخفض واسع وسط حقل للفحم النباتى . وعلى مسافة بعيدة فى اسفل التلال ، حيث كانت ترتفع مداخن آجرية ، كان يبدأ خط حديدى ضيق صدئ ممتدا عبر المستنقع كله ، ينتهى على مقربة من العنابر ، عند حفرة عميقة ، كانت موقعا للعمل فى العام الماضى حيث هلك اكثر من خمسة آلاف جندى روسى بالتيفوس والدوسنطاريا . وفى الجانب الآخر من المنبسط البنى-الاصفر كانت ترتفع جبال الكربات بسلسلتها المسننة . والى الشمال من العنابر ، فى اعماق المستنقع كان يلوح للعين عدد كبير من الصلبان الصنوبرية . وفى الأيام الحارة كانت انفاس التبخر تتصاعد فوق المنبسط ، ويطن ذباب الخيل ، وتتدلى الشمس حمراء مغبشة ناشرة التفسخ فى هذا المكان المكرب .

كانت الاعاشة هنا صارمة ، والطعام قليلا . وكان نصف السجناء هنا مصابين بأمراض المعدة والحمى ، والتقيحات ، والطفح الجلدى . ومع ذلك فان معنوية السجناء مرتفعة : فقد كان الجنرال بروسيلوف يتقدم بمعارك قوية ، والفرنسيون يدحرون الالمان فى شمبانيا وعند فيردون ، والاتراك يخلون شبه جزيرة البلقان . وكانت نهاية الحرب تبدو الآن قريبة قربا حقيقيا .

الا ان الصيف انقضى ، وبدأت الامطار ، والجنرال بروسيلوف لم يستول على كراكوفيا ، ولا على لفوف ، وهدأت المعارك الدامية فى الجبهة الفرنسية واخذت دول الحلف الثلاثى ودول الوفاق تلعق جراحها . وكان واضحا ان نهاية الحرب قد تأجلت الى الخريف المقبل .

عندئذ بدا اليأس يدب فى «الجب العفن» . وكف فيسكوبوينيكوف ، جار تليغين ، عن الحلاقة والاغتسال فجأة . وصار يقضى اياما كاملة مستلقيا على سريره غير المرتب ، لا يرد على سؤال . واحيانا كان ينهض قليلا مكشرا عن انيابه ، ويحك جسمه باظافره فى كراهية ، كانت بعض القرح الوردية تظهر تارة على جسمه ثم تختفى . وذات ليلة ايقظ ايفان ايليتش ، وقال له بصوت كامد :

– تليغين ، هل انت متزوج ؟

– لا .

– اما انا فلى زوجة وابنة فى تفير . يجب ان تزورهما !

– كفى ، نم .

– سأنام نوما عميقا ، يا أخ .

وفى الصباح الباكر ، عند تعداد السجناء لم يرد فيسكوبوينيكوف على اسمه . ووجدوه فى المرحاض مشنوقا بحزام رفيع . واضطرب العنبر كله وتزاحم السجناء بالقرب من جثته المطروحة على الأرض . كان المصباح يضيئ وجهه المجزع بالم مفعم بالكراهية ، وآثار الحك على صدره تحت القميص الممزق . كان ضوء المصباح كدرا بدت فيه وجوه الاحياء المنحنية على الجثة منتفخة ، صفراء ، مشوهة . التفت احد السجناء ، وهو المقدم ميلشين ، نحو ظلام العنبر ، وقال بصوت عال :

– وهل سنظل ساكتين يارفاق ؟

وسرت دمدمة مخنوقة فى الجمع ، وعلى الأسرة . انصفق الباب ، وظهر ضابط نمساوى ، هو آمر المعسكر ، وانشق الجمع يفسح له الطريق الى الجثة الهامدة ، واذا باصوات عالية ترتفع :

– لن نسكت !

– عذبوا الرجل !

– هذا دأبهم !

– انا اتعفن حيا !

– لسنا مجرمين .

– كان يجب ان نضربكم اكثر يا اوغاد . . .

وقف الآمر على اطراف اصابعه وصرخ :

– سكوت ! كل فى مكانه ! خنازير روس !

– ماذا ؟ . . خنازير روس ؟!

– نحن خنازير روس ؟!

وفى الحال اندفع نحو الآمر رجل ركين له لحية منفوشة هو النقيب جوكوف . دفع بابهامه الى وجه الضابط النمساوى ، وصاح بصوت مختلج مشيرا اشارة فاحشة .

– يا ابن الكلبة ، هل رأيته ؟

وهز راسه الاشعث ، وامسك الآمر من كتفيه وهزه بضراوة ، وطرحه ارضا ، وانطرح عليه .

وصمت الضباط الذين احاطوا بالمتصارعين بدائرة متماسكة . ولكن سرعان ما تردد صوت خطوات الجنـــود المتراكضين على الالواح ، وصرخ الآمر «النجدة !» عندئذ نحى تليغين رفاقه قائلا : «لقد جُن ، وسيخنقه !» وامسك جوكوف من كتفيه ، وابعده عن النمساوى . وصرخ الآمر بالالمانية : «انت وغد !» . كان جوكوف لاهثا . قال بصوت خافت «اتركنى ، وسأريه ، هذا الخنزير» . الا ان الآمر قد نهض ، ولبس طاقيته المجعدة ، والقى نظرة متفرسة سريعة على وجه جوكـــوف ، وتليغين ، وميلشين ، واثنين او ثلاثة آخرين واقفين بالقرب منهم ، وكانما يريد ان يحفظهم فى ذاكرته ، وسار خارجا من العنبر مصلصلا بمهمازيه بقوة . وقفل الباب فى الحال ، ووضع الحراس عند المدخل .

فى ذلك الصباح لم يجر تعداد ، ولم يرتفع صوت طبل ، ولم توزع قهوة البلوط . وقبيل الظهر دخل جنود الى العنبـــر ومعهم نقالة ، وحملوا جثة فيسكوبوينيكوف . واغلق الباب مرة اخرى . وتفرق السجناء الى الأسرة ، واضطجع الكثيرون منهم . وران هدوء كلى على العنبر ، وكان الأمر واضحا : تمرد ، ومحاولة قتل ، ومحاكمة عسكرية .

بدأ ايفان ايليتش ذلك اليوم ، على عادته ، غير مخالف اية قاعدة من القواعد التى وضعها لنفسه ، والذى ظل يراعيها تمام المراعاة منذ اكثر من عام : فى الساعة السادسة ضخ ماء بنى اللون فى جردل ، وبلل جسده ، ودلكه وقام بالمائة تمرين وتمرين من التمارين الرياضية حارصا على ان تطقطق عضلاته ، ولبس ثيابه ، وحلق وجهه ، ولأن القهوة لم توزع اليوم جلس ، على الريق ، يدرس النحو الالمانى .

كانت العطالة الجسدية اصعب الاشياء فى الأسر واكثرهـــا تهديما . وقد ضعضعت الكثيرين . كان احدهم يعمد فجأة الى بودرة وجهه وتزيين عينيه وحاجبيه ، ويظل يتهامس اياما كاملة مع شاب مبودر مثله ، وكان آخر يتحاشى رفاقه ، ويتهافت على السرير ساحبا بطانيته المهلهلة من راسه ، لا يغتسل ولا يحلق ، ويأخذ

ثالث باستعمال فاحش الكلام ويزعج الجميع بحكايات غريبة ، وينتهى اخيرا الى القيام بفعل قبيح جدا حتى ينقل الى مستشفى المعسكر .

وكانت الصرامة هى الخلاص الوحيد من هذا كله . انقلب تليغين خلال فترة الأسر ميالا الى الصمت ، وقد جف جسده الذى كان مدرعا بالعضلات ، وصار حادا فى حركاته ، واكتست عيناه لمعانا باردا عنودا ، وفى لحظـــة الحنق والتصميــــم تصيران مرعبتين .

اليوم كرر تليغين بعناية اشد من المعتاد الكلمات الالمانية التى سجلها بالأمس ، وفتح كتاب شبيلهاغين المتهرىء . جاء جوكوف وقعد على حافة سريره ، ولم يلتفت تليغين اليه ، واستمر يقرا بصوت واطىء . زفر جوكوف وقال :

– يا ايفان ايليتش ، اريد ان اقول فى المحكمة اننى مجنون .

نظر تليغين اليه بسرعة . كان وجـــه جوكوف العريض الأنف ، الأجعد اللحية ، ذو الشفتين الناعمتين الدافئتين الظاهرتين من خلال شاربيه الكثين ، مطرقا يبدو عليه الذنب ، وكانـــت رموشه الفاتحة ترمش باستمرار .

– لا اعرف ما الذى وسوس لى لأشير له اشارتى الفاحشة تلك ، انا نفسى لا ادرى الآن ماذا كنت اريد ان اثبت له . انـــا ادرك ، يا ايفان ايليتش ، اننى مذنب ، بالطبع . . . اندفعت وورطت رفاقى . . . هذا ما عزمت عليه : اقول اننى مجنون . . . هل توافقنى ؟

اجاب ايفان ايليتش ، معلما باصبعه على المكان الذى وصل اليه من الكتاب .

– اسمع ، ياجوكوف ، سيرمون عددا منا بالتاكيد . . . اتعرف هذا ؟

– نعم ، افهم .

– اذن ، اليس من الاحسن ألا تتباله فى المحكمة ؟ ما رايك ؟ . . .

– انت على حق ، بالطبع .

– لن يلومك احد من رفاقك . . . سوى ان المتعة فى ضرب بوز نمساوى غالية الثمن جدا .

– وحالتى انا مؤلمة جدا لاننى عرضت رفاقى الى المحاكمة !

– وهز جوكوف رأسه المنقوش الشعر – ليت اولئك الاوغاد يقضون علىّ وحدى .

وظل يتحدث على هذا المنوال وقتا طويلا ، الا ان تليغين لم يعد يصغى اليه ، وواصل قراءته لكتاب شبيلهاغين ، ثم نهض ، وتمطى ، مفرقعا بعضلاته . وفى تلك اللحظة انفتح الباب الخارجى بعنف ، ودخل اربعة جنود شاكين الحراب فى بنادقهم ، ووقفوا على جانبى الباب ، وقعقعوا بترابيس البنادق ، ودخل الرقيب الأول ، وهو رجل عبوس معصوب العين اجال بصره فى العنبر ، وصرخ بصوت ضار لا رنة فيه :

– النقيب جوكوف ، المقدم ميلشين ، الملازم الثانى تليغين . . .

خرج المدعوون ، وحدق الرقيب الاول فى كل واحد منهم بعناية ، واحاط الجنود بهم ، اقتيدوا من العنبر عبر الفناء الى بيت خشبى صغير هو بيت الآمر . وكانت تقف هناك سيارة عسكرية قد وصلت قبل حين . وازيحت الاسلاك العائقة التى تسد الطريق الى خارج المعسكر . وكان احد الحراس واقفا بلا حراك عند كشك مخطط . وفى داخل السيارة جلس السائق ، وهو صبى ذو عينين منفوختين بعض الشىء ، مائلا على ظهر مقعده امام الدفة . لكز تليغين بكوعه ميليشين الذى كان يسير الى جانبه .

– هل تعرف سياقة سيارة ؟

– اعرف ، ولكن لماذا ؟

– اسكت .

ادخلوا الى مكتب الآمر . كان ثلاثة ضباط نمساويين جدد يجلسون الى طاولة من خشب الصنوبر مغطاة بورق نشاف وردى اللون . وكان احدهم ، وهو رجل مزرقّ الوجه من الحلاقة ، تطفح على خديه الممتلئين بقع حمراء ، يدخن سيغارا . وقد لاحظ تليغين انه لم يرفع بصره الى الداخلين . وكانت يداه مستقرتين على الطاولة واصابعه السميكة المشعرة متشابكة ،

وعينه متقلصة بسبب دخان السيغار ، وياقته تضغط على رقبته . وفكر تليغين : «ان هذا اتخذ قراره مع نفسه» .

وكان الحاكم الآخر ، الذى يرأس المحكمة ، رجلا عجوزا اعجف ذا وجه مستطيل كئيب قليل الغضون النظيفة ، له شاربان اشيبان كثان . وكان احد حاجبيه مرفوعا بنظارة من عدسة واحدة . امعن نظره فى المتهمين ، وحوّل الى تليغين عينه الرمادية التى بدت كبيرة من وراء العدسة . كانت عينا صافية ذكية تنم عن رقة . واختلج شارباه .

فكر ايفان ايليتش مع نفسه : «فى منتهى السوء» ونظر الى الحاكم الثالث الذى كان يضع امامه نظارة ذات اطار من قوقعة السلحفاة وورقة صغيرة مكتوبة بخط دقيق . كان رجلا قصيرا ممتلئا ، بشرته صفراء مشربة بلون رمادى ، وشعره خشن مسرح تسريحة قصيرة ، واذناه كبيرتان . وكان واضحا من كل شىء انه واحد من العسكريين الفاشلين .

حين صف المتهمون امام الطاولة لبس هذا نظارته المستديرة بحركة بطيئة . ومرر كفه الجافة على ورقة مكتوبة ، وبدا فجأة يقرأ قرار الاتهام كاشفا عن اسنان صناعية صفراء .

كان الآمر المعتدى عليه يجلس الى ناحية من الطاولة عاقدا حاجبيه ، ضاما شفتيه . ركز تليغين انتباهه ليتابع كلمات الاتهام ، الا ان فكره ، رغم ارادته ، كان يعمل بحدة وداب فى اتجاه آخر .

« . . . عندما ادخلت جثة المنتحر الى العنبر استغل بعض الروس هذه الحادثة لتحريض رفاقهم على العصيان المكشوف للسلطة ، واخذوا يهتفون بشتائم وتعابير فاحشة هازين قبضاتهم مهددين . وكان المقدم ميليشين ، مثلا يحمل بيده مطواة مفتوحة . . .»

شاهد ايفان ايليتش عبر النافذة الصبى السائق يدير اصبعه فى انفه ، ثم انقلب على جنبه فى مقعده ، ودفع على وجهه قبعته الضخمة ، تقدم جنديان قصيران من السيارة ، وقد القيا على كتفيهما معطفين ازرقين ، ووقفا يتطلعان . قرفص احدهما ، ومس اطار العجلة باصبعه ثم استدار الاثنان – فقد دخلت عربة المطبخ الى الفناء ، والدخان يتصاعد من مدخنتها بوداعة ،

واستدارت نحو العنابر ، حيث اتجه الجنديان ايضا بتكاسل . لم يرفع السائق راسه ، ولم يلتفت ، فلعله قد غفا . عض تليغين على شفتيه من نفاد الصبر ، وعاد يصغى الى صوت المدعى الصارق :

«. . . النقيب جوكوف المشار اليه سابقا اظهر للسيد الآمر خمس اصابع مطوية مهددا حياته عن عمد ظاهر وسبق اصرار ، بالاضافة الى ان الابهام كان بارزا بين السبابة والوسطى ، وهى اشارة مقيتة كانت تهدف ، فى الظاهر ، الى تحقير شرف البزة الملكية الامبراطورية . . .»

وبعد هذه الكلمات نهض الآمر ، وبدا ، وقد تبقع وجهه ببقع حمر ، يشرح للحاكمين بالتفصيل حكاية اصابع النقيب غير المفهومة كثيرا ، بينما اصغى جوكوف نفسه ، وكان قليل الالمام بالالمانية ، بكل ما لديه من قدرة ، وحاول ان يدس كلمة واحدة ، والتفت الى رفاقه بابتسامة تقصير طيبة ، ولم يضبط نفسه ، فتكلم بالروسية مخاطبا المدعى :

— يا حضرة العقيد ، اسمح لى بالتنويه — انا اقول له لمَ هذا التحامل علينا ، لمَ ؟ انا لا اعرف التعبير بالالمانية ، فلذلك اظهرت له باصابعى .

قال ايفان ايليتش من خلال اسنانه :

— جوكوف ، اسكت .

نقر رئيس المحكمة بالقلم . تابع المدعى مطالعته .

وصف العقيد كيف وبأى موضع امسك جوكوف بالآمر و«طرحه ارضا وضغط بابهامى يديه على حلقومه ، بغية التسبب فى موته» وانتقل الى احرج نقطة فى الاتهام : «. . . كان الروس بتدافعهم وصياحهم يحرضون القاتل على القتل . فان احدهم ، وهو الملازم الثانى يوهان تليغين اندفع الى مكان الحادث ، حين سمع خطوات الجنود المتراكضين ، وابعد جوكوف ولثانية واحدة فقط كانت بين الحياة والموت المحتم لحضرة الآمر» . وهنا توقف المدعى ، وابتسم راضيا عن نفسه — «ولكن فى تلك اللحظة ظهر الخفراء من مراتب اوطا ، فلم يستطع الملازم الثانى تليغين الا ان يصرخ بضحيته : «يا وغد» .

واعقب ذلك تحليل سيكولوجى منمق لتصرف تليغين «الذى

حاول ، كما هو معروف ، الهروب مرتين من الأسر . . .» ووجه العقيد اتهاما قاطعا لكل من تليغين وجوكوف وميلشين الذى كان يحرض على القتل ملوحا بالمطواة . ولتشديد قوة الاتهام عمد الى تبرئة ايفانوف واوبيكو «اللذين وقعا تحت تاثير حالة الهيجان» .

بعد نهاية المطالعة اكد الآمر ان ذلك كله وقع طبق الصورة المروية تماما . واستجوب الجنود فذكروا ان المتهمين الثلاثة الأوائل مذنبون فعلا ، ولم يعرفوا شيئا عن المتهمين الآخرين . فرك رئيس المحكمة يديه النحيفتين ، واقترح اسقاط التهمة على ايفانوف واوبيكو بسبب عدم توفر الادلة . هز الضابط الأحمر الوجه راسه بعد ان دخن السيغار حتى وصل الى شفتيه . ووافق المدعى ايضا بعد شىء من التردد . عندئذ تنكب اثنان من الحرس السلاح . وقال تليغين «. . داعا يا رفاق» . نكس ايفانوف راسه ، وصمت اوبيكو ونظر الى ايفان ايليتش بذعر .

اُخرج المبرآن ، واعطى رئيس المحكمة الكلام بمتهمين . سأل تليغين :

— هل تعتبر نفسك مذنبا فى التحريض على التمرد ، وفى الاعتداء على حياة آمر المعسكر ؟

— لا .

— وماذا تريد ان تقول بالذات فى هذا الخصوص ؟

— الاتهام مختلق من الفه الى يائه .

وثب الآمر مسعورا طالبا الايضاح . فاوقفه الرئيس باشارة .

— اليس لك ما تضيفه الى افادتك هذه ؟

— لا .

ابتعد تليغين عن الطاولة ، وتفرس فى جوكوف ، فأحمر هذا ، ونخر من فمه ، واعاد فى اجابته عن الاسئلة ما صرح به تليغين كلمة كلمة . وفعل ميلشين مثله . استمع رئيس المحكمة الى الاجوبة ، واغمض عينيه بتعب . واخيرا نهض الحكام ، اختلوا فى الغرفة المجاورة ، وعند الباب بصق الضابط الاحمر الوجه ، وكان آخرهم ، عقب سيغاره المحترق حتى شفتيه ، ورفع ذراعيه ، وتمطى بتلذذ .

قال تليغين بصوت هامس :

– الرمي . وقد عرفته منذ دخولنا .
وتوجه الى الحارس قائلا :
– اعطني قدح ماء .
تقدم الجندي من الطاولة مسرعا ، واخذ يصب من القارورة ماء كدرا ، وهو ما يزال ممسكا بندقيته . همس ايفان ايليتش في اذن ميلشين بسرعة :
– عندما يخرجوننا ، حاول ان تشغل المحرك .
– مفهوم .
بعد دقيقة ظهر الحكام ، واحتلوا اماكنهم السابقة . خلع رئيس المحكمة نظارته الاحادية بتؤدة ، وقرّب من عينيه قصاصة ورق كانت تهتز قليلا ، وقرأ قرار الحكم القصير الذي انزل على تليغين وجوكوف وميلشين عقوبة الاعدام رميا بالرصاص .
ورغم ان ايفان ايليتش كان متيقنا من صدور مثل هذا القرار الا انه لدى سماعه لتلك الكلمات ، احس بأن الدم يغادر قلبه . نكس جوكوف رأسه . اما ميلشين القوي العريض المنكبين ذو الانف العقابي فقد لعق شفتيه ببطء .
فرك رئيس المحكمة عينيه المتعبتين . ثم غطاهما بكفه ، وتكلم بوضوح ، ولكن بخفوت :
– يعهد الى السيد الآمر بتنفيذ الحكم على الفور .
نهض الحكام ، وظل الآمر وحده جالسا لبرهة من الوقت منتصب الجذع مخضوضر الوجه . ونهض ، وعدّل سترته النظيفة واوعز للجنديين الباقيين بصوت مبالغ بحدته بان يخرجا المحكومين . عند الباب الضيق تلكأ تليغين ليمكن ميلشين من الخروج اولا . امسك ميلشين بذراع الحارس كمن خارت قواه ، وتمتم بلسان متلعثم :
– لنذهب ، لنذهب ارجوك ، مسافة قليلة . . . بطني يوجعني وجعا ممضا . . .
حدق الجندي فيه ذاهلا وقاوم ونظر الى الوراء خائفا وهو لا يعرف كيف يتصرف في الظرف الطارئ . الا ان ميلشين كان قد سار به حتى مقدمة السيارة ، وقرفص ، وغضّن وجهه ، وتوجع ، قابضا باصابعه المرتعشة على ازرار ملابسه تارة ، وعلى مقبض

السيارة اخرى . وظهر على وجه الحارس رثاء واشمئزاز . قال غاضبا :
– اجلس ، اذا كان بطنك يوجعك . اسرع !
الا ان ميلشين ادار مفتاح التشغيل فجأة بقوة ضارية . انحنى الجندي نحوه مذعورا ليبعده . صحا الصبي السائق ، وصاح بشيء ما مغتاظا ، وقفز من السيارة . وكل ما حدث بعد ذلك لم يستغرق غير بضع ثوان . راقب تليغين من تحت حاجبيه حركات ميلشين وهو يحاول ان يقترب من الحارس الثاني قدر الامكان . وتعالى صوت المحرك ، وخفق قلبه مع ذلك الاهتزاز الحاد المذهل.
– جوكوف ، امسك البندقية ! – صاح تليغين ممسكا حرسه من وسطه ، ورفعه في الهواء وقذفه على الارض بقوة ، وبلغ السيارة ببضع قفزات حيث كان ميلشين يصارع الجندي لينتزع البندقية . هجم ايفان ايليتش على الجندي بضربة سددها على رقبته بقبضته ، فتأوه هذا ، وقعد . اندفع ميلشين الى دفة القيادة ، وحرك المقابض ورأى ايفان ايليتش بوضوح رفيقه جوكوف ينسل الى السيارة ومعه البندقية ، والصبي السائق ينسل على طول الجدار ، ويقفز الى باب مقر الآمر فجأة والوجه المستطيل المشوه بالذعر ذا النظارة الآحادية يلوح في النافذة ، وقامة الآمر القصيرة عند مدخل البيت ، والمسدس الراقص في يده . . . وطلقة، واخرى . . . «اخطات ، اخطات ، اخطات» .
وبدا وكأن عجلات السيارة انغرست في الخث ، الا ان تروس التعشيق زعقت ، واندفعت السيارة . والقى تليغين نفسه على المقعد الجلدي . واشتد هبوب الهواء على وجهه ، وصار الكشك المخطط يقترب بسرعة وكذلك الحارس المصوب بندقيته . دوت طلقة ومرت السيارة به كالزوبعة والى الخلف تراكض الجنود في الفناء ، وركعوا على ركابهم . طلقة ! طلقة ! ولكن هذه الطلقات اصبحت اصم واصم . التفت جوكوف ، وهدد بقبضته . الا ان مربع العنابر المظلم اخذ يتضاءل وينخفض شيئا فشيئا ، واختفى المعسكر وراء المنعطف . مرقت بهم الاعمدة والاحراش ، والارقام على الاحجار خاطفة متلاحقة .

التفت ميلشين ، وقد تصاعد الدم ملونا جبينه ، وعينه وخده وصاح على تليغين :

– الى الامام ؟

– الى الأمام حتى تعبر الجسر ، ثم يمينا فى الجبال .

٢٨

جبال الكربات مقفرة موحشة فى المساء الخريفى الرياحى . واحس الهاربون بالاضطراب والقلق حين صعدوا الى الممر عبر الطريق المتعرج الابيض المغسول بالامطار حتى السطح الحجرى . كانت ثلاث او اربع اشجار صنوبر تتمايل فوق الهوة . وفى الاسفل غابة لا تكاد تبين فى نقاب الضباب يترامى منها حفيف . والى الاسفل منها فى قعر الهوة كان سيل غزير يخر مندفعا وقالبا الصخور بهدير .

ووراء جذوع الصنوبر بعيدا وراء قمم الجبال الشجراء المنعزلة كان شريط طويل من الغروب يلمع بين الغيوم الرمادية . وكانت الريح شديدة طليقة على هذا الارتفاع تضرب فى جلد غطاء السيارة .

جلس الهاربون صامتين . كان تليغين ينظر فى خارطة ، وميلشين يتطلع صوب الغروب وهو يرتفق دفة القيادة . وكان راسه مضمدا بخرقة .

سال بصوت خفيض :

– ماذا نفعل بالسيارة ؟ وقد نفد البنزين .

اجاب تليغين :

– لا يجوز ترك السيارة هنا ، العياذ بالله .

– ليس امامنا الا ان ندفعها الى الهوة .

قال ميلشين ، وتأوه ، وقفز الى الطريق ، وطبطب بقدميه بقصد تمرينهما ، واخذ يهز جوكوف من كتفه قائلا له :

– هاء ، يا نقيب ، استيقظ . وصلنا !

خرج جوكوف الى الطريق دون ان يفتح عينيه ، وتعثر ،

وقعد على صخرة . سحب ايفان ايليتش من السيارة مماطر جلدية – وسلة طعام كانت قد اعدت لغداء الحكام فى «الجب العفن» . وزعوا الطعام على الجيوب ، ولبسوا المماطر ، وامسكوا برفارف السيارة ، ودفعوها الى الهوة . قال ميلشين :

– اديت خدمتك يا عروسة ، والآن على المعاش ! يا لله !

تدلت العجلاتان الاماميتان فوق الهوة ، وبكت السيارة الطويلة المتربة بمقاعدها الجلدية ، واطرها البرونزية طائعة مثل كائن حي ، وجنحت ، ثم هوت الى الأسفل مع نثار من الحجارة وكسر الصخر ، وتعلقت لحظة بنتوء صخرة ، وقرقعت ، وانقلبت ، ودوّت الى الاسفل فى هدير متعاظم من الحجارة وشظايا الحديد المتطايرة حتى استقرت فى السيل . وتردد الصدى ، وترامى بعيدا فى المضايق الضبابية .

تحول الفارون الى غابة ، وساروا بمحاذاة الطريق وكانوا يتكلمون نزرا ، وينطقون همسا . وكان الظلام قد خيم تماما ، واشجار الصنوبر تضج فوق رؤوسهم مهيبة وكان ضجيجها يشبه صوت مياه متساقطة على مبعدة .

كان تليغين ينزل الى الطريق بين الحين والآخر ، وينظر الى ارقام الفراسخ على الاعمدة . وقاموا بدورة كبيرة فى مكان يحتمل ان تكون نقطة عسكرية ، واجتازوا عدة منخفضات ، وتعثروا فى الظلام بالاشجار الساقطة ، والجداول الجبلية ، وتبللوا ، وتمزقت ثيابهم . وسروا فى الليل بكاملها . وذات مرة قبيل الصباح سمعوا صوت سيارة ، فرقدوا فى حفرة ، ومرت السيارة على مقربة منهم ، بل وسمعوا اصواتا فيها .

وفى الصباح اختاروا للاستراحة موضعا على مقربة من جدول فى وهدة شجراء نائية . واكلوا ، واتوا على نصف قارورة من الكونياك ، ثم طلب جوكوف ان يحلقا وجهه بالموسى الصدئة التى وجدها فى السيارة . وحين ازيلت لحيته وشارباه فوجئ رفيقاه بأن له حنك طفل ، وشفتين بارزتين . ضحك تليغين وميلشين طويلا ، مشيرين اليه باصبعيهما . وابتهج جوكوف كثيرا ، كان يخور مثل بقرة ويمط شفتيه ، وتبين انه سكران . نثرا عليه الاوراق ، وطلبا منه ان ينام .

بعد ذلك نشر تليغين وميلشين الخارطة على العشب ، ورسم كل منهما تخطيطا طوبوغرافيا لنفسه . وتقرر ان ينقسموا يوم غد : يذهب ميلشين وجوكوف الى رومانيا ، ويتجه تليغين الى غاليسيا . ودفنوا الخارطة الكبيرة فى الارض . وفرشوا الاوراق الجافة ، ودفنوا انفسهم فيها وغفوا فى الحال .

فى الاعلى ، عند حافة الطريق فوق الوهدة وقف رجل معتمد على بندقيته ، هو حارس الجسر . ساد الصمت حوله فى القفر الغابى تحت قدميه ، ولم يسمع غير زمزمة دجاجة الارض فى طيرانها الثقيل فوق مرجة فى الغابة ، صافقة بجناحيها على شجيرات الحور ، ومسقط ماء يترامى صوته من بعيد . وقف الحارس قليلا ، ثم انصرف متنكبا بندقيته .

عندما فتح ايفان ايليتش عينيه ، كان الليل مخيما . وكانت النجوم الساطعة تلمع بين اغصان الاشجار السوداء الساكنة . بدأ يتذكر اليوم الغالب ، الا ان الاحساس بالجهد النفسى فى المحكمة ، وخلال الهروب كان موجعا جدا بحيث طرد من ذهنه تلك الافكار .

سأل ميلشين بصوت خافت :

– هل انت يقظان ، يا ايفان ايليتش ؟

– منذ زمان . انهض وايقظ جوكوف .

وبعد ساعة كان ايفان ايليتش يسير بمحاذاة الطريق الواضح ببياضه فى الظلمة .

٢٩

فى اليوم العاشر وصل تليغين الى خط الجبهة . وكان طوال هذه المدة يسير ليلا ، ويختفى فى الغابة عند طلوع النهار ، وحين كان يضطر الى النزول فى واد ، كان يختار لمبيته بقعة فى منأى عن الاماكن المأهولة . وكان يقتات على الخضار النيئ الذى كان ينشله من حدائق الخضروات .

كان الليل باردا ممطرا . وكان ايفان ايليتش ينسل على الطريق العامة بين عربات الاسعاف المتجهة غربا ، والمملوءة بالجرحى وعربات اخرى محملة بالحاجات المنزلية ، وجموع النساء

والشيوخ الحاملين على اذرعهم اطفالا وصررا وادوات منزلية .

وكانت القوافل المحملة بالجنود والامتعة العسكرية تأتى من الاتجاه الاخر ميممة صوب الشرق . وكان من الغريب التصديق بان عام ١٩١٤ وعام ١٩١٥ قد انتهيا وعام ١٩١٦ يدنو من نهايته ، وطوابير العربات ما تزال ، كما كانت من قبل ، تصر عجلاتها على الطرق المخربة ، واهالى القرى المحروقة يضربون فى الأرض فى يأس خانع . لا فرق سوى ان الخيول العسكرية الضخمة لاتكاد الآن تجرجر ارجلها ، وان الجنود ممزقو الملابس ضئيلو الاجسام ، ان جموع المشردين صامتون متبلدو الاحاسيس . وهناك ، فى الشرق من حيث تسوق الريح اللاذعة غيوما واطئة ما زال الناس يقتل بعضهم بعضا دون ان يهلك فريق فريقه الخصم .

كانت كتلة هائلة من الناس والعربات تتحرك فى الظلام على منخفض مستنقعى ، وعبر جسر مقام على نهر منتفخ . وكانت العجلات تقعقع ، والسياط تئز ، والأوامر تصدر باصوات صارخة، واضواء الفوانيس الكثيرة تتحرك ، فكان ضوؤها يسقط على الماء الكدر الملتف بين دعائم الجسر .

وصل ايفان ايليتش الى الجسر منزلقا على منحدر الطريق العامة . وكانت قافلة عسكرية تمر عليه . ولا امل فى العبور الى الجهة الأخرى قبل طلوع النهار .

كانت الخيول عند دخولها الجسر تركع بعرائش عرباتها وتتشبث بحوافرها فى الالواح الرطبة ، ولا تكاد تجر العربات . وعلى الحافة وعند مدخل الجسر كان يقف رجل على فرس والريح تعصف فى مشمعه ، وفى يده فانوس ، وكان يصرخ بصوت مبحوح . وقد تقدم منه عجوز ، ورفع قبعته يطلب منه شيئا ، على ما يبدو . ولكن الفارس ، بدلا من ان يجيبه ، ضربه بالفانوس الحديدى على وجهه ، وسقط العجوز تحت العجلات .

كان الطرف الآخر من الجسر يغيب فى الظلام ، الا ان نقاط الضوء هناك كانت توحى بوجود آلاف من النازحين . استمرت القافلة فى تحركها البطئ . ووقف ايفان ايليتش ملتصقا بعربة ، كانت تجلس فيها امراة نحيلة متدثرة فى بطانية ، وشعرها متهدل

على عينيها ، وهى تحتضن قفص طيور بذراع ، وتمسك العنان بالذراع الاخرى ، توقفت قافلة العربات فجـاة والتفتت المراة مذعورة . تنامى طنين الاصـوات فى الطرف الآخر من الجسر ، وتزايدت اشعة الفوانيس المتحركة . ان شيئا قد حدث . صهل حصان صهيلا وحشيا ضاريا . وصرخ صوت ممطوط باللغـة البولندية «انقذ نفسك» . وفى الحال مزقت الهواء طلقة بندقية . واندفعت خيول ، وتقعقعت عربات ، وارتفعت اصوات نسوة واطفال فى زعيق وعويل .

وبعيدا الى اليمين ومضت شرارات متفرقة ، وترامت اصوات طلقات جوابية . صعد ايفان ايليتش على عجلة ، وتطلع . ودق قلبه كالمطرقة . كان الرمى كما يبدو ياتى من كل مكان ، على النهر كله . نزلت المراة مع قفصها من العربة ، وتعلقت تنورتهـا ، فوقعت وزعقت بصوت عميق : «اوى انقذونى !» وتدحرج القفص بالطائر على منحدر الطريق .

وعادت قافلـة العربات تتحرك على الجسر عدوا ، وسط الصيحات والقرقعة . وتعالت على الفور اصـوات جنونية : «قف ! قف !» وشاهد ايفان ايليتش عربة كبيرة تجنح على حافة الجسر ، وتنقلب على الدرابزين ، وتسقط فى النهر . عندئـذ وثب مـن العجلة ، وقفز عبر الصرر المرمية حتى بلغ قافلة العربات ، وانبطح على عربة سائرة . وفى الحال نفذت الى راسه رائحة خبز حلوة . دس يده تحت مشمع ، وقطع نهاية رغيف ، واخذ ياكلها غاصا من النهم .

وصلت قافلة العربات الى الضفة الثانية اخيرا وسط الفوضى واطلاق النار . قفز ايفان ايليتش من العربة ، وتسلل بين عربات النازحين الى الحقل ، وسار بمحاذاة الطريـق . عرف من نتف العبارات الملتقطة من الظلام ان اطلاق النار ذاك كان على العدو ، اى على دورية روسية : ومعنى ذلك ان خط الجبهة لا يبعد عـن هذه الاماكن اكثر من عشرة فراسخ .

توقف ايفان ايليتش عدة مرات ملتقطا انفاسه . كان المشى عكس الريح والمطر صعبا ، وتعبت رجلاه عند الركبتين ، وتوهـج وجهه ، والتهبت عيناه وانتفختا . وفى آخر الأمر جلس على مرتفع

الحفرة ، ووضع راسه بين يديه . وكانت قطرات المطر الباردة تتساقط تحت رقبته ، وجسمه كله يئن متوجعا .

فى تلك اللحظة بلغ اذنه صوت خافت عميق مثل انهيار ارض على مسافة بعيدة . وبعد برهة زفر الليل مثل تلك الزفرة للمرة الثانية . رفع ايفان ايليتش راسه ، وتسمـع وميز بين تينـك الزفرتين العميقتين همهمة جوفاء تخمـد تارة وتتنامى أخرى فى ذبذبات غاضبة . لم تكن تلك الاصوات تاتى من الجهة التى كان يسير اليها ، بل من يساره ، من الجهة المعاكسة تقريبا .

جلس على الجانب الآخر من الحفـرة . الآن صارت ترى بوضوح مزق الغيوم الواطئة السارحة فى السماء المتسخة الحديدية . كان ذلك هو الفجر . وكان ذلك هو الشرق . وكانت روسيا هناك .

نهض ايفان ايليتش ، وشد حزامه ، وسار فى تلك الجهة مباعدا بين ساقيه فى الوحل ، متخطيا الجذامات المبللة والاخاديد وخنادق العام الماضى نصف المتهدمة .

وحين تنورت الدنيا تماما رأى تليغين ثانية فى نهاية الحقل طريقا عامة غاصة بالناس والعربات . توقف ، واجال بصره . فراى فى ناحية مزارا ابيض تحت شجرة هائلة تعرت من نصف اوراقها . كان الباب مخلوعا ، والاوراق الذاوية متناثرة على سطحه المستدير ، وعلى الارض .

قرر ايفان ايليتش ان ينتظر هنا حلول الظلام . فدخـل المزار ، واستلقى على الأرض الخضراء من الطحلب . كانت رائحة الاوراق الرقيقة المثيرة برخاءتها تبعث الدوار فى راسه . ترامـت اليه من بعيد كركبـة عجلات ، وضربات سياط . وكانت هذه الضوضاء تبدو لطيفة على الاذن بشكل مذهل ، وفجاة تلاشت . وكان يحس بما يشبه الاصابع يضغط على عينيه . وشيئا فشيئا ظهرت بقعة حية فى النعاس الثقيل عليه كالرصاص . بدت وكانها تحاول ان تكون حلما ، فلم تقدر . فقد كان الاعياء شديدا جعله يئن ويغرق اكثر فاكثر فى النوم . ولكن البقعة كانت تقلقه . فاخذ نومه يخف ، ومن جديد اخذت تترامى الى سمعه كركبة العجـلات من بعيد . وزفرايفان ايليتش ، وقعد .

راى من خلال الباب سحبا مسطحة سميكة ، وكانت الشمس

تجنح الى الغروب واشعتها العريضة تمتد تحت قاعدتها الرطبة الرمادية الثقيلة . وكانت بقعة خفيفة من الضوء تقع على حائط المزار المتداعى ، وتضيئ الايقونة الخشبية الحائلة اللون من تقادم الزمن ، المائلة التى يظهر فيها وجه العذراء فى هالة ذهبية ، والطفل فى ثوب قطنى متهرئ راقد على ركبتيها ، وكانت يد العذراء المباركة مقطوعة من الايقونة .

خرج ايفان ايليتش من المزار فرأى عند عتبته امرأة شابة تجلس على الدرجة الحجرية ، وعلى ركبتيها طفل . كانت ترتدى رداء ابيض مبقعا بالوحل وتسند خدها على يد ، وتضع اليد الاخرى على بطانية الطفل الملونة . رفعت راسها ببطء وتطلعت على ايفان ايليتش بنظرة وضيئة غريبة ، ورف وجهها المخضل بالدمع ، وكأنها تبتسم ، وقالت بالاوكرانية بصوت خافت :

— مات الصغير .

وعادت تضع خدها على يدها . انحنى تليغين نحوها ، ومسد راسها ، فارسلت تنهيدة مندفعة . قال برقة :

— لنذهب . سأحمله عنك .

هزت المرأة رأسها :

— الى اين اذهب ؟ اذهب وحدك ، ايها السيد الطيب .

وقف ايفان ايليتش برهة اخرى ، ودفع طاقيته فوق عينيه وانصرف . فى تلك اللحظة خرج رجلان من الجندرمة النمساوية العسكرية يعدوان على فرسيهما من وراء المزار ، وعليهما معطفان مبللان قذران ولهما وجهان مزرقان مشوربان . وحين مر بايفان ايليتش اوقفا فرسيهما ، وصاح الذى كان فى المقدمة بصوت اجش :

— تقدم !

اقترب ايفان ايليتش ، فانحنى الفارس من على السرج وتفحصه فى عناية بعينيه البنيتين الملتهبتين من الريح والسهر . والتمعت عيناه فجأة ، وهتف :

— روسى !

وامسك ايفان ايليتش من ياقته . لم يقاوم تليغين ، بل ابتسم ابتسامة مازلة مقهورة .

حُبس تليغين فى زريبة . وكان الليل قد هبط . وكان دوى التراشق بالمدافع يُسمع بوضوح ، ويلوح من خلل الشقوق بين الاخشاب وميض احمر كامد . اكل ايفان ايليتش بقية الخبز الذى اخذه من العربة يوم امس ، وسار على طول الجدران المصنوعة من الواح الخشب عسى ان يعثر على فتحة . تعثر ببالة من التبن المضغوط ، وتثاءب ، واستلقى . الا ان النوم لم يراوده . فبعد منتصف الليل اخذت المدافع تقصف على مسافة غير بعيدة ، وكانت التوهجات المحمرة تنفذ من خلال الشقوق بين الالواح . رفع ايفان ايليتش جسمه قليلا وتسمع . تضاءلت الفترات بين الطلقات وصارت جدران الزريبة تهتز ، وفجأة لعلعل رصاص البنادق على مسافة دانية جدا .

وكان واضحا ان المعركة تقترب . وصدرت اصوات مستثارة ، وبربر محرك سيارة . وتردد وقع اقدام كثيرة وارتطم جسم ثقيل بجدار الزريبة من الخارج . وعندئذ فقط لاحظ ان الرصاص يتساقط على جدار الزريبة تساقط البندق على جسم صلب . فتمدد على الارض فى الحال .

نفذت رائحة دخان البارود حتى الى داخل الزريبة . وكان الرمى لا ينقطع ، والظاهر ان الروس كانوا يهجمون بسرعة شديدة . الا ان هذه الزوبعة من الاصوات الرهيبة لم تستمر طويلا . وصدرت ضربات منفجرة ، اى ان القنابل اليدوية كانت تفرقع فرقعة الجوز عندما يكسر . نهض ايفان ايليتش مسرعا من الارض وتراكض بمحاذاة الجدار . امن المعقول ان الهجوم يُرد ؟ واخير صدر زئير اجش مجلجل ، وزعيق ودمدمة اقدام . وسكتت الطلقات فى الحال . ولم يسمع فى تلك الثانية الطويلة غير صوت ضربات فى شئ لدن وصلصلة حديد . ثم ارتفعت اصوات مذعورة صارخة : «نستسلم ، ايها الروس ! . .» .

خلع ايفان ايليتش كسرة من خشب الباب ، فرأى اشخاصا يركضون ، وقد غطوا رؤوسهم بايديهم . واندفع نحوهم فرسان يلقون ظلالا هائلة ، وشقوا طريقهم فى خضمهم . . وراحوا يجولون . اتجه ثلاثة من المشاة نحو الزريبة ، فاندفع فارس

للحاق بهم ، وعباءته تتطاير خلف ظهره ، وفرســـه الضخم يشب على رجليه الخلفيتين ثقيلا ناخرا .

كان الفارس يلوح بسيفه كالسكران فاتحا فمه على وسعه . وحين نزل الفرس على رجليه الاماميتين انزل الفارس سيفه بقـوة فصفر في الهواء ، وانغرس حده في لوح الباب فانكسر .

صرخ تليغين بصوت جنوني ، وهو يقرع الباب :

– اطلقوني .

اوقف الفارس فرسه .

– من الهاتف ؟

– اسير . ضابط روسي .

– دقيقة .

قذف الفارس مقبض سيفه المكسور ، وانحنى ، وسحب المزلاج . وخرج ايفان ايليتش ، فاذا بالذي اطلقه ، وهو ضابط في الفرقة الوحشية ، يقول بشيء من التهكم :

– ياله من لقاء !

تطلع ايفان ايليتش اليه ، وقال :

– لا يبدو انى اعرفك .

– انا سابوجكوف سيرغي سيرغيفيتش – وانفجر بقهقهة حادة ، وقال : لم تكن تتوقعني ؟ اللعنة ، انها الحرب !

٣٠

سار القطار في الساعة الاخيرة قبل وصوله الى موسكو مارا ببيوت ريفية مهجورة صافرا صفيرا ممدودا . ودخانه الابيض يلتف مع اوراق الاشجار الخريفية ، وصفرة اشجار البتولا الشفافة ، واحراش الحور القرمزية الفواحة برائحة الفطر . واحيانا كانت اغصان القيقب الحمراء العريضة تتدلى على سدة القطار تماما . وحين كانت الاحراش تشف كانت تلوح من خلالها هنا وهناك الكرات الزجاجية على احواض الزهور ، والصفاقات المسمرة في البيوت الريفية ، والاوراق الساقطة على الممرات والدرجات .

مرت محطة صغيرة كان يقف على رصيفها جنديان يضعان على ظهريهما حقيبتين ، وقد نظرا الى نوافذ القطار بلا اكتراث ، بينما كانت سيدة شابة في معطف ذى مربعات تجلس حزينة معزولة على مسطبة تخطط رسما بطرف مظلتها على الواح الرصيف المبللة . وبعد المنعطف لاح حاجز خشبي من وراء الاشجار وقد رسمت عليه زجاجة كتب عليها : «فودكا شوستوف المطعمة بالغبيراء لا تضارع» . وانتهت الغابة وظهرت الى اليسار واليمين صفوف طويلة من الكرنب الابيض-الاخضر ، وعند تقاطع الخط الحديدي مع طريق وقفت خلف الحاجز عربة محملة بالقش ؛ وامرأة في فروة رجالية تمسك مقود حصان نحيل عنيد . وصار من الممكن الآن ان يلمح البصر في الافق البعيد اطراف الابراج المستدقة تحت سحابة طويلة ، وقبة كنيسة «المسيح المخلص» تلمع عاليا فوق المدينة .

كان تليغين يجلس عند نافذة العربة مستنشقا هواء ايلول الكثيف ، ورائحة الاوراق والفطر المتفسخ ودخان قش يحرق في مكان ما ، ورائحة الأرض التي مسها الصقيع عند الفجر .

واحس ايفان ايليتش بانه قطع دربا من الآلام امتد سنتين ، ونهايته هنا ، في ساعة الانتظار الطويلة الرائعة هذه . وقد خمن انه سيضغط في الساعة الثانية والنصف تماما على زر الجرس في ذلك الباب الوحيد – وكان يتصوره من خشب البلوط الفاتح فوقه شباكان صغيران – الباب الذى كان سيبلغه ولو كان ميتا .

انتهت حدائق الخضار الملحقة بالبيوت ، وظهرت على جانبي الطريق بيوت الضواحي الصغيرة المبقعة بالوحل ، وشوارع مرصوفة رصفا غير متقن تسير عليها عربات مشحونة مكركبة ، واسيجة وراءها حدائق نبتت فيها اشجار زيزفون معمرة تفرش اغصانها حتى منتصف الشوارع الجانبية ، ولافتات ملونة ، وسابلة ذاهبون في شؤونهم التافهة دون ان يلتفتوا الى القطار الهادر وراكبه – ايفان ايليتش – الجالس عند نافذة احدى عرباته ، وفي الاسفل ، سار نحو داخل الشارع ترام صغير كاللعبة ، وطلعت قبة كنيسة صغيرة من وراء بيت ، ودقت العجلات على المحولات . واخيرا ، اخيرا – بعد سنتين طويلتين – مر بالنوافذ رصيف محطة موسكو الخشبي . وصعد الى العربات شيوخ نظاف لا مبالون في مآزر

بيضاء . اخرج ايفان ايليتش راسه بعيدا وراء النافذة ، وتطلع . من الحماقة انتظار احد ما : انه لم يبلغ عن وصوله .

خرج ايفان ايليتش من المحطة الى ساحة المحطة ، ولم يضبط نفسه فضحك : فقد كان صف طويل من العربات يقف فى الساحة على بعد زهاء خمسين خطوة . وكان السواقون يصرخون من مقاعدهم ملوحين بقفازاتهم :

– انا حاضر ! انا حاضر ! انا حاضر !

– تفضل ، يا حضرة السيد ، على الحصان الفاحم !

– عربتى سريعة ، وبعجلات من مطاط !

وكانت الخيول باعنتها المتوترة تضرب الأرض بحوافرها ، وتحمحم ، وتصهل . وكان الصياح ينتشر فى الساحة كلها . وبدا وكأن العربات توشك على اجتياح المحطة .

صعد ايفان ايليتش على عربة عالية جدا ، لها مقعد ضيق . ساله السائق الجميل الصفيق عن العنوان بتساهل لطيف ، ولكى يبهر زبونه جلس بانحراف على مقعده ، ممسكا العنان رخوا بيده اليسرى ، مطلقا حصانه فى عدو سريع . وراحت العجلات المطاطية المنفوخة تنط على حجارة الشارع .

– هل انت قادم من الحرب ، يا حضرة ؟

– هربت من الاسر .

– صحيح ؟ وكيف الحال عندهم ؟ يقولون ليس لهم ما ياكلونه . انت ، يا جدة ، احذرى . معى بطل وطنى . يهرب الكثيرون من هناك . احذر ، يا صاحب العربة . . . آه ، المغفل ! . . هل تعرف ايفان تريفونيتش ؟

– من هو ؟

– انه فى شارع رازغولاى ، يتاجر بالاقمشة الجوخ ! . . يوم أمس ركب فى عربتى ، دامع العينين . آه ، حكاية ! . . اثرى من الصفقات الحربية ، وهو لا يعرف كيف ينفق فلوسه لكثرتها ، ولكن زوجته هربت مع بولونى قبل يومين . واصحابنا السواقون نشروا الحادث فى طول موسكو وعرضها . وايفان تريفونيتش الآن لا يجرؤ على الخروج الى الشارع . . . ذلك جزاء نهب الناس . . .

– ارجوك ان تسرع ، يا صاحبى .

حثه ايفان ايليتش رغم ان حصانه السريع العالى كان منطلقا فى شارع جانبى كالريح ، ملقيا راسه الغاضب الى الوراء على عادته القبيحة .

– وصلنا ، يا حضرة السيد ، المدخل الثانى . قف ، يا فاسيا ! . .

القى ايفان ايليتش نظرة سريعة منفعلة على النوافذ الست من بيت ابيض ، حيث تدلت ستائر من الدنتلا وادعة نقية ، وقفز عند المدخل . كان الباب قديما منقوشا محلى براس اسد ، وجرسه غير كهربائى ، من النوع القديم . توقف ايفان ايليتش بضع ثوان ، غير قادر على ان يرفع يده الى الجرس ، وقلبه متباطىء الخفقان موجع . «فى واقع الامر اننى لا اعرف شيئا الآن . فقد يكون البيت خاليا من الناس ، وربما لا يستقبلوننى» . فكر بذلك مع نفسه . وضغط المقبض النحاسى وسمع الجرس يدق فى اعماق البيت . «بالطبع لا يوجد احد فى البيت» . ولكنه سرعان ما سمع وقع خطوات إمراة سريعة . فتلفت مشتت اللب . فراى وجه السائق المرح يغمز له . ثم صلصلت سلسلة ، وانفتح الباب ، واطل وجه وصيفة عليه آثار جدرى قليلة . سعل تليغين وسالها :

– هل تسكن داريا دميترييفنا هنا ؟

ردت الفتاة المجدورة برقة وعذوبة صوت :

– انها فى البيت ، فى البيت ، تفضل . السيدة والآنسة موجودتان فى البيت .

سار ايفان ايليتش كالحالم فى رواق ضيق تنتشر فيه رائحة فراء ، له جدار زجاجى ، وفيه سلال . فتحت الوصيفة الى اليمين بابا ثانيا مبطنا بمشمع اسود ، فوجد ايفان ايليتش نفسه فى ممر صغير علقت فيه معاطف نسائية ، وأمام المرآة قفازات ، ومنديل عليه صليب أحمر ، ولفاح ازغب . وكانت كل هذه الاشياء البريئة تعبق برائحة خفيفة مالوفة لعطور نسائية مذهلة .

ذهبت الوصيفة لتبلغ عن وصول ضيف دون ان تسال عن اسمه . مس ايفان ايليتش باصابعه اللفاح الازغب ، وخامره شعور مفاجىء بان لا صلة بين هذه الحياة النقية الفاتنة وبينه ، وهو الخارج من الحماة الدامية . سمع صوت الوصيفة آتيا من

اعماق البيت : «يا آنسة ، جاء من يسأل عنك» . اغمض ايفان ايليتش عينيه ، وكأن صاعقة ستنقض عليه من السماء بعد لحظة ، وسمع صوتا عجولا صافيا بث الرجفة من رأسه حتى قدميه :

– هل يسأل احد عنى ؟ من ؟

ترددت خطوات فى الحجرات ، جاءت مندفعة من هاوية السنتين من الانتظار . وظهرت داشا عند باب الممر ، وقد سقط عليها ضوء من النوافذ ، وسرت شقرة فى شعرها الناعم . وبدت اعلى قامة ، واكثر نحافة ، وهى فى بلوزة محاكة ، وتنورة زرقاء .

– هل سألت عنى ؟

وتلجلجت ، وارتعش وجهها ، وارتفع حاجباه ، وانفغر فمها ، الا ان ظل الفزع زايل وجهها فى اللحظة التالية ، وتألقت عيناها بالدهشة والفرح .

– اهذا أنت ؟

قالتها بصوت لا يكاد يسمع ، وبسطت ذراعيها وطوقت رقبة ايفان ايليتش بانفعال ، وقبلته بشفتين رقيقتين مرتعشتين . ثم ابتعدت عنه :

– ايفان ايليتش ، تعال الى هنا .

وركضت الى غرفة الجلوس وجلست على مقعد ، وطوت جذعها نحو ركبتيها ، وغطت وجهها بيديها .

– بالطبع ، هذا من الحماقة . . .

همست بذلك ، وهى تمسح عينيها بكل جهدها . ووقف ايفان ايليتش امامها . وفجأة امسكت داشا بذراعى المقعد ، ورفعت رأسها :

– ايفان ايليتش ، هل هربت ؟

– هربت .

– يا ربى وماذا ؟

– ورأسا الى هنا .

وجلس فى مقعد قبالتها ، وهو يضم طاقيته بكل قوته .

سألت داشا متلعثمة :

– كيف حدث . . . ذلك ؟

– بشكل اعتيادى ، عموما .

– وهل تعرضت للخطر ؟

– نعم . . . اقصد ليس بذاك الخطر .

وتبادلا كلمات اخرى لبرهة اخرى . وبالتدريج اخذ الحياء يستولى عليهما . غضنت داشا بصرها ، وسألت :

– منذ زمان وأنت فى موسكو ؟

– جئت من محطة القطار رأسا .

– سأطلب قهوة الآن . . .

– لا ، لا داعى للكلفة . . . سأذهب الآن الى الفندق .

عندئذ سألت داشا بصوت لا يكاد يسمع :

– هل ستأتى فى المساء ؟

هز ايفان ايليتش رأسه بعد ان اطبق شفتيه . وكان يحس بعسر فى تنفسه .

نهض .

– اذن ، انا ذاهب : وسآتى فى المساء .

مدت داشا يدها له ، فتناولها ناعمة قوية ، ومن هذه الملامسة شعر بتوهج ، وتصاعد الدم الى وجهه . ضغط على اصابعها ، وسار الى الرواق ، الا انه التفت عند بابه . كانت داشا تقف وظهرها الى النور ، ترمقه من تحت حاجبيها .

– هل من الممكن ان اجيء فى نحو الساعة السابعة ، يا داريا دميترييفنا ؟

هزت رأسها بالايجاب . خرج ايفان ايليتش مسرعا من مدخل البيت ، وقال للسائق :

– الى الفندق ، الى فندق جيد ، بل واحسن فندق !

جلس فى العربة متكئا على ظهر مقعدها ، حاشرا يديه فى جيبى معطفه ، وابتسم ابتسامة عريضة . مرت به سريعا ظلال مزرقة – ظلال الناس والاشجار والعربات . وبردت وجهه نسمة قارسة فواحة بنكهة مدينة روسية . رفع ايفان ايليتش الى انفه كفه التى ما تزال ملتهبة من ملامسة داشا ، وضحك قائلا بينه وبين نفسه : «سحر !»

فى تلك اللحظة كانت داشا تقف عند نافذة فى غرفة الجلوس بعد ان ودعت ايفان ايليتش . كان رأسها يطن ، وكانت ، مهما

بذلت من جهد ، لا تستطيع ان تتغلب على الرهبة والانفعال وتفكر بما حدث . اطبقت عينيها بشدة ، واهتزت فجـاة ، وركضت الى مخدع اختها .

كانت يكاترينا دميتريفنا تجلس عند النافذة تخيط شيئا وتفكر . وعندما سمعت خطوات داشا سالتها دون ان ترفع راسها اليها :

– من كان عندك ، يا داشا ؟

ونظرت كاتيا ، وسرت رعشة في وجهها .

– هو . . . الا تفهمين ؟ . . هو . . . ايفان ايليتش .

انزلت كاتيا خياطتها ، وبسطت ذراعيها ببطء . وقالت داشا بصوت خافت :

– افهميني ، يا كاتيا . انا لست فرحة . بل ويتملكني الخوف .

٣١

ما ان هبط الظلام حتى اخذت داشا تجفل عند كل نامة ، وتركض الى غرفة الجلوس ، وتتسمع . . فتحت عدة مرات كتابا على صفحة لا تتغير «احبت ماروسيا الشوكالاته التى اشتراها لها زوجها من مخزن كرافت . . .» وفي الغسق البارد اضيئت نافذتان في بيت الممثلة تشارودييفا المقابل لبيتهم ، واخذت خادمة على راسها طاقية تهيئ المائدة ، ثم ظهرت تشارودييفا نحيلة كالهيكل العظمى وقد القت على كتفيها معطفا مخمليا ، وجلست الى المائدة ، وتثاءبت ، وربما نامت على الأريكة ، صبت لنفساحساء ، وغرقت فجاة في تفكير ، وثبتت عينيها الجامدتين في مزهرية فيها وردة ذابلة . كررت داشا من خلال اسنانها : «احبت ماروسيا الشوكالاته» . ودق الجرس فجاة . وغاض الدم من قلب داشا . ولكن الطارق لم يكن الا موزع الصحيفة المسائية . وقالت داشا لنفسها : «لا ياتى» وذهبت الى غرفة الطعام ، حيث كان مصباح واحد يضيء فوق المفرش الابيض ، وحيث الساعة تتكتك ، وكانت

تشير الى السابعة الا خمس دقائق . جلست داشا الى المائدة . «وعلى هذا النحو تمضي الحياة ثانية بعد ثانية . . .»

ودق الباب الخارجي مرة اخرى . تقطعت انفاس داشا ، وهبت واقفة ، وركضت الى الرواق . . . كان القادم حارسا من المستشفى العسكرى جلب رزمة من الورق . وايفان ايليتش لن ياتى بالطبع ، وهو على حق . فقد انتظرته سنتين ، وعند اللقاء لم تجد كلمات مناسبة تقولها له .

اخرجت داشا منديلها ، واخذت تعض طرفه . لقد كانت تتوجس وتعرف ان ذلك سيحدث بالصورة التى حدث بها بالضبط . عامين احبت صورة رجلها الخيالى ، ولما جاءها حيا . . . ذهلت عن امرها .

وقالت داشا لنفسها : «فظاعة ، فظاعة» . ولم تلاحظ الباب يفتح قليلا ، وتظهر ليزا المجدورة .

– يا آنسة ، جاءوا لزيارتك .

زفرت داشا زفرة عميقة ، ومشت الى غرفة الطعام بخفة ، وكانما لا تمس الأرض . كانت كاتيا اول من رات داشا ، فابتسمت لها . نهض ايفان ايليتش ، ورمش وانتصب واقفا .

كان يلبس قميصا جديدا من الجوخ ، وحزام عتاد جديدا القاه على كتف واحدة . وكان حليق الوجه باتقان ، قد حلق شعر راسه لتوه . والآن كان واضحا بشكل خاص ارتفاع قامته ، وامتشاقه وسعة كتفيه . وبالطبع ، كان هذا رجلا جديدا اطلاقا . نظرة عينيه الوضاءتين قوية ، وعلى طرفي فمه المستقيم الدقيق غضنان ، خطان صغيران . . . وجب قلب داشا ، فقد فهمت انهما من اثر الموت والفزع والعذاب . كانت يده قوية باردة .

اخذت داشا مقعدا ، وجلست الى جانب تليغين . فوضع هو يديه على الخوان ، وقبضهما ، واخذ يتحدث عن الأسر والهروب من الأسر ، وهو ينظر اليها نظرات سريعة خاطفة . وكانت هي في جلستها الشديدة القرب منه تتطلع الى وجهه فاغرة الفم .

واحس ايفان ايليتش وهو يروى وكان صوته يرن من مسافة بعيدة ، وليس بصوته ، وان كيانه كله يهتز منفعلا . والى جانبه تجلس مخلوقة تعجز الكلمات عن وصفها ماسة بثوبها ركبته – فتاة

غير مفهومة مطلقا ، يضوع منها شذى دافىء يدير الراس .

ظل ايفان ايليتش يتحدث طوال المساء . وكانت داشا تستفهمه وتقاطعه ، وتبسط يديها ، وتلتفت الى اختها :

– كاتيوشا ، هل فهمت ؟ حكموا عليهم بالاعدام رميا بالرصاص !

وحين وصف تليغين الصراع من اجل السيارة ، والثانية الفاصلة عن الموت ، وانطلاق السيارة ، والريح الهابة على الوجه – الحرية والحياة ! – لاح شحوب كثير على وجه داشا ، وامسكت يده وقالت :

– لن ندعك تذهب الى اى مكان بعد الآن !

ضحك تليغين :

– سيستدعوننى ثانية ، ولا مفر من ذلك . وكل ما آمله ان يرسلونى الى مصنع حربى .

وضغط على يدها بحذر .. اخذت داشا تحدق فى عينيه ، وتمعن النظر فيهما ، ولونت خديها حمرة خفيفة . فكت يدها ، وقالت :

– لماذا لا تدخن ؟ ساجلب لك علبة ثقاب .

وخرجت بسرعة ، وعادت فى الحال ومعها علبة ثقاب ، وتوقفت امام ايفان ايليتش ، واخذت تقدح اعواد الثقاب ممسكة اياها من راسها تماما فتنكسر فى يدها . تلك هى اعواد الثقاب التى تشتريها صاحبتنا ليزا ! واخيرا اشتعل عود ثقاب . رفعته بحذر الى سيكارة ايفان ايليتش فانار ضوؤه حنكها . امتص تليغين انفاسا من سيكارته مقلصا عينيه . ولم يدر بخلده ان من الممكن ان يحس بمثل هذه السعادة من اشعال سيكارة له .

كانت كاتيا طول هذا الوقت تراقب داشا وتليغين صامتة . وكانت سعيدة كل السعادة لداشا ، ومع ذلك فقد كانت تحس بحزن شديد . ذلك لان فاديم بتروفيتش روتشين لن يغب عن ذاكرتها ابدارغم انها كانت تامل ان تنساه . وقد كان يجلس معهما على المائدة ايضا ، وقد جلبت له ايضا علبة ثقاب ذات مرة ، واشعلت له سيكارته ، دون ان تكسر عود ثقاب واحد .

انصرف تليغين عند منتصف الليل . طوقت داشا اختها ، وقبلتها بقوة ، واغلقت باب غرفتها . اضطجعت على السرير والقت يديها وراء راسها ، وفكرت بانها قد طلعت اخيرا من الركود الكئيب ، ورغم ان كل شىء حولها ما يزال وحشيا فارغا ومرعبا ، الا ان كل هذا زرقة امل ، نفحة من السعادة .

٣٢

تلقى ايفان ايليتش فى اليوم الخامس من وصوله رسالة رسمية من بطرسبورغ تبلغه بالحضور فورا الى مصنع البلطيق .

وقد تعاقب كالحلم الفرح بهذه الرسالة ، وبقية النهار التى قضاها مع داشا بهمومهما فى المدينة ، والوداع السريع فى محطة نيكولايفسكى ، ثم مقصورة الدرجة الثانية بدفئها الجاف ، وطقطقة جهاز التدفئة والظرف الذى عثر عليه فى جيبه فجاة مربوطا بشريط ، وفيه تفاحتان وشوكالاته وكعكات . فك ايفان ايليتش زر ياقة قميصه الجوخ ، ومد رجليه ، ودون ان يستطيع ان يتخلى عن ابتسامته الحمقاء نظر الى الجار الجالس قبالته ، وهو عجوز لا يعرفه ضئيل الجسم صارم الهيئة فى نظارة .

سال العجوز :

– هل انت خارج من موسكو ؟

– نعم ، من موسكو – ثم تابع مع نفسه :

– يالرب ، اية كلمة لطيفة عجيبة هى «موسكو» هذه ! ..

شوارع صغيرة مغمورة بشمس الخريف ، واوراق جافة تحت الاقدام ، وداشا الخفيفة الهيفاء تسير على هذه الاوراق ، وصوتها الصافى الذكى – وهو لم يفهم اية كلمة منها – والشذى الدائمى لزهور دافئة يشمه حين كان ينحنى نحوها او يقبل يدها .

قال العجوز :

– هرج ومرج وضوضاء فى هذه المدينة . امضيت ثلاثة ايام فى موسكو ... ورايت ما فيه الكفاية – وباعد بين ساقيه بحذائيهما الطويلين وكالوشين عاليين ، وبصق واكمل : وفى الشوارع تجد اناسا يتراكضون هنا وهناك ... وفى الليل اضواء وصخب ،

ولافتات ، وكل شيء يدور . . . وزحام الناس . . . جنون !!! نعم ، هذه هي موسكو ... بداية الارض ... بينما لا اجد غير طراد جهنمي مخبول . وانت ، ايها الشاب ، لقد خضت معارك . فهل جرحت ؟ لقد ادركت ذلك من الوهلة الاولى ... قل لى ، انا العجوز ، امن المعقول ان دماءنا تسفك هناك فى سبيل هذه الضوضاء اللعينة ؟ اين الوطن ؟ اين الدين ؟ اين القيصر ؟ دلنى . انا مسافر الى بطرسبورغ لاجلب خيوطا ... ليأخذها الشيطان ! تفو ! . . بأى شيء ساعود الى تيومن ؟ بخيوط ؟ . . لا لا اعود بخيوط بل اعود واقول : يا ناس ، نحن هالكون جميعا . هذا ما ساعود به ... تذكر قولى ، ايها الشاب . اننا سندفع الثمن ، سندفع ثمن كل شيء ... سيكون علينا ان نحاسب على هذا الجنون .

واسند العجوز يديه على ركبتيه ، ونهض ، وانزل الستارة الصغيرة على النافذة التى كانت تتطاير وراءها فى الظلام شرارات القطار مثل خطوط ضوئية . وتابع العجوز حديثه :

– نسينا الرب فنسانا ... هذا ما اقوله ، آوه ، سندفع الثمن غاليا جدا ...

فسأل ايفان ايليتش :

– هل تظن ان الالمان سيغلبوننا ؟

– ومن يعرف ؟ من سيرسله الرب لعقابنا فسنتحمل العذاب منه . . لنفرض ان الخدم فى حانوتى بدأوا يتوقحون . سأتحمل بعض الوقت ، ثم اوجه لأحدهم ضربة على قفاه ، والآخر لطمة على رقبته ، والثالث اطرده شر طردة ... ولكن روسيا ليست حانوتى ، بل هى استثمارة شاسعة . ان الرب رحيم بالعباد ، ولكن اذا لوّث الناس الطريق اليه وجب تنظيف الطريق ، ام لا ؟ ذلك ما ارمى اليه ... الرب انصرف عن العالم ... ولا يمكن ان يوجد ارهب من ذلك ...

وضع العجوز يديه على بطنه ، واغمض عينيه والتمعت نظارته لمعانا كالحا حين راح يهتز فى ركن رفه الرمادى . خرج ايفان ايليتش من المقصورة ، ووقف عند نافذة فى الممر ووجهه يكاد يلامس زجاجها .

كان يتسرب من الفتحة هواء منعش حاد . ووراء النافذة كانت الخطوط النارية تتطاير فى الظلام ، وتتشابك ، وتسقط على الارض . وبين الحين والآخر كانت تمر سحابة رمادية من الدخان . وكانت عجلات القطار تقرع مطواعة . وصفرت القاطرة صفيرا ممدودا ، وهى تنعطف فى منعطف ، والقت نار حجرة الوقود فيها ضوءا على القمم المخروطية لاشجار الشوح ، وقد برزت هذه من الظلمة ثم اختفت . وقرقعت محولات الخطوط . واهتزت العربة اهتزازا خفيفا ، وومض قرص أخضر لمصباح ، ومرة أخرى مرت خطوط نارية طويلة بالنوافذ مثل مطر نارى .

وفيما كان ايفان ايليتش يراقبها امتلأ قلبه بكل ما حدث خلال تلك الايام الخمسة غامرا اياه بفرح مفاجيء . ولو كان فى مقدوره ان يكشف هذا الشعور لأحد من الناس لاُعتبر مجنونا . ولكن ذلك بالنسبة له ليس غريبا او بعيدا عن العقل ، ان كل شيء فيه واضح كل الوضوح .

واحس بان ملايين وملايين من الناس تعيش فى ظلام الليل ، وتتعذب ، وتموت . الا أنها تعيش بالمعنى الرمزى لهذه الكلمة ، وكل ما يحدث على الارض يحدث بهذا المعنى ، وتوهما تقريبا . وهذا التوهم من القوة بحيث لو بذل ايفان ايليتش اى جهد لتغير كل شيء ، وصار مختلفا . وبين هذا التوهم يوجد صميم حى هو ايفان ايليتش ، بقامته المنحنية الآن على النافذة . انه مخلوق محبوب خرج من عالم الظلال ومنطلق وسط المطر النارى فوق العالم المظلم .

واستمر هذا الشعور غير الاعتيادى لحب نفسه بضع ثوان . وعاد الى المقصورة ، وصعد الى الرف العلوى ، ونظر الى يديه الكبيرتين ، وهو يخلع ثيابه ، وفطن لاول مرة فى حياته بانهما جميلتان . والقاهما خلف رأسه ، واغمض عينيه ، وتراءت داشا له فى الحال . كانت تحدق فى عينيه با نفعال وعشق (حدث ذلك اليوم فى غرفة الطعام . لفت داشا بعض الكعك . دار ايفان ايليتش حول المائدة ، وتقدم منها ، وطبع قبلة على كتفها الدافئة . التفتت إلتفاتة سريعة ، فسألها : «داشا ، هل تقبلين ان تكونى زوجتى ؟» فاكتفت بان حدقت فيه .)

اما الآن ، وهو مضطجع على الرف ، يتخيل وجه داشا ، دون ان يشبعه هذا التخيل فقد احس ، ولأول مرة فى حياته ايضا ، بالحبور ، وبنشوة كون داشا تحبه ، تحب الشخص ذا اليدين الكبيرتين الجميلتين .

ذهب ايفان ايليتش الى مصنع البلطيق فى يوم وصوله الى بطرسبورغ ، وعيّن فى احدى الورش ضمن النوبة الليلية .

وكانت تغيرات كثيرة قد حصلت فى المصنع خلال ثلاث سنوات . ازداد عدد العمال ثلاث مرات . كان جزء منهم شبانا ، وجزء آخر نقل من الاورال او من المدن الغربية ، وجزء أخذ من الجيش العامل . وكان العمال يقرأون الصحف ، ويلعنون الحرب ، والقيصر ، والقيصرة ، وراسبوتين ، والجنرالات ، وكانوا ساخطين ، وواثقين جميعا من ان «الثورة ستندلع» بعد الحرب .

وكانوا ساخطين بشكل خاص على خلط الحنطة بالنخالة فى المخابز ، واختفاء اللحم فى الاسواق لعدة ايام متتالية ، واذا وجد فهو منتن ، والبطاطس اضر بها الصقيع ، والسكر قذر ، وعلاوة على ذلك فان الغلاء قد استشرى ، واصحاب الحوانيت ، وهم اغنياء حديثون ومضاربون ، قد اثروا من الصفقات الحربية ، كانوا يشترون علبة الحلوى بخمسين روبلا ، وزجاجة الشمبانيا بمائة روبل ، ولم يريدوا ان يسمعوا ولو كلمة عن الصلح مع الالمان .

اجيز ايفان ايليتش ثلاثة ايام لتدبير شؤونه الخاصة ، فقضى المدة كلها فى التجواب فى ارجاء المدينة بحثا عن شقة . وقد تفقد عشرات البيوت دون ان يعجبه واحد منها . ولكنه فى اليوم الاخير عثر فجاة على ما لاح فى خياله وهو فى عربة القطار : خمس غرف صغيرة ذات نوافذ نظيفة تطل على مغرب الشمس . وكانت هذه الشقة الواقعة فى نهاية جادة كامينواستروفسكى غالية بعض الشىء بالنسبة لايفان ايليتش ، ولكنه استأجرها فى الحال ، وكتب يخبر داشا بذلك .

وذهب الى المصنع فى الليل الرابع . كانت المصابيح مضاءة على الاعمدة العالية فى الفناء المسود من قذارة الفحم ، والدخان

الخارج من المداخن ينزل سافلا نحو الارض بفعل الرطوبة والريح ، والهواء اصفر ثقيل مشبع بذرات السخام . ومن خلال النوافذ نصف الدائرية الهائلة المغبرة فى مبانى المصنع كان الناظر يرى دوران عدد ضخم من البكرات وسيور النقل ، وحركات اجسام المخارط الحديدية وهى تثقب ، وتخرط ، وتصقل الحديد والبرنز . وكانت الاقراص العمودية لمكابس التخريم تدور . وفى الاعلى كانت مقاصير الرافعات تروح وتجىء فى الظلام . وكانت افران الصهر تتوهج بضوء وردى وابيض ، والمطرقة البخارية الجبارة تهز الارض بضرباتها ، واعمدة اللهب تتصاعد من المداخن الواطئة فى ظلام السماء الرمادية . وكانت اشباح الناس تتحرك وسط هذا الطنين وهدير الآلات . . .

دخل ايفان ايليتش الورشة حيث كان المكابس تعمل صانعة اغلفة قنابل الشرابنيل . طاف المهندس ستروكوف به فى انحاء الورشة شارحا له بعض خصائص العمل الجديدة على ايفان ايليتش . وكان هذا المهندس صاحبا قديما له . ثم دخل معه الى مكتب محجوز بالالواح الخشبية فى ركن من الورشة ، حيث اطلعه على الكتب والسجلات ، وسلمه المفاتيح ، وقال له وهو يرتدى معطفه :

— نسبة التلف فى الورشة هى ثلاثة وعشرون بالمائة من انتاجها العام . فحاول ان تتمسك بهذه النسبة .

وجد ايفان ايليتش فى هذه الكلمات ، وفى طريقة تسليمه للورشة عدم الاكتراث بالعمل . وقد غمه ذلك ، فقد عرف ستروكوف مهندسا ممتازا ورجلا متحمسا فى الماضى . عندئذ ساله :

— اتحسب من غير الممكن التقليل من نسبة التلف ؟

هز ستروكوف راسه متثائبا ، وسرح طاقيته الى اسفل شعره غير المصفوف ، وعاد الى المخارط مع ايفان ايليتش .

— ابصق على ذلك ، يا صاحبى . ما الذى يهمك فيه ؟ ايهمك اننا سنقتل من الالمان فى الجبهة اقل بنسبة ٢٣ بالمائة ؟ وبالاضافة الى ذلك ليس فى اليد حيلة ، فان الالآت قد استهلكت ، فلتذهب الى الشيطان !

وتوقف عند مكبس ، وضع عامل عجوز قصير الساقين فى

منزر جلدى قطعة حديد محمية الى حد الاحمرار تحت المكبس ، وهبط القالب ، ونفذ ذراع المكبس فى الفولاذ الوردى وكأنه ينفذ فى زبدة ، ويتطاير اللهب ، وارتفع القالب ، وسقط غلاف الشرابنيل على الارض الترابية . وفى الحال تناول العجوز قطعة جديدة . وكان عامل آخر شاب مديد القامة اسود الشاربين منشغلا عند فرن الصهر .قال ستروكوف مخاطبا العامل العجوز :

– اذن ، الاغلفة بالتلف ، يا روبليف ؟

ابتسم العجوز ، وادار لحيته الهزيلة الى جانب ، ونظر الى تليغين نظرة ماكرة بطرف عينيه الضيقتين :

– صحيح بالتلف . انظر كيف يعمل ؟ – ووضع يده على عمود صغير مخضر من الزيت كان قالب المكبس ينزلق عليه . – انه يهتز . كان يجب ان يلقى فى كومة المهملات منذ زمان .

ضحك العامل الشاب الواقف عند فرن الصهر ، وهو فاسيلى بن ايفان روبليف وقال :

– هناك اشياء كثيرة يجب ان تقذف من هنا . الآلة ادركها الصدا .

قال ستروكوف بمرح :

– على مهلك ، يا فاسيلى .

– تلك هى المسألة . . .

وهز فاسيلى رأسه بشعره الأجعد . وظهرت تكشيرة خبيثة واثقة على وجهه النحيل العالى الوجنتين قليلا ذى العينين الثاقبتين الغاضبتين والشاربين الاسودين .

قال ستروكوف لايفان ايليتش بصوت خافض وهو يبتعد :

– انهما احسن العمال فى الورشة . الى اللقاء . سأذهب اليوم الى «الاجراس الحمراء» . الم تذهب الى هناك ؟ كازينو ممتاز ، ويقدمون فيها النبيذ .

بدا تليغين يهتم بروبليف الأب والابن بفضول . فقد اذهلته فى الحديث الاول ذاك لغة الكلام الرمزية تقريبا ، والبسمات والنظرات التى تبادلها ستروكوف معهما ، وكان الثلاثة كانوا يختبرون

تليغين ليكتشفوا أهو من اصحابهم ام عدو لهم . وقد ادرك من البساطة الخاصة التى تحدث بها روبليف الاب والابن معه فى الايام التالية انهما يعتبرانه «من اصحابهم» .

وهذا الانحياز لم يكن يتعلق ، فى اغلب الظن ، بآراء تليغين السياسية التى كانت غير واضحة وغير محددة ، بل كان يتعلق ، على الاكثر ، بذلك الاحساس بالثقة الذى كان يوحيه وجوده لكل انسان . كان لا يتحدث ولا يقوم بشىء يلفت النظر ، ولكن كان واضحا انه رجل نزيه ، رجل فاضل ، صاف الى النهاية ، انه من اصحابهم .

وفى النوبات الليلية كان ايفان ايليتش اذا دنا من الاب والابن يسمعهما يتجادلان فى الغالب .

كان فاسيلى روبليف رجلا مطلعا لا يفتأ يتحدث عن الصراع الطبقى ودكتاتورية البروليتاريا ، وهو الى ذلك يتحدث بلغة الكتب وبطلاقة . وكان روبليف الاب من اتباع الكنيسة القديمة ، ماكرا وشيخا غير متدين البتة . وكان يقول :

– كل شىء مدون فى كتب الاديرة عندنا فى غابات بيرم : هذه الحرب نفسها ، وكيف ستجلب الخراب ، ستدمر ارضنا كلها ، وكم سيبقى من الناس ؟ سيبقى منهم القليل النزر . . . وعندئذ سيخرج من الغابات ، من احد الاديرة رجل سيحكم الارض ، يحكم بكلمة الله الرهيبة .

فكان فاسيلى يقول :

– التصوف .

– آه ، ايها الأرعن ، الجلف ، اراك تتبجح بالالفاظ . . . تعتبر نفسك اشتراكيا !.. واى اشتراكى انت ! مجرد قوزاقى ريفى ! كنت مثلك ايام زمان . لا يهمه الا ان يتهافت على الامر : فيدفع قبعته الى اذنه ، ويوسع عينيه ، ويصرخ : «انهضوا للنضال . . .» مع من ، ولاى شىء ؟ احمق !

فيقول فاسيلى مشيرا الى ابيه بابهامه :

– اسمع الى العجوز كيف يتحدث . فوضوى متزمت . لا يفقه شيئا من الاشتراكية ، ولكنه لا يكف عن لومى ليعترض علىّ فقط .

قاطعه ايفان روبليف ، وهو يخرج من فرن الصهر قطعة حديد متطايرة الشرر ورسم بها نصف دائرة فى الهواء ووضعها بخفة تحت ذراع المكبس النازل :

– لا ، لا يا سادة . انتم تقراون الكتب ، ولكنكم لا تطالعون الكتب التى ينبغى ان تطالع . والتواضع ليس بشيمة احد منهم ، ولا يفكرون فيه . . . ولا يفهمون ان كل انسان يجب ان يكون فقيرا فى روحه فى زماننا هذا .

– راسك مشوش ، يا ابى . من الذى صاح قبل حين وجيز : انا ثورى ؟

– نعم ، صحت . . . واذا حدث شىء فساكون اول من يمسك بمذراة للقتال . وما الذى يجعلنى اتمسك بالقيصر ؟ انا فلاح . وهل تعرف كم حرثت من الارض خلال ثلاثين عاما ؟ انا ثورى بالطبع . وهل تحسب اننى لا اهتم بخلاص روحى ؟

كان تليغين يكتب لداشا كل يوم . وكان ردها عليه اندر . كانت رسائلها غريبة ، وكانما قد مسها صقيع ، فكان ايفان ايليتش يحس وهو يقراها بقشعريرة خفيفة . وكان فى العادة يجلس الى النافذة معيدا عدة مرات قراءة رسالة داشا المكتوبة بسطور كبيرة مائلة الى الاسفل . ثم كان ينظر الى الغابة الرمادية الليلقية على الجزر ، والى السماء الغائمة الكدرة كماء القناة ، كان ينظر ويفكر بان هذا ما يجب ان تكون عليه رسائل داشا لا بالرقة التى يودها لقصر رويته .

كتبت له :

«صديقى العزيز . تقول انك استاجرت شقة مؤلفة من خمس غرف . ففكر فى النفقات التى ستثقل كاهلك بها . وحتى ان لم تعش فيها وحدك فان خمس غرف كثيرة . ثم انك ستحتاج الى خادمتين ، وهذا فى ايامنا هذه غال للغاية . حل الخريف عندنا فى موسكو ، والجو بارد ، وممطر ، وما من بصيص . . . وعلينا ان ننتظر الربيع . . .»

ومثلما ردت بنظرة على سؤاله يوم سفره : هل تقبلين ان

تكونى زوجتى ؟ لم تشر مباشرة فى رسائلها قط الى القران ، ولا الى حياتهما المقبلة معا . كان يجب انتظار الربيع .

وصار انتظار الربيع هذا ، والأمل المبهم اليائس فى حدوث معجزة يراود الجميع الآن . توقفت الحياة ، ودخل كل الاحياء فى سبات الشتاء مثل سبات دب يمص قائمته . وكان يبدو وكان المرء لم تعد له القوة ليتحمل انتظار ربيع دموى آخر الا فى الحلم .

ذات مرة كتبت داشا :

«. . . لم ارد ان اخبرك ولا ان اكتب لك عن وفاة بيسونوف . ولكننى يوم امس حكوا لى تفاصيل عن مقتله المريع . قبل خروجه الى الجبهة بوقت قصير التقيت به فى بولفار تفيرسكوى . كان بائسا جدا ، يبدو لى اننى لو لم اصده آنذاك لما لاقى حتفه . ولكننى صددته . وما كان لى الا افعل ذلك ، وسافعل الشىء نفسه لو اعيد الماضى» .

قضى تليغين نصف يوم فى الرد على هذه الرسالة . . . «كيف يمكن ان تفكرى باننى لا اتقبل كل ما يخصك» كتب ذلك ببطء شديد حريصا على ان تكون كل كلمة صادقة كل الصدق . «احيانا اختبر نفسى فاتصور انك احببت رجلا آخر ، وهذا افظع ما يمكن ان يحدث لى ، وحتى فى هذا الحال سأقبل بذلك . . . ولا يعنى هذا اننى ساخضع لهذا . لا ، فان شمسى ستظلم . . . ولكن هل حبى لك فى الفرح فقط ؟ انا اعرف ذلك الاحساس الذى يراود المحب حين يريد ان يضحى بحياته بسبب حبه القوى . . . والظاهر ان بيسونوف احس بذلك الاحساس ، حين خرج الى الجبهة . . . وانت ، ياداشا ، يجب ان تشعرى بأن لك مطلق الحرية . . . وانا لا اسالك شيئا ، حتى الحب . . . وقد ادركت ذلك فى المدة الاخيرة . . .» .

بعد يومين غادر ايفان ايليتش المصنع عند الفجر عائدا الى البيت ، ولدى وصوله اخذ حماما ، واستلقى فى السرير ، ولكنه اوقظ بعد قليل ، وسلم برقية :

«كل شىء بخير . احبك بشدة . داشاك» .

وفى يوم من ايام الآحاد جاء المهندس ستروكوف الى ايفان ايليتش ، واخذه الى كازينو «الاجراس الحمراء» .

كان الكازينو يحتل قبوا رسمت على سقفه المقوس وعلى

جدرانه طيور مبرقشة ، واطفال ذوى وجوه صغيرة منحلة وجعدات كثيرة الدلالة . كان الكازينو صاخبا وكثير الدخان . وعلى المسرح جلس رجل ضئيل الجسم اصلع محمر الخدين يضرب على البيانو . وكان بعض الضباط يشربون «كروشون» * قويا ، ويطلقـــون الملاحظات بصوت عال على النساء الداخلات . وبعض المحـامين المولعين بالفن يصرخون ويتجادلون . وكانت ملكة القبو ، الحسناء السوداء الشعر المنتفخة العينين تقهقه بصوت عال . بينمـا كان انتوشكا ارنولدوف يكتب رسالة من الجبهة ، وهو يلوى خصلة شعره . وكان مؤسس المستقبلية – وهو طبيب بيطرى مشـوه الوجه مسلول المظهر – يهوم متدلى الراس من السكر على منصة قرب الحائط . وكان صاحب القبو – وهو ممثل سابق طويل الشعر وديع عليه خمول الادمان على الخمرة – يظهر بين الحين والآخر عند باب جانبى ناظرا الى الزبائن بعينين مخبولتين ويختفى .

انتشى ستروكوف من «الكروشون» فقـال يحدث ايفـان ايليتش :

– اتدرى لماذا احب هذا الكازينو ؟ لأنك لن تستطيع ان تجد مثل هذا التعفن فى مكان آخر . متعة ! . . انظر ، الى تلك الزاوية ، هناك تجلس إمراة نحيفة مخيفة لا تستطيع حتى ان تحرك جسمها . هستيريا فى آخر مراحلها ، ولكنها تحتلى بنجاح خارق .

وضحك ستروكوف ، وعبّ من «الكروشون» واخذ ، دون ان يمسح شفتيه الناعمتين المظللتين بشارب تترى ، يسمى لايفان ايليتش اسماء الجُلاّس مشيرا باصبعه الى وجوههم المؤرقة السقيمة الشبيهة بوجوه المجانين .

– هؤلاء آخر الموهيقان ** . . . بقايا الصالونات الجمالية . باه ! عفن . باه ! وقد تقوقعوا هنا ، يتظاهرون بأنه لا توجـد حرب ، وان كل شىء كما هو فى الماضى .

---

* مزيج لعدة انواع من النبيذ الابيض والكونيـاك والروم . (المترجم) .

** قبيلـة منقرضـة من الزنوج الحمر فى امريكـا الشمالية . (المترجم) .

اخذ تليغين يتسمع وينظر . . . وكان كل شىء يبدو لعينيه كالحلم بسبب الحر والدخان والنبيذ ، وكان راسه يدور . . . رأى بعض الاشخاص يلتفتون الى باب المدخل ، والطبيب البيطرى يفتح عينيه المصفرتين ، ووجه صاحب الكازينو المخبـول يبرز من وراء الحائط ، والمرأة شبه الميتة الجالسة الى ناحية من ايفان ايليتش ترفع جفنيها الناعسين ، وترتد الحياة الى عينيها فجأة ، وتستقيم قامتها بحيوية غريبة وهى تنظر الى حيث كان الجميع ينظرون . . . وران سكون مباغت فى القبو ، ورن قدح عند سقوطه . . .

كان رجل كهل متوسط الطول يقف فى باب المدخل وقد دفع كتفيه الى الامام ، وحشر يديه فى جيبى ردائه الجوخى . كان وجهه الضيق بلحيته السوداء المتدلية يبتسم مرحا بغضنيـه العميقين المالوفين ، وشعت فى وجهه عينان ذكيتان نفاذتان متفحصتـان ملتهبتان بلون رمادى . وقد استمر ذلك دقيقة . ومن ظلام الباب اقترب منه وجه آخر – وجه موظف – ارتسمت عليه بسمة مقلقة ، وهمس له شيئا فى اذنه . غضّ الرجل انفه الكبير كارها :

– مرة اخرى انت وسخافتك . . . آه ، كم سئمت .

والقى نظرة اخرى الى زواد القبو بمرح اشد ، وهز لحيته ، وقال بصوت عال ممدود :

– وداعا ، يا اصدقائى المرحين .

واختفى فى الحال ، وصفق الباب . وسرى طنين فى انحـاء القبو كله . غرز ستروكوف اظافره فى يد ايفان ايليتش ، وقـال لاهث الانفاس :

– هل رأيت ؟ رأيت . . . هذا راسبوتين .

٣٣

خرج ايفان ايليتش من المصنع ماشيا فى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . كانت ليلة قارسة من ليالى كانون الاول ، ولـم يصادف عربة ليستأجرها ، فقد اصبح الآن من الصعب الحصول على واحدة منها فى مثل هذه الساعة حتى فى مركز المدينة . سار تليغين بسرعة فى وسط الشارع المقفر ، متنفسا البخار فى ياقته المرفوعة .

كان الهواء كله يبدو فى ضوء المصابيح النادرة مثقبا بابر الجمد ، وكان الثلج يخشخش تحت قدميه بصوت عال . والى الامام لمحت عيناه ومضات ضاربة الى الحمرة تتراقص فى الواجهة الصفراء المسطحة لاحد البيوت . استدار تليغين فى منعطف ، وراى لهب نار فى مجمرة مشبكة ، وشخوصا متثلجة متدثرة وسط سحب من البخار . والى مسافة ابعد على الرصيف وقف زهاء مائة شخص بلا حراك فى صف واحد من النساء والشيوخ والغلمان . انه طابور يقف قرب حانوت لبيع الاغذية . وعلى مقربة كان الحارس الليلى يطبطب بحذائه اللبادى ، ويضرب قفازيه احدهما بالآخر .

سار ايفان ايليتش بمحاذاة الطابور ناظرا الى الشخوص المنكمشة الملتصقة على الحائط ، الملتفة بالمناديل ، والبطانيات . وسمع صوتا يقول :

– يوم امس حطموا ثلاثة حوانيت فى منطقة فيبورغسكايا .

– هذا ما يبقى .

– يوم امس حطموا ثلاثة حوانيت فى منطقة فيبورغسكايا . يكون هناك كيروسين بعد الآن . وبينما انا هناك جاءت طباخة آل ديمينتيف ، واخذت خمس زجاجات بسعر فاحش .

– بكم ؟

– الزجاجة بروبلين ونصف ، يا فتاتى .

– الكيروسين ؟

– لن يفلت صاحب الحانوت من العقاب . سنتذكره اذا دقت الساعة .

– قالت اختى فى اوختا ان الناس امسكوا صاحب حانوت من هذا الصنف ، وحشروا راسه فى برميل مملوء بالماء المخلل وغرق فيه وهو يتوسل اليهم ان ينقذوه .

– لم يعاقبوه بما فيه الكفاية ، يجب ان يعذب اكثر .

– ونحن نتجمد فى الطابور .

– وهو ينتفخ بالشاى .

سال صوت مبحوح :

– من الذى ينتفخ بالشاى ؟

– كلهم ينتفخون بالشاى . زوجة الجنرال التى اخدم عندها

تنهض فى الساعة الثانية عشرة ، وتظل تشرب الشاى حتى الليل ، ولا اعرف كيف لا تنفجر هذه البلهاء .

– وتجمد انت ، وامرض بالسل .

– قولك صحيح تماما ، عندى سعال بالفعل .

– اما الفتاة التى اخدم عندها ، يا اعزائى ، فهى محظية . اعود من السوق فاجد الضيوف يملؤون غرفة الطعام فى بيتها ، وجميعهم سكارى . وفى الحال يطالبون بالبيض المقلى ، والخبز والفودكا ، وباختصار بطعام بسيط ومشروب قوى .

وارتفع صوت واثق :

– ينفقون النقود الانجليزية فى شرب الخمرة .

– ما هذا الذى تقوله ؟

– باعوا كل شىء . صدقونى ، فانا اعرف ما اقول . انتم تقفون هنا ، ولا تعرفون شيئا ، بينما هم باعوكم جميعا ولمدة خمسين عاما مقدما . كما باعوا الجيش كله .

– يا إلهى !

ومرة اخرى ارتفع صوت مبحوح ينادى :

– يا حضرة الحارس ، يا حضرة الحارس !

– ماذا حصل ؟

– هل سيباع الملح اليوم ؟

– على اكثر الاحتمالات لا يباع الملح اليوم .

– آه ، الملاعين .

– منذ خمسة ايام والملح غير موجود .

– الاوغاد يمتصون دم الشعب .

قال الحارس بصوت عالى النبرة كثيف :

– كفى كلاما ، يا نساء ، والا فان الحنجرة ستصاب بالبرد .

وخلف تليغين الطابور وراءه . وهدا لغط الاصوات الغاضب ، ومن جديد خيم القفر والظلام الزمهريرى .

وصل ايفان ايليتش الى الكورنيش ، واستدار الى الجسر ، وحين عبثت الريح باطراف معطفه تذكر ان عليه ان يبحث عن عربة ، على اية حال ، الا انه سرعان ما نسى ذلك . كانت عيون

المصابيح تتوامض على الشاطىء الآخر باهتة لا يكاد البصر يلمحها . وكانت الالتماعات الخافتة من ممر المشاة عبر النهر تنعكس خطا مائلا على الجليد . وكان المتسع العريض المقفر المظلم لنهر النيفا نهبة لريح قارسة تحدث عويلا بالثلج ، وصفيرا شاكيا فى اسلاك خطوط الترام ، وفى فتحات درابزين الجسر الحديدى .

كان ايفان ايليتش يتوقف من حين لآخر ، ويحدق فى تلك القمة الموحشة ، ثم يواصل سيره ، ويفكر ، كدابه الآن فى التفكير فى اتجاه واحد : فى داشا ، وفى نفسه ، وفى تلك اللحظة التى راودته السعادة كالنار ، وهو فى عربة القطار .

كان كل شىء يكتنفه الآن مبهما مضطربا متناقضا معاديا لتلك السعادة . وكان يضطر فى كل مرة ان يبذل جهدا ليقول لنفسه : اننى حى ، سعيد ، وستكون حياتى منيرة رائعة . لقد كان من السهل ان يقول هذا الكلام حين كان عند النافذة وسط شرارات القطار المنطلق ، بينما صار الآن يحتاج الى جهد هائل ليفصل نفسه عن تلك الشخوص المتجمدة تقريبا فى طوابير الانتظار ، عن الوحشة المميتة للريح المعولة فى كانون الاول ، عن الشعور بالخسارة العامة ، والهلاك المعلق فوق الرؤوس .

كان ايفان ايليتش واثقا من شىء واحد : كان يجد خيرا فى اشياء جمة : فى حبه لداشا وفى فتنة داشا ، وفى ذلك الاحساس السار الذى راوده وهو واقف آنذاك عند نافذة العربة وفى حب داشا له . ان معبد الحياة المريح العريق ، المكتظ ربما ، والرائع رغم ذلك ، قد اهتز ، وتصدع بضربات الحرب ، وتمايلت اعمدته ، وظهر صدع على عرض قبته ، وتساقطت الحجارة القديمة ، وهناك وسط الغبار المتطاير ، وهدير المعبد المحطم شخصان : ايفان ايليتش وداشا ، كانا وهما فى حميا الحب البهيجة ، ورغم كل شىء ، يطمحان فى ان يكونا سعيدين . فهل ذلك صحيح ؟

فكر ايفان ايليتش ، وهو يمد بصره فى الظلمة الليلية الموحشة ، ونقاط الاضواء المتوامضة ، ويسمع الريح تصفر كنواح يمزق القلب : «لماذا اغالط نفسى ؟ ان الرغبة فى السعادة اسمى الاشياء . وانا راغب فيها ، وليكن ذلك بالرغم من كل شىء .

فهل استطيع انا القضاء على الطوابير امام الحوانيت ، واطعام الجياع ، وايقاف الحرب ؟ لا . ولكن اذا كنت لا استطيع فهل يتحتم على ايضا ان اتلاشى فى هذا الديجور ، وارفض السعادة ؟ لا ، ليس حتما . ولكن هل استطيع ان اكون سعيدا ؟ هل سأكون سعيدا ؟ . .»

قطع ايفان ايليتش الجسر . وسار على شارع الكورنيش دون ان يلاحظ الطريق الذى يسلكه . كانت المصابيح الكهربائية العالية المهتزة بفعل الريح ترسل ضوءا ساطعا . وكان رذاذ الثلج يتناثر على الرصيف العالى بهسهسة جافة . كانت نوافذ قصر الشتاء مظلمة خاوية . عند كشك الحراسة المخطط فى الثلج المكوم وقف حارس عملاق مرتديا فروة خروف ، ضاغطا البندقية على صدره .

كف ايفان ايليتش عن السير فجاة ، وتطلع الى النوافذ ، ثم حث خطاه مصارعا الريح فى بادىء الأمر ، ثم مدفوعا بها من ظهره . وبدا له انه يستطيع الآن ان يقول للجميع ، لكل الناس قاطبة ، حقيقة بسيطة واضحة ، فيصدقون بها جميعا . يستطيع ان يقول لهم : «انتم ترون ان المضى فى العيش على هذه الطريقة مستحيل . الدول قائمة على البغضاء ، والحدود مخططة بالبغضاء . وكل واحد منكم كتلة من البغضاء ، قلعة مصوبة مدافعها الى كل الجهات والدنيا مكتظة ورهيبة ، والعالم كله مختنق بالكراهية والناس يفتك بعضهم ببعض ، وتسيل انهار الدم . الم يكفكم هذا ؟ الم تدركوا بعد ؟ اتريدون ان يقضى الانسان على الانسان ، هنا ايضا ، فى كل بيت ؟ ثوبوا الى رشدكم ، والقوا السلاح ، وحطموا الحدود ، وافتحوا ابواب الحياة ونوافذها . . . هناك الكثير من الأرض للحبوب ، والكثير من المروج للماشية ، والكثير من المنحدرات للكروم . . . وبطون الأرض لا تنضب ، ولكل انسان متسع من الارض . . . أمن المعقول انكم لا ترون انكم ما تزالون فى ظلام القرون الغابرة . . .»

لم تظهر عربة فى هذه الناحية من المدينة . عبر ايفان ايليتش النيفا ثانية ، وتوغل فى الشوارع الصغيرة الملتوية فى منطقة بطرسبورغسكايا . واصل طريقه وهو غارق تفكيره ومناجاة

نفســـه بصوت مسموع ، فطـــاف على غير هدى فى شوارع مقفرة مهلهلة الظلمة حتى خرج الى كورنيش لقناة .

«يالها من نزهة !» وتوقف ايفان ايليتش ملتقطا انفاسه ، وضحك ، ونظر فى ساعته . وكانت فى تمام الخامسة . خرجت مـن منعطف قريب سيارة كبيرة مكشوفة منطفئة المصابيح يهس الثلج تحت عجلاتها يسوقها ضابط فى معطف عسكرى مفتوح الازرار . كان وجه الضابط الضيق الحليق شاحبا ، وعيناه جامدتين ، مثل عيون المفرطين فى السكر ، والى الخلف منـــه جلس ضابط آخر سرح قبعته على علبائه ، ولم يكن وجهه مرئيا لتليغين ، فقد كان يمسك بكلتا يديه لفة ملفوفة بحصيرة . وكان ثالث ركاب السيـــارة فى ملابس مدنية يرفع ياقة معطفه ويضع على رأسه قبعة عالية مـــن فرو عجول البحر . رفع جسمه قليلا ، وامسك بكتف السائـــق ، توقفت السيارة غير بعيد عن القنطرة . ورأى ايفان ايليتش الثلاثة يقفزون منها الى الثلج ، ويخرجون اللفة ، ويسحبونها لعـــدة خطوات على الثلج ثم يدفعونها بجهد ، ويوصلونها الى منتصـــف القنطرة ويحملونها فوق درابزين القنطرة ، ويسقطونها فى الماء . عاد الضابطان الى السيارة فى الحال ، بينما انحنى المدنى لبعض الوقت مادا بصره الى الاسفل ، ثم انزل ياقته ، وركض لاحقـــا برفيقيه . وانطلقت السيارة باقصى سرعتها ، واختفت .

تمتم ايفان ايليتش فى سره : «اوه ، يــــا للقذارة» . فكان طوال هذا الوقت واقفا حابسا انفاسه . سار الى القنطرة ، ولكنه مهما امعن النظر لم يلتقط بصره شيئا فى الثغرة السوداء الكبيرة فى الجليد تحت الجسر . لا شىء غير بقبقة الماء الدافىء المنتن مـن انبوب تصريف المياه .

«اوه يا للقذارة» – تمتم ايفان ايليتش ثانية وتعبس ، وسار على الرصيف المحاذى للقناة . حصل اخيرا فى زاوية الشارع عـلى زلاجة يجرها حصان غليظ الشفتين ، كان سائق الزلاجة العجوز منكمشا متخشبا من البرد . وحين صعد ايفان ايليتش الى الزلاجة وشد الدثار المتجمد واغمض عينيه ، كان كل جسمه يئن من التعب . وفكر مع نفسه : «انا محب ، وتلك هى الحقيقة . ومهمـــا فعلت ، واذا بدافع الحب هذا ، فهو جيد» .

٢٤

كانت اللفة الملفوفة بحصيرة ، والتى القاها الثلاثة من القنطرة فى ثغرة الجليد تحتوى على جثة راسبوتين القتيل . وقد اقتضى قتل هذا الرجل القوى الذى كان يملك حيوية لاانسانية ان يسقى نبيذا مخلوطا بسيانيد البوتاسيوم ثم يطلق عليه الرصاص فى صدره وظهره وقفاه ، ثم يهشم رأسه بوصلة مفصلية . ومع ذلك فحين عثر على جثته ، واخرجت من ثغرة الجليد قرر الطبيب ان راسبوتين لم يلفظ نفسه الاخيرة الا تحت الجليد .

كان هذا القتل بمثابة اباحة لكل ما كان قد بدأ بعد شهرين . وقد قال راسبوتين غير مرة ان العرش سينهار بموته ، وتسقط سلالة رومانوف الحاكمة . والظاهر ان هذا الرجل الوحشى الضارى كان يملك حاسية غامضة لتشوف المحنة ، على غرار الحاسية التى تملكها الكلاب قبيل حلول وفاة فى البيت ، وقد مات ، بصعوبة شديدة ، آخر حماة العرش ، الفلاح وسارق الخيول ، والغـــول المتعصب .

وبموته خيم جزع مشؤوم على القصر ، بينما عمت البهجـــة ارجاء البلاد ، وراح الناس يهنىء بعضهم بعضا . وكتب نيقولاى ايفانوفيتش الى كاتيا من مينسك : «فى ليلة وصول النبأ اوصى ضباط هيئة الاركان للقائد الأعلى على ثمانى دوزينة من الشمبانيا للمائدة المشتركة . وردد الجنود فى الجبهة كلهـــا هتافـــات التهليل . . .»

وبعد عدة ايام نسى الناس فى روسيا مقتل راسبوتين الا ان القصر لم ينس . فقـد كان اهلـــه يؤمنون بنبوءتـــه ، واستعدوا لمواجهة الثورة ببأس منحوس . فقسمت بتروغراد سريا الى اقسام ، وطلبت الرشاشات من كبير الامراء سيرغى ميخائيلوفيتش ، ولما رفض تسليمها طلبوها من ارخانغلسك ، وخزنت اربعمائة وعشرون رشاشة فى عليات البيوت ومفارق الشوارع . وزيد الضغط على الصحافة ، وكانت الصحف تصدر وفيها اعمدة غير مكتوبة . وكتبت الامبراطورة الى زوجها رسائل مفعمة باليأس ساعية الى ان تثير فيه العزيمة وصلابة النفس . الا ان القيصر ظل قابعا كالمسحور فى موغيليف

وسط العشرة ملايين من المقاتلين الموالين له – وكان لا يشك فى ولائهم . ولم تكن النســـاء المتمردات ، واللغط فى الطوابير على الطعام فى بتروغراد يهمه اكثر مما كان تهمه جيوش الامبراطوريات الثلاث الضاغطة على الجبهة الروسية . وفى ذلك الوقت وخفية عن القيصر كان الجنرال الكسييف رئيس هيئة الاركان للقائد الاعلى يعد الخطط فى موغيليف لاعتقال القيصرة ، والقضاء على الكتلة الالمانية فى البلاط .

فى كانون الثانى وُقع على قرار الهجوم فى الجبهة الشمالية توقعا للحملة الربيعية . وبدأت المعركة قرب ريغا فى ليلـــــة زمهريرية . وارتفعت عاصفة ثلجية مع اطلاق نيران المدفعيـــة . وزحف الجنود فى الثلج العميق وسط عويل العاصفة الثلجية ، ولهب القذائف المنفجرة بغزارة . واشتركت عشرات الطائرات فى المعركة لمساندة الوحدات المهاجمة فجرفتها الريح نحو الارض ، وفى ظلام العاصفة الثلجية راحت تصب نيران رشاشتها على القوات المعادية والقوات الروسية دون تمييز . لقد كانت روسيا تحاول للمرة الاخيرة تحطيم الطوق الحديدى المطبق عليها ، وللمرة الاخيرة كان الفلاحون الروس المرتدون البدلات المموهة البيضاء والريح تدفعهم من ظهورهم يقاتلون فى سبيل الامبراطورية التى كانت تحتل سدس العالم ، وفى سبيل الحكم المطلق الذى استطاع ذات مرة ان يبنى دولة كبرى ويهدد العالم ، والذى لم يعد الآن غير أثر مـــن آثار الماضى كان يجب ان يقبر من زمان ، وسخافة تاريخية ، ومرضا مميتا للبلاد كلها .

واستمرت المعركة الضروس عشرة ايام ، وتناثرت آلاف الجثث تحت اكوام الثلج . واوقف الهجوم وجمد . وخمدت الجبهـــة فى الثلوج .

٣٥

كان ايفان ايليتش قد نوى السفر الى موسكو فى عيد الميلاد ، الا انه بدلا من ذلك اوفد من قبل المصنع الى السويد ، ولم يعد منها الا فى شباط ؛ ولدى وصوله استطاع ان يحصل على اجازة لمـــدة

ثلاثة اسابيع ، وابرق لداشا بانه سيغادر فى السادس والعشرين من الشهر .

وكان عليه قبل السفر ان يعمل اسبوعا كاملا فى الورش . وقد ادهشته التغيرات التى حدثت خلال غيابه : اضحت ادارة المصنع لينة الجانب بادية الاهتمام على غير عادتها ، بينما بلغ الحنق عند العمال حدا كان يخيل اليك معه ان احدهم سيقذف مفتاح الربط على الارض فى اللحظة التالية ، ويصرخ : «اتركوا العمل ، واخرجوا الى الشارع . . .»

وقد اثارتهم فى هذه الايام بشكل خاص محاضر مجلس دوما الدولة حيث كانت تجرى المناقشات حول قضية الطعام . وكان واضحا جدا من تلك المحاضر ان الحكومة التى كانت تحافظ بالكاد على رباطة جاشها وكرامتها تبذل آخر قواها لتقف امام الهجوم ، وان الوزراء القيصريين لم يعودوا يتحدثون كالعمالقة الاسطوريين ، بل بلغة البشر ، وان اقوال الوزراء وما يقـــال فى الدوما مناف للحقيقة ، بينما الحقيقة هى على السنة الجميع : شائعات مشؤومة غامضة عن هلاك شامل موشك الوقوع فى الجبهة والمؤخرة بسبب المجاعة والخراب .

اثناء العمل الاخير لاحظ ايفان ايليتش قلقـــا غير اعتيادى عند العمال . فقد كانوا يتركون المخارط باستمرار ويتشاورون . والظاهر انهم ينتظرون اخبارا معينة . وعندما سأل فاسيلى روبليف فيم يتشاور العمال ، القى فاسيلى سترته المبطنة على كتفه بحنق ، وخرج من الورشة ، وصفق الباب . وقال ايفان روبليف :

– صار فاسيلى سيىء الطبع بشكل فظيع . وقد حصل على مسدس من مكان ما ، وهو يحمله معه .

الا ان فاسيلى عاد بعد وقت قصير ، واحاط به العمـــال فى اقصى الورشة وتقاطروا من جميع المخارط . واخذ فاسيلى يقرأ ورقـــة بيضاء بصوت عال وبتشديد على المقاطع : «بيان قائد قوات منطقة بطرسبورغ الفريق خابالوف . فى الايام الاخيرة كان توزيع الطحين على المخابز ، وخبز الخبز يجريان بنفس الكمية المعتادة مـــن قبل . . .»

واذا بالاصوات تتعالى :

– كذب ، كذب . انهم لا يبيعون الخبز منذ ثلاثة ايام . . .

– «ولا يمكن ان يوجد نقص فى بيع الخبز . . .»

– امر وتصرف ؟

– «واذا كان هناك نقص فى الخبز لدى بعض الحوانيت فان ذلك راجع الى ان الكثيرين راحوا ، تخوفا من نقص فيه ، يشترونه لصنع البقسماط . . .»

وزعق صوت :

– ومن يصنع البقسماط ؟ عسى ان يختنق به .

وصاح فاسيلى بصوت اعلى :

– اسكتوا ، يارفاق . يجب ان نخرج الى الشارع ، يارفاق . . . هناك اربعة آلاف عامل من مصنع اوبوخوفسكى يزحفون على جادة نيفسكى . . . وهناك عمال آخرون قادمون من منطقة فيبورغسكايا . . .

– صحيح ! ليرونا الخبز !

– لن يروكم الخبز ، يارفاق . لا يوجد فى المدينة من الطحين الا ما يكفى لثلاثة ايام ، وبعدها لن يكون هناك لا خبز ولا طحين . القطارات كلها متوقفة وراء الاورال . . . وهناك السايلوات مملوءة بالقمح . . . وفى تشيليابينسك كميات هائلة من اللحوم تتعفن فى محطة القطار . وفى سيبيريا يشحمون العجلات بالزبدة . . .

وهدرت الورشة كلها ، ورفع فاسيلى ذراعه قائلا :

– ايها الرفاق ، لا احد يعطينا الخبز اذا لم نأخذه نحن بايدينا . . . لنخرج مع عمال المصانع الاخرى الى الشارع تحت شعار : «كل السلطة للسوفييتات» . . .

فهتف العمال متراكضين فى الورشة :

– اوقفوا المخارط ! . . اتركوا العمل ! . . اطفئوا افران الصهر ! . .

تقدم فاسيلى روبليف من ايفان ايليتش ، وكان شارباه يرتجفان . وقال بلهجة واضحة :

– انصرف ، انصرف قبل ان تتأذى !

نام ايفان ايليتش بقية تلك الليلة نوما سيئا ، واستيقظ قلقا . كان الصباح غائما وكانت قطرات الماء تتساقط على الافريز

الحديدى فى الخارج . . . بقى ايفان ايليتش مستلقيا يستجمع افكاره . لا ، لم يزايله القلق ، والقطرات تثير اعصابه ، وكأنها تسقط فى داخل دماغه . «لا حاجة الى الانتظار حتى السادس والعشرين ، بل يجب ان اسافر غدا» . فكر على هذا النحو وخلع قميصه . ومشى الى الحمام عاريا ، وفتح الدش ، ووقف تحت الرشاش اللاذع البرودة .

كان لديه الكثير من المشاغل قبل السفر . فشرب قهوته على عجل ، وخرج الى الشارع ، وقفز الى ترام غاص بالناس . وهنا ايضا احس باضطراب . كان الركاب يجلسون صامتين متجهمين على عادتهم طاوين ارجلهم ، منتزعين اطراف ثيابهم من تحت من يشاركونهم المقاعد ، كانت ارضية الترام لزجة ، وقطرات الماء تتساقط على نوافذه ، والجرس بالقرب من سائق الترام يدق مثيرا للاعصاب . وكان يجلس قبالته موظف عسكرى له وجه اصفر منتفخ قليلا ، وقد جمدت ابتسامة معوجة على فمه الحليق ، وكانت عيناه تنظران بتساؤل وبحيوية لا تتميزان بهما على ما يبدو . وحين امعن ايفان ايليتش النظر لاحظ ان جميع الركاب ينظر بعضهم الى بعض بنفس النظرة المتسائلة الحيرى .

توقف الترام عند زاوية جادة بولشوى . وتململ الركاب ، واخذوا يجيلون ابصارهم ، وقفز بعضهم من الترام . نزع سائق الترام مفتاح التدوير ، ووضعه فى صدر معطفه الفرائى الازرق ، وفتح الباب الامامى قليلا ، وقال بانفعال غاضب :

– الترام سيتوقف عند هذا الحد .

كانت عربات الترام تقف فى جادة كامينواستروفسكوى ، وجادة بولشوى كلها على امتداد البصر . وكان جمهور من الناس يتحرك على الارصفة كبقع سوداء . وبين الحين والآخر كانت تهبط الصفاقة الحديدية على نافذة احد الحوانيت محدثة دويا . وتساقط ثلج رطب .

صعد على سطح احدى عربات الترام رجل ذو معطف طويل مفتوح ، وانتزع طاقيته ، وراح يصرخ بشىء على ما يبدو . وتعالى بين الجمهور و–و–و– . . . اخذ الرجل يربط حبلا بسطح الترام ، وانتصب ثانية ، وانتزع طاقيته مرة اخرى . وتعالى مرة

اخرى فى الحشد و – و – و ! قفز الرجـــل الى الرصيف . وماج الحشد متراجعا . وعندئذ تجلت للعين جمهرة كثيفة من الناس تجر الحبل الذى ربط بعربة الترام منزلقة على الثلج الاصفر القذر . وبدات العربة تجنح الى جانب . وتراجع الناس ، وصفر الصبيان . الا ان العربة ترنحت ثم عادت الى وضعها السابق ، وارتفع صوت انطباق عجلاتها على السكة . عندئذ انضـــم الى الساحبين اناس تقاطروا من مختلف الجهات ، وامسكوا بالحبل باهتمام وصمت ، وجنحت العربة مرة اخرى ، وانقلبت فجاة وتهشم زجاج نوافذها . تقدم الناس نحو العربة المقلوبة ، وهم ما زالوا على صمتهم .

– واختلط الحابل بالنابل !

سمع ايفان ايليتش ذلك الموظف العسكرى ذا الوجـــه الاصفر المنتفخ يقول هذه الجملة من ورائه . وارتفعت فى الحال عدة اصوات متنافرة ممطوطة :

سقطتم صرعى فى النضال الحاسم . . .

ورأى ايفان ايليتش فى طريقه الى جادة نيفسكى نفس النظرات الحائرة والوجوه المضطربة . كان المستمعون المتعطشون يلتفون حول رواة الاخبار مثل دوامات صغيرة . وعند مداخل البيوت وقف بوابون ممتلئو الاجسام . واطلت خادمة بوجهها تنظر فى الشارع . كان سيد ذو لحية معتنى بها يرتدى معطفا مبطنا بالفراء مفتوح الازرار ، ويحمل محفظة يسأل الكناس :

– قل لى ، ياصاحبى ، ما هذا الحشد هناك ؟ ماذا يحدث هناك ؟

– يطالبون بالخبز ، ايها السيد ، ويتمردون .

– واضح !

وعند مفترق الطريق وقفت سيدة شاحبة تحمل كلبا نحيلا راعشـــا رجلاه الخلفيتان متدليتان مرتعشتان وكانت هذه السيدة تسأل كل من مر بها :

– ما هذا الحشد ؟ . . ماذا يريدون ؟

هتف السيد ذو المعطف المبطن بالفراء مرحا ، وهو يمـــر بها :

– فى الجو رائحة ثورة ، ايتها السيدة .

سار عامل على الرصيف وطرفا سترتــــه من فراء الخروف يخفقان بشدة ، واختلج وجهه السقيم . التفت فجاة وصرخ بصوت متقطع باك :

– يارفاق ، هل سيظلون يشربون دمنا زمنا طويلا ؟ . .

اوقف ضابط ممتلئ الخدين صبوى الاسارير العربة التى كان يستقلها ، وامسك بحزام السائق . وحدق فى الناس المضطربين وكانه يحدق فى كسوف الشمس .

وصاح العامل عليه وهو يمر به بصوت ناشج :

– تفرج ، تفرج !

وتعاظم حشد الناس ، وصار يشمل الشـــارع كله وهدر هديرا منفعلا ، وتحرك باتجاه الجسر . وارتفعت اعلام بيض فى ثلاثة اماكن . وجرف هذا السيل المارة فى طريقه كالقش . عبر ايفان ايليتش الجسر مع الحشد . كان بعض الخيالة يعدون على خيولهم عبر ميدان «مارسوفو بوليه» المضبب المكســـو بالثلج المحفور بآثار حوافر . وحين رأوا الحشد اداروا خيولهم ، واقتربوا منه بخطوات وئيدة . ضحك احدهم ، وهو عقيـــد مورد الوجنتين مشقوق اللحية ، رافعا يده بالتحية ، وتعالى فى الحشد غناء ثقيل جزع . وطارت غربان شعثاء من الاغصان العارية الداكنة ، من ظلام الحديقة «ليتنى» ، نفس الغربان التى افزعت ذات مرة قاتلى الامبراطور بافل .

سار ايفان ايليتش فى المقدمة ، وكان يحس بغصة فى حنجرته . تنحنح ليزيلها ، الا ان الانفعال كان يتصاعد من اعماقه مرة بعد اخرى . بلغ حصن اينجينيرنى فاستدار شمالا ، وسار فى جادة ليتيينى .

كان جمهور آخر من الناس ينصب فى جادة ليتيينى قادما من منطقة فيبورغسكايا . وقد امتد الى مسافة طويلة فى الجسر . وكانت بوابات البيوت على طول طريقه غاصة بالفضوليين والوجوه المنفعلة فى جميع النوافذ .

توقف ايفان ايليتش عند بوابة احد البيوت على مقربة من موظف عجوز كانت الرعشة تسرى فى وجنتيـــه الشبيهتين بوجنتى

كلب . وكان صف من الجنود الجامدين المتكئين على بنادقهم يسد الشارع بعيدا الى اليمين .

اقترب الحشد وتباطأ سيره . وتطايرت اصوات مذعورة متجهة الى وسطه : «قفوا ، قفوا ! . .»

واذا بآلاف من الاصوات النسائية العالية تعول مرددة : «خبز ، خبز ، خبز ! . .»

قال الموظف : «لا يجوز السماح بهذه المشاهد» والقى نظرة صارمة على ايفان ايليتش من فوق نظارته . وفى تلك اللحظة خرج بوابان ضخمان من احدى البوابات وراحا يدفعان الفضوليين بكتفيهما . اهتزت وجنتا الموظف ، وزعقت سيدة شابة ترتدى نظارة انفية : «لا تتجاسر ، ايها الابله !» الا ان البوابة قد اغلقت . واخذت مداخل البيوت والبوابات تغلق فى الشارع كله . وتعالت اصوات مذعورة :

– لا داعى ، لا داعى !

واقترب الحشد الهادر . وطلع فى مقدمته شاب ذو وجه محمر الخدين منفعل يضع على راسه قبعة عريضة الحافة . وترددت اصوات :

– الراية فى المقدمة ، الراية فى المقدمة !

وفى تلك اللحظة ظهر امام صف الجنود ضابط ضخم ضيق الخصر يرتدى قبعة قوزاقية بميلان . ووضع يده على قراب المسدس عند خصره ، وصرخ بصوت كان من الممكن ان تفهم منه هذه الكلمات : «صدر امر باطلاق النار . . . لا اريد سفك الدماء . . . تفرقوا ! . .»

فارتفعت اصوات وحشية :

– الخبز ، الخبز ، الخبز !

وزحف الحشد على الجنود . . . وبدا الناس يمرون بايفان ايليتش والطيش فى عيونهم . . .

– الخبز ! . . يسقط ! . . اوغاد ! . .

وسقط احدهم . وصرخ مستطار اللب رافعا وجهه المتغضن : «اكرهم . . . اكرهم !»

وفجأة صدر فى الشارع صوت مثل صوت تمزيق قماش خشن . وسكن كل شىء فى الحال . وشد احد الطلاب على طاقيته بين اصابعه ، وغاص فى الحشد . . . ورفع الموظف يده المعقدة ليرسم علامة الصليب . واطلقت طلقة فى الهواء ولم تتبعها طلقة اخرى الا ان الحشد تراجع . بعضه قد تفرق ، والبعض الآخر توجه الى ساحة زنامينسكايا . ومعه الراية . وبقيت قبعات وكالوش ملقاة على الثلج الاصفر فى الشارع . طلع ايفان ايليتش الى جادة نيفسكى فسمع ثانية هدير اصوات كثيرة . انه حشد ثالث كان قد عبر النيفا قادما من جزيرة فاسيليفسكى . وكانت الارصفة مكتظة بالنساء الانيقات ، والعسكريين ، والطلاب ، وغرباء لهم مظهر اجنبى . وكان ضابط انجليزى ذو وجه وردى طفلى يقف كالعمود . وكانت البائعات ذوات الشرائط السوداء فى شعورهن يضغطن وجوههن المبوردة على زجاج ابواب المخازن . بينما سار حشد غاضب من العاملات والعمال فى وسط الشارع متغلغلا فى امتداده الضبابى ، وهو يقول : «الخبز ، الخبز ، الخبز ! . .»

كان سائق زلاجة يقف بمحاذاة الرصيف وقد مال بجنبه نحو جزئها الامامى ، واخذ يحدث بمرح راكبته السيدة ذات الوجه الاحمر المذعور .

– الى اين اذهب ؟ ها انت ترى بنفسك . ذبابة لا يمكن ان تمر من هنا .

– امض فى طريقك ، ايها الاحمق ، ولا تجرؤ على التحدث معى ؟ . .

– لا ، لست احمق منذ اليوم . . . انزلى من الزلاجة . . .

تدافع المارة على الرصيف ، رفعوا رؤوسهم ، وتسمعوا ، وتساءلوا منفعلين :

– قتلوا مائة شخص فى جادة ليتيينى ؟ . .

– كذب . . . اطلقوا النار على حبلى ورجل عجوز . . .

– يارب ! وما ذنب العجوز هذا ؟

– هذه كلها اوامر بروتوبوبوف . وهو مجنون . . .

– اى نبأ هذا ، ياسادة . . . لايصدق ! اضراب عام . . .

– كيف ؟ والماء والكهرباء ؟

– ليت الرب يجعلها انباء صحيحة ، آخر الأمر .
– مرحى للعمال ! . .
– لا تفرحوا ، سيقمعونهم . . .
– حاذر ان تنقمع قبلهم ، وانت بهذه السحنة . . .

مضى ايفان ايليتش الى العناوين التى ينشدها آسفا على تضييعه الوقت الكثير ، غير انه لم يجد احدا ممن قصدهم فى البيت . فعاد يتجول فى جادة نيفسكى غاضبا .

كانت حركة الزلاجات قد عادت الى الشارع ، وخرج البوابون يزيحون الثلج من الارصفة ، وظهر الرجل المهيب ذو المعطف الاسود على مفرق الطرق ورفع فوق الرؤوس المحتدة ، وافكار الناس المضطربة هراوته البيضاء ، عصا النظام السحرية . ولربما فكر عابر سبيل خبيث ، وهو ينظر الى الشرطى عند اجتيازه الشارع قائلا لنفسه : «انتظر ، يا اخى ، وسيأتى وقتك» . ولكن لم يدر فى خلد احد من الناس ان الوقت قد حان فعلا ، وان هذا الشخص المشورب المنتصب كالعمود الحامل للهراوة لم يعد اكثر من شبح وانه سيختفى بين عشية وضحاها من مفرق الشوارع ، من الحياة العامة ، من ذاكرة الناس . . .

– تليغين ، تليغين ! قف ايها الاصم ! . .

وركض المهندس ستروكوف نحو ايفان ايليتش وطاقيته منسرحة على مؤخرة رأسه ، وعيناه تلمعان بمرح فياض . . .

– الى اين ذاهب ؟ لندخل الى مقهى . . .

وامسك يد ايفان ايليتش وجره الى مقهى . كان دخان السيغار فى المقهى يلذع العيون . وكان الناس بقبعاتهم المستديرة السوداء وبقبعات من فراء عجول البحر ، وبمعاطفهم غير المزررة يتجادلون ، ويتصايحون ، ويقفزون واقفين . شق ستروكوف طريقه نحو نافذة ، وجلس الى مائدة صغيرة قبالة ايفان ايليتش وهتف ممسكا المائدة بكلتا يديه .

– الروبل يسقط ، والسندات المالية تذهب الى الجحيم . تلك هى القوة ! . . خبرنى ماذا شاهدت . . .

– كنت فى جادة ليتيينى ، وقد اطلقوا النار هناك ، ولكن فى الهواء ، على ما يبدولى . . .

– وما رايك فى هذا كله ؟

– لا ادرى . اعتقد ان على الحكومة الآن ان تعالج بجدية مسالة نقل الاطعمة .

صاح ستروكوف ، وهو يضرب سطح المائدة الزجاجى :

– فات الوقت ! فات ! . . اكلنا امعاءنا بانفسنا . . . ولتنته الحرب ، فقد لاقينا ما فيه الكفاية ! . . اتدرى ماذا ينادون فى المصانع ؟ ينادون بدعوة سوفييت نواب العمال . بان لا يؤمنوا بغير السوفييتات !

– صحيح ؟

– تلك هى النهاية ، ياعزيزى ! انهار الحكم المطلق . . . فافتح عينيك . ليس هذا تمردا ، بل وليس ثورة . . . انه بداية الفوضى . . . بل الفوضى العظيمة بعينها . . . – وانتفخ عرق على عرض جبين ستروكوف تحت قطرات العرق – وبعد ايام ثلاثة لن تبقى هناك دولة ، ولا جيش ، ولا حكام ، ولا رجال شرطة . . . بل مائة وثمانون مليونا من الناس الشعث البدائيين . وهل تدرى من هو الانسان البدائى الاشعث ؟ النمر ووحيد القرن دميتان للاطفال بالنسبة له . خلية فى جهاز عضوى متفسخ . ذلك هو الانسان البدائى الاشعث . وذلك شىء رهيب جدا . انه بكتيريا تأكل بكتيريا اخرى فى قطرة ماء .

قال تليغين :

– اوه ، ليتخطفك الشيطان ! لا شىء من هذا ، ولن يكون شىء من هذا ! انها ثورة ، وشكرللرب عليها .

– لا ، ان ما رايته اليوم ليس ثورة . انه تحلل المادة . وستأتى الثورة ، فيما بعد ستأتى . . . ولكننا انا وانت لن نراها .

قال ايفان ايليتش وهو ينهض :

– قد يكون ذلك . وان فاسيلى روبليف هو الثورة . اما انت ، ياستروكوف ، فلا . انت كثير الضجيج ، وتتحدث بشكل مبهم . . .

عاد ايفان ايليتش الى شقته فى وقت مبكر ، وأوى الى فراشه فى الحال . ولكن النوم لم يغشه الا برهة قصيرة ، تنهد بعدها ، وانقلب ثقيلا على جنبه ، وفتح عينيه . شم رائحة جلد الحقيبة التى كانت مفتوحة على احد المقاعد . فى هذه الحقيبة التى اشتراها فى استوكهولم محفظة صغيرة من الجلد البديع لأدوات الزينة الفضية ، هدية لداشا . وكان ايفان ايليتش يحس بالرقة نحوها ، فيفك ورقها الناعم كل يوم ، ويعاينها . بل وكان يتخيل مقصورة عربة بنافذة طويلة ، كما هى فى القطارات غير الروسية ، وداشا فى لباس السفر تضع على ركبتيها هذه المحفظة الفواحة بالعطر والجلد رمزا لسياحات رخية مدهشة .

رأى ايفان ايليتش السماء الداكنة وراء النافذة تتشبع بانعكاس ضوء المدينة الليلكى الكدر . وادرك بصفاء شعور الكراهية الحزينة الذى لا بد ان يعتمل فى نفوس اولئك الذين كانوا يطالبون بالخبز اليوم ، حين ينظرون الى هذا الضوء . المدينة غير المحبوبة ، الموحشة ، الكريهة ... دماغ البلاد وارادتها مصابة الآن بداء قتال . . . وهى فى احتضار . . .

خرج ايفان ايليتش من البيت فى حوالى الثانية عشرة ، فرأى الجادة العريضة الضبابية مقفرة . لاحت من وراء نافذة رطبة لحانوت بيع الزهور مزهرية بلورية فيها باقة بديعة من الورود الحمراء المبللة بقطرات كبيرة من الماء . فرنا ايفان ايليتش اليها برقة من خلال الثلج المتساقط .

ظهرت من شارع جانبى دورية تتألف من خمسة قوزاقيين ، ادار آخرهم فرسه ، وعدا به نحو ثلاثة من الرجال يرتدون الكيبيه كانوا يسيرون على الرصيف وهم منهمكون فى حديث منفعل منخفض . توقف الرجال ، وامسك احدهم ، وهو يتحدث بمرح ، شكيمة فرس القوزاقى . كانت هذه الحركة غير اعتيادية كليا جعلت قلب ايفان ايليتش يثب فى صدره . ولكن القوزاقى ضحك ، ودفع رأسه الى الخلف ، ثم اطلق العنان لفرسه الغليظ الرقبة الذى كان يضرب بقوائمه ، ولحق برفاقه ، وانطلق الجميع فى عدو سريع حتى غيبهم ظلام الجادة .

وحين كان يفان ايليتش يقترب من الكورنيش اخذ يلتقى

بزمر من سكان المدينة فى هيجان . والظاهر ان احدا لم يستطع ان يهدأ بعد حدث يوم امس : وهاهم الناس يتداولون الرأى ويتناقلون الشائعات والاخبار ، وكان الكثيرون منهم يسيرون نحو النيفا . وكان هناك بضعة آلاف من الفضوليين يتحركون على الثلج بمحاذاة السياج الغرانيتى كجماعات سوداء من النمل . وكانت زمرة من الزاعقين تصرخ عند الجسر على الجنود الذين كانوا يسدون الطريق بوقوفهم فى عرض الجسر ، وعلى طوله حتى نهايته الاخرى التى لم تكد ترى فى الغبش من جراء الثلج المتساقط .

– لماذا سددتم الجسر ؟! اتركونا نمر !

– نريد ان نذهب الى وسط المدينة .

– قلة حياء . يضايقون الاهالى ...

– الجسور اقيمت لعبور الناس ، وليس لشاكلتكم .

– هل انت روسى ام لا ؟ . . دعونا نعبر !

كان ضابط صف ضخم ذو اربعة نياشين القديس غيورغى يذرع الجسر عرضا من درابزين الى آخر مصلصلا بمهمازيه ، وحين سمع الشتائم تتعالى من الجمع ادار الى المتصايحين وجهه العابس المجدر المصفر . وقال وشارباه المفتولان يهتزان :

– آه ، سادة وتتكلمون على هذا النحو . لا استطيع ان اسمح بعبور الجسر ... ساضطر الى استخدام السلاح فى حالة عدم الامتثال للأمر ...

وتصايح الزاعقون من جديد :

– لن يطلق الجنود النار علينا .

– وضعوك هناك ، وانت الكلب ، الشيطان المجدر ...

استدار ضابط الصف مرة اخرى وراح يتكلم ، ورغم ان صوته كان اجش حادا – عسكريا ، فقد انعكس فى كلماته نفس الحيرة المذعورة التى كانت تعتمل فى نفوس الجميع فى تلك الايام وقد احس الزاعقون بذلك ، وشتموا ، وضغطوا على الحاجز .

وفجأة تكلم رجل طويل نحيل ذو نظارة انفية معوجة ، ورقبة طويلة ملفوفة بلفاح ، وكان صوته عاليا عميقا :

– انهم يضيقون حركة المرور ، والحواجز فى كل مكان ، والجسور قد طوقت ، وذلك منتهى التحقير . هل نستطيع التنقل

فى المدينة بحرية ، ام اصبح حتى ذلك متعذرا ؟ ايهـا المواطنون اقترح عدم الالتفات الى الجنود ، والعبور على الجليد الى الضفـة الأخرى . . .

– كلامك صحيح . على الجليد ! هورا ! . .

وعلى الأثر ركض عدة اشخاص على الدرجات الغرانيتية المغطاة بالثلج ، والمؤدية الى النهر . وسار الرجل الطويل ذو اللفـاح المتطاير فى الريح بخطوات حازمة على الجليد بمحاذاة الجسر . انحنى الجنود على الدرابزين فى الاعلى وصاحوا :

– ياهؤلاء ، ارجعوا ، والا سنطلق النار . . . ارجع ، ايهـا الشيطان الطويل ! . .

الا ان الرجـل مضى فى سيره دون ان يلتفت ، ومن خلفـه سار عدد متزايد من الناس فى صف واحد وفى سير سريع ، وانزلقـوا واحدا بعد الآخر على منحدر السدة الى الجليد ، وتراكضت اشباحهم السود على الثلج . صاح الجنود عليهم من فوق الجسر فرد الراكضون عليهم بصياح مثله محيطين افواههم بأيديهم . رفع احد الجنود بندقيته ، الا ان جنديا آخر دفعه من ظهره فاقلع ذاك عن اطلاق النار .

واتضح فيما بعد ان اية خطة محددة لم تكن لاحد من الذين خرجوا الى الشوارع ، ولكن الاهالى حين شاهدوا الحواجـز على الجسور ومفارق الطرق تملكهم جميعا الدافع الكامن فى نفوسهم منذ القدم ، ورغبوا فيما محظور الآن : عبور الجسور ، والتجمع فى حشود . وهذا الظرف وهج الخيال المريض توهجا شديدا . وشاعت فى المدينة شائعة تقول ان شخصا يقود كل هذه القلاقل .

فى نهاية اليوم الثانى كمنت وحدات من الفوج يافلوفسكى فى جادة نيفسكى ، واطلقت رشقات طويلة مـن النار على تجمعات الفضوليين وعلى بعض المارة . واخذ الاهالى يدركون ان شيئـا شبيها بالثورة آخذ فى الظهور .

ولكن احدا لم يكن يعرف بؤرتها ، ولا الموجه لها . كما لم يكن يعلم بذلك قائد القوات ، ولا الشرطة ، بَلْهَ بروتوبوبوف

الدكتاتور صاحب الحظـوة ، وصاحب معمل اقمشة الجوخ مـن سيميبرسك ، ذلك الرجل الذى شج له صاحب الاطيان ناؤوموف راسه فى يوم ما فى فندق ترويتسكايا بعد ان شق بـه الباب ، فسبب له ذلك الضرر فى الجمجمة والدماغ آلاما فى الراس وانهيارا عصبيا ، ثم تخلخلا مستميتا فيما بعد ، حين عهـدت اليه ادارة الامبراطوريـة الروسيـة . كانت بؤرة الثورة فى كل الانحاء ، فى كل بيت ، وفى راس كل مواطن عادى زاخر بالخيالات والسخط والتذمر . وكانت هذه الاستحالة فى تحديد بؤرة الثورة تنذر بالشؤم . فقد كانت الشرطة تتصيد الاشباح . وكان عليها فى الواقع ان تعتقل مليونين واربعمائة الف ، هم مجموع سكان بتروغراد .

امضى ايفان ايليتش اليوم كله فى الشوارع يخامـره ذلك الاحساس الغريب الذى كان يخامر كل فرد ، لا محالة ، الاحساس بدوار دائمى . وكان يتلمس تعاظم الهيجان فى المدينة الى حـد يقرب من الجنون . فقد كان جميع الناس يتحللون الى دوار جماعى شامل ، وكان هذا المجموع فى تجواله فى الشوارع وهياجه يبحث ويتوق الى امارة ، الى ومضة تعمى البصر ، وتدمج الجميع فى كتلة واحدة .

لم يرهب الرصاص فى جادة نيفسكى غير قلة مـن الناس . فقد انثال الناس كما تنثال الوحوش وتجمعوا حول جثتين مطروحتين عند زاوية شارع فلاديميرسكايا احداهما لامراة فى تنورة من القماش الرخيص ، والثانية لعجوز فى معطف من فراء الراكون . . . وحين اشتد اطلاق النار تراكض الناس شتاتا ، ومرة اخرى تسكعوا بمحاذاة الجدران .

هدا اطلاق النار عند هبوط الظلام . وهبت ريح قارسـة ، ونظفت السماء ، وتوهج الغروب بكآبة فى السحب التى تراكمت وراء البحر . وطلع هلال حاد الطرفين ، وتدلى واطئا فوق المدينة فى بقعة سوداء قاحمة من السماء .

ولم تضأ المصابيح فى تلك الليلة . وكانت النوافذ مظلمة ، ومداخل البيوت مسدودة . وامتدت اهرام البنادق المشبكـة على طول جادة نيفسكى الخالى المظلم . وكانت اشباح الحراس الضخمة تتراءى على مفارق الطرق . وكان ضوء القمر يلمع بين الحين والآخر

على زجاج نافذة او على شريط سكة الترام ، او على فولاذ حربة . وخيم الهدوء والسكينة . ولكن سماعات التلفون فى كل بيت كانت تنقل كلمات جنونية عن الاحداث بصوت مذعور خافت .

وفى صباح ٢٥ شباط غصت ساحة زناميينسكايا بالوحدات ورجال الشرطة . ووقفت امام فندق «سيفرنايا» خيالة الشرطة على صهوات خيول صهباء متوثبة دقيقة القوائم . ورابط رجال الشرطة المشاة بمعاطفهم السوداء حول تمثال الامبراطور الكسندر الثالث ، وتجمعوا زمرا فى الساحة . ووقف القوزاق عند محطة القطار وقد علا المرح وجوههم الملتحية ، وقبعاتهم القوزاقية العالية المنسرحة الى جانب ، وبرزت حزم التبن عند سروجهم . وكانت رجال فوج بافلوفسكى يلوحون بمعاطفهم بلونها الرمادى المتسخ باتجاه جادة نيفسكى .

ارتقى ايفان ايليتش النتوء الحجرى لمدخل محطة القطار ، وفى يده حقيبة صغيرة ، كانت الساحة كلها ترى من هنا بوضوح جيد .

كان نصب الامبراطور يتوسطها بفرسه المعتلى صخرة من الغرانيت حمراء بلون الدم ، وقد تدلى راسه البرونزى لثقل راكبه . وكان الامبراطور يجلس على الصهوة ثقيلا كالجاذبية الارضية ، وقد كسا الثلج كتفيه الكئيبتين ، وطاقيته المستديرة . كانت حشود الناس تشق طريقها نحو قاعدة النصب فى الساحة قادمة من خمسة شوارع ، رافعة اصواتها بالصياح والصفير والسباب .

ومثلما حدث بالامس على الجسر ، كان الجنود ، ولاسيما القوزاق الذين يتقدمون على صهوات خيولهم ازواجا من الناس الذين كانوا ينثالون من جميع الجهات ، يتبادلون معهم الشتائم ولواذع الكلمات . وكان الصمت والبلبلة الواضحة يرينان على زمر رجال البوليس المتجهمين الضخام الاجسام . وكان ايفان ايليتش يعرف جيدا ذلك القلق الذى يسود فترات انتظار الأمر بالاشتباك فى معركة ، حين يكون العدو المهاجم قاب قوسين او ادنى ، وكل الدلائل تشير الى ما ينبغى القيام به ، ولكن صدور الامر يتاخر ، وتستطيل الدقائق بشكل مؤلم . صلصل باب المحطة فجاة وانفتح ، وطلع على السلم ضابط جندرمة شاحب الوجه برتبة عقيد يرتدى معطفا

قصيرا . انتصب بقامته ، وادار عينيه الوضيئتين فى الساحة ، ومررهما على وجه ايفان ايليتش . . . ثم هبط الدرجات بخفة بين القوزاق المتراجعين ليفسحوا الطريق له ، واخذ يقول شيئا لضابط قوزاقى رافعا اليه لحيته ، اصغى الضابط القوزاقى اليه مرتميا على السرج ، وعلى شفتيه ابتسامة هازئة . اشار العقيد براسه صوب جادة ستارى نيفسكى ، وسار على الثلج عبر الساحة بمشية متوثبة . ركض نحوه ضابط شرطة احكم شد حزامه على بطنه الضخم ، واهتزت يده تحت طاقيته عندما رفعها لتحيته . تعاظمت صيحات الحشد المتقدم من ناحية جادة ستارى نيفسكى ، ثم اخذت الأذن اخيرا تميز غناء . احس ايفان ايليتش بيد تمسك كمه بقوة ، وراى رجلا مهتاجا يرفع جسمه بالقرب منه حاسر الراس يمتد على وجهه القذر خدش احمر .

— ايها الاخوان ، القوزاق !

صاح الرجل بصوت وحشى يهز النفس كالصوت الذى يطلق قبيل القتل وسفك الدم فيغوص منه القلب ، وتغطى غشاوة الجنون على العيون : «قتلونى ، يا اخوان . . . تدخلوا . . . انهم يقتلون !»

استدار القوزاق على سروجهم ، ونظروا اليه صامتين . وقد شحبت وجوههم ، واتسعت حدقات عيونهم .

وفى تلك الاثناء لاحت فى جادة ستارى نيفسكى رؤوس سوداء كثيفة ، هى رؤوس عمال حاضرة كولبينو الذين كانوا يتقدمون فى الشارع . ورفرف علم احمر مبلل فى الريح . ابتعد خيالة الشرطة عن مدخل فندق «سيفرنايا» ، وما هى الا لحظة حتى لمعت فى ايديهم سيوف عريضة مستلة . ارتفع فى الحشد صياح ضار . ووقع بصر ايفان ايليتش مرة اخرى على عقيد الجندرمة . انه يركض ممسكا غلاف مسدسه بيد ، وملوحا للقوزاق بالاخرى .

تطايرت من حشد عمال حاضرة كولبينو قطع من الجليد والحجارة ، باتجاه العقيد ، وخيالة الشرطة . تواثبت الخيول الصهباء الدقيقة القوائم اكثر . وترددت طلقات واهنة من مسدسات ، وارتفع دخان عند قاعدة النصب : لقد كان رجال الشرطة يطلقون النار على عمال حاضرة كولبينو . وفى تلك اللحظة شب فى صف القوزاق فرس اصهر افطس من افراس منطقة الدون ، على بعد عشر

خطوات من ايفان ايليتش . انحنى راكبه القوزاقى على رقبتـــه ، ولكزه ، وبعدة وثبات وصل به الى عقيد الجندرمة ، وقد استلّ سيفه اثناء جريه ، وضربه به ضربة قوية صافرة ، ثم عاد فرفع فرسه على رجليه الخلفيتين . وتحرك القوزاق ككتلة واحدة نحــو مكان القتل . شقت حشود الناس الحواجز وتدفقوا على الساحة . . . سمعت طلقات صادرة من مكان ما غطتهـــا صيحة جماعية تهتف : «هورا . . . هورا . . »

– ماذا تعمل هنا ، ياتليغين ؟

– اريد ان اسافر مهما يكن من شىء . ولا يهمنى اذا كان ذلك على قطار بضائع ، او على قاطرة . . .

– اقلع عن ذلك فالسفر مستحيل الآن ، ياصاحبى . انهـا الثورة . . .

كان المتحدث انتوشكا ارنولدوف وهو غير حليق نافر المظهر ، احمر الجفنين ، جاحظ العينين . وقد غمغم كالهاذى غارزا اصابعه فى طية معطف ايفان ايليتش :

– هل رأيت كيف قطعوا رأس عقيد الجندرمة ؟ . . تدحرج مثل كرة القدم . جمال ! . . انت ، ايها الابله ، لا تفهم . انها الثورة !

كان الرجلان واقفين فى ممر محطة القطار مضغوطين فى زحام الناس . وتابع انتوشكا كلامه :

– فى الصباح رفض الفوج الليتوانى وفوج فولينسكـــى اطلاق النار . . . وخرجت سرية من فوج بافلوفسكى الى الشارع ومعها سلاحها . . . والمدينة فى فوضى ، ولا احـد يفهم شيئا . . . والجنود فى جادة نيفسكى كثار كالذباب ، يتسكعون ، ويخافـون الذهاب الى الثكنات . . .

٣٦

كانت داشا وكاتيا تسيران بخطى سريعة على طبقات الجمـد الرقيقة المتكسرة تحت اقدامها فى شارع مالايا نيكيتسكايا الباهت الاضاءة . كانتا ترتديان معطفين فرائيين ، وتلفان راسيهما بلفاحين

ازغبين . ارتفع فى السماء الباردة الضاربة الى الخضرة هلال مدبب الطرفين صاف . وترامـــى الى السمع نباح كلاب وراء بـــوابة . ضحكت داشا فى زغب لفاحها الرطب ، وهـــى تنصت الى تكسر الجليد .

– كاتيا ، لو ان احدا من الناس اخترع آلة ووضعها هنـا – ووضعت داشا يدها على صدرها – فانها ستسجل اشياء فريدة .

وترنمت داشا بصوت خافت . فتناولت كاتيا يدها .

– دعينا نذهب ، هيا !

توقفت داشا ثانية بعد بضع خطوات .

– كاتيا ، اتعتقدين انها الثورة حقا ؟

من بعيد شع فى عيونهما مصباح كهربائى صغير موضوع فوق مدخل نادى الحقوقيين ، حيث دعت كتلة الكاديت ، تحت تــأثير الشائعات الجنونية القادمة من بتروغراد ، الى اقامة اجتماع عام فى الساعة التاسعة والنصف مساء لتبادل الآراء ، وايجاد قاعـــدة مشتركة للعمل فى هذه الايام الحرجة . صعدت الشقيقتان السلم الى الطابق الثانى ركضا ، ودخلتا القاعة دون ان تخلعا معطفيهما ، بل اكتفتا بفك لفاحيهما . كانت القاعة غاصة بالناس تستمع بتوتر الى سيد بدين مورد الخدين ملتح يحرك يديه الكبيرتين حـركات لطيفة . كان هذا الرجل يقول بصوت جميل متوسط الجهارة :

– . . . الاحداث تتنامى بسرعة تدير الراس . فى بتروغراد نقلت كل السلطة يوم امس الى الجنرال خابالوف الذى الصق فى انحـاء المدينة كلها هذا الاعلان : «فى الايام الاخيرة حدثت فى بتروغـراد قلاقل مصحوبة بالعنف والاعتداء على حياة ضباط الجيش والشرطة . أمنع كل تجمع فى الشوارع ، وانبه سكان بتروغراد الى اننى اكدت للقوات اللجوء الى السلاح عند الحاجة ، وعدم التوقف امام اى شىء فى سبيل اعادة النظام الى العاصمة . . .»

– جزارون !

رن صوت طالب جهير من جوف القاعة .

– . . . ان هذا الاعلان ، كما كان متوقعا ، قد جعل كاس الصبر تطفح . فانضم الى جـانب المنتفضين خمسة وعشرون الف جندى من حامية بتروغراد يمثلون مختلف اصناف السلاح . . .

وقبل ان ينهى كلامه ضجت القاعة بالتصفيق . وقفز بعض الرجال على مقاعدهم ، وهتفوا ، واوماوا بأيديهم ، وكانهم يوجهون الطعنات الى النظام القديم . نظر الخطيب الى القاعة الهادرة مبتسما ابتسامة عريضة ، ثم رفع ذراعه ، وتابع كلامه :

– وصلت قبل حين برقية تلفونية غاية فى الاهمية – وهنا دس يده فى جيب سترته ذات المربعات ، وبسط ورقة مطوية ، وقال : اليوم ارسل رودزيانكو رئيس مجلس دوما الدولة الى القيصر برقية تلفونية على الخط المباشر : «الوضع ينذر بالخطر . الفوضوية فى العاصمة . الحكومة مشلولة . النقل والتموين والوقود فى انهيار تام . الرصاص ينطلق فى الشوارع بلا نظام . القوات تطلق النار بعضها على بعض احيانا . من الضرورى اسناد الوزارة الجديدة الى رجل يتمتع بثقة البلاد . لا يجوز الابطاء . كل ابطاء صنو الموت . ندعو الله الا يوقع المسؤولية على راس العاهل فى هذه الساعة الحرجة» .

انزل السيد ذو الخدين الموردين الورقة ، وادار عينيه البراقتين فى القاعة . لم يذكر الموسكوفيون مثل هذه المسرحية الخلابة . وتابع الخطيب كلامه بصوت ناعم منغّم :

– نحن الآن ، ياسادة ، على عتبة اعظم حدث موشك على الوقوع فى تاريخ بلادنا . ولربما فى هذه اللحظة تحقق هناك – ومد ذراعه مثل تمثال دانتون – مطمح العديد من الاجيال ، واُخذ الثار لطيوف الديسمبريين المفجوعة . . .

تاوهت امراة ولم تتمالك نفسها .

– آه ، يا إلهى !

– ولربما ستندمج روسيا غدا فى جوقة اخوية فرحة تردد كلمة : الحرية ! . .

فرددت اصوات صارخة :

– عاشت الحرية ! . .

وهبط السيد فى مقعده ، ومرر ظاهر كفه على جبهته . نهض من طرف الطاولة رجل مديد القامة ذو شعر طويل كتانى اللون ، ووجه ضيق ، ولحية صهباء ذابلة . واخذ يتكلم بصوت فيه نبرة هزء دون ان ينظر الى احد :

– منذ لحظة سمعت بعض الرفاق يهتفون : عاشت الحرية . شيء صحيح . واى شيء يمكن ان يكون افضل من اعتقال نيقولاى الثانى فى موغيليف ، ومحاكمة الوزراء ، وطرد حكام الولايات ورجال الشرطة . . . ورفع راية الثورة الحمراء . . . انها بداية صحيحة . . . العملية الثورية ، حسب المعلومات المتوفرة ، قد بدات بداية صحيحة وبطاقة حيوية . وفى هذه المرة ، على ما يبدو ، ستنجح . ولكن ها أنتم قد سمعتم السيد الفاضل الذى تحدث قبلى يقول كلاما جميلا جدا . فقد اعرب – ان لم تخنى اذنى – عن الرضى التام بالثورة الموشكة الحدوث ، وافترض انه سيندمج بروسيا كلها فى المستقبل القريب جدا فى جوقة اخوية واحدة . . .

اخرج الرجل ذو الشعر الكتانى منديلا ، ووضعه على فمه ، كمن يحاول ان يخفى ضحكة هازئة . الا ان وجنتيه تبقعتا ، وسعل ، ورفع كتفيه العظميتين . سأل شخص وراء داشا التى كانت تشارك اختها فى مقعد واحد :

– من المتكلم ؟

همس احدهم فى الاجابة همسا سريعا :

– الرفيق كوزما . كان فى عام ١٩٠٥ عضوا فى سوفييت نواب العمال . قبل مدة قصيرة عاد من المنفى .

وتابع الرفيق كوزما كلامه :

– لوكنت فى مكان الخطيب السابق لتريثت قليلا فى ابداء الغبطة – وفجأة اكتسى وجهه الشمعى موجدة وحزما وهو يقول : ان اثنى عشر مليونا من الفلاحين قد اعدوا للقتال ، وهم ما يزالون فى الجبهات . . .وملايين من العمال يختنقون فى الاقبية ، ويقفون جياعا فى الطوابير امام حوانيت الطعام . فلعلكم تريدون ان تغنوا جوقة اخوية واقفين على ظهور العمال والفلاحين . . .

وصدرت فى القاعة همهمة ، وصرخ صوت حانق : «هذا استفزاز !» هز السيد ذو الوجنتين المحمرتين كتفيه ، ومس الجرس . وواصل الرفيق كوزما كلامه :

– . . . القى الامبرياليون اوربا فى حرب مريعة ، واعتبرتها الطبقات البرجوازية عاليها وسافلها حربا مقدسة – تلك الحرب من اجل الاسواق العالمية ، من اجل انتصار منقطع النظير للراسمال . . .

اما الخونة ، الاشتراكيون-الديموقراطيون فقد ايدوا السادة متواطئين معهم ، واقروا معهم بأن الحرب وطنية ومقدسة . وسيق الفلاحون والعمال الى المجزرة . . . . وانا اريد ان اسأل : من الذى رفع صوته فى هذه الايام الدموية ؟

– ماذا يقول ؟ . . ! اجعلوه يخرس !

ارتفعت اصوات حانقة ، وعلا الضجيج ونهض بعض الناس قافزين من اماكنهم مؤشرين بايديهم .

– . . . الساعة دقت . . . ولهب الثورة سيمتد ، لا محالة ، الى صميم الفلاحين والعمال . . .

وبعد ذلك تعذر تماما ان تلتقط الاذن كلامه ، بسبب الصخب فى القاعة . هرع بعض الاشخاص المرتدين ستر النهار الى الطاولة . ارتد الرفيق كوزما عن المنصة ، وتوارى وراء الباب . واحتلت مكانه خبيرة مشهورة فى تربية الاطفال .

– ان الكلمة المثيرة للاستياء التى القاها الخطيب السابق . . .

وفى تلك اللحظة همس شخص على مقربة شديدة من اذن داشا بصوت منفعل رقيق :

– مرحبا ، يا عزيزتى . . .

نهضت داشا مسرعة حتى دون ان تجد الوقت لتلتفت ، فرأت ايفان ايليتش واقفا عند الباب . نظرت اليه – الى رجلها ، فبدا لها اجمل رجل فى العالم . اما هو فقد اذهله مرة اخرى ، كما حدث له مرارا من قبل ، ان يرى داشا مختلفة تماما عما كان يتصورها فى ذهنه فى غيابها ، ولكنها اكثر جمالا بما لا حد له : شاعت حمرة حارة فى خديها ، وبدت عيناها الرماديتان الزرقاوان مثل بحيرتين لا قرار لهما . كانت صورتها كاملة ، ولا ينقصها شىء . ردت داشا التحية بصوت خافت ، وتناولت يده ، وخرج الاثنان الى الشارع .

توقفت داشا فى الشارع ورنت الى ايفان ايليتش مبتسمة . ثم تنهدت ، ورفعت ذراعيها الى كتفيه ، وقبلته من شفتيه . وفاحت منها الفتنة الانثوية لعطر فيه بعض المرارة . امسكت داشا يده ثانية وهى صامتة ، وسار الاثنان على قشرات الجليد المخشخشة ، والملتمعة بضوء الهلال المتدلى منخفضا هناك ، فى اعماق الشارع .

– آه ، كم احبك ، يا ايفان ! كم انتظرتك . . .

– لم استطع القدوم ، انت تعرفين . . .

– لا تغضب اذا كنت قد كتبت لك رسائل سيئة . فانا لا احسن الكتابة .

توقف ايفان ايليتش ، وحدق فى وجهها المرفوع اليه ، الباسم بصمت . كان المنديل المزغب يضفى عليه مسحة خاصة من الحلاوة والبساطة ، ويجعل الحاجبين المخططين تحته اكثر اسودادا . جذبها ايفان ايليتش اليه برفق ، فالتصقت به منقلة قدميها . قبلها مرة اخرى . وعادا يسيران .

– هل ستمكث طويلا ، يا ايفان ؟

– لا اعرف . هذه الاحداث . . .

– نعم ، انها الثورة .

– تصورى ! اننى جئت على قاطرة . . .

– اتعرف ، يا ايفان ان . . .

وسارت معه على خطو واحد ناظرة الى طرفى حذائيها .

– ماذا ؟

– ساذهب هذه المرة معك الى بيتك . . .

لم يرد ايفان ايليتش عليها . ولم تشعر داشا الا بأنه يحاول ان يملأ صدره بالهواء عدة مرات . واحست بالحنان والاشفاق عليه .

٣٧

كان اليوم التالى رائعا لأنه اثبت مفهوم نسبية الزمن فقد نقلت العربة ايفان ايليتش من فندقه فى شارع تفيرسكايا الى شارع اربات بحوالى عام ونصف عام . وقد قال الحوذى : «لا ، ياحضرة المحترم فات ذلك الزمان الذى تستطيع ان تستأجر فيه عربة بنصف روبل . فى بتروغراد كسب الناس حريتهم وسنفعل ذلك فى موسكو فى القريب العاجل . انظر الى ذلك الشرطى الواقف هناك . اود لو اسوق العربة عليه ، والهب وجهه بسوطى . ابن الكلبة ذاك . انتظر ، يا محترم ، وسنصفى حسابنا مع الجميع» .

استقبلت داشا ايفان ايليتش عند باب غرفة الطعام .

كانت فى روبها البيتى ، وشعرها الاشقر قد صُفّ على عجل ، وعبق الماء الطازج يفوح منها . ودق جرس الزمن ، وتوقف الزمن ، وامتلأ كله بكلمات داشا ، وضحكها ، وشعرها الناعم الخفيف المشع فى شمس الصباح . وكان ايفان ايليتش يحس بالاضطراب حتى حين كانت داشا تنتقل الى الطرف الآخر من المائدة . فتحت داشا باب دولاب الاوانى ، ورفعت ذراعيها ، وانحسر كمّا روبها العريضان . وفكر ايفان ايليتش مع نفسه بان من المستحيل ان يكون للناس مثل هاتين الذراعين ، ولكن الأثرين الابيضين للتطعيم ضد الجدرى فوق المرفق كانا يؤكدان وحدهما بان هاتين الذارعين انسانيتان على الرغم من ذلك . تناولت داشا قدحا ، وادارت راسها الاشقر الشعر ، وقالت شيئا مدهشا ، وضحكت .

جعلت ايفان ايليتش يشرب عدة اقداح من القهوة . كانت تنطق بكلمات ، وايفان ايليتش ينطق باخرى ، ولكن كلمات الناس ، على ما يبدو ، لا يكون لها معنى الا فى الزمن المتحرك بشكل طبيعى . اما اليوم فلم تكن للكمات معان . كانت يكاترينا دميتريفنا جالسة معهما فى غرفة الطعام تسمعهما يثرثران بالتوافه عن القهوة ، وعن محفظة جلدية لادوات الزينة ، وعن راس قُطع فى بتروغراد ، وعن شعر داشا الذى يبدو اصهب فى الشمس الساطعة – ويالعجب ! وهما فى ذلك ما بين دهشة شديدة ، ونسيان سريع للموضوع .

جلبت الخادمة الصحف . نشرت يكاترينا دميتريفنا «روسكيه فيدوموستى» ، وتاوهت واخذت تتلو بصوت مسموع بيان الامبراطور عن حل دوما الدولة . اندهشت داشا وتليغين من هذا الخبر اندهاشا كبيرا . الا ان يكاترنيا دميتريفنا بعد ذلك ، واصلت قراءتها «روسكيه فيدوموستى» فى سرها . قالت داشا لتليغين : «تعال الى غرفتى» وقادته عبر دهليز مظلم صغير الى غرفتها . دخلت داشا الغرفة قبله ، وقالت بعجالة : «انتظر لحظة ، لا تنظر» ، واخفت شيئا ابيض فى جرار الخزانة .

كان ايفان ايليتش يرى غرفة داشا لاول مرة . يرى منضدة الزينة باشيائها العديدة الغريبة عليه ، والسرير الابيض الضيق بوسادتين كبيرة وصغيرة . وكانت داشا تتوسد الاولى فى نومها ،

وترتفق الثانية حين تهوّم ، والمقعد الوثير عند النافذة ، وقد أُلقى على ظهره لفاح مزغب .

طلبت داشا الى تليغين ان يجلس فى ذلك المقعد ، وقربت منه كرسيا بلا ظهر ، وجلست عليه قبالته مسندة مرفقيها على ركبتيها ، موسدة حنكها على يدها ، وحدقت فى وجهه دون ان يرف لها جفن ، طالبة منه ان يقول لها كم يحبها . دق جرس الزمن مرة اخرى .

قال تليغين :

– داشا ، لو وهبونى كل ماهو موجود ، كل الارض لما اسعدنى ذلك . هل تفهمين ؟ – فهزت داشا رأسها . – ما الحاجة الىّ اذا كنت وحيدا فى الدنيا ؟ صحيح ؟ .. وما نفع نفسى لنفسى ؟ – هزت داشا راسها . – ولاى شىء آكل ، واسير ، وانام ؟ وما نفع هاتين اليدين ، وهاتين القدمين ؟ .. وماذا وراء امتلاكى لثروات اسطورية ؟ .. ولكن أتتصورين اية وحشة اشعر بها وانا وحيد ؟ – هزت داشا راسها . – ولكن الآن ، حين تجلسين هذه الجلسة بقربى . . . انسى وجود نفسى . . . اشعر فقط بوجودك ، بالسعادة . فانت كل شىء . انظر اليك فيدور راسى . امن المعقول انك تتنفسين ، وانك حية ، وانك لى . داشا ، اتفهمين شيئا مما اقوله ؟

قالت داشا :

– اتذكر جلوسنا على ظهر السفينة ، وقد هب النسيم ، وتلألأ النبيذ فى الاقداح ، وقد احسست انذاك بأننا نمخر نحو السعادة . . .

– وهل تذكرين الظلال الزرق هناك ؟

هزت داشا رأسها ، وخيل اليها على الفور بأنها هى ايضا تتذكر ظلالا زرقا رائعة . وطافت فى ذاكرتها طيور النورس التى كانت تطير وراء السفينة ، والشطئان الواطئة ، والدرب المتلالىء الذى القته الشمس بعيدا على الماء ، والذى بدا لها كان نهايته الاخرى تلتقى ببحر السعادة الازرق المتالق . بل وتذكرت داشا الثوب الذى كانت ترتديه . . . الا كم من سنين طويلة قد مرت منذ ذلك الحين . . .

فى المساء عادت يكاترينا دميتربيفنا راكضة من نادى الحقوقيين وهى منفعلة متهللة ، وروت قائلة :

– فى بتروغراد انتقلت كل السلطة الى لجنة الدوما ، واعتقل الوزراء ، ولكن شائعات رهيبة تسرى بين الناس تقول ان القيصر غادر مقر القيادة ، وان الجنرال ايفانوف يزحف على بتروغراد بفيلق كامل ليضع حدا للقلاقل . . . اما هنا فقد حدد يوم غد لاقتحام الكرملين والترسانة . . . يا ايفان ايليتش ، غدا سنأتى ، انا وداشا ، اليك فى الصباح لنشاهد الثورة . . .

٣٨

كان فى وسع المشاهد ان يرى من نافذة الفندق سيل الناس الاسود يتقدم ببطء فى شارع تفيرسكايا الضيق ، وتتحرك الرؤوس ، وطاقيات كثيرة العدد ، وقبعات ، ومناديل رأس ، وبرقع الوجوه الصفراء . والفضوليون يطلون من جميع النوافذ ، والاولاد على السطوح .

وكانت يكاترينا دميتربيفنا واقفة عند النافذة وقد رفعت برقعها حتى حاجبيها . كانت تمسك يد تليغين مرة ، ويد داشا اخرى وتقول :

– ما ارهب ذلك ! . . ما ارهب ذلك !

فكان ايفان ايليتش يقول :

– يكاترينا دميتربيفنا ، اؤكد لك ان الشعور السائد فى المدينة مسالم للغاية . قبل مجيئكما هرعت الى الكريملين ، فعلمت ان المفاوضات جارية هناك . والظاهر انهم سيسلمون الترسانة دون اطلاق رصاصة . . .

– ولكن لماذا هم ذاهبون الى هناك ؟ . . انظر اى عدد ضخم من الناس . . . ماذا يريدون ان يفعلوا ؟ . .

كانت داشا تنظر الى سيل الرؤوس المتموج والى خطوط السطوح والابراج . كان الصباح باهت الضوء ، خفيف البرد . وكان ثمة سرب من غربان الزروع يحوم

بعيدا فوق القباب الذهبية لكنائس الكريملين وفوق النسور المقوسة الارجل فى اعلى الابراج المدببة .

وخيل لداشا ان انهارا عظيمة قد اكتسحت الجليد ، وطفحت على الارض وانها وعزيزها محمولان بهذا التيار ، وليس عليها الآن الا ان تمسك يده بقوة . وخفق قلبها قلقا وفرحا ، مثل قلب طائر يحلق فى اعالى الجو .

قالت كاتيا :

– اريد ان ارى كل شيء ، لنخرج الى الشارع .

كانت الاعلام الحمراء تزين بناية دوما المدينة الاجرية الداكنة اللون – مقر قيادة الثورة – ذات الاعمدة الشبيهة بالقنانى ، والدرابزينات العديدة ، والشرفات والابراج . وكانت شرائط القماش الأحمر تلف الاعمدة ، وتتدلى فوق افريز المدخل الرئيسى . وامام المدخل اربعة مدافع رمادية على عجلات عالية رابضة على الرصيف المتجمد . وعلى المدخل جلس جنود الرشاشات متكورين على انفسهم ، وقد زينوا كتافياتهم باشرطة حمراء . وكانت جماهير غفيرة من الناس تنظر بتوجس مرح الى الاعلام الحمراء ، والى نوافذ الدوما المتربة السوداء ، حتى اذا ظهر فى الشرفة الصغيرةفوق مدخل البناية شخص صغير الجرم بادى الانفعال ، ولوح بيديه ، وصرخ بشيء غير مسموع . ارتفع من الحشد هدير الفرح .

وكان الناس اذا ملأوا ابصارهم بالنظر الى الاعلام والمدافع انصرفوا سائرين على الثلج الذائب قليلا والقذر عبر اطواق كنيسة ايفرسكايا العميقة خارجين الى الساحة الحمراء ، حيث كانت الوحدات العسكرية الثائرة تجرى مفاوضات عند بوابتى سباسكيه ونيكولسكيه مع المنتدبين من الفوج الاحتياطى المرابط والمتحصن فى الكريملين .

دفعت الجماهير كاتيا وداشا وتليغين بسيلها الى مدخل الدوما تماما . كان الصباح يترامى متعاليا من شارع تفيرسكايا حتى ملأ ارجاء الساحة .

– يارفاق ، تنحوا . . . يارفاق راعوا النظام !

ارتفعت بذلك اصوات شابة منفعلة . انشق حشد الناس على مضض ، فاندفع خلاله الى مدخل الدوما اربعة طلاب يلوحون ببنادقهم ، وشابة مليحة الوجه شعثاء الشعر فى يدها سيف . كانوا يسوقون عشرة معتقلين من رجال الشرطة ضخام مشوربين مطرقى الرؤوس عابسين شدت ايديهم وراء ظهورهم . سار فى مقدمتهم ضابط شرطة له رأس حليق مزرق حاسر ، والدم قد تخثر مسودا عند صدغه . مرر عينيه الصهباوين اللامعتين بسرعة على وجوه الحشد المستهزئة . كانت كتافيتا معطفه قد انتزعتا مع قطعة منه .

وتردد اصوات من الحشد :

– جاء ماكان ينتظركم ، يا اصحاب ! لعبتم علينا ، وكفى .

– وحكمتم حكم القياصرة . . .

– عترة ملعونة ! . . .

– امسكوهم ، واجعلوهم يذوقون العذاب . . .

– يا اولاد ، هيا ! . .

صاح الطلبة مبحوحى الاصوات :

– يارفاق ، يارفاق . اتركوهم يمرون . راعوا النظام الثورى !

وصعدوا الى مدخل الدوما راكضين دافعين رجال الشرطة ، وغيبتهم الابواب . وعندئذ تدافع وراءهم بعض الاشخاص ، ومن بينهم كاتيا وداشا وتليغين .

كان بعض جنود الرشاشات يقرفصون عند رشاشاتهم على الارض الرطبة فى دهليز عار عالى السقف باهت الاضاءة . وكان احد الطلبة – وهو فتى ممتلئ الخدين صعقه الصياح والتعب على مايبدو – يصيح بكل داخل .

– لا اريد ان افهم شيئا ! اعطنى الترخيص بالدخول ! . .

وكان بعض الداخلين يبرزون له تراخيصهم ، والبعض الاخر يكتفون بهز اذرعهم عليه ، ويرتقون السلم العريض الى الطابق الثانى ، حيث كان الجنود المتربون النعسى الصموتون مستلقين او قابعين قرب جدران الممرات العريضة غير تاركين بنادقهم . كان بعضهم يمضغ الخبز ، والبعض الآخر يشخر ، وسيقانهم الملفوفة

بلفائفها منطوية تحتهم . وكان المتفرجون يمرون متسكعين ويقرأون الاعلانات الغريبة المدبسة على الابواب ويتطلعون الى المفوضين المبحوحين الراكضين من حجرة الى اخرى ، المهتاجين الى آخر حدود الطاقة الانسانية .

امتلأ بصر كاتيا وداشا وتليغين بكل هذه الغرائب ، وشقوا طريقهم الى قاعة ذات علو مزدوج تغطى نوافذها ستائر ارجوانية حائلة اللون ، وتصطف فيها المساطب المبطنة بالارجوان على شكل انصاف دوائر . وكان على الجدار الأمامى اطاران مذهبان فارغان كانا يضمان من قبل صورتي القيصر والقيصرة ويبدوان الآن مثل بقعتين سوداوين ضخمتين . وامام الاطارين تمثال مرمرى للامبراطورة يكاترينا فى روبها البرونزى المتباعد الطرفين . تبتسم منطلقة الاسارير مداهنة شعبها .

وعلى مساطب القاعة جلس اناس مرهقون يسندون رؤوسهم على ايديهم وقد بدت وجوههم مسودة غير حليقة . وكان بعض الرجال نائمين دافنين وجوههم فى لوحة الكتابة امامهم ، والبعض الآخر ينزعون القشرة عن قطع السجق فى غير ما رغبة ، ويأكلون الخبز . وفى الاسفل ، امام تمثال يكاترينا المبتسمة ، جلس شبان ممتقعو الوجوه فى قمصان سود الى منضدة طويلة فرش عليها غطاء من المخمل الاخضر المذهب الحواشى . وبين هؤلاء رجل اصهب اللحية طويل الشعر . . . قالت كاتيا :

– انظرى يا داشا . هذا هو الرفيق كوزما وراء المنضدة .

وفى تلك اللحظة تقدمت من الرفيق كوزما فتاة قصيرة الشعر ، مدببة الأنف ، واخذت تهمس بشىء . اصغى الرجل دون ان يلتفت ثم نهض وقال :

– اعلن غوتشكوف رئيس البلدية للمرة الثانية انه لن يوزع الاسلحة على العمال . اقترح التصويت بدون مناقشة على احتجاج ضد عمل اللجنة الثورية .

واخيرا استطاع تليغين ان يعرف (بعد ان استجوب طالبا قصيرا مستغرقا فى تدخين سيكارة) ان اجتماع سوفييت نواب العمال مستمر هنا فى قاعة يكاترينينسكى هذه لليوم الثانى بلا انقطاع .

فى فترة الغداء رأى جنود الفوج الاحتياطى الموجودون فى

الكريملين دخـــان مطابخ الميدان المتنقلـــة فى الساحة الحمراء. فاستسلموا ، وفتحوا البوابة . وعم الصياح الساحة ، وارتفعت القبعات فى الهواء . وارتقى جندى صغير لوبنويه ميستو * الموضع الذى قتل فيه دميترى الدعى ** فى زمانه ، فانطرح عاريا تماما ، وقناع خروف على وجهه ، ومزمار البهلول على بطنه ، ذلك المكان الذى كان يعلن فيه تتويج القياصرة وتنحيتهم عن العرش ، وتذاع فيه جميع حريات الشعب الروسى وقيوده ، ارتقى تلك المنصة الواطئة التى كان الارقطيون يتناثر عليها احيانا كثيرة ، ثم يعود الدم المسفوك فيرويها . وكان هذا الجندى الضئيل يرتدى معطفا صلبيا ، وبدا يتكلم عن شىء منحنيا للناس ، دافعا طاقيته العالية الى اذنيه بكلتا يديه ، ولم يتبين احد شيئا من كلامه لشدة الصخب. وكان الجندى ضئيلا جدا ، غربل فى آخر موجة للتجنيد من احدى الاماكن النائية ، ومع ذلك فان سيدة كانت تضع على راسها قبعـة بريش مائلة الى جانب قد شقت طريقها اليه ، وقبلته . وبعد ذلك انزله الناس من «لوبنويه ميستو» ، ورفعوه على اذرعهم ، وحملوه هاتفين .

وفى تلك الاثناء صعد شاب من المحتشدين على تمثال الجنرال سكوبليف مقابل دار الحاكم العام فى شارع تفيرسكايا ، وشد قطعة من القماش الاحمر على سيفه . وتعالى الهتاف له . وانسل بعض الاشخاص الغامضين الى قسم البوليس السرى من الزقاق وسمع من هناك صوت زجاج يتكسر ، ثم طلع دخان . وهتف اناس : «هورا» . وعند نصب بوشكين فى بولفار تفيرسكوى تحدثت كاتبة مشهورة والدمع يسح من مآقيها عن فجر الحياة الجديدة ، وبعد ذلك وضعت بمساعدة طالب علما احمر صغيرا على يد بوشكين الواقف فى لحظة استغـــراق . وهتف الناس : «هورا» . وكانت المدينة كلهـــا

* منصة حجرية مستديرة الشكل كانت تعلن من فوقها مراسيم القياصرة واحكام الاعدام . (**المترجم**) .

** المدعى الثالث على عرش روسيا ، وقد تسمى باسم دميترى ابن القيصر ايفان الرابع (الرهيب) واعدم سنة ١٦١٣ فى موسكو فى «لوبنويه ميستو» . (**المترجم**) .

كالسكرى طيلة ذلك اليوم . ولم يعد احد الى بيته حتى ساعـة متأخرة من الليل ، وقد تجمهـــر النـــاس فى تجمعـات ، وراحوا يتحدثون ، ويبكون من الفرح ، ويتعانقون ، وينتظرون برقيات . فان روح اهالى المدينة تطغى بعد ثلاثة اعوام من الجزع والكراهية والدم .

عادت كاتيـا وداشا وتليغين الى البيت عند هبوط الظلام فعرفوا ان الخادمـــة ليزا قد خرجت الى بولفار بريتشستنسكى لحضور اجتماع ، وان الطباخة قد حبست نفسها فى المطبخ ، وانها تبكى وتطلق صرخات خافتة . افلحت كاتيا بعد لأى فى اجبارها على فتح الباب :

– ماذا حدث لك ، يا مارفوشا ؟

– قـ . . . . ـتـ . . لوا . . . قيصرنا .

قالت وغطت بيدها فمها الممتلىء ذا الشفتين المنتفختين من البكاء . وكانت رائحة الكحول تفوح منها .

قالت كاتيا منزعجة :

– انت تقولين هراء . ان احدا لم يقتله .

وضعت سخان الشاى على موقد الغاز ، وذهبت لتعد المائدة . استلقت داشا على الاريكة فى غرفة الجلوس وجلس تليغين عند قدميها . قالت داشا :

– ايفان ، ياعزيزى ، اذا اخذتنى غفوة دون ان ادرى ، فايقظنى حين يعد الشاى فانا مشوقة اليه جدا .

وانقلبت ، ووضعت كفيها تحت خدها ، وقالت بصوت ادركه النعاس :

– احبك كثيرا .

فى الشفق كان اللفاح الذى كان تلتف به داشا يلوح ابيض . وكان تنفسها غير مسموع . جلس ايفان بلا حراك ، وقد انفعم قلبه . ظهر ضوء فى شق الباب فى نهاية الغرفة ، ثم انفتح الباب ، ودخلت كاتيا ، وجلست الى جانب ايفان ايليتش على مسند الاريكة وطوقت ركبتيها . وبعد برهة من الصمت سألت بصوت خفيض :

– غفت داشا ؟

– طلبت ان توقظ عند تهيئة الشاى .

– ومارفوشا تبكى فى المطبخ لأن القيصر قتـــــل . ماذا سيحصل ، يا ايفان ايليتش ؟ . . يخامرنى شعور بان جميع السدود قد خرقت . . . وقلبى يوجعنى خوفا على نيقولاى ايفانوفيتش . . . ارجو ، ياعزيزى ، ان ترسل له برقية فى الصباح الباكر غدا . . . قل لى متى تنويان – انت وداشا – السفر الى بتروغراد ؟

لم يجب ايفان ايليتش . ادارت كاتيا له راسها وتفرست فى وجهه بعينيها الواسعتين كعينى داشا تماما ، سوى انهما عينا امراة جديتان ، وابتسمت ، وجذبت ايفان ايليتش ، وقبلته من جبينه .

فى صباح اليوم التالى خرج الناس جميعا الى الشارع . سارت الشاحنات المملوءة بالجنود فى شارع تفيرسكايا وسط زحـــام الناس ، والهتافات المتواصلـــة ، فكان الجنـــود مسلحين بالحراب والسيوف . واعتلى الصبيان متون المدافع المقرقعـــة ووقفت على اكوام الثلج القذرة وعلى الارصفة لحراسة النظام فتيات فى ريعان الشباب شاهرات السيوف متوترات الوجوه وطلاب مدججون بالسلاح لا يعرفون الرحمة . انهم الميلشيـــا المتطوعة . صعد اصحاب الحوانيت على السلالم وانزلوا النسور الامبراطورية من لافتاتهم . وسارت فى شارع المدينة فتيات سقيمات المظهر – هن عاملات من معمل التبغ يحملن صورة ليف تولستوى الذى كان ينظر بجهامة من تحت حاجبيه المعقودين الى كل هذه الغرائب . وبدا وكان من المستحيل ان تكون بعد الان حرب او بغضاء ، ولم يبق الا ان ترفع الراية الحمراء على احد ابراج الاجراس العاليـــة حتى يدرك العالم اجمع اننا جميعا اخوة ، وان القوة الوحيدة فى الدنيـــا هى الفرح والحرية والحب ، والحياة . . .

وحين حملت البرقيات النبـــا الصاعق عن تنحيـــة القيصر وانتقال المُلك الى كبير الامراء ميخائيل ، وعن رفضه للعرش القيصرى بدوره ، لم يدهش احد كثيرا ، فقد بدا وكان تلك الأيام حبلى باعظم من هذه العجائب .

لمعت نجمـــة فى السماء الشفافـــة اللانهائيـــة العمق ، فوق خطوط السطوح غير المستقيمة ، والشفق البرتقالى . ولاحت اغصان الزيزفون العارية سوداء ساكنة تلبدت الظلمة تحتها تماما ،

وتجمدت البرك على الرصيف وراحت تتكسر تحت الاقدام . توقفت داشا ، ودون ان تفك يديها المتشابكتين اللتين طوقت بهما يد ايفان ايليتش مدت بصرها عبر السياج الواطئ فى الضوء الباهت فى النافذة الصغيرة العميقة فى كنيسة القديس نيقولا .

كانت الكنيســـة وفناؤهـــا فى الظل تحت اشجار الزيزفون . ترامى من بعيد صوت انصفاق باب وسار فى الفناء رجل قصير فى معطف طويل يصل الى الارض ، وقبعة معكوفة الحافة . وكان الجليد يتكسر تحت حذائه اللبـــادى ، وترامت صلصلة المفاتيح . اخذ الرجل يرتقى برج الجرس على مهل . همست داشا :

– ذهب القندلفت ليدق الجرس .

ورفعت داشا رأسها . كان ألَق الغروب يرتمى على ذهب القبة الصغيرة على برج الكنيسة .

دق الجرس الذى يدعو الناس منذ ثلاثمائـــة عام الى سكينـــة النفس قبل النوم . وقفزت الى ذاكرة ايفان ايليتش فى الحال تلك الكنيسة الصغيرة فى الطريق ، والمراة التى كانت تبكى بصمت على عتبتها وهى بردائها الابيض ، والطفل الميت على ركبتيها . ضغط ايفان ايليتش بكوعه على يد داشا ضغطة قوية . نظرت داشا اليه نظرة تساؤل . وسالته بهمس سريع :

– اتريد ؟ لنذهب . . .

ابتسم ايفان ايليتش ابتسامة عريضة ، فعبست داشـــا وضربت الارض بحذائها .

– ليس فى الامر ما يضحك حين تسير امراة ويدها بيد الشخص الذى تحبه اكثر من اى شىء آخـــر على الارض ، وتبصر ضوءا فى نافذة فيدخلان الكنيسة ، ويعقدان قرانهما . . .

وتناولت داشا يد ايفان ايليتش ثانية ، وسالت :

– هل انت فاهمى ؟

٣٩

– ايها المواطنون ، جنود الجيش الروسى الحـــر منذ الآن فصاعدا . لقد حظيت بشرف نادر ، هو ان اهنئكم بيوم مجيد : ان قيود العبودية قد حطمت ، وتام الشعب الروسى خلال ثلاثة ايام

باعظم ثورة فى التاريخ دون اراقة قطرة من الدماء . فقد خلع القيصر المتوج عن العرش ، واعتقل الوزراء القيصريون . وتنازل ميخائيل ولى العهد من تلقاء نفسه عن عبء العرش الثقيل . ومنذ اليوم انتقلت السلطة بكامل هيئتها الى الشعب . واصبحت على راس الدولة حكومة مؤقتة لكى تجرى الانتخابات الى الجمعية التاسيسية لعموم روسيا فى اقرب وقت مستطاع ، على اساس التصويت السرى المباشر المتساوى العام . . . فلنهتف منذ اليوم : عاشت الثورة الروسية ، عاشت الجمعية التأسيسية ، عاشت الحكومة المؤقتة ! . . .

تعالى هتاف طويل من آلاف الجنود المحتشدين . اخرج نيقولاى ايفانوفيتش سموكوفنيكوف منديلا كبيرا كاكى اللون من جيب سترته الشموا ، ومسح رقبته ووجهه ولحيته . كان يتكلم وهو واقف على منصة مصنوعة بارتجال من الواح خشبية ، يضطر الصاعد اليها الى التسلق على عوارض متقاطعة . وكان يقف وراء ظهره آمر الكتيبة تيتكين الذى رقى قبل حين الى رتبة مقدم ، وقد ارتسم الانتباه المتوتر على وجهه المسفوع بلحيته القصيرة وانفه الممتلئ . وحين تعالى الهتاف رفع يده الى طرف طاقيته بتحية ساهمة . وكان زهاء الفى جندى يقفون امام المنصة فى الحقل المنبسط المرقش ببقع سوداء من الارض والثلج المتسخ . كانوا يقفون فاغرى الافواه معتمرين بالخوذ الحديدية لابسين المعاطف المتجعدة بلا احزمة ، وبلا سلاح ، يصغون الى الكلمات المذهلة الذى كان ينطق بها سيد أحمر كالديك الحبشى . وفى المدى البعيد كانت مداخن قرية محروقة تلوح بارزة من خلال الضباب الرمادى . ووراء القرية كانت تبدأ مواقع الالمان .

– ايها الجنود !

تابع نيقولاى ايفانوفيتش خطابه ، وقد مد الى الامام يده منفرجة الاصابع ، وتدفق الدم الى رقبته :

– بالامس فقط كنتم اناسا من درجة واطئة ، قطيعا اعجم كانت القيادة العليا القيصرية ترسله الى المذبحة . ولم يكونوا يسألونكم ما الذى يجب ان تموتوا من اجله . . كانوا يجلدونكم على اقل ذنب ، ويرمونكم بالرصاص دون محكمة . (سعل المقدم

تيتكين ، ورفع قدما ووضع اخرى ، الا انه صمت ، وانزل راسه ثانية ، وعاد الى اصغائه) . لقد عينتنى الحكومة المؤقتة مفوضا لجيوش الجبهة الغربية – وهنا شد نيقولاى ايفانوفيتش على اصابعه كمن يمسك بعنان – واصرح لكم انه منذ اليوم لا توجد رتب واطئة ، ولا القاب ، وانتم الجنود ، منذ اليوم ، مواطنون متساوون للدولة الروسية ولا يوجد الان فرق بين الجنود وقائد الجيش . وقد الغيت القاب صاحب السيادة ، صاحب المعالى ، صاحب الفخامة . منذ اليوم ستقولون «مرحبا ايها السيد الجنرال» و«لا ، ايها السيد الجنرال» و«نعم ، ايها السيد الجنرال» . وصيغ الجواب المهينة مثل «بالأمر والخدمة ، يا صاحب السيادة» قد الغيت كما الغى اداء الجندى التحية العسكرية لكل ضابط مهما تكن رتبته . وفى امكانكم ان تصافحوا الجنرال اذا شئتم ذلك . . .

ها – ها – ها –

سرت هذه الوهوهة مرحة فى حشد الجنود . وابتسم تيتكين ايضا ، ورفت رموشه خوفا .

– واخيرا ناتى الى الشىء الأهم : ايها الجنود ، من قبل كانت الحكومة القيصرية هى التى تخوض الحرب ، ومنذ اليوم سيخوضها الشعب ، انتم انفسكم . ولهذا تقترح الحكومة المؤقتة عليكم تشكيل لجان الجنود فى جميع الجيوش – لجان السرايا والكتائب والافواج صعودا حتى لجان الجيوش . . . ارسلوا الى هذه اللجان الرفاق الذين تثقون بهم ! . . ومنذ اليوم سيتحرك اصبع الجندى على الخارطة العسكرية الى جانب قلم القائد الاعلى . . . ايها الجنود ، اهنئكم بمكسب الثورة الرئيسى ! . .

وضجت الهتافات فى الحقل مرة اخرى . وقف تيتكين بهيئة استعداد ، وادى التحية العسكرية . واكتسى وجهه لونا رماديا . واخذت الصيحات ترتفع من الجنود المحتشدين :

– هل سنعقد الصلح مع الالمان عن قريب ؟

– كم سيخصصون من الصابون للفرد الواحد ؟

– وماذا بخصوص الاجازات ؟ ماهى التعليمات ؟

– ايها السيد المفوض . ماذا سيكون عندنا الآن ؟ هل سننتخب ملكا ؟ ومَن سيحارب ؟

ولكي يرد على الاسئلة على نحو افضل نزل نيقولاى ايفانوفيتش من المنصة ، فاحاطه الجنود الهتاجون فى الحال . اسند المقدم تيتكين مرفقه على درابزين المنصة ، وراقب رأس المفوض الحربى الحليق الحسير وقفاه الممتلئ وهو يتحرك وسط الخوذ الحديدية ، ويدور ويبتعد . امسك جندى احمر الشعر يلوح عليه المرح والغضب يضع معطفه على كتفيه (كان تيتكين يعرفه جيدا ، من سرية المخابرة) امسك نيقولاى ايفانوفيتش من حزام سترته ، وراح يسأله مطوفا بصره فيما حوله :

– ايها السيد المفوض الحربى ، انت تحدثت لنا حديثا مشوقا ، ونحن اصغينا اليه بشوق ... والآن اجبنى على هذا السؤال .

ضج الجنود فرحين ، واشتد تزاحمهم . تعبس المقدم تيتكين ، ونزل من المنصة واجما .

قال الجندى وهو يكاد يمس انف نيقولاى ايفانوفيتش باظفره الاسود :

– اطرح عليك هذا السؤال . تلقيت من قريتى رسالة تخبرنى بان البقرة التى كانت فى بيتى قد فطست ، وانا لا املك حصانا ، زوجتى راحت تطوف فى الارض مع اولادنا تستجدى الناس كسر الخبز ... اريد ان اسأل : ايحق لك الآن ان ترمينى بالرصاص اذا حاولت الهرب ؟

– اذا كانت سلامتك الشخصية اغلى عندك من الحرية ، ففى وسعك ان تخونها ، تخونها كيهوذا . عندئذ ستقول روسيا لك فى وجهك : لا تستحق ان تكون جنديا فى الجيش الثورى ... اذهب الى بيتك !

صرخ نيقولاى ايفانوفيتش بحدة ، فقال الجندى :

– لا تصرخ على !

– ومن انت لتصرخ علينا !

– ايها الجنود – ورفع نيقولاى ايفانوفيتش جسمه على اطراف اصابعه – هنا يجرى سوء تفاهم ... ان الوصية الاولى للثورة هى الاخلاص لحلفائنا ... وعلى الجيش الروسى الثورى الحر ان يهاجم بقوة جديدة عدو الحرية الالد ، المانيا الامبريالية ...

فارتفع صوت غليظ :

– وانت هل سبق لك ان غذيت القمل من دمك فى الخنادق ؟

– انه لم ير قملة واحدة منذ ولادته ...

– اهد له ثلاثا للتكاثر ...

– لا تحدثنا عن الحرية . حدثنا عن الحرب . نحن نحارب منذ ثلاث سنوات ... انت فى طيب مقام فى المؤخرة ، تغذى لك كرشا اما نحن فيجب ان نعرف كيف تنهى الحرب ...

صاح نيقولاى ايفانوفيتش مرة اخرى :

– ايها الجنود ، ان راية الثورة قد رفعت . الحرية والحرب حتى النصر الاخير ...

– اوه ، ابله ملعون لا فائدة منه ...

– نحن نحارب منذ ثلاث سنوات ، ولم نجد نصرا ...

– ولماذا اذن خلعوا القيصر ؟ ..

– خلعوا القيصر عن قصد . كان يعرقل عليهم تطويل الحرب ...

– انه مأجور ، يا رفاق ...

شق المقدم تيتكين طريقه الى نيقولاى ايفانوفيتش دافعا الجنود بكوعه ، وشاهد مدفعيا ضخما مكور الكتفين اسود الشعر يمسك المفوض من صدره ، ويهزه ويصرخ فى وجهه :

– لماذا جئت الى هنا ؟ قل : لماذا جئت الينا ؟ جئت لتبيعنا ، يا ابن الكلبة ...

وغار قفا المفوض المستدير فى رقبته ، واهتزت لحيته الشائلة الى فوق ، الشبيهة بلحية مستعارة . دفع الجندى ، ومزق باصابع مرتجفة ياقة قميصه . تعبس الجندى وخلع خوذته الحديدية ، وضرب بها رأس نيقولاى ايفانوفيتش ووجهه عدة ضربات قوية ...

٤٠

جلس حارس ليلى ورجل من رجال الميليشيا عند باب مخزن المجوهراتى مورافييتشيك يتبادلان الحديث بخفوت . وكان الشارع خاليا ، والمخازن مغلقة ، وريح آذار الخفيفة تصفر فى اشجار الحور

التى لم تكتس اوراقا بعد ، وتخشخش فى اعلان «قرض الحرية» الملصق على سياج ، والقمر الوضاء كقمر الجنوب ، الحى ، مثل قنديل البحر يتدلى عاليا فوق المدينة .

وكان الحارس الليلي يتحدث ببطء :

– وكان هو يصطاف فى منزله على الساحل البحرى فى يالطا . وكان قد خرج الى التنزه فى سروال ابيض ، حسب الاصول ، بكل نياشينه . واذا بهم يسلمونه برقية فى الشارع عن خلع صاحب الجلالة الامبراطور . ويقرا البرقية ، وتنفجر الدموع من عينيه امام الناس جميعا .

ردد رجل الميليشيا متعجبا :

– اى ، اى ، اى .

– وبعد اسبوع أُقيل .

– والسبب ؟

– لانه حاكم ، والحاكم غير مقبول فى هذه الايام .

– اى ، اى ، اى . .

كرر رجل الميليشيا تعجبه ، ناظرا الى قط ضاو كان ماضيا فى شؤونه بحذر فى ظل القمر تحت شجيرات الاقاسيا .

– . . . وكان جلالة الامبراطور يعيش فى ذلك الوقت فى موغيليف بين قواته وحياته رخية مطمئنة . فى النهار يشبع من النوم ، وفى الليل يطالع التقارير عن المعارك الحاصلة . . .

قال رجل الميليشيا :

– الملعون عطشان بالتاكيد ، وذاهب لشرب الماء :

– عمن تتحدث ؟

– عن قط مخزن سينوبلى للدخان . خرج يتمشى .

– حسنا . وفجاة يتصلون بجلالة الامبراطور بالخط المباشر ، ويبلغونه بكذا وكيت ، ويقولون ان شعب بتروغراد ثائر ، والجنود لا يريدون التصدى للشعب ، بل يبتغون العودة الى بيوتهم . ولكن صاحب الجلالة لا يظن ذلك بالأمر الخطير . ويستدعى جميع الجنرالات ، ويلبس النياشين والوشائح ، ويخرج اليهم ليقول : «الشعب ثائر فى بتروغراد ، والجنود لا يريدون التصدى للشعب بل يبتغون العودة الى بيوتهم . فماذا يجب ان

افعل ؟ ادلوا لى برأيكم . وماذا تحسبون ؟ نظر جلالته الى الجنرالات ، ولكن هؤلاء ، يا صاحبى ، لم يقولوا رايهم ، بل اداروا وجوههم جميعا . . .

– اى ، اى ، اى ، مصيبة !

– واحد منهم فقط لم يدر وجهه عن الامبراطور ، وهو جنرال عجوز سكير . قال له : «يا صاحب الجلالة ، مرنى اضع رقبتى لك» . هز صاحب الجلالة راسه ، وابتسم بمرارة ، وقال : «من بين جميع رعاياى الاحباء لم يبق الا واحد مخلص ، وحتى هذا تجده سكران كل يوم منذ الصباح . والظاهر ان ملكى قد انتهى . ناولونى ورقة فيها شعار الدولة لأوقع على تنازلى عن العرش» .

– ووقع بالفعل ؟

– وقع ، وذرف دموعا مريرة .

– اى ، اى ، اى ، مصيبة . . .

وفى تلك الاثناء مر بالمخزن رجل طويل يلبس كيبيه ذات راس مدبب كبير غاطسة حتى حاجبيه . وكان ردن سترته الفارغ محشورا فى حزامه . ادار وجهه نحو الرجلين الجالسين عند المخزن ، ولمعت اسنانه بوضوح . قال الحارس خافت الصوت :

– هذا الرجل يمر للمرة الرابعة .

– انه لص بالتاكيد .

– هذه الحرب هى التى ولدتهم بهذه الكثرة ياصاحبى . ظهرو فى اماكن لم تعرفهم من قبل . فنانون فى صنعتهم .

دقت الساعة على برج الجرس ثلاث دقات من مسافة بعيدة ، واعقبها صياح ديكة الفجر . وظهر ذو الذراع الواحدة فى الشارع مرة اخرى . وقد اتجه هذه المرة الى الحارسين تماما ، نحو المخزن . صمت الرجلان وراحا يتطلعان اليه . وفجاة قال الحارس بهمس متسارع :

– وقعنا فى داهية ، يا ايفان . اطلق صفارتك .

اخذ رجل الميليشيا يخرج صفارته الا ان ذا الذراع الواحدة وثب عليه ، وضربه بقدمه على صدره ، وفى نفس اللحظة ضرب الحارس الليلى بمقبض المسدس على راسه . وفى تلك البرهة ركض رجل ثان نحو المدخل : كان قصيرا بارز الشاربين فى معطف جندى ،

وقد انقض على رجل الميليشيا ، ولوى ذراعيه وراء ظهره بحركة سريعة قوية .

واخذ ذو الذراع الوحدة والقصير يعالجان القفل صامتين حتى فلاه ، ودخلا مخزن مورافييشيك ساحبين الى داخلـه الحارس المصعـوق ورجل الميليشيـا المشدود الذراعين ، وسدا الباب وراءهما .

وانتهى كل شيء فى بضع دقائق . شدت الاحجار الكريمـة والذهب فى صرتين . وبعد ذلك قال القصير :

– وهذان ؟

ورفس بحذائه رجل الميليشيا الذى كان منطرحا على الارض قرب البسطة .

تمتم رجل الميليشيا بصوت ضعيف :

– ياعزيزى ، لا داعى للقتل لا تفعلاه ايها الطيبان . .

قال ذو الذواع الواحدة بحدة :

– لنذهب .

– اقول لك انهما سيبلغان عنا .

– لنذهب ، يا سافل !

وامسك اركادى جادوف الصرة باسنانـه ، ووجه مسدسه «الموزر» على شريكه . فضحك هذا بتهكم ، وسار نحو الباب .

وكان الشارع ما يزال خاليا . خرج الاثنان بهدوء ، وانعطفا فى ركن الشارع ، وسارا نحو «قصر كابرنيه» . قال جادوف للرجل القصير اثناء سيره :

– سافل ، قاتل ، وغد . تجنب ذلك ، اذا كنت تريد العمل معى . فهمت ؟

– فهمت .

– والآن ، اعطنى الصرة . واذهب فى الحال واعد القارب . ساذهب انا لاحضار زوجتى . يجب ان نكون فى البحر عند الفجر .

–نذهب الى يالطا ؟

– ليس هذا شانك . الى يالطا او الى القسطنطينية . . . انا صاحب الأمر .

٤١

سافر تليغين وداشا الى بتروغراد ، وبقيت كاتيا وحيدة . وقد رافقتهما الى محطة القطار – كانا فى حالة من شرود الذهن ، وكانهما فى حلم – وعادت الى البيت وحدها عند حلول الظلام .

كان البيت خاليا . فقد خرجت مارفوشـا وليزا الى اجتماع خدام البيوت . كانت غرفة الطعام ما تزال عابقـة برائحة تبغ وزهور ، وشجيرة الكرز المزهرة ماتزال واقفة فى موضعها بين اوانى الطعام غير المرفوعة . سقت كاتيا الشجيرة بدورق المـاء ، وجمعت اوانى الطعام وجلست على مقعد دون ان تشعل الضوء ، ووجهها الى النافذة فرأت السماء وراءها مظلمة ملفعة بالسحب .

دقت ساعة الحائط فى غرفة الطعام . وستمضى فى دقاتها ، حتى لو تمزق القلب حزنا وكمدا . ظلت كاتيا جالسة فى سكون وقتـا طويلا ، ثم تناولت لفاحا ازغب من على الكرسى الوثير ، والقته على كتفيها ، وذهبت الى غرفة داشا .

كان الفراش المخطط على السرير العارى يلوح فى الظلمة . وعلى احد المقاعد علبة كرتونية فارغة من علب القبعـات ، وعلى الأرض تناثرت اوراق ومزق . وبعد ان عرفت كاتيا ان داشا اخذت معها كل حاجياتها ، ولم تبق او تنس شيئا . فكدرها ذلك عظيـم التكـدر حتى تندت عيناهـا . جلست على السرير ، على الفراش المخطط ، ساكنة ايضا وبلا حراك كما كانت فى غرفة الطعام .

دقت ساعة غرفة الطعام العاشرة دقات رنانة . عدلت كاتيا اللفاح على كتفيهـا ، وذهبت الى المطبخ ووقفت هناك برهة ، وارهفت سمعها ، ثم رفعت جسمها على اطراف اصابعها ، وتناولت من الرف دفتر المطبخ ، انتزعت منه ورقة بيضاء ، وكتبت بقلم رصاص : «ليزا ومارفوشا . كان يجب ان تخجلا على ترككما البيت طوال النهار وحتى الليل» . ونزلت دمعة على الورقة . وضعت كاتيا الورقة على طاولة المطبخ ، وذهبت الى مخدعها . فخلعت ملابسها على عجل ، وانسلت الى سريرها ، وهدأت .

فى منتصف الليل صفق باب المطبخ ، ودخلت ليزا ومارفوشا تطبطبان باقدامهما وتتحدثان بصوت عال ، وراحتا وجاءتـا فى

المطبخ ، ثم هدأت حركتهما . وبعد ذلك ارتفع ضحكها فجأة ، بعد ان قرأتا الورقة . طرفت كاتيا بعينيها ، ولم تبد حراكا .

ساد السكون فى المطبخ فى آخر الأمر . ودقت الساعة معلنة الواحد بعد منتصف الليل . وترامت هذه الدقة رنانة ومؤرقة . انقلبت كاتيا على ظهرها ، وأزاحت البطانية عنها بضربة من قدمها ، وتنهدت بصعوبة عدة مرات ، وكأنها لا تجد الكفاية من الهواء ، وقفزت من السرير ، واضاءت المصباح الكهربائى ، وقلصت عينيها من ضوئه المفاجىء واقتربت من المرآة الكبيرة القائمة . كان قميص النوم الخفيف لا يصل الى ركبتيها . نظرت كاتيا الى صورتها فى المرآة بسرعة وسهوم ، الى صورة تبدو جد اليفة لها ، وارتعش حنكها . دنت من المرآة كثيرا ، ورفعت شعرها من الجانب الايمن .

«نعم ، نعم ، بالطبع . هذا ثم هذا . . . – وتمعنت فى وجهها كله – نعم ، نعم ، طبعا . . . وبعد عام سيشتعل رأسى شيبا ، ثم تدركنى الشيخوخة» . اطفأت الكهرباء ، واستلقت على السرير ثانية ، وغطت عينيها بكوعها . «لم اذق لحظة من الهناء طوال حياتى . والان انتهى كل شىء . . . لن يطوقنى احد بذراعيه ، ولا يعتصرنى ، ولا احد يقول لى : ياعزيزتى ، يا حبيبتى ، يا فرحتى . . .»

ومن بين الافكار المرة والتأسفات طاف فى ذاكرة كاتيا فجأة درب رملى رطب عبر مرج من الارض مزورق من المطر ، واشجار زيزفون كبيرة ، . . وهى نفسها – كاتيا – تسير فى هذا الدرب فى ثوب بنى ومؤزر اسود ، والرمل يهسهس تحت نعليها ، وهى تحس بخفتها ، ورشاقتها ، والنسيم يداعب شعرها ، والطالب اليوشا يقود دراجته على العشب الرطب ، لا على الدرب ، ولكن على العشب المبلل . وانقلبت كاتيا لتمنع نفسها من الضحك . . . واليوشا يقول بصوت اجوف : «انا اعرف – انا لاآمل بان تبادلينى شعورى . وقد جئت لغاية واحدة فقط ، هى ان افضى ذلك لك . سأنهى حياتى يوما ما فى محطة قطار نائية ، فوداعا . . .» ويمتطى دراجته ويسير عبر المرج ، مخلفا وراءه اثرا ازرق على العشب . . . ظهره مكور فى سترته الرمادية ، وطاقيته البيضاء تختفى ورا الخضرة . وتصرخ كاتيا : «اليوشا ، عد !»

. . . احقا ان هذه التى يعذبها الارق الآن ، كانت واقفة آنئذ فى ذلك الدرب الرطب ، والنسيم الصيفى العبق برائحة المطر يداعب مئزرها الاسود ؟ قعدت كاتيا فى السرير ، ووضعت رأسها بين يديها ، واسندت كوعيها على ركبتيها العاريتين ، ولاحت فى خيالها اضواء مصابيح شاحبة ، ورذاذ ثلجى ، وريح تدوى فى اشجار جرداء ، وصرير زلاجة زاعق موحش قانط ، وعينا بيسونوف الجليدتان قريبتين من عينيها . . . حلاوة الخور وشلل الارادة . . . رعشة الفضول المقززة . . .

اضطجعت كاتيا مرة اخرى . ورن الجرس بحدة فى سكون البيت . سرت البرودة فى جسد كاتيا . ورن الجرس للمرة الثانية . سارت ليزا فى الدهليز حافية نصف نائمة ترسل زفرات غاضبة ، وصلصل مزلاج الباب الخارجى ، وبعد دقيقة سمعت كاتيا طرقا على باب مخدعها : «جاءت برقية لك ، ياسيدة» .

تناولت كاتيا الظرف الضيق متغضنة الا سارير ، وفضت الختم ، ونشرت الورقة ، واذا ببصرها يغيم .

– ليزا – قالت وهى تنظر الى الفتاة التى اخذت شفتاها ترتجفان من الذعر – مات نيقولاى ايفانوفيتش .

صرخت ليزا ، وانفجرت بالبكاء . طلبت كاتيا اليها ان تنصرف . ثم اعادت قراءة الحروف الشنيعة على شريط البرقية للمرة الثانية : «توفى نيقولاى ايفانوفيتش متأثرا بجراح بليغة اصابته اثناء تأدية واجبه النبيل نقطة سينقل جثمانه الى موسكو على نفقة الاتحاد . . .»

احست كاتيا بثقل الغثيان تحت نهدها ، وغشاوة وسوداء امام عينيها ، مدت جسمها الى الوسادة ، وفقدت الوعى . . .

فى اليوم التالى جاء لزيارة كاتيا ذلك السيد الملتحى المورد الوجنتين الذى سمعته فى اليوم الاول للثورة يتحدث فى نادى الحقوقيين – وهو شخصية اجتماعية شهيرة ورجل ليبرالى يدعى الامير كابوستين – اونجسكى – وقد اخذ يديها بيديه ، وضغطهما على صداره الموبر ، وراح يقول انه باسم المنظمة التى كان يعمل فيها مع الفقيد نيقولاى ايفانوفيتش ، وباسم مدينة موسكو الذى هو الآن مساعد مفوضها ، وباسم روسيا والثورة ينقل الى كاتيا

التعازى والاسف على فقد مناضل مجيد فى سبيل الفكرة تخطفه الردى قبل الاوان .

كان الامير كابوستين – اونجسكى بطبعه مفعما بالسعادة والعافية والمرح ، وصادقا فى اظهار اساه وتفوح من لحيته وصداره رائحة سيغار مهدئة حتى ان كاتيا احست لبرهة من الوقت بان انقباض نفسها يتراخى . فرفعت اليه عينيها اللامعتين من السهاد وباعدت شفتيها الجافتين :

– شكرا على ما قلته عن نيقولاى ايفانوفيتش . . .

اخرج الامير منديلا كبيرا ومسح عينيه . انه قد ادى واجبا ثقيلا وانصرف . زعقت سيارته فى الشارع الجانبى بصوت كصوت الغول . وعادت كاتيا تطوف فى الحجرة . توقفت امام الصورة الفوتوغرافية لجنرال لا تعرفه له وجه اسد ، وتناولت البوما للصور ، وكتابا ، وعلبة من صنع الصين رسم على غطائها مالك الحزين ممسكا بضفدعة . ثم تمشت من جديد ، ناظرة الى ورق الحائط ، الى الستائر . . . ولم تمس طعام الغداء . قالت الخادمة ليزا : «على الاقل لو اكلت مهلبية الفواكه» . هزت كاتيا راسها رفضا دون ان تحرك شفتيها . كتبت لداشا رسالة قصيرة ، ولكن مزقتها فى الحال .

كانت تود لو ترقد وتنام . ولكن الرقود فى السرير كالرقود فى التابوت – رهيب بعد الليلة البارحة . . . وكان اشد ما يوجعها هو اسفها اليائس على نيقولاى ايفانوفيتش ، فقد كان انسانا طيبا رقيق القلب مشوش الفكر . . . كان يجب ان تحبه على ما هو عليه . . . اما هى فعذبته ؛ فشاب قبل الاوان . نظرت كاتيا فى النافذة الى السماء الكئيبة الحائلة اللون . ولوت اصابعها حتى فرقعت .

وفى اليوم التالى اقيم قداس تذكارى لنيقولاى ايفانوفيتش . وبعد يوم دفن رفاته . وقيلت كلمات جميلة على قبره ، فشبه الفقيد بقادوس بحرى هلك فى اعماق اليم ، وبرجل حمل المشعل الملتهب طوال حياته المجيدة . وحضر الدفن رجل قصير القامة يلبس نظارة هو احد الاشتراكيين-الثوريين المشهورين ، وقد جاء متاخرا ، وقال لكاتيا بدمدمة غاضبة : «تنحى ، يا مواطنة» . وشق

طريقه حتى حافة القبر ، واخذ يتكلم قائلا ان موت نيقولاى ايفانوفيتش يؤكد مرة اخرى صحة سياسة حزبه حول مسألة الارض . وكانت التربة تتفتت تحت حذائه القبيح المظهر ، وتسقط مرتطمة بالتابوت . شعرت كاتيا بنوبة غثيان تصك حلقومها ، فانسلت من الجمع خلسة ، وعادت الى البيت .

كانت تراودها رغبة واحدة : ان تغتسل ، وتنام . ولكن حين دخلت البيت استولى عليها الرعب : اذ وقع بصرها على ورق الحائط المخطط ، والصور الفوتوغرافية والعلبة بمالكها الحزين ، والخوان المدعوك فى غرفة الطعام والنوافذ المتربة . فاى وحشة كانت تنبعث من هذه الاشياء ! طلبت كاتيا ان يملأ حوض الحمام ، واستلقت فى الماء الدافئ وهى تئن . فان جسمها كله قد احس اخيرا بتعب قاتل . ثم جرجرت نفسها الى مخدعها بجهد شديد ، وغفت دون ان ترفع غطاء الفراش الخارجى . وهجست لها فى نومها رنات جرس ، ووقع خطوات، واصوات ، وطرق على الباب ولم ترد عليها .

استيقظت كاتيا حين خيم الظلام التام ، وقلبها منقبض موجع ، وتساءلت مذعورة شاكية «ماذا ؟ ماذا ؟» ورفعت جسمها فى السرير قليلا ، وللحظة املت ان يكون كل ذلك مجرد حلم مرعب تراءى لها . . . ثم شعرت ، وللحظة ايضا ، بالغبن واللاانصاف . فعلام تتعذب ؟ وعادت الى عالم اليقظة تماما ، وعدلت شعرها ، ولبست خفيها على قدمين عاريتين ، وقالت لنفسها بوضوح وهدوء : «لا اريد ان اتحمل اكثر من ذلك» .

فتحت كاتيا ، على مهل ، باب صندوق الأدوية البيتى المعلق على الحائط ، واخذت تقرأ الاوراق الملصقة على القوارير . فتحت قارورة المورفين الصغيرة ، وشمتها وضمت عليها راحتها ، وذهبت لتخرج قدحا من غرفة الطعام ، الا انها توقفت فى الطريق اليها اذ رات ضوءا فى غرفة الجلوس . وسالت بخفوت : «اهذا انت يا ليزا ؟» وفتحت باب الغرفة قليلا ، ورات رجلا ضخما فى قميص عسكرى يجلس على الاريكة وراسه الحليق مضمد بعصابة سوداء . نهض بسرعة حين رآها . اخذت ركبتا كاتيا ترتعشان ، واحست بخواء تحت قلبها . حدق الرجل فيها بعينين مخيفتين متسعتين ، زاما شفتيه المستقيمتين . لقد رات امامها فاديم بتروفيتش روتشين . وضعت

كاتيا كلتا يديها على صدرها . وقال روتشين ببطء وعزم دون ان يصرف بصره عنها :

– جئت لاقدم لـك احترامـاتى . ان خـادمتـك اخبرتنى بمصابك . وقـد بقيت لاننى رايت من الواجب ان اخبرك بـان فى وسعك ان تضعينى انا وحياتى كلها تحت تصرفك .

وارتعش صوته حين قال الكلمات الاخيرة ، وامتلأ وجهـه النحيل بحمرة داكنة . ضغطت كاتيا يديها على صدرها بكل قوتها . وقرأ روتشين فى عينيها الحاجة الى ان يدنو منها وبعينها . وحين اقترب قالت واسنانها تصطك :

– اهلا بك ، يا فاديم بتروفيتش ...

وبحركة لاارادية رفع ذراعيه ، وهو يهم بتطويقها ، فقد بدت متهافتة تعيسة ، وهى تضم قبضتها على القارورة بتشنج ، الا انه احجم فى اللحظة التالية ، وانزل ذراعيه وتقطب . ادركت كاتيا فجاة بفطرة المراة انها ، وهى المراة التعيسة الصغيرة ، الخاطئة ، العاجزة بكل دموعها التى لم تذرف بعد ، وبقارورة المورفين البائسة اصبحت ضرورية وعزيزة على هذا الرجل المتاهب بصمت وتجهم الى ان يمزج روحها بروحه . حبست كاتيا دموعها غير قادرة على ان تقول شيئا وان تفك اسنانها ، وانحنت على يد فاديم بتروفيتش ، وضغطتها علـى شفتيها ، وعلى وجهها .

٤٢

وضعت داشـا كوعيهـا على القاعدة المرمريـة ، ونظرت فى النافذة . كان الشفق يملأ نصف السماء وراء الغابات الداكنـة فى نهاية جادة كامينو اوستروفسكى . وكانت السماء مسرحا تصنع فيه عجائب . كان ايفـان ايليتش يجلس جنب داشـا يحدق فيهـا بلا حراك ، رغم انه كان يستطيع ان يتحرك على هواه ، فان داشا لن تغادر الان غرفتها التى انعكس الشفق القانى على جدارها الابيض . قالت داشا :

– ما اشجى الجو ، وما اعذبه ! كاننا نطير فى سفينة جوية ...

هز ايفان ايليتش راسه موافقا . رفعت داشا يديها من قاعدة النافذة وقالت :

– يعذبنى شوق طاغ الى الموسيقى . فكم مضى من الوقت دون ان اعزف ؟ منـذ ان بدات الحرب ... تصـور ومـا تزال الحرب قائمة ... ونحن ...

تحرك ايفان ايليتش ، ومضت تقول :

– حين تنتهى الحرب سنهتـم بالموسيقى ... اتتذكر يـا ايفان كيف استلقينا على الرمل ، وقد جرى البحر على الرمل تماما ؟ انت تذكر اى لون كان للبحر ؟ ازرق فاتح ... واتصور اننى قد احببتك طوال حياتى .

وتحرك ايفان ايليتش ثانية ، وهم ان يقول شيئـا ، الا ان داشا سبقته قائلة :

– السخان يغلى !

وخرجت من الحجرة راكضة ، الا انها توقفت عند الباب . وكان لا يرى فى الظلام الوليد غير وجههـا ، ويدها الممسكة بالستارة ، وقدمها فى جورب رمادى . اختفت داشـا ، والقى ايفان ايليتش ذراعيه وراء راسه ، واغمض عينيه .

كان تليغين وداشا قد وصلا اليوم فى الساعة الثانيـة بعد الظهر ، وكانا قد اضطرا الى قضاء الليل كله جالسين على الحقائب فى ممر العربة المكتظة . وعند وصولهما مباشرة شرعت داشا فى فك امتعتهما والنظر فى جميع الاركان ، ومسح الغبار . اعجبت بالشقة ، وعزمت ان تعيد ترتيب كل شئ فيهـا . وكان يجب القيام بذلك فورا . استدعى البواب من الاسفل ، وتعـاون مع ايفان ايليتش لنقل الاصونة والارائك من غرفة الى اخرى . وحين تم تغيير وضع الاثاث طلبت داشا من ايفان ايليتش ان يفتح جميع نوافذ التهوية الصغيرة فى اعالى الشبابيك ، وذهبت هى لتستحم . وظلت وقتـا طويلا تسكب الماء على جسدها ، وصنعت شيئا لوجهها ولشعرها ، ومنعت ايفان ايليتش من دخول هذه الغرفة مرة وتلك الغرفة اخرى ، رغم ان ايفـان ايليتش كان يمنى النفس طوال اليوم بان يلتقى بداشا كل لحظة ويطيل النظر فيها .

ومع هبوط الظلام هدات داشا اخيرا . دخل ايفان ايليتش غرفة

الجلوس وقد اغتسل وحلق ، وجلس الى جانب داشا . وكانا يختليان فى سكون للمرة الاولى بعد مفارقتهما موسكو . جاهدت داشا ان تملأ الوقت بالحديث وكانهـا كانت تخاف من هذا السكون . فقد ارهبها ، كما اعترفت لايفان ايليتش فيما بعد ، ان يقول لها بصوت «خاص» : «اذن ، يا داشا . . .»

ذهبت لتنظر فى امر السخان . وجلس ايفان ايليتش مغمض العينين . انصرفت ، والهواء ما يزال مملوءا بانفاسها . ودق كعباها على ارض المطبخ بفتنة لا توصف . وفجأة رن شىء يتهشم هناك ، وتناهى صوت داشا الشاكى : «كوب !» واتفعم قلب ايفان ايليتش بفرح حار قائلا لنفسه : «حين استيقظ غدا سأرى صباحا غير اعتيادى ، سأجد داشا معى» . ونهض مسرعا وظهرت داشا عند الباب .

– كسرت كوبا . . . ايفان ، اتريد شايا حقا ؟

– لا . . .

وتقدمت منه ، ولما كانت الغرفة غارقة فى ظلام . فقد وضعت ذراعيها على كتفيه وسألت بخفوت :

– فيم كنت تفكر ؟

– فيك .

– اعرف . وماذا كنت تظن فى ؟

وبدا وجهها المغبش فى الظلمة عبوسا ، بينما كانت تبتسم فى الواقع . وكان صدرها يرتفع وينخفض منتظم الانفاس .

– فكرت فى ان ذهنى غير قادر على ان يتصورك كزوجتى . ثم فهمت فجأة ، وجئت اليك لأخبرك . اما الآن فلا اتذكر شيئا .

قالت داشا :

– آى ، آى . اجلس ، ودعنى اجلس جنبك .

وجلس ايفان ايليتش على الكرسى وجلست داشـا جنبه على ذراع الكرسى وقالت :

– وفيم فكرت ايضا ؟

– جلست هنا عندما كنت فى المطبخ ، قلت لنفسى : «حلت فى البيت مخلوقة مدهشة . . .» اهذا سيىء ؟

اجابت داشا مفكرة :

– نعم ، هذا سيىء جدا .

– هل تحبينني يا داشا ؟

– اوه – وحركت راسهـا من الاسفل الى الاعلى – احبك حتى شجرة البتولا .

– حتى شجرة البتولا ؟

– احقا انك لا تعرف ان لكل امرىء فى نهاية عمره حدبة من الارض تظللها شجرة بتولا باكية ؟

امسك ايفان ايليتش داشا من كتفيها . فاستجابت لعناقـه برقة . وتبادلا قبلة طويلة مثلمـا فعلا منذ زمن بعيد على ساحل البحر . وتقطعت انفاسهما . قالت داشـا : «آه ، ايفان» وطوقت عنقه ، وسمعت قلبه يدق دقات ثقيلـة فاشفقت عليه . تنهدت ، ونهضت من ذراع المقعد ، وقالت ببساطة :

– ايفان ، لنذهب .

تلقت داشا رسالة من شقيقتها فى اليوم الخامس من وصولها تخبرها كاتيا فيها بوفاة نيقولاى ايفانوفيتش .

«. . . مررت بفترة من الشقاء واليأس . وشعرت فى وضوح بأننى ساظل وحيدة الى أبد الدهر . اوه ، ما ارهب ذلك ! . . ولرهبته عزمت على ان اتخلص منه باسرع وقت . . . اتفهمين ؟ . . وانقذتنى معجزة . . . وربما مصادفة . . . لا ، لا ، كانت معجزة حقيقية . . . ولا يمكننى ان اكتب عن ذلك . . . ساخبرك به حين نلتقى . . .»

وصعقت داشا بنعى نيقولاى ايفانوفيتش وبرسالة كاتيا ، فعزمت على السفر الى موسكو فى الحال ، الا انهـا تلقت فى اليوم التالى رسالة اخرى من كاتيا تخبرهـا فيها بان تتهيأ للسفر الى بتروغراد ، وتسألها ان تبحث لهـا عن غرفة غير غالية الايجار . وقد احتوت الرسالة على ملاحظة تقول فيها : «سيزوركمـا فاديم بتروفيتش روتشين وسيروى لكما كل شىء بالتفصيل . فهو لى اخ واب وصديق العمر» .

كان تليغين وداشا يتمشيان فى شارع معرش فى يوم احد من نيسان . كانت قطع مهلهلة من السحاب الذائب من الشمس تطوف فى السماء الزرقاء زرقة ربيعية وفى الجو برودة . وكان ضوء الشمس

ينفذ خلال الشارع المعرش ، وكأنه ينفذ من خلال ماء . ويرتمى على ثوب داشا الابيض وكانت جذوع الصنوبر الجافة الضاربة الى الحمرة تقترب منهما بينما كانت الريح تضج فى اعاليها ، وتحرك اوراقها . رنت داشا الى ايفان ايليتش الذى كان قد خلع قبعته ، وعقد حاجبيه مبتسما . كان يغمرها احساس بالسكينة والامتلاء – بسحر النهار والبهجة لانها تتنفس بيسر ، وتسير خفيفة مستسلمة كليا الى هذا النهار والى هذا الرجل السائر بجانبها .

– ايفان .

نادت داشا مفترة الثغر ، فتساءل ايفان فى بسمة :

– ماذا ، يا داشا ؟

– لا . . . فكرت بشىء ما .

– عم ؟

– مجرد فكرة .

– عم ؟

– فيما بعد .

– انا اعرف عم .

التفت داشا التفاتة سريعة .

– اقسم على انك لا تعرف . . .

وصلا الى شجرة صنوبرة كبيرة . نزع ايفان ايليتش قطعة من القشرة مغطاة بقطرات ناعمة من الصمغ ، وكسرها بين اصابعه والقى على داشا نظرة حانية من تحت حاجبيه :

– كلا ، اعرف .

ارتجفت يد داشا وقالت هامسة :

– احس وكأن كيانى كله يجب ان ينصب فى فرح اشد واعظم . . . كل كيانى ممتلئ . . .

هز ايفان ايليتش رأسه . وكانا قد خرجا الى فرجة بين اشجار مكسوة بعشب اخضر ناعم ، وشقائق صفر تهتز بالريح . وكان ثوب داشا يخفق فى الريح بين حين وآخر ، فكانت تنحنى فى كل مرة ساهمة ، وتعدل تنورتها ، وتقول :

– هذه الريح عقاب ! . .

فى نهاية الفرجة امتد سياج مشبك عال لاحد القصور ، تقشر

الطلاء المذهب عن رؤوس قضبانه بفعل الزمن . دخلت حصاة صغيرة فى حذاء داشا . قعد ايفان ايليتش ، وخلع الحذاء من قدم داشا الدافئة المكسوة بجورب ابيض ، وقبل القدم قرب اصابعها . لبست داشها حذاءها وطبطبت بقدمها ، وقالت :

– اريد ان يكون لى ولد منك . . . هذا ماكنت افكر فيه . . .

٤٣

اقامت يكاترينا دميترييفنا فى بيت خشبى غير بعيد عن شقة داشا تديره امرأتان عجوزتان ، كانت احداهما تدعى كلافديا ايفانوفنا – مغنية فى سالف الايام ، والاخرى – وتدعى سوفوتشكا – مرافقة لها . كانت كلافديا ايفانوفنا تخطط حاجبيها منذ الصباح ، وتضع على راسها لمة مستعارة فاحمة السواد ، وتجلس لتلعب لعبة الحظ والتمنى فى الورق . بينما كانت سوفوتشكا ذات الصوت الرجولى الخشن تقوم بتدبير شؤون البيت . وكان البيت نظيفا مكتظا على الطراز القديم بالعديد من افرشة المائدة الصغيرة والسدائل ، والصور المصفرة لعهد الشباب الغابر . وفى الصباح كانت الحجرات تمتلئ برائحة القهوة الشذية ، وعند اعداد الغداء كانت كلافديا ايفانوفنا تشم الملح لأنها لا تطيق رائحة الطبخ ، وكانت سوفوتشكا تصيح بصوتها الرجولى من المطبخ : «اين اذهب بهذه الرائحة المقززة لك ، فانا لا استطيع ان اقلى البطاطس بماء الكولونيا» . وفى المساء كانت توقد مصابيح الكيروسين ذات الزجاجات المغبشة الكروية الشكل . وكانت العجوزتان تحيطان كاتيا بالرعاية .

كانت كاتيا تعيش حياة هادئة فى هذا المأوى القديم الطراز ، السالم من عوادى الزمن . كانت تستيقظ فى الصباح الباكر وترتب الحجرة بنفسها ، وتجلس قرب النافذة ترتق الثياب ، وترفا الجوارب ، او تصنع من فساتينها الانيقة القديمة لباسا ابسط . وبعد الفطور كانت تخرج فى العادة الى الجزر وتتجول ومعها كتاب او صرة تطريز ، وتجلس على مسطبة فى المكان المفضل لها بالقرب

من البحيرة الصغيرة ، وتراقب الاطفال يلعبون عند تليلة الرمل ، وتطالع ، وتطرز وتفكر . وتعود فى نحو السادسة لتناول الغداء عند داشا . وفى الساعة الحادية عشرة كانت داشا وتليغين يوصلانها الى البيت . كانت الشقيقتان تسيران فى المقدمة وذراعاهما متشابكتان ، بينما كان ايفان ايليتش يسير وراءهما مسرحا قبعته على علبائه صافرا وبمثابة «غطاء للمؤخرة» ، لان الخروج فى المساء لم يعد مأمونا فى تلك الايام .

كانت كاتيا تكتب لفاديم بتروفيتش روتشين كل يوم ، وكان روتشين طيلة هذه المدة موفدا فى مهمة الى الجبهة . وكانت كاتيا تروى فى رسائلها بعناية وصدق كل ما فعلته وفكرت فيه خلال ذلك اليوم . وكان روتشين يسالها ذلك ، ويؤكد لها فى رسائله الجوابية : «كم كان عزيزا على ان تكتبى لى ، يكاترينا دميتريفنا ، ان المطر قد بدأ يرذ رذاذا حين عبرت جسر يلاغين اليوم ، ولم تكن لديك مظلة فاحتميت تحت الاشجار ريثما يتوقف المطر ! ان كل دقائق حياتك عزيزة على ، واريد ان اعرفها حتى لم يعد فى وسعى الآن ان اعيش بدونها» .

كانت كاتيا تعرف ان روتشين يبالغ ، وان فى وسعه بالطبع ان يعيش بدون ان يعرف دقائق حياتها ، ولكن التفكير فى ان تظل وحيدة مع نفسها كان يفزعها اشد الفزع حتى انها كانت تحاول الا تتشكك ، بل تصدق بان حياتها كلها لازمة لفاديم بتروفيتش وعزيزة عليه . ولهذا فان كل ما كانت تفعله الان يتخذ مغزى خاصا . اضاعت الكشتبان وبحثت عنه ساعة بكاملها ، واخيرا وجدته فى اصبعها . ولعل فاديم بتروفيتش سيضحك من ذهولها الشديد هذا . والان كانت كاتيا تنظر الى نفسها كما تنظر الى شىء غريب عنها تماما . ذات مرة ، حين كانت تعمل عند النافذة وتفكر لاحظت ان اصابعها ترتجف . رفعت راسها ، وغرزت الابرة فى تنورتها عند الركبة وحدقت الى الامام طويلا . واخيرا ميز بصرها وجها نحيلا امامها فى المكان الذى كانت فيه مرآة الصوان ، وجها نحيلا له عينان واسعتان حزينتان ، وشعر بسيط التصفيف ، مضموم فى عقدة الى الخلف . . . وتساءلت كاتيا مع نفسها : «امعقول ان هذه انا ؟» وغضت بصرها ، وتابعت خياطتها ، الا ان قلبها وجب فى صدرها ،

ووخزت اصبعها بالابرة ، فرفعت الاصبع الى فمها ، وعادت تنظر الى المرآة ، ولكنها رأت صورتها فى المرآة هذه المرة ، اقبح من الصورة التى راتها فى المرة الاولى . . . وفى تلك الليلة كتبت لفاديم بتروفيتش : «فكرت فيك طوال هذا اليوم وقد اشتقت اليك ، يا صديقى العزيز . اجلس عند النافذة وانتظر . ان ما يحدث فى نفسى الآن يشبه شيئا قد نسيته منذ زمان طويل . . . مشاعر فتاة . . .»

وحتى داشا الشاردة الفكر ، الغارقة فى علاقاتها مع ايفان ايليتش ، تلك العلاقات المعقدة التى لم يشهد العالم مثيلا لها منذ بدء الخليقة ، حسب ظنها ، لاحظت تغيرا طرأ على كاتيا ، وفى احد الامسيات اثناء شرب الشاى ، راحت تبرهن طويلا على ان كاتيا ينبغى ان ترتدى الآن ، والى الابد ، ثيابا سوداء تغطى العنق . وانشأت تقول : «اؤكد لك انك لا ترين نفسك يا كاتيوشا ، ان مظهرك مظهر فتاة فى التاسعة عشرة . . . حقا يا ايفان ، الا تراها تبدو اصغر منى ؟»

— نعم ، اقصد ، ليس تماما ، ولكن اظن . . .

قالت داشا :

— آه . انت لا تفهم شيئا . شباب المراة ليس له علاقة بالعمر ، بل باسباب اخرى ، ليس للعمر اية اهمية هنا . . .

واوشكت على النفاد النقود القليلة التى تركها نيقولاى ايفانوفيتش لكاتيا . فاشار تليغين عليها بان تبيع شقتها القديمة فى شارع بانتيليمونوفسكايا . الفارغة منذ شهر آذار . فوافقت كاتيا ، وذهبت مع داشا الى الشقة لتاخذ منها بعض الاشياء العزيزة لارتباطها بالذكريات .

حين صعدت كاتيا الى الطابق الثانى ، ووقع بصرها على الباب البلوطى ذى الرقعة النحاسية التى تحمل اسم «ن . ى . سموكوفنيكوف» شعرت بان الحياة توشك على اتمام دورتها . خلع البواب قبعته تحية ، وفتح باب الشقة بمفتاحه . انه نفس البواب العجوز المالوف لكاتيا ، الذى كان يفتح الباب الخارجى بعد منتصف الليل ناخرا من انفه بغضب ، والنعاس عالق فى اجفانه ، وعنقه ملفوف بياقة معطفه الملقى على كتفيه ، وكان

دائما يطفئ الضوء الكهربائى قبل ان تلحق كاتيا بان تصعد الى شقتها ، اما الان فقد جعل كاتيا وداشا تدخلان قبله ، وقال مطمئنا :

– تاكدى ، يكاترينا دميتريفنا ، من ان اى قلامة لم تضع من شقتك . كنت اراقب المستاجرين ليل نهار . ابنهم قتل فى الجبهة والا لظلوا ساكنين فيها حتى الان ، فقد كانوا راضين عن الشقة ...

كان الرواق مظلما ليست فى هوائه رائحة انفاس حية . وكانت الستائر مسدلة فى جميع الغرف . ذهبت كاتيا الى غرفة الطعام ، وادارت مفتاح الضوء . شعت الثريا البلورية بنور ساطع فوق المائدة المغطاة بمفرش من الجوخ الرمادى ، وكانت سلة الزهور الخزفية ما تزال فى وسطها ، وفيها غصن الميموزا الذابل منذ زمان . وكانت الكراسى ذات الظهور العالية والبطون الجلدية – الشهود اللامبالون على الحياة المرحة العاصفة التى فاتت – تقف فى اماكنها على طول الجدران . وكانت احد ابواب صوان الاوانى المنحوت الضخم كالبيانو مفتوحا تلوح الاقداح المقلوبة من خلال فتحته . وكان الغبار يغطى المرآة الفينيسية البيضوية ، والصبى الذهبى ما يزال راقدا فوقها مادا يده الى خصلة ذهبية .

وقفت كاتيا عند الباب بلا حراك ، وقالت لداشا بخفوت :

– داشا ، انت تذكرين الوضع ! .. تصورى ، والان لا وجود لاحد ...

ثم ذهبت الى غرفة الجلوس ، واشعلت الثريا الكبيرة واجالت بصرها ، ثم هزت كتفيها . كانت اللوحات التكعيبية ، والمستقبلية التى كانت تبدو فى وقت ما متحدية ومخيفة تتدلى على الجدران بائسة كابية ، وكانها ، زينات كرنفالية مهملة بعد ان انتفت الحاجة اليها .

– وهل تذكرين هذه ، يا كاتيوشا ؟

قالت داشا ، واشارت الى لوحة «فينوس الحديثة» القابعة فى ركن اصفر مع زهورها ، واكملت قولها :

– انذاك بدت لى وكانها علة كل المصائب .

وضحكت داشا وشرعت بتصفح النوتات . ذهبت كاتيا الى مخدعها السابق . كان كل شىء فيه على حالته تماما كما كان منذ ثلاثة

اعوام ، يوم ارتدت ثياب السفر والبرقع وهرعت الى هذه الغرفة للمرة الاخيرة لتاخذ قفازها من طاولة الزينة .

والان كان كل شىء كابيا وبدا اصغر حجما مما كان من قبل . فتحت كاتيا الدولاب المملوء بفضلات المخرمات والحرير وفضلات القماش والجوارب والاخفاف البيتية . وكانت رائحة عطر خفيفة ما تزال تفوح من هذه الاشياء التى كانت تبدو لها فيما مضى ضرورية . اخذت كاتيا تقلبها دون غاية ، فقد كان كل غرض منها مرتبطا بذكرى الحياة التى ذهبت بلا رجعة ...

وفجاة تحطم السكون الذى كان يخيم على البيت كله وملات انغام الموسيقى جنباته ، حين اخذت داشا تعزف السوناتة التى كانت تتدرب عليها اثناء تحضيرها للامتحانات قبل ثلاثة اعوام . سدت كاتيا باب الدولاب ، وذهبت الى غرفة الجلوس وجلست بالقرب من شقيقتها .

استدارت داشا نصف استدارة ، وقالت :

– اليس ذلك رائعا ، يا كاتيا ؟

وعزفت بعض الفواصل الاخرى وتناولت كراسة اخرى من الارض . قالت كاتيا :

– لنخرج . بدات اشعر بصداع .

– والحاجيات ؟

– لا اريد ان اخذ شيئا من هنا . سانقل البيانو وحده الى شقتك . اما سائر الاشياء فلا حاجة اليها ...

جاءت كاتيا الى الغداء منتعشة من المشى السريع ، مرحة ، فى قبعة جديدة ، وبرقع سماوى اللون . قالت ، وهى تلثم خد داشا بشفتيها الدافئتين :

– وصلت بالكاد قبل ان يهطل المطر الغزير . وحذائى قد تبلل على اية حال . اعطينى نعالا استبدله به .

وسارت نحو النافذة فى غرفة الجلوس ، وهى تخلع قفازها . كان المطر الذى راح يكر ويفر عدة مرات يهطل الان سيولا رمادية ويدور فى خفقات الريح ، ويضج فى انابيب التصريف . رات كاتيا بعيدا فى الاسفل مظلات تجرى راكضة . وخرق ضوء ابيض الهواء

المعتم امام النوافذ ، وسرت فرقعة جعلت نفس داشا يتقطع فى صدرها . سالت كاتيا وقد افتر فمها عن ابتسامة :

– اتدرين من سيزوركما مساء اليوم ؟

سالت داشا :

– من ؟

الا ان الجرس رن فى الرواق ، فركضت داشا لتفتح الباب وترددت ضحكة ايفان ايليتش ، وحفيف قدميه على بساط الرواق ثم مر وداشا الى غرفة نومهما وهما يتحادثان بصوت عال ويضحكان . خلعت كاتيا قفازيها ، وقبعتها وعدلت شعرها ، والابتسامة المتكتمة الناعمة ما تزال ترف على شفتيها .

جلس ايفان ايليتش الى المائدة مرحا موردا مبلل الشعر وروى لهما الاخبار . العمال فى مصنع البلطيق مضطربون مثل جميع العمال الان فى المصانع والمعامل الاخرى . والسوفييتات تؤيد مطاليبهم باستمرار . والمشروعات الخاصة اخذت تغلق ابوابها شيئا فشيئا ، والمشروعات الحكومية تعمل بخسارة ، ولكن لا احد يهتم بان تجنى الارباح الآن والحرب والثورة قائمتان . واليوم عقد فى المصنع اجتماع حاشد اخر خطب فيه بلاشفة ، قالوا جميعا كلاما واحدا : «يجب انهاء الحرب ، ولا تنازلات ، ايا كانت ، للحكومة البرجوازية ، ولا اتفاقيات مع اصحاب المشاريع ، وكل السلطة للسوفييتات التى ستتكلف بالنظام !..»

– وانا ايضا صعدت لاخطب . ولكنهم سحبونى من المنصة . وجاء فاسيلى روبليف ليقول : «انا اعرف انك لست لنا عدوا فلماذا تقول سخافات . ان راسك محشو بالسفاسف» . فقلت له : «فاسيلى ، بعد ستة اشهر ستتوقف المصانع ولا يجد الناس شيئا ياكلونه» . فرد على قائلا : «يارفيق ، قبل ان يهل العام الجديد ستنتقل الارض كلها ، والمصانع جميعا الى الشغيلة . ولن نترك برجوازيا واحدا فى الجمهورية ولو للمتحف . ولن يكون للنقود وجود . اشتغل وعش وكل شىء لك . انها الثورة الاجتماعية ، فافهمنى !» وعد ان يكون كل ذلك فى العام الجديد .

وضحك ايفان ايليتش ضحكة متزنة الا انه هز رأسه ، واخذ يجمع الفتات على الخوان باصبعه . وتنهدت داشا :

– قلبى يخبرنى بأن بلايا كبيرة ستحصل .

قال ايفان ايليتش :

– نعم . ان الحرب لم تنته ، وفى ذلك علة الأمر . ما الذى تغير منذ شباط ؟ اطاحوا بالقيصر ، ولكن الفوضى استفحلت . هناك حفنة من المحامين واساتذة الجامعات وهم اناس مثقفون دون ريب يؤكدون للامة كلها قائلين : اصبروا ، حاربوا وسياتى زمن نعطيكم فيه دستورا انجليزيا ، بل واحسن منه بكثير . ان هؤلاء الاساتذة لا يعرفون روسيا ، ولم يطلعوا على التاريخ الروسى بشكل جيد . ان الشعب الروسى ليس كماً مجرداً . ان الشعب الروسى شعب فياض الشعور موهوب قوى . فلا عجب ان يشق الفلاح الروسى طريقه الى المحيط الهادى وهو بحذائه الليفى . اما الالمانى فيبقى فى مكانه ويسعى الى بغيته خلال مائة عام ويصبر . بينما الروسى غير صبور . ومن الممكن ان يحفزه الحلم بالاستيلاء على الكون فيسير فى سرواله المصنوع يدويا ، وحذائه الليفى ، وفاسه فى حزامه . . . اما الاساتذة فيريدون ان يحضروا خضم الشعب الهدار فى اطار دستور وقور . نعم ، يبدو اننا سنشهد احداثا خطيرة جدا .

كانت داشا واقفة عند المائدة تصب القهوة فى اقداح . فاذا بها تترك ركوة القهوة فجاة ، وتضغط وجهها الى صدر ايفان ايليتش . فقال ايفان ايليتش وهو يمسد شعرها :

– لا ، لا ، لا حاجة الى القلق يا داشا . لم يحدث شىء فظيع حتى الان . . . حدث ان وقعنا فى مآزق اسوأ . . . فانا اذكر – اسمعينى – اذكر اننا وقعنا فى «الجب العفن» . . .

واخذ يتذكر المشاق العسكرية التى صادفته . رفعت كاتيا بصرها الى الساعة الحائطية ، وخرجت من غرفة الطعام . نظرت داشا الى وجه زوجها الهادىء القوى الملامح والى عينيه الرماديتين الضاحكتين ، وهدأت شيئا فشيئا : ان المراة تشعر بالاطمئنان فى صحبة هذا الرجل . حين فرغت من سماع قصته «الجب العفن» ذهبت الى المخدع لتبودر وجهها . فرات كاتيا جالسة امام منضدة الزينة هناك تفعل شيئا لوجهها . قالت لها بصوت ناعم :

– عزيزتى داشا ، الم يبق لديك شىء من ذلك العطر الباريسى ؟ انت تذكرينه ؟

جلست داشا على الارض امام اختها ، وحدقت فيهـا بدهشة بالغة ثم سألت همسا :

– اراك تنفشي ريشك ، يا كاتيوشا ؟

احمرت كاتيا وهزت رأسها :

– ماذا بك اليوم ، يا كاتيوشا ؟

– اردت ان اخبرك ، ولكنك لـم تسمعى كلامى الى آخره . سيصل فاديم بتروفيتش مسـاء اليوم ، وسيأتى الى شقتكمـا من محطة القطار مباشرة ... ليس من اللائق ان استقبلـه فى بيتى لان الساعة متأخرة ...

دق جرس الباب فى الساعة التاسعة والنصف . هرعت كاتيا وداشا وتليغين الى الرواق . فتح تليغين الباب فدخل روتشين وعلى كتفيه معطف عسكرى مدعوك وطاقيته نازلة على جبينه . واذ وقع بصره على كاتيا رقت ملامح وجهه النحيل الكئيب الملوح حين افتر عن ابتسامة . نظرت كاتيا اليه مرتبكة فرحة . القى روتشين معطفه وطاقيته على مقعد وسلم قائلا بصوت قوى فيه بحة : «اعذرونى على دخولى فى هذه الساعة المتأخرة . رغبت ان اراك هذه الليلة ، انت يا يكاترينا دميترييفنا ، وانت ، يا داريا دميترييفنا» فتألقت عينا كاتيا نورا وقالت :

– انا مسرورة لوصولك ، يا فاديم بتروفيتش .

وحين انحنى ليقبل يدها لثمت رأسه بشفتيها المرتعشتين .

قال ايفان ايليتش :

– كـان يجب ان تجلب امتعتك معك . اننـا لن نتركك تغادرنا ، ستبات عندنا ...

قالت داشا :

– على الاريكة التركية فى غرفة الجلوس ، واذا كانت قصيرة فسنضع كراسى فى طرفها .

سمع روتشين ما يقولـه هؤلاء الناس العطوفون الانيقون ، وكأنه فى حلم . وكان قد جاء اليهم وهو ما يزال وعقا ، بعد ليالى السفر المؤرقة ، والتسلل فى النهار من نوافذ العربة بحثا عن الطعـام ، والكفاح المستمر فى سبيل مكان من ستة امتار فى مقصورة وسط سباب يثقب الاذان . وكان ما يزال يستشعر الغرابة من ان يفرح

بوجوده هؤلاء الثلاثة المتنعمون بهذا القدر غير المعقول من الجمال والنظافة ، والعبقون بروائح زكية ، والواقفون على ارض صقيلـة كالمرآة ... يفرحون به هو ، روتشين ... وحدق كالنائم فى عينى كاتيا البهيتين المرددتين مسرورة ، مسرورة ، مسرورة ...

عدل نطاقه ، وسوى كتفيه ، وارسل زفرة عميقة ، وقال :

– شكرا ، دلونى اين اتوجه ؟

دلوه على الحمام ليغتسل ، ثم دعوه الى غرفة الطعام وقدموا الطعام له . اكل وهو لا يميز ما كان يقدم له ، وشبع سريعا ووضع الماعون جانبا ، واشعل سيكارة ، ولان وجهه النحيل الحليق الصارم الذى اخاف كاتيا حين رأته فى الرواق وبدا اكثر تعبا . وحين اشعل عود الثقـاب ارتعشت يداه الكبيرتان الملونتان بضوء المصبـاح بظليلته البرتقالية . كانت كاتيا تجلس فى ظل الظليلة ، فراحت من هناك تطيل النظر فى فاديم بتروفيتش ، وتشعر بانها تحب كل شعرة فى يده ، وكل زر فى سترته البنية الداكنة المدعوكة . وقد لاحظت انه كان يطبق فكيه احيانا وهو يتحدث ، وينطق من بين اسنانه . كانت عباراته متقطعة مشوشـة . والظاهر انه كان يتحسس بنفسـه ، ويحاول ان يكبت فى نفسـه شعورا بالحنق يعتمل فيـه منذ زمن طويل ... تبادلت داشا النظرات مع اختها وزوجها فسألت روتشين عما اذا كـان يريد ان يستريح بعد تعب السفر ؟ توهج ، وجلس منتصبا على الكرسى .

– لم اجئ هنا لاجد مكانا انام فيه ، ... لا ، على الاطلاق ...

وخرج الى الشرفة ، ووقف تحت المطر الليلى الدقيق . اشارت داشا بعينيها الى الشرفة ، وهزت رأسها . وجاء صوت روتشين من هناك :

– اعذرينى ، يا داريـا دميترييفنـا ، بحق الرب ... تلك نتيجة تلك الليالى الاربع المؤرقة ...

وعاد من الشرفة ، ومسد الشعر على قمة رأسه وجلس فى مكانه . وقال :

– جئت اليكم من مقر القيادة العليا مباشرة احمل الى وزير الحربية اخبارا مقلقة جدا ... وحين رأيتكم احسست بالألم ...

فاسمحوا لى بان اقص عليكم كل شيء . ليس لى فى الدنيا شخص هو اقرب الى منك ، يا يكاترينا دميتريفنا .

شحبت كاتيا . وقف ايفان ايليتش عند الحائط وذراعه وراء ظهره ، وحدقت داشا فى روتشين بعينين مرتعبتين . سعل روتشين ، وقال :

– ان لم تحدث معجزة فاننا سنهلك ... لم يعد للجيش وجود ... والجنود يفرون من الجبهة ويرحلون على سطوح العربات . . . وما من امكانية انسانية لايقاف انهيار الجبهة . . . ذلك مثل مد البحر . . . لم يعد الجندى الروسى يعرف من اجل اى شيء يحارب ، وفقد الاحترام للحرب . فقد الاحترام لكل مايتصل بهذه الحرب – احترامه للدولة ، ولروسيا . يعتقد الجنود بان الحرب ستنتهى فى نفس اليوم الذى ترتفع فيه صرخة تنادى بـ«السلام»... ونحن وحدنا الاسياد لا نريد السلام . . . ان الجندى الان يبصق على المكان الذى خدع فيه خلال ثلاثة اعوام ، ويرمى بندقيته ، ولا يمكن بعد الان اجباره على ان يحارب . . . وفى الخريف او نحوه ، حين تفر الملايين العشرة كلها ... سينتهى وجود روسيا كدولة ذات سيادة . . .

وصك فكيه بقوة حتى ارتفعت عضلات على وجنتيه . واستمر فى كلامه بصوت عديم الرنين .

– انا احمل خطة الى وزير الحربية وضعها بعض السادة الجنرالات لانقاذ الجبهة . . . خطة اصيلة . . . وعلى كل حال سيكون من المتعذر على الحلفاء لوم جنرالاتنا على عدم الرغبة فى القتال . ومعنى الخطة : اعلان التسريح التام للجيش فى اسرع وقت ، اى تنظيم الهروب من الجيش والحفاظ بهذه الطريقة على سلامة السكك الحديدية ، والمدفعية واحتياطات التموين والعتاد . التاكيد لحلفائنا عن عزمنا على المضى فى الحرب . وفى الوقت نفسه نقيم فى منطقة نهر الفولغا حاجزا من الوحدات الموثوقة – ومثل هذه الوحدات موجودة – ونبدا بتكوين جيش جديد كليا فيما وراء نهر الفولغا ، على ان تكون نواته من وحدات المتطوعين ونقوم فى الوقت ذاته بتشكيل ودعم وحدات للانصار . . . ونبدا الحرب من جديد معتمدين على مصانع الاورال وفحم سيبيريا وقمحها . . .

صاح تليغين :

– يعنى فتح الجبهة للالمان . . . وكشف وطننا للنهب !

– لم يعد لنا وطن ، بل مكان كان فيه وطننا – وضم روتشين يديه المطروحتين على مفرش المائدة – لم تعد روسيا العظيمة قائمة منذ اللحظة التى القى فيها الشعب سلاحه . . . يبدو انك لا تريد ان تفهم ما بدأ بالفعل . . . هل يستطيع القديس نيقولا ان يعينكم الان ؟ لقد نسيتم ان تصلوا له . . . ان روسيا العظيمة الان مجرد روث لتسميد الارض ... يجب ان يعاد بناء كل شيء من جديد : القوات ، الدولة ، ويجب ان تصب فينا روح جديدة . . .

واستنشق الهواء بقوة من خلال منخريه ، واوقع راسه على يديه الموضوعتين على المائدة ، واجهش باكيا بصوت عميق خافت كصوت الكلاب . . .

فى تلك الليلة لم تخرج كاتيا لتنام فى حجرتها . ارقدتها داشا معها فى سريرها ، وفرشت لايفان ايليتش فى غرفة المكتب . وخرج روتشين الى الشرفة بعد ذلك المشهد المقبض للجميع ، وبعد ان بلله المطر عاد الى غرفة الطعام واعتذر ؛ وبالفعل كان الرقاد احسن مخرج . وقد غفا ما ان خلع ملابسه . وحين سار ايفان ايليتش على رؤوس اصابعه ليطفىء الضوء رآه نائما على ظهره وقد طوى ذراعيه على صدره واضعا راحتيها احداهما على الاخرى ، وكان وجهه النحيل ذو العينين المغمضتين بقوة ، والغضون التى رسمها ضوء الفجر المزرورق وجه رجل يكبت الما فى صدره .

ظلت داشا وكاتيا تتحادثان همسا لوقت طويل ، وهما تحت غطاء واحد . وكانت داشا ترهف سمعها بين الحين والاخر . مازال ايفان ايليتش غير قادر على ان يهجع فى مكتبه . قالت داشا : «ما يزال يذرع المكتب ، بينما عليه ان يخرج الى المصنع فى الساعة السابعة . . .» وانسلت من تحت الغطاء ، وهرولت حافية الى زوجها . كان ايفان ايليتش يجلس على الاريكة المفروشة يطالع

في كتاب ضخم وضعه على ركبتيه ، وقد انزل حمالة البنطلون . نظر اليها بعينين براقتين لا تريان ، وسأل :

– اذن لم تنامي حتى الان ؟ . . اجلسي . . . . لقد وجدت شيئا . . . اسمعي . . .

وقلب الصفحة ، واخذ يقرأ بصوت خافت :

«قبل ثلثمائة عام كانت الريح تسرح طليقة في الغابات والسهول السهبية ، وفي المقبرة الهائلة المسماة الارض الروسية . كانت هناك اسوار محروقة لمدن مندثرة ، ورماد في اماكن ماهولة ، وصلبان وعظام عند طرق غطاها العشب ، وعصائب الغربان ثم عواء الذئاب في الليالي . وكانت اخر عصابات اللصوص التي كانت قد انفقت على الشراب ونهبت منذ وقت طويل الفراء الغالية والاقداح من المعادن الثمينة ، والاطر اللؤلؤية للايقونات تجوب في بعض دروب الغاب . كان كل شيء في روسيا قد نهب وقضي عليه .

شاع الدمار في روسيا واقوت من اهلها . وحتى تتر القرم كفوا عن اجتياح السهب الخالي ، اذ لم يبق لهم ما ينهبونه . وخلال السنين العشر من «الاضطراب الكبير» قطع الادعياء واللصوص والفرسان البولونيون الارض الروسية كلها بالسيف والنار صقعا صقعا ، وتفشت المجاعة الشديدة ، فاكل الناس روث الخيول ، واللحم البشري المملح . وسرى الوباء الاسود . ونزح الباقون الى الشمال ، الى البحر الابيض ، والاورال ، وسيبيريا .

وكان البطريق قد اشار على افراد الفئة العليا الذين اصابهم الفقر ، والتجار الوافدين بعد كساد بضائعهم والفلاحين الصارمين من بقاع الشمال والفولغا – ، بان يختاروا صبيا عينه لهم ليكون قيصرا على موسكو . فجاءوا به مرعوبا في تلك الايام العصيبة على زلاجة ماضين به خلال طرق الربيع الموحلة الى الاسوار المحروقة المحيطة بموسكو ، المقفرة المدمرة الى اخرها ، بعد ان حررت من المغيرين البولونيين بجهود جبارة ، جاءوا به نحو موسكو المحروقة التي لم تكن الا اكواما من الرماد . وكان القيصر الجديد لا يحسن غير البكاء والصلاة . فظل يبكي ويصلي ناظرا من نافذة الزلاجة بجزع الى حشود الروس المهلهلي الثياب المتوحشين الذين طلعوا لاستقباله وراء

بوابات موسكو . ولم تكن للروس ثقة كبيرة بالقيصر الجديد . ولكن كان يجب ان يعيشوا ، وبداوا يعيشون . اقترضوا النقود من تجار ستروغانوف . وشرع سكان المدينة يشيدون ، والفلاحون يحرثون الارض القفراء . وارسل الطيبون من الناس على الخيول وعلى الاقدام لتنظيف الطرق من اللصوص . عاش الناس في فقر وشظف ، وقدموا آيات الاجلال للقرم ، والليتوانيين والسويديين . وحافظوا على ايمانهم ، وعرفوا ان هناك قوة واحدة هي الشعب القوى الحاذق النشيط المقتدر . واملوا ان يتغلبوا على المصاعب ، فتغلبوا عليها . ومن جديد بدا العمران يشيع في الارض الخراب ...»

صفق ايفان ايليتش الكتاب :

– ها انت ترين ... لن تهلك الان ... لن تهلك روسيا العظيمة بينما احفاد اولئك الفلاحين المهلهلين الذين هبوا والرماح بايديهم لينقذوا موسكو ، دحروا كارل الثاني عشر ونابليون .. اما حفيد ذلك الصبي الذى جلبوه الى موسكو على زلاجة بالقوة فشيد بطرسبورغ ... لن تهلك روسيا العظيمة !.. وقضاء واحد يكفي لأن تعيد الارض الروسية ..

ونخر ، وراح يتطلع في النافذة التي تنور وراءها صباح رطب . اسندت داشا راسها الى كتفه ، فاخذ هو يمسده ، وقبلها من شعرها .

– اذهبي للنوم ، يا خايفة ...

ضحكت داشا ، وودعته وذهبت . وعند الباب التفتت وقالت :

– ايفان ، ان كاتيا متيمة به ...

– حسن ، انه رجل رائع ...

كان المساء حارا ساكن الريح . والهواء يفوح برائحة بنزين محروق وقطران الارصفة الخشبية . وكانت حشود الناس تسير في جادة نيفسكي مبرقشة اللباس وبلا نظام وسط الابخرة ودخان السيكائر . وكانت سيارات الحكومة تنطلق باعلامها المرفرفة مقرقعة زاعقة . وكانت اصوات الصبيان الحادة ، باعة الجرائد تصرخ

بالانباء المثيرة التى لم يعد احد يصدق بها . وكان باعة السيكائر وعلب الكبريت والاشياء المسروقة يتسللون شاقين طريقهم عبر حشود الناس . وفى حدائق الساحات العامة كان الجنود يستلقون على العشب وسط احواض الزهور يقضمون حبوب عباد الشمس .

خرجت كاتيا وحدها من جادة نيفسكى . كان روتشين قد اتفق معها على ان يكون بانتظارها فى حوالى الساعة الثامنة فى رصيف النهر . انعطفت كاتيا نحو ساحة القصر . كانت مصابيح صفراء تشع من النوافذ السوداء فى الطابق الثانى من هذا القصر القانى الحمرة الجهم الذى كانت بعض السيارات تقف عند مدخله ، والجنود والسواق يروحون ويجيئون ضاحكين . مرت دراجة بخارية مقرقعة يسوقها ساع صبى وضع على راسه قبعة سائق وقد قبب الهواء قميصه وراء ظهره .

وفى شرفة فى ركن وقف رجل عجوز ذو لحية طويلة بيضاء مرتفقا على الدرابزين ساكن الحركة . التفتت كاتيا وراءها وهى تستدير حول القصر فرات الخيول البرونزية الخفيفة تحت طاق مقر هيئة الاركان العامة ما تزال تشب على قوائمها الخلفية باتجاه مغرب الشمس . عبرت كاتيا الرصيف وجلست على مسطبة غرانيتية قرب النهر . كانت معالم الجسور الشفافة الضاربة الى الزرقة تتدلى فوق النيفا الجارى بونى . وكان البرج المستدق لكاتدرائية بطرس وبولس ينعكس فى النهر كالذهب الابريز . وفى النهر كان زورق بائس المظهر يتحرك خلال الانعكاسات المتلألئة . ووراء منطقة بطرسبورغسكايا ، ووراء السطوح والادخنة كان قرص الشمس المنطفئ يغوص فى وهج برتقالى اللون .

وضعت كاتيا يديها على ركبتيها ، وراحت تحدق بهدوء فى هذا الافول ، وتنتظر فاديم بيتروفيتش وادعة صابرة .وقد جاء فاديم بتروفيتش من الخلف دون ان تلحظه ، اسند مرفقيه على السدة الغرانيتية ورنا اليها من عل . احست كاتيا به ، فالتفتت ، ونهضت وعلى ثغرها ابتسامة . كان ينظر اليها نظرة غريبة ذاهلة . صعدت السلم الى رصيف النهر ، وامسكت يد روتشين . وسار الاثنان . سالته كاتيا بخفوت :

— ماذا ؟

تلوت شفتاه ، هز كتفيه ولم يجب . عبرا جسر ترويتسكى ، وفى بداية جادة كامينواوستروفسكى اوما روتشين برأسه الى دارة * كبيرة كسيت جدرانها الخارجية بالبلاط البنى . كانت النوافذ الواسعة لحديقة الشتاء تطفح بضوء ساطع . وعند المدخل وقفت بعض الدراجات البخارية .

ان هذه الدارة العائدة لراقصة باليه مشهورة تحولت الان الى مقر رئيسى للبلاشفة . كانت دقات الآلآت الكاتبة تسمع منها ليل نهار . وكان جمهور غفير من العمال والجنود العائدين من الجبهة والبحارة يحتشد كل يوم امامها فيطل من الشرفة زعيم حزب البلاشفة ويتحدث عن ضرورة اخذ العمال والفلاحين للسلطة بالقوة ، وانهاء الحرب فورا ، واقامة نظام جديد عادل فى بلادهم وفى العالم اجمع .

قال روتشين من خلال اسنانه :

— قبل حين كنت واقفا هنا مع الحشد فسمعت من هذه الشرفة كلمات نارية لاهبة . والناس يستمعون ... ليتك شاهدت كيف كانوا يصغون !.. انا لا اعرف الان : من الغرباء فى هذه المدينة : نحن ام هم ؟ (واوما الى شرفة الدارة) انهم لم يعودوا يصغون الينا ... نحن نتمتم بكلمات فارغة من المعنى ...عندما جئت الى هنا كنت اعرف اننى روسى ... اما هنا فانا غريب ... انا لا افهم ، لا افهم ...

وتوغلا فى جادة كامينواوستروفسكى . لحق بهم شخص فى معطف رث وقبعة من القش . كان يحمل دلوا فى احدى يديه ، وحزمة من اعلانات فى الاخرى ...

قال روتشين بصوت اجوف ، واستدار لكيلا ترى كاتيا وجهه العابس :

— انا افهم شيئا واحدا ، هو ان البقعة الحية المشعة فى هذه الفوضى هى قلبك ، يا كاتيا ... انا وانت يجب الا نفترق ...

اجابت كاتيا بخفوت :

— لم اجرؤ ان اقول ذلك لك ... ولكن كيف لنا ان نفترق ، يا صديقى العزيز ...

---

* استعملت هذه اللفظة عوضا عن الفيلا (المترجم) .

وصلا الى المكان الذى الصق فيه الرجل حامل الدلو من توه اعلانا ابيض غير كبير على الحائط . ولان كليهما كان متاثرا فقد توقفا لبرهة . وفى ضوء مصباح الشارع كان من الممكن ان يقرا فى الاعلان : «الى الجميع ! الى الجميع ! الى الجميع ! الثورة فى خطر ! . . .»

– يكاترينا دميترييفنا !

نادى روتشين وتناول يد كاتيا النحيلة ، وتابع سيره البطىء فى الجادة الواسعة التى ركنت الى الهدوء مع هبوط الظلام ، بينما الشفق المسائى لم يهمد بعد فى طرفه القصى .

– ستمر سنون ، وتزول الحروب ، وتهدأ الثورات ، ويبقى شىء واحد غير خامد هو قلبك الحبيب الوديع الرقيق . . .

ومن خلال النوافذ المفتوحة فى البيوت الكبيرة تناهت اليهما اصوات مرحة ، ونقاشات ، وانغام موسيقى . ومرة اخرى سبقهما الرجل المحنى الظهر يحمل دلوه ، والتفت وهو يلصق اعلانا آخر . ومن تحت قبعة القش المهلهلة تفرست بهما عيناه المتقدتان بالكراهية .

آب ١٩٢١

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ، وترجمته وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ٢١

موسكو ـ الاتحاد السوفييتى

22—2290

الكسى تولستوى

درب الآلام

ثلاثية

الكتاب الثانى

عام ١٩١٨

دار التقدم

موسكو

ترجمة غالب طعمة فرمان

А. Толстой
Хождение по мукам
Трилогия
Книга вторая
ВОСЕМНАДЦАТЫЙ ГОД
На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

T $\frac{70302-1052}{014(01)-75}$ 593—75

غرقنا فى الماء ثلاثا ، وسبحنا
بالدم ثلاثاً ، وسلقنا بالمحلول
القلوى ثلاثا . فلا انظف منا .

١

انتهى كل شيء . كانت الريح القارسة تسوق قمامة الاوراق فى شوارع بطرسبورغ الخالية الراكنة الى الهدوء – مزقا من الاوامر العسكرية ، واعلانات المسارح ، ونداءات تحث الشعب الروسى الى التمسك «بالضمير والوطنية» . كانت مزق الاوراق الملونة بلطخات عجينة اللصق الجافة عليها تزحف بخشخشة منحوسة دارجة على الأرض مع حلزونيات الثلج المتولدة عن الريح الارضية .

كان ذلك كل ما تبقى من الضجيج الذى كان يعربد مصطخبا فى العاصمة قبل فترة قصيرة من الزمن . فرغت الساحات والشوارع من الحشود الفضولية ، وخلا قصر الشتاء الذى خرقت سطحه قنبلة اطلقها طراد «افرورا» . واختفى فى المجهول اعضاء الحكومة المؤقتة ، واصحاب البنوك الكبار ، والجنرالات المشهورون . . . وخلت الشوارع الموحلة الرثة من العربات الرائعة ، والنساء المتانقات ، والضباط والموظفين ورجال المجتمع ذوى الافكار المثيرة . وفى الليالى كانت تتكاثر اصوات المطارق تدق الالواح على ابواب المخازن . ولم تبق الا واجهات قليلة يعرض بعضها قطعة جبنة ، وبعضها كعكة يابسة . الا ان ذلك كان يزيد الشوق للحياة المختفية . كان عابر السبيل يحاذى الجدران وجلاً ينظر بطرف عينه الى الدوريات – الى جماعات من الرجال المصممين السائرين وعلى طاقياتهم نجمة حمراء ، وعلى اكتافهم بنادق متجهة بمواسيرها نحو الارض .

كانت الريح الشمالية ترسل نفحات القرس فى نوافذ البيوت المعتمة ، وترتفع فى مداخل البيوت الخالية مبددة اشباح الترف الزائل . لقد كانت بطرسبورغ رهيبة فى اواخر العام ١٩١٧ .

رهيبة ، غامضة ، متعذرة على الفهم . انتهى كل شيء . واُلغى ما كان فى الماضى . كان رجل يرتدى قبعة بالية ويحمل دلوا وفرشاة يعبر الشارع الذى كانت تكنسه ريح أرضية ويلصق هنا وهناك المزيد والمزيد من الاعلانات عن المراسيم ، فكانت الملصقات تلوح كالرقع البيض على جدران البيوت العتيقة . ان المراتب والفوارق ورواتب التقاعد وكتافيات الضباط ، الملكية الخاصة ، والحق فى أن تعيش على هواك – كل ذلك قد اُلغى . انتهى ! ارسل ملصق الاعلانات نظرة غاضبة من تحت قبعته الى زجاج النوافذ ، الى قاطنى البيوت الذين ما يزالون يذرعون الغرف الباردة فى معاطفهم الفرائية واحذيتهم اللبادية قائلين وهم يفركون اصابعهم :

– وماذا بعد ؟ ماذا سيحدث ؟ هلاك روسيا ، نهاية كل شيء . . . الموت !

ولئن اقتربوا من النوافذ كان فى وسعهم ان يروا على خط مائل عربة نقل طويلة تقف قرب مدخل الدارة التى كان يقطنها صاحب الفخامة ، فى الموضع الذى كان يقف فيه شرطى حارس فى هيئة استعداد ينظر الى الواجهة الرمادية بطرف عينه ، ويروا رجالا مسلحين يخرجون اثاثا وابسطة ولوحات من الباب المفتوح على مصراعيه . وفوق المدخل يرفرف علم أحمر ، وهنا ايضا يحوم صاحب الفخامة نفسه بسبلتيه الشبيهتين بسبلتى الجنرال سكوبليف ، مرتديا معطفا خفيفا ، ورأسه الأشيب يهتز . انهم ينقلونه ! والى أين فى شدة القر هذه ؟ الى حيث القت . . . بينما كان صاحب الفخامة هذا درعا حصينا فى جهاز الدولة !

ويهبط الليل . ظلام دامس لا مصباح فى شارع ، ولا ضوء فى النوافذ . لا يوجد فحم . ويقولون ان سمولنى * غارق فى الضوء ، وفى مناطق المعامل يوجد ضوء ايضا . والزوبعة الثلجية تعربد فوق

* مقر هيئة اركان ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى فى ١٩١٧ ثم مقر الحكومة السوفييتية الاول . – **المترجم** .

المدينة المعذبة المثقبة بالرصاص وتصفر فى ثقوب السطوح منذرة بالويل . وتئز طلقات فى الظلام . فمَن يطلق النار ، وعلى من ، ولأى شيء ؟ هل الطلقات هناك حيث يومض الوهج ، ويلون غمائم الثلج ؟ حيث مستودعات النبيذ تحترق . . . والناس يجرعون النبيذ من البراميل المحطمة فى الاقبية . . . عليهم اللعنة ، عسى أن يحترقوا احياء !

ايها الروس ، الروس !

كان الروس يعودون بالملايين محشورين فى قطارات لا نهاية لها ، قادمين من الجبهة الى بيوتهم فى القرى ، والسهوب ، والمستنقعات ، والغابات . . . الى اراضيهم ، الى نسائهم . كانوا يقفون مضغوطين لا يستطيعون حراكا فى العربات المحطمة النوافذ المكتظة الى اقصى حد ، حتى ليستحيل أن يُخرج ميت من الزحام ، ويُقذف من النافذة . كانوا يسافرون راكبين على العوارض الحديدية المخففة للصدمات ، وعلى سطوح العربات . كانوا يتجمدون بردا ، ويموتون تحت العجلات ، ويشدخون رؤوسهم فى المسافات الضيقة بين العربات وهياكل الجسور . وكانوا يحملون فى صناديق صغيرة وفى صرر كل ما وقع تحت ايديهم من اشياء لان كل شيء ينفع : رشاشة ، ترباس مدفع ، سقط متاع اُخذ من ميت ، قنابل يدوية ، بنادق ، حاك ، جلد قطع من مقعد فى عربة قطار . والشيء الوحيد الذى لم يجلبوه ، هو النقود . فان هذه الاوراق غير النافعة لا تستطيع حتى ان تلف بها سيكارة .

كانت القطارات تدب بطيئة فى سهول روسيا ، وتتوقف لتلتقط انفاسها فى محطات محطمة النوافذ مخلوعة الابواب . وكانت القطارات تستقبل كل محطة بوابل من السباب . كان الجنود بمعاطفهم الرمادية يقفزون من سطوح العربات ، ويقلقلون بترابيس بنادقهم ، وينطلقون ليبحثوا عن ناظر المحطة ليقضوا فى الحال على ذيل البرجوازية العالمية هذا قائلين «اعطنا قاطرة ! . . هل سئمت من الحياة ، يا ابن كذا وكيت ، يا ابن الكلب ؟ دع القطار يخرج ! . .» ويهرولون نحو قاطرة فى الرمق الأخير هرب منها سائقها ووقادها الى السهب . «اعطونا فحما ! خشبا ! اكسروا الاسيجة ، حطموا الابواب ، والنوافذ !» .

قبل ثلاثة اعوام كانوا لا يسالون كثيرا : من تحارب ، ولأى شىء . كأن السماء انشقت ، والأرض زُلزلت : تعبئة وحرب ! وادرك الناس أن زمن الاحداث المريعة قد اقترب . انتهى نمط الحياة القديم . والسلاح فى اليد . ولن يعودوا الى ما كانوا عليه . مهما يكن من شىء . فقد تراكمت مظالم كثيرة على مر القرون .

وفى ثلاث سنوات من الحرب عرفوا ما هى الحرب . رشاشة من امام ، ورشاشة من خلف . وانت منبطح فى الروث ، بين القمل الى أن تحين منيتك . ثم سرت الرعدة فى الاجساد ، والزغللة فى العيون . انها الثورة ! . . افاق الناس على انفسهم . ونحن ما مصيرنا ؟ هل سيخدعوننا من جديد ؟ واستمعوا الى الدعاة : اذن ، كنا اغرارا من قبل ، والآن يجب أن نكون عقلاء . . . حاربنا ما فيه الكفاية ، فلنعد الآن الى بيوتنا لتصفية الحساب . الآن نعرف اى كرش ستبقر بحربتنا . لا قيصر الآن ولا اله . لا احد غيرنا . فلنعد الى بيوتنا ، ولنقسم الأرض !

ومرت القطارات العسكرية كالمحراث فى السهول الروسية مخلفة وراءها المحطات وقطارات السكك الحديدية المحطمة ، والمدن الرثة . ومن القرى والضياع كان ينبعث صريف واحتكاك معدن بمعدن ، حيث كانت ماسورات البنادق تقطع بالمبارد . ان الروس قد استقروا فى الأرض جديا . وعادت الشعل تضىء الاكواخ كما فى الازمنة السحيقة ، والنساء يلففن الغزول على مناول جدات الجدات . وبدا وكأن الزمن قد ارتد الى القرون الخوالى . كان ذلك شتاء ، حين بدأت الثورة الثانية ، ثورة اكتوبر . . .

ان بطرسبورغ الجائعة المنهوبة بالقرى ، المباحة للريح القطبية ، المطوقة بجبهة معادية ، المهزوزة بالمؤامرات ، الفقيرة الى الفحم والخبز ، مدينة المصانع المنطفئة المداخن ، الشبيهة بدماغ انسان مكشوف كانت فى ذلك الحين تذيع على موجات محطتها الاذاعية المسماة «تسارسكويه سيلو» افكارا جنونية متفجرة .

صاح شاب نحيل من على القاعدة الغرانيتية للتمثال ، وكان يلبس قبعة فنلندية أدار مقدمتها نحو مؤخر رأسه :

– ايها الرفاق ، ايها الرفاق الهاربون من الجيش ، لقد ادرتم

ظهوركم الى الامبرياليين الحقراء . . . ونحن عمال بطرسبورغ نقول لكم : اصبتم فيما فعلتم ، يا رفاق . . . نحن لا نريد ان نكون مرتزقة البرجوازية الدموية . فلتسقط الحرب الامبريالية !

– تسقط ، تسقط ، تسقط . . .

سرى ذلك بتوان بين جمع الجنود الملتحين . كانوا يقفون امام تمثال الامبراطور الكسندر الثالث تعابا متقلين يحملون البنادق وصرر المتاع على اكتافهم . كانت طبقة من الثلج تغطى تمثال القيصر الاسود الضخم الذى كان بوز حصانه القصير يتدلى فوق الخطيب ذى المعطف الخفيف المفتوح .

– ايها الرفاق . . . ولكن يجب الا نلقى البنادق ! ان الثورة فى خطر . والعدو ينهض ضدنا من اطراف الدنيا الاربعة . . . وفى يديه المفترستين اكوام من الذهب وسلاح فتاك رهيب . . . وهو يهتز الآن فرحا ، اذ يرانا نشرق بالدم . . . ولكننا لن نفزع . . . ان سلاحنا هو ايمان ملتهب فى الثورة الاجتماعية العالمية . . . انها ستحدث ، وعن قريب . . .

وحملت الريح نهاية العبارة . توقف عند التمثال رجل واسع المنكبين مرفوع الياقة ليقضى حاجة صغيرة . والظاهر انه لم يلحظ التمثال ولا الخطيب ولا الجنود حملة الصرر . الا ان عبارة معينة قد اثارت انتباهه فجأة ، أو ربما ليست العبارة بحد ذاتها ، بل تلك الثقة الهائجة التى قيلت بها من تحت بوز الحصان البرونزى :

– . . . ولتكونوا على علم . . . اننا بعد نصف عام من الزمن سنقضى على أفظع شر ، على النقود . . . ولن تكون هناك مجاعة ، ولا فقر ، ولا ذلة . . . خذ قدر حاجتك من المستودع العام . . . يا رفاق ، وسنبنى بالذهب مرافق عامة . . .

ولكن ريحا ثلجية هبت فى تلك اللحظة ، ونفذت عميقا فى حلق الخطيب ، فبدأ يسعل منحنيا بضيق خانق ، غير قادر على أن يتخلص من سعاله . وبدا وكأن رئتيه ستنفجران . تريث الجنود برهة ، واهتزت قبعاتهم العالية ، وانصرفوا . بعضهم الى المحطة ، والبعض الآخر عبر المدينة الى ما وراء النهر . نزل الخطيب من القاعدة ، ساحبا اظافره على غرانيتها المتجمد . ناداه الرجل ذو الياقة المرفوعة بصوت خافت :

— روبليف ، مرحبا .

زرر فاسيلى روبليف معطفه الخفيف وهو ما يزال يسعل . ونظر الى ايفان ايليتش تليغين نظرة جفاء دون ان يمد له يده .

— ماذا ؟ ما حاجتك ؟

— أنا مسرور بلقياك . . .

— هؤلاء الملاعين ، غلاظ العقول . . .

قال روبليف وهو ينظر الى معالم محطة القطار غير الواضحة بسبب تساقط الثلج ، حيث ما زال اولئك الجنود الملتحون الموبوءون بالقمل يتجمهرون جماعات وعند اقدامهم صررهم . واردف قائلا :

— هل من المعقول ان تحرك ادمغتهم ؟ انهم يولون من الجبهة كالصراصير . خفاف العقول . . . الارهاب ضرورى معهم . . .

وقبضت يده المتجمدة على الريح الثلجية . . . وضربت بقبضتها شيئا غير منظور فى تلك الريح . ثم تدلت وسرت رعدة برد فى اوصاله . . .

— روبليف ، يا عزيزى ، انت تعرفنى جيدا (وانزل تليغين ياقته ، وانحنى نحو وجه روبليف الترابى اللون) . . .اشرح لى الأمر ، بحق الرب . . . نحن نضع رقابنا فى الانشوطة . . . يستطيع الالمان ، اذا شاءوا ، أن يكونوا فى بتروغراد* فى غضون اسبوع . . . افهمنى . أنا لم اهتم بالسياسة فى يوم من الايام . . .

— ماذا تعنى بأنك لم تهتم بالسياسة ؟ — سال روبليف وتحول الى ايفان ايليتش بحركة هوجاء وقد تجهم وجهه — بم اهتممت اذن ؟ والآن اتعرف من الذى لا يهتم ؟ — وتفرس فى عينى ايفان ايليتش بجنون — الحيادى . . . عدو الشعب .

— لهذا السبب بالذات اردت ان اتحدث معك . . . فتحدث كما يتحدث الناس .

وغضب ايفان ايليتش ايضا . زفر روبليف الهواء بعمق من خلال انفه .

---

* الاسم الذى اطلق على بطرسبورغ من ١٩١٤ حتى ١٩٢٤ . — المترجم .

— انت غريب الاطوار ، يا رفيق تليغين . ليس لى الوقت لاتحدث معك . هل تستطيع ان تفهم ذلك ؟

— اسمع ، يا روبليف ، انا الآن فى حالتى النفسية هذه . . . هل سمعت بأن كورنيلوف يثير منطقة الدون ؟

— سمعنا .

— اما ان اخرج الى الدون . . . واما ان ابقى معكم . . .

— ولماذا : «اما» هذه ؟

— هكذا ، يجب ان اومن بشىء . . . انت الى جانب الثورة ، وانا الى جانب روسيا . . . وربما أنا ايضا الى جانب الثورة . أنا ، اذا كنت تعلم ، ضابط مقاتل . . .

انطفأ الحنق فى عينى روبليف السوداوين ، ولم يبق فيهما غير الارهاق المسهد . قال :

— حسنا . تعال غدا الى سمولنى ، وسل عنى . . . روسيا — وهز رأسه مبتسما بتهكم — ان روسياك هذه تجعل المرء يتميز غضبا . . . تملأ العين دما . . . ومع ذلك فاننا جميعا نموت فى سبيلها . . . اذهب الآن الى محطة البلطيق وستجد ما يقرب من ثلاثة آلاف هارب من الجيش يقضون اسبوعهم الثالث منطرحين على الأرض . . . اجتمع بهم وحرضهم على الوقوف الى جانب السوفييتات . . . قل لهم : ان بتروغراد بحاجة الى الخبز ، ونحن بحاجة الى مقاتلين . . . (وجفت عيناه من جديد) قل لهم : اذا كنتم ستنبطحون على سطوح مواقدكم البيتية كسالى فانكم ستهلكون ، مثل الجراء ، وستجربون بجلدكم ما هى الثورة . . . دق هذه الكلمات فى رؤوسهم ! . . لا احد يستطيع الآن ان ينقذ روسيا ، وان ينقذ الثورة غير السلطة السوفييتية . . . فهمت ؟ لا شىء فى العالم الآن اهم من ثورتنا . . .

ارتقى تليغين السلم المتجمد فى الظلام الى شقته فى الطابق الخامس . تلمس الباب فى الظلمة ، وطرق ثلاث طرقات ، وطرقة منفردة . سمع وقع اقدام فى الداخل تقترب من الباب . وبعد برهة من الصمت سأل صوت زوجته الخافت :

— من ؟
انا ، انا . . . داشا .
وسمع تليغين زفرات خلف الباب . صلصلت سلسلة وظل القفل مستعصيا عن الدوران وقتا طويلا . وكان يسمع همس داشا : «آه ، يا ربى ، يا ربى» . واخيرا افلحت فى فتح الباب . وحالما فعلت ذلك غابت فى ظلمة الممر لتجلس فى مكان ما .
احكم تليغين اغلاق الباب بكل الاقفال والزلاليج . وخلع الكالوش . وتلمس جيوبه بحثا عن الكبريت . اللعنة . لا يوجد كبريت . مد ذراعيه الى الامام دون ان يخلع معطفه وقبعته ، واتجه الى حيث غابت داشا . قال :
— استهتار . بلا ضوء مرة اخرى . داشا ، اين انت ؟
اجابت من غرفة المكتب بصوت خافت بعد برهة من الصمت :
— اشتعل قليلا ، ثم انطفأ .
دخل تليغين غرفة المكتب ، وكانت ادفأ غرفة فى الشقة كلها ، الا انها هى الأخرى كانت باردة اليوم . امعن النظر ولكنه لم يتبين شيئا ، بل ولم يسمع انفاس داشا . وكان جائعا جدا ، ويود بشكل خاص ان يحتسى شايا . الا انه احس بأن داشا لم تعد شيئا .
انزل ياقة معطفه ، وجلس على الكرسى قرب الاريكة ووجهه الى النافذة . كان ضوء اغبش يرود الظلام الثلجى . وكان ضوء كشاف يحوم فى السماء طالعا من كرونشتادت او من مكان قريب منها .
وفكر ايفان ايليتش مع نفسه : «لطيف لو اشعل الموقد الآن . ولكن كيف أسأل داشا عن مكان علبة الثقاب دون ان ازعجها ؟»
غير انه لم يحزم امره . ود لو يعرف ماذا تفعل الآن : تبكى ام تهوم نعسى ؟ كان الهدوء شاملا . خيم سكون الصحراء على البيت ذى الطوابق الخمسة كله . لا شىء غير صدى خفيف لطلقات نادرة تطلق فى مكان ما . وفجأة احمرت مصابيح الثريا الستة قليلا ، وتنورت الغرفة بضوء احمر خافت . كانت داشا جالسة الى المكتب واضعة معطفها الفرائى على ما عليها من ثياب ،

وقد مدت الى امام ساقا واحدة فى حذاء لبادى . كان رأسها مستقرا على المكتب ، وخدها على نشافة ورق . الوجه نحيل معذب ، والعين مفتوحة ، ابقتها مفتوحة وهى جالسة تلك الجلسة غير المريحة وغير الطبيعية ، حسب ما اتفق . . .
— عزيزتى داشا ، لا يجوز ذلك ، على اى حال .
قال تليغين بصوت كامد . فقد اشفق عليها اشفاقا لا يطاق ابدا . جاء الى المكتب . الا ان الخيوط الحمراء فى المصابيح ارتعشت وانطفأت . لم يستمر الضوء غير بضع ثوان .
توقف وراء داشا ، وانحنى عليها ممسكا انفاسه . لا اسهل من ان يمسد شعرها صامتا ، على الأقل . الا انها كالجثة لم تبد استجابة لاقترابه منها .
— داشا ، لا تعذبى نفسك بهذا الشكل . . .
قبل شهر ولدت داشا طفلا توفى فى اليوم الثالث من ميلاده . كانت الولادة مبتسرة ، تمت بعد صدمة عصبية فظيعة اصابت داشا حين بوغتت فى الشفق بشخصين ملفوفين بكفنين متطايرين فى الريح فارهين بشكل لاانسانى هجما عليها وهى فى ميدان «مارسوفو بوليه» . وانهما ، بالتأكيد ، من اولئك «القفازين» الذين كانوا يربطون اقدامهم بزنبركات خاصة ، وينشرون الرعب فى بتروغراد كلها فى تلك الاوقات الفريدة . واخذا يكشران اسنانهما لداشا ، ويصفران لها . وعندما سقطت مغشيا عليها انتزعا معطفها من عليها ، ووليا هاربين عبر جسر لبياجى . بقيت داشا فترة من الوقت منطرحة على الأرض . وهطل المطر مدرارا ، وضجت اشجار الزيزفون الجرداء فى حديقة ليتنى ضجيجا موحشا ، وصرخ شخص وراء نهر «فانتانكا» صرخة ممطوطة : «النجدة !» واحست داشا بأن الطفل يرفس فى بطنها ، يريد الخروج الى هذا العالم .
كان يطالب ، فنهضت داشا ، وعبرت جسر ترويتسكى . كانت الريح تضغطها على درابزين الجسر الحديدى ، وثوبها المبلل يلتصق بين ساقيها . وما من ضوء ، ولا عابر سبيل . والنيفا تحتها اسود الماء مضطرب . واحست داشا بعد ان عبرت الجسر بأول نوبة من الألم . وادركت انها لن تستطيع بلوغ البيت ، فارادت فقط ان تصل الى شجرة ، وتحتمى من الريح . وفى شارع كراسنيه زورى اوقفها

جندى من جنود الدورية . امسك بندقيته ، وانحنى على وجهها الشاحب شحوب الموت .

– خلعوا ثيابك ، الاوغاد ! آوه ، وانت حبلى .

واوصل داشا الى دارها ، وسحبها الى الطابق الخامس . طرق الباب باخمص بندقيته ، وحين أطل تليغين براسه صاح به :

– أليس جميلا ان تترك زوجتك ليلا فى الشارع لوحدها وهى على وشك ان تضع ؟ ايها البرجوازى اللعين ، العديم التدبير . . .

وبدأ المخاض فى نفس الليلة . جاءت الى الشقة قابلة ثرثارة . واستمرت آلام المخاض اربعا وعشرين ساعة . وخرج الوليد حبيس الانفاس بسبب ما ابتلع من ماء . طبطبت القابلة عليه ، ودلكته ، ونفخت فى فمه . فتلوى وجهه وانشأ يولول . ولم تياس القابلة رغم ان الوليد اخذ يسعل . وظل يولول متشكيا كالقطيطة ، ولم يرضع ثدى امه . ثم كف عن الولولة ، وبقى يئط فقط . وفى صباح اليوم الثالث مدت داشا ذراعها الى المهد ، ثم سحبتها حين مست جسده البارد . رفعته بسرعة ، وفكت لفائفه . كان شعره الخفيف الفاتح اللون يقف منتصبا على جمجمته العالية .

ارسلت داشا صرخة وحشية . وقفزت من الفراش الى النافذة لتكسرها ، وتقذف نفسها منها ، وتنهى حياتها . . . وراحت تكرر : «غدرت به ، غدرت به . . . لا اطيق ، لا اطيق !» . ووجد تليغين صعوبة كبيرة فى تهدئتها وارقادها . واخرج الميت الصغير . قالت داشا لزوجها :

– جاءه الموت حين كنت نائمة . تصور ان شعره قد وقف على راسه . . . تعذب لوحده . . وانا كنت نائمة . . .

ولم يستطع شىء أن يبعد عن خيالها رؤيا مصارعة الطفل وحده للموت .

– حسنا ، يا ايفان . ساكف عن ذلك .

اجابت بذلك تخلصا من سماع صوت زوجها الرصين ، ورؤية وجهه المعافى المورد و «المستبشر» رغم كل حرمان .

كانت عافية تليغين الطافحة تمكنه من ان يضرب فى المدينة بكالوش رث من الفجر الى ساعة متاخرة من الليل بحثا عن عمل

مساعد ، وعن طعام ، وحطب ، وغير ذلك . وكان يهرع عدة مرات الى البيت ، مظهرا قدرا غير اعتيادى من العناية والاهتمام .

الا ان هذه العناية الناعمة بالذات هى ابعد ما تحتاجها داشا فى اللحظة الراهنة . كلما اسرف ايفان ايليتش فى اظهار فعالية عملية ازداد ابتعاد داشا عنه بشدة . كانت تقضى النهار بكامله جالسة فى الغرفة الباردة . واذا المت بها سنة من نوم ، فذلك شىء رائع . عند ذاك ستغفو ، وتمرر يدها على عينيها ، وتحس بشىء من الارتياح . فتذهب الى المطبخ متذكرة أن ايفان ايليتش طلب اليها ان تصنع شيئا ما . الا انها لم تستطع ان تقوم حتى باهون الاعمال . وكان مطر اواخر الخريف يدق زجاج النوافذ ، وتصخب الريح فوق بطرسبورغ . وفى هذا البرد يرقد جسد طفلها الميت الذى لم يكن قادرا حتى على الشكوى ، يرقد فى مقبرة عند ساحل البحر . . .

ادرك ايفان ايليتش انها مريضة نفسيا . كان انطفاء الكهرباء كافيا لأن يجعلها تنزوى على كرسى فى احد الاركان ، وتغطى راسها بلفاح ، وتغيب فى كآبة يائسة . بينما كان على الانسان ان يعيش ، أن يعيش . . . كتب عنها الى اختها يكاترينا دميترييفنا فى موسكو ، الا ان الرسائل لم تصل . ولم تجب كاتيا ،أم لعلها هى الأخرى قد اصيبت بمكروه . لقد كانت الاوقات صعبة .

وتعثرت قدم ايفان ايليتش على علبة الكبريت بينما كان يراوح وراء ظهر داشا . وعرف على الفور : حين كانت الكهرباء تنطفىء كانت داشا تصارع الظلام والوحشة مكتفية باشعال عود ثقاب من حين الى آخر . قال ايفان ايليتش لنفسه : «يا ويحى ، وهى وحيدة طوال النهار» .

رفع العلبة بحذر ، ووجد فيها بضعة اعواد . جلب من المطبخ عيدان الحطب التى نشرها صباحا بعناية من بقايا صوان قديم . وقرفص فى غرفة المكتب ، واخذ يوقد النار فى الموقد الحديدى الصغير المرصوف بالآجر ذى المدخنة الحديدية الممتدة بعاكس عبر الغرفة كلها . ونشر دخان الخشب المشتعل رائحة مريحة ، وهبت نفحة ريح فى شقوق باب الموقد . وانعكست على سقف الغرفة دائرة من الضوء الرجراج .

ان هذه المواقد المصنوعة بيتيا اشتهرت فيما بعد باسم «النحلة» . وادت خدمات كثيرة للبشرية طوال فترة الشيوعية العسكرية . وهى حديدية ذات اربع ارجل ، ومنها البسيطة ذات عين طبخ واحدة او المعقدة ذات فرن داخلى يمكن أن تشوى فيه المعجنات من رواسب القهوة ، بل وحتى الفطائر المحشوة بالسمك المجفف ، او المترفة منها المرصوفة بالصفائح المنزوعة من المصطليات . فقد كانت تستخدم للتدفئة والطبخ والخبز وترنيم اغانى النار العريقة مصحوبة بعويل العاصفة الثلجية .

وكان الناس يجتمعون حول جمراتها مثلما كان القدامى يجتمعون حول كانون النار فى الازمنة الغابرة ، يدفئون ايديهم المتثلجة منتظرين تراقص الغطاء على السخان متجاذبين اطراف احاديث لم يسجلها احد مع الاسف . وكان الاساتذة بلحاهم الكثيفة والاحذية اللبادية فى ارجلهم ، واللفاحات على اكتافهم يقربون كراسيهم الكسيحة منها ، ويكتبون كتبا مدهشة . وكان الشعراء الضاوون من الجوع ينظمون القصائد عن الحب والثورة . وكان المتآمرون المتحلقون المتقاربو الرؤوس يتهامسون باخبار يفوق احدها سابقه بالاغراب فى الخيال . وكان الكثير من الاثاث الممتاز الأثرى يحرق متحولا الى دخان يتطاير من خلال المداخن الحديدية فى تلك السنوات .

كان ايفان ايليتش يحب موقده كثيرا . وقد ملط شقوقه بالطين ، وعلق علب التنك تحت مدخنته لكيلا يتساقط السخام على الأرض . حين غلى السخان اخرج كيس ورق ، ونثر سكرا ناعما فى قدح وزاد منه ليحلو اكثر . واخرج من الجيب الآخر ليمونة وقعت فى يديه اليوم باعجوبة (بادلها بقفازين عند احد مشوهى الحرب فى جادة نيفسكى) واعد شايا حلوا بالليمون ، ووضعه امام داشا .

— داشينكا* ، هذا بالليمون . . . والآن ساوقد المسرجة .

كانت هذه المسرجة عبارة عن علبة حديدية ، معبأة بزيت عباد الشمس تطوف فيها فتيلة . جلب ايفان ايليتش المسرجة . وتنورت الغرفة بضوء باهت .

* صيغة تدليل من اسم داشا (الاسم الكامل داريا) . — المترجم .

كانت داشا تجلس الآن فى كرسيها فى وضع طبيعى تحتسى الشاى . جلس تليغين على مقربة منها شديد الرضى .

— اتدرين بمن التقيت ؟ بفاسيلى روبليف . هل تذكرين روبليف الاب وروبليف الابن ؟ كانا يشتغلان فى ورشتى . كانت بيننا صحبة كبيرة . الاب ذو العين النافذة . قدم فى الريف ، وقدم فى المصنع . رجل مدهش ! اما فاسيلى الذى كان بلشفيا حتى فى ذلك الحين فهو فتى ذكى ، محنق كالشيطان نفسه . كان اول من اخرج عمال مصنعنا الى الشارع فى شباط . وكان يتسلق الى عليات البيوت باحثا عن رجال الشرطة . ويقولون انه قتل لوحده خمسة او ستة رجال منهم . . . وبعد انقلاب اكتوبر صار من ذوى النفوذ . جرى حديث بينى وبينه . . . هل تسمعينني يا داشا ؟

قالت : انا سامعة . ووضعت القدح الفارغ ، واستندت خدها على يدها المضمومة النحيلة ، وحدقت فى اللهب المتطاير من المسرجة . . . كانت عيناها الرماديتان تنمان عن عدم اكتراث لكل ما فى العالم ، وكان وجهها ناصلا ، وبشرتها الرقيقة شفافة ، وانفها الصغير الذى كان من قبل انوفا بل ونزقا يبدو مدببا الآن .

قالت لتبدى شكرها على الشاى بالليمون على الارجح :

— ايفان . كنت ابحث عن علبة ثقاب فوجدت علبة سيكائر وراء الكتب . اذا كنت تريد . . .

— سيكائر ! انها من سيكائرى القديمة المفضلة ، يا داشينكا .

واظهر ايفان ايليتش فرحا مبالغا به ، رغم ان هذه العلبة قد خباها بنفسه لوقت الشدة . اشعل سيكارة ، ونظر من طرف عينه الى بروفيل داشا الخالى من الحياة . وحدثته نفسه : «ابعدها عن هنا ، الى منطقة دافئة ، الى الشمس» .

— لنعد الى كلامنا . تحدثت مع فاسيلى روبليف فساعدنى كثيرا ، يا داشا . . . لا اعتقد ان هؤلاء البلاشفة سيختفون فجاة . وجوهر الأمر كله فى امثال روبليف . هل تفهمين ؟ حقا ان احدا لم ينتخب البلاشفة . وسلطتهم معلقة بشعرة ، وهى منحصرة فى بتروغراد وموسكو وبعض مراكز المحافظات . . . ولكن السر كله يكمن فى نوعية السلطة . . . ان لهذه السلطة صلة الرحم بامثال

فاسيلي رويليف . . .وهم ليسوا كثارا فى بلادنا . الا ان لهم ايمانا . قد تمزقه السباع والنمور ، وقد يحرق حيا ، ولكنه سيظل ينشد النشيد الأممى متهللا . . .

ظلت داشا على صمتها . حرك ايفان ايليتش الحطب فى الموقد . وقال وهو مقرفص امام بابه :

— اتفهمين ما أرمى اليه فى كلامى ؟ . . . يجب ان اميل الى هذا الجانب او ذاك . ليس من اللائق ان اقعد وانتظر حتى تستقر الأمور على حال من الاحوال . . . ومن العار ان اجلس على قارعة الطريق استجدى . انا رجل معاق ، ولست مخربا . . . ويداى مشوقتان الى عمل شيء ما ، اذا اردت الحقيقة . . .

تنهدت داشا . وانطبق جفناها ، وتحدرت قطرات من الدمع من تحت اهدابها . واستنشق ايفان ايليتش الهواء من منخريه .

— من الطبيعى ان علينا ان نبت بأمرك قبل كل شيء ، يا داشا . . . ينبغى ان تلملمى شتات قوتك وتنتعشى . فان الطريقة التى تعيشين بها هى الانطفاء بعينه .

ولم يضبط نفسه ، فشدد على كلمة «انطفاء» بغيظ . وعندئذ تكلمت داشا بصوت طفولى شاك :

— وهل أنا ملومة لأنى لم امت آنذاك ؟ والآن اعيقك عن الحياة . . . انت الذى جلبت لى الليمونة . . . انا لا اطلب منك . . .

راح ايفان ايليتش يذرع الغرفة محدثا نفسه : «تلك هى نتيجة الحديث معها !» ونقر باظافره على زجاج النافذة الذى اكتسى بطبقة من البخار . كان الثلج يدوم فى الخارج ، والزوبعة الثلجية تعول ، والريح الضارية تنطلق بسرعة شديدة ، وكأنها تستبق الزمن نفسه ، وتنفذ الى الازمان المقبلة لتعلن عن احداث غير اعتيادية . وفكر ايفان ايليتش مع نفسه : «هل ارسلها الى خارج البلاد ؟ ام الى ابيها فى سامارا ؟ ما اعقد تنفيذ ذلك . . . ومع ذلك من المستحيل الاستمرار على هذا النمط من الحياة . . .»

اخذت يكاترينا دميتريفنا ، اخت داشا ، زوجها فاديم بتروفيتش روتشين الى ابيها فى سامارا ، حيث كان من الممكن ان يعيشا بهدوء ، حتى الربيع ، دون يتلفا اعصابهما على كل كسرة

خبز . ان سلطة البلاشفة ستنتهى ، لا محالة ، مع اقبال الربيع . بل ان الدكتور دميترى ستيبانوفيتش بولافين حدد مواعيد دقيقة وهى : ما بين ذوبان الثلج وبدء اوحال الربيع سيشن الالمان هجوما على طول الجبهة ، حيث كانت فلول الجيوش الروسية منشغلة بالاجتماعات والخطابات ، ولجان الجنود تجاهد ، وسط الفوضى والخيانة والهروب من الوحدات ، لايجاد اشكال جديدة للانضباط الثورى .

ان دميترى ستيبانوفيتش قد شاخ خلال الاعوام الأخيرة ، وعاش حياة محدودة ، وازدادت احاديثه عن السياسة . وقد انشرح للغاية بمجىء ابنته ، وانخرط فورا فى تحويل تفكير روتشين السياسى . فكانا يجلسان ساعات طوالا فى غرفة الطعام حول السماور (الآلة الضخمة المجعدة السطح الذى سكب من بطنه بحيرة كاملة من الماء الفائر وحنكته الشيخوخة ، فما ان تلقى فيه فحما حتى ينشأ يغنى اغانى السماور الريفية مدة طويلة) . كان دميترى ستيبانوفيتش المهمل الهندام ، المترهل البدين بخصائل شعره الشائبة الجعداء غير المصفوفة يدخن سيكائر كريهة الرائحة ، وسعل محمرا ، ويظل يتكلم بلا انقطاع . . .

— بلادنا المسكينة وقعت فى داهية . . . لقد خسرنا الحرب . . . فلا يغضبك قولى هذا ، يا حضرة المقدم . كان يجب ان يعقد الصلح فى عام ١٩١٥ . . . وأن نخضع للالمان ونتعلم على ايديهم . فى هذه الاحوال تعلمنا منهم شيئا ويمكن ان نكون بشرا . اما الآن فقد قضى الأمر . . . والطب عاجز فى مثل هذه الحال ، كما يقولون . . . لا حاجة الى هذا الكلام ، أرجوك ! . . بأى شيء سندافع ؟ بالمذراة الثلاثية الاسنان ؟ فى هذا الصيف سيحتل الالمان كل المنطقة الجنوبية والوسطى من روسيا ، ويحتل اليابانيون سيبيريا ، ويطردون فلاحينا المتوحشين مع مذراتهم الثلاثية الاسنان الى التوندرا ، الى الدائرة القطبية ، ويبدأ النظام والثقافة ، وموقف الاحترام من الفرد . . . وستكون عندنا روسلاند . . . وذلك يرضينى كل الرضا . . .

كان ديمترى ستيبانوفيتش ليبراليا قديما وهو الآن يسخر بتهكم مرير على ما كان «مقدسا» فى الماضى . وحتى بيته انطبع بهذا الطابع من الازدراء النفسى . فالغرف بنوافذها المتربة لم تكن تنظف ، وصورة منديلييف فى غرفة المكتب مبرقعة بنسيج العنكبوت ، والنباتات تذبل فى احواضها ، والكتب والاسطوانات واللوحات ما زالت فى الصناديق تحت الارائك منذ ان كانت داشا هنا ، لآخر مرة ، فى عام ١٩١٤ .

وحين انتقلت السلطة فى سامارا الى سوفييت النواب ، وامتنعت غالبية الاطباء عن العمل مع «نواب الكلاب وسراطين البحر» عُرض على دميترى ستيبانوفيتش منصب المدير العام لمستشفيات المدينة . وقد قبل المنصب لتقديره بأن الالمان سيدخلون سامارا فى الربيع على اية حال . كانت هناك ازمة فى الادوية ، فكان دميترى ستيبانوفيتش لا يستخدم غير الحقن الشرجية ، ويقول لمساعديه ، وهو ينظر اليهم باستعلاء ساخر من خلال نظارته الانفية المصدوعة : «المعدة بيت الداء . والناس خلال الحرب لم ينظفوا معدهم . نقبوا فى العلل الاصلية لقوضانا الكريمة تجدوها فى المعدة الممتلئة بالاوساخ . اجل ، يا سادة . . . استخدموا الحقن الشرجية مع كل واحد بالتاكيد . . .»

الا أن الاحاديث حول مائدة الشاى كانت ترهق روتشين وتضايقه . لم يبل بعد من الرجة التى سببتها له قنبلة انفجرت بالقرب منه اثناء معركة فى احد شوارع موسكو فى اول تشرين الثانى ، حين كان يقود سرية من طلاب المدارس العسكرية مدافعا عن مشارف بوابة نيكيتسكيه . وكان سابلين فى صف البلاشفة يهاجم من ناحية ساحة ستراستنايا . وكان روتشين يعرف سابلين منذ سنوات التلمذة فى موسكو صبيا ملاكى الوجه ذا عينين زرقاوين تصطبغ وجنتاه بحمرة الخجل . وكان غريبا جدا أن يقارن المرء ذلك الشاب المنحدر من عائلة مثقفين من سكان موسكو القديمة بهذا البلشفى المتحمس ، او الاشتراكى-الثورى اليسارى – او سمه ما شئت من الاسماء – بمعطفه الطويل والبندقية يركض مراوغا وراء اشجار الزيزفون فى بولفار تفيرسكوى الذى تغنى به بوشكين ، وحيث كان سابلين الى زمن غير بعيد ، حين

كان طالبا نجيبا ، يتمشى فيه متأبطا كتاب نحو . «يا سيد سابلين انت تحارب لتخون روسيا والجيش ، وتفتح الطريق للالمان ، وتطلق الوحش الكاسر ! . . ربما من الممكن ان تعذر المراتب الدنيا ، هذه البهائم الناخرة ، ولكن انت . . .» واصبح روتشين نفسه مبطوحا وراء رشاشة (فى خندق صغير فى زاوية شارع مالايا نيكيتسكايا ، عند حانوت تشيتشكين للالبان) وعندما وثبت قامة سابلين الرشيقة بمعطفه الطويل مرة اخرى من وراء شجرة شقها بالرصاص . افلتت البندقية من يدى سابلين وقعد على الارض ممسكا فخذه قرب اربيته . وفى تلك اللحظة تقريبا قذفت شظية القنبلة من على راس روتشين . وفقد القدرة على الحركة .

فى الليلة السابعة من القتال فى موسكو خيم ضباب اصفر كثيف . وهدأت لعلعة الرصاص . وظلت تقاتل شراذم منفردة معزولة من طلاب المدارس العسكرية ، والطلاب الآخرين والموظفين . الا ان لجنة الامن العام برئاسة الطبيب فى مستشفى البلدية يدعى رودنيف قد اختفت عن الوجود . وسيطرت على موسكو قوات اللجنة الثورية . وفى اليوم الثانى كان فى وسع المشاهد أن يرى فى شوارع المدينة شبابا فى ملابس مدنية يحملون الصرر وعيونهم تنم عن سوء طوية . كانوا يتسللون الى محطتى كورسك وبريانسك . . . ورغم انهم كانوا يرتدون لفافات الساق العسكرية أو احذية الفرسان الطويلة فان احدا لم يكن يعترضهم .

ولو لم يصب روتشين بتلك الصدمة لرحل هو الآخر . ولكن شللا خفيفا قد الم به ، ثم عمى (مؤقتا) ، وبعده اعتلالا فى القلب . وكان ينتظر ظهور قوات القيادة العليا بين لحظة واخرى وبدء المدافع من عيار ستة بوصات بقصف الكريملين من تلال فوربيوفو . الا ان الثورة كانت قد بدأت من توها بالتغلغل فى اعماق الجماهير . واقنعت كاتيا زوجها بالسفر ، ونسيان البلاشفة والالمان لفترة من الوقت .

وخضع فاديم بترفيتش . ونزل فى سامارا لا يفارق شقة الطبيب . كان يأكل وينام . ولكن كيف له أن ينسى ! كان يمسك فكيه وهو يتصفح كل يوم «انباء سوفييت سامارا» المطبوعة على ورق تغليف . فقد كان كل سطر فيها يلذعه كالسوط .

الانتصارات ، والاستيلاء على عواصم المحافظات بقطاراتها من الذهب .

وكان يجلس قبالته رجل عسكرى ممتلىء الجسم متوسط العمر يضع على كتفيه شريطا ابيض . كانت جمجمته البيضوية جرداء ضخمة مثل حصن للسلطة . وكانت شفتاه الغليظتان تبدوان بارزتين فى وجهه الشحيم الحليق . كان يمضغ بلا توقف محركا عضلتى حاجبيه ، متفرسا فى المشهيات المتنوعة . وكانت الكاس ضائعة فى يده الكبيرة ، والظاهر انه كان متعودا على الاقداح الكبيرة . شرب كاسه دافعا رأسه الى الوراء دفعة قصيرة . وبقيت عيناه الزرقاوان الذكيتان الصغيرتان كعينى دب لا تستقران على احد ، وكأنه كان على احتراس . وكان العسكريون ينحنون نحوه باهتمام خاص . كان هذا الرجل هو دوتوف اتمان اورنبورغ ، بطل قوزاق الاورال ، وقد حل ضيفا منذ وقت قصير .

وعلى مسافة غير بعيدة عنه جلس مسيو جانو السفير الفرنسى بين امراتين جميلتين احداهما شقراء والاخرى ذات شعر كستنائى ، وكان يرتدى بدلة سهرة رمادية فاتحة وقميصا ناصع البياض . وكان وجهه الصغير ذو الشاربين المهيبين والانف المدبب تنطبع عليه آثار الحياة الفاسقة . كان يلثغ بالراء ويميل تارة الى المفاتن نصف العارية للمراة ذات الشعر الكستنائى (التى ضربته بزهرة على يده جزاء على ذلك) وتارة الى كتف الشقراء الوردية اللؤلؤية ، فكانت تضحك وكان الفرنسى يدغدغها . وكانت كلتا المراتين تفهمان الفرنسية شرط التحدث بها ببطء . وكان ظاهرا ان مفاتن النساء قد سلبت عقل جانو المسكين . وكل ذلك لم يعقه اثناء الوقفات القصيرة عن مخاطبة بريكين صاحب الطاحونة الرصين الذى وصل لتوه من اومسك ، او رفع كاسه نخب انجازات دوتوف الباهرة . كان اهتمام مسيو جانو بطحين سيبيريا ولحوم وزبدة اورنبورغ قد اظهر ولاءه الحار نحو حركة البيض . وكان السفير الفرنسى فى اوقات المصاعب التموينية قادرا دائما على ان يعرض للحكومة خمسين قطارا محملة بالطحين وغيره . . . وكانت هناك عقول متشككة تؤكد ان لا ضير من دعوة مسيو جانو الى تقديم

اوراق اعتماده كاملة ، مثلما تفعل اية حكومة معتبرة . . . الا ان الحكومة فضلت طريقة اكثر لباقة : الثقة بالحلفاء .

وكان يجلس الى المائدة اجنبى معتبر آخر هو السنيور بيكولومينى الأسمر السريع النظرات (وكان يؤكد ان ذلك هو لقبه الحقيقى) . وكان يمثل فى شخصه الأمة الايطالية فى شىء من عدم التحديد ، والشعب الايطالى . وكانت بزته الزرقاء القصيرة مزينة بشريط فضى ، وعلى كتفيه كتافيتا جنرال ضخمتان . وقد شكل فى سامارا كتيبة ايطالية خاصة . وقد تساءلت الحكومة بدهشة «اين يجد الايطاليين هنا ؟ الشيطان يعلم !» الا انها قدمت المال . فهو من الحلفاء على اية حال . ولم تكن تعار له اهمية فى الاوساط البرجوازية .

كانت الحكومة متغيبة عن المادبة ما عدا غير الحزبيين : الدكتور بولافين ومساعد رئيس الاستخبارات سيميون سيميونوفيتش غفيادين الذى ارتفع عاليا فى سلم الوظيفة . وقد انقضى زمن المباهج المتبادلة ، حيث كان البلاشفة يدحرون . كانت حكومة لجنة الجمعية التاسيسية – من الاشتراكيين الثوريين الجامدين عن بكرة ابيهم – تثرثر عن مكاسب الثورة ثرثرة لم يكن احد يستطيع التصديق بها غير التشيكيين الذين ليس لهم اى فهم فى الشؤون الروسية . لقد كانت حكومة الاشتراكيين الثوريين شيئا جيدا بالطبع ، فى بداية الأمر حين اقاموا انقلابا ، وكان يجب تهدئة العمال والفلاحين . وكان تجار سامارا انفسهم يرددون شعارات الاشتراكيين الثوريين . وها هى الفولغا قد تحررت من خفالينسك الى قازان ، واحتل دنيكين شمال القفقاس كله تقريبا ، وكراسنوف يقترب من تسارتسين ، ودوتوف طهر الاورال ، وفى سيبيريا يظهر كل يوم اتمانات بيض مرعبون ، وهؤلاء الشحاذون الطوال الشعر فولسكى وبروشفيت وكليموشكين واضرابه المجتمعون فى القصر الفخم لزعيم نبلاء سامارا ما زالوا غير قادرين على ان يخلدوا الى الهدوء تواقين الى الجمعية التاسيسية . . . تفو ! وكبار التجار اخذوا ينتقلون بحزم الى شعارات اخرى ابسط وامتن واكثر فهما . . .

تحدث دميترى ستيبانوفيتش مخاطبا الاجانب بالدرجة الاولى :

– . . . لقد انتزعت من الحية حمتها . انها حقيقة ضخمة لها

جماهير غفيرة من الناس تسير خلف النقاب الكثيف التى اثارته العاصفة الثلجية ، تسير متلازمة الايدى ، فى جماعات ، صارخة ضاحكة . معاطف عسكرية ، فروات ، نساء ، صبيان . ان روسيا الاصلية ، الرمادية كانت تتدفق . . . من اين جاء هذا العدد الضخم ؟

غار قفا روتشين الاشيب المتوتر المرتاب بين كتفيه . مست كاتيا كتفه بخدها . ان الحياة التى تمر وراء النافذة العالية لم تكن مفهومة لها . قالت :

— فاديم ، انظر اية وجوه مستبشرة . . . امن المعقول ان هذه نهاية الحرب ؟ شىء لا يصدق . انها سعادة عظيمة . . .

ابتعد روتشين عنها ، وعصر يديه وراء ظهره ، وكانت اضمامة شفتيه حادة .

— فرح مبتسر . . .

كان خمسة اشخاص يجلسون فى غرفة صغيرة معقودة السقف ، وهم فى ستر مجعدة ، وقمصان من القماش الخشن من تلك التى يلبسها الجنود . كانت وجوههم مسودة من اثر السهاد . وعلى منضدة غطيت بقماش من الصوف محروق كانت اقداح الشاى واجهزة التلفون تقف بين الاوراق ، واعقاب السيكائر ، وكسر الخبز . وكان الباب ينفتح احيانا على ممشى مملوء بضجيج الناس ، ويدخل عسكرى عريض المنكبين يشد عليه احزمة كثيرة ، جالبا معه اوراقا للتوقيع .

وكان الرئيس ، خامس الجالسين الى المائدة ، وهو رجل ربع القامة فى سترة رمادية قصيرة يجلس فى كرسى وثير لا يتناسب ارتفاعه مع قامته ، فيبدو كالغاق . كانت يده اليسرى موضوعة على جبينه حاجبة عينيه وانفه فلا يرى الناظر اليه غير فمه المستقيم بشاربه الخشن ، وخده غير الحليق بعضلته المختلجة . والذين كانوا يعرفونه عن كثب كانوا من الممكن ان يحسوا بان عينه الثاقبة الذكية تنظر من خلال فرجات الاصابع التى تغطى وجهه باعياء الى المتكلم ، وتلحظ التغيرات على وجوه المجتمعين .

كانت التلفونات تدق بشكل متواصل . فكان الرجل ذو

المنكبين العريضين والاحزمة الكثيرة يرفع السماعات ، ويقول بصوت منخفض حاد النبرة : «مجلس مفوضى الشعب . اجتماع . لا يجوز . . .» وبين الحين والآخر يصطدم شخص بالباب من جهة الممشى ، وتدور مقبض الباب النحاسى . ووراء النوافذ كانت الريح تعصف من جهة البحر ، وتضرب الزجاج بحبات الثلج والمطر .

انتهى المتكلم . واطرق بعض الجالسين برؤوسهم ، وطوقها البعض الآخر بيديه . وحرك الرئيس كفه الى الأعلى ووضعها على جمجمته الصلعاء ، ودون ملاحظة على قصاصة ورق ، وخط تحت كلمة ثلاثة خطوط حتى نفذ سن القلم فى الورق ونقل القصاصة الى الشخص الثالث على يساره ، وهو رجل نحيل ذو شاربين اسودين ، وشعر منتصب .

قرا الرجل الثالث قصاصة الورق ، وابتسم تحت شاربين ، وكتب جوابا على نفس القصاصة . . .

القى الرئيس نظرة متمهلة على النافذة ، حيث كانت الزوبعة الثلجية تزمجر وراءها ، وقطع القصاصة الى مزق صغيرة . وتحدث بصوت اصم :

— الخطيب على حق . لا يوجد جيش . ولا اطعمة . نحن ندور فى خواء . والالمان يهاجمون ، وسيهاجمون . ان الخطيب على حق . . .

فقاطعته اصوات :

— اهذه النهاية ؟ ما المخرج ؟ نستسلم ؟ نلجا الى العمل السرى ؟

— ما المخرج ؟ (وقلص عينيه) . المخرج فى القتال . القتال الشديد . فى تحطيم الالمان . اذا لم نحطمهم الآن فسنتراجع الى موسكو . واذا استولى الالمان على موسكو فسنلجا الى الاورال . ونؤسس جمهورية اورال — كوزنيتسك . فهناك الفحم والحديد والبروليتاريا المكافحة . وسنجلى عمال بتروغراد الى هناك . انه عمل جليل . واذا اقتضت الضرورة فسنتراجع حتى الى كامتشاتكا . شىء واحد يجب الا يغيب عن الاذهان : الحفاظ على طليعة الطبقة العاملة ، وعدم السماح بتدميرها . سنحتل موسكو وبتروغراد من جديد . . . سيتغير الوضع فى الغرب عشرين مرة . ليس من شيم البلاشفة ان يدلوا انوفهم ، وينكسوا رؤوسهم . . .

وقفز من كرسيه العالى بحيوية غير اعتيادية ، وجرى – ويداه فى جيبيه – الى الباب البلوطى ، وفتح نصفه . فاتجهت نحوه وجوه عمال بتروغراد النحيلة المتغضنة المشوربة وعيونهم الملتهبة متطلعة اليه من الممشى ، من الابخرة الكثيفة والضوء الشاحب . . . رفع يده الكبيرة ، الملطخة بالحبر :

– ايها الرفاق . ان الوطن الاشتراكى فى خطر ! . .

٢

فى اوائل الشتاء كان سيلان من الجموع البشرية يلتقيان فى محطات ملتقى الخطوط الحديدية فى جنوب روسيا . كان رجال المجتمع والعسكريون فى ملابس مدنية ، واصحاب الأعمال ، ورجال الشرطة والملاكون من اصحاب الضياع المحروقة ، والمحتالون ، والممثلون والكتاب وموظفو الحكومة ، والمراهقون الذين احسوا بعودة زمن فنيمور كوبر ، وبعبارة مختصرة سكان العاصمتين بالوانهم المختلفة الذين كانوا غارقين فى الصخب والضوضاء الى حين غير بعيد ، كل هؤلاء الناس كانوا ينزلون من الشمال هاربين من القطاعة المريعة الى المناطق الغنية فى القمح فى احواض الدون وكوبان وتيريك .

ومن الجنوب ، من الاتجاه المقابل كان جيش ما وراء القفقاس ذو المليون رجل يزحف كالكتلة المتماسكة باسلحته ومدافعه وقذائفه ، وعربات الملح والسكر والانسجة . وعند الملتقى كان يحدث زحام ينشط فيه جواسيس الحرس الابيض . وكان القوزاق ياتون من قراهم ليشتروا السلاح ، وكان الفلاحون الاغنياء يبادلون الحبوب وشحم الخنزير بالقماش . وانتشر اللصوص والنشالون الذين كانوا يجندلون ضحاياهم فى المكان الذى يمسكونهم فيه ، على الخطوط الحديدية .

وكانت حواجز الحماية التى تقيمها الفصائل الحمراء قليلة المفعول ، فقد كانت تخرق كنسيج العنكبوت . هنا كانت سهوب وحرية ، ومواطن للقوزاق الاحرار منذ اقدم العصور .

كان كل شىء هنا متزعزعا زائلا لا وضوح فيه . اليوم تجد الاغراب وفقراء الفلاحين يتغلبون ، وينتخبون سوفييتا للنواب ، وغدا ترى القوزاق يفرقون الشيوعيين بالسيوف ، ويرسلون مبعوثا – ورسالة المبايعة داخل قبعته – الى الاتمان كاليدين فى نوفوتشيركاسك . اما السلطة السوفييتية فلا يعبأ لها احد هنا .

ولكن السلطة السوفييتية اخذت فى نهاية تشرين الثانى تظهر الجدية فى بسطها . أُنشئت الفصائل الثورية الاولى – من البحارة والعمال وجنود الجبهة الذين بلا ماوى يتنقلون فى قطارات شبه محطمة . وكانوا لا يخضعون كثيرا للقيادة ، ويعربدون ، ويقاتلون بشراسة ، الا انهم كانوا يتراجعون عند اقل احباط ، ويهددون فى اجتماعات حاشدة يعقدونها بعد المعركة بتقطيع اوصال رؤساء الوحدات .

كانت مناطق الدون وكوبان حسب الخطة الموضوعة انذاك مطوقة من الجهات الاساسية الثلاث : كان سابلين يتحرك من الشمال الغربى فاصلا الدون عن اوكرانيا ، وسيفرس يزحف الى روستوف ونوفوتشيركاسك بنصف دائرة ، وفصائل بحارة البحر الاسود تضغط من نوفوروسيسك . وفى الداخل يجرى الاعداد لانتفاضة فى مناطق المصانع ومناجم الفحم .

فى كانون الثانى اقتربت الفصائل الحمراء من تاغانروغ وروستوف ونوفوتشيركاسك وكان النزاع بين القوزاق والاغراب (النازحين من المدن الأخرى) لم يصل بعد فى قرى منطقة الدون الى الحدة التى تقتضى شهر السلاح . فقد كانت منطقة الدون ما تزال ساكنة . وقد تخلت قوات الاتمان كاليدين المتفرقة عن الجبهة بدون قتال تحت ضغط قوات الحمر .

واصبح الحمر خطرا مميتا . وثار العمال فى تاغانروغ وطردوا من المدينة فوج المتطوعين بامرة كوتيبوف وحطمت فصيلة الرقيب بودتيلكوف الحمراء آخر حامية للاتمان قرب نوفوتشيركاسك .

وعندئذ ارسل الاتمان كاليدين الى رؤساء منطقة الدون بنداء اخير بائس يطلب فيه ارسال متطوعين من القوزاق الى التشكيلة العسكرية المتماسكة الوحيدة – الى جيش المتطوعين الذى كان

يشكله الجنرال كورنيلوف والجنرال الكسييف والجنرال دينكين في روستوف . . . الا ان احدا لم يستجب لنداء الاتمان .

في ٢٩ كانون الثاني شكل كاليدين حكومة اتمانيـة في قصر نوفوتشيركاسك . وفي الصالة البيضاء جلس حول منضدة نصف دائرية الرؤساء الاربعة عشر لدوائر قوات قوزاق منطقة الدون ، وجنرالات مشهورون ، وممثلو «مركز موسكو لمكافحة الفوضوية والبلشفيـة» . وقال الاتمان الجهم الفارع ذو الشاربين المتدليين متحدثا بسكينة كئيبة :

– ايها السادة . ينبغي ان ابلغكم بان وضعنا ميئوس منه ، فان قوات البلاشفة تتعاظم من يوم لآخر . وكورنيلوف يسحب كل قواته من جبهتنا . وقراره لا يقبل النقض . ولم يستجب غير مائـة وسبعة واربعين شخصا على ندائي الى الدفاع عن منطقة الدون . واهالي منـاطق الدون وكوبان ليسوا فقط لا يؤيدوننا ، بـل ويعادوننا . فما سبب ذلك ؟ كيف تسمى هذه الفظاعة المشينة ؟ ان الطمـع قـد ادى بنـا الى التهلكـة . ولم يعد هناك شعور بالواجب ، ولا بالشرف . اقترح عليكم ، ايها السادة ، ان تتخلوا عن صلاحياتكم ، وتسلموا السلطة الى آخرين – وجلس ، ثـم اضاف دون ان ينظر الى أحد : – أيها السادة ، تكلموا باختصار . فالوقت لا يسمح . . .

فزعق عليه ميتروفان بوغايفسكي مساعد الاتمـان «شقي الدون» مغتاظا :

– بعبارة اخرى انت تقترح تسليم السلطة الى البلاشفة؟ . .

فرد الاتمان على ذلك بان الحكومة العسكرية في حل مـن ان تفعل ما تراه مناسبا ، وغادر الاجتماع في الحال ، وخرج الى مقره عبر باب جانبي وهو يخطو خطوات ثقيلة . نظر من خلال النافذة الى اشجار المنتزه الجرداء المتمايلة ، والى السحب الثلجية المثيرة اليأس ونادى زوجته . لم ترد الزوجة على ندائه . فتابع توغلـه الى غرفة النوم حين كان الموقد يتوهج . خلع سترته ، وصليب الرقبة . وللمرة الاخيرة حدق في الخارطة العسكرية المعلقة فوق السرير ، وكانه ما يزال غير مصدق . كانت الاعلام الحمراء الصغيرة تحدق كثيفة بمنطقة الدون وسهوب كوبان . والابرة الوحيدة التي

تحمل علما ثلاثي الالوان كانت مغروزة في نقطة سوداء تشير الى روستوف . اخرج الاتمان مسدس براونينغ الدافيء المفلطح من الجيب الخلفي في سرواله الأزرق ذي الشرائط ، وسدد رصاصة الى قلبه .

وفي التاسع من شباط خرج الجنرال كورنيلوف بجيشـه الصغير المؤلف من المتطوعين ، وجميعهـم من الضباط وطلاب المدارس العسكرية وعربات الجنرالات والمدنيين من ذوي المقامات الرفيعة ، وغادر روستوف الى السهوب وراء الدون .

سار هذا الجنرال القصير القامة الغضوب ذو الوجه الشبيه بوجوه المغول ماشيا في مقدمة قواته وعلى كتفيه جراب الجنود . بينما كان الجنرال دنيكين التعيس المصاب بالتهاب القصبات يرقد متدثرا في دثار من جلد النمر في احد عربات الطابور .

مرت وراء عربة القطار السهوب البنية العارية من الثلج . وكانت ريح ندية فواحة بتربة عند الذوبان تهب من فتحة النافذة المحطمة الزجاج . وكانت كاتيا تحدق في النافذة ، وقد غطت راسها وصدرها بشال وبري ، معقود وراء ظهرها . وكان روتشين يهوم غافيا وقد ارتدى معطفا من معاطف الجنود ، وقبعة ممزقة مدببة ، وعدد ساقيه . كان القطار بطيئا في سيره . فكانت الاشجار الجرداء العالية تمر مضغوطة الاغصان مثقلة بالاعشاش . وكانت غربان القيظ تحوم فوقها كالسحب ، وتهتز على الاغصان . دنت كاتيا من النافذة . كانت غربان القيظ تنعب نعيبا مرتاعا موحشا كمـا يحدث لها في الربيع : نعيبا كذلك الذي كانت كاتيا تسمعه في طفولتها البعيدة على حلول الربيـع ، والضباب ، والعواصف الرعدية الاولى .

كانت كاتيا وروتشين مسافرين الى الجنوب . ولكن الى اين ؟ الى روستوف ، الى نوفوتشيركاسك ، الى القرى القوزاقيـة على الدون ؟ الى حيث تعقد عقدة الحرب الأهلية . كان روتشين ينام متدلي الراس ، ووجهـه غير الحليق ناحل ، والغضون العميقـة تكتنف فمه المضموم بازدراء . وشعرت كاتيا برهبة مباغتة ، فقد خيل اليها ان هذا الوجه الذي تراه لم يكن وجهه ، بل آخر غريبا

مدبب الأنف . . . حملت الريح عبر النافذة نعيب غربـــان القيظ ودمدمت عجلات العربة على محولات السكك ، وقد ابطأ القطار فى سيره . كان طابور من العربات يمتد فى طريق موحلة يشق السهب فى خط منحرف . احصنة هزيلة شعثاء ، عربات ريفية ملطخــة بالوحل ، واناس ملتحون غرباء مخيفون . ندت من روتشين فى نومه شهقة مبحوحة معذبة ما بين النخير والانين . فمست كاتيا وجهه بيديها المرتجفتين :

– فاديم ، فاديم . . .

قطع شهيقه المخيف فجاة . وفتح عينيه الخاويتين من كـل تعبير .

– فو ، اللعنة . حلمت حلما مزعجا . . .

توقف القطار . وانضمت الى نعيب غربان القيظ أصوات ناس . تراكضت نسوة يرتدين احذية رجالية طويلة ، ويحملن اكياسا وتدافعن كاشفات عن ارداف بيضاء ، وهن يحاولن الانسلال الى عربة بضائع . اندس فى نافذة المقصورة قرب كاتيا تماما راس اشعث ذو طاقية ملطخة ولحية ملتفة نامية حتى عينيه الصغيرتين .

– لعل لديكم رشاشة للبيع ؟

انبعثت آهة تعجب من الرف الأعلى ، وانقلب شخص بقوة واجاب بصوت مرح :

– عندنا مدافع فقط . الرشاشات بعناها كلها .

قال فلاح فاغرا فمه الكبير بشكل دفع لحيته الى الجانبين كالمكنسة :

– لا حاجة بنا الى المدافع .

ودس نصف جسمه فى النافذة ، واجال بصره داخل المقصورة بمكر عسى ان يقـع عـلى شىء يمكـن شراؤه . قفـز مـن الرف الاعلى جندى ضخم . وجـه عريض ، وعينـان زرقاوان متشبثتان ، وراس حليق متناسق . شد حزامـه على معطفـه بحركـة قويـة .

– ما انت والقتال يا والد ! آن لك أن تستلقى على رف الموقد .

قال الفلاح :

– هذا صحيح . ولكن لا يمكن أن تستلقى على رف الموقد

فى مثل هذه الايام ، ايها الجندى . لا أحد يسمح لك بذلك – لانه عليك ان تطعم نفسك والعائلة .

– بالنهب ؟

– كلام فارغ . . .

– ولكن ما حاجتك الى رشاشة ؟

– كيف اقول لك ؟

وفرك الفلاح انفه ، وحك شعر لحيته بيد معقدة ، وكل ذلك ليخفى لمعان عينيه ، فقد كانتا تبتسمان بخبث .

– عاد ولدى من الجبهة . وقال لى : اذهب الى محطة القطار ، واعرف سعر الرشاشة . يمكن ان اشتريها باربعة بودات* من القمح . ها ؟

– انكم كولاك – قال الجندى وضحك – شياطين خبثاء ! كم حصانا عندك ، يا اب ؟

– وهبنى الله ثمانية . اليس عندكم ما يباع ؟ اسلحة او اشياء اخرى ؟ – ومرر عينيه مرة اخرى على الجالسين فى المقصورة . وفجاة اختفت الابتسامة وانطفا لمعان عينيه ، واشاح وجهه وكانما لم يكن فى المقصورة اناس بل روث ، وسار فى وحل الرصيف ، هازا سوطه .

قال الجندى متطلعا الى كاتيا بنظرة صريحة :

– هل رأيته ؟ ثمانية احصنة ! واثنا عشر ولدا ربما . يركبهم الخيول ويطلقهم فى السهب للنهب والسلب . اما هو فيستلقى على رف الموقد ، ومؤخرته على القمح ، يجمع الاسلاب .

وادار الجندى بصره الى روتشين ، واذا بحاجبيه يرتفعان ، ووجهه يتألق :

– فاديم بتروفيتش ، هذا انت ؟

القى روتشين على كاتيا نظرة خاطفة ، ولكن لم يجد مناصا من ان يقول «مرحبا» ويمد يده . شد الجندى على يده بقوة ، وجلس الى جانبه . رات كاتيا ان روتشين يبدو محرجا . سمعته يقول بلا حرارة :

* بود يساوى ١٦,٣٨ كيلوغراما . – **المترجم** .

– ها قد التقينا اذن . أنا مسرور بأن أراك فى صحة طيبة ، يا الكسى ايفانوفيتش . . . اما انا فمتنكر ، كما ترانى .

حدست كاتيا أن هذا الجندى هو الكسى كراسيلنيكوف المرافق السابق لروتشين . فقد حدثها فاديم بتروفيتش عنه غير مرة ، وكان يعتبره طرازا رائعا للفلاح الروسى الذكى الموهوب . كان غريبا أن يقابله روتشين الآن بهذا البرود . ولكن كراسيلنيكوف قد ادرك السبب ، على ما يبدو . فقد أشعل سيكارة ، وهو يبتسم . وسال بصوت خفيض ، ولهجة جدية :

– عقيلتك ؟

– نعم . فقد تزوجت . تعارفا . كاتيا ، هذا ملاكى الحارس الذى حدثتك عنه . . . قاتلنا ، يا الكسى ايفانوفيتش . . . وما علىّ إلا ان اهنئك بالصلح المشين . . . صقـور روسيا . . . ها – ها . . . وها انا انسل مع زوجتى الى الجنوب . . . اقرب الى الشمس . (ورنت الكلمة «الشمس» رنينا جارحا فى اذنيـه ، فغضن وجهه . ولم يبد كراسيلنيكوف امارة على عجب) . لم يبق شىء آخر . . . كافانا الوطن الشكور بحربة فى البطن . . . (وارتعد وكان قملة سرت فى جسمه كلـه) . خارجون عن القانون ، اعداء الشعب . . . هكذا . . .

– وضع سيادتك صعب !

وهز كراسيلنيكوف رأسه ، ونظر فى النافذة مقلصا عينيه . كان الناس يحتشدون فى حديقة امامية قرب المحطة للسكة الحديدية ذات سياج محطم .

– وضعك كوضع رجل اجنبى . انا افهمك ، يا فاديـم بتروفيتش . بينمـا الآخرون لا يفهمـون . انت لا تعـرف شعبنا .

– ماذا تعنى بأننى لا اعرف ؟

هكذا . . . ولم تعرفه قط . وقد خدعت على الدوام .

– من خدعنى ؟

– خدعناك نحن ، الجنود ، الفلاحون . . . حين كنت تدير ظهرك نضحك ، يا فاديـم بتروفيتش ! اخترع الاسياد هـذه الكلمات : شجاعة ، نكران الذات ، وحب القيصر والـوطن ،

فجعلنا نحشو بها ادمغتنا فى الجيش . . . انا فلاح . مسافر الآن الى أخى الجريح قعيد الفراش فى روستوف ، فقد اصابه احد الضباط برصاصة فى صدره . سآخذه واعود به الى القرية . . . وربمـا سنحرث او ربما سنحارب . . . سنذهب هناك ونرى . . . ولكن اذا حاربنا سنحارب برغبتنا ، وبدون طبول المعركة ، سنحارب بضراوة . . . لا ، يا فاديم بتروفيتش ، لا تسافر الى الجنوب ، فلن تجد هناك خيرا . . .

بلل روتشين شفتيه الجافتين ، وهو يحدق فيـه بعينين لامعتين . كان كراسيلنيكوف يمعن النظر اكثر فاكثر فيما كـان يجرى فى الحديقة الامامية ، حيث كان يتعالى هدير اصوات حانق . تسلق بعض الناس الأشجار ليشاهدوا من هناك .

– على العموم لن تستطيعوا مغالبة الشعب . هذا ما أقوله لك . انتـم برجوازيون شأنكـم شأن الاجانب وهذه الكلمـة «البرجوازيون» خطيرة الآن ، ويمكن تغييره بكلمة لصوص خيول . ان محاربا له ابهة مثل الجنرال كورنيلوف ، الذى علق بنفسه صليب غيورغى على صدرى ، فكر فى أن يجعل القوزاق يحاربون فى سبيـل الجمعية التأسيسية ، فلم يحصل على نتيجة . الشعب لا يحتاج الى كلمات كهذه . اما كورنيلوف فيعرف الشعب كما يبدو . . يشاع انه ينطلق الآن معربدا فى سهوب كوبان كالكلب فى قطيع من الذئاب . . . ويقول الفلاحون : «البرجوازيون مستشرون لأن العنان لم يطلق لهـم فى موسكو . . .» وقد نظفوا بنادقهم ودهنوها تحسبا لكل طارىء . لا ، يا فاديم بتروفيتش عد مع عقيلتك الى العاصمة . . . فهناك آمن لك من وجودك بين الفلاحين . . . انظر ماذا يفعلون . . . (وفجاة رفـع صوته متجهما) سيقتلونه الآن . . .

يبدو ان الأمر قد اقترب من نهايته فى الحديقـة الامامية . كان جنديان قصيران ركينان لهما وجهان متوحشان يقبضان بقوة على رجل خائر يرتدى سترة ممزقة عند الصدر خيطت من بطانية فانيلة . كان وجه الرجل غير الحليق بأنفه المتورم شاحبا شحوب الموت ، وقد سال خط من الدم مـن طرف شفتيه المرتجفتين . وكانت عيناه اللامعتان المبيضتان تراقبان امرأة شابة مهتاجـة كانت تارة تخلع منديلها السميك من رأسها ، وتارة تجلس هازة

تنورتها حولها ، وتارة تثب على الرجل الشاحب ، وتقبض على شعره المنفوش ، وتصرخ بشعور شبيه بالتلذذ :

— سرقها . نشلها من تحت التنورة ، الوغد ! اعد الفلوس .

وامسكته من خديه ، وجمدت . افلت الرجل الشاحب من اصابعها فجاة . الا ان الجنديين امسكا به . زعقت المراة . وفى تلك اللحظة ظهر فى مكان الحادث رجل له رأس كبير شاقا طريقه بين الناس ، ونحى المراة بكتفه ، ولطم الرجل الشاحب على اسنانه لطمة قصيرة محكمة توجع منها الرجل ، وبرك فى الحال .

انحنى الرجل الجالس على اقرب شجرة ، وكان له كمان طويلان ، وصرخ : «قتل !» فاندفع الجمع فى الحال . ثم صار الناس ينحنون على الجسد ، ويرفعون قاماتهم هازين قبضاتهم .

مرت نافذة المقصورة بجمهور الناس . تحرك القطار اخيرا ! واحست كاتيا بغصة صيحة مكتومة تضغط على حلقومها . تجهم روتشين بازدراء . وهز كراسيلنيكوف راسه قائلا :

— اى ، اى ، اى . يبدو انهم قتلوه بلا سبب وجيه . ان هؤلاء النسوة يشعلن النار فى صدر مَنْ تشاء . انهن اشد ضراوة من الرجال . لا احد يصدق بما حصل لهن خلال هذه السنوات الاربع . عدنا من الحرب فرايناهن قد تغيرن تماما . الآن لا تكاد تمسهن بسوط حتى تود ان تنجو بنفسك . الفراخ انقلبن ديكة . . .

من الوهلة الاولى يبدو غير مفهوم السبب الذى جعل القائد الاعلى الكسييف والقائد الاعلى لافر كورنيلوف «منظمى خلاص روسيا» يقودان حفنة من الضباط وطلاب المدارس العسكرية — خمسة آلاف شخص — مع مدفعية بائسة ، وبلا قذائف ولا ذخيرة ، ويسيران بهم جنوبا الى يكاترينودار ، فى قلب القوات البلشفية التى طوقت عاصمة قوازق كوبان بنصف دائرة .

كان من المتعذر ان يجد المرء فى ذلك خطة استراتيجية محكمة . فقد خرج جيش المتطوعين من روستوف اضطرارا ، اذ لم يستطع الدفاع عنها . واجتاحته عاصفة الثورة فى سهوب

كوبان . ولكن كان ثمة خطة سياسية برهن عليها الشهران اللذان اعقباها . فقد كان لا بد من أن يثور القوزاق الاغنياء على الاغراب الذين جاءوا من المناطق الأخرى ، اى على جميع السكان الجدد الذين يعيشون عن طريق استئجار اراضى القوزاق ولا يتمتعون باية حقوق أو امتيازات . وكان فى كوبان مليون وستمائة الف غريب مقابل مليون واربعمائة الف من القوزاق .

كان لا بد أن يسعى الغرباء الى الاستحواذ على الارض والسلطة ، وأن يشهر القوزاق السلاح للمحافظة على امتيازاتهم . كان الاغراب تحت قيادة البلاشفة وكان القوزاق فى بادئ الأمر غير راغبين فى ان يخضعوا لاية سلطة . فما من شيء أفضل من ان يكون اصحاب اطيان فى قراهم ! ولكن حدث فى شباط ان اقتحم المغامر القوزاقى غولوبوف ومعه سبعة وعشرون قوزاقيا اجتماعا لهيئة اركان الميدان التابعة للاتمان نازاروف فى نوفوتشيركاسك ، وصاح بالمجتمعين هازا مسدسه ، بينما سدد قوزاقه بنادقهم اليهم : «انهضوا ، ايها الاوغاد ، فقد جاء الاتمان السوفييتى غولوبوف ليتولى السلطة !» . وبالفعل قام اليوم التالى بقتل نازاروف وهيئة اركانه رميا بالرصاص فى حرش خارج المدينة ، (ولكى ياخذ بيده صولجان الاتمان) قام أيضا بقتل قرابة الفى ضباط قوزاقى ، واندفع فى السهب ، وقبض على ميتروفان بوغايفسكى ، واخذ يتردد به على الاجتماعات داعيا الى ان تكون منطقة الدون حرة ، والى مبايعته على الاتمانية ، وانتهى ذلك الى ان يُقتل هو نفسه فى اجتماع فى قرية زابلافسكايا القوزاقية ، وباختصار وجد القوزاق انفسهم فى شباط بلا رئيس ، وفضلا عن ذلك كانت روسيا الجزعة ، الجائعة ، الهائجة تضغط عليهم من الشمال .

كانت الخطة الأولية لقيادة جيش المتطوعين الذى جرد لما سمى فيما بعد بـ«الحملة الجليدية» تستهدف رئاسة القوزاق بعد الاستقرار فى يكاترينودار ، وتجنيد قوات قوزاقية نظامية ، وقطع القفقاس وحقول النفط فى غروزنى وباكو عن روسيا البلشفية ، وتاكيد الولاء للحلفاء .

كان البحار سيميون كراسيلنيكوف (اخو الكسى

كراسيلنيكوف) يرقد مع آخرين فى حقل محروث عند حافة منخفض غير بعيد عن سدة السكة الحديدية . وعلى مقربة منه كان احد الجنود يحفر الارض بالرفش عجولا كالخلد . وحين تخندق فى الحفرة القى بندقيته امامه ، والتفت الى سيميون قائلا :

— تعمق فى الأرض اكثر ، يا اخ .

حفر سيميون كتل الأرض اللزجة من تحته بصعوبة . وكان الرصاص يئز فوقه . رن الرفش عند ارتطامه بآجرة . شتم سيميون ، ونهض على ركبتيه ، واذا به يفاجأ بصدمة حارة تصيب صدره . ويشهق بالدم وانكفأ على وجهه فى الحفرة التى حفرها .

كانت تلك احدى المعارك القصيرة العديدة التى كانت تسد الطريق أمام جيش المتطوعين . كانت القوات الحمراء كبيرة العدد ، كما هى دائما . ولكنها كانت قادرة على القتال مثلما كانت قادرة على التراجع دون فاجعة كبيرة ، لأن النصر فى الفترة الاولى من الحرب لم يكن الزاما لها . وكانوا رجال الفصائل الحمراء يفسرون تراجعهم اما بعدم صلاحية الموقع ، او بالمقاومة العنيدة لجيش المتطوعين . ولكن هذا لا يهمهم كثيرا فانهم سيوفقون فى المرة القادمة .وهكذا جعلوا كورنيلوف يمر .

اما بالنسبة لجيش المتطوعين فقد كانت كل معركة مراهنة على الموت او الحياة . فقد كان عليه ان ينتصر ، ويتحرك مع طوابير عرباته وجرحاه فى مسيرته ليوم واحد . ولم يكن ثمة مجال للتراجع . ولهذا كان رجال كورنيلوف يضعون فى كل معركة كل ما لهم من قوة مستميتة ، وينتصرون . وهذا ما حصل فى هذه المرة ايضا .

كان كورنيلوف يقف منفرج الساقين على كومة قش متبقية من العام الماضى على بعد نصف فرسخ من صفوف القابعين تحت نيران الرشاشات . رفع مرفقيه ، ونظر فى منظار الميدان . كان كيس الجنفاص يهتز وراء ظهره . وقد فك ازرار معطفه القرائى الأسود المؤطر بالرمادى من الداخل . كان يشعر بالحر . وكان حنكه المغطى بشعر اشيب يبرز عنودا من تحت المنظار .

كان الملازم الاول دولينسكى مرافق القائد يقف فى الاسفل مضغوطا على كومة القش . كان شابا واسع العينين اسود الحاجبين فى معطفه من معاطف الضباط ، وطاقية مدعوكة . كان يرنو من الأسفل الى حنك القائد الأشيب على طريقة الفتوة مبتلعا الغصة التى تعترض حنجرته من القلق ، وكانما تجمع كل الأمل فى النجاة فى هذا الشعر الأشيب العزيز والانسانى كليا .

وكان دولينسكى يردد :

— انزل ، يا صاحب السيادة ، اتضرع اليك ان تنزل . فقد يقتلونك .

ورأى شفتى كورنيلوف الليلكيتين تتباعدان وفمه ينفرج عن تكشيرة عصبية . معنى ذلك ان الأمور سيئة . كف دولينسكى عن النظر الى الجهة التى كان فيها البلاشفة بصفوفهم الكثيفة ينهضون فوق السهب الاخضر البنى ويتنقلون كالدمى السوداء . كانت قنابل الشرابنيل تفور هناك محدثة ازيزا ممطوطا . ولكن كان يعرف جيدا ان القنابل قليلة ، قليلة للغاية ... وكان مدفع الحمر من عيار ست بوصات يدوى وراء الجسر المحطم بدمدمة حادة ... وتلعلع رشاشة عجلى . وكان الرصاص يئز كالنحل من مكان قريب فوق راس القائد .

— يا صاحب السيادة ، اخشى ان تصاب ...

انزل كورنيلوف المنظار . وانكمش وجهه المغولى الاسمر ذو العينين السوداوين الشبيهتين بعينى قنبرة ، وظهرت عليه الغضون ، ودار فى مكانه على القش ، واستدار الى الخلف ، وانحنى بجذعه على حرسه الخاص ، وهم رهط من التركمانيين المترجلين النحاف المعكوفى الارجل كانوا يقفون وراء كومة القش بقبعاتهم الضخمة المستديرة المصنوعة من فراء الغنم ، وسترهم القفقاسية المخططة بلون السلمون ، جامدين كالاصنام وهم يمسكون بمقاود خيول ضاوية .

اشار كورنيلوف بذراعه نحو المنخفض ، واصدر امره بصوت حاد نابح . وثب التركمانيون الى خيولهم كالقطط . زعق احدهم بلغته مخرجا صوته من اقصى الحلق ، فاستل الجميع سيوفهم المعكوفة وانطلقوا فى خبب ثم فى عدو سريع عبر السهب

متجهين الى المنخفض ، حيث كان يلوح حقل محروث يتراءى وراءه شريط سدة الخط الحديدى .

والآن كان سيميون كراسيلنيكوف يرقد على جنبه ، اذ كان ذلك اخف عليه . قبل ساعة من الزمن كان قويا محتدما ، اما الآن فهو يئن أنينا واهنا متواصلا يبصق الدم بعسر . كان رفاقه يطلقون النار عن يمينه وشماله كيفما اتفق . وكانت ابصارهم متجهة مثله الى المنحدر البنى على ذلك الجانب من المنخفض ، حيث كان نحو خمسين فارسا ينطلقون كالسيل العرم . وكان ذلك هجوم احتياط الخيالة .

عدا شخص من وراء كراسيلنيكوف ، وسقط على ركبتيه بالقرب منه ، وراح يصرخ باعلى صوته ملوحا بمسدسه . كان الرجل يرتدى سترة جلدية سوداء . انتشر الخيالة فى المنخفض ، ومضى هو يصرخ بلهجة غير عسكرية ، ولكنها على قدر هائل من الاصرار :

– اياكم ان تتراجعوا ، اياكم ان تتراجعوا !

وها هى قد ظهرت على هذا الجانب من المنخفض قبعات هائلة ، وانبعث عويل ممدود مثل عويل الريح ، انهم التركمانيون ينقضون . كانوا ينحنون على اعراف خيولهم بسترهم المخططة ، وينطلقون عبر الحقل المحروث اللزق ، حيث الثلج المتسخ ما يزال متبقيا فى الاخاديد . تطايرت كتل الطين من تحت سنابك الخيول . وصدرت صيحات ممطوطة رهيبة من وجوه التركمانيين الصغيرة الملوحة المكشرة المشوربة تحت قبعات فرائية عالية . وبان لمعان سيوفهم المعكوفة لمعان الماء . آه ، لن يصمد فتياتنا امام هجوم الخيالة ! ذوو المعاطف الرمادية ينهضون من الحقل المحروث . ويطلقون النار ، ويتراجعون . ثارت ثائرة المفوض ذو السترة الجلدية ، فاقتحم وضرب شخصا على ظهره :

– الى الامام ، بالحراب !

ويشاهد كراسيلنيكوف رجلا من ذوى الستر المخططة ينقلب من فوق جواده ، كالمتظاهر ، وينظر الجواد مذعورا ، وينطلق هاربا . ويصدر من الصفوف صوت ارتطام حديد بحديد ، وكرات من دخان ، ثار صفراء متولدة من انفجار قنبلة شرابنيل . تخبط

الجندى قاسكا الفكه ذو المعطف الفضفاض ، والقى بندقيته ، وغاض الدم منه ، وفغر فمه ، وهو ينظر الى الموت المتقحم . ظلوا يقتربون ، ويكبرون مع خيولهم . فى مقدمتهم رجل يكاد حصانه يمس الأرض ، وقد دلى بوزه كالكلب . رفع التركمانى هامته ، ووقف على ركابه ، وقد تطايرت اذيال ردائه .

– وغد !

قال كراسيلنيكوف ، ومد يده ليتناول بندقيته وتمتم :

– آه ، مفوضنا هالك .

اذ رأى التركمانى ينطلق بحصانه نحو ذى السترة الجلدية :

– اطلق النار ، اللعنة !

ولم ير كراسيلنيكوف الا السيف المعكوف ينفذ فى السترة الجلدية . . . وما هى الا لحظة حتى اقتحم سيل الخيالة على الصف . وانتشرت رائحة عرق الخيول الحار .

قطع التركمانيون الصف ، والتفوا على جناحيه ، ومن المنخفض طلع الى الحقل المحروث الضباط بمعاطفهم السوداء والرمادية الفاتحة اللون وهم يتعثرون والكتافيات تلتمع على اكتافهم .

– هورررا !

واقترب القتال من سدة الخط الحديدى . وظل كراسيلنيكوف وقتا طويلا لا يسمع غير أنين المفوض المطعون بالسيف . وكانت طلقات النار تتضاءل . وصمتت المدافع . اغمض كراسيلنيكوف عينيه ، وكان يحس طنينا فى رأسه ، ووجعا فى صدره . عزت عليه نفسه ، ولم يرد ان يموت . استرخى جسمه المثقل على الارض . تذكر باشفاق زوجته ماتريونا . انها ستضيع فى الدنيا وحيدة . كانت تنتظره بشوق ، وتكتب اليه فى تاغانروغ بان يعود . ود لو تراه ماتريونا الآن ، وتضمد له جرحه ، وتجلب له ما يشربه . ولطيف ان يكون ذلك ماء . . . وأنينا خاثرا . . .

سمع كراسيلنيكوف سبابا مقذعا ، واصواتا ليست باصوات جماعته ، بل اصوات السادة فتح عينيه . فرأى اربعة قادمين . واحد فى سترة جركسية رمادية ، واثنان فى معطفين من معاطف الضباط ، والرابع فى معطف طالب عليه كتافيتان من كتافيات

ضباط الصف . كانوا يتأبطون بنادقهم كما يفعل الصيادون . قال احدهم :

– انظر . هذا بحار . اقض عليه ، الوغد .

– انه قد فطس . . . اما ذاك فهو حي .

وتوقفوا ناظرين الى فاسكا الفكه وهو راقـــد على الأرض . وفجأة زعق ذو السترة الجركسية بصوت ضار :

– انهض !

ورفس فاسكا .

ورأى كراسيلنيكوف فاسكا ينهض ، وقد غطى الدم نصف وجهه . صـاح ذو السترة الجركسية موجها ضربـة قصيرة الى اسنانه :

– انهض ، باستعداد !

وفي الحال اعد الاربعة بنادقهم . فصاح فاسكا بصوت باك :

– ابق على حياتي ، يا عم .

قفز ذو السترة الجركسية مرتدا عنه ، وطعنه بالحربـة في بطنه مستنشقا الهواء بحدة . ثم استدار ومضى في سبيلـه ، وانحنى الآخرون على فاسكا ونزعوا عنه حذاءه الطويل .

بعد ان قتل المتطوعون اسراهم ، واضرموا النار في ادارة القرية عظة للآخرين ، تابعوا سيرهم نحو الجنوب ، التقط القوزاق سيميون كراسيلنيكوف من الحقل المحـروث . وحين غيب خط الافق المسطح فوق السهب البادى الاخضرار عربـات المتطوعين عادوا مع زوجاتهم واطفالهم وماشيتهم الى قريتهم .

كان سيميون يخاف ان يموت بين الغرباء . كانت لديـه بعض النقود ، فطلب من احد الاشخاص ان يوصله في عربته الى روستوف . ومن هذه المدينة كتب الى اخيه ينبؤه بانه مجروح في صدره جرحا بليغا ، وانه يخاف ان تؤاتيه المنيـة بين الغرباء ، كما ابلغه عن رغبته في ان يرى ماتريونا . وبعث رسالته هذه مع احد ابناء قريته .

كان سيميون حتى عام ١٩١٨ يخدم في اسطول البحر الأسود بحارا على ظهر المدمرة «كيرتش» .

وكان هذا الاسطول تحت قيادة الاميرال كولتشاك . ان هذا

الرجل ، رغم ذكائه وثقافته ، وما خلته حبا نزيها لروسيا لم يفهم شيئا مما كان يحدث ، وما كان ينبغي ان يحدث . كان يعـرف تكوينات واسلحة جميع اساطيل العالم ، ويستطيع دون خطأ ان يحدس هوية اية سفينة حربية من خلال ضباب البحر ، وكـان احسن خبير في الالغام ، واحد المبادرين في رفع قـدرة الاسطول الروسي بعد كارثة تسوسيما . ولكن لو ان احدا من الناس فتح معه حديثا (حتى عام ١٩١٧) في السياسة اجاب بان السياسـة لا تهمه ، وانه لا يفهم شيئا فيها ، وانه يعتقد بان السياسة مـن شأن الطلبة ، وطالبات الصفوف النسائية العليا من ذوات الهندام المهمل واليهود .

كانت روسيا ، كما يتصورها ، بوارج تسحب وراءها شريطا من الدخان (منها ما هو موجود ومنها ما يفترض ان يكون) ، وعلم القديس اندري يرفرف بعزة على بارجة الاميرال حاملة العلم باثا الذعر في المانيا . وكان يحب مدخل وزارة الحربية الصارم الرصين (على طراز الامبراطورية العظمى) بحاجبه المألوف له (الذى كان يقول كلما ساعده لخلـع معطفه : «الطقس سيء» ، يـا الكسندر فاسيليفيتش») ، مثلما كان يحب زملاءه الانيقين المهذبين ، والجو الودى المغلق لنادى الضباط . وكان الامبراطور رأس هذا النظام ، وهذه التقاليد .

وكان كولتشاك دون شك يحب روسيا اخرى ، روسيا التي كـانت تصطف على سطوح البواخر – البحارة بطاقياتهم ذات الاشرطة ، روسيا العريضة الوجه ، الملوحة البشرة ، المفتولة العضل ، روسيا التي كانت ترتل صلاة المساء باصوات رائعة ، عند انزال العلم في الغسق ، روسيا التي كـانت تموت «بنكران ذات» حين تؤمر بذلك . والمرء يمكن ان يفخر بها .

في عام ١٩١٧ اقسم كولتشاك يمين الولاء للحكومة المؤقتة دون تردد ، وصار يقود اسطول البحر الاسود . وقد تحمل سقوط رأس الامبراطورية بمرارة لاذعة ، كشيء لا محيص عنه ، وقبل ، على مضض ، بلجان البحارة ، والنظام الثوري ، كـل ذلك لأن الاسطول وروسيا كانا في حالة حرب مع الالمان . انه سيمضي في الحرب حتى لـو بقي له زورق الغام واحد . وكـان يحضر في

سيباستوبول اجتماعات البحارة ، ويقول فى الـــرد على الخطب المتحدية التى كان يلقيها الخطباء العمال من الوافدين والمحليون انه شخصيا ليس بحاجة الى مضيق الدردنيل او البوسفور لأنه لا يملك ارضا ولا معامل ، ولا شىء له يصدره من روسيا ، ولكنـــه يطالب بالحرب ثم الحرب ثم الحرب ليس كاجير للبرجوازيـــة (وهنا كانت تكشيرة الازدراء تشوه وجهه الحليق بحنكه القوى ، وفمه المرتخى ، وعينيه الغائرتين) – «ولكننى اقـــول ذلك كوطنى روسى» .

وكان البحارة يضحكون . انه لشىء مريع . ان هؤلاء المخلصين الذين كانوا بالأمس فقط مستعدين لأن يتقحموا النار والماء فى سبيل الوطن وعلم القديس اندرى كانوا يصرخون باميرالهـــم : «ليسقط ماجورو الامبريالية !» وكان كولتشاك ينطـــــق بكلمتى «وطنى روسى» بعنفوان وبايماءة صريحة مستعدا بنفسه فى تلك اللحظـة لأن يموت بتكـــران ذات ، بينما كان البحارة – وقد اغراهـــم الشيطان – يستمعون الى الاميرال وكانهم يستمعون الى عدو يحاول ان يخدعهم بخبث .

وسمـــع سيميون كراسيلنيكوف فى الاجتماعات بـــأن «الوطنيين» ليسوا هم الذين يريدون استمرار الحرب ، بل اصحاب المصانع والملاكون الكبار الذين يبتزون من ورائها اموالا طائلة ، وان الشعب ليس بحاجة الى هذه الحرب . وكان يقال ان الالمان هم مثلنا عمال وفلاحون ، وانهم يقاتلون لأنهم مخدوعون مـــن قبل برجوازيتهم المتعطشة للدماء ومن قبل المناشفة . وكـــان البحارة فى الاجتماعات ممتلئين بالكراهية الشديـــدة . وارتفعت الاصوات : كانوا يخدعون الشعب الروسى منذ الف عام ! الف عام وهم يمتصون دماءنا ! هؤلاء الملاكون والبرجوازيون ، الاوغاد !» وقد انفتحت العيـــون . بسبب ذلك عشنا اسوأ من عيشـــة السائمة ... هذا هو العدو ! ... وبالرغم من أن سيميون كان يحن الى استثمارته المهملة ، وزوجته الشابة ماتريونا فقد كان يشد على قبضته ، وهو يصغى الى الخطباء ، ويسكر ، كالجميع ، بخمر الثورة ، وينسى فى هذا السكر حنينه الى بيته ، والى زوجته الحسناء ماتريونا ...

وذات مرة قدم من بتروغراد داع بارز هو فاسيلى رويليف . وطرح هذا السؤال : «هل ستظلون ايهـا الاخوان ، حمقى الى ابد الآبدين ، تثـــرثرون فى الاجتماعات ؟ لقـــد باعكم كيرينسكى الى الراسماليين منذ زمن طويل . سيمهلونكم فترة أخرى تتبجحون فيها ، ومن بعدها يقطع اعداء الثورة رؤوسكم كلها . فالقوا عنكم كولتشاك قبل ان يفوت الوقت ، وخذوا الاسطول بايديكم ، ايدى العمال والفلاحين ...»

وفى اليوم التـــالى ارسلت برقية لاسلكية من على ظهـــر بارجة : انزعوا اسلحة جميع الضباط . اطلق بعض الضباط النار على انفسهم وسلم الآخرون اسلحتهم . وامـــر كولتشاك من على بارجة الاميرال «القديس غيورغى القاهر» بأن يخرج الطاقم كلـه الى ظهر البارجة . ذهب البحارة الى فسحة الاصطفاف متضاحكين ، وقف اميرالبحر كولتشاك على جسر القيادة بكامل بزته الاستعراضية ، وصاح بصوت حاد عالى النبرة :

– ايها البحارة . وقع بلاء لا يمكن دفعه : ان اعداء الشعب ، عملاء الالمان السريين نزعوا اسلحة الضباط . وأى أحمق يمكـن ان يتحدث جادا عن مؤامرة للضباط معادية للثورة ! وعلى العموم يجب القول انه لا توجد معاداة للثورة ، وليس لها وجود اصلا .

وهنا اخذ الاميرال يذرع الجسر مقعقعا بسيفه واخذ ينفس عما فى صدره :

– ان كل ما حدث اعتبره اهانة لشخصى بالدرجة الأولى ، باعتبارى كبير الضباط ، وبالطبع لا يمكننى بعد هذا ولا ارغب فى قيادة الاسطول ، وسابرق فى هذه اللحظة الى الحكومة ابلغها بترك الاسطول ، والرحيل . يكفى هذا ! ..

ورأى سيميون الاميرال يمسك سيفه الـــذهبى ، ويضغط عليه بكلتا يديه ، واخذ يفكه من حزامه ، تعصى السيف عليـــه فراح يجذبه ، بل ان شفتيه ازرقتا .

– ان كل ضابط شريف يجب ان يتصرف تصرفى هذا لوكان فى مكانى ! ..

ورفع السيف ، والقاه فى البحر . ولكن حتى هـــذه الاشارة التاريخية لم تترك اى اثر فى البحارة .

ومنذ ذلك الحين حدثت فى الاسطول احداث عنيفة . اشار البارومتر الى قرب هبوب عاصفة . وكان البحارة الذين تربطهم حياة البحر برباط قوى ، الرجال الاشداء الجسورون الخفاف الحركة ، الذين راوا المحيطات واراضى غريبة ، والذين هم اكثر تطورا من الجنود الاعتياديين ، واكثر احساسا بالحاجز الذى لا يمكن اجتيازه القائم بين مقصورة الضباط ، وعنابر البحارة ، لقد كان هؤلاء البحارة مادة سريعة الاشتعال . وقد اسرعت الثورة فى الاستفادة منهم منذ البداية . ودخل البحارة معمعان النضال بكل ما لهم من حماس لا ينضب واضرموا بانفسهم قوى العدو الذى كان مترددا لم يستقر بعد على قرار ، مترقبا ، محتشدا ، ليستجمع قواه .

ولم يعد لسيميون الوقت ليفكر فى البيت ، وفى الزوجة . فى اكتوبر انتهت الكلمات الجميلة ، وبدات البندقية تقول كلمتها . وكان العدو فى كل خطوة ، والموت يكمن مترصدا فى كل نظرة خائفة وحاقدة ومتكتمة . وكانت روسيا من بحر البلطيق حتى المحيط الهادى ، ومن البحر الابيض حتى البحر الأسود فى غليان كدر خانق . القى سيميون بندقيته على كتفه ، وخرج ليحارب «افعوان الثورة المضادة» .

شق روتشين وكاتيا طريقهما فى محطة القطار من خلال الزحام يحملان صرة وابريق شاى ، واجتازا مع السيل البشرى نقاط الحراسة الشاهرة الحراب ، وصعدا فى الشارع الرئيسى فى روستوف .

قبل شهر ونصف فقط كانت صفوة المجتمع البطرسبورغى تتجول هنا متنقلة من مخزن الى مخزن ، وكانت الارصفة تزدهى بالوان طاقيات الجرس ، والمهمازات تصلصل ، واللغة الفرنسية تسمع هنا وهناك ، والسيدات الانيقات يخفين انوفهن من القر فى الفراء الثمين . كان من طيشهن المفرط يتوقعن تمضية الشتاء هنا فقط ليعدن فى مستهل الصيف الى شققهن وداراتهن فى بطرسبورغ ، حيث الحجاب الرصينون والصالات ذوات العمد ، والابسطة والمواقد الملتهبة . آه ، بطرسبورغ ! لا بد ان يمر كل شىء

بسلام فى آخر المطاف . والسيدات الانيقات لسن ملومات فى شىء على الاطلاق .

واذا بكل شىء قد اختفى ، وكان مخرج مسرح الكبير صفق بيديه ليدير المنظر فى مسرح دائرى . وتغير الديكور . اقفرت شوارع روستوف ، وسمرت ابواب الحوانيت بالالواح ، هشم الرصاص زجاج واجهاتها . واخفت السيدات فراءهن ، وشددن رؤوسهن بالمناديل . هرب جزء صغير من الضباط مع كورنيلوف ، وتحول الآخرون بسرعة مسرحية الى برجوازيين صغار وادعين ، والى ممثلين ، ومغنين فى المقاصف ، ومعلمى رقص ، الى غير ذلك . كانت ريح شباط تدفع دوامات من القاذورات على الارصفة ...

قال روتشين :

– نعم ، تاخرنا .

كان يسير مطرق الراس . كان يخيل اليه أن جسد روسيا يتحطم الى آلاف القطع . فان العقد الوحيد الذى كان يغطى الامبراطورية قد انهار مزقا . ويصبح الشعب كالقطيع . ويختفى التاريخ ، والماضى المجيد ، مثل الاغشية الضبابية الموضوعة على ديكور . ويتكشف خواء اجرد محروق .. قبور ، وقبور ... تلك نهاية روسيا . كان يحس بان شيئا فى داخله كان يعتبره راسخا ومحورا لحياته ، قد تهشم الى كسر واخزة ... كان يسير متاخرا خطوة واحدة وراء كاتيا ، متعثرا اثناء سيره . «روستوف سقطت ، وسيقضى على جيش كورنيلوف آخر قطعة متجولة من روسيا ، ان لم يكن اليوم فغدا .. وعندئذ لم تبق الا ان اوجه رصاصة الى صدغى» .

سار الزوجان على غير هدى . تذكر روتشين عناوين بعض رفاقه فى الفرقة ، ولكن لعلهم هربوا او قتلوا رميا بالرصاص ؟ عندئذ لا مفر من الموت على قارعة الطريق . نظر الى كاتيا . كانت تسير هادئة متواضعة فى سترتها القصيرة من الصوف السميك ، ولفاحها الوبر . كان وجهها الحلو ذو العينين الرماديتين الواسعتين يتلفت بنقاء سريرة متحولا من اللافتات المخلوعة الى الواجهات المسدودة . وعلى طرف ثغرها شبح ابتسامة . «الا تفهم كل هذه الفظاعة ؟ ما هذه السماحة والغفران ؟»

كان رهط من الجنود العزل يقفون فى ركن الشارع . كان احدهم ، وهو رجل مجدر الوجه ذو عين منتفخة من تجمع الدم حولها ، يتأبط رغيف خبز رمادى اللون كان بين الحين والآخر يقتطع منه قطعة بحركة والية ، ويمضغها ببطء . قال له احد الجنود :

— لا يستطيع احد ان يفهم الوضع هنا . لمن السلطة ؟ للسوفييتات ام لغيرها ؟

وكان مع الجندى المتكلم صندوق خشبى ربط اليه حذاء لبادى مستهلك . فأجابه ماضغ الخبز :

— السلطة بيد الرفيق بروبنيتسكى . فاذهب للبحث عنه . سيعطينا قطارا نرحل عليه . والا فسنقضى العمر كله متعفنين فى روستوف .

— من هو هذا ؟ ما هى رتبته ؟

— مفوض عسكرى ، على ما يبدو . . .

اقترب روتشين من الجنود ، وسأل عن احد العناوين . اجابه احدهم فى غير ما ود :

— لسنا من اهالى المدينة .

وقال آخر :

— لم تصل الى الدون فى الوقت المناسب ، ايها الضابط .

اسرعت كاتيا فى جذب زوجها من كمه ، فعبرا الشارع الى الرصيف المقابل . كان شيخ فى معطف مهلهل وقبعة قشية يجلس هناك على مسطبة تحت شجرة جرداء . وكان الشيخ يرتعش وهو يضع ذقنه غير الحليق على عجرة عصاه ، وكانت قطرات من الدمع تسيل من عينيه المغمضتين على خديه الغائرين .

سرت رجفة فى وجه كاتيا . عندئذ جذب روتشين كمها قائلا :

— لنذهب ، لنذهب . لن تستطيعى ان ترثى لكل الناس . . .

وظلا يضربان طويلا فى المدينة القذرة الرثة حتى عثرا على رقم البيت الذى ينشدانه . دخلا فرأيا رجلا قصير القامة متين الرجلين له رأس اجرد كالبيضة . كان يرتدى صدارا مبطنا بلا كمين من صدارات الجنود قد غطاه القذر كليا . وكان يحمل قدرا ادار عنه

وجهه لنتانته . كان ذلك هو تيتكين المقدم فى الفوج الذى كان يخدم فيه روتشين . وضع القدر على الأرض ، وتعانق مع فاديم بتروفيتش ، وصفق كعبيه ، وصافح كاتيا .

— ارى ، ارى ، ولا حاجة للكلام . ساجد لكما مكانا . فقط ان تسكنا فى غرفة واحدة صغيرة . ولكن مقابل ذلك هناك مرآة ذات ثلاثة اوجه ، ودريقة . وزوجتى من هذه المنطقة . . . فى البداية عشنا هناك (واشار الى بيت اجرى من طابقين) ثم انتقلنا الى هنا (واشار الى ملحق خشبى متداع) لنعيش حياة بروليتارية . وانا ، كما ترى ، اغلى صبغ الأحذية . وقد سجلت اسمى فى بورصة العمل كعاطل . . . واذا لم يش الجيران بنا فسنتحمل على نحو ما . . . نحن روس ، ونستطيع التعود .

وضحك كاشفا عن اسنان رائعة فى فمه الكبير ، ثم قال بتفكير : «اجل ، تلك حالة الأمور» ومسح صلعته براحة كفه ملطخا اياها بصبغ الاحذية .

ورحبت زوجته بالضيفين بصوت رخيم ، وكانت قصيرة مثله ركينة البنيان ، الا ان عينيها العسليتين نمتا عن شىء من عدم الارتياح . انزل روتشين وكاتيا فى حجرة صغيرة واطئة تسلخ ورق حيطانها . وكان فيها ، بالفعل ، مرآة ذات ثلاثة اوجه فى حالة سيئة ادير وجهها الى الحائط عند احد الاركان ، ودريقة ، وسرير حديدى . قال تيتكين :

— ادرنا وجه المرآة الى الحائط محافظة عليها . فانها شىء ثمين . فقد يأتون للتفتيش فتتحول الى حطام . فانهم لا يتحملون النظر الى وجوههم — وضحك ثانية ، ومسح على صلعته — وعلى اية حال انا افهمهم بعض الشىء : التحطيم يجرى على نطاق البلاد كلها ، فاذا وجدوا امامهم مرآة ، حطموها . . .

واعدت زوجته المائدة بنظافة ، الا ان الشوكات كانت صدئة ، والصحون غير سليمة . والظاهر انهما قد اخفيا ما لهما من متاع عزيز . اكل روتشين وكاتيا بلذة شديدة السمك المدخن والخبز الأبيض والبيض المقلى مع شرائح دهن الخنزير . وانشغل تيتكين واضعا الطعام فى صحنيهما . بينما طوت زوجته ذراعيها السميكتين تحت نهديها ، وراحت تشكو من الحياة :

– البشاعة فى كل مكان ، والقمع . انه باختصار تعذيب . انا منذ اكثر من شهر لا اخرج من الفناء . . . ليتهم يطردون هؤلاء البلاشفة فى اقرب وقت . . . ماذا يقولون عن الوضع عندكم فى العاصمة ؟ هل سيبيدونهم قريبا ؟

قال تيتكين مرتبكا :

– امسكى لسانك . انك على مثل هذه الكلمات تفقدين رأسك فى مثل هذه الايام ، يا صوفيا ايفانوفنا .

– لن اسكت . فليقتلونى !

وتدورت عينا صوفيا ايفانوفنا ، وشدت ذراعيها على تحت نهديها بقوة . وقالت :

– سيعود القيصر الينا (وهزت نهديها لزوجها) انت وحدك لا تبصر شيئا . . .

تعبس تيتكين باعتذار . وحين خرجت زوجته من الحجـــرة متضايقة تحدث همسا :

– لا تلقيا بالا اليها . انها انسانة طيبة القلب ، وربة بيت فاخرة ، الا ان الاحداث افقدتها توازنها . . . (ونظر فى وجه كاتيا الذى احمر من الشاى ، والى روتشين الذى كان يلف سيكارة) آه ، يا فاديم بتروفيتش ، ليس ذلك بالأمر الهين . . . لا يجوز النظر فى الاحداث دون تمحيص ولا دراية . . . يصادف ان التقى باناس وارى الكثير . . . اذهب غالبا الى بتايسك ، على الضفة الاخرى من الدون . وغالبية السكان هناك من فقراء الفلاحين والعمـــال . . . فاى قطاع طرق هم ، يا فاديم بتروفيتش ؟ لا ، بل هم اناس مذلون ومهانون . . . وما اشد انتظارهم للسلطة السوفييتية ! فقط الا تعتبرنى بلشفيا ، بحق الرب (ووضع على صدره يدين قصيرتين مشعرتين متضرعا ، وكأنه يعتذر اعتذارا شديـــدا) ان الحكام المتكبرين القصار العقول هم الذين اعطوا روستوف للسلطـــة السوفييتية . . . ليتك تعرف ماذا حدث عندنـــا ايام الاتمان كاليدين . . . كان ضباط الحرس الفاجرون المتغطرسون يذرعون شارع سادوفايا بصفوف زاهية قائلين : «سنعيد اولئك الاوغاد الى السراديب» . واولئك الاوغاد هم كل الشعب الروسى . . . انه يقاوم ولا يريد ان يعيش فى السرداب . فى كانون الأول كنت فى

نوفوتشيركاسك ، انت تذكر ان المحبس يقع فى الشارع الرئيسى ، وقد بناه الاتمان بلاتوف ، على ما يقال ، فى عهد الكسندر المبارك ، وهـــو مبنى صغير على النمط الامبراطورى . والآن حين اغمض عينى ، يا فاديم بتروفيتش اتخيل درجات ذلك الرواق المخضبة بالدم . . . عندما مررت به سمعت صراخا رهيبا ، كالصراخ الذى يطلقه انسان يعذب . . . وذلك فى وضح النهـــار ، وفى وسط عاصمة منطقة الدون . . . واقترب فارى بالقرب مـــن المحبس جمهورا وقوزاقا مترجلين . والجميع صامتون ينظرون الى جلد يجرى عند الأعمدة لتخويف الناس . كانوا يخرجون العمال المتعاطفين مع البلاشفة من المخفر اثنين اثنين ويجلدونهم . تصور ، لمجـــرد التعاطف . يثبتون أذرعهم على الأعمدة فى الحال ، ويبدأ اربعة من القوزاق الأقوياء بإلهاب ظهورهم واعجازهم بالسياط . فكان لا يسمع غير صفير السياط ، والقمصان والبناطيل تتطايـــر مزقا ، واللحم قطعا ، والدم يسح على الدرجات ، وكأنه دماء حيوانات ذبيحة . . . انا من الصعب ان أصدم ، ولكننى صدمت آنذاك : ترامت صيحة رهيبة جدا . . . لا يصرخ الناس مثلها لمجرد الم جسمانى . . .

كان روتشين يصغى منكس البصر ، واصابعـه الممسكـة بالسيكارة ترتجف . حك تيتكين باصبعه نقطة خردل لصقت على الخوان .

– وبالنتيجة فارق الاتمان الحياة ، وصفوة القوزاق الاعيان مدفونون فى المنخفض خارج المدينة : الدم المسفوح على الدرجات طلب الثار . سلطة الفقراء . . . انا شخصيـا لا يهمنى ان اغلى صبغ احذية او افعل شيئا آخر . . . لقد خرجت حيا من الحرب العالمية ، ولا اثمن غير شىء واحد هو نفس الحياة ، واعذرنى على هذا التشبيه . لقد قرات الكثير من الكتب وانـــا فى الخنادق ، وتشابيهى ادبية . اذن . . . (وهنا نظر فى الباب ، وخفض صوته) ساقتنع بكل نظام للحياة اذا رايت اناسا سعداء . . . ارجو أن تفهمنى ، يا فاديم بتروفيتش ، انا لست بلشفيا . . . (ووضع يديه على صدره مرة أخرى) . انا لا احتاج لنفسى الشىء الكثير : قطعة خبز ، قبضة تبغ ، وصحبة صميمية حقا . . . (وضحـــك

بارتباك) . لكن المسالة أن العمال متذمرون ، ودع عنك عامة الناس . . . هل سمعت بالمفوض العسكري الرفيق بروينيتسكي ؟ نصيحتي ان تختفي حين ترى سيارته منطلقة . صعد بعد الاستيلاء على روستوف مباشرة . ما ان يسمع كلمة اعتراض واحدة حتى يصيح : «الرفيق لينين يقدرني تقديرا عاليا ، وانا ابرق للرفيق لينين شخصيا . . .» وقد احاط نفسه بعناصر اجرامية . في كل مكان تجري المصادرة والرمي بالرصاص . وفي الليالي يسلبون في الشوارع ايا كان . انه يتصرف كقاطع طريق . . . فما هذا ؟ واين تذهب الاموال المصادرة ؟ . . ان اللجنة الثورية لا تستطيع ان تفعل شيئا معه . تخاف . . . لا اعتقد انه رجل مبدئي . . . انه يلحق الضرر بالقضية البروليتارية أكثر . . . (الا ان تيتكين ادار ظهره شاعرا بانه قد تمادى في الامر ونخر ، واخذ يضع يديه على صدره بلا كلمات هذه المرة) .

قال روتشين ببرود :

– انا لا افهمك ، ايها السيد المقدم . ان بروينيتسكي وامثاله هم السلطة السوفييتية الصرف . . . ولا يمكن تبرير اعمالهم ، بل مكافحتهم غير باخلين بالحياة . . .

اسرع تيتكين يسال :

– لاجل من ؟

– لاجل روسيا العظيمة ، ايها السيد المقدم .

– وما هي هذه ؟ اعذرني على طرح السؤال بهذه الصورة الحمقاء . روسيا العظيمة باي مفهوم ؟ اريد تعبير ادق . بمفهوم الطبقة العليا في بتروغراد ؟ هذا واحد . . . ام بمفهوم فوج المشاة الذي خدمنا ، انت وانا فيه ، والذي هلك ببطولة على الاسلاك الشائكة ؟ ام بمفهوم مؤتمر التجار في موسكو ؟هل تذكر كيف بكى ريابوشينسكي * على روسيا العظيمة في مسرح البلشوي ؟ وهذا ثالث مفهوم . ام بمفهوم العامل الذي يتفهم عظمة روسيا في الاعياد حين يكون في خمارة قذرة ؟ أم بمفهوم مائة مليون فلاح . . .

---

* من كبار اصحاب البنوك والمعامل الروس ومن زعماء الثورة المضادة البرجوازيين . – **المترجم** .

– اللعنة . . . (اسرعت كاتيا بالضغط على يد روتشين تحت المائدة) . اعذرني ، يا مقدم ، حتى الآن كنت اعرف ان روسيا هي ما تسمى بسدس الكرة الارضية ، ويسكنها شعب عاش تاريخا عظيما . . . ام لعل الأمر ليس كذلك حسب راى البلاشفة . . . ارجو المعذرة . . . (وابتسم ابتسامة مريرة من خلال الضيق المكبوت في صدره بصعوبة) .

– انه كذلك بالضبط . . . وانا فخور . . . انا شخصيا احس بالرضا حين اقرا تاريخ الدولة الروسية . الا ان المائة مليون فلاح لم يقراوا هذه الكتب ، ولا يحسون بالفخر . وهم يريدون ان يكون لهم تاريخهم الخاص المتجه الى الازمان المقبلة لا الازمان الغابرة . . . تاريخ الرخاء . . . ولا مفر من ذلك . ثم ان لهم قادة هم البروليتاريا ، وهؤلاء يتقدمون اكثر من ذلك ، انهم يتجراون على خلق ما يسمى بالتاريخ العالمي . . . ولا مفر من ذلك ايضا . . . انت تتهمني بالبلشفية ، يا فاديم بتروفيتش . . . وانا اتهم نفسي بالتفرج ، وتلك خطيئة باهظة ، ولكن عذري هو في التعب الشديد من حياة الخنادق ، وآمل ان اكون بمرور الوقت أكثر نشاطا ، عندئذ لا اظنني ساعترض على تهمتك هذه . . .

وباختصار انتفش تيتكين ، وقد تغطت صلعته المحمرة بقطرات العرق . كان روتشين يلبس معطفه بسرعة ولكنه لم يفلح في وضع ازراره في مواضعها الصحيحة . وتقلص وجه كاتيا من الحزن الشديد ، وهي لا تفتأ تنقل بصرها بين زوجها وتيتكين . وقال روتشين بعد صمت متوتر :

– متاسف لفقدي رفيقا . شكرا جزيلا على حسن الضيافة . . .

وخرج من الغرفة دون أن يمد يده للمصافحة . وفجاة قالت كاتيا التي كانت تلزم الصمت دائما ، قالت بصوت عال كالصراخ وهي شدت يديها :

– فاديم ، ارجو ان تنتظر . . . (التفت رافعا حاجبيه) فاديم ، لست الآن على حق . . . (وتوهجت وجنتاها) . لا يمكن ان يعيش الانسان بمثل هذا المزاج ، بمثل هذه الافكار . . .

قال روتشين مهددا :

– هكذا ، اذن ! ، تهاني . . .

– فاديم ، انت لم تسالنى عن رايى قط ، وانا لم اطالبك ، ولم اتدخل فى شؤونك . . . لقد وثقت بك . . . ولكن يجب ان تفهم ،يا عزيزى فاديم ، ان تفكيرك خاطئ . اردت ان اقول ذلك منذ زمان بعيد . . . يجب القيام بشىء آخر مختلف كليا . . . ليس الامر الذى جئت من اجله الى هنا . . . يجب ان تفهم أولا . . . وعندئذ فقط ، اذا كنت واثقا (وهنا انزلت ذراعيها وظلت تشدهما تحت المائدة من الانفعال الشديد) . . . واذا كنت واثقا من ان ضميرك يسمح لك ، فى هذه الحال اقتل . . .

– كاتيا ، – صرخ بها صرخة خانقة وكانها من ضربة وجهت اليه – ارجو ان تصمتى !

– لا ! . . انا اقول ذلك لاننى احبك حبا جنونيا . . . يجب الا تتحول الى قاتل . . يجب ، يجب . . .

ظل تيتكين يهمس وهو لا يجرؤ على ان يندفع اليها او اليه :

– اصدقائى ، اصدقائى . . دعونا نتكلم ، نتفق .

ولكن الاتفاق كان مستحيلا ، فان كل ما تجمع فى نفس روتشين خلال الاشهر الأخيرة قد انفجر بكره عارم . كان واقفا عند الباب مادا عنقه ونظر الى كاتيا ، مكشرا عن اسنانه ، وفح :

– امقتك ، الى الشيطان ! . مع حبك . . . ستجدين لنفسك سافلا . . . بلشفيا . . . الى الشيطان ! . .

وارسل من حنجرته نفس الصوت المؤلم الذى ارسله وهو فى عربة القطار ، وبدا وكانه موشك على اتيان اشياء فظيعة ، وان الجو مشحون بمصيبة . . . (حتى تحرك تيتكين ليحمى كاتيا) . الا ان روتشين قلص عينيه ببطء ، وخرج .

كان سيميون كراسيلنيكوف جالسا على سرير المستشفى يستمع بتجهم الى اخيه الكسى . وكانت المؤونة التى ارسلتها له ماتريونا – دهن خنزير ، ولحم دجاج ، وفطائر – مستقرة عند مؤخرة السرير . ولم يكن سيميون ينظر اليها . كان نحيفا ، ووجهه سقيما غير حليق ، وشعره ملتفا من طول الرقاد ، وساقاه نحيلتين

وهما فى السروال الداخلى من القماش الاصفر الرخيص . كان ينقل بيضة حمراء من يد الى يد . وكان اخوه الكسى الملوح البشرة الاشقر اللحية يجلس على مقعد بلا مسند ، فارجا ساقيه اللابستين حذائين جيدين ، وكان يقول بعذوبة ورقة ، ولكن قلب سيميون يستوحش لكل كلمة يقولها :

– الفلاحون لهم خطهم الخاص ، وللعمال خطهم الآخر . . . دخل العمال فى المنجم «غلوبوكويه» عندنا فامتلأ بالماء ، وتعطلت الآلات ، وتشتت المهندسون . بينما لا بد ان ياكل الانسان ، صحيح ام لا ؟ دخل العمال جميعا الى الحرس الأحمر . يعنى ان مصالحهم تقتضى تعميق الثورة . صحيح ام لا ؟ بينما الثورة بالنسبة لنا نحن الفلاحين هى حرث مقدار عشر بوصات عميقا فى التربة ، وتعميقنا لها يعنى الحرث والبذر والحصد . هل قولى صحيح ام لا ؟ اذا كنا نذهب جميعا لنحارب فمن سيعمل اذن ؟ النسوان ؟ نحمد الله اذا استطعن رعاية المواشى . بينما الارض تتطلب العناية والرعاية . ذلك هو الأمر ، يا اخى . فلنسافر الى ديارنا ، فانك ستتشافى اسهل على غذائنا . اصبحت لنا ارض الآن . بينما لا يوجد من يعمل فيها . لا احد يحرث ، ويبذر ، ويحصد . وكيف نستطيع ، ماتريونا وانا ، وحدنا ان نفعل ذلك كله ؟ عندنا الآن ثمانية عشر خنوصا ، وقد وضعت عينى على بقرة ثانية . وكل ذلك يحتاج الى ايد عاملة .

اخرج الكسى كيس التبغ من جيب معطفه العسكرى . فهز سيميون راسه ممتنعا عن التدخين : «ما يزال الصدر موجعا». اخذ الكسى يقلب المؤونة ، وهو ماض فى اقناع اخيه بالذهاب للعيش فى القرية ، وتناول فطيرة رقاقية منتفخة ، وتلمسها .

– كل هذه ، صرفت ماتريونا رطلا كاملا من السمنة .

قال سيميون :

– اسمع ، يا الكسى ايفانوفيتش ، انا لا اعرف بما اجيبك . ساذهب معك الى القرية بسرور ريثما يندمل الجرح . ولكن لن اعمل فى الأرض ، فلا تامل فى ذلك .

– طيب ، ايمكن ان اسال لماذا ؟

– لا اقدر ، يا اليوشا * (وتشنج فمه ، الا أنه تغلب على ذلك بجهد) . افهمنى ، لا اقدر . لن استطيع ان انسى جرحى . . . لن استطيع ان انسى جلدهم لرفقائى . . . (واشاح بوجهه نحو النافذة بمثل ذلك التشنج ونظر بعينين ضاريتين) . يجب ان تضع نفسك فى موضعى . . . لا استطيع ان افكر الا بهؤلاء الاوغاد . . . (وهمس بشىء ما ، ثم رفع صوته ضاغطا البيضة الحمراء فى قبضته) . لن اهدأ . . . ما دام هؤلاء الاوغاد يمتصون دماءنا . . . لن اهدأ ! . .

هز الكسى ايفانوفيتش راسه ، وبصق على عقب السيكارة بين اصبعيه ليطفئها ، وتلفت ليضعها فى مكان ما ، ثم القاها تحت السرير .

– حسنا ، يا سيميون ، قضيتك قضية نبيلة . . . لنسافر الى ديارنا لنتشاقى . ولن الزمك البيت بالقوة .

ما كاد الكسى كراسيلنيكوف يخرج من المستشفى حتى التقى بابن قريته ايغنات ، من جنود الجبهة . توقف الاثنان ، وتبادلا التحية ، واستفسر كل واحد عن احوال صاحبه . فقال ايغنات انه يعمل سائقا لدى اللجنة التنفيذية . ثم مضى يقول :

– لنذهب الى سينما «سوليل» ، ومنها الى بيتى لتبيت عندى . القتال دائر هناك اليوم . هل سمعت عن المفوض بروينيتسكى ؟ لا اعرف كيف يجد منفذا من الورطة اليوم . رجاله مستشرسون ، والمدينة كلها تعول من جراء تصرفاتهم . يوم أمس نهارا قتلوا صبيين من تلامذة المدرسة فى ذلك الركن لغير ما سبب . هجموا عليهما بالسيوف . وكنت واقفا هنا ، عند العمود ، فتقيأت . . .

ووصلا الى سينما «سوليل» وهما يتحدثان . كان الناس كثيرين . فشقا طريقهما ، ووقفا قرب موقع الاوركسترا . كان رجل نحيل شاحب جدا محدودب الظهر له شعر طويل كثيف أسود يسير بخطى قصيرة أمام منضدة هيئة الرئاسة على المسرح الصغير ،

* صيغة تدليل من الكسى . – المترجم .

وكانه يسير فى قفص ، وكانت هيئة الرئاسة تتالف من امرأة مدورة الوجه فى معطف للجنود ، وجندى كئيب السحنة ذى رأس مضمد بشاش قذر ، وعامل عجوز نحيل العود يرتدى نظارة وشابين فى قميصين من القمصان العسكرية . وكان الرجل الشاحب يتحدث ملوحا بقبضة واهنة وبحركة رتيبة ، بينما كانت يده الأخرى تقبض على قصاصات من الصحف .

همس إيغنات لكراسيلنيكوف :

– انه معلم وهو من اعضاء السوفييت عندنا . . .

– لا نستطيع ان نصمت . ولا يجب ان نصمت . . . أمن المعقول أن ما لدينا فى المدينة هى السلطة السوفييتية التى حاربتم فى سبيلها ؟ . . عندنا تعسف . . . استبداد اسوأ من الاستبداد القيصرى . . . انهم يقتحمون البيوت على السكان الآمنين . . . وعند هبوط الظلام يتعذر الخروج الى الشارع بسبب السلب والنهب . . . والاطفال يقتلون فى الشوارع . . . وقد تحدثت بذلك فى اللجنة التنفيذية ، وتحدثت فى اللجنة الثورية . . . ان اعضاءها عاجزون . . . فان المفوض العسكرى يتستر على كل هذه الجرائم بسلطته المطلقة . . . ايها الرفاق . . . (وضرب على صدره ضربة عصبية بحزمة القصاصات) . لماذا يقتلون الاطفال ؟ لتقتلونا . . . ولكن لماذا تقتلون الاطفال ؟ . .

وغطى على كلماته الاخيرة هدير منفعل شمل القاعة كلها . كان الجميع يتبادلون النظرات فى رعب واضطراب . وجلس الخطيب الى منضدة الرئاسة ، وغطى وجهه المتغضن باوراق الجرائد . تلفت رئيس الجلسة ، وهو الجندى المضمد ، نحو الكواليس ، وقال :

– الكلام الآن للرفيق تريفونوف آمر الحرس الأحمر . . .

صفقت القاعة كلها . صفقوا واذرعهم مرفوعة . وصاحت عدة اصوات نسائية من اعماق القاعة : «نرجوك ايها الرفيق تريفونوف» . وصعق صوت عميق النبرة : «مرحى للرفيق تريفونوف !» . عند ذاك ابصر الكسى كراسيلنيكوف رجلا ممشوق القامة فارعا فى سترة جلدية انيقة وحزامين متصالبين مما يلبسه الضباط يقف عند موقع اوركسترا بالذات مديرا ظهره للجمهور ، ثم استدار فجاة كالنابض ليواجه الصياحين والمصفقين ، مرر عينيه الجاحظتين

الرماديتين الفاتحتين بلون الفولاذ على الوجوه بسخرية وبرود ، واخذت اذرعهم تنزل فى الحال ، وتنكمش رؤوسهم بين الاكتاف ، وصار الناس يكفون عن التصفيق ، وسار بعضهم مسرعين نحو المخرج وهم منحنون .

ابتسم ذو العينين الفولاذيتين ابتسامة مزدرية . وعدل قراب مسدسه بحركة قصيرة . كان له وجه ممثل طويل حليق حلاقة جيدة . استدار نحو المسرح ثانية ووضع مرفقيه على حاجز موقع الاوركسترا . لكن ايغنات جنب كراسيلنيكوف .

— انه بروينيتسكى . نظرته وحدها تكفى لكى تفزع .

خرج تريفونوف آمر الحرس الأحمر من وراء الكواليس يضرب الارض بحذائيه الثقيلين . كان كم سترته من قماش الفنيلة مربوطا بربطة حمراء . كان يمسك بين يديه عمرة مربوطة ايضا بربطة حمراء فى طرفها الاعلى . كان ركين البنيان ، بادى الرصانة . اقترب من حافة المسرح ببطء . وتحركت جلدة رأسه الرمادية على جمجمته الحليقة . كان الظل المرتمى من جبينه يغطى عينيه . رفع ذراعه فساد الصمت . اشار بكف نصف مضمومة الى بروينيتسكى الواقف الى الاسفل .

— أيها الرفاق ، ها هو بروينيتسكى ، المفوض الحربى موجود هنا . وذلك شىء جيد جدا . فليجب هو على السؤال . واذا لم يرد ان يجيب سنجبره على ذلك .

قال بروينيتسكى من الاسفل بتهديد .

— هكذا !

— نعم ، سنجبره . نحن سلطة العمال والفلاحين ، وهو ملزم على الخضوع لها . ان الوقت حرج الآن ولذا يصعب فهم كل الأمور دفعة واحدة . . . انه لزمن مضطرب . والوسخ ، كما هو معروف ، يطوف دائما على السطح . . . ومن هنا نستدل ان محتالين يلتصقون بالثورة . . .

صاح بروينيتسكى بلكنة بولونية واضحة :

— ماذا يعنى ؟ . . سم . . . سم اسما .

— لا تستعجل ، سنصل الى الاسم ايضا . . . لقد نظفنا مدينة روستوف من عصابات الحرس الابيض بدماء العمال

والفلاحين ، أيها الرفاق . . . وتقف السلطة السوفييتية فى منطقة الدون بقدمين راسختين . لماذا ترامت الاحتجاجات من كل جانب ؟ العمال قلقون ، ورجال الحرس الاحمر مستاؤون . . . والجنود فى القطارات هائجون قائلين لماذا يتركوننا فى سكك الحديد خلال وقت طويل دون حركة ؟ . . وقبل دقائق سمعنا هنا صوت ممثل المثقفين (واشار بكفه الى الخطيب السابق) . فما هى المسألة ؟ يبدو كل انسان غير راض عن السلطة السوفييتية ؟ يقولون : لماذا تنهبون ، لماذا تسكرون ، لماذا تقتلون الاطفال ؟ بل ان الخطيب السابق طلب بنفسه ان يُقتل . . . (ضحك وتصفيق هنا وهناك) . ايها الرفاق ، ان السلطة السوفييتية لا تنهب ولا تقتل الاطفال بل الاوغاد الذين لصقوا بالسلطة السوفييتية هم الذين ينهبون ويقتلون . . . وبذلك يقوضون ايمان الناس بالسلطة السوفييتية ، وبذلك يضعون فى ايدى اعدائنا سلاحا لا يرحم . . . (توقف . صمت لا تسمع فيه انفاس مئات من الناس .) ولهذا السبب اريد ان اسأل على الرفيق بروينيتسكى . . . هل يعلم هو بمقتل صبيين يوم امس ؟

صوت بارد من الاسفل :

— نعم ، اعلم .

— جيد جدا . وهل يعلم بالسطوات الليلية ، والسكر والعربدة فى فندق «بالاس» ؟ هل يعلم اين تذهب الاموال المصادرة ؟ اتسكت ، يا رفيق بروينيتسكى ؟ ليس عندك ما ترد به . الاموال المصادرة تنفقها عصابة اللصوص على الخمرة . . . (هدير فى القاعة . تريفونوف يرفع ذراعه .) وهناك شىء آخر قد اتضح لنا . . . لم يعطك احد السلطة فى روستوف . ان اوراق تفويضك مزيفة ، واستشهاداتك بموسكو ، ولا سيما بالرفيق لينين كذب وقح . . .

كان بروينيتسكى يقف الآن منتصب القامة . وقد سرت رجفات فى وجهه الوسيم الشاحب . وفجأة قفز جانبا الى حيث يقف جندى شاب اشقر الشعر فاغر الفم ، وامسكه من معطفه ، وصاح بصوت رهيب مشيرا الى تريفونوف :

— ارم هذا الوغد !

تلوى وجه الشاب بشكل وحشى ، وجذب البندقية من ظهره . كان تريفونوف يقف بلا حراك مباعدا ساقيه ، الا ان راسه انحنى بحركة كحركة الثور . خرج عامل من وراء الكواليس ، ووقف بالقرب منه ، وحرك ترباس البندقية على عجل . وفى الحال تبعه آخر ، وثالث حتى امتلأ المسرح كله بسواد الستر والمعاطف ، وصلصلت الحراب المتصادمة . عندئذ صعد رئيس اللجنة فوق المنضدة ، وعدل الضمادة التى تهدلت على عينيه ، وصرخ بصوت مزكوم :

— ايها الرفاق ، ارجو الا تثيروا الذعر ، لم يحدث شىء غير متوقع . اغلقوا الباب ، يا مَنْ فى الخلف . الرفيق تريفونوف فى امان تام . الكلام للرفيق بروينيتسكى للرد .

الا ان بروينيتسكى اختفى . وكان الجندى الاشقر وحده ما يزال فى وقفته بالقرب من مكان الاوركسترا فاغرا فمه بدهشة .

٣

لقى جيش المتطوعين مقاومة جدية جدا بالقرب من قرية كورينيفسكايا . ومع ذلك فقد استولى على القرية بخسائر كبيرة ، وهنا صار مؤكدا ما كان يخفى عن الجيش ، ويخشى منه اكثر من اى شىء آخر على الاطلاق : قبل عدة ايام استسلمت يكاترينودار عاصمة منطقة كوبان للبلاشفة بلا قتال ، وهى التى كانت هدف الحملة ، والامل فى الراحة ، وقاعدة للاستمرار فى النضال . وهرب المتطوعون من كوبان تحت امرة بوكروفسكى واتمان كوبان والحكومة المحلية نفسها الى جهة مجهولة . وهكذا وجد الجيش نفسه فجأة فى حيص بيص ، وهو على بعد مسيرة ثلاثة ايام من الهدف .

كما ان الأمل فى ان تلقاه كوبان باستبشار كان خادعا ايضا . والظاهر أن القوزاق قرروا معرفة ما يحدث دون معونة جيش المتطوعين . كانت الضياع على طريق الجيش مهجورة ، فى كل قرية كمين بالانتظار ، وفوق كل قمة تل رشاشة فى الحراسة . فعلام يمكن أن يعول جيش المتطوعين ؟ على قوزاق اكوبان

المنحدرين من اوكرانيا ، ام على الجركس الذين شبوا على العداوة القديمة نحو الروس ، ام على فصائل جيش القفقاس التى لزقت باراضى كوبان الغنية وقد راح كلهم يغنون فجأة فى جوقة واحدة مع الضباط ذوى الكتافيات المذهبة وطلاب المدارس العسكرية اليافعين : «مرحى لكورنيلوف ، مرحى للوطن ، مرحى للايمان !» ولكن هذه الصيغة المستهلكة العديمة النفع والمطموسة كالعملة القيصرية هى كل ما كان جيش المتطوعين يستطيع تقديمه للقرى القوزاقية الغنية وقد تيقظت لتتساءل «ألم يحن الوقت لنعلن جمهوريتنا القوزاقية المستقلة ؟» وللاغراب الذين لجاوا من المناطق الأخرى الملتفين حول الرايات الحمراء ليناضلوا من اجل المساواة فى الحقوق فى اراضى كوبان والدون ، وصيد الاسماك ، وفى سبيل السلطة السوفييتية . . .

حقا ان جيش المتطوعين كان يأخذ معه فى طابوره الداعية الشهير البحار فيودور باتكين الاعوج القدم ، الداكن البشرة بروبه من القماش المشمع ، وطاقيته المزينة باشرطة القديس غيورغى . وقد حاول الضباط اكثر من مرة ان يقتلوه اثناء المسيرة كيهودى حقير وابن كلب احمر . الا ان كورنيلوف نفسه كان يحميه وهو يظن ان البحار المشهور باتكين يسد كليا نواقص الجيش فى حقل الايديولوجية . وفى الحالات التى كان قائد الجيش يضطر فيها للكلام امام الناس (فى القرى القوزاقية) كان يترك باتكين يتحدث قبله ، فكان هذا يثبت للأهالى بمكر وذكاء ان كورنيلوف يدافع عن الثورة ، وان البلاشفة ، على العكس من ذلك ، اعداء للثورة مباعون للالمان .

وما كان من الممكن ان يستسلم الجيش لان الاسرى لم يكونوا يأخذون فى ذلك الوقت . وكان التفرق يعنى الموت واحدا واحدا . وكانت هناك خطة لاجتياز سهوب استراخان الى نهر الفولغا ، والخروج الى سيبيريا . الا ان كورنيلوف اصر على المضى فى الزحف على يكاترينودار للاستيلاء على هذه المدينة عنوة . تحول الجيش من قرية كورينيفسكايا جنوبا ، وبعد معارك باهظة عبر نهر كوبان عند قرية اوست – لابينسكايا ، وكان النهر فى ذلك الفصل من العام فياضا ومائجا . وسار الجيش دون توقف مجرجرا معه

طابورا من العربات عليها عدد كبير من الجرحى . الا انه كان مثير الرهب وشديد الضراوة حتى ان طوق القوات الحمراء كان ينفك فى كل مرة تاركا اياه يمر .

سار الجيش باتجاه مايكوب مخادعا العدو ، الا أنه حين وصل الى قرية فيليبوفسكايا عبر نهر بيلايا ، وتحول فى زاوية حادة نحو الغرب فى مؤخرة يكاترينودار . وهنا ، وراء نهر بيلايا ، وفى فج ضيق احاطت به قوات كبيرة من قوات الحمر . وكان الوضع يبدو ميئوسا . وزعت البنادق على الجرحى جراحا خفيفة ، المحمولين على العربات . . . استمر القتال النهار بطوله . كان الحمر يطلقون من المدافع من المرتفعات ، ويرشقون بالرشاشات المعابر والعربات ولا يدعون الصفوف تنهض . ولكن حين هبط الظلام ، وتحول جيش المتطوعين الممزق الى الهجوم المضاد بجهد اخير مستميت تراجع الحمر من المرتفعات ، وجعلوا قوات كورنيلوف تمر نحو الغرب . ووقع ما وقع من قبل ايضا ، انتصرت الخبرة العسكرية ، والادراك بان الحياة تتوقف على نتيجة هذه المعركة .

كانت القرى تشتعل فى كل مكان فى الليل . وقد ساء الطقس ، وهبت ريح الشمال ، وتلبدت السماء بسحب ثقيلة داكنة . وبدأ المطر يسقط ، وظل يهطل طوال الليل غزيرا مدرارا . وفى الخامس عشر من آذار وجد الجيش امامه ، وهو يزحف باتجاه قرية نوفو – دميتروفسكايا مساقات واسعة من المياه والوحل السائل . وكانت التلال القليلة المخططة بالدروب تغيب فى الضباب الذى يفترش الأرض . خاض الرجال فى الماء الى الركب ، وغطست العربات وعجلات المدافع حتى محاورها . وسقط ثلج رطب ، وهبت عاصفة جامحة لا مثيل لها .

خرج روتشين من عربة البضائع ، وعدل البندقية وكيس متاعه . وتلفت فيما حوله . كانت جماعات من جنود فوج فارنافسكى تضج على السكك الحديدية . . . بعضهم فى معاطف عسكرية والبعض الآخر فى فروات ، وآخرون فى معاطف مدنية

محزمة بحبال . والكثيرون منهم يحملون احزمة من عتاد الرشاشات وقنابل يدوية ومسدسات . بعضهم يضع على راسه عمرات لها رؤوس مستدقة ، والبعض الآخر طراطير مخروطية ، وفريق ثالث قبعات عالية مصادرة من المضاربين . وكانت الاحذية الطويلة الممزقة ، والاحذية اللبادية ، والارجل الملفوفة بالخرق تعجن الطين اللزج . كان الجنود يصرخون ، وحرابهم تتصادم : «الى الاجتماع الحاشد ، يا اولاد ! سنحلل الأمر بانفسنا ! كفاهم سوقنا الى المجزرة !»

كان الاضطراب بسبب الشائعات المبالغ فيها ، كما هو الأمر دائما فى مثل هذه الاحوال ، عن اندحار الوحدات الحمراء قرب قرية فيليبوفسكايا : «عند كورنيلوف خمسون الفا من الضباط ، ويجردون ضده فوجنا وحده لكى يبيده . . . خيانة ، يا اولاد ! امسكوا بالآمر !»

وتراكض الجنود الى فناء المحطة المنتهى وراءها تماما بالسهب المغطى بنقاب داكن من المطر . كانت ابواب عربات البضائع تقرقع قرقعة شديدة ، حين كان رجال متوحشون يقفزون منها وبنادقهم على ظهورهم ، ويتراكضون الى حيث كانت الريح تصفر فوق جموع الناس فى اشجار الحور المخروطية التى ما تزال جرداء ، وكانت غربان القيظ تحوم فوق قممها ناعبة . صعد الخطباء على السطح العشبى لأحد مخازن الثلج ، ورفعوا قبضاتهم امامهم ، وصاحوا : «يا رفاق ، لماذا يتغلب علينا قطاع الطرق الكورنيلوفيون ؟ لماذا سمحوا لجيش المتطوعين بالوصول الى يكاترينودار ؟ . . ما هو خطة جيشنا ؟ . . دعوا الآمر يجيب» .

وهدر حشد من الف رجل «ليجب !» بقوة جعلت غربان القيظ تحلق عاليا تحت السحب . ورأى روتشين ، وهو واقف عند مدخل المحطة ، الآمر يتحرك بقبعته المدعوكة وسط الرؤوس المضطربة متجها نحو خزان الثلج . كان وجهه العظمى الحليق ببصره الجامد شاحبا حازما . فعرف روتشين أن الآمر هو صاحبه القديم سيرغى سيرغييفيتش سابوجكوف .

في فترة ما قبل الحرب كان سابوجكوف يتكلم باسم جماعة «اناس المستقبل» محطما الاخلاقية القديمة . وظهر في المجتمع البرجوازي راسما على خديه وسوما غاوية ، وسترته من الفانيلا الخضراء الزاهية . واثناء الحرب تطوع في سلاح الفرسان ، واشتهر كمستطلع ومبارز جرئ ، وحصل على رتبة ملازم . وبعد ذلك ، وفي بداية عام ١٩١٧ اعتقل فجأة ، وارسل الى بتروغراد ، وحكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص لانضمامه الى منظمة سرية . ثم اطلقت ثورة شباط سراحه فكان لفترة معينة يتكلم عن كتلة الفوضويين في سوفييت نواب الجنود . ثم اختفى ليظهر ثانية في تشرين الثاني مشاركا في الاستيلاء على قصر الشتاء . وكان من اوائل الضباط النظاميين الذين انخرطوا في الحرس الأحمر .

ها هو الآن قد صعد الى السطح العشبي منزلقا ، ولما استقر هناك حشر ابهامي يديه تحت حزامه ، وجعّد جلدة رقبته ونظر الى الرؤوس العديدة المتطلعة اليه . وابتدر قائلا بسخرية وبصوت لم يرفعه كثيرا بل جعله مسموعا في كل مكان :

– اتريدون ان تعرفوا ، يا شياطين الصراخ ، لماذا يتغلب علينا الاوغاد ذوو الكتافيات المذهبة ؟ بسبب هذا الصراخ والفوضى . بالاضافة الى انكم لا تطيعون اوامر القيادة العليا ، وترفعون عقيراتكم بالصياح بكل ذريعة ... بل وهناك من بينكم من يثير الرعب !.. من قال لكم اننا اندحرنا عند قرية فيليبوفسكايا ؟ من قال لكم انهم مرروا كورنيلوف الى يكاترينودار بخيانة ؟ انت الذي قلت ؟ (ودفع ذراعه الحاملة بالمسدس مشيرا بها الى شخص من الواقفين في الاسفل) . تعال اليّ ، لنتحدث ... اذن ، لم تقل انت ... (ودس مسدسه في جيبه بلا رغبة .) تحسبونني احمق وطفلا غريرا ، ولا افهم لماذا تزعقون ... اتريدون ان اقول لكم لماذا ؟ ان فيدكا ايفولغين اولا ، وبافلينكوف ثانيا ، وتيرنتي دوليا ثالثا قد تلقوا بالاتصال المباشر نبأ يقول ان في محطة آفيبسكايا صهاريج الكحول ... (ضحك . وفم روتشين قد تلوى بابتسامة هازئة : «تخلص المحتال» .) من الواضح ان هؤلاء الفتيان متلهفون للقتال . وواضح ان القائد العام خائن لأن صهاريج الكحول قد يستولى

عليها ضباط كورنيلوف فجأة ... وتلك مصيبة ستحل بالجمهورية ... (عاصفة من الضحك جعلت غربان القيظ تصعد عاليا في السماء .) انا اعتبر الحادث قد انتهى ، ايها الرفاق ... وها انا اقرا آخر بلاغ حربي .

اخرج سابوجكوف اوراقا ، وشرع يقرؤها بصوت عال . استدار روتشين ، وخرج خلال المحطة الى الرصيف ، وجلس على مسطبة مكسورة ، واخذ يلف له سيكارة من التبغ البيتي . قبل اسبوع سجل (بهوية مزيفة) في وحدة من الحرس الاحمر ذاهبة الى الجبهة . وقد ساءت علاقته مع كاتيا . بعد الحديث العصيب الذي جرى حول مائدة الشاي عند تيتكين قضى روتشين بقية النهار يجوب المدينة ، وفي الليل عاد الى كاتيا ، ولم ينظر في وجهها مخافا ان يظهر علامة تأثر ، وقال بصرامة :

– امكثي هنا شهرا او شهرين ، لا ادري ... آمل ان تكوني معه على اتفاق تام في الآراء ... وفي اول فرصة سادفع له على اقامتك . ولكن الح عليك بان تخبريه فورا ان اقامتك عنده لن تكون بلا مقابل ، لن تكون احسانا منه ... ساغيب لفترة من الوقت .

سالت كاتيا محركة شفتيها حركة ضعيفة :

– الى الجبهة ؟

– هذا ما يخصني وحدي تماما ...

اصبحت علاقته مع كاتيا رديئة للغاية . في يوم من ايام تموز من السنة الماضية ، وعلى رصيف نهر النيفا الذي كانت تعكس صفحته الصقيلة معالم الجسور واعمدة جزيرة فاسيليفسكي – في ذلك اليوم المشمس البعيد – قال روتشين لكاتيا التي كانت جالسة على مصطبة غرانيتية قرب الماء : «ستنتهي الحروب ، وتمر الثورات ، وتزول ممالك ، ويبقى قلبك وحده خالدا ...» وها هما بقيا عدوين في فناء قذر ... ولم تكن كاتيا تستحق هذه النهاية ... «ولكن ، اللعنة ، حين تكون روسيا كلها منتهية ...»

كانت خطة روتشين بسيطة : الوصول في وحدة للحرس الأحمر الى منطقة المعارك ضد جيش المتطوعين ، والتسلل اليه في اول فرصة سانحة . فقد كان الجنرال ماركوف والعقيد

نيجينتسيف من ضباط ذلك الجيش يعرفانه شخصيا ، وكان في امكانه ان يخبرهما بمعلومات قيمة عن مواقع واوضاع الوحدات الحمراء . ولكن الاهم من ذلك ان يشعر بانه بين جماعته ، وان يلقى عن وجهه قناعه اللعين ، ويتنفس اخيرا بملء رئتيه ، ويبصق مع جمع الرصاص نفثة كرهه الدامية في وجه اولئك «الحمقى المخدوعين ، والمتوحشين المستهترين» . . .

— احسن الأمر التعبير بشأن الكحول . اننا نصخب كثيرا . وقد قمنا بضجة هائلة ، وحين نفكر في الأمر نجد انفسنا في ورطة من التفكير .

قال شخص زرى الهيئة في فروة خروف برز صوفها من تحت ابطه وعلى ظهره ، وجلس على المصطبة قرب روتشين . وطلب منه تبغا قائلا :

— انا ادخن الغليون كالعجائز ، يا صاحبي . (وادار وجهه الماكر المخشوشن بلحيته الناصلة وعينيه المتقلصتين .) كنت اشتغل في مخازن الحبوب عند تجار في نيجني نوفغورود ، فتعودت عند ذاك على تدخين الغليون . انا احارب منذ عام ١٩١٤ ، ولا استطيع ان اتوقف . تلك هي مشكلتي ، يا اخ ، محارب مزمن ، والله العظيم .

قال روتشين في غير ما رغبة :

— آن لك ان تستريح .

— استريح ؟ واين هذه الراحة ؟ انت ، يا فتى ، من الاغنياء كما ارى . لا ، لن اترك القتال . لقد شبعت مصائب من البرجوازيين ! انا اشتغل عند الاغنياء منذ ان كان عمري ستة عشر عاما ، وطوال ذلك الوقت وانا حارس . ترقيت الى سائق عربة عند تجار آل فاسينكوف — وربما سمعت بهم — ولكن اضررت بزوج رمادي من خيولهم ، من الخيول الاصلية ، بأن تركتهما خطأ يعبان ماء كثيرا . نعم ، ارتكبت خطأ ، فطردوني بالطبع . ولدي قتل ، وزوجتي توفيت منذ زمان . والآن حدثني في سبيل من احارب : في سبيل السوفييتات ام في سبيل البرجوازيين ؟ انا رجل ذو معدة مملوءة ، وحذائي هذا قد اخذته من احد الموتى في الاسبوع الماضي . حذاء لا تنفذ اليه الرطوبة . شيء ممتاز . وكل

شغلي ان اطلق النار ، وبعد المعركة اجلس قرب المرجل . اننا نعمل منذ الآن من اجل قضيتنا نحن ، يا فتى . والفقراء ، المساكين ، والذين من حظهم البؤس والشقاء هم الذين يؤلفون جيشنا . اما الجمعية التأسيسية فقد رأيت من انتخبوا اليها في نيجني نوفغورود — المثقفين والشيوخ القساة .

— تعلمت تدوير لسانك بمهارة .

قال روتشين ، وقد اختلس نظرة الى محدثه . وكان يدعى كفاشين . وكان قد قضى معه اسبوعا كاملا في عربة قطار واحدة ينام الى جانبه على الرف العلوي . وكان ركاب العربة يدعون كفاشين بـ«الجد» . وكان يجلس ومعه جريدة اينما امكنه ذلك . يضع على انفه الناحل نظارة انفية ذهبية ، ويقرأ بصوت خفيض . قال يروي حكايتها : «حصلت على هذه النظارة الانفية في سامارا بموجب قرار تمليك . وكان المليونير باشكيروف قد اوصى بها لنفسه . ولكن انا الذي استخدمتها» .

ورد على روتشين :

— صحيح ما قلته . انني تعلمت تدوير لساني . لم افوت اجتماعا واحدا . وكلما دخلت محطة قطار قرأت كل المراسيم والقرارات وكل شيء . فالكلام هو قوتنا البروليتارية . فماذا كنا نساوي لو كنا صامتين وبلا وعي ؟ مجرد سمكة صغيرة !

واخرج الجريدة ، ونشرها بعناية ، ووضع نظارته الانفية برزانة ، واخذ يقرأ المقال الافتتاحي ناطقا بالكلمات وكأنها كتبت بلغة غير روسية .

«. . . تذكروا انكم تقاتلون في سبيل سعادة جميع الشغيلة والمستثمَرين . انتم تقاتلون في سبيل الحق في بناء حياة عادلة ، حياة افضل . . .»

استدار روتشين ولم يلحظ ان كفاشين كان ينطق بهذه الكلمات ، وهو يتفرس فيه من فوق نظارته الانفية . قال كفاشين بصوت مختلف تماما :

— والظاهر انك ، ايها الفتى ، من الاغنياء . لم تعجبك قراءتي . العلك جاسوس ؟

من محطة آفيبسكايا سار طابور فوج فارنافسكى ماشيا الى قرية نوفو – دميتروفسكايا . وفى ظلام منتصف الليل كانت الريح تصفر بين الحراب ، وتعبث فى الثياب ، وتقذف الوجوه بخرز الجليد . كانت الاقدام تغطس خلال طبقة صلبة من الثلج ، وتصل الى الوحل اللزج . ومن خلال ضجيج الريح ترددت صيحات : «قف ! قف ! اخف ! لا تضغط ، شياطين !»

كان القرس ينفذ من خلال المعاطف الخفيفة ، ويصل حتى العظام . فكر روتشين مع نفسه : «فقط الا أقع . والا فستكون نهايتى . ستدوسنى الاقدام . . .» وكانت أكثر الاشياء تعذيبا له هى هذه الوقفات والصرخات فى المقدمة . والظاهر انهم ضلـــوا طريقهم ، وراحوا يتجولون على حافة شىء يشبه منخفضا او نهيرا . تردد صوت متقطـع وكانه يودع : «يا اخوان لا استطيع ان اقـاوم اكثر» . وفكر روتشين : «أهذا صوت كفاشين ؟ كان طوال الوقت يسير الى جانبى . حزرتى . لم يصدق بكلمة واحدة من كلماتى» . (وقد تنصل روتشين منه بجهد يوم أمس) . توقف الذيـــــن فى المقدمة مرة اخرى . ارتطم انف روتشين بظهر شخص بمعطفـــه المتجمد . وفكر ، مع نفسه واقفا ويداه المتثلجتان محشورتـــان داخل كميه وراسه مطرق «اربع سنوات وأنا اغالب التعب ، وقد قطعت آلاف الفراسـخ من اجل ان اقتل . ان ذلك مهم جدا وذو شان كبير . اما ان اسىء الى كاتيا واتركها فذلك اقل شأنا . غدا او بعد غد سأنتقل الى الجانب الآخر ، وفى مثل هذه العاصفة الثلجيـــة سأتحول الى قتل الروس . غريب . كاتيا تقول اننى رجـل شريف وطيب . ذلك غريب ، غريب جدا» .

وانتبه بفضول الى دوران هذه الافكار فى راسه . ثم انقطعت . فكر : «شىء سيىء يعنى اننى اتجمد . تمر فى ذهنى الافكار الرئيسية الاخيرة . اذن ، سأستلقى الآن على الثلج» .

الا ان الظهر المتجمد امامه قد ترنح ، وسار . فترنح روتشين مثله وسار وراءه . الآن صارت رجلاه تغوصان الى الركب ، وكان الحذاء الثقيل يخرج من الطين بجهد . حملت الريح جزءا من صيحة : «نهر ، اولاد . . .» وتردد سباب . . . والريح ما زالت تصفـــر بين الحراب مثيرة الافكار الغريبة . مرت به شخوص غامضـــة

محدودبة . استجمع روتشين قواه ، وسحب قدمه بأنين ، ومضى فى سيره بصعوبة .

كان سيل بنى يبرز خطا اسود على الثلج ، والى ابعد من ذلك كان كل شىء محجوبا بالثلج المتطاير . كانت الاقدام تنزلق على المنحدر . والماء الداكن ينطلق مزمجرا . وصيحات :

– انغمر الجسر بالماء . . .

– يعنى نرجع ؟

– من قال نرجع ؟ أنت ؟ انت الذى قلت ؟

– اتركنى ، يا رفيق ، اتركنى .

– اضربه بالاخمص . . .

– أوى . . . اوى . . . اوى . . .

وفى الاسفل وراء حافة الشاطىء شب مخروط ضوئى مـــن فانوس كهربائى . وبان قوس الجسر مغمورا بماء رمادى منطلق بشدة ، وقطعة مكسورة من الدرابزين . وارتفع الفانـــوس الى الاعلى ، ورسم منحنيات ضوئية ، وانطفأ . وقال صوت مبحـــوح رهيب :

– فصيلة . . . عبورا ! . . البنادق والعتاد على الرؤوس . لا تتدافعوا . . . اثنين اثنين . . . هيا !

رفع روتشين البندقية ودخل الماء حتى خصره ، ولم يكن الماء باردا برودة الريح . كان يضرب جنبه الايمن بقوة ، ويدفعه ، محاولا ان يجرفه فى هذا الظلام الرمادى المبيض ، فى الدوامة . كانـــت قدماه تنزلقان وهما لا تكادان تتحسسان الواح الجسر المحطم .

كان فوج فارنافسكى قد ارسل الى قرية نوفو – دميتروفسكايا لتعزيز القوات المحلية . وقد خرج اهل القرية جميعهم لحفـــر الخنادق ، وحصن مقر ادارة القرية وبعض البيوت ، ونصبـــت الرشاشات . وكانت المدفعية الثقيلة قد وضعت جنوبا فى قريـــة غريغوريفسكايا . وفى تلك المنطقة نفسها كان يرابط الفوج الثانى لشمال القفقاس تحت امرة دميترى شيليست الذى ظل يلاحـــق جيش المتطوعين ابتداء من روستوف . وفى محطة آفيبسكايا غربـا توجد حامية ومدفعية وقطارات مدرعة . وكانت قوات الحمر موزعة

على رقعة واسعة وهو أمر لا يجوز فى مثل هذه الارض الموحلة وانعدام الطرق .

عند المساء عبر الساحة الى مقر ادارة القرية فارس قوزاقى ملطخ بالثلج الرطب والوحل . وتوقف عند مقدمة البيت . كان البخار ينبعث من جنبى حصانه المنتفخين .

– اين الرفيق الآمر ؟

خرج عدة اشخاص الى مقدمة البيت يزررون معاطفهم على عجل . وظهر سابوجكوف فى فروة الفرسان شاقا طريقه بينهم :

– أنا الآمر .

التقط القوزاقى انفاسه ، وانحنى على القربوس ، وقال :

– رجال نقطة الحراسة قتلوا جميعا . تخلصت أنا وحدى .

– وماذا بعد ؟

– بعد ؟ توقع مجىء كورنيلوف ليلا بكل قوته . . .

وتبودلت النظرات فى مقدمة البيت . كان بين الواقفين فيها شيوعيون وهم منظمو الدفاع عن القرية . نشق سابوجكوف من منخريه ، غضن لغده وقال : «أنا مستعد ، فكيف انتم ، يا رفاق؟ . .» اخذ القوزاقى الذى ترجل عن فرسه يقص كيف قتل الجركس من لواء الجنرال ارديلى جميع افراد نقطة الحراسة . تجمع عند مقدمة البيت حشد من الجنود والقوزاقيات والصبيان يصغون الى الراوى صامتين .

وتقدم روتشين ايضا ، وقد غطى راسه وعنقه بقلنسوة صوفية . لقد استطاع فى الليل ان ينال قسطا من النوم ويجفف ملابسه فى بيت حار منتن حيث كان زهاء خمسين من الجنود الحمر يرقدون على الأرض بين الطاقات والثياب المبتلة . وفى الفجر خبزت ربة البيت خبزا ، وقطعته بنفسها ، ووزعته قطعا على الجنود :

«ابذلوا يا جنود جهودكم لتمنعوا الضباط من دخول قريتنا» .

فرد الجنود على ربة البيت الشابة :

«لا تخافى شيئا . . . خافى من شىء واحد . . .»

ونطقوا بكلمة جعلتها تلوح عليهم برغيف من الخبز . «يا لكم من ثيران . . . حتى وانتم امام الموت لا يغرب ذلك عن بالكم . . .»

كانت مسيرة الليلة البارحة قد خلفت فى روتشين انحلالا وألما ممضا يعتور جسمه كله . الا ان قراره كان قاطعا . منذ الصباح كان يحفر الارض المتجمدة فى حدائق الخضروات . ثم كان يحمل صناديق الذخيرة من العربات الى مقر ادارة القرية . وفى الغداء وزع على كل فرد قدح من الكحول فازال هذا السائل اللاهب شعور الانحلال من جسمه ، وادفأ عظامه ، فقرر أن يقضى امره اليوم دون تأجيل .

وها قد وقف الآن قرب مقدمة ادارة القرية باحثا عن فرصة يسال فيها الخروج الى نقطة الحراسة الأمامية . وكان قد حسب لكل شىء حسابه الى حد كتافيتى النقيب التى خاطها داخل قميصه على صدره . وحصل ما توقع . نزل البحار الركين الذى كان واقفا مع سابوجكوف من مقدمة البيت ، واخذ يدعو الراغبين الى تادية امر خطر ، قائلا بصوت حديدى :

– يا اخوان ، من لا يبخل بحياته . . .

وبعد ساعة كان روتشين قد غادر القرية مع فريق مؤلف من خمسين مقاتلا متجها الى واد ملفع بضباب كثيف . هبط ظلام رطب . وكف الثلج عن النزول ، كانت الريح الدافعة تصفع الوجوه بقطرات كبيرة من المطر . سار الجنود بلا طريق مخوضين فى ماء شامل ، وكأنهم يعبرون بحيرة ، متجهين نحو التلال ، حيث كان يجب ان يحفروا خنادق .

لمعت ومضة ضوء فى الغبش الصباحى الرطب . ثم دمدمة ، وعويل ، وتلاشى . . . واعقب ذلك فى الحال ازيز رصاص غير نظامى على التلال وشاطىء النهر . ثم ومضة ضوء اخرى ، واطلاقة مدفع ، ولعلع رشاش فى الامام ، فى غمامة الضباب .

ان كورنيلوف يتقدم . كانت وحداته الامامية قد وصلت الى ذلك الشاطىء من النهر . وخيل لروتشين انه لمح شخصين او ثلاثة يركضون منحنى الظهور عند الماء تماما متجهين الى اجمة . وخفق قلبه . اخرج جسمه من الخندق الصغير الذى حفر على منحدر الشاطىء .

كان النهر الكدر ذو اللون الاصفر المخضوضر ينطلق فى

دوامات عالية بين الشاطئين . والى اليسار ، فى وسطه كان الجسر يرى مغمورا فى الماء الى النصف . وقد طلع عليه من النهر زهاء عشرين شخصا من تلك الشخوص الغامضة المنحنية الظهور ، وعبروا عليه ، كانت النار تطلق على النهر والجسر من التلال بلا نظام ، وبتتابع متزايد . وعلى مقربة دانية على الضفة المقابلة من النهر اندلع لسان طويل من اللهب منبعث من مدفع . انفجرت قنبلة شرابنيل فوق الخندق الذى يقبع فيه روتشين . ونهضت شخوص رمادية وسوداء من وراء قوس الجسر ونزلت الى معبر النهر وتناثرت متراكضة زاحفة على عجيزاتها ، متدحرجة ، هاوية . كانت جميعها تحمل كتافيات بارزة كالخطوط .

ضربة مدفع مرة اخرى ، وهدير متقطع فوق الخندق . وانّ صوت : «اوى ، اوى ، يا اخوان . . .» لهج شخص من خلال ازيز الرصاص :

— انهم يطوقوننا ! . . يا اولاد ، تراجعوا !

وشعر روتشين بدنو الدقيقة المرتقبة . انطرح بسرعة ، وظل بلا حراك . وتردد فى راسه : «لا يوجد منديل ابيض ، يجب ربط قطعة قميص على حربة ، وتصيح ، بالفرنسية حتما . . .» سقط شخص ثقيلا على ظهره ، وانطرح عليه ، وطوقه من رقبته ، وانشب اصابعه فى حنجرته تاخرا . قفز روتشين محاولا النهوض ، وراى من وراء كتفه وجها مدمى وعينا جاحظة صهباء ، وفما فاغرا لا اسنان فيه . كان كفاشين هذه المرة ايضا . كان يردد وكانه فى نوبة من الغيبوبة :

— انك تصلى لله ،لانك رايت جماعتك . . .

دفعه روتشين عن ظهره ، ونهض بكل قامته ، وترنح . تشبث كفاشين بكتفيه كالعلقة . كافح روتشين ليحرر نفسه ، وانقذف على متراس الخندق ، وانشب اسنانه فى الفروة النتنة بجنون . واحس بأن كوعيه وركبتيه اخذت تنزلق على الطين السائل . كانت حافة المنحدر على بعد خطوة ونصف .

— اتركنى !

زمجر روتشين اخيرا . انهارت الارض تحت قدميه فتدحرج مع كفاشين على المنحدر نحو النهر .

كان دوى المدافع يملأ الارجاء كلها ، وتهتز الارض من الانفجارات . كانت قوات الجيش الرئيسية تعبر النهر . وكانت المدافع من قرية غريغوريفسكايا تضرب المعابر . وكانت القنابل تسقط فى ارجاء الحقل الثلجى . وحين كانت تقع فى النهر كانت تثير نوافير من الماء .

كان مشاة البيض يعبرون النهر وكل اثنين مع حصان واحد . وكانت الخيول تتراجع وهى تنزل الى النهر السريع الجريان ، فكانوا ينخسونها بالحراب . انحدرت عربة مدفع من على الشاطئ الزلق الشديد الانحدار مندفعة بقوة . وغطس المدفع تحت الماء مترنحا من جانب الى جانب . وكان الحوذية يضربون الخيول الهزيلة بالسياط حتى استطاعت ان تجره على نحو ما على قوس الجسر الغريق جزئيا فى طرفيه . وكانت القذائف تتساقط وتنفجر ، ويفور الماء . شبت الخيول على قوائمها الخلفية ، وتشربكت بسيورها .

كركبت عجلات المدافع الرشاشة منحدرة مارة بالجسر الى النهر . وطافت ، ودارت . وانقلبت احداها ، وحملها التيار مع خيولها ورجالها ، فتعلق الرجال بالعجلات . وهبطت قنبلة من السماء على هذا الخليط مرسلة فى عمود عال من الماء شظايا من الخشب ، وقطعا من الابدان الممزقة .

وعلى الشاطئ كان شخص صغير الجرم قصير اللحية فى سترة من قماش الفانيلة البنى ، وقبعة فرائية بيضاء غاطسة فى راسه يدور على حصانه الهزيل القذر . كان يصرخ بصوت عال عصفورى ملوحا بسوطه مهددا . انه الجنرال ماركوف المشرف على عبور النهر . وقد حيكت حول شجاعته حكايات خيالية .

كان ماركوف من اولئك الذين قاتلوا فى الحرب العالمية الاولى ، وقد سممتهم الى الابد انفاسها المنحوسة . وكان يبدو انه يجد متعة لا تعادلها متعة اخرى حين يمتطى صهوة جواده ومنظاره على عينيه ، او يكون شاهرا سيفه فى الصف المهاجم وهو يقود لعبة القتال الرهيبة . وفى آخر الامر صار فى مستطاعه ان يحارب ايا

كان ، ولأى غاية كانت . تعبأ ذهنه ببعض الصيغ الجاهزة عـــن الرب والقيصر والوطن . وكانت له حقائق مطلقة لا حاجة معها الى مزيد . وكان كلاعب الشطرنج اذا لعب لا يرى من رحاب العالم ، غير حركات البيادق على الرقعة .

كان طموحا متعاظما شديدا وغليظا على مرؤوسيه . كان يثير الرعب من بين رجال جيشه . والكثيرون يشعرون بالحزازة ازاء هذا الرجل الذى لا يرى فى الناس غير بيادق شطرنج . الا أنه كان شجاعا ، وحسن المعرفة بتلك اللحظات الحرجة من المعركة حيث كان من الضرورى للقائد ان يداعب الموت لانتصار المعركـــة طالعا بصفوف عساكره الى الأمام تحت وابل الرصاص والسوط فى يده .

استمر عبور النهر عدة ساعات . ولفت العاصفة الثلجيـــة النهر والشواطئ من جديد . واشتد عصف الريح متجهة نحـــو الشمال . وبرد الجو بسرعة . كان روتشين يرقد مخلوع الكتف تحت منحدر الشاطئ قرب الماء ، وقد فقد الأمل منذ وقت طويل فى أن يلحظـه احد . ورغم الألم الذى يلذع كتفـه اخرج كتافيتيـه من وراء قميصه ، واستطاع أن يثبتهما على نحو ما على قميصـه بدبابيس ، وخلع النجمة الخماسية من طاقيته . وكان النهر قد جرف جثة كفاشين منذ وقت بعيد ، والجرحى يتناثرون فى كـل مكان ، ولا يلتفت اليهم .

لم يتوقف الجيش بعد عبوره النهر ، وزحف فى معركة باتجاه قرية نوفو-دميتروفسكايا . جمدت ثياب العساكر عليهم ، وتغطت بطبقة من الجمد . وتصلبت الارض تجمدا ، ورنت عليها سنابك الخيول والعجلات ، وتمزقت الاحذية على الركام والحفر ، وتجرحت الاقدام . رفع بعض الجرحى اجسامهم ، وزحفوا على الشاطئ الحاد الانحدار معرجين بجهد ، ومنزلقين . شعر روتشين بأن رجليـه تتجمدتان ملتصقتين بالارض . كز على اسنانه (كان الألم يسرى فى كتفه وركبته المحطمة) ورفع جسمه ايضا ، وسار فى اثر الجرحى . لم يلتفت احد اليه . اقتضاه الصعود الى أعلى منحدر النهر جهدا كبيرا . وهناك ، فى الأعلى كانت العاصفة الثلجية تعول ، والرصاص يئز . كان رجل محدودب فى معطف ضباط متجمد وقلنسوة يجرجر

نفسه امامه ، فاذا به يندفع فجأة الى جانب ويسقط . فلم يكن من روتشين الا ان زاد من انحناءة قامته متغلبا على عصف الـــريح ، ومضى فى سبيله .

جثة حصان ميت مدفون فى الثلج ، وقد تصلبت الى الأعلى رجله الخلفية . وعند مدفع مهجور وقف حصانان بائسان هزيلان وقد انزلا بوزيهما الى الأرض ، وقد جمدت جنباهما ، وتكونت كومتان من الثلج على ظهريهما . بينما كانت الرشاشات تلعلع الى الأمام بمزيد من الاصرار والوعيد . لقد قاتل جيش المتطوعين ليقضى ليلته هذه فى بيوت دافئة لا أن يموت فى حقل تعصف به الزوبعة الثلجية .

كانت المدفعية فى قرية غريغوريفسكايا تضرب المهاجمين . الا ان الوحدات الحمراء الاخرى والاحتياطات من محطة آفيبسكايا لم يلقــوا فى المعركة . ولم يتلق الفوج القفقاسى الثانى امـرا بالهجوم الا بعد طوق فوج فارنافسكى فى قرية نوفو-دميتروفسكايا ، وكان يقتل فى اشتباكات بالسلاح الابيض فى الشوارع . سار الفوج القفقاسى الثانى عشرة فراسخ عبر مستنقعات واراض مغمورة بمياه الفيضان ، وخسر فصيلة كاملة غرقا وتجمدا ، وضرب مؤخـرة البيض ممكنا بقايا فوج فارنافسكى من خرق الحصار .

وحدث عند البيض ايضـا مثل هذا الاضطراب والبلبلـة . تصلبت فصيلة بوكروفسكى الكوبانية ، ولم تسر خلال المستنقع . وكان قد اوكـل اليها مهاجمة القرية من الجنوب . كمـا ان بوكروفسكى الذى تسلم رتبة الجنرالية من حكومة كوبان لا من القيصر قد تلقى اهانة قاسية من الجنرال الكسييف اثناء الاجتماع الحربى ، حين قال له بازدراء ارستقراطى : «كفى ، يا عقيـد ، اعذرنى ، لا اعرف الآن كيف ادعوك ...» وبسبب «العقيد» هذا لم يرد بوكروفسكى ان يسير خلال المستنقع . كما ان فصيلـة الخيالة بقيادة الجنرال ارديلى التى ارسلت لتطويق القرية مـــن الشمال لم تستطع عبور منخفض مغمور بالماء . فعادت ليلا لتعبر من المعبر العام .

كان فوج الضباط اول من وصل الى قرية نوفو-دميتروفسكايا . وشم الضباط المتجمدون المهتاجون ، المقاتلون القدامى ، الرائحة

البيتية للروث المجفف المحروق والخبز الطازج ، ورأوا الضوء الدافئ في النوافذ ، فزحفوا عبر خليط الثلج والوحل ، دون انتظار التعزيزات ، عبر الماء الغامر المغلف بطبقة رقيقة من الجمد . ولوحظوا وهم على مشارف القرية ، فاطلقت عليهم النيران من رشاشات . هجم الضباط بالحراب . وكان كل واحد منهم يعرف كيف وماذا يجب ان يفعل في كل ثانية . وكانت قبعة ماركوف البيضاء تلمع في كل مكان . لقد كانت معركة ضباط نظاميين مع جمهرة من الجنود المقادين قيادة ضعيفة ، والمنظمين بانضباط سيئ .

واندفع الضباط الى القرية واشتبكوا في مناوشات بالسلاح الابيض في الشوارع مع جنود فوج فارنافسكي والانصار . وفي الظلام والخلط طُعِنَ جنود الرشاشات او نسفوا بالقنابل اليدوية ، وهم وراء رشاشاتهم . وتلقى البيض تعزيزات مستمرة ، فاستطاعوا تطويق الحمر ، فتراجع هؤلاء الى ساحة القرية ، حيث كانت اللجنة الثورية تقيم في مقر ادارة القرية .

كان الرصاص ينطلق من كل مخبأ ، والقتال يدور في كل مفرق . وجاءت عربة المدفع منطلقة في نافورة من الوحل ، واستدارت عند حافة الساحة ، ووجهت ماسورتها نحو واجهة مقر الادارة . وتفجرت القذيفة بقرقعة مرنة . واخذ الناس يقفزون من نوافذ البيت ، وانتشر دخان اصفر . واصابت نيران المدفع صناديق الذخيرة فاخذت تتفجر .

وفي تلك اللحظات بالذات كان الفوج القفقاسي الثاني يطلق النار من الشرق على المهاجمين . وسمع جنود فوج فارنافسكي بالقتال في مؤخرة العدو فشد ذلك من عزيمتهم . اختطف سابوجكوف راية الفوج من حامل الراية وقد بح صوته من الصراخ والسباب ، وكانت ملفوفة بقطعة من المشمع ، ولوّح بها ليفكها ، وعبر الساحة الى اشجار الحور العالية المتمايلة ، حيث كان البيض اكثر تجمعا . اخذ رجال فوج فارنافسكي يخرجون من وراء البوابة والاسيجة ، وينهضون من الأرض ، ويتقاطرون من كل جهة ، مهيئين حرابهم الى الامام ، وخرقوا الحصار ، وخرجوا من القرية صوب الغرب .

قضى روتشين تلك الليلة في عربة مهملة بعد ان انزل منها جثتين متجمدتين ، وغطى جسمه بالتبن . كانت المدافع تقصف طوال الليل ، وقنابل الشرابنيل تتفجر فوق قرية نوفوديميتروفسكايا . ومنذ الصباح اخذت عربات جيش المتطوعين تتجه الى هناك ، بعد قضاء ليلة في قرية كالوجسكايا . خرج روتشين من العربة ، وسار وراء العربات . وكان من شدة الانفعال لا يشعر بالألم .

كانت الريح ما تزال تهب شديدة ، ولكن من الشرق هذه المرة مبددة السحب الثلجية والممطرة . وفي نحو الساعة الثامنة صباحا ظهرت السماء المجلوة الزرقاء من خلال قطع الغيوم المتحركة الى الاعلى بسرعة . وسقط ضوء الشمس باشعة حارة مستقيمة كالسيوف . واخذ الثلج يذوب . والسهب يعتم سريعا ، مخططا باشرطة زمردية للنباتات البارضة واشرطة صفراء لجذامات الحصاد . والتمعت المياه ، وترقرقت الجداول مسرعة في الاخاديد التي خلفتها العربات على الطرق . وجفت الجثث على الاكمات ، ناظرة بعيونها الميتة الى السماء اللازوردية .

— انظر ، انه روتشين . وحق الرب ! روتشين كيف جئت الى هنا ؟

هتفوا بذلك من عربة مارة . التفت روتشين . كان ثلاثة اشخاص رؤوسهم ملفوفة ، واذرعهم مرفوعة على شيالات يجلسون في عربة ملطخة محطمة يسوقها قوزاقي مدلهم السحنة يلقى على كتفيه فروة خروف رثة . حيّا احد هؤلاء روتشين بهزات عديدة من رأسه ، وانفرجت شفتاه المتشققتان عن ابتسامة . كان رجلا طويلا هزيلا تبدو رقبته مشرئبة من تحت ياقته . لم يكد روتشين يتعرف عليه زميلا له في الفوج يُدعى فاسكا * تيبلوف كان آنذاك مورد الوجنتين مرحا يهوى النساء والخمرة . سار صامتا الى العربة وتعانق معه وقبّله قائلا :

— قل لي ، تيبلوف ، الى مَنْ يجب ان اتوجه ؟ من هو رئيس

* صيغة لاسم فاسيلي . ـ المترجم .

هيئة الاركان عندكم ؟ انظر الى كتافيتى ، قد شددتهما بدبابيس . عربت الى جانبكم يوم أمس فقط .

– اصعد . قف يا ساقل !

صاح تيبلوف على السائق . دمدم القوزاقى ، الا انــه اوقف العربة . صعد روتشين فى ركن العربة ، ودلى ساقيه فوق عجلتها . كانت رحمة إلهية أن يركب فى عربة تحت شمس حـــارة . وروى مغامراته منذ خروجه من موسكو بلهجة جافة كلهجة تقريــر . سعل تيبلوف قليلا وقال :

– ساذهب بنفسى معك الى الجنرال رومانوفسكى ... نصل الى القرية ، ونتناول طعاما ، واقضى شغلك فى لمح البصر ... يا عجيب ! تريد ان تظهر امام الرئاسة راسا فتقول : قد عربت من عصابة الحمــر ، ولى الشرف فى الحضور ... انت لا تعرف جماعتنا . لن يدعوك تصل الى هيئة الاركـــان .. يطعنونك ... انظر ، انظر – واشار الى جثة طويلة فى معطف ضابط – اتـــــه ميشكا * ، البارون كورف ... واتته المنية ... لعلك تذكره ... كان فتى رائعا ... اسمع ، هل معك سكائر ؟ أوه ، مـــا اجمل الصباح ! بعد غد ، يا عزيزى ، سنصل الى يكاترينودار . وننام على اسرة ، ثم نخرج الى البولفار ! موسيقى ، واوانس ، وجعة !

وضحك ضحكة عالية بهيجة . وتجعد وجهه السقيم المسحوب حتى العظم ، وتوهجت على وجنتيه بقع الحمى .

– وهكذا ستكون فى روسيا كلها موسيقى ونساء وجعة . سنستريح شهرا فى يكاترينودار ، وننظف انفسنـــــا ، ثم الى التنكيل ... ها – ها ! لسنا حمقى الآن ، يا عزيزى . كسبنـــا بالدم أمر التصرف بالامبراطورية الروسية . سنريهم ما هـــو النظام ... السَّفَلة ! انظر اليه ميتا – واشار الى منحدر ساقية حيث كان يرقد رجل فى سترة مـــن فراء الغنم ممددا بشكل غير طبيعى – لا بد انه واحد من امثال دانتون ** عندهم ...

---

* صيغة لاسم ميخائيل . – المترجم .

** دانتون جورج جاك ، شخصية بارزة فى الثورة الفرنسيـــــة البرجوازية فى اواخر القرن الثامن عشر . – المترجم .

لحقت العربة عجلة مخلخلة من الاغصان المضفورة . كان فيها رجلان ملطخان بالوحل ، وقد القيـا ياقتىّ معطفيهمـا الى الوراء ، وقبعتاهما الفرائيتان مبللتان . كان احد الرجلين ضخما ذا وجه داكن مرتخ ، والثانى ذا لحية رماديــــة مرسلة ، وانتفاخين تحت عينيه ، وقد وضع ممسك سيكارة طويل فى زاوية فمه الرخو .

قال تيبلوف ، وهو يومىء برأسه عليهما :

– حماة الوطن . ولكن سنتحمل من قلة الخيل . . ينفعون .

– السمين هو غوتشكوف على ما يبدو . صحيح ؟

– نعم ، هو ، وسيعدم رميا فى وقته ، يمكن ان تطمئن . . . اما الذى يضـــع ممسك السيكارة فى فمـــه فهو بوريس سوفورين ، وهو ايضا من قلة الخيل . . يبدو أنه من انصار القيصر . ولكن ليس بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ! انه مراوغ ، ولكنه صحفى قدير . . . لن نعدمه . . .

دخلت العربــة القريــة . بدات البيوت وراء الحدائق الصغيرة مقفرة . وما تزال بقايا الحرائق ترسل دخانــا . وقد تناثرت بعض الجثث التى غطست فى الوحل الى النصف . كانت طلقات منفردة تتردد هنـــا وهناك . انهم يقضون على الاغراب الذين لجاوا الى كوبان من المناطق الاخرى والذين اخرجوا من السراديب والشونـــات . كانت العربات تقف فى الساحة بلا نظام . وكان الجرحى يصيحون من عربات نقلهـم . وكانت الممرضات يتنقلن بين العربات معذبات مذهولات بسبب التعب فى معاطف جنود قذرة . ومن الفناء ارتفع صياح يشبه صياح حيوان وضربات سياط . وكان الخيالة يعدون على خيولهم . وعند احد الأسيجــة جماعة من طلاب المدارس العسكريــة يشربون الحليب من جردل صفيح .

كانت الشمس تشـــع بمزيـــد من السطوع والحرارة فى اعماق السماء الزرقاء المكشوفة للريـــح . ومن خشبـــة بين شجرة وعمود تلغراف تدلت مترنحة مع الريح جثث مَلْوِية الرقاب اقدامها العارية مدلاة بمقدماتها نحو الأرض . انها جثث سبعة من الشيوعيين اعضاء فى اللجنة الثورية والمحكمة العسكرية .

وجاء آخر يوم من حملـة كورنيلوف . ظلل المستطلعون الفرسان عيونهم باكفهم اتقاء الشمس ، وراوا فى الضباب الصباحى قباب يكاترينودار المذهبة وراء نهر كوبان الكدر .

كانت مهمة وحدة الخيالة الصدامية أن تنتزع من الحمر المعدية الوحيدة الموجودة فى تلك الاماكن لعبور نهر كوبان بالقرب من قرية يلزافيتينسكايا . وكان ذلك خديعة جديدة لكورنيلوف . فقد كان من الممكن ان يتوقعوه من الجنوب ، من ناحيـة قريـة نوفو ـ دميتروفسكايـا ، ومن الجنوب الغربى على خط نوفوروسييسك ـ يكاترينودار الحديدى . اما أن يختار اخطر إلتفافة غرب المدينة ، فى مكان لا جسور فيه ، بل معدية واحدة يعبر عليها جيش كامل عبر مياه كوبان السريعة الجريان ، قاطعا بذلك كل امكانية للتراجع ، فانـه تكتيك لاجتياح المدينة لـم يكن من الممكن ان يتنبأ به افتونوموف رئيس هيئة اركان القوات الحمراء . ولكن كورنيلوف الماكر مثل ثعلب عجوز اختار هذا الطريق بالذات ، لأنه اقل حماية ، ويتيح راحة من القتال ليومين او ثلاثة ايام ، و يخرج بالجيش الى بساتين وحدائق يكاترينودار مباشرة .

سُدّ النقص فى الذخيرة عند احتلال محطة آفيبسكايا على الخط الحديدى ، حيث نسف جيش المتطوعين سكة الحديد ليأمنوا انفسهم من نيران القطارات المصفحة . ومع ذلك فان رشاشات احد قطارات الحمر اصابت جناح المهاجمين الذين كانوا يخوضون فى ماء موحل كثيف بعد ذوبان الثلـج . وعندمـا كان شريط الرصاص ، وهو يرفـع نوافير الماء ، يصطدم بهـم كانوا يسقطون على الماء كالبط غاطسين برؤوسهم ، ثم يخرجون رؤوسهـم ويتراكضون . دافعت حامية محطة آفيبسكايا دفاع المستميت . الا أن الحمر كانوا فى حالة ميئوسة ، لأنهم كانوا فى موضع دفاع فقط ، وكان العدو يهاجم .

وكانت وحدات جيش المتطوعين تطوق المحطة وتحيطها ببطء وبصفوف ملتوية . كانت الشمس تغمر الوادى الازرق ، وقد طلعت من سطح الماء الاشجار واكوام القش وسطوح الضياع ، بينما كانت ظلال غيوم الربيع يطارد بعضهـا بعضـا عبر مياه الفيضان . كان كورنيلوف بسترتـه الفرائيـة ، وكتافيتى الجنرال الناعمتين ، وبالمنظار والخارطـة يتقدم بجواده هيئة اركانـه فى ذلك المنبسط

الصقيل . كان يعطى الاوامر لمرافقيـه الذين كانوا يعدون ممتطين افراسهم الهزيلة فى طرطشة من الماء . وذات مرة وقع تحت النار ، وجرح الجنرال رومانوفسكى الذى كان يسير الى جانبه جرحا خفيفا .

حين تم إلتفاف حول المحطة من الغرب ، وبدا الهجوم العام ، وساط كورنيلوف حصانه بمقرعته ، وتوجه خببا باتجاه المحطة مباشرة ، اذ لم يكن يشـك فى النصر . وهنـاك بين الخطوط الحديدية ، والقطارات المهجورة وبنايات السكك والعنابر والمخازن كانت القوات المقتحمة تفتك بالحمر . وكان ذلك آخر نصر لجيش المتطوعين وادماه .

هرع العقيد نيجنتسيف المورد الخدين الفتوى الى كورنيلوف منفعلا قافزا بين الجثث ، وابلغـه ونظارته الانفيـة تلمع فوق عينيه :

ـ يا صاحب السيادة ، احتلت محطة آفيبسكايا .

فاسرع كورنيلوف يقاطعه بنفاد صبر :

ـ وهل استوليتم على القذائف ؟

ـ نعم ، يا صاحب السيادة ، سبعمائة قذيفة ، واربع عربات من الخراطيش .

ـ حمدا لله ! حمدا لله . . .

ورسم كورنيلوف علامة صليب عريضة ، فخدش ظفر خنصره معطفه المتصلب .

عندئذ اشار نيجنتسيف له بعينيـه الى حشـد من الصداميين واقف عنـد المحطـة . انهـم فوج خاص من السفاكين المغامرين يشدون على اكمامهـم مثلثا من ثلاثة الوان . كانوا يقفون معتمدين على بنادقهم ، وكانهم بعد صعودهم فى جبال حادة الانحدار . تجمدت وجوههم فى تكشيرة الجنون المتعبة ، وكانت ايدى ووجوه الكثيرين منهم مدماة ، وعيونهم هائمة .

ـ انقذوا الوضع مرتين ، وكانوا أول المهاجمين ، يا صاحب السيادة .

ـ طيب !

ضرب كورنيلوف حصانه ، وعدا عليه بكامل سرعته ، رغم ان المسافة لم تكن كبيرة ، ووصل الى الصداميين (اضطرب هؤلاء على

الفور ، واسرعوا يصطفون باستقامة) جذب كورنيلوف عنان فرسه بتلك الحركة القوية التى تصور عادة فى التماثيل التذكارية ، ودفع راسه الى الوراء ، وصاح بصوت حاد :

— شكرا ، يا نسورى ! اشكركم على العمل الرائع ، ومرة اخرى على أنكم استوليتم على القذائف . . . انحنى لكم إجلالا . . .

بعد أن حصل الجيش على احتياطى من الذخيرة بدأ يعبر نهر كوبان على المعدية الخشبية التى استولت عليها فصيلة الخيالة الصدامية . وكان عدد الجيش فى ذلك الوقت تسعة آلاف رجل ، واربعة آلاف فرس . واستمر العبور ثلاثة ايام . وامتدت وحداته العسكرية والعربات والناقلات والمعدات الحربية على جانبى النهر مثل معسكر هائل . خفقت ريح الربيع بالبياضات المغسولة المدعوكة المنشورة على اعمدة العربات . وتصاعد الدخان من نيران المعسكر . وكانت الخيول المربوطة ترعى فى المروج . وصعد الضباط المبتهجون الى العربات وسعوا ، والمناظير على عيونهم ، ان ينفذوا عبر الغبش المزرورق ليروا حدائق وقباب المدينة الموعودة .

— بالشرف ، نحن كالصليبيين وقد اقتربوا من القدس .

— هناك كانت يهوديات ، اما فى هذه المدينة فبروليتاريات . . .

— سنعلن النساء ملكية مشتركة . . . ها — ها . . .

— الى الحمام ، ثم البولفار ، وبعدها الجعة !

لم تجر من جانب يكاترينودار محاولة لعرقلة العبور . ولكن رجال الاستطلاع كانوا يطلقون بعض الطلقات بين الحين والآخر . عزم الحمر على الدفاع . اسرع أهل المدينة جميعا بمن فيهم النساء والاطفال فى حفر الخنادق ، ومد الاسلاك الشائكة ، ونصب المدافع . وقدمت من نوفوروسييسك فصائل من بحارة البحر الاسود ، وجلبوا معهم مدافع وقذائف . وخطب المفوضون فى الوحدات العسكرية عن الجوهر الطبقى لجيش المتطوعين بقيادة كورنيلوف ،

وان وراءه «البرجوازية العالمية التى لا تعرف الرحمة ، والتى سنخوض ضدها معركة حاسمة ، ايها الرفاق» واقسموا على ان يموتوا ولا يسلموا يكاترينودار .

وفى اليوم الرابع خرج جيش المتطوعين للاستيلاء على عاصمة كوبان .

واستقبلت صفوف المتطوعين المهاجمة نارا حامية من البطاريات المنصوبة فى محطة البحر الاسود ، ومن الارصفة على نهر كوبان . الا ان وعورة المكان والبساتين والسواقى والاسيجة ومجارى الجداول مكنتهم من الاقتراب من المدينة دون خسائر كبيرة .

وهنا نشبت المعركة بالقرب مما يسمى «المزرعة» عند بيت ابيض يقع على مشارف أجمة من اشجار الحور ما زالت عارية الاوراق على ضفة كوبان العالية ، حيث ابدى الحمر مقاومة صلدة واكتسحوا ، الا انهم عادوا فهجموا بحشود كثيفة على نيران الرشاشات ، واستولوا على المزرعة ، وبعد ساعة اجبرهم على التراجع قوزاق كوبان وهم مشاة الصدام والاستطلاعيون بقيادة العقيد اولاغاى .

وفى الحال اتخذ كورنيلوف مقرا لهيئة اركانه بيتا من طابق واحد فى المزرعة . ومن هناك كانت تشاهد بوضوح شوارع يكاترينودار المستقيمة ، وبيوتها البيضاء العالية ، والحدائق الامامية والمقبرة ، ومحطة البحر الاسود ، وامام كل هذا المنظر صفوف الخنادق الطويلة . كان نهارا ربيعيا ساطعا خفاق الريح . وكانت ادخنة الطلقات تتطاير فى كل مكان ، وهدير المدافع المستمر يهز المنبسط المزرق اهتزازا ثقيلا يجفل له القلب . ولم يظن الحمر ولا البيض بالانفس فى ذلك اليوم .

خصصت للقائد كورنيلوف حجرة فى ركن من البيت الابيض ، ونصبت تلفونات الميدان ووضعت منضدة ومقعد وثير . وقد دخل اليها حالا ، وجلس الى المنضدة ، وبسط الخارطة ، وغرق فى تامل حركات اللعبة التى قد بدأها . وكان مرافقاه — الملازم دولينسكى والخان خاجييف — يقفان احدهما عند الباب ، والثانى عند التلفونات .

كان وجه القائد المغولى القسمات المتغضن النحيل متجهما كما لم يتجهم من قبل . كان الشيب قد غزا نصف شعره المنتصب ويده الصغيرة الجافة بخاتمها الذهبى تستلقى على الخارطة بلا حياة . انه وحده ، خلافا لنصائح الكسييف ودنيكين والجنرالات الآخرين ، قرر ان يقوم بهذا الهجوم ، والآن فى نهاية اليوم الأول تزعزعت ثقته بنفسه . ولكن ما كان ليعترف بذلك حتى مع نفسه .

لقد وقع خطآن : الأول ان ثلث القوات مع الجنرال ماركوف قد أُبقى على المعبر لحفظ العربات ، ولهذا لم تكن الضربة الاولى ضد يكاترينودار مركزة بشكل كاف ، ولم تجلب ما كان متوقعا منها . فقد صمد الحمر ، وتشبثوا بالخنادق ، وثبتوا فيها على ما يبدو برسوخ . والخطأ الثانى هو فى تطبيق نفس تكتيك الحملة التنكيلية على يكاترينودار ، مثلما طبق على القرى التى احتلت فى الطريق ، فقد طوقت المدينة من كل الجوانب (على الجناح الايمن بفرقة مشاة واستطلاعيين على طول النهر حتى مصانع الجلود ، وعلى الجناح الايسر بتغلغل الخيالة بقيادة اردلى) لغرض سد جميع المنافذ والمخارج والتنكيل بالمدافعين عن المدينة وباهاليها رميا بالرصاص وشنقا وضربا باعتبارهم «قطاع طرق» و «رعاعا متمردين» . فان هذا التكتيك قد ادى الى ان يقرر المقاومون ان الموت فى ساحات المعارك افضل من الموت على اعواد المشانق . فقد كان الناس يصيحون فى طول المدينة وعرضها ان «كورنيلوف قد عزم على الفتك بالجميع !» فاذا بالنساء والفتيات والاطفال والشيوخ يندفعون تحت وابل الرصاص الى الخنادق ومعهم جرار الحليب والفطائر يطعمون المدافعين قائلين : «كلوا ، يا بحارة ! كلوا ، يا جنود ! يا رفاقنا الاعزاء ، اصمدوا من اجلنا ...» ومضوا يزودون المدافعين بالطعام ، ويحملون لهم صناديق العتاد ، رغم أن الخيالة كانوا يعدون على افراسهم فى كل مكان ، ولا سيما عند المساء صائحين : «ابتعدوا عن الشوارع ! الى البيوت ! اطفئوا الانوار !..»

وهكذا كان التفوق للحمر فى اليوم الأول . فقد البيض فى ذلك اليوم ثلاثة من افضل القادة عندهم ، وحوالى الف ضابط وجندى وانفقوا ، دون هدف ملموس ، أكثر من ثلث ذخيرتهم .

ووصلت من نوفوروسييسك قطارات تصف محطمة متتالية

مخترقة اغطية النيران محملة بالبحارة والقذائف والمدافع . وتراكض المقاتلون من العربات الى الخنادق مباشرة . وكانت الخسائر فادحة بسبب كثافتهم وانعدام القيادة .

ظل كورنيلوف جالسا الى الخارطة لا يبارح غرفته فى المزرعة . وقد أدرك أن هناك امرين لا ثالث لهما : اما الاستيلاء على المدينة أو الهلاك للجميع . وبلغ تفكيره الى حد الانتحار . . . ان الجيش الذى كان قائده الأوحد يذوب مثل جنود من القصدير القوا فى موقد . ولكن ذلك الرجل غير الهيّاب وقليل الذكاء كان عنيدا كالثور .

كان حوالى عشرين من الضباط الجرحى جالسين فى الشمس المتوقدة على مدرج الكنيسة فى قرية يلزافيتينسكايا . ومن الشرق كان هدير المدافع يترامى قويا تارة خافتا اخرى . بينما هنا ، فى السماء الصافية فوق برج الجرس الذى اصيب بقذيفة فقد كانت الحمامات تصعد باستمرار . كانت الساحة امام الكنيسة مقفرة ، والبيوت بشبابيكها المحطمة مهجورة . والى جانب سياج من الاغصان المضفورة حيث كانت البراعم تتنفخ فى اجمة لليلك كانت ثمة جثة نصف مدفونة منكفئة على وجهها يكثر عليها الذباب .

كان الضباط على مدرّج الكنيسة يتحدثون باصوات خفيضة :

— كانت لى خطيبة جميلة ، فتاة رائعة ما ازال اتذكرها فى فستان وردى مكشكش . اين هى الآن ؟ لا ادرى .

— نعم ، الحب ... شىء لا يصدق ... ان الحياة الماضية تجذب كثيرا ... نساء نظيفات ، وأنت حسن الهندام تجلس هادئا فى مطعم ... آه ، ما اجمل ذلك ، يا سادة ...

— ان هذا البلشفى مقزز الرائحة ... لطيف لو يدفن ...

— سياكله الذباب .

— سكوتا ... على مهلكم يا سادة ... مرة اخرى اشتد القصف ...

— صدقونى انها خاتمة المطاف . جيشنا الآن فى المدينة .

صمت . والتفت الجميع ينظرون صوب الشرق حيث كان الدخان والغبار يخيم على يكاترينودار مثل سحابة رمادية صفراء . ويتقدم ضابط نحيل كالهيكل العظمى اصهب الشعر وهو يعرج ، ويقول :

– فالكا* مات الآن . . . كان يصرخ : «ماما ، ماما . . هل تسمعينني ؟ . .»

بينما كان صوت حاد يقول من اعلى المدرّج :

– الحب ! وآنسة فى فستان مكشكش . . . هراء . احاديث لا قيمة لها . زوجتى احلى من خطيبتك ذات الفستان المكشكش . . . ومع ذلك ارسلتها الى . . . (ونخر من انفه غاضبا .) ثم انك تكذب على اية حال . لم تكن لك خطيبة . . . مجرد مسدس فى جيبك ، وسيف الى جنبك – تلك هى كل عائلتك وما اليها . . .

توقف روتشين الذى كان يقوم بدورية عند الكنيسة ومعه بندقية ، ونظر الى المتحدث بامعان . كان وجهه صبويا اشقر الشعر ذا انف افطس ، وفم محاط بغضنين عميقين ، والعينين شائختين ثقيلتين بلون ازرق كدر ، مسهدتين شبيهتين بعينى قاتل . اعتمد روتشين على بندقيته (كانت قدمه ما تزال توجعه) وطافت فى ذهنه افكار ملحاحة . عادت اليه ذكرياته عن كاتيا المهجورة اشفاقا حادا . وضع جبينه على حديد الحربة البارد ، وردد مع نفسه : «كفى ، كفى ، ان هذا ضعف ، لا حاجة لكل ذلك . . .» ونفض الافكار عن راسه ، وسار على العشب الطرى . «لا وقت للاشفاق ، لا وقت للحب . . .»

وقف رجل ركين متجهم الى جانب حائط آجرى اصيب بقذيفة ، وراح يحدق من خلال منظاره . كانت لطخات من الطين الجاف تلطخ سترته الجلدية الجميلة ، وبنطاله الجلدى وكذلك الحذاء القوزاقى . وبين حين وآخر كانت رصاصة تصيب الحائط الآجرى بالقرب منه .

وعلى بعد مائة خطوة الى الاسفل منه وضعت بطارية وصناديق القذائف الخضراء . وكانت الخيول قد جلبت الى السياج من توها ، فكانت واقفة متدلية الرؤوس تخرج روثا يتصاعد البخار منه . كان طاقم البطارية يقرفص ضاحكا مدخنا على مسندات المدافع يتطلع نحو

---

* صيغة لأسم فالنتين . – المترجم .

الآمر ذى المنظار . كان الجميع بحارة ما عدا ثلاثة من رجال المدفعية مهلهلى الثياب ملتحين .

كان الدخان والغبار يحجب الافق ، وخطوط الخنادق وتعرجات الارض والبساتين . وكان ما لمحه الآمر قد ظهر بغير وضوح ، واختفى من مجال الرؤية . ظهر بحار نحاسى البشرة فى قميص بحار داخلى فقط من وراء البيت الذى يقف الآمر عنده ، وتسلل كالقط على طول الجدار ، وجلس عند قدمى الرجل الركين ، وطوق ركبتيه بذراعيه القويتين الموشومتين ، وقلّص قليلا عينيه الصهباوين كعينى الباشق . وقال بصوت خفيض :

– عند الشاطئ تماما شجرتان ، هل تراهما ؟

– اذن ؟

– وراءهما بيت صغير ، اترى جدرانه البيضاء ؟

– اذن ؟

– انه المزرعة .

– اعرف .

– انظر الى اليمين تجد حرشا . وهناك الطريق .

– ارى .

– فى الساعة الرابعة جرى بعض الخيالة هناك يعدون على افراسهم ، واخذ بعض الناس يدبون . وفى المساء جاءت عربتان . هناك يقبع الشيطان لا فى اى مكان آخر .

– انزل الى الاسفل .

قال الرجل الركين بلهجة آمرة ، ودعا آمر البطارية . صعد الى المرتفع رجل ملتح يرتدى سترة من فراء الغنم . قدم له الرجل الركين منظاره ، فراح هذا ينظر وقتا طويلا . وقال بصوت مزكوم :

– ضيعة سلوساريف ، المزرعة ، المسافة اربعة فراسخ وربع . يمكن توجيه النار على ضيعة سلوساريف .

واعاد المنظار ، ونزل الى الاسفل بحركة غير موزونة ، وصاح بملء حنجرته :

– بطارية ،استعداد ! المسافة . . . القذيفة الأولى . . . نار . . .

ودوّت المدافع بهدير الرعد ، وتراجعت المواسير على المكابس

مرسلة لهبا ، وانطلقت القنابل الثقيلة حاملة الموت الى شاطىء كوبان المرتفع ، الى شجرتي الحور ، حيث كان كورنيلوف الجهم يجلس الى الخارطة فى البيت الأبيض .

فى اليوم الثانى من الهجوم استدعى الجنرال ماركوف مع فوج الضباط الذى كان يحمى معبر عربات الجيش . وكان روتشين جنديا فى هذا الطابور . وبساعة واحدة قطعت الفراسخ السبعة الى يكاترينودار فى جو أكثر تلففا بالغبار من جو يوم امس بسبب قصف المدفعية . كان ماركوف يسير فى المقدمة فى قبعته القوزاقية المدفوعة الى قفاه ، وسترته المبطنة بالقطن المفكوكة الازرار . كان يخاطب عقيد هيئة الاركان الذى كان يسير وراءه ولا يكاد يلحق به لاعنا شاتما القيادة العليا :

– لعنة ! قطعوا اللواء الى اجزاء ، وتركونى مع طابور العربات وجعلونى اقبع هناك ... فلو اطلقونى مع اللواء لكنت فى يكاترينودار منذ زمان ...

وقفز عبر ساقية ، ورفع سوطه ، واستدار نحو الطابور الممتد عبر حقل اخضر ، ورفع صوته بالايعاز حتى انتفخت عروق رقبته ...

اخذ الضباط اللاهثون بوجوههم المهمومة العرقة يتراكضون ، واستدار الطابور ، وكأنه على محور ، وامتد فى الحقل بأربعة خطوط متذبذبة مواجها المدينة . وكان روتشين غير بعيد عن ماركوف . وقفوا عدة دقائق ، وجربوا ترابيس البنادق ، وعدّلوا وعاينوا اكياس الخراطيش . واصدر ماركوف امره الثانى ماطا حروف العلة . فانفصلت جماعة الحرس وهرولت متقدمة الى الأمام . وسارت الصفوف وراءها .

التقوا الى اليسار بعربات بائسة تحمل الجرحى فى الدرب المطروق . وكان بعضهم يمشون على الاقدام منكسى الرؤوس . وكان جرحى كثيرون جالسين على حواف السواقى وعلى العربات المنكفئة . وبدت العربات والجرحى بعدد لا يحصى ، الجيش كله .

لحق بالفوج على فرس فاحم رجل ضخم ممتلىء ذو شاربين . كان يشد شريطا أحمر على قبعته ، ويرتدى سترة مفصلة على قده عليها شرائط كتفية لادارة مؤنة الجيش . هتف للجنرال ماركوف بشىء ما مرحا ، الا ان هذا استدار ، ولم يجب . انه رودزيانكو الذى غادر طابور عربات الجيش ليشاهد عملية الاستيلاء على يكاترينودار .

توقف الفوج مرة أخرى . جاء الايعاز من بعيد . فراح الكثيرون يدخنون . صمتوا جميعا ينظرون الى حيث راحت جماعة الحرس تختفى بين السواقى والاكمات . لوّح الجنرال ماركوف بسوطه . وسار باتجاه حرش اشجار الحور العالى . كان عمود اشعث من الدخان يتصاعد على فترات قصيرة من اعماق الاشجار البادئة الاخضرار ، وتتطاير نوافير من كتل التراب والاغصان .

وقفوا طويلا . وتجاوزت الساعة الرابعة . ظهر فارس من وراء الحرش ، وجاء يعدو منكبا على عنق حصانه . ورأى روتشين حصانه المزبد الشدقين يدور عند ساقية ، خائفا ان يقفزها ، ثم هز الحصان ذيله وقفز . وطارت الطاقية من راس الفارس . وحين وصل الى الفوج هتف :

– الهجوم ... ثكنات رجال المدفعية ... الجنرال فى المقدمة ... هناك ...

واشار بيده الى حيث لاح عدة اشخاص على اكمة لمعت بينها قبعة فرائية بيضاء . وصدر الأمر :

– الصف ، الى الأمام !

تقلصت حنجرة روتشين ، وجفت عيناه . شعر لحظة من الرعب والنشوة اختفى فيها الاحساس بالجسد ، وبزغت الرغبة فى الجرى ، فى الصياح ، فى اطلاق النار ، فى الطعن ، فى ان يمتلىء القلب بالدم فى لحظة النشوة هذه ، كتضحية ...

تحرك الصف الأول ، وسار روتشين على جناحه الايسر . ها هى الأكمة حيث وقف الجنرال ماركوف فارجا ساقيه ، ووجهه الى الفوج المهاجم .

كان يكرر : «ايها الاصدقاء ، ايها الاصدقاء ، الى الأمام !» وبدت عيناه المتقلصتان دائما متسعتين رهيبتين فى تلك اللحظة .

ثم رأى روتشين انصال العشب الجافة الناتئة . وفى كل مكان فيهـا كان يرقد انـاس مرتمين كالزكـائب – على وجوههـم او على جنوبهم – بلا حراك ، فى قمصان الجنود ، فى ستر البحارة ، فى معاطف الضباط . ورأى امامه سياجا واطئا من الاغصان المضفورة ، واحراشا شائكـة بلا اوراق . كان رجل طويل الوجـه فى صدار جندى مبطن يجلس وظهره الى السياج يفتح فمه ويسده .

قفز روتشين السياج ورأى طريقـا عريضـا . كانت نوافير الغبار تتقدم عليه بسرعة . انهم البلاشفة يطلقون نيران رشاشاتهم على المهاجمين . توقف وتراجع ، وضاق تنفسه ، ونظر وراءه . كان الذين قفزوا السياج من المهاجمين راقدين . ورقد روتشين ايضا ، وضغط خده على الارض الشائكة . وجاهد مجبرا نفسه فرفع رأسه . كان الصف مستلقيا على الأرض . وفى الحقل ، على بعد حوالى خمسين خطوة الى الامام كانت تمتد حدبة ساقيـة . نهض روتشين قافزا . وركض هذه الخطوات الخمسين وثبـا حانيا جذعـه . وخفق قلبـه بجنون . وقع فى طين لزج فى الساقيـة . وجرى الصف كلـه وراءه واحدا وراء الآخر . وسقط واحد او اثنان ولم يصلا الى الساقية . رقد الجميع فى الساقية لاهثى الانفاس . كان الرصاص ينهمر مارقا فوق رؤوسهم ، فى اعلى الساقية .

الا ان شيئا قد تغير الى الأمام فجأة . بدأت القذائف تنصب نحو الثكنات من ناحية غير محددة . وضعفت نار الرشاشات .

نهض الصف بجهد ، واندفع الى الأمام . ورأى روتشين ظله الطويل الداكن الحمـرة المنزلق على الحقل الوعـر . كان يلتوى ، ويقصر تارة ويطول اخرى الى ما لا نهايـة . وفكر مع نفسـه : «يا للغرابة ، ما زلت حيا ، بل والقى ظلا على الأرض» .

اشتد اطلاق النار مرة اخرى من ناحية الثكنات ، الا ان الصف الناحل الآن استلقى على بعد مائة خطوة منها فى الوهدة العميقـة . وهناك فى قاع الوهدة الصلصالى الرمادى كان ماركوف يروح ويجئ بعينين رهيبتين . وكان لا يفتأ يردد :

– يا سـادة ، يا سـادة . . . مهلة قصيرة . . . دخنوا ، اللعنة . . . وتكون الضربة الاخيرة . . . الأمر هين . . مجرد مائة خطوة . . .

وكان الى جانب روتشين ضابط قصير القامة اصلع كان يكرر بصوت خفيض نفس الشتائم البذيئة وهو ينظر الى حافـة الوهدة المرسلة غبارا من ارتطام الرصاص عليها . وكان بعض الرجال قد استلقوا وغطوا وجوههم بأذرعهم . وقرفص رجل وامسك بجبينـه وهو يتقيأ دما . والكثيرون كانوا يروحون ويجيئون فى قاع الوهدة كالضباع فى قفص . وصدر امر : «الى الأمام ، الى الأمام !» وبدا وكأن احدا لم يسمعه . شد روتشين حزامـه بحركة مرعوصـة ، وامسك بأغصان اجمة ، وزحف الى الاعلى . انزلق ، فكز على اسنانه ، واعاد الكرة . وفى اعلى الوهدة رأى ماركوف جالسا القرفصاء . وهو يصيح :

– هجوم ! الى الامام !

ورأى روتشين على بعد بضع خطوات الى الأمام نعلى ماركوف المثقوبين . وسبقه بعض الأشخاص . كانت الشمس الغاربـة تغمر بضوئها جدار الثكنات الآجرى ، وتسطع بتوهجها على شظايا زجاج النوافذ المهشـم . خرج بضعة اشخـاص من الثكنات ، وركضوا فى الحقل الى البيوت البعيدة ذات الحدائق الامامية . . .

كان رهط من المدنيين والجنود يقفون على مقربة من آلة جمباز محطمة ملقاة فى الفناء الرملى لثكنات رجال المدفعية . كانت الوجوه شاحبة ممدودة منهمكة ، والعيون مسبلة ، والايدى مدلاة بلا حياة .

وامامهم وقف عدد اقل من الضباط معتمدين على البنادق . كانوا ينظرون الى الاسرى ببغض شديـد . وكان هؤلاء، واولئك صامتين ينتظرون . واذا بالنقيب فون ميكه قد دخل الفناء مسرعا متوثبا – وقـد عرفـه روتشين – نفس الرجـل صاحب العينين الثقيلتين المسهدتين الشبيهتين بعينى قاتل . صاح مرحا :

– الجميع . . . الأمر لجميعهم . . . يا سادة ، ليتقدم عشرة منكم . . .

وقبل ان يتقدم عشرة من الضباط مقرقعين بترابيس بنادقهم حدثت حركة بين الاسرى . خلع احدهم – وهو رجل عريض الصدر ضخم – قميصه من فوق رأسه . وصرخ آخر بصوت متهدج ، وكان مدليا عليلا بلا اسنان اذ شاربين سوداوين مستقيمين :

– اشربوا ،ايها الطفيليون ، دم العمال !

وتعانق اثنان بقوة . وانشد صوت مبحوح نشيد «الاممية»

بنغمـة مختلة : «هب يا عالم العمال . . . .» اسند الضباط العشرة بنادقهم على اكتافهم . وفى تلك اللحظة احس روتشين بنظرة ثاقبة . فرفع بصره . (كان جالسا على صندوق يخلع حذاءه .) كانت عينان (اذ لم ير الوجـه) تحدقان فيـه بتعطيف لحظـة الموت ، وبرفعـة شامخة . . . «عينان رماديتان اليفتان حبيبتان ، يا آلهى !»

— نار!

وانطلقت الطلقات متفرقة عجلى . وارتفـع انين وصياح . احنى روتشين رأسه الى الاسفل ، وراح يشد قدمه التى خدشتها رصاصة بخرقة قذرة .

وكاليوم الاول لم يجلب اليوم الثانى نصرا لجيش المتطوعين . صحيح ان ثكنات رجال المدفعية قد احتلت على الجناح الايمن ، الا انه لم يتقدم فى الوسط خطوة واحدة ،وفقد الفوج الذى كان يقاتل هناك آمره المقدم نيجنتسيف محبوب كورنيلوف . وعلى الجنـــاح الايسر تراجع فوج الخيالة بقيادة ارديلى . وابدى الحمر مقاومة لم يبدوا مثلها من قبل ، ورغم ان الجرحى كانوا فى كل بيت تقريبا فى يكاترينودار . وقتل الكثيرون من النساء والاطفال قرب الخنادق وفى الشوارع . ولو كان هناك قائد مقتدر مكافح يوجـه الهجوم العام للحمـــر بدلا من افتونوموف لدحر جيش المتطوعين حتما وابيد ، وقد تهلهل وشاعت الفوضى فى وحداته .

وفى اليوم الثـــالث ، وبعـــد ان سـدت الشواغر فى افواج المتطوعين على نحو ما ارسلت للهجوم مرة أخرى ، وصدت مرة أخرى الى نقاط انطلاقها . والكثيرون القوا بنادقهم ، ولاذوا فى المؤخرة ، فى طوابير العربـــات . ويئس الجنرالات . وزار الجنرال الكسييف المواقع ، وهز رأسه الاشيب ، وانصرف . ولكن احدا لم يجرؤ على ان يذهب الى القائد العام ويقول له ان اللعبة قد خسرت ، وانه حتى وان شقوا طريقهـم الى يكاترينودار بمعجزة فان من المستحيـل الاحتفاظ بالمدينة منذ الآن .

بعــد ان قبّـل كورنيلوف جبين المقدم المحبوب الميت نيجنتسيف الذى جلب على عربة الى المزرعة تحت نافذة غرفته اطبق فمه ولم يتحدث الى انسان بكلمة واحدة ، الا مرة واحدة حين انفجرت قنبلة شرابنيل قرب بيتـه ، وخرقت رصاصة واحدة منهـا النافذة

واصابت السقف ، عندئذ اشار الى تلك الرصاصة باصبع جافة ، وقال للمرافق خاجييف لسبب ما :

— احتفظ بها ، يا خان .

فى ليلة اليوم الرابع ارسل أمر القائد العام على كل تلفونات الميدان : «واصلوا الهجوم» .

ولكن فى اليوم الرابع اصبح واضحا لكل انسان ان زخم الهجوم قد ضعف كثيرا . ولـم يستطـع الجنرال كوتيبوف الذى خلف نيجنتسيف القتيـل ان ينهض للقتال فوج كورنيلوف (وهو احسن فوج فى الجيش) وكان منطرحـــا فى حدائق الخضروات . وكانت الوحدات تقاتل بونى . واستمر فوج ارديلى للخيالة فى تراجعـه . وظل ماركوف يغالب النعاس اثناء السير ، وقد بح صوته من الصياح والسباب ، ولم يستطع ضباطه ان يخرجوا انوفهم ابعد من الثكنات .

فى منتصف النهـار اجتمـع مجلس حربى فى غرفـة كورنيلوف مؤلف من الجنرالات الكسييف ورومانوفسكى وماركوف وبوغايفسكى وفيليمونوف ودنيكين . استمع كورنيلوف الى تقرير رومانوفسكى ضاما رأسه الاشيب الصغير فى كتفيه :

«لا توجـد قذائف ، ولا توجـد خراطيش . والمتطوعون من القوزاق يغادرون الى قراهـم . والافواج كلهـا مهلهلـة . والحالة النفسية مكتئبة . والكثيرون من غير الجرحى يتركون خطوط القتال الى طوابير العربات . . .» وما الى ذلك . . .

كان الجنرالات يصغون مطرقى الابصـار . اتكـأ ماركوف على كتف احد الجنرالات وغفا . وفى الضوء الشاحب (حيث كانت الستارة مسدلة على النافذة) كان وجه كورنيلوف البارز الوجنتين مثل وجه مومياء جافة . تكلم بصوت كامد :

— وهكذا فان الوضع ، يا سادة ، حرج بالفعل . وانا لا اجد مخرجا غير الاستيلاء على يكاترينودار . قررت الهجوم فى فجر الغد على المدينة على طول الجبهة . وقد بقى فوج كازانوفيتش فى الاحتياط . سأقوده بنفسى فى الهجوم .

وتخرمن انفه فجاة . ظل الجنرالات فى جلستهم المطرقة . وبعفوية هتف الجنرال دنيكين الركين ذو اللحية التى وخطها الشيب ، الشبيه بموظف دؤوب ، والمصاب بالتهاب القصبات : «أوه ، يا إلهى ، يا

إلهى !» وسعل ، وسار نحو الباب . القى كورنيلوف على ظهره نظرة خاطفة من عينيه السوداوين اللامعتين . واستمع الى الاعتراضات ، ونهض ، وفض المجلس الحربى . وحدد الاول من نيسان موعدا للهجوم الحاسم .

بعد نصف الساعة عاد دنيكين الى الغرفة ، وما يزال صدره يصفر . وجلس ، وقال برفق :

— يا صاحب الفخامة ، اسمح لى ان اطرح عليك سؤالا من رجل لرجل :

— أنا سامع لك ، يا انتون ايفانوفيتش .

— يا لافر غيورغييفيتش ، لماذا أنت متصلب الى هذه الدرجة ؟

رد كورنيلوف على الفور ، وكأنما حضر هذا الرد منذ زمان :

— لا يوجد مخرج آخر . اذا لا نحتل يكاترينودار ساطلق رصاصة على جبينى . (واشار الى صدغه باصبعه المقضوم ظفره حتى الجلد .)

— لا يحق لك ان تفعل ذلك ! — ورفع دنيكين يديه الممتلئتين البيضاوين جدا الى صدره . — امام الله ، امام الوطن . . . من سيقود الجيش ، يا لافر غيورغييفيتش ؟

— انت ، يا صاحب المعالى . . .

وباشارة من نفاد الصبر جعل مفهوما ان الحديث قد انتهى .

كان صباح الحادى والثلاثين من آذار حارا صاحيا . راحت موجات التبخر تتصاعد من الارض التى اخذت تخضوضر . كانت مياه كوبان الصفراء الكدرة تجرى بكسل بين الضفاف العالية لا يعكر هدوءها غير قفزات السمك . كان الهدوء يخيم . وبين آونة واخرى فقط كانت تنطلق رصاصة ، ويهدر مدفع من بعيد ، وتصفر قنبلة كان الناس يستريحون ليبداوا معركة دموية جديدة فى الغد .

كان الملازم دولينسكى يدخن على مقدمة البيت ويفكر مع نفسه : «اود لو اغسل ثوبى وملابسى الداخلية ، وجوربى . . . ولطيف لو اغسل» . بل كان ثمة طائر طائش يغرد مرحا فى الحرش . رفع دولينسكى راسه واذا به يسمع صوت قنبلة تنفذ فجأة فى الحرش الأخضر ، و تنفجر بقرقعة حديدية . كف الطائر عن التغريد .

القى دولينسكى عقب السيكارة على دجاجة حمقاء لا يُعرف كيف لم يصنع منها حساء . وزفر ، وعاد الى البيت ، وجلس قرب الباب ، الا انه وقف على قدميه فجأة ، ودخل الى الحجرة الخافتة الضوء . كان كورنيلوف يقف عند الطاولة يعدل بنطاله . سال بخفوت :

— الم يهيأ الشاى بعد ؟

— سيكون جاهزا بعد دقيقة ، يا صاحب الفخامة . لقد دبرت الأمر .

جلس كورنيلوف الى الطاولة ، وحط عليها كوعيه ، ووضع كفه الجافة على جبينه ، وفرك غضونه .

— اردت أن اقول شيئا ، يا ملازم . . . أوه ، نسيت . مصيبة . . .

انحنى دولينسكى على الطاولة منتظرا سماع شيء . ان كل ذلك غريبا على القائد العام — الصوت الخافت ، والارتباك — حتى ان ذلك افزعه .

كرر كورنيلوف :

— مصيبة . . . ساتذكر ، بالطبع ، لا تخرج . . . قبل لحظة كنت انظر من النافذة . . . صباح رائع . . . نعم ، الأمر كالآتى . . .

صمت ورفع راسه متسمعا . والآن حتى دولينسكى سمع هدير قنبلة مقترب مثير ، بدا وكانه فى النافذة المسدلة الستار . تراجع دولينسكى . حدث انفجار رهيب فى الأعلى . وتفجر الهواء ، واندلع اللهب . وانقذف جسم القائد العام الى الأعلى منفرج الاعضاء . . .

ووجد دولينسكى نفسه مقذوفا من النافذة . وقعد على العشب ، وقد تغطى بالكلس الابيض ، وشفتاه ترتجفان . وتراكض الناس اليه . . .

كان احد الاطباء يقرفص مشغولا عند جسد كورنيلوف المطروح على نقالة ومغطى الى النصف بسترة قوزاقية . وعلى مسافة وقف رهط من ضباط الاركان ، وكان دنيكين اقربهم الى النقالة ، يضع على راسه طاقية عريضة بطريقة خرقاء .

قبل دقيقة كان كورنيلوف يتنفس ، ولم تكن على جسده اصابات ظاهرة ، مجرد خدش صغير عند الصدغ . كان الطبيب لا

يثير انتباه احد ، ولكنه ادرك فى تلك اللحظة ان كل الانظار متجهة اليه ، وبالرغم من انه كان واضحا له ان النهاية قد حلت ، الا انه ظل يعاين الجسد بهيئة اهتمام . نهض بتؤدة ، وعدّل نظارته ، وهز رأسه ، وكأنه يقول : «مع الاسف ، الطب فى هذه الحال عاجز» .

تقدم منه دنيكين وتكلم معه بصوت مكبوت :

— قل لنا شيئا يسرى عنا .

بسط الطبيب ذراعه ، وقال :

— بلا أمل ! انتهى .

اخرج دنيكين المنديل بحركة راعصة ، وضمه الى عينيه ، وفركهما ، واهتز جسمه الركين واسترخى . اقتربت منه جماعة من ضباط الاركان ، ولم تعد تنظر الى الجثة ، بل الى دنيكين . ركع على ركبتيه ، ورسم علامة الصليب على وجه كورنيلوف الشمعى الاصفر ، وقبّله من جبينه . رفعه ضابطان ، وتحدث ثالث بانفعال :

— يا سادة ، مَنْ يتسلم القيادة ؟

— انا بالطبع ، انا اتسلمها — هتف دنيكين بصوت عال منتحب — هناك أمر بذلك من لافر غيورغييفيتش من قبل ، وقد تحدث الىّ بذلك يوم امس . . .

فى تلك الليلة غادرت جميع وحدات جيش المتطوعين مواقعها بسكون . واتجه المشاة والخيالة وطوابير العربات ومستشفيات الميدان والعربات المحملة بالشخصيات السياسية شمالا صوب ضياع غناتشباو حاملة معها جثمان كورنيلوف وجثمان نيجنتسيف .

وفشلت حملة كورنيلوف . وقتل القادة الكبار ونصف المشتركين فيها . وبدا وكان مؤرخى المستقبل لا يحتاجون الا لبضع كلمات لذكرها .

ولكن فى الواقع كانت «الحملة الجليدية» لكورنيلوف ذات اهمية كبيرة . فان البيض وجدوا فيها لاول مرة لسانهم ، واسطورتهم ، ومصطلحاتهم القتالية صعودا حتى وسام البيض الجديد والذى يصور على شريط غيورغى القديس سيفا وتاجا من شوك .

وبعد ذلك ، وخلال حملات التجنيد والتعبئة ، وفى الجدالات المزعجة مع الاجانب ، وخلال ظهور سوء التفاهم مع السكان طلعوا

بتاج الاستشهاد العظيم كاول وارفع محاججة لهم . ولم تكن هناك معارضة . فلا بأس لو ان احد الجنرالات ، مثلا ، ضرب سكان قضاء كامل باخامص البنادق . فان الذين فعلوا ذلك هم شهداء عظام وخلفاء الشهداء العظام ، ولا يمكن ان يطبق العقاب عليهم .

لقد كانت حملة كورنيلوف استهلالا يرفع بعده الستار عن تراجيديا ، تتابع فيها المشاهد امام الانظار بكثرة موجعة ، وكل مشهد افظع واشد فتكا من سابقه .

٤

قفز الكسى كراسيلنيكوف من مرقاة العربة ، وحمل اخاه على يديه كالطفل ، ووضعه على الرصيف . كانت ماتريونا تقف عند الجرس قرب باب المحطة . لم يعرفها سيميون رأسا ، فقد كانت ترتدى ثوبا من صنع المدينة ، وشعرها الاسود اللامع مشدودا بمنديل ابيض نظيف على موضة سوفييتية جديدة . وكان الخوف مرتسما على محياها الفتى المستدير الجميل ، وشفتاها مطبقتين .

وحين اقترب سيميون مستندا على اخيه لا يكاد يحرك رجليه رمشت عينا ماتريونا البنيتان ، وارتعش وجهها . وقالت بخفوت :

— يا عزيزى . . بهذه الحال صرت !

زفر سيميون فى الم ، ووضع يده على كتف زوجته ولثم بشفتيه خدها النظيف البارد . اخذ الكسى السوط من يدها . ووقف الثلاثة صامتين برهة . قال بعدها الكسى :

— ذلك هو زوجك . كانوا يحاولون قتله . ولكن لم ينجحوا فى ذلك . لا بأس . سنحصد سوية . فلنذهب يا عزيزتى .

طوقت ماتريونا ظهر سيميون بحنان وقوة ، واوصلته الى عربة وضعت فيها مخدات مطرزة على بساط من حياكة بيتية . واجلسته هناك . وجلست هى الى جانبه مادة الى الامام ساقيها اللابستين حذاء جديدا من طراز مدنى . قال الكسى مرحا وهو يعدل طوق المؤخرة :

— فى شباط تخلف احد الخيالة عن القطار العسكرى . وخلال يومين ملأته بالخمرة البيتية ، وفضلا عن ذلك اعطيته خمسمائة روبل من عملة كيرينسكى . فانظر اى حصان اخذت منه . — وضرب الحصان الاصهب القوى على كفله برقة . ووثب الى مقدمة العربة ، وعدّل وضع قبعته من فراء الغنم ، وسحب الأعنة . ثم ساروا فى الطريق الريفى خلال حقول فى بداية خضرتها غردت فوقها بحماس قبرة صغيرة تصفق جناحيها فى ضوء الشمس . اطلت ابتسامة على وجه سيميون المعتل غير الحليق . شدته ماتريونا اليها وسألته ببصرها فاجاب :

— نعم ، انتم هنا تتمتعون . . .

احس سيميون ببهجة وهو يدخل البيت الريفى الرحب المبيض جيدا . صفاقات خضر على النوافذ الصغيرة ، ومقدمة البيت جديدة من الخشب . وها هو الباب الوطئ الاليف قد عبر عتبته فاذا به يرى الموقد المدفأ المبيض بالطباشير تبييضا جيدا ، والمنضدة الركينة المغطاة بمفرش مطرز ، وعلى الرف اوان ليست ريفية ابدا بل من النيكل والصينى ، والى اليسار مخدع ماتريونا بسريره المعدنى العريض المغطى بدثار مدنتل ، وكثرة من الوسائد العالية ، والى اليمين غرفة الكسى (حيث كان الاب المتوفى يعيش من قبل) ، وعلى الحائط لجام وسرج وعدة عربة وسيف وبندقية وصورة فوتوغرافية ، وفى الغرف الثلاث كلها وضعت زهور فى مزهريات بعناية ، الدُريقة والصبّار . . . وكل هذا اليسار والنظافة ادهشا سيميون الذى ظل غائبا عن البيت عاما ونصف العام ، واذا به يجد الدُريقة والصبار امامه وسريرا كسرير الأميرة ، وثوبا من خياطة المدينة على ماتريونا . قال وهو يجلس على المسطبة :

— انتم تعيشون كأصحاب الاطيان . — وراح يفك لفافته بصعوبة . وضعت ماتريونا ثوبها الخضرى فى الصندوق ، وشدت مئزرا ، وقلبت مفرش المائدة على وجهه الآخر ، وراحت تعد المائدة بسرعة . مدت شوكة الموقد داخله ، وانحنت الى الارض

تحت ثقل جعل يديها العاريتين حتى الكوع ، حمراوين ، واخرجت القدر الحديدى لحساء الكرنب . وكان قد وضع على المائدة شحم الخنزير المقدد ، وبطة مدخنة ، وسمك مجفف . والقت على الكسى نظرة سريعة ، فغمز لها . عندئذ جلبت جرة من الفخار مترعة بالخمرة المقطرة بيتيا .

ثم جلس الاخوان الى المائدة . ناول الكسى اخاه القدح الاول . احنت ماتريونا راسها تشجيعا . عند ذاك شرب سيميون الكحول الملتهب فى جرعة واحدة تقريبا ، مسح كل من الكسى وماتريونا عينيه . ومعنى ذلك انهما سعيدان جدا بان سيميون حىّ يجلس معهما الى المائدة .

عندما انتهوا من احتساء حساء الكرنب قال الكسى :

— نحن لا نعيش حياة مدهشة ، ولكن حياة لا باس بها ، مقتدرة .

رفعت ماتريونا الصحون التى جمعت فيها العظام وجلست بالقرب من زوجها . فأستطرد الكسى فى القول :

— هل تذكر الحقل قرب الحرش عند بيت الأمير ، الحقل المسمى ذا القاع الذهبى ؟ عملت ضجيجا كبيرا فى القرية . قطرت للفلاحين ستة جرادل من الخمرة فخصصوا هذه الأرض لى . وقد حرثناها انا وماتريونا هذه السنة . وحصلنا فى الصيف الماضى على غلة لا باس بها من شريط الارض عند النهر . وكل ما تراه : السرير ، والمرآة ، ودلات القهوة ، والملاعق والشوكات ، وغير ذلك من الاشياء والحاجات حصلنا عليها فى هذا الشتاء . ان زوجتك ماتريونا ربة بيت ماهرة . لا تفوت موعدا واحدا للسوق الريفية . انا ما ازال على الطريقة القديمة ابيع كل شىء بالنقود . اما هى فلا . تذبح خنزيرة او دجاجات وتأخذها على عربة مع الطحين والبطاطس ، وتنزل الى المدينة . . . ولا تذهب الى السوق ، بل تذهب الى السادة السابقين فى شققهم ، وتقلب عينيها وتقول : «السرير ببودين من الطحين وستة ارطال من شحم الخنزير . . . وهذا الدثار اشتريه ببطاطس . . .» ستنفجر ضاحكا حين ترانا عائدين من السوق . . . كالغجر . . . عربتنا محملة بحاجات كثيرة .

قالت ماتريونا وهى تعصر يد زوجها :

– هل تذكر ابنة خالتى افدوتيا ؟ اكبر منى بعام واحد . مخطوبة لالكسى .

ضحك الكسى ، وراح يقلب فى جيبه .

– النسوان قررن ذلك قبلى . . . أما انا يا اخى فقد مللت حياة الترمل حقا . سكر وعُهر . وفى النتيجة تلحق المرء قذارة لا يستطيع ان يتخلص منها فيما بعد . . .

اخرج كيس التبغ وغليونا محروقا مزينا بحليات نحاسية تتدلى منه ، وحشاه بالتبغ المصنوع بيتيا ، وتصاعد الدخان فى جو البيت . احس سيميون بالدوار من الكلام ومن الخمرة . فلبث جالسا يستمع ويتعجب .

فى الغسق اخذته ماتريونا الى الحمام ، وصوبنت له بعناية ، وغلفته بالبخار ، ودلكته بالليف ، ولفته بفروة خروف . وعادوا ثانية الى المائدة ، وتعشوا ، وافرغوا ما فى الجرة الفخارية الى آخر قطرة . ورغم أن سيميون ما زال ضعيفا الا انه استلقى مع زوجته فى الفراش وغفا وذراعها الحارة حول رقبته . وعندما فتح عينيه فى الصباح رأى البيت نظيفا مدفئا . كانت ماتريونا تعجن العجين وفى عينيها لمعان ، وعلى شفتيها ابتسامة تكشف عن اسنانها البيضاء . وبعد قليل سيحين موعد عودة الكسى من الحقل لتناول فطوره . كان ضوء الربيع يتدفق من النوافذ النظيفة ، ويتحرك لمعانا على اوراق الدريقة . قعد سيميون فى السرير وتمطى . وكان حالته تحسنت ضعفين خلال اليوم الفائت والليلة التى قضاها مع ماتريونا . ارتدى ملابسه واغتسل ، وطلب عدة حلاقة اخيه ، وحلق فى غرفته امام شظية المرآة على النافذة . وخرج الى الشارع ، ووقف عند البوابة ، وحيا شيخا مسنا جالسا فى الحديقة الامامية المجاورة عاش فى عهود سيطرة اربعة اباطرة . خلع العجوز قبعته ، وانحنى رأسه باعتبار ، واستمر على جلسته مادا ساقيه الميتتين فى حذائهما اللبادى باستقامة ، واضعا يديه المعروقتين على عجرة عصاه .

كان الشارع الاليف مقفرا فى تلك الساعة من النهار . وكانت اشرطة خضرة الحبوب تلوح بين البيوت على امتداد البصر . وعلى

الاكمات عند خط الافق كانت العربات تلوح هنا وهناك غير مربوطة بخيول . نظر سيميون يسارا فرأى طاحونتين فوق رأس منحدر طباشيرى تدور دواليبهما بونى . وعلى المنحدر الى الاسفل لاح برج جرس ابيض بين البساتين والسقوف القشية . ووراء حرش ما زال غير مورق كانت الشمس تنعكس ملتهبة على نوافذ دار الامير السابقة . وكانت غربان القيظ تنعب فوق اعشاشها . وكان الحرش ومقدمة البيت الجميلة منعكستين فى بركة فيضان . وهناك كانت الابقار تبرك ، والاطفال يتراكضون .

وقف سيميون ينظر من تحت حاجبيه ، وقد حشر يديه فى جيبيه الواسعين لسترة اخيه . نظر واحس بلوعة فى صدره . وبالتدريج ، ومن خلال موجات الحر الشفافة المتدفقة على القرية ، وفوق الحدائق الليلقية ، والارض المحروثة كان لا يلوح فى عين خياله هذا العالم وهذا السكون . جاء الكسى على عربة ، وناداه مرحا وهو ما يزال بعيدا . فتح البوابة ، وامعن البصر فى سيميون . فكّ عدة الحصان ، واخذ يغسل يديه تحت المغسلة المعلقة فى الفناء . وقال بحنان :

– لا بأس ، يا أخى ، ستتعود . انا ايضا عندما عدت من الجبهة الالمانية كنت اعاف كل شىء لان امام عينى دما . . . وضجرا . . . آه ، لعنة الله على هذه الحرب . . . تعال نتناول فطورنا .

صمت سيميون . ولكن ماتريونا ايضا لاحظت أن زوجها حزين . بعد الفطور عاد الكسى الى الحقل . وخرجت ماتريونا حافية رافعة اذيال ثوبها ، لتحمل الروث على الحصان الثانى . استلقى سيميون على فراش اخيه ، وتقلب ولم يستطع ان ينام . اثقل الحزن على قلبه . فكر وهو يكز على اسنانه : «انهما لن يفهمانى ، ولذا ليس من الضرورى ان اتحدث معهما فى هذا الموضوع» . ولكن فى المساء حين خرج الثلاثة وجلسوا على قرمة عند البوابة ، لم يصطبر سيميون فقال :

– على اية حال يجب ان تنظف البندقية ، يا الكسى .

– لتذهب البندقية الى الجحيم . . . منذ الآن والى مائة عام لن نحارب .

– فرحك مبكر ، مثل اهتمامك باليسار والراحة ،
امتص الكسى من غليونه ، وبصق بين رجليه قائلا :
– وانت ايضا لا تدمدم مغموما قبل الاوان . تعال نتحدث كفلاحين . فلسنا فى اجتماع عام . فانا اعرف كل ما يقولونه فى الاجتماعات العامة . وقد صرخت نفسى بها . فقط ان تكون قادرا على الاستماع لما هو ضرورى لك اما غير الضرورى فاطرحه جانبا . اذا قلت ان الارض للشغيلة ، فهذا حق تماما . اما لجان فقراء الفلاحين فنحن فى القرية ضيقنا تصرفات اعضائها . وفى قرية سوسنوفكا تفعل اللجنة ما تشاء . والمصادرة وسوء الادب قد بلغا الهامة . وقد تحولت ضيعة الكونت بوبرينسكى الى السوفخوز ، ولم يقتطعوا للفلاحين شبرا واحدا من الأرض . وممن تتألف اللجنة؟ من اثنين من معدمى المنطقة . اما البقية فالشيطان يعرفهم . منهم غرباء ومحكومون سابقون . . . هل فهمت ام لا ؟ . .
استدار سيميون قائلا :
– ليس هذا ما عنيت . . .
– اذا كان ذلك لم تعنه فانا الذى اعنيه . فى عام ١٩١٧ صرخت فى الجبهة عن البرجوازية . واصبت برصاصة فى رجلى ، عسى الله يعطى العافية لمن اصابنى بها ، فقد سرحت الى البيت راسا ، ورايت مهما اكلت فانك ستجوع غدا لا محالة ، وتطلب طعاما . اكدح . . .
ضرب سيميون القرمة باظافره :
– الارض تلتهب تحتكم ، وانتم نائمون .
قال الكسى باصرار :
– ربما عندكم فى الاسطول او فى المدن لم تنته الثورة بعد . اما عندنا فقد انتهت حالما قسموا الأرض . والآن هذا ما سيحدث : سنجمع الغلال اولا ثم نلتفت الى لجان الفقراء . وحتى عيد القديس بطرس لن نترك لجنة واحدة . سندفن اعضاءها احياء فى الارض . نحن لا نخاف الشيوعيين ، ولا اى شياطين . فتذكر ذلك . . .
قالت ماتريونا بخفوت :
– كفى ، يا الكسى ايفانوفيتش . انظر اليه يرتعش بكل كيانه . امعقول ان تجرى تحقيقا مع مريض ؟

صاح سيميون :
– لست مريضا . . . بل انا غريب هنا !
ونهض وسار نحو سياج الحديقة .
وانتهى الحديث عند هذا الحد .
كان خفاشان مثل عفريتين يطيران فى شريط الغروب المنطفئ . وكانت بعض النوافذ مضاءة ذلك لان الناس كانوا ينهون عشاءهم . وحملت الريح اغنية من بعيد باصوات فتيات . ثم انقطعت الاغنية ، وحلت مكانها كركبة حوافر منطلقة فى الشارع العريض فى غبش المساء . توقف الفارس وهتف بشىء ما ، ثم اطلق العنان لحصانه من جديد . اخرج الكسى غليونه من فمه ، وتسمّع ، ونهض من على القرمة .
وقالت ماتريونا بصوت مرتجف :
– اهى بلية ؟
واخيرا ظهر الفارس وهو فتى حاسر الراس ، حافى القدمين . . . وصاح :
– الالمان قادمون ! . . قد قتلوا اربعة اشخاص فى قرية سوسنوفكا ! . .

فى منتصف آذار ، حسب التقويم الجديد ، وبعد ان عقد الصلح ، بدأت القوات الالمانية هجوما على اوكرانيا والدنباس على طول الجبهة من ريغا حتى البحر الاسود .
بموجب بنود الصلح كان يجب ان يحصل الالمان من الحكومة المركزية الاوكرانية على ٧٥ مليون بود من الحبوب ، و١١ مليون بود من الماشية الحية ، ومليونى دجاجة وبطة ، ومليونين ونصف مليون بود من السكر ، و٢٠ مليون ليتر من الكحول ، والفين وخمسمائة عربة قطار محملة بالبيض ، و٤ آلاف بود من الشحم الى جانب الزبدة والجلود والصوف والاخشاب وغيرها . . .
هاجم الالمان اوكرانيا وفق كل قواعد الحرب : بطوابير من ذوى البزات الخاكية والخوذ الفولاذية . واكتسحت المدفعية الالمانية الثقيلة حواجز القوات الحمراء الضعيفة .

سارت القوات وطوابير السيارات ومجاميع هائلة من المدفعية الثقيلة عليها خطوط مبرقشة الالوان للتمويـه ، وقرقعت الدبابات والسيارات المصفحة ، وجلبت عوامات وجسور كاملة للعبور . وازّت اسراب الطائرات فى السماء .

لقد كانت تلك مسيرة التكنيك على شعـب اعزل تقريبا . فكانت الفصائل الحمراء المؤلفة من قدامى المحاربين والفلاحين وعمال المناجم وعمال المدن السيئة التنظيم والأقل عددا بعدة مرات من القوات الالمانية تتراجع مقاتلة الى الشمال والى الشرق .

وفى كييف حلت الحكومة المركزية الاوكرانية التى قدمت اوكرانيا للالمان ، ونصب فى محلها الجنرال سكوروبادسكى من حاشية القيصر السابق . كان يرتدى المعطف الازرق على التقليد الاوكرانى ، ويضع يده على خصره ، ويمسك بصولجان الهيتمان : «عاشت اوكرانيا الحقة ! منذ الآن والى الابد سيستتب السلام والنظام والرخاء . العمال الى آلاتهم ، والفلاحون الى محاريثهم ! والحمر الى جهنم !»

بعد اسبوع من مجىء الفارس بالخبر الرهيب فى الشارع العريض فى قرية فلاديميرسكويه ظهرت كوكبة من الخيالة فوق المنحدر الطباشيرى بالقرب من الطاحونتين فى الصباح الباكر مؤلفة من عشرين خيالا تمتطى خيولا سوداء ضخمة – رجال ضخام فى هيئة غير روسية يرتدون سترا قصيرة خضراء رمادية وقبعات عالية ذات اشرطة . اطلوا على القرية من عل ، وترجلوا .

كان ما يزال فى القرية اناس ، فان الكثيرين منهم لم يخرجوا بعد الى الحقول . تراكض الاولاد من بوابة الى اخرى ، وتنادت النساء عبر اسيجة حدائقهن وسرعان ما تجمهر جمهور فى ساحة الكنيسة . واتجهت الاعين الى الأعلى ، حيث نصبت رشاشتان بالقرب من الطاحونتين ، وكانتا تبدوان بوضوح .

وبعد ذلك بقليل قرقعت عجلات مصفحة بالحديد فى شارع القرية من الجانب الآخر ، وطقطق سوط ، ودخل الساحة حصانان بنيان مزبدان فى عدو سريع يجران عربة عسكرية . كان على مقعد

الحوذى جندى اخرق ذو عينين وضاءتين وفك طويل يرتدى سترة ضيقة وطاقية مسطحة . وقد جلس وراءه ضابط المانى متخوصر وهو سيد فى هيئة غريبة صارمة يضع زجاجة على عينه ، وقبعة جديدة انيقة مثل قبعات الدمى . والى يساره رجل تعرفه القرية هو مدير اعمال الأمير الذى كان قد هرب من الضيعة فى الخريف الماضى فى ملابسه الداخلية .

اما الآن فقد كان غريغورى كارلوفيتش ميل هذا يجلس مقطب الحاجبين مستدير الوجه الحليق يضع نظارة مذهبة الاطار ويلبس معطفا جيدا وقبعة مدفئة . احس الفلاحون بحكة فى جلودهم حين وقعت ابصارهم عليه .

صاح الضابط الغريب الهيئة باللغة الروسية فجاة : «اخلعوا القبعات !» خلع بعض الذين كانوا على مقربة منه قبعاتهم على مضض . وساد السكون الساحة . ظل الضابط على جلسته مخوصرا والتمعت الزجاجة على عينه ، وبدأ يتحدث مخرجا الكلمات بعسر ، ولكن بنطق سليم :

– يا فلاحى قرية فلاديميرسكويه ، ها قد رأيتم على الرابية ، هناك ، رشاشتين المانيتين ، وهما تعملان بشكل ممتاز . . . وانتم ، بالطبع ، فلاحون ذو تفكير سليم ، وانا لا اريد ان الحق بكم اذى . ويجب القول ان قوات الامبراطور غليوم الالمانية جاءت اليكم لتعيد بينكم حياة الناس الشرفاء . نحن الالمان ، لا نحب ان تسرق ملكية الآخرين ، وسنعاقب على ذلك عقابا لا رحمة فيه . وقد علمكم البلاشفة بشكل آخر ، اليس كذلك ؟ ومن اجل هذا طردنا البلاشفة ، ولن يعودوا اليكم ابدا . انصحكم بان تفكروا جيدا باعمالكم السيئة ، وبان تعيدوا فى الحال الى صاحب هذه الضيعة ما سرقتموه منه . . .

اثارت هذه الكلمات نحنحة عصبية فى الجمع . كان غريغورى كارلوفيتش طوال الوقت جالسا وقد نزلت شرابة قبعته على عينيه ، وراح يمعن النظر فى الفلاحين . وفى مرة واحدة لاحت على وجهه الممتلئ ابتسامة الظفر ، والظاهر انه تعرف على واحد فى

الجمع . انهى الضابط خطابه . وصمت الفلاحون . قال الضابط مخاطبا غريغورى كارلوفيتش :

– اديت واجبى . والآن تحدث أنت ، يا سيد ميل .

رفض غريغورى كارلوفيتش هذا الاقتراح بادب جم :

– ليس لدىّ ما اقوله لهم ، ايها السيد الملازم . انهم فهموا بدون كلامى .

قال الضابط الذى لم يكن يعنيه الأمر :

– حسنا . سر ، يا اوغست !

ضرب الجندى ذو الطاقية المسطحة بسوطه ، وتدحرجت العربة العسكرية بين الحشد المتراجع متجهة الى بيت الأمير حيث كانت لجنة القضاء التنفيذية تتخذه مقرا لها قبل ثلاثة ايام . وراح الفلاحون يتطلعون فى اثر العربة .

قال صوت فى الجمع :

– جلس الالمانى مخوصرا .

– وغريغورى كارلوفيتش ملتزم الصمت ، يا اصحاب .

– انتظروا ، وسياتيكم كلامه .

– مصيبة . وماذا فعلنا لنستحقها ؟ . .

– عن قريب سيحضر ضابط البوليس .

– قد جاء فى قرية سوسنوفكا . دعا الى اجتماع ، وامطر المجتمعين سبابا . وقال لهم يا نهابين ولصوص هل نسيتم عام ١٩٠٥ ؟ وثرثر ثلاث ساعات ، شاتما اياهم طوال الوقت . وشرح النظام كله .

– ماذا سيكون الآن ؟

– الجلد .

– انتظر ، وماذا عن الأرض المزروعة ؟ لمن تكون الآن ؟

– بالمناصفة . سيتركوننا نجمع الغلة ، والنصف للأمير .

– أوه ، يا للشيطان ، انا راحل .

– الى اين راحل ، يا احمق ؟ . .

وبعد ان تحدث الفلاحون تفرقوا . وفى المساء اعادوا الى بيت الأمير الارائك والمقاعد والاسرة والستائر والاطارات المذهبة للمرايا واللوحات .

تعشوا فى بيت كراسيلنيكوف دون ان يوقدوا الضوء . كان الكسى يضع ملعقته غير مرة وينظر من النافذة ، ويزفر . وكانت ماتريونا تسير بهدوء كالفارة ما بين الموقد والمائدة . بينما جلس سيميون محدودبا ، وشعره الداكن المتجعد ينزل على جبينه . كانت ماتريونا تمسه من الحين الى آخر بيدها أو صدرها كلما نظفت المائدة من الكسر أو وضعت اناء بطعام جديد . الا انه كان لا يرفع رأسه ، وظل صامتا متجهما .

وفجاة اندفع الكسى الى النافذة ، ونقر زجاجها باظافره ، واطل منها . الآن ، وفى سكون المساء كان يسمع بوضوح صياح وحشى طويل آت من بعيد . قعدت ماتريونا على المصطبة فى الحال ، وحشرت يديها بين ركبتيها .

قال الكسى بصوت خافت :

– انهم يجلدون فاسكا دمينتييف . قبل مدة اخذوه الى بيت الأمير .

همست ماتريونا :

– هذا الثالث .

وصمتوا ، وتسمعوا . وكان الصراخ ما يزال يخيم على مساء القرية بنفس النبرة من القنوط والرعب .

نهض سيميون فجاة . وشد الحزام على بنطاله بحركة مقتضبة ، وذهب الى اخيه فى الغرفة . تبعته ماتريونا صامتة . انزل البندقية من الحائط . طوقته ماتريونا من رقبته ، وتعلقت بها ، دافعة رأسها الى الخلف ، صاكة اسنانها البيضاء ، وجمدت . اراد سيميون ان يدفعها عنه الا انه لم يستطع . سقطت البندقية على الأرض الترابية . عندئذ استلقى على السرير متكفئا بوجهه على الوسادة . جلست ماتريونا على مقربة ، ممسدة بحركات سريعة شعره الخشن .

رجا غريغورى كارلوفيتش ميل مدير اعمال الامير ان ترسل حامية الى قرية فلاديميرسكويه غير معتمد على قوة الحراس والغايداماك – قوات الهيتمان الجديدة . وكان الالمان يوافقون فى

مثل هذه الاحوال عن رضى . دخلت الى القرية فصيلتان ومعهمـــا رشاشات .

وسكن الجنود فى بيوت الفلاحين . وشاع بين الناس أن غريغورى كارلوفيتش نفسه عين البيوت التى ستسكن . وعلى اية حال فقد عين لكل من الفلاحين الذين اشتركوا الاستباحة التى حدثت فى العام الفائت لضيعة الأمير ، او كل عضو من اعضاء اللجنـــة التنفيذيـة للقضـاء من غير الحزبيين (وكان قد اختفى حوالى عشرة شبان من القرية قبل مجىء الالمان) جنديا واحدا مع حصانه ليطعمهما .

وهكذا طرق بيت الكسى كراسيلنيكوف جندى المانى شهم بكل لباسه العسكرى يحمل بندقية ويرتدى خوذة وغيرها . واظهر لالكسى الأمر الصادر وهو يتفوه بكلمات غير مفهومـة ، ثم ربت على كتفه قائلا :

— تمام ، صديق . . .

وخصصت للجندى غرفـة الكسى ، ولـم يأخذوا منها سوى عدة العربة والسلاح . وهيأ الجندى مكانـــه فى الحال . فرش بطانيـة جيدة ، وعلق صورة غليوم على الحائط ، وطلب ان تنظف الارض على نحو أحسن .

وبينما كانت ماتريونا تنظف الارض جمع ملابسه الداخليـــة وطلب ان تغسل متفوها مزيجا من الكلمات الالمانية والروسية المشوهة . ولما رضى عن كل شىء انهد بحذائـه على السرير ، وراح يدخن سيكارة .

كان الجندى بدينا لـه شاربان مسطحان مرفوعان الى الأعلى . والثياب التى يرتديها جيدة ومريحة . وكان يأكل كثيرا كالخنزير المخصى . اكل كل ما جلبته ماتريونا فى الغرفة . وقد اعجبه بشكل خاص شحم الخنزير المملح . وكانت ماتريونا تأسف اشد الأسف على تقديـم شحم الخنزير للالمانى ، الا ان الكسى قال : «لا عليك ! دعيه يعلف وينام . شرط الا يحشر انفه فى اى مكان» .

وفى اوقات فراغه كان الجندى يترنم باناشيد عسكرية او يكتب رسائل الى وطنه على بطاقات بريدية تحمل مناظر كييف . لم يشاكس ، ولكنه كان يسير بخطى ثقيلة عالية ، ويضرب الارض بحذائه وكأنه سيد البيت .

وخيم على بيت كراسيلنيكوف سكون وكأنما قد فجعوا بفقيد ، كانوا يجلسون الى المائدة وينهضون صامتين ، والكسى حزين تلوح التجاعيد على جبينه ، وماتريونا شاحبة الوجه ، تتنهـــد وتمسح الدموع خلسة بمئزرها . وكانت اكثر ما تخاف ان يفقد سيميون السيطرة على نفسه . الا انه فى تلك الأيام يبدو وكأنه قد هدأ وانطوى على نفسه .

والآن صارت تلصق فى كل يوم على دار ادارة القضاء وعلى بوابات البيوت أوامر الهيتمان حول اعادة الارض والماشية الى اصحاب الاطيان ، وحول المصادرة والضرائب ، وحول بيع الحبوب الاجبارى وحول العقوبات الصارمة لكل محاولة للتمرد واخفـــاء الشيوعيين وغير ذلك .

وكان الفلاحـون يقراون الأوامر ويلـوذون بـالصمت . ثـم شاعت شائعات خبيثة تقول ان التجار دخلوا احدى القرى تحت حراسة الخيالة الالمانية ، واخذوا معهم حتى الحبوب غير المدروسة ، ودفعوا اوراقا نقديـة غير روسيـة حتى ان النساء لم يردن اخذها ، وانهم فى قرية اخرى ساقوا نصف الماشية بل وفى قرية ثالثة لم يبقوا على شىء حتى ما تتلقطه العصافير .

وبدأ الفلاحون يجتمعـون جماعـات صغيرة ليـلا فى امـاكن سرية ، واخذوا يسمعون الحكايات ويتذمرون . ما العمل ؟ وبـم العون ؟ ان قوة جبارة تجثم على القرية لا تستطيع معهـــا الا ان تتنفس ولا تبدى صوتا .

اخذ سيميون يتردد على هذه الاجتماعات خلف البيوت ، عند الجدول ، تحت شجرة الصفصاف . كان يجلس على الأرض ، وسترته ملقاة على كتفيه ، ويدخن ، ويستمع . واحيانا كان يهم ان ينهض ، ويلقى عنه سترته ، ويبسط كتفيـه ليخطب : «ايها الرفاق ! . .» ولكن ذلك لا يأتى بنتيجـة سوى اخافتهـم ، فترتعش سراويلهـم رعبا ، ويتفرقون .

ذات مرة ، فى غبش المساء ، التقى فى المرعى العام برجل كان واقفا مبتسما . مر سيميون به فناداه الرجل بصوت خفيض :

— اخى !

جفل سيميون . أهو من جماعته حقا ؟ سال وهو ينظر اليه من طرف عينه :

– ما حاجتك ؟

– هل انت اخو الكسى ؟

– لنفرض .

– انت لا تعرف اصحابك . . . هل تذكر بحارة «كيرتش» ؟

– كوجين ! انت ؟

وصافحه سيميون بقوة .

وقفا واحدهما ينظر الى الآخر . قال كوجين وهو يلقى نظرة سريعة الى الخلف .

– هل قطعتم نهايات بنادقكم ؟

– لا . ان كل شيء ما يزال هادئا عندنا !

– وهل عندكم رجال مكافحون ؟

– من يدرى ؟ لم أر بعد . نحن ننتظر ماذا سيحدث .

– ماذا تفعلون ، ايها الاصحاب ؟ – قال كوجين ، وعيناه تتقلبان طوال الوقت تحملقان فى معالم الاشياء المحيطة به فى الغسق – ماذا تنتظرون ؟ سينتفونكم كما تنتف الوزة ، وانتم قد عطيتم لهم رؤوسكم . أتعرفون انهم قد احرقوا كل شيء فى قريتنا اوسبينسكويه بنار المدفعية . وهربت النساء والاطفال ، ولاذ الرجال فى الغابة . . . واهالى قرى نوفوسباسكويه ، وفيدوروفكا ، وغولاى-بوله يتوافدون الينا جميعا . . .

– ماذا تعنى بـ«الينا» ؟

– هل تعرف غابة ديبريف ؟ انهم يجتمعون هناك . . . حسنا ، اهمس للرجال : على قرية فلاديميرسكويه ان تزود اربعين بندقية مقطوعة النهايات ، وحوالى عشر بنادق اعتيادية مع خراطيشها ، وما يمكن جمعه من القنابل اليدوية ، واخفوا ذلك فى التبن فى الحقل . . . هل فهمت ؟ فى قرية سوسنوفكا يخفون ذلك تحت تلال القش . والفلاحون ينتظرون الاشارة منى فقط . . . وفى قرية غوندايفكا ثلاثون فلاحا على خيولهم ينتظرون . . . يجب ان نخرج .

– الى اين ؟ الى من ؟

– الى الاتمان . . . انه يدعى شوس . الآن نحن نجمع

الفصائل فى كل منطقة يكاترينوسلاف . . . فى الاسبوع الماضى دحرنا الغايدماك ، واحرقنا مزرعة . . . طرافة ومتعة ، يا اخى ، نلقى الكحول والسكر على الفلاحين هبة وعطاء . . . تذكر ، سآتى بعد اسبوع . . .

وغمز لسيميون ، وقفز سياجا ، وركض منحنيا الى القصب ، حيث كانت الضفادع تنقنق بصوت عال .

كانت الشائعات حول الاتمانات والغارات قد وصلت الى قرية فلاديميرسكويه ، الا ان اهل القرية لم يصدقوا . وها هو شاهد حى قد ظهر بالخبر اليقين . فى ذلك المساء قصّ سيميون ذلك على اخيه . اصغى الكسى بجد .

– ما اسم هذا الاتمان ؟

– يقولون : شوس .

– لم اسمع به . تدور الشائعات حول نستور ايفانوفيتش ماخنو ، يقولون ان لديه زهاء خمسة وعشرين من قطاع الطريق ، وهم يغيرون على الضياع . أما شوس فلم اسمع عنه . . . كل شيء ممكن . فالفلاح الآن مقتدر على كل شيء . سواء أكان شوس او غيره فان فى القضية خيرا . . . اوصيك فقط الا تتحدث الى الفلاحين . وحين تقتضى الضرورة سأخبرهم بنفسى .

ضحك سيميون ضحكة هازئة ، وهز كتفيه .

– انتظروا حتى يسلخوا جلدكم .

يبدو أن كوجين لم يظهر لسيميون وحده فى ذلك المساء . فقد تهامس الناس فى القرية حول البنادق المقطوعة والقنابل اليدوية وفصائل الاتمان . وكان من الممكن ان تسمع الاذن ، اذا ازهفت ، حزيز المناشير على الحديد فى هذا الفناء او ذاك فى الليالى . الا ان كل شيء كان هادئا بعد . بل ان الالمان اقاموا النظام ، واصدروا امرا بأن يكنس الشارع فى عشية السبت على الأحد . فلم يجد الاهالى بدا من كنس الشارع .

ثم وقعت بلية . فى ساعة مبكرة ، وقبل أن تخرج البهائم للشرب سار فى الشارع المكنوس رجال شرطة وجنود يضعون الشارات على صدورهم ، وطرقوا زجاج النوافذ قائلين :

– اخرجوا !

اخذ الفلاحون يخرجون من بيوتهم حفاة يزررون ثيابهم ، فاعطى لهم امر رسمى يفرض على هذا البيت او ذاك مقدارا من الحبوب والصوف وشحم الخنزير والبيض ليقدم الى ادارة مؤنة الجيش الالمانى بسعر معين فى الماركات الالمانية . وكان طابور من العربات العسكرية يقف فى الساحة عند الكنيسة . وكان الجنود الالمان المقيمون فى البيوت يقفون عند بواباتها مرتدين خوذهم وحاملين بنادقهم .

حك الفلاحون رؤوسهم . بعضهم راح يحلف بالرب بانه معدم . وبعضهم رمى قبعته على الارض قائلا :

– لم يعد عندنا قمح ، والله . اذا قطعتمونى لن تجدوا عندى شيئا ! . .

وفى تلك اللحظة رأوا مدير الاعمال يسير فى الشارع فى عربة ركوب . فكان فزع الفلاحين بنظارته الذهبية اشد من فزعهم من رجال الشرطة والجنود ، لأن غريغورى كارلوفيتش كان يعرف كل شىء ويرى كل شىء .

اوقف حصان عربته . تقدم ضابط الشرطة من العربة . وتحدث الاثنان . وصاح على رجال الشرطة . فدخل هؤلاء الى اول بيت ، وعثروا على حبوب فى الحال مخفية تحت السماد . وحين سمع غريغورى كارلوفيتش صياح صاحب الحبوب لم يبدر منه شىء سوى ان نظارته قد لمعت .

فى ذلك الوقت كان الكسى يذرع فناء بيته شديد الذهول ، ومرآه يثير الأسى . انزلت ماتريونا منديلها على عينيها ، وبكت فى مقدمة البيت .

وكان الكسى يسال وهو يرفع قطعة خشب أو عجلة مكسورة ويلقيها فى نبات القرّاص عند السياج :

– ما نفع هذه النقود الالمانية لى ، ما نفع الماركات ؟–

وحين لمح ديكا ضرب قدمه على الأرض وشتمه : «حقير !» ومسك بالقفل على حجرة المؤنة :

– ماذا سناكل اذن ؟ هذه الماركات ؟ اذن يريدوننا أن ننقلب الى متسولين ؟ أن يدمرونا كليا ؟ مرة اخرى فى ربقة الظلم ؟

قال سيميون وهو جالس قرب ماتريونا :

– سيأتى اسوا من ذلك . . . سيأخذون حصانك .

– لن يكون ذلك ابدا . ساقتلهم بالفاس !

– فات الوقت .

وانتحبت ماتريونا :

– اوى ، يا عزيزى . . . ساقطع حناجرهم باسنانى . . .

طرق الباب باخمص بندقية . ودخل الجندى البدين الذى كان يقيم عندهم هادئا مرحا وكانما يدخل بيته . ووراءه دخل ستة من رجال الشرطة ومدنى على قبعته عقدة شريط ثلاثية الاسنان ، رمز الهيتمان ودفتر التسجيل فى يديه . قال له الالمانى ، وهو يشير الى غرفة المؤنة .

– هنا الكثير من القمح وشحم الخنزير .

حدجه الكسى بنظرة ضارية ، وتراجع ، والقى بكل قوته مفتاحا كبيرا صدئا تحت قدم الموظف الهيتمانى .

فصاح هذا :

– احذر ، ايها الوقح . هل يحكك جلدك ، يا ابن الكلبة ؟

دفع سيميون ماتريونا بكوعه ، ووثب من مقدمة البيت ، الا ان حربة عريضة النصل صدته من صدره . وصاح الالمانى بعنف وسلطان :

– توقف . روسى فى مكانك !

ظلت العربات العسكرية طول النهار تحمل بالمؤن . وتحرك طابورها فى ساعة متاخرة من الليل . نهبت القرية نهبا تاما . ولم يشتعل ضوء فى البيوت ، ولم يجلس الناس الى مائدة . كانت النساء ينتحبن فى البيوت المظلمة ، داعكات بايديهن الماركات الورقية . . .

لا جدوى من ان ينزل فلاح وزوجته مع هذه الماركات الى المدينة لانهما لن يحصلا من الحوانيت على شىء ، لا على مسمار ، ولا على ذراع قماش ، ولا قطعة جلد . فان المعامل لا تعمل ، والحبوب والسكر والصابون والخامات تنقل بالقطارات الى المانيا . ولا حاجة لفلاح وإمراته الى ان يجلبا الى البيت بيانو ،

ولا لوحة هولندية قديمة ، ولا ابريق شاى صينيا ، وعيونهما لا تقع الا على الغايداماك ذوى الخصلات المتهدلة والشوارب النازلة فى معاطفهم الزرق ، والقبعات الاستراخانية المتوجة بأعاليها القرمزية ، كانا يتسكعان فى الشارع الرئيسى بين التجار الزرق الوجوه من الحلاقة ذوى القبعات العالية وهم المحتالون المشتغلون بعمليات بيع وشراء العملة الاجنبية . ويتحسران بالم ، ويعودان الى بيتهما دون اية مشتريات . وفى الطريق ، وبعد عشرين فرسخا يتوقف القطار لأن محاور العربات قد حميت ، ولا يوجد دهن لتشحيمها ، لان الالمان قد اخذوه . فرشوا الرمل على المحاور ، ويتحرك القطار قليلا ثم يتوقف ثانية .

ولهذا كله كانت النسوة ينتحبن ، ويضممن الماركات الالمانية المدعوكة بين اصابعهن ، ويختفى الرجال الماشية فى وهدات الغابة بعيدا عن المصيبة ، فمن يدرى اى امر المانى سيصدر فى الغد !

كانت الاضواء لا توقد فى القرية ، وكل البيوت مظلمة ما عدا بيت الأمير وراء الحرش عند البحيرة ، فقد كانت الانوار تتلألأ فيه تلألؤا زاهيا . اذ كان مدير الاعمال يقيم هناك حفلة تكريمية للضباط الالمان . وتعزف الموسيقى العسكرية . وتحوم انغام موسيقى الفالس الالمانية كالارواح الشريرة فوق القرية المظلمة . ثم يحلق صاروخ كالشهاب النارى عاليا فى السماء ، لتسلية الجنود الالمان الواقفين فى فناء بيت الأمير حيث دُحرج برميل من الجعة . وكان الصاروخ ينفجر ، وتلضاء السقوف القشية والحدائق واشجار الصفصاف وبرج الجرس الابيض والاسيجة بنجوم تتساقط ببطء . وقد ارتفعت وجوه كثيرة خالية من الفرح نحو هذه الانوار . وكان الضوء يسطع سطوعا يجعل كل غضن فى الوجوه يبرز بوضوح . ومن المؤسف ان احدا لم يصورها وهى فى هذه الحال بآلة تصوير غير منظورة . فان مثل هذه الصور ستكون موضوعا لتفكر فيه هيئة الاركان الالمانية .

وتنورت حتى الحقول على بعد فرسخ من القرية وكأنما اهلّ عليها نهار . وكان بعض الرجال الذين كانوا يتسللون نحو كدس من التبن منفرد ، فلما راوا النور استلقوا على الأرض بسرعة الا

واحدا كان واقفا عند اكداس التبن رفع راسه الى الانوار المتساقطة من السماء ، وقال بابتسامة هازئة :

— عظيم !

انطفأت الانوار قبل أن تصل الى الأرض ، وعاد الظلام . اجتمعت الرجال عند اكداس التبن ، وطقطقت البنادق ، وهى تقذف على الارض .

— كم مجموعها ؟

— عشر بنادق مقطوعة ، يا رفيق كوجين ، واربع بنادق اعتيادية .

— قليل . . .

— لم يكن لدينا وقت كاف ، غدا ليلا سنجلب عددا آخر . .

— واين الخراطيش ؟

— خذ . انها فى الجيوب . . . عدد كبير .

— اخفوها تحت اكداس التبن ، يا رجال . . . نحتاج الى قنابل يدوية ، اجلبوا قنابل يدوية . . . البندقية المقطوعة سلاح الشيوخ الذين يختفون فى ساقية وراء اجمة . طلقة واحدة ويتهافتون ، وتنتهى المعركة . اما المحارب الشاب فبحاجة الى بندقية ، والشيء الاول قنبلة يدوية . أفهمتم ؟ وسيف لمن يستطيع استعماله . انه خير الاسلحة .

— لطيف ان تبدا فى الأمر هذه الليلة ، يا رفيق كوجين .

— نثير القرية كلها ، والله العظيم . . . تجمع فى قلوبنا الكثير من الاحن . اخذوا كل ما نملك كأنما انتزعوا منا جزءا من الجسم . . . سنخرج اليهم بالمذرات والمناجل ، او اذا مكن القول ، بكل ادوات الشغل . . . وسنقضى عليهم وهم نائمون باسهل من السهولة . . .

— وهل أنت الآمر هنا ؟

صاح كوجين بصوت حاد . وصمت برهة . ثم اخذ يتحدث بصوت مداهن ، ثم راح يرفع صوته شيئا فشيئا :

— من الآمر هنا ؟ اريد ان اعرف . . . ام انا اتحدث مع حمقى ؟ ام انصرف وادع الالمان والغايداماك يضربونكم وينهبونكم . . . (وهمس بشتيمة .) الا تعرفون الانضباط ؟ أم

ان عدد الرؤوس التى قطعتها لهذا السبب بسيفى قليل ؟ اذا كنت تريد ان تدخل الى الفصيلة يجب ان تقسم اشد القسم على الطاعة التامة للاتمان ... والا فلا تدخل . لك عندنا ان تفعل ما تريد : اشرب الخمر وتمتع بالحياة ، ولكن حالما يصيح الاتمان : «الى الخيول» لن تكون ملك نفسك . مفهوم ؟ (صمت . ثم قال بتراض ولكن بصرامة .) لا يجوز مس" الالمان لا اليوم ولا غدا . ان الأمر يحتاج الى قوة عظيمة .

— يا رفيق كوجين ، على الاقل اسمح لنا بان ننتقم من غريغورى كارلوفيتش . انه لا يدعنا نعيش على اية حال .

— اما ما يخص مدير الاعمال ففى الاسبوع القادم على اقل تقدير . والا فلن انتهى من شؤونى . قبل ايام اغتصب المانى امراة فى قرية اوسيبوفكا . هكذا . فوضعت ابرا فى الفطائر التى ياكلها . وعندما اكلها قفز من المائدة ، وركض الى الفناء . وسقط . وبعد قليل مات . فما كان من الالمان الا ان قتلوا تلك المراة فى مكانها . فخرج الفلاحون بفؤوسهم ... وانا لا اريد أن اتذكر ماذا فعل الالمان ... والآن لن تجدوا اثرا فى المكان الذى كانت فيه قرية اوسيبوفكا ... تلك هى نتيجة العمل الاعتباطى ! هل انتم فاهمون ؟

تنهدت ماتريونا ، وتقلبت على السرير . بدأت الدنيا تتنور ، وصاحت ديكة الفجر . كانت قطرات الندى تتناثر على افريز النافذة المفتوحة . وطن البعوض . واستيقظت القطة على سطح الموقد ، وقفزت برفق ، وصارت تتشمم الفضلات فى الركن .

كان الاخوان جالسين الى المائدة العارية يتحدثان بصوت خفيض ، كان سيميون يضع رأسه بين يديه ، والكسى منحنيا نحوه يتمعن فى وجهه :

— لا استطيع يا سيميون . ارجو ان تفهمنى ، يا عزيزى . لن تستطيع ماتريونا ان تقوم بامور الاستثمارة وحدها . هنا ما جمعناه خلال سنوات . فكيف اتركه ؟ سيأتون على آخر شىء ، وعندما اعود لا اجد غير الخواء .

قال سيميون :

— كيف تتركه ؟ لنفرض انه سيضيع ، فأية اهمية لذلك ؟ سننتصر وستبنى بيتا من آجر . (وضحك بتهكم .) من الضرورى القيام بحرب الانصار ، بينما انت مهتم باستثمارتك .

— مرة اخرى اقول لك : من سيطعمكم ؟

— انت لا تطعمنا على اية حال ، بل تطعم الالمان ، والهيتمان ، وكل سافل حقير ... انت عبد ...

— انتظر لحظة . الم احارب فى سبيل الثورة عام ١٩١٧ ؟ الم ينتخبونى الى لجنة الجنود ؟ الم اقوض جبهة الامبرياليين ؟ هكذا ... فعل مهلك لا تعيرنى ، يا سيميون ... والآن اذا جاء الجيش الأحمر فساكون اول من يمسك بالبندقية . فالى أين تريدنى أن اذهب الى الاتمانات فى الغابة ؟

— الآن حتى لهؤلاء نفع .

— ليكن ذلك .

قال سيميون ومد يديه على المائدة :

— الجرح اللعين يشد وثاقى . تلك هى مصيبتى ... والكثيرون من زملائنا فى اسطول البحر الاسود قد دخلوا هذه الفصائل ... سنشعل النار فى اوكرانيا من الجهات الاربع . امهلنا ...

— هل رأيت كوجين مرة اخرى ؟

— رايته .

— ماذا يقول ؟

— اتفقنا على أننا نشعل حريقا كبيرا فى قريتكم قريبا .

نظر الكسى الى اخيه وشحب ، واطرق براسه .

— هذا ما يجب ان يكون بالطبع ... ان بيت الضيعة ذاك يقف مثل قذى فى العين ... ما دام غريغورى كارلوفيتش حيا ، فانه لن يتركنا نتنفس ...

نزلت ماتريونا من السرير بقميص النوم فقط — سوى انها القت عليها لفاحا موردا — وتقدمت وضربت المائدة ببراجم قبضتها عدة مرات قائلة :

– لن اتحمل ، انهم ينتزعون ما عندى ! نحن النساء نصفى حسابنا مع هؤلاء الشياطين قبلكم ، يا رجال .

نظر اليها سيميون بمرح فجأة :

– هكذا ؟ كيف ستحاربن يا نساء ؟ حدثينا .

– سنحارب على طريقتنا ، نحن النساء . سنضع زرنيخا فى طعامهم . . . وسنحصل على هذا الزرنيخ . استدرجه الى المتبن او الى الحمام . الست املك ابرة حياكة او غيرها ؟ ساغرزها به فلا تند عنه صرخة . سنبدا نحن فلا تجبنوا . . . واذا اقتضى الأمر حملنا البنادق ، فلسنا اسوأ منكم . . .

ضرب سيميون الارض بقدمه ، وضحك ملء فمه .

– لست امراة ! انت شيطان !

– اتركنى .

وارتدت حذاءها على قدميها العاريتين عند عتبة الباب ، وهى تحرك لفاحها ، وطبطبت به ، وخرجت ، لترى الماشية على ما يبدو . ظل سيميون والكسى يهزان رأسيهما طويلا ويضحكان «امراة كالاتمان ، ما هى امراة» . هبت من النافذة المفتوحة نسمة قبيل الفجر ، وداعبت اوراق الدُرَيقة ، وحملت همهمة ونتفا من اغنية غير روسية . كان الجندى المقيم يعود سكران من بيت الضيعة مثيرا الغبار بحذائه .

شد الكسى النافذة بغيظ .

– خير ان تأوى الى غرفتك ، يا سيميون ، وتستلقى .

– تخاف ؟

– ويستطيع هذا الشيطان السكران ان يتشبث بك . . . انه يتذكر كيف هجمت عليه .

– ساهجم مرة اخرى . – ونهض سيميون وذهب الى غرفته – آه ، يا الكسى ، الثورة بسبب ذلك تموت ، بسبب صعوبة انهاضكم . . . الم يكفكم ما فعل كورنيلوف ؟ وما يفعل الغايدماك والالمان ؟ ماذا تريدون بعد ؟ (وفجأة قطع كلامه .) انتظر . . .

ترامت دمدمة من الفناء ، وطبطبة حذاء ثقيل غير واثقة . وتعالى صوت نسائى خانق : «اتركنى ! . .» ثم ضجيج مقاومة ،

وتنفس ثقيل ، ثم صاحت ماتريونا ثانية بصوت اشد ، وكأنه من الم : «سيميون ، سيميون ! . .»

اندفع سيميون من البيت مستفزا على ساقين معوجتين . وامسك الكسى بالمسطبة وبقى على جلسته . وليكن فقد كان يعرف ماذا يحصل حين يندفع المرء على هذه الصورة . . وفكر مع نفسه : «فى المساء تركت الفاس فى الرواق . سيستخدمها اذن . . .» صاح سيميون فى الفناء بصوت وحشى . وصدرت ضربة ساحقة . ونش شىء فى الفناء وغرغر ، وسقط ثقيلا .

دخلت ماتريونا مبيضة الوجه كقطعة بياض تجر وراءها لفاحها وانحنت نحو الموقد ، متنفسة بصدرها العالى . وفجأة هزت يديها على الكسى ، على عينيه . . .

ظهر سيميون فى الباب هادئا شاحبا .

– ساعدنى ، يا اخى . لنحمله الى مكان ما وندفنه . . .

٥

بلغت القوات الالمانية حدود الدون وبحر آزوف وتوقفت . لقد استولى الالمان على منطقة غنية للغاية اكبر حجما من المانيا كلها . وفى الدون ، مثلما فى اوكرانيا ، اسرعت القيادة الالمانية فى التدخل فى السياسة ، وساعدت اصحاب الاراضى الكبيرة ، والقوزاق الاغنياء الذين كانوا قبل اربع سنوات فقط يتبجحون باحتلال برلين بلا صعوبات . ان هؤلاء القوزاق الركينين العراض الوجوه ذوى الشرائط الحمراء على سراويلهم ، الاقوياء وكأنهم صبوا من فولاذ انقلبوا الآن الى حملان وديعة .

قبل ان يصل الالمان الى روستوف هجم جيش قوزاقى مؤلف من عشرة آلاف رجل بقيادة الاتمان بوبوف على نوفوتشيركاسك عاصمة الدون . كانت الغلبة تميل الى جانب القوزاق الحمر الذين يؤلفون حامية هذه المدينة والبلاشفة الذين اسرعوا اليهم من روستوف فى معركة دامية على الهضبة العالية فوق الدون . الا أن حادثة خيالية حسمت الأمر .

جاءت جماعة متطوعين بقيادة العقيد دروزدوفسكي من رومانيا مشيا على الاقدام . وفي ٢٢ نيسان فجاة استولت على روستوف ، واحتفظت بها حتى المساء حتى اخرجت منها . وسار رجال دروزدوفسكي في السهب باحثين عن جيش كورنيلوف . وبينما هم في الطريق في الخامس والعشرين من نيسان سمعوا ضجيج معركة قرب نوفوتشيركاسك ، فانعطفوا نحو المدينة دون ان يسالوا عن المتحاربين ولماذا يحاربون ، وشقوا طريقهم بمدرعة الى احتياط الحمر ، وأثاروا فوضى مريعة . ولما رأى قوزاق الدون ان عونا قد هبط عليهم من السماء تحولوا الى الهجوم المضاد ، ودحروا الحمر ، وابعدوهم ، واحتلت نوفوتشيركاسك . وتحولت السلطة من اللجنة الثورية الى «لجنة انقاذ الدون» . وبعد ذلك جاء الالمان .

وتحت حمايتهم سلمت هذه اللجنة في نوفوتشيركاسك – التي لم يترك الالمان حامية فيها عن تعقل – صولجان الاتمان الى الجنرال كراسنوف «الصديق الشخصي للامبراطور غليوم» على حد تعبيره هو . ودقت اجراس الكاتدرائية برنين رقيق ناعم ، وتجمهر القوزاق في الساحة الكبيرة المرصوفة أمام الكاتدرائية هاتفين «هورا !» وتمنى قوزاق القرية الخير للحكم الجديد ..

لم يتوغل الالمان في اعماق الدون وكوبان بعد روستوف . وحاولوا اخضاع قرية باتايسك الواقعة على الضفة اليسرى مقابل روستوف ، والتي يقطنها عمال يعملون في ورش ومعامل روستوف وفقراء الضواحي . ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على القرية رغم النار الحامية والهجمات الدامية . فقد قاومت باتايسك المحاطة كليا تقريبا بمياه الفيضان مقاومة مستميتة ، وبقيت مستقلة .

وظل الالمان عند هذا الحد . وقصروا جهودهم على تعزيز سلطة الاتمان ، وتزويده بالاسلحة المأخوذة من مخازن الاسلحة الروسية في اوكرانيا . وعلى هذه الصورة من الحذر حلت مسالة حرجة هي الموقف ازاء الجماعتين من المتطوعين : جيش دنيكين وجماعة دروزدوفسكي . سار المتطوعون على وصيتين : القضاء على البلاشفة ، وتجديد الحرب ضد الالمان ، اى الولاء الى الحلفاء حتى النهاية . وكانت الوصية الأولى تبدو للالمان معقولة وجيدة

بينما اعتبروا الثانية حماقة ليست خطرة الى حد كبير . ولهذا تظاهروا بانهم لا يعرفون بوجود المتطوعين . كما تظاهر رجال دنيكين ودروزدوفسكي بانهم لا يلاحظون وجود الالمان على الارض الروسية .

وهكذا اضطرت جماعة دروزدوفسكي ذات مرة لدق مسيرتها من كيشينيف الى روستوف الى عبور نهر . كان الالمان يقفون على احدى ضفتيه ، في بوريسلافل ، والبلاشفة على الضفة الثانية ، في كاخوفكا .

وكان الالمان قد فشلوا في الاستيلاء على جسر على النهر . وعند ذلك استطاع رجال دروزدوفسكي الاستيلاء على الجسر واخرجوا جماعة الحمر من كاخوفكا ، وواصلوا السير دون ان ينتظروا شكر الالمان لهم .

ووقع رجال دنيكين بنفس التناقض ، ولكن على نطاق اوسع . في نهاية نيسان استطاعت بقايا جيش المتطوعين التي تمزقت عند يكاترينودار ان تصل الى منطقة قريتي يغورليتسكايا وميتشيتينسكايا على بعد حوالي خمسين فرسخا من نوفوتشيركاسك . وهنا هبط عليها خلاص مفاجىء ، وهو نبأ استيلاء الالمان على روستوف ، وقوزاق الدون على نوفوتشيركاسك . فترك الحمر المتطوعين بسلام ، وفتحوا جبهة ضد العدو الجديد – الالمان .

وتمكن المتطوعون من ان ينالوا قسطا من الراحة ، ويعالجوا الجرحى ، ويستجمعوا قواهم . وكانوا ، قبل كل شيء ، بحاجة الى سد النواقص في عتاد وذخيرة جيشهم .

كانت جميع المحطات من تيخوريتسكايا حتى باتايسك مملوءة باحتياطات هائلة من الاعتدة الحربية للهجوم المضاد الذي يعده الحمر باتجاه روستوف . عندئذ هاجم الجنرالات ماركوف وبوغايفسكي واردلي بثلاثة طوابير القرب مؤخرة للحمر ، في محطات كريلوفسكايا ، وسوسيكا ، ونوفوليوشكوفسكايا ودمروا القطارات ، ونسفوا القطارات المصفحة ، وعادوا الى السهب بغنيمة هائلة . واحبط هجوم الجيش الاحمر على الالمان .

خشى الكتف المضموم ، واندملت الخدوش الصغيرة التى حدثت فى المعارك . وقوى روتشين ، واسمر من تلويح الشمس ، ونال شبعه خلال الايام الأخيرة فى القرية الهادئة .

تلك البهجة التى كانت تعذبه كمرض نفسى منذ خروجه من موسكو : انتقامه من البلاشفة على الاساءة . كان ينتقم . وكان ، على اية حال ، يتذكر لحظة واحدة ... لحظة عدو'ه نحو سدة الخط الحديدى ... كان الانتصار ... كانت ركبتاه ترتجفان ، والدم ينبض فى صدغيه ... خلع طاقيته اللينة ، مسح بها جبينه . وقد فعل ذلك لا شعوريا ، مثل جندى قديم حريص على نظافة سلاحه . لم يكن يحس بالكراهية الجنونية السابقة ، باطواق الرصاص تشد على جبهته والدم المتدفق الى عينيه . انه قد لحق بعدو وغرز الحربة فيه ، ونظفها . اذن ، فقد كان على حق ؟ ويجاهد عقله الاخذ بالصفاء ليفهم : هل هو على حق ؟ نعم ؟ على حق ؟ ولكن لماذا يسأل هو نفسه عن ذلك ؟

كان يوم احد . وكانت صلاة القداس تقام فى كنيسة القرية . كان روتشين متأخرا فمكث يعطس الوقت على مدرج الكنيسة بين الاقبية المحلوقة حديثا ، وخرج ليتجول فى المقبرة القديمة وراء الكنيسة . سار على عشب لمت عليه هندباء برية ، وقلع خصلة عشب ، وقضمها ، وجلس على اكمة صغيرة . كان فاديم بتروفيتش انسانا نزيها ، وكما قالت كاتيا ، انسانا طيبا .

ترامت من نافذة نصف مفتوحة مغشاة بنسيج عنكبوت اصوات اطفال ، وكانت نبرات الشماس بصوته الكثيف غاضبة خالية من الرأفة ، حتى لكأن اصوات الاطفال على وشك ان تفزع ، وتتطاير فى ذعر . ووجد فاديم بتروفيتش فكره يطوف فى الماضى ، وكأنما يبحث عن شىء وضاء واحفل بالطهر ...

انه يصحو من الفرح : وراء النافذة النظيفة العالية سماء ربيعية داكنة الزرقة لم ير مثلها منذ ذلك الحين . وكان فى وسعه ان يسمع حفيف الاشجار فى الحديقة ، وعلى الكرسى الى جانب السرير الخشبى قميص جديد من الساتان ازرق مرقط قواح بيوم الاحد . ويفكر ماذا سيفعل طيلة النهار الطويل ، وبمن يلتقى . وكان لذلك من الاغراء والبهجة ما يجعله يطيل استلقاءه على السرير ...

ويتطلع الى ورق الحائط ، حيث رسمت بتكرار بيوت صينية لها سقوف معكوفة ، وقنطرة شديدة الانحدار ، وصينيان تحت مظلتين ، وصينى آخر فى قبعة تشبه طليلة الضباح يصطاد السمك من على القنطرة . صينيون طيبون مضحكون ، ما اطيب عيشهم فى البيت عند الجدول ... ويترامى اليه من الرواق صوت امه : «فاديم ، هل انت جاهز ؟ انا تهيأت ...» وهذا الصوت الهادىء الحبيب يرن فى حياته كلها باليمن والسعادة ... ويقف بالقرب من امه والقميص المرقط على جسده ، وهى فى ثوب حريرى انيق . وتقبله وتخرج مشطا من شعرها ، وتمشط له : «الآن احسن ، لنذهب ...» وتفتح مظلتها ، وهى تهبط السلم العريض . وكانت خيول عربة «الترويكا» * الصهباء لا تكاد تستقر فى مكانها فى البسطة المكنوسة المعلمة بآثار المكنسة ، الحصان الايسر يشاكس ، والثانى الاساسى ، الرصين قد حفر الارض بحافره ، ويقول الحوذى المشبع المغتبط ذو الكمين الاحمرين البادين من تحت سترة مخملية بلا اكمام رافعا لحيته الشعثاء الى فوق : «كل عام وانتم بخير» ، وتجلس الام بوضع مريح فى العربة التى دفأتها الشمس ، وينضغط فاديم على امه بسعادة وتلهفا لسماع صفير الريح فى اذنيه ، ورؤية الاشجار المتطايرة الآتية من الجهة المقابلة . وتنطلق «الترويكا» ملتفة حول بيت الضيعة . وهذا هو شارع القرية العريض ، والفلاحون المنحنون واحدا اثر الآخر ، والدجاجات المقاقئة المتراكضة من تحت العجلات . سياج الكنيسة الابيض ، والبرجة الخضراء ، واشجار البتولا المتفتحة البراعم من توها ، وتحتها صلبان معوجة ، والقبور ... ومدر'ج الكنيسة الحافل بالمتسولين ... ورائحة البخور الاليفة ...

ما تزال الكنيسة واشجار البتولا قائمة هناك حتى الآن ، وفاديم بتروفيتش يرى بعين خياله خضرتها المطرزة على خلفية السماء الزرقاء ... وتحت واحدة منها – الخامسة من ركن الكنيسة – ترقد الام منذ زمان رقدتها الابدية ، وقد احيط قبرها بسياج . وقبل ثلاثة اعوام كتب القندلفت العجوز الى فاديم

* عربة تجرها ثلاثة خيول . – المترجم .

بتروفيتش أن السياج قد كسر ، وان الصليب الخشبى قد تغير . . . والآن فقط تذكر بتندم شديد انه لم يرد على رسالته حتى الآن .

الوجه الحبيب ، واليدان المطوقتان ، والصوت الذى كان يوقظه صباحا ويترعه بالسعادة طوال اليوم . . . حب كل شعرة من شعره ، كل خدش فى جسده . . . يا إلهى كان حبها يزيل عنه كل حزن ، مهما يكن ذلك الحزن . والآن كان كل ذلك قد دفن بالوجه الأبكم تحت الأكمة الصغيرة فى ظل البتولا متدمجا مع الأرض . . .

وضع فاديم بتروفيتش كوعيه على ركبتيه ، وغطى وجهه بيديه .

مرت اعوام طويلة . وكان يبدو دائما وكأنه لم يبق الا مطالبة واحدة ، ويصحو ممتلئا بالسعادة فى صباح ازرق كما فى الماضى سيقوده الصبيان ذوا المظلتين عبر القنطرة المحدودبة الى البيت ذى السقف المكرف . . . وهناك تكون فى انتظاره حبيبة قريبة الى القلب بشكل لا يوصف . . .

وفكر فاديم بتروفيتش مع نفسه «وطنى !» وتذكر ثانية «الترويكا» المنطلقة فى القرية «انها روسيا . . . ما كان روسيا . . . وقد اختفى ، ولن يكون بعد الآن . . . لقد صار الصبى ذو القميص من الساتان قاتلا» .

ونهض سريعا ، وبدأ سيره على العشب واضعا يديه وراء ظهره ، مفرقعا باصابعه . وقادته افكاره نفسها الى حيث كان يظن انه قد صفق باب الماضى بقوة وحدة . فقد كان متيقنا من انه ذاهب الى الموت . . . وها هو ، لم يمت . . . وما اسهل ان يرقد الانسان الآن فى حفرة فى السهب مغطى بالذباب . . .

وفكر مع نفسه : «الموت سهل ، والعيش صعب . . . وفى ذلك يكمن واجب كل واحد منا : ان يقدم للوطن المحتضر لا زكية حية من اللحم والعظم ، بل كل الاعوام الخمسة والثلاثين التى عاشها ، العواطف ، والآمال ، والبيت الصيفى ، وكل نقاوته . . .»

توجع ، وتلفت فيما حوله ليعرف هل يسمعه احد . ولكن اصوات الأطفال ما تزال تتشد . والحمامات تهدل على افريز مندى . . . وتذكر بعجالة كالخلسة ، لحظة اخرى ، لحظة الحنية التى

لا تحتمل . (ولم يذكر كاتيا بذلك قط .) كان ذلك فى موسكو ، قبل عام . وكان روتشين قد علم ، وهو فى المحطة ، ان زوج يكاترينا دميتريفنا دفن نفس اليوم ، وأنها الآن وحيدة . وقد جاء اليها عند هبوط المساء ، فقالت له الخادمة انها نائمة ، فبقى ينتظر جالسا فى غرفة الجلوس . وقالت الخادمة همسا ان يكاترينا دميتريفنا تبكى طوال الوقت : «تدير وجهها الى الحائط فى سريرها ، وتبكى كالطفل ، حتى انها تغلق باب المطبخ . . .» فقرر ان ينتظر ، حتى لو انتظر الليل كله . وظل جالسا على الأريكة يسمع تكتكة الساعة فى مكان ما مودعة الوقت ، منتزعة لحظات العمر ، واضعة الغضون على الوجه الحبيب ، ناثرة الشيب القطنى فى الشعر ، بلا رأفة ولا هوادة . . . وفكر روتشين فى ان كاتيا ، اذا لم تكن نائمة ، فهى لا بد ان تفكر فى ذلك ، وهى تسمع تكتكة الساعة . ثم سمع خطواتها الواهنة غير الواثقة . وكأن كعب احد نعليها قد التوى . كانت تسير فى المخدع ، وبدا وكأنها تهمس بشىء ما . توقفت ، وبقيت بلا حراك فترة طويلة . واخذ روتشين يقلق ، وكأنما فهم افكار كاتيا من خلال الجدار . وصر الباب ، ودخلت كاتيا الى غرفة الطعام ، وراحت تحرك اشياء بلورية فى صوان السفرة فترسل رنينا . وتصلب روتشين متحفزا للاندفاع . فتحت الباب قليلا : «يا ليزا ، هذه انت ؟» كانت ترتدى روبا من وبر الجمال ، واحدى يديها تمسك بقدح ، والأخرى بقارورة صغيرة تافهة . . . كانت تنوى ان تتخلص بهذه الوسيلة من الأسى ، من الوحدة ، من الزمن الذى لا يعرف رأفة ، من كل شىء . . . كان وجهها الناحل ذو العينين الرماديتين مثل وجه طفل اهمله الجميع . . . جميل لو وجدت نفسها فى البيت الصيفى ذاك . قال فاديم بتروفيتش لها عندئذ : «انا تحت تصرفك ، وكل حياتى تحت تصرفك . . .» وصدقت هى بأن وحدتها كلها ، كل الاعوام المتبقية من عمرها يمكن ان تغرق فى حنيته ، فى حبه . . .

اوه ، يا للشيطان ! كان بالطبع يعرف دائما ان كاتيا لم تتخل عنه لحظة واحدة ، حتى حين كانت الكراهية تضغط على رأسه مثل اطواق من رصاص ، وفى هذا الشهر الرهيب للمعارك ايضا ، كانت تسد عليه طريقه بظل غير مرئى ، باسطة يديها ، ومتوسلة

بلا صوت ، وهو ، الذى بح صوته من الصياح الجنونى غرز حربته فى معطف جندى أحمر ، غرزها عبر ذلك الثقل الملازم له ، وخلع طاقيته ، ومسح النصل بها ...

— انتهى القداس . وخرج من الكنيسة جمهور من الضباط وطلاب المدارس العسكرية ملوحى الوجوه . وسار الجنرالات المشهورون متمايلين وعيونهم صارمة ، وقمصانهم نظيفة ، وصدورهم مزينة بالنياشين والصلبان : ارديل الطويل الوسيم الممشوق القوام كالصورة المرسومة بلحيته المتدرجة وطاقيته المائلة ، وماركوف اللاذع بقبعته الفرائية الملطخة ، وكوتيبوف القصير الربع المتين الافطس الأنف ذو العينين الشبيهتين بعينى دب ، والقوزاقى بوغايفسكى بشاربيه المفتولين . ثم خرج دنيكين وروماتوفسكى البارد «العويص» كما يسمى فى الجيش بوجهه الجميل الذكى ، وكان الاثنان يتحادثان . وانتصب الجميع لدى رؤية القائد العام ، والذين كانوا يدخنون تحت اشجار البتولا رموا سكائرهم .

لم يعد دنيكين ذلك البائس بحذائه البالى وملابسه المدنية ، «العجوز» المصاب بالتهاب القصبات ، الذى تعلق بعربات الجيش دون متاع . فقد انتصبت قامته ، وحسنت قيافته ، وكانت لحيته الشائبة توحى لكل انسان بالاحترام الابوى ، وقد تدورت عيناه وامتلأتا بفيض الصرامة مثل عينى الصقر . وطبيعى انه ليس كورنيلوف الا انه كان اكثر الجنرالات تجربة وتعقلا . رفع اصبعين الى طاقيته العسكرية ، ومر ببوابة الكنيسة فى أبهة ، وجلس فى العربة مع روماتوفسكى .

اقبل تيبلوف الطويل القامة على روتشين . كانت يده اليسرى فى رافعة ، ومعطف الخيالة المدعوك ملقى على كتفيه . وقد حلق بمناسبة العيد ، وكان فى مزاج ممتاز .

— هل سمعت الاخبار ، يا روتشين ؟ سيحتل الالمان والفنلنديون بطرسبورغ ان لم يكن اليوم فغدا ، وهم تحت قيادة مانيرهايم ، هل تذكره ؟ الجنرال من حاشية القيصر ، فتى شاطر ، مقاتل ممتاز ... وفى فنلنده نحروا جميع الاشتراكيين . والبلاشفة ينسلون من موسكو ، ومعهم حقائبهم ، عبر ارخانغلسك . انها

حقيقة ، كلمة شرف ... وصل الملازم سيدليتيكوف من توفوتشيركاسك ، وهو يروى ذلك ... اما فى توفوتشيركاسك فيقول ان النساء والفتيات رائعات كاغصان البان ، لكل رجل عشر منهن ... (وافرج رجليه النحيلتين المطرتين عند الركبتين ، وضحك ضحكة جعلت تفاحة آدم ترتفع من وراء ياقة قميصه .)

لم يشجع روتشين الحديث عن النساء والفتيات فعاد تيبلوف الى الاخبار السياسية التى كان يحياها الجيش ، وهو فى اعماق السهب .

— تبين ان موسكو كلها ملغمة . الكرملين والكنائس والمسارح ، واحسن المبانى جميعا ، واحياء كاملة . وقد مدت اسلاك كهربائية الى سوكولنيكى ، فان هناك بيتا سريا يحرسه اعضاء اللجنة الاستثنائية ليل نهار ... تصور سنقترب واذا بكل شيء ينسف ! وتتطاير موسكو فى الهواء ... (وانحنى ، وخفض صوته .) انها حقيقة ، كلمة شرف ... وقد اتخذ القائد العام تدابير مناسبة ، ارسلت الى موسكو استطلاعات خاصة للعثور على هذه الاسلاك . عندئذ سنقترب من موسكو ، ولا ندعهم ينسفونها ... وبالمقابل سنشنقهم ! فى الساحة الحمراء ! جميل ! على ملأ من الناس وعلى قرع الطبول .

تعبس روتشين ، ونهض :

— من الخير أن تظل على حديثك عن الفتيات ، يا تيبلوف .

— يعنى ، لا يعجبك ؟

— نعم ، لا يعجبنى .

ونظر روتشين بتصميم فى عينى تيبلوف القحبتين البليدتين ، فامال هذا فمه الى جانب .

— يبدو انك لم تنس جراية الحمر .

رفع روتشين حاجبيه ، وتقدم منه :

— ماذا ؟ ماذا قلت ؟

— قلت ما يقوله فوجنا كله ... حان الوقت لأن تبلغ عن عملك فى الجيش الأحمر ، يا روتشين ...

— حقير !

ولم ينقذ تيبلوف من صفعة الا كون يده على واقعة ، وما يزال يعتبر جريحا - لم يضربه روتشين ، واستدار الى الوراء بحدة واضعا يده وراء ظهره ، وسار بين القبور متخشبا مرفوع المنكبين .

عدّل تيبلوف معطفه المنسرح ، ابتسم ابتسامة متكدرة ، ونظر الى ظهر روتشين المستقيم - في تلك اللحظة وصل الملازم فون ميكه ، ومعه طله الملازم فاليريان اوتولي - وهو شاب ذو وجه منمش وعينين وضاءتين حالمتين واسعتين ، ابن صاحب معمل التبغ من سمفيروبول يرتدي معطف طالب مستهلكا ملطخا بلطخات بنية ، عليه كتافيتا ضابط صف .

— ماذا حدث بينكما ؟ تشاتمتما ؟ — سأل فون ميكه بصوت حاد كصوت الصلّم* في العادة .

جلب تيبلوف شاربه ، وهو ما يزال مندهشا ، وروى كل المحادثة بينه وبين المقدم روتشين .

قال اوتولي ذو العينين الحالمتين بسآمة :

— عجيب انك ما تزال مندهشا ، ايها السيد النقيب . كان واضحا في منذ اليوم الاول ان المقدم روتشين جاسوس .

— اسكت ، يا فالكا ، — قال فون ميكه وهو يغمز بالنصف الايسر من وجهه الذى اصيب بصدمة قتيلة ، — والشيء المهم ان الجنرال ماركوف يعرفه شخصيا . . . ولذا يجب ان تكون حذرا . . . اما انا فاراهن بمسدسي على ان روتشين يلشفي ، ووغد ، وقذر . . .

حتى نهاية شهر ايار كان الهدوء النسبي يسود شمال القفقاس . فقد كان كلا الطرفين يستعد للمعركة الحاسمة . المتطوعون يتهيأون للاستيلاء على نقاط الالتقاء الرئيسية على الخطوط الحديدية ، وقطع القفقاس ، وتطهير المنطقة من الحمر بمعونة القوزاق البيض . واللجنة التنفيذية المركزية لجمهورية كوبان-البحر الاسود تتهيأ للقتال على ثلاث جبهات : ضد الالمان ،

وضد القوزاق البيض ، وضد «عصابات دنيكين» التي انتعشت من جديد .

وكان جيش القفقاس الاحمر المؤلف في معظمه من الجيش القيصري السابق لما وراء القفقاس ، والاغراب من المناطق الاخرى وشبيبة القوزاق المالكة لقطع صغيرة من الارض يصل في عدده الى مائة الف مقاتل . وكان اعضاء اللجنة التنفيذية المركزية يشكون في ان لقائده العام — افتونوموف — ميولا دكتاتورية . كان في حالة شجار دائم مع الحكومة . وقد وصف اعضاء اللجنة التنفيذية المركزية في احد الاجتماعات الحاشدة الكبيرة بجواسيس الالمان واستفزازيين . وردا على ذلك «وصمته» اللجنة مع سوروكين المقرب اليه بانهما قاطعا طريق ، وعدوان من اعداء الشعب ، ودمغتهما باللعنة والعار الابدي .

وكل هذا التشاجر شلّ الجيش . وبدلا من الشروع بهجوم مركز بثلاث مجموعات على جيش المتطوعين الذي كان في وسط هذه المجموعات ، شاع الاضطراب في الجيش الاحمر ، وصار يعقد اجتماعات حاشدة ، ويسقط امراء الوحدات ، وكان في احسن الاحوال عرضة لهلاك مأساوي .

واخيرا تغلبت المراسيم الصادرة من موسكو على عناد المناطق في الاطراف ، وعين افتونوموف مفتشا في الجبهة ، وانتقلت قيادة المجموعة الشمالية الى المقدم كالنين وهو لاتفي جهم المظهر ، بينما بقي سوروكين قائدا للمجموعة الغربية .

وفي ذلك الوقت بالذات انضم الى جيش المتطوعين العقيد دروزدوفسكي بجماعته المؤلفة من ثلاث آلاف ضابط صار هو من نخبة ضباطه يعادل كل منهم في القتال عشرة من الجنود الانفار ، وتدفق قوزاق القرى على افراسهم ، وبدأ الضباط يصلون من بتروغراد وموسكو ومن كل ارجاء روسيا وحدانا وجماعات ، وقد بلغت اسماعهم معجزة «الحملة الجليدية» . وارسل الالمان كراسنوف السلاح والمال رغم شحه . فكان جيش المتطوعين يقوى كل يوم ، وقد رفعت عزيمته الدعاية المقتدرة للجنرالات ورجال المجتمع ، والعمليات غير البارعة للسلطة السوفييتية المحلية ، واقوال شهود العيان القادمين من الشمال .

وفي نهاية أيار لم تكن قوات الحمر المحلية بقادرة على سحق جيش المتطوعين ، فتحول الى الهجوم ، ووجه ضربة رهيبة الى المجموعة الشمالية للجيش الاحمر بقيادة كالنين في محطة تورغوفايا .

– لماذا كففتم عن الغناء ، يا رجال ؟
– بحت أصواتنا .
– دعوني آخذ جمرة .

وقرفص ايفان ايليتش عند النار التي ألقيت فيها من الأعلى لوحة الخط الحديدي الخشبية الواقية من الثلج ، ولما اشتعل الغليون بقي ليتشمس .

كان الوقت متأخرا . وقد انطفأت كل النيران تقريبا على طول خط السكة الحديدية . وفي الليل الطري لمعت نجوم كثيرة . كانت النار تضيء الى الأعلى على سدة الخط قطارات البضاعة وهي عربات الحمولة الحمراء بلون الآجر ، المحطمة والممزقة . لقد جاء بعضها من سواحل المحيط الهادي ، والبعض الآخر من المستنقعات القطبية ، ومن رمال تورِكستان ، ومن الفولغا وبوليسيه . وكانت كل عربة تحمل ملاحظة «الرجيع على الفور» . ولكن المواعيد كلها قد فاتت منذ زمان . وها هي هذه العربات المعدة للعمل السلمي المصطبرة على المحن طويلا بمحاورها التي لم تدهن ، وجوانبها المحطمة كانت مهيأة – وهي تستريح الآن تحت النجوم – الى عمل خيالي كليا . انها ستلقى بقطاراتها الكاملة وحمولتها عن الخط . بعضها سيُحشى بالأسرى من الجنود الحمر كالسردين في العلب ، ويرشمت نوافذه وأبوابه بالألواح ، ليبير آلاف الأميال وقد عُلّم بالطباشير : «حمولة غير قابلة للفساد . سرعة بطيئة» . وبعضها يصبح مقابر للمصابين بالتيفوس ، وثلاجات لنقل الجثث المجمدة ، وبعضها ينسف ويتطاير شظايا في السماء . . . وفي مناطق سيبيريا النائية ستستخدم أبوابها وجدرانها لصنع أسيجة وزرائب للماشية . وستنقضي شهور عديدة قبل أن يعود السليم منها نصف محروق . مضعضعا الى المكان الذي طالب بعودته الفورية ، ويقف على القضبان الصدئة للتصليح .

– ماذا يكتبون من موسكو ، يا رفيق تليغين . هل ستنتهي الحرب الأهلية قريبا ؟
– عندما ننتصر .
– يعني . . . انهم يزمطون علينا . . .

كان بعض الذين عند النار يستلقون بارتخاء ملتحين ملوحي البشرة سود . . . لم تكن لهم رغبة في النوم ، ولا في حديث طويل . طلب احدهم تبغا عند تليغين .

– يا رفيق تليغين ، من هم هؤلاء التشيكوسلوفاكيون ومن اين جاءوا الينا ؟ انهم حسب ما اذكر لم يكونوا في الوجود قبل هذا . . .

اوضح ايفان ايليتش ان التشيكوسلوفاكيين هم أسرى الحرب النمساويين ، ولقد بدأت الحكومة القيصرية تشكل منهم فيلقا لترسله الى فرنسا ، ولكن الوقت لم يتسن لها لتفعل ذلك . . .

– اما الآن فان السلطة السوفييتية لا تستطيع ان تسرحهم ما داموا يريدون يحاربوا في الجبهة الامبريالية . . . وقد طالبنا بتجريدهم من السلاح ، ولهذا تمردوا . . .
– امعقول اننا سنحاربهم أيضا ، يا رفيق تليغين ؟
– لا احد يعرف شيئا الآن . . . المعلومات غير محددة تماما . . انا اشك في ذلك . . . عددهم حوالي اربعين ألفا . لا غير . . .
– اذن ، من السهل ان نقضي على هذا العدو . . .

وعاد الصمت يلف المجتمعين عند النار . قال الذي طلب تبغا من تليغين ناظرا من مؤخر عينيه ، والظاهر ليجرب الاشتراك في الحديث :

– في عهد القيصر ارسلونا الى صارا كاميش . ولم يوضحوا لنا شيئا : لماذا يجب ان نحارب الترك ، وفي سبيل من نضحي بحياتنا . والجبال في تلك البقعة فظيعة . وتنظر وتفكر بان أمك ولدتك في ساعة نحس . . . اما الآن فالأمر مختلف . انها حرب في سبيلنا ، حرب انسانية . كل شيء مفهوم : مَن ولأي شيء .
– حدثني على سبيل المثال . يدعونني تشيرتوغولوف .

قال جندي آخر بصوت كثيف رافعا جسمه على كوعه ، وجلس

في مكان اقرب الى النار حتى لكان من المدهش ان النار لم تطل لحيته . كان ذا شكل مخيف ، وشعره الاسود نازل على جبينه ، وعيناه المستديرتان تلتهبان في وجهه الملوّح . ثم استطرد يقول :

— كنت في الشرق الاقصى مرتين ، وقضيت في السجن مددا متفاوتة على التشرد . . . طيب ، ومع ذلك وضعوني في الثكنة ، واعطوني بطاقتي العسكرية ، وارسلوني لأحارب . . . جرحت ستة جروح . . . هذه هي ، انظروا — ووضع اصبعه في فمه ، وجذبه الى طرف ، وكشف عن اسنان مكسورة — ودبرت أمري ، ووصلت الى موسكو ، الى مستشفى عسكري . وهناك وجدت البلاشفة . . . وانتهت كل متاعبي . سألوني : وضعك الاجتماعي ؟ اجبتهم لا تبحثوا بعيدا . أنا سليل عامل زراعي محترم ، لا اعرف اقارب لي . فضحكوا كثيرا واعطوني بندقية ، ورشحوني . وصرنا في ذلك الوقت نجوب المدينة باحثين عن البرجوازيين . . . اذا دخلنا الى شقة فاخرة نجد اهلها خائفين ، بالطبع . . نبحث فنجد انهم قد اخفوا الطحين والسكر . . . الاوغاد ! انهم خائفون يرتجفون ، ولكن لا تند عنهم كلمة واحدة . واحيانا يغمرني الغيظ واخرج عن الطوق الانسانية . تحدث يا وغد ، واشتم وتوسل بي . . . اسمعه اقبح السباب . ولكن لن اجده يتحدث . . . فاقول لنفسي : ما هي القضية ؟ . . واحس بالاهانة . صمت طوال عمري ، وعملت لهؤلاء الابالسة ، واريقت من اجلهم دمي . . . وهم لا يعتبرونني انسانا . وافكر : هؤلاء هم ، البرجوازيون : منذ ذلك الحين صار يحرقني الحقد الطبقي . حسنا . . . ذات مرة كانت تجب مصادرة بيت التاجر ريابينكين . كنا اربعة ومعنا رشاشة لاثارة الخوف . وتطرق الباب الخارجي . وبعد قليل تفتح لنا الباب خادمة انيقة ، وقد شحبت واضطربت متلجلجة : آه ، آه . . . وسارت على اطراف اصابعها . . . نحيناها جانبا ، ودخلنا صالة ، غرفة كبيرة مزينة باعمدة . وفي الوسط مائدة كان يجلس اليها ريابينكين وضيوف يأكلون الفطائر . حدث ذلك في اسبوع المرفع وكان الجميع سكارى بالطبع . . . كان ذلك في وقت يموت فيه البروليتاريون جوعا ! . . ولذا ضربت الارض بالبندقية بشدة ، وصرخت بهم بصوت عال ! بينما هم جالسون يتسمرون . . . وهرع ريابينكين لملاقاتنا متوردا

مرحا ، وعيناه جاحظتان ويقول : «ايها الرفاق الاعزاء ، انا اعرف منذ زمان انكم ستصادرون بيتي بكل محتوياته ! امهلوني لانتهي من الفطائر ، بالمناسبة ، اجلسوا معنا . . . ولا عيب في ذلك لأن هذا كله ملك للشعب» ويشير الى المائدة . . . اخذنا نتردد ، ولكننا جلسنا الى المائدة ، ونحن نمسك البنادق متجهمين . . . اما ريابينكين فقد قدم لنا الفودكا والفطائر والمشهيات . . . ويتحدث ويضحك . . . لم يترك شيئا لم يتحدث فيه ، مقلدا اشخاصا متفوها بلاذع الكلام . . . والضيوف يقهقهون . . . واخذنا نحن نضحك . . . وقيلت نكات مختلفة عن سلوك البرجوازيين ، وبدا جدال ـ ولكن كلما تعبس احدنا قليلا اغرق صاحب البيت عبوسه بالفودكا ! شربنا باكواب للشاي ، ولم نشرب بغيرها . . . وبدأوا يفضون زجاجات الشمبانيا ، فوضعنا بنادقنا في ركن . . . واقول لنفسي : «يا تشيرتوغونوف ، اهذا انت تسير في الصالة ، وتتعلق بالاعمدة ؟» وبدانا نغني الاغاني جماعيا . وعند المساء تركنا الرشاشة على مقدمة البيت ، كيلا يدخل شخص غريب علينا ، وبقينا نشرب ستا وثلاثين ساعة . استرجعت فيها ما خسرته خلال حياتي البكماء . ومع ذلك فان ريابينكين قد خدعنا ، ذلك التاجر الخبيث ! . . بينما كنا نمرح ونشرب استطاع — بمساعدة الخادمة في ذلك — ان يخفي كل المجوهرات والذهب والعملة الاجنبية ، ومختلف الاشياء الثمينة في مكان مأمون . . . فلم نصادر غير الجدران والاثاث . . . وعند الانصراف قال ريابينكين مودعا ، وهو سكران بالطبع : «ايها الرفاق الاعزاء ، خذوا ، خذوا كل شيء ، انا لا اتأسف على شيء . لقد خرجت من الشعب ، واعود الى الشعب . . .» وفي ذلك اليوم رحل خارج القطر . اما انا فاستدعيت الى اللجنة الاستثنائية . قلت لهم : «مذنب انا . ارموني بالرصاص» ، الا انهم لم يرموني الا لكوني غير واع . وانا حتى الآن سعيد لأنني قد تمتعت . . . هناك شيء يستحق ان اذكره . . .

قال احد الجالسين وراء الدخان :

— هناك الكثير من الخبثاء بين البرجوازيين ، ولكنهم ليسوا قلة بيننا .

توجهت الانظار اليه . وقال الذي طلب لبنا من الليفي :

– لا احد يوقف الشعب الآن ، ما دام قد خاض الدم فى عام ١٩١٤ ...

قال صوت من وراء الدخان :

– ليس هذا ما اعنيه . العدو عدو ، والدم دم . . . ولكن عنيت الخبثاء .

– وانت مَنْ ؟

اجاب الصوت خافتا :

– انا ؟ انا خبيث .

عندئذ صمت الجميع ، وراحوا ينظرون فى الجمر الهامد . سرت برودة فى ظهر تليغين . كان الليل طريا . انقلب شخص عند النار ، واستلقى موسدا خده على قبعته .

نهض تليغين ، وتمطى ، وعدل من هندامه . وحين انزاح الدخان الآن صار من الممكن رؤية «الخبيث» جالسا طاويا رجليه فى الجانب الآخر من النار . كان يقضم نصل الافسنتين وكان الجمر يضيء وجهه الطويل الناحل بشعره المزغب الفاتح قليلا ، ونعومته الشبيهة بنعومة وجه نسائى . وقد سرح على قفاه طاقية مستهلكة ، ووضع على كتفيه الضيقين معطف جندى . كان عاريا حتى الحزام . كان القميص ، الذى كان يبحث فيه عن قمل كما يبدو ، مرميا بالقرب منه . لاحظ ان العيون متجهة اليه فرفع رأسه ببطء وابتسم ابتسامة طفولية بلهاء .

عرفه تليغين . كان احد المقاتلين فى سريته . واسمه ميشكا سولومين من الفلاحين القاطنين بالقرب من مدينة يليتس . وقد تطوع فى الحرس الأحمر ، وجاء الى شمال القفقاس من جيش سيفرس .

ما ان التقت عيناه بعينى تليغين حتى خفضهما ، وكأنه قد ارتبك . عندئذ فقط تذكر ايفان ايليتش ان ميشكا سولومين معروف فى السرية كناظم اشعار ، وسكير عربيد ، رغم انهم لم يروه سكران الا نادرا . القى المعطف عن كتفيه بحركة كسول ، واخذ يلبس قميصه . ارتقى ايفان ايليتش السدة الى عربة الركاب ، حيث رأى مصباح الكيروسين يشتعل ساهرا فى النافذة الوحيدة فى مقصورة آمر الفوج سيرغى سيرغييفيتش سابوجكوف .

ومن على السدة كانت النجوم ونقاط النار المرتبكة على الهمود على الارض فى الاسفل تبدو اكثر وضوحا .

مد سابوجكوف رأسه من النافذة ، وفى فمه غليونه المعكوف وقال :

– تعال ، يا تليغين . عندى ماء مغلى .

كان مصباح الكيروسين المثبت على الجدار الجانبى يرسل ضوءا شاحبا فى المقصورة المهلهلة فى الدرجة الثانية ، فيضيء السلاح المعلق من خطافات ، والكتب المبعثرة فى كل مكان ، والخرائط العسكرية . كان سيرغى سيرغييفيتش سابوجكوف فى قميص قذر من الجيت ، وقد التفت الى تليغين لدى دخوله ، وسأله :

– هل تريد كحولا ؟

جلس ايفان ايليتش على التخت . ترامى صجع سمان عن النافذة المفتوحة مع طراوة الليل . خرج احد الجنود من عربة مجاورة ، وهو بين النوم واليقظة ، يسير بخطوات متعثرة لقضاء حاجته . واهتزت اوتار «بالالايكا» خافتة الرنين . وارتفع صياح ديك من مسافة قريبة . وكان الليل قد جاوز نصفه .

سأل سابوجكوف ، وقد فرغ من تهيئة السخان :

– ديك يصيح ؟

كانت عيناه حمراوين ، ووجهه النحيل مبقعا ببقع حمر . . . تلمس التخت وراءه ، وعثر على النظارة الانفية ، ووضعها على انفه ، واخذ ينظر الى تليغين :

– اذن ، فان الفوج يملك ديكا حيا ؟

– جاء نازحون جدد ، وقد اخبرت المفوض بذلك . عشرون عربة بنساء واطفال . . . اية لعنة هذه ، – قال تليغين مقليا الشاى فى القدح .

– من اين جاءوا ؟

– من قرية بريفولنايا . طابور كبير . وقد هاجمهم القوزاق فى الطريق . كلهم اغراب ، فقراء . شكل ضابطان قوزاقيان فى قريتهم جماعة ، واغاروا فى الليل ، وشنقوا السوفييت ، وشنقوا عددا من رجال القرية .

قال سابوجكوف ناطقا كل حرف بوضوح :

– وباختصار ، حادثة اعتيادية .

وبدا في سكر شديد ، دعا تليغين الى ان يرفه عن نفسه ... كان جسم تليغين يئن كلـه من التعب ، ولكنه احس بأن الجلوس في مكان وثير واحتساء الشاي سيريحانه حتى انـه لم ينصرف رغم ان الحديث مع سيرغي سيرغيفيتش لن يأتيه بجدوى .

– اين زوجتك ، يا تليغين ؟

– في بتروغراد .

– انت رجل غريب . في زمن السلام يمكن ان تكون مواطنا سعيدا كل السعادة . زوجة طيبة ، وطفلان صالحان ، وغرامفون ... ولكن اي شيطان جعلك تدخل الجيش الأحمر ؟ سيقتلونك ...

– لقد اوضحت لك الأمر من قبل .

– تناور لتدخل الحزب ؟

– اذا كان الأمر يقتضي فسادخل الحزب .

قال سابوجكوف ، وقلص عينيه من وراء زجاج النظـارة الانفية العكر :

– اما انا فحتى لو سلقتني في ثلاثة مراجل لـمـا جعلتني شيوعيا ...

– اذن ، لو كان هناك رجل غريب من بيننا فهو انت ، يا سيرغي سيرغييفيتش ...

– لا ، ابدا . في عقل غير ديالكتيكي ... طبيعة وحشية ، عيني دائما على الغاب . هكذا ! تقول انني غريب ؟ (وضحـك باستهزاء ، وبارتياح على ما يبدو .) منذ تشرين الاول وانا احارب في سبيل السلطة السوفييتيـة . هكذا ! هل قرات شيئـا لكروبوتكين ؟ *

– لا ، لم اقرا .

– ذلك واضـح ... سلام ، يا اخ ... العالم البرجوازي سافل وعفن بشكل جهنمي ... واذا انتصرنا فسيكون العالم

* كروبوتكين (١٨٤٢–١٩٢١) احـد كبار رجال الفوضوية ومنظريها في روسيا . ــ المترجم .

الشيوعي ايضا عفنا واعتياديا ، فاشلا ومضجرا ... وكروبوتكين شيخ طيب ... عنـده شعـر واحـلام ، ومجتمـع بـلا طبقات . انه شيخ رفيع التربية : «اعطوا للناس حرية فوضوية ، وحطموا مواطن الشر في العالم ، اي المدن الكبيرة ، وستقيـم الانسانية اللاطبقية جنة ريفية على الارض ، لأن المحرك الاساسي في الانسان هو حب القريب ...» ها–ها ...

وضحك سابوجكوف ضحكة مجلجلة ، وكأنه يريد أن يهين شخصا ، وتطت نظارته الانفية على انفه العظمي ، والتمس تحت الشك ، وهو يضحك ، واخرج علبة تصديرية فيها كحول ، وصب في قدح ، وشرب ، وقضم قطعة سكر ميشما اياها تحت اسنانه .

– ان مأساتنا ، يـا عزيزي ، هو انـنـا ، نحن المثقفين الروس ، قد نشأنا في العضن الوادع لنظام القنانة . واخافتنـا الثورة لا الى حد الموت ، بل الى حد التقيؤ الذهني ... لا يجوز لفاقة ناس وادعين الى هذه الدرجة ! ها ؟ كنا نجلس في عشنـا الريفي ، ونفكر مستمعين الى صداح الطيور : «لطيف لو نظمـت الحياة بشكل يجعل كل الناس سعداء ...» من هذه البيئة خرجنا ... والمثقفون في الغرب عقول كبيرة ، زبدة البرجوازية ينفذون مهمة ملحة : تطوير العلم والصناعة ، ونشر سراب المثالية المرائي في العالم ... المثقفون هناك يعرفون لماذا يعيشون ... امـا نحن ، فالعياذ بالله ! ... مَنْ نخدم ؟ وما هي مهماتنا ؟ مـن جهـة نحن جزء لا يتجزا من النزعة السلافية ، ونحن ورثتها في الفكرة ، وما هي النزعة السلافية ، لو تعرف ؟ انها مثالية اصحاب الاراضي الروس . ومن جهة اخرى ان برجوازية وطننا تدفع لنـا المال ، ونحن نعيش على حسابها ... بينما نحن نخدم الشعـب وحده ... باللغرابة ، الشعب ! ... تراجيديا كوميدية ! وقـد بكينا على مصائب الشعب كثيرا حتى شحت دموعنا ... وعندمـا حرمونا من امكانية ذرف الدموع لم نجد ما نعيش به ... وصرنا نحلم بأن فلاحينا سيصلون قريبا الى القسطنطينية ويصعدون الى القبة ، ويركزون صليب الارثوذكسية فوق كاتدرائية القديسـة صوفيا ... حلمنا بأن تهدى الكرة الارضية للفلاحين فقابلونـا بالمذاري ، نحن المتحمسين الحالمين الباكين ... فضيحة فريدة

من لوعها ! رعب مريع !.. وبينما التخريب ، يا عزيزى ... ويحاول المثقفون التراجع ، وتخليص رؤوسهم من الربقة : «لا اريد ، حاولوا أن تدبروا الأمر بدونى ...» كان ذلك وروسيا على شفا هاوية مميتة ... خطأ فادح غير قابل للتصحيح ، وسبب ذلك فى اننا جميعا قد تربينا تربية ارستقراطية ، وفيكون جدا غير قادرين على فهم الثورة خارج الكتب ... والكتب تتحدث عن الثورة وكأنها السحر الحلال ... وهنا يهرب الجنود من الجبهة الالمانية ، ويغرقون الضباط ، ويمزقون القائد العام ، ويحرقون الضياع ، ويتصيدون زوجات التجار على الخطوط الحديدية ، وينتزعون من الاماكن المصونة قيهن اقراط الماس ... لا ، لن نلعب مع مثل هذا الشعب وكتبنا خالية من اى وصف له ... فما العمل ؟ أن نذرف دموعا غزيرة فى بيوتنا ، ولكن المصيبة أننا نسينا كيف نذرف الدموع !.. تحطمت احلامنا تماما وافتقد ما نعيش به ... وهكذا نحن من الرعب والقرف ندفن رؤوسنا تحت الوسائد ، ويهرب بعضنا الى خارج الوطن ، اما الذين اكثر حمقا فيشهرون السلاح ، وتحصل فضيحة فى عائلة كريمة ... أما الشعب ، وسبعون بالمائة منه اميون ، فلا يعرف ماذا يفعل بما تراكم فيه من كراهية ، ويخوض فى الدم والرعب ... فيقول : «حاولوا ، شربوا يشمتنا ! حطموا المرايا اذن ، واقلعوا كل شىء من الجذر » زمرة واحدة بين المثقفين احتفظت باتزانها ، انهم الشيوعيون ، ماذا يفعل الناس حين تأخذ سفينة بالغرق ؟ يقذفون خارجها بكل ما هو زائد ... واول ما فعله الشيوعيون هو ان قذفوا ببراميل المثالية الروسية القديمة خارج سفينتنا ... وكل ذلك عمل زعيمهم ، الــان روسى ... واحس الشعب راسا ، وبحاسة غريزية ان هؤلاء هم من جماعته ، وليسوا سادة ، انهم لن يتباكوا ، وانهم سيديرون الأمر بسرعة ... ولهذا السبب ، انا معهم ، يا عزيزى ، رغم انى قد تربيت فى دفيئة كروبوتكين الزجاجية ، فى الاحلام ... وما اكثر الذين من امثالى ! لا تكشر ، يا تليغين ، انت على العموم جنى ، بدائى وفرح ... بعضنا ، اذا اردت ان تعلم ، يحتاج الى أن ينقلب ، عن وعى ، ظهرا على بطن ، عندئذ سنشعر بكل لحمة ، مؤكدين فى انفسنا القسوة

الزاوية الواحدة : الحقد ... ولا يجوز ان تحارب بدون ذلك ... اننا نقتل كل ما فى الطاقة الانسانية واضمحل امامنا غاية يسعى الشعب نحوها ... ولكننا زمرة ... والاعداء فى كل مكان ... هل سمعت بالتشيكوسلوفاكيين ؟ سيأتى المفوض ويحدثك عنهم ... هل تدرى ، ماذا اخاف ؟ اخاف ان يكون ذلك انتحارا لنا ... لا أثق بانتصارنا . سنصمد شهرا او شهرين او ستة اشهر ، ولا نصمد اكثر ... نحن هالكون ، يا اخ ... سينتهى كل شىء بالعودة الى الجنرالات ... وانا اقول لك ان اللوم فى كل ذلك يقع على انصار السلافية ... عندما بدأ تعريب الفلاحين كان يجب أن تصرخ : النجدة ، سنهلك . نحن بحاجة الى الزراعة المكثفة ، الى تطوير مجدد للصناعة ، الى تعليم عام ... وليخرج من بين الفلاحين بوغاتشيف جديد ، وستينكا رازين جديد . لا يهم من هو الذى يحطم صلب القنانة تحطيما كليا ...» هذه هى الاخلاق التى كان يجب ان تلقنها بين الجماهير ، بهذه الاخلاق تربى المثقفين ... ولكننا اسرفنا فى ذرف سيول من دموع الفرح . «يا ربى ، ما ارحب روسيا وما اشد اصالتها ! الفلاح حر الآن كالهواء ، وضياع ملاكى الأرض بالآنسات الموصوفات فى قصص تورجينيف سليمة ، والروح مطهرة فى شعبنا ليس كما هى الحال فى الغرب الشحيح ...» وها انا الآن اطأ بنعلى كل حلم !

ولم يستطع سابوجكوف ان يقول اكثر من ذلك ، فقد لوهج وجهه ولكنه لم يقل الشىء الاهم على ما يبدو . جلس تليغين فاغر الفم مقهورا بفيض كلماته . وقد وضع قدح الشاى البارد على ركبتيه . تردد وقع اقدام فى ممر العربة تبدو لانسان ثقيل جدا ، وانفتح باب المقصورة ، وظهر رجل ربع القامة عريض المنكبين التصق شعره القاتم على جبينه الواسع . جلس صامتا قرب المصباح واضعا يديه الكبيرتين على ركبتيه . كانت الغضون القليلة تبدو كالندوب على وجهه الملوح بالريح ، وكانت عيناه لا تظهران ، وهما فى ظل وقبيهما والحاجبين المتدليين . انه رئيس الشعبة الخاصة للفوج ، الرفيق غيمزا .

سأل بصوت خفيض وبلهجة جادة :

— الكحول مرة اخرى ، حذار ايها الرفيق ...

قال سابوجكوف :

– اى كحول ؟ أوه ، اذهب الى جهنم . ها انت ترانا نشرب شايا .

فهدر غيمزا دون ان يتحرك :

– واسوأ من ذلك ان تكذب . رائحة الكحول تفوح من نافذتك . بدأ اضطراب في العربات ، فان الجنود يتشممون . . . وهل متاعبنا قليلة ؟ والشيء الثاني انك بدأت تتحدث في الفلسفة حديثا لا نهائيا احمق ، ومن هنا استنتج انك سكران .

– حسنا ، سكران . ارمني .

– لا احتاج الى وقت طويل لكي ارميك ، وانت تعرف ذلك جيدا . اما اصطباري عليك فراجع الى اخذي بعين الاعتبار صفاتك القتالية . . .

قال سابوجكوف :

– اعطني تبغا .

اخرج غيمزا من جيبه كيس قماش بوقار ، ثم تابع كلامه مخاطبا تليفين بصوت بطيء ، وكأنه يطحن بالرحى .

– المرة بعد الأخرى نفس المنظر غير المقبول : في الاسبوع الماضي رمينا بالرصاص ثلاثة اوغاد ، وقد استجوبتهم بنفسي - متعفنون . اعترفوا بكل شيء . وفي الحال حصل على كحول . . . واليوم رمينا وغدا خبيثا ، من استخبارات دنيكين . قبض عليه بنفسه بين نبات الاسل . . . اما الآن فهو امامكم سكران يتفلسف . خليط عجيب في ذهنه . كنت واقفا عند النافذة انصت . ارشكت على التقيؤ ، وكأنما من رائحة شيء عفن . . . لو كان اى واحد غيري لأرسله من زمان الى الشعبة الخاصة على هذه الفلسفة ، لأنه يتحلل خلقيا . . . وبعد ذلك سيمرض يومين ، ولا يستطيع قيادة الفوج . . .

– ولكن ما العمل اذا قد رميت زميلي في الجامعة ؟

وتقلص سابوجكوف عينيه ، واختلج منخراه .

لم يرد غيمزا بشيء ، وكأنه لم يسمع قول سابوجكوف - خفض تليفين رأسه . . . وتكلم سابوجكوف دافعا انفه العرق نحو غيمزا :

– صحيح انه من استخبارات دنيكين . بينما كنا ، انا وهو ، نتردد على «الامسيات الفلسفية» . لا ادري كيف صار في الجيش الابيض . . . ربما عن يأس . . . انا الذي جلبته اليك . . . الم يكفك انني اديت واجبي ؟ ام تريدني ان ارقص ، حين رأيتهم يسوقونه الى المنخفض ؟ . . سرت في الخلف ورأيت . – وتفرس في عيني غيمزا المظلمتين الغائرتين . – هل من حقي ان تكون لي مشاعر انسانية ، ام يجب ان احرق كل شيء في نفسي ؟

اجاب غيمزا على مهل :

– لا ، ليس من حقك . . . اما بالنسبة لغيرك فانا لا اعرف . . . ولكن بالنسبة اليك ليجب ان تحرق في نفسك كل شيء . . . فان هذه البؤرة نفسها الموجودة في نفسك ستولد العداء للثورة .

صمتوا طويلا . كان الجو ثقيلا . وهدأت كل الاصوات خارج النافذة . صب غيمزا لنفسه شايا ، وقطع قطعة كبيرة من الخبز الرمادي ، واخذ يأكله ببطء ، مثل رجل شديد الجوع . ثم بدأ يتحدث بصوت كامد عن التشيكوسلوفاكيين . كانت الانباء مقلقة . فقد تمرد التشيكوسلوفاكيون في جميع القطارات ، الممتدة من بينزا الى فلاديفوستوك . قبل ان تعي السلطة السوفييتية الأمر كانت الطرق الحديدية والمدن تحت ضربات التشيكيين . استولت الوحدات الغربية على بينزا ، واتجهت نحو سيزران ، واحتلتها ، واستمرت زحفها نحو سامارا . كانت هذه القوات ملتزمة بالانضباط التزاما جيدا حسنة التسليح تحارب باقتدار واستماتة . وكان من الصعب الآن معرفة ما اذا كان ذلك مجرد عصيان عسكري ، ام توجهها قوى معينة من خارج البلاد . والظاهر انه هذا وذاك . وعلى اية حال ، ان جبهة جديدة تمتد من المحيط الهادىء حتى الفولغا قد تفجرت كخط من البارود منطوية على عواقب فادحة .

في الخارج تقدم شخص من النافذة . صمت غيمزا ، وتعبس والتفت . ناداه صوت :

– يا رفيق غيمزا ، تعال . . .

– ماذا تريد ؟ تكلم .

– سري .

انزل غيمزا حاجبيه على محجريه ، واسند يده على التخت ، وجلس بهذه الصورة برهة ، ثم انهض نفسه قسرا ، وخرج ضاربا بكتفيه جانبي الباب . وفي فسحة العربة جلس على الدرجات ، وانحنى بجذعه . طلع من الظلام شخص طويل في معطف خيالة ، وتقدم نحوه مصلصلا بمهمازيه وهمس في اذنه بشيء على عجل . . .

اما سابوجكوف فما ان خرج غيمزا حتى اخذ يمص غليونه مصات سريعة ، ويبصق في النافذة عدة مرات بضراوة ، ورمى نظارته الانفية ، وراح يضحك فجأة .

— كل السر في الأمر هو ان تجيب على السؤال المطروح اجابة مباشرة . . . هل يمكن قتل الانسان ؟ يمكن . ما هو الهدف الاقرب ؟ الثورة العالمية . . . لا دخل لعواطف المثقفين هنا . يا اخ . . .

وفجأة قطع كلامه ، وانتصب ، وراح يتسمع . كانت العربة كلها تهتز . فقد كان غيمزا يضرب جدارها بقبضته . وارتفع صوته الحاد المبحوح :

— وماذا لو كذبت علي ، يا ابن الكلبة . . .

امسك سيرغي سيرغييفيتش يد تليغين . . .

— هل سمعت ؟ أتعرف ما الامر ؟ هناك شائعات كريهة حول قائدنا العام سوروكين . . . وهنا رفيق من الشعبة الخاصة قد عاد من هناك . هل فهمت السبب في عبوس غيمزا الجهنمي ؟ . . .

شحب ضوء النجوم قبيل الفجر . وصاح ديك مرة اخرى بين العربات . ونزل الندى على المعسكر الهاجع . ذهب تليغين الى مقصورته ، وخلع حذاءه ، واستلقى على التخت متنهدا ، وصرّت النوابض من تحته .

كان تليغين يتخيل احيانا ان سعادة الحياة القصيرة فكأنه قد رآها في نومه في السهب الاخضر ، تحت قرقعة عجلات القطار . . . كانت حياته موفقة وادعة : عهد الطلبة ، وبطرسبورغ الهائلة اللانهائية ، والوظيفة ، والصحبة الرخية لذوي الاطوار الغريبة الذين كانوا يعيشون في شقته في جزيرة فاسيليفسكي . آنذاك كان المستقبل يبدو واضحا وكأنه قد جمع في راحة يد . فلم يطل التفكير

في المستقبل . كان مرور الاعوام فوق سطح بيته متمهلا غير مرهق . كان ايفان ايليتش يعرف بانه سيؤدي ما يجب عليه عمله بنزاهة ، وحين يشتعل رأسه شيبا ، ينظر الى الخلف ليرى ما صنع ويجد انه قد قطع طريقا طويلة دون ان ينحرف في مزالق خطرة مثل آلاف من امثاله . وقد دخلت داشا الى حياته اليومية البسيطة ، دخلتها بسلطان ، وتألقت عيناها الرماديتان بسعادة صارمة . حقا لقد كان يراود نفسه شك قصير الأجل وفي الاغوار العميقة منها ، في ان هذه السعادة لم تكن مكتوبة له ! الا انه كان يطرد شكه ويعقد النية على ان يقيم — حين تنتهي الحرب — بيتا سعيدا لداشا . وحتى حين انهارت الجدران الصلبة للامبراطورية ، واختلط كل شيء ، وجأر من الحنق والألم شعب تعداده مائة وخمسون مليون انسان بقي ايفان ايليتش موقنا بان العاصفة ستمر ، وان المرجة عند بيت داشا ستزهر عامرة بالسلام بعد المطر .

وها هو مرة اخرى على التخت في قطار عسكري . بالامس معركة ، وفي الغد معركة . وواضح الآن ان الماضي لا عودة له . وكان يشعر بالخجل حين يتذكر انه قبل عام كان يشغل نفسه في تأثيث شقة في جادة كامينواوستروفسكي ، فيشتري سريرا من الخشب النفيس لتلد داشا عليه طفلا ميتا .

كانت داشا اول من اصطدمت بقعر الدوامة . كانت الثورة بالنسبة لها «اللتان» اللذان قفزا عليها في الحديقة «الليتني» ، والوليد الميت بشعره المنتصب ، والمجاعة ، والظلام ، والمراسيم المفصحة كلماتها بالحقد والكراهية . وكانت الثورة في الليالي تصفر فوق السطوح ، وتقذف النوافذ المتجمدة بالثلج ، وتصرخ بداشا باصوات مهولة : «غريبة !» . وفي ربيع بطرسبورغ الرمادي هبت ريح رطبة ، ونزلت قطرات الماء من السطوح ، وسقطت قطع الجليد بضجيج من الانابيب التصريف المثقوبة . وقالت داشا لايفان ايليتش (وكان قد عاد الى البيت دافقا بالحيوية ، في معطف غير مزرر ، وعيناه اللامعتان بشكل خاص ترمقان داشا التي كانت منكمشة ملفوفة في المنديل حتى حنكها) :

— اود لو احطم رأسي ، يا ايفان ، وانسى كل شيء الى الابد . . . عندئذ يمكن ان اكون لك صديقة . . . وفي هذه الحال ، لا اقدر ان

امضى فى ملازمة الفراش الفظيع ، ومواجهة النهار اللعين من جديد . افهمنى ، ارجوك . لا اقدر ، لا اقدر على العيش . لا تتصور انى بحاجة الى رفاه ، لا شىء ، لا شىء احتاج اليه . . . فقط ان اعيش حياة بكل القاسى . . . لست بحاجة الى توافه . . . فقدت حبى . . . اعذرنى . . .

قالت ذلك ، واستدارت .

كانت داشا صارمة فى عواطفها دائما . اما الآن فقد اضحت ناسية . سألها ايفان ايليتش :

— لعل من الافضل ان ننفصل لبعض الوقت يا داشا ؟ . .

وعندئذ ولاول مرة خلال الشتاء كله راى حاجبيها يرتفعان بفرح ، وتتألق عيناها بأمل غريب ، ويختلج وجهها النحيل شكاية . . .

— اظن من الافضل ان نفترق ، يا ايفان .

عندئذ بدأ يسعى بحزم وعن طريق روبليف ليدخل الجيش الأحمر ، وفى نهاية آذار رحل فى قطار عسكرى الى الجنوب . وقد ودعته داشا على رصيف محطة اكتيابرسكى ، وحين مرت نافذة العربة بكت بكاء مرا ، ملقية الشال الصوفى على وجهها .

ومنذ ذلك الحين قطع ايفان ايليتش مئات الفراسخ ، ولكن ما من معركة ولا تعب ولا حرمان استطاع ان ينسيه الوجه الحبيب الباكى فى زحام النساء عند حائط المحطة المسود . كانت داشا تودعه ، وكانما الى الأبد . واجهد ايفان ايليتش نفسه ليعرف لماذا لم يرق لها ؟ انه فى نهاية المطاف هو المسؤول عن برودها طبعا . انها ليست اول امرأة تلد طفلا ميتا . وليست الثورة هى التى انتزعت منها القلب . . . ان ذاكرته حافلة بالازواج الذين زادهم الزمن العصيب المضطرب قربا الى قرب . . . فعلى اى شىء تلومه ؟

واحيانا كان يتولد فى نفسه حنق : حسنا ، يا عزيزتى ، ابحثى واعثرى على رجل آخر يدللك مثل هذا التدليل . . . العالم ينهار ، ومعاناتها تبقى اقل لها من كل شىء . . . مجرد الفلات ، تعود على الطعام الناعم واستنكاف عن الخبز الناشف .

كل ذلك صحيح ، ولكن الاستدلال الذى يتولد منه ان ايفان ايليتش مثال للفضيلة ، وان عدم الولوع فى حبه جريمة . وفى كل

مرة كان يصطدم بهذا . . . فيقول لنفسه : «حقا ، اى شىء فريد فىّ ؟ انا معافى جسميا . هذا اولا . فهل انا ذكى وجذاب بشكل خارق ؟ لا . انا اعتيادى مثل اى رجل عادى . . . وهل انا بطل ، انسان كبير ؟ ذكر فاتن ؟ لا ، ابدا . . . انا رجل عامى بسيط تربية ، مثل ملايين الناس . . . وقد ربحت ورقة ياعصيب مصادفة ، اذ احبتنى فتاة ساحرة ارهف احساسا منى بالف مرة ، واذكى ، وارقى ، وكفت عن حبى بنفس الطريقة غير المفهومة . . .»

وعندما كان ينظر الى نفسه بهذا المنظار كان يفكر : العل السبب فى انه ليس فى مستوى الزمن الذى يعيشه ، بل ويقاتل قتالا عاميا ، وكانه يخدم فى مصلحة ؟ كان قد التقى باناس اشداء فى الشر والخير . سيرون بطل عملاق فى المعارك الدموية . . . ويقول لنفسه : «اما انت ، يا ايفان ايليتش ، فلينك كرهت العدو كل الكراهية وخشيت الموت بقوة . . .»

والغم ايفان ايليتش لذلك كثيرا . ودون ان يلاحظ ذلك بنفسه اصبح واحدا من اكثر العاملين فى الفوج وثوقا وتعقلا وشجاعة . عهدت اليه بعمليات خطرة فنفذها بشكل باهر .

جعله الحديث مع سيرغى سيرغييفيتش شديد التفكير . ان الامر المرح كان ايضا فريسة حزن . . . فريسة حزن شديد . . . وميشكا سولومين ؟ وتشيرتوغونوف ؟ والآلاف ممن تمر بهم دون ملاحظة ؟ انهم جميعا يقارعون زمنهم . ضخام ، شعث تشوههم العذابات . وليس لديهم الكلمات ليقولوها ، لا شىء غير البندقية فى اليد ، وعند آخرين عنف وحشى يتبعه ندم . . . تلك هى روسيا ، تلك هى الثورة . . .

— ايها الرفيق آمر السرية . . . استيقظ . . .

جلس ليلفين على التخت . كان قرص الشمس الذهبى يطل من النافذة معلقا فوق حافة السهب الاصفر . وهز الجندى ايفان ايليتش مرة اخرى . وكان عريض الوجه اصهب اللحية احمر كالقمس الصباحية .

— آمر الفوج يطلبك بسرعة . . .

كان المصباح ما يزال ينبعث في مقصورة سايوجكوف مرسلا رائحة كريهة . وقد اجتمع فيها غيمزا ومفوض الفوج سوكولوفسكي السقيم الاسود الشعر ذو العينين السوداوين الملتهبتين من الارق ، وآخران من امراء الكتائب وبعض امراء السرايا ، وممثل لجنة الجنود الذي كان يرتسم على وجهه تعبير عن الاستقلالية بل والتأذي . . . وكان الجميع يدخنون . كان سيرغي سيرغييفيتش الذي كان قد ارتدى سترته وعلق مسدسه بمسك الشريط البرقي بيد مرتجفة . وقد قرأ بصوت مبحوح حتى توقف ايفان ايليتش عند الباب :

— « . . . وهكذا قطع احتلال العدو المفاجيء للمحطة قواتنا وجعلها تحت ضربة مزدوجة . نناشدكم باسم الثورة وباسم السكان التعساء الذين ينتظرهم حتما الموت والشنق والتعذيب ، اذا تركتموهم لتحكم عصابات البيض ، ان ترسلوا التعزيزات دون ان تضيعوا دقيقة واحدة» .

صاح سوكولوفسكي :

— ماذا نفعل بدون امر القائد العام ؟ سأذهب مرة اخرى لا حاول الاتصال به بالخط المباشر . . .

قال غيمزا حانقا :

— اذهب ، وحاول (ونظر الجميع اليه .) اما انا فاقول لك : اذهب انت ، خذ اربعة من المقاتلين وتليغين ، واذهبوا الى مقر القيادة في عربة ترولي . ولا تعد دون ان تحصل على الأمر . . . سايوجكوف ، اكتب ورقة الى القائد العام سوروكين . . .

كان احد الخيالة واقفا في الرابية المعشبة ، وقد وضع كفه فوق عينيه ، وراح يمعن النظر في شريط الخط الحديدي . فقد كانت عليها سحابة من الغبار تقترب بسرعة .

وحين اختفت السحابة في تجويف من الارض مس الخيال فرسه بساقه ثم بالمهماز . هز الفرس الاصهب النحيل رأسه مغتاظا ، واستدار ، ونزل من الرابية التي كانت تختبيء على منحدريها فصيلة من الضباط المتطوعين امام كتل الطين التي جمعت من توها .

قال فون ميكه : «عربة ترولي» وقفز من السرج واخذ يضرب ركبتي الفرس الاماميتين بمقرعته ليجعله يبرك . ضم الفرس الحرن

رجليه ، وحرك اذنيه ، ولكنه اطاع . ونزل الى الأرض زافرا زفرة عميقة . ومس التراب ببوزه ، وبرك . وكان جنبه المخدد بالاضلاع يرتفع ويهبط .

ارفض فون ميكه على الرابية والى جانبه روتشين . وفي تلك اللحظة خرجت عربة الترولي من التجويف وكان من الممكن الآن تمييز ستة رجال بمعاطف عسكرية .

— نعم ، خمر ! — وادار فون ميكه رأسه الى اليسار — رهط ! — ثم اداره الى اليمين — استعداد ! نار سريعة نحو الهدف المتحرك . . . اضرب !

تمزق الهواء فوق الرابية كالقماش المنتشي . ومن خلال غمامة الغبار كان من الممكن ان يرى الرائي رجلا يسقط من عربة الترولي ، وينقلب عدة مرات ، ويتدحرج على المنحدر معيثا العشب بيديه .

اطلقت النار من عربة الترولي من ثلاث بنادق ومسدسين . وبعد لحظة كان يجب ان تختفي في التجويف التالي وراء كثبان التحويل . مزق فون ميكه الهواء بصفير سوطه ، واستشاط غضبا :

— سيغيبون . يغيبون ! كان الاحرى بكم ان تصطادوا غربانا ! عار !

كان روتشين يعتبر جيد الرماية . وجه بندقيته على بعد قدم امام العربة ، وصوب على رجل عريض المنكبين ضخم حليق الوجه يبدو انه الآمر . . . وفكر مع نفسه «انه كثير الشبه بتليغين ! نعم . . . سيكون ذلك قطعيا . . .»

واطلق روتشين . طارت طاقيته من على رأسه ، وفي تلك البرهة غاصت عربة الترولي في التجويف التالي . فلذف فون ميكه بسوطه .

— قذارة . كل الرهط قذارة . لستم رماة ، يا حضرات الضباط ، بل قذارة .

وراح يشتم جاحظ العينين مثل قاتل مؤرق حتى نهض الضباط من على الارض نافضين ركبهم ، واخذوا يتقمرون :

— يا آمر السرية . . . الاحرى بك ان تمسك لسانك ، عندنا من هو اعلى منك رتبة .

وضع روتشين مشطا جديدا ، واحس بان يديه ما تزالان ترتجفان . فمن اى شىء ؟ امن المعقول من مجرد التفكير بان ذلك الرجل كان يشبه ايفان تليغين ؟ هراء ، انه فى بتروغراد .

صعد المفوض سوكولوفسكي وتليغين برأس مضمد الى مقدمة بيت آجرى من طابقين هو مقر ادارة القرية يقع مقابل الكنيسة كالعادة مطلا على ساحة غير مرصوفة كانت الاسواق الريفية تقام فيها سابقا ، كانت الدكاكين الآن مغلقة بالالواح ، والنوافذ محطمة ، والاسيجة مخلوعة ، وقد اقيم فى الكنيسة مستشفى عسكرى . كانت اسمال الجنود ترفرف على الحبال فى فناء الكنيسة .

كانت اعقاب السكائر وقصاصات الورقة مبعثرة فى رواق ادارة القرية ، حيث كانت تقيم هيئة اركان القائد العام سوروكين وكان جندى احمر يجلس الى جانب السلم المؤدى الى الأعلى على مقعد من الخشب المعوج واضعا بندقيته بين رجليه . وكان يهوم بشيء مبهم وعيناه مغمضتان . كان فتى عريض الوجنتين ذا خصلة متهدلة - امارة مالوفة على الفلطة العسكرية - تبرز من تحت طاقيته المسرحة على قفاه بشريطها الاحمر . سأل سوكولوفسكي بعجالة :

- نريد مقابلة الرفيق سوروكين . . . كيف نذهب ؟

فتح الجندى عينيه الكدرتين من ضجر ناعس . كان انفه ناعما لا يشم من جدية . نظر الى سوكولوفسكي - الى وجهه وملابسه وحذائه ، ثم نظر بهذه الطريقة الى تليغين . تقدم منه الأمر بنفاد صبر .

- انا اسالك ، يا رفيق . . . نحن نريد مقابلة القائد فى امر استثنائى .

قال ذو الخصلة المتهدلة :

- ولكن الحديث مع الحارس لا يجوز .

صاح سوكولوفسكى :

- اللعنة . دائما تجد مثل هؤلاء الاوغاد فى مقر الاركان . شكليون ! اطالبك يا رفيق بان تجيب : هل سوروكين موجود هنا ام لا ؟

- غير معلوم . . .

- واين رئيس الاركان ؟ فى الدائرة ؟

- فى الدائرة .

جذب سوكولوفسكى تليغين من كمه ، واندفع يصعد السلم . عند ذاك قام الحارس بحركة تحفز ولكن دون ان يحرك مقعده ، فقد اخرج البندقية من بين رجليه :

- الى اين ذاهبان ؟

- كيف الى اين ؟ الى رئيس الاركان .

- هل لديكما ترخيص ؟

بدأ المفوض يشرح للحارس السبب الذى حملهم الى المجيء على عربة ترولى . وقد تميز غيظا حتى طفح الزبد على شفتيه . فاصغى هذا وهو ينظر الى الرشاشة الرابضة امام المدخل ، والى المراسيم والاوامر والاعلامات التى كانت تملأ حيطان الرواق . وهز راسه . وقال بكآبة :

- يجب ان تفهم ، يا رفيق ، وانت الواعى . اذا كان معك ترخيص اتركك تذهب ، والا اطلقت النار بلا رحمة .

وكان لا بد من الخضوع ، رغم ان الترخيصات كانت تعطى فى مكان ما فى الطرف الآخر من الساحة . والمكتب فى الغالب الظن مقفول . سيقولون لهما ان القومندان قد خرج ولم يحضر الا فى الغد . وطهر الاعياء على سوكولوفسكي فورا . . . وفى تلك اللحظة اندفع من الساحة الى الباب شخص قصير القامة فى قميص مشقوق حتى وسطه يضرب الأرض بحذائه الطويل .

- يا ميتكا* . . . يوزعون الصابون . . .

وكان ريحا قذفت بالحارس من الكرسى ، وثب خارجا الى مقدمة البيت . صعد سوكولوفسكي وتليغين الى الطابق الثانى دون ان يعترضهما عارض . وبعد استرشاد بحسناوات منتفخات العيون فى بلوزات حريرية يعثن بهما يمينا وشمالا عثرا اخيرا على غرفة رئيس الاركان .

دخلاها فرأيا عسكريا انيق الملبس ينظر فى اظافره ، وهو مستلق على اريكة مهلهلة ممددا رجليه . استوضحهما حقيقة الأمر بأدب جم ، واستقبال بروليتارى معتن به شافعا كل كلمة بدنيا

---

* صيغة لاسم دميترى . - المترجم .

رفيق» (رغم ان هذه الكلمة كانت تخرج من فمه وكأنها «يا كونت سوكولوفسكي» و«يا امير تليغين») ثم استأذن وخرج يصرف بحذائه الاصفر الطويل ذى الاربطة حتى ركبتيه . وبدأ همس وراء الحائط ، وصفق باب من بعيد ، ثم هدأ كل شيء .

نظر سوكولوفسكي الى تليغين بعينين ملتهبتين :

— هل تفهم شيئا ؟ الى اين جئنا ؟ وبما هذه قيادة البيض ؟

رفع كتفيه النحيلتين ، وبقى مصعوقا في غاية الدهشة . عاد الهمس مجددا من وراء الحائط . وانفتح الباب على سعته ، ودخل رئيس الاركان ، وهو رجل في اواسط العمر ركين ذو جبهة عريضة صلعاء وسحنة متجهمة يرتدى قميصا عسكريا خشنا مشدودا بحزام فوقانى على بطن كبير . وتفرس في تليغين خطفا ، وهز رأسه تحية لسوكولوفسكي ، وجلس وراء المنضدة ، واضعا يديه المشعرتين امامه بحركة معتادة . كانت جبهته رطبة مثل جبهة رجل قد فرغ لتوه من الاكل والخمرة . وحين احس بالنظرات مصوبة اليه زاد من جهامة وجهه الأحمر المنتفخ . قال باعتبار وبرود :

— ابلغنى التوبيخ الكما ، ايها الرفيقان ، قدمتما في امر مستعجل . يدهشني لماذا لم يستخدم آمر الفوج ، او انت ، ايها الرفيق المفوض ، خط الاتصال المباشر . . .

قال سوكولوفسكي :

— حاولت الاتصال ثلاث مرات . — وقفز على قدميه واخرج من جيبه شريطا برقيا ، وقدمه الى رئيس الاركان قائلا :

— كيف يمكن ان ننتظر بهدوء ورفاقنا يهلكون . . . ولا أوامر من قيادة الجيش . . . والناس يتوسلون الينا لاغاثتهم . . . وفوج «الحرية البروليتارية» يهلك ومعه طابور من العربات وفيها الفان من اللاجئين . . .

القى رئيس الاركان نظرة خاطفة على الشريط ، وقذفه فتلوى حول محبرة كبيرة :

— نحن ، ايها الرفاق ، على علم في المعارك الجارية الآن في منطقة فوج «الحرية البروليتارية» . . . وانا اقدر حماسكم ، وسورتكم الثورية (كان يبدو وكأنه يبحث عن الكلمات بجهد) . ولكنني اطلب منكم في المستقبل الا تثيروا الرعب . . . لا سيما وان عمليات العدو

عارضة . . . وباختصار ان كل التدابير قد اتخذت ، ويمكنكما ان تعودا الى واجباتكما مطمئنين .

ورفع رأسه . كانت نظرته صارمة وصافية . نهض تليغين حين عرف بان المحادثة قد انتهت ، وظل سوكولوفسكي جالسا كأنما قد صعق . قال :

— لا استطيع العودة الى الفوج بمثل هذا الجواب . سيعقد الجنود اجتماعا عاما هذا اليوم وسيهب الفوج اليوم لاغاثة «البروليتاريين» بمحض ارادته . . . وانبهك ، يا رفيق ، بأننى ساخطب في الاجتماع مؤيدا الهجوم . . .

اخذ وجه رئيس الاركان يحمر ، وجبهته الضخمة الصلعاء تلمع . دفع كرسيه بحركة صاخبة ، ونهض ، فارتخى عليه بنطاله العسكرى حشر يديه وراء حزامه قائلا :

— ستكون مسؤولا امام المحكمة العسكرية الثورية ، يا رفيق ! لا تنس اننا لسنا في عام ١٩١٧ !

— لا تحاول ان تخيفنى ، يا رفيق !

— اسكت !

في تلك اللحظة انفتح الباب بسرعة ، ودخل رجل طويل رشيق القامة بشكل غير اعتيادى يرتدى سترة جركسية من القماش الرقيق . كان وجهه الجميل الكئيب بشعره الاسود الساقط على الجبهة ، وشاربيه المتدليين مصطبغا بذلك اللون الوردى القاتم الذى يكون عادة لدى المسرفين في السكر او الفساد . كانت شفتاه مبللتين حمراوين ، وعيناه السوداوان متسعتين . اقترب تماما من سوكولوفسكي وتليغين ملوحا بكم سترته الايسر ، وحدق فيهما بنظرة وحشية . والتفت الى رئيس الاركان ، وقد ارتعش منخراه بحنق :

— ما هذا السلوك على النمط القيصرى مرة اخرى ! ما هذه «اسكت» ؟ اذا كانا مذنبين يرميان بالرصاص . . . ولكن دون اهانة من قبل جنرال . . .

سمع رئيس الاركان هذه الملاحظة صامتا ، وقد اطرق برأسه . وما كان من سبيل لاى اعتراض ، فقد كان هذا هو القائد العام سوروكين نفسه . قال بهدوء :

— اجلسا ، ايها الرفيقان ، انا مصغ اليكما .

وجلس على افريز النافذة .

عاد سوكولوفسكي يشرح الغرض من مجيئهما : الحصول على اذن لفوج فارنافسكي في الهجوم فورا لمساعدة جاره فوج «الحرية البروليتارية» . ان ذلك الى جانب كونه واجبا ثوريا يمليه حساب بسيط : فلئن دمر «البروليتاريون» ، فان فوج فارنافسكي سيجد نفسه مقطوعا عن القاعدة .

لم يجلس سوروكين على افريز النافذة غير ثانية واحدة . طفق بعدها يذرع الغرفة من الباب الى الباب ملقيا اسئلة قصيرة . وكلما كان يستدير بحركة حادة كان شعره المصفوف يتطاير . كان الجنود يحبونه على حماسته وشجاعته . وكان يجيد الكلام في الاجتماعات العامة . وكانت هذه الصفات غالبا ما تحتل مكان العلم العسكري في تلك الايام . كان ضابطا قوزاقيا برتبة نقيب ، وقد حارب في جيش يودينيتش في ما وراء القفقاس . وبعد انقلاب اكتوبر عاد الى قريته بتروبافلوفسكايا في كوبان ، وشكل فصيلة انصار من ابناء قريته . حارب معها في حصار يكاترينودار ، وحالفه التوفيق . وطلع نجمه بسرعة ، وادار المجد راسه . وكانت قواه طافحة ، وكان يجد الوقت الكافي للقتال واللهو . وفضلا عن ذلك فان رئيس الاركان احاطه عن قصد بنساء مليحات ، وكل الجو الملائم للفجور .

سأل حين فرغ سوكولوفسكي من الحديث ، ومسح جبهته عصبيا بمنديل مدعوك قذر :

— وماذا اجابوكما في هيئة اركاني ؟

اسرع رئيس الاركان ليقول :

— اجبتهما باننا قد اتخذنا جميع الاجراءات لانقاذ فوج «الحرية البروليتارية» . وقلت ان قيادة فوج فارنافسكي تتدخل في اوامر قيادة الجيش ، وهذا امر غير مسموح به كليا ، وفضلا عن ذلك فانها تثير ذعرا لا يقوم على اساس .

قال سوروكين بلهجة تصالحية مفاجئة :

— لا يجوز ان يعالج الموضوع بهذا الشكل ، يا رفيق ، الانضباط ضروري بالطبع ... ولكن هناك اشياء اهم بألف مرة

مما تقوله عن الانضباط ... ارادة الجماهير ! يجب تشجيع المد الثوري ، رغم ان ذلك يناقض ما تقوله عن العلم العسكري ... ولتكن عملية فوج فارنافسكي بلا جدوى ، ولتكن مضرة ، لتكن ما تكون ! عندنا ثورة ... واذا منعتهم الآن هرعوا الى عقد اجتماع عام . انا اعرف هؤلاء الصياحين . سيصرخون ثانية بانني احطم الجيش بالسكر ...

واندفع الى الموقد ، ونظر الى سوكولوفسكي نظرة ضارية :

— قدم تقريرك !

اخرج تليفين ورقة على الفور ، ووضعها على الطاولة . اختطفها القائد ، ومرر عليها عينيه السريعتين ، واخذ يكتب تاركا الحبر من ريشته :

«آمر فوج فارنافسكي بالقيام فورا بالزحف ، وتادية واجبه الثوري» .

نظر رئيس الاركان اليه بابتسامة ساخرة ، ولكنه تراجع خطوة حين مد القائد العام الورقة اليه ، ووضع يديه خلف ظهره :

— لاتدم الى محكمة ، ولكنني لن اوقع هذا الامر ...

في تلك اللحظة قفز ايفان ايليتش وامسك سوروكين من معصمه مانعا اياه من رفع المسدس . وحجب سوكولوفسكي رئيس الاركان بجسمه . ترددت انفاس الاربعة ثقيلة . حرر سوروكين نفسه ، ووضع المسدس في جيبه ، وخرج صافقا الباب بشدة جعلت بعض الجص يتساقط ...

صفقت ابواب ، وتلاشت خطوات القائد المتسرعة .

قال رئيس الاركان بمصالحة ونبرة جشاء :

— استطيع ان اؤكد لكم يا رفاق ، انني اذا وقعت على هذا الامر فان مصيبة قد تحصل على نطاقات واسعة .

سأل سوكولوفسكي بصوت مبحوح بعد ان سعل :

— اية مصيبة ؟

نظر رئيس الاركان نظرة غريبة اليه .

— الا تحدس عم اتحدث ؟

— لا .

وبرقت عينا سوكولوفسكي من طرفيهما .

– انا اقصد جيشي ...

– يعني ؟

– ليس لي الحق في ان اكشف عن اسرار عسكريــــة امام مفوض فوج . اليس كذلك ، يا رفيق ؟ ستكون اول مَنْ يرميني بسبب ذلك . . . ولكننا تعرضنا اثناء حديثنا في شؤون عميقة . حسنا . . . خذوا كل شيء على مسؤوليتكم . . .

اقبل على خارطة غرزت فيهــــا اعلام صغيرة . تقـــدم سوكولوفسكي وتليغين وصارا وراء ظهره . والظاهر ان تقارب حرارة الانفاس في قميص ازعج رئيس الاركان بعض الشيء . تحركت لوحتا كتفيه تحت القميص . الا انه اخرج بهدوء عودا تنظيف الاسنان ، ومرر نهايته المقضومة على الخارطة من الاعلام الثلاثيـــة الالوان في الاتجاه الجنوبي الى مواقع الحمر الكثيفة . وقال :

– هنا البيض .

– اين ؟ – وتقدم سوكولوفسكي من الخارطة تماما ، ممررا عليها عينيه العمشاوين . – ولكن هذه تورغوفايا . . .

– نعم ، تورغوفايا . وسقوطها سيتظف نصف الطريق امام البيض .

– انا لا افهم . . . تصورنـــا البيض ابعد الى الشمال على الاقل بحوالي . . .

– نحن تصورنا ، لا البيض . تورغوفايا في اللحظة الراهنة تحت ضربـــة مركزة . والبيض يملكون طائرات ودبابات ، وهم ليسوا شرذمة كورنيلوف السابقــة . . . انهم يعملون على خطوط داخلية ، ويوجهون الضربات اينما يريدون . والمبادرة في ايديهم .

قال تليغين :

– في الشمال من تورغوفايـــــا فرقـــة دميتري شيليست الحديدية . . .

– تحطمت . . .

– وفرقة الخيالة ؟

– تحطمت .

ابلع سوكولوفسكي ريقه ، وتقدم من الخارطة . وقال :

– انت انسان شديد التحفظ ، يا رفيق . كانك قد تنعت

سقوط تورغوفايا . . . هنــا تحطم وهنــا تحطم . – واستدار نحو رئيس الاركان مخاطبا – وجيشنا ؟

– نحن ننتظر امر القيادة العامة العليا . فان للرفيق كالنين حساباتــه الخاصة . ولا تستطيع اركان قيادة الجيش ان تطالب اركان القيادة العامة العليا بالهجوم ، وهي تهز قبضتها عليها . لماذا تلح انت ؟ ان الحرب ليست اجتماعا عاما .

وابتسم رئيس الاركان ابتسامة رقيقة . نظر سوكولوفسكي الى وجهه الممتلئ الهادئ حابسا انفاسه . وتحمل رئيس الاركان تلك النظرة . قال وهو يعود الى الطاولة :

– تلك هي الامور ، ايها الرفيقان . ولهذا السبب لا املك الحق في ان اسحب وحدة عسكرية واحدة من الجبهة ، ولو ان ذلك يبدو معقولا كليا وضروريا . . . ان وضعنا ليس بالســهل ابدا . الآن ، عودا الى وحدتكما فورا . وكل ما قلته لكما سري لا يُفشى في الوقت الحاضر . يجب المحافظة على الهدوء التام في الجيش . اما بشأن فوج «الحرية البروليتاريــة» فلا حاجة للفزع على مصيره ، فقد حصلت على معلومات مطمئنة . . .

وانعقد حاجبا رئيس الاركان فوق انفــه المعكوف . وصرف الزائرين بهزة من راسه . خرج سوكولوفسكي وتليغين من مكتبه . في الغرفة المجاورة كان التوبجي ينظف اظافره واقفا عند النافذة . وقد حيا الخارجين بأدب .

همس سوكولوفسكي :

– وغد .

عندما خارجا الى الشارع ، امسك بكم تليغين :

– ها ! ما رايك ؟

– شكليا انه على حق . اما من حيث الجوهر فان ذلك تخريب بالطبع .

– تخريب ! لا . ان اللعبة اكبر . ساعود لارميه . . .

– دع عنك هذا ، يا سوكولوفسكي . لا تأت بحماقة . . .

تمتم سوكولوفسكي :

– خيانة . اقول لك ان هنا خيانة . كل يوم يبلغون غيمزا «ان في هيئـــة الاركان سكــرا . وقد نشت سورووكين المفوضين .

وحاول انت ان تقف امامه . ان سوروكين قيصر وآله في الجيش . انه محبوب لشجاعته ، لأنه من عندهم - وهل تعرف من رئيس الاركان هذا ؟ انه عقيد قيصري يدعى بيلياكوف . . . هل فهمت العقدة ؟ ولكن لنذهب . . . ما رأيك ، هل سنتخطى البيض بنجاح ؟

هز رئيس الاركان الجرس . ظهر النوبجي على الباب .

قال بيلياكوف وهو ينظر الى الاوراق جهما :

— اعرف لي ما هي حالة القائد ؟

— الرفيق سوروكين في المطعم . وحالته بين بين .

وانتظر النوبجي حتى ابتسم رئيس الاركان ابتسامة ساخرة على مضض ، وعندئذ ابتسم النوبجي ابتسامة كثيرة الدلائل :

— زينكا * معه .

— حسنا . انصرف .

ذهب بيلياكوف الى شعبة الاتصال ، وعاين الاخبار التلفونية . وقع بخط واضح بطرء بعض الاوراق ، ولبث برهة في الممر عند الباب الاخير ، حيث كانت تتردد من ورائه انغام هادئة على اوتار . اخرج رئيس الاركان منديله ، ومسح رقبته الحمراء اللوية ، وطرق الباب ، ودخل دون ان ينتظر ردا .

كان سوروكين يجلس مشمرا كمي سترته العريضين عند مائدة في وسط الغرفة مفروشة بجرائد وعليها آنية مستخدمة واقداح . وكان وجهه الوسيم ما يزال عابسا ، وقد تساقطت خصائل من شعره الاسود على جبهته الندية . نظر الى بيلياكوف بحدقتين متسعتين . كانت زينكا تجلس على مقعد بلا ظهر الى جانبه واضعة ساقا على ساق حتى لاح رباط جوربها ، ومخرمات ثوبها الداخلي ، وكانت تعزف على قيثار . كانت امرأة شابة ذات عينين زرقاوين زاهيتين وشفتين نديتين ، وانف دقيق ينم عن الحزم ، وشعر اشقر منفوش مرفوع الى اعلى رأسها . والثنايا السقيمة وحدها عند الفم ، ولو انها لا تكاد تبين . كانت تضفي على وجهها الرقيق مسحة حيوان وحشي يستطيع ان يعض . كانت حسب هويتها ابنة عامل سكك الحديد من انحاء اومسك ، وذلك ما لم يكن يصدق به

---

* صيغة لاسم زينايدا . — المترجم .

اي انسان بالطبع ، مثلما لم يصدق انسان بان عمرها ثمانية عشر عاما ، وبانها من عائلة تدعى كاتافينا ، وبان اسمها زينايدا . الا انها كانت تضرب على الآلة الكاتبة بشكل ممتاز ، وتشرب الفودكا ، وتعزف على القيثار ، وتغني اغاني عاطفية جذابة . وقد وعد سوروكين بانه سيرميها بيده لدى اول محاولة منها لنشر فساد الحرس الابيض والتعفن في هيئة اركانه . واطمأن الناس عند ذلك .

قال بيلياكوف هازا رأسه ، وبقي عند الباب للتحوط :

— رائع ، بكل تأكيد . في اي وضع تضعني انت ؟ يأتي اثنان من اللجنة المركزية كما هو واضح ، ويهددان بالاجتماعات العامة . فاذا انت تنحاز الى جانبهما بسرعة . . . ما اسهل الذهاب الى جهاز التلفون ، والاتصال بيكاتيرينودار ، ليرسلوا لك على الفور يهوديا ينظم لك هيئة الاركان ، وينام معك في السرير ، ويصحبك الى المرحاض ، ويضبط جميع افكارك . فظاعة ، بالتأكيد ! ان لدى القائد العام سوروكين ميلا الى الدكتاتورية ! احب لتكون تحت الرقابة . . . اما انا فلا اريد . . . يمكنك ان ترميني . . . ولكني لن اسمح لك بان تهددني بالمفوض في وجود مَنْ* هم اقل رتبة . . . اي الضباط سيكون بعد هذا ! . . . ليتخطفك الشيطان .

مضى سوروكين ينظر الى رئيس الاركان ، ومد يده الكبيرة القوية ، ولكنه قبض على الهواء بدلا من عنق الزجاجة . سرت رعشة في فمه ، وتوتر شارباه . الا انه استطاع ان يمسك بالزجاجة على اية حال ، وصب كوبين .

— اجلس ، واشرب .

نظر بيلياكوف بطرف عينه الى مخرمات سروال زينكا ، وتقدم من المائدة . قال سوروكين :

— لو لم تكن ذكيا لرميتك بالرصاص . . . الانضباط . . . ان انضباطي هو القتال . هيا ، ليحاول اي منكم انهاض الجماهير . . . سأقودها . انتظر وقتا . لا احد غيري يستطيع دحر البيض . انا الذي سيحطم الاوغاد البيض . . . وسيهتز العالم . . .

واستنشق منخراه الهواء ، وبدت العروق على صدغيه تنبض !

— سانظف مناطق كوبان والدون وتيريك بدون اللجنـــة المركزية ... ان هؤلاء الاوغاد ، اعضـــاء اللجان ، ماهرون فى تصرفاتهم فى يكاترينودار لا فى الجبهة ... انهم جبناء ... اذن فانا على حق ، فى المعركة دكتاتور ... انا اقود جيشا !

ومد يده الى قدح الكحول ، الا ان بيلياكوف دلق له القدح ، وقال :

— كفى شربا .

— اها ، تأمرنى ؟

— ارجوك ، كصديق ...

القى سوروكين نفسه على ظهر المقعد ، وزفر عدة زفرات قصيرة ، واخذ يجيل بصره حتى اوقفه على زينكا . كانت تمـــرر اظافرها على الاوتار .

غنت ، وقد رفعت حاجبيها بتكاسل : «وتنفس الليل ...»

استمع سوروكين ، والعروق على صدغه راحت تنبض بقوة اسرع . انهض ، ودفع رأس زينكا الى الوراء ، وراح يقبلها من فمها بنهم . استمرت زينكا فى العزف ، ثم نزل القيثار من ركبتيها .

قال بيلياكوف بلطف :

— هذا امر يختلف ، آه ، يا سوروكين . احبك ، ولا ادرى لماذا احبك .

حررت زينكا نفسها اخيرا ، وانحنت الحناء واطئة الى الارض محمرة ورفعت القيثار ، ولمعت عيناها الناصعتان من تحت شعرها المشوش . لعقت شفتيها المتورمتين بطرف لسانها وقالت :

— اوف ، اوجعتنى ...

— اتعرفون يا اصدقائى ؟ عندى زجاجة مخبأة ...

وقطع بيلياكوف كلامه مختنقا بكلمته . وتعلقت فى الهواء يده المتفرجة الاصابع . ازت رصاصة وراء النافذة وتعالت اصوات . خرجت زينكا من الغرفة مع قيثارتها خطفا وكأنها مدفوعة بريح . تجهم سوروكين واتجه نحو النافذة .

قال رئيس الاركان بعجالة :

— لا تخرج ، ساعرف قبلك ما الامر .

كان العراك واطلاق الرصاص ظاهرة اعتيادية فى مقر هيئة

الاركان . فقد كان جيش سوروكين يتألف من جماعتين اساسيتين : القوزاق الكوبانيين[*] الذين كان سوروكين قد شكل نواتهم فى العام الماضى والاوكرانيين الذين جمعوا من بقايا الجيوش الاوكرانيـــة الحمراء التى تراجعت تحت ضغط الالمان ... وكان بين القوزاق والاوكرانيين شحناء مزمنة . كان الاوكرانيون لا يحسنون المقاومة فى اراض غريبة ، ولا يتورعون كثيرا اذا كان الامر يتعلق بالعلف والتموين ، حتى كانوا يمرون فى قرى القوزاق .

وكان العراك واطلاق الرصاص يحدث كل يوم ، ولكن ما بدا اليوم كان اكثر خطورة . اندفع القوزاق الخيالـــة بالصيحات ، وتراكض الجنود الحمر جماعات مذعورة من سياج الى آخر ومن حديقة الى اخرى . وسمع اطلاق نار شديد باتجاه المحطة . وفى الساحة امام نوافذ مقر الاركان كان قوزاقى جريح يصرخ بوحشية زاحفا ومتلويا فى الغبار .

وبدا هرج ومرج فى مقر الاركان . كان خط التلفون منـــذ الصباح لا يرد على المكالمات ، والآن عاد يحمل من هناك سيلا من الانباء المخبولة لا يمكن ان يفهم منه غير شىء واحد : ان البيض فى زحفهم السريع باتجاه سوسيكا — اومانسكايا يطاردون امامهم وحدات الحمر المذعورة . ووحداتهم الامامية التى وصلت الى مقر الاركان بدأت بالنهب فى المحطة والقرية . وفتح الكوبانيون النار ، ونشبت معركة .

اندفع سوروكين خارج البوابة على فرس اصهب ضخـــم شرس ، ووراءه زهاء خمسين راكبا فى ستر جركسية وسيوف معوجة ، وفلاتـــهم تتطاير وراء ظهورهـــــم . وكان سوروكين يجلس على الصهوة وكأنه قد سمر فيهـــا . كان حاسر الرأس ابعرف الناس وجهه حالا . القى رأســـه الجميـــل الى الوراء . فصارت الريح تعبث بشعره وكميه والاذيال منشرته . كان ما يزال سكران ، بادى الحزم ، شاحب الوجه . وكانت عينـــاه تنظران للفرس ، ونظرتهما رهيبة . وكانت سحابة من الغبار تتطاير وراء الخيول المنطلقة ..

كانت بعض الطلقات تسمع من وراء الحاجز النباتى بالقرب من المحطة . كان بعض المرافقين يطلق صرخات عالية ، وقد وقـــع

احدهم من حصانه ، الا ان سوروكين لم يعر الى ذلك التفاتا . كان ينظر الى حيث كانت جمهرة رمادية من الجنود تتصايح وتتفور وتتركش بين القطارات البضائع .

عرفوه من بعيد . صعد الكثيرون الى سطوح العربات ، وارتفعت البنادق فوق الرؤوس وتعالى الصياح . تخطى سوروكين سياج حديقة المحطة دون ان يخفف سرعته ، وعدا على السكك الى قلب الجمهرة . امسك الجنود بلجام فرسه . رفع ذراعيه فوق رأسه وصاح :

– ايها الرفاق ، رفاق السلاح ، ايها المقاتلون ! ماذا حدث ؟ ما هذا الرمى ؟ ولماذا الهلع ؟ مَنْ ادار لكم رؤوسكم ؟ اى وغد ؟

ارتفع صوت هالع :

– غدروا بنا !

وارتفعت اصوات اخرى :

– غدر بنا امراء الوحدات ! كشفوا الجبهة !

راح جمهور مؤلف من عدة آلاف يصرخ على السكك الحديدية ، وفى الحقل ، والعربات :

– غدروا بنا . . . تحطم الجيش كله . . . يسقط القائد ! اقتلوا القائد !

وصدر صفير وعويـــل ، وكان ريحا شيطانية كانت تهب ، صهلت خيول المرافقين ، ووقفت على ارجلها الخلفية . وتدافعت نحو سوروكين وجوه متلوية وايد سوداء ، صرخ بشدة جعلت رقبته القوية تنتفخ :

– سكوت ! لستم جيشا ثوريا . . . شرذمة من قطاع الطرق والاوغاد . . . اروني الخائفين على جلودهـــم ومثيرى الهلع . . . اروني اعوان الحرس الابيض !

وحث حصانه فجأة ، هز الحصان جزءه الامامى ، واندفع عميقا بين الجمهور . انحنى سوروكين من على السرج واشار باصبعه :

– هذا هو !

التفت الجمهور بصورة لا ارادية الى الذى اشار اليـــــه سوروكين . كان رجلا طويلا نحيلا ذا انف كبير . شحب الرجل ، ورفع مرفقيه ، وتراجع . لا احد يدرى هل كان سوروكين يعرفه

حقا ام قد ضحى به كاول رجل فى طريقه ليجد مخرجا للوضـــع الحرج . . . وكان الجمهور بحاجة الى دم . اختطف سوروكين سيفا معوجا ، ورفعه فى الهواء ، وهوى به على رقبة الرجل الطويلة بصفير منخفض . انبجس الدم على بوز الحصان برشاش قوى .

– هكذا يعامل الجيش الثورى اعداء الشعب .

حث سوروكين حصانه ثانية ، ودار فى الحشد رهيبا شاحبا ملوحا بالسيف الدامى لاعنا مهددا :

– لا انتحار ابدا . . . الجواسيس وعملاء البيض يثيرون الرعب عن قصد . . . وهم الذين يدفعونكم الى النهب ، ويقوضون الانضباط . . . من قال انهم حطمونا ؟ من رآهم يضربوننا ؟ هـــل رأيت ذلك ايها الحقير ؟ ايها الرفاق ، لقد قدتكم الى المعركة ، وانتم تعرفونني . . . انا ايضا احمل فى جسدى ستة وعشرين جرحا ! اطالبكم بان تكفوا عن النهب فى الحال ! وليذهب كل واحد منكم الى قطاره ! اليوم سأقودكم فى هجوم . . . اما الجبناء والخائفون على جلودهم فلينتظرهم انتقام السخط الشعبى . . .

استمع الجمهور . وعلته الدهشة ، وصعد بعض الافراد على اكتاف آخرين ليلقوا نظرة على قائدهم العام . ما تزال الاصـــوات تزعق ولكن القلوب تتوهج . وتردد هنا وهناك : «انه يقـــول الحقيقة . . . ليقدنا . لنذهب معه . . .» . وظهر امراء السرايـــا الذين كانوا قد اختفوا ، واخذت الوحدات تعود الى قطاراتها شيئا فشيئا . كان ثمة شق فى سترة سوروكين عند الصدر ، افرجه واظهر آثار جراح قديمة . . . وكان وجهه شاحبا ماخوذا . . . زال الهلع . نصبت حواجز الرشاشات لملاقاة القطارات المقتربـــة . وحفل الخط كله ببرقيات فى منتهى الحزم .

ومع ذلك فقد كان لا محيص من تراجع الجيش . وبعد عدة ايام فقط امكن اعادة النظام الى الوحدات العسكرية فى منطقـــة محطة تيماشيفسكايا ، والبدء بهجوم مضاد . زحف الحمـــر فى طابورين على فيسيلكى وكورينيفكا . كان الجنود الحمـــر يرون سوروكين منطلقا على حصانه الاصهب كلما تأرجحت كفة المعركة . وكان يبدو وكأنه بارادته الملتهبة وحدها قد حوّل مصير الحرب

منقذا المنطقة الساحلية على البحر الاسود . ولم يبق أمام اللجنة التنفيذية المركزية لجمهورية شمال القفقاس الا ان تعترف رسميا بأسبقيته في العمليات الحربية .

٦

في تلك الأيام من اواخر ايار ، حين كان جيش دنيكين يقوم بحملة كوبان الثانية، خيم خطر جديد على جمهورية روسيا السوفييتية . ثارت ثلاث فرق تشيكية في وقت واحد تقريبا في جميع القطارات من بينزا الى اومسك زاحفة من الجبهة الاوكرانية نحو الشرق .

وكان هذا التمرد اول ضربة اعدها مسبقا المتدخلون ضد روسيا السوفييتية . كانت الفرق التشيكية قد بدأت تتشكل منذ عام ١٩١٤ اولا من التشيكيين الذين كانوا يعيشون في روسيا ، ثم من اسرى الحرب ، وقد اضحت بعد ثورة اكتوبر جسما غريبا داخل البلاد ، وراحت تتدخل في الشؤون الداخلية بقوة السلاح .

ولم يكن من السهل دفع التشيكيين الى الهجوم المسلح على الثورة الروسية ، لأنهم كانوا ما يزالون ينظرون الى روسيا باعتبارها المحرر المقبل للشعب التشيكي من الحكم الامبراطوري النمساوي . وكان الفلاحون التشيكيون الذين كانوا يستقبلون الاوز لعيد الميلاد يقولون على العادة القديمة «واوزة واحدة للروسي» . كانت الفرق التشيكية وهي تتراجع تحت ضغط المعارك مع الالمان في اوكرانيا تتهيأ الى الانتقال الى فرنسا ليظهروا في الجبهة ، للعالم اجمع ، تأييدهم لحرية بلاد التشيك ، والمساهمة في انتصارها على النمساويين والألمان .

تحرك اسرى الحرب الالمان والمجريون المكروهون بشكل خاص للقاء القطارات التشيكية المتجهة الى فلاديفوستوك . وكان فوران الدم يحتدم في الاماكن التي يلتقي فيها هذان التياران . وكان عملاء الحرس الابيض يوشوشون للتشيكيين بنوايا البلاشفة السيئة ، وبمقاصدهم المزعومة عن تجريد الوحدات التشيكية السيارة وتقديمها الى الالمان .

وفي ١٤ ايار حدث عراك خطير بين التشيكيين والمجريين في محطة تشيليابنسك . فاعتقل سوفييت نواب الشغيلة في هذه المدينة بعض التشيكيين الذين تمادوا في القتال بشكل خاص ، مما ادى الى ان يهب القطار كله لرفع السلاح . واضطر السوفييت الى التراجع لأن الجنود الحمر عنده في خط السكة الحديدية كله لم يكونوا مسلحين التسليح الكافي . شاع نبأ حادث تشيليابنسك في القطارات التشيكية كلها . وحدث الانفجار حين أعلن الأمر الخيالي الاستفزازي لرئيس المجلس العسكري الاعلى للجمهورية ردا على هذه الاحداث :

«على جميع السوفييتات تجريد التشيكوسلوفاكيين من السلاح ، والمخالف سيقع تحت طائلة المسؤولية . وكل تشيكوسلوفاكي يوجد مسلحا على الخط الحديدي يجب ان يرمى في مكانه ، وكل قطار يعثر فيه ولو على مسلح واحد يجب ان تفرغ عرباته ، ويوضع ركابها في معسكر لاسرى الحرب» .

ولما كان للتشيكيين انضباط فائق وتضامن وخبرة في القتال وعدد وافر من الرشاشات والمدافع ، بينما لم يكن للسوفييتات غير فصائل رديئة التسلح من الحرس الأحمر ، وبلا قيادة محنكة ، فانهم هم الذين قاموا بتجريد السوفييتات ، وليس بالعكس ، وبسطوا سيادتهم على طول الخط من بينزا الى اومسك .

بدأ التمرد في بينزا ، حيث ارسل السوفييت خمسمائة من الحرس الاحمر لملاقاة اربعة عشر الفا من التشيكيين . وقد قام الحمر بهجوم على محطة السكة الحديدية ، وتمزقوا على بكرة ابيهم تقريبا . واخرج التشيكيون معهم من بينزا آلة طباعة «بعثة اعداد اوراق الدولة» ودحروا الحمر في معركة كبيرة قرب بيزنتشوك وليبياغي ، واحتلوا سامارا .

وعلى هذا النحو تشكلت جبهة جديدة للحرب الأهلية شملت بسرعة مساحات هائلة في الفولغا والاورال وسيبيريا .

كان الدكتور دميتري ستيبانوفيتش بولافين يرقد على بطنه في شباك مفتوح ، ويصغي الى الهدير الاصم لقصف المدافع . كان الشارع خاليا . والشمس البيضاء تحرق بشكل لا يطاق جدران

البيوت غير العالية ، والنوافذ المتربة للمخازن الخالية ، واللافتات غير المجدية والشارع الاسفلتي المغطى بغبار الكلس .

في الساحة الى اليمين ، الى حيث كان ينظر الطبيب برزت السقيفة الخشبية المغطاة باسمال ناحلة اللون والتي تستر تمثال الكسندر الثاني : والى جنبها نصب مدفع ، ولجميع رهط من الناس يقلبون الحجارة ، ويحفرون شيئا ، بلا جدوى ، كما هو واضح. كان بينهم القس سلوفوخوتوف وكاتب العدل ميشين بهاء وفخر المثقفين في ساماراروماتسوف صاحب مخزن للماكولات ، وستراميوف العضو السابق للادارة المحلية الذاتية ، وكوروويدوف صاحب الاطيان الاشيب الوسيم الذى كان رجلا كبيرا في زمانه . وجميعهم زبائن دميترى ستيبانوفيتش ، وشركاؤه في لعبة الورق «الهويست» . . . كان احد الجنود الحمر يقنع بندقيته بين رجليه ويدخن جالسا على حجر .

دوّت المدافع وراء نهر ساماركا ، ورن زجاج النوافذ رنينا خافتا . تلوى فم الطبيب على هذه الاصوات رعبا ، تاخرا من متخريه في شاربيه الاشيبين كان نبضه مائة وخمسة . ومعنى ذلك ان الخبرة الاجتماعية القديمة ما تزال فيه . ولكن اظهار عواطفه اكثر من ذلك ما يزال امرا خطرا ، لان امر اللجنة الثورية الذى يهدد العناصر المضادة للثورة بالرمي بالرصاص كان يفوح كالعش الحمراء في مكانه على الالواح التي سدت بها النافذة اللامعة المهشمة لمخزن ليدر للمجوهرات في الجانب الآخر من الشارع مقابل داره .

ظهر في الشارع الخالي شخص غريب المظهر مرعوب يرتدى قبعة تسمى «ميلاما ووداعاه» من ليف جوز الهند ، وسترة من حرير التيسور من فصال ما قبل الحرب . كان الرجل ينسل بمحاذاة الجدار ، ويتطلع الى الخلف بين برهة واخرى ، ويثب ، وكان طلقات كانت تتفجر قرب اذنه . كان شعره بلون ليفة الكتان يتدلى حتى كتفيه ، ولحيته الصهباء قليلا تبدو وكانها قد لصقت بوجهه الشديد الشحوب .

كان ذلك الشخص هو غفيادين الاحصائي في الادارة المحلية الذاتية (الزيمستفو) والذى حاول ذات مرة ان يثير في داخلها «الحيوان الجميل» الكامن فيها . كان قادما لزيارة دميترى

ستيبانوفيتش ، والقصد من الزيارة ، كما يبدو ، مهم جدا جعله يتغلب على خوف الشارع الخالي ، ودوى قصف المدفعية .

راى غفيادين الطبيب في النافذة . فلوح له بذراعه متضايقا ، وكانه يقول له : «من اجل الرب لا تنظر لاتهم يراقبونني» . انضغط على الحائط تحت امر اللجنة الثورية متلفتا الى الوراء ، ثم ركض عبر الشارع ، واختفى وراء البوابة . وبعد دقيقة دق باب الطبيب الخلفي .

همس غفيادين وهو يدخل غرفة الطعام :

– اغلق النافذة ، بحق الرب ، انهم يراقبوننا . وانزل الستار . . . لا . . . الافضل الا تنزلها . . . يا دميترى ستيبانوفيتش ، انا مبعوث اليك . . .

– اى خدمة ؟

سال الطبيب بسخرية ، وجلس الى المائدة المغطاة بمشمع قذر محروق . ثم قال :

– اجلس ، وحدثني . . .

تناول غفيادين مقعدا ، وهبط عليه ، وعكف ساقه تحته ، وهمس في اذن الطبيب همسا عاليا متطاير اللعاب :

– دميترى ستيبانوفيتش . . . قبل حين جرى تصويت في اجتماع سرى للجنة الجمعية التاسيسية للاقتراح عليك بشغل منصب نائب وزير الصحة .

– نائب وزير ؟ – استفسر الطبيب ، وارخى طرف فمه حتى ان حنكه قد تغضن كله . – هكذا . ولاية جمهورية ؟

– ليس لجمهورية بل لحكومة . . . انا ناخذ بايدينا المبادرة للقتال . . . نفتح جبهة . . . نحصل على آلة لطبع الاوراق النقدية . . . ونزحف برئاسة الفيلق التشيكوسلوفاكي على موسكو . . . ونستدعي جمعية تاسيسية . . . وكل هذه الاعمال تنقلها نحن ، انت تفهم ، نحن . . . اليوم حصل نزاع حاد . الاشتراكيون-الثوريون والمناشفة طالبوا بكل المناصب الوزارية . ولكن ، نحن اعضاء الادارة المحلية الذاتية ، دافعنا عنك ، ومررنا ترشيحك . . . هل انت موافق ؟

وفي تلك اللحظة بالذات صدر دوي رهيب وراء نهر ساماركا جعل الاقداح تطقطق على المائدة حتى ان غمليادين وثب على قدميه ، وامسك بقبعته قائلا :

– انهم التشيكيون . . .

وصدر دوي آخر ، ولمعت رشاشة كانت تبدو قريبـــة للغاية ، جلس غمليادين ثانية وقد شحب كليا ، وطوى ساقه .

– انهم الاوغاد الحمر . . . عندهم رشاشات نصبوهــا على سايلوات الحبوب . . . ولكن لا مجال للشـــك في ان التشيكيين يقتحمون المدينة . . . سيستولون عليها حتما .

تمتم دميتري ستيبانوفيتش بصوت اجش :

– اعتقد اني موافق . هل تريد شايا ، ولكنه بارد ؟

امتنع غمليادين عن الشاي ، وراح يهمس وكأنه في غيبوبة :

– سيرأس الحكومـــة وطنيون – ازيه الناس ، شخصيات نبيلة . . . فولسكي ، وانت تعرفه ، محام من تفير ، رجـــل ممتاز . . . والنقيب فورتوناتوف . . . وكليموشكين ، وهو من بلدتنا سامارا ، انه انسان نبيل ايضا . . . وجميعهم مـــن الاشتراكيين الثوريين ، مناضلون صلبون . . . يتوقعون ايضـــا تشيرنوف نفسه . ولكن ذلك سري للغاية . . . انه يقاتل البلاشفة في الشمال . . . والضباط في كتلة وثيقة معنا . . . ومـــن العسكريين يرشح العقيد غالكين . . . يقولـون انــه دانتــون الجديد . . . وباختصار ، كل شيء مهيأ . ونحن بانتظار الهجــوم فقط . . . وكل المعلومات تشير الى ان التشيكيين قد عينوا اليوم ليلا موعدا للهجوم . . . وانا امثل الميليشيا . وهذا عمل خطير ويحتاج الى جهد كثير . . . ولكن يجب ان نقاتل ، وان نضحي بالنفس . . .

ترددت وراء النافذة اصوات عالية ناشزة لأبواق عسكريـــة تعزف «النشيد الأممي» . طوى غمليادين جذعه ، ووضع رأسه على بطن دميتري ستيبانوفيتش ، كان شعره الكتاني يبدو كشعـــر دمية .

احتجبت الشمس وراء سحابة ممطرة . ولم تأت الطراوة مـــع الليل . وغشى النجوم نقاب من الظلمة . وازداد قصف المدافع وراء

النهر حدة وكثافة . فكانت البيوت تهتز من الانفجارات . وكانت بطاريـــــة البلاشفـــــة ذات ٦ بوصات ، المنصوبـــــة على السايلو ترعد في الظلام . وكانت الرشاشات تلعلع على سطوح البيوت . وفيما وراء النهر ، في ضواحي سامارا التي كانت ترتبط بجسر خشبي كان الحراس الحمر في النقاط الامامية يطلقون النار ، فترده اصواتها ضعيفة .

انتشرت سحابة في السماء بدمدمة راعدة ، وحلّ ظلام حالك ، ولم يلمع اي ضوء لا في المدينة ولا على النهر . لا شيء غير ومضات المدافع وهي تطلق نيرانها .

لم ينم احد في المدينة . وكانت لجنة الجمعية التأسيسيـــة تجتمع بشكل متواصل في مكان مجهول . وكان المتطوعون مـــن منظمات الضباط هائجي الاعصاب في البيوت في بدلهم وباسلحتهم . وكان اهالي المدينة يقفون عند النوافذ يحدقون في الظلام الليل ! ورجال الدوريات يتنادون في الشوارع . وفي فترات السكون كانت تسمع صافرات القاطرات وهي تنقل القطارات صوب الشرق .

رأى المتطلعون من النوافذ برقا متعرجا يقطع السماء مـــن الحافة الى الحافة . واضاء مياه الفولغا الكدرة بضوء كئيب . ولاحت معالم الصنادل والسفن عند الارصفة . وظهر عاليا فوق النهـــر وحديد السطوح هيكل السايلو الضخم ، والبرج المستدق للكنيسة اللوثرية ، وبرج الجرس الابيض الملحق بدير النساء ، والمشيد ، كما يقال ، بالاموال التي جمعتها الراهبة المتجولة سوسانا . وانطفأ البرق . وحلّ الظلام . . .

تمزقت السماء . وهبت ريح . وانعولت مداخن المواقد عويلا رهيبا . وبدأ التشيكيون الهجوم .

هجم التشيكيون بصفوف غير كثيفة من جانب محطة كرياج الى جسر السكة الحديدية ، وخلال مصانع كبس الشحم الى ضواحي المدينة في ما وراء النهر . وقد اعاقت تقدمهم وعورة المنطقـــة ، والسد ، وتكاثر الصفصاف الارجواني .

وكان المدخل الى المدينة يقع عبر الجسرين الخشبي والخاص بالسكة الحديدية . وكانت مدافع البلاشفة في الساحة وراء سايلو الحبوب تقصف مشارف المدينـــة . واتحدت ضرباتهـــا القويـــة

والانفجارات على روح الشجاعة فى وحدات الحمر غير الواثقة بخبرة قيادتها .

وفى اواخر الليل لجا التشيكيون الى الحيلة . كان بقايـــا اللاجئين البولونيين يعيشون فى عنابر بالقرب من سايلو الحبوب مع نسائهم واولادهم . وكان ذلك معروفا لدى التشيكيين . وحين اخذت قذائفهم تنفجر فوق السايلو خرج البولونيون من العنابر وتناثروا هنا وهناك بحثا عن ملجا . ابتعد المدفعيون عن المدافع بالشتائم وباسياخ تسليك المدافع . وابتعدوا حين راحت المدافع ذات الست بوصات تهدر مصمة تخطف الابصار . . . ولكن حشدا جديدا من النساء تراكض من العنابر ، وتصايح :

— لا تطلقوا ، يا پاني * ، لا تطلقوا من فضلكم ، نتضرع اليكم الا تصرعوا التعساء .

واحاط بالمدافع من كل جانب .

امسكت البولونيات غريبات الشكل باسيـــاخ التسليك ، وعجلات المدافع ، واخذن بالايدى ، وتعلقن ثقيـــلات بالمدفعيين المصعوقين بهدير المدافع ، وتشبثن بلحاهم ، وسحبنهـــم الى الارض . . . وكان تحت بلوزة كل واحدة منهن قميصا عسكريا ، وتحت كل تنورة بنطلونا عسكريا . . .

وصرخ شخص :

— يا اصحاب ، هؤلاء تشيكيون !

فعاجلته طلقـــة مسدس حطمت راســـه . . . اخذ البعض المقاومة ، ولاذ البعض الاخر بالفرار . . . اما التشيكيون فكانوا قد خلعوا المغاليق من المدافع ، وتراجعوا مطلقين النار . ثم غابوا فى الفواصل بين العنابر وكان الارض ابتلعتهم .

انطفت البطارية ، وسكتت الرشاشات . واستمر التشيكيون فى الهجوم محتلين ضواحى سامارا فيما وراء النهر ووصلـــوا الى الفولغا .

فى صباح اليوم التالى انقشعت السحب ، وانعكست الشمس الجافة على نوافذ بيت دميترى ستيباتوفيتش غير المغسولة . كان

* « پانى » جمع « پان » ، وهى تعنى السيد بالبولونية . ــ المترجم .

الدكتور جالسا الى الطاولة فى هندام انيق ، وعيناه غائرتان ، لانه لم ينم الليلة . كان مغسل الاوانى والصينية وصحـــون الفناجين مملوءة باعقاب السكائر . كان بين الفينة والاخرى يتناول بمشط مكسور ، ويمشط به خصلات شعره الجعداء الشائبة الى جبينه . كان يتوقع فى كل لحظة ان يدعى لاداء واجباته الوزارية . لقد تبين انه كان طموحا .

كان الجرحى يمرون بنوافذ بيته فى شارع دفوريانسكايا وكانهم يسيرون فى مدينة شبه ميتة . وكان بعضهم يجلس على الارصفة بمحاذاة الجدران ، ويلفون جراحهم بخرق مدماة على نحو ما ، وكانوا يرفعون ابصارهم الى النوافذ الفارغة ، ولكن لا يجدون احدا يطلبون منه ماء او خبزا .

كانت الشمس تسخن الشارع الذى لم ترطبه عاصفة المطر ليلا . وكانت اصوات المعركة تترامى قادمـــة من وراء النهر . انطلقت سيارة مائلة شارع دفوريانسكايا بسحب الغبار الكلسى ، وتراءى وجه المفوض العسكرى الملتوى ذو الفم الاسود . انحدرت السيارة فى الشارع عبر الجسر الخشبى ، حتى نسفت بقذيفة مدفع بكل ركابها ، كما ذكر فيما بعد . توقف الزمن . وبدت المعركة بلا نهاية . وخمدت المدينة فلم تعد تتنفس . وارتدت نساء المجتمع اثوابهن البيضاء واستلقين واضعـــات الوسائد على رؤوسهن . وتناولت لجنة الجمعية التاسيسية شايها الصباحى الذى اعدته ساخنة الطاسرلة . وبدت وجوه الوزراء فى السرداب شاحبة شحوب الموت . واصوات المعركة ما تزال تترامى من وراء النهر . . .

عند الظهر تقدم دميترى ستيباتوفيتش من النافذة ونظر وقتها ، حيث لم يعد قادرا على الجلوس فى دخان التبغ الازرق . كان الشـــارع قد خلا من اى جريح . والكثير من النوافذ قد فتح فتحات صغيرة ، فلاحت عين تتلصص من وراء ستارة هنـــا ، وتراءى وجه متلصص هنا وهناك . واطلت رؤوس من مداخل البيوت ، واختفت . كان يبدو وكان البلاشفة لم يعودوا فى الوجود . . . ولكن ما هذه الطلقات المتتابعة من وراء النهر ؟ . . آه ، مـــا اصعب الوضع ! . .

وفجاة — كمعجزة — ظهر من وراء المنعطف ضابط طويـــل

السائق في سترة عسكرية ناصعة كالثلج مرتفعة عند الخصر ، وتوقف برهة ، وسار في وسط الشارع . كان سيفه يضرب في جانب حذائه . وكانت كتافيتاه المذهبتان تتألقان مثل شمس الظهيرة ، مثل نعمة من العهد القديم .

ورق في قلب دميتري ستيبانوفيتش شيء ما ، وكأنما تذكر شيئا ، وحنق على شيء . اطل برأسه من النافذة بحيوية مبهمة ، وصاح على الضابط :

— عاشت الجمعية التأسيسية !

القى الملازم نظرة غامزة على وجه الطبيب الممتلىء ، واجاب على نحو غامض :

— ستری ...

واطل الناس من جميع النوافذ ، ونادوا ، وتساءلوا :

— يا حضرة الضابط . . . كيف الحال ؟ استراليا ؟ وحل البلاشفة ؟

ارتدى دميتري ستيبانوفيتش قبعة بيضاء لها حافة نائتة ، وتناول عصاه ، ونظر الى نفسه في المرآة ، وخرج . كان الناس يملؤون الشوارع ، وكأنهم خارجون من كنيسة . وفي الواقع رن جرس كنيسة رنينا رقيقا . تزاحم الجمهور الصاخب ببهجة على المفرق . امسكت بكم دميتري ستيبانوفيتش احدى زبائنه ، وهي سيدة لها ثلاثة ذقون . كانت رائحة النفتالين تفوح من الزهور الاصطناعية على قبعتها الضخمة ، وقالت :

— دكتور ، انظر انهما تشيكيان !

كان تشيكيان يقفان عند ملتقى الشوارع محاطين بالنساء ، وبندقيتاهما مائلتان الى الارض . احدهما ازرق الوجه من الحلاقة ، والآخر ذو شاربين اسودين ضخمين . كانا يبتسمان بعصبية ، ويلقيان نظرات سريعة على السطوح والنوافذ والوجوه .

كانت قبعتاهما الانيقتان ، والسترتان العسكريتان بازرارهما الجلدية ، والعلامتان المشدودتان على ذراعيهما اليساريين ، والحقيبتان وامشاط الرصاص الثقيلة ، ووجهاهما الناءمان عن نعيم ، كل ذلك يبعث الانشراح والدهشة المقرونة بالاحترام ، فكأن هذين قدما الى شارع دفوريانسكايا من عالم آخر .

صاح بعض الموظفين من وسط الزحام :

— مرحى ! عاش التشيكيون ! لنرفعهم على ايدينا ! هيا !

اراد دميتري ستيبانوفيتش ان يقدم التحية اللائقة ، وقد انحنى متقصفا ونخر من انفه ، الا ان الانفعال جفف حنجرته ، فاسرع الى الشقة السرية ، حيث كانت تنتظره التزامات رفيعة .

كان السرداب عند صاحبة الطاحونة فارغا ، لا شيء غير بقايا رائحة التبغ المحترق ، ونفاضات مملوءة باعقاب السكائر ، وفي طرف المنضدة كان رجل اشقر ينام ورأسه ملقى على اوراق رسمت عليها وجوه كبيرة الانوف . مس دميتري ستيبانوفيتش كتفه . تنفس الاشقر نفسا عميقا ، ورفع وجهه الملتحي بعينيه الزرقاوين الفاتحتين المتقلبتين بعد النوم .

— ما الخبر ؟

سأل دميتري ستيبانوفيتش بحدة :

— اين الحكومة ؟ الذي يتكلم معك نائب وزير الصحة .

— آه ، الدكتور بولافين ، اوه ، اللعنة . كنت ... ما هي الحال في المدينة ؟

— لم يتم تطهير كل شيء . ولكن هذه هي النهاية . الدوريات التشيكية في شارع دفوريانسكايا .

كشف الاشقر عن اسنانه فاتحا فمه ، وقهقه .

— لطيف !.. يا للشيطان . . . مهارة ! اذن فالحكومة ستجتمع هنا تمام الساعة الثالثة . اذا سار كل شيء على ما يرام سننتقل في المساء الى مكان افضل . . .

وحل على دميتري ستيبانوفيتش حدس مخيف فقال :

— اعذرني . . . هل انا اتحدث مع عضو في اللجنة المركزية للحزب ؟! هل انت افكسينتيف ؟

اجاب الاشقر بايماءة غير محدودة ، وكأنه يقول : «ما العمل . . .» دق جرس التلفون . تناول السماعة من على المنضدة .

— اذهب ، يا دكتور . ان مكانك الآن في الشارع . . . تذكر اننا يجب الا نسمح بالمتطرفين . . . انت ممثل المثقفين البرجوازيين . فحاول ان تهدئ من ثائرتهم . . . والا فانت تعرف — وغمز له — ستحدث منغصات في المستقبل . . .

خرج الدكتور . كانت المدينة كلها الآن قد خرجت الى الشوارع . كان الناس يتبادلون التحيات ، وكأنهم فى عيد الفصح ، وكانوا يتبادلون التهانىء ، ويتناقلون الاخبار . . .

– البلاشفة يندفعون الى ساماركا بالآلاف . يحاولون العبور الى هذه الضفة . . .

– ولكن يقتلونهم . . .

– ويغرق منهم الكثير . . .

– صحيح تماما . الفولغا كلها فى اسفل المدينة مغطاة بالجثث . . .

– اذن فشكرا للخالق على ذلك . . . انا لا اعتبر ذلك خطيئة . . .

– حقا موت الكلاب للكلاب . . .

– يا سادة ، هل سمعتم ؟ قذفوا القندلفت من على برج الجرس . . .

– مَنْ ؟ البلاشفة ؟

– حتى لا يدق الجرس . . هذا ما يسمى صفق الباب وراءك . . يمكن ان افهم لو كان آخر غير القندلفت .

– الى اين ، يا اب ؟

– الى الاسفل . اريد ان اعاين الهرى ، هل هو سالم .

– هل فقدت عقلك ؟ ما زال البلاشفة على ارصفة النهر .

– دميترى ستيبانوفيتش ، جاء اليوم السعيد ! . . لماذا اراك مشغول الفكر ؟

– اختارونى نائب وزير . . .

– تهانىّ ، يا صاحب المعالى . . .

– لم يحن الوقت بعد للتهنئة . . . لم تستول على موسكو بعد . . .

– آه ، يا دكتور ، على الاقل ان تتنفس هواء نقيا . . وستقول شكرا على ذلك . . .

كانت الكتافيات المذهبة تطرق فى الحشد هنا وهناك متباهية ، كانت رمزا لكل ما هو قديم ومريح ومأمون . مرت جماعة من الضباط بخطى حازمة يصاحبها صبيان متأنقون . ضحكت نساء

انيقات . انطلق الجمهور من شارع سادوفايا الى شارع دفوريانسكايا مارا بفيلا لكورليتا ذات الابهة السخيفة ، المرصوفة بالبلاط الاخضر . اندفع رجل فى الحشد . . .

– ما هذا ؟ ماذا حصل ؟

– يا حضرة الضابط ، فى هذا الفناء بلشفيان يختفيان وراء الخشب . . .

– هكذا . . . يا سادة ، يا سادة ، تحركوا . . .

– الى اين هرب اولئك الضباط ؟

– يا سادة ، يا سادة ، لا حاجة الى اى فزع . . .

– وجدوا اعضاء فى اللجنة الاستثنائية !

– دميترى ستيبانوفيتش ، لنبتعد احتياطا ، والا . . .

صدرت طلقات . ماج الحشد . وتراكض الناس فاقدين قبعاتهم . ووجد دميترى ستيبانوفيتش نفسه فى شارع دفوريانسكايا مرة اخرى لاهثا . وشعر بالمسؤولية ازاء كل ما يحدث . بلغ الساحة وقلص عينيه ناظرا الى المسلة التى تغطى نصب الكسندر الثانى . مد ذراعه ، وقال بلهجة غاضبة وبصوت عال :

– البلاشفة مستعدون لتحطيم كل ما هو روسى . وهم يريدون ان ينسى الشعب الروسى تاريخه . هنا ينتصب تمثال للقيصر محرر لا يؤذى احدا . ارفعوا عنه هذه الالواح السخيفة ، وهذه الخرق الكريهة .

كان هذا اول خطاب له فى الشعب . وفى الحال صاح شبان فى قبعات لها حواف ناتئة – تدل هيئتهم على انهم باعة فى حوانيت :

– اكسروها !

ارتفعت قرقعة الالواح ، وهى تخلع عن التمثال ، وواصل دميترى ستيبانوفيتش مسيره ، قل الجمهور . كانت الطلقات تتردد هنا من وراء النهر باصوات اعلى . جاء رجل عار الا من سروال داخلى ميلل يركض من الجهة المضادة للجهة التى كان يتقدم منها دميترى ستيبانوفيتش . كان شعره الداكن يتهدل على عينيه ، وصدره العريض موشوما . تصايحت بعض النسوة ، وابتعدن عنه متراكضات الى البوابات . استدار الرجل فجأة ، وانطلق هابطا

المتحدر الى الفولغا . ركض وراءه ثلاثـــة آخرون ، ثم آخرون ، وآخرون مبللين نصف عراة لاهثين . . . وارتفعت اصوات في الشارع :

— بلاشفة ! اقتلوهم !

كان الجميع كالشناتيب التي افزعتها الطلقات ينعطفون نحو المتحدر ، الى الارصفـــة . فلحق دميتري ستيبانوفيتش ، وركض ايضا ، وامسك برجل سقيم ذي انف معقوف ، وبلا رموش .

— انا وزير في الحكومة الجديدة . . . يجب ان توضع رشاشة هنا في الحال ! اذهب ، واجلبها ، انا آمرك . . .

— لا افهم الكلام الروسي .

اجاب الرجل السقيم ممتعضا مديرا لسانه بصعوبة . . . دفعه الطبيب . . . يجب الاسراع بالفعل . . . ذهب بنفســـه ليبحث عن تشيكيين عندهم رشاشة . . . واذا به يرى بلشفيا آخر عند المدخل الحديدي ، حيث كانت تتعلق نجمة حمراء نصف مخلوعـــة . كان الرجل مسوّد البشرة من تلويح الشمس ، حليق الراس ذا لحية تترية . كان القميص العسكري الذي يرتديه ممزقا ، وقد سال الدم من بقعة صغيرة على كتفه . هز راسه كالكلب مبديا اسنانا صغيرة مفرقشا ، وقد لاح عليه الرعب من الموت .

هاجمه حشد من الناس ، وتفوهت النساء خاصة بكلمات مبهمة ، ولوّح الكثيرون بالمظلات والعصي والقبضات المضغوطة . . . واحتد جنرال متقاعد واقف على درجات مدخل بيت ورفع صوته فوق جميع الاصوات ملوحا على البلشفي بذراعيه النيلقيتين ، وقد تحدرت طاقيته الضخمة على صلعتيه الجانبيتين ، وتارجح الوسام تحت رقبته الرخوة .

— اعزم ، يا سادة . . . انه مفوض . . . بلا رحمة . . . ان ابني هو الآخر احمر . . . محنة عظيمة . . . ارجو ، يا سادة ، ان تجدوا ابني وتجلبوه لي . . . ساقتله هنا ، امام الجميع . اقتل ابني . . . يجب الا تكون ثمة رحمة في هذا الخصوص ايضا . . .

فكر دميتري ستيبانوفيتش قلقا : «التدخل لا فائدة منه في هذه الحال» وتلفت مبتعدا . . . خفتت الصيحات . . . وفي المكان الذي كان يقف فيه المفوض الجريح قبل حين كانت المظلات والعصي تلوح في الهواء . . . عمّ السكون تماما ، ولم تسمع الا الضربات .

نظر الجنرال المتقاعد من على مدخل البيت الى الاسفل ملوّحـــا بذراعيه يوهن كقائد فرقة موسيقية ، وقد نزلت قبعته على انفه .

لحق بدميتري ستيبانوفيتش كاتب العدل ميشنين . كان في سترة قذرة مزرورة حتى عنقه ، ووجهه منتفخ ، ونظارته الانفية قد فقدت احدى عدستيها .

— قتلوه . . . انهالوا عليه بالمظلات . . . انه فظيع مثل هذا الحكم الكيفي للغوغاء . . . آه ، يا دكتور ، ويقولون ان اشياء فظيعة تحدث على شاطئ ساماركا . . .

— لنذهب الى هناك في هذه الحال . . . انت تعرف انني في الحكومة . . .

— اعرف ، انا مسرور . . .

وباسم الحكومة اوقف دميتري ستيبانوفيتش جماعة من ستة ضباط ، وطالبهم بمصاحبته الى شاطئ النهر ، حيث كانت تجري تجاوزات غير مرغوب فيهـــا . الآن كانت الدوريات التشيكية تقف في كل مكان عند مفارق الشوارع . كانت النساء الانيقات يزيّنهـــم بالزهور ، ويعلمنهم النطق بالروسية متضاحكات ضحكا رنانا محاولات ان يعجب الاجانب بالنساء والبلدة وبروسيـــا كلها التي اذاقت التشيكيين العلقم في سنوات الاسر .

على شاطئ ساماركا القذر فضى متطوعون من الاهالي على فلول الحمر الفارين من ضواحي سامارا . وصل دميتري ستيبانوفيتش الى هناك متاخرا كثيرا . استطاع الحمر الذين وفقوا في عبور الجسر الخشبي ، وعبروا النهر سباحـــة بخط مائل ان يركبوا الصنادل والسفن ، ويرحلوا الى اعلى الفولغا . كانت بعض الجثث مطروحة على الشاطئ في الموج المتكاسل ، ومئات اخرى قد جرفتها الفولغا .

كان غفيادين يجلس على زورق مقلوب عفن ، وقد شد على كمه شريطا ثلاثي الالوان ، وشعره الكتاني مبلل من العرق . كانت عيناه البيضاوان تماما تنظران بيؤبؤيهما الصغيرين الى النهر المشمس . تقدم دميتري ستيبانوفيتش منه ، وهتف بحدة :

— ايها السيد معاون رئيس الميليشيا ، بلغني ان تجاوزات غير مرغوب فيها تحدث هنا . . والحكومة تامر بان . . .

لم يتم الدكتور كلامـــه الا وقع بصره على هراوة من البلوط

في يدي غفيادين التصق بها دم وخصل من الشعر . همس غفيادين بصوت مكتوم ، يكاد يسمع :

– هذا آخر يعوم . . .

ونزل من الزورق بتراخ ، وتقدم من الماء ، ونظر الى رأس حليق يعوم ببطء وانحراف عن التيار . تقدم خمسة او ستة من القبان من غفيادين ومعهم العصي . عندئـــذ عاد دميتري ستيبانوفيتش الى ضباطه الذين كانوا يشربون الكفاس * الباقارى من بالع تلسط في متزر نظيف لا احد يعرف اية حماسة جعلته يخرج بعربته . خطب الدكتور بالضباط يحثهم على وضع حد للقسوة الزائدة . واشار الى غفيادين والى الرأس العائم . حـــرك ضابط الفرسان الطويل الساقين ذو القميص الناصع الذى رأيناه قبل حين ، حرك شاربيه الابيضين من زبد الكفاس ، ورفع بندقيته ، واطلق الرصاص . فغاص الرأس تحت الماء .

عندئذ شعر دميتري ستيبانوفيتش بانه فعل كل ما يتعلق به ، فاستدار عائدا الى المدينة . كان عليه الا يتأخر على اجتماع الحكومة الاول ، صعد في التل لاهثا مثيرا الغبار بحذائه . كان نبضه لا يقل عن مائـــة وعشرين . لقد تكشفت امام بصره آفاق تدير الرأس : الزحف على موسكو ، الرنين الرقيق لكنائسهـــا التي لا تحصى ، بل والله يعلم ربما كرسي الرئاسة . . . فان الثورة أمر لا يحزر ، واذا تدهورت متراجعة فان كل هؤلاء الاشتراكيين-الثوريين والاشتراكيين-الديموقراطيين سيجدون انفسهم صرعى تحت عجلاتها في لمحة البصر . . . لا ، لا ، لتوقف اعمال اليساريين المتطرفين .

٧

جلست يكاترينا دميترييفنا في غرفة الجلوس الواطئة وراء شجيرة الدُربقة ، عصرت المنديل المبلل بالدمع ، وراحت تكتب رسالة الى اختها داشا :

* مشروب مصنوع من الخبز الأسود . – المترجم .

كان المطر يصفع النافذة المحببة ، والاقاصيا تتمايل في الفناء بشدة . وكان ورق الجدران المحلول يهتز في الريح التي كانـــت تسوق السحب من بحر آزوف .

كتبت كاتيا :

«داشا ، يا داشا . فنوطى لا حدود له . فاديم قتـيل . وقد ابلغنى بذلك صاحب البيت الذى اعيش فيه ، المقدم تيتكين . لم اصدق ، وسألته ممن عرف ذلك . فاعطاني عنوان فاليريان اونولى احد رجال كورنيلوف الذى جاء من الجبهـــة . في الليل عرجت الى فندقه . يبدو انه كان سكران ، فقد جرني الى غرفته ، واخذ يعرض علىّ ان اشرب النبيذ . . . كان ذلك فظيعا . . . انت لا تستطيعين ان تتصورى اى اناس هنا . . . سألته : «هل زوجي قتل ؟ . .» . كان اونولى من الفوج الذى خدم فيه فاديم ورفيقه ، وقد اشترك معه في معارك . . . وكان يراه كل يوم . . . اجابني باستهزاء : «نعم قتيل ، فاهدئي ، يا فتاة . فقد رأيت بنفسي كيف كان الذبـــاب يأكله . . .» ثم قال : «كان روتشين تحت الشبهة عندنا ، ومن حسن حظه انه قتل في معركة . . .» ولم يذكر اليوم الذى حصل فيه الحادث ، ولا المكان الذى قتل فاديم فيه . . . توسلت ، وبكيت . . . صرخ بي : «لا اذكر كل الاماكن التى قتل فيها قتيل ومتى» . وعرض علىّ نفسه كبديل . . . آه ، داشا ! اى اناس هؤلاء ! . . هربت من الفندق ملخبطة العقل . . .

انا لا استطيع ان اصدق ان فاديم لم يعد في الوجـــود . . . ولكن لا يجوز الا اصدق به . فلماذا يكذب هذا الرجل ؟ والمقدم ايضا يقول هذا ما حصل ، كما يبدو . . . لم اتلق من فاديم طوال وجوده في الجبهة غير رسالة واحدة قصيرة تبدو وكأنما كتبهـــا لشخص آخر غيره . . . وقد جاءتني في الاسبوع الثاني بعد عيد الفصح . . . رسالة بلا خطاب . . . وهذه هي كلمـــة بكلمة : «ارسل لك نقودا . . . انا لا استطيع ان اراك . . . اتذكر كلماتك عند الفراق . . . انا لا اعرف هل يمكن ان يكف الانسان عن ان يكون قاتلا . . . انا لا ادرى كيف اصبحت قاتلا . . . وانا احاول الا افكر ، ولكن يبدو انني سأضطر الى ان افكر وان افعل شيئا . . . وحين يزول ذلك – اذا كان ذلك ممكنا – عندئذ سنتقابل . . .» .

وهذا كل شيء ، يا داشا ، وكم ذرفت من دموع . لقد رحل عني ليموت . . . بأي شيء كنت استطيع ان اوقفه ، اعيده ، انقذه ؟ ماذا في وسعي ان افعل ؟ ان اضمه في قلبي بكل قوتي . . . هذا فقط . . . ولكنه لم يعد يلاحظني في المدة الاخيرة . كانت الثورة تحدق في وجهه بكل عيونها . آه ، انا لا افهم شيئا . هل ينبغي علينا جميعا ان نعيش ؟ لقد تهدم كل شيء . . . نحن ، كالطيور في العاصفة ، ننطلق في ارجاء روسيا . . . لماذا ؟ لو ان كل الدم المراق ، كل العذابات والآلام تعيد لنا البيت ، وغرفة الطعام النظيفة ، والاصحاب الذين يلعبون الورق . . . فهل سنعود سعداء من جديد ؟ ان الماضي مات ، مات الى الابد ، يا داشا . . . وانتهت الحياة . فلبيات آخرون اقوياء وافضل . . .»

وضعت كاتيا القلم ، ومسحت عينيها بمنديل مدعوك . لم نظرت الى المطر النازل على زجاجات النافذة الاربع . كانت الاقاصيا تنحني وتتمايل في الفناء بشدة ، وكان الريح العاصفة تنفش شعرها . وعادت كاتيا تكتب :

«رحل فاديم الى الجبهة ، وحل الربيع . كان هدف حياتي كلها انتظارا لفاديم . ما احزن ذلك . وما كان اقله ضرورة لاي انسان . . . اتذكر كيف نظرت من خلال الشباك قبيل المساء وقد تفتحت الاقاصيا ، وتفتقت البراعم الكبيرة . واضطرب سرب من العصافير . . . واحسست بالكدر والوحشة . . . انا غريبة غريبة على هذه الارض . . . انتهت الحرب ، وستنتهي الثورة ، وستتغير روسيا . نقاتل ، ونهلك ، ونتعذب . اما الشجرة فستتفتح كما تفتحت في الربيع الماضي ، الذي سبقه ، وما قبله وقبله . وهذه الشجرة والعصافير — والطبيعة كلها — قد ابتعدت عني الى مدى كبير ، وهي تعيش هناك حياتها غير المفهومة لي . . .

داشا ، لماذا عذاباتنا كلها ؟ لا يمكن ان تكون عبثا . . . نحن ، النساء ، انا وانت ، نعرف عالمنا الصغير . . . ولكن كل ما يحدث حولنا — كل روسيا — اي موقد ملتهب هو ! لا بد ان تخلق هناك سعادة جديدة . . . واذا كان الناس لا يؤمنون بذلك ، فليس من المعقول ان يصير احدهم يبغض الآخر ويقتل احدهم

الآخر بهذا الشكل . . . لقد فقدت كل شيء . . . ولست بحاجة الى نفسي . . . ولكنني اعيش لانه من العار ، ليس من الخوف ، بل من العار ان اضع رأسي تحت عجلات قطار . . . او ان اتعلق من حبل على خشبة .

غدا سأغادر روستوف كي انسى كل شيء . . . واسافر الى يكاتيرينوسلاف . . . فهناك عندي معارف ، وهم ينصحونني بأن اعمل في محل حلويات . ربما ستأتين انت ايضا الى الجنوب ، يا داشا . . . يقولون ان الحال عندكم في بتروغراد سيئة جدا . . .

هذا هو الفرق : ان المرأة لن تهجر حبيبها ولو في نهاية العالم . . . بينما رحل فاديم . . . لقد احبني طالما كان واثقا من نفسه . . . انت تذكرين اي شمس كانت تضيء سعادتنا في بطرسبورغ في حزيران . . . لن انسى ما حييت شمس الشمال الشاحبة . . . لم تبق لي من فاديم صورة فوتوغرافية ، ولا شيء آخر . . . كأن كل شيء كان حلما . . . لا استطيع ، يا داشا ، لا استطيع ان اصدق بانه قتيل . . . اظن انني سافقد عقلي . . . لقد عشت حياتي عيشة حزينة ، وبلا جدوى . . .»

ولم تستطع كاتيا ان تستمر في الكتابة اكثر . . . كان المنديل قد تبلل كله . . . ومع ذلك فقد كان يجب ان تنقل الى اختها كل ما هو مألوف واعتيادي مما يقدره الناس اكثر من غيره في الرسائل . . . وقد كتبت تحت ضجيج المطر هذه الكلمات دون ان تضع فيها فكرة او شعورا . . . عن ثمن المواد الغذائية ، وعن غلاء المعيشة . . . «لا توجد اية المشة ، ولا خيط . . . والابرة بألف وخمسمائة روبل او بخمسين حبيبي . . . جارتي في البيت ، فتاة في السابعة عشرة عادت ليلا عارية مضروبة ، فقد جردوها من ملابسها في الشارع . والشيء الرئيسي انهم يقتنصون الاحذية اقتناصا . . .» وكتبت عن الالمان انهم يعزفون في حديقة البلدية موسيقى عسكرية ، وهم يأمرون بكنس الشوارع . اما الحبوب والسمنة والبيض فيحملونها بالقطارات الى المانيا . . . وعامة الناس والعمال يكرهونهم ، ولكنهم يلزمون الصمت ، لانهم لا ينتظرون معونة من احد .

وكل ذلك اخبرها به المقدم تيتكين . «انه طيب جدا ولكن

اطعام فم زائد كان يرهقه على ما يبدو . وزوجته لم تعد تخجل من ان تذكر ذلك» . وكتبت كاتيا ايضا : «يوم امس الاول اكملت ٢٧ عاما من عمري . ولكن شكل . . اوه ، دعك عن هذا . . . انه غير مهم الآن . . . ليس لى احد يهتم بشكل . . .»

وتناولت المنديل مرة اخرى .

سلمت كاتيا هذه الرسالة الى ليتكين . فوعد بان يرسلها الى بتروغراد فى اقرب فرصة . ولكنها ظلت فى جيبه مدة طويلة بعد رحيل كاتيا . كان الاتصال بالشمال صعبا جدا . ولم يكن البريد يعمل . وكانت الرسائل ترسل بايدى رُسُل خاصين من المجازفين ، وكانوا يتقاضون عليها نقودا كثيرة .

باعت كاتيا ، قبيل رحيلها ، كل الاشياء القليلة التى حملتها من سامارا . لم تبق الا شيئا واحدا هو الخاتم الازرق الذى كان قد أهدى لها فى عيد ميلادها . وكان ذلك منذ زمن بعيد قبل الحرب ، فى صباح ربيعى فى بطرسبورغ . وقد صار ذلك ذكرى بعيدة حتى ان كاتيا لم تحس بارتباط مع تلك المدينة الضبابية التى انقضى فيها صباها . . . خرجت داشا والمرحوم نيقولاى ايفانوفيتش وكاتيا الى جادة نيفسكي . . . واختاروا خاتما فيه فص من الزمرد . فوضعت القبس الاخضر فى اصبعها ، ولم يبق الا هو من الحياة الماضية . . .

غادرت عدة قطارات محطة روستوف تباعا . دُفعت كاتيا وحُشرت فى عربة من الدرجة الثالثة . فجلست عند النافذة ، ووضعت على ركبتيها صرة من الثياب الداخلية المرقعة . ومرت بها المروج المغمورة بالماء ، ومستنقعات الدون ، والادخنة فى الافق ، والمعالم الضبابية لباتايسك التى لم يقهرها الالمان ، وتحت الضفة العالية قرى الصيادين الغاطسة فى الماء الى النصف ، وبيوت طينية وبساتين وزوارق مقلوبة ، واولاد يحملون عُدد صيد ، ثم انبسط بحر آزوف كغطاء حليبى ، وفى البعيد بعض القوارب الشراعية المائلة ، ثم المداخن المطفأة لمصانع تاغانروغ ، وسهوب ورواب ومناجم مهملة وقرى كبيرة على منحدرات تلال

طباشيرية ، وبواشق فى السماء الزرقاء . وصفير القطار موحش كهذه الرحاب ، وفلاحون جهمون فى المحطات ، وخوذ الالمان الحديدية . . .

نظرت كاتيا من نافذة القطار منحنية الظهر كالعجوز . لعل وجهها كان حزينا وحلوا حتى ان الجندى الالمانى الذى كان يجلس قبالتها حدق طويلا فى هذه المراة الروسية الغريبة . وكان الحزن ايضا يبدو على وجهه النحيل المتعب فى نظارة اطارها من النيكل .

قال لها بالالمانية بصوت خفيض :

— الجناة يلقون القصاص على كل شىء ، يا سيدة . سيحين الوقت . سيكون ذلك عندنا فى المانيا ، وفى العالم اجمع : المحكمة الكبرى . . . ، منوسياليزموس سيكون اسمها . . .

لم تفطن كاتيا فى الحال الى انه يخاطبها بالذات . رفعت بصرها الى النظارة الصافية الكبيرة النيكلية الاطار . احنى الالمانى راسه لها بمودة :

— السيدة تتكلم بالالمانية ؟

— نعم .

— حين يتعذب الانسان كثيرا يجد السلوى فى معقولية اسباب عذابه . — قال الالمانى وقد وضع رجليه تحت المقعد ، وانزل جبهته بحيث ان عينيه صارتا تنظران الى كاتيا من فوق النظارة . — لقد درست كثيرا تاريخ الانسانية . اننا بعد فترة طويلة من الهدوء نعود مرة اخرى لندخل فى عهد الكوارث . هذا هو استنتاجى . نحن نشهد بداية انهيار حضارة عظيمة . وقد مرّ العالم الآرى بمثل ذلك ذات مرة . كان ذلك فى القرن الرابع ، حين خرب البرابرة روما . والكثيرون مستعدون لايجاد اوجه تشابه مع عصرنا هذا . ولكن هذا لا شىء . فروما قد حطمتها افكار المسيحية . ولم يعمل البرابرة اكثر من ان مزقوا جثة روما . اما الحضارة الحديثة فان الاشتراكية ستعيد تنظيمها . فى المثل السابق كان هناك هدم ، اما هنا فانشاء . كانت اكثر افكار المسيحية تحطيما هى المساواة ، والاممية ، والتفوق الخلقى للفقراء على الاغنياء . وكانت هذه افكار البرابرة الذين كانوا يغزون روما الطفيلية القطيعة الغارقة فى الترف . وبسبب ذلك كان

الرومان يخافون المسيحيين ذلك الخوف الشديد ويلاحقونهم بتلك القسوة . ولكن المسيحية لم تكن لها فكرة الشمانية ، ولم تنظم العمل . واكتفت على الارض بالتهديم فقط ، اما سائر الاشياء فقد وعدت بها في السماء . المسيحية لم تكن الا سيفا للتحطيم والعقاب . وحتى في السماء وفي الحياة المثلى لم يكن في وسعها ان تعد الا نظام الامبراطورية الرومانية الطبقي البيروقراطي ذا المقامات المقلوب راسا على عقب . وكانت هذه اخطاءها الرئيسية . وبمقابل ذلك وضعت روما فكرة النظام . ولكن انعدام النظام في ذلك الحين - الفوضى الشاملة - كان هو الحلم الامثل للبرابرة الذين كانوا يتحينون ساعة اقتحام اسوار روما . وقد حانت تلك الساعة . وتحولت المدن الى خرائب داخنة . وتناثرت الجثث في الطرقات مطعونة بالسنان مسحوقة بعجلات البرابرة . ولم يكن ثمة خلاص لان اوربا وآسيا الصغرى وافريقيا كانت تحترق من ادناها الى اقصاها . وحام الرومان كالطيور فوق حريق العالم . فقتلهم البرابرة ، وفتكت بهم الوحوش في الغاب ، وهلكوا في الصحارى من الجوع والحر والقر . قرأت قصة لاحد المعاصرين تحكي كيف ان «بروبا» زوجة حاكم روما هربت في قارب ليلا مع ابنتيها من روما التي اجتاحها الماني الاريخ ، ورات الرومانيات ، وهن يعمن في نهر التيبر اللهب الذي كان يلتهم المدينة الخالدة . وكان ذلك نهاية العالم . . .

فك الالماني صرة متاعه ، واخرج من قعرها دفتر مذكرات سميك ذا غلاف جلدي متهرئ . واستغرق في توريقه بعض الوقت مبتسما ابتسامة متحذلقة . وقال وقد انتقل الى مقعد كاتيا :

- هذا لتتصوري على نحو افضل كيف كانت حالة الرومان قبيل هلاكهم . استمعي الى فقرة من اميانوس مارسيلنوس . هذا وصفه لاسياد الكون :

«الاثواب الطويلة من الارجوان والحرير ترفرف في الريح ، وتتيح النظر من تحتها الى القميص الغالي المطرز برسوم الحيوانات المختلفة . وعرباتهم المتنقلة المرفقة بخمسين من الخدم تهز الارصفة والبيوت وهي تنطلق في الشارع بسرعة فائقة . واذا ما دخل احدهم الحمامات المتصلة عادة بحوانيت ومطاعم واماكن للنزهة فانه يطلب بلهجة آمرة ان تخصص كل ادوات الاستعمال العام لاستخدامه وحده ،

ويخرج من الحمامات لابسا خواتم وحلى مع الاحجار الكريمة ، ورافلا بثوب ثمين يكفي قماشه لاكساء اثني عشر رجلا . ثم تاتي الثياب الخارجية التي ترضي غروره . وعلاوة على ذلك لا ينسى ان يتخذ مظهر العظمة التي لا تفتقر حتى لمارسيلوس العظيم فاتح سيراكوسة . واحيانا كان هو ايضا يقوم برحلات جريئة ومعه حاشية ضخمة من الخدم والطهاة والمشايعين والخصيان المشوهين الى ضياعه الايطالية ، حيث يمارس صيد الطيور والارانب الداجنة . واذا ما صادف لا سيما في ظهيرة قائظة ان واتته الشجاعة ليعبر بحيرة لوكرين بمركبه المذهب قاصدا دارته البحرية فانه فيما بعد يقارن هذه الرحلة بحملات قيصر واسكندر الاكبر . واذا نفذت ذبابة الى ما وراء الستارة الحريرية لسطح مركبه ، او سقطت اشعة الشمس من خلال الثنيات فانه يندب حظه العاثر متاسفا على انه لم يلد في البلدان الكيميرية ، حيث يخيم الظلام الابدي . وضيوف الاعيان المتملقون هم الطفيليون والمتزلفون الذين يهللون لكل كلمة للسيد . انهم يتطلعون بغبطة الى اعمدة الحجرات المرمرية والى الارضية الفسيفسائية . وعلى المائدة طيور واسماك غير اعتيادية في حجومها تثير دهشة الجميع حتى يجلب ميزان للتاكد من جسامة هذه الماكولات . وفي الوقت الذي يشبع فيه الضيوف الرزينون برجوعهم من هذا المنظر يطلب الطفيليون كاتب عدل ليكتب وثيقة في صحة هذه الاعاجيب . . .» .

قال الالماني وهو يغلق دفتر مذكراته :

- نعم ، «sic transit»*. ان هؤلاء الناس راحوا يجوبون الطرقات والمدن المخربة بحثا عن الطعام . واستمرت موجات البرابرة تاتي من الشرق ساحقة ناهبة . وبعد حوالى خمسين سنة لم يبق للامبراطورية الرومانية اثر . ونما العشب في مكان روما العظيمة وراحت الاغنام ترعى بين القصور المهجورة . وخيم ليل على اوربا قرابة سبعة قرون .

وقد حدث ذلك لان المسيحية استطاعت ان تدمر ، ولكنها لم تكن لديها فكرة عن تنظيم العمل . والوصايا المسيحية لا تتحدث عن

* هكذا ينقضي ... (مجد العالم!) .

العمل . ان قوانينها الخلقية لا تطبق على من يزرع ويحصد ، بل على من يزرع لهم العبيد ويحصدون . واصبحت المسيحية دين الاباطرة والغزاة . ويبقى العمل غير منظم ، وخارج الاخلاق . والبرابرة الجدد هم الذين يجلبون دين العمل الى العالم ، اولئك هم الذين يحطمون روما الثانية . هل قرات شبينغلر ؟ انه روماني من رأسه حتى اخمص قدمه ، وهو على صواب في شيء واحد فقط ، وهو ان الشمس تغرب من اوروبا له ، ولكنه تشرق علينا . انه لا يستطيع ان يجلب البروليتاريا العالمية الى قبره . ان البجع يصرخ قبيل الموت ، وعلى هذا النحو ، اجبرت البرجوازية شبينغلر على ان يصرخ كالبجعة ... انه آخر ورقة رابحة لديها . لقد تعفنت اسنان المسيحية . اما اسناننا فهي من حديد . ونحن نعارضها بالتنظيم الاشتراكي للعمل ... انهم يجبروننا على محاربة البلاشفة ... اموه ! . اتحسبين اننا لا نفهم من يدفع بدننا ، وضد مَن ؟ اننا نفهم اكثر بكثير مما يبدو في الظاهر ... من قبل كنا نحتقر الروس . اما الآن فقد بدأنا نعجب بالروس ونحترمهم ...

مر القطار بقرية كبيرة يصفر صفيرا ممطوطا . تراءت بيوت متينة ذات سقوف مغطاة بالحديد ، واكداس تبن طويلة ، وحدائق مسيجة ، ولافتات حوانيت . سارت عربة صغيرة على درب مترب الى جانب القطار يسوقها فلاح يرتدي قميصا عسكريا بلا حزام وقبعة من فروة ، خروف وقف الفلاح فارجا ساقيه على العربة بعجلات حديدية لافا طرف الزمام ، جرى الحصان الممتلئ الضخم محاولا ان يسبق القطار . التفت الفلاح نحو نوافذ العربة ، وهتف بشيء كاشفا عن اسنان بيض . قال الالماني:

— هذه غولاي-بوله . قرية غنية جدا .

اضطرت كاتيا ان تنتقل من قطار الى آخر عدة مرات ، اذ اخطات فلم تأخذ القطار المباشر . وقد صرفها عن افكارها المرهقة الضوضاء والانتظار في المحطات ، والوجوه الجديدة ، ورحاب السهوب التي لم تكن قد رأتها من قبل منداحة خارج نافذة العربة . وكان الالماني قد نزل منذ وقت طويل ، وقد هزّ يدها بقوة عند الوداع . لقد كان هذا الرجل شديد الوثوق في حتمية الاحداث الراهنة ، كما حدد بدقة ، على ما يبدو ، نصيبه في الاشتراك فيها . وقد ادهش

كاتيا تفاؤله الرصين واقلقها . فان كل ما كان الجميع يعتبرونه هلاكا وقطاعة وفوضى كان بالنسبة له بداية متوقعة طويلا لعهد عظيم .

كانت كاتيا طوال هذا العام لا تسمع غير صريف الاسنان العاجز ، وتنهدات اليأس الشديد ، ولا ترى — مثل ذلك الصباح من آذار في بيت ابيها — غير وجوه متلوية ، وقبضات مشدودة . صحيح ان المقدم تيتكين لم يكن يتنهد ولم يصرف باسنانه ، الا انه ، على حد تعبيره ، «مغتبط» وكان يرحب بالثورة انطلاقا من ايمانه «المغتبط» بالعدالة .

كان جميع الناس في الوسط الذي عاشت فيه كاتيا يرون في الثورة هلاكا نهائيا لروسيا وللثقافة الروسية ، وهزيمة للحياة كلها ، وفتنة عالمية ، وسفر الرؤيا الموعودة . لقد كانت هناك امبراطورية ، وكان جهازها يعمل بشكل مفهوم واضح . كان الفلاح يحرث ، وعامل المنجم يقلع الفحم ، والمعامل تصنع البضائع الرخيصة والجيدة ، والتجار يبيعون بنشاط ، والموظفون يعملون كالساعة . والناس الذين في الاعلى كانوا يتنعمون بنعم الحياة . وكان يقال ان مثل هذا النظام غير عادل . ولكن ما العمل . والله قد قضى بذلك . وفجأة يتحول كل شيء الى حطام ، وتتحول الامبراطورية الى غلية تغلي هائجة ... وسار رجل وغريب مترنحا وعيناه مبيضتان من الفزع ...

توقف القطار طويلا في سكون عند محطة صغيرة . اخرجت كاتيا رأسها من القطار . كانت اوراق شجرة عالية تحف حفيفا هادئا في الظلام . وكانت السماء المنجمة تبدو لا نهائية فوق هذه الارض التي يلفها الغموض .

وضعت كاتيا مرفقيها على اطار النافذة المفتوحة . ذكرها حفيف الاوراق والنجوم ورائحة الارض الدافئة باحدى الليالي ... كان ذلك في منتزه قرب باريس ... وكان بعض الاشخاص وجميعهم بطرسبورغيون تعرفهم جيدا قد جاؤوا الى هناك في سيارتين ... وكان الجو رائقا جدا في التعريشة فوق البركة التي تناولوا عشاءهم فيها حيث كانت اشجار الصفصاف الباكي يبدو كالغمائم الفضية فوق الماء .

كان بين الذين كانوا يتناولون العشاء رجل الماني عاش في

وقت ما في روسيا لا تعرفه كاتيا . وكان يجيد التحدث بالفرنسية . وكان يرتدي بدلة المساء وبلا قبعة . كان نحيلاً ذا وجه عصبي مستطيل ذي جبين عريض مشى فيه الصلع ، وعينين جديتين لهما جفنان ثقيلان . وكان يجلس هادئاً واضعاً أصابعه الطويلة على أسفل قدح النبيذ . كانت كاتيا حين تعجب بشخص يشيع في داخلها دفء وحنان . وكان الليل التموزي يبدو وكأنه يمس كتفيها العاريتين . وكانت النجوم تتراءى من خلال أوراق الكرمة المتسلقة المعريشة ، والشموع تلقي ضوءاً دافئاً على وجوه الأصدقاء والفراشات الليلية على مفرش المائدة وعلى وجه الغريب الغارق في أفكاره . وأحست كاتيا بأنه مستغرق في أفكاره وهو ينظر اليها . لعلها كانت حلوة جداً في ذلك المساء .

وحين نهضوا من وراء المائدة ، وساروا في الدرب القائم المعرش بأشجار طويلة متجهين الى نهاية المنتزه ، الى السطيحة ليطلوا منها على أضواء باريس سار الالماني الى جانبها وقال بصوت صارم مؤكداً انه لا يريد ان يعطي لكلامه معنيين :

– الا تعتبرين الجمال ، أيتها السيدة ، غير جائز وغير مسموح به ؟

كانت كاتيا تسير ببطء . ما أعذب أن يكون هذا الرجل قد بدأ حديثاً معها ، وأن صوته لم يكن يغطي على حفيف أوراق الأشجار القائمة . كان الالماني ينظر الى الامام ، وهو يسير الى يسارها مرسلاً بصره الى أعماق الدرب ، حيث كان يلوح وهج المدينة الليلكي . وتابع الرجل قوله :

– أنا مهندس ، وأبي ثري جداً ، وأنا اشتغل في مشاريع كبيرة ، أتعامل مع مئات الألوف من الناس . وأرى وأعرف الكثير مما تجهلينه . اعذريني ، هل حديثي مضجر لك ؟

أدارت كاتيا رأسها نحوه ، وابتسمت صامتة ، وعلى انعكاس الوهج البعيد لمح الالماني ابتسامة في عينيها فتابع قوله :

– نحن ، لسوء الحظ ، نعيش على ملتقى قرنين . أحدهما ، العظيم والبهي ، يزول . والثاني يولد في ضجيج الآلات ، والشوارع المصلية الصارمة المظهر والرتيبة . وأسمي هذا القرن بقرن الجماهير ، الجماهير الانسانية ، حيث تتحطم جميع الفوارق . ان

الانسان ليس الا يدين ماهرتين توجهان الآلات . هنا قوانين أخرى ، وحساب جديد للزمن ، وحقيقة أخرى . وأنت ، يا سيدة ، الأخيرة من العصر القديم . ولهذا السبب يعتورني الحزن وأنا أنظر الى وجهك . والعصر الجديد ليس بحاجة الى وجهك مثل أي شيء لا فائدة منه ، ولا نظير له ، قادر على اثارة المشاعر التي تضمحل : الحب ، والتضحية بالذات ، والشعر ، ودموع السعادة .. جمال ! .. لأي شيء ؟ انه شيء مقلق ... شيء غير مسموح به ... وأنا أؤكد لك ان الناس في المستقبل سيشرعون القوانين ضد الجمال ... هل صادف وأن سمعت عن العمل على خط الانتاج المتحرك ؟ هو آخر ابتكار أمريكي ، يجب ادخال فلسفة العمل على الخطوط المتحركة الى الجماهير ... يجب أن تبدو السرقة والقتل أقل اجراماً من ثانية من الارتباك عند خط الانتاج ... والآن تصوري ان الجمال يدخل في قاعات الورش الحديدية ، ما يقلق ... فماذا يحصل ؟ تشويك الحركات ، ارتعاش العضلات ، وتأخر الأيدي لثوان ، تختلط ... ومن ثواني الخطأ تتكون ساعات ، ومن الساعات كوارث ... ومصنعي يصير ينتج منتجات أقل جودة من المصنع المجاور ... ويفشل المشروع ... ويفلس بنك في مكان ما ... وتستجيب البورصة بهبوط حاد ... ويطلق شخص الرصاص على قلبه ... وكل ذلك لأن امرأة رائعة الجمال بشكل اجرامي سارت في الورشة تحف بفستانها .

ضحكت كاتيا . لم تكن تعرف شيئاً عن خط الانتاج . ولم تزر مصنعاً قط ، ولم تر غير المداخن المسخمة التي تفسد المنظر الطبيعي ... وقد أحبت كثيراً جمهور الناس – الحشد – في البولفارات الكبيرة ولم تتخيل شراً فيه . وكان اثنان من معارفها على مائدة العشاء عند البركة من الاشتراكيين-الديموقراطيين . يعني ان شعورها مرتاح . أما كلام محدثها الذي يسير بطيئاً مرفوع الرأس في عتمة الدرب الدافئة فقد كان طريفاً وجديداً ، مثل اللوحات التكعيبية مثلاً ، تلك التي كانت معلقة في غرفة الطعام عندها ... ولكن الفلسفة لم تكن تعنيها في ذلك المساء ...

قالت كاتيا :

– أظن ان شيئاً فظيعاً قد لحق بك من النساء الجميلات لكي تضمر لهن الكراهية الى هذا الحد .

وضحكت ضحكا خافتا ثانية مفكرة بشيء آخر لميو محدد كهذا الليل ، فيه رائحة زهور واوراق وانسمة تجوم في الفرجات بين رؤوس الاشجار - انه الحب الذي كان يدير الراس دورانا حلوا ، ليس حبا لهذا الرجل الطويل ، او ربما حبا له ، فانه يثير فيها الرغبة ، والشيء الذي بدا الى وقت قريب صعبا بل لا امل فيه ، قد اقترب بسهولة ، واستولى عليها بسهولة . . .

ليس من المعروف ما كان يمكن ان يحدث لها في تلك الايام في باريس . . . الا ان كل شيء قد تقطع فجاة . . . زارت مدافع الحرب العالمية . ولم تلتق كاتيا بالالماني بعد ذلك اللقاء . . . فهل كان يعرف بدنو الحرب ام حدس ذلك ؟ واثناء الحديث اللاحق عند الحاجز الحجري ، حيث كانا يمتعان المنظر بانوار باريس المتناثرة في الافق القاتم والمتألقة كالالماس ، كان الالماني يبدأ عدة مرات كلامه عن حتمية الكارثة بياس حاد . وكانما قد تملكته فكرة لا فرار منها في ان كل شيء لا جدوى منه سواء اكان فتنة الليل او سحر كاتيا .

ولم تذكر ما قالت له ، فعلى الاغلب انه كان هراء ، ولكن ذلك لم يكن مهما . وقف مرتفقا على الحاجز يكاد يمس بخده كتف كاتيا ، وكانت كاتيا تعرف ان هواء الليل قد امتزج برائحة عطرها ورائحة كتفيها وشعرها . . . ولو انه وضع يده الكبيرة على ظهرها لما دفعتها عنها ، ام هذا ما يخيل اليها الآن . . . لا ، ان ذلك لم يحدث . . .

خفق الهواء في خدها ، وعبث في شعرها . وانقذفت شرارات من القاطرة ، وسار القطار في السهب . ادارت كاتيا عينيها عن النافذة بنظرة غير مرئية ، وانحشرت في زاوية تختها ، وشدت اصابعها الباردة .

واحست بتانيب الضمير . ما هذا ؟ لم يمض على معرفتها بمصرع قاديم اسبوع ، وها هي تقع في اسوأ من الخيانة . . . حلمت برجل لم يكن حبيبها . . . ان ذلك الالماني قد قتل بالطبع ، كان ضابط احتياط . قتل ، قتل . . . كلهم ماتوا ، كل شيء هلك ، ودمر ، وتلاشى كتلك الليلة على السطيحة في المتنزه ، فوق البركة ، اختفى بلا عودة .

زمت كاتيا شفتيها حتى لا تئن ، واغمضت عينيها ، وانقدت الى صدرها لوعة حادة . . . كان في العربة القذرة المضاءة

بشمعة شاحبة الضوء غير كثير من الناس . وكانت ظلال سوداء ساهرة تتقلب عاكسة يدا مرفوعة او لحية شعثاء او قدمين حافيتين متدليتين من التخت الاعلى . لم ينم احد رغم ان الساعة متاخرة . وكان الركاب يتحدثون باصوات خفيضة .

– اقول لك ان هذه المنطقة اسوأ المناطق . . .

– وماذا ؟ هل من المعقول انْ لا امن هنا ايضا ؟

– انا اعتذر ، ما هذا الذي تقوله ؟ هنا ايضا ينهبون . هذا غريب ، فماذا يفعل الالمان ؟ انهم ملزمون على حراسة المسافرين . . . ما داموا قد احتلوا البلاد وجب عليهم المحافظة على النظام .

– اعذروني ، يا سادة ، على التعبير الخشن ، ولكن الالمان يبصقون علينا . . . انهم لا يريدون ان يتدخلوا في شؤوننا ويريدون ان ندبر شؤوننا بانفسنا . . . نعم ، ان اللصوصية والنهب في دمنا . . . الناس اوغاد . . .

رد على ذلك صوت واثق :

– يجب ان يشطب على كل الادب الروسي ويحرق في العالم باسره . . . ان الكتاب قد صوروا الناس بصورة جميلة . . . وربما لا يوجد رجل نزيه في كل روسيا . . . اتذكر انني كنت في فنلندة ، وتركت نعالي في الفندق . . . فارسلوه اليَّ مع رجل على فرس ، بينما النعال مثقوبة . . . هذا شعب نزيه . ما اشد تنكيلهم بالشيوعيين ، وبالروس بشكل عام . في مدينة «آبو» بعد قمع الانتفاضة احرق الفنلنديون وعذبوا رئيس الحرس الاحمر هناك . وكان يسمع صراخ هذا البلشفي الفنلندي حتى من وراء النهر .

– آوه ، يا آلهي ، حتى يكون عندنا نظام ما . . .

– اعذروني . كنت في كييف . . . مخازن فاخرة ، وموسيقى في المقاهي . . . والسيدات يخرجن علنا وهن يتحلين بالالماس ، حياة دافقة . . . ومصالح شراء الذهب وغيره تعمل جيدا جدا . . . وتزدهر حياة الشارع . . . مدينة رائعة . . .

– قطعة قماش للبنطلون تساوي رواتب نصف عام . المضاربون اطبقوا على خناقنا . . . جميعهم ذوو جباه عالية ، وجميعهم في بدل زرقاء من الجوخ . . . يجلسون في المقاهي يتاجرون بالفاتورات . . . خرجت في الصباح فلم اجد في المدينة علبة كبريت ،

وبعد اسبوع صارت العلبة بروبل . او خذوا الابر مثلا . اهديا لزوجتي في عيد ميلادها ابرتين وبكرة خيوط . وفي الماضي كنت اهدي اقراط الماسية . . . والمتقلون يهلكون ، يشرفون على الموت . . .

– يجب ان يُرمى المضاربون بالرصاص بدون شفقة . . .

– ايها السيد الرفيق ليس عندنا بلشفية . . .

– ما هي اخبار كييف ؟ هل حكم الهيتمان قوي ؟

– ما دام الالمان يسندونه . يقولون طلع مدع آخر باوكرانيا هو فاسيلي فيشيفاني . انه امير من هابسبورغ ، ولكنه يلبس الملابس الاوكرانية .

– يا مواطنون حان وقت النوم ، حبذا لو اطفأتم الشمعة .

– كيف تطفئ الشمعة ؟ اننا في عربة قطار . . .

– بهذا الشكل آمن . . . كل النوافذ ترى من الخارج ، تتراءى .

صمت ركاب العربة فجأة . وتناهت ضربات العجلات على السكة بوضوح اشد . وتطاير الشرر من القاطرة في ظلام السهب . ثم بح صوت بحنق شديد :

– من قال : «اطفئوا الشمعة» ؟ (صار الصمت متحوسا .) اذن «اطفئوا الشمعة» ، بينما هو يمد يده الى الحقائب . ولوثني على القائل ، وسالقيه من العربة .

اخذ احدهم يصرف باسنانه بضجر . وقال صوت يثير الهلع :

– عندما كنت مسافرا في الاسبوع الماضي سرقوا من امرأة صرتين بالخطاف . . .

– كانوا من جماعة ماخنو بالتاكيد .

– جماعة ماخنو لا يلوثون ايديهم بصرتين فقط . يمكن ان يسرقوا قطارا بكامله . هذا ما يفعلونه .

– يا سادة ، لا يجوز ذكرهم في الليل . . .

جرت احاديث احدها افظع من الآخر . . . وذكرت حكايات تبث القشعريرة في الجلد . وظهر ان الاماكن التي كان يسير القطار فيها الآن غير متعجل اشد اوكار قطاع الطرق خطرا ، يتحاشاها حتى الالمان وحتى الحرامي نزلوا في المحطة السابقة . . . وفي القرى يتبختر الفلاحون بمعاطف السمور ، والفتيات بالحرير والمخمل ،

الملعنة ! لا يمضي يوم دون ان يحدث حادث : إما انهم يطلقون النار على قطار من رشاشة ، او يفكون العربات الاخيرة ، ويسرحونها ، او يفتح الباب فجأة والقطار يسير في كامل سرعته ، ويدخل رجال ملتحون يحملون الفؤوس والبنادق المقطوعة المواسير قائلين : ارفعوا ايديكم ! ويتركون الروس كما ولدتهم امهاتهم . اما اذا وقع يهودي في اليد . . .

– يهودي ؟ ما علاقة اليهودي هنا ؟ لماذا اليهودي مذنب في كل شيء ؟ . .

زعق رجل حليق في بدلة زرقاء من الجوخ ، هو نفس الرجل الذي اعلن اعجابه بكييف .

ومن هذا الزعيق تكثف الرعب كليا . هدات الاصوات . واغمضت كاتيا عينيها من جديد ، لا شيء يسرق منها الا الخاتم الزمردي . الا ان رعبا مرهقا قد استولى عليها ايضا . ولكي تتخلص من اضطراب القلب المزعج حاولت ان تتذكر ثانية سحر تلك الليلة التي لم تتم . ولكنها لم تسمع غير قرقعة عجلات القطار في الخواء الليل . . . كاتيا ، كاتيا . . . انتهى ، انتهى كل شيء . . .

. . . توقفت العربة بحدة ، وكأنها وقعت في زقاق مسدود . وزعقت الفرامل زعيقا حديديا ، وصلصلت السلاسل ، ورن الزجاج ، وسقطت بعض الحقائب من التخت الاعلى . والغريب ما في الأمر ان احدا لم يتفوه منه حتى آنة . قفز الركاب من اماكنهم وحدقوا ، وتسمعوا ، وكان واضحا بدون كلام ان مأزقا قد وقع .

صدرت في الظلام طلقات بنادق . وتحرك الرجل الحليق ذو بدلة الجوخ في العربة وغاب واختفى . ووراء النافذة تراكض الناس فقد السكت تماما . ترامت اصوات طلقات والتمعت نارها في العيون ، وضربت فرقعتها في الآذان . . . وصاح صوت رهيب : «لا تطلوا من النوافذ !» وانفجرت قنبلة يدوية . وارتجت العربة . وراحت اسنان الركاب ترتعد ارتعادا شديدا . وصعد اشخاص الى فسحة العربة ، وضربوا الباب باخامص البنادق . ودخل زهاء عشرة رجال متدافعين يلبسون قبعات فراء الاغنام ملوحين بالقنابل اليدوية وبنادقهم تضرب بعضها ببعض . وكانت الانفاس تتردد مسموعة في الصدور .

– اجمع الاشياء ، واخرج الى الحقل .

— تحرك الشطط ، والا . . .

— ميشكا ، فجّر البرجوازيين بقنبلتك اليدوية . . .

تحرك المسافرون . اندفع شاب اشقر ذو وجه شاحب خبيث الى الأمام بكل جرمه ، ورفع قنبلة يدوية ، وجمد لحظة وذراعه مرفوعة . . .

ترددت اصوات : نخرج ، نخرج ، نخرج .

وخرج المسافرون من العربة ولم يعودوا يحتجون ولا ينطقون بكلمة واحدة . كان بعضهم يحمل حقيبة ، وبعضهم لم يحمل غير مخدة او سخان شاى . . . بل وابتسم احدهم ، وهو رجل ذو نظارة انفية ، ولحية صغيرة مائلة الى جانب ، شاقا طريقه بين قطاع الطرق .

كان الليل طريا ، والنجوم تتداح فوق السهب مثل غطاء فاخر . جلست كاتيا ، ومعها صرتها ، على كومة من العوارض الخشبية المتهرئة . ما داموا لم يقتلوا راسا ، فانهم لن يقتلوا الآن . واحست بوهن شديد ، وكانها قد افاقت من غيبوبة لتوها ، وفكرت : «وهل هناك فرق فى ان اجلس هنا على العوارض او اجوب يكاترينوسلاف وليس معى قطعة خبز . . .» وكانت تحس ببرد فى كتفيها . تثاءبت . فى العربة سنحب فلاحون اشداء الحقائب من الرفوف ، وقذفوها من النوافذ . حاول ذو النظارة الانفية ان يصعد المتحدر متجها الى العربة .

— يا سادة ، يا سادة ، عندى اجهزة فيزياوية هناك ، بحق الرب على مهل ، فانها سريعة الكسر .

اسكته بعضهم ، وامسكوا مشمعه من الخلف ، ودفعوه الى حشد الركاب . وفى تلك اللحظة انطلقت من الظلام كوكبة من الخيالة فى قعقعة وكبكبة . اندفع امامهم على بعد امتار رجل قوى بشكل مذهل فى قبعة عالية متوثبا على سرجه . تراجع المسافرون . توقفت الكوكبة عند العربة وافرادها يرفعون ايديهم بالبنادق والسيوف . صاح الرجل القوى ذو القبعة العالية بصوت رنان :

— بلا خسائر ، يا فتيان ؟

ردت اصوات :

— لا ، لا . . . نحن نفرغ الحمولة . . . ارسل لنا العربات .

استدار الرجل القوى ذو القبعة العالية بحصانه ، ودخل حشد المسافرين ، وأمر متلاعبا بحصانه حتى ان الزبد تطاير من بوز الحصان فى عيون المسافرين المحلقة رعبا :

— اخرجوا هوياتكم . لا تخافوا . انتم تحت حماية جيش الأتمان ماخنو الشعبى . نحن لا نرمى غير الضباط والجندرمة—ورفع صوته مهدد— والمضاربين باقوات الشعب .

ومرة اخرى تقدم الرجل ذو المشمع ، وعدل نظارته الانفية .

— اعذرونى . يمكننى ان اقدم لك كلمة شرف على انه لا يوجد بيننا الاصناف التى ذكرتها من الناس . . . لا يوجد غير اناس بسطاء مسالمين . . . اسمى اوبروتشيف معلم فيزياء . . .

قال الرجل القوى ذو القبعة بلهجة تعنيف :

— معلم ، معلم . وتتعامل مع مختلف الاوغاد . تنح جانبا . يا فتيان ، لا تمسوه ، انه معلم .

جلبت الشمعة من العربة . وبدا التدقيق فى الهويات . حقا لم يكن فى الجمع ضابط ولا جندرمة . كان الرجل الحليق ذو بدلة الجوخ يتحرك مشغولا اقرب الناس الى الشمعة . . . ولكنه لم يكن الآن فى بدلة الجوخ ، بل فى سترة فلاحية مهلهلة ، وقبعة جندى ذات حافة تالفة . ولم يكن مفهوما اين حصل على كل ذلك . لعله وضعها فى حقيبته . كان يربت على اكتاف اللصوص بمودة .

— انا مغنٍ . سعيد جدا بالتعرف عليكم ، ايها الاصدقاء . الفنانون يجب ان يعرفوا الحياة ، وانا فنان . . .

وسعل متنظفا حنجرته حتى قال له احدهم بغموض :

— سيعرفون اى فنان انت ، فلا تفرح قبل الاوان . . .

جاءت العربات على عجلات مغلفة بالحديد . القى الماخنوويون فيها الحقائب والسلال والصرر ، وصعدوا على الأمتعة ، وصفر السواقون على الطريقة السهبية ، وانطلقت خيول «الترويكا» الشبعى ، واختفى طابور العربات فى السهب فى صفير وقرقعة .

انطلقت كوكبة الخيالة ايضا . وكان بعض الماخنوويين يسير حول العربة . عندئذ اختار المسافرون وفدا بطريقة رفع الايدى البسيطة ليطلبوا اذنا من اللصوص بمواصلة السفر . تقدم الشاب الاشقر محملا بالقنابل . كانت خصلة الشعر البارزة من حافة قبعته

تغطي على عينه ، بينمـــا كانت العين الاخرى الزرقاء تنظر بصفاء ووقاحة .

سال وهو يتمعن في كل موقد من راسه الى اخمص قدمــه :

— مـــا هذا ؟ الى اين تسافرون ؟ وفي اي واسطة ؟ آه ، يا حمقى . . . سائق القطار قد نزل من القاطرة هاربا في السهب وهو الآن على بعد عشرة فراسخ . وانا لا استطيـع ان اتركـكم في الليل هنا ، فمـــا اكثر المتسكعين هنـــا في السهب . . . ايهـــا المواطنون ، اسمعوا امرى . . . (ونزل من منحدر السدة ، وعدل من حزامه الثقيل - وهبط نحوه الآخرون ، ملقين بنادقهـــم وراء ظهورهم) ايها المواطنون ، اصطفوا اربعة اربعة . . . واذهبوا مع حاجياتكم في السهب . . .

ولما مر بكاتيا انحنى نحوها ومس كتفها قائلا :

— يا فتاة . . . لا تحزني ، لن نسيىء اليك . . . خذي صرتك وسيرى الى جانبي خارج الصف .

سارت كاتيا في السهب المنبسط ، وصرتها في يدها ، وقد انزلت منديلهـــا حتى حاجبيهـــا . كان الشاب الاشقر يسير الى يسارهـــا ناظرا من خلال كتفـه الى جمع الاسرى السائرين في جمع حزين صامت . كان يصفر صفيرا خافتـــا من بين اسنانه . سأل كاتيا :

— من انت ؟ ومن اين ؟

لم تجب كاتيا ، وادارت وجهها . الآن لم تعد تشعر برعب ولا اضطراب ، بل بلا اكتراث فقط . بدا كل شيء لها وكأنه سنة من نوم . اعاد الشاب سؤاله من جديد .

— اذن ، فانت لا تريدين ان تحطي من نفسـك بالتحدث مع قاطع طريق . مؤسف جدا ، يا سيدة ، يجب ان تنزلي من غرورك الارستقراطي . ولى ذلك العهد . . .

التفت ونزع فجأة بندقيته من كتفه ، وصاح بخبث على شخص غير واضح كان يسير متزويا عن الاسرى :

— هاى ، يا وغد ، لتتاخر . . . سارميك !

اندفع الشخص داخل الجمع بسرعة . فضحك الشاب راضيا ،

— والى اين سيهرب هذا الاحمق ؟ يبدو انه يريد ان يقضي حاجـــة . هكذا اذن ، ايتها السيدة . . . لا تريدين ان تكلميني ، وتصمتين ، شيء افظع . . . لا تخافي . لست سكران . عندما اسكر اصمت ويسوء سلوكي . . . لنتعارف — ورفع اصبعين الى حافة طاقيته محييا — انا ميشكـــا سولومين . الهارب من الجيش الاحمر . . . وبالاحرى قاطع طريق بطبيعته ، اذا اردت الحقيقة . رجل فاسد . لم تخطئي في وصفي . . .

سالت كاتيا :

— الى اين ذاهبون ؟

— الى مقر الفوج في القرية . نتحقق منكـــم ، ونستجوب . البعض سيرمى ، والآخر سيطلق سراحه . وانت ، كامرأة شابـة ، لا حاجة الى ان تخافي من شيء . . . وفضلا عن ذلك ، فانا معك .

— ارى انك اكثر ما يجب ان اخافه .

قالت كاتيا ، والقت نظرة جانبية خاطفة على الشاب ، ولم تتوقع ان تلذعه هذه الكلمات على هذا النحو . فقد توتر ، وتنهد تنهدات حادة من منخريه ، وتعبس وجهه الطويل الشاحب في ضوء النجوم . وهمس «كلبة» ، وسارا صامتين . لف ميشكا لفافة اثناء سيره ، وراح يدخن .

— انا اعرف من انت ، ولو كنت ستنكرين . انت من فئة الضباط .

قالت كاتيا :

— نعم .

— زوجك في عصابات البيض ، بالطبع .

— نعم . . . زوجي قتل . . .

— لا استطيع ان اضمن لك انه لم يصرع برصاصتي . . .

وابدى اسنانه — القت كاتيا نظرة سريعة عليه ، وتعثرت ، اسندها ميشكا من مرفقها . فكت ذراعها من قبضته ، وهـــزت رأسها .

— انا من جبهة القفقاس . ولم يمض علىّ هنا غير اربعـة اسابيـع ، طوال الوقت كنت احارب عصابات البيض . وكـــم من

رصاصة انفلت من هذه البندقية في عظامهم الزرقاء .

هزت كاتيا رأسها مرة اخرى . سار الشاب بعض الوقت صامتا ، ثم راح يضحك وقال :

– ثم وقعنا في مأزق حرج عند محطة اومانسكايا . ولمزق فوجنا ، فوج فارنافسكي ، قتل مفوض الفوج سوكولوفسكي ، ومضى آمر الفوج سابوجكوف مع حفنة من المحاربين قدما ، وجميعهم جرحى جراحا عديدة ... وتنقلت انا خلال الجبهة الالمانية الى الالمان . هنا الجو امرح . لا احد يقف فوقي . جيش شعبي ، نحن انصار ، يا سيدة ، ولسنا قطاع طرق . نحن نختار آمرينا بانفسنا ... ونتخلص منهم بانفسنا : نمسك بالمسدس ونضرب ... شخص واحد فوقنا هو الالمان ... اتظنين اننا نهبنا القطار لنصرف ما كسبناه على الخمرة ؟ لا ، ابدا . كل الغنائم الى مقر الفوج . وهناك يجرى التوزيع . قسم الى الفلاحين ، وقسم الى الجيش . والقطار هو قاعدة تموينا . نحن جيش شعبي ، يعني ان الشعب نفسه في حالة حرب مع الالمان . تلك هي المسألة . نحن نفتك بملاكي الاراضي ، ومن الخير للجندرمة وضباط الهيتمان الا يقعوا في قبضتنا ، نقضي عليهم بالسلاح البارد . اننا ندفع فصائل الشمساويين والالمان الصغيرة نحو يكاترينوسلاف . ها هو جوهر لصوصيتنا .

كانت النجوم في السهب تبدو بلا نهاية ، وفي الطرف الذي كانوا يتجهون اليه من الافق بدات السماء تخضوضر قليلا . كانت كاتيا تتعثر اكثر فاكثر ، وتسمك انفاسها . اما ميشكا فكان لا يضايقه شيء ، يستطيع ان يقطع الف فرسخ على هذا المنوال ، والبندقية على كتفه . كانت كاتيا تهتم الآن في شيء واحد : الا تبدى ضعفا ، والا تدع هذا المتباهي المتبجح يشفق عليها ...

– كلكم على حد السواء !

وتوقفت ، وعدّلت من وضع منديلها لتلتقط انفاسها ، وسارت من جديد على الافسنتين وجحور الصوالق :

– نحن ، النساء تلد ابناءنا ليقتلوهم لا يحق لاحد ان يقتل ، وهذا كل ما في الأمر .

قال ميشكا دون ان يفكر لحظة واحدة :

– سمعنا هذه الاغنية ، اغنية النساء القديمة . ومفوضنا يشرح المسألة كالآتي : «انظروا الى الامر من وجهة النظر الطبقية ...» عندما تصوب البندقية فانك لن تتصور ان امامك انسانا بل ظاهرة طبقية . مفهوم ؟ لا مجال للشفقة هنا ، ان ذلك عداء للثورة محض . وهناك مسألة اخرى ، ايتها العزيزة ...

وتغير صوته فجأة بشكل غريب . صار خافتا وكأنه يستمع الى كلماته :

– لن اقضي العمر كله اسير في الجبهات ببندقيتي . يقولون ان ميشكا ، رجل ضائع ، سكير ، ستنتهي به الحال الى حفرة . صحيح ، ولكن ليس تماما ... لست مستعجلا على الموت . بل لا ارغب في ذلك البتة ... لم تصنع ، بعدُ ، الرصاصة التي ستقتلني .

وازاح خصلة الشعر من على جبينه .

– ما هو الانسان الآن ؟ معطف عسكري وبندقية ؟ لا ، ليس كذلك ... ما اكثر ما اود ان اريده في هذه الدنيا ! ولكنني لا اعرف بنفسي ما اريد ... وافكر : كومة من الفلوس ؟ لا . ان الانسان في داخلي يتعذب ... ولا سيما في وقت كهذا – ثورة ، وحرب اهلية . انني ابرئ رجل ، وانا المعذب من البرد ، ومن الجراح في سبيل طبقتي ومن وعي ... في آذار كان عليّ ان استلقي اصف نهار في حفرة ثلج تحت نيران رشاشة اثناء ثورة الخفارة ، الا يعني ذلك انني بطل ازاء الجبهة ؟ ومن انا ، بيني وبين نفسي ؟ مشبع بالكحول ، وحانق على نفسي والسكين اخرجه من وراء حذائي ...

وانتصب ميشكا مرة اخرى مستنشقا هواء الليل الطري . وبدا وجهه حزينا ورقيقا تقريبا . حشر يديه عميقا في جيبي معطفه ، وصار لا يتحدث الى كاتيا ، بل وكأنما الى ظل يسري امامه :

– تعليم ... اعرف وقد سمعت به ... انا رجل متوحش ... اولادي سيكونون متعلمين . اما انا الآن في حالتي الراهنة وبخلقي وعاداتي فانا شرير ... في ذلك موتي ... نحن

المتقفين لكتب الروايات . ما اكثر الكلمات الطريفـــة . ولكن لماذا لا يكتبون رواية عني ؟ أتظنين ان المثقفين وحدهم يخرجون عن اطوارهم ؟ انا في النوم اسمع صياحا ... فاستيقظ ، مستعدا لان اقتل مرة ثانية ...

طلع من الظلام فرسان صارخين من بعيد : «قف ، قف ...» نزع ميشكا بندقيته ، «قف ، يا ابن ا .. لا تعرف جماعتك !!» ترك ميشكا كاتيا ، وسار نحو الفرسان ، وتشاوروا هناك طويلا .

وقف الاسرى ، وتهامسوا هامسين . جلست كاتيا على الارض ، والزلت راسها على ركبتيها . ومن الشرق ، حيث كان الفجـــر يخضوضر بوضوح اشد انبعثت رطوبـــة ودخان روث محترق ، ورائحة ترية .

بدات نجوم ذلك الليل الذى لا ينقضي تشحب وتغور ، ومرة اخرى كان على كاتيا ان تنهض وتسير . وبعد قليل اخذت الكلاب تنبح ، وظهرت اكداس القش وشواديف الآبار ، وسقوف البيوت . ولاح الاوز النائم في المرج كقطع من الثلج ، وانعكس الفجـــر الوردى على سطح بحيرة . اقبل ميشا عبوسا :

– لا تذهبي مع الآخرين ، سانزلك في بيت على حدة .

قالت كاتيا «حسنا» وكانما تسمعه من بعيد . ولم يكن يهمها اين تذهب . فقط ان تتمدد ، وتنام ...

رات من خلال جفنيها المسبلين زهور عباد شمس كبيرة ، ووراءها صفاقات خضر رسمت عليهـا زهور وطيور . نقر ميشكا باظافره على زجاج النافذة الصغيرة المحبب . وفتح الباب ببطء في جدار البيت الابيض ، واطل راس فلاح أشعث . ارتفع شارباه الى فوق ، وتثاءب فمه مبديـــا اسنانا كبيرة . وقال : «حسنـــا ، ادخل ...»

دخلت كاتيا البيت وهي تترنح ، وكان الذباب يطن فيـــه مذعورا . اخرج الفلاح فروة خروف ومخدة من وراء حاجز وقـال «نامي» ، ومضى . وجدت كاتيا نفسها على السرير وراء الحاجز ،

خيل اليها ان ميشكا انحنى عليها ، وعدّل من وضع المخدة تحت راسها . كان استغراقها في الغيبوبة لذيذا جدا ...

... ترقعة العجلات . ظلت تقرقع وتدمدم . سارت عربات خيول عديدة . والشمس انعكست خلفها على نوافذ بيوت شامخة . سطوح قرميدية نصف دائرية . باريس . مرت عربات فيها نساء انيقات . الجميع يصرخ بشيء ما ، ويتقلب ، ويومئ ... النســاء يلوحن بمظلات مدلتلة ... وتصبح العربات اكثر فاكثر . يا آلهي ! هذه مطاردة ... في البولفارات في باريس ! هذه هي . ظلال هائلة على خيول شعثاء في الفجر المخضوضر . لا تستطيع ان تتحرك او تهرب ! كركبة حوافر ! صيحات ! وضيق نفس ! ..

... جلســت كاتيـــا على السرير . هدرت عجلات وصهلت خيول وراء النافذة . ومن خلال باب الحاجز غير المحجوب بستارة رات الناس يدخلون ويخرجون مدججين بالاسلحة ، وسمعت طنين اصوات في البيت ودمدمة احذية . وعند المنضدة تزاحم كثيرون يتفحصون شيئا عليها ، وتطلقت كلمات قوية . وكان النهار قد طلع ، وتفذت بعض الاشعة الداخنة من خلال النوافذ الصغيرة الى دخان التبغ الازرق الكثيف في البيت .

ولم يلتفت احد الى كاتيا . عدلت ثوبها وشعرها ولكنهـا بقيت جالسة في السرير . الظاهر ان قوات جديدة دخلت القرية . وكان واضحا من الدوى المقلق للمتزاحمين في البيت انهم يعدون لشيء جدي . صاح صوت حاد متأنٍّ في نبرة نسائية وبلهجة آمرة :

– لياخذه الشيطان ! استدعوا هذا الوغد !

وترامت اصوات وهتافات من البيت الى الفناء والشـارع ، حيث كانت تقف عربات بخيولها الثلاثية ، وخيول مسروجـــة ، وتجمعات جنود وبحارة وفلاحين مسلحين .

– بتريتشينكو ... اين بتريتشينكـــو ؟ ... اجير في اثره ...

– اجير انت ، ايها الخنزير السمين ... يا اخ ، نـــاد العقيد ... ولكن اين هو ، عليه اللعنة ؟ ... انه هنا ، سكران نائم على عربة ... الق عليه جردلا من الماء ... اسمع ، اذهب الى البئر بجردل – لا تستطيع ايقاظ العقيد ... يا اخوان لــــن

تورطه بالماء ، بل اطلر يوزه بالقطران ... صحا ، صحا ... قل له : الاثمان ساخط ... انه قادم ... قادم ...

ودخل الى البيت نفس الرجل الضخم ذو القبعة العالية ، ونام قبل ذلك الحين ، على ما يبدو ، نوما عميقا ، حتى كان من الصعب ان ترى عيناه المتنفختان في وجهه المحمر المضروب ... شق طريقه الى المنضدة وهو يدمدم ، وجلس .

صاح صوت عال صارف متلعثم :

– ما هذا ، يا وغد ، تخون الجيش ! اشتروك !

– ماذا ؟ غفوت وكفى .

لغط العقيد بصوت اجش عميق ، وكأنه خارج من تحت برميل .

غمغم الصوت المتقطع :

– انت ... انت ... سهوت عن الالمان اثناء نومك .

– كيف ذلك ؟ لم اسه عن شيء .

– اين نقاط حراستك ؟ سرنا طوال الليل ولم نجد نقطة واحدة ... لماذا الجيش في المصيدة ؟

– ما هذا الصياح ؟ لا احد يعرف من اين جاء الالمان ... السهب كبير ...

– الذنب يقع عليك ، يا حقير .

– حذار ...

– مذنب !

– لا تمسك بي !

وعم السكون البيت فجأة . ابتعد الواقفون عن المنضدة . صارع رجل لاهث الانفاس . وارتفعت يد بمسدس . تشبثت بها عدة ايد . وصدرت طلقة . صمت كاتيا اذنيهـــــا ، واسرعت في الارتماء على المخدة . تساقط نثار الجص من السقف . ومن جديد تعالت اصوات ، ولكن بمرح هذه المرة . نهض العقيد بتريتشينكو وهو يكاد يمس سقف البيت بقبعة من فراء الاغنام ، وخرج الى الشارع بمظلة مع جمهرة من الرجال .

بدأت حركة وراء النافذة . ركب المتمردون خيولهم ، وتحركوا في عربات . وفرقعت سياط ، وزعقت محاور ، وارتفع ســـــــاب

فاحش . وخلا البيت . وعندئذ ادركت كاتيا لماذا لم تستطع حتى ذلك الحين ان ترى الذى كان يصرخ بصـــــوت تسالى آمر . كان رجلا ضئيلا جالسا الى المنضدة ، وظهره الى كاتيا واضعا كوعيه على خارطة .

كان شعره السبط الكستنائى الطويل يسقط على كتفيـــه الضيقين مثل كتفى غـــــلام . وكانت سترته من الجوخ الاســــود مشدودة بحزامين متصالبين ، وخلف الحزام الجلدى مسدســـــان وسيف . وكانت رجلاه المرتديتان حذاء طويلا انيقا مــــع مهماز متصالبتين تحت المنضدة . كان يكتب بعجالة ورأسه يهتز فيجعل شعره المدهون يتدلى على كتفيه ، والحبر يتناثر من تحت ريشته ، وينشق الورق .

من الفناء دخل الفلاح الذى تنازل لكاتيا عن فراشه . دخل بحذر .

كان وجهه ورديا مستعطفا . وفي شعره بعض القش . جلس رامشا بخلة على المسطبة قبالة الرجل الذى كان يكتب ، ووضع تحت فخذيه كلتا يديه ، وحك قدمه الحافية بالاخرى .

– كل الوقت مشغول ، يا نستور ايفانوفيتش ، بينمـــــا ظننت انك ستبقى للغداء . بالامس ذبحنا عجلا ، وكان قلبى قد اعلمنى انك ستأتى ...

– لا وقت لدى ... لا تعيقنى ...

– طيب ... (وصمت الفلاح برهة ، وكف عن الرمش ، وصارت عيناه ذكيتين ثقيلتين . تابع بهما يد الكاتب بعض الوقت) الآن ، يا نستور ايفانوفيتش ، لا تنوى ان تدخل في معركـــــة في قريتنا ؟

– حسب الظروف ...

– نعم ، القضية حربية ... ولكننى افكر فقط في انه لو تحصل معركة هنا ينبغى ان تدبر امر الماشية ... هل نسوقها الى المزارع ؟

القى الرجل الطويل الشعر قلمه ، وحشر يده الصغيرة في شعره ، وهو يقرأ ما كتبه . حك الفلاح لحيته وما تحت ابطه لحكهما . وقال وكأنه تذكر لتوه :

– نستور ايفانوفيتش ، كيف تتصرف بالقماش ؟ لقد ضمدت الجرح وهو جيد ، انه جرح ميرى عرضة للانظار . . . انهما ستة عربات .

– قليل عليكم ؟ لم تشبعوا ؟ قليل ؟

– ليس بالقليل ، ولا تعرف كيف نشكرك عليه . . . انت تعرف اننا ارسلنا اربعين مقاتلا من القرية اليك . . . وذهب ابنى ايضا ، قال لى ان عليه التضحية بالدم فى سبيل قضية الفلاحين . . . واذا كان قليلا خرجنا نحن الشيوخ الى المعركة . . . حارب وستلقى المساعدة منا . . . اما قضية القماش ، فاذا هاجمنا الالمان ، لا قدر الله ، او الجندرمة . . . فانت تعرف تنكيلهم . اذن هل يوجد شك فى المعركة ام لا ؟

انتصب ظهر الرجل الطويل الشعر . واخرج يده من شعره ، وامسك بحافة المنضدة . وكانت انفاسه تتردد مسموعة . مد راسه الى الوراء . فتراجع الفلاح عنه على المصطبة بالحذر ، واخرج يديه من تحته ، وخرج من البيت خلسة .

ترنح الكرسى فدفعه طويل الشعر عنه بساقه . واخيرا رات كاتيا ، وهى ترتعش ، وجه هذا الرجل الضئيل ببزته السوداء تصف العسكرية التفصيل . كان يبدو مثل راهب متنكر . تطلعت الى كاتيا عينان بنيتان متفرستان محتدتان من محجريين تحت حاجبين قويين . كان وجهه مجدرا بعض الشىء مصفرا حسن الحلاقة نسائيا فيه شىء ينم عن عدم النضوج والضراوة مثل وجه غلام . كل شىء ، ما عدا العينين ، الهرمتين الذكيتين .

ولو كانت تعرف انها امام الاتمان ماختو لارتعشت اكثر . كان ماختو ينظر الى امراة شابة جالسة على السرير فى حذاء مترب ، ورداء حريرى مدعوك ما زال انيقا ، وقد شدت راسها كالفلاحات بمنديل داكن ، غير قادر على ان يعرف مَنْ" هذا الطائر الذى دخل عنده . انفرجت شفته العليا الطويلة عن ابتسامة هازئة كشفت عن اسنان متفرجة . وسال باقتضاب وحدة :

– من انت ؟

لم تفهم كاتيا فهزت راسها . غادرت الابتسامة وجهه وصار بشكل جعل شفتيها ترتجفان .

– من انت ؟ موسى ؟ اذا كان فيك سيفلس سارميك بالرصاص ؟ هل تعرفين الكلام بالروسية ؟ مريضة ؟ ام بصحة ؟

قالت كاتيا بصوت لا يكاد يسمع :

– انا اسيرة .

– ماذا تعرفين ؟ هل تعرفين تقليم الاظافر ؟ سنعطيك الادوات . . .

اجابت بصوت اخف :

– حسنا .

– ولكن لا تنشرى الفسق فى الجيش . . . فهمت ؟ ابقى ، عندما اعود مساء بعد المعركة ، وتنظفى الاظافر .

كان الكثير من القصص يدور بين الناس حول الاتمان ماختو . فكان يقال انه حاول عدة مرات ، بينما كان يقضى الاشغال الشاقة فى سجن اكاتوى ، ان يهرب وهرب ، ولكنه اصطيد فى سقيفة لخزن الحطب فحارب الجنود بفأس . وقد حطمت كل عظامه باخامص البنادق وصفد بالسلاسل ، حيث ظل فيها ثلاثة اعوام ، صامتا كابن عرس محاولا ليلا ونهار ان ينزع الاصفاد الحديدية عنه بلا نجاح . وفى السجن تعرف على الفوضوى ارشينوف-مارين وصار تلميذا له .

كان نستور ماختو ابن تجار من قرية غولاى-بوله من منطقة يكاترينوسلاف . وقد تعود على الضرب منذ ان كان صبيا يعمل فى دكان لبيع السلع الصغيرة ، وكان آنذاك يدعى «ابن عرس» لشراسته وعينيه البنيتين . وقد طرد وهو صبى حين سكب – بعد جلده – على كبير مساعدى صاحب الدكان ماء فائرا . وقد جمع له شرطة صار يسطو بها على مزارع الفرعيات والبساتين ، ويبدى شقاوة ويعيش على هواه حتى اعطاه ابوه الى مطبعة . وقيل ، هناك رآه الفوضوى فولين الذى صار بعد ثمانية عشر عاما رئيس اركان لدى ماختو والرأس المفكر فى جميع الاعمال . وقد اعجب به فولين فى صباه فصار يلقنه مبادئ" التعليم والفوضوية ، وارسله الى مدرسة فصار ماختو معلما ، الا ان ذلك غير صحيح ، اذ لم يكن ماختو معلما قط ، والاصح من ذلك انه عرف فولين فيما بعد وقد تعرف على الفوضوية عن طريق ارشينوف اثناء السجن .

ومنذ عام ١٩٠٣ عاد ماخنو الى تصرفاته السابقة من جديد في غولاي-بوله ، ولكن لا على نطاق مزارع القرعيات والبساتين بل على ضياع الاعيان واهراء الباعة . مرة يسرق الخيول ، واخرى ينهب الاقبية ، وثالثة يكتب المذكرات للباعة يأمرهم بوضع نقود تحت حجر . وكانت له في ذلك الوقت صداقة سكر غريبة مع البوليس .

وصار ماخنو مرهوب الجانب ، الا ان الفلاحين لم يشوا به . لان مضايقاته لاصحاب الاطيان اخذت تشتد كلما اقترب الزمن من ثورة ١٩٠٥ . وحين بدأت الضياع تحترق اخيرا ، واضحى الفلاحون يزرعون اراضي الاعيان انسل ماخنو الى المدن ليقوم بعمل كبير . وفي بداية عام ١٩٠٦ هاجم مع عصابة من فتيانه بيت المال في بردياسنك ، ورمى ثلاثة من الموظفين ، وقبض على الخزنة ، الا ان رفيقه وشى به ، وارسل الى الاشغال الشاقة في اكاتوى ...

وبعد اثنى عشر عاما ، حين حررته ثورة شباط ظهر في غولاي-بوله من جديد حيث كان الفلاحون يطردون اصحاب الاطيان ويتقاسمون الارض غير مصغين الى اوامر الحكومة الموقتة البوارية . وذكرهم ماخنو بخدماته السابقة فانتخب تاليا لرئيس الادارة المحلية الذاتية في القضاء . واتخذ في الحال لهجا حادا لاقامة «النظام الفلاحي الحر» واعلن في اجتماع الادارة المحلية ان رجال الادارة برجوازيون وكاديت ، وعند احتدام النقاش اطلق النار في الاجتماع على عضو الادارة ، ونصب نفسه رئيسا ومفوضا للمنطقة .

ولم تستطع الحكومة الموقتة ان تفعل شيئا معه . وبعد دخول الالمان ، واضطر ماخنو الى الهرب ، وقضى بعض الوقت يجوب روسيا حتى وصل الى موسكو في صيف ١٩١٨ ، وكانت في ذلك الوقت تعج بالفوضويين . فكان فيها العجوز ارشينوف الذى كان يتابع بعينين حزينتين احداث الثورة التى كان البلاشفة يوجهونها بلعبة من القدر لا يفهمها ، وكان فيها غولين النظرى الجبار واحد اعلام فوضوية — «ام النظام» — الذى لم تعرف لحيته ولا شعره التمشيط ، كما كان فيها بارون الطموح وعديم الصبر وارتين وتيير ويعقوب آل وكراسنوكوتسكي وغلاغزون وتسيتشيير وتشيرتياك وكثيرون آخرون من عظماء الناس الذين لم يستطيعوا ان ينقلوا الى الثورة ، وقعدوا في موسكو بلا نقود وبجدول اعمال

واحد لاجتماعاتهم اليومية : «وضع التنظيم والشؤون المالية» ... وفيما بعد اصبح بعضهم قادة الفوضوية الماخنوية ، والبعض الآخر مشتركين في الانفجار الذى حصل في مقر لجنة موسكو البلشفية في شارع ليونتيفسكي الجانبي .

وليس من شك في ان وصول ماخنو قد اثر في الفوضويين المتراخين في مقاهي موسكو . فقد كان ماخنو رجل عمل ، وصاحب حزم ايضا . ففكروا بان يسافر نستور ايفانوفيتش الى كييف ، ويقتل الهيتمان سكوروبادسكي وجنرالاته .

وعبر الحدود الاوكرانية في بيلينيخين ومعه فوضوي مساعد له بعد ان راوغ المفوض الرهيب سابنكو الذى كان يراقب تلك الطرق بعين يقظة . وتزيا ماخنو بزى ضابط ، الا انه عدل عن الذهاب الى كييف ، فقد شم رائحة السهب الطليقة ، ولم يطب له العمل التآمري . فذهب الى غولاي-بوله رأسا .

في هذه القرية ، مسقط رأسه ، جمع خمسة من الفتيان الموثوقين . وتربصوا في وحدة مسلحين بالفؤوس والسكاكين والبنادق المقطوعة على مقربة من ضيعة صاحب الاطيان رزنيكوف ، وفي الليل سطوا على البيت دون كبير ضجة وذبحوا صاحب الاطيان مع اخوته الثلاثة العاملين في شرطة المنطقة ، واضرموا النار في البيت . وحصل في هذه الغارة على سبعة بنادق ومسدس وخيول واسرجة وبعض بزات الشرطة .

وبعد ان تسلح جيدا وصارت له خيول لم يضيع الوقت واخذ مع خمسته يسطو على الضياع ويحرقها من جهاتها الاربع ، وجمع عصبة وراح ينطلق بجنون من طرف القضاء الى طرفه الآخر منظفا اياه من اصحاب الاطيان . حتى عمد اخيرا الى قضية اشتهر بها شهرة واسعة .

كان ذلك في عيد الثالوث الاقدس ، وكان صاحب الاطيان ميرغوروديسكي احد سلاطين السهب يزوج ابنته لعقيد الهيتمان . وفي يوم العرس قدم بعض الجيران الذين لا يخافون ، في مثل هذا الوقت العصيب ، الجرى على الطريق السهبي . وجاء ضيوف من المحافظة ومن كييف .

وكانت ضيعة ميرغورودسكى تحت حراسة قوية من قبل الشرطة . وقد نصبت رشاشة فى علية البيت . كما ان العريس نفسه جاء مصحوبا برجال فوجه الاشداء بسراويلهم الزرقاء العريضة التى يجب ان تمس اواسطها الارض على العادة القديمة ، ومعاطف من الجوخ القرمزى وطرابيش استراخان لها شرارب مذهبة تكاد تصل الى الحزام . وكانت السيوف المعكوفة تتدلى الى جنبهم جميعا وتضرب باحذيتهم المرفوعة المقدمات من جلد الماعز .

وكانت العروس قد جاءت قبل مدة غير بعيدة من انجلترا ، حيث اكملت تعليمها فى مدرسة داخلية للاوانس ، وتتحدث الاوكرانية بلهجة لا باس بها ، وقد ارتدت الاكمام المطرزة والعقود والاشرطة والحذاء الطويل الأحمر . وكان ابوها قد تسلم من كييف ، وبناء على توصية خاصة ، روبا مخمليا مؤطرا بالفراء ، وهو صورة طبق الاصل للروب الذى كان يرتديه الهيتمان مازيبا فى صورته الشهيرة . لقد كانوا يريدون ان يقيموا زفافا على الطريقة القديمة . ورغم ان شراب العسل المعتق كان من الصعب الحصول عليه فى اوكرانيا الملتهبة فقد كان هناك الكثير منه لمادبة عظيمة .

بعد القداس ساروا بالعروس عبر المتنزه الى الكنيسة الحجرية الجديدة . وكانت اشبينات العروس اللواتى يرافقنها ويغنين الاغانى فى منتهى الجمال . وكانت هى تبدو وكانها طالعة من اغنية فوزانية . حتى قال اشابين العريس ، وهم ينتظرون عند السياج : «يبدو ان عهود اوكرانيا الطيبة قد عادت اليها ...» وبعد عقد القران نثرت على الزوجين حبوب الشوفان . وباركهما الاب اليان فى روبه المازيبى بايقونة قديمة من ميجيغوريه . وشربوا الشمبانيا ، وهتفوا بالانخاب ، وحطموا الاكواب وركب العروسان فى سيارة الى القطار ، وبقى الضيوف ياكلون ويشربون .

هبط الليل على فناء الضيعة الواسع ، حيث كان الخدم والجندرمة يرقصون الرقصات المعقدة . وكانت نوافذ البيت كلها تتالق ببهجة . وكانت الفرقة الموسيقية اليهودية التى جلبت من الكستنتروقستك تعزف بكل قوتها . ورقص الاب اليان رقصة «الهوباك» المجنونة وشرب ماء الصودا . وتشمت الفتيات والسيدات الطراوة فى النوافذ المفتوحة . وعاد اشابين العريس — وجميعهم ضباط

فوزاقيون — الى موائد النواشف من الطعام مصلصلين بسيوفهم مهددين بالذهاب الى موسكو نفسها وقتل الروس الملاعين .

وفى ذلك الوقت ظهر بين الضيوف ضابط قصير القامة فى بزة شرطة الهيتمان . ولم تكن اية غرابة فى ان ياتى شرطى الى الضيعة فى مثل هذا اليوم . دخل متواضعا ، وحيا بانحناءات صامتة ، ونظر صامتا الى الموسيقيين . الا ان بعضهم لاحظ ان البزة كبيرة عليه بعض الشىء ، ثم ان احدى السيدات قالت للاخرى فجاة فى قلق : «من هذا ؟ يبدو مرعبا ! ..» ورغم ان الضابط الغريب كان يحاول ان يخفض بصره ، الا ان عينيه كانتا تلتهبان رغم ارادته ، كعينى شيطان ... ولكن ما اكثر ما يتوهم السكران من اوهام ....

عزف الموسيقيون التانغو بعد رقصات المازوركا والفالس . بدا اثنان او ثلاثة من ذوى القمصان الحمراء ممن ما يزالون واقفين على اقدامهم الرقص مع السيدات . وطلب احدهم اطفاء الاضواء العليا . وفى الضوء الشاحب لاحت النغمات الضعيفة وكانها آتية من اعماق السنين الخوالى . وتراخى الراقصون فى حركاتهم وتهافتوا معبرين عن شهوات الموت .

وعند ذاك انطلقت رصاصة . وجمد حشد الضيوف . وانقطعت الموسيقى . كان ماخنو المتزى بزى ضابط شرطة واقفا وراء مائدة الطعام عند باب مفتوح الى الصف يطلق الرصاص من مسدسين على ذوى القمصان الحمراء . وقع المقدم الأحمر الضخم صديق العريس على المائدة ثقيلا باسطا ذراعيه وقالبا المائدة . ارسلت النساء صيحات زاعقة . حاول آخر ان يستل سيفه ، فعاجلته رصاصة وطرحته على وجهه على البساط ... وهاجم ثلاثة آخرون ماخنو فسقط اثنان منهم فى الحال ، وقفز الثالث الى النافذة وسرخ هناك كالارنب . ظهر فى الباب المقابل رجلان فى بزتى شرطة ايضا شاربان فى مظهرهما تتدلى ناصيتاهما من تحت قبعتيهما ، وفتحا النار على الضيوف ايضا . وركضت النساء من جهة الى اخرى وسقطن . ولم يستطع الاب اليان ان ينهض من مقعده فتقدم ماخنو منه ، واطلق رصاصة فى فمه . وصدرت طلقات فى الفناء ايضا وفى المتنزه حيث راكض الضيوف الذين قفزوا من النوافذ . واستطاع

القليلون الاختفاء في الاجمات وبين نبات الاسل في البركة . وذبح الخدم والجندرمة بالجملة . ثم شد رجال ماخنو الخيول على العربات ، وظلوا حتى الفجر يحملونها الامتعة والسلاح . وطلعت الشمس على الضيعة وهي تحترق .

وتركت هذه الغارة الجريئة اثرا قويا في غولاي-بوليه . وفي ذلك الوقت كان الفلاحون يرزحون تماما تحت الالمان وتحت اصحاب الاراضي العائدين النقمة ، وتحت قمع رجال الشرطة السريعين في تصرفاتهم الوحشية . رفض اصحاب الاراضي تأجير الاراضي الى الفلاحين غير مصدقين بهم ، وطالبوا ليس فقط بمحصول الصيف العالي ، بل وباعادة خسارة العام الفائت من الحبوب . ولم يبق امام الفلاحين الا ان ينوحوا على مصيبتهم . وظهر ماخنو ، واعلن الارهاب . وسرت الشائعات في القرى بان اتامانا قد ظهر .

تشجع الفلاحون . واضرمت النيران في الضياع . واحرقت اكداس القمح في السهوب . وهجمت فصائل الانصار بجرأة على المراكب والصنادل المحملة بالحبوب المنقولة الى المانيا ، وسرت القلاقل الى الضفة اليمنى للدنيبر . وصدرت الاوامر الى القوات النمساوية والالمانية لوضع حد للفوضى . وانتشرت مئات من فصائل التنكيل في البلاد ، وعندئذ بادر ماخنو بمهاجمة القوات النمساوية بفصيلته الصغيرة الحسنة التسليح .

في ذلك الحين لم يكن جيش الاتمان ماخنو كثير العدد . فان نواته الدائمية المتماسكة كانت تتألف من مائتين او ثلاثمائة من الرجال الجسورين . كان من بينهم بحارة من البحر الاسود ، وجنود حاربوا في الجبهة ، وهم ممن لم يستطع لسبب او لآخر الظهور في قريته الاصلية ، والاتمانات الصغار المنضوون تحت لوائه مع فصائلهم ، واناس لا عوائل لهم يحاربون اظهارا لجسارتهم وحبا للحياة المرحة .

وعندئذ انضم الى الجيش فوضويون فرادى هم من يسمون بـ«المحاربين» الذين سعوا بعصابات جديدة تتنقل حرة على خيولها . جاء الفوضويون الى مقر ماخنو على الاقدام مهلهلي الثياب جياعا في احد جيوبهم قنبلة ، وفي الجيب الآخر مجلد كروبوتكين ، وقالوا للاتمان :

– سمعنا انك شخصية عبقرية . فلننتظر !

اجاب الاتمان :

– انظروا .

فقالوا :

– اذا كنت كذلك حقا ، فانك ستصنع صفحات من التاريخ العالمي . الشيطان يعرف ، فقد تكون فجأة كروبوتكين التالي .

اجاب الاتمان :

– جائز .

واخذ الفوضويون يتبعون الاتمان في طابوره ، ويحتسون معه الكحول ، ويقولون له كلمات مدهشة كان يتعشقها كثيرا – حول التاريخ والمجد . وشيئا فشيئا بدا بعضهم يصعد الى المناصب المسؤولة والقيادية . وصار لكل واحد منهم عربته من الاسلاب المغنومة في المعارك : صندوق كونياك ، وبرميل صغير من النبيذ ، وزكيبة من الملابس . وكان من بين هؤلاء الافراد فولين ، وبارانوفسكي ، وكوكلين ، وارشينوف ، وتشيريدنياك ، وكالاشنيكوف ، وكثيرون غيرهم . وخلال فترات القعود الطويلة كانوا يجمعون حولهم مجاميع كاملة من الفتيات المنطلقات ، وينظمون ليالي اثينية مؤكدين للاتمان ان هذه الطريقة في معالجة القضية الجنسية تعتق الحياة ، اما السيفلس فانه محض هراء ما دامت الحرية المطلقة محققة . وسمى ماخنو فوضوييه بالتعابين الزاحفة ، وهددهم اكثر من مرة بالاعدام رميا بالرصاص ، ولكنه عاملهم كرجال قرأوا الكتب ويعرفون جيدا ما هو المجد العالمي .

لم يكن للجيش مقر قيادة دائم . وكان يتنقل حسب الضرورة من طرف المحافظة الى طرفها الآخر على الخيول والعربات . قبل قيام ماخنو بغارة او معركة كان يرسل الرسل الى القرى ، ويلقي هو في مكان مزدحم خطابا لاهبا ، وبعده كان فتيانه يلقون القماش من العربات على المحتشدين . وفي يوم واحد كان ينضم الى لواء جيشه الصار-فلاحون . وحين كانت المعركة تنتهي كان المتطوعون يعودون بالسرعة نفسها الى قراهم ، ويخفون الاسلحة . وحين كانت المدفعية الالمانية تمر بهم بحثا عن العدو كانوا يقفون امام بوابات بيوتهم ، وكأنهم لم يفعلوا شيئا ، هازئين اجسامهم بكسل . كانت الفصائل

الالمانية والنمساوية وهي تبحث عن ماختو لا تجد شيئا دائما ، بينما كان هذا الشيطان الموجود في كل مكان دائما في مؤخرتهم . كان الانصار كالرجل القدامى لا يشتركون في اية معركة حاسمة ، بل ينتشرون على خيولهم وعرباتهم زاعقين صافرين مطلقين الرصاص ، ويجتمعون في مكان لم يتوقعوا فيه ، ويهجمون فجاة .

خلت القرية . خرج ماختو في اثر الجيش على عربة تجرها ثلاثة خيول ومفروشة ببساط . كان الوقت ظهرا . كانت فتاة يدبشة شوهها البكاء في تنورة محزومة الى فوق تكنس البيت بمكنسة من الافسنتين . وكان صاحب البيت جالسا قرب نافذة مفتوحة ينظر الى التلال التي اتجه نحوها المشاة والفرسان . وحيث يدور دولابا طاحونتين بوداعة ، وزفر زفرة ثقيلة ، فان الحديث مع ماختو قبل قليل لم يدخل الهدوء الى نفسه .

ذهبت كاتيا الى البئر ، واغتسلت ، ورتبت هندامها . دعاها صاحب البيت الى الفطور ، فاكلت فطيرتين وشربت بعض الحليب . وجلست عند النافذة الاخرى ، وهي لا تعرف الآن ماذا تفعل وماذا تنتظر . كان الجو حارا جدا . وفي الشارع دجاج كثير يطوف بين الروث الطازج . وفي الحدائق امام البيوت كانت تتمايل زهور عباد الشمس الذهبي ، وتنضج ثمار الكرز . والبواشق تحوم فوق القرية . تنحنح صاحب البيت ، وتنهد ، وقال للفتاة الباكية :

– كان من الافضل ان ترفعي التنورة اعلى . ليست مصيبة في الهم مسوك ... لست الاولى .

اجهشت الفتاة ، والقت المكنسة ، وانزلت تنورتها على ساقيها البيضاوين المشلتين . نظر صاحب البيت الى المكنسة بعض الوقت .

– من هو ؟ قولي ، ولا تخافي ، يا الكسندرا ...

– لا اعرف مــــا اسم هذا اللعين ... ليس من ابنــــاء قريتنا ... يلبس نظارة ...

اسرع صاحب البيت يقول وكأنه قد فرح :

– ها ! يلبس نظارة ... انه احدهم ، فوضوي . – والتفت الى كاتيا – انها ابنة اخي الكسندرا ... ارسلتها الى الهرى لتجلب

الدقيق . . . اتعرفين اين يقع الهرى ؟ وعادت في الصباح وثيابها ممزقة . اللعنة ! . .

– كان سكران ، وهددني بالمسدس . فماذا في امكاني ان افعل ؟

قالت الكسندرا مولولة . ضرب صاحب البيت الارض بقدمه الحافية مهددا :

– اخرجي من هنا ، انا نفسي لا اعرف هل سأبقى على قيد الحياة او لا .

خرجت الفتاة راكضة . عاد الى التحنحة من جديد محدقا في التلال .

– ما العمل ؟ وهل نحن سعداء في اطعام هؤلاء اللصوص ؟ نعطيهم الخيول لعرباتهم . وهم يسوقونها بسرعة ثمانين فرسخا . هؤلاء الشياطين . والحصان ليس سيارة ، ويجب الاعتناء به . ان ماشيتنا كلها الآن مصابة ... آه ، الحرب ! . .

اهتزت زجاجة المصباح المعلق فوق المنضدة ، ورن زجاج النوافذ رنينا خافتا . وكان الهواء الحار قد تنهد . وسرى في الارض هدير بعيد . مد صاحب البيت نصف جسمه من النافذة بحركة حية ، وحدق طويلا في التلال ، حيث لاح فارس وحيد بالقرب من الطاحونتين . ثم جمع اصابعه ، ورسم علامة الصليب امام الصورة الموضوعة في زاوية .

قال :

– المدفعية الالمانية تضرب جماعتنا – ثم هرش تحت قميصه الحائل اللون وقال – زمان !

ورفع المكنسة ، والقاها في زاوية ، وخرج الى الفناء جامعا اصابع قدميه الحافيتين . وعاد الهدير يسري فوق القرية . لم تستطع كاتيا ان تطيل البقاء في البيت اكثر ، وخرجت الى الظهيرة الفائضة الفواحة بالروث .

رأت جمعا مضطربا من مسافري الأمس يسعى في الشارع . سار في المقدمة معلم الفيزياء اوبروتشيف ناظرا من فوق نظارته الانفية . كان يلبس معطفا مطاطيا وكالوشا ، ويبدو رئيسا وموضع ثقة . حدق بكاتيا :

– أنضمي الينا !

اكتريت . كـان المسافرون في مظهر مهروس ، وقـد تعلت وجوههم . انتفخت عيون المراتين الكهلتين من ذرف الدموع . ولم يكن بينهم المضارب الذي غير ملابسه .

قال اوبروتشيف بصوت مرح :

– اختفى احد اصحابنا دون أثر . والظاهر انه قد اعدم رميا ، وجميعنا ينتظرنا نفس المصير ، يا سادة ، اذا لم تكن لدينا الحيوية الكافية . يجب ان نقرر على الفور : هل سننتظر نتيجة المعركة ، ام ننتهز فرصة عدم حراستنا من قبل احد ، على ما يبدو ، ونحاول ان نصل مشيا الى السكة الحديدية . . . انا احدد لكل متكلم دقيقة واحدة .

عندئذ تحدث الجميع دفعة واحدة . اشار البعض الى ان قطاع الطرق اذا لحقوا بهم في السهب فسيقضون عليهم بدون شك . وقال آخرون ان في الهروب نصيبا من الخلاص على اية حال . اما الفريق الثالث الذي كان واثقا من انتصار الالمان فقد اصر على انتظار نتيجة المعركة . وحين تعالى الهدير وراء التلال من جديد صمت الجميع ، وقلصوا عيونهم متأملين وحدقوا الى حيث لم يكن يُرى غير اجنحة الطاحونتين تتحرك ببطء . القى اوبروتشيف خطبة محكمة سرد فيها كل التناقضات في وجهات النظر . حدقت السيدتان في فمه ، وكأنه واعظ . ولم يستقر المسافرون على رأي فظلوا واقفين في الشارع المقفر بين الدجاج والعصافير ، حيث لا احد يفكر في ان يشفق على روسي من ابناء قوميته . . . لا ابـــدا ! ها هي امـــرأة حاسر الرأس اطلت من نافذة ، وتثـــاءبت ، واشـــاحت برأسهـــا . خرج فلاح بلا حزام في مظهر غاضب من وراء بيت ، ونظر من خلالهم ، والتقط قطعة من طين ، ورمى بها خنزيرا لاحد الجيران بكل قوته . وحامت فوق القريـــة براشـــق بلا اكتراث ناظرة الى ابنـــاء المدن المنهوبين الذين لا يهتم بهم احد هنا .

ارتفعت سحابـــة من الغبار من وراء التل . اندفـــع فارس من الطاحونتين ، واختفى . اقترح احـــد المســـافرين العودة الى ادارة القرية ، حيث تقضي الجميع ليلتهم هناك . سارت السيدتان اولا . وحين ظهرت عربات «الترويكـــا» من وراء التلال منطلقـــة بالعصي

سرعتها انصرف الآخرون ايضـــا . بقيت كاتيـــا ومعلـــم الفيزياء في الشارع ، وقد صلب المعلم يديه تحت الشمع بحزم .

كانت العربات اربعا او خمسا ، دارت حول البحيرة ، ووصلت الى القريـــة . كانت تحمـــل الجـــرحى . توقفت الاولى عند نوافذ بيت ، صاح سائق الخيول وهو رجل ضخم من الانصـــار في سترة جلديـــة غير مزررة :

– ناديجدا ، جلبوا رجلك .

خرجت امرأة من البيت راكضة خالعة مئزرهـــا عنهـــا واجهشت بصوت واطئ ، والقت نفسهـــا على العربة . نزل من العربـــة رجل شاحب الى حد الاخضرار ، وامسك برقبة الزوجة والقى رأســـه الى الاسفل ، وسار نحو البيت بخطى رخوة منحني الجذع . انتقلت العربة الى بيت آخر ، حيث خرجت ثلاث فتيات في ثياب ملونة .

صاح السائق بهن مرحا :

– خذن صاحبكن ، يا حمامات . جرحه طفيف .

وبعد ذلك استدار بالعربة بحركة بطيئة وهو يفكر اين سينقل الجريح الاخير . كان ميشكا سولومين يجلس في العربة مقلصا عينيه ، وقد شد رأسه بخرقة من قميص ممزق ، واسنانه مصكوكة . وفجأة اوقف السائق الخيول :

– اوه ، يا ربي . . . . يكاتيرينا دميتريفنا ؟ . . .

ولم تكن كاتيا تتوقع ذلك البتة . ضاقت انفاسها من القلق ، وهرعت الى العربة . كان الكسي كراسيلنيكوف يقف عليها فارجا ساقيه عريضا مسندا احدى يديه على جنبه ممسكا العنان بالاخرى . كانت لحيته تتلوى على خديه ، وعيناه الوضيئتان تنظران بمرح . وقد شد على وسطه قنابل يدوية ، وشريط رشاشة فوق سترته الجلدية ، ووراء كتفيه بندقية فرسان .

– كيف جئت الينا ، يا يكاترينـــا دميتريفنـــا ؟ في اي بيت تقيمين ؟ في هذا ؟ عنـــد ميتروفان ؟ انـــه ابن عم لي ، من عائلـــة كراسيلنيكوف ايضـــا . انظري الى ميشكا . مسكين . شجت اصحق رأسه قنبلة شرابنيل . . . .

سارت كاتيا الى جانب العربـــة . كان الكسي ما يزال محتدا ثملا بالمعركة . تلمع عيناه واسنانه وابتسامته .

– مزقنا الالمان تمزيقا . . . الحمقى . . . القوا انفسهم على رشاشاتنا ثلاث مرات . وهم الآن منطرحون في الحقل كله . . . الآن صار للالمان من الملابس ما يلبس به الجيش كله . . . قف . . . ميتروفان ! . . . اخرج من مغارتك ، واستقبل البطل الجريح . . . اما انت ، يا يكاترينا دميتريفنا فلا تغادري هذا البيت ، الحالة قلقة عندنا . . .

صدر من برج الجرس رنين رقيق بهيج . انفتحت ابواب الحدائق في القرية كلها ، ورفعت الصفاقات وركضت النساء في الشارع ، وخرج الرجال الحذرون ، وطلع عدد كبير من الناس من حيث لا يدري احد ، وساروا مغنين متحدثين الى الدرب للقاء جيش ماخنو المنتصر .

جلب الكسي كراسيلنيكوف ، وكاتيا معه ، ميشكا شبه الميت الى فناء ميتروفان ، وارقده في الظليلة على سرير الكسندرا . راحت كاتيا تبدل ضماده . نزعت بصعوبة من شعره الخرقة التي جمد عليها الدم . لم يبدر من ميشكا غير صريف الاسنان . وعندما بدأت كاتيا تغسل الجرح الرهيب في الجهة اليمنى من الجمجمة ، تاوهت الكسندرا التي كانت تمسك بالحوض ، وترنحت ، امسك الكسي بالحوض ، ودفعها . وقال لكاتيا :

– انظري ، هناك فلقة عظم نائتة . الكسندرا ، اجلبي كماشة السكر .

– غير موجودة ، انكسرت .

امسكت كاتيا باظافرها فلقة العظم التي كانت نائتة في الجرح . وسحبتها . صرخ ميشكا . لقد كانت فلقة بالتاكيد . وكانت اظافرها تنزلق فتنفذ اعمق ، وتخرجها .

زفر الكسي زفرة صاخبة وضحك قائلا :

– هكذا نقاتل ، على طريقة الفلاحين ! . . .

شدّت رأس ميشكا بقماشة نظيفة . فرقد تحت فروة خروف مبللا مرتجفا ارتجافا شديدا ، وفتح عينيه . انحنى الكسي عليه :

– كيف الحال ؟ هل ستكون على قيد الحياة ؟

قال ميشكا مبتسما ابتسامة ميتة :

– يوم امس تبجحت امامها ، وهذه نتيجة التبجح .

ونظر الى كاتيا . كانت تمسح يدها . تقدمت ايضا وانحنت عليه . حرك ميشكا شفتيه :

– احرص عليها ، يا اليوشا* .

– اعرف ما اعرف .

– فكرت بان ارتكب عملا سيئا نحوها . . . يجب نقلها الى المدينة .

ومرة اخرى ثبت في كاتيا بصره المجنون تقريبا . كان يقاوم الالم ووهج الحمى وكانها شيء تافه ، مجرد هراء ومضايقة . فان مسافة الموت تنتثت فيه جميع زوايع الانفعالات والتناقضات ، وقد احس في تلك اللحظة بانه ليس الفتى السكير الشرير ، بل روحا روسية كالطائر يصعد النار العاصفة وانه في الاعمال البطولية لا يقل صلاحا عن الآخرين ، وانه قادر على الاتيان بالاعمال الرفيعة . . .

قال الكسي بخفوت :

– الآن دعيه ينام . لا بأس ، انه فتى متدفق الحيوية . سينام ويشفى .

خرجت كاتيا مع الكسي الى الفناء . ما تزال وكانها في حلم يقظة غريب تحت سماء لا حدود لها في هذا السهب الحار حيث يفوح بدخان الروث الجاف القديم ، حيث كان رجل بعد وقفة طويلة ينطلق على فرسه مكشرا اسنانه للريح الطليقة ، والسورات تطفأ كما يطفأ الظمأ بقدح مترع .

ولم تشعر بخوف . ان مصيبتها المطمورة في اعماق النفس لا حاجة بها لأحد ، وحتى لنفسها في هذه الاحوال . كانت على استعداد الى التضحية ، الى القيام بمأثرة دون اي تردد . ولو دعيت للموت لتنهدت تنهيدة ورفعت عينين صافيتين الى السماء . قالت :

– فاديم بتروفيتش قتيل . ولن اعود الى موسكو ، اذ ليس لي احد هناك . . . ولا شيء . . . لا اعرف ماذا جرى لأختي . . . لست التي اسافر الى مكان ما ، ربما الى يكاترينوسلاف . . .

افرج الكسي ساقيه ، ونظر الى الارض ، وهز رأسه :

* صيغة تدليل لاسم الكسي . – المترجم .

– من المؤسف ان يقتل فاديم بتروفيتش ، فقد كان رجلا طيبا . . .

– نعم ، نعم–قالت كاتيا واغرورقت عيناها بالدموع –كان انسانا طيبا جدا .

– لم تسمعـــا كلامي آنذاك ، بالطبع نحن نكافح من اجل هدفنا وانتم من اجل هدفكم . ولا حاجة الى التكدر في هذه المسالة . ولكن هل من الممكن ان يحـــارب المرء ضد الشعب ! اليس من المعقول ان تستسلم !.. هل رايت الفلاحين اليوم ؟ ومع ذلك كان فاديم بتروفيتش منصفا على اية حال . . .

قالت كاتيا ، وهي تنظر الى غصن شجرة كرز مثقل متدل من وراء السياج :

– انصحني ماذا افعل ، يا الكسي ايفانوفيتش . انــه يجب ان اعيش . . . –قالت واحست برعب فقد ضاعت كلماتهـــا في الهواء . ولم يجب الكسي راسا :

– ماذا تفعلين ؟ سؤال من اسئلة السادة . وكيف ذلك ؟ انت امراة مثقفة تعرفين لغات اجنبية ، وجميلة ، وتسالين فلاحا : «ماذا افعل ؟»

واكتسى وجهه تعبير الازدراء ، وطقطق بالقنابل المعلقـة في حزامه طقطقة خافتة . انكمشت كاتيا . قال الكسي :

– ستجدين اعمالا في المدينة . وربمـــــا في حانة تغنين وترقصين وربما كمومس ، وربما في مكتب تطبعين على الآلـــــة الكاتبة . لن تضيعي .

خفضت كاتيا راسها ، واحست بانه ينظر اليها ، ومن نظرته تلك لم تستطع ان ترفع راسها ، وقد ادركت فجاة ، كما حصـــل الحال مع ميشكا ، لماذا كان الكسي يثبت بصره فوق راسهـــا بهذه الموجدة . لا وقت الآن للصفـــح والشفقـــة . ان لم تكن منهـــم فهي عدو . انها سالت كيف عليها ان تعيش . القت هذا الســؤال على محارب ما زال ملتهبا بالفروسية ، بازيز الرصاص ، بسكـــرة النصر . . . كيف عليهـــا ان تعيش ؟ وبدا هذا السؤال غريبـــا لهـــا الآن . فلو سالته مع مَنْ ولى سبيل اية حقيقة ينطلق على هذه العربة في السهب لرات الطيبة تلمع في عينيه . . .

ادركت كاتيا ذلك ، ولجات الى المكر مثل حيوان صغير ، لقد حاولت لاول مرة في هذا اليوم ان تدافع عن نفسها :

– لقد اسات فهمي ، يـــا الكسي ايفانوفيتش . ليس ذنبي ان تتقاذفني الارض كالورقة اليابسة . ماذا عليّ ان احب ؟ وبم اعتز ؟ لم يعلموني ذلك . فلا تسالني . علمني اولا . (كف عن الطقطقة بالقنابل . ومعنى ذلك انــــه ارعف السمـــــع .) ذهب فاديم بتروفيتش الى الجيش الابيض خلاف ارادتي . لم ارد ان يفعـــل ذلك . وقد عاتبني لأن نفسي لا تضمر بغضـــا . . . انـــا ارى كل شيء ، وافهـــــم كل شيء ، يـــا الكسي ايفانوفيتش . ولكنني في الهامش . . . هذا شيء فظيـــع . وفي ذلك يكمن عذابي كله . . . ولهذا سالتك ماذا افعل وكيف اعيش . . .

صمتت برهة ، ثم حدقت في عيني الكسي ايفانوفيتش تحديقـة بلية صافية . فرمش . ولاح على وجهه بعض السذاجة والحيرة ، وكانها قد احتيل عليه . رفع يده الى علباله ، وحك .

قال مقطبا انفه :

– هذه ماساة . انت على حق . المسالة سهلة بالنسبـــة لنا . اخي قتل الماتيا في فناء بيتي ، فاحرقنا البيت وخرجنا نحن . الى اين ؟ الى الالمان . اما انت ، المثقفة . . . فحقا . . .

وتجمـــع مكر كاتيــا ، وعزم الكسي ايفانوفيتش ، في الظاهر ان يحل المسالة اللعينة في هذه اللحظة : في سبيل اية حقيقة تناضل امراة مثل كاتيا لا ارض لها ولا فرس .

لقد كان مضيعـــة للوقت الوقوف عند السيـــاج تحت شجرة الكرز التي كانت تنظر اليها كاتيا . لقد كانت تود لو تقطـــــع حبتين سوداوين لتعلقهمـــا قرطا ، ولكنهـــا استمرت واقفـــة بهدوء امام كراسيلنيكوف ، الا ان ومضات الفكاهة كانت تومض في عينيها الواسعتين وقد اضاءتهما السماء .

قال الكسي ايفانوفيتش مقويا تاثير كلماتـــه بايمــاء حاسم :

– اذا كنا نحن الفلاحين نطعمكم ، يا ابناء المدن فان الواجب يقتضي ان تقفوا الى جانبنـــا . نحن الفـــلاحين ضد الالمـــان ، وضد البيض ، وضد الشيوعيين ، ولكننا في سبيـــــل سوفييتات الريف الحرة . مفهوم ؟

هزت رأسها ، فتابع كلامه . أمـــا هي فوقفت على أطراف أصابعهـا ، ورفعت ذراعها اليسرى ، لأن كمها الأيمن مشقوق تحت الإبط ، وقطعت حبتين من الكرز . وضعت واحدة في فمها ، وأخذت تدير الأخرى من عودها . قالت وقد لفظت النواة :

– لو كنت قروية لكان كل شيء واضحا لي . كم مرة سمعت : الوطن ، روسيا ، الشعب . ولكنني لأول مرة أرى ما تعني هذه الكلمات . وأكلت الحبة الأخرى ناظرة الى الكسي إيفانوفيتش ، والى لحيته التي لاحت في النور ذهبية ، والى السترة الجلدية المفتوحة ، والى رجليه القويتين ، وتسلحه المخيف . قال وهو يزداد ارتباكا :

– الشعب ، الشعب . أعجوبة صغيرة ، بالطبع . . . ولكننا لن نتخلى عما يخصنا . – وأمسك بقوة بالخابور الطالع من السياج وجرّبه ليتأكد من ثباته . – سنحارب بقســـوة ولو في العالم كله . . . ليتك تسمعين ما يقوله فوضويونا ، لا ما أقوله أنا . انهم أساتذة في فن الكلام . . . فقط . . . (وتحرك حاجباه ، ومرر عينيه على كاتيا بنظرة فاحصة .) ولكن المصيبة : انهم فســـاق وسكيرون دون تحفظ . . . أظن من الخير الا تدعي عيونهم تقع عليك . . .

– لا أهمية لذلك ، – قالت كاتيا .

– كيف لا أهمية لذلك ؟

– أنصد لست صغيرة . ولا أسمح لأحد بأن يمسني .

– أنت تتكلمين جيدا . . .

ارتجف حنك كاتيا ، وابتسمت ، ورفعت جسمها الى غصن الكرز ثانية . وأحست بأن حرارة الشمس تنفذ الى جسمهـــا وتداعبه . وكان ذلك حلم يقظة . قالت :

– على أية حال ماذا تظن أن في وسعي أن أفعل عندكم ، يا الكسي إيفانوفيتش ؟

– في حقل التنويـــر . . . لدى الأتمان يتكوّن قســـم سياسي . . . ويقولون يريد أن يصدر جريدة .

– وأنت ؟

– أنا ؟ . . (وأمسك بالخابور مرة أخرى ، وهز السياج .) أنا محارب بسيط . سائق عربة رشاشة . ومكاني في القتـــال .

وأنت ، يا يكاترينا دميتريفنا ، التي نظرة في البداية ، ولا تتخذي قرارا رأسا . أنا سأعرفك بزوجة أخي ماتريونا . يعني نضمك الى عائلتنا . . .

– ولكن الأتمان ماختو طلب اليّ أن آتي مســـاء لأنظف أظافره .

– ماذا ؟ ! – وأمسك الكسي في الحال حزامه بكلتا يديه تحت السترة الجلدية . بل وأن أنفه قـــد تدبب . – أظافره ؟ وبماذا أجبته ؟

قالت كاتيا هادئة :

– أجبته بأنني أسيرة .

– حسنا ، سيرســـل في طلبك – اذهبي . ولكنني سأكون هناك . . .

في تلك اللحظة هبطت الكستدرا السمينة من مدخل البيت ، ومئزرها يهتز . صاحت وانطلقت تفتح الباب :

– انهم قادمون ، قادمون !

كانت «هورا» تسمع من بعيد مع طلقات منفردة ، ووقع حوافر خيول . لقد عـاد الأتمـان مـع الجيش . خرج الكسي وكاتيـــا الى الشارع . ارتفعت سحابة الغبار فوق الدرب . كان الفرســـان والعربات تنطلق على الأكمات مرورا بالطاحونتين .

دخلت مقدمة الجيش القرية . وأحاط الصبيان بها وتراكضت الفتيات . كانت بطون الخيول العرقة المزبدة الأشداق تعلـــو وتهبط . وقف رجال ماختو على العربات مغبرين عرقين وطاقياتهم مائلة الى الوراء .

جاء ماختو على عربـة عليها بساط فارسي تتطاير حواشيـه . كان يجلس على صندوق ذخيرة مترنحا ممسكا بقبعته القرانية قرب فخذه . وقد جمد وجهه الشاحب متوترا ، وشفتاه الجافتـــان المشققتان مزمومتان .

وفي العربة الثانية وراءه ركب ستة أشخاص في هيئـــة مدنية – يرتدون سترا وقبعات ناعمـــة وطاقيات قشيـــة وقد أرسلوا جميعا شعورهم ولحاهم ، ووضعوا النظارات عـــلى عيونهم . انهم الفوضويون من هيئة الأركان والقسم السياسي ،

٨

عاشت داشا تليغينا خمسة اشهر وحيدة فى غرف خالية . حين خرج ايفان ايليتش الى الجبهة ترك لها الف روبل ، الا ان هذه النقود لم تكف وقتا طويلا . ومن حسن الحظ ان اجنبيا حاذقا يدعى ماته قد نزل فى شقة تقع تحت شقتها كان يقيم فيها موظف كبير من بطرسبورغ هرب مع عائلته فى كانون الثانى . وكان هذا الاجنبى يشترى اللوحات والاثاث واى شىء كان .

باعت داشا له السرير العريض لشخصين ، وبعض المحفورات ، والحليات الصينية . وتخلت بلا مبالاة عن الاشياء التى كانــــت تعبق بالرائحة القديمـة والذكريات الماضيـة . لقد انتهى كل شىء من الماضى .

وقضت الربيـع والصيف على النقود التى تسلمتهـا من بيـع الاشياء . خلت المدينة . كانت الجبهة تبعا وراء نهر سيستر اعلى بعد ساعة ركوبا بواسطة تقل من بطرسبورغ . انتقلت الحكومة الى موسكو . وكانت القصور تطل على نهر النيفا بنوافذها المحطمة الفارغة . ولم تكن الشوارع مضاءة . ولم تكن لرجال الميليشيـا رغبة كبيرة فى الحفاظ على دعة البرجوازيين وهم الى زوال على اية حـال . وفى الاماسى كان يظهر فى الشوارع الناس وهيبون لـم يكن لهم وجود من قبل . كانوا يتطلعون فى النوافذ ويتجولون فى الســلالم المظلمـة محاولين تدوير قبضـة الابواب ، والعياذ باللـه لو غفل بعض الناس ، ولم يقفلها بعشرات المزاليج والســلاسل . فقد كانت تسمع خشخشة ، ويدخل الشقة مجهولون قائلين : «ارفعــــوا ايديكم !» ويهجمـــــون على الســاكنين ، ويربطونهم بالاســــلاك الكهربائية ، ثم يشحنون الغنيمة بصبر غير متعجلين .

وظهرت الكوليرا فى المدينة . وحين نضجت الاعناب عــم الرعب . تساقط الناس فى الشوارع والاسواق يتلوون من الالم . وجرى التهامس فى كل مكان . وتوقع الناس بلاء شديدا . وقالوا ان رجـال الجيش الاحمر يضعون النجوم الخماسيـة معكوسـة على قبعاتهم — وتلك علامة المسيح الدجال — وزعموا ان «الرجل الابيض» صار يظهر فى الكنيسة الصغيرة المغلقة على جسر الضابط شميدت ،

وهذا يعلى ان المصائب متوقعة من البحر . ومن الجســـور كان الناس يشيرون الى مداخن المصانع الخامدة التى كانت تبدو فى الشفق القرمزى مثل «اصابع الشيطان» .

واغلقت المعامل . وانضم العمال الى فرق التموين ، او ذهبوا الى الريف . وطلع العشب بين بلاطات الشوارع .

ولـم تكن داشـا تخرج من البيت كل يوم ، واذا خرجت ففى الصباح الى السوق حيث طلبت المضاربات الفنلنديات الوقحات على البود* الواحد من البطاطس بنطلونين . وكان غالبا ما يأتى رجال الحرس الاحمر الى السوق ، ويفرقون بقايا النظام البرجوازى باطلاق النار فى الهواء : الفنلنديات مـع بطاطسهن ، والسيدات يصرخن من ثياب الرجال وستائر النوافذ . وصار الحصـول على الطعام يزداد صعوبة من يوم الى يوم . واحيانا كان يسعفها ماته هذا بان يبادلها المعلبات والسكر بالاشياء العتيقة الثمينة .

كانت داشا تحاول ان تقلل من طعامها لتقلل من اتعابها . كانت تستيقظ فى ساعة مبكرة ، وتخيط شيئا اذا وجدت خيوطا ، او تتناول كتابا مطبوعا فى عام ١٩١٣ او ١٩١٤ ، وتقرأ لمجرد الا تدع عقلها يفكر . ولكنها كانت تفكر فى اكثر الاوقات وهى جالسـة الى النافذة ، او بالاحرى كان فكرها يحوم حول نقطـــــة داكنة ، سورتها النفسية قبل مدة ، يأسها ، حنينها ، فكان كل شىء قد تكور الآن فى هذه الكتلة الغريبة فى عقلها ، عقابيل مرض . وقد تحلت تحولا شديدا حتى اصبحت كفتاة فى السادسة عشرة . انها قد احست وكأنها انقلبت الى فتاة ، ولكن بلا لعب الفتاة .

وكان الصيف ينقضى . وانتهت الليـالى البيضـــاء . وامسى الغروب وراء كرونشتادت اكثر كآبة . ومن النافذة المفتوحـــة فى الطابق الخـامس كانت تتداح الى مســافـــة بعيدة الشوارع الآخذة بالاقفار عند هبوط المساء ، ونوافذ البيوت المظلمة . ولم تكن الاضواء تنار ، ونادرا ما تسمع خطوات عابر سبيل .

وكانت داشا تفكر : ماذا سيكون بعد الآن ؟ متى ينتهى هذا الصمود ؟ عن قريب سيأتى الخريف والامطـار ، وتعول الريـــح

---

* بود يساوى ١٦،٣٨ كيلوغراما . — المترجم .

البارزة فوق السطوح من جديد . ولا يوجد حطب . والمعطف القرائي قد بيع . وربما يعود ايفان ايليتش . . . ولكن الوحشة تأتي من جديد ، ذبالات المصباح المحتضرة ، الحياة التي لا فائدة منها .

ليتها تجد القوة ، وتحطم الجمود ، وتخرج من هذا البيت الذي تدفن فيه حية ، وتغادر هذه المدينة المحتضرة !.. عندئذ لا بد ان يحصل شيء جديد في الحياة . . . ولأول مرة في هذه السنة فكرت داشا بـ«الجديد» ، وجدت نفسها تفكر بذلك ، واضطربت ودهشت ، وكأنما عاد يلوح من خلال ستار الجزع القاتم الق الرحابة البراقة ، لذلك الذي داعب آمالها في تلك الباخرة على الفولغا .

ثم جاءت أيام الأسى على ايفان ايليتش . بدأت تشفق عليه بطريقة جديدة ، اشفاق الاخت . وتذكرت بأسف همومه الصابرة ، وطيبة قلبه التي لا تضايق احدا على اية حال .

عثرت داشا في خزانة الكتب على ثلاثة مجلدات بيضاء تضم اشعار بيسولوف . انها ذكرى خمدت كليا . وقرأتها قبيل المساء ، في السكون ، حين كانت الخطاطيف تتطاير حول النافذة كالخطوط السوداء . ووجدت في الاشعار كلمات عن اساها ، عن وحدتها ، عن الريح القاتمة التي ستصفر فوق قبرها . . . وغرقت داشا في احلامها ، وبكت . وفي الصباح اخرجت من الصندوق بين النفتالين الثوب الذي خاطته لزفافها ، وبدأت تعيد خياطته . وكانت الخطاطيف تطير ، كما في الامس ، والشمس شاحبة الضوء . وفي السكون ترامت من بعيد ضربات نادرة ، واحيانا هدة ، وكان شيئا ثقيلا يسقط على الرصيف ، لعل بيتا خشبيا يحطم في شارع جانبي .

اخذت داشا تخيط على مهل ، وكان الكشتبان يخرج مرارا من اصبعها الناحلة وكاد يسقط ذات مرة من فوق النافذة . وتذكرت يوم جلست مع هذا الكشتبان على الصندوق في رواق شقة اختها ، وهي تأكل المربى بالخبز . كان ذلك في عام ١٩١٤ . وكانت كاتيا قد تخاصمت مع زوجها ، وقد تهيأت للسفر الى باريس . كانت ترتدي قبعة صغيرة فيها ريشة صغيرة رقيقة . وبينما كانت

عند الباب التفتت ورأت داشا قاعدة على الصندوق ، فقالت : «داشينكا ، تعالي معي . . .» ولكن داشا لم تسافر . اما الآن . . . فلو تنتقل الى باريس . كانت داشا تعرفها من رسائل كاتيا : زرقاء حريرية عاطرة كعلبة عطور . . . راحت تخيط وتتنهد من الانفعال . ان تسافر ! . . يقولون ان القطارات معدومة ، ولا يسمح بالسفر الى الخارج . . . ودت لو تذهب مشيا ، تسير والحقيبة على ظهرها عبر الغابات والجبال والحقول والانهار الزرقاء المياه ، متنقلة من بلد الى آخر ، حتى المدينة الرائعة الانيقة . . .

وتساقطت الدموع من عينيها . اية حماقة ، آه ، اية حماقة ! الحرب تجري في كل مكان . والالمان يطلقون النار على باريس من مدفع هائل . مجرد احلام ! امن العدل الا تتاح للانسان حياة هادئة مرحة . . . «ماذا فعلت لهم ؟ . .» وقع الكشتبان تحت الكرسي . ولمعت الشمس من خلل الدموع . وانطلقت الخطاطيف بصفير فارغ . ما يهم هؤلاء بشيء . فقط ان يتوفر ذباب وبعوض . . . «ولكنني سأسافر على اية حال !» — قالت لنفسها وهي جاهشة . . .

ثم ترددت طرقات متقطعة ملحاحة على الباب في الرواق . وضعت داشا ابرتها والمقص على افريز النافذة ، ومسحت عينيها بلفة خياطتها ، والقتها على المقعد ، وذهبت لتسأل عن الطارق . . .

— هل داريا دميتريفنا تيليغينا تعيش هنا ؟ . .

وبدلا من ان تجيب انحنت على فتحة المفتاح . ومن الجانب الآخر انحنى شخص على هذه الفتحة ايضا ، وقال صوت حذر : «لها رسالة من روستوف . . .» اسرعت داشا لفتح الباب . دخل رجل غريب في معطف جندي مدعوك ، وقبعة مشبقولة . خافت داشا ، وتراجعت ، ومدت يديها . قال الرجل بعجالة :

— يحق الرب ، يا داريا دميتريفنا ، الم تعرفيني ؟ . .

— لا ، لا . . .

— كوليتشيك ، نيكانور يوريفيتش . . . مساعد المحامي ، هل تذكرين سيستروريتسك ؟

ازالت داشا يديها ، وحدقت في وجهه النحيل المذبب الانف الذي لم يحلق منذ زمن . كانت الغضون عند العينين المنتبهتين

المربعتين تنم عن عادة الحذر ، والفم الغريب الشكل عن التصميم والقسوة . كان يشبه وحشا صغيرا يتوجس خطرا .

– أمن المعقول انك نسيت ، يا داريا دميتريفنا . . . كنت آنذاك مساعد المرحوم نيقولاى ايفانوفيتش سموكوفنيكوف زوج اختك . . . كنت مغرما بك ، وقد صددتنى صدا قويا . . . هل تذكرين ؟ – وابتسم فجاة بسمة منسية ، بسمة «ما قبل الحرب» ببساطة قلب . واذا بداشا تتذكر كل شىء : الشاطئ الرملى المنبسط ، والغبش الشمسى فوق الخليج الدافئ الناعس ، وتذكرت نفسها «الشائكة» والعقدة الصبويـة على الفستان ، وكوليتشيك العاشق ، التى كانت تزدريه من كل عقالها المتشامخ . . . ورائحة اشجار الصنوبر العالية التى كانت تحل ليل نهار بعظمة على الكثبان الرملية . . .

قالت داشا بصوت مرتجف :

– لشد ما تغيرت .

ومدت يدها له . امسكها كوليتشيك بخفة وقبلها . كان يبدو ، رغم المعطف العسكرى القذر ، انه كان يخدم فى سلاح الفرسان طوال هذه السنوات .

– اسمحى لى ان اقدم لك الرسالة . اسمحى لى ان اخلع حذائى فى مكان ما . . . لقد وضعتها ، وارجو المعذرة ، فى لفافة الساق – ونظر نظرة ذات مغزى ، ودخل وراء داشا الى غرفة فارغة حيث جلس على الارض ، واخذ يسحب حذاءه الطويل الملطخ بالقذر وهو يغضن وجهه .

كانت الرسالة من كاتيا ، وهى نفس الرسالة التى سلمتها كاتيا الى المقدم تيتكين فى روستوف .

صاحت داشا من السطور الاولى التى قرأتها ، وامسكت برقبتها . . . فاديم قتيل ! . وطوفت ببصرها فى الرسالة مستعجلة عينيها . واعادت قراءتها بنهم . وجلست على ذراع المقعد خائرة القوى . كان كوليتشيك يقف على الفراد متواضعا .

– نيكانور يوريفيتش ، هل رأيت اختى ؟

– لا . سلمت الىّ الرسالة قبل عشرة ايام من قبل شخص . وقد ذكر ان يكاترينا دميتريفنا غادرت روستوف منذ شهر . . .

– ياالهى ! اين هى الآن ؟ ماذا حصل لها ؟

– مع الاسف لم يكن فى الامكان الاستفسار عن ذلك .

– هل كنت تعرف زوجها ؟ فاديم روتشين ! . . قتيل . . . كاتيا تكتب . . . آه ، ما افظع ذلك !

رفع كوليتشيك حاجبيه بدهشة . كانت الرسالة تهتز بيدها النحيلة اهتزازا شديدا حتى انه تناولها ، ومرر عينيه على السطور التى كانت تتحدث عن فالريان اونولى الذى روى لها مصرع زوجها . . . ارتفع طرف فم كوليتشيك الى الاعلى بحركة غاضبة :

– كنت دائما اعتقد ان اونولى قادر على السفالة . . . يستدل من اقواله ان روتشين قتل فى ايار . أليس كذلك ؟ انه لغريب . . . يخيل الىّ اننى رأيته فى وقت متأخر عن ذلك بعض الشىء .

– متى ؟ اين ؟

الا ان كوليتشيك مد انفه الكاسر ، وتفرس فى داشا بنظرة فاسية شائكة . وقد استمر كل ذلك ثانية واحدة . كانت عينا داشا الملتهبتين بالانفعال واصابعها الباردة المتشابكة تقول باوضح الوضوح انها لن تخونه ، ولو كان زوجها ضابطا احمر ، فليكن على ثقة من ذلك . سأل كوليتشيك متقدما من عينى داشا :

– لا يوجد فى الشقة غيرنا ؟ (هزت داشا رأسها بسرعة : لا ، لا .) اسمعى ، يا داريا دميتريفنا ، ما سأقول لك يجعل حياتى متوقفة على . . .

– هل انت من ضباط دنيكين ؟

– نعم .

طقطقت داشا باصابعها ، ونظرت بوحشة فى النافذة ، فى الزرقة التى لا يمكن بلوغها .

– ليس عندى ما يخيفك . . .

– كنت واثقا من ذلك . . . اريد ان اسألك مبيتا عندك لعدة ايام .

قال ذلك بصرامة بل بتهديد تقريبا . اطرقت داشا رأسها .

– حسنا . . .

– ولكن اذا كنت خائفة . . . (وقفز متراجعا .) لست خائفة ؟ (وتقدم .) انا فاهم ، فاهم . . . ولكن لا شيء تخافينه . . . انا حذر جدا . . . ساخرج في الليل فقط . . . لا احد يعرف انني في بتروغراد . . . (واخرج من بطانة القبعة هوية جندي .) هذه . . . ايفان سليتشيف ، جندي احمر . . . وثيقة حقيقية . تخلصت منه بيدي واخذتها . . . تريدين ان تعرفي عن فاديم بتروفيتش . . . اظن ان هناك بعض البقية .

امسك كوليتشيك يدي داشا وضغط عليها :

– اذن ، فانت معنا ، يا داريا دميترييفنا ؟ اذن ، شكرا . ان جميع المثقفين ، جميع الضباط النهائين المعذبين ينضمون تحت راية جيش المتطوعين المقدسة . انه جيش الابطال . . . وسترين ان روسيا ستنقذ ، ستنقذها الايدي البيضاء . اما تلك البراثن الخشنة فلترتفع عن روسيا ! كفى عواطف . الشعب الكادح ! لقد قطعت منذ حين الف وخمسمائة فرسخ على سطح عربة ، ورايت الشعب الكادح ! وحوش ! وانا اؤكد لك اننا وحدنا ، الزمرة القليلة من الابطال ، نحمل في قلوبنا روسيا الحقيقية . وسندق فالوتشنا بالحربة على مدخل قصر تافريتشسكي .

واحست داشا بان سيل الكلمات يصم اذنها . . . تنشق كوليتشيك الهواء بمنخره الاسود ، وتتطاير الزبد من طرفي فمه . على الاغلب انه اضطر الى لزوم الصمت وقتا طويلا وهو على سطح العربة .

لا اخفي عليك شيئا ، يا داريا دميترييفنا . . . انا مرسل الى هنا ، الى الشمال للاستخبارات والتجنيد . ان الكثيرين لا يتصورون حتى الآن قوتنا . . . نحن في صحفكم مجرد عصابات من الحرس الابيض ، حفنة ضئيلة ستمحى في القريب العاجل عن وجه الارض . . . فلا غرابة ان يخاف الضباط الانضمام الينا . . . ولكن اتعرفين ما يجري في منطقتي الدون وكوبان في واقع الامر ؟ ان جيش اتمان الدون يكبر مثل كتلة الثلج ، وقد طهرت محافظة فورونيج من الحمر ، وستافروبول مهددة . . . ومن يوم الى يوم ننتظر ان يخرج الالمان كراسنوف على الفولغا ، ويستولي على تساريتسين . . . حقا انه يتعاون مع الالمان ، ولكن ذلك شيء

موقت . . . ونحن رجال دنيكين نزحف على جنوب كوبان ، وكاننا في استعراض . وقد استولينا على تورغوفايا وتيخوريتسكايا وفيليكوكنياجيسكايا ، وقد مزق سوروكين تمزيقا . وجميع قرى القوزاق ترحب بجيش المتطوعين بحفاوة . وبالقرب من بيلايا غلينا خضنا معركة ضارية ، وزحفنا على تلال من الجثث حتى ان غادمك المطيع خوّض بالدم حتى الحزام .

شحبت داشا وهي تنظر في عينيه . وضحك كوليتشيك بمتلمة :

– اتظنين ذلك كل شيء ؟ ان ذلك بداية التنكيل . يشمل الحريق البلاد كلها . محافظات سامارا واورنبورغ واوفا ، والاورال كله في لهب . واحسن جزء من الفلاحين ينظم بنفسه جيوشا بيضاء . والفولغا الوسطى كلها في ايدي التشيكيين . والانتفاضة شاملة من سامارا الى فلاديفوستوك . ولو لا الالمان الملاعين لهبت اوكرانيا كلها هبة رجل واحد . ومدن حوض الفولغا الاعلى تشبه البيبة معباة بالديناميت لا يعوزها الا ان يشعل الفتيل فيها . . . ولا القدر للبلاشفة من الحياة شهرا واحدا ، ولا اراهن على البلاشفة حتى بقشة .

وكان كوليتشيك يرتعش من الانفعال . ولم يعد يبدو وحشا صغيرا . حدقت داشا في وجهه المدبب الانف الملفوح بريح السهوب ، والمقسى بنار المعارك . لقد كان هذا حياة حارة دخلت متدفعة الى وحدتها الشفافة . شعرت داشا بتصدع شديد في صدغيها ، وخفقان في قلبها . وعندما بدا يلف لفافة من الماخوركا مبديا اسنانا صغيرة سالت داشا :

– ستنتصرون . ولكن الحرب لن تستمر الى الابد . . . فماذا سيكون بعد ذلك ؟

– ماذا بعد ذلك ؟ – ومصّ من سيكارته وقلص عينيه . – الحرب ضد الالمان حتى النصر النهائي . والمؤتمر السلمي الذي سندخل فيه ابطالا عظاما . وبعد ذلك وبالقوى المشتركة للحلفاء ولاوروبا كلها نعيد روسيا : النظام والقانون ، والبرلمانية ، والحريات . . . ذلك في المستقبل . . . ولكن في المستقبل القريب . . .

وفجأة امسك بالجهة اليمنى من صدره . وتلمس شيئا من تحت معطفه . واخرج كارتونة مقطوعة تصنفين هي عبارة عن غطاء علبة سكائر . وادارها باصابعه . ووخز وجه داشا بحدقتيه مرة اخرى .

– لا استطيع ان اجازف . . . والمقصود . . . عندكم تفتيش في الشوارع . . . سأعطيك شيئا . – ونشر الكارتونة بحذر . واخرج منها مثلثا صغيرا مقطوعا من بطاقة زيارة خط عليه بالبيد حرفا : «و» و«ك» . . . وقال : خبئي هذا . يا داريا دميتريفنا . واحرصي عليه كحرز مقدس . . . وساعلمك كيف تستخدمينه . . . اعذريني . . . الا تخافين ؟

– لا .

– تمّم الفتاة الت !

ووقعت داشا ببساطة ودون وعي مدفوعة بارادة جارفة في صميم مؤامرة ما يسمى بـ«اتحـاد الدفاع عن الوطن والحرية» التي شملت العاصمتين وعددا من مدن روسيا الكبرى .

كان سلوك كوليتشيك – عميل قيادة دنيكين – اهوج لا يكاد لا يصدق : ان يكشف نفسه بصراحة ومن الكلمات الاولى لامرأة قليل المعرفة بها ، هي زوجة ضابط احمر . الا انه كان في وقت ما يعشق داشا ، والآن لم يستطع ، وهو ينظر في عينيها الرماديتين ، الا ان يصدق بان عينيها تقولان : «ثق بي» .

في ذلك الحين كان الحماس ، وليس التروي الهادئ[1] ، هو الذي يحرك ارادة الناس . كانت زوبعة الاحداث تعصف والخضم الانساني يهدر ، وكل انسان يحس بانه منقذ السفينة الهالكة ملوحا بمسدسه وهو على السطح المهتز موعزا بان تدار الدفة يمينا او يسارا . وكل ذلك كان مجرد وهم . كان سراب بصورة الحرس الابيض يطوف حول روسيا المترامية الاطراف . وقد غشت الكراهية على العيون . وكل ما كانوا يتفوهون به كان يظهر فورا في صورة بهارج السراب الخيالي .

وهكذا بدا هلاك البلاشفة الوشيك امرا غير مشكوك فيه .

فقد تبين ان قوات المتدخلين قد دخلت من الجهات الاربع لمساعدة الجيوش البيضاء ، وان مائة مليون فلاح روسي كانوا مستعدين ليصلوا للجمعية التأسيسية ، وان مدن الامبراطورية الموحدة غير القابلة للتجزئة لا تنتظر غير الاشارة لتقرع الوقيات ، وتعيد ، في اليوم التالي ، النظام والشرعية البرلمانية .

وكان الجميع يخدعون انفسهم ويتعلقون بالخيالات ابتداء من سيدات بطرسبورغ الهاربات الى الجنوب ومعهن تبديلة واحدة من الثياب الداخلية الى البروفيسور ميلوكوف الحكيم بالابتسامة المتعاظمة ينتظر نهاية الاحداث التي انتظمها بنفسه في رؤية تاريخية .

كان ما يسمى بـ«اتحاد الدفاع عن الوطن والحرية» واحدا من المزمنين في الخيالات المطمئنة . وكان قد تأسس في بداية ربيع عام ١٩١٨ من قبل بوريس سافينكوف بعد انتحار الاتمان كاليدين المعني ، وخروج جيش كورنيلوف من روستوف ، وكان الاتحاد بمثابة منظمة سرية لجيش المتطوعين .

وكان يرأسه سافينكوف المراوغ المتخفي الذي كان يجوب موسكو بشاربيه المصبوغين ، ويرتدي السترة الانجليزية ، وطماقا اصفر ومعطفا بلون كاكي . وكان الاتحاد منظما على الطريقة العسكرية : هيئة اركان ، وفرق ، والوية وافواج واستطلاع وكافة الخدمات . وكان العقيد بيرخوروف يدير مؤسسات هيئة الاركان .

كان تعيينه الى عضوية الاتحاد يجري في سرية شديدة . والشخص الواحد لم يكن يستطيع ان يعرف غير اربعة اشخاص ، فلا يمكن في حالة الانكشاف غير اعتقال خمسة اشخاص ، ولا تكشف خيوط اكثر . وبقي عنوان المقر واسماء الزعماء سرية للجميع . وكان رئيس الفوج او الوحدة يذهب الى بيوت الراغبين في الانضمام الى الاتحاد ، ويستفسر ويقدم النقود كعربون ، ويسجل في بطاقته اسمه وعنوانه بالشفرة . وكانت هذه البطاقات الحاوية على دوائر تحدد عدد الاعضاء وعلى عناوين ترسل اسبوعيا الى هيئة الاركان . وكان استعراض القوات يجري في البولفارات بالقرب من النصب التذكارية ، وبالاضافة الى ذلك كان على اعضاء المنظمة ان يرتدوا معاطف عسكرية مزررة بطريقة خاصة او يشدوا شريطا في

موضع معين من المعطف . وكان الذين ينفذون الاتصال يبرزون بمثلث مقصوص من بطاقة زيارة عليه حرفان يعني الاول منهما كلمة السر ، والثاني المدينة . وعند اظهار المثلث يوضع على البطاقة التي قطع منها . وكانت لدى الاتحاد قوات كبيرة من الاستخبارات . وفي المؤتمر السري الذي عقد في نيسان تقرر وقف اعمال التخريب ، والتحول الى العمل في المؤسسات السوفييتية ، وبهذه الصورة نفذ اعضاء الاتحاد الى وسط جهاز الدولة . وانتظم قسم منهم في ميليشيا موسكو . ودُسّ في الكرملين ممثل لهم . كما تسللوا الى الرقابة العسكرية ، بل وحتى الى المجلس العسكري الاعلى . وكما يبدو شملت شبكاتهم الكرملين بقوة .

وفي ذلك الوقت كان استيلاء القوات الالمانية بقيادة الفيلدمارشال ايخغورن يبدو امرا محتوما . وبالرغم من ان الشعور الموالي للالمان كان قويا بين اعضاء الاتحاد — الوثوق فقط في الحراب الالمانية — فان الميل العام كان نحو الحلفاء . بل وان هيئة اركان للاتحاد حددت اليوم الذي سيهجم فيه الالمان على موسكو ، وهو الخامس عشر من حزيران . ولهذا السبب تقرر التخلي عن الاستيلاء على الكرملين وموسكو . والخروج بقوات الاتحاد الى قازان ، ونسف جميع الجسور ، ومخططات الخزانات المائية في ضواحي موسكو ، واثارة الانتفاضات في قازان وليجتي وكوستروما ورييتسك وموروم . والتوحد مع التشيكيين ، وتشكيل الجبهة الشرقية بالاعتماد على الاورال ومناطق ما وراء الفولغا الغنية .

صدقت داشا بكل ما قاله كوليتشيك : الوطنيون الروس ، او كما سماهم بفرسان الروح كانوا يحاربون في سبيل القضاء على المضاربات الفلتنديات الوقحات اللواتي يتاجرن بالبطاطس ، واضاءة شوارع بطرسبورغ اضاءة باهرة يسير فيها جمهور مبتهج انيق ، في سبيل ان يستطيع المرء في اية لحظة جزع ان يرتدي قبعة بريشة ، ويسافر الى باريس . . . ولكي يُقضى على النطاطين قرب الحديقة «ليتني» ، ولا تعود الريح الخريفية تصفر على قبر ابن داشا .

لقد وعدها كوليتشيك بكل ذلك في حديثه وهو يحتسي الشاي . كان جائعا كالكلب اتى على نصف المؤنة من المعلبات ،

بل واكل الطحين مع الملح . وعند هبوط الظلام اختفى دون ان يلحظ بعد ان اخذ مفتاح الباب .

ذهبت داشا لتنام . اسدلت الستارة على النافذة ، واستلقت . وكما يحدث في ساعات الارق المرهقة تدفقت الافكار والصور والذكريات والحدوس المفاجئة ، والندامات الحارة متزاحمة يسابق بعضها بعضا . . . تقلبت داشا ، وحشرت يديها تحت ابطيها . واضطجعت على ظهرها ، وعلى بطنها . . . لدغتها البطانية والغرزت لوالب الاريكة في جنبها ، ووقعت الاغطية على الارض . . .

كانت ليلة مزعجة طويلة كالعمر . التمعت البقعة الداكنة في ذهن داشا من جديد ، وارسلت جذيراتها السامة في التلافيف الخفية . ولكن لِمَ كل هذه الندامات والشعور بالخطأ الفظيع ، بالذنب ؟ ليتها تفهم !

وبعد ذلك ، حين ازرورقت الستارة على النافذة تعبت داشا من الدوران في دوامة الافكار الخيالية ، وضعفت . وبعد ان هدأت اخذت تعاقب نفسها بصراحة ونزاهة من البداية حتى النهاية ، وشطبت على كل شيء في نفسها .

جلست على الفراش ، وجمعت شعرها في عقصة ، ودبّسته ، والقت ذراعيها العاريتين النحيلتين على ركبتيها ، وانشأت تفكر . . . امرأة وحيدة حالمة باردة لم تحب احدا . فلتذهبي الى الجحيم ، وداعا . انت لا تثيرين شفقة . . . حسنا فعل النطاطون حين اخافوك عند الحديقة «ليتني» . لم يخيفوك الا قليلا ، كان من الافضل ان يخيفوا اكثر . . . الآن اختفي . . . الآن طيري مع الريح ، يا روحي ، الى حيث يأمرون ، وافعلي ما يطلبون منك . . . لا ارادة لك . انت واحدة من ملايين عديدة . . . قابة سكينة وافي العناق ! . .

لم يعد كوليتشيك يومين وليلتين . وكان قد جاء في غيابه عدة اشخاص جميعهم ضخام في سترات مهترئة كانوا يتحدثون عن «المفتاح» ، ويقولون كلمة السر . وكانت داشا تدعهم يدخلون .

وبعد ان يعرفوا ان «ايفان سفيتشيف» غير موجود في البيت كانوا لا يخرجون راسا . كان بعضهم يشرع فجأة في الحديث عن مصائبه العائليــــة ، والبعض الآخر يطلب الاذن بــان يدخن سيكارة ، ويخرج بحذر ونعومة تبغا سوفييتيا كريه الرائحة من علبة سكائر عليها رموز ويلعن بفحش «لواب السرطانات والكلاب» وهو يشدد على «الراء» في الكلمات . ويتفلت ثالث في صراحة فيقول ان زورقه البخارى مهيأ في جزيرة كريستوفسكى ، عند قصر بيلوسيلسكي-بيلوزيرسكــــي ، وقد استطــاع ان ينتزع اشيــــاء ثمينــــة من الخزنة ، الا ان اطفاله يعانون السعـــــــال الديكي . . . من سوء الحظ ! . .

والظاهر ان الجميع كانوا يميلون الى التحدث مع هذه المرأة الشابة الرقيقة النحيلة ذات العينين الواسعتين . وكانوا يقبلون يديها حين ينصرفون . وكان الشيء الوحيد الذى يدهش داشا هو سذاجة هؤلاء المتآمرين ، وكانما هم ابطال مسرحية كوميديــــــة سخيفة . . . وكانوا جميعا تقريبا يستفسرون بعبارات حذرة : الم يجلب «ايفان سفيتشيف» المال ؟ وفي آخر الأمر اضحوا واثقين كل الثقة من ان «حكاية البلاشفة الحمقاء» ستنتهي قريبــــــــا جدا . «سيحتــــل الالمان بتروغراد ، والأمــــــر لا يحتاج الى جهود» .

وجاء كوليتشيــك اخيرا ، جــاء جائعــا مرة اخرى قذرا شديد الاستغراق في افكاره . وسأل عمن جاء في غيابه . فاطلعته داشا على ذلك بالتفصيل . فكشر عن اسنانه :

— السفلة ! جاءوا يطلبون الفلوس . . . ويسمون انفسهم حرسا ! يتكاسلون عن رفع عجيزاتهم الارستقراطية عن الكرسي ، ويرغبون في ان يأتي الالمان ليحرروهــم قائلين لهم : تفضلوا ، يا سادة ، ها نحن قد شنقنا البلاشفة ، وكل شيء على ما يرام . . . شيء فاضح ، فاضح . . . من بين مائتي الف ضابط لــم يبق من ابطــال الروح غير ثلاثة آلاف عند دروزدوفسكي ، وحوالى ثمانية آلاف عند دنيكين ، وخمسة آلاف عندنا في «اتحاد الدفاع عن الوطن» . هذا كل شيء . . . فاين الآخرون ؟ باعوا ارواحهــــم وضمائرهم للجيش

الاخضر . . . وبعضهم يصبغ صبغ الاحذية ، ويتاجر بالسكائر . . . وجميع ضباط هيئة الاركان تقريبا لدى البلاشفة . . . يا للعار ! . .

واكل الطحين مع الملح ، وشرب ماء مغليا ، وذهب لينام . وفي الصباح الباكر ايقظ داشا . لبست داشا ملابسها على عجل ، وخرجت الى غرفة الطعام فوجدته يتخطى سريعا بالقرب من المائدة متجهم الاسارير . صاح على داشا نافد الصبر :

— مثلا انت ؟ ايمكنك ان تجازفي وتضحي بالشيء الكثير ، وتقاسي آلاف المصاعب ؟ . .

— نعم ، — قالت داشا .

— انا لا اثق باحد هنا . . . وصلت انباء مقلقة . . . ويجب السفر الى موسكو ، فهل تسافرين ؟

رمشت داشا ، ورفعت حاجبيها فقط . . . تقدم كوليتشيك نحوها بعجالة ، واجلسها الى المائدة ، وجلس قربها تماما ومسها بركبتيه ، واخذ يشرح لها من يجب ان تقابل في موسكو ، والكلمات التي تنقلهــا اليه عن منظمــة بتروغراد . وغرز الكلمــات في ذاكرة داشا متحدثا بضراوة بطيئة . وجعلها تكرر . فاعادت الكلمـــــات طائعة .

نهض واقفا وفرك يديه بقوة قائلا :

— عظيم ! ذكيــة ! نحن بحاجــة الى امثالك بالذات . والآن ماذا عن شقتك ؟ قولي للجنة المساكن انك مسافرة الى اوغا لمدة اسبوع . وسابقى هنـــا بضعة ايام اخرى ، ثم اعطي المفتاح الى الرئيس . . . حسنا ؟

ودار رأس داشا من كل هذه العجلــة . واحســت مذعورة بانها مستعدة دون اعتراض الى ان تسافر الى حيث يشــاء ، وتفعل ما تؤمر به . . . وعندما ذكر كوليتشيك الشقــة التفتت داشا الى الصوان من خشب القيقب وهي تفكر : «صوان كريــه موحش كالتابوت . . .» وتذكرت الخطاطيف التي اطرتها ذات مرة بالفضــاء الازرق . وتصورت ان السعادة قد طارت من هذا القفص المترب الى حياة وحشية طليقة . . . قالت :

— الشقة ؟ ربما لا اعود اليها . فافعل ما يحلو لك .

كان من بين الذين جاءوا فى غياب كوليتشيك شخص طويل القامة طويل الوجه متدلى الشاربين مؤدب اجلس داشا فى عربة للدرجة الثالثة تهشم زجاج جميع نوافذها . انحنى عليها ، واسر اليها فى اذنها بصوت عميق : «خدماتك لن تنسى» واختفى فى الزحام . وقبيل تحرك القطار مر به اناس يتراكضون وتسللوا من النوافذ وصررهم فى اسمالهم . وازدحمت العربة كلها . وركب الناس فى الاماكن المخصصة للحقائب ، وانسلوا تحت التخوت . وهناك اشعلوا اعواد ثقاب ، ودخنوا الماخوركا بتلذذ تام .

سار القطار ببطء قرب المستنقعات الضبابية ومداخن المصانع المنطفئة ، والبرك المغطاة بالصوفة ، وتراءى من بعيد مرتفع بولكوفو فى ضوء الشمس حيث كان الفلكيون المنسيون من العالم كله وغلازيناب نفسه بسنه السبعين يتابعون تعداد النجوم فى الكون . ومرت شجيرات الصنوبر الفضة والاشجار الكبيرة والبيوت الريفية . وفى المحطات لم يسمحوا لاحد بركوب العربة ووضعت الحراسة المسلحة . وحلت الطمانينة فى العربة الآن رغم صخبها .

كانت داشا تجلس محصورة بين جنديين من جنود الجبهة . ومن التخت الاعلى دلى احدهم رأسه مرحا وظل مشتبكا بحديث لا يكاد ينقطع .

— ثم ماذا ؟ — سألوا من التخت وهم يغصون بالضحك — وكيف انتم ؟

كان فلاح اعور نحيل متدلى الشاربين غير حليق الوجه ذو قبعة من القش يجلس مقابل داشا بين امرأتين صامتتين غارقتين فى التفكير . كان القميص الذى يرتديه من خيش الزكائب ، مشدودا حول عنقه بشريط . وقد تدلى من حزامه مشط وقطعة من قلم حبر النسخ ، وتحت صدر قميصه اوراق .

لم تعر داشا انتباها الى الحديث فى بادىء الامر . ولكن حديث الاعور كان يبدو جذابا جدا . وبالتدريج استدارت الرؤوس نحوه من جميع التخوت ، وهدأت الضجة فى العربة اكثر من ذى قبل . وقال الجندى ذو البندقية بثقة :

— لقد فهمتكم . بكلمة واحدة انتم من الانصار ، من جماعة ماخنو .

صمت الاعور قليلا مبتسما فى شاربيه بخبث :

— اراكم قد سمعتم بالاخبار ، ولكن ليس بالشكل الصحيح .

ووضع يده المعروقة تحت شاربيه منحرفة ، وكأنه ليزيل ابتسامته ، وقال فى شىء من المهابة :

— عند ماخنو تنظيم كولاكى . وهو يعمل فى منطقة يكاترينوسلافل لا احد يملك هناك اقل من مائة فدان ، اما نحن فشىء آخر . نحن انصار حمر ...

سأل ذو الوجه المرح :

— وماذا تفعلون ؟

— منطقة عملياتنا محافظة تشيرنيغوف ، والقسبة نيجين الشمالية . مفهوم ؟ ونحن شيوعيون . نحن لا نفرق بين الالمان وملاك الارض البولوني ، وغايداماك الهيتمان ، والكولاك من قريتنا ... يعنى لا يجوز ان تخلطنا مع جماعة ماخنو . مفهوم ؟

— نعم ، فهمنا ، ولسنا اغبياء . فاكمل حديثك .

— تكملة الحديث ان عزائمنا قد خارت بعد القتال مع الالمان . وتراجعنا فى غابات كوشيليف ، وتقدمنا الى احراش لا يعيش فيها غير الذئاب . واسترحنا قليلا ، واخذ الناس من القرى المجاورة يفدون الينا . وقالوا ان الحياة صارت متعذرة عليهم وان الالمان اخذوا يطهرون المنطقة من الانصار بشكل جدى . وساعد الغايداماك الالمان فى ذلك ، فما يمر يوم دون ان يهجموا على قرية ، ويجلدوا كل من يشير اليه الكولاك . وقد استبد الضيق برجالنا من هذه الحكايات حتى ضاقت انفاسهم . وفى ذلك الوقت جاءت فصيلة اخرى ، واجتمع فى الغابة جيش كامل ، حوالى ثلثمائة وخمسين رجلا . وانتخبوا رئيسا للجماعة وهو الملازم الثانى غولتا احد الانصار من فيركيف . واخذنا نفكر فى الاتجاه الذى ستكون فيه عملياتنا المقبلة ، وقررنا ان نراقب نهر ديسنا . وكانت الذخيرة الحربية الى الالمان تمر عبر هذا النهر . وذهبنا ، واخترنا مكانا تضطر فيه السفن الى الاقتراب من الشاطىء تماما . وكمنا هناك ...

وسأل شخص من فوق :

— عظيم ، وماذا بعد ؟

— هكذا . تتقدم السفينة فيصيح صوت في الصف الامامي منا : «قف !» . ولم يطع القبطان امرنا فاطلقنا القذيفة . وبالطبع ترسو السفينة على الشاطىء . فنصعد على متنها في الحال ، ونضع الحرس ، ونقوم بتفتيش الهويات .

قال الجندي :

— حسب الاصول .

— والسفينة محملة بالسروج والعُدد . يتقلها ضابطان برتبة عقيد ، احدهما رخوتاما ، والثاني شاب ذو فتوة . وبالاضافة الى ذلك توجد ادوية . وهذا ما نحتاج اليه . وقفت على ظهر السفينة احقق في الهويات . فاذا بشيوعيين يتقدمان الي هما بيتر وايفان بتروفسكي من مقاطعة بوروديانسك . وحدست في الحال انه يجب الا اظهر انهما من معارفي . وعاملتهما بشكل رسمي وبجدية : «هوياتكما» . قدم بتروفسكي هويته لي ومعها مذكرة على ورقة سكائر جاء فيها : «الرفيق بيافكا ، انا المسافر مع اخي تشيرنيغوف ، ومسافر الى روسيا ، فارجو ان تكون بلا رأفة معنا حتى لا تثير اشتباه المحيطين بنا ، لأن حولنا جواسيس . . .» حسنا . . . بعد ان دققنا في الهويات افرغنا العُدد والسروج والادوية ، وخمسة عشر صندوقا من الشبة لتقوية جرحانا . ويجب ان اقول الانصاف في حق طبيب السفينة ، فقد تصرف ببطولة . صاح : «لا استطيع ان اتخلى عن الادوية لأن ذلك مخالف لجميع القوانين ، والعرف الدولي ايضا» . وقد اجبناه باختصار : «نحن ايضا عندنا عرس . ومعنى ذلك ان العرف الانساني لا الدولي يقتضي اعطاء الادوية ! . . .» واعتقلنا عشرة ضباط ، وانزلناهم الى الشاطىء ، وتركنا السفينة تمر . وعلى الشاطىء اخذ العقيد العجوز يبكي ويتوسل الا نقتله ، وعدد خدماته العسكرية . وفكرنا : «لماذا نمسه ، انه سيموت بنفسه قريبا» . واطلقنا سراحه تحت تأثير الشهامة . اما هو فركض الى الغابة . . .

اوسل الذي كان يدلي برأسه من التخت قهقه قهقهة فرح . واستمر الاعور في حديثه حين انتهت نوبة الضحك :

— والشخص الآخر ، وهو موظف لدى هيئة عسكرية ، ترك في انفسنا انطباعا حسنا . فقد اجاب على جميع الاسئلة بحماس ، وتصرف ببساطة ، فاطلقنا سراحه ايضا . . . اما الآخرون فاخذناهم

الى الغابة . . . وهناك رميناهم بالرصاص لأن احدا لم يرد ان يقول شيئا . . .

نظرت واننا الى الاعور مكتومة الانفاس . كان وجهه هادئا متقشفا عن حزن . كانت عينه الوحيدة الرمادية التي شهدت احداثا بحدقتها الصغيرة تراقب بتفكير اشجار الصنوبر المارة من خلف النافذة . واستمر الاعور في حديثه بعد وقت وجيز :

— لم نمكث طويلا على ديسنا . فقد التف حولنا الالمان ، فتراجعنا الى غابات دروزدوف . ووزعنا الغنائم على الفلاحين ، حقا ان كل واحد منا شرب قدحا من النبيذ ، ولكننا اعطينا الباقي الى المستشفى . في ذلك الوقت كان كرابيفيانسكي يعمل الى يسارنا ومعه فصيلة كبيرة ، وكان الى يميننا ماروتيا ، وكانت مهمتنا المشتركة شق طريقنا الى تشيرنيغوف ، واحتلالها بهجوم . ويا ليت كان لنا اتصال جيد بين الفصائل . . . ولكن لم يكن ثمة اتصال حقيقي . فتأخرنا . وكان الالمان في كل يوم يرسلون القوات المدفعية والخيالة ضدنا . فقد كان وجودنا يزعجهم كثيرا . كانوا ما ان يغادروا قرية حتى تشكل في القرية لجنة ثورية ، ويعلق واحد او اثنان من الكولاك على جذع شجرة . . . وذات مرة ارسلوني الى فصيلة ماروتيا لجلب النقود . فقد كنا بحاجة ماسة اليها . . . كنا ندفع للسكان نقودا على المواد الغذائية . وكان النهب ممنوعا عندنا وعقوبته الموت . ركبت عربة ، وذهبت الى غابات كوشيليف . وهناك تحدثت مع ماروتيا عن شؤوننا ، وحصلت منه على الف روبل من عملة كيرينسكي ، وعدت راجعا . . . وبالقرب من قرية جوكوفكا ، وما كدت انزل الى الوادي حتى هاجمني اثنان من الخيالة ، من دوريات اللجنة الثورية في جوكوفكا . «الى اين ذاهب والالمان هنا ! . . .» — «اين ؟» — «انهم يقتربون من جوكوفكا» ، فرجعت . . . وخبأت الفرس في حرش ، ونزلت من العربة . واخذنا نتناقش ماذا نفعل ؟ لا مجال ابدا لمقاومة جماهيرية ضد الالمان . فقد كانوا يزحفون بطابور كامل ومعهم مدفعية . . .

قال الجندي :

— ثلاثة مقابل طابور امر صعب .

— امر صعب تماما . فقررنا ان نخيف الالمان فقط ، وزحلنا في

حقل الجودار . ونرى امامنا جوكوفكا ، ومن غابة صغيرة يخرج طابور من مائتي شخص تقريبا ، ومدفعان ونصف عربات ، وعلى مسافة اقرب الينا دورية من الخيالة . والظاهر ان شهرة الانصار عدت هديرها حتى انهم ارسلوا ضدنا حتى المدفعية . استلقينا في حدائق الخضروات . وكانت معنويتنا عالية . تضحك مقدما . وتمضي الدورية على بعد خمسين خطوة منا . واصدر امري : «كتيبة ، ارمي !» وطلقة وراءها اخرى . . . واتكفا حصان . ووقع الالماني في التراب . وانا صائح : النار ! وقذفتنا بالترابيس ، وضجعنا وهدرنا . . .

تقلبت عينا الرجل المطل براسه من التخت العلوي ، وضم فمه بيده منعا لانطلاق ضحكة او انفلات كلمة تعليق . وضحك الجندي راضيا .

– عادت الدورية خببا الى الطابور ، واستدار الالمان ، ودفعوا صفوفهم ، وانتقلوا الى الهجوم حسب الاصول . وفصلوا المدافع من عرباتها ، وانطلقت القنابل من عيار ثلاث بوصات على حدائق الخضروات . بينما كانت النساء يقلعن البطاطس منها . . . وتفجرت الارض وارسلت ترابها الى فوق . . . وتساءلنا (ودفع الاعور قبعته على اذنه بظفره ، ولم يستطع ان يكتم ضحكه ، وقهقه الرجل من فوق التخت .) وتساءلنا تفرقن من الحدائق مثل دجاجات مروعة . . . بينما تقدم الالمان من القرية بخطوات سريعة . . . وهنا قلت : «يا اولاد مزحنا ، والآن لنتراجع» . وزحفنا ثانية خلال الجودار الى منخفض وصعدت انا الى العربة واتجهت الى غابة دروزدوف دون مغامرات . وقد روى اهالي جوكوفكا فيما بعد ان الالمان تقدموا من حدائق الخضروات ، الى اسيجتها تماما ، وهم يهتفون «هورا!» . . . ولكن لم يجدوا احدا وراء الاسيجة . والذين راوا هذا المنظر انفجروا ضاحكين . . . احتل الالمان جوكوفكا ، ولم يجدوا احدا من اللجنة الثورية ولا من الانصار ، واعلنوا حالة الطوارئ في القرية . وبعد يومين او ثلاثة جاءتنا اخبار الى غابة دروزدوف تقول ان قافلة المانية كبيرة دخلت جوكوفكا تحمل عتادا وخراطيش ، وكان العتاد والخراطيش اثمن شيء لنا . . . واخذنا نناقش ونقلب الامر ، واشتدت شهية الاولاد فقررنا الهجوم على جوكوفكا والاستيلاء على الخراطيش ، واجتمع حوالي مائة منا . وارسل

ثلاثون منهم الى الطريق العام ليمنعوا الالمان من التراجع الى تشيرنيغوف في حالة نجاحنا . وسار الآخرون طابورا نحو جوكوفكا . وعند هبوط الظلام زحفنا ، واستلقينا في حقل الجودار قرب القرية . وارسلنا سبعة اشخاص في استطلاع ليطلعوا على كل المواقع ويلحقونا . وفي الليل نقوم بهجوم مباغت . استلقينا دون اية ضجة ، ومنعنا التدخين . ونزل المطر رذاذا ، وغالبنا النعاس ، وكانت الارض وطنية . . . وظللنا ننتظر ، حتى بدا الظلام ينقشع . وما من حركة . فما السبب ؟ ونجد النساء يبدأن باخراج الماشية لترعى في الحقل . ويأتي اصحابنا السبعة المستطلعون عائدين بادراجهم . . . وتبين ان هؤلاء الملاعين عندما وصلوا الى الطاحونة استلقوا ليستريحوا قليلا ، وناموا الليل كله ، حتى وصلت النساء اليهم مع الماشية . ولا مجال للهجوم بعد الآن ، بالطبع . . . وقد تكدرنا عظيم الكدر حتى ضاقت بنا الارض . وكان يجب تشكيل محكمة وانزال العقاب بالمستطلعين . وقررنا بالاجماع رميهم بالرصاص . الا انهم انفجروا يبكون ، ويطلبون الرحمة ، واعترفوا بذنبهم كليا . كانوا لسبب ما قد ارتكبوا خطأ لاول مرة . . . وقررنا ان نعذرهم ، ولكن اشترطنا على ان يكفروا عن ذنبهم في المعركة الاولى .

قال الجندي :

– يحق العفو في بعض الاحيان .

– نعم . . . واخذنا نتداول . اذا كنا لم نستول على جوكوفكا ليلا فسنستولي عليها نهارا . العملية جديدة ، وفهم الاولاد الامر الذي يقدمون عليه . وتناثرنا جماعات صغيرة ، وانتظرنا ان نلعلع الرشاشات . لم نزحف ، بل ركضنا على الاربع . . .

وصدر من الاعلى صوت ضاحك .

– وبدلا من ان نلتقي بالالمان التقينا بنساء يحملن سلالا ، فقد كن خارجات لجمع الاعشاب البرية ، وكان اليوم يوم احد . وضحكن منا ضحكا عاليا . قائلات : تاخرتم ، القافلة الالمانية خرجت منذ حوالي ساعتين في طريق كوليكوفو . وهنا قررنا بالاجماع ملاحقة الالمان ، ولم نتلقنا في المعركة جميعا . واخذنا معنا ارفاقنا لنقوم بحفر الخنادق . واعطتنا النسوة فطائر وكعكا . وخرجنا وسار وراءنا جمع غفير من الناس ، جيش كامل ، اكثرهم بدافع الفضول . وهذا

ما فعلناه : وزعنا الخوازيق على الفلاحين والنساء واصطففنا في صفين ، وجعلنا بين كل شخص وآخر زهاء عشرين خطوة بحيث يكون بين كل مسلح شخص يحمل خازوقا او عصا لمجرد التخويف . وامتددنا الى حوالى خمسة فراسخ . وقد اخترت انا ١٥ محاربا من بينهم مستطلعينا الغائبين اولئك ، واخذت ضابطين من الذين جندناهما ، وهما من المعادين للثورة بشكل واضح ، ولكننا قلنا لهما : اذا برزتما ثقتنا ستنقذ حياتكما . وركضنا ، بجماعتنا على ، امام القافلة الالمانية على الطريق العام . . . ونشبت معركة ، يا اخواننا ، دامت اكثر من يوم ويومين . . . (وهز ذراعه وكأنه لا يريد ان يكمل الحديث) .

سأل الجندي :

– وكيف كان ذلك ؟

– هكذا . . . انا والجماعة تركنا الطابور يمر ، وهجمنا على المؤخرة ، على طابور العربات . واستولينا على عشرين عربة من العتاد تقريبا . ملأنا الحقائب بالخراطيش ووزعنا البنادق على الفلاحين ، قدر ما تمكنا ، وتابعنا الهجوم على الطابور . ظننا اننا قد احطنا به فاذا بالالمان قد احاطوا بنا ، فقد زحفت الى ذلك المكان جميع اصناف السلاح على ثلاثة طرق . . . تجزأنا الى جماعات صغيرة ، ونزلنا الى الاخاديد . ومن حسن حظنا ان الالمان قد نظموا العملية وفق كافة اصول المعركة الكبيرة ، والا لما خرج منا واحد حيا . . . لم يبق احياء من الانصار غير عشرة اشخاص ، على ما اظن . حاربنا الى آخر طلقة . وبعد ذلك قررنا ان البقاء هنا مستحيل ، ويجب التسلل الى ما وراء ديسنا ، الى منطقة محايدة ، في روسيا . اخفيت البندقية ، وتظاهرت بانني اسير حرب ، وتوجهت الى نوفغورودسيفيرسكي . . .

– وانت الآن ، الى اين ذاهب ؟

– الى موسكو طلبا للتوجيهات .

وتحدث بيافكا بقصص اخرى عن حركة الانصار وعن حياة الريف . «نخرج من مصيبة ، وندخل في اخرى . تلك هي حياتنا ، دفعوا الفلاح الى ان يحيا حياة الذئاب ، ولم يبق امامه الا ان يقتل» .

وكان هو من تيجين ، وكان يعمل في مصانع بنجر السكر . وقد فقد عينه في عهد كيرينسكي اثناء هجوم حزيران التعيس . وقد عبر عن ذلك قائلا : «كيرينسكي هو الذي فقأ عيني» . وفي خنادق الجبهة تعرف على الشيوعيين ، وكان عضوا في سوفييت تيجين ، وعضوا في اللجنة الثورية ، وعمل سريا في تنظيم حركة المقاومة .

وقد اثرت قصته في داشا تأثيرا قويا . فقد كانت فيها صدق . وقد فهم ذلك ايضا جميع المسافرين الذين كانت عيونهم تتطلع الى فم المتحدث .

كانت بقية النهار والليل بطوله متعبين . كان داشا تجلس مطبقة ساقيها مغمضة عينيها تفكر الى حد وجع الراس ، الى حد القنوط . كانت هناك حقيقتان : حقيقة هذا الرجل الذى فقد عينه ، وحقيقة الجنديين من الجبهة ، وصاتين الصرالين الشاخرتين بوجهيهما البسيطين المتعبين ، والحقيقة الاخرى هي الحقيقة التى زعق بها كوليتشيك . ولكن لا وجود لحقيقتين . فلا بد ان واحدة منهما خاطئة ، مفزعة ، مهلكة . . .

وصل القطار الى موسكو في منتصف النهار . ونقل حوذى عربة عجوز داشا يخبب غير سريع عبر شارع مياسنيتسكايا القذر المسلوخ الجدران ، حيث كان الوحل يلطخ واجهات المخازن الفارغة . وادهش داشا فراغ المدينة ، فقد كانت تتذكرها ايام كانت آلاف الناس تسير ملوحة بالاعلام منشدة الاغاني في الشوارع الجليدية ، متبادلة التهاني بالثورة التى لم يرق فيها دم .

في ساحة لوبيانسكايا كانت الريح تدوم غبارا . سار جنديان بقميصين عسكريين بلا حزام ، وياقتاهما مطويتان . ونظر الى داشا شخص واهن طويل في سترة مخملية ، وصرخ بشيء لها ، بل وركض وراء العربة . الا ان الغبار غشى على عينيه ، فتأخر . كان فندق «متروبول» مثلما بقذائف المدافع ، وكان الغبار يدوم هنا في الساحة . وكان غريبا ان يرى المرء في الساحة القذرة حوضا من الزهور الزاهية ، لا يعرف من غرسها ولم .

وكان شارع تفرسكايا اكثر حيوية . كانت الحوانيت مفتوحة هنا وهناك . ومقابل سوفييتات المدينة ، وفي مكان نصب الجنرال سكوبيليف نهض مكعب خشبي هائل مكسو بقماش احمر وبدا هذا لداشا مرعبا . اشار الحوذي العجوز اليه بسوطه :

— رفعوا البطل من مكانه . انا اسوق منذ زمان في موسكو ، فاراه واقفا في مكانه . ولم يرق للحكومة الحاضرة . كيف سنعيش ؟ لا يبقى امامنا غير نستلقي ونموت . يرد التين بسائق دويل السادة تفرقوا ، ولم يبق الا الرفاق ، وهؤلاء يمشون على ارجلهم في الغالب . . . اوه ، دولة ! . . — وجذب العنان . — يا ليت ان يكون لنا ملك ، اي ملك . . .

قبل ان تصل داشا الى ساحة ستراستنايا رأت يسارا تحت لافتة «مقهى بوم» وراء واجهتي صقيلتين شبانا عاطلين وشابات مسترخيات على الارائك ، وكان الجميع يدخنون ويشربون نوعا من المشروب . وعلى الباب المفتوح على الشارع وقف رجل حليق طويل الشعر اشعثه يدخن غليونا وقد اتكأ بكتفه . وبدا وكأنه قد اندهش من مرأى داشا ، فاخرج غليونه من فمه . ولكن داشا عبرته وظهر برج كاتدرائية ستراستنوى الوردي ، وتمثال بوشكين ، رأت داشا الخرقة الناصلة اللون التي كانت قد علقت اثناء الاجتماعات الحاشدة الصاخبة ما تزال متدلية من تحت مرفقه . وكان اطفال نحاف يتراكضون على قاعدته الغرانيتية ، وعلى مصطبة جلست سيدة تضع نظارة انفية وتعتمر بقبعة تشبه تماما القبعة التي وضعها بوشكين وراء ظهره .

مرت سحائب هزيلة فوق بولفار تفرسكوى ، وضجت سيارة لورى محملة بالجنود . وقال الحوذي وهو يومئ اليها :

— جاءوا لينهبوا . اتعرفين فاسيلي فاسيليفيتش اوفسيانيكوف ؟ اول مليونير في موسكو . بالامس جاءوا اليه في سيارات لورى مثل هذه ، واخذوا كل ما في منزله . فاكتفى فاسيلي فاسيليفيتش بهز راسه ، وخرج الى حيث لا يدرى احد . يقول الشيوخ ان الناس نسوا الرب . . .

ظهرت في آخر البولفار خرائب منزل غاغارين . وفي اعلى الجدار وقف رجل وحيد في صدار يقلع الآجر بمعول ويقذفه الى الاسفل . والى

١٥

اليسار هيكل بيت محروق ينظر الى السماء الشاحبة بنوافذها الفارغة . وجميع البيوت المجاورة منقبة بالرصاص كالغربال . قبل عام ونصف كانت داشا وكاتيا تسيران على هذا الرصيف وقد وضعتا على راسيهما منديلين وبرين . وكان الجليد الرقيق يخشخش تحت اقدامهما ، والنجوم متعكسة على البرك المتجمدة . كانت الشقيقتان منطلقتين الى نادي المحامين للاستماع الى محاضرة استثنائية حول الاشاعات عن الثورة التي زعم انها بدأت في بطرسبورغ . وكان هواء الربيع يبعث النشوة كالسعادة . . .

هزت داشا رأسها تطرد الذكريات عنه ، وقالت لنفسها : «لا اريد . . . هذا ولى . . .»

خرجت العربة الى شارع اربات ، واستدارت يسارا الى شارع بالليى . وكان قلب داشا يدق بشدة حتى انها شعرت ان الدنيا اسودت في عينيها . . . وظهر بيت ابيض من طابقين ينتهي بعلية . في هذا البيت كانت داشا قد عاشت مع كاتيا والفقيد نيقولاى ايفانوفيتش في عام ١٩١٥ . والى هذا البيت جاء تليغين بعد هربه من الاسر الالماني ، وفيه التقت كاتيا بروتشين وقد خرجت داشا من هذا الباب المقشر في يوم زفافها ، فاجلسها تليغين في عربة يجرها حصان رمادي وانطلقا في الغبش الربيعي بين الاضواء التي ما زالت شاحبة للقاء السعادة . . . كانت نوافذ العلية محطمة ، وتعرفت داشا على ورق الجدران في غرفتها السابقة . كان يتدلى مزقا . طار غراب من النافذة . سأل الحوذي :

— يمينا ام يسارا ؟

التجأت داشا الى الورقة تستفسرها . توقفت العربة عند بيت متعدد الطوابق . كان الباب الخارجي مسمرا بالالواح من الداخل ، وكان لا يجوز لداشا ان تسأل فبحثت طويلا في السلالم الخلفية عن الشقة رقم ا — ١١٢ . كان وقع خطاها يجعل بعض الابواب تفتح قليلا من سلسلتها . وظهر ان وراء كل باب كان يقف شخص ينبه السكان على الخطر .

في الطابق الخامس طرقت داشا ثلاث طرقات وطرقة اخرى منفصلة ، حسب ما علموها . تردد وقع خطوات حذرة ، ونظر شخص من ثقب الباب الى داشا زافرا بانفاسه منه . وفتحت الباب

سيدة طويلة فى منتصف العمر لها عينان جاحظتان مفزعتان زرقاوان زرقة ساطعة ، مدت داشا اليها المثلث الكارتونى صامتة . قالت السيدة :

— آه ، من بطرسبورغ . . . تفضل بالدخول .

مرت داشا عبر مطبخ لم يستعمل منذ وقت بعيد على ما يبدو الى حجرات كبيرة مسدلة الستائر ، وفى شبه الظلمة لاحت معالم اثاث فاخر ، ولمع برونز ، الا ان هنا ايضا لا وجود لرائحة حياة . دعت السيدة داشا الى الجلوس على اريكة ، بينما جلست هى الى جانبها متفحصة الضيفة بعينيها المرعبتين المشعتين ، قالت بصرامة وآمرية :

— تحدثى .

جمعت داشا افكارها مجاهدة ، وبدات بنفس المجاهدة تنقل المعلومات المقلقة التى طلب كوليتشيف اليها ان تنقلها . شبكت السيدة يديهـــا الجميلتين المزينتين بالخواتم على ركبتيهـــا المضمومتين ، وطقطقت باصابعها . وقاطعتها :

— يعنى انكم لا تعرفون شيئا فى بتروغـــراد ؟ — واهتز صوتها الخفيض فى حنجرتها . — لا تعرفون انه فى بيت العقيـــد سيدوروف جرى التفتيش الليلة البارحة . . . وعثروا على خطة الجلاء وبعض سجلات التجنيد . . . ولا تعرفون ان فيليتكين قد اعتقل اليوم عند الفجر . . .

ورفعت السيدة صدرها بحركة متشنجة ، ونهضت مـــن الاريكة ، وسحبت الستار المســـدول على الباب ، والتفتت الى داشا :

— تعالى الى هنا : سيتحدثون اليك . . .

قال الرجل الواقف وظهره الى النافذة ، وفى صوته نبرة آمرة :

— كلمة السر .

مدت داشا اليه المثلث الكارتونى فقال :

— مَنْ الذى اعطـــاه لك ؟ (بدات داشـــا تشرح .) باختصار !

كان يضع بيده اليسرى منديلا حريريا على فمه حاجبـــا به وجهـــه الاسمر او ربما المموه . وكانت عينـــاه غير واضحتى اللون والمؤطرتان بصفرة تتفرسان فى داشا بنفاد صبر . قاطعهـــا من جديد :

— اتعلمين انك فى دخولك المنظمة تخاطرين بحياتك ؟

قالت داشا :

— انا وحيدة وحرة . وانا لا اكاد اعرف شيئا عن المنظمة ، وقد عهد نيكانور يوريفيتش الىّ بمهمة . . . لا استطيع ان اظل مكتوفة اليدين . اؤكد لك اننى لا اخاف العمل ولا . . .

— انت ما زلت صغيرة .

قال ذلك بنفس الحدة ، ولكن داشا رفعت حاجبيها بتيقظ :

— عمرى اربعة وعشرون عاما .

— هل انت سيدة ؟ (لم تجب .) فى الظرف الراهن هذا مهم . (هزت راسها باثبات .) يمكنك الا تتحدثى عن نفسك . انا اسبر اغوارك كلها . واثق بك . فهل يدهشك ذلك ؟

رفت عينا داشا ولم تقل شيئـــا . فان العبارات الحادة الواثقة ، والصوت الآمر ، والعينين الباردتين قد اوثقت بسرعـــة ارادتها المتأرجحة . واحست بنفس الارتياح الذى يحس به انسان وهو يجد طبيبا يجلس عند فراشه تلمع نظارتاه الحكيمتان : «يا ملاكى ، منذ اليوم ستتصرف هكذا . . .»

والآن راحت تتطلع بانتباه الى هذا الرجل الذى يضع منديلا على وجهه . كان ربع القامة يرتدى قبعة ناعمة ومعطفا بلون الكاكى مفصلا عليه تفصيلا جيدا ، وطماقين جلديين . وكان بلباســـه وحركاته الدقيقة يشبه اجنبيا ، وكان يتحدث بلهجة بطرسبورغية ، وصوت غير محدد واجش .

— اين نزلت ؟

— لم انزل فى مكـــان ما . جئت من المحطـــة الى هنـــا راسا .

— لطيف جدا . الآن اذهبى الى مقهـــى «بوم» فى شارع ليرسكايا ، وتناول طعامـــك هناك . وسياتى عليك شخص ستتعرفين عليه من دبوس ربطته على شكل جمجمة . وسيقول لك

كلمة السر : «يصحبك الله في الطريق الميمون» . عندئذ اريه هذا (وقطع المثلث الكارتوني واعطى نصفه لداشا .) اظهريه بحيث لا يراه احد . وسيعطيك تعليمات اخرى . اطيعيه طاعة مطلقة . عندك فلوس ؟

واخرج من محفظة الجيب ورقتين من فئة الف روبل من عملة «الدوما» ، وقال :

— سيدفع حسابك . حاول ان تحافظي على هذه النقـــود للطوارئ في حالـــة الانهيار المباغت ، وللرشوة ، والهرب . كل شيء يمكن ان يحصـــل لك . اذهبي . . . انطلقي . . . هل فهمتني جيدا ؟

— نعم .

اجابت داشا متلعثمة ، وهي تطوي الورقتين النقديتين على شكل مربع اصغر فاصغر .

— لا تذكري شيئا عن لقائي معك ، ولا اي شيء عن مجيئك الى هنا . انصرفي .

ذهبت داشا الى شارع تفيرسكايا . كانت جائعة تعبى . مرت امام عينيها اشجار بولفار تفيرسكوي والمارة القليلون المتجهمون ، وكان كل ذلـــك تراه من خلال ضبـــاب . وكانت ما تزال تشعر بالهدوء لكونها قد وضعت حدا لركودها المطلب ، وجرفتهـــا الاحداث غير المفهومة لها مثل دوامة عاصفة ، وحملتها الى حياة وحشية .

مرت بها امرأتان في نعلين ليفين وكانهما طلاق على شاشة . والتفتا الى داشا وقالت احداهما بخفوت :

— لا تستحي . لا تكاد تقف على رجليها .

وثم مرت امرأة فارعة لها شعر وخطه الشيب جمـــع في تسريحة تشبه عش غراب ، وقد احاطت بفمها غضون بالـــة للغاية . وانطبعت حيرة كبيرة على وجهها الذي على ما يبدو كان جميلا في يوم ما . كانت تنورتها الطويلة السوداء مرقعة بقماش مختلف وكانه عن عمد ، وقد امسكت ضمة من الكتب تحت شمالها

التي كانت تجر طرفـــه على الارض . توجهت الى داشـــا بصوت خفيض :

— عندي كتب روزانوف الممنوعة ، والاعمال الكاملـــة لفلاديمير سولوفيوف . . .

وفي مكان ابعد وقف بضعة شيوخ يفعلون شيئا ما وهـــم ينحنون على مصطبة حديقة ، ولما مرت داشا بهم رأت جنديين من الحرس الاحمر غارقين في نوم عميق على المصطبـــة متلاصقين بكتفيهما وقد فتحا فميهما ، ووضعا بندقيتيهما بين ركبتيهمـــا . وكان الشيوخ يشتمونهما همســا بكلمات بذيئة .

كانت الريح الجافـة تطارد الغبار وراء الاشجار . دق جرس ترام منفرد ، وعرباتـــه المخلوعة تضرب بلاط الشارع . كانت مجاميع رمادية من الجنود تتعلق بالدرابزين وعلى مكان الفرامل الى الخلف . وكانت العصافير تنط على رأس تمثال بوشكين البرونزي لا يهمها شيء من امر الثورات .

استدارت داشا نحو شارع تفيرسكايا . واقتحمتها من ظهرها سحابة من الغبار ، وغطتها بقطع الاوراق ، ودفعت بها الى مقهـــى «بوم» — المعقل الاخير للحياة القديمة اللاهية .

في هذا المكان كان يجتمـــع الشعراء مـن كل المدارس ، والصحفيون السابقون ، والمضاربون بالادب ، والشبان النشطاء الذين يكيفون انفسهم للزمن المضطرب ببساطة ومهارة والفتيات المسممات بالسأم والكوكائين ، والفوضويون الصغار الذين يبحثون عن التسليات الحادة ، والزوار المنجذبون الى اكل الكعك .

ما كادت داشا تحتل مقعدا في الصمى المقهى تحت تمثال لصقي لكاتب شهير حتى بسط احد الاشخاص ذراعيه ، واندفع خـــلال دخان التبغ ، وجلس على مقعد بجوار داشا مقهقها بنداوة كاشفا عن اسنان فاسدة . لقد كان ذلك هو الشاعر الكسندر جيروف الذي كانت تعرفه منذ قبل .

— لحقت بك على ساحة لوبيانسكايا . . . كنت على يقين من انك كنت في العربة ، يا داريا دميتريفنا . فاية مصادفة . من اين جئت ! هل انت وحدك ؟ مع زوجك ؟ هل تذكرينني ؟ كنت في يوم ما اعشقك . وكنت تعرفين هذا ، اليس كذلك ؟

كانت عيناه لديقين . وكان لا ينتظر جوابا عن اى سؤال ، عل ما يبدو . وكان عل عهده فى الماضى — فى سورة من الانفعال ، سوى ان بشرته السقيمة قد ارتخت . كان انفه المعكوف العريض فى الاسفل يبدو كبيرا فى وجهه الطويل النحيل .

— كم عانيت خلال هذه السنوات ... شىء خيالى ... جئت الى موسكـــــو منذ وقت قصير ... انا من جماعـــــة الشعراء التصويريين : سيرغى يسينين ، بورليوك ، وكروتشينيخ . لقد تحطم ... هل مررت بكاتدرائية ستراستنوى ؟ هل رأيت الحروف الكبيرة عل الجدار ؟ تلك جرأة عالميـــــة ... حتى البلاشفـــــة ذاهلون ... انا ويسينين عملنا طوال الليل ... صورنا فى شعرنا مريم العذراء وعيسى المسيح بصورة شائنة ... فخش كوانى ... فى الفجر قرأته عجوزتان فطلعت روحاهما فى الحال ... داريـــــا دميتريفنا ، انا فضلا عن ذلك من الجماعة الفوضويـــــة «الباشق الاسود» ... ستجذبك الينـــــا ... لا ، لامحالة ... العرفين من هو رليسنـــــا ؟ ماموتت دالسكى الشهير ... عبقرى ... كين الثانى ... الجسور العظيـــــم ... لم يمض اسبوعان حتى تقع موسكو كلها فى ايدينا ... ويبدا عهد عظيم ! موسكو تحت الراية السوداء . قررنا ان نحتفل بالنصر . العرفين كيف ؟ نعلن عـــن كرنفال عام ... براميـــــل النبيذ فى الشوارع ، وفى الساحـــات الموسيقى تعزفها جوقات عسكرية ... مليون ونصـــف متنكر سيظهر نصفهم عراة ، وليس فى ذلك ادنى شك . وبدلا من الالعاب النارية ستنفجر مخازن المدفعية فى جزيرة لوسيتى . لم يشهــد تاريخ العالم مثيلا كذلك .

وكان ذلك النظام السيـــاسى الثالث الذى تعرفت عليه داشا خلال هذه الايام . والآن لم تشعر الا بالخوف . حتى انها نسيت جوعها . وانخرط جيروف بالتفاصيل بعد ان رضى بالاثر الـــذى خلفه .

— احقا لا تشعرين بغثيان دم حين ترين إبتذال المدينـــة الحديثة ؟ ان صديقى فاليت ، الرسام العبقرى — وانت تعرفينه — وضع خطة لتغيير وجه المدينة كليا ... المقصود تهديم كل شىء والبناء من جديد ، ولكننا لن نلحق فى ذلك قبل الكرنفـــال ... بالطبع تقرر تهديم بعض المبانى . المتحف التاريخى ، الكريملين ، وبرج سوخاريف ، وبيت بيرتسوف ... ستضع عل طول الشارع حواجز من الالواح بارتفاع البيوت مرسومة عليها تصاميم معمارية عل طراز لا مثيل له وفى منتهى الحداثة ... والشجرة باوراقهـــا الطبيعية غير مقبولة . ستصبغ الشجر بالوان مختلفة مستخدمين المرشات ... فتصورى اشجـــار زيزفون سوداء فى بولفـــار بريتشيستينسكى ، وبولفار تفيرسكوى ليلكى بشكل منحوس ... فظاعة ! ... وتقرر ايضا اقامة اعمال تدنيس لتمثال بوشكين عـــل نطاق الشعب كله ... داريا دميتريفنا أتذكرين «التدنيســـات العقلية» و«مكافحة المألوف» فى شقة تليغين ؟ كانوا يهزأون بنا آنذاك .

وضحك ضحكة سريعة كالرجفة وتذكر الماضى واقترب من داشا ، ومس صدرها الناهد قليلا ، وهو يومىء .

— اتذكرين بلزافيتا كييفنا ؟ ذات العينين الشبيهتين بعينى الخروف ؟ كانت تهيـــــم بخطيبـــــك الى حد الجنون . وعاشرت بيسونوف . وزوجها جادوف مقاتل فوضوى بارز ... هو وماموتت دالسكى ورفاقنا الرئيسيان . كما ان انتوشكا ارنولدوف هنـــا ايضا ! فى عهد الحكومة المؤقتة سيطر عل كل الصحافـــة ، كان يمتلك سيارتين ويعاشر الارستقراطيات ... كانت عنده هنغارية من «فيلا روده» ذات جمال صارخ . كان ينام معها والمسدس فى يده . ولقــــد سافر الى باريس فى تموز الماضى ، وكاد ان يعين سفيرا ... الحمار ! ... لم يلحق ان يحول نقوده الى الخارج ، وهو الآن يتضور جوعا كابن كلبة . يا داريا دميتريفنا يجب ان تجارى العهد الجديد ... تعثر انتوشكا ارنولدوف نفسه لأنه اتخذ لنفسه شقة واسعة مريحة فى شارع كيروتشتايا ، واثاثا مذهبا ، ومعدات القهوة ، ومائة زوج من الاحذية . يجب ان نحرق ونحطم ونمزق كل الخزافات ... حرية مطلقة متوحشة عذراء . هذا ما نريده ! ولن نكرر مثل هذا العهد ... ونحن نحقق تجربة عظيمة . وكل الذين يجرون وراء رفاهية الطبقة المتوسطة سيهلكون ... ستسحقهم ... ان الانسان هو رغبة لا حدود لها ... (وخفض صوته ، ومال عل داشا .) البلاشفة ثرثارة ... كانوا جيدين اسبوعا واحـــدا

فقط ، في اكتوبر ... ثم التزموا راسا بمبدا الدولة . روسيـا كانت دائما بلدا فوضويا ، والفلاح الروسي فوضوي باصلـه ... البلاشفة يريدون تحويل روسيا الى معمل . هراء . لن يستطيعوا ذلك . عندنا ماخنو . وبطرس العظيم مجرد جرو امامه . ماخنو في الجنوب ، ومامونت دالنسكي وجادوف في موسكو ... ستحرق من الجانبين . اليوم ليلا ساخذك الى مكان ستريق بنفسك اي نطاق ... مرافقة ؟ للعب ؟

منذ عدة دقائق جلس شاب شاحب ذو لحية مدببة الى الطاولة المجاورة . كان يتفرس في داشا من خلال نظارته الانفية من وراء الجريدة . صعقتها تصورات جيروف الخيالية فلم تحاول ان تحتج . وبدا لها ان هذه الافكار فوق الطبيعية كانت تتولد كالبروق في سحب دخان السكائر ، طافت وجوه غريبة متسعة الحدقات تطبق اسنانها على السكائر ... ماذا كان في وسعها ان تعترض ؟ يمكن ان تولول شاكية ان قلبها يرتجف امام هذه التجاريب ، وبالطبع ستضيع ولولتها في هدير الضحك المجنون والهرجلة والتهريج .

كانت عينا ذي اللحية المدببة تتحسسانها في مزيد مـن الاصرار . رات في رباطه القرمزي جمجمة معدنية صغيرة — دبوسا . فحزرت انه هو الذي يجب ان تلتقي به . رفعت جسمها قليلا ، الا انه هز رأسه هزة قصيرة مشيرا عليها بان تظل في مكانها . قلصت داشا عينيها مفكرة ، اشار الرجل بعينه الى جيروف . فهمـت ! وطلبت من جيروف بان يجلب لها شيئا تاكله . عند ذاك اقترب الرجل ذو اللحية من طاولتها وقال دون ان يفتح شفتيه :

— يصحبك الله في الطريق الميمون .

فتحت داشا حقيبتها ، وارت نصف المثلث . فضمـه الى النصف الثاني ، ومزق النصفين مزقا صغيرة .

سأل بسرعة :

— من اين تعرفين جيروف ؟

— منذ زمان ، في بطرسبورغ .

— هذا يلائمنا . يجب ان يعتبروك من جماعتهم . اقبلي بكل ما يقترح عليك . وغدا ، في مثل هذا الوقت ، تعالي الى تمثـال غوغل في بالفار بريتشيستينسكي . اين ستقضين الليلة ؟

— لا ادري .

— هذه الليلة اقضيها اينما شئت ... الاهي مع جيروف ...

— انا منهكة بشكل فظيع .

وامتلأت عينا داشا بالدمع ، وارتعشت يداها ، الا انها نظرت الى وجهه غير الودود ، والى الدبوس ذي الجمجمة ، فغضت بصرها مذعنة .

— تذكري : السرية التامة . ولو قلت شيئا ولو عرضا وجب التخلص منك ، فان الوقت حربي ...

وشدد على كلمة «التخلص» . وشعرت داشا بان اصابـع قدميها تنكمش . تقدم جيروف من الطاولة يحمل صحنين . تقدم منه الرجل ذو الدبوس ، وعوج فمه الدقيق بابتسامـة ، وسمعت داشا قوله :

— فتاة حلوة . من هي ؟

— اتركها بسلام . ليست معدة لك ، يا يوركا .

وابدى جيروف له تثلمات اسنانه و كأنه يهدده او يبتسم له ، ووضع امام داشا خبزا اسود ونقانق وقدحا من سائل بني ، وقال :

— الآن ، فانت في المساء غير مشغولة ؟

— لا فرق .

اجابت داشا . وقضمت النقانق بتلذذ موجع .

اقترح جيروف عليها الذهاب الى غرفته في فندق «الوكس» على مسافة قصيرة في الجانب الآخر من الشارع .

— نامي قليلا واغتسلي ، وفي نحو الساعـة العاشرة سآتي اليك .

وانشغل مضطربا وركض من مكان الى آخر ، فقد ظل حسب الذكريات القديمة يحتفظ بشعور الرجل في حضور داشا ببعض الشيء . كانت غرفته ذات ستائر من قماش مقصب ، وبساط وردي . وكان سريره يبعث على الريبة حتى انه ادرك ذلك بنفسـه ، واقترح على داشا الاستلقاء على الاريكة بعد ان رفع عنها الجرائد والمخطوطات والكتب ، وفرش مفرشا وقطعة من الفراء الاسود نزعت من معطف

تمتٍ ، وارسل ضحكة وخرج . خلعت داشا حذاءها . كان حلقها ورجلاها وكل جسمها يئن تعبا . فاستلقت واستغرقت في النوم حالا متدفئة بفراء سميك فيه رفيف خفيف من رائحة عطر وحيوان ونفتالين . ولم تسمع كيف دخل جيروف ، وانحنى ونظر اليها ولا الصوت العميق الذي صدر في الباب من رجل ضخم حليق شبيه برومانى : «طيب ، خذها الى هناك ، وساعطيك مذكرة» .

وكان المساء قد تقدم كثيرا حين تنهدت داشا واستيقظت . كان هلال اصفر فوق سطح البيت ينعكس مهشما على زجاج النافذة . وتحت الباب امتد خط من الضوء الكهربائي . وتذكرت داشا اخيرا اين هي ، ولبست جوربها على عجل ، وسوّت شعرها وثوبها وذهبت الى المغسلة . كانت الفوطة من القذارة حتى ان داشا فكرت وهي تفرج اصابعها التي كان الماء يقطر منها ، ومسحت بطرف تنورتها من الجانب الآخر .

وداهمها احساس حاد بالوحشة من كل سوء الحظ هذا ، وخنقها الاشمئزاز فودت لو تهرب من هنا الى بيتها ، الى النافذة النظيفة تطير الخطاطيف خلفها ... ادارت راسها ونظرت الى الهلال ميتا مشوها متدليا فوق موسكو . لا ، لا ... لا مجال للعودة . الموت في وحدة على الكرسي عند النافذة فوق جادة كاميناوستروفسكى المقفرة والاستماع الى الالواح تسمر على البيوت ... لا ... ليكن ما يكون ...

طرق الباب ، ودخل جيروف على اطراف اصابعه .

– حصلت على ترخيص . لنذهب ، يا داريا دميترييفنا .

لم تسال داشا اى ترخيص هو ، ولا الى اين تذهب . وضعت قبعتها البيتية الصنع ، وتابطت حقيبتها التي فيها الالفان من الروبلات . وخرجا . كان ضوء القمر يغمر جانبا من جادة تفيرسكوى . ولم تكن المصابيح مشتعلة . سارت دورية ببطء في الشارع المقفر صامتة تضرب الارض بأحذيتها الطويلة .

انعطف جيروف الى بولفار ستراستنوى . كانت بقع من ضوء القمر ترقد هنا على الارض غير المستوية . وكانت الظلمة الحالكة تحت اشجار الزيزفون تبعث الرهبة في النفس . وبما ان شخصا

قد مرق في هذا الظلام الى الامام . توقف جيروف ، وكان في يده مسدس .

وقف قليلا ثم صفر . فاجيب عليه من هناك . قال بصوت اعلى قليلا : «من جماعتكم» . فاجاب صوت واضح متكاسل : «اعبُر ، يا رفيق» .

انعطفا في شارع ماليا دميتروفكا . فقابلهما هناك شخصان في سترتين جلديتين عبرا الشارع بسرعة . ولكن بعد نظرة صامتة تركاهما يمران . عند مدخل نادى التجار حيث كانت تتدلى راية سوداء من الطابق الثاني فوق المدخل خرج اربعة من وراء الاعمدة وصوبوا مسدسات . تعثرت داشا . وقال جيروف غاضبا :

– ما هذا في الواقع ، يا رفاق ؟ تخويف عن عبث . عندى ترخيص من مامونت ...

– أرنا .

فحص الاربعة الترخيص في ضوء القمر وقد اخفوا خدودهم المرداء في ياقاتهم المرفوعة . وسحبوا طليلات طاقياتهم على عيونهم . وجمد وجه جيروف وكان الحياة قد غادرته ، وارتسمت عليه ابتسامة . سال احد الاربعة بفظاظة :

– ولمن ؟

– لهذه الرفيقة ، – وامسك جيروف بيد داشا ، – انها فنانة من بتروغراد ... يجب ان تكسى ... تدخل في جماعتنا ...

– حسنا ، اذهبا ...

دخلت داشا وجيروف في رواق مضاء بضوء باهت ، وقد وضعت رشاشة على الدرج . وجاء القومندان ، وهو طالب قصير منتفخ الخدين في سترة من بزة طلابية ، وطربوش . قلب الترخيص طويلا وهو يقراه . وسال داشا وعقا :

– ماذا تحتاجين من اشياء ؟

اجاب جيروف :

– امر ماموت بان تكسى من القدم حتى الراس ، باحسن ما لدينا .

– ما تعني بعبارة «امر ماموت» ؟ .. حان الوقت ان تعرف يا رفيق انه لا توجد اوامر هنا ... ليس هنا حانوت ... (وهنا

احس القومندان بأن فخذه يحكه ، فقلص عينيه بشدة ، وعرش ،) حسنا . لنذهب .

اخرج مفتاحا ، وسار الى الامام الى مشجب المعاطف السابق ، حيث يوجد الآن مستودع دار الفوضوية .

— داريا دميتريفنا ، اختارى ولا تخجل ، كل هذه الاشياء تعود للشعب ! ..

واشار جيروف بتشميرة عريضة من ذراعه الى مشاجب علقت عليها لفاحات من فراء السمور والقاقم والثعلب الفضى ومعاطف من فراء الارانب والقرد وعجل البحر . كما وضعت على المقاعد ، والقيت اكواما على الارض ، وامتلات حقائب مفتوحة بالفساتين والملابس الداخلية وعلب الاحذية . وبدا وكأن مخازن كاملة من الاشياء الفاخرة قد جلبت الى هنا . تثاءب القومندان غير مكترث بهذه الوفرة وقد جلس على صندوق .

— داريا دميتريفنا ، خذى كل ما يروق لك . سأحملها لك . ونصعد الى الاعلى ، وهناك ستبدلين ثيابك .

ورغم كل ما يمكن ان يقال عن مشاعر داشا المعقدة ، فقد كانت قبل كل شىء امرأة . لورد خدها ، قبل اسبوع ، عندما كانت تتهالك كزنبقة الوادى قرب النافذة ، تتخيل ان الحياة قد انتهت ولا شىء تنتظره ، ربما لم تكن تغريها اية كنوز فى العالم . اما الآن وقد انفتح حولها كل شىء فان ما كانت تعتبره ميتا وجامدا فى نفسها عادت اليه الحركة . ودخلت فى تلك الحالة المذهلة ، حيث الرغبات والآمال المتدفقة تنطلق مندفعة فى الضباب المقلق للغد الآتى ، بينما الحاضر يرقد فى ركام كمنزل مهجور .

ولم تتعرف على صوتها ، وادهشتها اجوبتها وتصرفاتها وهدوؤها الذى تقبلت به الفنطازيا التى تدور حولها . واحست بغريزة حفظ النفس التى ظلت غافية فيها حتى تلك اللحظة ان عليها الآن ان تنشر اشرعتها وتنطلق ملقية بالصرامة وراء ظهر سفينتها .

مدت يدها الى لفاح من السمور الرمادى .

— اعطنى هذه ، من فضلك .

نظر جيروف الى القومندان فهز هذا خديه موافقا . تناول جيروف اللفاح ، والقاه على كتفه . انحنت داشا على حقيبة كبيرة مفتوحة — وللحظة احست بالتقزز من اشياء الآخرين هذه — وادخلت يدها حتى المرفق فى كومة الملابس الداخلية .

— والحذاء ، يا داريا دميتريفنا ؟ خذى حذاء طويلا للمطر ، والزينات السائلة فى هذا الدولاب . ايها الرفيق القومندان اعطنى المفتاح ... الزينة بالنسبة للفتاة اداة الانتاج .

قال القومندان :

— خذا ما تشاءان ، لا يهمنى .

صعدت داشا ووراءها جيروف يحمل الامتعة الى الطابق الثانى ، ودخلا غرفة صغيرة فيها مرآة حطمتها رصاصة . لمحت داشا بين الصدوع الشبيهة بنسيج العنكبوت على المرآة المخبشة امرأة منشغلة بارتداء جورب حريرى ببطء . وضعت عليها قميصا رقيقا ، وارتدت سروالا داخليا مدنتلا ، وتخطت بحذائها الجميل وابعدت جانبا ثيابها الداخلية المرفوضة . والقت فراء على كتفيها النحيلتين العاريتين ... ومن انت ، يا روحى ؟ مومس ؟ سائبة ؟ [illegible] ؟ .. ولكنك لطيفة جدا ... اذن ، فان كل شىء لى فى المستقبل ؟ لا بأس ، سندبر الامر فيما بعد على نحو ما ...

كانت القاعة الكبيرة لمطعم «متروبول» التى اصابته قنابل فى اكتوبر مغلقة لا تعمل ، ولكن الطعام والنبيذ كان يقدم فى المقاصير ، لان نصف الفندق كان يحتله الاجانب ، وهم فى معظمهم الماليون ، واولئك المضاربون المستميتون الذين استطاعوا الحصول على جواز اجنبى — ليتوانى او بولونى او فارسى . والمخمورون فى المقاصير المغلقة يضجون كما فى فلورنسا اثناء الطاعون . وكان يسمح لاهالى موسكو الاصليين بالدخول الى هناك بوساطة المعارف ، ومن باب خلفى ، وهؤلاء فى معظمهم ممثلون واثقون من ان مسارح موسكو لن تبقى حتى نهاية الموسم ، وان الهلاك المحقق سيصيب المسارح والممثلين معا . وكان الممثلون يشربون بالافراط .

كان ماموت دالسكي الممثـــــل الدرامي «والتراجيدي روح هذه المباذل الليلية ، وكان اسمه الى عهد قريب لا يقل صدى عن اسم روسيه . كان رجلا ذا طبع وحشي جميل الطلعــــة ، مقامرا ، مجنونا شديد الطبع ، خطرا ، مهيبا ماكرا . وقد اضحى في السنوات القليلة الاخيرة لا يمثل الا نادرا ، وفي الجولات الفنية فقط . وكان يتردد على دور القمار في العاصمتين ، وفي الجنوب ، وفي سيبيريا . وقد رويت روايات عن خسائره الفادحة . وبدا يشيخ . وكان يقول انه سيترك المسرح . وفي اثناء الحرب اشترك في صفقات غامضة في الاسلحة . وعندما بدات الثورة ظهر في موسكو ، واحس بوجود المسرح التراجيدي الجبار واراد ان يلعب فيه دورا رئيســـيا في المسرحية الجديدة على غرار «اللصوص» لشيلر .

وبدا يتحدث بكل يقين ممثل عبقري عن الفوضوية المقدسة ، وعن الحرية المطلقة ، وعن نســــبية المبادئ الخلقية وعن حق كل شخص في كل شيء . وبذر في موسكو الهياج في الافكار . وعندمـــا بدات بعض جماعات الشباب مدعومـــة باشخاص محكومين تصادر منازل الاغنياء جمع هو هذه الجماعات المتفرقة من الفوضـــويين ، واستولى على نادي التجار بالقوة ، واعلنه دارا للفوضوية . ووضع السلطة السوفييتية امام حقيقة واقعة . ولم يكن قد اعلن بعــد الحرب على السلطة السوفييتية ، ولكن خياله ، دون شك ، كان يتخطى مستودعات نادي التجار والمباذل الليليـــــة ، عندما كان يتحدث وهو واقف في النافذة ، امام الناس المتجمعين في فناء دار الفوضوية ، وبعد ايماءاته الرومانية تتطاير على الناس في الفنـــاء البناطيل والاحذية وقطع القماش ، وزجاجات الكونياك .

عندما دخلت داشا المقصورة في «المتروبول» مع جيروف كان اول مَنْ رأته هذا الرجل بوجهه الكئيب وكأنه صب من برونز ، وقد انطبعت عليه السورات والاهواء والحياة الصاخبة مثل نحات مشهور حفر عليه الغضون والتجعدات وخطوط الفـــم التامة عن الحـــزم والحنك والرقبة المحفوفة بالياقة الناعمة القذرة .

كان غطاء البيانو مرفوعا . وكان رجل حليق نحيـل في سترة مخملیــــة ، رأسه الى الوراء يطبق اسنانـــــه على سيكارة ، ويسدل رموشه على عينيه الناديتين ، يعزف على البيانو لحنا جنائزيا . والى

مائدة حفلت بعدد كبير من الزجاجات الفارغـــة جلس عدد من ذوي الصيت الواسع . وكان احدهم ، وهو رجل افطس الانف اسند ذقنه البارز على راحته حتى ان وجهه الناعم قد انضغط ، يرفع صوته بغناء كنائسي ممثلا القس . اما الآخرون ، وهم مجاجج له وجه كالجرة ، وممثل فكاهي عبوس متهدل الشفة ، وبطل لم يحلق منذ ثلاثة ايام له انف مدبب ، وعاشق في منتهى السكر ، ورجل عظيـــم ذو صيت ذائع خددت جبينه الاخاديد عميقـــة في مظهر صاح كليا ، فقد كانوا ينضمون الى الغناء جماعيا عند الضرورة .

وكان الارشيدوق من كنيسة «المسيح المخلص» وهو رجل وسيم سرى الشيب في شعره يضع نظارة ذهبية ثقيلة مهداة له من تجار موسكو يسير على البساط جيئة وذهابا ملوحا بكمي غفارتـه الكهنوتية مرددا اللازمة . وكانت اقداح البلور تهتز من نبرة صوته القوية ، كانت المقصورة مزينة الجدران بحرير داكن الحمرة ، وعلى الباب مسدول من القماش المقصب وحاجز تلالى المصاريع .

كـان ماموت دالسكي يقف متكئـــا على هذا الحاجز . وكان يمسك شدة من ورق اللعب . وكان يرتدي بدلة شبه عسكرية : سترة الجليزية التفصيل ، وبنطلون ركوب في مربعات ، غجيزته من الجلد ، وحذاء طويلا اسود . عندما دخلت داشا ضحك بخبث ، وهو يسمع الحانا جنائزية .

قال الشخص الجالس الى البيانو :

— جمال صارخ . يجنن !

ارتعبت داشا وتوقفت . نظر الجميـــع اليها ما خلا دالسكي .

وقال الارشيدوق :

— جمال روسي صرف .

وقال الرجل العظيم :

— تعال اجلسي معنا ، يا آنسة .

همس جيروف :

— اجلسي ، اجلسي .

جلست داشا الى المائدة . اخذ الجالسون يقبلون يديها بعد أن تقدموا وانحنوا بمهابة ، وكأنها ماري ستيوارت . وبعد ذلك استمر الغناء ، ووضع جيروف بعض الكفيار والمشهيات في صحـــن

داشا ، وجعلها تشرب مشروبا حلوا محرقا . كان الجو خانقا داكنا . وبعد الشراب المطاط ألقت داشا ذراعها ووضعت يديها العاريتين على المائدة . اقلقتها هذه النغمات الحزينة ، وكلمات الغناء القديمة ، ولم تصرف بصرها عن ماموئت . وكان جيروف قد حدثها عنه في طريقهما الى هنا . ظل على وقفته الجانبية عند الحاجز ، وكان إما في سورة من الحنق او سكران الى حد فقدان الوعي .

قال بصوت عميق ملأ ارجاء المقصورة :

— اذن ، يا سادة . لا يريد احد ؟

— لا احد . لا يريد احد ان يلعب معك ، نحن في غاية المرح دون حاجة الى لعب . فاتركنا على حالنا ، واهدأ .

قال ذلك ذو الوجه المخطوط بصوت عالي النبرة سريع ثم اضاف :

— هيا ، ياشا ، اعزف الترتيلة السابعة .

ألقى ياشا الجالس الى البيانو رأسه الى الوراء تماما ، ووضع اصابعه على المفاتيح مقلصا عينيه . قال ماموئت :

— يلا فلوس . . . بصقة على فلوسكم . . .

— ومع ذلك لا نريد ، فلا تلح ، يا ماموئت .

— اريد ان العب على طلقة . . .

بعد هذا صمت الجميع برهة . مرر البطل ذو الانف المدبب كفه على جبينه وشعره ، ونهض واخذ يزرر صداره :

— انا العب على طلقة .

امسكه الممثل الفكاهي صامتا ، ووقع عليه بجسمه الثقيل ، واجلسه في مكانه . صاح البطل :

— انا اقسم بحياتي على اني في يد ماموئت الوغد ورقا معلما . . . لا يهم ، دعه يوزع الورق . اتركني . . .

الا انه عجز . وقال المحاجج ذو الوجه العريض من الاسفل بلهجة ناعمة :

— لا توجد قطرة واحدة من النبيذ . ماموئت ، هذه شناعة ، يا عزيزي . . .

عندئذ ألقى ماموئت دالسكي على طاولة التلفون شدة الورق ومسدسا اوتوماتيكيا كبيرا . وامتقع من شدة الغيظ وجهه الضخم المنحوت . وقال مقطعا الكلمات :

— لن يخرج احد من هنا . سنلعب ، كما اريد . . . شدة الورق هذه غير معلمة .

واستنشق الهواء بقوة من منخرين عريضين ، وتدلت شفته السفلى . وادرك الجميع ان اللحظة الخطرة قد حلت . مرر بصره على وجوه الجالسين الى المائدة . عزف ياشا باصبع واحدة نغم اغنية شائعة . وفجأة ارتفع حاجبا ماموئت الاسودان ، ولمعت الدهشة في عينيه العميقتي الغور . فقد وقع بصره على داشا . سرت برودة سريعة في قلب داشا من تلك النظرة . تقدم ماموئت منها بدون ترنح ، وامسك اطراف اصابعها ، ورفعها الى شفتيه الجافتين المتشققتين ومسها دون ان يقبلها :

— تقولون انه لا يوجد نبيذ . . . سيكون جاهزا . . .

دق الجرس وهو ما يزال يتمعن في داشا ، دخل الخادم التتري ، وبسط يديه : لا توجد زجاجة واحدة . شربت الخمرة كلها ، والقبو مغلق ، والمسؤول قد خرج . عندئذ قال ماموئت :

— انصرف .

وتقدم من التلفون وكان النظار الف من المتفرجين مصوبة نحوه . وادار رقما : «نعم . . . انا . . . دالسكي . . . ارسل دورية . «متروبول» . . . انا هنا . . . بسرعة . . . نعم . . . اربعة يكفي . . .»

ووضع السماعة ببطء ، واتكأ بكل جسمه على الحائط ، وطوى يديه على صدره . مر ما لا يزيد عن خمسة عشر دقيقة . عزف ياشا على البيانو الحانا من سكريابين بخفوت . ودار رأس داشا من هذه النغمات الاليفة الآتية من الماضي . واختفى الزمن . وارتفع القماش المقصب القطني على صدر داشا وانخفض وتدفق الدم الى اذنيها . همس جيروف ، ولكنها لم تسمع .

كانت منفعلة تشعر بسعادة التحرر ، وخفة الشباب . وخيل اليها انها قد طارت مثل نفاخة افلتت من عربة اطفال ، اعلى فاعلى بشكل يدير الرأس . . .

مسد الرجل العظيم ذراعها العارية . وتمتم بأبوة :

— لا تنظرى اليه بهذه الرقـــة ، يا عزيزتى . . . . متمنى عيناكِ . . . فى ماموتت شىء شيطانى دون شك . . .

فى تلك اللحظة انفتحت فجأة دفتا الباب ، وظهرت وراء الحاجز اربعة رؤوس فى كيبيهات ، واربعة اكمام جلدية تضغط على مقابض التابل يدوية . وهتف اربعة من الفوضويين بتهديد :

— لا تتحركوا من اماكنكم ! ارفعوا ايديكم !

قال دالسكى بهدوء :

— دعوهم . كل شىء على ما يرام . شكرا ، يا رفاق .

وتقدم منهم ، ورفع جسمه من فوق الحاجز وراح يشرح لهـم شيئا ما همسا . اوماوا بكيبيهاتهم ، وانصرفوا . وبعد دقيقة ترددت أصوات منفردة ، وصيحة مكتومة ، وهز الجدران انفجار اصم الرنين هزا خفيفا . قال ماموتت :

— هؤلاء الجراء لا يستطيعون ان يؤدوا امـــرا دون اثارة ضجة .

ودق الجرس ، وفى الحال دخل المقصورة الخادم شاحب الوجه واسنانه تصطك . فأمره ماموتت :

— ارفع كل شىء . وضع اقداحا نظيفة للنبيذ . يا دانا ، كفاك تعذيبا لأعصابى . اعزف شيئا حيا .

وبالفعل ، ما ان فرش الخادم مفرشا نظيفا على المائدة حتى دخل الفوضويون ثانية ومعهم عدد كبير من الزجاجات . وضعوا على البساط زجاجات الكونياك والويسكى والليكـــور والشمبانيا ، واختفوا صامتين ايضا . ترددت حول المائدة هتافات الدهشـــة والانشراح . واوضح ماموتت الأمر قائلا :

— امرت بان يصادر ٥٠ بالمائة فقط من الخمر الموجود فى الغرف ، وان يترك النصف الآخر الى اصحابه . يمكن ان ترتاح ضمائركم . فكل شىء على ما يرام .

عزف يانشا لحنا احتفاليا . وتطايرت سدادات الشمبانيا . جلس ماموتت الى جانب دانشا . بدا وجهه المنار بمصباح الطاولـــة اكثر عظمة وشبيها بوجه منحوت . سأل :

— اليوم رأيتك فى «لوكس» . كنت نائمة . . . من انت ؟

اجابت وهى تضحك من دوار فى راسها :

— لا شىء . . . . تفاحة . . .

وضع يده الكبيرة الحارة على كتفها العارية ، واخذ يحدق فى عينيها . ولم تهتم دانشا . لم تشعر الا بالدفء تحت ثقل اليد على كتفها الباردة . رفعت قدح الشمبانيا من ساقه الدقيقة ، وشربت حتى الثمالة . سألها :

— لست لأحد ؟

— لست .

فتدلت سر" فى اذانها بنبرة تراجيدية :

— عيشى ، يا طفلتى ، بكل جوارحك . . . من حسن حظك انك التقيت بى . . . لا تخافى ، لن اشوه شبابك بالحب . . . الاحرار لا يحبون ولا يطلبون حبا . . . عطيل نار موقدة من القرون الوسطى ، محكمة تفتيش ، سحنـــة شيطانية . . . روميـــو وجيوليت . . . اوه ، انا اعرف انك تشتاقين اليهما سرا . . . ذلك هراء عتيق . . . نحن نهدم كل شىء من الأعلى الى الاسفل . . . نحن سنحرق جميـــع الكتب ، وسنهدم المتاحف . . . يجب ان ينسى الانسان القرون الماضية . . . الحرية فى شىء واحد : الفوضويـــة المقدسة . . . حريق الاهواء الهائل . . . لا ! لا تنتظرى الحب ولا السلام ، يا حسناء . . . انا احررك . . . احطـــم عنك الاغلال البكارة . . . اعطى لك كل ما سيخطر على ذهنك فى الفترة ما بين عناق وعناق . . . اطلبى . . . اطلبى الآن . . . ربما سيفوت الاوان غدا .

ومن خلال هذيان الكلمات هذا كانت دانشا تحس بكـــل بشرتها فوران الهوى الثقيل الى جانبها . واستولى عليها الذعر كما يحدث فى الحلم ، حين لا تقوى على الحركة ، ومن ظلمة الحلم تتقدم عينا وحش ملتهبتان . ليلقيها ارضا ، ويطأها ، ويسحقها . . . وكان افظع من ذلك ان رغائب غريبة لاذعة خانقة كانت تتولد فى داخلها للاستجابة له . . . واحست بكل كيانها كامراة . . . ولعلها كانت فى تلك اللحظة مضطربة وجميلة حتى ان الرجل العظيم مال نحوها ، وقال بحسد وهو يفرغ كأسها :

– مامونت ، انت تعذب الطفلة . . .

وثب دالسكي ، وكانما اصيب بطلقة ، وضرب المائدة ، فلزت الاقداح وسقطت :

– سنارمي كل منْ يمس هذه المراة !

واندفع الى طاولة التلفون ، حيث كان المسدس . ونهض جميع من كانوا الى المائدة ، متحين المقاعد . واندس ياشا تحت البيانو . عندئذ تعلقت داشا بيد ماموتت الحاملة للمسدس ، دون ان تعرف كيف حدث هذا . وتوسلت اليه بعينيها . امسك ظهرها النحيل الى الاسفل من دفة كتفها ، ورفعها ، واطبق فمه على فمها ماسا اسنانها باسنانه . تاوهت داشا ، وفي تلك اللحظة دق التلفون ، ترك ماموتت داشا تجلس على المقعد (اغلقت عينيها بيديها) وخطف سماعة التلفون :

– نعم . . . ماذا تريد ؟ انا مشغول . . . نعم . . . أين ؟ في شارع مياسنيتسكايا ، جواهر ؟ ثمينة ؟ ساكون بعد عشر دقائق . . .

دس المسدس في الجيب الخلفي ، وتقدم من داشا ، وطوق وجهها بيديه ، وقبلها عدة قبلات لهمة ، وخرج بعد ان اشار بيده مودعا كالروماني .

قضت داشا بقية الليل في «لوكس» . ونامت كالميتة دون ان تخلع الفستان من القماش الفضي المتصلب . (نام جيروف في الحمام خوفا من ماموتت .) ثم كانت تجلس حزينة حتى منتصف النهار قرب النافذة لا تتحدث مع جيروف ، او ترد على اسئلته . وفي نحو الساعة الرابعة خرجت ، وانتظرت حتى الساعة الخامسة في بولفار بريتشيستنسكي ، في الساحة عند تمثال غوغل الطويل الانف ، حيث كان في الاسفل اطفال نحفاء يعملون بهدوء فطائر من التراب والرمل .

كانت داشا قد عادت ترتدي ثوبها القديم وقبعتها المصنوعة بيتيا . كانت الشمس تدفئ ظهرها ، الشمس المطلة على حياة بائسة . كانت للاطفال وجوه صغيرة شاحبة من الجوع . والهدوء

يسود ما حولها والخواء . ما من كركبة لعجلات ، ولا اصوات عالية . لان العجلات كلها قد ذهبت الى الحرب ، والسابلة صامتون ، وكان غوغل في مقعده الغرانيتي ينحني تحت ثقل معطفه المبقع بذرق العصافير . مر رجلان ملتحيان دون ان يلحظا داشا : نظر احدهما الى الارض ، والآخر الى الاشجار ، وترامت نتف من حديثهما :

– الدمار تام . . . فظيع . . . ما العمل الآن ؟

– ومع ذلك فقد احتلت سامارا ، واحتلت اوفا . . .

– لا اصدق الآن باي شيء . . . لن ينقضي هذا الشتاء ونحن احياء . . .

– ومع ذلك فدنيكين يتصرف في الدون . . .

– لا اصدق ، لا شيء ينقذ . . . هلكت بابل ، وهلكت روما . . . ونحن ايضا سنهلك . . .

– ومع ذلك لم يعتقلوا سافينكوف . ولم يعتقلوا تشيرنوف . . .

– لا اهمية لذلك كله . . . كانت روسيا ، والآن لا وجود لها . . .

ومرت ايضا تلك المراة الشابة التي اخرجت من تحت شالها بالامس ، وهي خائفة ، مؤلفات روزانوف . اشاحت داشا بوجهها عنها : اقترب من مسطبتها خلسة شاب يضع دبوس جمجمة . تلفت فيما حوله ، وعدّل نظارته الانفية ، وجلس الى جانب داشا :

– قضيت الليلة في «متروبول» ؟

انزلت داشا راسها ، وردت محركة شفتيها بلا صوت : نعم .

– ممتاز . وجدت لك غرفة . انتقلي اليها مساء . لا تقولي لجيروف كلمة واحدة . والآن لندخل في الموضوع : هل تعرفين ليليتي بالنظر ؟

– لا .

اخرج عدة صور فوتوغرافية ، ودسها في حقيبة داشا . وليث جالسا يمسك بشعر لحيته ويعضه . وامسك يدي داشا المستلقيتين على ركبتيها بلا حياة ، وعزهما :

— المسألة هى كالآتى . البلشفية هى لينين : هل تفهمين ؟ ونحن نستطيع ان ندمر الجيش الاحمر ، ولكن لن ننتصر ما دام لينين فى الكريملين . مفهوم ؟ انه لطريق ، انه قوة ارادية ، واعظم خطر على العالم كله ، وليس علينا فقط . . . ففكـــرى واجيبى بحزم : موافقة انت ام لا ؟

— اقتله ؟

سألت داشا وهى تنظر الى طفل عارى البطن يترنح معوج الساقين . تلوى وجه الشاب ، ونظر الى اليمين ، وقلص عينيه ناظرا الى الاطفال ، وعاد يقضم شعر لحيته .

— لا احد يقول ذلك . . . واذا كنت تفكرين بـه فلا حاجة الى ان تنطقـــى به بصوت عال . . . لقـــد قبلناك عضوا فى منظمتنا . . . أمن المعقول انك لم تفهمـــى ما كان يقولـــه سافينكوف ؟

— انه لم يتحدث معى . . (ابتسم الشاب بسخرية .) آه . يعنى ، ذو المنديل كان . . .

— خفضى صوتك . . . نعم ، الذى تحدث معك هو بوريس فيكتوروفيتش . . . لقد وضعت فيك ثقة هائلة . . . نحن بحاجة الى اناس جدد . فقد حدثت اعتقالات كبيرة . انت تعرفين بالطبع ان خطة التعبئة فى قازان فشلت . . . وينقل عمل المركز الى مكان آخر . . . ولكننا سنترك المنظمة هنا . . . ومهمتك ان تراقبى خطب لينين ، وتحضرى اجتماعات عامـــة ، وتترددى على المصانع . . . ولن تكونى وحيدة فى العمـــل . . . سيخبرونك بتنقلاته مــن الكريملين ، وبالاماكن التى يتوقع ان يلقى فيـــها خطبـــه . . . واذا تعرفت على شيوعيين اطلبى الدخول الى الحزب . فـــان ذلك سيكون الافضـــل . تابعى الجرائد ، واقرئى المنشورات . . . والتوجيهات الاخرى ستحصلين عليهـــا غدا فى الصبـــاح ، فى هذا المكان . . .

ثم اعطاها العنوان السرى ، وكلمة السر ، وقدم لها مفتاح الحجرة . وسار متجها نحو شارع اربات . اخرجت داشا الصور من الحقيبة ، واطالت النظر فيها ، ولكن حين بدأ يتراءى لها — بدلا من هذا الوجه — الوجه الآخر الذى خرج من وراء الستار القرمزى

فى الليلـــة الماضيـــة ، اغلقت الحقيبـــة بشدة ، وذهبت ايضا متجهمـــة مزمومـــة الشفتين . حاول الطفل الصغير ذو الساقين المعوجتين ان يلحقهـــا ، الا انه وقع بجسمه الرخو على الرمل ، وبكى بحدة .

كانت حجرة داشا تطل على الفنـاء فى منزل خرب فى شارع سيفتسيف فراجيك . والظاهر ان البيت كان مهجورا . طرقت داشا باب المدخل الخلفى وقتا طويلا حتى استقبلتها امرأة عجوز قصيرة نذرة الثياب لها جفنان مقلوبان تبدو من هيئتها انها مربية تعيش فى بيت مخدوميها . ظلت وقتا طويلا غير فاهمة شيئا لم سمحت لداشا بالدخول اخيرا ، وقادتها الى حجرتها ، واخذت تتحدث حديثا غير مفهوم .

— طار الصقور متفرقين : يورى يوريتش وميخائيل يوريتش وفاسيلى يوريتش . اما فاسينكا * فقد بلغ السادسة عشرة فى عيد القديس توماس . . . اغلقت اصلى لسكينة روحهم . . .

رفضت داشا ان تشرب الشاى ، وخلعت ملابسها ، ودخلت تحت اللحـاف ، وفى الظلام ذرفت الدمع غزيرا وهى تسد فمهـــا بالوسادة .

وفى صباح اليوم التالى تلقت عند تمثال غوغل تعليمات وامرا بالحضور فى مصنع فى الغد . وفكرت بالعودة الى بيتها ، الا انها عدلت عن ذلك وذهبت الى مقهى "بوم" ، حيث وجدت جيروف وظل ملتصقا بها يسألها اين اختفت ، ولماذا انصرفت دون ان تأخذ اشياءها . "انا انتظر من ماموتت نداء تلفونيا فماذا اجيبه عنك ؟" — اشاحت داشا بوجهها لئلا يرى خديهـــا المحمرين . . . وفكرت مـــع نفسها وهى تحس بانها تكذب : "على كل حال تقضى التعليمـــات بان اتابع صحبتى لهم . . ."

قالت غاضبـــة :

— سآتى لأخذ الاشياء . وهناك سنرى .

وعادت الى بيتها تحمل لفة فيها لفاع الفرو الثمين والملابس الداخلية وفستان الامس . وفكت اللفة فى حجرتهـــا ، والقتهـــا على

* صيغة تدليل لاسم فاسيل . — المترجم .

السرير ، ونظرت اليها فتملكتها رعدة حتى ان اسنانها اصطكت ، واحست من جديد بثقل يده على كتفها وببرودة اسنانـــه . . . وركعت داشا امام السرير ، واخفت وجهها في الفراء المعطر ، وظلت تكرر مذهولة : «اى شيء هذا ، اى شيء هذا ؟» . . .

وفي الصباح لبست حسب ما اوصيت به : فستانا داكن اللون من القماش الرخيص جلبه اليها الشاب ذو الدبوس ، وشدت شعرها بمنديل على طريقة البروليتاريات (وكان عليها ان تتظاهر بانها خادمة سابقة في منزل احد الاثرياء اغتصبها سيدها) ، وركبت الترام الى المصنع .

لم يكن معها ترخيص . فغمز لها الحارس العجوز عند الباب قائلا : «ذاهبة الى الاجتماع ، يا فتاة ؟ ادخل المبنى الرئيسي» . سارت على رصيف من الالواح الخشبية المتآكلة عبر اكوام من الحديد الصدئ ونفاية الصهر ، وعبر نوافذ ضخمة متحطمة . وكان المكان حولها خاليـــا ، والمداخن ترسل الدخان بهدوء في السماء الصافية .

اشاروا لها الى باب ملطخ في جدار . فدخلت الى قاعة طويلة اجرية . وكان الضوء الكئيب ينفذ اليها من خلال سقف من الزجاج المسخم . وكان كل شيء اجرد عاريا . وكانت سلاسل الرافعـــات تتدلى من المنصات ، والى الاسفل امتدت محاور التحويلات ، وتدلت احزمة النقل على بكراتها بلا حراك . واندهشت عينها غير المجربة لمرأى مساند الآلات السوداء والاشكال الرابضة والطويلة والشاهقة الاطراف لآلات السحج والتثقيب والتقوير والفريزة والمخـــارط ، والاقراص الحديدية لمكائن الاحتكاك . ولمحت داشا في شبه الظلمة وراء طاق عريض مطرقة بخارية ضخمة .

في هذه الورشة كانت تصنع الآلات والاجهزة التي كانت تملأ الحياة وراء جدران المصنع الكالحة بالضوء والدفء والحركة والمعنى والترف . هنا كانت رائحة البرايات الحديدية وزيت المكائن والتراب وتبغ الماخوركا . كان جمهور غفير من الناس يقف امام منصة من الالواح الخشبية ، وكان الكثيرون جالسين على مساند المخارط ، وعلى افاريز النوافذ العالية .

شقت داشا طريقها اقرب الى المنصة . التفت شاب ضخم ،

وكشف ابتسامته العريضة عن اسنانه البيضاء في وجه ملطخ بالزيت ، واشار برأسه الى المقعد ومد يده . صعدت داشا الى المقعد عند نافذة . وحولها عدة آلاف من الرؤوس – وجوه عابسة وجباه متغضنة ، وافواه مطبقة . كانت ترى كل يوم هذه الوجوه في الشوارع وعربات الترام – وجوه روسية اعتيادية متعبة بنظرتها الصارمة . ذات مرة – وكان ذلك قبل الحرب – واثناء نزهة يوم الاحد حول اثنان من المحامين كانا بصحبتها الحديث الى هذه الوجوه بالذات : «خذى جمهور باريس على سبيل المثال يا داريا دميترييفنا ، انه مرح طيب القلب يطفح حبورا . . . اما عندنا فكل واحد يبدو جهم الاسارير . انظرى الى هذين العاملين السائرين – لو ضحكت لدهشت اليهما ، وقلت لهمـــا نكتة . . . الهمـــا سيتكدران ولا يفهمان . . . الشعب الروسى اخرق ثقيل الطبع . . .» والآن كان هؤلاء الذين لا يحبون النكتة يقفون قبالتها كئيبين مصممين مشدودين – انها نفس تلك الوجوه ، ولكنهـــا قد عشيت من الجوع ، نفس تلك العيون ، ولكن نظراتها ملتهبة نافدة الصبر .

نسيت داشا ما جاءت من اجله . فان انطباعات الحياة التي انقذفت اليها من النافذة العالية في شارع كراسنيه زورى قد حملتها في امواجهـــا مثل طائر عصفت به العاصفـــة . واستسلمت لهذه الانطباعات بكل اخلاصها الكلى . لم تكن قط امرأة حمقاء ، ولكنها مثل الكثيرات قد تركت نفسها لتجربتها الصغيرة لا غير . وكان فيها الظمأ الى الحقيقـــة ، الحقيقة الخاصة ، الحقيقة المثالية ، الحقيقة الانسانية .

تكلم الخطيب عن الوضع في الجبهات . وكان في خطابه القليل ممـــا يبعث على التشجيع . ان حصار القمح قد اشتد : قطـــع التشيكوسلوفاكيون قمح سيبيريـــا ، والالمان كراسنوف قمح الدون ، والالمان يفتكون دون رحمة بانصار اوكرانيا . وكان اسطول المتدخلين يهدد كرونشتادت وارخانغيلسك . «ولكن الثورة يجب ان تنتصر !» والقى الخطيب بالشعارات ، ودقها بقبضته في الهواء ، وامسك المحظلة ، ونزل عن المنصة . وصفقوا له ، الا ان التصفيق كان متراخيا ، فان الامور لـــم تكن تستحق التصفيق ، واطرقت الرؤوس ، واختفت العيون تحت الحواجب .

التقت عينا داشا بعيني الشاب الكبير الاسنان وابتسم لها ثانية بمرح !

— تلك هي المصيبة ، يا آنسة . يريدون ان يهلكونا جوعا كالفئران . . . ماذا ستفعلين ؟ . .

سألت داشا :

— وهل خفت ؟

— انا ؟ خفت خوفا شديدا (اخذ الناس يسكتونه بالهسيس : «اهدا ، يا شيطان !») وانت ما اسمك ؟

نظرت داشا اليه — الصدر العضل والقميص الاسود المفتوح ، والعنق الغليظ ، والوجه المرح ، والابتسامة ، والخصلات الجعداء المبللة بالعرق ، والعينين المستديرتين الشغوفتين بالنساء وكله ملطخ بالزيت . . .

قالت داشا :

— يا لك ! ما لك تكشر عن اسنانك ؟

— القتني امي من المسطبة وانا طفل . حسنا ، تعالي معنا الى الجبهة بعد غد . هيا ؟ ستهلكين حتما هنا في موسكو . . . سنخرج ومعنا الاكورديون ، يا حلوة . . .

غطت على كلماته ضجة التصفيق . كان على المنصة خطيب جديد ، وهو رجل ربع القامة في سترة رمادية وصدار مجعد بتجاعيد افقية . احنى جمجمته الصلعاء العجراء وقلب اوراقه . وقال بصوت الثغ قليلا : «ايها الرفاق !» — ورأت داشا وجهه المهموم وعينيه المتقلصتين وكأنهما من ضوء الشمس . كانت يداه مستقرتين على الطاولة ، على الاوراق . وعندما قال ان موضوع اليوم سيكون الازمة الشديدة المخيمة على اوربا كلها ، وعلى روسيا بشكل اصعب ، سيكون الموضوع عن المجاعة حبس ثلاثة آلاف شخص انفاسهم تحت السقف المسخم .

بدأ بآراء عامة ، وتحدث بصوت متسق ساعيا الى ايجاد تجاوب مع المستمعين . وابتعد عن المنصة غير مرة وعاد اليها . وتحدث عن الحرب العالمية التي لا تستطيع ولا تريد ان تنهيها جماعتان من الوحوش اطبقت احداهما على عنق الاخرى ، وتكلم عن المضاربة

الجنونية على المجاعة ، وعن ان الحرب لا يمكن ان تنهيها الا الثورة البروليتارية . . .

وعرج على الكلام عن وجود طريقتين لمكافحة المجاعة : هناك التجارة الحرة التي تجلب الثراء الفاحش للمضاربين ، وهناك احتكارية الدولة . وتراجع جانبا ثلاث خطوات عن المنضدة ، وانحنى نحو المستمعين ، ووضع ابهامي يديه وراء صداره من الجانبين ، وبرزت يديه الكبيرتين ورأسه العريض الجبين الى الامام راسما مظهرا سبابة ملطخة بالحبر :

— . . . لقد وقفنا ، وسنقف يدا بيد مع الطبقة التي تاهطنا بها الحرب : مع التي اطعمنا بها البرجوازية ، مع التي تتحمل كل ثقل الازمة الراهنة . يجب ان نقف الى جانب احتكار الحبوب حتى النهاية . . . (عند هذه الكلمات صدرت من الشاب ذو الاسنان الكبيرة نحنحة تأييد .) امامنا مهمة ضرورة الانتصار على المجاعة ، او على الاقل ، تخفيف وطأتها حتى المحصول الجديد ، والدفاع عن احتكار الحبوب ، الدفاع عن حق الدولة السوفييتية ، الدفاع عن حق الدولة البروليتارية . يجب ان نجمع كل فائض الحبوب ونعمل على ان تنقل كل الاحتياطات الى المناطق التي تحتاجها ، وتوزيعها بصورة صحيحة . ان هذه المهمة الاساسية هي الحفاظ على المجتمع الانساني ، والعمل الجسيم ، في الوقت ذاته ، وذلك لن يتم الا بطريق واحد هو النهوض بالعمل على نحو مشترك مشدد . . .

صدرت من شخص آهة مفاجئة صماء في السكون الشامل ، آهة انسان جوبهت بهذا الصمود الجليدي الذي كان يقودهم اليه هذا الرجل ذو السترة الرمادية . كانت جبهته تطل على المستمعين ومن تحت تقوس الحاجبين تحدق عيناه النافذتان بلا رحمة .

— . . . لقد وقفنا وجها لوجه امام تحقيق مهمة ثورية اشتراكية ، وجوبهنا بمصاعب خارقة . انها عهد كامل من اقسى حرب اهلية . . . ونحن لن ننتصر على المجاعة وعلى اعداء الثورة الذين يستغلون هذه المجاعة الا بتحطيم الثورة المضادة ومواصلة السير على السياسة الاشتراكية في قضية المجاعة ، في مكافحة المجاعة . . .

وارتفعت يده من وراء الصدار ، وضربت الهواء وكأنها تقضي على عدو غير مرئي ، وتدلت فوق القاعة :

— ... عندما يتحدث العمال الذين يبلبلهم شعارات المضاربين عن بيع الحبوب الحر ، وعن استيراد وسائل الشحن نرد عليهم قائلين : ان ذلك يعني السير في ركاب الكولاك ، .. ولن نسير في هذا الدرب ... سنعتمد على الكادحين الذين انتصرنا بهم في اكتوبر ، وسنسعى الى تحقيق قرارنا بتطبيق الضبط البروليتاري باللذات بين فئات الشعب العامل . ان امامنا مهمة تاريخية ، وسنحققها ... والمراسيم الاخيرة عالجت قضية الحبوب ، اكثر قضايا الحياة جذرية . وكلها تتضمن ثلاثة افكار توجيهية : الاولى : فكرة المركزية او توحيد الجميع في عمل مشترك واحد تحت قيادة المركز ... نعم ان هناك من يبدو لنا ان احتكار الحبوب يخرق في كل خطوة بواسطة الذين يشترون بالجملة والمضاربين . وكثيرا ما نسمع من المثقفين : ولكن المشترين بالجملة يقدمون لهم العون ، ويطعمونهم جميعا ... نعم ، ولكن المشترين بالجملة يطعمون على **طريقة الكولاك** ، وهم يتصرفون تماما بالطريقة التي تعزز وتقيم **وترسخ الى الأبد** سلطة الكولاك ...

وباشارة من يده قطع ما لن يحدث بعد الآن .

— ... شعارنا الثاني توحيد العمال . انهم هم الذين سيخرجون روسيا من الوضع اليائس والصعب للغاية . يجب تنظيم فصائل العمال ، تنظيم الجياع من الاقضية الجائعة غير الزراعية : اننا ندعوهم الى مساعدتنا وتتوجه مفوضيتنا للتموين اليهم ، اننا نقول لهم : **«الى الزحف الصليبي في سبيل الحبوب»** .

ارتفع التصفيق بعنف شديد . ورأت داشا كيف تراجع الخطيب بعد أن حشر يديه في جيبه ، ورفع كتفيه : وظهرت بقع ملتهبة على وجنتيه ، وارتجف جفناه ، وكان جبينه نديا .

— ... اننا نقيم دكتاتورية ... اننا نستعمل العنف ازاء المستثمرين ...

وغطى التصفيق على هذه الكلمات . لوّح بيديه ليسكتهم ... وفي الصمت استمر :

— ... «يا ممثلي الفقراء ، الحدواء» — ذلك شعارنا الثالث ، ان امامنا مهمة تاريخية : يجب ان نزود بالوعي الطبقي الطبقة التاريخية الجديدة ... في جميع العالم تتحد فصائل عمال المدن وعمال الصناعة حتى آخر رجل . ولكن لم تجر حتى الآن تقريبا محاولات نظامية متفانية نزيهة لتوحيد الذين يعيشون في القرى ، في الانتاج الزراعي الصغير ، في الانعاء النائية ، في الجهالة وقد بلدتهم ظروف الحياة كلها . هنا تواجهنا مهمة ان ندمج في هدف واحد ليس فقط الكفاح ضد المجاعة ، بل والكفاح في سبيل كلية نظام الاشتراكية العميق والمهم . هنا امامنا معركة تستحق ان نهبها كل القوى وان نبذل كل الجهود ، لأن هذه المعركة في سبيل الاشتراكية ، لأن هذه المعركة في سبيل النظام الاخير للشغيلة والمستثمرين .

ومسح جبينه بكفه سريعا :

— ... على مسافة غير بعيدة عن موسكو ، وفي محافظات متلاصقة هي كورسك واوريل وتامبوف ما يزال لدينا الآن ، حسب تقدير الاخصائيين الحذرين ، ما يصل الى عشرة ملايين بود من الحبوب الزائدة . فدعونا ، ايها الرفاق ، ان نتضافر بالجهود المشتركة . فان الجهود المشتركة وحدها ، وتوحيد جميع الذين يعانون اكثر من غيرهم في المدن والاقضية الجائعة هما الامران اللذان يساعداننا . وذلك هو الطريق الذي تدعوكم اليه السلطة السوفييتية : توحيد العمال ، توحيد الفقراء وفصائلهم المتقدمة لبث الدعوة في الاقاليم ، من اجل الكفاح في سبيل الحبوب وضد الكولاك ...

وصار يمسح جبينه اكثر فاكثر ، وتزايل الرنين صوته ، لقد قال كل ما اراد ان يقوله . تناول ورقة من المنضدة ، ونظر فيها ، وجمع بقية الاوراق :

— وهكذا ، يا رفاق ، فاننا اذا استوعبنا كل ذلك ، وفعلنا كل ذلك فان النصر حليفنا بالتأكيد .

وفجأة أضاءت وجهه ابتسامة صافية طيبة . وفهم الجميع انه منهم ، رجلهم ! فهتفوا ، وصفقوا ، وضربوا الارض باقدامهم . نزل

من المنصة زالقا تماما رأسه بين كتفيه . وهتف الشاب الكبير الاسنان بالقرب من داشا بصوت كخوار الثور :

— عاش إيليتش !

كل ما كان في وسع داشا ان تقوله هو انها رأت وسمعت «شيئا آخر» ... حين عادت من الاجتماع جلست على السرير في حجرتها ، ونظرت بعينين متسعتين الى زخرفة ورق الجدران . وكانت على المخدة مذكرة من جيروف : «مامونت ينتظرك في «متروبول» في الساعة الحادية عشرة» . وعلى الارض عند الباب مذكرة اخرى : احضري في الساعة السادسة عند تمثال غوغل ...»

اولا ان هذا «الشيء الآخر» كان خلقيا بشكل صارم ، يعني انه سام ... تحدث عن الحبوب . من قبل كانت تعرف ان الخبز يمكن ان يشترى ويتبادل ، وسعره معروف : اليوم الواحد من الطحين ببنطلون غير مرقع . ولكن تبين ان مثل هذا الخبز ترفضه الثورة بحنق . فانه خبز قذر ، الموت افضل من اكل مثل هذا الخبز . واليوم رفض ثلاثة آلاف جائع الخبز القذر ، رفضوه باسم ... (وهنا اختلط كل شيء في رأس داشا البائس من جديد ...) باسم المهانين والمضطهدين ... او كيف قال ؟ ان نهب كل القوى ، ان نبذل كل الجهود . ان نهب الحياة في سبيل الشغيلة والمستثمرين ... وهذا هو السبب في صرامتهم التراجيدية ...

كان كوليتشيك قد قال لها : من جميع جهات العالم تنهيا الايدي للامتداد بالمساعدة ، بالحبوب ... فقط على شرط ان يقضى على النظام السوفييتي ... اقضوا عليه وسيكون الخبز ... باسم اى شيء ؟ باسم انقاذ روسيا . ولكن ممن تنقذ ؟ تنقذ من انفسنا ... ولكنهم لا يريدون ان تنقذ «بهذا الشكل» . وقد رأت ذلك بنفسها ...

اوه ، يا لرأس داشا البائس ! انت دخلت الى السياسة في وقت متأخر ، يا داشا . قالت لنفسها : «انتظري ، انتظري» . وضعت يديها وراء ظهرها ، وسارت في الحجرة ناظرة الى قدميها .

«اى شيء يمكن ان يكون اسمى من ان يهب الانسان حياته للمهانين والمضطهدين ؟» . بينما يقول كوليتشيك ان البلاشفة يودون بروسيا ، والجميع يقولون ذلك ...» واغمضت داشا عينيها محاولة ان تتصور روسيا التي يجب ان تحبه اكثر من نفسها . تذكرت لوحة سيروف : حصانان على منحدر رابية ، ووشاح سحابة على الشفق ، وسقف اشعث من القش ... «لا ، لا ، لذلك عشقه سيروف ...» ولاح خلف جفنيها المغمضين الفتى المكشر الكبير الاسنان مرحا ومتوحشا ... مرة اخرى ذرعت داشا حجرتها ... «ما هي روسيا اذن ؟ لماذا يجذبها الناس الى جهات شتى ؟ انا حمقاء ، لا افهم شيئا ... آه ، يا الهي !» واخذت داشا تنقر صدرها باصابعها المضمومة ، ولكن ذلك ايضا لم يسعفها ... «هل اذهب الى لينين لاسأله ؟ أوه ، يا للشيطان ، انا من معسكر آخر ...»

وكل هذه التناقضات الرهيبة ، وبلبلة النفس جعلتها تضع قبعتها على عينيها في نحو الساعة السادسة ، وتتجه الى تمثال غوغل ، وما هي لحظة حتى ابتعد الرجل ذو الدبوس عن شجرة :

— تأخرت ثلاث دقائق ... كيف ؟ هل كنت هناك ؟ استمعت الى لينين ؟ حدثيني خلاصة ... كيف وصل ، ومن كان بصحبته ، وهل كانت المنصة محروسة ؟

سكتت داشا قليلا لتستجمع افكارها :

— قل لي : باسم اى شيء يريدون قتله ؟

— هكذا ؟! من اين اخذت هذا ؟ لا احد ينوي ذلك ... اذن ، اذن ... يعني انه اثر فيك ؟ بالطبع ... لهذا السبب هو خطير .

— ولكنه قال اشياء عادلة .

مد رقبته ، وابتسم ابتسامة خبيثة ندية في عيني داشا ، وسأل بتملق :

— ربما من الافضل ان تتركي ذلك ؟

تنحت داشا . ولكن رقبته تمطت وكأنها من مطاط ، وتراقص اللمعان على نظارته الانفية نافذا الى حدقتي داشا . فهمست :

— الا لا اعرف شيئا ... لم اعد افهم شيئا ... يجب ان اكون مقتنعة ، يجب ان اقتنع .

صرخ الرجل ذو الدبوس صافرا بصوته قائلا :
– ليتين عميل القيادة العامة الالمانية .
ثم قضى زهـــاء نصف ساعة ليشرح لداشا خطـــة الالمان الجهنمية : انهم يرسلون البلاشفة مقابل مبالـــغ طائلة فى عربات مختومة ، والبلاشفة يقوضون الجيش ، ويغررون بالعمال ، ويقضون على الصناعة الوطنيـــة والزراعة ... وبعد شهر او آخر سيحتل الالمان روسيا دون قتال .

– ان البلاشفة الآن يؤججون الحرب الاهلية ، ويصرخـــون معلنين ان هناك حصارا على الحبوب ، وفى الوقت ذاته يقتلون رميا بالرصاص المشترين بالجملة – منقذينا ... انهم يخططون المجاعة عن وعى ... لقد رأيت اليـــوم كيف راح عدة آلاف احمق يثبتون عيونهم على فم لينين وهو يتكلم ... ذلك شيء يمزق النفس ... انه يخدع الجماهير ، الملايين ، الشعب كله ... انه فى المفهـــوم المادى «محرض كبير» ... ومن الناحية الاخرى ... (ومال الى اذن داشـــا ، وهمس بلفتة واحدة) الدجال ! هل تتذكرين التنبؤات ؟ التواريخ تتطابق ، الشمال يشن الحرب على الجنوب . وتظهر فرسان الموت من الحديد ، وهى الدبابات ... وتسقط فى ينابيع الميـــاه نجمة الشر . انها نجمة البلاشفة الخماسية الاطراف ... وهو يتكلم للناس كما يتكلم المسيح ، ولكن كل شيء على الضد ... واليوم حاول ان يغريك ، ولكننا لن نتخلى عنك ... سانقلك الى عمل آخر .

وبقى السؤال الثالث غير مجاب . (عادت داشا الى حجرتها ، واستلقت على الفراش ، وغطت عينيها بمرفقها .) . وفجأة قرفت من التفكير ... «هل انا شمطت ، وبلغت المائة عام ؟ وهل انـــا قبيحة الوجه ؟ ساطلق لحريتى العنان ... لأذهب الى «متروبول» اذا اردت ... ولمن اخفى كل ما لا يريد ان يختفى واختنق فى صدر صباح السعادة ؟ ولمن اصك ركبتى الى حد العذاب ؟ واية مداعبات اتوقع ؟ حمقاء ، حمقاء ، جبانة ... افتحى نفسك ، اندفعى ... لا شيء يهـــم ، فليذهب الحب الى الشيطان ، وانت الى الجحيم ...»

لقد كانت تعرف انهـــا ذاهبة الى «متروبول» . واذا كانت مترددة ، فلأن وقت ذهابها لم يحن بعد – كان الظلام قد بدأ يخيم – وتلك الســـاعة السامة لتدفق الافكار . فى البيت دقت الساعة التاسعة

بقوة مثل ساعة برج . ووثبت داشا من الســرير بسرعة ... «لا اريد ان اقلق هذا القلق المهين !...»

خلعت ملابسها على عجل ، وركضت بقميصهـــا الداخلى الى الحمام ، حيث تراكم حطب وصناديق واشياء اخرى . ووقفت تحت الدش . وسقط الرشاش البارد على ظهرها . وشهقت انفاسها من البرد . وعادت الى حجرتهـــا مبتلة واخلت المفرش من السرير ، ونشفت نفسها واسنانها تصطك .

وحتى فى تلك اللحظة لم تستقر على قرار : كانت تنظر تارة الى الثوب القديـــم المرمى على ارض الحجرة مباشرة ، وتارة الى الفستان الملقى على ظهر الكرسى . وادركت مرة اخرى ان ذلك جبن ، مجرد تأجيل . وعندئذ اخذت ترتدى ملابســها . ولم تكن فى الحجرة مرآة ، والحمد لله ! القت اللفاع الفرائى على كتفيها ، وخرجت الى الشارع كاللصة . كان الظلام قد اشتد . سارت خلال البولفارات . كان الرجال يلاحقونهـــا بعيونهم مندهشين ، ومعهـــا ملاحظاتهم غير المشجعة البتة . ومن وراء شجيرة تقدم اثنـــان فى معطفين من معاطف الجنود وهما يترنحان ، وهتفـــا : «طفيلية ، انتظرى ، الى اين ذاهبة ؟»

توقفت داشا عند ساحة نيكيتسكايا وانفاسها متقطعة وقلبها يوخزها . مرت عربة ترام مضـــاءة تجر اخرى وراءها وهى تقرع جرسها بحدة . وكـــان الناس يتعلقون على الدرجات . كـــان احد الركاب يمسك الدرابزين النحاسية باليد اليمنى ، وحقيبة مسطحة من جلد التمســـاح باليد اليسرى ، وحين مر بها ادار وجهه الحليق القوى نحوها . لقد كان ذلك مامونت ، اصمّت داشـــا ، وركضت للحاق بالترام ، ورآها ، ارتفعت الحقيبة فى يده ارتفاعا راعشا . فك يده الاخرى من الدرابزين وقفز والترام سائر فى اقصى سرعته ، فاذا به يترنح ويسقط على ظهره محاولا ان يتشبث بالهواء وارتفع نعل حذائه الضخم لحظة ، ثـــم اختفى جذعه تحت العربة الثانية ، وسقطت الحقيبة عند قدمى داشا . ورأت داشـــا ركبتيه ترتفعان مرتعشتين ، وسمعت صوت عظـــام تتهشم ، وارتطام حذاء على البلاط . صرّت فرامل الترام ، وتناثر الناس من العربة .

تغطي على عينيها غشاء اسود ، ولا الطريق ناعما كالكفن ، وسقطت داشا على الارض وذراعاها وخدها على الحقيبة ، وفقدت الوعي .

٩

بدأ تحول جيش المتطوعين الى الهجوم ، وهو ما سمي بـ«حملة كوبان الثانية» بعملية ضد محطة تورغوفايا . كان الاستيلاء على هذا الملتقى للخطوط الحديدية مهمــا للغاية ، لأنه يقطع شمال القفقاس كله عن روسيا . في العاشر من حزيران زحف هذا الجيش المؤلف من تسعة آلاف رجل من المشاة والخيالــة بقيادة دنيكين العامة لتطويق محطة تورغوفايا باربعة طوابير .

كان دنيكين في طابور دروزدوفسكي . وكان التوتر في غاية الشدة . فقد كان الجميع يدركون ان نتيجة المعركة الاولى تقرر مصير الجيش . انطلق طابور دروزدوفسكي المحتمي بنيران مدفعه الوحيد المشحون بقذائف شظايا يحاول عبور نهر يغورليك سباحة تحت قصف مدفعية الطرف الآخر . كان النقيب توزكول آمر الفوج في الصف الاول يتخبط في الماء كالكرة شارقا بالماء ولاعنا . دافع الحمر باستماتة ، ولكنهم لقلــة مهارتهــم جعلوا العدو المجرب يطوقهم . اكتسحت المواقع الاماميــة من قبل طابور بوروفسكي جنوبا ، ومن قبل خيالة اردبل شرقــا . تركت وحدات الحمر التي اختلط بعضها ببعض وطوابير العربات الضخمة محطة تورغوفايا ، وانطلقت تنسحب شمالا . ولكن هنــا ايضــا سد* طريقهم طابور ماركوف من ناحية شابليفكا . وصار انتصار المتطوعين كاملا . وطوق قوزاق اردبل بالسرايا في ارجاء السهب يطعنون الهاربين ، آخذين الاسرى وعربات المتاع .

وهبط الظلام . وهدأت المعركــة . وضع دنيكين يديــه السميكتين وراء ظهره ، وراح يذرع رصيف المحطة احمر جهما . وكان طلاب المدارس العسكريــة في ضحك ومزاح — شأن الذين خرجوا سالمين من خطر مميت — يحملون اكياس الرمل ويضعونها على العربات المكشوفة ، وينصبون الرشاشات على قطار مصفح

لصفيحها ارتجاليا . ومن حين لآخر كانت قذيفة مدفــع تهز الهواء منطلقة من قطار مصفح للحمر يقع شمالا وراء شابليفكا . وكانت آخر قذيفة منطلقة من هناك قد سقطت بالقرب من جسر على نهر مانيتش ، حيث كان الجنرال ماركوف يمتطي حصانا رماديا . انه لم ينم ولم يذق الطعام ولم يدخن منذ يومين ، وكان منزعجا من ان احتلال شابليفكا لم يجر كما كان يريد . وظهر ان المحطة كانت تحتلها فصيلة قوية للحمر مع مدفعية وقطارات مصفحة . وقد حارب طابور الجنرال الذي التف حول المحطة يوم امس ، الحادي عشر من الشهر ، واليوم كله بعناد ودون ان يحقق نجاحا . فان التوفيق السريع قد خانه في هذه المرة ، وكانت الخسائر فادحة ، ولم يتراجع البلاشفة الذين كانوا يحتلون شابليفكا الا في المساء ، وبسبب الوضع العام على ما يبدو .

انحنى قليلا على سرجه ، وراح يتمعن في المعالم المبهمة لبعض الجثث المتجمدة في الاوضاع التي لحقهم الموت فيها . كانت تلك جثث ضباطه ، وكل واحد منهم كان يعادل في المعركة فصيلــة كاملة . ان ذلك لمنتهى الحماقة ، ان يُقتل ويُجرح مئات من احسن مقاتليه بسبب من تراخي فكره .

سمع انينا وزفرات مخرخشة كأنها تصدر من انسان يستيقظ من كابوس ، نوعــا من الفحيح . ونهض ضابط من الخندق قرب الجسر ، ثم وقع على بطنه على المتراس . توجع وتشبث في الارض ورفع رجله بصعوبة ، وخرج ، وتفرس في لجمة كبيرة صافية ، في الشفق المنطفئ* . ادار رأسه الحليق ، وأنّ* ، وسار متعثرا ، فوقع بصره على الجنرال ماركوف . ورفع يده بالتحية ثم انتزعها :

— يا صاحب السيادة ، اصابتني صدمة .

— ارى ذلك .

— اصبت برصاصة في ظهري .

— عبثا . . .

— انا مصدوم من الظهر في الرأس من مسدس مصوب نحوي من مسافة قريبة . . . حاول قتلي المتطوع فالريان اونولي . . .

سأل ماركوف بحدة : ما اسمك ؟

— المقدم روتشين . . .

وفي تلك اللحظة ، وللمرة الاخيرة اطلق المدفع ذو البوصات الست من القطار المصفح للحمر المتراجع الى الشمال . واندفعت القذيفة بزئير فوق السهب الداكن . ونثر حصان الجنرال الرمادي اذنيه مستثارا ، وبدا يقعي على وركه . صوت القذيفة من السماء ، وانفجرت على بعد خمس خطوات من ماركوف .

وخلف القشع الغبار والدخان ، راى قاديم بتروفيتش روتشين الذي قذفه الانفجار الحصان الرمادي منطرحا على الارض وقوائمه تضرب الهواء ، والى جانبه انطرح جسد صغير هامد . رفع روتشين جسمه قليلا وصرخ :

– يا اسعاف ! قتل الجنرال ماركوف !

بعد ان احتل جيش المتطوعين محطة تورغوفايا تحول شمالا الى محطة فيليكوكنياجيسكايا بهدف مزدوج : مساعدة الاتمان كراسنوف في تطهير دائرة سالسك من البلاشفة ، وتامين مؤخرته من جانب تسارتسين بشكل اضمن . احتل جيش المتطوعين محطة فيليكوكنياجيسكايا دون خسائر كبيرة ، الا انه لم يستطع توسيع هذا النجاح ، لان فصيلة من خيالة الحمر تحت قيادة بوديوني اجتاحت في معركة ليلية وحدات اوديل القوزاقية واصابتها بضربة قوية ، ولم تمكنها من عبور نهر مانيتش .

وكاد قطار المتطوعين المصفح الاول ان يسحق بالقرب من المحطة . فقد لاحظ الراكبون فيه قاطرة تسير رافعة علما ابيض فظنوا انها تستسلم ، فكفوا عن اطلاق النار . الا ان القاطرة اندفعت دون ان تخفض سرعتها مطلقة صفيرها بلا انقطاع . وفي اللحظة الاخيرة فقط قرر من في القطار المصفح ان يطلقوا عليها بعض الطلقات النارية من مسافة قريبة . ولكن الاصطدام قد وقع ، وتحطمت عربة منبطحة ، وانقلبت القاطرة . وكان النفط قد سكب عليها وعلقت عليها القنابل . ولبضع دقائق توجهت كل انظار المقاتلين الى هذه اللقطة من فلم امريكي .

سلم دنيكين المنطقة الى قيادة الدون ، واوكل امر القضاء على البلاشفة المحليين الى فصائل قوزاق القرى ، واستدار ثانية

جنوبا للاستيلاء على محطة مهمة هي تيخوريتسكايا التي تربط الدون بكوبان ، والبحر الاسود بقزوين . سار للقاء اخطار جسيمة وكانت في طريقه قريتان كبيرتان من قرى الاغراب هما بيستشانوكوبسكويه وبيلايا غلينا ، وكلتاهما كانت بؤرة للبلاشفة ، وقد عززتا بشكل سريع . وكان جيش كالنين يتخذ بسرعة محمومة قرب تيخوريتسكايا . وكان جيش سوروكين يفيق في ذلك الوقت ، من حالة الذعر ويبدا بالضغط من الغرب ، بينما اعادت وحدات الحمر التي تحطمت عند مانيتش تشكيلاتها ، وتحولت من المؤخرة الى الهجوم . وتدفقت مفارز المتطوعين من قرى كثيرة .

وكان في وسع دنيكين ان يعتمد على شيء واحد : انعدام التنسيق في عمليات الطرف الآخر . ولكن ذلك ايضا يمكن ان يتغير في كل لحظة . ولهذا عمد الى العجلة . وكان في بعض الاماكن يقوم هو نفسه بانهاض القوات التي كانت مسترخية في اعياء تام . كان المشاة ينتقلون في عربات . وكان القطار المصفح المرتجل نفسه يسير في مقدمة الجيش .

وبالقرب من قرية بيستشانوكوبسكويه حارب الاهالي كلهم الى جانب الجيش الاحمر . ولم يكن جيش المتطوعين قد راى مثيلا لتلك الضراوة من قبل . وكان السهب يهتز من القصف من الصباح حتى الليل . واخرج فوجا بوروفسكي ودروزدوفسكي مرتين من القرية . ولم يهجر الحمر القرية حتى آخر انسان الا بعد ان راوا انفسهم محاصرين من جميع الجهات غير عارفين بقوى العدو ومعداته . والآن تحولت جميع الوحدات وجميع الفصائل وحشود اللاجئين الى بيلايا غلينا .

وفي هذه القرية كانت في وسط عشرة آلاف متطوع تعسكر فرقة دميتري شيليست الحديدية . ودعي جميع الراشدين الى حمل السلاح . وعززت المشارف . وظهر التنظيم والفهم التكتيكي لاول مرة . وفي الاجتماعات العامة تودي بالنصر او الموت .

ولم ينفع ذلك . فقد كان العدو عليما جابه الشجاعة والاستماتة بالعلم ، وحسب الحساب لكل صغيرة ، وسار وكانه

على رابعة شطرليج ، مباغتا المؤخرة دائما ، حقا ان بداية هجوم البيض لم تكن موفقة ، فان العقيد جبراك الذى كان يقود فوج دروزدوفسكي قاد رجاله في الظلام الى الضيعة التي تقف عندها صفوف الحمر الامامية ، فجوبه بنيران مباشرة ولكنه هجم ووقع صريعا ، وتراجع رجال دروزدوفسكي وانطرحوا على الارض . ولكن في نحو الساعة التاسعة صباحا شق كوتيبوف طريقه الى بيلايا غلينا من الجنوب ومعه رجال كورنيلوف وفوج دروزدوفسكي للخيالة وسيارة مصفحة ، وتقدم بوروفسكي من ناحية المحطة المستولى عليها ، وبدأت معركة في الشوارع . واحس الحمر انهم محاصرون فاضطربت صفوفهم . واخترقت المصفحة حشودهم . واشتعلت النار في سقوف القش . وانطلقت الابقار والخيول وسط النار والطلقات والصياح .

وتراجعت فرقة شيليست الحديدية عبر الطريق الوحيد الذى بقى مفتوحا . كان دنيكين واقفا على قرب عند كشك السكة الحديدية . كان يصرخ غاضبا واضعا كفيه حول فمه ليقطعوا الطريق على المتقهقرين . ووراء فلول الفرقة الحديدية خرج الانصار والاهالى جميعا ، وانطلقت خيالة اردلى للحاق بالهاربين . كما ان حراس القائد العام لم يكبحوا جماحهم فسلوا سيوفهم وعدوا لطعاتهم ، وتقلب ضباط الاركان على سروجهم ، وجروا على خيولهم وكأنهم في طراد الوحوش قاطعين الرؤوس والظهور . وبقي دنيكين وحده ، خلع قبعته وراح يهوى بها وجهه المنفعل ، ان هذا النصر كشف الطريق امامه الى تيخوريتسكايا ويكاترينودار .

في الغسق سمعت طلقات قصيرة في القرية ، في افنية البيوت ، انهم رجال دروزدوفسكي ينتقمون لمقتل جبراك باعدام اسرى الجيش الاحمر رميا بالرصاص . كان دنيكين يحتسي الشاى في كوخ مملوء بالذباب . وكان رغم احتباس الهواء في الليل يرتدى سترته السميكة ذات الكتافتين المربطتين ، المزررة حتى الرقبة . وكان عند كل طلقة يلتفت نحو النافذة المحطمة ، ويمرر منديله المدعوك على جبينه وعلى جانبي انفه .

قال لمرافقه :

– فاسيلى فاسيليفيتش ، يا عزيزى ، اطلب الى دروزدوفسكي ان يأتى الى . لا يجوز ذلك ، على اية حال .

صفق المرافق بمهمازيه ورفع يده بالتحية وخفضها واستدار وخرج . اخذ دنيكين يصب الماء من السماور الى ابريق الشاى . صدرت الطلقة الجديدة على مقربة شديدة حتى ان الزجاج اهتز ، ثم رن صوت في الظلام . فاض الماء المغلى عبر الحافة مع قطع من الشاى . غطى انطون ايفانوفيتش الابريق ، وهمس : «اى ، اى ، اى !» فتح الباب بحدة ، ودخل رجل في الثلاثين من العمر شديد الشحوب عليه سترة مدعوكة ذات كتافيتين ناعمتين مدعوكتين ايضا من كتافيات الجنرالات . انعكس ضوء مصباح الكيروسين على عدستى نظارته الانفية انعكاسا باهتا . كان ذقنه المربع غير الحليق ناتىء الشعر ، ووجنتاه الغائرتان ترتجفان . توقف الرجل عند الباب . نهض دنيكين من المصطبة ثقيلا ، ومد له يده .

– تفضل اجلس ، يا ميخاليل غريغوريفيتش ، لعلك تريد شايا ؟

– شكرا جزيلا ، ليس لدى وقت .

كان ذلك دروزدوفسكي الذى رقى الى جنرال قبل فترة قصيرة . كان يعرف لماذا استدعاه القائد العام فكان ، على عادته حين يتوقع التأنيب ، يكبح غيظه بصعوبة . احنى رأسه ، ونظر الى جانب .

– ميخاليل غريغوريفيتش ، اريد ان اتحدث اليك بشأن هذه الاعدامات ، يا عزيزى ...

– ليست لدى قدرة على امساك ضباطى – قال ذلك بصوت عال بدرجة مزعجة تقرب من نوبة الهستيريا ، وقد ازداد شحوب وجهه . – ان فخامتكم يعرف ان البلاشفة عذبوا العقيد جبراك تعذيبا وحشيا ... الضباط الخمسة والثلاثون ... الذين جلبتهم من رومانيا ... عذبوا وشوهوا ... البلاشفة يقتلون ويعذبون الجميع ... نعم ، الجميع ... (تقطع صوته ولهثت انفاسه .) لا استطيع ان امسكهم ... انا ارفض ... اذا كنت تعتبرنى

غير صالح فيمكنك ان تتسلم استقالتي ، بحق الرب ، سأتشرف بأن اكون جنديا .

قال دنيكين :

— اي ، اي ، اي ، ميخائيل غريغوريفيتش ، لا يصح ان تضطرب على هذا النحو . . . لا علاقة هنا باستقالتك . . . افهمني ، يا ميخائيل غريغوريفيتش : اننا برمي الاسرى نزيد بأنفسنا مقاومة العدو . . . وستنتشر الاشاعة عن هذا الرمي في كل مكان . فلماذا نلحق الأذى بجيشنا بأيدينا ؟ هل انت موافق معي ؟ أليس هذا حقا ؟ (لزم دروزدوفسكي الصمت .) انقل ذلك لضباطك لكيلا تتكرر مثل هذه الوقائع .

— حسنا !

واستدار دروزدوفسكي ، وصفق الباب وراءه .

ظل دنيكين يهز رأسه طويلا مفكرا على قدح من الشاي . وصدرت الطلقة الاخيرة من بعيد ، وهدأ الليل .

كانت العملية ضد تيخوريتسكايا ضمن خطة انقاذ الجيش مواقعه على جبهة طولها ستون فرسخا . وكان من الضروري مقدما تنظيف رقعة من الفصائل المتفرقة والانصار . وقد عهد ذلك الى الجنرال الشاب بوروفسكي . فاستطاع في يومين من المعارك ان يقطع مائة فرسخ ، ويحتل عددا من القرى . وكان ذلك في تاريخ الحرب الاهلية أول ما سمي بـ«الغارة» على مؤخرات العدو .

وانتشر جيش المتطوعين على الرقعة المطهرة من الحمر . وفي الثلاثين من حزيران اصدر دنيكين امرا قصيرا : «ان تحتل محطة تيخوريتسكايا غدا في الاول من تموز ، بعد تحطيم العدو المتمركز في منطقة تيتوفسكايا — تيخوريتسكايا . . .» وفي الليل تحركت الطوابير شاقة تيخوريتسكايا في كماشة عريضة . واخذ البلاشفة بعد مناوشات قصيرة يتراجعون الى مواقع معززة .

في هذه المرة لم تكن تلك المقاومة المستميتة التي ابديت قبل اسبوع من الزمن . فان سقوط بيلايا غلينا اثارت اضطرابا . اوقف هجوم سوروكين . والآلاف من الضحايا الذين صرعوا في

المعركة الدامية لم يأتوا بجدوى . وتقدم العدو بدقة الآلة . وضخمت المخيلة قوى جيش المتطوعين اضعافا مضاعفة . وقيل ان الضباط يعدون الى دنيكين من كل انحاء روسيا كالسحب ، وانهم لا يرحمون باحد ، وانهم ما ان يطهروا منطقة حتى يأتي اليها الالمان . وكان كالنين الذي يقود تشكيلة تيخوريتسكايا قابعا في قطاره في محطة تيخوريتسكايا كالمشلول ، وعندما رأى جحافل الدنيكيين يزحفون من الجهات الاربع تثبط عزمه ، وامر بالتراجع .

بدأت المعركة في نحو الساعة التاسعة صباحا ، وتراجع الحمر الى نصف دائرة معززة . اوصد كالنين باب مقصورته ، واستلقى وغفا معتقدا ان معركة اخرى لن تحدث اليوم ، بينما استمر جيش المتطوعين في تعميق تطويقهم للعدو متقدمين في حقول القمح النامي الكثيف . وفي منتصف النهار اتصل جناحاهم بالاطراف ، وخرجوا الى المؤخرة من الجنوب . هجم فوج كورنيلوف على المحطة ، واستولى عليها دون خسائر ، واختفى عمال السكة الحديدية . واختفى كالنين ، وبقيت قبعته وحذاؤه في المقصورة . وفي مقصورة مجاورة عثر على رئيس هيئة اركانه ، رئيس هيئة الاركان العامة ، المقدم زفيريف المصدوع الجمجمة . كما وجدت زوجته مطروحة على الفراش ورأسها مغطى في شالها ، وصدرها مصاب بطلقة ، ولكنها ما تزال تتنفس .

وبعد ذلك لم يبق لطوابير المتطوعين غير الاطباق على الجيش الاحمر الذي فقد قيادته ، وقطع عن القاعدة والطرق . وحتى المساء ظلوا يضربونه بالمدافع والرشاشات . وماج الناس واضطربوا ، والزوبعة الرصاصية تلذع وجوههم وظهورهم . ونهض الرجال الذين فقدوا صوابهم من الخنادق ، وهجموا بالحراب ، والموت يترصدهم في كل مكان . وعند المساء سد كوتيبوف الطريق الوحيد الذي بقي مفتوحا باتجاه الشمال ، وفتكوا بالنار والسلاح الابيض بجماعات الحمر المتجهة الى سدة الخط الحديدي . وعند هبوط الظلام اختلط كل شيء في حقل القمح الكثيف — البيض والحمر . كان الاعداء يتراكضون بين سنابل القمح كطيور السلوى ، ويجمعون الشتات ، ويشتبكون في معركة بعد اخرى . في احد الاماكن رفعوا المناديل على الحراب من الخنادق . وخرج كوتيبوف وضباط فقوبلوا

بالرصاص وبعاصفة من الشتائم البذيئة فى منتهى الضراوة . انطلق متحنيا على رقبة حصانه . وكان امر قائد الجيش العام يقضى بعدم رمى الاسرى ، ولكن احدا لم يأمر بأخذهم اسرى .

فى الصباح طاف دنيكين فى ساحة المعركة ببطء . كان القمح ، على امتداد البصر ، مسحوقا ومائلا بسنابله ارضا و متناثرا . وكانت بواشق الجيف تطوف فى السماء اللازوردية . نظر دنيكين الى خطوط الخنادق المتلوية عبر الحقول - خلال الزوايا القديمة والمنخفضات - تبرز منهـا الاذرع والارجل والرؤوس الميتة ، والجثث مرميـة كالركائب . وكان فى مزاج شاعرى رائق ، التفت نصف التفاتة ليقترب المرافق منه ، وقال مفكرا :

- ولكن هؤلاء جميعا روس . فظيع . لا اشعر بتمام الفرح بانتصارنا يا فاسيل فاسيليفيتش . . .

كان النصر تاما . دحر جيش كالنين المؤلف من ثلاثين الف رجل وهلك وشتت . ولم يستطع الخروج الى يكاترينودار غير سبعة من القطارات العسكريـة للحمر . وقطع جيش سوروكين . وفصلت تشكيلتان منفردتان لقوات الحمر كليا : التشكيلـة الشرقية فى منطقة ارمافير وجيش تامان على ساحل البحر الاسود . وحصل جيش دنيكين على غنائم هائلة : ثلاثة قطارات مصفحة ، ومدرعات ، وخمسين مدفعـا ، وطائرة وعربات من البنادق والرشاشات والقذائف ، ومجموعة كبيرة من مختلف الاشياء .

وكان اثر النصر مذهلا . امر الاتمان كراسنوف باقامة صلاة الشكر فى كتدرائية نوفوتشيركاسك ، والقى خطبه امام القوات ليس باسوا من صديقه الامبراطور غليوم . فقد دنيكين ربع جيشه خلال ثلاثة اسابيع ، ومع ذلك ففى الايام الاولى من شهر تموز تضاعف جيشه : فقد جاء اليه سيل موصول من المتطوعين مـن اوكرانيا ونوفوروسيا وروسيا الوسطـى ، ولأول مرة بدأت تتشكل وحدات من اسرى الجيش الاحمر .

بعد استراحة يومين قسم دنيكين جيشه الى ثلاثة طوابير وقام بهجوم واسع على ثلاث جبهات : الى الغرب ضد سوروكين ، والى الشرق ضد تشكيلة ارمافير ، والى الجنوب ضد بقايا جيش كالنين الى تدافع عن مشارف يكاترينودار . وكانت المهمة تطهير كل المؤخرة

قبل الهجوم على يكاترينودار . ودُرس كل شيء وخطط وفـق قوانين اهل فن عسكرى . الا ان دنيكين لم يحسب حسابـا لظرف واحد هام : انه لم يكن يتصدى لجيش معاد فى وسعه ان يقيم وزن قواه ووسائله ، بل لشعب مسلح ، لقوى غير مفهومة لديه . ولم يقدر ان فى هذا الجيش الشعبى تنمو ، مـع انتصارات جيش المتطوعين ، الكراهية وروح الاجماع ، وان زمن الاجتماعات العاصفة التى كان يطرد فيه امراء الوحدات غير المرغوب فيهم ، ويتقرر الهجوم باغلبية الاصوات قد ولى ، وحل محله ضبط جديد للحرب الاهلية ما يزال فجا ، ولكنه يتعزز مع كل يوم .

كان كل شيء ينبئ بنصر عاجل سهل . ابلغ رجال الاستطلاع عن حركة قوات سوروكين المذعورة باتجـاه يكاترينودار وراء كوبان . الا ان ذلك لم يكن صحيحا تماما . كان رجال الاستطلاع على خطأ . فقد فر وراء كوبان الهاربون من الجيش وفصائـل صغيرة ، وسارت قوافـل اللاجئين . اما تشكيلـة سوروكين المؤلفة من ثلاثين الف رجـل فقد تنظفت من غير القادرين على القتـال ، ورصت صفوفهـا وازدادت ضراوة . وتركت جبهـة باتايسك ضد الالمـان . وانتظر الحمر لقاء جيش دنيكين وجهـا لوجه فى ارض مكشوفـة . . فاذا بجيش المتطوعين الذى اسكرته الانتصـارات وقرُب من الهدف كان يهلك عن بكرة ابيـه فى معركة دامية مع قوات سوروكين دوهـم بها سريعا واستمرت عشرة ايام .

اجاب سوروكين عن سؤال اللجنة التنفيذية المركزية لمنطقة كوبان-البحر الاسود بعجرفة نابليونية : «لا حاجة بى الى محرضين ، اعمال قطاع الطرق الدنيكينيين تنطق لصالحى . وشجاعـة قواتى التاريخية تحطم كل حواجز الثورة المضـادة» . اوقف سوروكين الفقر فى قواتـه فى الايـام الاولى من هجوم دنيكين ، وبدا وكأنه افاق من سبات السكر . وانطلق ليل نهار فى طوال الجبهة ، فى قطار ، فى عربة تروالى ، على فرس . واستعرض القوات ، ورمى بالرصاص ، بيده ، اثنين من امراء الوحدات على الملا بسبب موقفهما المتهاون من اللحظة الراهنة ، ووقف على ركابيه ، وتحدث

بكلمات بذيئة عن اعداء الشعب ، طفحت مع الزبد من شفتيه المعوجتين حتى ان رجال الجيش الاحمر قاطعوه بخوار كخوار جواميس اثارتها سحابة من ذباب الماشية . ونشط عمل المحاكم العسكرية والشعب الخاصة ، وادخل عقوبة الموت على اهمال البندقية ، واصدر اوامر للجيش تقول : «ايها المقاتلون ! ان شغيلة العالم كله ينظرون اليكم بامل ، وهم يقدمون لكم شكرهم العظيم . فانتم تنصبون للدنيا فجر التاريخ الدامي بعيون مفتوحة وصدور قوية . ان الطفيليين ، والحشرات الزاحفة ، لصوص دنيكين ، وكل السفلة المعادين للثورة ، يجب ان يكتسحوا بالنار والرصاص . السلام للشغيلة ، والموت للمستثمرين . عاشت الثورة العالمية !»

وكان هو الذي يكتب هذه الاوامر في حالة الانفعال . وكانت تتلى على السرايا . وكان فلاحو اوكرانيا ، وعمال مناجم الدون ، والمقاتلون في جيش القفقاس ، والاغراب والقوزاق – كل هذا الخليط المهلهل الصاخب الطليق العنان – يسمون هذه الكلمات الفخمة كالمسحورين .

ووضع بيلياكوف رئيس الاركان ، وهو عسكري ذكي مجرب ، خطة للهجوم ، والاصح ان يشق الجيش كله ، بالاقفه الثلاثي ، الحصار ، ويخرج الى ما وراء كوبان . ذلك ، على الاقل ، ما كان يراه رئيس الاركان الذي لم يكن له اي امل في نزال ناجح مع دنيكين . وعينت منطقة محطة كورينيفسكايا (ما بين تيخوريتسكايا ويكاترينودار) لتكون نقطة الاقتحام . وبعد احتلال كورينيفسكايا لن يكون من الصعب مجابهة طابوري دروزدوفسكي وكازانوفيتش المقطوعين جنوبا من القوات الرئيسية ، والانعطاف الى يكاترينودار ، اما بقية الامر فعلى المصادفة ! . . . على هذا النحو فكر رئيس الاركان . كان وضعه حرجا للغاية . كان بكل كيانه ، وفي نومه ويقظته ، يكره الحمر الا ان النصيب اللعين ربطه بالبلاشفة . وكان وقوعه في يدي دنيكين – الذي كان ينظر بيلياكوف اليه باعجاب حسود مثير – يعني الموت ! كما ان ارتياب سوروكين في قلة حماسه الثوري وكرهه لدنيكين يعني الموت ايضا ! وكان امله الوحيد هو طموح سوروكين الشديد ، ولو انه

امل خيالي ، مثل كل احداث ذلك الزمن . ولكن من الممكن التعويل على ذلك : دفع سوروكين الى الدكتاتورية بكل الامكانيات ، ثم انتظار ما يخبئ القدر ! . .

وعلى اية حال فقد استعد للهجوم بكل نشاط : تدفقت على محطة تيماشيفسكايا احتياطات الذخيرة وعلف الماشية ، وانزلت القنابل ، ومضت طوابير ضخمة من العربات في السهب ، واتخذ الجيش مواقعه في منطقة تيماشيفسكايا في الجنوب الشرقي لكي يهاجم محطة كورينيفسكايا ، ومحطة اخرى الى الشمال منها هي فيسيلكي في آن واحد .

في فجر الخامس عشر من تموز فتحت مدافع الحمر للميدان نارا حامية على كورينيفسكايا ، وبعد ساعة انطلق مئات الفرسان على العاضرة والمحطة في موجة اثر موجة . واعملوا الطعن في البيض بسيوف صافرة ، وداسوهم بالخيول ، ولم ياخذوا اسرى الا اولئك الذين القوا بنادقهم قبل ان يقتربوا منهم . وسارت وحدات المشاة طوال الليل واخذت يتخندقون في كورينيفسكايا على الفور ، لا في نصف دائرة ، كما حصل في بيلايا غلينا ، بل في حلقة بيضوية كاملة .

نهضت الشمس البيضاء في نقاب من الغبار والحر . وكان السهب كله يموج بالحركة : الفرسان يعدون على افراسهم ، وافواج المشاة تدب ، وعجلات البطاريات تقرقع ، وتردد سباب ، وضربات ، وطلقات ، وصهيل خيول ، وصيحات مبحوحة بالاوامر . وامتدت طوابير العربات حتى الافق . وكان النهار حارا كالفرن ، وفي منتصف الطريق ترك سوروكين ضباط اركانه ، وانطلق على فرس مبيض من الرغوة وطاف بين قواته . ومنه الدفع المراسلون والنوبجية مثل كلاب الصيد ينقلون اوامره الى الوحدات .

كان قد فقد قبعته اثناء العدو ، ورمى سترته الجركسية عنه . فكان في قميص حريري قرمزي طوى ردنيه الى اعلى من مرفقيه ، وسروال ركوب ازرق شد بحزام جلدي مزين بقطع معدنية شدا محكما . وكان وجهه المسود من العرق والغبار يترى في كل مكان

باسنانه المكشرة . وكان قد غير ثلاثة خيول ، انه تفقد مواقـــع البطاريات والخنادق حيث وحدات المشاة تتخندق فى الأرض السوداء كالمناجذ ، وانطلق فى السهب الى نقاط المراقبة ، وعدا الى طوابير العربات التى بدأت تصل وتفرغ حمولتها من القذائف ، ودعا امراء الوحدات اليه باشارة من مقرعته ، واصغى الى تقاريرهم منحنيا على سرجه ملتهبا رهيبا ذا عينين مجنونتين . كان مثل قائد فرقـــة موسيقية ضخمة يشد على اوتار موسيقى معركة مقبلة ، ترك عند المحطة حصانه اللاهث ، وهرع الى قسم البرقيات ، وضرب برجله جثة مطروحة عند العتبة مضرجة الجمجمة ، جثة ضابط ابيض ذى كتافيتين ، وخامره ، وهو يقرأ الشريط الخارج من الجهاز بسرعة ، الاحساس بانفعـــال عارم مسكر : هجرت قوات دروزدوفسكـــى وكازالوفيتش محطة دينسكايا جنوبا ، وافتربت بسرعة لتشتبك فى معركة .

كان رجال دروزدوفسكى يركبون العربات . مئات العربات ظلت طوال النهار تنطلق فى السهب فى سحب من الغبار الحار . اما رجال ماركوف الذين اصبحوا تحت قيادة الجنرال كازالوفيتش فقد تنقلوا مع مدفعيتهم فى قطارات ، فسبقوهم ، وفى فجر السادس عشر نزلوا من العربات واندفعوا رأسا يهاجمون كوريتيفسكايا .

كان الجنرال كازالوفيتش واقفا على هيكل بئر قرب كشـــك السكة الحديدية يراقب بهدوء الحركات المقتدرة لصفوف الضباط تزحف دون ان تطلق نارا . لاح استغراق هازئ على وجهه الدقيق الرشيق بشاربيه الطويلين اللذين وخطه الشيب ولحيته المتدببة (مثل لحية الامبراطور السابق) واطلت ابتسامة باردة الترية الهوى من عينيه الجميلتين . وكان شديد الثقة بنتيجة المعركة حتى انه لم يرد ان ينتظر فرقة دروزدوفسكى لحظة واحدة . كان يتنافس على المجـــد مع دروزدوفسكى المصاب بمرض الغرور ، والحذر ، والبطء الحركة مما يلحق غالبـــا الضرر بالامر . كان يحب الحرب بنطاقها الواسع ، وبموسيقى المعركة ، ومجد الانتصارات الذائع .

خرج قرص الشمس الهائل من وراء الروابى البعيدة ، وكانت فيه ضراوة تموز ، وكان نور الشمس يبهر عيون البلاشفة . لعلعت الرشاشات ، ومزقت الطلقات السكون الملتهب . وكان من الممكن

رؤية صفوف العدو الكثيفة تخرج من الخنادق . جرى رجال فرقة ماركوف الى الامام ، لم يحن احدهم رأسه امام الرصاص ، ومـــن الجانب الآخر زحفت لملاقاتهم آلاف عديدة من الشخوص الصغيرة . رفع كازالوفيتش المنظار الى عينيه . غريب !

امر جندى التلفون الجالس عند البئر :

– ثلاث قنابل شرابنيل على الرفاق !

فتحت النار بطاريتان مختفيتان وراء سدة السكك الحديدى . انفجرت على ارتفاع واطىء فوق صفوف العدو نفثات الشرابنيـــل القطنية ، وتفرقت الشخوص ، ثم ضمت صفوفها وتابعت هجومها . الآن صار الميدان كله يهتز من الطلقات . واخيرا زأرت مدافع البلاشفة . وابتسم كازالوفيتش فى دهشة ، وارتعشت ذراعـــه القبيحة الحاملة للمنظار . استلقى رجال ماركوف ، وتخندقـــوا بسرعة . وشحبت بشرة وجهه المسفوعـــة . وثب من هيكل البئر ، وجلس مقرفصا منكبا على جهـــاز التلفـــون ، وطلب الجنرال تيماتوفسكى . وصاح فى السماعة :

– الصفوف منبطحة . اخرق جناح العدو الايسر ، مهما كلف الامر . . . كل ثانية من الوقت ثمينة .

وفى الحال ظهر رجال ماركوف – احتياطات تيماتوفسكى – من وراء السدة ، ونزلوا المنحدر وتراكضوا جماعات وصفا وراء صف ، متحمسين منفعلين ، واختفوا فى القمـــح العالى المتساقط الحبوب ، وركض تيماتوفسكى وراء الصفوف بعد ان امسك بسيفـــه . كان شابا متورد الوجنتين ، ضاحك السن دائما فى قميص كتانى قذر عليه كتافيتان سوداوان من كتافيات الجنرالات ، وقد سرح طاقيته العالية الى الوراء . ويجرى شىء غير مفهوم : كان البلاشفة قـــد تكاثروا برجال آخرين ، وانقضت كل اللحظات التى كان يجب ان يجفلوا فيها بالتأكيد . الآن امتلأ السهب كله بشخوصهم الزاحفة . كانت رشاشات المتطوعين تضرب بجنون ، فكانت موجات جديدة تحل مكان الصرعى .

كانت سرايا تيماتوفسكى تركض واحـــدة وراء الاخرى ، وحرابها منكسة الى الارض ، فى نهايـــة حقل القمح . . . شـــد كازالوفيتش قامته كالوتر ، على هيكل البئر . وكان يرى فى مجال

الرؤيا الضيق في المنظار الفية رجال ماركوف الضارية . ما اشد الجهد ! ويتساقطون ويتساقطون ! وحول منظاره الى الراكضين ، وفجأة راى افواهـا فاغرة ، ووجوها عريضـة ، وقبعات بحـارة ، وصدورا برلزية عارية . . . بحارة بلاشفة . . . وفجأة اختلط كل شيء ، وتكور في زحام واحد . انه قتال في الحراب . وجـــدت الابتـسامة السقيمة على شفتي كازالوفيتش الرفيقتين . . . لم يصمد رجال ماركوف . تراكضت بقية السرية الاولى الى حقل القمـــح والسنابل ، وتراجعت السرية الثانية وانطرحت ارضا .

عندئذ وثب من هيكل الشر ، وركض خفيفا الى الحقل . وراء الرجال . واستطاع ان ينهض الصفوف صائحا : «عيب ، يا سادة ، عيب !» ودفعهم في هجوم بالحراب . الا ان النار كانت من الشدة بحيث ان الرجال راحوا يتساقطون بكثرة ، وانطرحت الصفوف من جديد . . . أيمكن ان تكون هذه معركة خاسرة ؟

في نحو الساعة التاسعة صباحا تردد من الغرب قصف مدافـع دروزدوفسكي . وظهرت في السهب مصفحة كالسلحفاة الرماديـة تترنح في سيرها . شرع رجال دروزدوفسكي بالهجوم بشكل نظامي ودون عجالة . ونهض رجال كازالوفيتش للمرة الثالثة . والآن كان المتطوعون يتقدمون في جبهة عريضة ، على شكل هلال . ان البلاشفة لا يمكن ان يتحملوا هذه الضربة .

ظهر فارس بين خنادق البلاشفة . عدا بجنون ملوحا بنصل لامع . وصعد رابية ، وكبح حصانه . كان الفارس يرتدي قميصا قرمزيـــا مطوي الكمين ، وراسه ملقى الى الوراء . صرخ ، ولوح بالسيف مرة اخرى . فاذا بسيل من الخيالة يتصدى لصفـــوف دروزدوفسكي المهاجمة . كانت خيولهم الصغيرة الهائجـــة تكاد تنطبق على الارض . وتوقف اطلاق النار . ومن بعيد كان يسمع صفير السيوف ، والعويل ، ووقع الحوافر . اندفـع الفارس ذو القميص القرمزي من الرابية ، واطلق العنان لفرسه ، وانطلـق بالضي السرعة في المقدمة . ارتفعت سحابة سوداء من الغبار مغطية ساحة المعركة . ولم يصمد رجال دروزدوفسكي وماركوف لضربة الخيالة ، وتراكضوا هاربين ، وتوقفـــوا وتخندقـــوا وراء نهير كيربيل .

شـد إيفان إيليتش تليغين راسه بشاش من محفظة الاسعاف الخاصة به ، وهو يقلص عينيه ويرتجف من الالم .

كان خدشا خفيفا ، والعظام لم تصب ، ولكنه كان يحس بالم شديد ، وكان لولبا يدور في جمجمتـــه كلهـــا . وكان قد وهن من الجهد حتى انه ظل راقدا على ظهره في حقل القمح وقتا طويلا بعد التضميد .

وكان غريبا ان يسمع صرير الجنادب الوادع وكان شيئا لم يحدث . انتهى الصراع الدامي والصيحات وهدير المعركة الحديدي بهذه الجنادب المختفية في شقوق الارض ، والنجوم الكبيرة في ليل الجنوب ، وبعض السنابل المتدلية بلا حراك ما بين عينيه والسماء ، وقبل وقت كان احد الجرحى يئن على مسافة قريبة ، والآن قـــد همد .

السكون شيء رائع . خف الالم اللاذع في راسه وبدا وكان هدوء الالم مبعثه عظمة الليل المهيبة هذه . ولمعت في ذاكرته صور ساطعة من اليوم الذي تمزق وتكور مختلطا بقصف المدافـــع ، وصيحات الافواه المفتوحة بوحشية ، وتوبات الكراهية ، حين تركض فلا ترى غير الحراب الحادة والوجه الشاحب للرجل الذي يصوب النار عليك . الا ان الذكريات نفذت في ذهنه بالم ، وحزت جمجمته حتى انه توجع ، وحاول ان يفكر في شيء آخر . . .

في اي شيء كان من الممكن ان يفكر ؟ امـــا في هذه النتف الرهيبـة لحدث طويل لا تستوعبـه المخيلـة – الثورة والحرب – واما في حلم عن السعادة بعيد مغلق دونه ، حلم عن داشا ؟ واخـذ يفكر فيها (في الواقع لم يكف قط عن التفكير فيها) يفكر في انهـــا مهملة وحيدة ، غير مجربـــة ، وعديمة المقدرة ، وخيالية . . . عينان فاضتان . اما القلب ، فمثل قلب الطائر ، مذعور ، خافق ، لقلقة ، طفلة . . .

ايقن ايفان ايليتش بيده المرمية على حفنة تراب حار ، وعصرها . واستبل جفنيـــه . افترقت معه وانقـــة من انه الفراق النهائي . حمقاء . . . لا احد تفزعه عيناك الفاضتان . . . ولا احد سيخلص في حبه لك اكثر مني ، حمقاء . . . تقاسين مصادات مريرة لا تنسى . . .

تحدرت الدموع من خلال رموش ايفان ايليتش — فان الجرح قد اوهنه . اخذ جندب يصرصر قرب اذنه . وبدا الحقــــل المدمى المداس فضيا من ضوء النجوم . وغطى الليل على كل شيء بجنحه . . . رفع ايفان ايليتش جسمه ، وقعد محتضنا ركبتيه . كل شيء كان كالحلم ، كما في الطفولة . واشفق القلــب ، وبكى . . . نهض ، وسار محاولا الا تهز خطواته راسه .

كانت كوريتيفسكايـــا على بعد فرسخ من هنـــا . هنالك نيران متفردة . وعلى مسافة اقرب ، في الوهدة ، كان لسان مـــن اللهب يتراقص فوق الارض بلا دخـــان . واحس ايفـان ايليتش بالعطش والجوع ، فتحول باتجاه النار .

في كل الحقل كانت شخوص سوداء تسير الى هنالك ، منهم الجريح جرحا خفيفا ، ومنهم الضالع من وحدة ممزقة ، ومنهـــم من يسحب اسيرا . وتنادوا ، وتردد سباب مبحوح ، قهقهة قوية . . . وعند النار التي تحترق فيهـــا عوارض خشبيـــة استلقى رجال كثيرون .

وشم ايفان ايليتش رائحة خبز . كان جميع هؤلاء الذين غطاهم الغبار يمضغون الخبز . كانت بالقرب من النار عربة فيها خبز وبرميل صغير تغرف منه الماء امرأة نحيلة بادية الاعياء تشد رأسها بمنديل ابيض .

ارتوى ايفان ايليتش ، وحصل على قطعة من الخبز ، واتكأ على العربة ، واكل ناظرا الى النجوم . كان الناس عند النار قـد هدأوا ، واستغرق الكثيرون منهم في نوم . اما اولئك الذين كانوا يأتون من الحقل فما زال الغضب يعتمل في نفوسهم . كانوا يشتمون ويتوعدون في الظلام ، ولو ان احدا لم يصغ اليهم . كانت الممرضة توزع الماء وقطعا من الخبز .

سحب شخص ذو لحية سوداء عار حتى الحزام اسيرا ، وطرحه عند النار .

— هذا هو ابن الكلب ، الطفيل . . . استجوبـــوه ، يـــا اصحاب . . .

وضرب الرجـــل المطروح بحذائـــه ، وابتعد ساحبـــا بنطلونه ، وصدره المتخطط يعلو ويهبط . عرف ايفان ايليتش

انه تشيرتوغونوف . فاستدار — هرع بعض الاشخاص الى الاسير المطروح ، والحنوا عليه .

— من المتطوعين . . . (نزعوا عنه كتافيته ، والقوهما في النار .)

— انه صبي صغير ، ولكنه حقود !

— جاء ليحارب في سبيل اموال آبائه . . . يبدو انه مـــن الاغنياء . . .

— عيناه تلمعان ، الوغد . . .

— لماذا تنظر اليه ؟ دعوني . . .

— انتظر ، ربما عنده اوراق . لناخذه الى مقر الاركان . . .

— خذوه الى الاركان . . .

صاح تشيرتوغونوف مندفعا :

— لا ! كان طريحا مجروحا . تقدمت منـــه ، — انظروا الى حذائه — فاذا به يطلق النار عليّ مرتين . لن اعطيه لأحد .

وصرخ بالاسير صرخة اكثر وحشية :

— اخلع الحذاء !

نظر ايفان ايليتش بطرف عينـــه مرة اخرى . كان رأس الاسير الصبوي الحليق المدور يلمع في ضوء النار . وكانـــت اسنانه مكشرة ، وحدقتا عينيه الكبيرتين تروحان وتجيئـــان ، وتغضن انفه الصغير غضونا كثيرة . كان يبدو انه فقد صوابه كليا . . . وثب ناهضا بحركة حادة . وكانت يده اليسرى تتدلى بلا حياة في كمه المشقوق المدمى . وصدر صفير خفيـــف من بين اسنانـــه ، بل ومدّ عنقـــه . . . تراجع تشيرتوغونوف امام هذه الصورة الحية الرهيبة من الكراهية . . .

ارتفع من بين الجمع صوت كثيف :

— آها ! انا اعرفه . كنت اشتغل في معمل ابيه للتبغ . ان اباه اونولي صاحب معمل في روستوف . . .

ارتفعت اصوات :

— نعرف ، نعرف .

احنى فاليريان اونولي جبينه ، وهز رأسه ، وصرخ ببحـــة ناقلة :

- وضعاء سافلة ، اوغاد حمر ! ساصلبكم على ابوازكم ! الم نقتل ونشنق منكم الكفاية ، يا كلاب ؟ اهذا قليل ؟ سنشنقكم جميعا ، يا اوغاد اوباش . . . !

وفقد وعيه ، وامسك تشيرتوغولوف من لحيته الكثة ، واخذ يضربه على بطنه العارى بحذائه . . .

ابتعد ايفان ايليتش عن العربة في الحال . صدرت الاصوات متوعدة ، وقطعت صرخة حادة الغيظ المتصاعد . ارتفع فوق الجمع جسم فاليريان اوتولى مبسوط الذراعين زاقا ، وطار في الهواء وسقط . . . وارتفع عمود من الشرر عاليا فوق النار . . .

في السهب الذى مسه البرد قبيل الصباح ترددت طلقات متوالية ، وكانها وقع سياط ، وسرى هدير المدافع مهيبا . ذلك طابورا دروزدوفسكي وبوروفسكي عادا الى الهجوم مرة اخرى من وراء نهير كبربيلى ، ليجرلا الرفيق الى جانبهما بجهد مستميت .

في تلك الليلة تلقى القائد سوروكين امرا من يكاتيرينودار من اللجنة التنفيذية المركزية المجتمعة بلا انقطاع بان يكون قائدا عاما لجميع القوات الحمراء في شمال القفقاس .

وقد ابلغه بذلك رئيس الاركان بيلياكوف الذى اندفع الى عربة القائد العام للجيش ومعه الشريط البرقى ، والقى رجل القائد من على التخت وقرأ الأمر على ضوء قداحة بنزين . لم يكن سوروكين قادرا على ان ينتزع نفسه من النوم ، فرمش بعينيه ، وسقط على الوسادة الحارة ، اخذ بيلياكوف يهزه من كتفيه :

- اصح ، يا صاحب الفخامة ، الرفيق القائد العام الاعلى . . . سيد القفقاس ، هل فهمت ؟ قيصر وإله . فهمت ؟

عندئذ فهم سوروكين اهمية النبأ الهائلة برمتها ، مصيره المذهل كله ، المطبوع بنقاط وشرطات في الشريط الورقى الضيق الملتوى في اصابع رئيس الاركان . عدّل بنطاله بسرعة ، والقى عليه سترته الجركسية ، وشد غلاف مسدسه ، وسيفه .

- اعلن الأمر على الجيش فورا . وهيىء لى الفرس . . .

في الفجر ، وبعد ان اعاد ايفان ايليتش تفتيشه راسه سار بين العربات باحثا عن مقر فوجه . وفى تلك اللحظة انطلق فى الشارع من جانب المحطة رهط من الخيالة ولهايات قلانسهم اللوزانية ترفرف في الريح ، كان البواق في المقدمة وخلفه الثانى : سوروكين يهز مقود حصانه الطويل العرف ، وقوزاقى يحمل شارة القائد الاعلى فى رمح . واندفع الفرسان باتجاه الطلقات ملتفين بالغبار مثل اشباح ليلية .

ومن العربات المبللة بالندى ارتفعت رؤوس ناعسة ، وظهرت لحى ، وصدرت اصوات مبحوحة . ولكن البواق العادى فرسه بعيدا في السهب بوّق معلنا ان القائد العام الاعلى قريب ، انه هنا ، فى المعركة ، تحت الرصاص . . . وصدح البوق : «تا — تا — تا ، سنندحر العدو ، تقدّما الى النصر والمجد . . . البطل لا يعرف الموت : بل المجد الخالد . . . تا — تا — تا . . .»

وجد ايفان ايليتش الضابط غيمزا فى كوخ طينى محطم النوافذ ، ولا احد غيره من ضباط الاركان . كان غيمزا يجلس محدودبا على مصطبة ضخما كئيبا ويده الحاملة لملعقة خشبية تتدلى بين ركبتيه المنفرجتين ، وعلى المنضدة طاسة من حساء الكرنب الى جانب حقيبة مكتنزة — كل جهاز رئيس الشعبة الخاصة .

كان غيمزا يهوم ناعسا . لم يتحرك بل ادار عينيه نحو ايفان ايليتش :

- جريح ؟

- بسيط . . . مجرد خدش . ظللت نصف الليل راقدا في حقل القمح . . . فقدت جماعتى . . . اية شربكة هذه . . . اين الفوج ؟

قال غيمزا :

- اجلس . هل تريد ان تاكل ؟

ورفع يده بصعوبة ، وقدم الملعقة . هجم ايفان ايليتش على طاسة الحساء نصف البارد ، بل اشفع ذلك بانين الجوع . اكل برهة وهو صامت .

- حارب رفاقنا يوم امس بشكل جيد ، يا رفيق غيمزا حتى لم تكن ثمة حاجة الى انهاضهم . هاجموا بالحراب على بعد للشمالة او ارتعالة خطوة .

قال غيمزا :

– كفى اكلا . – وضع تليغين الملعقة . – هل سمعت بالأمر الذى اذيع فى الجيش ؟

– لا .

– عين سوروكين قائدا عاما اعلى . مفهوم ؟

– وماذا فى ذلك ؟ شىء جيد . . . هل رايته يوم امس ؟ اطلق العنان لحصانه فى صميم النار . القميص القرمزى ، وهو على مرأى من كل الناس . والمقاتلون ما ان يروه حتى يهتفوا له : «هوراء» . لو لا هو يوم امس لما عرفت ماذا . . . دعكنا كثيرا يوم امس ! كان كقيصر .

قال غيمزا :

– نعم ، انه قيصر . من المؤسف انى لا استطيع ان ارميه .

انزل تليغين الملعقة :

– هل انت . . . تهزل ؟

– لا ، لا اهزل . على كل حال انت لا تفقه فى هذه الأمور – ونظر الى ايفان ايليتش نظرة ثقيلــــة لا ترمش – ولكن ، الا تثق بى ؟ (نظر تليغين فى عينيه بهدوء .) حسنا ، اريد ان اعهد اليك بمهمة صعبة ، يا رفيق تليغين . . . اظن انك انسب شخص . . . يجب ان تسافر الى الفولغا .

– سامع .

– ساكتب كل التفويضات اللازمة . اعطيك رسالة الى رئيس المجلس العسكرى . واذا كنت لا تنجح ، ولا تسلمها فمن الافضل ان تنتقل الى البيض . لا تعد الى هنا . مفهوم ؟

– حسنا .

– لا تسلم نفسك حيا . احرص على الرسالة اكثر من حرصك على حياتك . واذا وقعت فى ايدى الاستخبارات افعل كل ما تستطيع فعله ، ابتلع الرسالة . . . فهمت ؟ – تحرك غيمزا وضرب الطاولة بجمع يده حتى ان الطاسة قفزت . لعلمك سيكون فى الرسالة مـــا يلى : الجيش يؤمن بسوروكين . وسوروكين الآن بطل . والجيش يذهب وراءه الى حيث يشاء . . . وانا اطلب ان يرمى سوروكين

بالرصاص . . . على الفور قبل ان ياخذ بزمام الثورة . هل استوعبت ذلك ؟ ان هذه الكلمات هى موتك ، يا تليغين . . . فهمت ؟

وصمت . دبت ذبابات على جبينه .

قال تليغين :

– حسنا ، سيكون ذلك .

– اذن ، فسافر ، ايها العزيز . . . لا اعرف اى طريق يجب ان تسلك . الطريق عبر سفياتوى كريست ، الى استراخـــــان طويل . . . الافضل لك ان تتسلل على طول الدون الى تساريتسين . . . وبالمناسبة يمكنك ان تستطلع الوضع عند البيض ، فى المؤخرة . . . دبر لنفسك كتافيتى ضابط ، وتبختر . . . ماذا تريد : كتافيتـــا نقيب ام مقدم ؟

وضحك ، ووضع يده على ركبة تليغين ، وربتت عليــــه كالطفل :

– نم ساعة او ساعتين ، اما انا فساكتب الرسالة .

١٠

اخيرا حصل فاديم بتروفيتش روتشين على اجازة لمدة ثلاثـــة اسابيع . كان تعبا للغاية ، مريضا تمزقه التناقضات ، يخدم فى ذلك الوقت فى حامية المتطوعين فى محطة فيليكوكنياجيسكايا ، لم تكن هناك معارك كبيرة ، فان جميع قوات الحمر قد انسحبت جنوبا لتقاتل قوات دنيكين الرئيســـية . وهنا ، فى القرى الواقعة على نهرى مانيتش وسال وقعت قلاقل . الا ان فصائل التشكيل القوزاقيـــة للاتمان كراسنوف هدات العقول الثائرة بيد ماهرة : تارة بالاقناع ، وتارة بالجلد ، وتارة بالشنق .

تهرب فاديم بتروفيتش من الاشتراك فى التشكيل متعلـــــلا بالضعة التى اصيب بها . وكان يتفادى حسب الامكان الذهاب الى «اماسى» الضباط التى كانت تقام احتفـــالا بانتصارات دنيكين . والغريب ان جميع رجال الحامية كانوا ، كمــــا كانوا فى الجيش المحارب ، ينظرون الى روتشين بحذر ، وبعداء خفى .

كان ثمة شخص قد اشاع اشاعة عن «صبغته الحمراء» فلصق هذا النعت به .

في الخنادق بالقرب من شابليفكا صوب المتطوع اوتوول النار عليه . كانت روتشين يتذكر تلك اللحظة بوضوح : هدير قذيفة من القطار المصفح ، صياح آمر السرية : «استلقاء !» وانفجار، ثم طلقة متأخرة من مسدس ، ضربة كضربة عصا على القفا ، وعينا اوتوول تطفحان بفرح غدار .

رجل واحد كان يمكن ان يصدق بكلمة الشرف التي يقولها روتشين ، وهو الجنرال ماركوف . الا انه قد قتل . ولرو فاديم بتروفيتش الا يثير مرة اخرى هذا الامر المشكوك فيه في اتهام الصبي .

وكان يعذبه التفكير في مصدر كل هذه الكراهية له . الم يكن واضحا حقا انه مخلص ، وانه نزيه ، وان افعاله تسترشد بفكرة واحدة فقط ، هي عظمة روسيا ؟ انه لم يأت الى هذه السهوب الرهيبة من اجل رتبة جنرال . . .

كانت تنقص روتشين الرؤية الصافية الصلبة للاشياء . كان فكره يلون العالم والاحداث بالشكل الذي كان يراه بنفسه افضل واكثر اهمية . وكان يصرف النظر عما لا يروق له ، ويتغاضى عن المزعج من الاشياء . وكان يتصور العالم نظاما كاملا . وكان مبعث ذلك في اكبر الظن روح الارستقراطية الغريزية ، والكثير من اجيال ملاك الارض المتنعمين . فان تلك السلالة المنقرضة كانت تضع الهناء الذاتي الوادع فوق كل اعتبار ، وتفرضه على كل شيء ، وعلى كل طرف . لا يهم اذا سيط فلاح في اسطبل ، فانه سيصيح قليلا ، وبعد العصا سيندم ، وسيكون ذلك افضل له ، للنادم وللناشد السلام . ولا بأس لو تبطل السندات ، وتباع الضيعة بالمزاد العلني . يمكن ان يعيش الانسان في جناح ، في ايجار الارقطيون وعشب الثعلب ، بدون مآدب صاخبة ، فان ذلك اهدأ للنفس عند الشيخوخة ، في القلب الظن . . . ولم يستطع القدر بكل جهده ان يقلق مالك الارض الطيب المزاج . وتنشأت عنده نظرة ناعمة خاصة : ان لا يرى في اي شيء غير الرائع والسامي !

كان لدى فاديم بتروفيتش ايضا هذا الافتقار الى النظرة

الانتقادية للاشخاص والافعال . (حقا ان احداث السنوات الاخيرة قد اصابت رومانسيته بضربات شديدة ، او بالاحرى لم يبق منها الا مزق .) وصار عليه الآن ان يقلص عينيه باستمرار . ولهذا السبب اضحى يتجنب نادي الضباط ، مثلا .

ان هؤلاء الناس - حفنة من الضباط وطلاب المدارس العسكرية - كان يجب ان يرتدوا ، حسب فهمه ، ملابس بيضاء كالصليبيين : فقد شهروا السيف على الغوغاء المتمردة ، على القادة السود - خدم واتباع المسيح الدجال او الالمان - الشيطان يعرف لمن" . (بهذه الشحنة من الافكار خرج روتشين الى منطقة الدون .)

ولكن كان من النابي ان يسمع في مقاصف الضباط ثناء صاخبا على رنين الاقداح ، اطراءات على الشجاعة في قتل الاخ لاخيه . ان هذه الوجوه الشابة والانيقة في وقت سابق لـ«الصليبيين» قد شوهها الظمأ الى القتل ، الى التنكيل ، الى الانتقام . ها هم يقفون وبايديهم اقداح من الكحول المركزة ينشدون لحن الموت لمن كان اوضع الناس ، لمن قد رمي بالرصاص ، واحرق ، وبدد مع الريح ، مثل شبيبتري الدخن . ولو جمع كل الدم المراق بارادته العاجزة لاغرقه الشعب حيا في تلك البحيرة العميقة من الدم . . .

وبدا لحن الموت هذا (وروتشين يقلص عينيه على ذلك بالذات) الفكرة الوحيدة لدى زملائه . . . تطهير روسيا من البلاشفة ، الوصول الى موسكو ، رنين الاجراس . . . دخول دنيكين الكرملين على فرس ابيض . . . كل ذلك مفهوم . ولكن ماذا بعد ؟ الشيء الرئيسي ؟ وكان حتى الحديث عن الجمعية التأسيسية امام الضباط يعتبر غير لائق . يعني مرحبا بالموت ؟

ما الذي جذب هؤلاء الناس الى القتال والموت ؟ وقلص روتشين عينيه . . . لم تعد البطولة تعريض الصدور للرصاص ، واحتساء الكحول في عربات القطار المدفأة . فقد اضحى ذلك قديما باليا . هذا يمارسه الشجعان والجبناء على حد سواء . واصبح مألوفا التغلب على خوف الموت . فقد صارت الحياة رخيصة .

كانت البطولة هي التخلي عن النفس باسم المعتقد والحقيقة . ولكن هنا ايضا تتقلص العين اعتراضا ، تتقلص بلا نهاية . . . بأي حقيقة يؤمن زملاؤه في الفوج ؟ بأي حقيقة آمن هو نفسه ؟ في تاريخ

روسيا التراجيدى العظيم ؟ ولكن ذلك كان واقعا وليس حقيقة . الحقيقة فى الحركة ، فى الحياة ، ليست فى تقليب صفحات كتاب مترب ، بل فى ما يجرى نحو المستقبل .

باسم اى حقيقة (اذا استثنينا رنين اجراس موسكو ، والفرس الابيض ، والازهار على الحراب وغيرها) ينبغى قتل الفلاحين الروس ؟ ان هذا السؤال بدأ يتسرب الى وعى فاديم بتروفيتش ، ويرتعش مثل ارتعاش الماء من القاء حجر . ومن هنا بدأ انشطاره المعذب . كان غريبا بين زملائه ، «صبغة حمراء» ، «بلشفيا تقريبا» .

وظل حديثه الاخير مع كاتيا يلح عليه أكثر فأكثر ، ويدفع الدم الى اذنيه خجلا . عصرت يديها ، وتقطعت انفاسها انفعالا ، وكأنما رأت احجارا تتساقط فى هاوية من تحت قدمى فاديم بتروفيتش . «يجب ان نفعل شيئا آخر تماما ، يا فاديم ، فاديم !!»

وكان ما يزال غير منتهيى لأن يقر لنفسه ان كاتيا كانت على حق كما يبدو ، وانه قد ضل ضلالا ميئوسا منه ، وانه كلما تمادى فى الأمر قل فهمه للسر فى تنامى قوة «الغوغاء المتمردة» بسرعة كابوسية ، وان من الحماقة الفظيعة القول فى حميا الغيظ بأن البلاشفة يخدعون الشعب ، لأنه لم يعرف بعد هل البلاشفة هم الذين دعوا الى الثورة ، ام الشعب هو الذى دعا البلاشفة ، وانه الآن لا يتهم احدا غير نفسه .

كانت كاتيا على حق فى كل شىء . حملت من الحياة القديمة الى هذه الأوقات العصيبة القلقة حماية واحدة ، كنزا واحدا - الحب والحنان . وتذكر كيف سارت فى شوارع روستوف وعلى رأسها منديل ، وفى يدها صرة هى رفيقة حياته الوديعة ... حبيبة ، حبيبة ... ان يضع رأسه على ركبتيها ، ويضم الى وجهه يديها الرقيقتين ، ويقول فقط : «كاتيا ، انا منهوك ...» ولكن العزة السخيفة تيبث فاديم بتروفيتش . كانت قامته النحيلة تظهر فى شارع القرية المترب ، فى الصف ، فى نادى الضباط ، وكأنه قد شد فى حشد حديدى ، وقد اشتعل الشيب فى رأسه المرفوع باباء ... وكانوا يقولون عنه : «يا رب ، يرفع الله ، يتصور نفسه من حراس الامبراطور ، وهو وغد من المشاة ...»

وكان قد ارسل لكاتيا رسالتين قصيرتين ، ولكنه لم يتلق جوابا . عندئذ قرر ان يكتب الى المقدم تيتكين . الا انه حصل على الاجازة فى ذلك الوقت ، فسافر فى الحال الى روستوف .

استأجر عربة الحصان من المحطة عند الظهر . كانت المدينة قد تغيرت تغيرا لا تعرف به . كان شارع سادوفايا نظيفا جدا ، والاشجار مشذبة ، والنساء انيقات ، وكلهن فى ملابس بيضاء يتنزهن فى الجانب الظليل ، وينعكسن على واجهات المخازن الزجاجية اللامعة .

تلفت روتشين وهو فى العربة يبحث بعينيه عن كاتيا . ما هذا ؟ كان النساء خارجات من حلم منسى ، فى قبعات عليها ريش على الطراز القديم ، وقبعات بناما ، ولفاحات بيضاء ... اقدامهن البيضاء تقرب الاسفلت الذى يغسله بوابون جهماء ، وما من لطخة دم على تلك الجوارب البيضاء . من اجل كل هذا تعسكر الوحدة فى فيليكوكنياجيسكايا ! من اجل هذا يصارع دتيكين الجحافل الحمر منذ اربعة اسابيع ! تلك هى الحقيقة البسيطة «كرائعة النهار» ، حقيقة الحرب البيضاء !

وابتسم روتشين ابتسامة مرة . فى مفارق الطرق كان الالمان يقفون فى برانيهم المألوفة الخضراء الرمادية الى حد الغثيان ، وفى قبعاتهم القشية ، وكأنهم فى بيوتهم ! واذا بأحدهم يرفع النظارة الاحادية الزجاجة من عينه ، ويقبل يد حسناء فارعة فى لباس ابيض ...

— يا حوذى ، اسرع !

كان المقدم تيتكين واقفا عند باب بيته . واقتربت عربة فاديم بتروفيتش فقفز منها ، ورأى تيتكين يتراجع وعيناه تدوران ، وتتحلقان . ارتفعت يده السمينة ، ولوحت لروتشين ، وكأنما يعده .

— مرحبا ، يا مقدم ... أحقا انك لم تعرفنى ؟ انا ... بحق الرب ، كيف كاتيا ؟ فى صحة ؟ لماذا لا ...

هتف تيتكين بصوت تسوى :

— يا للسماء ، انت حى ؟ يا عزيزى ، فاديم بتروفيتش ! واندفع على روتشين ، واحتضنه ، وبلل خده بالدمع .

— ما الذى حصل ؟ اخبرنى بكل شىء ، يا مقدم !...

— قلبها اعلمهـــــا انك حى ...، والمسكينة يكاترينـــــا دميتريفنا ، كم قاست !

واخذ تيتكين يروى له بشكل مشوش كيف انها ذهبت الى اوتول ، وانه ، لسبب غير معروف ، اكد لها ان روتشين قد قتل ، وتحدث عن شقاء كاتيا ، ورحيلها .

فقال روتشين بلهجة حازمة ناظرا الى الارض :

— اذن ... اين رحلت يكاترينا دميتريفنا ؟

بسط تيتكين ذراعيه ، وعبر وجه الطيب عن رغبة حارة فى المساعدة .

— اتذكر . انها قالت لى انها مسافرة الى يكاترينوسلاف ... بل اتصور انها كانت تريد ان تعمل فى محل للحلويات ... من اليأس ان تلجأ الى محل الحلويات ... انتظرت ان تكتب ، ولكن لم تكتب سطرا واحدا ، وكأنها غطست فى الماء ...

رفض روتشين الدعوة لاحتساء قدح من الشاى ، وعاد الى المحطة راسا . كان قطار يكاترينوسلاف يغادر فى المساء . ذهب روتشين الى صالة انتظار الدرجة الاولى ، وجلس على اريكة بلوطية عارية ، واستند على كوعه ، وغطى عينيه فى كفه . وبقى ساعات طويلة بلا حراك ...

زفر شخص زفرة تفريغ ، وجلس الى جانب فاديم بتروفيتش وقتا طويلا ، كما يبدو . وقبل ذلك جلس كثيرون . كانوا يجلسون قليلا ثم ينصرفون . اما هذا فقد بدأ يهز رجله وفخذه بشكل جعل الاريكة كلها تهتز . ولم ينصرف ، ولم يكف عن الاهتزاز . قال روتشين دون ان يرفع يده عن عينيه :

— اسمع ، الا تستطيع ان تكف عن هز رجلك ؟..

اجاب الرجل باستعداد :

— اعذرنى ، عادة سيئة . — وجلس بعد ذلك ساكتا .

اذهل صوته فاديم بتروفيتش : صوت مألوف جدا ، له صلة بشىء بعيد ، بذكرى طيبة . افرج روتشين اصابعه دون ان يرفع يده عن عينيه ، ونظر الى جاره بعين واحدة . لقد كان ذلك تليغين ، كان قد مد رجليه المحتذيتين حذاء طويلا قذرا ، ووضع ذراعيه على بطنه ، وراح يهوم ملقيا قفاه على متكأ الاريكة العالى . كان يرتدى سترة ضيقة تضغط على الابطين ، وكتافيتى مقدم جديدتين . وقد جمدت على وجهه النحيل الحليق الملوح ابتسامة رجل يستريح بعد تعب مضن ...

كان اقرب انسان الى روتشين بعد كاتيا ، اخا وصديقا عزيزا . كان يشع منه نور سحر الشقيقتين : داشا وكاتيا ... ومن الذهول كاد فاديم بتروفيتش ان يهتف ، كاد ينقض على ايفان ايليتش . الا ان تليغين لم يفتح عينيه ، ولم يتململ . ومرت ثانية . وادرك ان امامه عدوا . وكان فاديم بتروفيتش قد عرف منذ نهاية ايار ان تليغين فى الجيش الاحمر ، وقد انضم اليـــــه بمحض ارادته ، ويعتبرونه ضابطا ممتازا . وكان متنكرا على ما يبدو ، ربمـــا فى ملابس ضابط قتلـــه بيده ، فى رتبـــة مقدم (بينما لم يكن الا نقيبا فى الجيش القيصرى) ... واحس روتشين باشمئزاز مباغت لزج ، من ذلك الذى ينتهى لديــــه فى العادة بنوبـــة من الكراهيـــة الحادة : لا يمكن ان يكون تليغين هنا لغير جاسوسى ...

كان يجب الاسراع بابلاغ القومندان . ولو كان ذلك قبـــل شهرين لما تردد روتشين لحظة واحدة . الا انه التصق بالاريكة ، ولم يجد فى نفسه القوة . ثم ان الاشمئزاز بدا وكأنه ينزاح عنه ... ايفان ايليتش ضابط احمر ، وها هو الآن الى جانبه ، كما كان من قبل نعسا طيبا ... لم يقدم على ذلك من اجل المال ، ولا من اجل ترقية . ذلك هراء ! انه وهو الرجل الرصين الرابط الجاش اقدم على ذلك لانه اعتبر ذلك قضية عادلة ... خشانــــــه شالى ... انى به ليكون زوج داشا ، واخو كاتيا واخى انا ، بعد ساعة ، مطروحا على كومة من القاذورات عند سياج ، بلا حذاء ...»

واطبق الذعر على خناق روتشين ، فانكمش بكل كيانه ...

ما العمل ؟ الهش ، وانصرف ؟ ولكن ربما يعرفه تليغين ، وصاب بالذهول ، وبهتف . كيف ينقله ؟

جلس روتشين وايفان ايليتش جنبا الى جنب على الاريكة البلوطية ساكتين وكانهما نائمان . وكانت المحطة خالية في تلك الساعة . اغلق الحارس الابواب المؤدية الى الارصفة . عند ذاك تكلم تليغين دون ان يفتح عينيه :

– شكرا ، فاديم ...

ارتجفت يد روتشين بشدة . نهض ايفان ايليتش بخفة ، وسار نحو المخرج الى الساحة بمشية هادئة دون ان يلتفت . وبعد دقيقة الدفع روتشين في اثره . دار حول ساحة المحطة ، حيث كان الباعة المسودو البشرة يهومون عند بسطاتهم تحت حزم السمك المدخن ، في الشمس البيضاء التي اذابت اسفلت الشارع ... كانت الاوراق محترقة على الاشجار ، والهواء كله يلتهب مفعما بغبار المدينة .

«لو اعانقه ، فقط اعانقه» وطافت امام عيني روتشين دوائر حمراء من الحر . واختفى تليغين وكان الارض قد غيبته .

في الساعة التي انطفأ فيها شفق السهب ، وغفا روتشين على تخت العربة العلوي في نومة هادئة على دمدمة عجلات القطار كانت تلك المرأة التي يبحث عنها ، زوجته كاتيا التي كانت تهفو اليها روحه المعذبة المريضة من الغم والكراهية ، قد سارت في السهب في عربة . كان كتفاها ملفوفتين في شال . والى جانبها جلست الحسناء ماتريونا كراسيلنيكوفا . صلصل حديد العربة ، ونخرت خيول ، وكان عدد كبير من العربات يمتد في السهب من الامام ومن الخلف ، تحت جنح الظلام لليلة متجهة .

كان الكسي كراسيلنيكوف قد اطلق العنان ، وجلس على مقدمة العربة ، وسيميون يحط على جنب العربة ، واوراق الارطيون والبرسيم تضرب في حذائه . كانت في الجو رائحة خيول والسنتيك ، وكانت كاتيا تفكر في شبه اغفاءة . وكانت الريح تبرد كتفيها ، والسهب بلا نهاية ، والطرق بلا نهاية . وعلى مر القرون كانت تسير

الخيول وتصرف العجلات ، والآن تعاود سيرها مثل ظلال مضارب الرحل القدامى ...

السعادة ، السعادة حنين مستديم ، منطقة السهوب ، ساحل لازوردي ، امواج لشفة ، سلام ، رخاء .

حدقت ماتريونا في وجه كاتيا ، وابتسمت . وكركبة الحوافر من جديد ، كان الجيش يخرج من الحصار . امر الاتمان ماخنو بالسير بهدوء . وهبطت كتفا الكسي الثقيلتان ، يبدو ان النعاس قد غلبه . قال سيميون بصوت خافض :

– لا اريد التخلص منكم ... فلماذا ترددون : سيميون ، سيميون ... (تنهدت ماتريونا تنهيدة قصيرة ، واستدارت وحدقت في السهب .) لقد قلت لالكسي منذ الربيع : ليس العزيز علي هو شريط البحارة ، بل القضية هي العزيزة ... (صمت الكسي .) لمن الاسطول الآن ؟ لنا ، نحن الفلاحين . فماذا يحدث لو تفرقنا عنه جميعا ؟ اننا نكافح من اجل قضية واحدة . انتم هنا ، ونحن هناك ...

سالت ماتريونا :

– وماذا يكتبون لك ؟

– يكتبون : من الضروري العودة الى المدمرة ، والا فساعتبر هاربا ، خارجا على قانون الثورة ...

هزت ماتريونا كتفها . كانت تتضرم غيظا . ولكنها ضبطت نفسها ، ولم تجب بشيء . وبعد فترة من الوقت رفع الكسي جذعه على مقدمة العربة ، وتسمع ، واشار الى الظلام بسوطه :

– قطار يكاتيرينوسلاف السريع ...

نظرت كاتيا ، ولكنها لم تر القطار الذي كان يحمل فاديم بتروفيتش نائما على تخت علوي في احدى المقاصير ولم تسمع غير صفير ممدود بعيد ، فاثار في نفسها حزنا حادا ...

ابتعد فاديم بتروفيتش من المحطة الى محل الحلويات راسا مستفسرا عن كاتيا . دخل في المقاهي الحارة التي يملأ الذباب نوافذها الشربية ، والشاش الذي يغطي الحلويات . وقرأ اللافتات

البقتية : «فرساى» ، الدورادو» ، «الركن المريح» . ومن ابواب عقد المطاعم الصغيرة المشبوعة تظر اليه رجال سمر الوجوه مشوربون بعيون جاحظة مثل بياض البيضة مستعدون ، عند الحاجة ، ان يصنعوا كبابا من اى شىء كان . وقد استفسر هنا ايضا . ثم اخذ يطوف على كل المخازن واحدا واحدا .

كانت الشمس تلذع بلا هوادة . وكان عدد غفير من اخلاط الناس يضج ويزدحم فى الممرات المعرشة الثنائية تحت اشجار الدردار فى جادة يكترينينسكى . ودقت عربات ترام صغيرة مهلهلة اجراسها . قبل الحرب بدات تقام هنا العاصمة الجديدة لجنوب اوكرانيا . واوقفت الحرب نموها . والآن ، والمدينة تحت حكم الهيتمان وحماية الالمان انتعشت من جديد ، ولكن بطريقة مختلفة : فبدلا من الدوائر والبنوك والمستودعات التجارية فتحت دور القمار ، وحوانيت المبادلة ، ومحلات الكباب وشراب الليمون . وحل محل صخب العمل والحركة التجارية اللغط الهستيرى لباعة العملة الاجنبية المتراكضين بوجوه غير حليقة ، والقبعات منحدرة على اقفيتهم متنقلين فى المقاهى ومفارق الشوارع ، وصيحات عدد هائل من ملمعى الأحذية ، وباعة صبغ الاحذية — البضاعة الوحيدة فى ذلك العهد — ومضايقات المشردين الخبثاء ، وعويل الفرق الموسيقية من «الاركان المريحة» ، والازدحام الارعن للجمهور العاطل الذى كان يعيش على بيع وشراء النقود المزيفة ، والبضائع غير الموجودة .

جلس فاديم بتروفيتش على مسطبة تحت شجرة اقاسيا بالما من البحث اللامجدى مضعوقا معذبا ، يمر به جمهور الناس : لسوة انيقات وغربيات فى ملابس مصنوعة من الستائر ، وفى ازياء قومية اوكرانية ، نساء ذوات عيون مخططة ندية من الحر ، على خدودهن المبودرة خطوط من العرق ، ومضاربون مضطربون يشقون طريقهم ، كالمجاذيب ، باذرع ممدودة خلال هذه الجمهرة من النساء ، وموظفون هيتمانيون منتفخون ببلاهة يشدون على قبعاتهم اشارة ثلاثية الشعب ، وافكارهم مشغولة بالصفقات المالية ونهب املاك الدولة ، وقوزاق هيتمانيون ضخام عراض الاكتاف لهم رقاب الثيران ، وهايداماكيون مشوربون عليهم قبعات ضخمة قرمزية

١٥٨

القمة ، وقفاطين بلون السماء الزرقاء ، وسراويل عجيبة فضفاضة مثل المعلمون الاوكرانيون الاستقلاليون والرومانسيون الغاليون يحنون الى لبسها ترتفى من الزمن . وسار فى الزحام ضباط الماني مضطون ينظرون فوق الرؤوس بابتسامة استخفاف ...

نظر روتشين واعتمل الغيظ فى قلبه . «لو يلصب كيروسين على هذه السفالة وتحرق ...» ضرب فى كشك مكشوف قدحا من عصير الفواكه ، وسار مرة اخرى من باب الى باب . الآن فقط اخذ يدرك لا جدوى هذا البحث . ان كاتيا فى مكان ما ، هنا ، فى هذا الزحام تصف المجنون ، وحيدة ، بلا نقود ، للبلدة الخيرة ، وحلة ، خدتها العصبية (وتذكر فى ذعر حاد ومرة بعد اخرى قارورة السم التى كانت تحملها فى شقة موسكو) ... تمسها الايدى اللزجة لباعة العملة والقوادين ، واصحاب المطاعم ، وتتفرسها العيون الخبيثة ...

وضاقت انفاسه ... سار فى الزحام مباعدا بين مرفقيه غير راد على الصيحات ولا على السباب . وفى المساء استاجر غرفة فى فندق يتمتع باسمه ، وهى عبارة عن خص معتم لم يكن يتسع الا لسرير حديدى عليه فراش مهلهل . وخلع حذاءه ، واستلقى ، وبكى صامتا بلا دموع ضاما راسه الاشيب بين يديه .

عبر تليغين حدود منطقة الدون مشيا ، واخفى كنافيشى المقدم فى كيس متاعه ، وانتقل بالقطار الى تساريتسين ، ومنها ركب باخرة ضخمة مكتظة من سطحها الاعلى حتى قعرها بالفلاحين والجنود والمقاتلين والهاربين من وحداتهم ، واللاجئين . وفى ساراتوف اظهر وثائقه الى اللجنة الثورية ، وركب باخرة الجر الى سيزران ، حيث كانت الجبهة التشيكوسلوفاكية .

كانت الفولغا مقفرة ، كما فى الازمنة شبه الاسطورية ، حين وصل فرسان جنكيز خان الى شاطئها الرملى ليرووا خيولهم من نهر «راء» العظيم . سار النهر العريض الصقيل بين الشطآن الرملية العالية ومروج الفيضان ، التى نما فيها الصفصاف . وكانت القرى القليلة مهجورة . والى الشرق امتدت سهوب منبسطة ، فى موجات

الحر ، في السراب . ومرت انعكاسات السحب على الماء عائمة ببطء . ودواليب الباخرة وحدها كانت تضرب الماء اللازوردي في السكون بهمة .

كان ايفان ايليتش يرقد على سطح السفينة الحار تحت برج القبطان ، كان حافيا وفي قميص قطني غير محزم ، وقد نما شعر اشقر على خديه . كان يتمتع ، كالقط في الشمس ، بالسكون والرائحة الرطبة لزهور المستنقعات ، ورائحة عشب السهوب الجافة الآتية من السطلنان الواطئة ، ودفقات النور اللانهائية . لقد كان ذلك ذروة الراحة .

كانت الباخرة تحمل السلاح والذخيرة لانصار الاقضية السهبية . وكان جنود الجيش الاحمر الذين يصاحبون الحمولة مسترخين من الهواء الطلق ، بعضهم نائم ، والبعض قد نال قسطه من النوم فراح يغني الاغاني ناظرا الى الرحاب المائية . وكان آمر الفصيلة الرفيق خفيدين ، وهو من بحارة البحر الاسود ، يؤنب الجنود عدة مرات يوميا على انعدام الوعي ، فكانوا يجلسون ويستلقون بالقرب منه واضعين خدودهم على ايديهم .

كان يقول لهم بصوت مبحوح :

– يجب ان تفهموا يا اخوان ، اننا لا نقاتل دنيكين ، ولا نقاتل الاتمان كراسنوف ، ولا نقاتل التشيكيين ، بل نقاتل البرجوازية الدموية كلها في اصقاع الكرة الارضية ... يجب ان نضرب البرجوازي في العالم كله ضربة مميتة ، قبل ان يجمع قواه كلها ... نحن ، الروس (وقد نطق بهذه الكلمة في وضوح وتفخيم) موضع عطف اشقائنا الحميمين ، بروليتاريي جميع الاقطار ... وهم ينتظرون منا شيئا واحدا : ان نقضي على الطفيليين عندنا ، ونهب لمساعدتهم في النضال الطبقي ... هذا مفهوم بدون كلام . يا اخوان . لا يوجد من هو اشجع من الجندي الروسي في العالم ، اذا استثنينا بحار الاسطول الاحمر ، ولهذا فان امامنا جميع الفرص . مفهوم يا ارباب الحسن ؟ انا اتحدث بديهيات . اليوم نخوض معارك قرب سامارا ، وبعد مدة غير طويلة سنخوض معارك في جميع القارات ...

اصغى الجنود وابصارهم معلقة على فمه . وابدى احدهم ملاحظة بهدوء :

– نعم ... اختلط الحابل بالنابل ... في العالم كله !

الى اليسار بدت جبال خفالين زرقاء . نظر الرفيق خفيدين في المنظار . وبدت بلدة خفالينسك المترعية الناعسة اكثر وضوحا من وراء كتل الاشجار . وكان على الباخرة ان تتزود بالنفط منها .

وقف القبطان الاشيب عند مدير الدفة . تفرع النهر الى ثلاثة فروع ملتويا حول جزيرات الصفصاف القريبة وكان مجرى الملاحة صعبا . تقدم خفيدين من القبطان :

– لا يُرى شخص واحد في البلدة . ما الخبر ؟

قال القبطان :

– يجب التزود بالنفط حتما ، ومهما كلف الامر .

– ارس ، اذا كان ذلك ضروريا .

وحين اقتربت الباخرة من جزيرة كادت اغصان القصب تمس اغلفة الدواليب فاخذت تصفر وتستدير . وفي تلك الآونة ارتفعت اصوات حادة من الصفصاف الكثيف في الجزيرة :

– قف ! قف ! الى اين سائر ؟

سحب خفيدين المسدس من قرابه . وتراجع الملاحون من حاجز الباخرة . وماج الماء تحت دواليب الباخرة .

وارتفعت اصوات :

– قف ، قف !

وخشخش الصفصاف ، واندفع بعض الناس الى الشاطئ ، وظهرت وجوه حمراء منفعلة ، واذرع ملوحة مشيرة الى البلدة ، وكان من المتعذر فهم اي شيء من الضجيج . وامطر خفيدين الجميع بوابل من شتائم البحارة . ولكن كل شيء اتضح بدون حاجة الى ذلك . تصاعدت ادخنة من الرصيف في البلدة ، وانطلقت رصاصات على النهر . لقد كان الحرس الابيض يحتل خفالينسك ، وتبين ان الناس في الجزيرة هم بقية الحامية الهاربة ، وجزء منهم من انصار المنطقة . كان بعضهم مسلحا ، ولكن لم تكن لديهم ذخيرة .

انطلق الجنود الحمر الى المقاصير لجلب البنادق ، واحتل خفيدين نفسه مكان القبطان ، وراح يشتم في عرض النهر كله بشتائم جعلت الناس في الجزيرة يهدأون في الحال . وظهرت البسمات على الوجوه . وبسورة الحماس اراد خفيدين ان يهاجم البلدة من الباخرة هجوما مباشرا وفي الحال . الا ان ايفان ايليتش اوقفه ، واثبت له في نقاش قصير بأن من غير الممكن القيام بالهجوم دون اعداد ، وان من الضروري ان تصاحبه حركة التفافية ، وان خفيدين لا يعرف قوة العدو ، فقد تكون لديه مدفعية .

كزّ خفيدين على اسنانه ، الا انه وافق . تحركت السفينة حركة خلفية مع تيار النهر تحت الرصاص ، واقترب من الناحية الغربية من الجزيرة ، حيث البلدة محجوبة بغابة . ورست هناك . تناثر الناس من الجزيرة على الشاطئ الرملي . وكانوا حوالي خمسين شخصا مهلهلين شعثا .

وصاحوا :

— اسمعوا ما نقول لكم ، يا شياطين .

— زاغاركين قادم لنجدتنا مع انصار بوغاتشيفسك .

— منذ ثلاثة ايام بعثنا اليه رسولا .

وذكروا ان البرجوازيين في البلدة استولوا بهجوم مسلح مباغت على مقر السوفييت والتلغراف والبريد ، ووضع الضباط كتافياتهم ، وهجموا على الترسانة ، واخذوا الرشاشات ، وتسلح طلاب المدارس والتجار والموظفون ، بل وان شماس الكنيسة خرج الى الشارع ببندقية صيد . ولم يكن احد يتوقع هذا الانقلاب ، فلم يلحقوا في اخذ بنادقهم .

— تفرق امراء وحداتنا ، خانونا . . .

— نحن نركض كالخراف .

فلم يكن من خفيدين الا ان قال :

— آه ، يا لكم ، يا جنود البر . . .

عقد الجميع على الشاطئ اجتماعا عسكريا مشتركا . وانتخب تليغين سكرتيرا . وطرحوا هذا السؤال : هل يسترجعون خفاليتسك من البرجوازيين ام لا ؟ وقرروا استرجاعها . ثم السؤال

الثاني : هل ينتظرون انصار بوغاتشيفسك ام يستولون على البلدة بقواهم ؟ وجرى نقاش حول ذلك . بعضهم صار يصرخ : يجب الانتظار لأن لدى انصار بوغاتشيفسك مدفعا ، والآخرون قالوا ان الانتظار غير ممكن ، لأن سفننا للبيض ستأتي من سامارا بين لحظة واخرى . وضجر خفيدين من النقاش ، وهز ذراعه ضيقا .

— كفى كلاما ، يا رفاق . نقرر بالاجماع ان تكون خفاليتسك بايدينا في المساء . سجل المحضر ، يا رفيق تليغين .

في تلك الأونة ظهر فرسان على المرتفع في الضفة اليسرى . في البداية لاح اثنان ، ثم اربعة ، ولما رأوا الباخرة انطلقوا عائدين ، ثم تغطت الضفة كلها بالفرسان حالا ، ولمعت في الشمس سنابك عريضة مصنوعة من المناجل . وبدأ اهل خفاليتسك يصرخون :

— آي . . . من انتم ؟

ردوا عليهم من الضفة الاخرى :

— فصيلة زاغاركين ، من جيش بوغاتشيفسك للفلاحين . . .

تناول خفيدين الميكروفون ، وصاح موترا عروق رقبته :

— يا اخوان ، جئناكم باسلحة . انزلوا الى الجزيرة . . . سنستولي على خفاليتسك . . .

صاحوا من هناك :

— حسنا . . . عندنا مدفع . . . اجلبوا الباخرة الى هنا . . .

كان الفرسان على الشاطئ احدى فصائل جيش الانصار للفلاحين ، الذي كان يقاتل في سهوب سامارا ضد النواحي التي اعترفت بسلطة حكومة سامارا المؤقتة .

وقد تكون هذا الجيش بعد احتلال التشيكوسلوفاكيين لسامارا مباشرة ، وكانت مدينة بوغاتشيفسك — التي كانت من قبل تسمى نيقولايفسك — مركزا لتشكيله . وقد اجتمع هناك جميع ذوي الرؤوس الحارة الذين كانوا يحبون ركوب الخيل ، وجميع الذين حرمهم مشتري الارض الشهير شيخوبالوف الى رقعة

ضيقة من الارض ، وكل الذين يتنافسون على الارض مع قوزال الاورال الاغنياء ، وكل الذين طفحت نفوسهم التي ولدت في السهوب الشاسعة ، حيث تتماوج سنابل القمح طليقة ، والفلاح يسير وراء المحراث الثقيل يحث الثيران البطيئة .

كان العدو يظهر في كل مكان مثل سراب السهب . وكانت الاجتماعات تعقد في القرى ، والفلاحون الاغنياء ، وضباط الصف في الجيش القيصري والمحرضون المتنكرون القادمون من سامارا يصرخون انه لا يوجد قانون يجيز للفلاح الفقير ، والعامل الزراعي ، والمتشرد الذي لا ارض له ان يحكم الناحيــة ، وينتزع الارض والحبوب من الفلاحين الموسرين . وكان الاجتماع يقرر ارســـال الرسل الى القرى المجاورة لحفر الخنادق والتخندق فيها . وكانت ناحية كاملة تنهض في الحال ، ويخرج اهلهـــا السلاح من اماكن سرية ، ويشقون اخاديد بالمحراث للحدود ، ويحفرون خنادق لطلقات الفراسخ .

وفي بعض المناطق كانوا يعلنون جمهورية تابعة لحكومة سامارا ، وتعهد حراسة المنطقة الى الفرسان ، ويجند المشاة في حالة هجوم الحمر فقط . وكان الفرســـــان يتسلحون بالمناجل التي تربط مقابضها بالعصى الطويلة . وكانت الجيوش الكولاكية هذه رهيبة . كانت تظهر بصورة مفاجئة من الغشاش السهب وتهجم في سحب الغبار على صفوف الجنود الحمر ورشاشاتهم . وكانوا يقاتلون الاهالي : الاخ اخاه ، والاب ابنه ، والعراب عرابه ، ولهذا كانوا يقاتلــون بلا شفقـــة ولا خوف . وبعد ان يحطمــوا الحمــر يتسلح الفرسان بالرشاشــات والبنادق ، ولكنهــم لا يتخلون عن المناجل .

لم تبق مدونات ولا ارشيفات عسكريـــة من هذه الحرب الفلاحية الكبيرة في سهوب ســـامارا التي ما تزال تتذكر حملات ايميليان بوغاتشيوف . الا اذا جلس اب وابن في عيد ديني ومعهما جردل من النبيذ يتناقشان عن المعـارك السابقـة واحدهمـا يؤنب الآخر عن الاخطاء الاستراتيجية . فيقول الاب :

— هل تذكر ، يا باشكا ، كيف اخذتم تضربوننا بالمدفع قــرب كولديبــان ؟ فاقول لنفسي : انــه بالتـأكيد ابني يــاشكا

هذا ، ابن كلبـــة ... لــم اقطــع اذنيـــه في حينهــا ... واوقعتــا في قلوبكــم الرعب ... من حســن حظك انك لم تقع في يدي في ذلك الحين ...

— هذا تبجح .. نحن الذين انتصرنا ...

— لا بأس ، سنستنح فرصة ، وسنختلف من جديد .

— وليكن ، سنختلف ... كنت كولاكا وبقيت على وجهـــة نظرك العضوية .

— لنشرب ، يا بني !

— لنشرب ، يا ابت !

اقتربت الباخرة من الضفة اليسرى . والقى الممشى الخشبي ، وصعد الى السفينة زاخاركين آمر فصيلة بوغاتشيفسك . وهو شخص ذو انف معكوف مثل منقار النسر . وكان شديد القوة كثير العضل حتى ان الالواح ترقعت تحت قدميه . وكانت السترة الناحلة التي يرتديها مفتوحـــة تحت الابطين ، والسيف المعكوف يضرب حذاءه العالي . وكان اشقاؤه الكبار ، وهم فلاحون من ناحية اوتيف لواد قرق .

وصعد وراءه ستة من الانصار — هيئة الآمريــة — في ملابس مثيرة الدهشـــة لغير اعتياديـــة : قمصـــان ناحلـــة اللون ، مغبرة ، مطلولة ، ومفتوحة الياقات ، بعضهم في احذية لبادية شكلت عليها مهاميز ، وبعضهم في احذية ليفية . وكانوا مسلحين باسلحة شتى : اشرطة رشاشات ، قنابل يدوية في احزمتهم ، حراب المانيـــــة عريضة ، بنادق مقطوعة .

التقى زاخاركين وخفيدين على برج القبطان ، وتصافحـــا مصافحة قوية . وقدمت السكاكر . عرض خفيدين الموقف العسكري باختصار ، قال زاخاركين :

— انا اعرف من يصطاد في الماء العكر في خفاليتسك . انه كوكوشكين ، رئيس الادارة المحلية الذاتية ... اود ان امسكه حيا .

قال خفيدين :

— والمدفع ؟ هل هو في حالة جيدة ؟

— يشتغل ، ولكن على العيـان ، بلا جهــاز تسديد ، تسدد

من خلال الماسورة . ومع ذلك فهو يقصف . اذا اطلق هدم برج جرس او مطحنة ماء كليا !

— حسنا . وما رأيك ، يا رفيق زاخاركين ، بالانزال وحركة الالتفاف ؟

— نلقي بالخيالة الى الضفة الاخرى . هل تستطيع الباخرة ان تحمل مائة مقاتل ؟

— ببساطة ، على مرتين .

— الآن ، فالأمر مضبوط . عندما يحل الظلام تنزل الخيالة فى مكان فى اعلى البلدة . ولتنصب المدفع على السفينـــة ، وتبدأ الهجوم عند الفجر .

عهد خفيدين الى ايفان ايليتش قيادة جنود الانزال من المشاة الذين اوكل اليهم مهاجمة الارصفة من الامام . وفى الغسق سارت الباخرة بحذر وبدون ضوء الى الفرع الجانبى من الفولغا بمحاذاة جزيرة . وفى السكون لم يكن يسمع غير صوت الملاح الذى يقيس عمق الماء .

وفى اثر الباخرة سارت فصيلة بوغاتشيفسك على الشاطئ . وزعت الاسلحة على رجال خفالينسك ، فاستلقوا على الرمل . سار تليغين بحذاء حافة الماء ، متأكدا بنفسه من ان احدا لا يدخن او يشعل نارا . وكانت طرطشة الماء على الرمل خفيفة لا تكاد تسمع . وفى الجو رائحة زهور المستنقعات ، وطنين بعوض ، ورانَ الهدوء على الرجال المستلقين على الرمل .

امسى الليـل اكثـر ظلامـا ونعومـة ، وتناثرت النجوم فى السماء . وتصاعدت من الشاطئ السهبى رائحة الافسنتين الجافة ، وشدَت طيور السلوى . وظل ايفان ايليتش يسير بمحاذاة الماء مغالبا النعاس .

وحين اخذ الليل يتجاوز نصفه ، فقدت السمـاء ظلامهـــا المخمل ، ومن بعيد ، وراء النهر تـرامى صـــوت ديك الفجر ، وتمدمت دواليب على الماء المغشى بنقاب خفيف من الضباب ، ودنت الباخرة . عاين ايفان ايليتش قرص مسدسه ، واحكم شد حزامه على بنطلونه ، وسار بين النائمين ، مطبطبا على ارجلهم بعصـــا صغيرة وقائلا :

— رفاق ، استيقظوا .

نهض الرجال مسرعين مهتاجين ، مرتجفين من رطوبة الهواء والنعاس عالق باجفانهم ، فلم يدركوا فى الحـــال ما عليهم ان يفعلوا . . . ذهب الكثيرون منهم ليغرفوا الماء من النهر منزلين رؤوسهم فيه . اصدر تليغين اوامره بصوت خفيض . وكان يجب ايجاد تغطية ، فاخذ المقاتلون يخلعون ثيابهم ، ويعبئونها رملا ، ويصفونها على طول جانب الباخرة . وعملوا صامتين ، فلم يكن فى الامر مزاح .

بدأت الدنيا تتنور . وانتهت الاستعدادات ، ونصب مدفع جبلى صغير صدئ فى مقدمـــة الباخرة . وصعد على ظهر الباخرة خمســـون من المقاتلين ، واستلقوا وراء زكائب الرمل . ووقف خفيدين على الدفة :

— السير قدما فى اقصى سرعة !

ماج الماء تحت الدواليب . ودارت الباخرة بسرعـــة حول الجزيرة ، واتجهت نحو البلدة فى المجرى الرئيسى . لاحت الوار صغيرة صفراء هناك . وفى الخلف برز خط جبال مغبش تحت جنح الليل . والآن صارت اصوات ديكة الفجر تصل اعلى من ذى قبل .

وقف ايفان ايليتش بالقرب من المدفع . وكان لا يستطيع ان يتصـــور انهم بعد قليل سيتوجب عليهم اطلاق النار فى هذا السكون المسترخى . قـال احد اهالى خفالينســك بصوت رقيق ، وهو رجل وديع يشبه قلدلقت ميال لصيد السمك ، الطوع لأن يكون مسددا :

— يا عزيزى الرفيق الآمر ، ماذا لو تســـدد على البريد مباشرة ؟ بدقة تامة . . . انظر ، هناك ضوءان اصفران . . .

صاح خفيدين فى الميكروفون :

— التسديد على البريد ! تهيأ ! المدفع ! على العيان !

قرفص المدفعى ، ونظر عبر ماسورة المدفع ، ووجهها نحو الضوئين . ووضع قذيفة . واستدار نحو تليغين :

— ايها الرفيق العزيز ، تنح قليلا ، فمن الممكن ان ينفجر هذا المدفع . . .

هتف خفيدين :

— نار !

انطلق المدفع الى الوراء وصدرت منه فرقعة ونور ساطع ، ومر الهدير على الماء ، وتردد الصدى فى الجبال . توهج انفجار بالقرب من الشونتين الاصفرين ، وتردد صدى آخر فى الجبال .

صاح خليدين وهو يدير الدفة :

— نار ، نار ! من الجانب الايسر نار سريعة ! طلقات ، طلقات على الاوغاد !

وطبطب بقدميه ، واحتد ، وزعق بكلمات شنعاء . وانطلقت من جانب الباخرة طلقة اعتباطية . اقترب شاطئ خفاليتسك بسرعة . عبا المدفعى بعناية ، واطلق من جديد . وكانت ترى الشظايا تتطاير من زريبة . وبدت بوضوح الآن معالم البيوت الخشبية ، والحدائق وابراج الاجراس .

وفى الاسفل عند الارصفة اخذت تومض ومضات نار من بنادق . وفجأة صدر الصوت الذى كان تليغين يخشاه : لعلع رشاش بسرعة ووضوح . انطبقت اصابع رجليه كالعادة ، وكأن شرايين جسده كله قد تقلصت . قرفص تليغين عند المدفع ، مشيرا للمدفعى الى مبنى طويل على منحدر .

— حاول ان تسدد على ذلك الطرف الذى فيه اجمات ...

قال المدفعى :

— آه ، هذا البيت جيد . ولكن لا بأس .

وانطلق المدفع للمرة الثالثة . وسكت الرشاش لحظة ، ثم انطلق فى مكان آخر الى الاعلى من مكانه الاول . استدارت الباخرة دورة حادة ، واندفعت بسرعة نحو الرصيف . وضرب الرصاص فى الاعلى — على المدخنة والصارية .

صاح خليدين :

— لا تنتظروا الوصول الى الرصيف ، اقفزوا .. هورا ! يا فتيان !

صرق وقرقع حاجز الرصيف . قفز تليغين اولا ، واستدار نحو رجال خفاليتسك الذين كانوا يزحفون عبر الحواجز .

— ورائى ! هورا !

ركض على الالواح الى الشاطئ ، وتبعه الرجال هاتفين .

واطلقوا النار ، وركضوا ، وتعثروا . كان الشاطئ خاليا ، لاح وكان بعض الاشخاص يندفعون الى بساتين كثيفة الاشجار . وانطلقت رصاصات من فوق بعض السطوح . وعلى مسافة بعيدة بدا على التلال لعلع رشاش على فترات متقطعة ، ثم صمت ، وبعد ذلك اطلق نيرانه مرة او مرتين . ان العدو لم يشتبك فى المعركة .

وجد تليغين نفسه فى ساحة متعرجة . جمع الرجال متلقتا لاهث الانفاس . كان باطنا قدميه الحافيتين يلذعانه ، فلا بد انه قد جلطهما فى حجر . وكان فى الجو رائحة غبار . وكانت البيوت الخشبية مغلقة الصفاقات . وما من حركة حتى فى اوراق الليلق والاقاسيا . وفى احد الاركان بيت من طابقين له برج من طراز ريفى نشرت على حبل فى شرفته اربعة ازواج من السراويل الداخلية . فكر تليغين مع نفسه : «مستشرق» . كانت البلدة تبدو غاطسة فى نوم عميق ، والقتال والتراكض والصياح مجرد احلام .

سأل تليغين عن مركز البريد والتلغراف ومحطة الماء ، وارسل الى كل منها فصيلا من عشرة رجال . سار المقاتلون ، متوترى الاعصاب متوثبين الى الوراء يرفعون بنادقهم عند كل خشخشة . ولم يكتشف العدو فى اى مكان . بدأت الزرازير تصدح ، والحمامات تطير من فوق السطوح .

احتل تليغين بفصيلته مقر سوفييت البلدة ، وهو مبنى آجرى ذو اعمدة مقشرة . كانت الابواب مفتوحة ، والسلاح مكوما فى الرواق . خرج تليغين الى الشرفة ، فرأى تحته حدائق كثيفة ، وسقوفا لم تطل منذ زمان ، وشوارع ترابية ضيقة مقفرة . سكون ريفى . وفجأة تردد من بعيد ناقوس خطر . ارتفع فوق البلدة صوت ناقوس مكرب سريع رنان . ومن المكان الذى انطلق منه الصراخ النحاسى للنجدة بدأ اطلاق نار سريع ، وانفجارات قنابل يدوية ، وصيحات . وكركبة خيول ثقيلة ، وعويل . انهم جنود زاخاركين للانزال كانوا يسدون الطريق على العدو المتقهقر الى الجبال . ثم مر فرسان فى شارع جانبى يضربون الارض بنعال خيولهم المعدنية . وعاد السكون الى كل شئ من جديد .

نزل ايفان ايليتش نحو الباخرة على مهل ، وابلغ بان البلدة قد احتلت . واستمع خليدين الى البلاغ ثم قال :

– السلطة السوفييتية اعيدت . وليس لنا ما نفعله هنا بعد الآن . يجب ان تواصل السير – ورنت بمودة على ظهر القبطان العجوز الذى كان كالميت من الخوف وقال : – وانت ايضا شم رائحة البارود . هكذا ، يا اخ ... انقل اليك القيادة ، فتسلم الخفارة .

نام تليغين حتى المساء تحت دمدمة المحرك وخرير الماء . نشر الغروب شفقه الاحمر الشفاف على النهر . وغنت اصوات مختلفة خافتة فى مؤخرة السفينة الذاهبة فى الرحاب المقفرة . كان الجمال العقيم للافول المسائى يخيم على الشاطىء فى النهر ، ويقبض فى العين والقلب .

هتف خفيدين :

– ما هذه الكآبة ، يا اخوان ؟ غنوا اغنية مرحة .

وكان قد نال قسطه من النوم ايضا ، وشرب قدحا من الكحول ، وصار يتمشى الآن على السطح الاعلى رافعا بنطاله الى فوق .

– لو نستولى على سيزران ايضا ! ماذا تقول ، يا رفيق تليغين ؟ كنا سندهش الجميع لو فعلنا ذلك ...

وافرج عن اسنان بيض مقهقها ، وكان لا يهاب الاخطار ، ولا يعبأ بكآبة الغروب على الفولغا ، ولا برصاصة قاتلة تنتظره فى مكان ما ، فى معركة او من وراء منعطف ... انتقلنا الى الحياة والقوة الحامية كانا يفوران فيه . وكانت الواح السطح تهتز تحت عقبيه العافيين :

– انتظر قليلا وسنستولى على سيزران وسامارا ، وستكون الفولغا لنا .

وتغشى الغروب بنقاب رمادى . وسارت الباخرة بدون ضوء ، غطى المساء على الشطئان فتوارت . لم يعرف خفيدين كيف يصرف قوته فعرض على ايفان ايليتش ان يلعب الورق :

– اذا لا تريد ان نلعب بفلوس ، فلنلعب على ضربة على الانف ... فقط ان تكون الضربة معتبرة .

جلسا فى مقصورة القبطان يلعبان الورق على ضربة على الانف . واحتد خفيدين ، وصار يرفع الرهان حتى وصل الى ثلاث مائة

ضربة على الانف ، ومن شدة الاستثارة كاد يغش فى اللعب ، الا ان ايفان ايليتش كان حاد البصر : «لا ، يا اخ ، انت لا تلعب مع صبى» وربح . جلس تليغين على مقعد جلسة مريحة ، وبدأ يضرب خصمه باوراق متسخة . حتى صار انف خفيدين احمر كالبنجر فى الحال .

– اين تعلمت ذلك ؟

– تعلمته فى الاسر عند الالمان . لا تدير بوزك . مائتان وسبعة وتسعون .

– اسمع ... لا تضرب اشد من ذلك ... والا ...

– تكذب ... فى الضربات الثلاث الاخيرة يمكن بشدة .

– اذن ، اضرب ، يا وغد .

الا ان تليغين لم يلحق ان يضرب . دخل القبطان الى المقصورة ، وفكه يرتجف ، وقبعته فى يده ، وقطرات العرق تقطر من صلعته الرمادية .

قال فى يأس :

– افعلوا ما تشاؤون ايها السادة الرفاق ، فانا مستعد لكل شيء ... لن اقتلكم ابعد من ذلك .. انه موت محتم ...

القى خفيدين وتليغين الورق ، وخرجا الى سطح الباخرة . فى الضفة اليسرى الى الامام كانت انوار سيزران الكهربائية تشتعل متوقدة كالنجوم . وكانت سفينة ديزل ضخمة شديدة الاضاءة تسير ببطء بمحاذاة الشاطىء . وكانت العين المجردة تستطيع ان ترى على مؤخرتها علما ضخما هو علم القديس اندريه الابيض ، ومعالم مدافع منيرة ، وشخوص ضباط يتمشون على ظهر السفينة ...

همس خفيدين :

– لا نستطيع ان نراجع ، يا رفاق . يجب المرور ، مهما كلف الامر . علينا ان نسير حتى بالروكى ، وهناك نقف ونفرغ حمولتنا ...

وامر بان ينزل جميع البحارة الى اسفل الباخرة ويتاهب للقتال . ورفع على الصارية العلم الثلاثى الالوان . واضيئت الانوار المبيزة . واخيرا لاحظ من فى السفينة باخرة الجر ، وصدرت

صفارات قصيرة تأمرها بتخفيض السرعة ، وارتفع صوت غليظ من الميكروفون هتافا :

– لمن السفينة ؟ الى اين ذاهبة ؟

اجاب خفيدين :

– باخرة الجر «التاجر كالاشنيكوف» متجهة الى سامارا .

– لماذا تأخرتم في اضاءة الانوار ؟

– خوفا من البلاشفة . – وانزل خفيدين الميكروفون ، وقال لتليفين بصوت خفيض : – لو كان لدى لغم الآن . . . ارسلت في طلبها من استراخان : ابعثوا الغاما . . . انهم فليلو الاكثرات من السوفييتيين . . .

بعد صمت اجابوا من السفينة :

– سيروا الى غايتكم .

لبس القبطان قبعته بيد مرتجفة ، وكشر خفيدين والمص عينيه ناظرا الى انوار السفينة ، ثم بصق ، وذهب الى المقصورة ، حيث كسر اعواد ثقاب وهو يريد اشعال سيكارة .

صاح على تليفين :

– تعال ، واكمل ضرباتك ، يا عفريت !

وبعد ساعة صارت سيزوران الى الخلف ، انزل تليفين في قارب الباخرة بالقرب من باتراكي . وفي محطة باتراكي استقل قطار الساعة الثانية عشرة ، وفي الساعة الخامسة بعد الظهر نزل من محطة سامارا متجها الى شقة الدكتور بولافين . وقد عاد الى بزته المجعدة الممزقة بكتافيتي مقدم . سار يضرب على حذائه بنفس العصا التي ايقظ بها الانصار ليلا قرب خفاليتسك ، ويقرأ في طريقه بفضول شديد اعلانات المسارح ، والنداءات والاعلانات ، كشيء لم يره منذ زمان . وكانت كلها مكتوبة بلغتين : الروسية والتشيكية . . .

نهض ديمتري ستيبانوفيتش بولافين رافعا قدحا من شراب الليمون في يده ، واخرج فوطة من صداره ، وحرك شفتيه وقارا ، وبدا كلامه بصوت معتبر عميق اتخذه في المدة الاخيرة لمنصب نائب الوزير :

– ايها السادة ، اسمحوا لي ايضا . . .

كانت المادبة مقامة تكريما لممثلي المدينة بمناسبة المسيرة المظفرة لجيش الجمعية التأسيسية نحو الشمال . وكانت سيمبيرسك وقازان قد احتلتا . وتبين ان البلاشفة فقدوا حوض الفولغا الاوسط نهائيا . وبالقرب من ميليكس كانت فلول جيش الخيالة الاحمر ، وعددها ثلاثة آلاف وخمسمائة ، تستميت لتنقذ من الحصار . وفي قازان التي احتلهـــا التشيكيون بهجوم مباغت استولى على اربعة وعشرين الف بود من الذهب تبلغ قيمتها اكثر من ٦٠٠ مليون روبل – اي اكثر من نصف احتياطي الدولة من الذهب . وكانت هذه الحقيقة جسيمة وبعيدة جدا عن التصديق ، حتى ان العقول ما تزال غير مستوعبة كل عواقبها غير المحدودة .

كان الذهب في طريقه الى سامارا . ولم يكن احد قد ادعى حقا في ملكيته بعد ، الا ان التشيكيين قرروا ظاهريا تسليمه الى لجنة سامارا لاعضاء الجمعية التأسيسية . كان لتجار سامارا رأيهم الخاص في مصير هذا الذهب ، ولكنهم لم يعلنوه . وكانت المشاعر نحو التشيكيين المنتصرين قد وصلت الى ذروة الحماس .

كانت المادبة حافلة كثيرة الحضور والحركة . وكان الكابتن تشيتشيك قائد الجيش التشيكي وبطل الاحداث محاطا بباقة ضاحكة من سيدات مجتمع سامـــارا ، ومن بينهن كواكب مثل ارجانوفـــا وكورلينا وشيغوبالوفا ، مالكات الطواحين ذات الطوابق الخمسة وصوامع الحبوب وشركات البواخر ، واقضية كاملة من الاراضي السوداء الخصبة . سيدات متألقات باللآلئ بحجم البندق وفساتين ان لم تكن على الموضة كليا ، فانهـــا في حينها قد استوردت من باريس وفيينا . وكان تشيتشيك ، مثل كل الابطال ، بسيطا بشكل اخاذ ومؤدبا . حقا ان جسمه البدين يستشعر شيئا من الحرارة ، والياقة الضيقة لسترته الحسنة التفصيل منغرزة في رقبته الحمراء ، الا ان وجهه الفتى المفعم بالدم بشاربيه الاصهبين القصيرين وعينيه اللامعتين كان يبدو وكأنه يطلب قبلة تطبع على كلا خديه المتوردين . وكانت الابتسامة الساحرة لا تزايل شفتيه ، وكأنما قد انكر على نفسه اي مجد ، وكان مجتمع السيدات امتع له بألف مرة من هدير

اهمية نقطة التحول لم يحسب لها الحساب الكافي ... وانا اقصد بذلك البشمالة مليون روبل ذهبي الموجودة الآن في ايدينا ... (وقف شعر شاربي مسيو جالو ، وهتف : «برافو له» رافعا القدح في يده . وتوهجت عينا بيكولوميني كعيني الشيطان .) لقد انتزعت من البلاشفة الحبة الذهبية ، ايها السادة ... وهم ما يزالون قادرين على اللدغ ، ولكن ليس لدغا مميتا . في امكانهم ان يهددوا ولكنهم لا يخيفون اكثر مما يخيف المتسول الذي يلوح بعكازته ... ولا ذهب عندهم الآن . لا شيء غير آلة طباعة ...

فتح بريكين التاجر من ارمسك فمه فجأة وضحك من هذه الكلمات ضحكا عاليا ، وهو يمسح رقبته بفوطة متمتما : «آه ، قضايا ، قضايا ، يا ربي !»

وتابع الدكتور بولافين قوله ، وقد رن صوته رصينا واثقا ، وهو امر لم يكن من قبل :

– ايها السادة الممثلون الاجانب ، ايها السادة الحلفاء ... الصداقة صداقة والفلوس فلوس ... بالامس كنا بالنسبة لكم منظمة اوبرا كوميدية تقريبا ، تشكيلا موقتا ، مثل كدمة لا بد ان تخلفها ضربة ... (تعبس تشيتشيك ، وابدى مسيو جالو وبيكولوميني علامة استياء ... وتبسم دعيترى ستيبانوفيتش ابتسامة ماكرة .) اليوم يعرف العالم كله اننا حكومة وطيدة . نحن حراس رصيد الدولة من الذهب ... الآن نستطيع ان نتفق ، ايها السادة الممثلون الاجانب ... (ونقر المائدة بانامله بغضب .) انا الآن اتكلم كفرد بين افراد في دائرة ضيقة من الاصدقاء ، ولكنني اوي مقدما كل جدية الافكار التي انطق بها ... انا انشوف تحرك البواخر بالاسلحة والانسجة الى الموانيء الروسية ... ونهوض الجيوش البيضاء الجبارة ، وسيف العقاب الصارم ينزل على عصابة قطاع الطرق الذين يعيثون في روسيا . وستمائة مليون تكفي لذلك ... ايها السادة الممثلون الاجانب ! نرجو تقديم العون الواسع السخي للممثلين الشرعيين للشعب الروسي !

ومص القدح بشفتيه وجلس مقطب الحاجب ناشجا بانفه . وصفق الجالسون حول المائدة تصفيقا حارا . وهتف التاجر بريكين :

– شكرا ، يا اخي ... هذا صحيح ، يا اخ ، هذا يتفق وافكارنا : الحياة بلا اشتراكية ...

نهض تشيتشيك ، ووقع حزامه على بطنه بحركة قصيرة :

– سأتكلم باختصار ... لقد قدمنا ونقدم حياتنا في سبيل سعادة الروس ، اخواننا بالدم ... عاشت روسيا عظيمة جبارة ، حورا !

وهدرت المائدة كلها بعاصفة من التصفيق . وصفقت ايدي النساء بحرارة وسط الزهور . ونهض مسيو جالو . وكان رأسه مدفوعا الى الوراء بعظمة ، وقد اضفى شارباه الكتان نوعا من الرجولة على وجهه ، وقال :

– ايها السيدات والسادة ! كنا نعرف جميعا ان الجيش الروسي النبيل الحالم بمجد آبائه مخدوع بعصابة البلاشفة بشكل خبيث . وقد بثوا فيه الافكار المناقضة للطبيعة ، والغرائز الهمجية ، ولم يعد الجيش جيشا . ايها السيدات والسادة ، لا اخفي عليكم انه قد مر وقت كانت فرنسا مترددة في اعتقادها باخلاص الشعب الروسي ... وقد انزاح هذا الكابوس ... واليوم نرى هنا اننا كنا على خطأ ، واي خطأ . ان الشعب الروسي معنا من جديد ... والجيش يعترف باخطائه ... والعملاق الروسي مستعد من جديد الى تعريض صدره لرصاص عدونا المشترك ... وانا سعيد في ثقتي الجديدة ...

وعندما هدأ التصفيق نهض بيكولوميني واهتزت كتافيتاه الكثيفتان . ولكن لما كان جميع الحاضرين لا يعرفون الايطالية ، فقد صدق الجميع بانه معنا ، وتقدم التاجر بريكين من شخصه الاسمر الصغير وقبله . ثم القى ممثلو رأس المال خطبهم . وتكلم التجار بشكل غامض متمق ، مشيرين على الاكثر الى سيبيريا ، من حيث يجب ان يأتي الخلاص ... واخيرا طلب من الاتمان دوتوف ان يقول كلمة صغيرة . فاعترض قائلا : «لا ، انا عسكري ، ولا اعرف كيف اتكلم ...»

ومع ذلك فقد نهض ثقيلا في الصمت الذي خيم في الحال ، وتنهد :

– يا سادة ! اذا ساعدنا الحلفاء فخير على خير ، واذا لم

يساعدوا فاننا سنتدبر امرنا مع البلاشفة بقوانا في حال من الاحوال . . . فقط ان تكون هناك فلوس . . . وانتم ، يا سادة ، قدموا لنا العون المادى . . .

وجار بريكين بحماس غامر :

– خذونا ، يا الماني ، خذونا باحشائنا ، نحن لا نبخل بشيء .

ونجحت المأدبة . وبعد الجزء الرسمي قدمت القهوة السوداء مع الكونياك الاجنبي والليكيور ، وكانت الساعة متأخرة . وخرج دميترى ستيبانوفيتش على الطريقة الانجليزية ، اى دون ان يستأذن .

عندما وصل دميترى ستيبانوفيتش الى بيته في سيارة فتح الباب الخارجي ، فتقدم منه ضابط بسرعة :

– اعذرني ، هل انت الدكتور بولافين ؟

القى دميترى ستيبانوفيتش نظرة على الغريب . كان الشارع مظلما ، فلم يتبين غير كتافيتي المقدم . حرك الدكتور شفتيه واجاب :

– نعم . . . انا بولافين .

– جئت اليك في امر مهم جدا جدا . . . انا افهم ان هذه الساعة ليست للزيارة . ولكنني جئت ودققت الجرس ثلاث مرات .

– غدا في الوزارة من الساعة الحادية عشرة .

– ارجوك . اليوم . ساغادر في باخرة ليلية .

صمت دميترى ستيبانوفيتش مرة اخرى . كان في الغريب شيء ملحاح مقلق الى اقصى حد . هز الدكتور كتفيه :

– اعذرك اذا كان الامر يتعلق بمعونة ، فان ذلك ليس من نطاق شؤوني .

– لا ، لا ، لا حاجة بي الى معونة .

– اذن . . . ادخل .

اتجه دميترى ستيبانوفيتش من الباب الداخل الى المكتب اولا ، وفي الحال اغلق الباب المؤدى الى الغرف الداخلية . فقد كان الضوء فيها ، والظاهر ان احدا من اهل البيت لم ينم بعد . ثم جلس الدكتور الى المكتب ، واشار على الزائر بالجلوس على كرسي

قبالته ، ونظر بجهامة الى اضبامة من الاوراق للتوقيع ، وشبك اصابعه .

– اية خدمة استطيع ان اؤديها ؟

ضم الضابط قبعته على صدره ، وقال برقة موجعة :

– اين داشا ؟

القى الدكتور راسه الى الوراء فاصطدم قفاه بظهر الكرسي . الآن فقط تفحص وجه الزائر . قبل عامين كانت داشا قد ارسلت اليه صورة فوتوغرافية لها ولزوجها . اذن ، فقد كان هو . شحب الدكتور فجاة ، وارتعش الانتفاخان تحت عينيه . فاعاد السؤال بصوت مبحوح :

– داشا ؟

– نعم ، انا تليغين .

وشحب هو الآخر وهو ينظر في عيني الدكتور . تمالك دميترى ستيبانوفيتش نفسه ، وبدلا من ان يحتفي احتفاء طبيعيا بصهره الذي كان يراه لاول مرة في حياته ، رمى ذارعيه بحركة مسرحية ، واصدر صوتا غامضا ، وكأنه مشروع ضحكة :

– اذن . . . انت تليغين . . . كيف انت ؟

ولا بد ان المفاجأة جعلته لا يقدم يده لايفان ايليتش . وضع نظارته الانفية على انفه (لم تكن نظارته السابقة المصدوعة ذات الاطار النيكل ، بل نظارة معتبرة ذهبية) واسرع ، لسبب ما ، يفتح جرارات مكتبه الممتلئة بالاوراق .

تابع تليغين حركته مندهشا غير فاهم شيئا . وقبل دقيقة كان مستعدا لان يقص عليه كل شيء عن نفسه باعتباره قريبا ، ابا . . . وفكر الآن : «الشيطان يعلم ، وربما اكتشفني . . . وربما اضعه في موضع حرج . فهو وزير ، على كل حال . . .» انزل راسه ، وقال بصوت خافت تماما :

– دميترى ستيبانوفيتش ، انا لم ار داشا منذ اكثر من نصف عام ، ولا تصل رسائل . . . لا اعلم ماذا جرى لها .

– تعيش ، تعيش ، وبخير !

قال الدكتور ، وهو ينحني الى الارض حتى الجوارات السفلى من مكتبه .

— انا في جيش المتطوعين ... اعارب البلاشفة منذ شهر آذار ... والآن اوفدتني القيادة الى الشمال في مهمة سرية .

استمع دميتري ستيباتوفيتش وعلى وجهه تعبير وحشي للغاية ، ولكن ابتسامة ساخرة سرت في شاربيه فجأة حين سمع «مهمة سرية» :

— اذن في اي فوج تخدم ؟

— في فوج سولداتسكي .

واحس تليغين بان الدم يتدفق في وجهه .

— اها ... اذن ، يوجد مثل هذا الفوج في جيش المتطوعين .. هل ستمكث عندنا كثيرا ؟

— ساغادر الليلة .

— رائع . والى اين بالذات ؟ اعذرني ، هذا سر عسكري ، فلا اصر ... بعبارة اخرى في شؤون استخبارات ؟

ورن صوت دميتري ستيباتوفيتش رنينا غريبا حتى ان تليغين جفل وانحنى ، رغم قلقه الشديد . الا ان الدكتور وجد في تلك اللحظة ما كان يبحث عنه .

— زوجتك في صحة جيدة ... خذ ، اقرأ ما تسلمته منها في الاسبوع الماضي ... وفيه ما يخصك ايضا والقى الدكتور امام تليغين بعض الاوراق المكتوبة بخط داشا الكبير . وطافت امام عيني تليغين هذه الكلمات الثمينة غير المتقنة شكلا) اعذرني ، سأتركك لدقيقة . ولكن خذ راحتك .

خرج الدكتور مسرعا واغلق الباب وراءه . وكان آخر ما سمعه ايفان ايليتش كلماته التي رد بها على احد من اهل البيت .

— ... لا شيء ، زائر ...

سار الدكتور من غرفة الطعام الى دهليز صغير معتم ، حيث كان يوجد تلفون من طراز قديم . ووقف ووجهه الى الحائط وادار قبضة التلفون ، وطلب بصوت خافض رقم الاستخبارات ، ودعا الى التلفون سيميون سيميونوفيتش فغيادين شخصيا .

كانت رسالة داشا مكتوبة بقلم نسخ ، والحروف تتضخم بحجمها اكثر فاكثر كلما مضت في الكتابة ، وسطورها تميل الى الاسفل :

«بابا ، لا اعرف ماذا سيحصل لي ... كل شيء مشوش ... وانت الشخص الوحيد الذي استطيع الكتابة اليه ... اننا في قازان ... يبدو انني سأتمكن من الرحيل بعد غد ، ولكن هل سأصل اليك ؟ اريد ان اراك . ستفهم كل شيء ، وسأفعل ما تنصحني به ... لقد بقيت حية بمعجزة ... لا ادري ربما كان من الخير الا اعيش بعد الذي حصل ... كل ما قالوه لي ، واوحوا به الي" كذب ، وحقارة عارية نتنة ... وحتى نيكانور يوريفيتش كوليتشيك ... قد ولقت به وجئت الى موسكو بتحريض منه . (سأروي عند لقائنا بالتفصيل .) حتى كوليتشيك اعلن لي يوم امس بالحرف الواحد : «الناس يرمون بالرصاص ، ويدفنون في الارض اكواما ، وقيمة الانسان رصاصة من بندقية ، والعالم غارق بالدم . بينما يجب ان اعاملك . ان آخرين لا يقولون حتى ذلك ، بل يأخذون المرأة للفراش راسا» . وقد قاومت ، يا ابي ، ثق بي ... لن استطيع ان اكون مجرد طعم بعد قدح من الخمرة . فلو اعطي هذا الشيء هو آخر ما تبقى لدي" فان النور سينطفئ في عيني ، وسأعلق نفسي في حبل . حاولت ان اكون نافعة . في ياروسلافل عملت ثلاثة ايام تحت النيران كممرضة اسعاف ... وفي الليل سقطت على الفراش ويدي وثيابي ملطخة بالدم ... واذا باحدهم يوقظني ، ويحاول ان يرفع تنورتي . فاقفز ، واصرخ . انه صبي ، ضابط ، لن انسى وجهه ابدا ! ويشتد جنونه ، ويسقط علي" ، ويلوي يدي صامتا ... الخسيس ! يا ابي ، وارميه بطلقة من مسدسه . لا اعرف كيف حصل هذا ... يبدو لي انه سقط ، لم اره ، لا اتذكر ... واخرج راكضة الى الشارع . حريق . المدينة كلها تحترق ، القذائف تنفجر ... كيف لم اصب بالجنون في تلك الليلة ! عندئذ عزمت على الهروب ، الهروب ... اريد ان تفهمني ، تساعدني ... اريد ان اهرب من روسيا . وعشيقي ميكانيكية ... ولكن ساعدني على الانفصال عن كوليتشيك . انه

يلاحقنى فى كل مكان ، اى يجرنى خلفه فى كل مكان ، وفى كل ليلة يحدثنى نفس الحديث . ولكن ، لن اريد ذلك ولو يقتلنى . . .»

وتوقف إيفان ايليتش عن القراءة ، وتنفس ، وقلب الصفحة بيطء :

«بالمصادفة وقعت فى يدى مجوهرات كبيرة . . . لقد رأيت بام عينى شخصا يسحقه الترام عند بوابة نيكيتسكيه ، مـــات بسببى ، وانا اعرف ذلك . . . وعندما افقت من الاغماءة رأيت فى يدى حقيبة من جلد التمســــاح : لعل احدهم دسهـــا فى يدى حين الهضونى . . . وفى اليوم التالى فقط تملكنى الفضول ، وفتحــت الحقيبة ووجدت فيها حلى من الالماس واللؤلؤ . وهذه الاشياء قد سرقها ذلك الشخص من مكان ما . . . وكان ذاهبا للقاء معى . . . أفهمت ؟ سرقهـا من اجـل . . . يابا ، انـا لا احـاول ان ادخل فى تفسيرات قانونية . . . لقد ابقيت هذه الاشياء عندى . . . وفيهـــا الآن خلاصى الوحيد . . . ولكن اذا ثبت لى اننى لصــــة ، فاننـــى سابقيها معى على اية حال . . . تتملكنى الرغبة فى الحياة بعد ان رأيت الموت بهذه الكثرة . . . لم اعد اؤمن بصورة الانسان . . . ان اولئك الرجال الطيبين ذوى الكلمات الرنانة الرائعة عن انقــــاذ الوطن ، ما هم الا اوغاد ، وحوش . . . آه ، ما اكثر ما شاهدت ! عليهـم اللعنـــة ! والاول ان مـا حصــل كالآتى : زارنى نيكانور بوريفيتش زيارة مفاجئة فى ساعة متأخرة من الليل ، يبدو انه جاء من بتروغراد مباشرة . . . وطلب ان اغادر موسكو معه ، وتبين ان منظمتهـم «اتحاد الدفـاع عن الوطن والحريـة» قد كشفت من قبل اللجنة الاستثنائية ، واعتقل كثير من اعضائها فى موسكو . وهرب سافينكوف وجميع اركانه الى الفولغا . وكان عليهم ان يقومــوا بانتفاضة هناك فى ريبينسك وياروسلافل وموروم . وكانوا عـلى عجالة شديدة فى ذلك . فان السفير الفرنسى لم يعد يعطيهم ايـــة نقود ، وطالب بان يثبتوا قوة منظمتهم بالفعل . وكانوا يأملـــون بان جميع الفلاحين سينحازون الى جانبهم . وقد اكد نيكانــــور بوريفيتش ان ايام البلاشفة معدودة ، وكان يجب على الانتفاضة ان تشمل الشمـــــال كله ، وشمال الفولغا كلها ، وتتحد مـــع

التشيكوسلوفاكيين . واكد كوليتشيك ان اسمى وجد فى قوائــم المنظمة ، وان البقاء فى موسكو خطر ، فرحلت معه الى ياروسلافل .

وكان كل شىء معدا هناك : كان جميع الرؤساء فى القوات ، فى الميليشيا ، فى الترسانة من رجال منظمتهم . . . ووصلنـــا فى المساء ، وفى الفجر استيقظت على اصوات طلقات . . . فهرعت الى النافذة . . . وهى تطل على الفناء ، وتقابلها جدار آجرى لكراج ، وكومة قاذورات ، وبعض الكلاب تنبح فى البوابة . . . ولم تتكرر الطلقات ، وهدا كل شىء . . . الا فى البعيـــــد ، لقد ترامى صفير موتوسيكلات وهدير محركاتهـــا . . . ثم بدأ قرع الاجراس فى المدينة ، فى كل الكنائس . . . وفتحت البوابة فى فناء بيتنـــا ، ودخلت جماعة من الضباط ، يضعون الكتافيـــات . والاضطراب مرتسم على وجوههم كلها ، وهم يلوحون بالاسلحة . وكانــــوا يسوقون شخصا بدينا حليقا فى سترة رمادية ، بلا قبعة ولا ياقة ، وصداره غير مزرور . وكان وجهه احمر حانق . ضربوه على ظهره ، فاهتز رأسه من جانب الى آخر ، وبدا عليه الغضب الشديد . بقى اثنان يمسكانه عند الكراج ، وابتعد الآخرون ، وتشاوروا . وفى تلك اللحظة خرج من المدخل الخلفى لبيتنا العقيد برخوروف رئيس جميع قوات الانتفاضة المسلحة . . . وكنت اراه لاول مرة . ادى الجميع التحية العسكرية له . انه رجل ذو ارادة جبارة — عينـــان سوداوان غائرتان ، ووجه نحيل ، وقامة منتصبة ، ويداه معقوفتان ، وفى احداهما عصا . وادركت فى الحال : انه الموت لصاحب السترة الرمادية . اخذ برخوروف ينظر اليه من تحت حاجبيه ، ورايـــت اسنانه تنكشف فى غل . اما الرجل فظل يشتم ويهدد ويطالب . عندئذ هز برخوروف رأسه ، واصدر امره ، وانصرف فى الحال . فقفز الاثنان اللذان كانا يمسكان بالرجل البدين . . . فخلع الرجل سترته عنه ، ولفها ، والقاها على الضباط الواقفين امامه فوقعت فى وجه واحد منهم تماما — وظل يصرخ وهو يلعنهم . وهز قبضتيه ، ووقف فى صداره المحلول شامخا هائجا . عند ذلك اطلقوا الرصاص عليه . اهتز بكل جسمه مادا يديه الى الامام ، وخطا ، ووقع . وظلوا يطلقون الرصاص عليه بعض الوقت ، وهو مطروح . لقد كان ذلك المفوض البلشفى للجيسون . . . لقد رأيت اعداما ، يا ابى ! والآن لن انسى مدى

الحياة كيف تشبث في الهواء . . . واكد لي نيكانور يوريفيتش ان ذلك شيء جيد ، فان لم يقتلوه لقتلهم هو . . .

وما حصل فيما بعد لا اتذكره بشكل جيد : ان كل ما حصل كان استمرارا لهذا الاعدام ، كل شيء كان مشبعا بارتعاشات جسد السمان ضخم لم يرد الموت . . . طلبوا مني ان اذهب الى بناية صفراء طويلة ذات اعمدة ، وفيها صرت اطبع على الآلة الكاتبة الاوامر والنداءات . وانطلقت الموتوسيكلات ، وثار الغبار . . . ودخل اناس مستثارون ، وغضبوا ، وامروا . وكانوا يتصايحون على كل شيء ، ويسكون رؤوسهم . ما بين فزع وآمال مبالغ بها . ولكن حين كان برغوروف يحضر بعينيه الفاسيتين ، ويلقي كلمات قصيرة يهدأ كل اللغط . وفي اليوم التالي سمعت طلقات مدفعية وراء المدينة . كان البلاشفة قادمين . كان اهل المدينة يتجمهرون في دائرتنا من الصباح حتى الليل ، فاذا بها تفرغ فجأة . وبدت المدينة كالميتة . الا سيارة برغوروف تهدر وهي منطلقة به ، والفصائل المسلحة تمر . . . كانــوا ينتظرون طائرات فيها فرنسيون ، وقوات من الشمال ، وبواخر محملة بالقذائف من ريبينسك . . . ولم تتحقق الآمال . واحاط بالمدينة طوق معركة ، وانفجرت القذائف في الشوارع . . . وسقطت ابراج الاجراس القديمة ، وتهدمت البيوت ، وشبت الحرائق في كل مكان ، ولم يكن احد ليطفئها ، وغطى الدخان وجه الشمس . وحتى جثث القتلى بقيت في الشوارع ، واتضح ان سافينكوف اقام مثل هذه الانتفاضة في ريبينسك ، حيث كانت مخازن المدفعية . الا ان الجنود قمعوا الانتفاضة ، وكما ان القرى المحيطة بياروسلافل لم تبد اي استعداد للمساعدة ، وان عمال ياروسلافل لم يريدوا الجلوس في الخنادق ، ومحاربة البلاشفة . . . وكان افظع الاشياء وجه برغوروف – كنت التقي به في كل مكان في هذه الايـام . – انه الموت يتجول في سيارة بين خرائب المدينة . وكل ما حصل كان يبدو اجنبيا لارادته . ابقاني كوليتشيك عدة ايام في سرداب . ولكنني اشعر بذنبي ايضا في كل شيء ، يا ابي . لو بقيت في السرداب لجننت ، ارتديت منديلا عليه علامة الصليب ، وعملت حتى الليلة التي حاولوا فيها اغتصابي . . .

وقبل سقوط ياروسلافـل بيوم واحد هربنا ، نيكانور

يوريفيتش وانا ، في قارب الى ما وراء الفولغا . . . وسرنا اسبوعا كاملا متخفين عن الناس . وكنا نقضي الليل تحت اكوام الدريس ، ومن حسن الحظ ان الليالي كانت دافئة . وقد تهرأ حذائي ، ودميت قدماي . وقد حصل نيكانور يوريفيتش على حذاء ليبادلني من مكان ما ، ربما سرقه من على سياج ، ولا اتذكر في اي يوم رأينا في غابة متولا رجلا يرتدي معطفا ممزقا ، ونعلين من الليف ، وقبعة مهلهلة ، كان يسير جهما سريعا وباستقامة ، كالمعتوه ، معتمدا على عصا ، لقد كان ذلك برغوروف ، وقد هرب هو ايضا من ياروسلافل ، فزعت منــه حتى انني انبطحت في العشب . . . ثم وصلنــا الى كوستروما ، ونزلنا في بيت عند موظف يعرفه كوليتشيك ، وعشنا هناك حتى استولى التشيكيون على قازان . . . وكان نيكانــور يوريفيتش يعتني بي دائما كمــا يعتني بطفل . وانا اشكره على ذلك . . . ولكن الذي حدث انــه راى المجوهـرات ، ونحن في كوستروما – كانت ملفوفــة في منديل جيب في محفظتي التي كانت يحملها في جيب سترتــه طوال الطريق . ولم اتذكرهــا الا في كوستروما . واضطررت ان اروي له الحكاية كلها ، وقلت انني اعتبر نفسي مجرمة بضميري . فطلع بهذا الخصوص بنظرية فلسفية كاملة ، منتهيــا الى انني لست مجرمة بل رابحة بطاقة نصيب للحياة . ومنذ ذلك الحين تغير سلوكه نحوي ، وصار معقدا جداً . كما اتذكر ايضا اننا كنا نعيش في بيت ريفي حياة نقية هادئــة ، ونشرب الحليب ، ونأكل عنب الثعلب وتوت العليق . وقد زاد وزني . وذات مرة بعد الغروب ، وكنا في الحديقة ، اخذ يتحدث عن الحب بشكل عــام ، وانني قد خلقت للحب ، واخذ يقبل يدي ، وشعرت بانه لا يشك في انني سأستسلم له بعد لحظة على تلك المسطبة تحت الاقاسيــا . . . وهنا بعد كل ما حصل ، افهم ، يا بابا ؟ لكي لا اشرح له كل شيء قلت له شيئا واحدا : «لن يحصل بيننا شيء ، فانــا احب ايفان ايليتش» ، ولــم اكن كاذبــة ، يا بابا . . .»

اخرج ايفان ايليتش المنديل ، ومسح وجهه ، ثم عينيه ، وتابع القراءة :

«انا لم اكذب . . . انا لم انس ايفان ايليتش ، فلـم ينته

كل شيء لي معه بعد ... انت تعرف اننا افترقنا في آذار ، غادر الى القفقاس للالتحاق بالجيش الاحمر ... انه آمر قدير ، بلشفي حقيقي ، رغم انه ليس حزبيا ... وقد انقطعت علاقتنا ، الا ان الماضي يربطنا ربطا قويا ... ولم انقطع الماضي ... اما كوليتشيك فقد عالج الامر ببساطة كبيرة : استلقي لتنام سوية ... آه ، يا بابا ، ان ما كنا نسميه حبا في وقت من اوقات ليس الا حماية للنفس ... اننا نخشى النسيان والتحطيم ... وهذا السبب في ان النظر الى عيني موصى في الليل شيء مرعب ... انها ليست الا ظل امرأة . ولكن انا . انا حية ، واريد ان احب ، وان اذكر ، اريد ان ارى نفسي في عيني المحب . واحب الحياة ... ولو تملكتني رغبة للحظة في الاستسلام ، لوقعت في اسر تلك اللحظة ... ولكنني الآن لا اشعر بغير الغيظ والنفور والرعب ... في الفترة الاخيرة حصل شيء في وجهي ، في قوامي ، ازددت جمالا ... وانا الآن كالعارية . وفي كل مكان عيون جائعة ... اللعنة على الجمال ! .. ابي ، ارسل لك هذه الرسالة لكيلا يقال شيء ، حتى نلتقي ... لم انحطم بعد ، فافهمني ...»

رفع ايفان ايليتش رأسه . سمع وقع خطوات حذرة وهمسا لعدة اشخاص وراء الباب المؤدي الى الرواق . وادير مقبض الباب ، فقفز سريعا ، وتطلع الى النوافذ ...

كانت نوافذ شقة الدكتور غير عالية عن الارض ، على طريقة مدن الاقاليم . وكانت النافذة الوسطى مفتوحة . وثب تليغين اليها . كان ظل انسان يستلقي طويلا كالفرجار ، وظل آخر اطول خارج منه هو ظل بندقية .

كل ذلك حدث في جزء من الثانية ، ادير مقبض الباب الداخلي ، ودخل الى غرفة المكتب دفعة واحدة رجلان في هيئة اعتيادية متلاصقين كتفا بكتف ، يرتديان قبعتين لهما حافتان لامعتان ، وقميصين مطرزين ، والى الخلف منهما لاح وجه غفيادين الاصهب اللحية الشاحب . وكان اول ما رأى تليغين حين اندفعوا الى الحجرة ، ثلاث فوهات لثلاثة مسدسات مصوبة نحوه .

وقد حدث ذلك في الجزء التالي من الثانية ، وادرك وهو العسكري الخبير ان التراجع امام خصم قوي سليم تصرف غير

حكيم ، نقل مسدسه «البراونينغ» الى اليد اليسرى ، وانتزع من حزامه تحت السترة قنبلة يدوية صغيرة لفت عليها رسالة غيمزا ، وتدفق الدم الى وجهه ، وهتف بصوت حاد متوتر :

– القوا السلاح !

وكان هذا الهتاف مفهوما للغاية . كما ان هيئة ايفان ايليتش كلها كانت مهيبة جدا حتى ان الرجلين ارتبكا ، وتراجعا قليلا الى الوراء ، وتنحى ذو الوجه الشاحب جانبا . ان ثانية اخرى قد كسبت ... رفع تليغين القنبلة اليدوية فوقهم :

– القوا ...

وهنا حصل ما لم يتوقعه احد من الحاضرين ولا سيما تليغين ... بعد صيحته الثانية مباشرة ارتفعت صرخة سقيمة ، صوت نسائي في ذعر بالغ صادر من وراء الباب من خشب الجوز الواصل بين غرفة المكتب والغرف الداخلية ... وانفتح الباب ، ورأى تليغين عيني داشا المتسعتين واصابعها الرقيقة متشبثة بعضادة الباب ، ووجهها النحيل المرتعش كله انفعالا :

– ايفان ! ..

وظهر الدكتور بالقرب منها ، وامسكها من جنبيها ، وجرها ، وصفق الباب ... وكل ذلك بدل خطفا خطط تليغين الهجومية الدفاعية ... اندفع نحو الباب من خشب الجوز ، ودفعه بكتفه بكل قوته ، وفرقع الباب ، وهرع الى غرفة الطعام ... كان ما يزال يمسك في يده سلاح القتل ... كانت داشا واقفة عند المائدة ممسكة عند الرقبة بطيتي روبها المخطط ، وحنجرتها متحركة ، وكأنها تبتلع شيئا (وقد لاحظ ذلك باشفاق شديد .) تراجع الدكتور ، وكان مذعور المظهر اشعث الشعر :

– النجدة ! غفيادين !

قح بصوت مذعور . وركضت داشا هارعة الى الباب من خشب الجوز ، وادارت المفتاح فيه :

– يا آلهي ، ما افظع ذلك !

الا ان ايفان ايليتش فهم كلماتها بشكل آخر : فظيع حقا ان يهرع الى داشا ومعه هذه الاشياء . اسرع في وضع المسدس والقنبلة اليدوية في جيبه . عندئذ امسكت داشا يده قائلا «التضحية» . وجذبته

الى الدهليز الصغير المظلم ، ومشى الى غرفة ضيقة ، حيث كانت تشتعل شمعة على مقعد . كانت الغرفة عارية ، ليس فيها غير تنورة داشا معلقة من مسمار ، وسرير حديدي عند الجدار عليه مفارش مجعدة .

همس تليغين :

— انت هنا وحدك ؟ قرأت رسالتك .

وتلفت ، وارتجفت شفتاه المتقرحتان عن ابتسامة . لم تجب داشا ، وجذبته نحو نافذة مفتوحة .

— اهرب ، اهرب حالا . فقدت صوابك ! . .

كان الفناء يُرى من النافذة في غير وضوح ، وظلال وسطوح المباني النازلة الى النهر ، والى الاسفل انوار الرصيف النهري . وكانت نسمة رطبة تهب من ناحية الفولغا وفيها رائحة مطر حادة . . . وقفت داشا ملامسة ايفان ايليتش بجسمها كله ، ورفعت وجهها المذعور ، وفتحت فمها قليلا . . . وتمتمت محدقة في عينيه :

— اعذرني ، اعذرني . اهرب دون ابطاء ، يا ايفان .

وكيف ينتزع نفسه منها ؟ انغلقت دائرة الفراق الواسعة . تخلص من الف موت ، وها هو ينظر في الوجه الوحيد . انحنى وقبلها . ولم تستجب له شفتاها الباردتان ، بل ارتعشتا فقط .

— لم اخنك . . . كلمة شرف . . . سنلتقي ، حين تتحسن الحال . . . ولكن اجر ، اجر ، اتوسل اليك . . .

لم يحبها بهذه القوة ، حتى في الايام الهائلة في القرم . امسك دموعه ، وهو يحدق في وجهها :

— داشا ، تعالي معي . . . انت تفهمين . سانتظرك وراء النهر . غدا في الليل . . .

هزت رأسها ، وتأوهت بيأس :

— لا ، لا اريد .

— لا تريدين ؟

— لا استطيع .

قال :

— حسنا ، في هذا الحال سابقى .

وتراجع الى الحائط . . . تأففت داشا ، ونشجت . . . وفجأة

اندفعت نحوه بحدة ، وامسكت يديه ، وعادت تدفعه نحو النافذة . في الخارج صرف باب الفناء وهسهس رمل تحت اقدام حذرة . ضغطت داشا رأسها الداقي، بقوة على يدي ايفان ايليتش . . .

وقال لها ثانية :

— قرأت رسالتك ، فهمت كل شيء .

عندئذ كفت للحظة عن جذبه ، وطوقت عنقه ، والصقت وجهها كله في وجهه :

— انهم الآن في الفناء . . . سيقتلونك ، سيقتلونك . . .

كان شعرها المتناثر يبدو اشقر في ضوء الشمعة . فبدت لعيني ايفان ايليتش فتاة صغيرة ، طفلة ، تماما كما تخيلها في تلك الليلة ، حين كان مستلقيا في حقل القمح جريحا قابضا على كومة من التراب في قبضته ، مفكرا بقلبها الابي القلق الهش .

— لماذا لا تريدين ان تذهبي معي ، يا داشا ؟ سيعذبونك هنا . فانت ترين اي الناس هؤلاء . . . مهما تكن المصائب سيكون من الافضل ان اكون معك . . . يا طفلتي . . . انت ، على اي حال ، معي في الحياة والموت ، انت مثل قلبي الذي في صدري .

قال ذلك بخفوت وسرعة من زاويته المعتمة . القت داشا رأسها الى الوراء ، ولم تترك يديه . وطفرت الدموع من عينيها .

— ساكون وفية لك حتى الموت . . . اخرج . . . افهمني . انا لست التي تحبها . . . ولكن ساكونها .

ولم يعد يسمع شيئا آخر ، فقد اسكره فرح جنوني بدموعها ، بكلماتها ، بصوتها النابع من القلب . فضمها ضمة قوية جعلت عظامها تطرقع . وهمس :

— حسنا ، فهمت كل شيء . وداعا .

ودفع بصدره الى افريز النافذة ، وبعد ثانية انسل من النافذة كالظل ، ولم يسمع غير وقع اقدامه الخفيف على سطح الزريبة الخشبي .

اخرجت داشا رأسها من النافذة ، ولكن لا شيء كان يرى : ظلام ، وانوار صفراء صغيرة في البعيد . وضغطت بكلتا يديها على موضع القلب من صدرها . . . لا صوت في الفناء . . . ولكن ها هما شخصان يخرجان من الظل ، وانحنيا ، وعبرا الفناء في خط منحرف .

وصرخت داشا بصوت حاد رهيب جعل الشخصين يدوران فى عدوهما ويتوقفان . انهما على ما يبدو التفتا نحو نافذتها . وفى تلك اللحظة رأت تليغين يتسلق حافة السطح الخشبى فى نهاية الفناء .

انطرحت داشا على وجهها على السرير . وبقيت بلا حراك . ثم نهضت بحركة مندفعة اخرى ، وتلمست نعلها الذى وقع من قدمها ، وركضت الى غرفة الطعام .

رأت فيها الدكتور وغفيادين واقفين على استعداد للقتال . الطبيب ممسك بمسدس صغير نيكلى ، وغفيادين بمسدس «ناغان» . اسرع الاثنان يسألان داشا دفعة واحدة : «كيف ؟ . .» ضمت قبضتها ، ونظرت نظرة مجنونة فى عينى غفيادين الصهباوين . وقالت هازة قبضتها امام انفه الشاحب :

— وغد ! سيرمونك فى الرصاص فى يوم ما . وغد !

ارتعش وجهه الطويل ، وازداد شحوبا ، وتدلت لحيته ميتة . ابدى الدكتور له اشارة ، الا ان غفيادين كان يرتعش بكل كيانه حنقا .

— لا تهزى قبضتك علىّ ، يا داريا دميتريفنا . . . انا لم انس بعد كيف تطاولت علىّ وضربتنى بنعلك على ما الاكر . . . اخفى قبضتك . . . وعلى العموم انصحك بان لا تزدرى بى .

قاطعه الدكتور مستمرا فى الوقت ذاته بالتأشير له ولكن بحيث لا تراه داشا :

— انت تضيع الوقت ، يا سيميون سيميونوفيتش .

— لا تقلق ، يا دميترى ستيباتوفيتش . لن يفلت تليغين منا . . .

صرخت داشا مندفعة نحوه :

— لن تجرأ ! (فاحتمى غفيادين بكرسى حالا .)

— سترى : تجرأ ام لا . . . احذرك ، يا داريا دميتريفنا بان «شعبة الامن» مهتمة جدا بك شخصيا . . . وبعد حادث اليوم لن اتكفل بشىء . من الممكن ان يعترضك ازعاج .

قال الدكتور غاضبا :

— يبدو انك اخذت تلقى الكلام جزافا . هذا شىء زائد عن الحد . . .

— كل شىء يتوقف على العلاقات الشخصية ، يا دميترى ستيباتوفيتش . . . انت تعرف مراعاتى لك ، وميلى القديم نحو داريا دميتريفنا . . .

شحبت داشا فجأة . وتشوه وجه غفيادين كله من التكشيرة التى ظهرت عليه ، وكأنه انعكس فى مرآة مشوهة . تناول قبعته ، وخرج مصلبا علباءه لكيلا يبدو مضحكا من الخلف . قال الدكتور ، وهو يجلس الى المائدة :

— غفيادين هذا رجل مخيف .

سارت داشا فى الحجرة مطقطقة باصابعها . وتوقفت امام ابيها :

— اين رسالتى ؟

كان الدكتور يحاول ان يفتح علبة سكائره الفضية ، فارسل نشيجا من خلال اسنانه ، وتناول سيكارة اخيرا ، ودعكها بين اصابعه السميكة التى ما زالت ترتجف .

— هناك . . . الشيطان يعرف . . . فى غرفة المكتب ، على البساط .

خرجت داشا ، وعادت فى الحال تحمل الرسالة . وتوقفت امام دميترى ستيباتوفيتش ثانية . كان يحاول ان يشعل سيكارة ، الا ان اللهب كان يتراقص قرب نهاية السيكارة .

قال والقى عود الثقاب على الارض :

— لقد قمت بواجبى . (صمتت داشا .) يا عزيزتى ، انه يلشفى وفضلا عن ذلك فهو يتجسس . . . والحرب الاهلية ، كما تعلمين ، ليست قضية بسيطة ، وقد تقتضى التضحية بكل شىء . . . ولهذا اعطينا السلطة . والشعب لن يغفر الضعف . (اخذت داشا تمزق الرسالة الى مزق صغيرة فى غير عجالة ، وكأنها غارقة فى افكارها .) انه يأتى — وذلك واضح وضوح النهار — لكى يستقى متى ما يريد ، واذا سنحت الفرصة يقتلنى . . . هل رأيت كيف كان مسلحا ؟ بقنبلة . فى عام ١٩٠٦ رأيت بأم عينى كيف قتل حاكم المحافظة بلوك بقنبلة فى منعطف شارع موسكاتيلنايا . . . ليتك شاهدت ماذا تبقى منه — جثة بلا رأس وقطعة من لحية .

وارتعشت يدا الدكتور من جديد ، فالقى السيكارة التى لم تشتعل

وتناول اخرى ، وتابع قوله : – منذ البداية لم احب صاحبك تليغين . لطيف انك قطعت علاقتك به . . . (وصمتت داشا على هذا الكلام ايضا .) بدا بحيلة بدائية جدا . سال اين انت . . .

– ان امسكه غفيادين . . .

– ليس من شك في ذلك ، فان لغفيادين استخبارات ممتازة . . . لقد عاملت غفيادين معاملة سيئة . . . انه رجل كبير . . . والتشيكيون يقدرونه جيدا ، وفي القيادة ايضا . . . والفترة تقتضينا ان نضحي بالشخصي . . . لخير البلاد . تذكرين الامثلة الكلاسيكية . . . وانت ابنتي ، اذا كان راسك محشوا بالخيالات – ضحك وسعل – فانه ليس راسا بليدا . . .

قالت داشا بصوت مبحوح :

– ان امسك غفيادين ايفان ايليتش ، فستفعل كل شيء لانقاذه .

القى الدكتور نظرة سريعة على ابنته ، ونخر من انفه ، دعكت داشا مزق الرسالة بقبضتها .

– ستفعل ذلك ، يا ابي !

– لا – صاح الدكتور ضاربا المائدة بكفه – لا ! حماقة ! الصرف لمصلحتك . . . لا !

– سيصعب عليك ذلك ، ولكن ستفعله ، يا بابا .

صرخ الدكتور :

– انت طفلة ، انت حمقاء ! تليغين وغد ومجرم ، ستحكم عليه المحكمة العسكرية بالرمي .

رفعت داشا راسها ، وتوهجت عيناها الرماديتان بشكل لا يطاق حتى ان الدكتور عقد حاجبيه تاخرا . رفعت قبضتها والاوراق المدعوكة فيها ، وكانها تهدد ، وقالت :

– لو كان جميع البلاشفة مثل تليغين فانهم على حق .

– حمقاء ! . . حمقاء ! . . – وقفز الدكتور على قدميه محمرا مرتجفا ضاربا الارض – يجب ان يشنق البلاشفة مع صاحبك تليغين ! على جميع اعمدة التلغراف . . . ان تسلخ جلودهم وهم احياء !

الا ان طبع داشا كان ، على ما يبدو ، احد من طبع دميتري

ستيبانوفيتش . ولكنها احتقنت فقط ، وتقدمت منه تماما مثبتة فيه عينيها غير المحتشمتين ، وقالت :

– وضيع ، ما هذه العربدة ؟ انت لست ابي ، بل شخصا مجنونا فاسدا !

والقت في وجهه مزق الرسالة . . .

في تلك الليلة استدعى الدكتور الى التلفون فجرا ، ومن السماعة صدر صوت هادئ خشن بعض الشيء :

– احيطكم علما بأن جثة غفيادين نائب رئيس الاستخبارات واحد مخبريه قد اكتشفتا توا قرب رصيف ساموليتسكايا ، وراء مخزن الطحين . . .

وعلقت السماعة . فتح دميتري ستيبانوفيتش فمه مبتلعا الهواء ، وانهار قرب التلفون في نوبة قلبية عنيفة .

١١

بعد ان حطم جيش سوروكين قوات دروزدوفسكي وكازانوفيتش احسن قوات جيش المتطوعين ، غير الخطة الاولية في الخروج الى ما وراء كوبان . وبدلا من ذلك تحول شمالا قرب قرية كورينيفسكايا ، وبدا بالهجوم على محطة تيخوريتسكايا ، حيث يوجد مقر قيادة دنيكين .

ظلت المعركة الضارية محتدمة عشرة ايام . وقد اكتسح رجال سوروكين ، وقد حفزتهم النجاحات الاولى ، جميع العقبات امام محطة تيخوريتسكايا . ولاح الآن وكان ما من شيء يستطيع ايقاف الزحف السريع ، اسرع دنيكين بتجميع القوات المبعثرة في كوبان . وكانت الضراوة من الشدة بحيث ان كل اشتباك كان ينتهي بقتال بالحراب .

الا ان تحللا قد اصاب جيش سوروكين بنفس هذا الاندفاع . واشتد الخصام بين الافواج الكوبانية والافواج الاوكرانية . كان الاوكرانيون وجنود الجبهة القدامى يدمرون القرى الكوبانية الواقعة في طريق الهجوم دون ان يفرقوا بين القرى المؤدية للبيض والقرى المؤدية للحمر .

وسادت البلبلة . كان اهالي القرى ينظرون بذعر الى الجحفل الزاحف من وراء نهاية السهب في سحب من الغبار . كان دنيكين ، على

الى تقدين ، يدفع ثمنا للعلف ، اما رجال سوروركين هؤلاء فلا يعرفون الا شيئا واحدا : ان يكتسحوا كل شيء ، فكان الشبان يمتطون خيولهم وينضمون الى دليكين ، والشيوخ مع النسوة والاطفال والماشية يرحلون الى الوهاد المنخفضة .

وجرى ارى كاملة ضد جيش سوروركين . وكانت الافواج الكوبانية تصيح : «انهم يرسلوننا للقتل ، والاغراب ينهبون اراضينا !» وكان بيلياكوف رئيس اركان الجيش يدور يشدة في دوامة الاحداث ، متلمسا راسه ليتأكد من انه ما يزال بين كتفيه . ولا عجب ! فان الاستراتيجية قد ذهبت مع الريح . وكان كل التكتيك في الخراب العادة والضراوة الثورية . وحلت محل الضبط حركة عاصفة لا تخضع لمجموع القوات . وكان من الفظاعة النظر الى القائد العام الاعلى سوروركين ، فقد كان يتغذى على الكحول والكوكائين في تلك الايام ، فكانت عيناه محتقنتين ، ووجهه مسودا ، وصوته مبحوحا ، يندفع كالممسوس في المقدمة على اكتاف الجيش .

وحدث ما لا بد منه . فان جيش المتطوعين الذى مرسه ضبط حديدى ، ويخضع ، كالآلة ، لارادة قيادة واحدة ، رغم اندحاره وتراجعه اخذ يتحول الى الهجوم المضاد مرة بعد اخرى متشبثا بكل قطعة ملائمة من الارض متخيرا الاماكن الضعيفة لدى الخصم ببرود واقتدار . وفي يوم ٢٥ تموز ، تفجر اليوم العاشر الاخير من المعركة بالقرب من فيسيلكى ، على بعد خمسين فرسخا من محطة تيخوريتسكايا .

كانت مواقع قوات دروزدوفسكى وكازانوفيتش اسوا حتى من الايام السابقة . فقد استطاع الحمر هنا ان ينفذوا الى المؤخرة ووقع المتطوعون في نفس الكيس الذى وقع فيه البلاشفة قرب بيلايا غلينا . ولكن جيش سوروركين لم يكن كما كان منذ تسعة ايام ، فقد فترت الهمم ، وبثت صلابة العدو عدم الثقة والتشكك واليأس : فمتى يأتى النصر والراحة ؟

بعد الساعة الثالثة بعد الظهر انطلق جيش سوروركين بهجوم على طول الجبهة . وكانت الضربة قوية . وكانت المدافع تقصف في كل مكان على طول الافق . وسارت الصفوف الكثيفة بقاماتها ولم تنطلق . وبلغ التوتر ونفاد الصبر والضراوة ذروتها ...

وبهذا الشكل بدا هلاك جيش سوروركين . ابيدت الموجة الاولى من المهاجمين بالنار والحراب ، واختلطت الموجات التالية تحت النار بين الجثث والجرحى والساقطين . وحين وقع ما كان من غير الممكن حسبانه ولا ادراكه ولا ايقافه : فجاة ارتخى التوتر . ولم يعد هناك ما يكفي من القوة والحماس .

واستمرت عزيمة العدو الباردة تنزل الضربات المحسوبة مضاعفة الارتباك ... واخترق الافواج المرتبكة رجال ماركوف وفوج الخيالة من الشمال ، وخيالة اورديل من الجنوب ، وزحفت المدرعات القاذفة للنار ، وتحركت طائرات البيض المصفحة . وعندئذ بدا التراجع والهروب والذبح . وفي نحو الساعة الرابعة تغطى السهب كله بجيش سوروركين المتراجع جنوبا وغربا ، والمقضى عليه كقوة موحدة .

القى بيلياكوف رئيس الاركان قائد الجيش العام في السيارة بالقوة . كانت عينا سوروركين المحمرتان جاحظتين ، وفمه مزبدا ، وكان ما يزال ممسكا بيده السوداء مسدسه الذى نفد رصاصه . انطلقت السيارة المثقبة بالرصاص المسحوقة بسرعة جنونية بين الجثث ، واختفت وراء التلال .

وتراجع الجزء الرئيسى من جيش سوروركين المهزوم الى يكاترينودار . والى هناك ايضا اخذ جيش تامان (المجموعة الغربية من القوات الحمراء) بقيادة كوجوخ يتراجع من شبه جزيرة تامان . وكانت جميع القرى في طريق تقهقره تهب منتفضة . وآلاف الاغراب يهربون – مع متاعهم وماشيتهم – تحت حماية جيش تامان خوفا من انتقام القوزاق . وقطعت خيالة الجنرال بوكروفسكى البيضاء طريق التراجع ، وبفورة الحماس استطاع جيش تامان ان يحطمها ويبعثرها ، الا ان تراجعه نحو يكاترينودار لم يعد ممكنا على اية حال ، فاستدار كوجوخ بجيشه ومع قوافل اللاجئين بحدة نحو الجنوب ، الى الجبال المقفرة الوعرة آملا ان يشق طريقه الى نوفوروسيسك ، حيث كان اسطول البحر الاسود العائد للحمر .

الآن لم يعد شيء يوقف دليكين . فبعد ان طهر الطريق بسهولة تقدم بكل قواته الى يكاترينودار التى كانت تحتلها فلول جيش شمال القفقاس الذى لم يعد له وجود ، واحتل المدينة بهجوم شديد خاطف .

وهكذا انتهت «الحملة الجليدية» التي بدأها كورنيلوف قبل ستة اشهر بحفنة من الضباط .

واضحت يكاترينودار عاصمة البيض . وطهرت مناطق البحر الأسود الغنية بسرعة من كل عناصر الهياج والعصيان . واعاد الجنرالات الذين كانوا ، الى حين قريب ، يلملمون القمل من قمصانهم ، تقاليد الدولة العظيمة بنطاقها الامبراطوري القديم .

ان الطريقة العتيقة السالفة في خوض الحرب عن طريق الحصول على السلاح والعتاد في معركة او في غارة على البلاشفة لم تعد ، بالطبع ، ملائمة للخطط التوسعية الجديدة . كانت هناك الحاجة الى المال ، والى سيل واسع من الاسلحة والذخيرة ، والى تهيئة التموين العسكري لحرب كبيرة ، لقواعد جبارة للهجوم على قلب روسيا .

فقد انتهى عهد الصراع المحلي الاهلي ، ودخلت الى اللعبة قوات خارجية جبارة .

وظهر امام القيادة العليا الالمانية خطر مفاجيء خاص عقب انتصارات دنيكين الاولى في حزيران . كان البلاشفة اعداء مربوطي الايدي والاقدام باتفاقية بريست - ليتوفسك . وظهر دنيكين كعدو لم يعرف بعد ولم يدرس . وبعد اندحار جيش سوروكين خرج دنيكين الى بحر آزوف ونوفوروسييسك ، حيث كان يوجد الاسطول الحربي الروسي كله منذ اوائل ايار .

ولم يكن الالمان مطمئنين من ناحية البحر الاسود . وكانوا مطمئنين ما دام الاسطول في ايدي البلاشفة ، فقد كانوا يردون على كل عمل عدائي من جانبه بعبور الحدود الاوكرانية . الا ان وقوع خمس عشرة مدمرة ومدرعتين في يدي دنيكين كان يعني خطرا جديا في تحويل البحر الاسود الى جبهة للحرب العالمية .

في العاشر من حزيران قدمت المانيا للحكومة السوفييتية انذارا نهائيا يقضي بان ينقل اسطول البحر الاسود كله خلال تسعة ايام من نوفوروسييسك الى سيباستوبول ، حيث كانت ترابط حامية المانية قوية . وهددت المانيا ، في حالة الرفض ، بالهجوم على موسكو .

في ذلك الحين كتب رئيس اركان القوات النمساوية المحتلة رسالة من اوديسا الى وزير الخارجية في فينا :

«ان المانيا ترمي في اوكرانيا الى هدف اقتصادي سياسي محدد . انها تبتغي ان تضمن لنفسها والى الابد طريقا آمنا الى ما بين النهرين والجزيرة العربية عن طريق باكو وفارس .

والطريق الى الشرق يمر في كييف ويكاترينوسلاف وسيباستوبول ، ومنها يبدأ الاتصال البحري بباطومي وترابيزوند .

ولهذا الهدف تنوي المانيا الابقاء على القرم لها كمستعمرة او بأي شكل آخر . انهم لن يضيعوا من ايديهم ثانية شبه جزيرة القرم الثمينة . وفضلا عن ذلك ، ومن اجل الاستفادة الكلية من هذا الطريق يجب ان يكون لديهم خط حديدي رئيسي ، ولما كان تزويد هذا الخط والبحر الاسود بالفحم من المانيا غير ممكن ، فان من الضروري لالمانيا ان تستولي على اهم مناجم الدونباس . وكل ذلك ستضمنه المانيا لنفسها بطريقة او بأخرى . . .»

حين سلم الانذار النهائي في موسكو في العاشر من حزيران حل لينين - دون تردد كما هو دائما - هذه المسألة الصعبة «غير القابلة للحل» بالنسبة للكثيرين . وكان الحل كالآتي : محاربة الالمان في الوقت الحاضر ما تزال غير ممكنة ، ولكن تسليم الاسطول اليهم غير ممكن ايضا .

وغادر موسكو الى نوفوروسييسك ممثل الحكومة السوفييتية الرفيق فاخرامييف . وفي حضور موفدين من اسطول البحر الاسود وجميع امراء السفن عرض الرد البلشفي الوحيد على الانذار النهائي : ان يرسل مجلس مفوضي الشعب برقية مفتوحة الى اسطول البحر الاسود يأمره بالتوجه الى سيباستوبول ، والاستسلام الى الالمان ، ولكن اسطول البحر الاسود لا ينفذ هذا الامر ، ويغرق سفنه في مرفأ نوفوروسييسك .

وكان الاسطول السوفييتي - المؤلف من مدرعتين وخمس عشرة مدمرة ، وغواصات وسفن مساعدة ، والمشلول بموجب معاهدة بريست - ليتوفسك - يرسو في مرفأ نوفوروسييسك .

نزل موفدو الاسطول الى الساحل ، واستمعوا الى فاخراميف بوجوم ، فقد كان يعرض الانتحار . ولكن لا بد مما ليس منه بد . والطريق مسدود . فلم يكن لدى الاسطول فحم ولا نفط . كان الالمان يحجبون موسكو ، ودنيكين يقترب من الشرق ، وفي الطرقات

المالية تلوح حنظارات الغواصات الالمانية فى اشرطة من الزبد ، وفى الازرقاق السماوى تلمع القاصفات الالمانية ، وتناقش الموقدون طويلا وبحرارة . . . ولكن لم يكن ثمة غير مخرج واحد ، هو اغراق السفن . . ، ومع ذلك فقد قرر الموفدون ، وهم امام هذا العمل الرهيب ، ان يطرحوا مصير الاسطول على تصويت جميع افراده .

وبدات فى مرفأ نوفوروسييسك اجتماعات عامة حضرها آلاف الناس . وصعب على البحارة ان يفهموا ، وهم ينظرون الى المدرعتين العملاقتين الفولاذيتين الرماديتين : «فوليا» و«سفوبودنايا روسيا» الراسيتين ، والى المدمرات السريعــــة الحركة المؤتلقــــة بالمجد الحربى ، والى الابراج والصوارى المعقدة التشابك ، الشامخة فوق المرفأ ، فوق جماهير الناس — صعب عليهم ان يتصوروا ان ملك الثورة الرهيب هذا ، وطن البحارة العائم سيغطس الى قاع البحر دون ان يطلق رصاصة واحدة ، ودون ان يقاوم .

لم يكن بحارة البحر الاسود رجالا يمكن ان يقرروا تدمير انفسهم بهدوء بال . صرخ الكثيرون منهم بكلمات جنونية ، ودقوا الصدور ، وشقوا قمصانهم البحرية عن صدور موشمة ، ووطاوا باقدامهم قبعاتهم ذات الاشرطة . . .

وعلى طول الساحل ماجت جماهير غفيرة من البحارة والجنود واهل الساحل الآخرين من الفجر حتى المساء ، حين تضرج الغروب المياه الليلقية الكئيبة التى لم تعد لهم الآن ، مياه البحر اللعين .

وكان قادة السفن والضباط ينظرون الى الامر نظرة مغايرة : فان الجزء الكبير منهم كان يميل سرا الى الذهاب الى سيباستوبول ، والاستسلام للالمان ، واما الجزء الصغير برئاســة قائــد المدمرة «كيرتش» الملازم الاول كوكيل فقد ادرك حتمية الهلاك ، واهميتها الهائلة برمتها بالنسبة للمستقبل ، فكان يقول :

«يجب الانتحار ، واغلاق سفر تاريخ اسطول البحر الاسود لبعض الوقت دون تلويثه . . .»

وفى تلك الاجتماعات الهائلة الهائجة كالزوبعة كان يتخذ قرار فى الصباح وآخر فى المساء . وكان اكثر الناس ضجة من نصيب الذين كانوا يلقون قبعاتهم على الارض ويصرخون :

«ايها الرفاق ، ليذهب الروس الى الجحيــم ليغرقوا هــم

انفسهم . اما نحن فلن نتخلى عن اسطولنا . سنحارب الالمان لآخر قذيفة . . .»

ويرتفع الهدير فى المرفأ : هورا !

وبدات بلبلة قوية بشكل خاص حين قدم من يكاترينودار قبل اربعــة ايام من انتهاء الانذار رئيس اللجنــة التنفيذيــة المركزيــة لجمهوريــة البحر الاسود روبين وممثــل الجيش بوبينوس ، وهو شخص عملاق ذو هيئة رهيبة يحمل فى حزامه اربعة مسدسات ، وكانا يتبادلان كلاهمــا — روبين بخطبــة مستفيضــة ، وبوبينوس بصوتــه الهادر وتلويحه بالسلاح — بانه لا تسليم الاسطول ولا اغراقه ممكن ، وان الذين فى موسكو لا يفهمون ماذا يقولون ، وان جمهورية البحر الاسود ستقدم للاسطول كل ما هو بحاجــة اليــه من نفط وقذائف ومواد غذائية كثيرة . وصرخ بوبينوس :

— ان امورنا فى الجبهة ماشية (واتبع ذلك ببعض اللعنات) وفى الاسبوع القادم سنغرق ابن الكلبــة دنيكين ورجالــه فى نهــر كوبان . . . فلا تغرقوا السفن ، يا اخوان . فنحن نحتاج فى الجبهة الى ان نشعر بان فى مؤخرتنا اسطولا جبارا . اما اذا اغرقتموها ، فانا اعلن باسم الجيش الثورى لكوبان والبحر الاسود كله اعلانا قاطعا باننا لن نطيق هذه الخيانة ، واننا من الباس سنوجــه اربعين الف حربة ضدكم ، وسنطعنكم بالحراب لآخر رجل ، يا اخوان . . .

وبعد هذا الاجتماع تخلخل كل شىء ، ودارت الرؤوس . واخذ البحارة يغادرون السفن على غير هدى ، وتكاثرت فى الجمع عناصر مريبة كانت فى النهار تصرخ باعلى الاصوات : «لنحارب الالمان حتى آخر قذيفة» وفى الليل يقتربون جماعات من السفن نصف المهجورة مستعدين الى الاقتحام ورمى البحارة فى الماء ولينهبوا .

فى تلك الايام عاد سيميون كراسيلنيكوف الى المدمرة «كيرتش» .

كان سيميون ينظف رأس البوصلة النحاسى . كان البحارة جميعا يعملون منذ الصبــاح كاشطين وغاسلين ومنظفين المدمرة الراسيــة على مقربــة من احد الحواجز . كانت الشمس الحارة تطلع فوق التلال الساحلية المسلوعة . . . وكانت الاعلام مرتخية فى الحر الساكن . كان سيميون يفرك القطعــة النحاسية بحماس محاولا الا

ينظر باتجاه المرفأ . كان البحارة ينظفون المدمرة قبيل هلاكها .

في المرفأ كانت المدرعة «فوليا» ترسل الدخان من مداخنها الهائلة . وكانت المدافع المكشوفة الاعظية تلمع في الشمس . وكان الدخان الاسود يتصاعد نحو السماء . وكان الخليج الصقيل يعكس في مياهه السفينة والدخان والتلال البنية مع مصانع الاسمنت عند سفوحها .

قرفص سيميون على عقبيه العاريتين ، وراح يفرك القطعة النحاسية . وكان في الحراسة في تلك الليلة ، وكان يشعر بالمرارة لدى التفكير في عبث مجيئه الى هنا ، وعدم الاستماع الى اخيه وماتريونا . . . سيضحكون منه الآن : «آه انك احسنت في محاربة الالمان . . . خنتم الاسطول ، يا اخوان . . .» فماذا يرد على ذلك ؟ يقول : تلفت «كيرتش» بيدي وصفقلتها واغرقتها .

خرج من «فوليا» قارب بخاري ، واتجه نحو السفن ملوحا بالاعلام . رفعت المدمرة «ديرزكي» مرساتها ، وسحبت «بيسبوكويني» وجرتها ببطء الى المجرى الخارجي . تحركت وراءها المدمرات «بوسبشني» و «جيلوي» و «جاركي» و «غرومكي» سائرة على الماء الصقيل ببطء اشد وكأنها مريضات .

ثم حدث توقف في الحركة . بقيت في المرفأ ثماني مدمرات . ولم تلحظ فيها اية حركة . كانت كل الانظار الآن متجهة نحو جسم «فوليا» الفولاذي الضخم الرمادي القاتم ذي الخطوط الصدئة على السطح . حدق البحارة فيها بعد ان القوا من ايديهم مسحاتهم وخرقهم وخراطيم المياه . كان علم قائد الاسطول عميد البحرية تيخمينيف يرفرف بكسل على المدمرة «فوليا» .

كان البحارة على ظهر المدمرة «كيرتش» يتحدثون باصوات خفيضة وبقلق :

انظروا . . . «فوليا» ذاهبة الى سيباستوبول . . .

— يا اخوان ، امعقول انهم اوغاد الى هذا الحد ! . . امعقول انهم بلا ضمير كهذا ! . . .

— لو تذهب «فوليا» فبمن يؤمن الانسان بعد هذا ، يا اخوان ؟ . .

— الا تعرف تيخمينيف ! عدو لدود . لعلب ماكر !

— ذاهبة ! آه ، الخونة ! . .

وراء «فوليا» كانت ترسو المدرعة «سفوبودنايا روسيا» شقيقتها . الا انها كانت تبدو ناعسة هادئة ، وقد تغطت كلها بالاغلفة ، وما من شخص يُرى على ظهرها . اتجهت اليها من الساحل زوارق فيها اناس يجذفون بسرعة جنونية . وفي المرفأ الساكن الرهيب انطلقت صفارات عرفاء الملاحين وفرقعت الونشات على «فوليا» ، وصعدت الى فوق السلاسل المبللة ، والمراسي المغرينة . واخذ انف السفينة يستدير ، وتحركت الصواري المتشابكة والمداخن والابراج على خلفية سطوح المدينة البيضاء .

— ذهبوا . . الى الالمان . . . آه ، يا اخوان . . . ستستسلمون للاسر ! . . اي شيء فعلتم ؟ . . .

خرج الى برج القيادة في المدمرة «كيرتش» قائدها ذو الانف الكبير المسلوخ في وجه سودته الشمس . وتابعت عيناه الفاترتان حركات «فوليا» . وانحنى من على برج القيادة . وامر :

— ارفعوا اعلام الاشارة . . .

هتف البحارة بحيوية في الحال :

— سمعا ، اعلام الاشارة ترفع !

وانطلقوا الى الصندوق الذي فيه اعلام الاشارة . وارتفعت على سارية «كيرتش» اعلاما زاهية الالوان ، ورفرفت في السماء اللازوردية . وكانت تشكيلتها تعني :

«الى السفن المتجهة الى سيباستوبول . العار لخونة روسيا ! . .»

لم ترد «فوليا» عن الاشارة بالاشارة ، وكأنها لم تلحظ شيئا . . . سارت «فوليا» بلا رجال مجللة بالعار منزلقة بين السفن الحربية التي بقيت محافظة على كرامتها . . . وفجأة صاح البحارة : «لاحظت الاشارة !» . ارتفع مدفعان ضخمان على برج المؤخرة ، واستدار البرج نحو المدمرة . . . امسك قائد «كيرتش» الدرابزين وهو على برج القيادة ، واتجه بانفه الكبير المقشر لملاقاة الموت . الا ان المدفعين تحركا ، وهدآ .

التفت «فوليا» حول حائل الامواج مزيدة سرعتها ، وسرعان ما اختفى جانبها الانوف وراء الافق لتظهر بعد سنوات عديدة في

بترت البعيدة مجردة من السلاح صدلة ملطخة بالخزى الى الابد .

اصر تبخميتيف قائد الاسطول على رايه ، ونفذ الامر الشكلى لمجلس مفوضى الشعب . استسلمت المدرعة «فوليا» وست مدمرات الى الذل فى سيباستوبول . وسرح بحارتها وضباطها .

وتفرق البحارة كل الى طيته ، الى بيوتهم ومواطنهم وقالوا ، بالطبع ، ان ايديهم لم تطاوعهم لاغراق السفن ، والاكثر من ذلك انهم ارتعبوا من الاربعين الف من جنود البحر الاسود الحمر الذين هددوا بطعن كل نوفوروسييسك بالحراب .

وبقيت المدرعة «سفوبودنايا روسيا» وثماني مدمرات فى ميناء نوفوروسييسك . وفى اليوم التالى انتهى اجل الانذار النهائى . وحلقت الطائرات الالمانية عاليا فوق المدينة . وفى المجارى الخارجية ظهرت منظارات الغواصات الالمانية بين الدلفين القافز . وتردد ان الالمان القوا المراسى فى تيمريوك ، على مسافة غير بعيدة . اما فى ساحل نوفوروسييسك فظلت الاجتماعات العامة الصاخبة منعقدة ليل نهار ، وراح اشخاص مدنيون يصيحون بالحاح متزايد :

– يا اخوان ، لا تهلكوا انفسكم ، لا تغرقوا الاسطول . . .

– الضباط وحدهم يريدون اغراق الاسطول ، وجميعهم باعوا انفسهم لدول الوفاق . . .

– فى سيباستوبول القيتم الضباط فى الماء فى شهر كانون الاول ، فماذا تخافون الآن ؟ نظموا مذبحة ! . .

وكان احد الدعاة يتبع هؤلاء الصائحين مباشرة ، ويشق قميصه من صدره :

– يا رفاق ، لا تصغوا الى الاستفزازيين . لو سلمتم الاسطول الى الالمان فانهم سيطلقون النار عليكم من هذه المدافع . . . لا تقدموا السلاح للامبرياليين . انقذوا الثورة العالمية ! . .

وعليك ان تشغل ذهنك لتعرف الى من تصغى ؟ ويحل محل الداعى جندى من يكاترينودار مدجج بالسلاح ، ويهدد ايضا بالاربعين الف حربة . . . وفى ليلة الثامن عشر من حزيران لم يعد الكثيرون من البحارة الى سفنهم : اختفوا ، وتفرقوا ، ولاذوا فى الجبال . . .

وطوال الليل ظلت المدمرة «كيرتش» تتكلم بالاشارات الضوئية . فردت «سفوبودنايا روسيا» بانها من حيث المبدأ مستعدة

لاغراق نفسها ، الا انه لم يبق من بحارتها الالفين غير اقل من مائة ، ومن الصعب تشغيل البخار ، والابتعاد عن المرفأ .

واعلنت المدمرة «حاجى – بيه» ان اجتماعا صاخبا ما يزال جاريا عليها ، وجاءت فتيات من المدينة ومعهن كحول ، والظاهر انهن مدسوسات ، ومن الممكن ان تنهب السفينة . وفى المدمرة «كالياكريا» لم يبق الا القائد وتكنيكى السفينة ، وفى «فيدونيسى» لم يبق غير ستة اشخاص . ووردت اشارات مماثلة من المدمرات «كابيتن بارانوف» و«سميتليفى» و«سترميتيلنى» و«بروزرتيلنى» . وبحارة «كيرتش» و«الليتنانت شيستاكوف» وحدهم هم الذين بقوا فى كامل طاقمهم .

وفى منتصف الليل تقدم زورق من «كيرتش» ، ونادى صوت جسور منه :

– ايها الرفاق البحارة . . . يتحدث اليكم مراسل جريدة «اخبار اللجنة التنفيذية المركزية» . . . وصلت برقية لتوها من موسكو من الادميرال سابلين تقول : لن يغرق الاسطول فى اى حال من الاحوال ، ولن يذهب الى سيباستوبول . انتظروا التعليمات التالية . . .

انحنى البحارة على الحاجز ، وحدقوا صامتين فى الظلام حيث كان الزورق يتأرجح . وظل الصوت يبرهن ويقنع . . . خرج الملازم الاول كوكيل الى برج القيادة ، وقاطعه :

– اطلعنى على برقية الادميرال سابلين .

– مع الاسف ، بقيت فى البيت ، يا رفيق ، الآن استطيع ان اجلبها . . .

عندئذ قال كوكيل بصوت عال ممددا الكلمات لتكون مسموعة :

– ليبتعد الزورق مائة متر عن ميمنة السفينة . لا تقترب اكثر . . .

صاح الصوت من الزورق بلهجة وقحة :

– المعذرة ، يا رفيق ، اذا انت لا تريد ان تسمع امر المركز ، سابرق بذلك .

– فى حالة الامتناع ساغرق الزورق . ساصعدك الى السفينة . ولن اكون مسؤولا عن تصرف البحارة .

لم يرد من الزورق على ذلك . ثم جذفت المجاذيف بحذر ، وغابت معالم الزورق في الظلام . وضحك البحارة . وضع القائد يديه وراء ظهره ، وراح يذرع برج القيادة محدودبا نحيلا ، جاثما كأنه في قفص .

في تلك الليلة لم ينم الا القليلون . استلقوا على ظهر السفينة مبللة بالندى ، وبين الحين والآخر كان رأس يرتفع ويتفوه بكلمة ، وطار النوم من العيون ، وجرى الحديث بأصوات خافتة . وشحبت النجوم ، وارتفع الفجر من وراء التلال . وجاء من الساحل ضابط الصف البحري اليتسكي قائد «الليتنانت شيستاكوف» وأعلن ان البحارة يغادرون لا المدمرات وبواخر الجر والقوارب البخارية ، بل والسفن التجارية ولم يبق اى بحار ، وغير معروف كيف تسحب السفن الى المجاري الخارجية .

قال قائد «كيرتش» :

– يا ضابط الصف البحري اليتسكي . ان المسؤولية تقع على عاتقنا . سنغرق السفن مهما كلف الأمر .

هز ضابط الصف البحري اليتسكي رأسه . وران صمت . ثم انصرف . وعندما انتشر الشروق فوق الخليج ، ابتعدت «الليتنانت شيستاكوف» ببطء عن المرسى ساحبة وراءها «كابتن بارانوف» ، واخذت تجرهما الى المجرى الخارجي ، الى مكان الاغراق . ورفعت المدمرات اعلام الاشارة على الصواري :

«اهلك ولكن لا استلم» .

وسرعان ما اختفت وراء الضباب الصباحي . وبدت السفن كلها الآن خاوية . وكانت طيور النورس تطير فوق العملاقة «سفوبودنايا روسيا» الفولاذية . وارسلت «كيرتش» دخانها . وزحم الساعة المبكرة من الصباح هرع الناس الى الساحل ، وماج حائل الامواج بنقاط سود كالذباب . وبدأ تزاحم بالقرب من السفن ، وصعد واحد فوق كتف الآخر ، وسقطوا في الماء .

وكان سيميون كراسيلنيكوف واقفا في الحراسة على معبر السفينة . وبعد الساعة الخامسة خرج من الجمع رجل قصير القامة محمر من الانفعال في سترة سوداء بحرية بلا كتافيات وضرب سلم السفينة الاعلى بكعبيه . وكان وجهه المحمر عرقا بفنه الصغير الملتوي .

نادى على سيميون مجلقا عينيه الزرقاوين المرحتين المدورتين في البحار الذي سد عليه الطريق بحربة :

– هل الملازم الاول كوكيل موجود ؟

وتلمس جنبيه وصدره ، واخرج وقدم تفويضا يحمل اسم ممثل السلطة السوفييتية المركزية الرفيق شاخوف . انزل البحار الحربة مدلهم السحنة :

– تفضل ، يا رفيق شاخوف .

خف كوكيل لملاقاته ، واخذ يحدثه عن الوضع الميئوس تقريبا ، وقد تكلم بالتفصيل وعلى مهل . وكان شاخوف يقلب عينيه بنفاد صبر :

– بسيطة . وانما في اصعب من ذلك . . . . لقد تحدثت الى البحارة ، ان معنويتهم عالية . . . . ساحصل لكم على باخرة الجر . وكل ما هو ضروري . . . وتنظم اجتماعا . . . ، وتدبر الأمر كأحسن ما يمكن . . . .

وطلب قاربا بخاريا ، وذهب به الى «سفوبودنايا روسيا» . ومن هناك اخذ ينتقل به من سفينة الى اخرى . وقد رأى سيميون جسمه القصير يتدلى من سلالم البواخر التجارية ، ثم رآه ينزل الى البر ، ويغيب في الزحام ، حيث ارتفعت صيحات ، وارتفعت أيد . وفي احد الاماكن ارتفعت آلاف الحناجر بـ«هورا» .

غادرت الرصيف بضعة قوارب محملة بالبحارة ، وتوغلت في المرفأ الى باخرة صغيرة صدئة ، وسرعان ما خرج من مدخنتها دخان كثيف ، ورفعت مرساتها ، واتجهت نحو «سفوبودنايا روسيا» . ولمع شراع في قارب . استدارت «الليتنانت شيستاكوف» وسحبت المدمرة الثانية .

في نحو الساعة العاشرة ازدحم الجمهور عند معبر «كيرتش» . وبدأ المزاج ينقلب الى اسوأ . شق بعض الاشخاص المهلهل الثياب طريقهم الى حاجز المدمرة ، وكان لدى كل واحد سجق وخبز وشحم خنزير . كشروا عن اسنانهم ، وغمزوا للبحارة مظهرين زجاجات من الكحول . عند ذلك امر كوكيل برفع المعبر ، والاقلاع . ابتعدت «كيرتش» عن تلك المغريات اللعينة الى وسط المرفأ ، ومن هناك راقبت سحب المدمرات .

واخيرا استطاعت الباخرة الصدئة التي بدت كالقشرة الفارغة ان تسحب «سفوبودنايا روسيا» لاهثة نافثة الدخان ، فمرت بعظمة بآلاف المشاهدين ، وخلع الكثيرون اغطية رؤوسهم ، وكانهم يشيعون جنازة . ومرت «سفوبودنايا روسيا» بالطوافات والبوابة والمرفا ، وتوغلت في اعماق المجرى الخارجي . وكان الناس يتوقعون الطائرات الالمانية مرة اخرى الا ان السماء والبحر كانا هادئين ، ولم تبق في المرفا الا المدمرة «فيدونيسي» .

وبدا الاضطراب في الحشد من جديد ، وتجمعت نقاط الرؤوس السوداء على الرصيف الذي ترسو فيه «فيدونيسي» . تقدم منها قارب بمحرك وشراع ليسحبها . فلقى الجمهور القارب بالحجارة ، وانطلقت عدة طلقات من مسدس . صاح رجل اشيب الراس بعد ان صعد على عمود كهربائي :

— يا قاتلي اخوتكم ، خنتم روسيا ... خنتم الجيش ... يا اخوان ! . . ماذا تنتظرون ؟ . . يبيعون آخر اسطول ...

وهاج الحشد فالعين الحجارة . قفز بعض الاشخاص من فوق حاجز «فيدونيسي» . عندئذ تقدمت «كيرتش» من الساحل مسرعة ، ودق جرسها دقة التهيؤ للقتال ، واستدارت المدافع نحو الجمهور ، وصاح قائدها في الميكروفون :

–الى الوراء ! ساطلق النار !

تراجع الجمهور ناكصا باعقابه ، وتصايح الذين ديسوا ، وتعالى غبار ، واقفر الساحل ، اسرع القارب الى الرصيف ، وسحب «فيدونيسي» .

تبعتها «كيرتش» ببطء الى حيث كانت جميع السفن تتارجح على المجرى الخارجي تارجحا خفيفا . نظر سيميون الى طيور النورس المحلقة عاليا فوق الجزء الخلفي من السفينة ، ثم اخذ ينظر الى قائد السفينة الذي كان يمسك درابزين برج القيادة بكلتا يديه .

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر ، دارت «كيرتش» حول الجانب الايمن من «فيدونيسي» ونطق القبطان بكلمة واحدة فقط . فانطلق طوربيد من جهاز الاطلاق كظل اسود ، وانشق خط مزبد على سطح الماء المموج قليلا واصاب جسم «فيدونيسي» من الوسط تماما ، فارتفع ، وتحطم الى نصفين ، وتطاير جبل الشحنة

من الماء والزبد من اعماق البحر ، وسرت فرقعة بعيدا في البحر ، وحين سقط جبل الماء لم تعد «فيدونيسي» على سطح الماء . لا شيء غير الزبد . وهكذا بدا الاغراق .

فتحت فرق النسف صمامات كينجستون والمنزلقات في المدمرات ، وخلعوا كل كوى الاضاءة في الطبقة السفلى ، وقبل ان يغادروا السفينة الغارقة الى القارب احرقوا فتيل المفرقعة لينسفوا بعبوة من عشرة ارطال الطوربيدات والسلندرات . اختفت المدمرات سريعا تحت الماء العميق . وبعد خمس وعشرين دقيقة كان المجرى الخارجي خاليا .

تقدمت «كيرتش» باقصى سرعتها نحو «سفوبودنايا روسيا» واطلقت الطوربيدات ، رفع البحارة قبعاتهم ببطء . اصاب الطوربيد الاول مؤخرة السفينة . وترنحت المدرعة مغمورة بسيول الماء ، وسقط الثاني على الجانب ، في الوسط . ومن خلال سحابة الزبد والدخان كان الصاري يرى متارجحا . كافحت المدرعة ، كالكائن الحي ، اكثر عظمة وسط البحر الثائر والانفجارات الهادرة . وتزلت الدموع من عيون البحارة ، وغطى سيميون وجهه بكفيه . . .

وجف جسم القائد كوكيل كله في تلك اللحظات ، ولم يبق فيه غير انفه الكبير ، متجها نحو السفينة الهالكة . وانفجر الطوربيد الاخير ، وانقلبت «سفوبودنايا روسيا» على الكيل . . . وقامت بجهد آخر ، وكانها ترتفع عن الماء ، وغاصت سريعا الى القاع في دوامة من الزبد .

غادرت «كيرتش» مكان الهلاك الى توابسيه باقصى سرعتها ، وعند الصباح انزل بحارتها الى زوارق . وبعد ذلك ارسلت «كيرتش» هذه البرقية :

«الى الجميع . . . انا هالكة بعد ان اغرقت جزءا من سفن اسطول البحر الاسود التي اعتبرت هلاكها انبل من عار الاستسلام الى المانيا . المدمرة «كيرتش»» .

فتحت المدمرة صمامات كينجستون ، وفجرت المحركات ، وغرقت على عمق خمس عشرة قامة .

تشاور سيميون كراسيلنيكوف مع رفاقه على الساحل : الى اين التوجه الآن ؟ وعرضت اقتراحات ، واتفقوا على الذهاب الى

استراخان ، الى الفولغا ، حيث قيل ان شاخوف يشكل اسطولا نهريا حربيا لمحاربة البيض .

كان جيش تامان تحت قيادة كوجوخ يحاول شق طريقه الملتوى الى اعلى كوبان سالكا الدروب الجبلية او بلا دروب ملاحقا من قبل العدو ، محدقا بالقرى القوزاقية المتقشفة .

كان الطريق يمتد عبر نوفوروسييسك التي احتلها الالمان بعد اغراق الاسطول . وصلت طوابير تامان بصورة مفاجئة ، ومرت القوات خلال المدينة منشدة الاناشيد ، ولم يفهم الالمان نيتها ، فانطلقوا الى السفن ، واطلقوا القذائف من المدافع البحرية على الطابور الاخير ، وعلى القوزاق السكارى المحتدين الذين كانوا في اعقابه .

وللحيطة انسحب الالمان من المدينة ، وبعد ان شق كوجوخ طريقه محاربا وغادرها ، احتلها القوزاق ومن بعدهم قوات البيض النظامية ، وتعرضت المدينة للنهب الشامل .

وشنق البحارة والجنود الحمر ، واهل المدينة المعلمون على اعمدة التلغراف دون محاكمة ، وحمل الحوذية ثلاثة آلاف جثة في تلك الايام الى البحر . واصبحت نوفوروسييسك ميناء للبيض .

بلغ جيش تامان توابسيه سالكا الساحل الذى تلفت فيه المجاعة ساحبا وراءه قوافل خمسة عشر الف من اللاجئين . ومن تلك المدينة اتجه صوب الشرق ، وتعقبه رجال دنيكين ، وكانت جميع الممرات الجبلية والمرتفعات الى الامام يحتلها المتسلطون . وكانت في كل يوم معركة ضارية ، ولكن الجيش سار عريقا دماء متناقصا بالمناوشات والموت جوعا ، نازلا الى الوهاد ، صاعدا الممرات الجبلية والتلال الشديدة الانحدار ، متضائلا ، شاقا طريقه .

وذات يوم جلبوا الى كوجوخ جنديا احمر اسيرا اطلق سراحه الجنرال بوكروفسكي ومعه رسالة كتبت بصراحة عسكرية :

«انت ، ايها الوضيع ، دنست جميع ضباط الجيش والاسطول الروسى لانك قررت الانضمام الى سفوف البلاشفة واللصوص والصعاليك . كن على علم بان النهاية آتية لك ولجميع صعاليكك . امسكناك ، ايها الوضيع بايد قوية ، ولن نتركك مهما كان . فاذا اردت الرأفة ، اى ان ينتهى الامر بارسالك الى سرايا المحكومين ،

فانا آمرك بتنفيذ امرى التالى : الق جميع سلاحك اليوم ، ومر بالعصابة المنزوعة السلاح الى مسافة اربعة او خمسة فراسخ غرب محطة بيلوريتشينسكايا . وحين ينفذ ذلك ابلغنى فورا في كشك السكة الحديدية الرابع . . .»

كان كوجوخ ، وهو يقرأ الرسالة ، يشرب الشاى من علبة صفيح من المعلبات . ونظر الى الجندى الاحمر الحافى ذى القميص غير المحزم ، الواقف امامه واجما . وقال له :

«تلتز انت ، يا أخ ، كيف تسلم لى مثل هذه الرسائل ؟ اذهب الى وحدتك . . .»

في تلك الليلة وجه كوجوخ للجنرال بوكروفسكي ضربة شديدة . اكتسحه وطارده بالخيالة ، واقتحم بيلوريتشينسكايا وخرج من الحصار . وفي نهاية ايلول وصل جيش تامان بالقرب من ارمافير التى كان يحتلها الدنيكيون ، واستولى عليها بهجوم عاصف ، والتقى بفلول جيش سوروكين في قرية نيفينوميسكايا .

كان سوروكين ، بعد ان فقد تأثيره في الجيش بعد الدحاره عند فيسيلكي ويكاترينودار ، وصحا من سكرة المجد العسكرى ، واحنقته الاخفاقات ، يتراجع اكثر فاكثر نحو الشرق ، دائرا كقشة في دوامة ما كان يسمى قبل حين قرغا والوية وافواجا . والآن اضحت هذه جماعات تهرب عند الطلقات الاولى من العدو . وكان الجنود يدمرون كل شيء في طريق تراجعهم . وكانت تشغلهم فكرة واحدة ، هى ان يتخلصوا من الموت المسلط فوق رؤوسهم ، والهروب الى اى مكان . وكانت اعداد هائلة من الجنود الفارين يجوبون سهوب تيريك ، على الطريق القديم المتعرج الذى تعالت فيه الروابى المغطية بالافسنتين .

خرج بعد معركة يكاترينودار زهاء مائتى الف من القوات واللاجئين . والذين بقوا قتلوا وشنقوا وعذبوا من قبل القوزاق . وفي كل قرية قوزاقية كانت الجثث تتدلى من اشجار الحور الهرمية ، وصاروا ينتقمون من الحمر الآن بلا رأفة ، غير خائفين من عودتهم ، وفي انحاء الاقليم كله كانوا يسمون بالنار مجرد اسم البلاشفة .

كان سوروكين وليد الثورة ، وكان يفهم بغريزة الحيوان ارتفاعاتها وهبوطاتها ، ولم يوجه التراجع ، فقد كان ذلك عبثا ،

فان العلوية نفسها كانت تسعى نحو الشرق ، وتتوقف حتى يضعف اصرار البيض على المطاردة .

ولم يبق له الا ان ينظر بوحشة فى نافذة عربة القطار الزاحفة فى السهوب اللافحة ، خلال روابى لشعوب البلازغين والسيلت والتوتونيين والسلاف والخزر القدامى . . . وكان حرس خاص يحرس قطاره لان الذين كانوا يمرون به كانوا يهتفون :

— يا اخوان ، الامراء خانونا ، وباعونا ليشربوا بثمننا ، اقتلوا امراء وحدالكم ، مثلما قتلنا امراء وحداتنا .

وكان رئيس الاركان بيلياكوف يأتى الى المقصورة ويتحسر ، وربما يقول بحذر كلمات غامضة عن استحالة الاستمرار فى القتال . «للثورة مراحلها — كان يكرر ذلك باستمرار ، ممررا كفه على جبينه المريض — انقضى النهوض الثورى ، والآن تقف ضدنا القوى المعنوية . نحن لا نقاتل الضباط فقط ، بل الشعب كله . يجب انقاذ مكاسب الثورة فى الوقت المناسب . . . على الاقل بسلام مهادن . . .» وكان يستشهد بامثلة مقنعة من التاريخ .

فكان سوروكين يكتفى بالرد على ذلك : «بكم تريد ان تشتريني ، يا وغد ؟» لو وقع دنيكين الآن فى يده لاكله حيا ، ولكن الغيظ اكثر ما يحتدم فى قلبه على رفاقه اعضاء اللجنة التنفيذية المركزية للبحر الاسود الذين هربوا من يكاترينودار الى بياتيغورسك . كانوا لا يعرفون سوى ان «يبحثوا عن اجراءات تكبح نزعات سوروكين الدكتاتورية . . .» لم ينفذوا الاوامر الملحة ، وتدخلوا فى كل شىء ، وانسلوا بصاحبهم ماركس الى قلب القائد العام .

وظهرت زينكا الشقراء مرة اخرى فى عربة صالون سوروكين ، وذلك باهتمام من بيلياكوف . وكانت زينكا ، كما كانت ، وردية مغرية ، سوى ان صوتها قد جش بعض الشىء ، وقد سرقت بلوزاتها الحريرية وقيثارتها فى طابور العربات . وصار سلوكها مع القائد العام اكثر استقلالية من ذى قبل .

وفى الليل ، حين كانت تسدل الستائر فى الصالون ، وتستولى على سوروكين نشوة السكر السوداوية ، كانت زينكا تعزف على البلالايكا قليلا ثم كانت تغنى بنفس الهراء الذى يتغنى به

بيلياكوف : عن نهاية الثورة الوشيكة ، وعن سيرة نابليون اللامعة ، الذى استطاع ان يقيم جسرا من الارهاب اليعقوبى الى الامبراطورية . وكانت عينا سوروكين تأخذان باللمعان ، ويخفق قلبه دافعا الدم الحار الى دماغه ممزوجا الى النصف بالكحول . . . وكان يزيح الستارة ، وينظر فى النافذة ، فى ظلام الليل ، حيث كانت تتراءى له التماعات خياله المحموم .

وضعف ضغط البيض ، وتشبث الجيش الاحمر اخيرا بالضفة اليسرى لكوبان الاعلى ، وتخندق هناك . وفى تلك الاثناء عاد دميترى شيليست قائد الفرقة الحديدية مع سيارات لورى من تسارتسين عبر سهوب قيرغيز . وقد جلب معه مائتى الف خرطوش وامر القوات القفقاسية بالتحرك نحو الشمال لمساعدة تسارتسين التى يحاصرها الجيش الابيض للاتمان كراسنوف .

رفض سوروكين تنفيذ الامر رفضا قاطعا . وثارت الافواج الاوكرانية التى ضجرت من القتال فى ارض الاغراب ، وانسحبت من الجبهة ، غير مكترثة باستمالات وتهديدات سوروكين . وشيليست وحده ، من مواليد بولتافا ، استطاع ان يوقف جزءا من القوات . وقد تحدث اليهم بتعقل وعلى مهل ، كفلاح للفلاحين ، وامتدحهم وامتدح نفسه . ورأى الاوكرانيون انه ليس شخصا اعتياديا ، بل احد كبارهم ، واطاعوه . وقادهم دميترى شيليست الى المعركة ، فحطموا طابورا قويا من الضباط قرب ليليتوميسكايا . وقد كرهه سوروكين كرها شديدا من جراء ذلك .

هناه بالنصر ، وعينه قائدا لجزء من الجبهة ، وفى نفس اليوم اصدر امرا سريا بتجريد وحداته من السلاح ، ورمى شيليست وجميع امراء وحداته بالرصاص . عرف شيليست بهذا الأمر السرى فترك الجبهة مع فرقته الحديدية التى اكملها بالاوكرانيين ، وسار عبر السهوب الملحية والرمال الوعثاء الى تسارتسين منفذا امر المجلس العسكرى الثورى للجيش العاشر . عندئذ اعتبره سوروكين خارجا على القانون ، والزم كل جندى احمر باطلاق الرصاص عليه ، وحظر على كل شخص ، مهما كان ، ان يجهز الفرقة الحديدية بالعلف . الا ان شيليست خرج ، ولم ترتفع يد واحدة لاطلاق الرصاص عليه . وحين كان يعوزه العلف فى الطريق كان يدخل القرية ، ويخلع قبعته ،

ويطلب ، والدموع في عينيه ، من لجنة القرية التنفيذية التبن والشوفان والخبز ، ويشرح بانه ليس خائنا ، بل الخائن قاطع طريق الابيض ، هو القائد العام سوروكين .

وسرعان ما وقعت ضربة اخرى على غرور سوروكين : فقد طلع كوجوخ من وراء الجبال ، بعد ان اعتبر هالكا ، واحتل ارمافير على الماشي ، بعد ان القى البيض وراء كوبان . وكان التامانيون ينفذون اوامر سوروكين على مضض ، او يهملونها تماما . وصار جيش تامان الذى تمرس في اصعب مسيرة العمود الفقرى في جيش سوروكين المهلهل واتخذ مواقع قوية في خط ارمافير - نيفينوميسكايا - ستافروبول .

كان الفصل خريفا ، وجرت معارك ضارية دامية في سبيل الاستيلاء على مدينة ستافروبول الغنية . وكان جيش تامان يقاتل في المقدمة في كل مكان .

كما ظهرت للدنيكيين قوة جديدة - النصير الابيض شكورو السفاح النذل الذى شكل عصابة من الاوباش .

نقل سوروكين مقر قيادته الى بياتيغورسك . ولم يعد يظهر في الجبهة ، وحلت انظمة جديدة ، وامتدت سلطة موسكو الى القفقاس ، وقويت على مر الايام ، وبدا ذلك حين قررت لجنة الاقليم الحزبية تشكيل المجلس العسكرى الثورى . ولم يعارض سوروكين موسكو ، واضطر الى الخضوع . وتالف المجلس العسكرى الثورى من عناصر جديدة ، وانتقلت سلطة القائد العام الى الهيئة العسكرية العليا . وادرك سوروكين ان حياته تحت الخطر ، فاخذ يكافح بجنون .

كان في اجتماعات المجلس العسكرى الثورى يجلس كئيبا صموتا ! وحين يتكلم كان يصر على كل كلمة . وكان يفلح في الحصول على ما يريد ، لأن الوحدات المخلصة له كانت متمركزة في بياتيغورسك . وكانوا يخافونه ، وليس بدون سبب . وكان يبحث عن فرصة لاظهار سلطته ، ووجدها . اعلن مارتينوف قائد الطابور الثاني في جيش تامان في مؤتمر القوات في ارمافير انه يرفض تنفيذ الاوامر العسكرية للقائد العام . عند ذاك طلب من المجلس العسكرى الثورى ان يرمى مارتينوف ، وانذر بشيوع الفوضى التامة في الجيش .

وكان من المستحيل انقاذ مارتينوف . فاستدعى الى بياتيغورسك ، واعتقل ، ورمى بالرصاص في الساحة امام الملأ . وهبت العاصفة في افواج تامان ، واقسموا على الثأر له .

شكلت هيئة اركان جديدة للقائد العام ، وابعد بيلياكوف كليا ، ولم يدافع سوروكين عنه . سلم رئيس الاركان الامور والاموال وذهب الى شقة صديقه السابق للاستيضاح . كان سوروكين يذرع الحجرة واضعا يديه وراء ظهره . كان مصباح نفطى يشتعل على المنضدة ، حيث كان يوجد طعام لم يلمس ، وزجاجة فودكا قد شرب منها قليلا . وكان جبل ماشوك الكثيف الاشجار يبدو وراء النافذة قاتما في الشفق الجاف . . .

رمق سوروكين الداخل بنظرة سريعة ، وتابع سيره . جلس بيلياكوف الى المائدة ، ونكس راسه . توقف سوروكين امامه ، وهز كتفه .

- هل تريد فودكا ؟ آخر قدح - وتنهد بحدة ، وصب قدحين بسرعة ، ولكنه لم يشرب ، وعاد يذرع الحجرة . - انتهت حياتك ، يا اخ . . . وتصيحى ان ترحل من هنا . . . لن ادافع عنك . . . غدا ساعين لجنة للتدقيق في شؤونك . فهمت ؟ وبكل احتمال سترميك . . .

رفع بيلياكوف وجهه اليه رماديا مهزولا ، ومرر كفه على جبينه ، وسقطت يده ، وقال :

- انت تافه . . . انسان زهيد . من العبث انى فتحت لك كل قلبى . انت وغد . . . بينما اعتبرتك نابليون . . . قملة ! . .

تناول سوروكين قدحه ، واصطكت اسنانه على زجاجه ، وشرب . ومشى واضعا يديه في جيبى سترته الجركسية . ثم توقف بغتة :

- لن يكون هناك تدقيق . فارحل الى الشيطان . واذا كنت لم اطلق الرصاص عليك الآن ، فاعلم ان ذلك من اجل خدماتك . . . وقدر ذلك . فهمت ؟

انفتح منخراه لاستيعاب الهواء ، وازرقت شفتاه ، وارتجف كيانه كله كأنما غيظه .

كان بيلياكوف يعرف سوروكين حق المعرفة . اخذ يتراجع نحو الباب غير صارف بصره عنه ، وصفق الباب وراءه بسرعة . .

وخرج من الباب الخلفي عبر الفناء ، واختفى من بياتيغورسك في نفس الليلة .

ظل سوروكين يشرب الكأس تلو الأخرى ساعة بعد ساعة ، وفكر الليل بطوله ، ان صديقه السابق سممه بقطرة من الازدراء ، الا ان السم كان فظيعا ، والعذابات لا تطاق . . .

غطى وجهه بيديه . ان بيلياكوف على حق ، على حق . . . كان في حزيران تابليوني الطراز واذا بـه يؤول الى اجتماعات في الهيئة العسكرية العليا ، والتطلع الدائم الى الحزبيين في موسكو . . . لم يقل بيلياكوف كلمات من عنده . . . فذلك ما يقوله الناس في الجيش ، في الحزب . ودنيكين ، آوه ، دنيكين ! وتذكر مقالة صغيرة في جريدة للبيض في يكاترينودار ، مقابلة صحفية مع دنيكين ، ونقلت الذكرى الى اعماق نفسه بسمها : «ظننت ان امامي اسدا ، ولكن تبين من الاسد كلب جبان ، يلبس فروة اسد . . . وهذا ، على اية حال ، لا يدهشني . فان سوروكين كان وما يزال ضابطا قوزاقيا جاهلا برتبة صغيرة» . آوه ، دنيكين ! انتظر . . . وسيأتي وقت . . . تنعم فيه .

وعصر سوروكين يديه ، وصرف باسنانه . لو يندفـــع الى الجبهة ، ويسوق الجيش كله ، ويقتحم ، ويطارد ، ويسحق القباط بسنابك الخيول ، ويحرق القرى من الجهات الاربع ، ويندفع الى يكاترينودار . . . ويأمر بان يمثل دنيكين امامه : ان يؤخذ من سريره بملابسه الداخلية . . . «الست انت ، يا انتون ايفانوفيتش تدربت على الكتابة في الجريدة حول الضابط القوزاقي ذي الرتبة الصغيرة ؟ انه امامك ، صاحب المهابة . . . الآن هل تقطع من ظهرك سيورا ، ام نجلدك الف وخمسمائة جلدة ؟»

والآن سوروكين لافظا عنـه هذيان الحلـم الثقيل . . . كان الواقع مظلما ، مبهما ، متلدا مهينا . . . وكان يجب البت في الامر ، ان رئيس الاركان وصديقه القديم قدم له اليوم آخر خدمة . . . تقدم سوروكين من النافذة ، حيث كانت نسمة خفيفة تحمل الهفيف الجاف للسهوب المغطاة بالافسنتين ، ولاح في السماء الكئيبة شريط قرمزي قاتم لفجر الصباح الذي لم يسطع بعد ، ومرة اخرى ظهر جبل ماشوك الضخم الليلكي . . . وتبسم سوروكين بسمـة هازئة . شكرا ، يا بيلياكوف ، على اية حال . . . لا بأس . ليذهب التردد والتخلخل الى

الشيطـان . . . وفي تلك الليلـة قرر سوروكين ان «يقامر بآخر رصيد» .

بعد ايام قليلة ، وترددات طويلة صوت المجلس العسكري الثوري لجيش القفقاس اخيرا الى جانب القيام بهجوم . نقلت قواعد المؤخرة الى سفياتوي كريست ، وتمركز الجيش في نيفينوميسكايا ، ومنها كان عليـه ان يتحرك نحو ستافروبول واستراخان ليتصل بالجيش العاشر الذي كان يحـارب بالقرب من تساريتسين . وكانت هذه هي نفس الخطة التي حملها دميتري شيليست من تساريتسين .

وعهد الى جيش تامان باحتلال ستافروبول ، وتحرك كل شيء : قواعد المؤخرة تحركت الى الشمال الشرقي ، والوحدات الاساسية نحو الشمال الغربي . وشد المرشدون السياسيون والدعاة اوتار اصواتهم وهم يرفعون معنوية الوحدات ، طارحين الشعارات المثيرة . وخرج رؤساء الطوابير الى الجبهة ، وخلت بياتيغورسك ، ولم يبق فيهـا غير الحكومة – اللجنـة التنفيذيـة المركزية لجمهورية البحر الاسود وسوروكين باركانه وحرسه . وفي معمعان الحركة لم يلحظ احد ان الحكومة قد تركت لحسن نية القائد العام .

وفي المسـاء ، اثناء عودة سوروكين الى داره بصحبة مرافقـه اطلق العنان لحصانه ، وانعطف من متنزه المدينة نحو الجبل ، وصدم بحصانه رجلا مكور الكتفين عريض التكيين في سترة جلدية . ترنح الرجل ، وامسك بوركه حيث كان يتدلى مسدس . غضن سوروكين حاجبيه بحنق ، وعرف انه غيمزا ، وكان يجب ان يكون في الجبهة . . . انزل غيمزا يده عن غلاف مسدسه . وبدت غريبة نظرة عينيه نصف المغلقتين تحت الحـاجبين . . . مثـل نظـرة بيليـاكوف في آخـر حديث . . . وفجـأة لاح صف اسنـان ابيض ضيق على وجـه غيمزا الحليـق المسـود مثل اعلى الحذاء . وجب قلب سوروكين : وهذا ايضا يضحك ! . .

لكز سوروكين حصانه بساقيه بقوة حتى انطلق الحصـان نافرا واندفع به على الحجارة المرنة الى الاعلى وسط قطيع من الاغنام عائد من المرعى ناغيا مزرجع الآلية ناشرا رائحته في الجو . كان ذلك في ليلـة الثـالث عشر من تشرين الاول . استدعى سوروكين رئيس حرسـه ، فهمس هذا ، وهو ينظر في النافذة ، ان غيمزا بالفعل قد

وصل اليوم الى بياتيغورسك ، وطلب من اللجنة التنفيذية المركزية استدعاء سريتين من الجبهة للحراسة ... «حتى الاحمق يفهم : ايها الرفيق سوروكين ، ضد مَنْ تتخذ هذه الاجراءات ...»

وبينما كانت نجوم الخريف تتألق بكل بهائها فوق بياتيغورسك الهاجعة النائمة ، وفوق جبل مَاشوك دخل حرس سوروكين بهدوء وبلا جلبة الى شقة روبين رئيس اللجنة التنفيذية المركزية وشقتي فلاسوف ودونايفسكي العضوين فيها ، والى شقة كرايني عضو المجلس العسكري الثوري ، وشقة روجانسكي رئيس اللجنة الاستثنائية ، واخرجوهم من اسرتهم ، وطلعوا بهم من المدينة والحراب مصوبة الى ظهورهم ، الى ما وراء سدة السكة الحديدية ، وهناك رموهم بالرصاص دون ان يقدموا لهم اية حجج .

وكان سوروكين في تلك الاثناء واقفا على متسطح عربته في محطة ليرمنتوفو . وقد سمع اللطقات — خمس ضربات في سكون الليل ، ثم سمع اقداما ثقيلة ، واقبل رئيس الحرس لاهثا تنفتيه . فسأله سوروكين «اذن ؟» قرد رئيس الحرس «قضي عليهم» وعدد اسماء المقتولين .

تحرك القطار ، الآن كان القائد العام يطير الى الجبهة على جناحين ، ولكن نبأ الجريمة الشنعاء طار اسرع منه . فان بعض الشيوعيين من اللجنة الاقليمية الذين حذرهم غيمزا في الامس خرجوا في سيارة من بياتيغورسك قبل سوروكين وفي الثالث عشر من الشهر دعوا الى انعقاد مؤتمر جبهوي في نيفينوميسكايا . وبينما كان سوروكين يظهر امام وحدات جيشه مهيبا مثل عاهل شرقي محاطا بمئة من الحرس والنافخين بالابواق يعلنون قدومه ، وحامل راية القائد العام يعدو في المقدمة ، اعلن المؤتمر الجبهوي في نيفينوميسكايا بالاجماع ان سوروكين خارج على القانون ، وقرر اعتقاله فورا ، وجلبه الى قرية نيفينوميسكايا ، وتقديمه للمحاكمة .

اعلن رجال جيش تامان ذلك للقائد العام وقد فتحوا ابواب عرباتهم المدفئة . فاد سوروكين الى المحطة ، وطلب استدعاء قادة الطوابير ، ولم يأت احد . ومكث في المحطة حتى هبوط الظلام ، ثم امر بأن يقدم الحصان له ، وعدا مع رئيس الحرس في السهب .

شاع اضطراب كبير في المجلس العسكري الثوري ، حيث لم يبق منه غير ثلاثة اعضاء . فان القائد العام قد اختفى في السهوب ، والجيش بدلا من ان يهاجم طالب بمحاكمته واعدامه ... الا ان الآلة المؤلفة من مائة وخمسين الف رجل ظلت تدور ، وكان من المستحيل ايقافها ... وفي الثالث والعشرين من تشرين الاول بدأ هجوم جيش تامان على ستافروبول صاحبه هجوم مضاد قام به البيض . وفي الثامن والعشرين اعلن جميع قادة الطوابير ان هناك نقصا في القذائف والعتاد ، واذا لم تجلب لهم في الغد فان النصر غير مضمون . اجاب المجلس العسكري الثوري بأن لا توجد قذائف ولا عتاد . «فاحتلوا ستافروبول بالسلاح الابيض ...» . وفي ليلة التاسع والعشرين عبر طابوران صاعقتان زحفا على قرية تاتارسكايا تحت حماية المدفعية التي كانت تقصف بالقذائف الاخيرة ، وكانت هذه القرية تبعد خمسة عشر فرسخا عن ستافروبول ، حيث كانت تمتد جبهة البيض . اطل على السهب قمر نحاسي كبير بمثابة اشارة لان الصواريخ لم تكن موجودة ... وصمتت المدافع ... سارت صفوف التامانيين نحو خنادق العدو الامامية دون ان تطلق طلقة ، واندفعت فيها . وفي الحال ارتفعت ابواق الفرق الموسيقية ودقت الطبول . وسقطت موجات كثيفة من كلا الطابورين المهاجمين على خط الاستحكام الرئيسي على انغام الموسيقى بدلا من الرصاص والقنابل اليدوية ، سابقة للموسيقيين ، متساقطة بالمئات تحت نيران الرشاشات . تراجع البيض الى التلال ، ولكن حتى هذه التلال احتلت بعد لأي يكبح . هرع العدو الى المدينة . ولاحقته وحدات القوزاق الحمراء . وفي صبيحة الثلاثين من تشرين الاول دخل جيش تامان الى ستافروبول .

وفي اليوم التالي شوهد القائد العام سوروكين في الشارع الرئيسي بصحبة رئيس الحرس ، كان يسير على جواده بهدوء ، الا انه كان شاحب الوجه مطرق العينين . وحين رآه الجنود الحمر فغروا افواههم ، وتراجعوا عنه قائلين : «من هذا الابليس من العالم الآخر ؟ ..»

ترجل سوروكين من فرسه عند مبنى السوفييت ، حيث علقت على الباب لافتة اصلف مغلوعة كتب عليها : «مقر اركان الجنرال

شكورو» ، وكان يجتمع في المبنى النواب واعضاء اللجنة التنفيذية الذين بقوا احياء . وصعد السلم بجسارة ، وسأل الجندي الذي جفل منه : «اين ينعقد الاجتماع ؟» وظهر في القاعة عند طاولة الرئاسة ، ورفع رأسه يتبسم ، وخاطب المجتمعين المندهشين الباهتين :

«انا القائد العام ، وقواتي حطمت عصابات دنيكين ، واقامت السلطة السوفييتية في المدينة وفي المنطقة ، ان مؤتمرا عسكريا اعتباطيا في نيفينوميسكايا قد اعلنني بوقاحة خارجا على القانون . فمن اعطاه الحق في ذلك ؟ انا اطالب بتعيين لجنة للتحقيق في جرائمي المزعومة . ولن اتخلى عن سلطة القائد العام قبل انتهاء اللجنة من التحقيق . . . »

ثم خرج ليمتطي جواده . الا ان ستة من جنود الفوج الثالث من جيش تامان هجموا عليه فجأة عند السلم ، ولووا ذراعيه ، ووضعوهما وراء ظهره .

كافح سوروكين بضراوة وصمت . ضربه آمر الفوج فيسليتكو بقبضة سوطه على رأسه صارخا : «هذا جزاء قتلك مارتينوف ، ايها السافل . . . »

واقتيد سوروكين الى السجن . وقلق رجال تامان خوفا من ان يهرب من السجن ، وان يتملص من المحاكمة بطريقة ما . وفي اليوم التالي ، حين جلب سوروكين للاستجواب رأى غيمزا قاعدا الى طاولة كرتيس ، فادرك انه الموت . عند ذاك تفجر في نفسه مرة اخرى الظمأ الى الحياة ، فضرب على الطاولة ، متفوها بفاحش السباب :

— انا يجب ان احاكمكم ، يا قطاع الطرق ! خرق الانضباط ، الفوضى ، ثورة معادية مخفية . . . سانكل بكم ، كما نكلت بمارتينوف الوغد .

كان فيسليتكو عضو المحكمة جالسا الى جانب غيمزا مبيضا كالورقة ، وقد وضع يده وراء ظهره ، واخرج مسدسا اوتوماتيكيا كبيرا ، وسدده نحو سوروكين مفرغا كل مشطه فيه .

لم يتحقق التقدم اللاحق من ستافروبول الى الفولغا . فان خيالة شكورو الذئبية قد نفذت الى المؤخرة ، وقطعت جيش تامان عن القاعدة ، عن قرية نيفينوميسكايا ، وركز دنيكين كل قواته

محاصرا ستافروبول . وجلبت من كوبان طوابير كازانوفيتش ودروزدوفسكي وبوكروفسكي ، وخيالة اولاغاي ، وفرقة كوبان الجديدة للخيالة التي كان يقودها مهندس التعدين السابق الذي بدأ الخدمة برتبة ضابط صغير في الحرب العالمية ، وهو الآن الجنرال فرانغل .

وحارب جيش تامان ثمانية وعشرين يوما . وهلكت الافواج تلو الافواج في الطوق الحديدي للعدو الغني بالسلاح . وبدأت الامطار ، ولم تكن ثمة معاطف ولا احذية طويلة ولا عتاد . ولا مكان يتوقع ان تأتي المساعدة منه . فان الجزء الباقي من جيش القفقاس ، المقطوع عن ستافروبول قد تراجع الى الشرق .

وترامى التامانيون من جهة الى اخرى في الطوق . وكانت ضرباتهم رهيبة مريقة للدماء . وسقط القائد كوجوخ صريع الحمى التيفوئيدية . وقتل وجرح احسن امراء وحداته ، عن بكرة ابيهم تقريبا . وفي اواسط تشرين الثاني استطاع التامانيون اخيرا خرق الجبهة ، ولم يبق من جيش تامان البطولي غير فلول هزيلة حافية عارية . غادرت ستافروبول وانسحبت باتجاه الشمال الشرقي ، الى بلاغوداتنويه ، ولم تلاحق . فقد بدأت الامطار واوقف طقس الخريف السيء هجوم البيض اللاحق .

١٣

قبل عام ، في تشرين الاول طالبت الشعوب الساكنة في روسيا بانهاء الحرب . وارتفعت ملايين التوجعات والصرخات بسقوط الحرب ، وبسقوط البرجوازية التي تطيل الحرب ، وبسقوط الفئة العسكرية التي تخوض الحرب ، وبسقوط اصحاب الاطيان الذين يغذون الحرب — واندمجت هذه التوجعات والصرخات في طلقة مؤللة قصيرة وجهها الطراد «افرورا» على القصر الشتوي .

من كان يقدر ان يتنبأ بأن هذه الطلقة التي خرقت السقف المزين بالتماثيل الرصاصية والمزهريات السوداء لذلك البيت الكريه ، نفذت الى المخدع القيصري الفارغ بسريره الذي لم يبرد بعد ، الذي كان كيرنسكي يتقلب عليه صارعا الارق الهستيري ، من كان يقدر ان يتنبأ ان هذه الضربة التي بدت ختامية ، صوت

الثورة الذى يعلن الحرب على القصور ، والسلام للاكواخ ، ستجوب البلاد الشاسعة كلها من طرف الى آخر متداخة كالصدى ، متشددة ، متعاظمة ، متنامية ، وتتفجر كالصاعقة .

من كان يتوقع ان البلاد التى القت السلاح من توها ، ستعود لترفعه من جديد ، وترتفع طبقة على طبقة : الفقير على الغنى . . . من كان يتوقـــع ان ينبثق من حفنـــة ضباط كورنيلوف جيش دنيكين الهائل ، وان تمرد قطارات التشيكوسلوفاكيين سيشعل بالحرب الف فرسخ فى حوض الفولغا ، وينتقل الى سيبريا ، ويتنامى الى ملكية كولتشاك ، وان حصارا سيطبق على البلاد السوفييتية بطوق خانق ، وان سدس العالم على الخرائط الجغرافية المطبوعة من جديد ، على الكرات الارضية فى كل بلدان العالم سيرسم كمكان فارغ — غير ملون — بلا اسم ومظلم بخط اسود عريض ؟ . .

من كان يتوقع ان روسيا العظيمة المقطوعة عن البحار ، وعن محافظات الحبوب ، وعن الفحم والنفط ، روسيا الجائعة اليائسة التى اجتاحتها حمى التيفوئيد لا تغلب ، ستضحك على اسنانها ، وترسل ابناءها مرة بعد اخرى الى المعارك الرهيبة . . . قبل عام كان الناس يهربون من الجبهة ، وبدت البلاد وكأنها تتحول الى مستنقع فوضوى لا شكل له ، ولكن ذلك لم يكن صحيحا . فقد ظهرت فى البلاد قوى التماسك الجبارة ، وطلع فوق صخائر الحياة حلم العدالة . وظهر الناس خارقون لم يكن لهم مثيل من قبل ، وجرى الحديث فى كل مكان عن العالهم بدهشة وفزع .

وهزت الفتن البلاد السوفييتية من الداخل . فى وقت واحد مع الانتفاضة فى ياروسلافل (التى انتشرت الى موروم وارزاماس وروستوف فيليكى وريبنسك) تمرد فى موسكو «الاشتراكيون الثوريون اليساريون» . وفى السادس من تموز ذهب اثنان منهم الى السفير الالمانى الكونت ميرباخ ومعهم هوية عليها توقيع مزور لدزرجينسكى . واثناء الحديث اطلقا الرصاص على السفير ، وقذفا قنبلة . وقد قتلت السفير الرصاصة الاخيرة التى اصابت علباءه حين هرب من الحجرة . وفى مساء ذلك اليوم ظهر بحارة وجنود عصر مسلحون فى منطقة تشيستيه برودى وبولفار ياوزه ، وراحوا يوقفون السيارات والسابلة ، ويفتشونهم ، ويأخذون السلاح والنقود ،

ويسوقونهم الى دار موروزوف فى شارع جالبى تريوخسفياتيتلسكى حيث يوجد مقر قائد قوات الانتفاضة . وفى تلك الدار وضع فيليكس دزرجينسكى نفسه رهن الاعتقال ، وكان قد جاء اليها بحثا عن قاتل ميرباخ . وظلت الاعتقالات تجرى المساء كله وجزءا من الليل ، واحتلت دائرة التلغراف ، الا انه لم يكن يجراون على القيام باعمال حاسمة ضد الكريملين . وكان المنتفضون حوالى الفين ، وقد اقاموا جبهة من نهر ياوزه الى تشيستيه برودى .

وصمت الكريملين فى تلك الليلة التفلوتات والاسوار القديمة . وكانت القوات مرابطة فى معسكرات فى حقل خادينسكويه ، وكان جزءا منها فى اجازة بمناسبة عيد ايفان كوبالا . وصار الجو داخل الكريملين عصبيا ، وقبيل الصباح امكن جمع زهاء ثمانمائة من المقاتلين ، وثلاث بطاريات ومدرعات ، وفى الساعة السابعة صباحا قامت القوات بهجوم ، ودمرت بالمدافـــع دار موروزوف ، مقر الانتفاضة . وحصل الكثير من الضجيج ، والقليل من الضحايا ، فقد هرب «جيش» الاشتراكيين - الثوريين اليساريين عن طريق الشوارع الفرعية والافنية الخلفية باتجاه غير معروف . واختفى من موسكو قائده بوبوف ، الشاب ذو الشفتين الغليظتين والعينين الضبوليتين . وبعد عام ظهر عند ماخنو كرئيس للاستخبارات ، واشتهر بالقسوة المرعبة .

وقضى على العصيان فى موسكو وعلى الفولغا . الا ان العصيان كان يبزغ فى كل مكان : تمرد ضد البلاشفة ، وضد الالمان ، وضد البيض . غارت القرى على المدن ونهبتها . وطوحت المدن بالسلطة السوفييتية ، وبدا عهد الجمهوريات المستقلة ، وكانت تنهض وتنفجر مثل الفطر ، وكان بعضها صغيرا يمكن ان تقطعه على فرس ما بين فجر وفجر .

وبذلت السلطة السوفييتية قصارى جهودها لتكبح الفوضوية . وفى تلك الاونة وجهت اليها ضربة فظيعة : ففى الثلاثين من آب ، وبعد اجتماع عقد فى مصنع ميخلسون اطلقت الاشتراكية الثورية اليمينية كابلان النار على لينين ، وجرحته جرحا بليغا . (وكانت من منظمة الرجل ذى الدبوس — الجمجمة) .

وفي الحادي والثلاثين ظهرت في شوارع موسكو فصيلة من الذين يرتدون الجلد الاسود من راسهم حتى القدم ، وسارت في طابور وسط الشارع حاملة معها راية على عودين كتب عليها كلمة واحدة : «الارهاب» . . . وظلت الاجتماعات العامة متعقدة في مصانع موسكو وبتروغراد ليلا ونهارا . وطالب العمال بأكثر الاجراءات حزما .

وفي الخامس من ايلول ظهرت صحف موسكو وبتروغراد بعنوان مشؤوم :

الارهاب الاحمر

«. . . يطلب من جميع السوفييتات على الفور اعتقال الاشتراكيين-الثوريين اليمينيين ، وممثلي البرجوازية الكبيرة والضباط ، واعتبارهم رهائن . . . وعند محاولة الهرب او القيام بانتفاضة اللجوء فورا الى اعدامهم الجماعي بدون قيد او شرط . . . فان حاجتنا تدعو الى تامين مؤخرتنا فورا والى الأبد من الاوغاد البيض . . . لا يجوز اي تأخير في القيام بالارهاب على نطاق جماعي . . .»

في تلك الايام كان يجري تقتير في الكهرباء في المدن ، وكانت احياء كاملة بلا نور . وكان سكان الشقق الموسرة ينظرون بفزع الى الشعرات الضاربة الى الحمرة الآخذة بالتوهج في مصابيحهم الكهربائية . . . وكانت فصائل العمال المسلحة تدخل الى هذه البيوت المضاءة اضاءة احتضار . . .

وانقضى عام ١٩١٨ مندفعا كالزوبعة الوحشية فوق روسيا . وكان الماء داكنا في سحب الخريف الجهمة . وكانت الجبهة في كل مكان : في الشمال الاقصى ، وفي الفولغا قرب قازان وفي حوض الفولغا الاسفل قرب تساريتسين ، وفي شمال القفقاس ، وعلى حدود المناطق المحتلة من قبل المانيا . ولآلاف الفراسخ كانت الخنادق تمتد وتمتد . ولم يدخل الخريف الزاحف الفرحة على قلوب المقاتلين ، وكثيرون فكروا ، وهم ينظرون الى السحب الآتية من الشمال ، بفراشهم ، حيث كانت الريح تقلع القش من السطوح ، والقراص ينمو في الافنية ، وتتعفن البطاطس في حدائق الخضروات . وما من نهاية ترى للحرب .

والمستقبل حافل بالليالي الدامسة وعود الاضاءة القديم يضيء البيوت التي ينتظر اهلها عودة الآباء والابناء وما من عودة ، ويسمعون روايات عن امور رهيبة تجعل الاطفال يبكون وهم على الرفوف فوق المواقد .

بعد القضاء على التمردات ، وكرد على الوهن الخريفي جندت اللجنة المركزية اصلب الشيوعيين في موسكو وبتروغراد وايفانوفو-فوزنيسينسك ، وارسلتهم الى الجيش . واتجهت قطارات الشيوعيين الى الجبهات محطمة في طريقها تخريبات الطرق الحديدية المتعمدة وغير المتعمدة . ونفذ الارهاب الصارم الى الجيش . وتكونت من الفصائل الممزقة افواج تخضع لارادة واحدة هي ارادة المجلس العسكري الثوري . وصارت الشجاعة والبسالة الزاما لكل واحد . واعتبر الجبن صنو الخيانة . وتحولت الجبهة الحمراء الى الهجوم . واستولى بضربة قصيرة على قازان ، ومن بعدها سامارا . وهربت فصائل البيض مذعورة امام الارهاب الاحمر . وبالقرب من تساريتسين ، حيث كان ستالين عضو اللجنة العسكرية الثورية للجيش العاشر حدثت معركة هائلة دامية ضد جيش القوزاق البيض للاتمان كراسنوف الذي كانت القيادة العامة الالمانية تموله وتحرضه . . .

ولكن كل ذلك لم يكن الا بداية لكفاح عظيم واستعراضا للقوى قبيل الاحداث الرئيسية لعام ١٩١٩ .

ادى ايفان ايليتش تلبغين المهمة التي اوكلها له تيمزا ، وعين اثناء المعارك قرب قازان آمرا لفوج ، وكان من اوائل الذين شقوا طريقهم الى سامارا . وفي يوم خريفي حار سار على حصان هزيل اشعث على راس فوجه في شارع دفوريانسكايا . ومر بالساحة التي فيها نصب الكسندر الثاني الذي كانوا يغطونه على عجل مرة اخرى بالالواح الخشبية . . . وهذا هو البيت الثاني بعد المنعطف . . . وخفض ايفان ايليتش راسه ، فقد كان يعرف ماذا سيرى . ومع ذلك فقد عصرت الوحشة قلبه . كان زجاج نوافذ شقة الدكتور بولافين في الطابق الثاني محطما كله . وكان يرى جيدا من على صهوة حصانه الباب من خشب الجوز ، الذي ظهرت منه داشا حينذاك ، وكان ذلك في حلم ، وغرفة المكتب ، ودولاب الكتب المقلوب ، وصورة منديليف المعلقة على الجدار بانحراف وقد تهشم زجاجها . . . اين داشا ؟ ماذا حصل لها ؟ لا احد ، بالطبع ، كان يستطيع ان يجيب عن ذلك .

alexandra.ahlamontada.com

منتدى مكتبة الأسكندرية

الكسي تولستوي

درب الآلام

ثلاثية

الكتاب الثالث

صباح غائم

دار التقدم

موسكو

ترجمة غائب طعمة فرمان

A. Толстой

ХОЖДЕНИЕ ПО МУКАМ

Трилогия

Книга третья

ХМУРОЕ УТРО

На арабском языке

طبع في الاتحاد السوفييتي

T $\frac{70302-694}{014(01)-76}$ 594—75

«ولنعش منتصرين او لنمت امجادا»

سفياتوسلاف *

١

كان شخصان – رجل وامراة – جالسين عند نار موقدة. وريح باردة تهب على ظهريهما من منخفض فى السهب ، صافرة فى سيقان القمح التى تساقطت حبات سنابلها منذ زمن بعيد . كانت المراة تضع قدميها تحت تنورتها ، حاشرة كفيها فى كمى معطفها من القماش السميك . وكان لا يرى من تحت منديلها الصوفى النازل على عينيها غير انفها المستقيم وشفتيها المزمومتين بعناد .

لم تكن النار كبيرة ، مجرد اقراص مجففة من الروث جمعها الرجل مؤخرا من حول ابقار جاءت تشرب الماء من المنخفض . وكان اشتداد الريح يضايقهما .

– من الاروح جدا الاستمتاع بجمال الطبيعة تحت فرقعة الحطب فى موقد ، وانت تنظرين فى النافذة ساهمة . . . يا الهى ، ما اوحش السهب ! . .

قال الرجل ذلك بصوت خافض وبارتياح خبيث . ادارت المراة نحوه حنكها ، الا ان شفتيها لم تنفرجا ، ولم تجبه . كانت متعبة من السفر الطويل ومن الجوع ، ومن افاضة هذا الرجل فى الحديث ، ونفاذه بتباه الى اعمق بواطن افكارها . دفعت راسها الى الوراء قليلا ، ونظرت ، من تحت منديلها المنزل ، الى الغروب الخريفى الكابى من وراء التلال التى لاتكاد تلحظ . ويمتد خطا نحيلا لا يضى السهب الخالى المقفر .

---

* امير دولة كييف عرف بشجاعته الفائقة . (الناشر) .

– سنشوى البطاطس الآن ، يا داريا دميتروفنا ، فرحة للقلب والجسد . . يا ربى ، ماذا كنت تفعلين لو لم اكن معك !

وانحنى ، وشرع يختار امتن اقراص الروث ، ويقلبها بين يديه ، ويضعها بعناية على النار . .جوّف جزءا من الجمر ، وشرع يدفن البطاطس فيه ، مخرجا اياها من جيوب معطفه العميقة . كان له وجه محمر يرتسم عليه مكر شديد – بل وخبث – ذو أنف لحيم مفلطح فى ارنبته ، ولحية هزيلة ، وشاربين نحيلين ، وشفتين متمطقتين .

– انا افكر فيك ، يا داريا دميتروفنا . تنقصك الوحشية وروح التشبث ، بينما حضارتك سطحية ، يا عزيزتى . . . انت تفاحة محمرة حلوة ، ولكن غير ناضجة .

كان يقول ذلك ، وهو منشغل بالبطاطس التى سرقها من حديقة خضروات ، اثناء مرورهما بعزبة فى السهب . وكان منخرا انفه اللحيم اللامع من الحرارة يرتعشان بنباهة ومكر . كان هذا الرجل يدعى كوزما كوزميتش نيفيدوف . وقد اضجر داشا ضجرا شديدا بثرثرته وحدسه للافكار .

وكانا قد تعرفا قبل بضعة ايام فى قطار كان يسير بجدول مواعيد غريب ، وخط سير عجيب ، ثم اخرجه القوزاق البيض عن الخط .

وقد بقيت العربة الاخيرة ، التى كانت داشا تسافر فيها ، على السكة ، الا أنها تعرضت لنار رشاشة فهرب كل من كان فيها هائما فى السهب ، فقد كان لامحالة من نهب المسافرين والتنكيل بهم ، كما جرت العادة فى ذلك الوقت .

وكان كوزما كوزميتش قد وضع بصره على داشا وهما فى العربة ، فقد اعجبته بشىء ما ، رغم انها لم تنجذب الى الاحاديث الصريحة . والآن ، وهما فى السهب المقفر عند الفجر تشبثت هى به . كان الوضع حرجا . فقد كانت الطلقات والصيحات تسمع من المكان الذى انقلبت فيه العربات على المنحدر ثم شب لهب طرد ظلالا داكنة من مجاميع الارقطيون القديمة واجمات الافسنتين اليابسة التى مسها الجمد . فكيف كانت تجد طريقها فى هذا السهب الشاسع ؟

وبينما كان كوزما كوزميتش يسير الى جنبها فى الفجر المخضوضر ، حيث كانت تتسرب رائحة دخان موقد كان يناقش على هذا النحو : «فضلا عن أنك فزعة فانت ، ايتها الحسناء ، تعيسة ، كما يبدو لى . وانا رغم التقلبات العديدة ، لم اعرف التعاسة قط بل ولا حتى الضجر . . . كنت كاهنا ، ولكننى جردت من لباس الكهنة لحبى للتفكير الحر ، واودعت الدير . وها انا اضرب «فى الارض» كما يقول التعبير القديم . فاذا كان الانسان بحاجة ، لكى يسعد نفسه ، الى فراش دافئ لا محالة ، والى مصباح هادئ ، ورف من الكتب وراء ظهره فانه لن يعرف ما تعنى السعادة . فانها لمثل هؤلاء الناس الغد دائما ، ولكنهم فى يوم ما لن يجدوا غدا ولا سريرا . فلن يبقى لديهم سوى حسرة ابدية . . . ها أنا اضرب فى السهب ، وانفى يشم رائحة خبز طازج . ومعنى ذلك ان فى تلك الناحية ضيعة . ثم سرعان ما نسمع نباح الكلاب . يا الهى ، ما اروع الفجر ! والى جانبى رفيق سفر فى هيئة ملاك يئن ويثير شفقة قلبى ، والرغبة فى الانطلاق . فمن انا اذن ؟ أنا اسعد انسان . فى جيبى كيس ملح دائما ، وفى حدائق الخضروات توجد بطاطس دائما . ثم ماذا ؟ عالم زاه تتصادم فيه العواطف . . . لقد فكرت كثيرا جدا ، يا داريا دميتروفنا بمصير مثقفينا وينبغى ان اقول لك ان هذا كله ليس شيئا روسيا . . . ولهذا ذرته الريح ، فاصبح يبابا ، مع الاسف . . . اما أنا ، الكاهن المخلوع ، فانال مبتغاى من الصبوات ، وانوى أن استمر فى ذلك زمنا طويلا . . .»

ولو لا هو لهكلت داشا . فلم يكن يخيب فى حال من الاحوال . عندما وصلا عند مطلع الشمس الى عزبة تقف فى السهب الأجرد الخالى ، اسطبل خيولها فارغ ، وسقف فنائها الطينى محروق ، لقيهما عند البئر قوزاقى اشيب حانق يحمل بندقية . صاح وقد لمعت عيناه الوضاءتان المجنونتان من تحت حاجبين معقودين : «انصرفا !» استطاع كوزما كوزميتش ان يضلل هذا العجوز بخفة قائلا «وجدت من تصيح عليه ، يا جد . آه ، آه ، يا ارضى العزيزة ! نحن نجرى ليلا ونهارا هاربين من الثورة ، وقد تقرحت اقدامنا ، وتشقق لساننا من العطش . فاعمل معروفا ، واقتلنا ، فطريقنا مسدود ، على اية حال» . وظهر ان العجوز لم يكن فظا ، بل دامع العينين . وقد

جند ابناه في فيلق ماموتتوف ، وتركت كنتاه العزبة الى القرية . ولم يفلح الارض في تلك السنة . ومر" الحمر ، واخذوا الحصان لقصد التعبئة . ومر" البيض وفعلوا الشيء نفسه مع الدواجن . فبقي وحده في عزبته ، وليس لديه غير قطعة من الخبز المخضوضر ، وبعض التبغ المتبقي من السنة الماضية . . .

استراحا في بيته ، وفي الليل واصلا السير متجهين صوب تسارتسين التي كانت اسهل طريق للنفاذ الى الجنوب . كانا يسيران ليلا ، وينامان نهارا وغالبا في اكوام الدريس المتخلفة من العام الماضي . وكان كوزما كوزميتش يتحاشى الاماكن الآهلة . ذات مرة اطل من تل على قرية قوزاقية تمتد بيوتها البيضاء على جانبي بركة طويلة ، فقال :

— ان تجمع من الناس في هذه الايام قد يكون خطرا ، لاسيما للذين لا يعرفون ماذا يريدون . ان ذلك غير مفهوم ومثير للريبة الا يعرف الفرد ماذا يريد . ان الانسان الروسي حار ، يا داريا دميتريوفنا ، ومغرور ، ولا يحسن تقدير قواه . اعطيه مهمة — تبدو اكبر من طاقته ، ولكنها مهمة عظيمة — فستريه ينحني لك اجلالا . . . ولكن حاول ان تنزل الى قرية فستريهم يمطرونك باسئلة . فبماذا ستجيبينهم ، ايتها المثقفة ؟ بانك لم تستقري على راي في موضوع واحد ؟ . .

قالت داشا بخفوت :

— اسمع ، اتركني وشاني .

ورغم ممانعتها اعتزازا وكراهة فقد استطاع كوزما كوزميتش ان يستقصي منها كل شيء : عن ابيها الدكتور بولافين ، عن زوجها الآمر الأحمر ايفان ايليتش تليغين ، عن شقيقتها كاتيا «القاتنة الوديعة النبيلة» . وذات مرة استيقظت داشا في غسق صاف من نوم مريح على القش ، وذهبت الى الجدول ، واغتسلت ، ومشطت شعرها ، الذي تبعثر تحت المنديل الصوفي ، ثم اكلت ، وانشرحت وقالت فجاة ومن تلقاء نفسها وبدون ان تسأل :

— . . . ساقول لك كيف حدث ذلك . . . لم استطع ان اعيش في بيت ابي اكثر من ذلك . . . انت تعتبرني طفيلية ، ولكن دعني اقول لك ان رايي في نفسي اسوا من رايك بكثير . . . ولكنني

لا استطيع احتمال الشعور بانني مهانة وبانني اسوا من الجميع . . .

تمطق كوزما كوزميتش ، وقال :

— مفهوم .

قلصت داشا عينيها على النار ، وقالت :

— لا ، لم تفهم شيئا . . . ان زوجي جازف بحياته ليراني لحظة واحدة . انه انسان قوي الشكيمة شجاع شديد العزيمة . . . اما انا . . . فهل تستحق مخلوقة مثلي ان يجازف امرؤ بحياته من اجلها ؟ وبعد هذا الحادث ضربت راسي في افريز النافذة . وكرهت ابي . . . لانه المذنب في كل شيء . . . فاي رجل حقير تافه هو ! وعزمت على السفر الى يكاترينوسلاف ، والبحث عن اختي كاتيا . فقد كان في وسعها ان تفهمني وتساعدني ، ان كاتياي هذه ذكية مرهفة كالوتر . لا تضحك ، ارجوك . فانا اريد ان افعل شيئا اعتياديا شريفا ضروريا . . . ولكن لا اعرف بم ابدا . انما ارجوك الا" تثرثر الآن عن الثورة . . .

— لست عازما على الثرثرة ، يا روحي . بل اصغي بانتباه واشعر بعطف .

— اترك هذا العطف . . . في ذلك الوقت كان الجيش الأحمر قد اقترب من سامارا . وهربت الحكومة — كان شيئا مقرفا . . . وطلب ابي بان اسافر معه . وجرى بيننا نقاش . واظهر كل واحد منا ما في قرارة نفسه . وارسل ابي في طلب الحراس : «ستشنقين ، يا عزيزتي !» وبالطبع ، لم يات احد . فقد هرب الجميع . وخرج ابي الى الشارع وليس معه غير محفظته للاوراق . اما انا فهتفت له من النافذة بآخر كلماتي . . لا يكره الانسان احدا كرهه لوالده ! وبعد ذلك لففت راسي بالمنديل ، وارتميت على الاريكة انتحب ! وبذلك انقطعت كل حياتي الماضية . . .

وهكذا سارا في السهب مارين بالقرى التي اثارتها الحرب الاهلية ، لا يكادان يلتقيان بالناس ، ولا يعرفان ان احداثا دموية كانت تجري في تلك الاماكن : كان جيش الدون القوزاقي العظيم المؤلف من خمسة وسبعين الف نفر قد عاد لمحاصرة تسارتسين بعد اخفاقات آب .

قال كوزما كوزميتش ، وهو يحفر في الرماد ليخرج البطاطس :

– اذا كنت منهوكة ، يا داريا دميتروفنا يمكننا ان نستريح في هذه الليلة ، فليس بنا حاجة الى الاستعجال . لكننا اخترنا مأوى سيئا . فان الريح الهابة من المنخفض لن تدعنا ننام . من الافضل ان نسير بهدوء تحت النجوم – ما ابدع العالم ! – ورفع وجهه الأحمر الماكر ، وكأنه يتأكد من ان كل شيء على ما يرام في مملكة السماء – أليست تلك معجزة من المعجزات ، يا حلوة ، ان يسير مخلوقان في الكون ، يتابعان بذهن مدقق ، تعاقب الظواهر ، وكل ظاهرة ادهش من الاخرى ، يصلان الى استنتاجات لا تلزمهما بشيء ، يشبعان جوعهما وعطشهما ، ولا يكرهان ضميرهما على شيء . . . لا ، لا تستعجل ان تنتهي الرحلة بسرعة .

واخرج كيس الملح من جيبه ، ووضع بطاطسة على كفه وقلبها نافخا على اصابعه ، وشطرها وناول داشا شطرا .

– طالعت كمية هائلة من الكتب ، وثقلت على ذهني بلا نظام . حررتني الثورة من سجن الدير ، وقذفتني الى الحياة بشكل خال من الرقة تماما . واعطاني رئيس ميليشيا منطقة سارانوف ، وهو رجل ذكي جدا بقيت محبوسا عنده اسبوعين ، بطاقة هوية كتبها بخط يده : المهنة : طفيلي . التعليم :علم زائف ، العقيدة :بلا مبدأ . وهكذا ، يا داريا دميتروفنا ، عندما وجدت نفسي بلا شيء غير كيس ملح في الجيب ، حرا تماما ، ادركت معجزة الحياة . وبدأت المعارف غير المجدية التي تربك ذاكرتي تتبدد ، والكثير منها بدا مفيدا ، حتى من حيث القيمة التبادلية . . مثلا دراسة كف الانسان او قراءة الكف . فانا مدين كليا لهذا العلم في الحصول على احتياطي الدائم من الملح .

لم تستمع داشا اليه . ان شيئا ما ، ربما هو صفير الريح الخفيف في اعواد القمح ، كالحنين الشريد ، جعلها تود كثيرا لو تبكي ، فكانت تلوي عنقها دائما لتنظر الى الغروب الموحش ، استولى عليها اليأس من تلك الرحابة اللامتناهية التي كان عليها ان تقطعها بحثا عن ايفان ايليتش ، بحثا عن كاتيا ، بحثا عن نفسها هي . ولعلها كانت ستجد في الزمن القديم لذة في اشفاقها على نفسها في عجزها هذا ، في ضآلتها ، في ضياعها في السهب البارد . . . لا ، لا ! تناولت داشا قطعة البطاطس من كوزما كوزميتش ومضغتها

بالمة اياها مع دموعها . . . وتذكرت كلمات من رسالة كاتيا التي تسلمتها في بتروغراد «الماضي مات ، انقضى الى الأبد ، يا داشا» .

– والى جانب الانقطاع التام عن الحياة ، فان الاستعجال المعدم النفع ، الانشغال بالتوافه احدى نواقص مثقفينا ، ياداريا دميتروفنا . . . الم تلاحظي مرة كيف يمشي ذوو المهنة الحرة ؟ كيف يطأ ليبرال الأرض بساقيه الرفيعتين في نفاد صبر ، وكأنه يسير على نار . . . الى اين ، ولماذا ؟

ان هذا الرجل المزعج كان لا يكف عن الكلام مظهرا نفسه .

– لا ، يجب ان نواصل السير بالطبع . لنذهب .

قالت داشا وشدت منديلها الصوفي على رقبتها بكل قوتها . نظر كوزما كوزميتش اليها متفحصا . وفي ذلك الحين لمعت ومضات في ظل المنخفض الدامس ، وترددت طلقات .

ما كادت الرصاصات الاولى تطلق حتى ردت الحياة للسهب المقفر الذي تلاشى فوقه خط من الغروب في السحب البعيدة . لم تلحق داشا ان تقفز ، وهي تمسك بطرفي منديلها . واسرع كوزما كوزميتش الى اطفاء النار بقدميه ، الا ان الريح اشتدت ، فتطايرت الشرر . فأضاء فرسانا منطلقين . كانوا منحنين على رقاب افراسهم يسيطرونها مبتعدين عن الطلقات من المنخفض .

ومر كل شيء مندفعا ، وهدأ . ولم يبق الا قلب داشا يخفق بجنون . اخذ صراخ يتقاطر من المنخفض . وفي اللحظة التالية انثال من هناك رجال مسلحون . كانوا يتحركون بحذر ، منبسطين في السهب . التفت اقربهم نحو النار ، وصاح بصوت فتي متكسر «اي ، من انتما ؟» رفع كوزما كوزميتش يديه فوق رأسه ناشرا اصابعه طيعا . تقدم شاب في معطف جندي . «ماذا تفعلان هنا ؟» وادار بوجهه ذي الحاجبين الداكنين ، المتهيىء لكل طارىء نحو الجالسين عند النار «جاسوسان ؟ من البيض ؟» ودفع كوزما كوزميتش بالخمس ببندقيته دون ان ينتظر جوابا : «هيا ، حدثني ونحن سائرون . . .»

– لسنا الا . . .

– ما هذه «الا» ! الا ترى اننا في معركة !

لم يحتج كوزما كوزميتش ، وتابع سيره مع داشا تحت

كان ايفان غورا منطرحا على وجهه كبيرا طويلا وقع حالما خرقت الرصاصة قلبه ، باسطا ذراعيه ، وكأنه يحتضن الارض كلها ، لا يريد ان يعطيها للعدو حتى في موته .

اجتمع الرجال القدامى من فوج كالشالين من الذين عرفوا ايفان غورا منذ ان كان جنديا احمر ، ثم آمر سرية ، اجتمعوا ليلا في العراء ، وتشاوروا في دفن المفوض في مكان بارز مشهود ، على رابية عالية تطل على شاطىء مانيتش .

كانت الروابي في ذلك المكان كثيرة متناثرة ، ولكن هذه الرابية مرتفعة كالتل . ولعلها في الزمن القديم قد رفعت لخيمة الخان لترى من الاعلى الى مسافة بعيدة ارعال الخيل الغفيرة العديدة في السهب . ولربما في زمن اوغل في القدم دفن السكيثيون تحتها زعيمهم مع جواده وزوجته المحبوبة ، ووضعوا في الاعلى اغصان الصفصاف صفوفا وغرزوا سيفا برنزيا ضخما موجها حده الى السماء . كانوا يعبدونه كاله الخصب والسعادة .

عبّروا المفوض ايفان غورا النهر حاملين اياه بايديهـــم ، ووضعوه فوق الرابية على العشب الربيعي ، ومشطوا شعره ، وغطوا جثمانه الطويل براية الفوج .

كان الليل ساجيا ومنيرا بضوء القمر . ووقف ايفان ايليتش عند قدمي المفوض وسيفه مجرد ووقف عند رأسه بابوشكين مفوض السرية الاولى ، والشيوعي من بتروغراد . ومر المقاتلون الحمر به فردا فردا مودعين ، وكل واحد يحييه ببندقيته .

– وداعا ، يا رفيق . . .

وحين ودعه الجميع ، وحان وقت انزال المفوض في قبره ، صعد لاتوغين الى الرابية ثانية وصاح :

– اليوم قتل اعداؤنا الالداء افضل رفاقنا . . . لقد علمنا ، لاى شيء اعطيت لي هذه البندقية . . . لنقاتل في سبيل الحق ! من اجل هذا هي في يدي . . . وقد كان هو نفسه رجل حق ، رجلنـــــا حتى الجذر . . . لقد علمنا : اذا كانت امك قد ولدتك ، فقد صرخت في الدنيـــا ، وليس لك من قضيـــــة غير الكفـــاح من اجـــل الحق . . . وانا ارجو من آمر الفوج والمفوض بابوشكين ان يقبلا مني

طلب التمالي الى الحزب . . . وانا اقول ذلك بالخلاص ، امام هذا الجثمان ، امام الراية . . . .

. . . .

دفن المفوض ، وفي ساعة متأخرة من الليل دعت داشا ايفان ايليتش من المخبأ ، وقالت وهي تفرقع باصابعها :

– اذهب اليها ، ارجوك ، وخذها .

وقادت ايفان ايليتش الى الرابية . وكان الليل قد احلولك قبيل الفجر ، اختفى القمر ؛ والريح السهبية تصفر قرب الاذن .

– تعذبنا انا واليسيا ، ولكنها لا تصغي لشيء . . . .

كانت اغريبينا جالسة على تلة قبر ايفان غورا على الرابية وقد خفضت راسها بعبوس ، وقبعتها وبندقيتها بالقرب منها . وكانت انيسيا تجلس على مبعدة منها .

همست داشا :

– انها كالمتحجرة ، والشيء الاهـــم انتزاعهـــا من هناك وجلبها – واقتربت داشا من اغريبينا – انظري ، ان آمر الفوج ايضا يطلب منك .

لم ترفع اغريبينا راسها . كانت كلمات الناس تمر بها كالريح المتطايرة فوق القبر . انزلت اليسيا وجهها على ركبتيها وهي ما تزال جالسة على مبعدة . سعل ايفان ايليتش وقال :

– هذا لا يجوز ، يا اغريبينا ، قريبا سيطلع الفجر ، وسننتقل جميعا الى الضفة الاخرى ، فهل تبقين وحدك . . ليس ذلك صحيحا . . .

تمتمت اغريبينا بصوت باهت ، دون ان ترفع رأسها :

– قبلئذ لم اتركه ، والآن ايضا . . . الى اين اذهب ؟

همست داشا ثانية مشيرة الى جبينها :

– اتفهم ؟ . . رأسها مضطرب . . .

– لنفكر ، يا اغريبينا – وجلس ايفان ايليتش مقرفصـــا بالقرب منها – انت لا تريدين تركه . . . أحقا هذا كل ما تبقى من ايفان ستيبانوفيتش ؟ سيعيش في ذاكرتنا ، ويلهمنا الشجاعة . . . فافهمي ذلك . . . انت زوجته ، يا اغريبينا . . . وفي رحمك بذرته ما تزال تنمو . . . .

رفعت اغريبينا يديها وضمتهما بالقرب من وجهها وانزلتهما :

انفرجت شفتا داشا ، وتدنت منه بحركة الدفاع ، كما يحدث ذلك معها دائما ، وقبلته من خده الحار الخشن . فوجىء الجندى بذلك ، فنظر الى داشا رامشا ... ونهض ، وامسك بالبندقية ، وابتعد ملقيا حزام البندقية على كتفه . وقال مهددا :

– اتركى ذلك ، فانه لن يساعدك ، ايتها المواطنة .

سالت داشا بلهفة :

– ما الذى يساعدنى اذن ؟ انت وجدت ما تفعله . اما انا فلم اجد . . . لقد هربت من تلك الحياة كالمجنونة . هربت لأجد سعادتى . وانا احسدك . . ليتنى اشد الحزام على معطف عسكرى مثلك !

وقد استبد بها الاضطراب حتى انها القت المنديل من راسها ، وعصرت نهايتيه بقبضتيها بكل قوتها .

– كل شىء عندك واضح وبسيط . . . من اجل اى شىء تحارب ؟ لكى تستطيع المرأة ان تنظر الى هذه النجوم دون ان تبكى . . . وانا ايضا اريد مثل هذه السعادة .

كانت تتحدث ، وهو يصغى دون ان يحاول ايقافها ، وقد اربكته هذه العاطفة غير المفهومة . وفى تلك اللحظة خرج من الكوخ آمر الفصيلة ، ونادى بصوت عميق :

– هاى ، الغريبينا ، اجلبى الوافدين هنا .

كان قائد الفوج وآمر الفصيلة ، وكلاهما فى معطف عسكرى وقبعة ذات حافة ناتئة ، يجلسان عند طاولة فى الكوخ واضعين مرفقيهما امام سراج نفطى . وكان قائد الفوج ذو العينين اللامعتين المتباعدتين يضع غليونا بين اسنانه ، وكان وجه الثانى قد لفحته الريح فاضحى كقشرة شجرة . طلب آمر الفصيلة من داشا وكوزما كوزميتش الواقفين عند الباب ان يقتربا قليلا .

– لماذا كنتما فى السهب فى مواقع القوات ؟

وكانت عيناه تحدقان فى عيونهما . ومن تلك النظرة احست داشا بوهن مفاجىء ، وتمتمت بشفتيها الجافتين :

– سيتحدث هو . فهل يمكن ان اجلس ؟

وجلست ماسكة بحافة المسطبة ، ناظرة الى السراج يرف فى قحف من فخار . وبدا كوزما كوزميتش يتحدث متمطقا وهو

يحرك قدميه بعصبية ، كيف وجد داريا دميتروفنا فى السهب ، وكيف سارا نحو الدون مفكرين فى الغالب بمواضيع سامية . وتحدث بتفصيل عن هذا الجانب من رحلتهما لاهثا مستعجلا حتى لا يقاطع . الا ان الآمرين ظلا جالسين وراء المنضدة مثل عملاقين .

– انه لشىء عظيم ، ايها المواطنان الآمران ، ان يفكر الانسان بامور عظيمة . ماذا اريد ان اقول بذلك ؟ شكرا للثورة على انها صرفتنا عن الاشياء التافهة الكئيبة ان الانسان ، المخلوق المساوى للإله ، المعد لتحقيق المهمات الرفيعة يحرك مثل اورفيوس الحياة فى الصخر باوتار مزهره ، ويطوع جنون الطبيعة الوحشية – كان هذا الانسان يلطخ اوراق النقد وفكره بضوء فتيلة داخنة بحثا عن سبل احلق لخدع جاره . . . شكرا لكم لتحطيمكم معيشتنا التعيسة ، ويا للعنة على ذكراها ! . . لم يبق شىء يلطخ ، وعليك ، اردت ام لم ترد ان تدير فكرك الى المواضيع الرفيعة . . . وهذا هو اثبات لا خلاص هذا (واخرج كيس الملح) . . . هذا هو الشىء الوحيد الذى املكه فى الدنيا ، ولا احتاج الى شىء آخر . البقية اما ان اطلبها او اسرقها . ولكن اريد ان اناقشكما ، ايها المواطنان الآمران . . . انتم تحاربون فى سبيل سعادة الانسان ، ولكن الانسان غالبا ما تنسونه ، وهو عندكم يسقط بين السطور . . . لا تفصلوا الثورة عن الانسان ، لا تجعلوا منها فلسفة تجريدية ، لان الفلسفة دخان يختفى بعد ان يتخذ شكلا غريبا . . ان ما يفسر اهتمامى فى مصير هذه المرأة هو التى تصفحت فيها رواية شاعرية جذابة ، وهى ، بالمناسبة ، ما اجده فى كل انسان اذا نظرت اليه بحب استطلاع ، وبتعطش . . . لأنه الكون نفسه يظهر امامكم فى معطف مهلهل وحذاء مستهلك .

قال قائد الفوج نافثا الدخان :

– حديث ماكر .

وقال آمر الفصيلة بعده :

– ارنى اوراقكم .

تناول الهويتين من كوزما كوزميتش وداشا ، وقدم السراج ، وانحنى كثيرا ، وبلل اصبعه وورق الهويتين بعناية ، وكان قائد

يريد فقط ان يصور الشيء الكبير المحسوس الذى حصل لها فى السهوب ، ولكنها لم تستطع التعبير عنه) وحين وصلنا الى هنا بدا وكاننا عائدون من مهرجان . واليوم اعلنت اننى خطيبتك ، وقد اعلنت ذلك عن قصد . . فانتهى كل شيء . . . فماذا بعد ؟ انجاب الاطفال . . . ستبنى بيتا ، وعن قريب ستكون ميسور الحال ، ثم ثريا . . . انا عرفت كل ذلك ، وقد خلفته فى الجانب الآخر . . . كان ذلك فى بطرسبورغ ، وكان ذلك فى موسكـــو ، وكان فى باريس ، والآن يبدا من جديد فى قرية فلاديميرسكويه .

وكان مثل هذا الضيق فى يديها المطروحتين على ركبتيها ، وفى راسها المنكس بمفرقه الواضح وشعره الكستنائـــى الداكن كالرماد . حتى قلص الكبى عينيه بشدة . . . طار طائـــر النار هذا ، وافلت من يديه . . . قال خافت الصوت :

— انت حمقاء جدا ، يكاترينا ديميتريفنا . مبلبلة الفكر . . . اتريدين ان تخوضى فى الدم مثل اخى سيميون ؟ استغربت من احاديثك هذه . . . لا ، مع ذلك ، لن اتركك تذهبين . . .

١٣

سافر ايفان ايليتش وداشا الى الفوج ونزلا فى بيت معطل بالطين فى مزرعة . وكانت غرفة استقبـــال تليغين المزودة بتلفونات وصندوق للنقـــود وراية موضوعة فى قرابها على مقربـــة فى الجانب الآخر من الرواق . ولكن هنا توجد مملكة داشا وحدها : موقد دافىء لم يستخدم للطهى ، الا ان داشا كانت تغتسل فيه متمددة على القش داخله ، كما علمتها القوزاقيات ، وسرير عليه وسادتان قاسيتان وبطانية خفيفة (كان ايفان ايليتش يتغطـــى بمعطفه) ، ومائدة مغطاة بقماش نظيف كانا يتناولان الطعام عليها ، ومرآة صغيرة معلقة على الحائط ، ومكنسة عند عتبة الباب ، وعلى كوة فى تجويف الموقد المجصص تقف القطة والكلب من الخزف الصينى .

قبل عامين كانت داشا وايفان ايليتش وهما فى غمرة الحب والانطلاق قد اقاما فى وضع كهذا ايضا . ولم يغب عن ذاكرة داشا قط المساء الاول الذى قضياه فى شقتهما الجديدة بنوافذهـــا

المفتوحة على شارع كاميتو اوستروفسكى المضمخ بطراوة المطر . وكانت تحس بصفاء وهدوء طهريين . وكان ايفان ايليتش يجلس عند النافذة فى الغسق ، وقد احست انه مرتبك الى حد العذاب ، فقررت ان تاخذ المبادرة بنفسها عارفة ان ذلك سيدخل سرورا عظيما الى قلبه ، فقالت : «نلعب ايفان» . ودخلا لغرفة النوم حيث كانت باقة كبيرة من الميموزا فواحة برائحة عذبة موضوعـــة فى علبة على الارض . فتحت داشا باب الدولاب ، وخلعت ثيابها وراءه ، وعبرت الغرفة حافية ، واندست تحت البطانية ، وسالت بلهجـــة سريعة «ايفان ، هل تحبنى ؟»

كانت داشا لا تعرف شؤون الحب ، ولو انها انشغلت فيها اكثر من اللازم . وما حدث فى ذلك المساء بينها وبين ايفان ايليتش خيب ظنها . انه لم يكن ذلك الشيء الذى كتب من اجله هذا العدد الضخم من القصائد والقصص الغرامية والموسيقى ، تلك القوة السحرية التى تثير النشوة والدموع ، تلك القوة التى كانت تحس بها وهى جالسة وحيدة فى شقة كاتيا الفارغة تعزف على البيانو «لستينوى» الاسود ، فاذا بها تقطع الموسيقى فجاة ، وتنهض ، وتشبك اصابعها ، ولو لم يكن جسدها كله فى تلك اللحظة باردا شفافا كالزجاج لخنقها ، فى اغلب الظن ، ذلك الذى يعتمـــل فى نفسها ويفور .

وبعد ذلك بقليل من الوقت حملت داشا . وقد احبت ايفان ايليتش كثيرا ، ولكنها اخذت تبعده عنها ، ثم بدات الاشهـــر الرهيبة — المجاعة وظلام خريف بتروغراد ، والحادث الوحشى عند قناة ليباجى الذى انتهى بولادة قبل الاوان ، وموت الطفل ، والرغبة الوحيدة فى ان تفارق الحياة ، ثم الفراق .

والآن بدا كل شيء من جديد . كان شعورهما اكثر تعقيدا واعمق من ذلك العشق القديم الاثيرى الذى بدا معه كل شيء الغازا واحاجى ، كما فى صندوق سحرى شديد التزويق فيه هبات غير معروفة . لقد عانى الاثنان اشياء كثيرة ، ولم تتح لهما الفرصـــة بعد لان يعطى احدهما للآخر تجربته . كان حبهما الآن — ولا سيما بالنسبة لداشا — ممتلئا ومحسوسا كالهواء فى اوائل الشتاء ، حين تكون عواصف تشرين الثانى قد ولت وبواكير الثلج تحمل فى

غدا . يمكنك ان تستقرى هنا . اخرجى الى الرواق وستجدى مطبخا . ونامى هناك بهدوء .

سارت داشا ووراءها كوزما كوزميتش – الذى يبدا ان الآمرين لم يعودا يهتمان به – عبر الرواق ودخلا مطبخا فارغا دافئ . نصح كوزما كوزميتش داشا بان تصعد وترقد على سطح الموقد : «دفئى عظامك ، ونامى فى ليلة مقدار ما نمته فى اسبوع . دعينى ، اساعدك ، يا عزيزتى . . .»

صعدت داشا الى سطح الموقد بصعوبة ، وفكت منديلها ، ووسدته خدها ، وغطت جسمها بالمعطف ، ساحبة رجليها . كان المكان مريحا وفيه رائحة آجر دافئ ودخان خبز . صرصر جدجد . . . ساكن المواقد الدائم . ولم يدع داشا تنام رأسا . غشاها النوم بسنة رقيقة ، والجدجد يصرصر مطرزا نومها بخيط رمادى . . .

وتخيلت أن بندول الايقاع يدق ، وانها تجلس الى البيانو ، وقد ارخت يديها خدرا . وقلبها يخفق مذعورا من الانتظار ، ولكن لم تسمع خطوات المحبوب ، المعبود – لا شئ غير صرصرة الجدجد – يطرز نومها خيطا وراء خيط . . .

وتردد صوت فى داخلها «يا للهدوء ، يا للهدوء . عادت الى وطنها ، داشا المسكينة . . . ولكنك لم تعرفى وطنك قط داشا ، داشا . . . آه ! لا تعيقنى . . . ولكن هذا قائد الفرقة ، بالطبع ، يضرب بعصاه ، والآن ستصدح الموسيقى . . .» والصرير من جديد . . .

استلقى كوزما كوزميتش على مسطبة تحت الموقد . انه هو ايضا لم ياته النوم رأسا . تمتم متمطقا :

– صدقوا ، صدقوا . . . قلوب بسيطة . . . لو كنت فى مكانهم لما صدقت بهذه السرعة . لماذا ؟ لانك لا تعرف نفسك . . . الانسان جاهل . . . صدقوا ، لأن الاقوياء من الناس بسطاء دائما . . . وفى ذلك قوتهم . الآن اعطونا هويتنا . صدقوا . ولكن هل انتم بحاجة الى انسان مفكر ؟ هل الثورة بحاجة اليه ؟ نعم ! ها انا ذا . . . داريا دميتروفنا . . .انا اسال : هل الثورة بحاجة الى انسان مفكر ؟

٢

كان ايفان ايليتش تليغين قد تلقى مهمة جديدة بعد عملية سامارا .

كان الجيش الاحمر العاشر قد استنزف ذخيرته القليلة فى معارك آب قرب تساريتسين . وكان المجلس العسكرى الاعلى للجمهورية يرد بتاخير بالغ وبلا رغبة على الطلبات فى امداد تساريتسين بما هو ضرورى للوقوف امام الهجوم الحتمى الجديد لجيش الدون . الا انه كان فى موسكو رفيق سلاح لقائد الجيش فوروشيلوف ارسل الى هناك لمهمة خاصة هى التغلب على التاخير غير المفهوم والبيروقراطية المكتبية لمؤسسات التموين التابعة للمجلس العسكرى الأعلى . وقد استطاع هذا الرجل ان يرسل كمية معينة من التموينات الى جبهة تساريتسين .

وقد عهد الى ايفان ايليتش بتحميل صناديق الذخيرة ومدفعين فى سفينة شحن فى مدينة نيجنى ، وايصالها الى تساريتسين . وهنا قد وجد نفسه مرة اخرى ، كما كان فى هذا الصيف وكما كان منذ سنوات ، يعوم على الفولغا الكسول الواسع الجبار . كانت السفينة البنية الواطئة تضرب بدواليبها الماء الراكد . وكانت الضفاف ترى دائما فى الامام ، وكان النهر ينتهى عندها ، بينما كان اتساع جديد للنهر ينفتح بعد عطفة عريضة عميقا رقراقا تحت شمس الخريف . فى تلك الشهور كانت الفولغا قد طهرت من البيض ، ومع ذلك فقد كانت السفينة تسير بعيدة عن الضفاف ، كلما ظهرت قرية كبيرة ببيوتها المعتمة فوق الضفة العالية ، او لاح من خلال اوراق شجرة مصفرة برج جرس على رابية جرداء ، حيث كان من السهل الاطلاق من رشاشة .

كان عشرة من بحارة البلطيق يتحدثون ويضحكون بالقرب من مدفع عند مؤخرة السفينة . وهناك كان ايفان ايليتش غالبا ما يستلقى على جنبه متاوها متهافتا ضاحكا على حكاياتهم حتى تدمع عيناه . وكان مصغيا بسيطا سريع التصديق ، وهو النوع الذى يحتاج اليه البحار الذى يحب من يصغى اليه .

كان شاريغين الكومسومولي الطويل المهيب وهو احدث البحارة سنا ، يتقدم من جرس السفينة كل يوم ، ويدقه ليدعوا الجميع الى فوق . وكان البحارة يجلسون في دائرة ، ويخرج من باب العنبر الميكانيكي العجوز الذي ، قيل ، انه فقد تقودا غير قليلة في الثورة ، ويطلع الوقاد جسمه حتى الوسط من الباب نفسه ، وهو رجل غير ودي متبرم . وتخرج الطباخة من المطبخ وهي تمسح يديها . وكان شاريغين يجلس على لفة من الحبال ، ويبدا حديثا تثقيفيا بصوت واثق مغرور . لم يستطع لصغر سنه ان يقرأ كثيرا ، ولكنه قدر ان يفهم الشيء الرئيسي . وكان تحت طاقيته البحارية شعر مجعد داكن ، وله عينان جميلتان وضاءتان ، الا ان لانفه عيبا ، فهو قصير مرفوع كان يبدو غريبا على وجهه .

لم تكن مهمته سهلة . كان البحارة يفهمون الثورة فهم رجال انفصلوا منذ زمن بعيد من مزارعهم ومن المحراث البدائي ، عن قارب الصيد في الساحل . وقد ادوا خدمة الاسطول الثقيلة ، وحين دقت الساعة القوا ضباطهم في البحر ، ورفعوا علم الثورة العالمية . وكانوا قد راوا العالم ، وطافوا فيه . وكان شيئا عريضا مفهوما لهم كرجال البحر . في الماضي كان كل ما يملكه البحار في صندوقه الصغير . اما الآن فلا يوجد حتى هذا الصندوق ، الآن كل ممتلكات البحار هي بندقية وشريط عتاد للرشاشة والعالم كله . . . فلو كان هذا عهد ستيبان رازين لأمال كل واحد منهم طاقيته ذات السطح الأحمر على أذنه ، وسار على مشيئته يجوب رحاب العالم ، تاركا وراءه وهجا يتصاعد الى عنان السماء . . . «اى ، يا عبيد القيصر ، يا ارقاء الارض ، ايها التعساء ، يا رعاع الحانات ، اقتسموا الارض ، واقتسموا الذهب ، ان كل شيء لكم ، فانعموا ! . .» ولكن الثورة البروليتارية طالبتهم ببرنامج اكثر تعقيدا وطالبتهم بضبط المشاعر .

كان شاريغين يقول لهم بصوته الواثق :

– الثورة ، ايها الرفاق ، هي علم . والمرء لن يبزها ولو كان سليمان الحكيم ، ولا بد من ان يخطأ . ولكن ما هو الخطأ ؟ من الافضل ان تقتل اباك وامك من ان تقع في الخطأ . فانه يقودك الى وجهة النظر البرجوازية ، كما يغري الطعم الفأرة الى المصيدة . واذا

ما وقعت فيها فاجلس حيث انت ، والطم ذنبك . فان كل خدماتك قد شطب عليها ، فاصبحت عدوا . . .

ولم يكن البحارة قادرين على الاعتراض على ذلك بشيء فانت بدون علم لن تستطيع ان تقود حتى سفينة فكيف ان تقضى على الثورة المضادة . واحيانا كان احدهم يحتضن ركبته بيديه الضخمتين الموشمتين ، ويسال : – حسنا ، قل لي اذا : بدون موهبة لن تستطيع ان تركب موقدا في حمام ، وبدون موهبة لا تستطيع المرأة ان تصنع عجينا . فهل الموهبة ضرورية ام لا ؟

– انظروا ، ايها الرفاق ، الى اين يسوقنا لاتوغين ؟ الموهبة؟ ان الموهبة شيء متاصل فينا ، انها شيء خطير . وقد تقود الشخص الى الفوضوية البورجوازية ، الى الفردية . . .

فلوح لاتوغين بيده مبديا يأسه :

– هراء ! عليك اولا ان تمضغ هذه الكلمات ، وتبتلعها وتتبرزها ثم استخدمها . . .

قال الوقاد ماضيا من باب العنبر بصوت اجش :

– الموهبة ، الموهبة ! يصبغ اظافره ، ويلبس بنطلونا عريضا ، ويضع سلسلة في رقبته . . . هذا هو صاحبنا . . . الموهبة !

عندئذ ارتفع لغط بين البحارة . وقال الوقاد بصوته الاجش «انتم بحاجة الى عشرة اعوام تقضونها بالقرب من الموقد» واختفى في فم المكائن تلافيا للعواقب . وكان شاريغين يهدئ دائما الضجة المهددة ويقول : «بالفعل ، يوجد بيننا رفاق يصبغون اظافرهم ، ولكنهم قلة ، ولن ينتهوا الى نهاية حسنة . كما ان هناك من اقسدهم الاشتراكيون الثوريون . ولكن غالبية البحارة قد وهبت نفسها للثورة كلية . ويجب ان ننسى ما يخص الموهبة ، ويجب ان نخضعها . وسنتفرج فيما بعد ، من يبقى على قيد الحياة . اما انا شخصيا فلا احسب حسابا لذلك . . .»

وهز شاريغين خصلات شعره الاجعد . ولبعض الوقت كان لا يسمع هناك سوى خرير الماء تحت راس السفينة . لقد اثرت صراحة الكلمات في المستمعين تاثرا قويا . فان الانسان الروسي ضعيف ازاء كل ما هو احتفالي : فاذا شرب يتمادى حتى يفقد

قبعته ، واذا حارب يحارب بجنون فلا تستطيع ان توقفه . والموت رهيب في الايام الاعتيادية ، في المطر الشديد ، اما في المعركة الحامية ، من اجل قضية عظيمة فان الموت يصقل النفس فلا يحس الانسان الروسي بخوف ، وعوه فقط ان يحس الحياة بحرارتها كما هي في العيد . فاذا اصيب برصاصة عدو او طعن بنصله اللامع ، فمعنى ذلك انه تعثر ووقع باسطا رجليه ويديه في سهب واسع ، وقد ثمل راسه باقوى خمرة في العالم .

واعجب البحارة قول شاريغين بانه لا يحسب ان يبقى حيا . كما غفروا له الخطبة المنبرية وثقته الصبيانية بنفسه ، بل حتى انفه المرفوع بدا مقبولا . وبدا يحدثهم عن احتكار الدولة لتجارة الحبوب ، عن الصراع الطبقي في الريف ، عن الثورة العالمية . والمعض الميكانيكي الاشيب الشاربين عينيه نصف اغماض ، وشبك اصابعه على بطنه ، وهز راسه مؤكدا لا سيما في المواضع التي يتعثر فيها ذهن شاريغين ، ويبدا بالتعبير بشكل مبهم . وكانت الطباخة اليسيا تازاروفا التي اخذوها الى السفينة من استراخان في الرحلة السابقة لا تجلس قط مع الرجال ، فكانت واقفة على جانب تنظر الى الشواطئ المتباعدة . كانت السكينة والرصانة تنعكسان على وجهها الفتي الذي انحلته الالام ، وكان جبينها بارزا وشعرها رماديا جميلا قد ضفر بضفيرة حول راسها ، الا ان غصة كانت تصعد الى حلقومها احيانا فتبتلعها بصعوبة .

وكان تليغين يشترك في هذه الاحاديث ايضا ، متحدثا عن الشؤون العسكرية ، وكان يرسم بالطباشير على سطح السفينة مواقع الجبهات :

– ان الثورة المضادة ، كما ترون ، ايها الرفاق ، تسير على خطة واحدة : تطويق روسيا الوسطى ، وقطعها عن التموين بالحبوب والوقود ، ثم تحطيمها . والثورة المضادة تقوم في المناطق البعيدة عن المركز ، وفي الاراضي الغنية . ففي كوبان ، مثلا ، مليون ونصف مليون قوزاقي ومثلهم من الفلاحين المؤجرين للارض . والعداوة بينهم مستميتة . وقد ادرك دنيكين ذلك جيدا ، فاندفع الى النار بجراة مع حفنة من الضباط المتطوعين ، وحطم جيشا قوامه مائة الف رجل ، كان يقوده الوغد سوروكين

الذي كان يجب ان يرمى بالرصاص منذ البداية على فوضويته وتعطشه للخيانة ، والآن يبني دنيكين لنفسه مؤخرة قوية مساعدا القوزاق على ذبح الحمر في كوبان . ان دنيكين عدو ذكي وخطير .

وكان البحارة ينظرون الى تليغين وانوفهم منتفخة ، والعروق الزرق تبرز من تحت البشرة السمراء . بينما كان الميكانيكي يهز راسه دائما مؤكدا كلام تيليغين «بالضبط ، بالضبط . . .»

– ومهمة الزعيم كراسنوف اضيق بكثير . لأن من الصعب اثارة القوزاق خارج حدود الدون . انتم تعرفون المثل القائل : يبدو القوزاقي مرتاحا لأنه ياكل مريا وينام مرتاحا . القوزاقي جرىء حين يدافع عن بيته . ومع ذلك فان ثورة كراسنوف المضادة هي الآن بالنسبة لنا اكثر خطرا من كل شيء . واذ تراجعنا عن الفولغا ، وفقدنا تساريتسين فان كراسنوف ودنيكين سيلتقيان بكل الثورة المضادة في سيبيريا . ومن حسن حظنا انه لا يوجد تفاهم كامل بين كراسنوف ودنيكين . وقوزاق الدون يسمون المتطوعين بـ«الموسيقيين الجوالين» بينما يسمي المتطاعون قوزاق الدون بـ«البغايا الالمانيات . . . ومع ذلك علينا ان نكون يقظين ، وان تعارض خطة الثورة المضادة بخطتنا الكبيرة ، وهي ، بالدرجة الأولى ، تنظيم الجيش الأحمر تنظيما صحيحا ، لكي لا يكون مجرد انصار يتنقلون في عربات .

نظر شاريغين الى تليغين في حسد ، واعلن :

– هذا صحيح . . . وهكذا ، يا رفاق ، نعود الى النقطة التي بدات منها . . . ما هو الضبط الثوري ؟ . .

وفي احدى هذه المحادثات مدت اليسيا تازاروفا يدها الى الامام فجاة ، كالعمياء ، وقالت بصوت متساوق ذي نبرة خطيرة حتى ان الجميع التفتوا نحوها ، وصاروا يستمعون اليها :

– اعذروني ، يا رفاق . . . احب ان اقول لكم . . . احدثكم بهذه الشؤون . . . .

في الصباح الباكر ، عند الفجر ذهبت اليسيا تازاروفا لتحلب البقرة ، ولكن ما كادت تفتح زريبة الابقار – وجاءها من الظلام خوار البقرة تطالب بالحلب – حتى سمعت طلقات من السهب . فوضعت اليسيا الجردل ، وعدلت المنديل على راسها . وكان قلبها يخفق ، وحين اقتربت من باب الحديقة ارتخت رجلاها ، ولكنها فتحت الباب .

كان جمع من الناس يركضون في شارع القرية وراء عربة رشاشة يركبون فيها اثناء سيرها . واخذت الطلقات تسمع في مكان اقرب واكثر ترددا ، من ناحية السهب ، ومن ناحية البركة ، ومن طرف الشارع العريض ، ومن الطرف الآخر . ولم تلحق العربة التي كانت تقل رفاقا من سوفييت القرية ان تختفي ، فقد حاصرتها الخيالة . وداروا حولها كالكلاب حين تهاجم كلبا ، واطلقوا النار ، وطعنوا بالسيوف .

سدت اليسيا باب الحديقـــة ، ورسمت علامة الصليب ، وذهبت لتجلب الجردل ، الا انها استدركت فجاة ، واندفعت الى البيت ، حيث كان ينام طفلاها بيتروشا واليوتا . ايقظتهما وهي تمسد على راسيهما ، وتهمس في اذنيهما ، والبستهما ملابسهما ، واخرجتهما الى الفناء وراء زريبة الابقار ، حيث كان يوجد تل من اقراص الروث المجفف قد صف كبيت النمل ، ومن الداخل فارغ . رفعت اليسيا بعض اقراص الروث ، وطلبت من الطفلين ان يدخلا الى داخل التل ، ويجلسا هناك دون ان يصدرا صوتا .

والآن صار الشارع كله يغلي بكركبة حوافر الخيل ، وصيحات الناس ، وقرقعـــة السلاح . واخيرا اخذوا يطرقون باب اليسيا باخامص البنادق قائلـــين : «افتح !» وحين فتحت اليسيا الباب امسكها قوزاقيان احمتهما الخمرة المنزلية . «اين سينكا نازاروف ، اين زوجك ، تحدثي ، او نذبحك في مكانـــك» . ولـــم يكن زوج اليسيا قوزاقيا ، بل من الاغراب ، وقد انضم الى الجيش الاحمر ، كانت لاتعرف اهو حي الآن ام لا . وهكذا قالت انها لا تعرف اين زوجها . فقد اخذه بعض الناس في الصيف . كف القوزاقيان عن هز اليسيا واندفعا الى البيت ، وقلبا كل شيء فيه وحطماه ، وحين خرجا امسكا مرة اخرى باليسيا ، وجراها في الشارع الى سوفييت القرية ، حيث كان الزعيم يعيش في السابق .

وكانت الشمس قد ارتفعت عاليا بينما اغلقت القرية بواباتها ونوافذها ، وكانها ما تزال نائمـــة . وامام السوفييت فقط كان القوزاق يروحون ويجيئون خيالة ومشاة يسوقون فلاحين وقوزاقا بعضهم مشدود الوثاق ، والبعض الآخر مدمى . وفيما بعد عرف ان قائمة قد وضعت باسماء جميع الذين صوتوا في الربيع الى جانب السلطة السوفييتية ، فاخذوهم جميعا .

كان يجلس في بيت الزعيم ضابط ناعس خيطت على كمـــه جمجمة وعظمان ، والى جانبه الضابط القوزاقي زمييف المعروف جيدا لدى الجميع ، والذي كان قد هرب من القرية قبل ستة اشهر . وكان الجميع قد نسوا حتى ذكره ، وها هو الآن بشاربيه المتدليين ممتلئا ضخما احمر كالنحاس . وحين دفعوا اليسيا الى البيت كان زمييف يصيح على المعتقلـــين . وكان عددهم اكثـــر من خمسين شخصا تحت الحراسة :

– هل ساعدتكم السلطة السوفييتية ، ايها الاوغاد الحمـــر البطون ؟ حدثونا الآن ماذا علمكم مفوضو موسكو ؟ ..

وكان الضابط ينظر في القائمة ، ويقول بهدوء لكل من كانوا يدفعونه نحو المنضدة :

– هل تعترف باسمك واسم عائلتـــك ؟ حسنا ، هل انت متعاطف مع البلاشفة ؟ لا ؟ هل صوت في شهر أيار ؟ لا ؟ اذن ، انت تكذب . اجلدوه . التالي . القوزاقي روديوف – وكان يرفع عينيه الشاحبتين كعيني خروف ، ويقول – قف باستعداد ، وانظر الي ! هل كنت مندوبا في المؤتمـــر الفلاحي ؟ لا ؟ وحرضت داعيا الى السوفييتات ؟ لا ، مرة اخرى ؟ اذن ، انت تكذب على المحكمـــة العسكرية . الى اليسار ! التالي ...

وكان القوزاق يمسكون بالناس ويدفعونهم من على مقدمة البيت ، ويلقونهم ارضا ، ويسحبون سراويلهم ، ويعرونهم . ويجلس احدهم على الرجلين المرتجفتين ، والآخر يضغط على الراس بين ركبتيـــه ، ثم يخرج اثنان آخران قضيبـــي التنظيـــف من بندقيتيهما ، وينزلان بالضرب على المطروح محدثين صفيرا في الهواء .

ولم يعد الضابط يستطيع ان يتكلم بصوت هادئ . فقد كان الذين خارج النوافذ يولولون ويصيحـــون . وكان يحيط بمكان التاديب جمهور من القوزاق خيالة ومشاة من الفصيلة المغيرة ، ومن القوزاق المحليين الذين خرجوا من بيوتهم للقاء الفصيلة صائحين : «المسيح قام ! ..» كما كانوا يزعقون ويشتمون : «اجلدوهم حتى العظام ! اضربوهم الى آخر قطرة من الدم ، حتى يتذكروا سلطتهم السوفييتية !» .

واخيرا لم يبق في بيت الزعيم غير اليسيا ومعلمة شابة . وقد

جاءت الى القرية برغبتها ، وحاولت جاهدة ان تنور اهل القرية . فقد كانت تجمع النساء ، وتقرأ لهن بوشكين وليف تولستوى ، وتصطاد الخنافس مع الاطفال – تصطاد الخنافس فى مثل تلك الاوقات !

صرخ الضابط زمبيف بها :

– انهضى ! ايتها السحنة اليهودية !

نهضت المعلمة ، وظلت تحرك شفتيها لبعض الوقت دون ان تنطق بشىء :

– انا لست يهودية ، وانت تعرف ذلك جيدا ، يا زمبيف . . . وحتى لو كنت يهودية ، فاننى لن اجد فى ذلك جريمة . . .

وسأل الضابط :

– هل انت فى الحزب الشيوعى منذ زمان ؟

– لست شيوعيـــة . انا احب الاطفال ، واجد من واجبى تعليمهم القراءة والكتابة . . . تسعون بالمائة من سكان القرية لا يعرفون القراءة والكتابة ، فتصور . . .

قال الضابط :

– اتصور . . وسنجلدك الآن .

شحبت وتراجعت . وصرخ زمبيف بها : «اخلعى ! » واختلج وجهها الحلو ، واخذت تفك ازرار معطفها ذى المربعات ، وخلعته ، وكأنها نائمة . .

– اسمع ، اسمع – ولوحت بذراعها على الضابط – ما هذا منك !

ومن وراء النافذة ارتفع صوت نحيل بشكل لا يطاق ، بينما كان زمبيف ماضيا فى اوامره «اخلعى سروالك ، ايتها الفاجرة ! »

وصاحت به المعلمة «ايها الوغد !» وتأججت عيناها ، واحمر وجهها بحمرة الحنق :

– اقتلونى ، يا وحوش ، يا انوال . . . لن يمر هذا بسلام .

عند ذاك امسكها زمبيف ، ورفعها قليلا والقاها ارضا . ورفع قوزاقيان تنورتها ، وضغطا على رأسها وقدميها ، وخرج الضابط من وراء الطاولة على مهل ، وتناول السوط من قوزاقى ، واطلت بسمة ساخرة على وجهه الرمادى . ثم رفع السوط ، وانزله بقـــوة على مكان الحزمة منها . ومال زمبيف من كرسيه الى الامام وصاح بصوت

عال : «واحد ! » واخذ الضابط يسوط ، والفتاة صامتـة . . . . «خمسة وعشرون . كفى ذلـك – قال الضابط والقى السوط – اذهبى الآن ، اشتكينى لزعيم المنطقة !» وكانت راقدة كالميتة .

رفعها القوزاق ، وحملوها الى الرواق . وحان دور انيسيا .

شد الضابط حزامه القفقاسى ، واشار برأسه اشارة خفيفـــة الى الباب ، وجن جنون انيسيا حقدا وحاولت أن تتخلص ، حين جروها امسكت بشعر بعضهم ، وتشبثت ، وعضت ايديهم ، وركلتهـــم بركبتيها . واطلقت نفسها حاسرة الرأس ممزقة الثياب ، وهاجمت القوزاق ، وفقدت الوعى حين ضربوها على رأسها . مزقوا الجلد على ظهرها بقضبان تنظيف البنادق ، والقوها عند مقدمة البيت ، ظانين ان هذه المرأة الخبيثة قد ماتت .

واعادت فصيلة النقيب نميشايف التاديبية النظام فى القرية ، واقامت زعيما ، وحملـت عدة عربات من الخبز وشحم الخنزيـر المقدد وبعض الاشياء الاخرى المنهوبة ورحلت . وبقيت القرية طوال النهار ساكنة لم يوقد فيها موقد ، ولم تخرج ماشية . وفى الليـــل اندلعت النار فى عدة بيوت للاغراب ، ومنها بيت انيسيا .

وخاف الجيران اطفاء الحريق ، لأنه عندما اندلعت النار الاولى فى طرف القرية هرع بعض القوزاق بافراسهم الى هناك ، وسمعت طلقات . وقد احترق بيت انيسيا كليا . وفى الصباح فقط استدرك الجيران : اين ولداها ؟ ان ولدى انيسيا ، بيتروشا واليوشا ، اللذين ظلا الى الليل جالسين فى تل اقراص الروث قد احترقا مع البقرة والاغنام والدواجن .

والتقط الطيبون انيسيا التى كانت تئن مغميا عليها عند بيت الزعيم ، واخذوها الى بيتهم ، وارقدوها هناك ، واعتنوا بها . وبعد عدة اسابيع اخذت تفهم ، فقد حدثوها عن ولديها . ولم يعد لانيسيا شىء تفعله فى القرية . وهذا ما قالته للناس الطيبين . وكان الفصل خريفا ، ولا اخبار من زوجها . وقد زهدت فى العيش . فتنقلت من قرية الى اخرى ، متسولة تحت النوافذ . وبلغت الخط الحديدى ، ووصلت اخيرا الى استراخان ، حيث اخذت طباخة على السفينة ، لأن الطباخ قد نزل الى الشاطئ* فى المرة السابقة ، ولم يعد .

. . . .

روت انيسيا للازاروفا هذا الحديث من حياتها ، ثم قالت :

– شكرا لكم ، يا رفاق . انتم تعرفون مصيبتى الآن ، فشكرا لكم .

ومسحت عينيها بالمئزر ، ونزلت الى مطبخ السفينة . وظل البحارة طويلا جالسين فى صمت جاهم يحتضنون ركبهم بايديهم المعروقة . انصرف ايفان ايليتش عنهم ، واستلقى فى ناحية ، وفكر كانما حسرته «وهكذا تلتقى بانسان ، وتمر به ساهيا ، بينما هو امامك مملكة كاملة من غرائب داخلة . . .» .

وبالتدريج تحول من قصة هذه المراة الشجية الى همومه هو . وكان يخفيها عميقا فى طيات نفسه عن الجميع ، وعن نفسه بالدرجة الاولى . وكان قليـل الامل فى ان يلتقى مرة اخرى بداشا . حقـا ان الانسان الحى يتحمل من الجراح والمصائب ما لا يتحملهـا اى حيوان . ولكن ما ارحب الارض ! واين يبحث عن داشا فى سيـل الملايين النازحين الى الشرق . ثم ان الاحمق العجوز ، الدكتـور بولافين ، قد يذهب معها الى الخارج .

وتذكر ، وهو يهز راسه ويتحسر رثاء ، ميول داشا نحـو الراحة النفسية ، نحو الاناقة ، وتوقـد عاطفتهـا الباردة قليلا ، مثل فوران نبيذ مثلج . «لم تكـن تقوى على ذلك . لقد نمت فى دفيئة ، فاذا بها تصادف تيارا قويـا يهز العالم . . . مسكينة ، مسكينة . . . رفضت ان تعيش بعد وفاة ابنهـا فى بطرسبورغ وكانت تنطفئ[1] فى الظلمة الباردة . . .» .

وكان ايفان ايليتش لا يعرف ما حصل لها بعد بطرسبورغ الا من قراءته لرسالتها على عجالة . لا شك فى ان داشا قد قاسـت كثيرا بعد بطرسبورغ ، وفهمت الكثير . . . باية عاطفة جذبته فى ذلك اليوم الى النافذة ، وهى تنقذه من الملاحقين : «سابقى وفية لك مدى الحياة ، اهرب ، اهرب . . .» وقد التصقت به رائحة شعرها الكتانى الدقيق . . . انه لم ينس ذلك ولن ينساه . يا لها من امراة عجيبة معبودة . . . «اوه كفاك ذكريات . . .» .

وبدأ الجو يمسى[1] . وعتمت الفولغا ، ونهضت من الشمـال كالحواجز سحب باردة موحشة ، وصفرت الريـح فى الصوارى

القصيرة ، ومرت كاميشين ، وهى بلدة خشبية مهملة بحدائقهـا العارية على التل . وبعد كاميشين تماما بدات جبهة تساريتسين .

٣

كانت السحب المترعة بالبرد تعوم فوق تساريتسين . وكانت الريح تصعد الغبار ، وكالدوامات تفرش به البيوت الخشبيـة المتلاصقة التى كان بعضها يواجه النهر وبعض الآخر يدير لـه ظهره ، ناهضة فوق المنحدرات الوعثاء بين المراحيض والمصانع . كان ايفان ايليتش يصعد شارعا مرتفعا قلعت الامطار حجارته . وكان الكورنيش ، والارصفة الصارفة ، وشوارع المدينة ايضـا خالية من الناس . وفى الساحة فقط ، حيث كانت الكاتدرائيـة الرمادية الضخمة تلوح خلف نقاب من الغبار ، تقابلت معـه فصيلة مسلحة . كان افرادها من الكهول والشبان المرتدين كيفما اتفق يسيرون مديرين ظهورهم للريح فى مقاومة جامحة .

وكانت تسير فى المقدمة عجوز نحيلة بادية الغضب فى قبعة من قبعات الجيش الأحمر . وقد القت بندقيتها على كتفها ، مثل الجميع . وحين حاذت ايفان ايليتش سالها عن مقر القيادة . القت العجوز نظرة شزراء عليه ، ولم تجب ، ومرت الفصيلة كلها فى عجلة تثير الغبار .

كان على ايفان ايليتش ان يذهب الى قيادة الجيش ، ويبلغ بوصول السفينة بحمولتها من الذخيرة ، ويقدم ورقة الشحن . ولكن اين يجد هذه القيادة ! لا شىء حوله غير حوانيت مغلقة بالالواح ، ونوافذ خالية من الحياة ، ولافتات تقرقع بحديدها ويخيل اليـك انها ستسقط فى اللحظة التالية . وفجاة اعترض سبيله عسكرى مضمد اليد زفر بالم من خلال اسنانه ، وشتم همسا . اعتذر ايفان ايليتش ، والقى عليه نفس السؤال عن القيادة . فاذا به يتبين ان الرجل الذى امامه هو سيرغى سيرغيفيتش سابوجكوف ، قائـد فوجه السابق . وقال سابوجكوف :

– ما لك مندفع كالمجنون . سلثم .

هم ايفان ايليتش بان يعانقه ، الا ان سابوجكوف تنحى قائلا :[1]

– دعك عن هذا ، حقا . تمسك بالهدوء . من أين جئت ؟

– جلبت سفينة الى هنا .

– يا للعجائب ! انت حى ترزق ؟ خداك يتفتقان من العافية ! هذا هو الصنف الروسى ! تريد مقر القيادة ؟ انه هنا . اين نزلت ؟ بالطبع ، لم تنزل فى مكان ما . حسنا ، سانتظرك .

ودخل مع تليغين فى مدخل بيت آجرى يبدو من بيوت التجار ، واشار الى حجرات القيادة فى الطابق الثانى :

– اسمع ، يا ايفان . انا منتظرك . . .

كان ايفان ايليتش قد شاهد مقر قيادة سوروكين وجيوش الجبهة الجنوبية ، حيث لا يستطيع المرء ان يعثر على الحجرة التى يريدها ، فقد كان الجميع يكذبون وكأنهم على اتفاق ، وفى كل مكان دخان التبغ ، وكاتبات الآلات الطابعة يضربن على آلاتهن بذعر ، والمرافقون يتنقلون من باب الى باب مهيبين ببناطيل ركوب الخيل . اما هنا فكان الهدوء . وقد وجد الباب المطلوب حالا . كان ضابط الخفر يجلس عند نافذة مترية لا يكاد النور ينفذ من خلالها . وقد رفع وجهه العظمى العليل وثبت بصره فى تليغين دون ان يحرك جفنيه المحمرين . واجاب :

– لا يوجد أحد . القيادة فى الجبهة .

– اسمح لى ان اتصل بالقائد . يجب تسليم الحمولة بسرعة .

رفع الضابط الخفير جسمه برخاوة رجل اذبله الأرق ، ونظر فى النافذة . فرأى سيارة قد وصلت من توها .

– انتظر .

قال ذلك بهدوء ، وتابع تصنيف المراسلات والتقارير فى عدة اضبارات ، وكان بعضها مكتوبا بالقلم الرصاص لا يشى الانسان من محتوياتها سوى عظمة نفس كاتبيها الشهمة البسيطة .

دخل اثنان يرتدى احدهما معطفا استراخانيا ، ويتدلى منظار من رقبته ، وعلى جنبه سيف خيالة ثقيل فى محمل من الجلد الخشن . والثانى فى معطف من معاطف الجنود الطويلة ، وقبعة من تلك التى يرتديها عمال بطرسبورغ فى ايام الشتاء ، وكان لا يحمل سلاحا . كان وجها الرجلين داكنين من الغبار . قال الخفير :

– صلح الخط المباشر مع موسكو .

توقف الرجل ذو المعطف الاستراخانى فى الحال ، وكان فتيا له عينان بنيتان مستديرتان مرحتان «شىء ممتاز !» اما الآخر ذو المعطف الذى لطخه الوحل فقد اخرج منديلا ، ومسح به وجهه النحيل ، محاولا ان يزيل اكبر قدر من الغبار من شاربيه الاسودين . واحس تليغين بأن عينيه اللامعتين بجفنيهما المرتفعين الرقيقين تثبتان عليه بصرهما .

قال الخفير :

– الرفيق جاء ببلاغ لكم .

وكان ايفان ايليتش يرى هذين الرجلين لأول مرة فلم يعرف من هما ، فتردد قليلا . ومال الضابط الخفير نحوه وقال :

– تحدث ، يا رفيق ، هذا هو المجلس العسكرى للجبهة .

اخرج تليغين اوراقه ، وابلغ . تبادل الرجلان النظرات بعد ان سمعا بأن سفينة محملة بالذخيرة قد وصلت من توها . تناول الرجل فى معطف الجندى ورقة الشحن ، بينما راح الثانى يمرر عينيه على سطورها من وراء كتفه متلهفا ، بل أن شفتى فمه الصغير تحركت تردد ارقام كمية العتاد والقذائف واشرطة الرشاشات . . .

سأل الرجل فى المعطف العسكرى :

– كم عددكم فى السفينة ؟

– عشرة بحارة من بحارة البلطيق ، ومدفعان للميدان .

وتبادلا النظرات ثانية . وعاد نفس الرجل يقول :

– املأ الاستمارة . فى الساعة الخامسة بعد الظهر عليك ان تكون مع طاقم السفينة امام قائد الجبهة – وادار بحركة متمهلة يد جهاز التلفون الذى صرف صريفا جافا ، واتصل بشخص ما ، وهمس له ببعض الكلمات ، ووضع السماعة ، وقال : – ايها الرفيق الخفير ، جهز على الفور اكبر عدد ممكن من العربات . وللتفريغ استعن بعمال مصنع المدافع . تأكد من التنفيذ ، وابلغنى .

وذهب كلا الرجلين الى الغرفة المجاورة . واخذ الخفير يدير يد التلفون ، وراح يكرر بصوت مكتوم : «قسم النقل . . . الرفيق ايفانوف . لا يوجد ؟ قتل ؟ اعطنى خفيرا آخر . مقر قيادة الجبهة يتكلم . . .» جلس ايفان ايليتش ليملأ الاستمارة . وكان الأمر واضحا : الحضور امام القائد . يعنى الذهاب الى الخنادق رأسا .

استرخى ايفان ايليتش على السفينة ، واذا به يشعر الآن ، وهو يخربش بالقلم الذى يتعثر على الورق ، بحركة الارادة المألوفة التى تكررت كثيرا خلال هذه السنوات ، حين كان يتراجع الى الخلف كل ما هو ساكن داقى' شخصى فى الانسان ويتضاءل حرصه على حياته ، وسعادته ، ليحل فى محله بقوة غير منتظورة ايفان ايليتش آخر انسان يدالى قاس عازم .

كان ما يزال ثمة وقت كثير حتى تحل الساعة الخامسة . سلم تليغين استمارته وخرج الى الممر . نهض سابوجكوف بسرعة من الاريكة الخشبية .

– هل فرغت ؟ لنذهب الى مكان ما .

ونظر بابتسامة ساخرة الى تليغين الذاهل . وكان سابوجكوف على حاله عصبيا متوترا ، وكأنه يعرف ما لا يعرفه الاخرون ، الا ان مظهره الخارجى قد تغير كثيرا . فقد اضحى وجهه الوردى صغيرا مثل وجه عجوز . اوضح له تليغين بان عليه ان يهرع الى رصيف النهر ، ويجمع طاقم السفينة ، ويفرغ الصناديق .

– مؤسف . ولكن ما العمل ؟ لنذهب الى الرصيف . صمت ثلاثة اشهر ، يا ايفان ، وبلغ بى الامر فى المستشفى الى حد اننى كدت اكتب «يوميات مثقف سابق» . ولم اعد اشرب ، يا اخ ، نسيت . . .

كان سابوجكوف متأثرا جدا فى لقائه بايفان ايليتش . خرجا من البناية . ودفعتهما الريح فى الشارع نحو الفولغا المعتم المتنفس بامواج مزبدة طويلة .

– اين الفوج ، يا سيرغى سيرغييفيتش ؟ لماذا انفصلت عنه ؟

– لم يبق من فوجنا شىء فى الواقع . لا وجود الآن لهذا الفوج فى الجيش الحادى عشر .

نظر تليغين اليه صامتا ، وفى نظرته ذعر . بدأ سابوجكوف يروى حاجبا عينيه عن الغبار بيده .

– انتهينا فى ضيعة بيسبكوينى . هل لك علم بمأساة الجيش الحادى عشر ؟ ان القائد العام سوروكين فعل من الأمور ما يستحق عليه اكثر من ثلاثة اعدامات ، ابن الكلب ذاك . فقد اخفى عن الجيش امر المجلس العسكرى الثورى لتساريتسين القاضى

بقطع الجبهة والالتقاء بالجيش العاشر . ولم ينفذ هذا الأمر الا من قبل فرقة شيلست وحدها ، واتجهت نحو تساريتسين ، وهذا فقط لان سوروكين اعتبر شيلست خائنا وامر باعدامه رميا بالرصاص . وتصور الامر : انقطعنا عن مينيرالنيه فودى ، وانقطعنا عن ستافروبول ، حيث هلك جيش تامان . وفى حالة ذعر ترك سوروكين احتياطات الذخيرة فى تيخوريتسكيا . وكانت خيالة الجنرال شكورو تضغط علينا من الجهة اليمنى وخيالة فرانغيل من الجهة اليسرى . فتراجعنا شرقا فى سهب بلا ماء . . . ولم يبق من فوجى غير سرية واحدة . وكنا ننام اثناء سيرنا ، لنتخلص من العدو ، وشققنا طريقنا عبر منخفضات ، ولم يكن لنا طعام نأكله ، ولا ماء نشربه . . . لا شىء فى ذلك السهب اللعين غير الرياح القارصة ! احيانا كان يسقط انسان وفرسه متجمدين وتغطيهم الرمال . . . ووصلنا الى ضيعة بيسبوكوينى ، فلم نجد فيها انسانا ولا دجاجة ، وحتى الكلاب اخذها القوزاق . اما البيوت فكانت ابوابها مفتوحة . . ووجد الفتيان حليبا فشربوه بكل قوة عطشهم ، فهمت ؟ واذا بهم يتلوون على الأرض ، ولم يبق احياء منهم غير حوالى ثلاثين شخصا . . . وفى الفجر طوقونا طبعا بالرشاشات ، وقضوا علينا . . .

وبينما كان ايفان ايليتش يصغى كان يسرع خطاه حتى تعثر .

– وانت ، كيف ؟

– الشيطان يعلم . لقد اسعفنى الحظ . . . جرحت منذ البداية ، فى يدى ، واصيبت اعصابى او شىء من هذا القبيل ، وفقدت الوعى . . . ومنذ تلك الساعة بدأت اعيد النظر فى الكثير من الاشياء . وبينما كنت منبطحا ضمد الجنود ذراعى ، وحملونى الى كومة قش ، وغطونى بالقش . . يعنى اهتموا بى فى مثل هذا الوقت . – اؤكد لك اننا لا نعرف شعبنا ولم نعرفه قط . . . يقول ايفان بونين انه وحش همجى ، بينما يقول ميريجكوفسكى انه رعاع ورعاع المستقبل ايضا . . . هل تذكر حديثنا فى عربة القطار ليلا ؟ كنت سكران ولكننى لم انس شيئا . اين كان يكمن الخطأ ؟ الفلسفة والمنطق فى حاجة الى هدف يصححهما ، مثلما يحتاج التصويب الى هدف منظور ، وهذا الهدف هو معرفة عميقة لتجارب الحياة . . . ان الثورة شىء ، وعماتوتيل كانت شىء آخر !

– سيرغى سيرغيفيتش ، وماذا حدث بعد ذلك ؟ . .

– بعد ذلك . . . خرجت من القش ليلا . في الضيعة كانوا يغنون الاغاني . يعني أن المنتصرين قد سكروا . اصطدمت بجثة مقطوعة القوائم ، وبأخرى . وفهمت كل شيء . . . واخذت حصانا ، وانطلقت في السهب ، حيث قضيت عدة أيام مؤلمة . . . والتقطتني فصيلة من خيالة بودوني ، وهو فارس في سهوب سالسك . . . واوصلوني الى محطة كوبرلي ، ومن هناك الى هنا . وهنا بقيت طويـــلا في المستشفى . . . وبقى دفتر الخدمة والوثائـــق في معطفـي ، في القش . . . اتذكر معطفي ؟ انك لن تحصل على مثله الآن . . .

– اسمع ، وهل قتل غيمزا ايضا ؟

– فقدنا غيمزا منذ زمان مع صف من العربات . وقد اصيب بحمى تيفوس شديدة . . .

– يؤسفني أمر غيمزا .

– الجميع مأسوف عليهم ، يا ايفان . لا ، انا اكذب . ليس ذلك أسفا . . . لقد تعودت على الفوج ، وليس من اللائق ان ابقى وحدى حيا . . انا لا اجد مكانا لي ، يا ايفان . ذهبت الى مقر القيادة ، وطلبت سرية على الاقل . . . انا افهمهم جيدا . فانا رجل غير معروف لهم . وليس لدى غير البطاقة العسكرية . . . تكلم عنى في القيادة ، ارجوك . . .

– بالطبع ، يا سيرغى سيرغيفيتش . . .

– ان احسن شيء هو ان تضمنى الى الفصيلة . كلمـــــة شرف . . مساعد على الأقـــل ، جندى الاتصـــــال . . . انظر ما فعـــل القـدر بنا . . . هــــل تذكـــر كيف كتبنـــا الاشعار في شقتك ، واخفنا البرجوازيين ؟ كل شيء لا يذهب سدى ، وكل شيء يخلف اثرا . عبثت ونسيت . . . واذا بك تجد نفسك امام لوحـــة جبارة يقف لها شعر رأسك . اسمع ، هل تذكر كيف عثرت عليك في زريبة عند الالمان ؟ كانت غارة عظيمة ! ثم حين كسرت سيفي . . . لطيف جدا اننا نلتقي من جديد . . . انت تبدو في صحة ممتازة ، يا ايفان . لقد تعلقت بك ، او شيء من هذا القبيل . . . اسمع ، واين زوجتك ؟

وانقطع حديثهما ، فقد لحقت بهما العربات التى انطلقت مسرعة نحو الرصيف .

. . . .

هبط غروب هائل كئيب وراء سطوح المدينة ، مـــن خلال دوامة الغبار ناشرا حمرته الدموية في السحب المتحركة ، وتحرك تلع قليل دائرا فوق الفولغا . وكانت العربات المحملة التى يحرسها العمال المسلحون قد اقلعت منذ وقت بعيد . والفر الشـــاطئ . ابتعدت السفينة عن المرسى ، وسارت مع التيار ثم ارست دون ان تشعل الاضواء .

وجلس البحارة يسترهم المحزمة وراء حاجز المرسى محجوبين عن الريح صامتين لا يدخنون ، ومعهم القنابل اليدويـــة واكياس الامتعة والبنادق . وقد عرفوا من احاديث العمال ماذا كان يجرى في هذه المدينة الخالية المضاءة بغروب دام كدر . وكانت الأمور لا تبعث على الفرح .

كان ايفان ايليتش ينتظر الخيول لتفريغ المدفعين ، وينظر في ساعته قلقا ، وقد تلفن عدة مرات الى مقر القيادة . واتضح ان الخيول قد ارسلت ، وامروا الفصيلة بان تأتى مع المدفعين الى المحطة . خرج ايفان ايليتش الى سطح المرسى متغلبا على قوة الريح المطبقة على الباب . فوجد انيسيا نازاروفا امامه .

– لماذا انت هنا ؟

صمتت مطبقة شفتيها ، وخفضت رأسها ازاء نظرته . كان شال مهلهل مرقع ، يبدو حاميها الوحيد من البرد ، مشدودا على كتفيها ، ووراء ظهرها كيس من الجنفاص . قال ايفان ايليتش :

– لا ، لا ، لا . انزلي الى السفينة ، يا انيسيا . لســـت بحاجة لك في فصيلتى .

بينما كان الرجـــال يسحبون المدفعين عبر المعبر الخشبى الى رمل الساحل ويشدونهما الى الخيول . انطفأ الغروب في السحب واندمج النهر بالشفاق الداكنة . سارت الفصيلة نحو المدينـــة وهى تحث الخيول المشـــدودة الى المدفعين . اقبل شاريغين نحو ايفان ايليتش ، وقال بصوت خفيض :

– ماذا سنفعل مع انيسيا ؟ الرفاق يطلبون ان تبقى مع الفصيلة . . .

وفي اللحظة التالية ابتعد لاتوغين عن عجلة المدفع ، وتقدم نحو ايفان ايليتش من الجهة الاخرى :

– ايها الرفيق القائد ، انها بمثابة ام لنـــا . انت تعرف ما الجبهة . . . يمكن ان تاتي بشيء وتساعد وتغسل قميصا . . . انها امراة قوية الشكيمة ، ولو كانت عادئة المظهر . ظلت متعلقة بنا تعلق الكلبة ، ما العمل . . .

وكانت اتيسيا وراء ايفان ايليتش ، كانت تسير مع الفصيلة مطرقة الراس ايضا . قال شاريغين :

– لنقل انها ممرضة غير متدربة . . . شيء رقيق . . .

وهز ايفان ايليتش راسه : «صحيح . انا ايضا اردت ان ابقيها» . عاد لاتوغين ثانية الى عجلة المدفع ، وامسك بها ، وصاح بالخيول التي كانت تجاهد بكل قوتها لتصعد المرتفع «هيا ، يا لطاف ، اصعدي !» وكان الرمل المتطاير من المرتفع يتناثر على الفصيلة ، ويدور مجنونا . واخيرا سارت العجلات على ارض الشارع . كانت البيوت التي لا تكاد تبين مظلمة وما من نافذة مضاءة فيها . وكانت الاسلاك على الاعمدة تطن طنينا شديدا ، وتطقطق اللافتات . وكان ايفان ايليتش يسير مبتسما . «ها انت قد تلقيت درسا ، وضربت على انفك ، اى ، ياقائد ، لا اراك مراعيا شعور الناس . صحيح . ولا اعتراض عليه . . . استلقيت على جنبك من تيجتي حتى تساريتسين ، مصغيا الى الثرثرة ، ولم تعرف اى اناس هؤلاء الفتيان . . . انظر اليهم يمشون مشية البحارة المتمايلة . والريح تعبث بالاشرطة على قبعاتهم . . . لماذا ربطوا مصيبة اتيسيا ومصيرها البائس بمصيرهم بدون مناقشة ، وفي ساعـــة كهذه ، حين امروا بترك الحياة السهلة على السفينة ، والزحف خلال الزوابـــع الرمليـــة الباردة ، في هذا الظلام ليحاربوا ويموتوا ؟ هل هم بواسل الى هذه الدرجة ؟ لا ، كلا ، انهم يبدون اناسا اعتياديين للغاية . نعم ، لست بالقائد ذي الشان ، يا ايفان ايليتش . . . الجاهل . . . القائد الجيد هو الذي يحفظ في اصعب الاحوال نفسية كل مقاتل مهما كانت معقدة . . .» .

واستبد به قلق شديد من حديثه الاخير مع سابوجكوف ، ومن حادثة اتيسيا التي قد تبدو غير ذات اهمية . ووجه اللـــوم

لنفســه ، قبل كل شيء ، واتهم نفسه بالانانيـــة ، واللامبالاة ، والارتخاء وكمد الذهن . . . في مثل هذا الوقت جعل خديه يمتلئان ، وحتى سيرغي سيرغيفيتش لاحظ ذلك . . . وبينما هو يفكر وقع على فكرة اخرى ، واحس فجاة بالدفء ، وبان قلبه يهنا بلحظـــة مضيئة . فقد كان وراء كل هذا التدقيق مع النفس فكرة خفية ، هي ارجاع حب داشا السابق لنفسه . . . ثم نخر في هيبـــة غيار هاجمته من وراء منعطف ، فطرد من ذهنه هذه الافكار غير المناسبة كليا .

في المحطة تلقى ايفان ايليتش امرا بتحميل المدفعين فورا ، واتخاذ مواقع المدفعية في منطقة محطة فروبولوفو . وقد سلم له الملاحظ الامر ، وهـــو شـــاب فاره ذو عينين رهيبتين سوداويين كليلة من آذار ، وشعر نام على خديه . ارتبك ايفـــان ايليتش بعض الشيء ، واخذ يشرح له بانه ليس مدفعيا ، بل من المشاة ، ولا يستطيع ان ياخذ على عاتقه مسؤولية قيادة بطاريـــة . قال الملاحظ بخفوت وتهديد :

– هل مفهوم لك الامر ، يا رفيق ؟

– مفهوم ، ولكنني اوضح لك ، يا رفيق . . .

– في اللحظة الراهنة ليست القيادة بحاجة الى توضيحات . هل تنوي تنفيذ الامر ؟ . .

«اوه ، يا للشيطان ، كيف يتحدثون هنا» فكر ايفان ايليتش مع نفسه ، ووجد نفسه يؤدي التحية العسكريـــة : «حاضر !» واستدار ، وسار الى السكة .

كانت الامور في هذه المدينة لا تشبه الامور في اية مدينـــة اخرى . ففي محطات المدن الاخرى مثلا ، اذا كنت تريد الذهاب الى اي مكان كان عليك ان تسيـــر خلال جمـــوع من البرجوازيين المتنكرين المستلقين جنبـــا الى جنب والجنود الهاربين والفلاحين والنساء مع اكياس يخرج منها ذيل ديك او يقبع فيها خنوص . اما هنا فلا يوجد احد ، بل تبدو الارض مكنوسة رغم ان الغبار الذي تطلقه الريح خلال النوافذ المحطمة كان يغطي بطبقة كثيفة الملصقات على الحيطان ، وحانوت المرطبات الذي تركه صاحبـــه منذ زمان . وحتى الاحاديث كانت تدور هنا بطريقـــة خاصـــة –

باختصار وتحذير ، كما يتحدث الانسان واصبعه على الزناد .

تسلم ايفان ايليتش قاطرة وامرا بالشحن بسرعة دون جهد زائد ودون صياح . تلفن الى مقر القيادة وسألهم عن سابوجكوف فاجابوا : «حسنا ، خذه على مسؤوليتك ...» وكان الطاقم قد بدأ بشحن المدفعين على عربتى شحن على ضوء المصابيح المتأرجحة . وقف ايفان ايليتش يتمعن فى وجوه البحارة . هذا هو غافين من مدينة توفغورود بوجهه القاسى ذى التجاعيد العميقة ، والشعر الأسود الساقط من تحت طاقيته على جبينه حتى جفنيه ، وهذا بايكوف الهزل السكير ذو اللحية المريضة المغبرة التى تبدو معلقة فى وجهه الصغير ، والرأس المستدير القوى كالجوزة ، وهو من الشمال ، وكان رفاقه التسعة قد امسكوا بعجلتى المدفع دافعين اياها على اللوحتين المنحدرتين ، بينما كان بايكوف يجلس مقرفصا تارة ، وناظرا من الجانب الآخر تارة اخرى مرددا : «يتحرك ، يتحرك ، يا اولاد ، اضغطوا ، هيا ...» بل ان احدهم لكزه بركبته : «اضغط انت ، يا رجل !..»

وهذا لاتوفين من نيشني توفغورود بوجهه العريض المنمش عن جسارة ، والانف المعوج الذى لا بد انه انكسر فى عراك ، الرجل الشديد البأس المتوسط القامة ، الذكى ، الخطر عند الشجار و«الشرس» مع النساء ... وهذا زادوريفيتر ...

وتقدم منه شاريغين :

– ايفان ايليتش ، اتعرف اين تقع فوروبونوفو ؟

– لا اعرف شيئا هنا .

– انها قريبة . عند تساريتسين تماما . وهناك تقع الجبهة .. يقولون ان البيض يضغطون ... بالمدافع والدبابات يتبعونها على عربات .

والطائرات ... كما ان وراء القوات حوالى مائة الف من القوزاق

كان شاريغين يتحدث بخفوت وانفعال ، لمعت عيناه الزرقاوان ، وارتعشت شفتاه الجميلتان وهو يبتسم . تجهم تيليغين .

– الم تجابه بكل هذا فى المعارك الجدية ، يا شاريغين ؟

فتوهج وجه شاريغين ، وصعد الدم الى انفه الصغير ، واحمر تماما . فتابع تليغين قوله :

– نصيحتى ان تقلل من سماع الاقوال ... كل ذلك لاثارة الذعر ... هل احتميت بطعام الفصيلة ؟

– حاضر !

ورفع شاريغين كفه الى طاقيته بالتحية ، وهو ما لا يفعله عادة . وتألق وجهه ، وكان فتى طيبا سريع الانفعال ، ولكن لا بأس ، سيجتاز الامتحان . ذهب ايفان ايليتش الى عربة البضاعة التى كانوا يربطونها وراء العربات المكشوفة الحاملة للمدفعين ، فرأى سابوجكوف يركض على رصيف المحطة منفعلا ، وقد تأبط كيسه وسيفه .

– ايفان ، تحدثت عنى ؟

– كل شيء على ما يرام ، يا سيرغى سيرغيفيتش ... اركب .

صعد سابوجكوف الى عربة البضاعة . وكانت انيسيا تجلس فى ركن منها على كومة من امتعة البحارة .

انزل المدفعان قبل الفجر على مسافة قريبة من فوروبونوفو ، وهى محطة على الخط الحديدى الغربى ، ونصبا تحت تصرف احدى كتائب المدفعية . وهناك عرف تليغين وفصيلته ان الاوضاع فى الجبهة صعبة جدا . وكان خط الاستحكامات يبنى بالقرب من فوروبونوفو بشكل قوس يمتد حوالى عشرة فراسخ عن تساريتسين ابتداء من عند محطة غومراك شمالا ، وانتهاء عند ساريبتا جنوب تساريتسين . وكان قوس الاستحكامات هذا يمثل خط الدفاع الاخير . وفى المؤخرة وراءه تمتد سلسلة واطئة من التلال ، وابعد منها ينحدر سهل حتى المدينة نفسها . وكان التراجع يعنى النزول الى امواج الفولغا الثلجية .

كانت الريح بالامس قد بددت السحب ، وجمعتها عند حافة السهب فى دجنة حالكة . طلعت الشمس خالية من الدفء . وكان السهل البنى المسطح يمور بعدد جم من الناس : بعضهم يحفر

الارض ، والآخر يدق الاوتاد ، ويمد الاسلاك الشائكة ، ويضع اكياس الرمل . ومن تساريتسين كانت تاتى قطارات البضاعة محملة بالناس ، فينزلون منها ، ويتفرقون ، ويختفون فى الارض . وكان آخرون يخرجون من تحت الأرض ويتجهون نحو المحطة متعبين . وكان يبدو وكان كل سكان المدينة القادرين على حمل رفش قد سيقوا الى هنا للعمل ، ارادوا ام لم يريدوا . . .

جاء فريق من هؤلاء ، حوالى خمسة عشر شخصا من مختلف الفئات من كلا الجنسين ، الى موقع بطارية تليفين يترأسهم مهندس عسكرى عجوز ضئيل البنيان .

وقد هتف بصوت اجش مطلقا شاربيه الاشيبين من لفاح وبرى سميك ملفوف عليه :

– ايها المواطنون ! ان مهمتكم بسيطة . اريد ان تقيموا متراسا ارتفاعه نحو ١٤ ذراع . خذوا التراب من هنا ، والقوه هناك حتى يصل الى هذه العلامة على الوتد . . . تفرقوا خطوة ، وانكبوا على العمل بهمة !

وصفق بيديه الصغيرتين المورّدتين من البرد ليشجعهم ، وخرج من الحفرة بسرعة . شيعه الناس بنظرات مشبعة بالحنق . هزّت امراة وجهها المستدير فى اثره :

– الخجل ، يا غريغورى غريغوريفيتش ، الخجل !

وبقى الاخرون واقفين ، حاملين الارفاش بشكل يوحى بأن هذه الارفاش بالذات هى الادوات الفظيعة للدكتاتورية البروليتارية. ولم يشرع يحفر الارض غير فتى غليظ الشفة بارز الحنجرة كان مسرورا جدا فى ان يكون فى المواقع الحربية ، الا انهم هسوا به فى الحال :

– الخجل ، يا بيتيا ، اترك العمل حالا . . .

وشرعوا يتحدثون جميعا مخاطبين شخصا ذا وجه اصفر عصبى كان حتى ذلك الحين يقف مغمض العينين ، مترنحا بعض الشيء . وكان معطفه الرسمى لموظف وزارة المعارف قد شد بحبل فى تحد .

– لماذا صمت ، يا ستيبان الكسييفيتش ؟ . . انتخبناك . . . وننتظر منك . . .

رفع جفنيه باستشهاد ، واختلج خداه .

– سأتكلم ، يا سادة ، ولكن ليس مع غريغورى غريغوريفيتش . . يجب ان نلبس الحداد جميعا على غريغورى غريغوريفيتش . . .

وفى تلك اللحظة انقذفت حجارة من المتراس ، وظهر فوق الحفر بوز حصان يعض الشكيمة باسنانه ، ومن الاعلى انحنى من السرج فارس عريض المنكبين ، محمر الخدين ، ملتح يضع على راسه قبعة كوبانية . قلص عينيه ، وسال ساخرا :

– الا تستطيعون ، ايها المواطنون ، ان تقرروا العملون ام لا ؟

عندئذ تقدم ستيبان الكسييفيتش قليلا الى الامام بمعطفه المشدود بحبل ، ورفع راسه الى الفارس ، واجاب برقة مقنعة ، كتلك التى تستعمل مع الاطفال فى الدرس :

– يا رفيق ، انت الرئيس الكبير هنا ، على قدر معرفتى . . . (هزّ الفارس راسه مرحا ، وربّت بيده المقفزة على حصانه الواقف يحذر على حافة الحفرة) . يا رفيق ، باسم فريقنا اللى جند الليلة بالقوة على اساس قوائم لا يعرف احد عنها شيئا ، اعلن عن احتجاجنا القاطع . . .

فقال الفارس الملتحى ، ولكن بلهجة مهددة هذه المرة :

– اها !

– نعم ، نحن نحتج ! – وتقطع صوت ستيبان الكسييفيتش – انتم تضطرون ناسا غير قادرين على العمل العضلى ، على ان يحفروا لكم الخنادق . . ان ذلك اسوا اوقات التحكم . . انتم تمارسون العنف ! . .

واختلج خداه كلاهما ، واغمض عينيه ، لأنه تكلم كثيرا جدا ، وتارجح وجهه الاصفر المرفوع . . . نظر الفارس اليه وقد تقلصت عيناه ، وارتعش منخراه الكبيران ، وانطبق فمه بقوة ، فلاح كالجرح . نزل من الفرس ، وهبط الى الحفرة ، وضرب بنطلون الركوب ضربة واحدة ، وقال :

– بالضبط . نحن نضطركم للدفاع عن تساريتسين ، اذا كنتم لا تستطيعون ذلك اختيارا . فلماذا يضايقكم هذا ؟ . . هيا ليعطنى احدكم رفشا .

ودون ان ينتظر مد" يده الكبيرة بقفازها البنى ، فأسرعت تلك المرأة الممتلئة المستديرة الوجه لتقدم رفشها اليه ، وكانت طوال الوقت لا تصرف عنه عينيها الذاهلتين .

– لا حاجة لأن نتشاجر . ان ذلك سـوء تفاهم محض – وغرس الرفش ، وقلع التراب ، والقـاه بقوة على المتراس فى الاعلى – نحن نحارب ، وانتم تساعدوننـا . وعدونا واحد ... فالقوزاق لا يرحمون احـدا . سيسلخون جلدى . وسيجلدونكم واحدا واحدا ، ويقتلون بعضكم بالسيوف ...

كان يضطرم بالعافية والقوة كمـا يضطرم الموقد . القى بعض الارفاش من التراب ، والقى نظرة سريعـة على الواقفين . «هيا» وربت على كتف الفتى ذى الحنجرة البارزة ، وعلى آخر لطيف المظهر ابله قليلا له رموش بلون القش . «هيا ، لنريهم كيف يكون العمل» . ابتسم الشابان بارتباك ، وشرعا يحفران ويلقيان التراب . وهز الاخرون اكتافهم ، ثم اخذوا الارفاش وبدأوا العمل . وقالت السيدة ذات الوجه المستدير : «وانا ايضا ، اسمحوا لى» وتعثرت برفشها . فامسكها الأمر الملتحى ولا بد ان قبضته كانت قوية ، فقد احمرت وبدا عليها المرح . وخشى ستيبان الكسييفيتش ان يظل وحيدا ، فقال بصوت عال :

– ولكن كيف ذلك يا رفاق . الثورة ، والعنف ؟ الثورة قبل كل شئ هى ضد العنف .

اجاب الملتحى بصوت رنان :

– الثورة تطبق العنف ضد اعداء الشغيلة ، وتتحقق هى نفسها عن طريق هذا العنف . مفهوم ؟

– ... ولكن هذا ضد الاخلاق ...

– ... تطبـق البروليتاريـا العنف عليكم ليتحـرر العالم كله من العنف .

– اسمح ، اسمح ...

– لا ، – قال الرئيس بقوة – لا اسمح لك . لقـد اخذت تشاكس ، وذلك تخريب . خذ الرفش ... يا رفـاق ، يعنى

استطيع ان آمل بان المتراس سيكون جاهزا فى الساعة الحادية عشرة . الى اللقاء ...

كان البحارة يستمعون الى هذا الحديث من بعيد ، ويغالبون الضحك ، وعندما غادر رئيس مدفعية الجيش العاشر اقبلوا على المتقفين للمساعدة ولكيلا تتراخى همتهم .

٤

كان فوج بيتر نيقولايفيتش ملشين يتراجع مع الفرقة كلها على طول الجهة اليسرى من الدون صادا ليل نهار الوحدات الامامية للطابور الثانى التابع لجيش الدون المجهز بشكل جيد ، والمؤلف على الطريقة النظامية . كان رجال فوج ملشين قد اضنتهم المعارك والمسيرات الليلية ، بلا طعام ساخن ، ولا نوم ولا راحة . وكان قوزاق كراسنوف يعرفون جيدا كل وهدة ، وكل منخفض مائى فى تلك السهوب ، ويحصرون الخصم فى الاماكن الملائمة لهجومه . فى الفجر بدات وحدات مشاتهم فى اطلاق النار لصرف الانظار ، بينما كانت خيالتهم تشق طريقها خلال الوهاد والمنخفضـات مـن الجانبين ، وتهاجم بشكل مباغت وبضراوة وصفير وصياح .

وكان ملشين يقول للمقاتلين «الصمود ، يا رفاق ، هو اهم شئ ، قوتنا فى التلاحم . ونحن لا نهاب هؤلاء البراغيث . فنحن نعرف الغاية التى نقاتل من اجلها ، والموت عين لنا . القوزاقى جرئ ولكنه طماع ، وهو يريد غنيمة ، ولا يريد ان يفارق حياته ، ويحرص على فرسه اكثر من اى شئ آخر» .

سارت سرية ايفان غورا كحراسة للمؤخرة مغطية طابور العربات ، حيث كان الجرحى فى كل عربة فيـه . وكان من غير الممكن تركهم ، وما من مكان يتركون فيه . فقد كان القوزاق لا يأخذون اسرى . خيالة كانوا اومشاة . وكانوا يجردون كل من نجا من المعركة ممن ذوى النجوم الحمر من ملابسهم ويذبحونهـم بالسيوف . وبعد أن ينتشوا من ذلك ينصرفون ناظرين الى الجثث المقطعة بفظاعة ، ماسحين سيوفهم باعراف خيولهم .

لم يكن فى الدون قط مثيل لتلك البغضاء الضارية التى ظهرت

في القرى الفتية . . . فقد جاء اليها محرضون من نوفوتشيركاسك ، وطاف الزعيم كراسنتوف بنفسه في بعضها . وبقرع الجرس جمعوا «حلقة انقاذ الدون» وحسب العادة القديمة خلعوا القبعات وانحنوا ودعوا القوزاق الى شحذ السيوف وامتطاء الخيول : «حانت ساعتك ، ايها الدون الحر ، فانهض . . . سنزحف على تساريتسين كالسحابة القوزاقية الرهيبة ، ونقضي على وكر الشيوعيين اللعين ، ونطهر الدون من الجرثومة الحمراء . . . انهم لا يريدون ان يعيش الدون غنيا مرحا ! انهم يريدون ان ينتزعوا خيولنا وماشيتنا ، ويعطوا ارضنا الى الفلاحين القادمين من تولا واريول ، ويأخذوا زوجاتنا الى فرشهم ، ويرسلونا نحن ، القوزاق العمالقة ، ملح ارض الدون ، الى المناجم الى الأبد . . . لا تدعوهم يلوثون معابد الله ، ونافحوا عن محراب وطننا . لا تضنوا بالحياة . . . وسيقدم زعيم جيش الدون العظيم تساريتسين لكم لمدة ثلاثة ايام بلياليها» .

كان امر السرية ايفان غورا المديد القامة المكور الكتفين ذو الوجه المسود من السهر ، قد تعود في تلك الايام على رؤية خيالة القوزاق يلوحون من بعيد في الافق ، وعرف عاداتهم ، فلم يكن يأمر رجاله بالانبطاح دون فائدة ، بل كان يطلب اليهم ان يسيروا دون ان يلتفتوا الى الوراء .

سار طابور العربات في المقدمة في صف متراص عربة وراء عربة ، يعقبه الجنود في مشية ثقيلة مهلهل الثيـــاب ، نحيلين ، مطاطئ الرؤوس . وكان ايفان غورا نفســـه يسير في المؤخرة كالثمل . قبل نصف عام كان رجلا قويا ، الا انه اصيب في هذا الصيف بجرح في رأسه اثر ضربة بالفاس في زريبة حين كان يصادر الحبوب ، ثم اصيب بارتجاج الدماغ في معركة قرب محطة ليخايا . كان يسير نشيطا تارة ، ويغفو في السير تارة اخرى . وامام عينيه الغائمتين تتراءى ذكرى لطيفة ما : الناس يجلســـون على جذوع الاشجار في غسق الصيف ، وخطاف يطير محوما فوق رؤوسهم . . . او اعشاب خضراء وعليها وسادة عليها اغريبينا ضاحكـــة . . . وكان يطرد من ذهنه هذه الاحلام ، ويتوقف ، ويعدل وضـــع

البندقية على كتفه ، ويفتح جفنيه الثقيلين ، وينظر الى السائرين ، والى العربات بجرحاها المتقلبين ، والى السهب المنبسط المحروق الداخل في روحه ، ينداح على امتداد البصر ، بني الاديم موحشـــا متماوجا لا شجرة فيه ولا عمود للغراف . وتعثر ، وهزّ رأسه . . . آه ، لطيف ان يسير الآن بجوار عربة ، ويضع يدا على حافتها ، ويغفو لحظة في السير !

وها هم ثانية الفرسان الصغار في طرف السهب ، وطلقات من هناك ، ويصفر الرصاص ببراءة .

— انتباه ، يا رفاق ! يا مَن في العربات ، لا تناموا ! . .

كانت في العربة زوجته اغريبينا جريحة في ذراعها . ووراء هذه العربة سارت داشا وكوزما كوزميتش .

ارتفعت في الظلام صيحات ممطوطة . وتوقف طابور العربات . ومالت داشا على حافة العربة في الحال ، ووضعت رأسها على يدها . ومن خلال تهويمتها سمعت ايفان غورا يقترب ، ويتكلم بصـــوت خافت مع اغريبينا الجالسة في تلك العربة . . .

— اتمنى لو ادخن . . انني اكاد اسقط .

— لماذا توقفنا ؟

— استراحة حتى الساعة الخامسة .

— من قال لك ؟

— جاء مراسل .

— الق رأسك عليّ ، يا ايفان ، واغف .

— وهل هناك فرصة ؟ . . انظري الى فتياتنـــا . . . كيف هدّهم التعب . . . وانت لماذا لا تنامين ، هل تؤلمك يدك ؟

— تؤلمني .

صرفت العربة صريفا خفيفا . جلب نحوه اغريبينا ، وزفر بعمق مثل حصان متعب .

— يقول المراسل : ان العدو يعبر الدون ومعه قوة هائلة ! ووراء الافواج يسير الرهبان مع الرايات ، والعربات تحمل براميل الفودكا ، والقوزاق يهجمون وهم سكارى ، جزارين تماما . . .

— كلْ شيئا من الخبز ، يا ايفان .

اخذ يمضغ ببطء ، ويبتلع بعسر ، ثم تمتم :

– نحن على مقربة من الدون تماما . وعلى مسافة قريبة يوجد معبر ، وقد اخذه القوزاق الى الضفة الأخرى . ولهذا السبب توقفنا ، على ما اظن .

اهتزت العربة مرة اخرى ، وانفصل ايفان غورا عنها ، وانصرف بخطوات ثقيلة . وهدأ كل شيء : الناس والخيول . وكانت داشا تنفخ في كمها . . . سنتخلى عن كل شيء من اجل لحظة مثل هذه من التحابب المكظوم مع من تحبه . اوه ، يا للقلب الحاسد الغيور ! عم كنت تفكرين من قبل ؟ وماذا كنت تنتظرين ؟ كان حبيبك العزيز على مقربة منك ، ولكنك لم تهتمي به وفقدته الى الأبد . . . ادعيه الآن ، واصرخي : ايفان ايليتش ، ايفان فانيا . . .

. . . ايقظها كوزما كوزميتش . كانت ترقد منطوية تحت العربة . كانت طلقات تتردد من بعيد ، وكان فجر اخضر ينتشر في الرحاب . وكان البرد شديدا جعل اسنان داشا تصطك ، واخذت تنفخ في اصابعها .

– داريا دميتروفنا ، خذي حقيبتك بسرعة ولنذهب . . . هناك جرحى . . .

ترددت الطلقات في الاسفل عند النهر حادة في سكون الصباح . نهضت داشا بصعوبة ، وقد تخدرت تماما من النوم القصير على الارض الباردة . عدّل كوزما كوزميتش عليها شارة الاسعاف ، وركض في المقدمة ، ثم عاد :

– اسرعي ، يا عزيزتي ، اسرعي . . . جماعتنا على مسافة قريبة . الا تسمعين انينا ؟ لا ؟

ركض ثم توقف مادا رقبته ، وتفحص ما حوله . لم تلق داشا بالا للعابه ومجيئه ، ولكنها كانت تشمئز من جبنه هذا .

– عزيزتي ، انحني . الا تسمعين صفير الرصاص ؟

وكان كل ذلك توهما منه . فلم يئن جرحى ، ولم يصفر رصاص . وتوهج ضوء الفجر . والى الامام لاح نقاب ابيض ، وكان النهر قد فاض على الضفاف . كان ذلك الضباب الخريفي الواطئ ينفرش فوق النهر ، وعلى شجيرات الصفصاف العارية عند الشاطئ . وكان ايفان غورا يغوص فيه الى الوسط ، وكأنه يغوص

في حليب . وعلى مسافة ابعد جندي آخر في قبعة عالية وثان وثالث يلوحون حتى الحزام . كانوا يمدون ابصارهم الى ضفة الدون اليمنى العالية التي لم يصل اليها الضباب . وهناك ، وراء النباتات السوداء تصاعدت غيوما كثيرة من الدخان في الهواء الراكد .

وقد رآها كوزما كوزميتش ايضا ، فبدا وكأن الغبطة قد خنقته . واتسعت عيناه وقال :

– انظري ، يا داريا دميتروفنا ، انظري ماذا يجري ! انهم جاءوا مع الجيش لينهبوا . مائة الف عربة . . . هؤلاء كقبائل الرحل القديمة ! انظري : خيول غير مشدودة ، وعربات ! وعند النيران يضطجع رجال ملتحون وسكاكينهم وراء جزماتهم . . انظري ، يا داريا دميتروفنا . . منظر يرى مرة واحدة في العمر . . .

ولم تر داشا عربات ولا خيولا ولا قوزاقا يضطجعون عند النيران . . ومع ذلك فقد احست برهبة . استدار غورا واشار لهم بيده ان يجلسوا في الضباب ، وتمتم كوزما كوزميتش وكأنه مستغرق في قراءة رواية شيقة :

– حبذا لو تري ذلك لمثقفينا . ها ؟ حلم لا يروى . . . ارادوا دستورا ، وهذا هو ! ارادوا ان يحكموا الشعب الروسي . . . اي ، اي ، اي . . . اختلقوا الروايات عنه ، صبور وكسول وخاشع . . . اي ، اي ، اي . . وهذا هو . . . يقف الى حزامه في الضباب رهيبا ذكيا ، يفهم كل مصيره ، وعيناه نافذتان في جحافل العدو . . . اي ، انظري الى هذه الجموع . . . لقد شدت احزمتها ، ولبست قفازها . . . لن تجدي ذلك في اي كتاب تاريخي . . .

وفجأة توقفت طلقات بنادق ورشاشات . وتوقف كوزما كوزميتش في نصف جملته . كان ايفان غورا واقفا في المقدمة فادار راسه . وانهبد انفجاران كامدان عند النهر في الاسفل ، وفي الحال اصطبغ الضباب بوهج ارجواني ، وتناهت صيحات بعيدة وتتابعت الطلقات من جديد .

– يبدو ان اصحابنا احرقوا المعدية على الضفة الاخرى – قال كوزما كوزميتش ذلك واطلع راسه من الضباب – مذبحة ، هناك ، مذبحة . . .

وركض ايفان غورا وصف من جنوده نحو الشاطئ منحنين ، واختفوا في الاجمة . انتشر الشروق عريضا على السهب ، وشف الضباب واهتز وتمزق بين اغصان الصفصاف العارية . وارتفعت فجاة صيحات رهيبة فوق الشاطئ ، فوق نقاب الضباب عند النهر حتى ان داشا ضغطت قبضتيها على اذنيها . وانبطح كوزما كوزميتش على الارض .

ضربات ، وصلصلة ، وطلقات ، وعويل ، وطرطشة مياه ، وانفجارات قنابل يدوية .

ثم ظهر ايفان غورا من الاجمة . سار مبتلا الهواء ، زافرا بقوة . وكان راسه خاليا من الطاقية ولكنه كان يحمل قبعتين قوزاقيتين عليهما شارتان حمراوان . تقدم من داشا وقال :

— سارسل نقالة ، فاركضي سريعا الى النهر . هناك رفيقان يحتاجان الى تضميد ...

ونظر الى القبعتين ، ورمى واحدة منهما ، ووضع الاخرى على راسه بحركة عصبية .

— اراد الاوغاد تطويقنا على القوارب ... اذهبي ، لا تخافي . قضينا على الجميع هناك ...

٥

كانت شواطئ الدون تضج بين قريتي نيشني – تشيرسكايا وكالاتش . فقد كانت افواج جيش الدون العظيم بخيالتها ومشاتها تعبر النهر على ثلاثة جسور عائمة وفي المعديات والزوارق . كانت الخيالة تسير بتشكيلة الزحف ، وهي في بزات جديدة ، وقبعات مائلة وخصلاتها التقليدية بارزة منها على الجبين ، حسب العادة . والاعلام الصغيرة الملوّنة على رؤوس الرماح . والماء يتناثر من بين الواح الجسور من تحت حوافر الخيول الفتية التي كانت تحدج الدون الرمادي المياه بعيون زائغة .

كان المشاة من الشباب الفظ يجتازون النهر بزوارق طويلة ، وقد فغروا افواههم ، وهم ينظرون الى التجمع الضخم للقوزاق والخيول والعجلات ، ويقفزون من الزوارق الى الماء ، ويتسلقون

الشاطئ العالي ، ويصطفون وبنادقهم عند اقدامهم ، ويخلعون قبعاتهم . وكان الشمامسة بخصلاتهم المتطايرة يصرخون كالوحوش ويقرقعون بمباخرهم ، بينما كان القساوسة الذين يبدون كالاجراس الذهبية بحللهم المزهرة يباركون القوات .

كان الجنرال ماموتتوف يراقب العبور وهو واقف تحت راية القائد العام على رابية امام ضباط القيادة والحراس . وكان منظورا جيدا من قبل الجميع في بزته العسكرية القوزاقية السوداء ، على صهوة جواد فضي كان يضرب الارض بحافره . كانت القوات تسير منشدة الاناشيد على قرع الطبول ، وخصل شعر الخيول على الصوالجانات القوزاقية تتطاير في الهواء . وكان هدير المدافع يسمع في شرق السهب المغلف بغبار القوات السائرة .

رفع القائد يده التي يتدلى منها السوط ، محتجبا عن الشمس ، ونظر الى الطائرات وهي تطير واجنحتها مائلة قليلا الى الوراء ، وعدها ، وراقبها حتى اختفت هابطة نحو الافق . مرت بالرابية المدافع الثقيلة التي انزلت لتوها من السفينة ، وقد رسموا على دروعها ومواسيرها خطوطا للتمويه . ومرت عربات تجرها خيول صغيرة مختلفة الالوان قصيرة القوائم شعث الاعراف وسواقها الملتحون يسوطونها بجنون . وقبل أن يهدأ الغبار جاءت الدبابات الضخمة من الواح التدريع المبرشمة وقد ارتفعت الوف جنازيرها المسننة ، وعدها القائد . عشرة من الاغوال الفولاذية ستسحق الاوغاد الحمر في شوارع تساريتسين . نزل من الرابية وعدا بفرسه بمحاذاة الشاطئ ورايته الزرقاء السوداء تخفق وراءه مرفوعة بذراع حاملها .

وحملت القوارب قوات جديدة ، وسارت المعديات تحمل عربات العلف ومختلف الامتعة . وبالقرب من المعبر وقفت عربات مختلفة الاشكال منها عربات كبيرة تستخدم في حمل الحزم من الحقل . والقوزاق الموقرون واقفون بينها بهدوء ينتظرون المعدية ، اوسائرون او جالسون عند النار يمضغون . كان هؤلاء هم التجار الذين ارسلتهم القرى القوزاقية الى قواتها . وكانوا يقومون بالشئون المعيشية وياخذون المغانم من النقود والماشية والحبوب والعلف او الاشياء الاخرى الضرورية من الملابس والبطانيات

والحشايا وتضد الريش والمرايا والسلاح . ومن هذه المغانم كانوا يزودون قواتهم بالعلف والاغذية وبالملابس والسلاح اذا اقتضت الحاجة ، ويسجلون الاشياء الباقية في قوائم ويضعونها على العربات ، ويرسلونها الى القرى بمعية الاولاد والنساء .

مرّ مامونتوف بضيعة ريتشكوف ، حيث احرق نصف البيوت ، والاهراء قد اسودت من الرماد ، واستدار بمحاذاة الخط الحديدي ، وانتظر قدوم القطار المصفح من الجبهة اليمنى .

كان جيش الدون المؤلف من اثنى عشر فرقة خيالة وثماني فرق مشاة يهاجم بخمسة طوابير .

سارت الطوابير الخمسة كلها بزحف سريع نحو آخر خط لاستحكامات الدفاع عن تساريتسين . وكان الجيش العاشر الذى فقد الاتصال مع الوحدات الشمالية والجنوبية يتراجع متراصا في جبهة تزداد ضيقا . واستنفدت فرقه الخمس بتعدادها القليل آخر الذخيرة وآخر القوى .

كان المجلس العسكرى الاعلى للجمهورية الذى كان عليه ان يقدم مساعدة حاسمة للجيش العاشر مشلولا في تلك الايام بالذات بفعل خيانة سرية حسنة الحبكة انعكست في التاخير الشديد لجميع التحركات ، وفي الاصرار على ان الكفاح في سبيل تساريتسين امر ثانوى ليس له اهمية وعلى ذعر مجلس تساريتسين العسكرى .

وتركت تساريتسين لتدافع عن نفسها ضد القوزاق بقواها الخاصة .

في تلك الايام اصدر المجلس العسكرى للجيش العاشر امرين : اولهما بتسيير جميع السفن والصنادل والقوارب والمعديات من تساريتسين الى شمالها منعا حتى للتفكير في تراجع القوات الى الضفة اليسرى من الفولغا . اما الثانى فكان يخص الجيش ، ويقضى بعدم التخلي عن المواقع المحتلة حتى صدور الاوامر . والتراجع عقابه الاعدام رميا بالرصاص .

مرّ النصف الأول من النهار هادئا في بطارية تليغين . وترامى هدير المدافع وراء الافق ، الا ان السهل كان مقفرا . وكان

البحارة يحفرون ملجا . ذهبت انيسيا الى المحطة ، دون استئذان ، وعادت بعد حوالى ثلاث ساعات تحمل كيسين تنوء بهما : في احدهما خبز وفي الآخر بطيخ . افرغت الكيسين وفرشتهما على الارض بين المدفعين ، وقطعت الخبز ، وقطعت كل بطيخة الى اربع قطع ، وقالت : «كلوا !..» وانتحت هي جانبا بسيطة راضية تنظر الى البحارة الجياع يلتهمون البطيخ . كان البحارة ياكلون دون ان يمسحوا خدودهم ، وهم يغدقون في الثناء :

– عظيمة انت ، يا انيسيا ...

– من العسير ايجاد امرأة مثلك .

– ... امرأة نادرة حقا ...

وقال شاريغين الرصين الذى يدل بدلوه في كل حديث :

– انها صاحبة المبادرة ، وذلك المهم في الموضوع .

رفع البحارة رؤوسهم من قطع البطيخ ، واطلقوا ضحكة صاخبة . تعبس شاريغين ، ونهض ، وتناول الرفش قائلا :

– اقترح ، ايها الرفاق ، ان نحفر لانيسيا ملجأ منفصلا . فان من الضرورى الحرص على مثل هؤلاء الناس ، يا رفاق ...

ضحك البحارة ، وراحوا يحفرون خندقا صغيرا لانيسيا في منخفض وراء البطارية لتختبئ به عند اطلاق النار . ولم يكن هناك من عمل آخر . افرغت القنابل من السفينة ، وصفت صفوفا بالقرب من المدفعين . ونظفت البنادق . واقام سابوجكوف الاتصال مع نقطة قيادة الكتيبة . استلقى البحارة في الاخدود يتدفاون في الشمس . ولسان حالهم يقول : نحن على استعداد لاستقبالك ، يا جنرال مامونتوف .

جلس ايفان ايليتش على عربة المدفع ، ولوى نصلا جافا وكسره . ولم يكن يدخل في مناقشات كبيرة ، فقد كان يعتز بهذا العالم الصغير من الناس الذين جاءوا من مختلف الانحاء ، والذين يختلف بعضهم عن الآخر ولكنهم ربطوا مصائرهم مع بعض . فهذا سيرفي سيرغيفيتش الذى يبدو وكأنه لا ينسجم مع احد ويفيض دائما بافكار حادة اصبح في الحال ضروريا للجميع ، وقد وجد مكانه فورا ، واستقر عند عجلة المدفع يتنفس بعمق . وشاريغين–

الشاب الطموح الذى لا يتميز بالذكاء ، ولكنه صلب ذو روح صافية بلا ظلال – ينام على جنبه هادئا ، وقد وضع قبضته تحت خده . وتمدد زادوفيتر على الرمل بعظمة محولا الى الشمس وجهه الجميل الخشن التقاطيع . انه فلاح ماكر جسور مدبر اذا كتبت له الحياة فسيعود الى بيته ليدير شؤونه . ولاتوغين مارد آخر من غابات سيبيريا يشخر شخيرا جبارا وقد غطى وجهه بطاقيته . انه اكثر تعقدا بكثير وبلا مكر – فهو ليس بحاجة اليه – وهو نفسه لا يعرف بعد اى سماء سيتسلق ومعه مسدس وقنبلة يدوية .

اوكل اثنا عشر رجلا حياتهم الى ايفان ايليتش . وسلمه المجلس العسكرى البطارية فى مثل هذه اللحظة الحرجة . . . صحيح انه كان يعرف شيئا فى الرياضيات ، ومع ذلك فقد كان عليه ان يعلن لهم بثبات انه لا يصلح للقيادة البطارية . . .

– اسمع ، يا غاغين ، هل يعرف احد منكم حساب زوايا التسديد ؟ اذ ليس عندنا مقياس المسافة . . .

كان غاغين واقفا على سلمة الخندق يتطلع الى السهب من فوق المتراس ، فالتفت وسال كئيبا مثبتا نظرة سوداء فى تليغين :

– مقياس المسافة ؟ وما حاجتك الى مقياس المسافة ؟ سيبلغوننا بالتلفون من نقطة القيادة عن الزواية والتسديد .

– صحيح .

– كلنا نعرف الزوايا والتسديدات والمسافات . ولكن ليس هذا هو الأمر ، يا رفيق تليغين . . . ستكون المعركة رهيبة دون مقاييس المسافات ، بل بالحقد . اعمل المستحيل ، واضرب حتى آخر قذيفة . هذا ما ينبغى ان تفكر فيه . . . تعال هنا ، ساريك شيئا .

صعد تليغين اليه على السلمة . اشتد هدير المدافع ، وكأنه قد اقترب . وكان الافق فى الغرب والجنوب ملفعا بعتمة داخنة . نظر تليغين الى الاتجاه الذى يشير اليه اصبع غاغين ولاحظ فى السهل مجموعة من الرجال تزحف من الشمال ، وصفا من العربات .

قال غاغين وهو يشير براسه الى دخان هائل يرتفع بشكل مظلة فى الجنوب صوب ساريبتا :

– رجالنا يتراجعون . منذ مدة طويلة وانا ارى الافا والافا يركضون فى هذا الاتجاه . . . هل ترى الانفجارات ؟ انها لم تكن من قبل . انهم يضربون بالمدافع الثقيلة . توقع ظهور الجنرال هنا فى صباح الغد .

تفقد ايفان ايليتش مرة اخرى اجهزة البطارية . واحصى القذائف والخراطيش . لم يكن هناك غير مشطين لكل بندقية . وقد اقلقه بشكل خاص موقع البطارية المكشوف . كانت الخنادق المحفورة حديثا تلوح من الموقع على مسافة ما يقرب من اربعمئة متر ، ولكن لم تكن تبدو فيها اية حركة ، بينما كانت وحدات القوات الحمراء تمر الى مسافة ابعد بكثير . جلس تليغين بالقرب من سابوجكوف . كان وجه سابوجكوف متغضنا ، وكان النوم لم يعد سهلا عليه .

– اعذرنى ، يا سيرغى سيرغييفيتش ، على ازعاجك . صلنى بآمر الكتيبة . . .

فتح سابوجكوف عينيه الغائمتين :

– ولماذا ؟ لقد اعطيت الاوامر بعدم اطلاق النار . وسيبلغوننا اذا اقتضى الأمر . . . ما الذى يقلقك ؟ – وتحرك نحو العجلة وتثاءب بتصنع واضح : احسن ما تفعله ان ترقد وتشبع نوما .

عاد ايفان ايليتش الى السلمة ، ووقف طويلا بلا حراك واضعا يديه على المتراس . كانت شمس برتقالية داكنة هائلة تغوص فى العتمة التى اثارتها حوافر الافواج القوزاقية التى لا عد لها فى مكان ما وراء الافق . تحرك ظل الليل على الوادى ، ولم يعد من الممكن تبين حركة القوات فيه . وصارت السماء فى الشفق تحت نجمة المساء الصافية كبلاد خيالية عند بحر اخضر ، وقد اصطفت هناك ابراج صينية ، ثم انفصل واحد منها ، وعام ، وتحول الى حصان ذى راسين ، ثم الى امراة تلوى ذراعيها . . .

وبدا وكان المرء ما ان يخرج من الحفرة ، ويحرك قدميه ، مثلما يحدث فى الاحلام ، حتى يجد نفسه قد طار الى تلك البلاد

الرائعة . والا فما معنى ظهورها لك في ساعة المعركة المميتة .

قال سيرغي سيرغيفيتش ، وقد وضع يده على ظهره :

– دعك عن هذا . فانه مثالية محض ، يا ايفان ، ان تحدق في الاشباح . هل تلف سيكارة ؟ لقد عرفت في المستشفى علبة التبغ . فانا احرص عليه لأدخنه قبيل الموت . . .

وكان على عهده يتحدث بلهجة ساخرة ، رغم ان حزنا يختفي في الغضون القاسية عند فمه ، وفي عينيه الغائمتين . لفا سيكارتين ، وشرعا يدخنان . دخن تليغين دون ان يمص الدخان ، بينما راح سابوجكوف يعبه شاهقا .

سأل تليغين بخفوت :

– لماذا تضرب على وتر الموت ؟

– اصبحت اخاف الموت . . . اخاف أن تصيبني رصاصة في الراس . فانها لن تقتل في مكان آخر ، اما في الراس فاخافها . الراس ليس هدفا ، فقد صنع لشيء آخر . انني اشفق على افكاري . . .

– كلنا نخاف ، يا سيرغي سيرغيفيتش ، فقط لا يحسن التفكير في ذلك . . .

– وانت هل اهتممت بافكاري مرة واحدة ؟ انت لا تعرف الا ان سابوجكوف فوضوي ، وسابوجكوف يحب الفودكا . . . بينما ارى انا من خلالك ، وكأنما من زجاج ، حتى آخر تلافيف دماغك . واستطيع ان انقل رسالتك الى الاحياء . بينما انت لا تستطيع ان تنقل شيئا عنى . . . وهذا شيء مؤسف جدا . انا احسدك ، يا ايفان .

– على اى شيء تحسدني بالذات ؟

– انت انسان مكشوف : الواجب ، والحب المخلص ، والنقد الذاتي ، خادم في منتهى الوفاء ، وفتى طيب . وستعبدك زوجتك حين تستقر . وحياتك بسيطة ، لأنك انسان من طراز قديم .

– شكرا على الشهادة .

– اما انا فآسف لأن غيمزا لم يرمني بالرصاص في ذلك الصيف . لقد انتظرنا الثورة ونحن نرتعش من اللهفة . وقذفنا

في العالم بحزمة من الافكار : ذلك هو العصر الذهبي للفلسفة والحرية المنشودة . فاذا بها كارثة ، افظع كارثة . . .

وضرب بكفه فوق عينيه ضربة ازاحت طاقيته على علباته .

– كنت اود بهذا الخصوص ان ادلي ببيان الى البشرية ، – لا اكثر ولا اقل – بيان خبيث للغاية وليس للخير – فليذهب الخير الى الشيطان – بل للشر . ولكن لا توجد نسخة مكتوبة ، لم اكتبها بعد . . . ارجو المعذرة .

وكان الظلام قد خيم . وعلى الافق اشتعل حريق وتصاعدت التوهجات الحمراء الداخنة والنسعت ولاسيما الى الجنوب في ناحية ساريتا . فقد كانت المزارع تحترق مضيئة الطريق للعدو المهاجم بسرعة . كان تليغين الآن يسمع باذن واحدة : هناك بعيدا في الغرب كانت الصواريخ الخضراء تنطلق ثلاث دفعة واحدة ، وكأنها افاع تطل برؤوسها البراقة من وراء الافق .

الا ان سيرغي سيرغيفيتش واصل كلامه بعناد وبصوت مرتعش دون ان يعير التفاتا الى هذه الاضاءات ، مما جعل جلد ايفان ايليتش يقشعر بين لحظة واخرى .

– ام اننا نعيش لكي نأكل ؟ في هذه الحال لتحطم الرصاصة جمجمتي ودماغي الذي كنت اعتبره ، وانا في تمام الخطأ ، يعادل الكون كله ، لينفجر مثل فقاعة صابون . الحياة ، ولعلك تدرى ، هى حلقة من الكاربون زائدا حلقة من الازوت ، زائدا مادة اخرى تافهة . ومن الجزئيات البسيطة تنشأ اشياء اكثر تعقدا ، ثم معقدة جدا ، ومن ثم معقدة بشكل رهيب . . . وبعدها انفجار ! ويبدأ الكاربون والازوت والتفاهة الاخرى بالتحلل الى ابسط حالة . وهذا كل شيء ، كل شيء يا ايفان . . فما علاقة الثورة هنا ؟

– اى هراء تقول ، يا سيرغي سيرغيفيتش ؟ الثورة هى التى ترفع الانسان فوق الابتذال .

– اتركني وشأني ! ثم انني لا اتحدث معك ، فانت لا تفقه في الثورة كثيرا . الثورة انتهت ، حطمت . فانظر ابعد من الفك . . . ان روسيا السوفييتية الآن في حدود ما قبل ايفان

الرهيب . وقريبا ستكون جميع الطرق بيضاء من العظام . وستنتصر حلقات الكاربون والازوت ، واعنى بذلك اولئك الذين سيأتون فى الصباح على خيول .

صمت تليغين منتصبا فى وقفته ، وبداء وراء ظهره ، وفى الظلام كان من الصعب تبين تقاطيع وجهه الحمراء من الوهج .

– ايفان ، لا تستأهل الحياة ان تعاش الا من اجل مستقبل خيالى ، وحرية عظيمة كاملة ، حين لا يعاق الفرد بأى شخص او بأى شيء من ان يشعر بأنه معادل للكون كله . وكم من امسيات تحدثت فيها عن هذا مع رجالى ! كانت النجوم التى فوقنا هى نفس النجوم فى زمن هوميروس العظيم . والنيران التى كانت تحترق هى نفس النيران التى اضاءت الطريق خلال الوف الاعوام . واصغى الفتيان الى حديثى عن المستقبل وصدقوا بى ، وفى عيونهم التمعت النجوم ، وانعكس ضوء النيران على حراب القتال . . . وهم جميعا يرقدون الآن فى السهوب . . لم اقد رجالى الى النصر . . . يعنى ، خدعتهم !

على بعد حوالى مائة وخمسين خطوة الى اليمين ترددت صيحة حارس تبعها حديث خافت . التفت تليغين متفحصا . لا بد ان احدا من الجماعة تقدم من غاغين الواقف فى الحراسة فى الجانب الآخر .

– وماذا لو كان هذا المستقبل ، يا ايفان ، مجرد حكاية اسطورية رويت فى سهوب روسيا النائية ؟ وانه لا شيء ؟ واذا كان الأمر كذلك فان الرعب يجتاح العالم . – وتقدم سابوجكوف من تليغين تماما ، وقال همسا – وقد جاء الرعب وحتى الآن لم يصدق احد بذلك عن حق . والرعب اخذ من توه يمتحن قوة المقاومة . ان اربع سنوات من ابادة البشر ليست شيئا اذا قيست بما هو آت . ان تدمير الثورة عندنا وفى العالم اجمع هو الشيء الاساسى . . . وبعد ذلك التعبئة الشاملة العامة للفردية . رؤوس حليقة وغل فى اليد . . . وفوق رقات العالم الرمادية يسيطر الرعب المنتصر المنتفخ . . . من الافضل لى ان اقتل فى الحال بضربة حارة من سيف قوزاقى . . .

قال تليغين :

– انت بحاجة الى راحة وعلاج ، يا سيرغى سيرغيفيتش .

– لم اكن اتوقع جوابا آخر منك ! .

نزل غاغين الى الحفرة بصحبة عسكرى طويل مكور الكتفين . فرح تليغين فرحا غامرا بانتهاء حديث ثقيل لا يطاق . كان القادم ملطخا بالوحل وذيل معطفه ممزق ، ومن الغريب انه كان يرتدى قبعة قوزاقية . وقد تكلم بصوت كثيف ، وكأنه ظل اسبوعا غاطسا الى رقبته فى مستنقع :

– مرحبا ، ايها الرفيق الآمر . كيف الحال عندكم ، هل لديكم قذائف ؟

اجاب تليغين :

– مرحبا . ولكن من انت ؟

– انا من سرية فى فوج كاتشالين . وقد أمرنا باتخاذ موقعنا امامكم . انا آمر السرية .

– لطيف جدا . لقد بدأت النق : الخنادق حفرت ، ولكن لا توجد لدينا نقاط حراسة .

– وها قد جئنا واتخذناها . كما جلبنا جرحى . وسنطعمهم فى قطار . اردت ان اطلب خبزا من الملاحظ فقال : لقد وسيكون غدا . بينما السرية لم تتناول شيئا منذ ثلاثة ايام . . . الا يوجد لديكم ؟ على الاقل قطعة لكل فرد ، ليشموا رائحته . . . سنرده لكم غدا . وقد نهدى لكم بقرة .

سمع تليغين من يناديه ، فالتفت . كانت اليسيا قد اقتربت كالظل وسمعت الحديث ، فقالت :

– ادخرت خبزا يكفى لثلاثة ايام . يمكن ان نعطى لهم . . . فى الغد ساحصل على كمية اخرى .

ضحك تليغين ضحكة قصيرة :

– حسنا اعطى للرفيق آمر السرية اربعة ارغفة .

لم يكن آمر السرية يتوقع ان يقدموا له الخبز بهذه السهولة . فتساءل «حقا ؟» وشكر . وتناول الخبز الذى جلبته اليسيا ، ووضعه تحت ابطه ، الا ان الخجل منعه من الانصراف حالا . وجاء البحارة يتمطون بعد النوم ووقفوا يحدقون فى هذا الرجل الموحل المهلهل الثياب . فاخذ يحدثهم عن مآثر الفوج الذى ظل

عشرة ايام يخترق الحصار دون ان يفقد مدفعا واحدا ، ولا عربة جرحى ، الا انه كان يتكلم بتشوش وغموض حتى ان بعض البحارة اشاح بيده وانصرف .

قال لاتوفين ، وهو ينظر اليه ببرود :

– خذ قسطك من النوم اولا ، ثم حدثنا . . . ولكن الا تعرف لم هذا الضوء الساطع هناك ؟ – واشار بيده ناحية ساريتا .

اجاب ايفان غورا :

– انا اعرف . لقد التقيت في المحطة برجل من هناك . . . ان الجنرال دينسوف يقتحم ساريتا . يقولون : في الحرب مع المانيا لم تكن النيران بمثل هذه الشدة . المدفعية تمحو كل شيء . والقوزاق يتدفقون من المنخفضات . . . يا للهول . والزبد يسيل على لحاهم . . . يا للهول . . . انها مذبحة . انهم لا يأخذون اسرى . لم يبق من فرقة مروزوف الا نصفها . والعدو يندفع نحو الفولغا حتى يطلع اليها ما بين ساريتا وتشابورنكى . عندئذ سينتهي الأمر !

وهز رأسه للبحارة ، وخرج من الحفرة . ساله تليغين :

– من هو قائد فوجكم ؟

اجاب غورا وقد اختفى في الظلام :

– ميلشين بيتر نيقولايفيتش . . .

٦

ظلت فرقة مروزوف تتقهقر ببطء تحت ضغط الطابور الخامس طوال الليل واليوم التالي نحو ساريتا ، وقرية تشابورنكى الواقعة على بحيرة . كانت مئات الجثث تتناثر في السهل . لم يترك الجنرال دينسوف الحمر يلتقطون انفاسهم . وكان كل هجوم يصد يعقبه هجوم جديد في الحال . وكانت قنابل الشرابنيل تعول وتنفجر فوق الخنادق . والانفجارات تهز الارض ، وزوابع التراب تنهال على المقاتلين . وعندما تصمت مدافع القوزاق . كان المقاتلون يخرجون من الخندق وجوههم التي شوهها الحنق والالم ولطخها الدم .

ظهرت مجموعات عديدة من الخيالة من وراء التلال والوهاد وانتشرت في عدوها كالطفح البركاني ، وتصاعد الغبار من تحت حوافر الخيل . . . لوحوا بسيوفهم ، وولولوا على العادة التترية القديمة . فلو جبن مقاتل وركض مذعورا أمام الانثيال العاصف للخيول الصهباء العريضة الصدور والفرسان السود المطبقين على اعراف خيولهم في اندفاع لارواء سيوفهم بالدم الحار فان صف المقاتلين سيتحطم ويطعن بالسيوف ويداس بحوافر الخيل . . .

ثبت جناحا فرقة مروزوف بعزم وقد دفعا الى حدائق ساريتا ووراء قرية تشابورنكى الا ان الوسط التوى نحو الفولغا دون ان يتكسر ، تماما مثلما تتلوى اليد تحت ثقل ضاغط . وهنا بالذات ، في الوسط ، على الخطوط الامامية كان يوجد قائد الفرقة والمفوض السياسي والمرافق والمراسلون المقرفصون وراء اجسام خيولهم المطروحة . وكان القائد يستعيض عن القتلى والجرحى بالامتدادات المتضائلة بالتدريج والتي كان يسحبها من الجناحين . الا انه لم يطلب احتياطات من قائد الجيش حيث لم يعد هناك شيء يأخذه في تساريتسين .

واليوم صباحا حصل حادث مؤسف في الخط الرئيسي للدفاع . فان افراد الفوجين الاول والثاني من الفلاحين الذين عبئوا من المزارع والقرى القريبة قد خرجوا من الخنادق فجأة ، ورفعوا بنادقهم فوق رؤوسهم ، وذهبوا للاستسلام للبيض . وفي قيادة الفوج الأول احاط بعض امراء الوحدات في مطبخ الميدان بقوميسار الفوج والشيوعيين ورموهم بالرصاص . وفي نفس الوقت حدث الشيء ذاته في الفوج الثاني حيث رمي بالرصاص قائد الفوج والقوميسار وبعض الشيوعيين . وبقيت سريتان فقط على الوفاء ، ولم تستجب للاستفزاز ، وفتحت النار على الخونة الذين كانوا يركضون رافعين رايات بيضاء نحو مواقع البيض للاستسلام . ولما رأى جنود مامنترف هذه الجموع من بعيد ظنوا انهم مهاجمون ففتحوا نارا حامية عليهم . وارتبكت فلول الافواج الفلاحية والقت السلاح وارتدت الى الوراء ، وحوصروا ، واقتيدوا . وصارت الجبهة مكشوفة لخمسة فراسخ تقريبا .

وفى تساريتسين صدرت صفارات الانذار فى مصنع السلاح والمصنع الميكانيكى وجميع مصانـــــع نشر الاخشاب . وكان الشيوعيون الذين ارسلهـــم المجلس العسكرى يطوفون الورش ويقولون :

– اتركوا العمل ، ايها الرفاق ، واحملوا السلاح ، وانقذوا الجبهة .

ولم يكن فى المصانع من العمال غير الشيوخ والعجزة والاولاد القاصرين . فتركوا العمل ، وخبأوا المعدات ، واوقفوا الالات ، واطفأوا الافران ، وهرعوا الى المستودعات حيث كان يحفظ ما لديهم من اسلحة . واصطفوا وراء البوابة ، واتجهوا نحو محطـــة القطار .

هرولت الزوجات والامهات من البيوت الصغيرة فى الضاحية ، ودسسن فى ايديهم صرر الطعام الصغيرة ، وسارت نساء كثيرات الى المحطة وراء الفصائل التى كانت تسير فى صفوف متخلخلـــــة وكثيرات منهن صاحبتهم ابعد من ذلك ، الى المواقع نفسها . وهناك ظلت الامهات والزوجات واقفات طويلا على التلال حتى جاء قائد الجيش وتوسل اليهن ، وهو يضع يده على قلبـــه ، بأن يعدن الى بيوتهن ، لأنه لا حاجة اليهن هنا ، بل هن مصدر اعاقـــة ، لأنهن يجعلن من انفسهن وهن واقفات على مكان مرتفع هدفا واضحـــا لمدفعية مامنتوف .

وقبل ان ينتهى النهار سد" ثلاثة الاف عامل من عمـــــال تساريتسين الثغرة على الجبهة ، حيث بدأ البيض ينفذون منها ، وقذفوا بهم الى الوراء متكبدين خسائر فادحة .

كان ذلك حين كانت فرقة مروزوف تتحمل ضغطا لا مثيـــل لاستماتته من الخيالة والمشاة ، وقد دفع بوسط الفرقـــة الى الفولغا تقريبا . وكانت القذائف تنفجر فى شوارع ساريتشـــا ، واحترقت قرية تشابورنكى ، وانتشر اللهيب فى سطوح القش ، واحترق القصب على ضفاف البحيرة فى السهب .

كان قائد الفرقة يتفحص السهل بالمنظار . كانت الشمس تغوص فى الافق . رأى الخيالة القوزاق يتجمعون ويتفرقون ببطء دون محاولة للاخفاء ، وقد عرفت عينه المجربة من تحفز الخيول بأن

هذه وحدات جديدة متهيئة لآخر هجوم . واذن فبحلول المغيب ستكون فرقة مروزوف كلها وعلى رأسها قائدها قد بدأت مسيرتها الاخيرة عبر صفحات التاريخ .

انزل المنظار ، واخرج غليونا مسودا ، ووضع فيه معيدين تشكيلتهم قبضة من تبغ ساراتوف ، واخذ يبحث عن علبة الكبريت متلمسا جيوب معطفه . ولم يجدها . تلفت يمنـــة ويسرة . كان المقاتلون يستلقون على بعد خطوات الى الأمـــام امام اكوام من التراب . كانت بقعة سوداء تنتشر على قميص احدهم ، وكان الآخر يشخر كأبله حاكا خده على مقبض البندقية .

القى قائد الفرقة الغليون على الارض بحـــــذر فتدحرج فى الافسنتين ، وتناول المنظار ثانية . فارتجفت يداه بشكل لا ارادى .

كانت تحشدات جديدة ضخمة من الخيالة ترى الى الجنوب الغربى . . . فقد ظهرت من مكان ما بينما كان يملأ غليونه . طلعت عدة الاف من الخيالة من وراء التلال مثيرة الغبار الـــذى اضاءته الشمس المائلة . قال القائد لنفسه : ان قوة كهـــذه يمكن ان تحطمنا وتدوسنا بعصفة واحدة ! ابعد قائد الفرقة عينيه عن المنظار لحظة . سكن كل شيء فى الخنادق ، وتوتـــر . ونهض المقاتلون ، ضاغطين على البنادق . وقبل أن يفتح قائد الفرقة فمه ليقول لهم كلمة حادة ترامى هدير المدفعية من بعيد فعاد الى منظاره مرة اخرى . اى شيطان هذا ! ارتفع زهاء عشرين انفجارا فى السهل قرب خيالة القوزاق المتحشدة . واسرع القوزاق يعدون متحولين الى جبهة عريضة للهجوم ، ولمعت راية الزعيم فى الوسط . واستدار القوزاق ليواجهوا هذه الكتل المندفعة من الخيالة . تراجعت العصبة الكثيفة من القوزاق وقد مدت حرابها ، ثم اصطفت ، واطلقـــت خيولها الى الامام . واندفعت كلتا الكتلتين من التلال ، وتقاربتا واختلطتـــا . وارتفعت سحابة هائلـــة من الغبار فوق ذلك المكان .

قرب قائد الفرقة عدسة منظاره ، ورأى مشاة العدو ينهضون بذعر من الارض التى كانوا ينبطحون عليها .

وقال قائد الفرقة لنفسه : «اها ! لهذا السبب اذن الح" رئيس المجلس العسكرى فى التلفـــون على الصمود لآخـــر قطرة من

دم . . . يعني وصلت فرقة دميترى شيلست الفولاذية . . .» .

وفى اثر الخيالة التى هاجمت القوزاق نهضت من وراء التلال صفوف كثيفة من مشاة الفرقة الفولاذية . وابعد من ذلك ، عند الافق لاحت من خلال الغبار جمال وعربات وجموع من الناس . انها قوافل الفرقة التى كانت تجر وراءها ، كما اتضح بعد قليل ، كميات هائلة من القمح ، وبراميل الكحول مع مئات النازحين وقطعـــان المواشى .

وسقط قوزاق كثيرون فى المعركة ، وتراجعت الخيالة البيضاء المحطمة نحو الغرب ، واختلط مشاة العدو بين صفوف الفرقـــة الفولاذية وفرقة مروزوف وتحطم قسم منهم . واستسلم القسم الاخر . ولما انتهى كل شىء — وقد استمرت المعركة نحو ساعة — ركب قائد الفرقة جواده ، وسار به فى السهل المزروع بجثث القتلى من الرجال والخيول . وكان الدخان لا يزال يتصاعد هنا وهناك ويتردد انين الجرحى الذين لم يلتقطوا . التقى قائد الفرقة بجماعة من الخيالة . كان يتقدمهم رجل يرتدى ملابس كوبانية ويضع صفوفا من الرصاص على صدره ، وخنجرا كبيرا عند خصره بينما تدلت نهاية منديله الصوفى على كتفيه . وقد حث حصانه الاسود وتقدم من قائد الفرقة واوقف حصانه فجاة ، وقال بصوت حاد آمر :

— مرحبا ، يا رفيق . مع من اتحدث ؟

— مع قائد فرقة مروزوف الدونية . مرحبا ، يا رفيق ، ومن انت ؟

اجاب الفارس بضحكة مقتضبة :

— من انا ؟ تمعن فى . انا ذلك الرجل الذى اعتبره قائد الجيش العادى عشر خارجا على القانون ، واراد ان يرميه بالرصاص فى تيفينوميسكيا ، ولكننى جئت الى تساريتسين ، وفى الوقـــت المناسب ، كما يبدو .

لم يعجب قائد الفرقة كثيرا بهذا الكلام المتباهى الطويل ، فتعبس ، وقال :

— اذن ، انت دميترى شيلست . . .

— اعتقد ان هذا هو اسمى منذ الطفولة . والآن ارنى اين يمكن ان اتحدث بالتلفون هنا مع المجلس العسكرى .

— لقد تحدثت اليه . والمجلس العسكرى على علم بكـــل شىء .

اجاب دميترى شيلست بعجرفة :

— لا يهمنى ما تحدثت به . دعهم يسمعون صوتى .

ولكز حصانه الاسود لكزة جعلته ينطلق كالمجنون .

٧

فى ساعة متاخرة من المساء ارسل ايفان ايليتش مذكرة الى العقيد ميلشين : «يا بيتر نيقولايفيتش ، انا هنا ، واود كثيرا ان اراك . . .» فرد ميلشين مع نفس المراسل : «سعيـــد جدا . مناتى حالما ادبر امرى . عندى اشياء كثيرة احدثك بهـــا ، بالمناسبة هل تعرف من عندى الآن ؟»

ولكن القلم انكسر ، او انه كان يكتب فى الظلام فلم يتبين ايفان ايليتش الكلمات الاخيرة ، رغم انه اشعل بضعة اعواد من الثقاب . . .

ولكن ميلشين لم يات . وبعد منتصف الليل اخذت الصواريخ تضئ السهب . وتلقت البطارية امرا بالاستعداد .

قال ايفان ايليتش لرجاله :

— والآن ، يا رفاق ، يجب اعتبار المعركة قد بدات . يعنى كونوا حريصين حتى لا تنفجر قذيفة واحدة عبثـــا . . . ثم انكم على علم بامر قائد الجيش القاضى بعدم التراجع خطوة واحدة دون امر خاص بذلك . يعنى كل شىء يحدث فى المعركة . . . (وفكر مع نفسه . . اللعنة كيف لصقت بى «يعنى» هذه) فى عام ١٩١٥ وضعوا خلفنا رشاشات ، لأن الجنرالات لم يكونوا يثقون بان الفلاح سيريق دماءه فى سبيل مولانا القيصر . . . وعلى الرغم من انهم كانوا يلعنون نيقولا فى الخنادق ، ولكن روسيا ، على اية حال ، هى بلادهم . . . ولم يكن فى تلك الحرب ارهب من هجوم الحراب الروسية . . .

وفجاة سال لاتوغين ببحة :

— يا آمر ، ما معنى هذا الهراء ؟ . . ها ؟

الا ان ايفان ايليتش تابع كلامه وكانه لم يسمع شيئا .

– والآن لا توجد رشاشات وراء ظهورنا . وخيانة الثورة هى الخطع من الموت بالنسبة لكل واحد منا ، يعنى لكى تنجو بجلدك . . . يجب ان نفهم امر قائد الجيش على النحو التالى : الا تضعف فى الساعة الحاسمة حين تشتعل الارض تحت اقدامك . يقولون هناك اناس لا يعرفون الخوف . ان ذلك كلام فارغ . . . . فان الخوف موجود ، وهو يرفع راسه . وعلينا ان نحطم راسه . . . . فالعار اقوى من الخوف . . وانا اقول ذلك ، يا رفيق لاتوغين ، لأن هناك رفاقا لم يتمرسوا بعد فى معارك خطيرة . . . وهناك رفاق ذوو اعصاب ضعيفة . وقد يصاب احنك الناس بالارتباك . ولهذا فلو اصبت ، انا الآمر ، بالضعف وخرجت من البطارية ، مثلا ، آمركم برمى بالرصاص فى الحال . وانا من ناحيتى ارمى بالرصاص مثل هذا الرجل . يعنى هذا كل شىء . . . امنع التدخين حتى يحل الصباح . . .

سعل مرة أخرى ، تمشى وراء المدفعين بعض الوقت . وكان يريد ان يقول اشياء كثيرة ، ولكنه لم يستطع . . .

– لا مانع من الاحاديث ، يا رفاق .

ناداه لاتوغين مرة اخرى :

– يا رفيق تليغين – واقترب تيليغين منه واضعا يديه خلف ظهره – قبل انخراطى فى الجيش طوفت فى الدنيا . . . عاريا حافيا مشاكسا . وعملت حمالا فى الموانى ، وكسرت الحطب للتجار ، ونظفت المراحيض ، واشتغلت سائسا فى اسطبـــل الاسقف ، وتشاتمت مع لياقته بسبب سوء الطعام ، واشتبكت مع اللصوص فى وقت ما . . . رايت كل شىء ! اوه ، كنت احمق ، شقيا ، وكانوا يضربوننى . . . احيانا حتى اكاد اموت . . .

قال بايكوف :

– من اجل النساء ، فى الغالب ؟

وانفجر صاروخ بعيد فلمعت فى ضوئه الشاحب اسنانـــه الصغيرة وسط لحية كثيفة .

– ومن اجل النساء ايضا . . . ولكن ليست هذه هـــى المسالة . المسالة الك ، يا رفيق تليغين ، لم تقـــل لنا الشىء

الاهم . حمت حول الموضوع ولم تصب لبه . . . الواجب الثورى ، هذا صحيح . ولكن لماذا اخذنا هذا الواجب على عاتقنا طواعية ؟ هلا اجبت على ذلك ؟ لا تستطيع ؟ طبعا ، لقد اكلت طعاما آخر . اما نحن فقد ذقنا الويل ، وسلبت ارواحنا . ويبدو ان ما من حيوان يستطيع ان يتحمل ما تحملناه . لو كنت فى مكاننا لدليت عنقك منذ زمان ، وجررت الحمل . انتظر ، لا تتكدر ، فنحـــن نتحادث انسانا لانسان . لماذا قضت امى حياتها كلها تخـــدم الناس ؟ ما الذى يجعلها اسوا من ملكة اليونان ؟

قاطعه بايكوف ثانية :

– يا لها من شطحة ! راينا ملكة اليونان فى عام ١٩١٣ فى اثينا . ما الذى ذكرك بها ؟

– ولماذا عاش ابى عيشة الخنزير ، حتى ضربه الجندرمة فى الحقـــل حتى الموت ، وبصقوا عليـــه ؟ لماذا يسموننى ابن الكلب ؟

قال شاريغين ، وقد نهض من ركبتيه وكان جالسا فى مكانه عند القذائف :

– هذا لا يصح . انت تتحدث حديثا غير منظم ، يا لاتوغين . ما شان ابن الكلب هنا ، وما علاقة ملكة الاغريق ؟ . كل ذلك بناء فوقى . ولكن الجوهـــــر فى الصراع الطبقى . عليك ان تعرف مكانك : من انت ؟ بروليتارى ام عنصر لا طبقى . . .

صاح به لاتوغين :

– اذهب الى الشيطان ! انا ملك الطبيعة . هل هذا مفهوم لك ام ما زلت غرا ؟ كنت قد طالعت كتابا جاء فيه ان الانسان ملك الطبيعة . ولهذا السبب اقف عند هذا المدفع . ان ملك الطبيعة يعيش فينا . الواجب ، الواجب ، الخوف الخوف ! انا اليوم ساضرب بمدفعى الرب نفسه لا الجنرال مامونتوف . ذلك هو بناؤك الفوقى ! ساقضم عظامه باسنانى . . .

صاح سيرغى سيرغييفيتش من مكمنه عند تلفون الميدان :

– سكوتا ، يا رفاق ! ابلغكم ان نجاحا كبيرا قد حققناه قرب ساريتا . حطمنا فوجين من الخيالة ، وفوجا من مشاة القوزاق . وقد قتل الف وخمسمائة واسر ثمانمائة .

وسرى نبأ النجاح قرب ساريبتا فى الجبهة . وفى هذه الاثناء كانت وحدة من وحدات الجيش العاشر – فرقة بودونى للخيالة – تشق طريقها من سهوب سالسك الى تساريتسين ، وكان قد تطعها هجوم الطابور الخامس . كانت المسيرة قاسية ، وقد اصاب لاعياء الناس والخيول . ثم استطاع احدهم فى محطة صغيرة ان يتصل بالمصادفة تليفونيا بمقر قيادة مروزوف وسمع صوتا مرحا يهتف بالسماعة مطعما كلامه بعبارات لاذعة : «هل انتم نائمون ؟ ولا تعرفون اننا قطعنا فرقتين من خيالة الاوغاد طعاما للكلاب ؟ تعالوا لتحصوا الاسرى» ولدى سماع هذا النبأ العظيم ، وان كان مبالغا فيه كثيرا اوقفت الفرقة قوافلها تحت الحراسة ، وقامت بمسيرة مائة فرسخ صوب الشمال لملاقاة اوغاد الجنرال دنيسوف .

الا ان النجاح قرب ساريبتا كان محليا على اية حال ، ولم يخفف الوطأة فى مواقع تساريتسين الرئيسية ، بل جعلها اصعب . واستفاد ماموتتوف بسرعة من الحادث السار بخصوص فوجى الفلاحين الهاربين ويعيد فى الليل تنظيم طوابير للهجوم ، ومنذ الفجر حوّل كل ثقل الهجوم الى هذا القطاع من الجبهة الاقل حصانة والممتد خمسة فراسخ الذى كانت تحميه حفنة ضئيلة من فصائل العمال .

كان السهل الذى دخلته نخبة قوات الدون مقطوعا بمنخفضين عميقين ضخمين يقطعان الجبهة من الغرب الى الشرق ويمتدان حتى المدينة نفسها . واخذت الخيالة القوزاقية تسير فيها مقتربة من خنادق الحمر . وكان السهل كله يبدو مغطى بكتل من التراب تبدو مثل بيوت النمل . ذلك زحف المشاة . وامامهم تزحف دبابات هائلة بجنازيرها العمياء . وكانت الطائرات تحوم حول البطاريات وعربات المؤونة الممتدة عبر السهب من تساريتسين والى تساريتسين ، وتلقى قنابل صغيرة كالكمثرى تنفجر بقوة رهيبة .

كان قطار ماممتوف المصفح يرسل دخانا فى الافق . وكان السهب كله الى يساره ويمينه مملوءا بعربات الريفيين التى كانت تتحرك فى اعقاب القوات فى كتل متلاصقة . وكان تجار القوزاق يرون المدينة بقبابها ومداخن معاملها وادخنة الحرائق فى الضواحى .

آه ، كم كانت العيون تلمع تحت الحواجب الكثيفة لهؤلاء الناس القواحين برائحة الدخان وشحم الخنزير والقطران !

وفوق السهب كانت القذائف تنطلق مخترقة الهواء هادرة مطوقة مواقع الحمر بنواقير من التراب . وقفز الخيالة من المنخفضين العميقين زاعقين واندفعوا الى الخنادق خلال الاسلاك الشائكة لا يلوون على شىء بضراوة غارمة بحيث ان رصاصة لو اصابت قوزاقيا ولاح فى عينيه ظل الموت فانه سيمضى فى عدوه شاقا الهواء بسيفه حتى ينهار على السرج ، ويبسط ذراعيه وكأنه يقهقه بجنون ويتدحرج من حصانه المذعور .

زحفت صفوف المشاة ثم اندفعت الى الامام . واشتبكت الخيالة والمشاة فى عراك عند خنادق الحمر . وقد امر ماموتتوف جميع القوزاق فى ذلك اليوم بشد شريط ابيض حول قبات طاقياتهم خوفا من ان يخطىء رجاله فيطعن بعضهم بعضا فى معمعان المعركة . وازداد القتال فظاعة واستماتة لأن المتحاربين فى كلا الجانبين كانوا من الروس . بعضهم فى سبيل حياة جديدة غير مشهودة والبعض الآخر فى سبيل ان يبقى القديم على حاله .

وفى كل مرة كانت موجات الهجوم تتراجع مصطدمة بقطارات الحمر الصغيرة المدرعة . وكانت هذه القطارات المصنوعة على عجل فى مصانع تساريتسين – اما من صهريجين للبنزين او من عربتين للبضاعة مكشوفتين بينهما قاطرة – تسير على طرق خلف الجبهة . وكانت احيانا تنفذ برشاشاتها ومدافعها الى قلب المعركة . وكانت تعتصر من قاطراتها القديمة الصغيرة آخر ما تبقى لديها من قوة ، وتنطلق وسط الانفجارات وسحب البخار المنبعثة من جوانب القاطرات التى اخترقها الرصاص ، وتجوب الطرق المحطمة حاملة الماء والخبز والذخيرة الى الخنادق .

– استلق !

وعلى مقربة حدث انفجار شديد جعل الضوء يشحب ، والجسم ينضغط ، وتساقطت على الفور كتل التراب على الظهور والرؤوس والايدى التى ارتفعت لتقيها .

– الى المدفع . . الى الاماكن !

صاح تليغين ، ووثب ، ولمح بشكل مبهم ومن خلال الغبار مدفعا محطما برزت احدى عجلتيه الى الاعلى ، والرجـــال يقفزون نحوه غضابا . . . «كلهم سالمون . لاتوغين ، بايكوف ، غاغين ، زادوفيتر . . اين شاريغين ؟ . . هنا . . . سليم . . المدفـــع الثاني سليم ، بيتشيكين ، فلاسوف ، ايفانـــــوف . . . يهز راسه . . .» .

وصرخ سابوجكوف بصوت مبحوح طالعا من الخندق المتهدم وفي يده سماعة تلفون :

– ابعد الى اليسار ، ستة وثمانون ، التسديد ستـــــة صفر ، البطارية ، نار !

ويكرر تليغين الأمر ساعلا غبارا . ويلقي شاريغين القذائف الى بايكوف ، الذي يعاين فتيلة الانفجار ، ويقذفهـــا الى غاغين المعبى* . ويفتح زادوفيتر المغلاق ، ويقوم لاتوغين بالتسديد ، ثم يرفع يده :

– نار !

تهتز ماسورتا المدفعين ، وتنطلق القذائف . . . جمدت حركات الرجال السريعة ، مثل شريط سينمائي قد اوقف . . . وهذا ما حصل . انقذف ظل ضار ، وومض بريق ، على مقربة .

– استلق !

وتكرر كل شيء . الهدير ، وزوبعة التراب ، والاختناق ، وكان الغيظ قويا حتى أن العروق تبدو وكأنهـا ستنفجر . ولكن ما العمل اذا كان الجانب الآخر لا يبخل بالقذائف ، اما هنا فلم يبق منها الا القليل ، بينمـــا يجلس في نقطة المراقبة للكتيبة غبي لا يستطيـــع ان يحدد بالضبط موقع مدفعيـــة العدو الثقيلة .

جرح لاتوغين في هذه المرة . وقد جلس يصر باسنانه ، بينما كانت اليسيا تتحرك الى جانبه رقيقة خفيفة – لا يعرف احد اين تروح ومن اين تجيء – وخلعت سترته وقميصه التحتاني بسرعة ، وضمدت كتفه . وقالت وقد قرفصت امامه «تعال ، يا عزيزي ،

سآخذك الى نقطة الاسعاف» . ولكنه دفعها عنه وهرع الى المدفع وهو عار الى النصف مدمى يصر باسنانه ، وكأنه يقضم عظمـــة بالفعل .

واخيرا تفجر الحنق الذي لا يطاق والذي اعيا الجميع ساعات طويلة منذ بداية هذه المعركة غير المتكافئة . وكان سابوجكوف قد اجاب من توه على سؤال آمر الكتيبة حول عدد القذائف المتبقية وكان ينتظر الرد . كانت دموع قذرة تنحدر على وجهه من عينيه الملتهبتين ، وكان بين الحين والآخر يرفع السماعة من اذنه ، وينفخ فيها . وقد حدث شيء مفاجيء في الهواء نفسه . فقد خيم سكون ، وامتلات الآذان بالطنين . زحف تليغين على بطنـــه الى المتراس قلقا . وكان ذلك في اللحظة المناسبة . . . لقد بدأ الهجــــوم الحاسم . وكانت العين تميز الكتل الداكنة للخيالة القوزاق والمشاة تلمع بينها هنا وهناك رايات مذهبة . انهم القساوسة الذيـــن نقلوا في السيارات لمباركة القوات في الميدان المكشوف ، على مرأى من بطاريات الحمر .

طلع البحارة على المتراس زاحفين على بطونهـــم ، وكانت انفاسهم ثقيلة . وقال بايكوف ليثير ضحكهم :

– لنضرب الملائكة ضربا مباشرا .

ولم يضحك احد . وقال لاتوغين بحدة وبلهجة آمرة :

– يا آمر . دعنا نخرج المدفعين الى الارض المكشوفة ، لماذا نحن كالفئران في حفرة . . .

– لن نستطيع ذلك دون خيول ، يا لاتوغين .

– نستطيع . . .

وصاح شاريغين :

– لا تجادل الآمر اثناء المعركة . هذه فوضوية !

ودوّت صرخته المباغتة هذه صبيانية غريبة حتى ان البحارة التفتوا اليه متجهمين فغرف الرمل بكلتا يديه ، واخذ يفرك به وجهه بكل قوته . وعاد الى مكانه ووقف بلا حراك سوى ان رموشه الطويلة كانت ترف فوق خديه المفروكين .

نزل تليغين من المتراس ، واقترب من المدفع ، وامسك عجلته .

–لاتوغين على حق ، يا رفاق . . على العموم تعالوا نحفر هنا .

هرع البحارة الذين كانوا يتابعون حركته صامتين الى الارفاش واخذوا يحفرون منحدرا فى الحفرة فى أسهل موضع لاخراج المدفع الى مكان مكشوف .

صاح سابوجكوف بصوت متوتر مبحوح :

– يا تليغين . الآمر يسأل هل يمكن برجالنـــا ان نخرج المدفعين الى مكان مكشوف ؟

– ممكن !

قال تليغين ذلك بهدوء وثقة . كان لاتوغين يعمل برفشه ، رغم ان كتفه الجريحة كانت تسبب له ألما محرقا والدم يسيل منها خلال الضمادة . ثم لكز بايكوف فقال :

– احب المتقفين . ها ؟

واجاب بايكوف :

– سيتعلمون حمل الماء بالمنخال . سيتعلمون شيئا من الفلاحين .

وفجأة تمزق السكون بهدير عاصفة نارية . اندفع تليغين الى المتراس . وامتلأ السهل كله بالقوات المتحركة . ولقطـــع طريقها انطلقت من اليمين وعلى خط غير عال القطارات المصفحة التابعـــــة للآمر اليابيف الذى اشتهر فى ذلك اليوم وهى تعوى وتلهث وتنفث دخانا صدئا . وكان ايفان ايليتش يركز انتباهه على اقرب استحكام لسرية من فوج كاچالين كانت تتخـــذ موقعها وراء الاسلاك الشائكـــــة ، لا فى خنادق ، بـــــل فى حفر . وكانوا قـــد جلبوا اليهم المـــاء توا فى برميل ، الا ان الحصان فزع ، واستدار وقلب البرميل ، وانطلق مع العربة . وشاهـــد تليغين ايفان غورا ، ذلك الرجل الطويل الغريب الاطوار الذى زاره يوم امس . كان يركض خلال الخنادق مقرفصا ، يبدو انه يوزع آخر ما تبقى من ذخيرة .

والى يسار موقع السرية (ويسار بطارية تليغين) وعلى بعد اقل من نصف فرسخ كان يمتد المنخفض الذى يشق الجبهة حتى المدينة نفسها . وكان المنخفض طوال النهـــار تحت القصف ، وكانت موجات القوزاق تتدفق منه بعيدا من هذا الموقع . والآن

فهم ايفان ايليتش وهو يراقب القلق الظاهر بين مقاتلي ايفان غورا ان القوزاق لا بد ان يتوغلوا فى المنخفض ، ويهاجمـــــوا الخنادق من المؤخرة ، والبطارية من الجناح ، فيثيرون المتاعب . وهذا ما وقع بالفعل . . .

لقد طلع الخيالة من المنخفض قرب الاستحكامات مباشرة وانتشروا ، واخذ جزء منهم يلتف على مؤخرة ايفان غورا ، وانطلق اخرون نحو البطارية . فاندفع تليغين نحو المدفعين . كان البحارة يدفعون المدفع من الحفرة الى الاكمة لاهثين شاتمين : لقد غطست عجلتاه فى الرمل .

قال تليغين باهدأ ما يمكن :

– انهم القوزاق ! ادفعوا !

وامسك بالعجلة بقوة جعلت ظهره يقرقع :

– قنبلة شظايا ! بسرعة !

وتردد زعيق القوزاق الوحشى وكأن جلودهم تسلخ وهم احياء . استلقى غاغين تحت عربة المدفع ورفعها على كتفيه : «يالله يا شباب !» واخرجوا المدفع من الرمـــــل ، ووضعوه على الأكمة . فانتصب ماللا منكس الماسورة . تناول غاغين قذيفة فى يديه الكبيرتين ، ووضعها فى المدفع ، وكأنه فى غير عجلة مـــن امره . . . كان حوالى ثلاثين فارسا ينطلقون نحو البطارية ، منحنين على اعراف خيولهم ، هازين سيوفهم . وحين قابلهم لهيب طويل ، وانفجرت قنبلة شظايا ، شبت بعض الخيول ، واستدارت اخرى ، الآن عشرة من الفرسان صعدوا الأكمة غير قادرين على كبح جماحها .

وفى تلك اللحظة تفجر الحنق المحتدم . فقد ارسل لاتوغين العارى حتى الوسط صيحة مبحوحة ، وبادر فى الهجوم بخنجر معقوف ، وغرسه فى سترة قوزاقية سوداء تحت حزامهـــا المزين . . . ووقع زادوفيتر تحت حصان فشق بطنه بغيظ ، وما كاد فارسه يقع على الارض حتى عاجلـــه بطعنة خنجر . وتفادى غاغين ضربة سيف ، وامسك بتلابيب ضابط ضخم – وجره الى الأرض ، وطرحه ، وشدد قبضته عليه . امـــا الاخرون فكانوا يطلقون النار من بنادقهم ، واقفين وراء المدفـــــع . وراح تليغين يضغط على زناد مسدسه ببطء وهدوء ، كمـــا كان يحدث له دائمـــا فى مثل هذه الاحوال

(فان الانفعالات تأتي فيما بعد) . كان الاشتباك قصيرا ، وبقى اربعة من القوزاق مطروحين على الاكمة ، وهرب الثاني ثم وقعا تحت النيران .

وصد الهجوم الاخير كما صدت الهجمات السابقة في ذلك اليوم . ولم يتمكن العدو من خرق جبهة الحمر ، سوى ان مشاته توغلوا عميقا في اضعف مكان بين فرقتين للحمر . وحل المساء . وكانت ماسورات المدافع حامية ، والخيول متعبة ، وكلت حدة الخيالة ، وصار من الصعب دفع المشاة الى الهجـــوم . وانتهت المعركة ، وسكتت الطلقات في السهل الذي خلا الا من رجـــال الاسعاف الذين كانوا يزحفون لالتقاط الجرحى .

واتجهت نحو البطاريات والخنادق براميل المـــاء وعربات الخبز والطبيخ ، وعادت محملة بالجرحى . وكانت الخسائر فادحة في جميـــع وحدات الجيش العاشر . ولكن الافدح من ذلك كان استنفاد جميع الاحتياط في ذلك اليوم ، بينما لم تعد المدينة قادرة على مد الجبهة بشيء .

وعاد قائد الجيش الى عربة ركاب كانت واقفة وراء محطة فروبونوفو . وترجل ببطء ونظر الى الرجلين القادمين اليه ، وهما رئيس مدفعية الجيش – ذلك الرجل الضخم الملتحي المورد الخدين الذي كان قد جاء وتحدث الى المتقنين في بطاريـــــة تليفين – واليابيف قائد القطارات المصفحة الذي كان يبدو كطالب منفعل عائد من المتاريس . وقد ابتسما للقائد ، سعيدين بعودته من الخطوط الامامية ، حيث كان قد اشترك عدة مرات في ذلك اليوم في المعارك بالسلاح الابيض ، وكان معطفه منقبا ، ومستنـــد قربينته المعلقة على كتفه مهشما .

دخل قائد الجيش في العربة ، وطلب ماء . وشرب عـــدة اقداح ، ثم طلب سيكارة . اشعلها وغامت عيناه الجافتان فوضع السيكارة على حافة المنضدة ، وقرب منه مجموعة من البلاغات ، وانكب عليها . . . اجل ، ان الخسائر لفادحة ، فادحة للغاية ، ولم يبق ليوم الغد سوى القليل من الذخيرة ، بل النزر اليسير .

نشر خريطة ، وانحنى الثلاثة عليها . ورسم قائد الجيش بالقلم خطا – كان قد خرق خلال ذلك اليوم في بعض المواقع فقط – ولكن ليس بالقدر الكبير ، بل وقد التوى عند ساريبتا نحو البيض ، الا ان خط الجبهة في القطاع الذي وقع فيه يوم امس الحادث المؤسف لفوجي الفلاحين ، قد مال بشكل حاد نحو تساريتسين فتباطأ القلم في يد قائد الجيش . وقال القائـــد : «والآن دعونا نتأكـــد مرة اخرى . . .» كانت التقارير مضبوطة . وتوقف القلم على بعـــد سبعة فراسخ من تساريتسين ، في قاع المنخفض تمامـــا ، ثم استدار بشكل حاد عائدا نحو الغرب راسما اسفينا . فالقى قائد الجيش القلم ، وضرب بكفه على هذا الاسفين :

– هذا يقرر كل شيء .

وعبس رئيس المدفعية ، وحول عينيه ، وقال بعناد :

– آخذ على عاتقي تقطيع هذا الاسفين اذا حصلت في الليل على مزيد من الذخائر .

وقال رئيس القطارات المصفحة :

– المعنويات في الوحدات عالية . سيصمدون اذا اكلـــوا وناموا ساعة او ساعتين .

واجاب قائد الجيش :

– الصمود لا يكفي . بل يجب تحطيم العدو ، بينما خط الجبهة غير ملائم لذلك . قل لي هل القطار جاهز ؟ اذن فانـــا ذاهب .

وجلس دقيقة اخرى مشلولا بالاعياء ، ثم نهض ، وطوق كتفي رفيقيه وقال :

– اتمنى لكما التوفيق .

عاد رئيس المدفعيـــة ورئيس القطارات المصفحة الى نقطة المراقبـــة اى الى برج الماء لخط السكة الحديدية البارز لوحده ، والذي كان طوال اليوم عرضة لضرب مركز من الارض والجو . صعدا الى حيث تقع التلفونات في الاعلى ، ووجدا العشاء في انتظارهما وهو عبارة عن قطعتين من الخبز الجاف ونصف بطيخة غير ناضجة .

كان رئيس المدفعية رجلا موفور الصحة بشوشا ، وقد غمته هذه الحصة الشحيحة من الطعام .

قال وهو واقف عند فتحة في جدار آجري :

— بطيخ سيء . اذا كان البطيخ يقطع بالسكين فهو ليس بطيخا . يجب كسر البطيخ بضربة من قبضة اليد .

وبصق الحب ، وقلص عينيه ونظر الى السهل المكشوف المسطح تحت الشمس الغاربة وقال :

— لو ان طاسة من الفطائر الحارة لشبعت . ما رأيك يا فاسيل ؟ يبدو ان امرا سيصدر في هذه الليلة بالانسحاب .

—كيف الانسحاب ؟ تسليم الطريق الدائري ؟ هل جننت ؟

— واين كنت انت ، حين سمحت للعدو بفتح ثغره ؟ اين كانت قطاراتك المصفحة ؟

كان رئيس المدفعية وهو يتكلم يرفع الى عينيه بين الحين والآخر اصبعين منفرجتين ، او يخرج من جيبه علبة كبريت ويمسكها بيده الممدودة ويحدد الزوايا والمسافات بدقة تصل الى خمسين خطوة .

ولكن جنودهم من سلاح الهندسة ساروا خصيصا وراء صفوف المهاجمين ، فاستطاعوا ان ينسفوا الخط في عشرات الاماكن .

فكرر رئيس المدفعية بعناد :

— ومع ذلك كان لا يجوز السماح بدق اسفين . . . اسمع ، الا تلاحظ شيئا ؟

كانت العين الحادة المجربة وحدها قادرة على ان تلاحظ أن السهل البني الممتد نحو الغرب لم يكن هادئا خاليا من الناس ، بل ان فيه حركة حذرة . فقد كانت تجاعيد الارض كلها ، وكل الاكمات الشبيهة بآلاف من كتل النمل تلقى ظلالا طويلة ، وكانت بعض هذه الظلال الطويلة تغير مواقعها ببطء .

قال رئيس المدفعية :

— انهم يغيرون القوات . يزحفون . . . خذ المنظار . . . اتلاحظ وكأن اشرطة صغيرة تلمع ؟ . . .

— ارى بوضوح . . . وانها كتافيات ضباط . . .

— مفهوم ان كتافيات الضباط هي التي تلمع . . . انظر كيف يزحفون . . انظر ، كالعناكب ! . . وما اكثر كتافيات الضباط . . لا ترى العين غيرها . . .

— غريب !

— منذ ثلاثة ايام نبهنا ستالين على ان نتوقع ذلك . وهذا ما حصل ، بالفعل . . .

نظر اليابيف اليه . وخلع قبعته ، ومرر اظافره على رأسه ، ومشط الشعر المتلبد من العرق ، فانطفأ البريق في عينيه الرماديتين ، ونكس رأسه ، وقال :

— مفهوم لماذا هدأوا اليوم في ساعة مبكرة . . . كان يجب ان نتوقع ذلك . . . سيكون يوما شاقا .

وقعد الى التلفون بسرعة ، واخذ يتلفن . ثم امال قبعته على جبهته ، واندفع على السلم الحلزوني .

وظل رئيس المدفعية يراقب السهل حتى غابت الشمس . وبعد ذلك اتصل بالمجلس العسكرى ، وقال في السماعة بخفوت ووضوح :

— يا رفيق ستالين ، في الجبهة لواء ضباط يحل محل القوزاق .

فجاء الرد :

— اعرف . سيصلك قريبا مظروف .

وبالفعل بعد مدة قصيرة سمع فرقعة موتسيكل . وتردد صرير على السلم ثم انسل في الفتحة بصعوبة رجل ثيابه من الجلد الاسود . ولم يكن رئيس المدفعية قصير القامة ، اما سائق الموتسيكل هذا فقد كان اطول منه :

— من رئيس مدفعية الجيش هنا ؟

ولما سمع «انا» طلب منه الهوية ، واشعل عود الثقاب وقرأ حتى احترق العود كله ولسع اظافره . عند ذلك فقط قدم له المظروف بشك بالغ ، ونزل عائدا الى الاسفل .

كان في الظرف قصاصة ورقة صفراء . كتب فيها رئيس المجلس العسكرى بيده :

«آمركم ان تحشدوا فى الليل وقبل حلول الفجر ، كـــل المدفعية (وهناك خط تحت «كل») والذخيرة المتوفرة فى القطاع الممتد خمسة فراسخ بين فروبولوفو وسادوفايا على ان يجـرى التحرك بكل سرية ممكنة» .

ظل رئيس المدفعية يقرأ ويعيد قراءة هذا الأمر المفاجئ والمخيف . كان يحمل فى طياته اكثر من المجازفة ، وتنفيذه صعب بشكل لا يصدق . فقد كان يعنى حشد كل البطاريات السبع والعشرين (٢٠٠ مدفــع) فى قطاع صغير جدا هو قطاع الثغرة . فماذا لو ان العدو لن يزحف على هذا المكان بالذات ، بل يوجه ضربته يسارا او يمينا ، او ربما ضرب – وذلك اخطر – على الجناحين ، فى ساريبتا وغومراك ؟ عندئذ سيكون التطويق ، الهزيمة !

جلس رئيس المدفعيـــــة الى التلفون فى حالة من الارتباك النفسى العميق ، واخذ يتلفن الى امراء الكتائب مشيرا عليهـــم بالطرق التى يسلكونها ، والاماكن التى ينقلون فيها جميع قواتهم الهائلة الضخمة : آلاف الناس والخيول وعجلات الجيش والعربات والخيام . وكل ذلك يجب أن يتحمـــل ويرسل وينقل ، ويفرغ ، ويوزع بين المواقع . ثم يجب حفر الخنادق للمدافع . ومد الاسلاك الشائكة وكل ذلك خلال بضع ساعات قبل الفجر .

ودون ان يتحول عن التلفون صاح على الرجال فى الاسفل بان يجلبوا الفانوس ، ويبلغوا جميـــع المراسلين باعداد الخيول . فك ياقـــة قميصه السميك ، وراح وهـــو يسند على راسه الحليق ، ويملى اوامر قصيرة يتسلمها المراسلون ، فيهرولون من برج الماء ، ويمتطون الخيول ، وينطلقون فى جنح الليل . كان رئيس المدفعية ذا دهاء ، فقد امر بان تشعل نيران فى مواقـــع البطاريات بعد ان ترفع هذه البطاريات من اماكنها ، وان تكن هذه النيران غير كبيرة لتبدو طبيعية حتى يظن العدو بان الحمر فى الليلة الباردة يدفئون اقدامهم الحافية على النار .

ثم قرأ الأمر مرة اخرى ، وفكر بان من غير الصحيح تماما تعرية الجناحين ، وقرر ابقاء ثلاثين مدفعا قرب ساريبتا وغومراك . وحين اجابه امراء الكتائب بان الخيـــول جاهزة ، وان القذائف والمعدات الطبية قد شحنت ، واشعلت النيران هنا وهناك حسب

الاوامر جلس رئيس المدفعية فى سيارة قديمة تسير على خليط من الكحول والكيروسين ، وتقرقع بجسمها مثل عربة غجر ، واتجه بها الى مقر القيادة فى تساريتسين .

سار مقرقعا فى المدينة المظلمة الخالية ، وتوقف عند دار تاجر ، وركض على السلم غير المضاء الى الطابق الثانى ، ودخل غرفـــــة كبيرة ذات نوافذ قوطيـــــة وسقف بلوطى لا يضيؤها غير شمعتين تقف واحدة على منضدة طويلة تناثرت عليها الاوراق . اما الثانية فيرفعها قائد الجيش فى يده عاليا ، حيث كان واقفا عند الحائط امام الخريطة . والى جانبه رئيس المجلس العسكرى يعلم بالقلم الأحمر على مواقع القوات للمعركة فى الغد .

ورغم ان الغرفة لم يكن فيها غير هذيــــــن الشخصين – الصديقين القديمين – فان رئيس المدفعية قد تقدم حسب الاصول العسكرية ، وابلغ عن سير تنفيذ الامر . انزل قائـــــد الجيش الشمعة ، والتفت اليه . وابتعد رئيس المجلس العسكرى عن الخريطة وجلس الى المنضدة . قال له رئيس المدفعية :

– سيتم نقل عشرين بطارية قبل الفجر الى القطاع الاوسط كما وضعت سبعة بطاريات على الجناحين قرب ساريبتا وغومراك .

واشعل رئيس المجلس العسكرى غليونه ، وطرد الدخان من وجهه ، وسأل بخفوت وصرامة :

– اى جناحين ؟ ما شأن ساريبتا وغومراك هنا ؟ الأمر لم يتحدث بكلمة واحدة عن الجناحين . انت لم تفهم الأمر .

– لا ، ابدا . فهمت الأمر .

– جاء فى الأمر (وارتعش جفناه السفليان وتقلصت عيناه) جاء فى الامر بوضوح : تركيز جميع المدفعية ، كلها حتى آخر مدفع فى القطاع الاوسط .

نظر رئيس المدفعية الى قائد الجيش ، الا ان هذا رد على نظرته بنظرة جادة محذرة .

قال رئيس المدفعية بحرارة :

– لكن هذا الأمر ، ايها الرفاق ، رهان على الحياة والموت .

واكد رئيس المجلس العسكرى :

– بالضبط !

ووافقه قائد الجيش .

— ولكن ماذا سيحدث لو اننا نجمع قبضة قوية فى القطاع الاوسط ، ونكشف الجناحين تماما ؟ اين الضمان فى أن البيض سيزحفون على القطاع الاوسط فقط ؟ وماذا لو شنوا المعركة فى مكان آخر ؟ المشاة وحدهم لن يصمدوا للهجوم . فقد انهكوا خلال اليوم . وسيكون الوقت متأخرا لاعادة تنظيم البطاريات من جديد . . . وهذا ما اخشاه . . القطارات المصفحة لا يعتمد عليها بعد الآن ، وسيضطر المشاة على اية حال الى التراجع هذه الليلة عن الطريق الدائرى . . . وهذا ما اخشاه .

نقر رئيس المجلس العسكرى باصبعه على المنضدة مرة ثم اخرى وقال :

— لا تخشى ! لا تخش ! لا تتردد ! اليس من الواضح لك ان البيض لا بد سيلقون بكل قواهم غدا فى القطاع الاوسط بالذات ؟ . . ان ذلك تمليه بالضرورة نتائج العمليات الحربية يوم امس . ان اكبر فشل لهم كان بالقرب من ساريبنا ، ولن يرغبوا فى ان يمسوا بانفهم هناك مرة اخرى ، فهم يعرفون حركة لواء بوديونى فى مؤخرتهم . ونجاحهم بالامس فى القطاع الاوسط تتلخص فى انهم تمكنوا من التوغل فى خطوطنا الامامية . واخيرا فقطاع فروبونوفو — سادوفايا هو انسب مكان لهم اذكله منخفضات ، كما انه اقصر طريق الى تساريتسين . وانت نفسك ابلغتنى عن وضع لواء الضباط فى محل القوزاق . فاستخلص استنتاجا من ذلك . ان لواء الضباط هو اثنا عشر الفا من المتطوعين الضباط النظاميين المتمرسين بالقتال . والجنرال ماموتنوف لا يرمى هذه القوات للفرجة . . . ان لدينا جميع الاسس للاعتقاد بان الهجوم سيكون فى القطاع الاوسط بالذات .

وقال قائد الجيش :

— التقارير المسائية تؤكد ذلك ايضا . البيض سحبوا من القطاعين الجنوبى والشمالى اربعة عشر او خمسة عشر فوجا ، وهم يسيرونها الآن عبر السهب . . . هذا بالاضافة الى لواء الضباط . . .

قال رئيس المجلس العسكرى :

— وبهذا الشكل ، يقدم العدو بنفسه الظرف المواتى لنا لدحر قواه الرئيسية اذا ما كنا حازمين وجريئين غير مترددين ، ومهمتنا غدا لن تكون رد الهجوم بل القضاء على لواء جيش الدون . . .

ابتسم رئيس المدفعية ابتسامة عريضة ، وجلس وضرب ركبته بقبضته ، وقال :

— يا للجرأة ، يا للجرأة ! لا مجال للاعتراض . ساصليه نارا حامية تجعله يركض مذهولا حتى الدون .

حرك رئيس المجلس العسكرى الشمعة نحو الخريطة التكتيكية ، واخذ رئيس المدفعية يوضح نيته فى وضع البطاريات واحدة لصق الاخرى فى عدة صفوف .

قال له قائد الجيش :

— لا تتخندقوا . ضعوا المدافع على اكمات مكشوفة . وقدموا المشاة لصق المدافع تماما . اذهب لتتلفن الى امراء الوحدات .

وبعد عدة دقائق بدات حركة صامتة عجلى على طول خط الجبهة الممتدة اربعين فرسخا . وفى السهل المظلم ، تحت السماء المرصعة بالنجوم ،حيث كانت المجرة تلمع ذلك اللمعان الذى لا يحدث الا فى ليال نادرة من الخريف انطلقت الخيول بالمدافع ، ومدافع الهاون ، وسارت المدافع الثقيلة تجرها ثمانية ازواج من الخيول ، واندفعت العربات ذوات العجلتين . وتحركت وحدات المشاة من اماكنها دون ان يلاحظها العدو وتراجعت فى شبه دائرة دفاعية متماسكة .

ولفح البواقون نوبة استيقاظ فى السهب الاشيب المغطى بقشرة من الجليد مستنفرين الافواج القوزاقية الى المعركة ، ونهضت الشمس من وراء سهوب الفولغا . وهدرت المدافع من بعيد ، وطقطقت الرشاشات . وكانت جبهة الحمر صامتة وكلها فى الظل ، والشمس قبالتها . وكان الامر قد صدر لجميع البطاريات بانتظار الاشارة ، وهى اربعة انفجارات عالية لقنابل الشرابنيل .

بدأ هجوم البيض بزوبعة من النيران من خط الافق . والتصق كل ما هو حى بالارض متكمشا مترقبا وقد اصبح كل نتوء ، وكل حفرة غطاء وملجا . ومن خلال الهدير كانت فى بعض الاحيان

تتردد صيحة وحشية ، وتتطاير كتل الارض سوية مع عجلة من عربة او معطف عسكري داخن . واستغرق القصف التمهيدي خمسا واربعين دقيقة . وحين استطاع الناس ان يرفعوا رؤوسهم كان السهل كله يموج بالقوات المتحركة . كان الضباط يسيرون في عدة خطوط شاهرين حرابهم بلا عجلة او توقف . ووراءهم سار اثنا عشر طابورا من كتائب الضباط وبين كل طابور وآخر فاصلة ، وكانهم في استعراض . ورفرفت عاليا رايتان لفوجين . وكانت الطبول تقرع قرعا صاخبا ، وتعول النايات . والى الخلف من المشاة ماجت كتل سوداء لعدد لا يحصى من القوزاق .

— انظر يا ايفان ايليتش ، ها هم الاعداء الطبقيون ! . . ها هم المحاربون ! يا سلام !

— انظر الى ملابسهم . . واحذيتهم . . . مشبعون باللحم . . .

— من المؤسف ان تمزق هذه الملابس . . .

— يا رفاق ، كفوا عن المزاح ، وانتبهوا .

— نحن نمزح لنبعد الخوف عنا ، يا رفيق تليغين . . .

. . . حثت الصفوف المتقدمة خطاها . وكانت على بعد خمسمئة خطوة . . . وكان من الممكن تبين وجوههم . . . يالها من وجوه بشعة بعيونها الغائرة الشاحبة من الحقد ، بوجناتها النائتة متحفزة لتفتح اشداقها بصيحة الحرب «هورا !» .

اطل رئيس المدفعية بجسمه من فتحة الجدار الاجري لبرج الماء ، ومد ذراعه الى الخلف ليعطي جندي الاتصال اشارة قنابل الشرابنيل الاربع ! وانتظر دقيقة اخرى ، فقد كان يجب ان تعبر الصفوف والطوابير السائرة باتزان على وقع الطبول والنايات خط الطريق الدائري لسكة الحديد . . . ومرت دقيقة اخرى . . . المهم الا يتحول هؤلاء الشياطين من الخطو الى الركض . . .

— . . . يا رفيق آمر السرية لا استطيع اكثر . . . بالشرف . . .

— عد الى الخندق ، يا ابني . . .

— احس بالغثيان . . . دعني ابتعد فقط . .

— ساقتلك ، يا ابني . . .

— ارجوك . . يا رفيق ايفان غورا !

— امسك البندقية !

. . . قرر رئيس المدفعية في نفسه بان يدع هذه الصفوف المتقدمة تصل الى العمود . . . لقد اصبحت الصفوف الامامية تلتوي وتتموج ، ورجالها يتعثرون في خطاهم . . . زر عينيه وراى بوضوح ذلك العمود المائل بقطعة من الاسلاك الشائكة . . . ذلك العمود الذي كان عليه ان يقرر مصير الهجوم كله ، مصير هذا اليوم ، مصير تساريتسين بل ومصير الثورة . . . عليه اللعنة ! . . ثم ان رجلا — في حذاء اصفر — كان اول من تخطى وراء العمود . وفتح رئيس المدفعية قبضته وراء ظهره ، وافرج اصابعه ، وتراجع عبر الفتحة ، وهتف لجندي الاتصال «اشارة ! . .»

انفجرت اربع قنابل شرابنيل عاليا كسحابات قطنية في السماء الصافية فوق الطوابير الزاحفة . وهز الهواء هدير هائل لم يسمع مثله احد . واهتز برج الماء الاجري . والقى جندي الاتصال بالسماعة ، وسد اذنيه . ودبدب رئيس المدفعية بقدميه وكانه يرقص ولوح بذراعيه ، وكانه يدير فرقة موسيقية . . .

صار السهل الذي كانت تزحف فيه منذ لحظة الكتائب الرمادية الخضراء في خطاها الموزونة والمنذرة اشبه بفوهة بركان ضخم متاجج . وكان من الممكن ان تتبين العين من خلال الغبار والدخان ، الصفوف المهاجمة ترتد كالمصعوقة والصفوف الخلفية يختلط بعضها ببعض . ومن الشمال انطلقت القطارات المصفحة في مؤخرتهم على الطريق الدائري . ونهضت سرايا الحمر من الخنادق ، وانطلقت في هجوم معاكس . اختطف رئيس المدفعية السماعة من جندي الاتصال وصاح : «انقلوا النار الى العمق ! . .» وحين قطعت العاصفة النارية خط التراجع على البيض شقت صفوفهم سيارات اللوري وعليها الرشاشات ، وبدأ السحق .

٨

كانت داشا جالسة في فناء صغير على صندوق كتب عليه «ادوية» . ويداها على ركبتيها وقد غسلتهما من توها فكانتا حمراوين من الماء المثلج . اغمضت داشا عينيها ، واشرعت وجهها للشمس

تشرين الاول . كانت العصافير المتخمة الحواصل تنفش ريشها وتزقزق وتتباهى بعضها على بعض ، على اغصان عارية ، حيث كان ينتهي ظل السطح . وكانت منذ حين في الشارع تلتقط الشعير وروث الخيول الذي يتناثر كثيرا امام المنزل الابيض ذي الطابق الواحد . وقد افزعها قدوم العربات فطارت الى شجرة بتولا . كانت زغردة العصافير تبدو لداشا موسيقى مريحة للغاية وكأنها تقول : مهما يكن فما زلنا نعيش .

كانت داشا في معطف ابيض مبقع بالدم وقد شدت منديلا بقوة حتى حاجبيها . في المدينة لم يعد قصف المدافع يهز زجاج النوافذ ، ولم تسمع الانفجارات المدوية لقنابل الطائرات . فقد انتهى فزع اليومين السابقين بزغردة العصافير . ولو امعن المرء التفكير في الامر لشعر بالكدر من مدى ازدراء هذا المخلوق الحقير المتخم الحواصل للانسان . . . يزغرد العصفور : اني صغير ولكني حكيم ، انقر الروث ، واقفز من غصن الى آخر وراء عصفورة ، وازغرد للشمس الآفلة ، ثم انام حتى الفجر ، وتلك هي كل حكمة الحياة . . .

سمعت داشا صوت عربات تتوقف خلف البوابة . . . لقد جلبوا جرحى جددا ، وادخلوهم الى المنزل . كانت متعبة بحيث لم تستطع حتى فتح جفنيها اللذين ينسل ضوء وردي من خلالهما . سيدعوها الطبيب اذا اقتضت الحاجة اليها . . . ان هذا الطبيب رجل لطيف في صوته غلظة وفي نظراته رقة . قال لها «اخرجي الى الفناء حالا ، يا داريا دميتريفنا ، فان حالتك صعبة ، واجلسي في مكان ما . وساوقظك عند الضرورة . . .» كم من اناس طيبين في هذه الدنيا ! وفكرت داشا مع نفسها : لو انه يخرج الآن للتدخين لتقص عليه ما لاحظته على العصافير ، فقد بدت لها ملاحظاتها عميقة المغزى . . . وما العيب اذا كان الطبيب قد اعجب بها ؟ وارسلت داشا زفرة ثم اخرى اعمق . . . كل شيء يمكن تحمله حتى الذي لا يطاق اذا قابلتك نظرة حنون . . . ولتكن عرضية ، فان التقاءك بها ترفع روحك المعنوية ، وتقتك بنفسك فيعود الانسان حيا من جديد . . . وذلك ، ايتها العصافير ، لا تفهمينه ! . .

وبدلا من ان يخرج الطبيب طلع من السرداب الذي يقع المطبخ

فيه رجل ذو وجه مصفر عصبي وعينين ماساويتين . كان يرتدي معطف بزة مصلحة التعليم الشعبي ، ولكنه في هذه المرة لم يكن محزما بحبل . صعد بضع درجات من السلم الآجري ، ومد عنقه النحيل متسمعا . فلم يسمع غير زغردة العصافير وقال :

— فظاعة . كابوس ! هذيان !

وضغط كفيه على اذنيه ، ثم رفعهما في الحال . كانت الشمس الواطئة تضيء جانب وجهه بانفه الدقيق الغضروفي وشفتيه المكتنزتين .

— لا تبدو نهاية لذلك ، يا الهي ! . . — ثم سأل داشا فجأة — هل اصبت بهلوسة صوتية في وقت ما ؟ اعذريني ، نحن لم نتعرف على بعض ، ولكنني اعرفك . . . كنت قد التقيت بك قبل الحرب ، في بطرسبورغ ، في «الأمسيات الفلسفية» . كنت آنذاك اكثر شبابا ، ولكنك الآن اجمل واكثر جاذبية . . . الهلوسة الصوتية تبدأ من بعيد ، وتكون حينذاك بلا صوت ، ولكنها تقترب بسرعة مريعة . ويتنمو طنين متنوع الاصوات لا وجود لمثله في الطبيعة ، ويملأ الدماغ والاذنين . وانت تعين ان لا شيء هناك ، الا طنين في الواقع ، ولكن هذا الطنين في داخلك انت . . . النفس كلها متوترة ، ويبدو لك انك لن تعودي بعد قليل قادرة على تحمل هذه الابواق الجهنمية . عندئذ تفقدين الوعي ، فينقذك ذلك . . . وانا اتساءل : متى النهاية ؟

كان يقف امام داشا قبالة الشمس مطقطقا باصابعه الرقيقة واحدة بعد الاخرى .

— علي ان احفر الطين في مكان ما ، وامزجه واصلح الموقد ، لانهم انزلونا الى السرداب باعتبارنا عناصر طفيلية . . . ان ابي اشتغل طوال حياته مديرا لمدرسة ، وبنى هذا البيت من ادخاراته . . . تقولين ذلك لهم ! وفي السرداب يتكدس آجر محروق ، وهناك نافذتان تطلان على الرصيف ، وهما متربتان جدا بحيث لا يتسرب النور منهما . وكتبي مكدسة في ركن . . وامي مصابة بمرض قلب ، وهي في الخامسة والخمسين من العمر ، واختي مشلولة الرجلين من الملاريا . والشتاء على الابواب . . . آه ، يا الهي !

وفكرت داشا مع نفسها بانه مثل روح «سكر» فى مسرحية «الطائر الازرق» على المسرح الفنى ، وانه سيكسر كل اصابعه العشر .

– من لا يعمل لا ياكل ! . . . لقد تخرجت من كلية التاريخ والاداب وكدت احصل على الدكتوراه . . . ودرّست ثلاثة اعوام فى مدرسة للبنات فى هذه المدينة المنحوسة ، فى هذا الجب المغضوب عليه ، حيث انا مكبل من يدى ورجلى بمرض امى واختى . . . ثم هذا هو حصاد الحياة كلها : من لا يعمل لا ياكل ! انهم يضعون فى يدى رفشا ، ويجبروننى بالقوة على حفر الخنادق . ويهددوننى حتى اخضع للثورة ، لهذا الاستهتار بحرية الانسان ! لسيطرة القوة البدائية ! . . . وانتهاك الفكر ! . . . انا لست من الاعيان ولا برجوازيا ، ولست من «المائة السود» * . . وجسمى يحمل ندبة من ضربة حجارة فى مظاهرة للطلاب . . . ولكننى لا اريد ان اخضع للثورة التى دفعتنى الى سرداب . . ولم اكن اصقل عقلى لكى انظر عبر نافذة صغيرة مترِبة فى سرداب الى اقدام المنتصرين السائرين على الرصيف . . . انا لا املك الحق لأقضى على حياتى بالقوة ، فان لى اما واختا . . وحتى فى الحلم لا اجد مكانا ألجأ اليه ، واختفى فيه . . . «لنحمل المشاعل المتوقدة !» ولكن الى اين نحملها ، ولم تبق فى الدنيا كهوف معزولة . . .

وكان يتحدث بكل ذلك بسرعة غير اعتيادية ، وعيناه تائهتان . اصغت داشا اليه بلا دهشة ولا عطف ، وكان هذا الرجل العصبى الذى طلع من مطبخ فى شبه سرداب نتيجة ضرورية لرعب تلك الايام من الدوى والحرائق والجرحى .

وسال مباغتة بصوت اعتيادى مدمدم :

– ما الذى جاء بك اليهم ؟ التهور ؟ الخوف ؟ الجوع ؟ اود ان اقول لك اننى راقبتك خلال هذين اليومين وتذكرت كيف كنت انظر اليك بعين الاعجاب الصامت فى «الامسيات الفلسفية» فى بطرسبورغ ، وانا لا اجرؤ على ان اتقدم منك واعرفك بنفسى . . . انت تقريبا

* عصابات ملكية رجعية معادية للثورة . (المترجم) .

«السيدة المجهولة» * لالكساندر بلوك . . . (وفكرت داشا على الفور : لماذا «تقريبا» ؟) الاميرة التى يجب ان تطرز بالذهب تلبس بدلا قذرا ويداها حمراوان ، وتنقل الجرحى . . فظاعة ، فظاعة ! . . هذا هو وجه الثورة . . .

واعتمل الغضب فى قلب داشا فجاة حتى أنها زمت شفتيها ، ولم ترد بكلمة واحدة على هذا العصابى الاصفر الشاحب ، ودخلت البيت لصدمتها ، بعد الهواء الطلق فى الفناء ، رائحة اليودوفورم والجسد الانسانى المعذب .

كان الجرحى يرقدون فى كل حجرة على اسرة متلاصقة مصنوعة من الواح خشنة . ورات داشا الطبيب فى غرفة العمليات ، نفس الغرفة التى كان معلم مدرسة البنات يكتب رسالته فيها قبل اخراجه منها . كان الطبيب يمسح بالفوطة ذراعيه المشمرتين المشمرتين الى ما فوق المرفق . وحين راى داشا غمز لها بعينيه البنيتين .

– هل غفوت قليلا ؟ اما انا فقد اجريت هنا عملية طريفة : قطعت لشاب حوالى خمس اذرع من امعائه الدقيقة ، وبعد شهر ساشرب معه الفودكا . ثم انهم جلبوا آمرا آخر مصابا بصدمة حادة . . . حقنته بالكافور ، والقلب يعمل ولكنه ما يزال فاقد الوعى . . . راقبى نبضه ، فاذا بدا ينخفض احقنيه مرة اخرى . .

القى الفوطة على كتفه ، وقاد داشا الى سرير خشبى . كان ايفان ايليتش تليغين ممددا على ظهره . كانت عيناه متقلصتين بشدة ، كان ضوءا قويا مسلط عليهما . وكانت شفتاه المشرودتان مضمومتين . امسك الطبيب بيده اليسرى الموضوعة على صدره ، ومس النبض ، وهز اليد هزة خفيفة :

– الرين ؟ لقد كانت متجمدة وكانها متشنجة . . . الصدمة تكون احيانا بصورة غريبة . . . انها لم تدرس الدراسة الكافية . . . ومظاهرها تشبه مرض الصرع لدى الصغار الرضع . . . الجهاز العصبى المركزى لا يتمكن من الصمود امام هجوم مباغت . .

وقطع الطبيب كلامه ، لانه هو نفسه اصيب بصدمة مباغتة

* «السيدة المجهولة» هى قصيدة رمزية كتبها الشاعر الروسى الكبير أ . بلوك (١٨٨٠ – ١٩٢١) . (المترجم) .

ولو كانت خفيفة . اذ ركعت داريا دميتريفنا على ركبتيها برقة امام السرير ، وضغطت وجهها كله على ذراع الأمر ، حين تركها الطبيب .

٩

استيقظ فاديم بتروفيتش روتشين فى ساعة متأخرة فى غرفة الفندق الوضيعة بشباكها القذر المغطى بجريدة مصفرة . وكان يلتحف بطانية خفيفة فى سرير قصير . سيغادر القطار فى ساعة متأخرة من الليل ، وكان امامه نهار طويل خاو . ولم تبق فى علبة السكائر غير سيكارة واحدة . دعكها ، واشعلها ، واخذ ينظر الى يده النحيلة المعروقة ببشرتها المنكمشة من البرد . لم يؤد بحثه عن كاتيا الى نتيجة . . . انه لم يجدها . والاجازة قد انتهت ، وكان يجب ان يعود الى فوجه فى كوبان .

بعد يومين سينزل من عربة القطار ، ويستقل عربة ، ويسافر فى السهب دون ان يتحدث الى ضابط الصف الجالس على مقعد السائق . وفى الشارع العريض فى القرية ستغطس عجلات العربة فى البرك المملوءة بماء المطر الخريفى الذى لا جدوى منه . وسينزل من العربة الى الوحل ، ويامر بان تحمل حقيبته الى الكوخ ، ويذهب هو الى ادارة القرية حيث مقر القيادة ليقابل آمر الفوج اللواء تشيبدى .

وسيجد هذا الاحمق المنعم يطالع مقطوعات شعرية للرمزيين : «الدائرة الملتهبة» لسولوغوب او «اللآلى» لغوميليف . وبعد تقديم التقرير سيتسلم فاديم بيتروفيتش مفرزة . وقد يتسلم سرية . وتبدا الاعمال الرتيبة : التدريب العسكرى ، وزيارة نادى الضباط حيث سيسالونه عن الفتيات ، والسكر والعربدة ويتفكهون على نحوله وشعره الشائب وهيئته المتجهمة . وفى الامسيات يذرع حجرته من ركن الى ركن . وفى الساعة العاشرة سيخلع له الجندى المرافق حذاءه فى صمت . وهذا احتمال واحد ، اما الثانى فقد يكون الفوج فى الجبهة ، فى القتال . . .

وتراءى له نفس السهب المقفر تظله طبقات من سحب الشمال ، وفيه مداخن المواقد المتبقية بعد الحرائق ، والعربات

المغروزة فى الوحل وعليها الجرحى ، والخيول النافقة ، وفى الطرف الاقصى من هذا السهب خندق فيه ناس ، راقدون بين القاذورات والخرق المدماة . . . وتخيل نفسه متفائلا دائما ، ثم قدريا ذائع الصيت ومثالا للكراهية الباردة التى ليست فى نفسه ، والتى لم يعد يشعر بها منذ زمان . فليس فى نفسه غير النفور والغثيان لدى التفكير فى الناس .

قعد على السرير محاولا ان يزرر قميصه ، ومد يده يبحث عن تبغ فى بنطلونه الذى سقط على الارض واستلقى ثانية شابكا يديه وراء رأسه .

«لا يمكن البقاء فى هذا المزاج على اية حال» قال لنفسه بخفوت ، ولم يكن ذلك صوته ، ولم يعجبه ، واقرفته الطريقة التى قاله بها . . . «لماذا لا يمكن ؟ وما هذه «على اية حال» لا يمكن ؟ كل شىء ممكن ! حتى شد طرف الحزام على قبضة الباب والطرف الآخر حول الرقبة . . . هيا ، يا روتشين ، كن نزيها . . . يالك من طاهر . . . انت وغد مثل الآخرين» .

واخذ يتذكر بغيظ وانتقام آلاف اللقاءات هنا فى يكاتربنوسلاف . . . لنساء على وجوههن آثار التعب بسبب الاجلاء وبقايا بائسة من العفة ، يتجولن من فندق الى آخر يعرضن مختلف الاشياء «العزيزة كالذكريات» ، وجنرالات يطبطبون على ظهرك بكلمات تحبب ، حليقى الوجوه جدا ، مفعمين بالصحة ، ومضاربين وقحين متخصصين فى بيع وشراء فواتير شحنات البضائع الحكومية على السكة الحديد ، واقطاعيين صاخبين هاربين من عزبهم ، فكانوا يزدحمون فى غرف الفنادق مع زوجاتهم الحمقاوات وبناتهم الطويلات المنمشات التعيسات يستدينون ويأكلون فى المطعم بشرف ، ويعلمون الطباخين طهى اكلات غرائبة ويسمون الثورة شغبا ، وبشكل عام ، يقضون الوقت وسط ابهج الآمال التى لم تزايل الاعيان الروس حتى فى احلك الاوقات . وتذكر خليط الناس فى بهو الفندق ، الذين فقدوا الوضع الاجتماعى بسرعة بالغة ، فلم يكن من الممكن تمييزهم الا من ازرارهم المعلمة واقطية رؤوسهم ، فهذا مدع عام امسك بشاب وقح ومضارب محظوظ ،

يحاول ان يقنعه بشراء ساعة عاطلة . اما هذا الرجل الاشيب الساعل ذو العصا فرئيس دائرة المالية ، والظاهر انه قد بدد اشياءه الثمينة ، فهو ينظر بحسد الى الصفقات الكبيرة ، والى الايدى السريعة التى تتعامل بالنقود .

والمضاربون الشطار فى بدلاتهم الفاخرة يدخلون راكضين من الابواب الامامية ، ويتجمعون جماعات ، ويتهامسون بعصبية واصابعهم وعيونهم لا تستقر ، ثم يندفعون ثانية الى الشارع وكانهم آلهة التجارة والنجاح . وفى البهو يمكن ان تعرف عن حركة الشحنات الحكومية ، وعن صهريج زيت صناعى قد فقد ، وعن سعر الدولار الذى يصعد ويهبط عدة مرات فى اليوم فى تبعية مباشرة لهجمات الفرنسيين والالمان المضادة فى الجبهة الغربية . ولكن هذه امور جدية ... والمضاربون الصغار فى البهو يتنحون جانبا ، وتتركز عيونهم المتراقصة من الانفعال على رجل «كبير الشأن» .

وكان مثل هذا الرجل يدخل وقورا متماهلا يرتدى معطفا طويلا جدا وسدارة مخملية تنحدر على يافوخه ، وفى يده مظلة ، ولحيته تنسدل على رقبته . فتبدو مصونة لا تمس ولا يمكن لصاحبها ان ينتزع منها شعرة واحدة ويلويها الا فى حالة التركيز الفكرى فقط . وتعكس عيناه صورة لحياة فكرية مجهدة منزهة من الاشياء التافهة ، لرجل مفكر يوازن ويبحث ويجد تلك العناصر التى تسبب هبوط او ارتفاع خلاصات الطاقة العالمية ، اى العملة الصعبة .

وفى البهو وفى الشوارع القريبة من الفندق تجرى اللعبة . وهى محرمة رسميا من قبل سلطات الهيتمان وقيادة الاحتلال الالمانى . واللاعبون فى حركة دائبة على الرصيف من باب الفندق حتى الدرب مفترق طرق . وهم يشترون ويبيعون مستعينين بالنظرات المتفرسة ، وحركة الاصابع ، وبعض الكلمات . ولا يملك احد منهم عملة صعبة ، فهى مخفية وكميتها فى المدينة غير معروفة بشكل عام . وهم يلعبون على فرق السعر ، وتسوى الحسابات بالعملة الهيتمانية . وفى دقيقة واحدة تتكون ثروات ، وفى دقيقة اخرى يصبح الغنى مفلسا . ويذهب المحظوظ مع بطانته الى المقهى حيث يأكلون الكعك مع قهوة بذور البلوط ، اما الخائب فيتسكع على الرصيف يائسا ، وريح تشرين الثانى التى تكنس قصاصات

الورق والاوراق الساقطة تعصف باذيال معطفه الطويل المتربة .

ان نزلاء هذا الفندق المزدحمين على الارصفة وفى حوانيت التبغ والمقاهى والمطاعم ، والمتاجرين فيما بينهم حيث يغش أحدهم الآخر كانوا جزءا من القطيع الصاخب الجشع الذى كان يجأر ويثغو فى كل المدن المنتزعة من الثورة ، حيث يجد الحرية فى ان يزدرد ويشرب ويتسافد ويغش ويدخل فى مضاربات ... وكان ينبغى ان يحمى هذا القطيع بالحراب والمدافع ، وتنتزع له مدن جديدة ، وتقام له روسيا عظيمة موحدة غير قابلة للتقسيم مطهرة من الآفة البلشفية .

ردد فاديم بتروفيتش بصوت مسموع مرة اخرى : «وضاعة . وضاعة وكذب ... حسنا وماذا لو هربت من الجيش ؟» .

واخذ يفكر فى ذلك مرخيا لأول مرة فى حياته الأعنة الخلقية ، كاشفا فى نفسه باستمتاع حاد مكامن الدناءة والخسة ... بل وضحك واسنانه مصكوكة ... لقد كانت افكاره كابداع فجائى ، كالاثم الأول ...

«من اجل اى قدسيات ، يا صاحبى ، جريت فى دروب الحياة ممسكا عنان نفسك ؟ واعتبرت نفسك رجلا لائقا ، عضوا فى مجتمع لائق ، بل وغادرت الفوج الى الجامعة لتوسع افقك الفكرى . . . فى صباك كان يخيل اليك انك شبيه بالدريه بولكونسكى . واعطاك الدافع الخلقى الرضا ، وكان ذلك كافيا تماما : فقد شعرت بانك طاهر . كنت تدير وجهك باشمئزاز عن كل ما هو مشكوك فيه وغير نظيف كما تديره من حفرة قاذورات . وكانت لك ثلاث علاقات فقط مع نساء متزوجات ، قطعتها عندما كانت هذه العلاقات فى ذروة الصفاء ، حين اخلى الفضول المضطرب مكانه للقبل الرطبة المعتادة . . . وهذه هى الحصيلة العامة : الى اين قادتك الحياة اللائقة ورأسك المرفوع بعزة ؟ الى رفات نار ! الى هيكل محترق لانسان !»

ولما وصل فاديم بتروفيتش الى هذه النتيجة بدأ بتقليب منهجى لامكانيات الهروب من الجيش . الفرار الى خارج البلاد ؟ ان

الحرب تجتاح العالم بأسره . وفى كل مكان يبحث المخبرون عن الاجانب المشتبه بهم ، ويسوقونهم الى السجون ويشنقونهم هناك . . . وفى جميع العالم تحمل البواخر الشبان المتحمسين . . . وهؤلاء يزعقون «عن قريب سنقضى على الالمان الخنازير ، ونعود الى فتياتنا المرحات . . .» وفى المحيط يصيبهم طوربيد ، ويتخبط الشبان المرحون فى الماء المتثلج حول رقعة من الزيت . . . فى اوربا طوابير الشبان فى البسة الكاكى المخاطة كما تخاط الاكفان على الاموات يندفعون مطيعين بصفوف متراصة وفى يأس قانط للقاء الرشاشات وقاذفات القنابل ومدافع الهاون وقاذفات النار . النار من امامهم ، والنار من خلفهم . فالسفر الى الخارج يسقط من الحساب . . . من الممكن التسلل الى اوديسا ، والحصول على جواز مزور ، والعمل نادلا فى مطعم كباب . . . ولكن احدا من الناس سيكتشفه ويقول مندهشا : «اى ، اى ، اى . روتشين ، أ هذا انت يا صاحبى ؟» ام لعله يضارب بمقادير صغيرة ، او حتى يسرق ؟ ان ذلك يحتاج الى رصيد كبير من الحيوية . ام يعيش على مصاحبة النساء ؟ ولكنه ليس شابا . . . «حسنا ، ولنفرض اننى عشت بطريقة ما حتى النصر النهائى : الاشتراكيون قد شنقوا جميعا ، والفلاحون يجلدون ، والانجليز قد صفحوا عنا ، وتبدأ بشعور من التقصير فى جمع جيش وراء الفولغا لسحق الالمان . ثم لنوزع السلاح ، وفى يوم من الايام ينقلب الجنود على الاسياد الضباط ، ابطال «الحملة الجليدية» . وتبدأ الحكاية من جديد . وكاتياى المسكينة التى لم اجدها حتى الآن ستنادى لآخرة مرة فى مكان ما فى محطة قطار محطمة النوافذ ، وسط النائمين والهاذين والموتى : «فاديم ، يا فاديم . . .» ثم ان هناك امكانية اخرى : ان اشنق نفسى . . . فى الحال . . . أذلك شىء رهيب ؟ ابدا . . . ولكن من المقرف ان اقوم بهذا الجهد على نفسى . . .»

كانت يداه باردتين كالثلج ، وقد احس ببرودتهما بقفاه . ولم يستطع ان يستقر على قرار . وكان اشخاصا صغارا يدبون فى نفسه كالذباب ويتناهبون ارادته وروحه . . . وحين يأخذ الظلام بالهبوط سينهض ، ويلبس بنطلونه ، ويذهب ماشيا الى محطة القطار ، ولربما يشترى سيكاير احتياطا للطريق . . . وسيمضى فى

العيش ، فان سيفا لن يمس مثل هذا الرجل ، ولا تصيبه رصاصة ، ولا تلسعه قملة تيفوس . . .

كان صوتان رجوليان غاضبان يتجادلان بعجالة منذ وقت بعيد وراء الجدار ، فيترددان اليه من خلال باب وضعت امامه خزانة . وكان صاحب احدهما يبدأ كلامه دائما بعبارة «اسمع ، يا سيد بابريكاكى ، لو كنت الرب . . .» ولكن الآخر لم يدعه يكمل فكان يقول : «اسمع يا غابل انت ، لست ربا بل حمارا ! يجب ان يكون المرء مخبولا ليشترى اسهم «كروب شتالفيركه» قبل نصف ساعة من صدور الجريدة . . .» – «اسمع ، انا لست ربا ! . . .» «اسمع يا غابل ، لو جمعت كل ما عندك لما استطعت تغطية خسائرى . انت جيفة . . .»

كانت هذه العبارات تقتحم اذنى فاديم بتروفيتش بالقوة . فكر مع نفسه «اللعنة ، ليتنى ارمى الباب بالرصاص . . .» ثم بدأ جرى واصوات منفعلة وراء الباب الآخر المؤدى الى ممر الفندق : «يجب استدعاء طبيب . . .» – «ما الحاجة الى طبيب ، انه بارد . . .» – «ما هذا وكيف حصل ؟» – «حصل كما حصل ، هذا لا يعنيك . . .»

خفتت الاصوات ، وتردد رنين مهمازين .

– اعذرنى ، يا حضرة رئيس الشرطة ، ارجوك . هل صحيح انه ابن اخ امبراطور النمسا ؟

– صحيح ، كل شىء صحيح . هيا ، يا سادة ، افرغوا الممر .

وبعد ذلك تحدث شخصان بصوت خفيض عند الباب تماما :

– ليس هذا انتحارا على الاطلاق . مرافقه اطلق عليه النار ، انه بلشفى .

– كيف يمكن ان يكون ضابطا نمساويا وبلشفيا ؟

– لا يهم . انهم فى كل مكان . ليست فقط فينا ، بل برلين نفسها فى ايديهم منذ الأمس . . .

– يا الهى ، يا الهى . انا لا استطيع ان استوعب ذلك .

– نعم ، يجب الفرار . . .

– الى اين ؟

– الشيطان يعلم . ربما الى جزيرة ما . . .

– صحيح . . . بالأمس سمعت ان فى اندونيسيا الهولندية جزرا تنبت فيها اشجار الخبز . ولا حاجة هناك الى ملابس . ولكن كيف الوصول الى هناك ؟

وبعد ذلك دخل صبى الغرفة بسرعة دون ان يطرق الباب . انه منظف الاحذية فى الفندق ذو الانف الافطس ، والفم الباسم من الاذن الى الاذن . . .

– طبعة استثنائية . الثورة فى المانيا . . . يا مسافر ، ادفع ثلاثة روبلات . . .

والقى الجريدة على صدر روتشين دون ان يلحظ عينى هذا المسافر المفتوحتين المفزعتين ، ولا وجهه الشاحب كوجه الاموات .

– سآخذ الفلوس من افريز الشباك . اقرأ الجريدة ، يا مسافر .

وخرج من الغرفة وثبا . اخذ قلب فاديم بتروفيتش يدق بعنف ، الا ان ورقة الجريدة الصغيرة المطبوعة بصورة غير واضحة ظلت مطوية على صدره وقتا طويلا . . . ثورة فى المانيـــا ! . . الجنود على سطوح العربات ، المحطات المحطمة ، الجماهير المنشدة باصوات وحشية ، الخطباء الهاتفون من على قواعد النصب التذكارية قارعين الهواء بقبضاتهم : الحرية ، الحرية ! وكان الحرية تعوض عن خبزهم ، عن الوطن ، عن الشعور بالواجب والهدوء الموزون للدولـــــة التى تكونت عبر قرون ! الثورة – المـــــدن المملوءة بالقاذورات ، الفتيات الشمطاوات فى البولفارات . . . والشوق ، شوق الانسان الذى ينظر من النافذة الى السطوح الناحلة للمدينة ، حيث لم تعد سرا . . . وحتى الشمس ارتفعت الى علو شاهق لا يطال . . . شوق الانسان الساعى بجهود جهيدة الى أن يحمل نفسه عبر الحياة وان يحمى استقلاله وعزته وشجاه .

وفطن فاديم بتروفيتش اخيرا الى انه يتكلم بصوت مسموع . لقد كان ذلك يشبه هذيانا والعينان مفتوحتان . نشر صفحــــة الجريدة . كان نبأ اندلاع الثورة فى المانيا مطبوعـــا على عرض

الصفحة كلها بحروف كبيرة . لقد بدات اثناء المفاوضات على الهدنة فى غابة كومبيان ، حين جاء المفوضون الالمان الى قطار الجنرال فيغان الواقف على خط مسدود للمدافع .

وقد سالوا : ما هى اقتراحات الفرنسيين ؟ ولم يدعهـــم الجنرال الى الجلوس ، ولم يمد لهم يده ، واجاب بشراسة باردة : «ليست لدى اية اقتراحات . يجب حمل المانيا على الركوع» .

وفى ذلك اليوم اطيح بالحكام الذين جلبوا العار لالمانيا ، وتشكل فى برلين سوفييت نواب العمــــــال والجنود . وغادر الامبراطور غليوم مقر القيادة فى سبا سرا ، وهرب الى هولنده ، وعلى الحدود قدّم سيفه الى ضابط فى الجيش الهولندى .

بعد بضع دقائق كان فاديم بتروفيتش مرتديا معطفـــــه المشدود بحزام شدا محكما ، وقبعته ، واعاد قراءة الجريدة مرة اخرى واقفا عند النافذة ، ثم دس فى جيبه اوراق النقد المجعدة ، وخرج الى الشارع .

راى رجلا ركينا يسير امام الفندق وكانه قد خرج لتوه من بدلة الغوص من عمق سحيق . كان وجهه الاحمر منتفخا ، وعيناه بارزتين من محجريهما . وكان يكرر وهو يحرك شفتيه الغليظتين المسفوعتين : «ابيــــع سندات كروب شتالفيركـــه ، ابيـــع ، ابيع . . .» وكان يقلب عينيه على السابلة بامل مجنون فى أن يجد من هو اكثر حماقة منه . . .

اخذ الجنود النمساويون يدفعونه ويضغطونه نحو الحائط . وكانوا قد جاءوا جماعات لا نظامية ، وقــــــد القوا بنادقهم وراء ظهورهم وسبطاناتها الى الاسفل . . . وكان ذلك احد مظاهـــــر الثورة : الامتناع عن قتل الانسان منذ يومها الأول . . . وعلى الرصيف الى جنب هذا الجمع سار ضابط نحيل ذو شاربين حريريين فتيين ، ووجهه الرقيق الذى توتـــــرت قسماتـــــه يشمــــخ بترفع ، وعلى كتافيته اليسرى شريط أحمر . ان هذا الفتى الذى ارسل الى الفوج فى زمن الحرب لم تتح له الفرصة ، على ما يبدو ، لان يزهو فى بزته العسكرية الجديدة ساحبا قراب سيفه المعدنى

على ارصفة فيتا المرحة بنسائها اللعوبات الفاتنات . وقد كُتِب له وهو فى ريعان الصبا وبشاشته ان ينتخب الى لجنة الجنود ، وها هو يقود سريته الى محطة القطار للجلاء تحت نار النظرات الشامتة الهازئة المتقاطرة عليه من الجانبين . . . بينما تجتاح فيتا الفوضى والمجاعة ، ويقيم العمال المتاريس .

تابع روتشين ببصره طويلا هؤلاء الاوربيين المتشامخين . وقد خامره ايضا شعور الشماتة محدثا نفسه : «لم تمكثوا طويلا فى اوكرانيا ، تاكلون الوز وشحم الخنزير . . . يبدو ان اتفاقية بريست انقلبت عليهم فى منقلب وعر . .» الا أنه تعيس فى الحال : «ولكن ما شانك بذلك ؟ انهم يخلدون الى الدعة فى موسكو ، أما انت ، فاذهب الى خندق عفن ، مع اصحابك المعادين للثورة . . .» وازداد عبوسه لأنه نطق بهذا التعبير الأخير لأول مرة وبهدوء وسخرية . . . ففى هذا التعبير بالذات كان يكمن سبب تمزقه الروحى . لقد كانت كاتيا ابعد بصرا منه حين قالت عند تشاجرهما العنيف فى روستوف «لو كنت مؤمنا من كل قلبك بعدالة قضيتك فاذهب واقتل . . .» ولكن كلمة المعادى للثورة تعنى الوغد السافل وفق كل المفاهيم التقليدية للمثقف النزيه الذى يحترم نفسه . . . فحاول أن تعيش مع ذلك . . .

حشر يديه فى جيبى معطفه وسار مصعدا فى بولفار يكاتريتينسكى العريض . وكانت مشيته ايضا مشية وغد سافل ، مشية شاحطة متثاقلة . مرّ بصالون حلاقة فوجد نفسه ينظر دون ارادته الى هيئته فى مرآة ضيقة معلقة الى جانب الباب . واطلت ابتسامة خبيثة معوجة على وجهه الشاحب شحوب الموتى . دخل ، وجلس على مقعد الحلاقة دون ان يخلع معطفه ، وطلب ان يحلق ذقنه . وهنا، فى هذا الصالون ايضا ، كان كل شىء يدفعه الى الغثيان : المكان الواطئ الداكن الذى لصقت عليه باهمال اوراق جدران رخيصة ، والحلاق نفسه وقد وضع المشط فى شعره المملوء بالقشرة ، ويداه القذرتان الرقيقتان الفواحتان برائحة حلوة كريهة .

تحدث الحلاق وهو يطرق زبد الصابونة متباطئا فى بدء دعك ذقن فاديم بتروفيتش :

– وكان الحياة كانت بلا متاعب لتغرق فى متاعب اخرى . . . حاربوا اربع سنوات ، والآن عندهم ثورة . . . فيم كانوا يفكرون ؟ لماذا لم يسالونى ؟ – وفتح الموسى ، واخذ يشحذها بعنف – هناك سياسة كبرى ، وهناك شغلنا الصغير الهادئ ، فارجو لك أن تعرف الفرق بينهما – واخذ يفرك خدى فاديم بتروفيتش بالزبد الحار – انت اليوم أول زبون لى . ان الناس يفقدون عقولهم . فاذا كان الامبراطور غليوم قد فرّ الى هولنده فان احدا فى بلدتنا لا يريد ان يحلق ذقنه ! دعنى اقول لك السبب . انهم جميعا يخافون البلاشفة ، ويخافون فصائل ماخنو ، فهم يريدون ان يرسلوا ذقونهم ، ليشبهوا البروليتاريين – وسحب الموسى على ذقن زبونه بشحيط – اعذرنى ربما لا تحب ان يمسك الحلاق بارنبة انفك ؟ هناك من الزبائن من يطلب ذلك . لقد تدربت فى كورسك ، وكان استاذنا يعمل حسب الموضة القديمة . فكان يدخل اصبعه فى فم الزبون ، اما بالنسبة للاعيان فكان يستخدم الخيارة . فكان يتقاضى على الحلاقة بالاصبع عشرة وبالخيارة اثنى عشر . وكان ذلك ثمنا طيبا . ساحلق لك مرة اخرى ، عندنا متسع من الوقت . قبل ان تاتى بلحظات مر علىّ رجل مجنون . هل تعرف بابريكاكى ؟ انه مالينا الكبير . عنده اضطراب اعصاب ومن المستحيل ان تحلق له ، فان على خديه بثورا ، وحتى لمسها بالفرشاة يسبب الما فظيعا له . واليوم ، والحمد لله ، قد انتشرت فى جسمه كله . اراد ان يدخل السلوان الى قلبى بقوله : ان الالمان مزمعون على الخروج من اوكرانيا ، وان البلاشفة بداوا الهجوم بالقرب من بيلغورد ، بينما اعلنت حكومة اوكرانية جديدة فى بيليا تسيركف : حكومة مديرين . فى الماضى كان عندنا «مجلس راداه وكانت سوفييتات ، وهيتمان . ولكن لم تكن لدينا بعد حكومة مديرين . وعلى راسه بيتلورا وفينيتشينكو . وكلاهما كان من زبائنى فى كييف عام ١٩١٦ . وبيتلورا كان يشتغل محاسبا فى اتحاد الزيمستفو . وفينيتشينكو كاتب وقد شاهدنا مسرحياته . ليس فيها شىء مميز . . . تصور ان امراة تخدع رساما ، فيتكلم معها كلمات ضخمة . وفى تلك اللحظة ياتى اليها عشيقها ، فتستقبله فى غرفة مجاورة . وتصور

ان الرسام لا يقدر ان يدخل عليهما الحجرة ، كما انه لا يريد ان يطرد هذه الساقطة ، فيعمد الى عضى يده ليقطع وترها ، ويصير مشوها نكاية بهذه المرأة . كنت احلق لفينيتشينكو وكان وجهه رخوا منقبا . . . يقول بابريكاكى ان حكومة المديرين اصدرت نداء تدعو فيه الفلاحين الى الاطاحة بالهيتمان سكوروبادسكى . . . وكان الهيتمان هذا بلا متاعب ! - وحلق الحلاق وجه فاديـــم بيتروفيتش للمرة الثانية ، وقلص عينيـــه ناظرا نظرة غير راضية الى شعره الأشيب غير المشذب ، وقال : اسمح لى بان احلق لك شعرك على طريقة à la boxe ثم لعلك ترغب فى صبغة شعر ؟ بقى عندى شىء من صبغة شعر اجنبية من صنف «جناح الغراب» . فما حاجة الانسان الى هذه اللبقة الشيباء ؟ (فقال روتشين من خلال اسنانه : «احلقه كله») ، سمعا - وطقطـــق الحلاق بمقصه بالقرب من اذنه ، وكانه يسترسل فى منطلـــق جديد - العرف ، ياحضرة الضابط ما هو احد احلامى ؟ ان اجد فى الدنيا بلدة صغيرة هادئة ، ولو كانت نائيـــة تنيرها مصابيح الكيروسين . . . وهل تراني بحاجة الى زبائن كثيريـــن ؟ عشرة زبائن ، وعندما افرغ من العمل اشعل غليونى واجلس عند الباب . هدوء وسكينة وعجائز مسالمون يمرون بك فتنهض وتنحنى لهم بالتحية فيردون عليك بمثلها . لا احد يفكر بالناس الصغار ، يا حضرة الضابط ، فقد شطبوا من الحساب . نحن لا نحسب فى الوجود ، حتى تنمو لك هذه اللبقة . انظر باية هيئة جئت ، وماذا صنعت منك : صورة بهية !

نظر روتشين الى نفسه فى المرآة . كانت جمجمته اللامعة حسنة الشكل رحيبة للافكار النبيلة السامية ، والوجه ضيقا بانحدار لطيف من عظمى الوجنتين البارزين بالكاد الى الذقن غير المفرط فى بروزه ، وغير المستكين ايضا . كان حاجباه الداكنان معقودين على قصبة الانف فتباعدا نحو الصدغين بنزوة ملطفين من صرامة العينين الذكيتين الصغيرتين اللتين تبدوان داكنتين من حدقتيهما المتسعتين . لا شىء فى هذا الوجه يخجل صاحبه منه . الا ان الفم ، على ما يبدو ، قد افسد الأمر كله . فى الامكان ان تكذب العينان ، فانهما كاذبتان كاتمتان ، الا ان الفم لا يتقبل التسوية . انظر اليه

دائم الحركة ، بلا شكل ، كاليرقانة . . . الشيطان يعرف مـــا هذا ! لست فاوست ، يا فاديم بتروفيتش . . . نهض ، والقى على راسه قبعته الميدانية القذرة المثقوبة برصاصة ممالة قليلا الى جانب ، ودفع اجرة سخية وخرج . . . مـــا زال لم يستقر على قرار . . . الا انه لم يعد يشعر بارتخاء فى رجليه ، ولم يعـــد يعثر بطرق حذائه على بلاط الشارع . تلك حصيلة الذهاب الى صالون حلاقة ! ان قطرة صغيرة من الحب قـــد تسربت فى يأس نفسه الكدر .

اضيئت الاضواء فى النوافـــذ . وكانت الريح تعصف فى اشجار الحور الجرداء الضائعة ذراها فى الظلام . وشعّ مصباح نير بوقاحة فوق باب مطل لمطعم كابريه «بى - با - بو» بين جذوع الاشجار فى الجانب الآخر من الشارع . وكان هذا المقصف مشهورا بالشواء على الطريقة الجورجية . واحس فاديم بتروفيتش بعصرة فى معدته ، وهو يفكر فى الطعام ، فانه لم يتناول طعاما منذ يوم امس . كان ذلك احساسا بالجوع قويا قاهرا استولى عليه ، وازاح من طريقه جميع التعقيدات السايكولوجية . استدار روتشين نحو الباب المضاء بعزم . طلعت مخلوقة فى تنورة بيضاء من وراء شجرة ، وحاولت ان تسد عليه طريقه ، وتابعته بهسيس متوسل : «يا عزيزى الضابط ، دعنى اوفر لك متعة . . .»

كان مكانا واطئ السقف طويلا زينه منذ وقت ليس بالبعيد جدا الرسام اليسارى المشهور قاليت الهارب من بتروغراد . وكان سقف «بى - با - بو» أسود مرصعا بنجـــوم كبيرة من الورق الابيض . وعلى الجدران السوداء طيوف آجريـــة اللون وصفراء وبرتقالية منشورة الاطراف تبدو وكان عاصفة قد اكتسحتها - هى تخاطيط مستطيلة لرجال ونساء . وكانت هذه الصورة الجدارية جديدة جدا بالنسبة للكابريه . فقد كان الرعب ، لا الحساسية ، هو الذى يسوق هذا القطيـــع العارى فوق الجدران . وقد قـــال الراسمالى الذى مول هذا المشروع - وهو بابريكاكى نفسه - قال ذات مرة «اقطعوا اطرافى عن جسدى لو كنت افهم هذا التصبيغ . فهو يغرقنى ، بينما يجد اعجابا من الجمهور . . .» .

تناول ووتشين غداءه ، وشرب نبيذا . وكان القطار يغادر في الساعة الرابعة ، فعزم ان يمكث في المطعم حتى الثالثة ، وسيرى كيف تسير الأمور . . . كان يشعر بالدفء ، وبشيء من الطنين في رأسه .

وكان النادل – وهو تترى من مطعم «يار» الراحل في موسكو ، وصاحب قديم – غالبا ما يقبل عليه ويرفع الزجاجات من جردل الثلج ، ويقول وهو ينحني ليصب الشراب :

– اعذرني ، يا فاديم بتروفيتش ، فانا اجئ اليك باستمرار . . . هل تذكر موسكو . . . آه ، انت ترى كيف نعيش هنا . . . ان هؤلاء الاوباش يتراءون لي حتى في النوم . . .

كان المطعم غاصا بالناس ، ورغم جو القلق في المدينة ، حيث كانت طلقات منفردة تتردد في الاطراف وفي ظلام الشوارع الخلفية ، فيحاول الخيالة الهيتمانيون من الحرس ان يصموا اذانهم عنها ، اثناء مرورهم مصعدين الى قصر الحاكم ، ورغم الذعر في السوق السوداء اليوم . لم يكن برنامج الترفيه قد بدأ بعد . وقد جلس الى البيانو على المسرح الصغير شاب طويل ذو رقبة ممدودة يسمك الساعد ، وشعر زنجي منتصب ، مائل الى قفاه . وكان يعزف لحنا من اوبريت .

كان يحيط بمائدة ووتشين جو من الضجيج والسكر . كان بعض اصحاب العقارات من ضاقوا من السأم في حجرات فندقهم بين بناتهم الخائبات يتنفسون عن همومهم وراء اباريق الخمرة .

صرخ رجل له خدان ناعمان :

– اؤكد لكم ان نهاية الالمان قد حانت الآن ! وفي عشية العام الجديد سيكون فيلق الحملة الانجليزي في موسكو ، وسنشرب الويسكي الاسكوتلندي . لا يخلو شر من نفع ! – وقهقه الرجل الطيب فاغرا فمه مظهرا اسنانا جيدة – اذن ، فالنصر للثورة الالمانية !

ورفع شخص آخر يده طالبا الانتباه ، وكان شديد الهزال ذا عينين تلمعان بسخرية من داخل محجريهما الرماديين :

– اللورد مستشار الخزانة يجلس في مجلس اللوردات على لطند من الصوف ، كما هو معروف . . . الا ان نبلاء سيمبيرسك

كانوا يفخرون بالعمود المرمري في فناء جمعيتهم للتاكيد على ان ما من شيء مزعج يستطيع ان ينال من السادة اعمدة النبالة حتى آخر الدهر . . . ولهذا كانوا يهومون مرتاحين تحت ظلة الارقطيون . . . لقد انتهى تاريخ النبلاء الروس . . . وليس لنا ما يكفينا من لطند الصوف . . . تماما كما انتهى تاريخ امنا روسيا ، ايها السادة . . . قرلت آخر صفحة من قصة مدينة غلوبوف ، وقذف الكتاب في زاوية ، ولم يحدث هذا خلال الزوبعة والعاصفة ، كما قال احد الاذكياء الكبار ، وفي يوم اثنين اعتيادي . بصق الرب واطفأ القنديل . . . لقد بعت ارضي الصغيرة في عام ١٩١٤ ، ومنذ ذلك الحين وانا مواطن عالمي . . . ذلك اضمن شيء . . .

– ذلك جيد بالنسبة لك ، يا سيد ، فقد انهيت جامعة اكسفورد . اما انا فاين اول بناتي الثلاث ؟ اين ؟

تساءل الرجل الطيب المورد الخدين ، ونخر ، ومد يده الى ابريق الخمرة واضاف قائلا :

– اما بشأن نهاية روسيا ، فانا لا اوافق ايضا . ذلك من اثر تعليمك الانجليزي . . . استطيع انا ان اعمل مساعد مأمور ، او رقيب عمال ، واستطيع ان احرث بنفسي ثلاثة افدنة ، ولكن سأؤمن بروسيا .

وصب شيئا من الخمرة ، والتفت في الحال بثقله الى الرجل الثالث الجالس الى المائدة ، وسأل :

– اين اذهب بهن ؟ نشأن قارعات مسطحات منمشات سريعات التأثر كأنهن من السيدات بطلات قصص تورجينف ، وذلك كله في زماننا ! وامهن مسؤولة عن كل ذلك ، ولكن الذنب يقع عليّ ايضا ، وانا اعترف بذلك نادما . كانت الكبرى تريد الالتحاق بدورات النساء العليا ، ولكننا اقنعناها بالعدول ، وهي فضلا عن ذلك كسول . . . والجذبت الصغرى الى المسارح ، وكان من الممكن ان تكون ممثلة من الدرجة الأولى ، واؤكد لك ذلك . . . وصرفناها عن ذلك بجهد كبير ، بل واستخدمنا التهديد . . . وباختصار كنت الأب المستبد ، وذلك في زماننا هذا ! وكل ذلك بسبب من قلة التروي . . . والانجليزي ينظر ثلاثة اعوام الى الامام وهو جالس على لطنده الصوفي ، ان هذا صحيح . . . اما نحن فكنا نفكر من

فصل الى فصل ، كما يقولون – وشرب من قدحه محركا خديه ، واضاف بشكل مفاجئ – ولكن بشكل عام لن تضيع . . .

وكان ثالث الجالسين شديد السكر بحيث لم يكن يستطيع الا ان يصرف باستنانه ، ويأكل الزهور – زهور الاسطر الصغير – يقتطعها من مزهرية على المائدة . ولم يكن يصغى الى شيء ، مثبتا عينيه الكدرتين في المائدة المجاورة حيث جلست عليها فتاة على قدر كبير من الجمال لها عقصة كبيرة بريشة من شعر شاحب الشقرة ، وشاب ضخم في لباس شبه عسكرى . كان يبكى بصمت واضعا ذقنه على راحة يده ، لا يعير التفاتا الى احد ، وكان كل الموجودين هنا طيبون حقا . غضنت الفتاة وجهها المستدير الازرق العينين في ضيق ، ومسدت على يده ، وامسكتها ، وراحت تقبلها ، واحنت راسها على مقربة من الشاب ، وهمست له بعجالة وهلع . هز الشاب وجهه الضخم هزا بطيئا ، وسمع روتشين صوته الكامد الهامد الشبيه بصوت دمدمة النيام :

– اتركينى ، زينا ، اتركينى . . لم اعد اريد شيئا ، لا اياك ولا اياى . .

وكان في امكانه ان لا يقول شيئا آخر ، فقد كان مفهوما بدون ذلك بم ستنتهى الليلة بالنسبة لهذا الشاب . . . كانت الفتاة تشبه كاتيا بشىء ما ، لا بوجهها ، بل بعذوبة حركتها الهادئة . . . ستنتهى حياتها ايضا في مكان ما بين مرضى التيفوس في محطة قطار على مفترق طرق . . . جاء فتيان ، وجلسا على عجل الى مائدة شاغرة ، وحجباهما . كان لكليهما خصلة شعر مشذبة نازلة حتى حاجبيه ، واسنان مسوسة ، وخواتم من الالماس في اصابعه القذرة . قال احدهما للآخر مباهيا «ضربت ماشكا بقضيب حديدى ضربا موجعا ، ودست عليها حتى قرقعت عظامها الساقطة . . . » .

– هل تسمح لى بالجلوس الى مائدتك ، ايها الضابط ؟

هز روتشين راسه دون ان ينطق بكلمة . فجلس الى مائدته رجل في نظارة من الشيكل دافعا قدمين ضخمتين تحت المائدة . كان يرتدى بزة عسكرية خضراء رمادية ضيقة عند الصدر لضابط

المانى من فصائل «لاندشتورم» المتطوعة . قال للنادل وهو ينطق الكلمات الروسية بعسر :

– ارجوك ان تطعمنى . منذ وقت طويل وانا لم آكل . ثم بيرة ، بيرة !

ونفخ خديه النحيلين مظهرا كيف سيشرب البيرة . وضحك ، ثم نظر بشىء من الدهشة الى روتشين العبوس مصوبا اليه عينين هادئتين زرقاوين كعينى غراب الزرع :

– هل يتكلم حضرة الضابط الالمانية ؟

– نعم .

– اذا كنت اضايقك بحثت عن مائدة اخرى بكل سرور .

– انت لا تضايقنى .

وكان جواب روتشين في هذه المرة اكثر لطفا . كان للضابط الالمانى وجه من تلك الوجوه الالمانية التى تمتاز بالضيق وصغر الفم مع انبعاج خفيف فيه ، وتظل تحتفظ بمسحة الطفولة والتورد الرقيق حتى الشيخوخة . كان انفه مرفوعا ، وكأنه بدافع من التطلع الحسن النية الى كل انسان . قال :

– من قبل كانوا لا يسمحون لنا ، نحن الجنود ، بارتياد المطاعم ومنذ يوم امس اصبح الانضباط الالمانى اكثر معقولية .

ابتسم روتشين ابتسامة معوجة ، فاسرع الضابط الالمانى بتحديد فكرته على وجه الدقة رافعا كالاستاذ اصبعا قوية الاظفر :

– الانضباط لا بد ان يكون معقولا واذ ذاك يكون على شاكلة النظام الاجتماعى ، وشرطا ضروريا للتطور . ومثل هذا الانضباط المعقول يولد من الحركات الاجتماعية العميقة . ولكن اذا لم يكن كذلك ، وكان من وسائل الاكراه فاننا لن نسميه انضباطا .

وهز راسه مرحا ، منهيا فكرته الغامضة قليلا هذه .

سأل روتشين :

– اتجلون الى المانيا ؟

– نعم ، ان وحدتنا انتخبت لجنة فاصدرت هذه اللجنة قرارا مبدئيا تماما من حسن الحظ رغم انه لم يتخذ دون مقاومة .

– انت تعرف ما تعنى العبارة الروسية : لا احد يمسكك من رجليك .

– معرفتى بالروسية ليست قليلة . اعرف انهم حين يقولون لك ذلك فمعنى ذلك «اذهب الى جهنم وبئس المصير» . . .

– وليكن ذلك . . . يبدو انك ذكى فما حاجتنا الى التظاهر ؟ كنا اعداء . وافترقنا اعداء .

– اها ، حسنا – وفكر الالمانى وهز راسه وقال :

– من ناحيتى سيكون نكران ذلك من العبث بل وعدم اللياقة .

وانفرجت شفتاه الرقيقتان عن ابتسامة مرة أخرى منهيا هذا الموضوع . احضر له الطعام والبيرة . ابدى اعتذاره لأنه سينقطع عن الحديث بعض الوقت . واقبل على الشواء غير متعجل ، بل وماضغا قطع اللحم والخبز والطماطم المشوية بنوع من التبجيل .

– لذيذ .

قال ذلك شاعرا بان روتشين لا يصرف عنه عينيه الداكنتين الحاقدتين . واتى على كل ما فى الصحن ، ومسحه بقطعة صغيرة من الخبز ، ووضعها فى فمه . وشرب القدح الكبير من البيرة الباردة مسبلا جفنيه تصنف اسبالة .

– الألمان يهتمون بالطعام اهتماما جديا جدا . جاعوا كثيرا ، وسيجوعون طويلا حتى تحل مشكلة الطعام حلا نهائيا .

وارتفعت اصبعه الطويلة الى الاعلى مرة أخرى .

– فى فجر التاريخ ، حين انتقلت البشرية من الجمع البدائى لهبات الطبيعة الى التدخل القسرى فى الطبيعة اصبح الطعام حصيلة العملية الصعبة الخطيرة للحصول عليه . وصار الطعام عملا مقدسا . الاكل يعنى امتلاك حياة أخرى ، قوة أخرى . ومن هنا تاتى فكرة امكانية رقى الطبيعة ، اى السحر . . . وطقوس الطعام السحرية هى فى اساس كل العبادات الباطنية . انهم ياكلون جسد الله . . . وقد سجلت حوارا طريفا مع عالم روسى عن اصل قرص الفطائر . وايام المرفع هى عيد اكل الشمس . وقد طلسموها برقصات دائرية ، ثم اكلوا صورتها ، وهى قرص الفطيرة . وهكذا ترى ان السلاف فى معتقداتهم كانوا دائما يطمحون الى ذرى عالية جدا .

وضحك ، وفك الزر المعدنى لسترته العسكرية ، واخرج دفتر ملاحظات سميكا ذا كعب جلدى متهرئ ، نفس ذلك الدفتر الذى اخرجه فى عربة القطار قبل شهرين ليقرا لكاتيا روتشينا فقرة من اميان مارتسلين . وضع الدفتر على المائدة ، وقلب بحذر اوراقه المملوءة بملاحظات ومقتطفات وعناوين مكتوبة بخط دقيق .

قال وقد وضع اصبعه على صفحة :

– انظر .

الا ان روتشين لم ينظر الى تلك السطور الصغيرة ، بل الى ما خطته يد كاتبا فى الاعلى : «يكاترينا دميتريفنا روتشينا ، يكاترينوسلاف ، شباك البريد» .

فسأله بصوت اجش :

– من اين لك هذا ؟

وتدفق الدم الى وجهه . فرفع يده الى ياقة قميصه العسكرى . وخيل للالمانى ان الضابط الروسى سيخرج مسدسه باليد الاخرى حالا ، على عادة سنى الحرب . . . الا ان عينى الضابط المخيفتين لم تعبرا الا عن المعاناة والتوسل . . . قال له الالمانى باكثر ما يكون من اللطف :

– يبدو انك تعرف هذه المراة معرفة جيدة جدا . استطيع ان احدثك شيئا عنها .

– معروفة لى . . .

– اوه ، تلك قصة من القصص المحزنة .

– ولماذا محزنة ؟ هل قتلت هذه السيدة ؟

– لا استطيع ان اقول ذلك عن ثقة . واود ان آمل بمصير افضل . . . خلال سنى الحرب ادركت ان الانسان هو مخلوق يملك قوة بقاء خارقة ، رغم ان من السهل جرحه ، وانه سريع التاثر بكل الم . . . وهذا يحدث . . .

ورفع اصبعه من جديد ، الا ان روتشين قال وقد تلوى وجهه :

– قل لى اين رايتها ، وماذا حصل لها ؟

– تعارفنا فى عربة قطار . . . وكانت يكاترينا دميتريفنا قد فقدت لتوها زوجها الذى تحبه بحرارة . . .

– كان ذلك افتراء مقصودا ! . . فانا حي ، كما ترى . . .

القى الضابط الالمانى ظهره على كرسيه ، وتكور فمه الصغير ، وصارت عيناه الشبيهتان بعينى غراب الزرع مستديرتين ، وضرب كفيه على المائدة :

– انا ادخل هذا المطعم لاول مرة ، واجلس الى هذه المائدة ، واخرج دفترا . . . واذا بالاموات يستيقظون ! انت زوج تلك السيدة ؟ لقد حدثتنى عنك ، وكنت انا ايضا اتصورك آنذاك فى الصورة التى انت فيها . . . لا ، يارفيق رونشين ، يجب الا ، الا . . .

وتلعثم ، واطبق شفتيه الرقيقتين ، ونظر من فوق نظارته نظرة صارمــــة متفحصــــة فى عينى فاديم بتروفيتش المغرورقتين بالدمــــع . وظهـرت قطرات العـــــرق على انفـــــه المرفـــــوع بحسن نوية :

– نزلت من القطار قبل يكاترينوسلاف ، فكتبت عقيلتك عنوانها لى . وقد اصررت انا على ذلك ، اذ لم ارد ان افقدها كطائر عابر . وخلال الطريق استطعت ان اشعرها ببعض البشاشة . انها ذكية جدا . وعقلها الصافى والقليل التطور متعطش للافكار الطيبة الرفيعة . وقد قلت لها : «ان الحزن هو نصيب ملايين النساء فى وقتنا هذا . ويجب ان يحول الحزن والشقاء الى قوة اجتماعية . . . ليلهمك الحزن الصمود» ، سالتنى «وما حاجتى الى هذا الصمود ؟ وهل ترانى اريد ان اعيش اكثر ؟» قلت لها : «نعم ، انت تريدين ان تعيشى . ليس هناك اهم من الرغبة فى الحياة . واذا كنا لا نرى من حولنا غير الموت والشقاء والحزن فاننا يجب ان نفهم باننا نحن انفسنا ملومون لاننا لم نزل حتى الآن سبب ذلك ، ولم نحول الأرض الى مسكن وادع سعيد للانسان ، تلك الظاهرة الرائعة . خلفنا صمت ابدى ، وامامنا صمت ابدى . وليس لنا غير فترة قصيرة من الزمن علينا ان نعيشها **لتملأ سعادة هذه اللحظة كل فراغ الصمت اللانهائى . . .»** لقد قلت لها ذلك لادخل السلوان الى نفسها . . . وعلى هذا النحو نزلت من القطار ، وانضممت الى وحدتى . وفى الليل تلقينا اخبارا تقول ان القطار التى كانت زوجتك تقله قد اوقف من قبل شرذمة من الماخنويين ، ونهب ، واقتيد جميع المسافرين الى جهة غير معلومة . هذا كل ما اعرفه ، يارفيق رونشين . . .

بدأ برنامج الترفيه على المسرح الصغير . دفع البيانــــو والموسيقى ذو الشعر النانى الى ما وراء الكواليس . وظهـر دون ليماندو عريف الحفلات الموسكوفى الذائع الصيت ، وهو رجل حسن المظهر لا يحزر عمره ذو عينين مصبوغتين يرتدى سترة «سموكين» وقبعة قش قاسية انزلها على حاجبيه .

– اهنئكم ، ايها السادة ، بالثورة الالمانية – وصافح نفسه بنفسه بشدة – كنت قبل برهة فى محطة القطار . وقد قلت لضابط المانى : مرحبا ، كيف الحال ؟» فقال لى : «حسن جدا وانت كيـف حالك ؟» قلت : «كذلك حسن جدا . ها هو شهر تشرين الثانى ، وقبعة القش باردة فيه ، بينما تركت قبعتى الشتائية فى موسكو ، والآن لا اعرف متى ساحصل عليها» فيقول لى : «اشتر لك قبعــة شتائية» قلت : «ادخرت الف مارك للقبعة ، اما اليوم فقد اعطونى مقابلها خمسة روبلات» فيقول متعجبا : «آى ، آى ، آى» . قلت له : «آى ، آى ، آى» . وهكذا تحدثنا عن هذا وذاك ، بينما كان جنوده يصعدون على سطوح العربات . قلت له «هل انتم راحلون ؟» قال «راحلون» . قلت «نهائيا ؟» قال «نهائيا» . قلت : «مع الأسف الشديد» . قـــال «ما فى اليد حيلة» . قلت : «باى معنى : ما فى اليد حيلة ؟» قال «بمعنى الخلو من كل معنى» . قلت «آى ، آى ، آى . بينما كنا نأمل ان ذلك لن يحصل عندكم» . وهنا غنى الجنود الجالسون على سطوح القطار اغنية «التفاحة» الروسية فانصرفت . . . وكان الظلام مـن حولى ، والريح تصفر ، وفى الشوارع الجانبية طلقات نارية . وكان على ان ابدأ البرنامج ، فقد تأخرت عن موعدى ، وقلبى يرتعش . فاخذت اغنى .

ودق البيانو وراء الكواليس ، فقفز العريف محركا رجليه :

آه ، يا تفاحة
الليل مظلم
فال اين اتوجه ؟
معقول ان اعرف . . .

وادار رونشين ظهره الى المسرح ، ونظر فى عينى هذا الالمانى العجيب ، وسأل :

– هل تستطيع ان تبلغني في اي منطقة يعمل ماخنو الآن ؟

– تقول تقاريرنا الاخيرة ان ماخنو بدا يضغط بشكل خطير على الوحدات النمساوية المتراجعة وعلى الوحدات الالمانية في بعض الاماكـــن . ومقـــر قيادة ماخنـــو عاد من جديد الآن الى غولاي-بوله . . .

١٠

في بداية تشرين الثاني كان فوج كوتشالين في الاحتيـــاط للتعزيز والاستراحة . ولم يبق منه بعد انتهاء المعارك غير ما بين مائتين وثلاثمائة مقاتل . وكان بيتر ليقولايفيتش ميلشين الـــذي عهد اليه اللواء كمفاجاة له نفسه قد تحدث في المجلس العسكري ، وباقتراح منه عين تليغين آمرا للفـــوج كوتشالين ، وكان تليغين يرقد في المستشفى ، كما عين سابوجكوف مساعدا له ، وايفـــان غورا مفوضا للفـــوج . وضمت بطاريـــة تليغين الى مدفعيـــة الفوج .

كانت اياما رطبة تفوح برائحة دخان المواقد ورائحة الكــلاب المبللة . وكانت الرطوبة تقطر من السطوح المعتمة ، والأرض تتحول الى وحل ، وكان المقاتلون ، وهم يعودون من التدريـــب يجلبون باحذيتهم كتلا ضخمة من الوحل . وكانت معنويات الجميع عالية . وكان الموسم الرهيب في نهايته ، فقد دفع جيش الدون بعيدا وراء شاطئ* الدون الأيمن . وترددت الشائعات عن ان الاتمان كراسنوف في نوفوتشيركاسك ضرب راسه في الحائط يأسا بعـد ان علم بهزيمته الماحقة الثانية هذه قرب تساريتسين .

كان المقاتلون ، بعد انتهاء يوم من التدريب العسكـــــرى والدراسة السياسية ومحو الأمية ، يتفرقون عند هبوط الظلام في القرية منكمشين من البرد ، بعضهم الى معارفهم ، والبعض الآخر الى «الصديقة الجديدة» . اما الذين لم يكن لديهم معارف ولا صديقة فقد كانوا يقضون اوقاتهم في السمر منشدين الاغاني ، او في اغواء الفتيات بالالاعيب الهازلة جالسين في مكان جاف ، وما كان يبتدئ* بالنكات والضحك غالبا ما ينتهي بالنقاشات الحادة في بعض الاحيـــان لأن اعصاب الجميع كانت متوترة .

كان اثنان من بحارة بطارية تليغين العشرة قد جرحا جرحـــا خطيرا وقتل ثلاثة . وبقي خمسة . ونزل البحارة في بيت قوزاقي جيد كان قد تركه صاحبه الهارب . وكانت انيسيا تعيش معهم وقد سجلت في الفوج اسميا كجندي غير محارب . وكانت تصطف اسوة بالمقاتلين الآخرين وتتمرن على الرمي وتحضر التثقيف السياسي . وصارت ترتدي بزة نظيفة لجندي أحمر ، سوى انها لم ترد ان تحلق شعرها المجعد الجميل . وقد رات الكثير من الفظائع والموت ، وفي عهد تشرين الاول المضني غوّضت في مصيبتها التي لا تعوض ، كما يخوض الناس الى الاقاتهم في مخاضة نهر . ولم تظهر تجاعيـد جديدة على وجهها الذي عاد اليه الشباب وتقى ، واترع خديهـــا فتاء الجنود في المؤخرة ، وانتصبت قامتها ، وصارت مشيتهـــا خفيفة ، وتجددت بكليتها . وفي الليالي حين كان البحارة يشخرون بقوة في المسكن غير المدفأ كانت هي تغسل ملابسهم خفية ، وترفوها وتصلحها ، وفي بعض الاحيان كان عملها يمتد حتى يصدح بـــوق الاستيقاظ ممدودا في الفجر الرمادي .

كما بقي في الفوج كوزما كوزميتش نيقيدوف في منصب غيـــر رسمي هو كاتب الفوج . وفي اصعب الأيام ، اليوم السادس عشر والسابع عشر ، ابدى شجاعة بل واستمالة خاصة حين كان يخرج الجرحى من النار . وقد لاحظ الجميع ذلك . ولم يتقاعس فيمـــا بعد ، حين انتقلت بقايا فوج كوتشالين الى الهجوم المضاد . كما لم يتاخر وراء الدون ، حين بُدل الفوج ، وحول الى المؤخرة .

ذات مرة التقى به ايفان غورا عند مطبخ الميدان مبللا قذرا نحيلا منفعلا فدعاه باصبعـــه :– ماذا عساني افعل معـــك ، يا نيقيدوف ؟ لا استطيع ان افهم اى شخص انت ؟ قس مجرد من مسوحه ، وفي سن محترمة . . فما الذي يجعلك تتعلق بنا ؟

تنشق كوزما كوزميتش لأن قطرة من المطر سقطت من على انفه المقشر ، وتطلع الى المفوض بعينيه الصهباوين المرحتين :

– هذه طبيعتي ، يا ايفان ستيبانوفيتش . اتعلق بالناس . . . الى اين اذهب ، وعن اى مجتمع انساني آخر ابحث ؟ فانا رجـــل مفكر .

– ولكن ليس هذا هو الموضوع . اسمع . . .

– اما بخصوص مؤنة الفوج (واشار كوزما كوزميتش الى القصعة المملوءة التى كان يحملها) فان هذه الشوربة من شحم الخنزير قد اكتسبتها بنزاهة . ولا تراني قد حرصت على سلامة جلدي . . . اما البنطال والحذاء فقد حصلت عليهما بنفسي من العدو في ساحة المعركة . . . وانا لا اطلب شيئا ، ولا اثقل على احد . وفي المستقبل ايضا آمل ان اكون نافعا . اليست الثورة بحاجة الى انسان ذكي ؟ بلى . . وليس في فوجكم كاتب متعلم . . . وانا فضلا عن ذلك اكتب باللاتينية والاغريقية ، وقد انفع في مواضع اخرى . . .

فكر ايفان غورا مع نفسه : «حقا لماذا لا نستفيد من انسان ، اذا كان ذكيا ويريد العمل ؟ . .»

قال :

– الموضوع ان اصلك يقلقني . نخشى ان تبث الافكار الشبابية . . .

قال كوزما كوزميتش :

– نعم ، مر وقت كنت فيه اركض وراء السراب ، ولا حاجة الى ان اخفي شيئا . . . كنت تائها فيه . لا ، لا تخشوا شيئا من تحريضي ، فانا مع الله في نزاع . . .

سأل ايفان غورا :

– في نزاع ؟ ها ؟ حسنا ، تعال الى منزل في المساء لنتحادث . .

وعند هبوط الظلام ظهر كوزما كوزميتش في منزل المفوض الذي كان جالسا عند النافذة وهو في معطفه وقبعته ، يقرأ جريدة محركا شفتيه . طوى ايفان غورا الجريدة ، ونهض واغلق الباب :

– اجلس . . . هناك شيء غير جميل قد حصل . هل انت قادر على ان تضم لسانك وراء اسنانك ؟ بالمناسبة ، سيكون وضعك اسوأ اذا بدأت بالكلام الزائد : فانا اعرف كل شيء ، حتى ما يحلم به المقاتلون اثناء نومهم . . .

واخذ يقطع شريطا ضيقا من حاشية الجريدة البيضاء ، ونخر ، وهو يحاول لف الشريط باصابعه التى لم تكن تطاوعه في تثنيها .

– حصد الناس ، وخزن القمح . اما درسه فقد تأخر بعض الشيء بسبب الاوضاع العسكرية . . الا ان الناس يثقون بنا ، وهذا الشيء الرئيسي – انهم يريدون الاعتقاد بان السلطة السوفييتية اصبحت متينة . . . حسنا . . .ولكن عن قريب سيحل عيد الحجاب المقدس . . .

ورفع ايفان غورا بصره الى كوزما كوزميتش قليلا ، واختلج منخر انفه الكبير في ارتباك . . .

– عن قريب عيد الحجاب المقدس . . . والخرافات ما زالت حية في الناس . . . ولا تستطيع محوها بمرسوم في يوم واحد . . . انها تقتضي وقتا طويلا ، كما يمكن ان يقال . . . بينما الفتيات غير راضيات ، وهن ينتظرن العيد ، ولا احد يرسل لهن الخطابات . بالامس كنت في قرية سياسكويه . اوقفت النساء عربتي ، وصرن يبكين ويشتمن ويضحكن . . . التعاطف مع السوفييتات كلي ، ولكن هذا العيد يصعب عليهن . . . القرية غنية ، والحبوب كثيرة ، ولم تطبق عليهم حتى الآن ضريبة فائض الحبوب . . . ويجب التعامل معهم بذكاء ليقدموا الحبوب عن وعي بالأمر . ولكن كيف يمكنك ان تقوم بالدعاية بينهم ، اذا كانت النساء قد امسكن بعنان العربة وهن يصرخن : هيئ لنا قسا . . . وقد اخجلتهن قائلا لهن : كفاكم من قساوستكم وقد رأيتهم يلوحون بمباخرهم امام الجنرال مامنتوف . فيقولن لي : «اولئك كانوا قساوسة بيضا ، وقد طردناهم بانفسنا من القرية . . ولكن اعطنا قسا أحمر . . نحن بحاجة الى عقد حفلات زفاف ، وفتياتنا تعبن من الانتظار ، وعندنا مائة وخمسون طفلا يصرخون في المهود ، وهم لم يعمدوا بعد . . .» تفو . . لقد ظل رأسي يوجعني في اليوم التالي . . . الى هذا الحد ازعجتني النساء . هل استطيع ان ارسل لهن قسا ؟ ولكن يجب حل المسألة . انهن بعد التفكير الطويل قد يرسلن في طلب القس القديم من نوفوتشيركاسك . . . وسيكون ذلك تصادما . . . انت ، يا كوزما كوزميتش ملم في هذه الامور ، فانقذني . خذ عربة ، واذهب الى القرية وتكلم مع النساء . . ولكن وكأنني لا اعرف شيئا . انا

رايت اولئك الفتيات ، فطاعة : انهن ناضجات – واشار ايفان فورا الى صدره – ان القضية انسانية .. فهل تذهب ؟

اجاب كوزما كوزميتش :

– بكل سرور .

وهز راسه مكورا شفتيه .

– انت رفيق مضجر في الحديث ، يا شاريغين . دماغ ناشف يجعل المرء يفقد عقله .

واخذ لاتوغين قبعته ، وارتداها مائلة ، وحافتها الناتئة على اذنه ، وتحرك على المصطبة ، الا انه لم ينهض منها ، وحرك مقلتيه ، ونظر الى اتيسيا .

كانت تجلس مقطبة الجبين من جهد الانتباه ، مثبتة بصرها كما هي الحال دائما في ساعات الدراسة في اى شيء كان ، وليكن مسمارا في الحائط . فان عقلها غير المتعلم كان يجد عسرا في تقبل الافكار المجردة ، فقد كانت مثل كلمات من لغة غريبة ، لم تكن تنفذ الى احاسيسها الحية الا اجزاء وومضات متقطعة . كانت كلمة «الاشتراكية» تثير فيها تصور شيء جاف مهسهس ، مثل شريط احمر تلامس زغبه ايد خشنة . وقد حلمت بهـــذا الشريط . وكانت «الامبريالية» عندها مثل الملك بنو خذنصر الذى راته في صورة شعبية رخيصة التصق بها فضلات الذباب وقد وضع التاج على راسه ولبس رداءا صبغ بلون قرمزى زاه . وكان الملك قد القى صولجانه وكرته الملوكية عند مراى يد تكتب على الجدار كلمات تنبئ بهلاكه .

الا ان اتيسيا كانت محبة للعمل ، وقد بذلت جهدها للتغلب على هذه التصورات الناقصة .

وكانت تحس بنظرة لاتوغين عليها ، الا انها لم تصرف بصرها عن المسمار في الجدار ، ولكنها اطبقت ببطء ، ركبتيها المتباعدتين .

سأل شاريغين :

– لماذا انا مضجر في حديثي ، يا لاتوغين ؟ المقالة التي تتدارسها منشورة في «الزفستيا» ، افلا تعجبك ؟ اذا كنت مقاتلا في

سبيل الثورة وجب عليك أن تتمثل بدقة ، وانت تحشو بندقيتك ، الوضع الراهن والمهمات العامة ايضا .

وحين قال شاريغين ذلك نقل نظرة داكنة من عينيه الزرقاوين الجميلتين الى اتيسيا ، فتابعت هي النظر الى المسمـــار . وقال بايكوف بصوت رفيع ، دون ان يضحك :

– ولكن ما نفع الصدار للذئب ، فانه سيمزقه في الاجمات ، على اية حال . والعلم خال من المتعة بالنسبة لرجل شاطر .

ردّ لاتوغين فورا بدون نبرة هزء ايضا :

– كلام لبق ! ولكن ليس صحيحا تمامــا . لا ، ليس العلم خاليا من المتعة بالنسبة لرجل شاطر . انا احترم العلم ، اذا كان الاطفال يخرجون منه . ولكن الأمر الخالي من المتعـــة الا يعرف الانسان أين يبدا الفيل من رجليه وأين راسه . . . ولكن كفاك اغاظة لي . ان كلمة حقيقية ، كالمراة ، تعانقك وتحرقك ، وتجعلك تركض حافيا على الجمر . بهذه الكلمات تحدث معي ، يا شاريغين . . . بينما اراك تعزف على نغمة واحدة : «البروليتاريا العالمية والاشتراكية ..» لقد تقحمت الموت في سبيلهـــا . وانا اريد ان يحدثوني عنها ، ولكن بالطريقـة التي اصغي اليها واصدق بها : ايـــة شجرة ابدا بتكسيرها لأصنع بيتا ، وفي اى مرجة اتنزه في قميصي الحريري . . . آه ، لو تضرب على راسك بكرة ارضية لتعرف كيف تتحدث عـــن الثورة العالمية .

نظرت اتيسيا الى وجهه القوى العريض بعينيه المتباعدتين مثل عيني ثور أصيل . نظرت وقالت لنفسها بوحشـــة ان فقدها لعينيها خير من النظر بهذه الصورة .

لم يكن غاغين ، ولا زادوبفيتر ، ولا بايكوف يوافق على سلوك لاتوغين . كانوا يتحادثون بلطف وهدوء تحت شرشرة المطـــر الهادئة على السطح القشي . حقا ان شاريغين كان في بعض الاحيان ، بسبب من حداثة سنه وعدم استيعابه العلم بعد ، يعبر عن افكاره بطريقة ثقيلة خائفا من استعمال الكلمات البسيطـــة ، وكانـــه يخشى ان توقعـــه في مازق . وكان يشعر بحرية اكثر مع الكلمات الاجنبية المجربة ، ومع ذلك فلم يكن يحسن بلاتوغين ان يهزأ برفيق مخلص ، فضلا عن ان الجميع كانوا يدركون ان احتدامه وتبجحه

يرجعان الى سبب آخر بالطبع ، ولم يكونوا يوافقون على هذا السبب ايضا .

قال غاغين له :

– المقوض يهيء فصيلة تموين ، فاذهب اليه واسأله ان يضمك اليها . قالت ضجر لانك لا تفعل شيئا ، لا أحد ينتظر منك خيرا . فقد طال وقوفك ، يا فتى . . .

هز بايكوف لحيته ، واخذ يضحك . كما أن زادويفيتر حدس ما يلمح اليه غاغين ، ففتح فمه باسنانه القوية وقهقه . وتدفق الدم الى وجه اليسيا ، حتى انفجرت الدموع من عينيها . تناولت معطفها ، واستدارت ولبسته ، وتحزمت عليه بقوة ، وخرجت من الكوخ . وشعر الجميع بالحرج تماما . طوى شاريغين الجريدة ببطء ، وهو يبتسم ابتسامة هازئة . وقال للاتوغين :

– لنذهب ، ولنتحدث .

فقلص هذا عينيه ، وقال :

– لنتحدث .

وخرج الاثنان الى الفناء في الظلام ، تحت رذاذ دقيق يدغدغ الوجه . واحس شاريغين ان لاتوغين ينتظر بداية الحديث وعلى فمه ابتسامة هازئة ليرد عليه ردا لاذعا لئيما . . . كان شاريغين يريد ان يطرح بهدوء تام مسألة خرق الانضباط الرفاقي وضرورة التحرر من التركة البرجوازية الفاسدة . . . ولكنه قال بدلا من ذلك ، وبعد أن استنشق بمنخريه نفسا عميقا من رطوبة الليل .

– اترك اليسيا وشأنها . . . ليس هذا لطيفا . . . بل قذارة ، ومشاكسة . . .

قال ذلك وصمت . اما لاتوغين الذي لم يتوقع مثل هذا المنقلب فقد وقف امامه بلا حراك . ولم يستطع أن يجد ما يصلح ان يرد به . لا «من طلب منك أن ترعاني ، أيها الغر ، ايها البكر ، ايها العفيف ؟ » ولا «كثيرون سألوني عن هذه الامور ، ولكن القليلين خرجوا مني سالمين . . . »فقد تبين تماما انه ، اى لاتوغين ، انسان قذر . . . انبعث في نفسه احساس حارق بالمهانة . . . ولو حدث ذلك في الماضي لأخرجه عن اطواره . . . قلص عينيه ، وصك على اسنانه . . . مستحيل !

قال :

– نعم ، نعم . تقريعك هذا يعني أنني ارقت دمي عبثا ، يعني ما زلت كما كنت صعلوكا ، قاطع طريق ، ابن كلبة ؟ حسنا ، شكرا لك ، يا كوستيا . . .

واتجه نحو المخرج ، وضرب بشدة باب السياج بقبضته .

عادت الحياة الى ايفان ايليتش تليغين ببطء . (كان الى جانب اهتزاز الاعصاب مصابا في عدة اماكن بشظايا الفولاذ الصغيرة من انفجار قنبلة) .

في اول الأمر كان في غيبوبة مستديمة . ثم حل محلها نوم مع فترات متقطعة من اليقظة حين كانوا يقدمون له الطعام . وبعد ذلك اخذ يحس بحالة هنيئة من السكينة . كانت عيناه معصوبتين بضمادة . وكان يرقد في غرفة منفردة سدت نافذتها باحكام . واحيانا كان يسمع خطوات خفيفة ، وهمسا – ليس اعلى من خشخشة الاوراق – ورنين معلقة ، وحفيف ثوب . وكانت بالقرب من رأسه ساعة صغيرة تدق بلا انقطاع تارة اكثر وضوحا ، وتارة اكثر خفوتا . وكانت الاحاسيس الآتية اليه من العالم الخارجي محدودة بهذه فقط ، وبحضور غير مرئي لمخلوق حذر . ما ان يزفر زفرة حتى تسري حركة خفيفة في الهواء ، فينحني «هذا» المخلوق فوقه ، بل ويحس رائحة رقيقة طرية .

وبين الحين والآخر كان يتدخل مخلوق غليظ تفوح منه رائحة عرق قوية ، وتبغ بشكل رئيسي :

«ما هو نبضه ؟ » .

ويهمس المخلوق الرقيق بالجواب همسا لا يكاد يسمع ، فيقول الغليظ بانشراح :

«رائع . الرجل قوى . . . يجب ان تراعي بشكل اساسي : الهدوء الكامل ، دون اى مهيجات خارجية . . .»

غمغم تليغين في ذهنه ببطء : «انت نفسك مهيج خارجي . . . . اخرج ، ولا تطنطن . . . اما انت ، ايتها الحنون ، فانحني وعدلي شيئا ما ، ولكن الاحسن أن تمسدي على يدي . . ما ان فكرت بذلك في سري حتى فهمت ومسدت على يدي . من هذه الممرضة ، ومن اين وجدتم مثل هذه المحبوبة ؟ »

وكان الكلام ممنوعا عليه . ولكن لا يمكن أن يمنعوه من التفكير . منذ سنين عديدة لم يحدث له ان خلا لنفسه بدون ملامات ولا هموم . وكان ذلك مكافأة كبيرة على كل السنوات الصعبة من الخدمة النزيهة . لم يفعل شيئا تنقصه النزاهة ، وضميره ينام هادئا مثل قط داخن اللون في يوم مطير . وكانت افكاره تهيم في عالم نصف واقعي . واكثر الاحيان يتذكر شمس الشمال الصيفية ، كتلك التي كانت في بطرسبورغ في يوم بارد ، تسكب الضوء على اسفلت الرصيف الضارب الى الزرقة ، حيث تجرجر الريح اذيالها . . . . ما اكثر ما مرت به من افكار وما اكثر ما شهد في بطرسبورغ . . . . والآن تمر امام جفنيه المطبقين نافذة بيت خشبي ، والشمس تضرب باهتة على الزجاج المحبب ، ووراء الزجاج شيء يتراءى له . . . الا ان الذكرى انطفأت واختفت ، ولم تبق الا كآبة الهوى من تماس الذكرى به .

وكانت تتردد في ذاكرته باستمرار كلمات طال عليها النسيان من اغنية لا يعرف اين سمعها بالضبط ، ربما في لوقيا دريفنيا ، في بيت ريفي وراء نهر كرستوفكا . كانت غجرية مكسال نحيلة تغني بصوت خفيض في ازرقاق الغسق الليل ، وهي تعزف على الاوتار : «لك ان تذهب يمينا وشمالا ، ثم تجوب البيت كله عبر دهاليزه المظلمة ، فتجد بابا الى اليمين ، ووراء الباب علية ، وكلما كنت تبحث عنه لن تجده ابدا . . .» .

غنت لهم – للرجال الذين جلسوا امامها صامتين – عن الشوق الابدي الذي لا تكون الحياة بدونه . . . ابحث ، ابحث ، وانظر الى العلية ، فلعله هناك ؟ آه ، انتم ، يا حمقى ، يامن يلوح عليكم خمار البارحة ! عمن تبحثون ؟ تسيرون في الشارع الطويل عند غروب شمس الشمال ، والريح الخفيفة تسوق الغبار تحت ارجلكم ، وتبحثون . اين تلك النافذة ذات الزجاج المحبب ؟ وهل على افريزها تجلس احلى فتاة على الارض ، في ثوب قطني ، وقد طوقت ركبتيها ، ورواحت تقرأ كتابا ، والكتاب يتحدث عنك ، يا من تبحث . كل ذلك هراء ، فانتم تبحثون عن انفسكم . . . .

في السكون والظلام ، وتحت تكتكة الساعة كان ايفان ايليتش يهوم ويحلم : مع عودة الحياة اليه استيقظ في نفسه حب النفس

المختفي في اعماقه ، والذي يتكره مبدئيا . وفي هذا العالم نصف الخيالي كان يبدو وكأنه يجمع ذكرياته ، اطيبها وابرأها واحبها – تلك التي يفقدها الانسان في طريق حياته ، وبلا عودة في الغالب . وقد اقبل حب النفس عليه ، مع اقبال العافية . فكان ياكل بشهية ، ويتمدد بقوة خفية عن الممرضة .

ذات مرة ، بعد أن نام نومة مريحة ، واكل عصيدة القمح اراح رأسه جيدا على الوسادة ، وقال فجأة بصوت عال :

– يا ممرضة ، هل من الممكن ان نتحادث قليلا عن اشياء صغيرة ؟

انحنت الممرضة عليه بسرعة ، وهمست مذعورة ، وضمت شفتيه براحتها :

– شش ! شش !

وحين رفعت يدها عاد يقول بوقاحة هذه المرة :

– اذن ، قصي علي شيئا ما . . . . ان لك يدا لطيفة صغيرة . كم عمرك ؟ ما اسمك ؟

ارسلت بضع زفرات قصيرة ما بين النشيج والغصة . . . بالغرابتها . . . وكان هو يريد ان يقول لها : «استيقظت . . . وفجأة عن لي . . . اذا كان الانسان لا يحب نفسه ، فانه لا يقدر ان يحب احدا . . . فما نفعه بعد ذلك ؟ فمثلا ان السفهاء والاوغاد لا يحبون انفسهم . . . انهم ينامون نوما سيئا ، وكل جسمهم يهرشهم ، مرة يختنقون بالغيظ ، ومرة يلتهبون من الرعب . . . يجب ان يحب الانسان نفسه ، وان يحب في نفسه ما يمكن ان يحبه الآخر فيه . . . لاسيما المرأة ، امرأته . . .» .

الا ان ايفان ايليتش لم يقل شيئا من هذا . وخرجت الممرضة من الغرفة ، وبعد قليل عادت مع الطبيب عدو المهيجات الخارجية ، الذي صار يطنطن باوقح طريقة :

– اراك تبدي وقاحة ، ايها الرجل ؟ لا يجوز . . . اسمح لك بقليل من الكلمات الضرورية للغاية . . . يجب ان ارسلك الى الفوج في احسن شكل . . . وواجبك ، يا حلو ، أن تصبح انسانا صحيحا في اسرع وقت ممكن . . اعطيه منوما ، يا ممرضة . . .

قال كوزما كوزميتش :

– قف ، يا صاحبي ، ودعني انزل هنا . وسادخل الى القرية ماشيا .

– ولماذا ماشيا ؟

– لا تعلمني . سادخل اليها كالحاج . هل فهمت ؟

– انت وشانك ...

واوقف لاتوغين حصان المدفعية المخصي الممتلىء ، على الطريق المتآكلة بالقرب من سدة عليهـــا اشجار صفصاف معوجة بدات اوراقها تتساقط . كانت قرية سباسكويه على الجانب الآخر من بركة مسطحة . وكانت مستودعاتها باكوام الدريس الطرى تقترب من الشاطىء . وكان الدخان يتصاعد من المداخن متلويا فوق سطوح القصب التي تكلل على البيوت الصلصالية واطئة باعثة للدفء .

قال لاتوغين :

– القرية كلها تقطر الخمر .

وارسل زفرة عميقة ، واخذ ينظر الى الوزات التي كانت تسير على السدة ممتلئة بيضاء مهيبة . لاحظ ذكر الوز في المقدمة عربة واقفة وفيها رجلان فتوقف ممتعضا ، وتوقفت وراءه زهاء خمسين وزة . وزوزت الوزات فيما بينها تتشاور ، وتهادت متحدرة على بطونها على منحدر السدة الى الماء ، وعامت فيه ، وكأنما تدفعها نسمة خفيفة على الماء المضبب الى السبخة .

قال لاتوغين :

– كل وزة تزن خمسة عشر رطلا ، البهيمة ما اشهى ان تسلق ، يا امي العزيزة !

قال كوزما كوزميتش :

– اذهب ، يا صاحبي – ومد له يده على عجل – وقل للمفوض يجب ان ابقى في القرية لألقي نظرة ولأرى ما يجري هنا . وبعد اسبوع تعالوا مع فصيلة التموين ، ستكون كل الامور على ما يرام .

– ستغرق في الخمرة هنا ، يا كوزما .

– انا ، يا اخ ، لا ارفعهـــا الى فمي . والآن ، استدر ، استدر . والا فسيرانا الناس ...

ادار لاتوغين العربة ، وضرب الحصان العريض الكفل بمسلوج غاضبا ، فركضت العربة به دون ان يلتفت . اما كوزما كوزميتش فقد سار على السدة الى القرية . كان يرتدي معطفا مخضرا من القدم ، قص في وقتها من مسوح قس وقد تحزم عليها بمنديل من القطن ، وحمل وراء ظهره كيسا من الخيش من النوع الذي يحمله الجنود الحمر ، ووضع على رأسه قبعة جندي عالية يعود تاريخهـــا الى زمن الحرب الامبريالية المنحوسة . وباختصار ، كان مظهره مناسبا .

الريف موحش في اواخر الخريف . فان اشجار الكرز والتفاح قد القت اوراقها ، فهي الآن مطروحة مبللة من جمد الليل على رقع الارض التي اقتلعت منها الخضروات . اما عباد الشمس الذي يغري الشمس لتنعكس على نوافذ البيوت الصغيرة فلم تبق منه غير سيقان متعفنة . والوحل منتشر في كل مكان حتى عتبات البيوت ، وصفاقات النوافذ الناصلة الالوان تصرق وتصطفق من الريح المثلجة ، ولا احد يريد ان ينظر من النافذة ، فان كل ما يستطيع ان يراه هو غراب يحط على السياج منتظرا بوعق ان تقذف ربة البيت في الفناء شيئا يؤكل .

«يعيشون في سبـــات ، يدمدمون ويهرشون . والعواطف نائمة ، والرغبات خارج الخيال ... ولكن كل انسان مخلوق على صورة وشبه ارسطاطاليس او بوشكين . ان لكم عيونا ايضا يمكن ان تروا بها عجائب الارض التي لا يمل منها ... ولكل واحد منكم راس بين كتفيه وهو اعجب العجائب ... (وهنا هز كوزمـــا كوزميتش قبعته العالية على راسه) اذا قارنته بالكون ، فان هذا الراس لا شيء بالنسبة له اطلاقا . الا ان الكون كله ، من الناحية الاخرى ، موجود في هذا الراس . فانه ، اى الراس ، ينفذ الى الاسرار القريبة من رب الانجيل .. ولهذا فما الحاجة الى ان ينظر الانسان من الشباك الى غراب ؟» .

سار كوزما كوزميتش يفكر بمثل هذه الافكار متمطقا من التلذذ ، مارا بالاسيجة الواطئة والبيوت التي تثقل عليها سطوح القصب حتى التقته فتاة ترتدي حذاء طويلا ومعطفا قصيرا من فراء الاغنام ، وتحمـــل دلوين مملوءين وازنتهمـــا على كتفهـــا

بمرفاع من الخشــــب . كانت عريضـــــة الاكتاف رصينــــة غير ودود .

– اسمك ناديجدا ؟ ام انا مخطئ ؟ مرحبا .

توقفت الفتاة ، وادارت اليه ببطء وجهها العريض .

– نعم ، ناديجدا . ولكن من أين تعرف ؟

– اقرأ ما فى القلب .

– لا تقرأ مثل هذه الاشياء عندنا . سر فى طريقك .

قال كوزما كوزميتش :

– مادمت قد طردتنى فانـــا عائد الى السهب اعد حدبات القبور . ياله من طريق طويل لاسيما حين يسير المرء وحيدا . اوه ، يا الهى ، ما اطوله ! . .

ارتجفت شفتا الفتاة . ومشت منصرفة ، الا انها توقفت ثانية ونظرت بريبة الى وجه هذا الرجل الباسم الماكر جدا . وبسط كوزما كوزميتش ذراعيه امامها :

– اذا رغبت فى النوم نمت على كومة قش ، واذا جعت سرقت شيئا ما . . . وليس هذا ما اريده ، يا فتاتى الحلوة . . . الانبياء ساروا حفاة على الاحجار الحادة ، وظلوا يبشرون برسالاتهم . . . والقديسون وقفوا على الاعمدة ، واقتاتوا على الجراد . . وهل تعرفين ما هو الجراد ؟ جنادب . . . ولأى شىء تعذبوا ؟ اجيبينى . . . اراك تفكرين . . . (تقدم منها ، ومط شفتيه) لقد احبوا الانسان . . . كل انسان هو معجزة . اما انت ، يا ناديجدا ، فمعجزة مزدوجة . . . انا ارى انكم قد درستم القمح ، وقطرتم الخمرة ، وافنية بيوتكم تفوح منها رائحة لحم الخنزير المشوى . . . عندكـــم من كل شىء ما يكفى . . . ولكن لا فرح عندكم . . . لا ضوء عندكم . . .

سألت الفتاة ناظرة حولها وقد تراخت :

– العلك تبيع الكيروسين ؟

– انا لا ابيع شيئا ، ولا اطلب صدقة . جئت لأمرح عندكم واجعلكم تمرحون .

صمتت الفتاة برهة ، وعادت تنظر اليه بعينيها الطويلتين الرماديتين كالسحابة . انحنت لتضع الدلوين على الأرض ، ووضعت المرفاع عليهما .

– الغم قائم عندنا فى القرية ، ولا احد يستطيع ان يدخل المرح عليها . . باى شىء تريد ان تدخل المرح ؟

– حين اقول فمعنى ذلك ان لى وسيلة . . انا قس مجرد من مسوحه . . .

فغرت الفتاة فمها ، وكان فما غضا له اسنان بيضاء منتظمة ، حتى ان كوزما كوزميتش راوح فى مكانه ببهجة . وانجلى الجفاء من على وجهها وكانما اطارته هبة ريح .

ندت منها آه التعجب ، ووضعت يديها تحت نهديها اللذين انفرج عنهما المعطف الفرائى . ثم أهت ثانية ، واهتز ردفاها :

– اذن ، تعال الى البيت . . . سيتحدث ابى معك قليلا .

قال كوزما كوزميتش :

– لا ، لا اذهب . . . تعالوا انتـــم الىّ . . . هكـــذا ، يا سوداء الحاجبين . . .

وغمز ، وهزّ كتفيه بمرح ، وسار فى الشارع باحثا بعينيه عن افقر بيت .

حل اليوم الذى رفعت فيه الضمادة عن عينى ايفان ايليتش . وقد جرى ذلك عند هبوط الظلام . وكانت الممرضـــة تهمس للدكتور مذعورة وراء الباب . . . فكرر الطبيب : «سخافـــة . . الرجل ليس نباتا ضعيفا . افعل ما قلت لك . . .» واستـــدارت الممرضة نحو السرير ، وانحنت حتى ان شعرها الناعم مس انف ايفان ايليتش ، ورفعت الضمادة ، ولأول مرة سمع بدلا مـــن الخشخشة والهمس صوتها ضعيفا متقطعا .

– استلق هادئا ، ارجوك ، وتعود على الضوء .

وفتح عينيه بشىء من الخوف بعد فترة طويلة قضاهـــا فى ظلام . كان كل شىء مغبشا . وكان ضوء شاحب ينفذ الى الغرفة . وكانت البطانية التى تغطى النافذة قد سحبت من احد طرفيها . وكانت الممرضة تجلس الى طاولة صغيرة عند نهاية السرير – لم يستطع ان يتبين وجهها – فقد كانت تنحنى بانخفاض ، وتفعل شيئا بضمادة من الشاش .

ظل ايفان ايليتش على استلقاءته يبتسم . فوق رأسه سقف منحدر ، ولا بد ان يكون هناك سلم مؤد الى العلية . اما هذا فهو شباك ذو زجاج محبب . ولا افضل من هذا المكان . . . وفي الحال طافت في ذهنه ذكرى مكان آخر ، وكان احدا ازال جلدة غطت عن جرح ، مكانا داخنا واعدا متفجرا ، حيث وقع امامه انفجار خاطف مصفر اللون . . . وابعد ايفان ايليتش هذه الذكرى عنه قائلا لنفسه : «لا حاجة اليها ، لا اريد» وقد كادت تسحق دماغه . . . وعاد يسمع تكتكة الساعة من جديد مقطعة فترات متساوية من الحياة بلطف وبلا الم . . .

نادى ايفان ايليتش :

– ايتها الممرضة . . انا لا اراك بشكل جيد .

هزت رأسها ، وتدحرجت اللفافة من على ركبتيها . وانفلتت ، فعادت تلفها من جديد . كانت حركاتها خفيفة ، فلا بد انها ما تزال في ريعان الشباب . . . ومحنكة ايضا ! ومهما جاهد ايفان ايليتش ان يتفرس فيها تكاثفت طبقات الظلام ، والآن لا يتميز وبشكل مبهم غير مريولها من القماش الخشن ، ومنديلها الذي يغطي كتفيها مثل منديل ابي الهول .

وفكر ايفان ايليتش مع نفسه :

«مفهوم ، مفهوم . . . لا بد ان المسكينة مجدرة الوجه او قبيحة بشكل كبير . . انها بالطبع تشعر بالتنيممتن لها – وتنهد ايفان ايليتش – ما اكثر اولاء من الرقيقات والوفيات ، الصديقات في الحياة والموت . . . وهي ذكية ايضا ، على ما يبدو . . فان جميع غير الجميلات ذكيات . . . واياهن يجب ان يتزوج الرجال واياهن يحبون . . . بينما الرجل يبذل كل شيء في سبيل ان يكون على وسادته وجه وسيم لامرأة لها رموش الدمى تهمس له بكل صنوف السخافة والوضاعة . . . اما داشا فشيء آخر ، لم احبها من اجل جمالها . . . – واغمض ايفان ايليتش عينيه ، ووضع قبضته تحت خده – هذا كذب . لقد احببتها ، يا رجل ، من اجل جمالها الاخاذ . . . وهذا ما لم ترده هي . . .» .

نهضت الممرضة دون أن تحدث حركة ، وهي تظن انه نائم ، وخرجت وظلت غائبة وقتا طويلا . ثم صرف الباب صريفا لا يكاد

يسمع ، ولاح ضوء اصفر كامد . فتح ايفان ايليتش جفنيه قليلا دون ان يبدي حركة . ورأى داشا تدخل في مريول ابيض وبمنديلها . كانت تحمل مصباحا صغيرا من التنك ، حاجبة ناره بكفها الوردية الشفافة . ولم يندهش ايفان ايليتش من رؤية داشا . سوى انه لم يصدق بان هذه هي داشا .

وضعت داشا المصباح على الطاولة ، وخفضت الذبالة . وجلست واخذت تنظر الى ايفان ايليتش . كان وجهها نحيلا مثل وجه فتاة اصيبت بالتيفوئيد . ولاحت غضنة في طرف فمها المنتفخ قليلا . كان ضوء المصباح لا يظهر غير خدها وعين واحدة وادعة وسيعة انعكست نقطة ضوء المصباح على حدقتها . كانت تبدو وكانها قد عزمت على ان تجلس طويلا ، وقد اسندت مرفقها على ركبتها ، وانزلت حنكها على جمع يدها الصغيرة المضمومة . ان داشا وحدها كانت تستطيع ان تجلس هذه الجلسة .

. . . في ذلك المساء في بطرسبورغ ، عندما جاءت الى «المجمع المركزي لمكافحة العرق» الذي كانت شقة لليغين مقرا له ، يوم ان رآها لاول مرة بدت له رائعة كالربيع . كانت وجنتاها تتوهجان ، وكان الدفء يشع منها وهي في ثوبها من القماش الاسود السميك . وقد ملأ عطر رقيق الغرفة التي كان الشعراء المشتركون في «التدنيسات العظيمة» يجلسون فيها على الالواح التي مدت على كتل خشبية . انزلت داشا حنكها على جمع يدها متسمعة الى قصائد متحذلقة ، ماسة بطرف خنصرها شفتيها التزقتين المنتفختين قليلا . . . وفيما بعد نقل ايفان ايليتش الى غرفته المقعد التي جلست عليه . . .

كل ذلك شع في ذاكرته بين خفقتين من قلبه . وكان يدق في صدره دقات متعالية مثل حارس يطرق الباب في منتصف الليل : استيقظ ! الا ان هذه المرأة الجالسة على مقعد عند قدمي السرير لا يمكن ان تكون داشا . وكان يرمقها بتهم من خلال شقي جفنيه دون ان يتحرك . . . لا بد انها لاحظت ذلك فقد دفعت جسمها كله الى الامام . . .

ناداها : يا ممرضة ، يا ممرضة !

ووقع جسمه فاتحا عينيه على سعهما . . . اندفعت داشـــا نحوه بصيحة مذعورة خافتة سعيدة . . . امسكها من كتفيها ، ومن ظهرها ، وكانما يخشى ان يغيب الطيف عنه . . . انها داشـــــا حقا : نحيلة هشة حية ! ضغط وجهها عليه ، واحس بارتجاف شفتيها ، واهتزاز جسدها كله . . . امسك راسها ، وابعده عنه لينظر في وجهها الحبيب الجديد ابدا ، الجميل ابدا بشكل غير متوقع . وراحت هي تكرر وعيناها مغمضتان :

— أنا معك ، كل شيء بخير ، كل شيء بخير . . .

اخذ يقبلها من فمها ، ومن طرفي فمها حيث رسمت عليه المعاناة خطين صغيرين ، ومن عينيها . همست له :

— والآن اهدأ ، اهدأ ، يا عزيزي ايفان . لن افترق عنك . معك الى الابد ، الى الابد . . .

ما ان حل المساء حتى كانت القرية كلها تعرف ان في بيت الارملة الفقيرة انا تريخجيلنيا يجلس الرجل الذي لحق ناديجدا فلاسوفا في الشارع ، وقال لها : «جئت لأجعلكم تمرحون . انا قس من جانب الحمر . . .» وصدقت بذلك جميع النساء ، المسنات ان في بيت الارملة الفقيرة انا تريخجيلنيا يجلس الرجل الذي لحق ناديجدا فلاسوفا في الشارع ، وقال لها : «جئت لأجعلكم تمرحون . انا قس من جانب الحمر . . .» وصدقت بذلك جميـــــع النساء ، المسنات منهن والشابات . وقد شعرت ناديجدا بوجع في لسانها من كثر ما رددت كيف انها كانت تحمل ولوين ، وان قلبها اعلمها ، واذا به يناديها باسمها : «ناديجدا !» (كانت المصغيات يقاطعنها نائلات : «ياالهـــي ، من اين عرف اسمك ؟») «هذا مـــا يسمى بقراءة ما في القلب . . .» كما ان وجهه روسي ، احمر وكان كـــل جلده قد سلخ ، وشعره يصل الى كتفيه ، وعليه ملابس رثة ، ولكنه لم يكن يبدو جائعا ، بل مرحا كل كلامه احاجي . . .

وضحك الرجال ، وهم يسمعون ثرثرة النساء : «دعونا نأمل بالا يحرق هذا العارف بقراءة ما في القلب القرية من جهاتها الاربع . . . لو كان قسا من صحيح لاتجه الى اغنى بيت في القرية . . . والا

فحتى الصراصير لا تجد مـــا تأكله عند تريخجيلنيا . . . لا ، يـــا نسوة ، يجب ان يؤخذ الى سوفييت القريـة ، وليظهر هويـاتــه هناك . . . فقد يكون جاسوسا من قطاع الطرق ؟ هكذا . . .»

عندئذ قالت زوجة لزوجها «كفاك تحريك لســـان ، الناس يضحكون منك» فايدتها النســـاء الاخريات بالاجماع . وصاحت الزوجة وعيناها تلمعان جسارة «قبل الثورة كنا نطيعكم ، ولم نــر خيرا كثيرا من اوامركم . ان عقولنا ليست اقل ذكاء من عقولكم ، — وتفهم اكثر منكم . . . ثم خاطبت النساء قائلة : يـا عزيزاتي ، انظرن الى ابنتي ناديكا ، ان صدرها يكاد يشق بلوزتها . . . وهي تنظر في المرآة ، وتقول لي : لماذا يضيع عمري هدرا ؟ فهـــل اقول لها : انتظري الى عيد الحجاب المقدس المقبل ؟ فاقول لزوجي مجددا : لماذا لا يريد ان يأتي الى بيتك ليأكل لحم الخنزير ؟ وهل كان المسيح يأتي الاغنياء فقط ؟ انه ذهب الى بيت آنا الفقيرة ، لأنه قس احمر ، ولا حاجة به الى لحم خنزيرك ، وهو يفكر بحظنا التعيس» .

اكتفى الرجل بهز ذراعه ، وانصرف . وفي المساء احتشدت النساء قرب بيت آنا ، واوفدن اليه موفدات . وقبل أن تدخـــل الموفدات الى البيت عرفن من فتاة صغيرة ، هي جارة آنا ، ان آنا تريخجيلنيا سخنت اليوم حمامها منذ الصباح (وهو مبنى صغير متداع وراء البيوت على ساحل البحيرة) وان القس استحم هناك ، وانها اعطت له قميصا نظيفا كان لزوجها المتوفى ، وان القس الآن يستعد ، بعد الحمام ، لشرب «القصعين» مع آنا (وكان اهـــل القرية يشربون هذا الشراب بدلا من الشاي) .

كـــان القس يجلس على المصطبة مرتديـــا قميصـــا ازرق ناحلا ، وقد وضع يديه على الطاولة . ولم تكذب ناديجدا ، فقـد كان وجهه احمر يمكن ان يثير الخوف ، وقد اطبق شفتيـــه بطلاوة ، كالدب . وكانت الارملة تغلي البيض على نار من اعواد ، وكان لهب ازرق يطن خارجا من مدخنة سماور بالية منقبة .

دخلت الموفدات الثلاث البيت ، وسلمـــن بالحشمة ، وجلسن على المصطبة اقرب الى الباب . ولم يقلن شيئا ، الا ان عيونهن لاحظت كل شيء .

وفجأة سأل كوزما كوزميتش بصوت عال :

– قلن : ماذا وراءكن ؟

وتقلبت عيـــون الموفدات . واجابت احداهن ، وهى ام ناديجدا ، بصوت معسول :

– يقولون ان العادات قد الغيت ؟ بينما نحن معها ، يا ابانا . الزفاف يحدث مرة واحدة ، بينما الحياة طويلة . اليس كذلك ؟

اجاب كوزما كوزميتش :

– كلما طالت الحياة كثر خيرها خيرا . فماذا خبركن ؟

– ولكن لا تخف عنا . فنحن سوفييتيات . انتخبنا سوفييت القرية ، وصوتنا الى جانب السلطة السوفييتية ، واغلقنا الكنيسة بالختم ، وقدمنا القس الى «اللجنة الاستثنائية» المحلية لحيازته رشاشة .

قال كوزما كوزميتش :

– اها ! ان ذلك القس كان ذا خطر .

– ولو تعرف كيف كان يهددنا ، فيقـــول : «يا اعداء المسيح ، سارمى اجتماعكم برصاصة رشاشة «مكسيم» مـــن النافذة . . .» على هذا النحو كان يخيفنا . كانت فتياتنا العرائس يصوتن ، بالطبع ، مع الجميع ، ولكن حين اقترب عيـــد الحجاب المقدس اردن ان يعقد قرانهن فى الكنيسة . وقد عاندن ، واجمعن امرهن . وانت تعرف ان الفتيات اذا اجتمعن على أمر فلن تستطيع ان تنتزع واحدة منهن . . . فقل لنا الآن : «ما العمل ؟ سمعنا انهم نزعوا مسوحك ، اهذا صحيح ؟

اجاب كوزما كوزميتش :

– مؤكد .

– وما السبب ؟

– بسبب من حرية رايى . فانا فى نزاع مع الرب .

وتبادلت الموفدات نظرات هلعة . وهمست ام ناديجدا فى اذن واحدة ثم الاخرى ، فهمست هاتان لها ايضا . فقالت بصوت اكثر جسارة :

– اذن ، سيكون القران باطلا ؟

– ولماذا ، اذا كانت الفتيات راغبـــات . . . ساعقـــد قرانهن واسجلهن فى سجل الزواج . عنـــد ذاك حتى المجلس

المسكونى لن يستطيع فسخ القران . وساضع التاج فوق راس العروس ، وكانها ملكـــة الدينارى ، واطوف بالعروسين حول المقرا ، واسالهما الاسئلة المطلوبة ، واقول الاشياء التى تقال فى مثل هذه المناسبة ، وسنعقد الفرح بلا معصية ولا نقيصة . . فماذا تردن بعد ؟

قالت احدى الموفدات :

– وصغارنا ايضا لم يتعمدوا حتى الآن ، وليس لهم يوم قديس يتبركون به .

– كم عددهم ؟

– كثير . يمكن ان تعدهم .

– وهل هم لا يرضعون جيدا ، لأنهم بلا تعميد ؟

وتبادلت الموفدات النظرات ثانية ، وهززن اكتافهـــن ، وضعت الارملة المقلاة على الطاولة ، ولدى عودتها الى الموقد نظرت بحزن الى كوزما كوزميتش ، وهو يغرف البيض بالملعقة ، وياكل يتلذذ مغمضا عينيه باستمتاع .

سالت موفدة اخرى :

– وهل سيكون التعميد معترفا به ؟

– تمام الاعتراف ، كما فى عهد الامير فلاديمير .

– وكيف ستعمل وانت بلا شماس ولا مرتليق ؟

– وما حاجتى اليهم ؟ ساقوم بالأمر وحدى باصوات مختلفة .

عندئذ تقدمت منه ام ناديجدا ، وجلست بالقرب منـــه ، وسالت وهى تدق الطاولة بحد كفها :

– وهل ستاخذ فلوسا كثيرة ؟

وتاخر كوزما كوزميتش فى الجواب . حتى ان المرأة تثاقلت انفاسها ، واخذت يداها ترتعشان . ومدت الموفدتان الاخريـــان عنقيهما ، وهما جالستان عند الباب .

– لن آخذ منكن فلسا واحدا . انا لم آت الى هنا مـــن اجل ذلك . ادفعـــوا فقط لكاتب سوفييت القرية لقاء كتابـــة الوثائق .

وبدا اقتراح هذا الرجل مغريا من جميع النواحى . ولكن الشىء الرهيب ايضا انه قد يكون زائفا . . . قبل شهر ونصف ،

عندما كانت القرية ما تزال تحت حكم الاتمان ماموتتوف حدث ايضا ان جاء رجل ينقل خفين على قدمين حافيتين ، وقد نمت لحيته حتى عينيه . واتجه الى بيت كان يستريح بالقرب منه الناس عند الغسق ، ووقف حتى الفه الناس ، ثم جلس بالقرب من العم العجوز اكيم ، وظن انهم سيقدمون له لفافة تبغ ، الا أن احدا لم يفعل ذلك . عندئذ وضع رجلا على رجل وسر فى أذن اكيم : «الا تعرفنى ، ايها الجندى القديم ؟» فاجابه «لا ، ابدا» فهمس له بصوت اخفت «اعلم اذن ، اننى الامبراطور نيقولا الثانى ، ولست انا الذى اعدموه فى يكاترينبورغ ، بل شخصا آخر . وها أنا اسير فى الارض خفية حتى يحين الوقت الذى اكشف فيه عن نفسى . . .» وكان العم اكيـــم ثقيل السمع ، فلم يسمع كل شىء ، فكان عليه أن يرفع صوته . والناس ليسوا بلها . فقد جروا هذا الامبراطور فى الحال الى السدة ليغرقوه فى البحيرة . الا أن الذى انقذ حياته هو انه راح يصرخ : «ما هذا . يا اخوان ؟ كنت امزح . . .»

قالت لم ناديجدا :

– لا يبدو انك من المهوسين بالرب . ثم انهم ، ليســوا موجودين الآن – وفكت معطفها لأنها شعرت بالحرارة – فلماذا لا تاخذ فلوسا ؟ ماذا فى فكرك ؟ وكيف يصدق الانسان بك ؟

– أنا احب الملح . اعطونى قبضة فى كل بيت اعقد قرانا له او اعمد له طفلا – ووضع كوزما كوزميتش الملعقة ، والتفت الى الارملة قائلا – قدمى السماور ! ها انتن ترين – واشـــار للموقدات الى آنا النحيلة بوجهها الداكن المرتخى وصدرهــا المسطح وتنورتها المرقعة المعكوفة – انها صدقت بى ، وستذهب معى الى اى مكان . اما انتن ، الشبعات ، الناعمات ، فدائما تبحثن عن موضع السفالة فى الانسان ، وترين فيه محتالا . انتن كولاك ، وأنا اشعر بالضيق معكن . واذا تملكنى الغضب ، فسارحل عند الفجر بحثا عن الحظ فى مكان آخر . . .

وضعت آنا السماور على الطاولة ، ورأت الموقدات انهـــا تبتسم ، وكانت السعادة تغمر وجهها المجدر المنهوك من الغـــم والدميم . القت ام ناديجدا نظرة خاطفة عليها كنظرة الصقر ، ومدت يدها الخشنة الى كوزما كوزميتش :

– مقبول ! لا تغضب ، ولا حاجة بك الى الذهاب بعيدا . فانت ستجد كل شىء هنا .

فى الصباح صعد كوزما كوزميتش الى برج الجرس وقرع الجرس الكبير ، فانداح الرنين النحاسى فى القرية وهرع الشيوخ والعجائز الى النوافذ للتطلع . ثم قرع قرعة ثانية وثالثة ، وامسك الحبال المشدودة بالاجراس النحاسية الصغيرة ، واخذ يدق دقات صغيرة متسارعة ، ثم قرعة عالية من الجرس الكبير . وقبل ان تستطيع اطراف الاصابع ان تصل الى الجبهة لترسم علامة الصليب كان الناس يسمعون دقة اخرى ، وكان القس المجرد من مسوحه يعزف لحنا راقصا .

خرج بعض اهالى القرية المحترمين الى خارج بيوتهم ينظرون الى برج الجرس بدون رضا . . .

– القس يعبث . . .

– يجدر أن يجر من هناك من شعره ، ويُصرف . . .

– يصرف ! . . انه هو الذى سيصرفك . . .

– ومع ذلك فان قرعه كان موزونا . . . دعوه يدخل المسرة الى الناس لخاطر الفتيات ، لخاطر النساء . .

وتهيأ اهل القرية كلها – المدعوون منهم وغير المدعوين – الى اقامة الافراح . كان النهار مشمسا ، والجمد على الارض ، وفى الجو رائحة خبز طازج ولحم خنزير مشوى . وبدأت فى فناء احد البيوت حركة غير اعتيادية ، واصوات طيور داجنة ، وتطايـــر الدجاج والوز من خلال الابواب الخارجية . . . فى بيت كان العريس حليقا مرتديا حلته منزويا على المصطبة فى ركن الايقونة لم ياكـل ولم يدخن . وفى بيت آخر كانت العروس تزين . وكانت العجائز اللواتى شعرن بانهن ضروريات فى مثل هذه الامور قد علمتها ان تنتحب بطريقة مستحبة :

ليس هذا صوت وزة توز على الشاطئ ،
بل نحيب فتاة حسناء فى حجرتها .

وكانت الجدة تندب بصوت شائخ فتنضم اليها اخرى ملقية خدها المتغضن على راحتها بتفجع :

وداعا ، وداعا ، ياشمسى الحسناء .
ان ابى الذى اعانى
ووالدتى التى انجبتنى
زوجانى ، وباعانى .
باعانى ، باعانى
الى طرف تاه غريب . . .

ولكن لم ترد اية عروسة ان تنتحب ، بل كان ذلك يحزنها .

— فى زمانكم ، ياجدتى ، كانوا يرسلونكم الى طرف غريب . أما نحن فطرف واحد : سوفييتى .

وكانت روائح الطهى وخبز الفطائر تنبعث من كل مكان . وكانت النساء يتراكضن حاملات الدلاء والمكانس . وكان الخطابون يتنقلون من بيت الى بيت ، ورائحـــة الخمر تفوح منهم قويـــة واجتمعت الشبيبـــة فى فنـــاء الكنيســـة ، وعزف عازفان على اكورديون . . .

فى ذلك الحين جاء رئيس سوفييت القرية ستيبان بيتروفيتش لديوشكاشى قادما من البريد ، وهو من عجزة الحرب وحائز على وسام صليب القديس غيورغى اربـــع مرات . لم يعر التفاتا الى رنين الاجراس ، وكانه لا يسمعها ، وفتح باب سوفييت القرية ، ودخل ، وبعد قليل من الوقت خرج الى مقدمة البيت يحمل مطرقة وورقة ودق الورقة على الباب باربعة مسامير ، واخرج من جيبه ختما ملفوفا فى قصاصة جريدة ، وزفر فيه ، ودمغ به على امضائه . وكان مكتوبا فى الورقة :

«يا مواطنى قرية سيابسكويه ، بمناسبة قيام الثورة فى المانيا تقرر عقد اجتماع عام فى الساعة الحادية عشرة من هذا اليوم» .

وتوافد الناس على سوفييت القريـــة . ولما راى كوزما كوزميتش من فوق برج الجرس ان ساحة الكنيسة قد خلت كف عن قرع اجراسه ، ونزل من البرج . وقال شيخ الكنيسة ، وهو والد ناديجدا ، وكان فى قفطان ازرق ذى شرائب ، قال صفـــق غطاء صندوق الشموع فى اسى :

— ان ابن الكلبة ستيبـــان لديوشكاشى هذا ظل يلاحقنى

اسبوعا كاملا فى العام الماضى يطلب منى مائتى روبل ليسقف بيته بالالواح . وها هو الشيطـــــان ذو الرجل الواحدة ينتقم ! خرب الزقاق .

— ماذا جرى ؟

— حدثت ثورة اخرى فى مكان ما ، فى المانيا كما يبدو . وقد حشد الناس لاجتماع عام . انـــه لا يستطيع ان يصبر بلا سياسة ! اى احمق هو ، يا آلهى !

كان ستيبان بتروفيتش يخطب فى الناس من على مقدمـــة سوفييت القرية ، وهو يهز الهواء بقبضتيه ويدق الواح الارضية بقدمه الخشبية . كان وجهه مشدودا ، وفمه فاغرا ، وشارباه خشنين . قال عندما شق كوزما كوزميتش طريقه فى الزحام ليكون اقرب الى الخطيب :

— ان الوضع الدولى يتطور لصالح السلطة السوفييتية . والالمان يمدون لنا يدهم البروليتارية . وذلك عون كبير لثورتنا ، ايها الرفاق . لقد التقيت بالمان ، وكنت فى المانيا . واستطيع ان اقول لكم شيئا واحدا ، هو ان الالمان يعيشون فى تقتير ، ولكل قطعة خبز حسابها . ولكنهم يعيشون احسن منا . ويجب التفكير فى هذه الحقيقة ، يا رفاق . ان قرية المانية مثل قريتنـــا مزودة بانابيب لمياه الشرب ، واقنية لنقل السماد الى حدائق الخضروات ، وتلفون ، وانابيب غاز تصل الى كل شقة ، وصالون حلاقـــة ، ومشرب للبيرة فيه منضدة بليارد . اما المدارس فلا حاجة الى الحديث عنها ، كما لا حاجة الى الحديث عن انعدام الامية . . . وتوجد فى كل بيت دراجة ، وغرامفون . . .

سرى طنين فى الحشد ، وصفق احد ، فتبعه الجميع مصفقين .

— ان ساقى قد قطعتها قنبلة المانية فى بروسيا الشرقية ، الا اننى ، فى اللحظة الراهنة ، ارتفع فوق اعتباراتى الشخصية . . .

صرخ صوت عال فتى :

— تكلم اوضح !

— انا لا الوم الشعب الالمانى على فقدى لساقى ، بل الوم الامبريالية العالمية . . . وهى التى يجب ان تقطع رقبتهـــا بكل

تصميم . . . ونحن ، الروس ، قد عرفنا ذلك من قبل ، ولكن الالمان قد فهموه اخيرا . اننا في هذا الاجتماع ، ايها الرفاق ، نهتف لكلا الشعبين : عاشت الثورة العالمية . . .

هتف صوت شاب : هورا !

وصفق المجتمعون مجددا .

– لأنتقل الى الشؤون المحلية . . . في مدرستنا يتسرب الماء من السقف كما يتسرب من منخل . وقد اتخذ قرار بشأن ذلك . وانا اتساءل : هل جمعت الفلوس ، واشتريت الالواح ؟ لا . بينما لديكم الفلوس لتنفقوها على الافراح ، ولديكم فلوس للقس . ورنين الاجراس يزعج الناس في دائرة سعتها عشرة فراسخ . . . الأجل هذه الوقائع يمد الالمان لنا يدهم البروليتارية ؟ اقترح اتخاذ قرار تمنع بموجبه اقامة الافراح ودق الاجراس الا بعد ان تجمع النقود لاصلاح المدرسة ، واجرة عمل المدرسة ، واثمان الدفاتر والاقلام ، وتغطية مبلغ اجمالي هو اربعة آلاف وتسعمائة وسبعة روبلات وسبعة كوبيكات .

وترك خطاب الرئيس اثره ، واخجل الناس ، وهذا هو الاهم ، وخطب بعده عدة خطباء كرر جميعهم كلماته ، ولم يضيفوا اليها سوى انه ما دامت الاستعدادات للافراح قد بدأت فلا داعي لتضييع الوقت ، ويجب جمع النقود على الفور ، ولكن ليس على اساس اسهام الجميع ، بل على ان تدفعها تلك العوائل الست عشرة الغنية التي تقيم الافراح . واتخذ الاجتماع العام قرارا بذلك .

ولما علمت العرائس بالقرار اثرن صراخا شديدا ، ووجهن الى آبائهن وامهاتهن كلمات حادة جعلت الآباء يعدون الفلوس ويحملونها الى سوفييت القرية . قدم ستيبان بيتروفيتش وصولات بها ، ولم يقل الا «سيروا في طريقكم» .

وكاد المساء يحل حين ساروا بالعرائس الى الكنيسة . وتعجب الناس مما طلعن به من فاخر الثياب : معاطف لها ياقات فرائية ، وبراقع مؤطرة بالفضة والذهب ، واحذية عالية الكعوب بدت فيها العرائس وكأنهن يسرن على اطراف اصابعهن . وحين

خلعن عنهن معاطفهن عند مدخل الكنيسة كشفن عن حلل نفيسة واثواب نادرة المثال مختلفة الالوان ، ضيقة من الخلف حتى لتكاد تنشق ، وعريضة في الاسفل كالباقة ، والاعناق عارية . اما ناديجدا فلاسوفا فقد كانت يداها ايضا عاريتين حتى الابطين .

«انظروا ، انظروا ، أمن المعقول انها اولغا غولوخفاستوفا ؟» «انظروا الى ستشكا ، كيف هي !» ، «من اين لهم هذا ؟» ، «معروف . ذهبت هي وابوها الى نوفوتشركاسك خمس مرات في عربة يجرها ثور ناقلة معها الطحين ودهن الخنزير . . وبادلتها مع سيدات نوفوتشركاسك . . .» .

وقال بعض العارفين :

«لقد شاهدت حفلات راقصة عند حاكم الولاية . . ولكن اين هذه من تلك ! . .»

«حفلات راقصة . . . في نوفوتشيركاسك احتفل بمرور ثلثمائة سنة على آل رومانوف ، واجتمعت سيدات المجتمع في الكاتدرائية . نزلن من العربات ، وسرن على الابسطة ، ولكن لا تقارنهن بهؤلاء . . . .» .

خرج كوزما كوزميتش برداء القس الاعتيادي لا برداء القداس ، وعلى رأسه طاقية قس متسخة تغطي صلعته . (لأن القس القديم لم يكتف بالهروب من الاعتقال ، بل استطاع ايضا ان ينهب خزانة اردية الكنيسة) . نقل كوزما كوزميتش بصره بين العرائس . كلهن جميلات ناهدات موردات الخدود ! وبدا العرسان بوجوههم الهلعة اصغر منهن . تنحنح كوزما كوزميتش راضيا ، وفرك يديه المتثلجتين ، واتم مراسيم القران سريعا مرحا تارة يتمتم في بربرة عجل ، وتارة يقلد صوت الشماس العالي ، وتارة يترنم ، ولكن كل شيء كما يجب حسب الأصول كلمة بكلمة ، وحرفا بحرف .

وبعد ان انتهى من مراسيم القران طلب من العرائس والعرسان ان يتبادلوا القبل ، والقى فيهم كلمة :

– في الايام الماضية كانوا يحدثونكم حكايات واعظة . ولكنني سأروي انا لكم قصة من الحياة . قبل الثورة بخمسة عشر عاما كانت لي ابرشية في قرية نائية . وكنت آنذاك اعيش في قلق

كبير ، يا مواطنى الاعزاء . وانا رجل روسى غير عادى ، وكل شىء لا يوافق مزاجى ، وليس كما ينبغى ، وانأذى منه . بينما اجد نفسى معنيا بكل شىء . فانا ابحث عن العـــدل . وحدثت حادثة انهت شكوكى . جاءنى شيخ طاعن فى السن ضرير يقوده صبى . اخرج من تحت لفافة نعله ورقة من فئة ثلاثة روبلات هرمة ايضـــا ، ودعكها وتلمسها ، ووضعهـا امامى وقال «هذى لك لتصلى جناز الاربعين على روح امراتى العجوز» قلت له : «ايهـــا الجد ، خذ الروبلات الثلاثة ، وساصلى على عجوزك بدون مقابل . . . هل جئت من مكان بعيد ؟» «نعم ، سرت عشرة ايام» «كـم لك من العمر ؟» «ضيعت الحساب . ولكن اظننى تجاوزت المائة» «وهل لك اولاد ؟» — «لا احد ، كلهـــم ماتوا . وكانت العجوز حية ، وقد عشنـــا سوية ستين عاما ، وتعود احدنا على الآخر . وقـــد اشفقت على ، واحببتهـــا . ثم ماتت . . .» — «وهل تعيش على التسول ؟» — «نعم . . . اصنع معروفـــا . خـــذ الروبلات الثلاث ، واقرا جناز الاربعين . . .» قلت «حسنـــا ، قل لى الاســـم» — «اى اسم ؟» — «اسم العجوز» تفرس فى بعينيه الضريرتين : «ما اسمها ؟ نسيت . غاب عن بالى . . . عندما كانت شابة كنا نسميها الشابة ، ثم سميناها ربة البيت ، وفيما بعد صرنا نسميها العجوز ، وظلت على ذلك . . .» «وكيف اصلى عليها بدون اســـم ؟» وقف العجوز طويلا متكئا على عصاه . وقال : «نعم ، نسيت . ذلك من الضنك ، كنا نعيش فى عسر . حسنا ، انا ذاهب ، وسابحث ، فقد يكون هناك اناس ما يزالون يذكرون . . .» وقد عاد هذا الشيـــخ فى الخريف ، واخرج من لفافة نعله نفس الروبلات الثلاثـــة وقال : «عرفت . فى القرية تذكرها شخص : انها ابنة بيتر» .

كانت العرائس الست عشرة جميعا واقفات منكسات الرؤوس مطبقات الشفاه . وكان الازواج الشبان الحمر الوجوه توترا بسبب ضيق ياقات القمصان يقفون الى جانب زوجاتهم بلا حراك . بينمـا سكن الناس مصغين .

— ان الروسى قد نشـــأ جاهلا لا يتذكر اسمــــه . كان السادة يعيشون حياة الاسيـــــاد ، والتجـــار يغرفون الفلوس ، ونحن القساوسة نطوف بالمباخر . اما انتم وانتن يا

اهل الصبا والجمال فما كان من الممكن فى تلك الازمنة الملعونة ان تشعروا بالدم الحار يجرى فى عروقكم ، بل تذوون كالزهور وسط الحماض قبل ان تتفتحوا .

وقطع كوزما كوزميتش خطبته ، وكانه يفكر ، وخلـــع طاقيته ، وحك صلعته . سالت ناديجدا فلاسوفا بصوت خافض :

— والآن هل يمكن الانصراف ؟

— لا ، انتظرى . . . وها انا فى منحدر حياتى وفقت فى ان ارى العدل . . انه ليس كالعدل الذى وصفه نيكراسوف . هـــل قراتموه ؟ لا . . . . وليس كالعدل الذى كنت احلم به ، وانا عند النهر فى ساعة المساء اصطاد السمك وحيدا جالسا قرب النار ، ضاربا البعوض على رقبتى . العدل كفاحى ، متوعد ، متصلب . . . واقول لكم بصراحة اننى كثيرا ما خفتـــه . . . فحين تلعلـــع الرشاشات ، ويهجم عليكـــم الفرسان بالسيوف ينتهـــى وقت التفلســف (سرى بين الحاضرين ضحك مكتوم) . انكـــم لن تجدوا العدل هناك — واشار الى قبة الكنيسة — ولا حولكم . ان العدل هو انت نفسك ، ايها الانسان الشجاع . فلتكن لديك الرغبة والجراة . . . لماذا تنظرون الى ؟ ام لعل حديثى غير مفهوم ؟ جئتكم لأعلمكـم كيف تفرحون . سترقصين اليـــوم يااولغـــا ونادیا وستيشـــا وكاترينا — وكان لدى كل اسم يشير بيده الى صاحبتـــه — حتى تئن الواح الارضية ، وحتى تتوهج عيون نيقولاى وفيدور وايفان توهج عيون المسعورين .. وهذا كل شىء . . . انتهت الموعظة . . .

وادار كوزما كوزميتش ظهره للناس ، ودخل حجرة الخزانة .

عاد مفوض الفوج ايفان غورا من تساريتسين وقد قالوا له هناك ان فصائل التموين التى ارسلت من بتروغراد وموسكو لـم تكن دائما على مستوى المهمة الموكلة اليها . وبين رجالها اناس غير مجربين اختنقهم الجوع ، واخرجتهم عن توازنهم رؤيتهم الناس ياكلون الوز فى القرى . وقد اختفت احدى هذه الفصائل دون اثر ، ووجدت فصيلة اخرى فى محطة فورونيج فى عربة بضاعة مختومة عثر فيها على جثث ثلاثة من عمـــال بتروغراد شقت بطونهم ،

وحشيت بالحبوب ، والصقت على جبهة احدهم رقعة كتب فيها «كلوا حتى الشبع» .

وعد المفوض الرفاق فى تساريتسين بالمساعـــدة . ولدى عودته الى الفوج انشأ يختار الرجال للفصائل مجريا احاديث اولية معهم . وعين لاتوغين وبايكوف وزادوبفيتر للسفر الى قريـــة سباسكويه ، ودعاهم للحضور الى كوخه الذى كان من قبل خاويا غير مدفأ ، ولكن الآن ، وبعد عودة الفريبيتـــا من المستشفى ، كانت ارضه مكنوسة ، وعند العتبـــة فرشت حصيرة ، ووضعت فوطة مطرزة على الطاولة ، ولم يكن يفوح بالتبغ الرخيص الحامض بل برائحة خبز طازج . طلب من الرفاق ان يمسحوا احذيتهم جيداً لدى الدخول وقال :

— اجلسوا . ماذا عندكم من اخبار سارة ؟

اجاب لاتوغين :

— وانت ماذا عندك ؟

— اسمعوا اذن . يبدو ان فتياننا لا يذهبون لجمع الحبوب عن رغبة .

— وما دخل الرغبة هنا او عدم الرغبة ؟ اذا وجب ان يذهبوا فسيذهبون . وانت تتطلب الرغبة !

— ولكن القضية دقيقة جدا .

كان ايفان غورا يجلس وظهره الى النافذة ، فخاطب زادوبفيتر الذى كان يدق الطاولة باظافره جهما :

— انت ، ياحارث الارض ، ما رأيك فى هذه الامور ؟

— كم تريد ان تأخذ من الحبوب من سباسكويه ؟

— كمية كبيرة نوعا ما . اربعة آلاف وخمسمائة بود * من مائة واثنين وستين بيتا ، مـــع التفريق بين الغنـــى والفقير بالطبع . . .

— اشك فى انهم سيعطون مثل هذه الكمية .

— ولهذا السبب ارسلكم ، لكى تجعلوهم يعطون . ارسلكم بلا سلاح ، ايها الرفاق .

* البود يساوى ١٦,٣ كيلوغراما . **المترجم** .

غمغم لاتوغين :

— لا حاجة له .

غمز بايكوف وقال :

— بدونه سنبرهن بصورة اقوى . نحن ذاهبون الى اصحابنا لا الى اعداء .

قال ايفان غورا عابسا :

— الى اصحابنا والى الاعداء .

قال زادوبفيتر :

— اسمع ، يا مفوض . انا لست اتراجع ، ولكن ليس من عملنا ان تتسلل الى اهراء الآخرين . فان ذلك مقرف .

— وانت ، ما رأيك ، يالاتوغين ؟

— لا تحاول ان تنفذ الى سريرتى ، يا ايفان . . . . سنجلب لك الحبوب ، وكفى .

— وانت ، يا بايكوف ؟

— أنا من البحر الابيض ، واحترم الجماعة .

— يارفاق ، لهذا السبب دعوتكم — ووضع ايفان غورا يديه الكبيرتين على الطاولة ، واخذ يتحدث بصوت هادئ ، كما يتحدث الاب مع ابنائه — ان احتكار الحبوب هو شريان الثورة الحيوى . اذا الغى الاحتكار الآن فسيصبح الكولاك سيدا مهما بذلنا من عرق ودم . وهو ليس صاحب الحانوت السابق ذا السماور المنتفخ ، بل كولاكا متمكنا واسع الحيلة متمرسا .

صاح زادوبفيتر :

— كولاك . . . كولاك ؟ قل لى ان فى استثمارتى بقرتين ، فمن انا ؟

— ليست مسالة ابقار ، ولكن لمن ستكون السلطة ؟ ان كولاك القرية يفكر فى ذلك ليل نهار . فقد سرح شغيله ، وذبح بقرته ، ولم يحرث الارض فى الخريف ، وهو يهتف فى الاجتماعات العامة ، ويصوت للسلطة السوفييتيـــة . انه سريع الحركـــة كالبرغوث .

— حسنا ، يا ايفان . . . لو اعـــود الى البيت ، واشترى بقرة اخرى او ثورين فماذا اكون ؟

– هل دخلت الى الجيش الاحمر عن رغبة ام كراهية ؟

– عن رغبة ، بالطبع .

وافقه زادوبفيتر فقال ايفان :

– اذن ، فلن تشترى ثيرانا .

– ولماذا ؟ لا اعرف لماذا ينبغى الا اشترى ثيرانا .

– يجب أن تكون اهتماماتك اوسع . فانت لم تحمل البندقية من اجل هذين الثورين . . .

قال لاتوغين :

– ولكن سيشترى الثيران . فلماذا تعذبه ؟ تابع حديثك .

هز ايفان غورا راسه مبتسما :

– لا اريد ان ادخل فى جدال ولكننى اؤمن بالانسان . . . ولكن ، حسنا . . . ما هى مهمة هذه الطبقة ؟ مهمة الكولاك هى الاستيلاء على تجارة الحبوب . ان الثورة فتحت عينى الكولاك وهو الآن لايحلم بدكان فى القريـــة ، او بحانوت بـــل بسيلوات حبوب وسفن . . . ولو استطاع ان يمتطى الثورة فانك ستعمل له ، يـــا زادوبفيتر ، حتى تنضح عرقا ودمـــا ، وستكون ثيرانك له . انه يفكر ايضا بتحويل الاحتكار لصالحه . ذات مرة دخلت قرية مع فصيلة تموين ، وبذلنا قصارانا فلم يجد ذلك نفعا . العداء فيما حولنا وكل كلمة نقولهـــا لا تترك اثرا . كان بابولين مصاص دمائهم فى معطف رث من فراء الاغنام ، وحذاء لبادى مرقع يبدو ناعما رقيقا لا يفتا يحش شعر لحيته . . . فكرت مع نفسى : اى شىء هذا ؟ . . ذهبنا الى اهرائه فلـــم نجد حبوبا ، وحفرنا هنا وهناك بالطبع ، ولكن لم نعثر على شىء . وفى زريبة الحيوانات لم نجد غير حصان هزيل ، وجلدين من جلود الابقار معلقين من السقف . فما الذى فعل ؟ ان ابـــن الكلب هذا عرف بمجيئنـــا فطاف على الفلاحين قائلا : «آه ، آه . . . الجندرمـــة القيصريون لم يعذبوكم مثلما تعذبكم السلطة السوفييتية . انا لا يهمنى شىء . استطيع ان انتقل الى ابنتى فى المدينة ، فقد تزوجت رئيس اللجنة التنفيذية هناك . اما انتم فلا اعرف كيف ستقضون هذا العام . ان البلاشفة ياخذون كل شىء ، وحتى القش الذى على سطوح بيوتكم سياخذونه للجيش الأحمر . . . والله يحـــب

المحسنين ، فاذهبوا ، يا اخوان ، الى اهرائى ، وخذوا ما فيها من حبوب ولا تبقوا على حبة ، ستعيش ، وستتحاسب فيما بعد . . .» ومع ذلك فقد اخذ منهم وصولات ، ولكنه ظل محسنـــا . . . ولم يعطنا شيئا ، بينما ستعود حبوبه من الفلاحين مضاعفة . قـــد يكون صغيرا ، ولكن امثاله كثيرون فى كل مكان . وليس القضاء عليه سهلا . وهو منذ الف عام يتحكم بما يدخل فى فم الفلاح من طعام ، ويعرف اى خيط يمد ولأى انسان . نعم ، يا اصحاب ، ان احتكار الحبوب قضية رئيسية بعيدة النظر . حقا انها صعبة . ولكن ما هو السهل ؟ ان حراثة الارض البكر صعبة دائما . والسهل فقط هـــو العزف على البلالايكا . واذا كان الفلاح لا يفهم هذه السياسة الكبيرة فانت الملوم فى ذلك بالدرجة الأولى . اذهب الى بيت مزرعة الثرى وقـــل له : «افتح اهراءك» . ان كـــل حبة فيها عزيزة كالدمـــع . ولكن كل حبة فيه مقدســة لقضية مقدسة .

– اين مفاتيح سوفييت القرية ؟

– عند الرئيس . . .

– واين الرئيس ؟

– ما يزال هناك يمرح . . .

نزل لاتوغين وبايكوف وزادوبفيتر من العربـــة ولم يعرفوا ماذا يفعلون . وانصرف الذى سالوه . راقبوه طويلا وهو يتوغل فى الشارع ، وكأن الارض نفسها قد غلته ، وانفغرت عن هاوية . جلسوا على مقدمة سوفييت القرية ، ولفوا اللفائف ، ودخنوا . كانت تهب على وجوههم ريح باردة تسوق السحب . ونزلت حبات لاذعة من الثلج وكان متخللا ينخلها ، وسرعان ما امتلأت بالثلج اخاديد الطريق الأسود ، واستحال الجو اكثر اقفارا .

قال زادوبفيتر :

– حين اسمع المفوض يتحدث احس بيدى تريد ان تمسك سيفا . ولكن الواقع ان هذه القرية مثل كل القرى . اين اولئـــك الاعداء ؟ اسمع عزف الموسيقى الصاخب !

على بعد عشرة بيوت منهم ظهر جمع صغير من الناس لا بد انهم كانوا من غير المدعوين الى العرس ، او الذين ضاق بهم المكان . وترامت من هناك اصوات اكورديون تمده الى اقصاه أيد ثملة ، وطبطبة اقدام .

قال لاتوغين :

– انت تريد ان تبلل اصابع قدميك فقط ، بينما يجب الغطس الى القاع ، ايها الرفيق العزيز . ان الثورة تتطلب التعميق ، وقد تحدث المفوض عن ذلك .

– التعميق ، التعميق ! والى اى حد ؟ اننا نقلب كل شيء ، ولكن يجب ان يعيش الناس ، ويبذروا الحب ، وينجبوا الاولاد . فمتى سيكون ذلك ؟

– الشيطان يعرف ، متى . لا توجه السؤال الىّ .

كان لاتوغين حانقا يقضم القش . غضن زادوريفيتر جبينه ، وفكر في كلمات المفوض يوم أمس مستغرقا فيها غير منقطع عنها على طريقة اهل الريف . قال بايكوف :

– اذا بقينا فان قضيتنا تظل جامدة لا تتحرك ، يا اولاد . فهل نذهب للبحث عن رئيس السوفييت ؟

ورفع جسمه ، فقال له لاتوغين :

– لا نذهب .

– يعنى كيف ؟ ولماذا ؟

– ليس من المستحب ان اشرح لك السبب .

عندئذ قال زادوريفيتر بتصميم :

– اذا كان لا بد من الذهاب ، فلنذهب سوية . هيّا الى الرئيس .

– لا اذهب .

– يجب ان تخضع .

– كفاك ، يا لاتوغين – قال بايكوف بمصالحة – لن نقترب من المائدة ، ولن نشرب قطرة واحدة . سننادى على الرئيس من الرواق .

وذهبوا للبحث عن الرئيس . وكان ستيبان بيتروفيتش تديوشكاشى قد امسك نفسه يومين وفي اليوم الثالث اخذ يفكر

بان القرية قد تقلت منه . نظف الوحل من رجله الخشبية ، ولبس بنطالا اسود دون ان يحشره في راس حذائه ، وفتل شاربيه ، وسار مهيبا في جولة في القرية .

«الحمد لله . . . تفضل ، ياستيبان بيتروفيتش . . .»

فكان بين معانقة من رب بيت ومصافحة ودية من رب بيت آخر : «للرئيس مكان الصدارة !» وكانوا يجلسونه في الركن تحت الايقونة ، وكانت الخطابة تجلب له العصيدة الكثيفة المالحة على طبق صغير ليدفع فدية ، فكان يدفع روبلا واحدا (لا اكثر) ، ويقبل قدحا مملوءا بالفودكا ، ويتمزز بقطعة من السمك الجاف . كان على خطا في ظنه بان الاحتفالات ستنتهى في اليوم الثالث ، فان اليوم الثالث لم يكن الا بداية للاحتفال الكبير ، والرقص والغناء والعناق والاحاديث القلبية ، والمشاجرات ، والمصالحات .

ثم ما اقوى هؤلاء الناس ! وكم تحملوا خلال هذه الاعوام : التعبئات في عهد القيصرية ، حين بدأوا يستدعون في اخر المطاف من كانوا في سن الاربعة والخمسين ، ولم يبق الا النساء يحرثن الأرض . وفي مكان ما في الشمال كانت المرأة تسوق محراثا يجره حصان واحد ، اما في هذه الاماكن فقد كن يحرثن بمحراث ثقيل يجره زوجان او ثلاثة ازواج من الثيران ، وما تزال النسوة يتذكرن ذلك الخريف حتى الآن . ومات الكثيرون من الناس من الانفلونزا الخطيرة ، واحترقت القرية مرتين . وما كاد الرجال يرجعون من الحرب العالمية حتى بدات التعبئة لجيش كراسنوف والابتزازات الثقيلة ، وايواء القوزاق . والقوزاق ، كما هو معروف ، خفاق الايدى . يبدو القوزاقى لك في ساعة وكانه صاحبك الودود ، ولكن ما ان يمتطى سرجه حتى ينقلب الى قوزاقى اصيل لا يتورع عن طعن خنزيرك بمزراق اذا رآه في الشارع . وكل ذلك اصبح في الماضى . وصارت السلطة لنا الآن ، والضرائب والاتاوات الغيت ، واضيفت قطع اراض جديدة ، وكان الناس يريدون ان يمرحوا بلا قيد .

وكان ستيبان بيتروفيتش يجلس في كل بيت وقتا كافيا لارضاء رب البيت ، ثم ينتقل الى بيت آخر فيه وليمة ، وكان يتحدث في ركن الايقونة احاديث رصينة مع ابوى الزوجين واميهما عن الحرب الاهلية المندلعة الآن في شمال الدون قرب فوروتيج

وكاميشين حيث كان كراسنوف يمزق الجيش الثامن والتاسع ، . . . ولهذا ، ايها الحمر العزيز ، والحماة العزيزة والخطابون الاعزاء ، لا يجوز لنا ان نغفو ، حتى لا نؤخذ على غرة ! بل يجب ان نساعد السلطة السوفييتية . . .» وكان يتحدث عن الشؤون المحلية ، وعن هذا وذاك ، فكان اصحاب البيت يدهشون من سعة اطلاع ستيبان بتروفيتش . انه يعرف ما يوجد في هُرِي هذا ، وما تضم زريبة ذاك ، وما يخفى ثالث من اشياء .

وصعب عليه اكثر فاكثر الانتقال من بيت الى بيت على رجله الخشبية ، وان يبدأ من جديد الشيء نفسه : تبادل التحيات والجلوس . وفي احد البيوت تناول فجأة صحن العصيدة من يد الخطابة واكلها كلها ، وكانت ملحا فقط ، واخرج من جيب معطفه العسكري اوراقا نقدية مدعوكة ، هي كل ما تبقى له ، وحشرها في يد الخطابة ، وجرع قدحا كبيرا من الخمرة البيتية ، وصاح بالعروس التي ظلت ترقص لليوم الثالث في الوغرة الحارة وضيق المكان رقصة الكادريل لعشرة ازواج من الراقصين :

«ستيبانيدا ، ارقصي اقوى !»

وفي ذلك الوقت اخبروه بأن ثلاثة من الجنود الحمر يسألون عنه . فقال : «ادعوهم الى هنا» اجابوه : «دعوناهم ، فلم يقبلوا . . .»

اسند ستيبان بيتروفيتش يديه على المائدة ، واحنى رأسه ، ووقف برهة ، وطلع شاقا طريقه بين الناس ، وخرج الى الرواق حيث وجد بالفعل ثلاثة رجال يبدو عليهم الجد .

سأل بصوت ثابت :

– من انتم ؟

– فصيلة التموين ! . .

اجاب لاتوشين بلهجة تهديد متوقعا أن يجفل رئيس السوفييت على اقل تقدير . الا ان ستيبان بتروفيتش – الذي كانت تفوح منه رائحة قوية لطيفة جعلت بايكوف يقترب – لم يجفل البتة – جئتم في اللحظة المناسبة ! انا انتظركم منذ زمان . . . يا ناس ! – صاح ستيبان بتروفيتش في الباب الموارب الذي كان ينبعث منه الضجيج ورنين الاواني وطبطبة الاقدام – اوقفوا الموسيقى

مؤقتا ! – وفي هذه المرة ترنح بشدة حتى ان بايكوف استنده بمسكة من يده – يارفاق ، جئتم انتم الى سوفييت قرية سباسكويه ،لا الى اي مكان آخر !

وامسك بعضادة الباب ، وصاح في داخل البيت بتصميم اشد :

– ايها المواطنون ، الى الاجتماع جميعا !

وخرج من الرواق الى الفناء ، حيث كان ثلاثة فلاحين كهول متكئين على عربة محلولة من خيولها يغنون اغنية قوزاقية باصوات متنافرة ، واثنان متعانقان يبرهن احدهما للآخر على شيء ما ، بينما كان شخص آخر يدور محاولا ان يجد باب الخروج ليذهب الى بيته . وهنا ايضا ، وخارج البوابة حيث كان الناس يرقصون على الاكورديون كرر ستيبان بيتروفيتش طلبه في الذهاب الى سوفييت القرية دون تلكؤ .

وكان يقول وهو يسير ضاربا رجله الخشبية على الارض المتجمدة بحدة :

– الافراح افراح ، والعمل عمل . القوائم جاهزة . والاحتياطات قد عرفت وسجلت . . . ارسلوا برقية الى تساريتسين اذكروا فيها ان الحبوب سلمت كاملة – وعندما حاول بايكوف وزادوبفيشر ان يقنعه بتأجيل الاجتماع ولو الى الغد حتى يصحو الناس من سكرهم على الأقل راح ستيبان بتروفيتش يكرر – من يكون ذكيا وهو سكران ، فان نفعه مزدوج . لا حاجة لكم لتعليمي . غدا سيكون الأمر اصعب . يجب الا تدع احدا يفكر في الامر مرتين .

وبينما كان الناس يتوافدون الى سوفييت القرية وضع ستيبان بتروفيتش امام الرفاق من فرقة التموين السجلات والقوائم ، واخذ يهمس بحماس :

– لدينا ثلاثة بيوت من الكولاك : كريفوسوتشكا وهو لص ، في عام ١٩٠٧ نهب البريد ، وقتل الساعي ، واخفى الفلوس عشرة اعوام ، وبعد مرور فترة طويلة على الجناية بنى لنفسه هريا من الآجر ، ومخزنا ، واثناء الحرب جمع المال من صفقات الجلود . وفي قرية سباسكويه وحدها نحر نصف الماشية . والآن يسعى الى

تكوين جمعية تعاونية ، وينقل اليهـــا مخزنه . وسأكتشف هذه الحيلة سريعا . . . انه يقول عن نفسه انه مسلول ، وانه يـرى النور فى الليالى . . . انه رجل خطير . اما البيت الكولاكى الآخر فهو بيت ميليفودوف ، وكان هذا متعهد مناجم عاد الى القريـــة قبيل الحرب ، وصار يدير حانة سرية مع محل للرهون . . . انه عنكبوت مراب وغد امتص القرية كلها قطعة قطعة . وقـــد عرفنا انه هـــــو الذى ارسل الى القريــــة الشخص الذى زعم انـــــه الامبراطور نيقولا الثانى وذلك ليعرف مزاج الناس . . . والكولاكى الثالث هو ميكيتنكو تاجر المواشى ابـــا عن جـــد ، وكانت له صنادلــــه على الدون ، وبالاضافـــة الى هذه البيوت الثلاثة يوجـــد حوالى عشرة بيوت من ذوى قرباهـــم والانساب والاصدقاء المقربين . كما ان هناك فلاحين حذريـــن يقولون : «من يدرى بم ينتهى هذا كله ، ولمن ستكون السلطة ، والذى لا يدخل فى خصومة مع أحد هو اذكى من غيره» . اولئك من جبهة الاعداء . . . اما هؤلاء فهم جميعا من جماعتنا – ومرر اصبعـــه السميكة على القوائم قائلا : – الوضع فى القرية حرج . اما ان يقتلونى ، واما ان اقص جناح بعضهم .

تجمهر الناس على سوفييـــت القريـــة صاخين وسكارى . وتزاحم الجمهور وتماوج وهدر . كان بايكوف يتطلع من النافذة فترنم مع نفسه باغنية بحرية :

طيور النورس تحوم على الرمل ،
امارة على متنين البحار ،
وما دامت لم تقع على سطح الماء
فالبحر عاصف الجو . . .

وقال بصوت عال لرفاقه :

– هيا الى واجهة البيت سريعا ، والا فسيحصل اضطراب . . .

اندفعت الى بيت آنا فتاة من الجيران صغيرة متمشة زرقاء العينين عارفة بكل شىء ، وقالت سريعة الكلام تعب الهواء مع كلماتها :

– آه ، لو تعرفين ماذا يحصل فى سوفييت القرية ! الفلاحون يقلعون اوتاد السياج . . .

وبنظرة واحدة من عينين لا ترمشان المت بكل شىء ، رأت آنا فى فستان قرمزى كانت قد ارتدته مرة واحدة فى حياتها حين كان زوجها حيا ، وحذاء له حاشية ، وجوربين ابيضين ، وكانت تجلس حاسرة الراس على حافة السرير حيث استلقى القس المجرد من مسوحه عاكفا ركبتيه ، وقد لبس قميصا نظيفا اعطته لـــه آنا مرقطا بنقاط سود . وكان يمسك بيد آنا . . .

صاحت آنا بها خجلة :

– ما لك تندفعين الى ابواب الناس !

فوثبت الفتاة خارجة من البيت ، ولم تقل كلمة واحدة مـــن الخوف . الا انها جعلت كوزما كوزميتش يستيقظ . وكان قـــد تعب خلال الايام الاخيرة ، فقد شرب واكل كثيرا ، وتحدث اكثر . ولم يفوت الفلاحون كلمة واحدة من موعظته ولم يكونوا قد فهموا بعض الاقسام منها ، الا ان ذلك لم يزدها الا قيمة . وكان فى كل بيت يضطر الى ان يتحدث عن الشىء الذى اثر فيهم اكثر مـــن غيره : عن العدل . وحين كانت المائدة تخلـــو الا من الشيوخ والاجلاء كان احدهم ممن ارخت الخمرة افكاره يدفع العظام والفتات بكمه ، ويبتدره قائلا :

– ازعلتنا ، يا كوزما كوزميتش . . . كيف تقول لا يوجد عدل ؟ . . عند ذاك سيكون العالم غابة وحشية .

وكان شخص آخر يقاطعه : – شباننا – ويشير برأســـــه الى الطرف الآخر من البيت ، حيـــث كانـــت التنورات والضفائر والشرائط والوجوه المنفعلة تدور – لا تمكن السيطرة عليهم . انهم يقولون الآن ان كل شىء ممكن : لا وجود لله ولا للقيصر ، وآباؤنا وامهاتنا حمقى . لطيف هذا . . . فأى شىء يمســـك اولادنا الآن ؟ اين الرابط الذى يشدهم ؟ وعلاوة على ذلك تقول : لا يوجد عدل . . .

فيتدخل شخص آخر ذو لحية فى الحديث :

– حين يأتى من انسان اقوى ، فان هذا سيكون فى الاعلى ،

وسيكون عادلا ايضا . وسنكون نحن مرة اخرى مثل اجمـــة مشذبة . . .

سأل كوزما كوزميتش :

– هل انت قوى ؟

– انا قوى . . . ولكن الروبل اقوى منى . . تلقيت منه الضربات طوال حياتى .

– وهل شكوت الى احد ؟

– والى من اشكو ؟

– وهل ذهبـــت للاضرحة المقدســــة فى ديركييلو – بيشورسكيا ؟

– لا ، لم اذهب .

– اذن ، لا يوجد عدل ؟

– كيف لا يوجد ؟ كنت اغلى من الغيظ . وقد عدت مــن الحرب ومعى بندقية ، ووقفت على الحـــد الذى يفصل ارضى ، وقلـــت : هــــل اعتبرتمونى مقتـــولا ؟ اعيدوا لى افدنتى الثلاثة ! . .

– وهل اعادوها ؟

– بالطبع . . .

– اذن ، يوجد عدل ؟

– اى عدل هذا بتخويف الناس بالبندقية ؟ لا ، يا اخ انا لا اريد ان اوذى احدا ، ولا اريد ان يؤذينى احد . هذا هو الجد اكيم . وحيد فريد...لم يعد قادرا على العمل ، ويعيش على عطايا الناس ، يقدمون له قطعة خبز مرة . اين ذهب كل ما عمله ؟ كان له كوخ صغير ، فاستولى عليه ميلوفيدوف لقاء ديونه . . . واعمالى اين تذهب ؟ كدحت خلال خمسين عاما ما يكفى لبناء اربعة بيوت آجرية ، بينما هذه ثيابى ممزقة عند الكوعين . . . اعمالى كالحمام تطير منـــى ، وتحط على سقف شخص آخـــــر ، لا على سقفى . . . جميل قولك : «ان العدل هو انت نفسك ، ايها الانسان الشجاع» . انا ، يا كوزما كوزميتش لا اخاف المـــوت ، وما ازال قادرا على حمل عشرين بودا على ظهرى ، ولكننى لا استطيع ان انال العدل . لو كان هناك عدل لقدر الانسان حســب عملـــه لا

حسب ما يملك من الفلوس . . . كيف يمكن تحقيق ذلك ؟ شكرا للسلطة السوفييتية عند ذاك . . .

– ذلك بالذات قانون السلطة السوفييتية ، يا عجيب . . .

– يعنى ، ما زال فى الطريق الينا .

واحزن كوزما كوزميتش انه على الرغم من كل دهائه لــم يستطع ان يجيب هذا الرجل بشىء . فقد كان تجاذب الحديث مع المثقفين اسهل بكثير من تجاذبه مع الفلاحين . وفى جميع الاحاديث حول الموائد التقط ما يشبه الرضا مشوبا بعدم الارتياح والامتعاض والترقب . وبدا وكأن هؤلاء الناس ينتظرون على نحو غامض شيئا جذريا تأتى به الثورة ، ويستعجلون مجيئه سريعا .

وفى ليلة اليوم الثانى جرجر نفسه الى بيت آنا وهو فى حال سيئة تماما . وجلس على الارض الى جانب المصطبة ، وطبطب على وجهه بكفيه ، وغطى وجهه بيديه ، وضحك وهو يردد : «احس بضعف ، يا آنا ، صرت عجوزا ، يا آنوشكا» .

قادته آنا الى الحمـــام على شاطئ البحيرة دون ان تتفوه بكلمة ، وغسلته بنفسها وسخنت جسمه بالبخار . وكان الهرم لا يبدو الا على وجه كوزما كوزميتش ، اما جسمه فابيض املس . واستولى الحنان على آنا حين رأته يقفز على الرف كالسمكة ويقول «علىّ بالليفة . . .»

وبعد الحمام هدأ ونام حتى الضحى منتظم الانفاس . ولما استيقظ شرب حليبا وقال «اعذرينى ، يا آنوشكا ، ولا تعتبى على ، رأسى يوجعنى . . .» وغفا ثانية . وحين ايقظته الفتاة الجارة كان مرحه المألوف قد عاد اليه .

– ما الذى جاء بالفتاة الصغيرة ؟

– اجتماع عام ، كما يبدو . جاء جنود من الجيش الأحمر لجمع الحبوب ، وعلا الهرج .

– انهم جماعتنا ، يارب !

اخذ كوزما كوزميتش يلبس ثيابه على عجل . نظرت آنـــا اليه من تحت حاجبيها صامتة . وفى تلك البرهة انفتح الباب مرة اخرى ، وادخلت تلك الفتاة الصغيرة رأسها فقط :

– انهم يتعاركون . المصابون كثيرون ! عادت فلاسوفـــا

بزوجها الى البيت مضرجا بالدم . . . ملأت الشارع صراخا ، وهي تشتمك . . . واخذ ميتروفان كريفوسوتشكا يشد حصانه ، فمنعوه ، جروه وراء البوابة ، واخذوا يضربونه بقسوة . . يا ويل !

واختفت مرة اخرى . وسار كوزما كوزميتش في اثرها الى الباب ، فصرخت آنا بصوت مرعب :

– لن اتركك !

وقفت عند الموقد طويلة نحيلة رافعة كتفين شبيهتين باكتاف الرجل ، ودفعت راسها الى الخلف وكانما قصم ظهرها . ضغط كوزما كوزميتش على يدها بكل قوته :

– آنا ، لا تكوني حمقاء ! والا سامسك بقضيب النار . . . اهدئي . ساعود بعد قليل . لنتفقد مع الرفاق . فاعدي لنا فطائر ، اسمعي . . . كفى عن هذا ، اقول لك !

قالت بجهد من خلال اسنان مصكوكة :

– طيب ، يا ابانا . . .

كانت الجارة الصغيرة تريد شيئا ارهب بكثير مما شاهدت ، وهي تركض نحو سوفييت القرية وتعود ناشرة الخبر في البيوت . الا ان الاجتماع كان صاخبا حقا . لم تثر مسالة اعطاء الحبوب نقاشات كبيرة : «فاللازم لازم» . واصغى الناس بهدوء الى الرئيس وهو يقرا قائمة الحصص العادلة ، وجعلوه يكررها . وبدات في الجمع احاديث قصيرة وحركة ، واخذ بعض الناس يتزاحمون ليقتربوا من واجهة البيت ، وآخرون يتدافعون الى الشمال نحو حديقة الخضروات المجاورة ، المحاطة بسياج من الاغصان المضفورة .

صاح ميكيتنكو بصوته الطاغي المعروف للجميع : «اليس هذا صحيحا ؟» فرددت عليه اصوات كثيرة «صحيح ، صحيح !» واندفع الى واجهة البيت رجل ملتح ممزق الكم ، والقى قبعته تحت رجليه ، واخذ يلقي مظالم قديمة :

– اين ذهبت كل اتعابي ؟ الى هؤلاء ، وهل عليّ ان اركع على الاقدام امامهم لقاء كسرة خبز ؟ وهل هذه هي السلطة السوفييتية ؟

دفعه شخص آخر ممتقع الوجه من الغيظ ، واخذ يتفوه كلمات افظع . عند ذاك اندفع قسم من الذين كانوا واقفين على بعد مقتربين من السياج ، وانتزع الاعواد ، وهاجم المجتمعين من الخلف . نزل لاتوغين وزادوريفيتر وبابكوف من واجهة البيت ، ودخلوا بين الناس مفرقين اياهم ، منتزعين الاعواد من ايديهم ، صائحين : «بلا فزع ، كل شيء على ما يرام . واللعنة على الشيطان . . . الاجتماع مستمر . . .» .

وكانت المشاجرة قصيرة ، فقد كان المهاجمون قليلين ، بعضهم اختفى ، والبعض الآخر لوحق في الشارع . وبقي بعض الناس منطرحين على الأرض المغطاة بالثلج . . .

سار كوزما كوزميتش عبر اسيجة حدائق الخضروات تقصيرا للطريق ، واضاع طريقه ، ووجد نفسه في بيت لا يعرفه . ورأى نسوة كانت احداهن تنتحب ، والأخريات يستمعن اليها . وحين وقع بصرهن على كوزما كوزميتش اخذت يتحدثن . وتقدمت فارفارا فلاسوفا ام ناديجدا نحوه طاويه كمي معطفها الجنفاصي الطويلين وقد بدا عليها الغيظ ، وتحركت الاخريات وراءها . قالت فارفارا :

– لهذا السبب لم تاخذ فلوسا منا ، ايها القس المجرد من مسوحه ! . . بينما نحن ، نحمقاوات ، صدقنا به . . . جعل القرية كلها تسكر . . . انتزع كل شيء منا . . . شوش عقول جميع الحمقى ، هذا المشوش . . . باعنا للشيوعيين . . لا تبحلقن فيه ، بل اضربنه حتى الموت .

رد كوزما كوزميتش متراجعا :

– لا يجوز لكنّ ضربي . . . ستاسفن ، يا نسوان . . لا تمسسنني !

– وهل اسفت انت علينا ؟

خلعت النسوة المناديل من رؤوسهن هائجات واخذن يتكلمن دفعة واحدة ، متهمات القس المجرد من المسوح بالاجحاف في تعيين الحصص ، وبسفك الدماء في سوفييت القرية ، وبانه هو

الذى جعل رب البيت المقتدر لا يجد مكانا له الآن فى القرية ، كما انه المسؤول فى ان ينحر ويتؤكل هذا العدد الكبير من الوز والخنانيص فى هذه الايام ، لقد كان المذنب فى كل شىء . وحصرته النساء على السياج . وذهبت جهود كوزما كوزميتش عبثا فى سحرهن من جديد ، مكرها نفسه على الابتسام ، متمتما : «هيه ، اعلنتن عن غطبكن ، وكفى . . . لنتكلم بهدوء . . .» كانت فارفارا فلاسوفا اول من جذبت شعره من جانبى اذنيه ، ولتتابعت ضربات النساء على ظهره المحنى . وفكر ان افضل طريقة هى ان ينطرح ، ويغطى وجهه بيديه . كانت اضلاعه تطقطق . وتمنى فى سره : «فقط ان لا يضربننى بشىء صلب . . .» واذا به يسمع صوتا قويا : «اضربنه بالعود ، هذا المسخ !» حاول كوزما كوزميتش ان يقفز ، الا ان غشاوة غطت على بصره . وفجاة رفعوا ايديهن عنه . عندذاك سمع توجعه واجبر نفسه على ان يمنع نفسه عنه . رفعته ايد واسندته الى السياج . مسح كوزما كوزميتش الثلج والقش من عينيه وراى آنا ووراء تنورتها وجه الفتاة الصغيرة المتمش يبدو عليه التحمس . كما راى لاتوغين وزادوريفيتر وبايكوف .

سال لاتوغين :

– هل انت حى ؟ ليجلب له بعض الناس قدحا من الخمرة البيتية الآن . انك ، يا كوزما ، فعلت الكثير هنا . . . . واتخذ الاجتماع قرارا بشكرك على الدعوة ضد الكنيسة . . .

– لا يمكنك ان تتصورى ، يا داشا ، الى اى حد كنت غنا ، انسانا كئيبا طوال المدة التى اعقبت افتراقنا فى بتروغراد . . نعم ، كنت ذلك الرجل . . . ان لنا حياة لا شعورية . انها كالعلة تعذبك وتضعك على نار بطيئة . . . وتفسير ذلك سهل بالطبع . . . انت كففت عن حبى ، وانا . . .

ادارت داشا راسها اليه بحركة سريعة ، فقرا فى عينيها الرماديتين النديتين الرهيبتين دائما انه على خطأ ، فانها لم تكف عن حبه . وخدرته تلك النظرة لحظة ، ثم انفرج فمه عن ابتسامة لا تنم عن ذكاء كثير ولكنها فرحة على اية حال . واصلت داشا

وضع الاشياء فى سلة صغيرة ، وهى اشياء حصل عليها ايفان ايليتش صباح اليوم كجرايات من الالبسة بعد ان طاف على عدد من المؤسسات .

كانت اشياء ضرورية ومفيدة : جوارب ، وبعض القطع الصغيرة من القماش يمكن ان يفصل منها فستان ، وملابس داخلية جميلة جدا من البسته لا تصلح الا لصبية ، مع الاسف ، الا ان داشا كانت من الهزال والنحافة بحيث كانت تبدو صبية . وكانت من بين الاشياء احذية طويلة . وكان ايفان ايليتش معتزا بها اعتزازا لا يقل عن اعتزازه لو انه استولى على بطارية للعدو . وكانت هناك اشياء تدعو الى التفكير فيما اذا ستكون نافعة فى حياة التنقل التى تنتظرهما . وقد اعطيت لايفان لايليتش بدلا من المفارش واخذها من احد المستودعات . انها قطة وكلب من الصينى ، وبعض عاقصات الشعر من الجلد ، ودوزينة من بطاقات البريد عليها مناظر من القرم ، وكورسيه من قماش جيد للغاية له اذنيات من عظم الحوت ، كبير جدا حتى ان داشا استطاعت ان تلفه على نفسها مرتين .

– داشنكا ، انا اتكلم عن وداعنا فى محطة القطار . . . . لقد قلت لى شيئا مثل : «وداعا الى الابد . . .» ربما اخطات فى سمعى . . كنت ايضا مغموما جدا . . . وكنت انت هشة شاحبة بعيدة المنال ، عازفة عن الحب . . . .

– اية فظاعة !

قالت داشا ذلك دون ان تلتفت . وكانت تلف القطة فى جورب سميك لكيلا تتكسر فى الطريق . وكانت داشا دائما غير مكترثة بالاشياء ، ولكنها اعجبت بسبب ما بهاتين الدميتين من الفخار الصينى : القطة الحلوة ، والكلب النائم باذنيه الكبيرتين ، وكانهما قد سعيا اليها سعيا ليقيما لها عالما صغيرا من البسمات البريئة فى هذه الحياة الكبيرة الرهيبة المتهدمة التى كانت تخيم عليها سحب منذرة من الافكار والاهواء . . . .

– وعلى اية حال غادرت بتروغراد بهذه الصورة عنك . . . حملتها وعشت معها . . كنت تصاحبيننى كقلبى . وعزمت على ان اعيش وحيدا عازيا . . . .

وحاول ان يسير في الغرفة بحيث تكون داشا مركز دورانه . وكانت قد خلعت منديل راسها . وكان شعرها المتلوى ذو الشقرة الشاحبة مضفورا في قفاها بشريط من الستان الاحمر (اعطوه لها من مستودع ادارة المدفعية) . كانت داشا تارة تنحنى على السلة الموضوعة على مقعد ، وتارة تنزل ذراعيها على جنبيها ، وتفكر في شيء ما . كانت ترتدى مريول ممرضة ابيض اقتن من اى فستان تفننوا في تفصيله ، وقد شدته من خصرها (عن غرض ، شأنه شأن الشريط) . . . .

— غريب ، يا داشنكا . كان الخطر والموت من قبل يبدوان امرين غير مهمين . فليقتلوا ، ذلك لا يهم . في الحرب لا يدل ذلك على الشجاعة مطلقا ، بل مجرد سوداوية . . . اما الآن فحين افكر في الماضي اشعر احيانا بالرهبة . . . اريد ان اعيش الف عام لكى المسك ، وانظر اليك . . .

— حلوة ساكون بعد الف عام . . . اسمع ، يا ايفان ، ماذا سافعل به على اية حال — وبسطت الكورسيه مرة اخرى ، ووضعته على صدرها — يمكن ان تدخل فيه ثلاث نساء . وربما لا ناخذه ؟

— وما اذا لو سمنت ؟ سينفعك .

— انا لا البس كورسيهات ابدا ، السـت فقدت عقلك . اسمع ، لو رفعنا منه العظام ، وشققناه فمن الممكن ان يصنع منه صدار لطيف . .

استغل ايفان ايليتش انشغال كلتا يديها فتقدم من ظهرها ، وجذب داشا اليه بلطف :

— اصحيح ما تقولينه ؟ قوليه مرة اخرى .

— صحيح ، بالطبع . . . انت رجل الوحيد على هذه الارض ، وانا بدونك لا شيء . . . جئت لابحث عنك . . ايفان ، فكر ، على اية حال — وصررت كتفيها ، وتنحت قليلا — يجب ان يكون هناك تناسب في القوى . انك ستحطمنى يوما ما . . . اسمع ، ماذا نسينا ؟ فات الوقت الآن على كل حال . . . .

— قولى وساطير حالا . .

— لطيف لو نحصل على اسفنجة . .

— توجد اسفنجة .

وهرع ايفان ايليتش الى معطفه ، واخرج من جيبه اسفنجة وبعض الاشياء غير اللازمة .

— هذه هى اشياء ، يا داشا . لم يستطع احد ان يشرح لى لاى غرض هى ، ولكننى اخذتها على اية حال .

— انها شيء نفيس يا ايفان . هذه قطعة من المطاط لتدليك الوجه ، يا لروعتك ! ان هذه ضرورية جدا لى .

اعدت داشا السلة ، وتقدمت من ايفان ايليتش الذى كان جالسا على طرف التخت ، متهيئا في كل لحظة الى الوثوب . رفعت داشا وجهه ، وحدقت في عينيه باهتمام :

— لقد قطعت على نفسى عهدا . لن انتظر شيئا في حياتى الجديدة ، فانا لست سولفيج * . ولا اريد ان احدق بعد الآن في ضباب البحر . بل ان احب فقط ، واعمل . . . . خذلى كما انا سيئة او حسنة ، ولكننى زوجة وفية لك . . . لنبدأ بداية جديدة في كل شيء . . . .

دخل الدكتور دون ان يطرق الباب على عادته ، ومعه آخر عدد من جريدة واخذ يعلن الانباء العسكرية بصوت راعد :

— ان الادميرال كولتشاك ، ذلك الرجل الذى طرد الادارة من اومسك ، واقام للعمال حمام دم قد نصب نفسه الحاكم الاعلى لروسيا بدون تواضـع ! . . . واعترف بـه الفرنسيون والانجليز . . . ما رايك في هذا ؟ ان له جيشا قوامه ستمائة الف رجل وسيتنازل على ما يبدو عن الشرق الاقصى لليابانيين بلطف ! ثم اسمع الشيء التالى : ان الاسطول الانجليزى والفرنسى المتحد قد ظهر في ممرات سيباستوبول وتوفورسيسك المائية . . . حلفاء ! انظر ايا ساعدنا ليربح الحرب بدمائنا ! — ومط الدكتور شفتيه بحنق ، وتابع قوله — تدخل ، تدخل على المكشوف تماما ! يا داريـا ديميتريفنا لا تنظرى الىّ بهاتين العينين الرهيبتين . . . خذى

---

* سولفيج — شخصية نسائية من دراما ابسن الشاعرية «بيرغونت» . المترجم .

زوجك ، وتعالا الى غرفتي لتناول حساء البورش . . . انت تذكرين الرجل الذي كان يرقد عندنا مصابا بجراح حراب . لقد ارسل لى كيسا من الكرنب ووزة ولحم خنزير . . . مع الاسف ، يا ايفان ايليتش ، مع الاسف انك تاخذ منى مثل هذه الممرضة الرائعة على مراى منى . . . بالمناسبة سنشرب اليوم الفودكا ، وليذهب جميع المتدخلين الى الجحيم . . .

١١

احتاج فاديم بيتروفيتش الى شيء قليل ليتغلب على تردده . وكان هذا الشيء القليل هو وقوعه على اثر لكاتيا . فان اثر قدم امراة حافية على رمل شاطئ يجعل رجلا يؤلف في مخيلته قصة كاملة عن تلك - الرائعة - التى مرت من هنا على ضجيج امواج البحر الكبير . شبت فيه عاطفة الغيرة المعذبة ، متغلبة على الكآبة اليائسة ، وجزعه القاهر ، وصار كل شيء يبدو له بسيطا واضحا .

غادر يكاترينوسلاف في تلك الليلة ذاتها (بعد الحديث مع الضابط الالماني) . ترك الحقيبة في الفندق ، ولم ياخذ معه غير تبديلة من الملابس الداخلية ، وحقيبته الظهرية . وفي الطريق خلع كتافيتيه كضابط ، وعقدة شريط القبعة ، وخلع الشارة من كمه الايسر ، والقاها من النافذة ، ومع هذه القاذورات ذهب نهب الريح كل ما كان يبدو له حتى تلك الليلة في «بي - با - بو» ضروريا لاحترام النفس . اخرج ساقيه ، وحشر كفيه وراء حزامه وجلس على التخت في العربة المظلمة الفارغة تقريبا ، وقد افعم قلبه فرح وحشى . انها الحرية ! كان القطار ينطلق به الى كاتيا . ومهما حدث لها ، فانه سيجد طريقه اليها ، ولو تقطع جسده اربا اربا .

في يكاترينوسلاف حذر ناظر المحطة من ان قطاع الطرق عادوا الى طغيانهم في منتصف الطريق الى روستوف ، وهذا هو آخر قطار يتجه شرقا ، وليس من المؤكد حتى ما اذا كان سيسير على الخط الاسفل عبر غولاي - بوله ، او على الخط الاعلى عبر يوزوفكا . وفي المحطة نفسها تحدث الجابى الاقدم الى المسافرين الذين احاطوا به عن قطاع الطرق الذين ينطلقون في السهب على العربات بحثا عن

الغنائم ، ويضرمون النار في ضياع اصحاب الارض الذين ما يزالون لحماقتهم قابعين فيها ، ويهاجمون بجراة المستودعات العسكرية ومصانع التقطير ، ويحومون حول المدن .

وقال الجابى الاقدم بصوت جهورى :

- لا باس لو ان الاتمانات بلا رئيس ، ولكن لهم رئيسا . وماخنو اتمان على جميع الاتمانات . رجل له شعبية - وله دولة كاملة وعاصمة هى غولاى - بوله . وهو لا يضيع وقته في الصغائر . انه يدع القطارات تمر دون عراقيل ، ولكن يفتشها بالطبع ، ينزل من يشاء ، ويطلق النار عليه في البقعة امام ملوحة الخط الحديدى . في السفرة الاخيرة ، ونحن نقترب من الرصيف رايت ماخنو يقف تحت الجرس وهو يدخن سيغارا . قفزت من العربة ، واقتربت منه ، واديت له التحية . ومع ذلك فقد قال لى بغلظة : «انزل يدك . فانا لست قيصرا او ربا لك . . . هل معك شيوعيون ؟» اجبته «لا ، على الاطلاق» - «او حراس بيض ؟» ، - «لا ، مجرد مسافرين محليين» - «وهل تنقل تحاويل نقدية ؟» وشعرت بان صدرى يتمزق . قلت له : «تعال ، وتاكد بنفسك . عربتا الامتعة والبريد فارغتان» - «حسنا ، اذن ، سر بالقطار» .

وكانت التوقفات في المحطات الصغيرة مؤلمة ، سكون دمدمة العجلات ، الركود ، الانتظار المرهق ، وكان فاديم بتروفيتش يخرج الى فسحة العربة ، فلا يرى احدا على الرصيف المظلم ، ولا على الخطوط ، لا شيء غير ضوء شاحب لفتيلة مغروزة في زيت يتراءى اصفر من نافذة المحطة ، وشخصين يُريان جالسين هما الجابى والمختص بالبرقيات مستعدين للجلوس هكذا طوال الليل ، وقد دفنا انفيهما في ياقتيهما . والذهاب اليهما ، والاستفسار بلا فائدة . فان القطار يتحرك حين يعطى الطريق له من المحطة المجاورة ، وقد تكون تلك المحطة خالية من كل شخص حى .

استنشق فاديم بتروفيتش الهواء البارد ، وقد توتر كل جسده ، وتصلب . . . لم يكن في هذا الظلام الخريفى ، في روسيا المقفرة المترامية الاطراف غير نقطة واحدة حية - قطعة من اللحم الحار يشعر بحب عارم نحوها . . . كيف كان من الممكن ان يتملكه ذلك الاحساس المعتم في لحظة من لحظات الرغبة العاتية في الانتقام

والتنكيل ليدفعه الى ان يلقى عنه يدى كاتيا المتشبثتين به فى اعلى درجات القنوط ، ويتركها بفظاظة وحيدة ، فى مدينة غريبة . ومن اين ستاتيه تلك الثقة التى تجعله ، بعد ان يجدها ، وبدون ان ينطق بكلمة واحدة (تلك هى الطريقـــة الوحيدة المقبولة) يرمى نفسه نحوها ليقبل قدميها بجوربيها المرفوين للغاية ، على الاكثر ، ويحصل مع ذلك على الغفران منها ؟ ان مثل تلك الخيانات لا تغتفر بسهولة !

وبينما كان فاديم بيتروفيتش مسترسلا وحده فى افكاره فى فسحة العربة ، متمتما فى غضب ، محركا حاجبيه ، خرج الجابى من المحطة ، ووقف عند العربة غير مكترث بما قد يقطع القطار من مسافة . . . سأل فاديم بيتروفيتش هل سيطول الانتظار ؟ لم يجد الجابى الرغبة حتى فى هز كتفيه . كانت الريح تهز الفانوس المسود الذى كان يمسكه فى يده فيكشف عن اطراف معطفـــه الاســـود المتطايرة . وفجأة انطفأ الضوء الشاحب فى نافذة المحطة ، وصُفق باب . وتقدم المختص بالبرقيات وظل الاثنـــان يطيلان النظر فى ملوّحة الخط الحديدى .

همس المختص بالبرقيات :

— اطفئه !

رفع الجابى الفانوس الى وجهه المشورب المنتفخ ، ونفخ على الذبالة الساخنة وصعد فى الحال مع المختص بالبرقيات الى فسحة العربة ، وفتح الباب فى الجانب الآخر من العربة .

— اخرج — قال الجابى لفاديم ونزل على عجل وهرول .

قفز روتشين فى اثره . تعثر بالخط ، ووقف على كومـــة من العوارض . وصعد الى حقل كانت الظلمة اخف قليلا فيه ، فلاح شخصان سائران . لحق بهما . قال المختص بالبرقيات :

— فى هذا المكان حفر . اللعنة على الظلام ! كانوا يرفعون الرمل . وانا دائما اختفى هنا .

وتبين ان الحفر كانت تقع الى اليسار قليلا . نزل روتشين فيما يشبه الخندق مقتفيا اثر صاحبيه . وبعد قليل جاء شخصان آخران هما سائق القطار والوقاد ، وارسلا الشتائم ، ثم نزلا الى الحفرة ايضا . زفر الجابى زفرة ثقيلة :

— سأترك هذه الخدمة . لقد ضجـــــرت . اية مواصلات هذه !

قال المختص بالبرقيات :

— حتما . الشياطين آتون .

الآن كانت كركبة حوافر الخيول تسمع من السهب ، ومعها تمقمة عجلات العربات .

سأل الجابى المختص بالبرقيات :

— من الذى يعبث فى هذه الانحاء ؟ جاكى الموت ؟

— لا . ان هذا فى غابة ديبريفسكى الآن . بل اظنها ماروسيا ، لا وليست هى ايضا . فمن عادتها ان تجرى بالمشاعل . . . لا بد انه اتمان صغير من هذه النواحى .

قال سائق القطار بصوت مبحوح :

— لا ، ابدا . انه ماكسيرتا من اعوان ماخنو . . . اللعنـــة عليه . . .

زفر سائق القطار ثانية :

— عندى يهودى فى العربة الثالثـــــة ومعه حقائب . . . لم اخبره ، مؤسفا . . .

كانت كركبة الخيول تقترب ، وكأنها الريح قبيل العاصفـــة الرعدية . اخذت العجلات تدمدم على البلاط قرب المحطة ، وارتفعت صيحات : «هيا ، هيا !» . وسمع صوت تحطم زجاج ، وطلقة ، وزعيق قصير ، وضربـــات على الحديد . . . اخذ الجابى ينفخ فى يديه المكورتين :

— لا بد ان يفعلوا ذلك . ان يكسروا زجاج النوافذ ، على عادة السكارى . . .

لم يستمر كل هذا الشغب طويلا . وصـــدر صوت يائس «اركبوا» . وصرفت العربـــات ، وحمحمت الخيـــول ، وقرقعت العجلات ، وانطلقت عصابة الاتمان مبتعدة فى السهب . عند ذلك خرج الجالسون فى الحفر ، وعادوا على مهل نحو القطار المظلم ، وصعدوا الى اماكنهم . اشعل المختص بالبرقيات قنديل الزيت ، واخذ يتصل بالمحطة المجاورة ، وتفقد السائق والوقاد القاطرة ليتأكدا من ان قطاع الطرق لم ينتزعوا شيئا مهما منها . وصعد

روتشين الى العربة . وتمتم الجابى وهو يسحق بقدميه هشيم الزجاج المحطم على الرصيف :

– وهذا ما حصل . قتلوا المسكين ... فلو اخذوا الحقائب وحدها . ولكنهم يريدون دائما ازهاق روح انسان .

ومضت فترة اخرى من الوقت طويلة وغير معلومة ، وصفر الجابى اخيرا صفرة قصيرة ، واعولت القاطرة كالساخطة فى السهب الخاوى ، واتجه القطار نحو غولاى – بوله .

وضع فاديم بيتروفيتش مرفقه على الطاولة المطوية ودفن وجهه فى يديه ، وراح يركز ذهنه كله فى حل المشكلة : ان كاتيا غادرت روستوف فى اليوم التالى مباشرة ، بعد ان ابلغها اونولى النذل عن موته . ومعنى ذلك فان لقاءها مع الضابط الالمانى فى القطار جرى بعد يومين ... ولنفرض ان هذا الالمانى سرّى عنها بدون اى محاولة للطمع فيما يأتى ... لنفرض انها كانت فى ذلك اليوم فى حاجة ماسة الى من يبعث فى نفسها السلوان . ولكنها بعد يوم واحد من فقدها لمن تحبه كتبت فى دفتر رجل غريب ، وبشكل متقن جدا ، عنوانها ، واسمها ، واسم ابيها دون ان تنسى ان تضع الفواصل بين العبارات . ان ذلك للغز ! السماء قد اطبقت عليها . وزوجها المحبوب مطروح فى مكان ما ، كالجيفة . ان من الطبيعى ، على ما يبدو ، ان تصاب بيأس قانط فى الايام الاولى من ذلك . يظهر انها اعطت عنوانها على «شباك البريد» . ومعنى ذلك انها كانت تجد بصيصا من الامل ... فاى لغز !

– ايها المواطن ، ارنى اوراقك – وجلس الجابى مقابل روتشين ، ووضع الفانوس المسخم بالقرب منه – حين تتجاوز غولاى – بوله يمكنك ان تنام باطمئنان .

– سانزل فى غولاى-بوله .

– اها .. ذلك يزيد الامر ضرورة ... انا الذى سيسالوننى : من احمل من الركاب ..

– ليست لدى اية اوراق ...

– وكيف يكون ذاك ؟

– قطعتها ورميتها .

– عندئذ يجب ان ابلغ عنك ...

– بلغ ، عليك اللعنة ...

– ولم هذه اللعنة فى مثل هذا الوقت ؟ .. هل انت ضابط ؟

كانت افكار روتشين مشدودة متوترة ، فاجاب من خلال اسنانه :

– فوضوى .

– نعم ، مفهوم ... نقلت الكثيرين من اخوانك من يكاتريتوسلاف . – وتناول الجابى الفانوس ، وامسكه بين رجليه ، واطال النظر ، حيث كانت الشرارات التى ترسلها القاطرة تتطاير وراء النافذة المظلمة . وقال بخفوت : – انت رجل مثقف . فعلمنى كيف اتصرف ؟ فى السفرة الماضية تكلمت ايضا مع فوضوى ، وهو رجل رصين اشيب وعق . قال لى : «نحن لسنا بحاجة الى السكك الحديدية ، سندمرها كلها بحيث تكون نسيا منسيا . فان السكك الحديدية تولد العبودية والراسمالية . سنقسم كل شىء على الناس بالتساوى ، والانسان يجب ان يعيش على الطبيعة ، وبلا سلطة ، كالحيوان ...» شكرا على ذلك ! ... انا اشتغل على القطارات منذ ثلاثين عاما ، وقد بنيت من ذلك بيتا صغيرا ، فى تاغانروغ ، حيث توجد زوجتى العجوز مع معزة وشجرتى خوخ فى الحديقة . وذلك كل ما املك . فما حاجتى الى هذه الطبيعة ؟ ان ارعى المعزى على المنحدر ؟ قل لى هل كان هناك نظام فى الحكم السابق ؟ كان هناك استغلال ، وانا لا انكر ذلك . لناخذ عربة من الدرجة الاولى تجد الهدوء والاحتشام . بعضهم يدخن سيغارا ، وبعضهم يهوم بمهابة ووقار . فتحس ان هؤلاء مستغلون ، ولكن لا تسمع سبابا صريحا . اعوذ بالله ... فترفع يدك بالتحية ، وتمر فى العربة بهدوء ... اما فى الدرجة الثالثة فالفلاحون ، بالطبع ، متكومون واحدا فوق الآخر ، ولا مجال للخجل ... كل ذلك كان موجودا ، بالتاكيد ... ولكن كان لديك ايضا دجاجة محمصة ، ولحم خنزير مقدد ، وبيض ، اما الخبز فانت تذكر الارغفة ، يا صاحبى ؟ – وصمت ناظرا الى الشرر وراء النافذة – هذا محور يحترق فى عربة الامتعة . بسبب انعدام الزيت ، يعنى ان التقليات فى طريقها الى النهاية بدون تدخل الفوضويين ... والآن قل لى ماذا سيحصل الآن ؟ استبدلوا القيصر براداا ، والرادا

بالهيتمان ، والهيتمان بمن سيستبدلونه ؟ بماخنو ؟ اراد احد الحمقى ان يصب سكين محراث ، فوضع الحديد على النار حتى ذوب نصفه واتلفه ، فقال لنفسه : لاصنع فاسا ، فاذاب نصف الباقي ايضا ، ولم يبق الا ما يمكن ان يصنع منه مثقبا ، فاخذ يطرقه بمطرقته طرقا شديدا حتى لم يبق شيء . . . وهكذا . . . لا نظام ، ولا خوف ، ولا سلطان . . . ستصل الى غولاي - بوله وترى كيف يعيش الناس في ظل «النظام الفوضوي الحر» . شيء واحد يمكن ان اقوله : انهم يعيشون في سكر ومتعة لم يسمع احد بمثلها منذ قديم الزمان . وقد اعلنت المنطقة كلها «بستان عنب» . وما اكثر الموصسات اللواتي نقلتهن الى هناك ! . نعم ، كلامي بلغة الشيوخ ، فاعذرني ، ايها الرفيق الفوضوي : ان روسيا ضاعت . .

اخذ الكثيرون من الفلاحين الميسورين الذين انضموا في الصيف الى فصائل الالمان يفكرون الآن في العودة الى قراهم . حملوا العربة بكل ما وقع من نصيبهم بالعدل من الغنائم ، وحولوا العملات المحلية المختلفة الى العملة القيصرية ، وشدوا المشمع بقوة على اشيائهم ، وربطوا سخانا في المحور الخلفي . وخرج بعضهم سرا ، وآخرون ذهبوا علانية الى الاتمان : «وداعا ، يا سيد ، لست جنديا عندك بعد الآن» - و«لم ذلك ؟» «مشتاق الى بيتي . لا اجد لي رغبة في طعام او شراب او نوم . وحين تقتضي الحاجة مرة اخرى ، ادعنا وسنأتي» ، وشدوا الخيول الجيدة ، وخرجوا الى الضياع ، والقرى والنواحي التي تخلصت من ايواء الجنود الالمان .

وفكر الكسي كراسيلنيكوف ايضا في ذلك . تشاور مع ماتريونا زوجة اخيه ، بل ومع كاتيا روتشينا ايضا فيما اذا كان من المبكر العودة الى البيت ؟ العلهم سيجدون في انتظارهم منغصات . . فان من المتعذر التسلل الى قرية فلاديميرسكويه سرا ، وقد تلقى عليهم مسؤولية قتل العريف الالماني . والالمان قوم جادون . ومن ناحية اخرى فانهم حين يجدون النار قد اتت على كل شيء سيضطرون الى بناء البيت ، وتنظيم المرافق . وكل ذلك يجب ان يجرى الآن ، في الخريف .

كان نصيب الكسي كراسيلنيكوف من غنائم جيش ماخنو خمسة خيول فتية قوية ، وثلاث عربات من الاشياء والاقمشة

ومختلف المتاع . وكل هذه الاشياء جمعتها ماتريونا اكثر مما جمعها الكسي . فقد كانت تحضر الاجتماعات غير هيابة ، حيث كانت تسبلة الاتمان او ماخنو نفسه يقسم الغنيمة . وكانت دائما مهندمة جميلة مهتاجة فكانت تاخذ ما تريد . وحين كان احد الفلاحين يتهيأ للجدال معها كان هدير الضحك ينفجر في كل مكان حين كانت تنتزع منه الشيء المتنازع عليه سواء أكان شالا او معطفا قراليا او قطعة من القماش الجيد . وكانت تقول : «انا امراة ، وانا احوج الى ذلك . فانك ستبيعه لتشرب بثمنه ، ايها اللص ، ستأتي به الي ليلا . . .» كما كانت تبادل وتقايض . وكانت تحتفظ في العربة ببرميل من الخمرة لهذه الغاية .

قلب الكسي الافكار في راسه ، ولم يستقر على راي ، حتى وصل نبأ سار ، وهو ان سكوروبادسكي الذي تخلى عنه الالمان وقواته نفسها قد تنازل عن الهيتمانية ، وان رجال بيتلورا دخلوا كييف ، واعلنوا فيها «الجمهورية الاوكرانية الديموقراطية» . وفي نفس الوقت تحرك الجيش الاحمر الاوكراني من الحدود السوفييتية . وكان الامر الاخير يوحي بالثقة التامة .

في الليل ، ودون علم احد جلب الكسي الخيول من السهب ، وايقظ ماتريونا وكاتيا ، وطلب ان يعد الفطور بينما هو يشد الخيول الى العربات . واكلوا حتى الشبع قبل ان يخرجوا في السفر الطويل . وقبل انفلاق الفجر ساروا خلال طريق وعر في الضباب قاصدين بيتهم في فلاديميرسكويه .

كان من الصعب ان يرى المرء في كاتيا روتشينا المسافرة على عربة في سترة من فراء الغنم ، وحذاء طويل ملطخ ، والريح قد اسفعت خديها ، وتركتهما كالخوخ ، ان يرى فيها تلك السيدة الناعمة المتهيئة عند اقل صدمة تصيبها في الحياة ، الى ان تلملم اطرافها مثل قطيطة مسكينة . كانت ، وهي نصف مستلقية على القش ، تسوط الحصان حتى لا يتاخر عن الخيول الثلاثة التي كان الكسي يسوقها على عربته فتندفع بين الحين والآخر في عدو . اما العربة الاخيرة فكانت تسوقها ماتريونا التي لم تكن تثق احد ماشيا كان او راكبا .

كان السهب مقفرا . وكان الثلج يلوح فى ثنايا الوهاد وقد حملته رياح كانون الاول من الهضاب الطباشيرية . وفى الافق كانت ترتفع اهرامات بلون الصدأ هى ما تخرجه المناجم . والحياة لم تبدأ بعد فى المنطقة التى هجرها المحتلون . وقد انضم الكثيرون من عمال المناجم والمصانع الى فصائل الحمر ، وهم الآن يحاربون قرب تساريتسين ، وهرب كثيرون الى الشمال ، حيث كانت وحدات الجيش الاحمر الاوكرانى تتشكل عند الحدود السوفييتية . وقد نما العشب فى الطرقات ، والاعشاب فى حقول الذرة المهملة ، حيث كانت اضلاع صفراء لفرس ميت تبرز من خلالها هنا وهناك . ولم يكن فى تلك المنطقة غير النادر من البيوت .

كانت ماترينا تردد قائلة لاخى زوجها : «ابتعد عن الناس ، ولا تنتظر منهم خيراً» . فكان الكسى يكتفى بالضحـــــك «آوه ، ثعلبة . . . كنت امرأة عذبة . . . والآن اصبحت مفترسة ، يـــا عزيزتى ماترينا . . .»

وكان لكاتيا وقت وافر للتفكير ، وهى تهتز فى العربة ، وتقضم القش . كانت تدرك حق الادراك انهما يحملانها الى قرية فلاديميروسكويه كغنيمة لالكسى ايفانوفيتش ، ولربما هى اغلى كل ما كان له محملا على العربات الثلاث . ومن هى غير اسيرة من العالم المحطم ؟ سيقيم الكسى ايفانوفيتش على ركام بيته بيتا جيدا ، ويفصله عن الناس الآخرين بسياج قوى ، ويخبئ فى السرداب كل نفائسه ، ويقول بحزم : «كاترينا ديميترييفنا ، لم يبق الآن الا شىء واحد — الاخير — وانت صاحبة الكلمة . . .»

كانت الحياة بكليتها تبدو لها كمدينة احرقتها الحرب : اكواما من الرماد ، ومداخن مواقد محروقة . مات الاحياء ، ولا خبر عن الاعزاء . قبل فترة تلقت ماترينا رسالة من زوجها سيميون مرسلة من سامارا ، كتب فيها ، فيما كتب ، انه ذهب الى العنوان المذكور فى الشارع الذى كان يسمى دفوريانسكيا سابقا ، ولم يجد هناك دكتورا يدعى بولياقين ، ولا احد يعرف الى اين ذهب مع ابنته . ولم يبق لكاتيا غير شخصين يشفقان عليها ويحبانها مثل قطيطة اليفة هما الكسى وماترينا . فهل من المعقول انها كانت قادرة على ان ترفض لهما امرا ؟

كان لا بد لها ومنذ زمن طويل ان تصير عجوزا محت الدموع بريق عينيها بعد ان عاشت تلك السنين الطويلة الغاصة بالاحداث كقرن من الزمن . الا ان خديها كانا يتوردان اذا مستهمـــا الريح الباردة فقط ، وكانت تحس بدفء كدفء الشبــاب ، وهـــى فى فروتها . وكان هذا الاحساس بالشبـــاب الـــذى لا يزايلهـــا يفعمها بالاسى ، فهل شاخ قلبهـــا ؟ ام هـــو ايضـــا ليس كذلك ؟

وقد قالت لها ماترينا غير مرة : «ان الرب قد ربطها بهما ، والرب وحده سيحل هذا الرباط» . ولم يفرض عليها الكسى مثل هذه الاحاديث قط . ولكنه فى بعض المناسبات جازف بشدة لينقذ كاتيا من الذى مباشر متصرفا كرجل ازاء امرأة يحرص عليها لنفسه . وما كان فى وسع كاتيا ان ترفضه ، فما كان لها ان تجد الكلمات لتبرر جحودها . ولكنها كانت تود الا يحدث ذلك اطول فترة ممكنة . كان الكسى ايفانوفيتش رجلا جذابا — كانت الشمس تشع دائما فى وجهه المفتوح الغليظ قليلا — وكان قويا رابط الجأش ، مستقيم الظهر ، عريض الصدر ، شعره الغزير كالطرة ، وكان جريئا متعقلا فى ساعة الخطر ، يعامل كاتيا بطيبة ورقة مشوبة بالدعابة . ولكن كاتيا ، حين تفكر فى اليوم الذى لا بد ان تصبح فيه قريبة منه ، كانت تغمض عينيها وينكمش جسمها كله ، وكأنها تود ان تدفن نفسها فى القش على العربة .

ذات مرة ، فى وقت الغداء ، انعطفوا عن الطريـــق الى جدول كوّن فى تلك البقعة مجمع ماء صغيرا عليه اطلال طاحونة مائيـــة وقصب مداس . ذهبت ماترينا لتجمع حطبا للنار ، وسارت كاتيا الى الجدول لتغسل القدر . وبعد قليل من الوقت جاء الكسى والقى قبعته وقفازيه على العشب ، وجلس عند الماء قرب كاتيا ، وبلل وجهه بالماء ، ومسحه فى طرف فروته . . .

— ستجمدين يديك . . .

وضعت كاتيا القدر على العشب ، ورفعت جسمها من على ركبتيها ، وقد احست بيديها تجمدان حتى العظام ، نفضت عنهما قطرات الماء واخفت تمسحهما ايضا بفروتها .

قال الكسى متوترا خشنا متحفزا :

– اظن ان الناس كانوا يقبلون يديك هاتين فى العهد القديم .

حدجته بنظرة صافية وكأنها تسأله : ماذا حصل ؟ لم تكن كاتيا تعرف قط قوة جمالها ، وتعتبر نفسها ببساطة قلب حلوة ، واحيانا حلوة جدا ، وتحب ان تكون موضع اعجاب . مثل طائر صغير ينفش ريشه (حين تبدأ الشمس الوردية تشع على الندى الشاحب ناهضة بين جذوع الاشجار) . ولكنها لم تكن عارفة بجمالها الذى جعل الكسى ايفانوفيتش الآن يصرف عنها عينيه بعد ان لمعتا لمعانا جافا .

– اريد ان اقول : عندى قنينة زيت عباد الشمس فى العربة ، فادهنى به يديك ، والا فستتشقق البشرة . .

وبدت ابتسامته الهازئة المعتادة تطل على شفتيه الطريتين تحت شاربيه الاجعدين الخشنين . زفرت كاتيا مستروحة ، ولو انها لم تفهم تماما كم كان قريبا فى هذه المرة ذلك الشىء الذى لم تكن تريده . كان الكسى ، بعد ان ذهبت ماترينا لجمع الحطب ، يحدق فى كاتيا الجالسة قرب الماء ، اما بتأثير النعاس وهو مستلق على القش فى العربة المتارجحة ، واما من سكون السهب الجاثم . وقد جاء اليها مثل صبى سمع فجأة صوت العصا تهبط على الواح الغسيل عند النهر ، فحدس ان الجارة بروسكا تغسل الغسيل رافعة تنورتها وربلتا ساقيها تبدوان بيضاوين شهيتين ، فاذا به ينسل اليها خفية خلال نبات الارقطيون والقراص مستنشقا بنهم جميع الروائح التى استحالت فجأة روائح مثملة . ولكن فى هذه الحال لم يكن الخوف هو الذى اوقف الكسى ايفانوفيتش ، فان تخويفه لم يكن من السهل . بل ان كاتيا بنظرة عينيها الجميلتين الهادئتين قالت له : ليس هذا جميلا ، ولا لائقا .

وكان يسيطر على نفسه فى مواقف اصعب من هذه المواقف التافهة ، ومع ذلك فقد كانت يداه ترتجفان وكأنما بعد جهد بذله فى رفع حجر طاحونة . تناول القدر من على العشب .

– هيا اذن ، لنطبخ عصيدة – واتجها نحو العربات – يكاترينا ديميتريفنا ، لقد تزوجت مرتين فلماذا لم ترزقى بطفل ؟

– هى الظروف ، يا الكسى ايفانوفيتش . . . زوجى الاول لم يرغب فى ذلك ، وانا كنت حمقاء .

– والمرحوم فاديم بيتروفيتش لم يرد ايضا ؟

قطبت كاتيا حاجبيها ، واشاحت بوجهها ، ولم تجب .

– كنت اريد ان اسالك منذ زمان . . . ان تجربتك كبيرة . . . كيف بدأت هذه الاشياء الحلوة ؟ هل قبل زوجاك ، اقصد خطيبيك ، يديك ؟ تطرقا وحاما حول الامر ؟ كيف يجرى هذا الامر عند السادة ؟

وصلا الى العربات . القى الكسى على الارض عدة الفرس التى كانت على العربة ، القاها بكل قوته ، وتناول قوس العريش من تحت العربة ، واسنده الى العريش ، واخذ يشد القدر الى نهايته . . .

– انت من الطبقة الراقية ، وانا من بيت فلاحى . . . وقد التقينا فى طريق ضيق . وليس لك من عودة الى الوراء . . انتهى الامر . والشىء الذى لم تقلبه راسا على عقب بعد ، ستقلبه حتى النهاية قريبا . . . وليس لك من مخرج غير ان تجدى سيدا جديدا . . .

– هل اسئت اليك فى شىء ، يا الكسى ايفانوفيتش ؟

– لا ، ابدا . . . انا الذى اريد ان اسىء اليك ، ولكن كلماتى لا تكفى . . . فلاح . . . احمق . . . كم انا احمق . . . انا اعرف ، اعرف . . ان كل ما تفعلينه هو ان تنتهزى فرصة لتهربى الى الخارج . . . احسن مكان ملائم لك . . .

– كيف لا تخجل من ذلك ، يا الكسى ايفانوفيتش ! هل فعلت شيئا استحق عليه هذا الاتهام ؟ . . . انا مدينة لك بكل حياتى ، ولن انسى ذلك ابدا . . .

– ستنسين . . . ارأيت كيف تخاف ماترينا الناس ؟ وانا ايضا لا اثق بالناس . . . منذ عام ١٩١٤ وانا اسبح بالدم . اصبح الانسان اليوم حيوانا . ولعله كان من قبل ايضا ، ولكن لم نكن نعرف . كل واحد ينتظر ان يلقى الآخر من على سرجه . وانا ايضا حيوان ، ام لعلك لا ترين ، ايتها الحمامة الوديعة . . انا اريد ان يعيش اطفالى فى بيت آجرى ، وان يتكلموا بالفرنسية احسن منك . . باردون ، ميرسى . . .

جاءت ماتريتا تحمل بين ذراعيها عساليج وجذامات ، والقتها تحت القدر المتدلى من طرف العريش ، وامعنت النظـــر فى الكسى وكاتيا .

– لا يحق لك ان تكدرها ، يا الكسى – قالت بصوت خافت – هل رويت الخيول ؟

استدار الكسى ، واتجه نحو الخيول . واخذت ماتريتا تضع الحطب تحت القدر :

– انه يحبك . كم خطبت له من الفتيات ، وهو لا يريد ... وانا لا ادرى ماذا يحصل لكما . صعب عليكما كليكما ...

انتظرت ماتريتا ان تقول كاتيا شيئا . اخرجت كاتيا الحبوب المدقوقة وشحم الخنزير صامتة ، وبسطت قماشة على الارض ، واخذت تقطع الخبز .

– لماذا تصمتين ؟

زادت كاتيا من اطراقة راسها ، وهى تقطع الخبز . وتحدرت الدموع على خديها .

كانت سهوب يكاتيرينوسلاف الخصيبة الممتدة نحو البحـــر الاسود وبحر آزوف منطقة جديدة . لقد كانت من قبل تدعـــى بالسهب الوحشى ، حيث كان السكيثيون القصار البدنـــاء الطوال الشعور ينطلقون على خيولهم الشعثاء خلال اعشاب تصـــل الى اكتافهم ، والتجار الاغريق المعتمدون على حراسة موثوقة ينتقلون من الفيوبول الى تاناياس ، والقوط الرحل بعرباتهم الضخمة مـــا بين البحرين يسوقون قطعانهم من الماشية . والى هذه المنطقة ايضا اندفعت من حدود الصين الشمالية جحافل هون المتعددة اللغات مثل سحب الجراد ناشرة الرعب الشديد حتى ظلت هذه الســهوب مقفرة قرونا عديدة ، ونصب الخزر خيامهم المخططة فى طريقهم من دربند ليحاربوا روسيا الدنيبريـــة ، وطافت قبائل البولوفتريين بقطعانهم الهائلة من الخيول والجمال ، وهم فى قفاطينهم الحريرية الخوارزمية حتى وصلوا الى استحكامات سفياتسلاف ، وبعد ذلك

يزمن وطأتها جحافل التتر بخيولهم الخفيفة متجمعين لشن الغارات على موسكو .

ومضت موجات الاقوام ، ولم تبق الا حدبات القبور ، وعلى بعضها اصنام حجرية ذات وجوه مسطحة وايد صغيرة مطويـة على البطن . واخذت سهوب يكاتيرينوسلاف تستوطن بزراع الحبـــوب الاوكرانيين والروس والقوزاق النازحين مـــن الدون وكوبان والمستعمرين الالمان . وكانت جديدة عليها القـــرى الكبيرة والضياع التى لا تعد وهى بلا عادات متوارثة ، ولا اغان قديمة ، ولا بساتين زاهرة ، ولا مروج مروية . لقد كانت منطقة قمح واصحاب اراضى اغمار حسنى الاطلاع على اسعار القمح فى الخارج ، كما كانت غولاى – بوله جديدة ايضا . بلدة صغيرة كئيبة ممتدة على طول نهير غايتشور المستنقعى والناضب الميـــاه بين الحين والآخر .

كانت المسافة بين محطة القطار وغولاى – بوله سبعة فراسخ عبر السهب . استأجر روتشين عربة «حنطور» اوصلته الى السوق الكبيرة الممتدة فى مرجة . وفى السوق اخـــذ لماديم بيتروفيتش يماكس على دجاجة محمصة مع امراة وقحة تجلس منفرجة الساقين على عربة بين الحوائج التى جلبتها من القرية للبيع ، وكانت هذه المراة التى لم تكن تجيد عملها تحتد فتدفـــع بضاعتها الى انف المشترى تارة ، وتنتزعها من يده تارة اخرى ، وتشتمه بصوت زاعق متلفتة فى كثير من الحركة مخافة ان ينشل شىء من عربتها . طلبت خمسة روبلات ثمنا للدجاجة المحمصة ، ثم عدلت عن طلبها فى اللحظة التالية فلم ترد ان تبيعها بالفلوس ، بل بلفـــة من الخيوط . قال روتشين لها :

– خذى الفلوس منى ، يا حمقـــاء . يمكنك ان تشترى الخيوط . هناك يبيعونها .

– لا استطيع ان اترك العربـــة . اعد فلوسك الى جيبك وابتعد عن البضاعة ...

وبعد ذلك شق طريقه الى رجل فى زى عسكرى غزيـــر الناصية ، مدجج بالسلاح كان يسير فى السوق ويهز على كفـــه

لفتين من الخيوط . القى نظرة كدرة على روتشين ، وحرك شفتيه المتورمتين قائلا :

— لا اقايض الا بالكحول .

وعلى هذا النحو لم يستطع روتشين شراء الدجاجة . كان اكثر ما يجرى في السوق هو تجارة المقايضة ، والابتزاز الخالص ، حيث السعر يتحدد بالحاجة ، فكانت الابرتان تقايض بخنوص وبشىء آخر زيادة .اما البنطلون الخالي من الرقع فكان يخوّل البائع مص دم المشترى . كان مئات من الناس يتاجرون ، ويصرخون ويشتمون آخذين طريقهم بين مجموعـــــة كبيرة من العربـــــات ، وفي نفس المكان كان الحلاقون يقتعدون مقعدا او حتى عجلة وقد نشروا ادواتهم امامهم ، وكان المصورون المتجولون ومعهم آلات تصوير وتحميض آنية تقف على ثلاثة ارجل يقدمون للزبون بعـد خمس دقائق صورته الفوتوغرافية مبللة ، وكان عازفو الكمان العميان معاطين بالمستمعين غير متورعين من مد ايديهم في جيب احمـــق يتثاءب . . . وكان جميع هؤلاء الناس مستعدين ان يقلعوا من اماكنهم في اقصر وقت ، ويتفرقوا ويختبئوا اذا ما بدا تراشـــق جدى بالنار وهو امر لم تكن اية سوق في غولاى — بوله تسلم منه .

اخذ فاديم بيتروفيتش طريقه بين العربات ، فوجد نفسه في جمع متهلل قرب دوارة . اناس ذوو شوارب في بزة الفرسان ، وفي ستر البحارة ، وفي معاطف الخيالة القصيرة مسلحون بالقنابـــل اليدوية ومختلف الاسلحة الباردة والحارة . كانوا يجلســـون في اعتبار ويدورون على احصنة خشبية لها اعناق ممدودة بصورة خيالية واقدام طائرة . وكان احدهم يردد بصوت عالي النبرة متعجرف : «اسرع ، اسرع» . وكان شخصان في ثياب رثة يديران الدوارة بكل ما لهما من قوة ، وعازفان على الاكورديون يعزفان لحن «التفاح» محركين المنفاخ بضراوة ، وكانما ليستوعبا كـــل ما في نفوس احرار ماخنو من سعة وجراة . صاح الذين كانوا ينتظرون دورهم : «كفاية ، انزلوا !» فزار الدائرون على الاحصنة «اسرع !» . وهنا طارت قبعة احدهم من على راسه ، وفي نشوة الانشراح جرد شخص سيفه ، وضرب به الهواء وكانه يقطع به راس عدو موهوم . وعندئذ اندفع الواقفون فجاة وجذبوا الجالسين على الاحصنـــة والدوارة

دائرة . وحدث هرج ، ودمدمت قبضات مع صفير صافرة ، ثم دارت الدوارة من جديد ، وتخوصر الفرسان الجدد على الاحصنة بمناخيرها المتسعة المحمرة .

ابتعد فاديم بيتروفيتش اذ لم يجد هنا احدا متعقلا كان من الممكن ان يتحدث معه . اشترى من بائع متجول قطعة فطيرة فيها جبنة هشة ، وسار ، وهو يمضغها في شارع عريض مصفـــوف بالبلاط . لم تبق لديه الا فلوس قليلة ، واذا قيس الامر على ما دفعه ثمنا للفطيرة فانها لن تكفيه اسبوعا واحدا . كان ينظـــر بسهوم الى البيوت الآجرية ذات الطابقين من تلك التي يبنيهـــا التجار ، والى حوانيت الحنطة ، والدكاكين ، والى اللافتات الزاهية . كان يمضغ ويفكر بسهوم ايضا : ان توافه الحياة لم ترعبه كثيرا بعد ان وثب الى الحرية الفائتة .

قابله رجل يركب دراجة عجلتهـا الامامية متخلخلة . لـــم عسكريان يركبان فرسين يرتديان سترتين جركسيتين بلا اكمام وقبعتين مائلتين من فراء الاغنام . وكان راكب الدراجة الصغيـــر النحيل يرتدى بنطالا رماديا وسترة مدرسية وكان شعره السبط يكاد يصل الى كتفيه من تحت قبعة مدرسية زرقاء ذات ظليلة مؤطرة بالابيض زرقاء . وحين حاذى فاديم بيتروفيتش رأى بدهشـــة وجهه الناحل المعدوم الحاجبين . حدج روتشين بنظرة نافذة ومالت العجلة في تلك اللحظة ، وتماسك راكبها بصعوبة مغضنا وجهــه الاصفر المشيبس ، ومر به .

بعد دقيقة ادار احد الفارسين فرسه ، وخب به نحو روتشين ، وانحنى على سرجه متمعنا فيه بحدقتين متحركتين . سأل روتشين :

— ما الخبر ؟

— من انت ؟ ومن اين ؟

— من انا ؟ — واشاح روتشين وجهه من رائحة البصـــل والخمرة البيتية القوية — انا رجل مستقل قادم من يكاترينوسلاف .

سأل الفارس بلهجة تهديد :

— من يكاترينوسلاف ؟ ولاى غرض انت هنا ؟

— جئت لابحث عن زوجتي .

— تبحث عن زوجتك ؟ ولماذا خلعت كتافيتيك ؟

اجاب روتشين باكبر قدر مستطاع من الهدوء وهو يكظم غيظه :

– اردت ذلك ففعلت . لم استأذن منك .

– انت ترد بجراة .

– وانت ايضا لا تخوفني ، فانا لست من الخائفين .

طرق الفارس ببصره في وجه روتشين باحثا عن جواب . ورفع قامته فجاة ، ولاحت ابتسامة وقحة على وجهه المستطيل المشوه باختلال التناسق ، ولكز حصانه بمهمازيه ، وعدا نحو راكب الدراجة . استمر روتشين في سيره متعثرا من الانفعال .

ولكن اولئك الثلاثة لحقوا به في الحال . صاح راكب الدراجة ذو السترة المدرسية بصوت عال يوخز الاذن :

– لا يريد ان يتكلم معنا ، ولكن سيتكلم مع لوفكا .

ضحك الفارسان ضحكا صاخبا ، واطبقا على روتشين بفرسيهما من الجانبين . ومر راكب الدراجة متقدما الى الامام مديرا الدواستين يكل ما لرجل سكران من حول ، وردد الفارسان «امش ، امش» مجبرين روتشين على ان يهرول تقريبا بين الحصانين . وكان من العبث التخلص او الاحتجاج . توقفوا في نفس الشارع عند بيت آجري ذي حديقة صغيرة وطأتها الاقدام . كانت نوافذ البيت مطلية بالطباشير ، وفوق الباب يتدلى علم اسود تحته قطعة من الخشب الابلكاش كتب عليها : «المركز الثقافي التعليمي للجيش الثوري الشعبي للاتمان ماخنو» .

كان الغيظ قد غشى على ذاكرة روتشين حتى انه لم يتذكر كيف دفع الى البيت ، واقتيد عبر ممرات مظلمة الى حجرة تتناثر فيها البصاق والقذارة لها رائحة شديدة الحموضة تكتم الانفاس . ودخل في الحال رجل مبتسم لامع الوجه يترنح قليلا لبدانته يرتدي سترة قصيرة من تلك التي كان يرتديها في الاقاليم المعروفون من الموسيقيين والمغنيين الكوميديين .

– اذن ، ما الامر ؟

سأل الرجل وجلس عند طاولة مهزوزة بعد ان ازاح اعقاب السيكاير من عليها .

قال له ذو الوجه المعوج الذي صحب روتشين :

– امرنا الاتمان ان نعرف هل هو وغد ام شيء آخر .

– اخرج الآن ، يا رفيق كاريتنيك (وبعد ان خرج هذا) اجلس الآن .

قال روتشين منفعلا للرجل المبتسم البدين ذي السترة القصيرة :

– اسمعني . انا اعرف انني وقعت في ايدي الاستخبارات ، وانا اوضح لك من انا ولماذا انا هنا ، فليس لي ما اخفيه . . . . . جئت لكي . . .

– انظر الي" – قال الرجل ذو السترة دون ان يصغي اليه – انا ليفا زادوف ، ولا داعي للكذب علي" ، سأستجوبك وسترد على استجوابي .

وكان اسم ليفا زادوف معروفا في الجنوب بما لا يقل عن الاتمان ماخنو نفسه . فقد كان ليفا (لوفكا) جزارا ، ورجلا شديد البطش بشكل مذهل حتى زُعم ان ماخنو حاول غير مرة ان يقتله ، ولكنه كان يعفو عنه لولائه . وكان روتشين قد سمع عنه ايضا واحس لاول مرة بالدم يجمد في عروقه . كان يقف امام الطاولة لوفكا زادوف يجلس اجعد الشعر غزيره ، مورد الخدين ، متلذذا بسلطاته على رجل بث فيه الرعب .

– اذن ، تكلم ، هل انت من ضباط دينيكين ؟

– نعم ، سابقا . . .

– سابقا ؟ اي ، اي ، اي . . . من اين انت قادم ؟

– من يكاترينوسلاف الى غولاي – بوله . ها انا اقول لك . . .

– اي ، اي ، اي . . . . . لماذا تقول لليفا انك قادم من يكاترينوسلاف ، بينما جئت من روستوف .

– لا ، جئت من يكاترينوسلاف .

واخذ روتشين يبحث عن تذكرة السفر بعجالة ، وسرت البرودة في جسمه ثانية ، فقد يكون قد رماها . وتبين ان التذكرة في جيب القميص مع صورة فوتوغرافية باهتة مدعوكة لكاتيا . قدم التذكرة الى لوفكا ، فقلبها هذا وقتا طويلا ، ودققها في الضوء . لقد كانت التذكرة صحيحة على اية حال ، وهذا ما حير لوفكا قليلا ، وكان قد توصل ، على ما يبدو ، الى اعتقاد ، بل وحدد الحكم .

وغيرت التذكرة الامر كله . وكف لوفكا عن تكشيرة السخرية ، وارتعشت شفتاه الغليظتان بزراية :

– ما الذى جعلك تتوقف فى تمولاى – بوله اذا كنت تحمل معلومات استخبارية الى قيادة دينيكين ؟

– انا لا احمل معلومات استخبارية . . غادرت الجيش منذ شهرين ، وتركت الخدمة ، ومزقت الهوية العسكرية . وقد جئت الى هنا كرجل غير مرتبط . . . .

لم يصرف لوفكا عنه عينيه السوداوين . وبذل روتشين كل جهده ليكبح انفعاله ، ويجيب اجابة مروى بها ، وهو تحت هذه النظرة الخالية من اى شىء معقول وانسانى ، فانشأ يتحدث (بتبسيط وسهولة ادراك) عن الاسباب التى دعته الى الهروب من الجيش . . .

قاطعه لوفكا بصوت هادئ :

– لو تكذب علىّ ايها الوغد ، مرة اخرى لفعلت بك ما لم يفعله احد . . . .

وبحركة سريعة لصوصية انتشل من روتشين صورة كاتيا ، وتمعن فيها مبتسما مثل رجل عليم بالنساء ، ونقر عليها باظفره وقال :

– من هذه الكلبية ؟

– زوجتى . . . جئت من اجلها . . . اعطنى الصورة . .

– ستوضع فوق جثتك الدامية – وغطى لوفكا الصورة بيده البدينة – والآن ، هيا حدثنى عن معلومات استخبارية . . .

صاح روتشين :

– لن اقول كلمة اخرى لك بعد !

– ستقول لى ، فالناس ينطقون عندى .

ورفع لوفكا جسمه قليلا ، وضرب فاديم بيتروفيتش على وجهه مثلما يضرب القط بمخلبه . واخطأ التسديد فوقعت الضربة على الصدغ . ووقع روتشين مغشيا عليه .

كان اعداء الجمهورية السوفييتية يتصورون انها محكوم عليها بالسقوط فى اقصر وقت تحت ضرباتهم . الا ان هذه

الجمهورية نظمت كل رهافة العقل والعلم ، وجميع قوى الشعب الروحية والمادية لتتحول هى نفسها الى الهجوم . وكانت خطة البلاشفة العسكرية هى اخضاع كل شىء لمهمات الدفاع ، دون التراخى ساعة واحدة فى القيام بالتغيرات الاجتماعية العميقة ، مطبقة بشجاعة المبادئ التى كان تحقيقها خارج نطاق عمل اليوم . ومن ثم : انشاء جيش احمر قوامه ثلاثة ملايين رجل ، وتنظيم حماية فى الشمال ، والقيام بهجوم فى سيبيريا وجنوب الاورال ، وتشديد العمليات الهجومية بشكل رئيسى ضد قوزاق كراسنوف على الدون ، وضد دينيكين فى شمال القفقاس .

واقامت جمهورية روسيا السوفييتية الواقعة تحت ضغط الجيوش البيضاء من كل الجهات جبهة طولها اكثر من خمسة عشر الف كيلومتر ، اضيفت اليها بعد ذلك جبهة معقدة ومشربكة هى الجبهة الاوكرانية .

واشتد اوار الحرب الاهلية بشكل خاص فى اوكرانيا الغنية التى احدث الاحتلال القريب العهد والحكم الهيتمانى وعودة اصحاب الاراضى الانتقامية تصدعا عميقا بين الفئات المختلفة من سكانها . فانجلب العمال وعمال المناجم فى الدونباس والفلاحون ذوو الاراضى الصغيرة والعمال الزراعيون الى السلطة السوفييتية ، بينما انحاز الفلاحون الاغنياء والبرجوازية الى المديرية المستقلة ورئيسها الاتمان بيتلورا خائفين من اللجان الثورية ، ولجان فقراء الفلاحين ، واللجان التنفيذية ، والمفوضين ، ومصادرة فائض الحبوب . وكان بيتلورا موضع تأييد ايضا من المثقفين الذين كانوا يرددون على موضوع الثورة السوفييتية بكل ضخامته : «اخرجوا ، ايها الموسكوفيون الملاعين !» وغطت الرومانطيقية القديمة للسراويل الفضفاضة بعرض البحر الاسود ، والعباءات القوزاقية ، والسيوف المعقوفة ونواصى الشعور الطويلة على الحقائق التاريخية الحزينة حول التضحيات الدموية للشعب الاوكرانى الذى ناضل خلال ثلاثة قرون فى سبيل استقلاله .

طرد بيتلورا الهيتمان ، ونصبوا المديرية فى كييف ، واعلن جمهورية مستقلة ، وبدأ يخوض نضالا ميئوسا منه ضد الثورة البروليتارية . وكانت له بعض الفرق المؤلفة من جنود الهيتمان

الذين انحازوا الى جانبه ، ومن الفاليسيين الثابتين المنضبطين الذين كانوا يؤمنون بتحقيق الحلم القديم في اتحادهم مع اوكرانيا الحرة ، ومن مختلف اصناف المغامرين الذين كانوا يطعمون انفسهم من النهب الحربي . ولكن لم يكن لبيتلورا القـــدر الكافي من الذكاء والدهاء يجعله يقترح لاوكرانيا الفلاحية المجزأة الى فئات ، والهائجة شيئا ملموسا غير المراسيم الفخفاخة . كما لم تكن له احتياطات .

في كانون الاول القت حكومة اوكرانيا السوفييتية السرية في بلدة سودجا من مقاطعة بولتافا . وقـــد ارسل رئيس المجلس العسكري لتساريتسين فوروشيلوف قائد الجيش العاشر الى سودجا لينضم الى الحكومة . وشكل مجلس عسكري ثوري في البلدة .

وفي ذلك الوقت بدا الجيش الاحمر الاوكراني النظامي الهجوم في الغرب باتجاه كييف ، وفي الجنوب نحو خاركوف ويكاترينوسلاف . وكان هذا الجيش قد تشكل عند كورسك قبل هذه الاحداث بوقت طويل ، وغالبية رجاله من الفلاحين الاوكرانيين الهاربين الى هناك من المحكمة والاعدام ، وكان يتالف من فرقتين . ولما كانت الفرقتان ليستا بالقوة الكافية تماما فقد عُوّل على تاييد فصائل الانصار . وكان جيش الاتمان ماخنو اكثرها قوة .

كان ماخنو يلهو ، كان يجوب المدينة كلها على دراجـــة عارضا نفسه في بزة مدرسية حصـــل عليها بعـــد الغارة على بردیانسك ، او يغني الاغاني على الاكورديـــون مترنحـــا في الشارع مع مرافقه كاريتنيك ، او ياتي الى الســـوق فضوليـــا ممتقعـــا باحثـــا عن المشاحنـــات ، الا ان الجميع كانـــوا يتحاشونه عارفين البساطة التي يخرج فيها مسدسه من جيب بنطاله . وكالعادة حين رآه رجاله الجسورون الذين لا يخافـــون الله ولا الشيطان على مقربة من الدوّارة نزلوا من احصنتهـــم الخشبية ، وانسلوا متوارين . فتسنى للاتمان ان يركب وحده الدوارة بصحبة كاريتنيك ويدور بها حتى يصاب بالدوار .

وشاع في غولاي – بوله كلها ان الاتمان اخذ في المـــدة الاخيرة يكثر من الشرب ، حتى ليخشى ان يبيع الجيش ويشرب بثمنه . ولكن القليلين من الناس فقط حدسوا انه يضمر مكيدة .

وكان ماكرا كتوما مراوغا مثل وحش تعرض مرارا لمخاطـــر الصيادين .

كان ماخنو يكسب الوقت . في تلك الايام كان عليـــه ان يتخذ قرارا كبير الاهمية . لقد فرغت يكاترينوسلاف من الالمان والهيتمان ورجاله الذين كان يحاربهم . وولى اصحـــاب الاراضي هاربين . وكانت المدن الصغيرة قد نهبت . وكان اعداء جـــدد يزحفون عليه من ثلاث جهات : المتطوعون من القرم وكوبان ، والبلاشفة من الشمال ، ورجال بيتلورا الذين احتلوا يكاترينوسلاف لتوهم ياتونه من الدنيبر . فمن هو الاقوى من هؤلاء ؟ والى اية جهة يحول عربات الرشاشات ؟ كان يجب اتخاذ القرار دون تاخير . كان الجيش يقل افرادا ، وتظهر مظاهر الزعزعـــة عليه . وكان الجنود من الفلاحين زراع الحبوب يقولون : «من حسن الحظ ان البلاشفة قادمون الى اوكرانيا والآن يمكن ان نتفرق الى بيوتنا ، ومن لم يسام بعد فليضع النجمة الحمراء على طاقيتـــه» اما نواة الجيش «المائة السوداء المسماة على اسم كروبوتكين» رجال السيف الشجعان الذين انصرفوا عن كل عمل من اجل الحياة الحرة ممتطين ظهور الخيل ، فقد كانت تصيح :

« . . . لئن اراد الاتمان بيعنا للبلاشفة لقطعنا راسه امـــام الجبهة ، وكفى . . . هـــا هو بيتلورا قد استـــولى على يكاترينوسلاف ، اما نحن فليس لنا الا الانتظار . . . نفد طعامنا ، واصبحنا حفاة عراة ، وبعد قليل سنعوي في السهب مع الذئاب . . . يا اخوان ، الى يكاترينوسلاف !»

ظل البحار تشوغاي الموفد من القائد العام للجيش الاحمر الاوكراني ثلاثة ايام في غولاي – بوله ينتظر بثبات اعصاب ان يصحو ماخنو الى نفسه ويتحدث معه . وفي هذه الايام قدم من خاركوف الفيلسوف الشهير عضو امانة الاتحاد الفوضوي المسمى «الناقوس» ليتحدث الى الاتمان ايضا . وكان اعضاء المجلس العسكري السياسي لماخنو ، والفوضويون المحليون ، والمستشارون المقربـــون يتصيـــدون الاتمـــان اينمـــا استطاعـــوا ، ويحذرونـــه عن غيرة حتى لا يصغى الى احد ، وان يتمســك بالحرية العليـــا للشخصية .

كان ماخنو يدرك انه ما لم يتخذ قرارا حازما ملائما للجيش فان قضيته ومجده سينتهيـــان . والآن كان امامـــه خياران : اما الميل نحو البلاشفة ، والعمل بمـــا يأمر به القائد العام ، ثم الانتظار ، فى آخر المطاف ، الساعة التى سيرمونه فيها عقابا على تصرفه الفردى ، واما قتل الموفد تشوغماى ، واثارة انتفاضة فلاحية فى اوكرانيا ضد كل سلطة . ولكن هل الوقت مناسب لذلك ؟ ربما يكون على خطأ . . . .

وكانت هذه الافكار سرية جدا حتى كان من الخطر ان يفضى بها حتى الى الكثيين الوفيين : لوفكا وكاريتنيك . وكان يحس بالضيق من هذه الافكار . كان الجيش ينتظر ، والموفد تشوغماى والفوضوى الشهير الشيخ الجليل القادم من خاركوف ينتظران . وكان ماخنو يشرب الخمرة ، دون ان يفقد توازنه ، ويتحامق ويعبث لغاية مقصودة ، فقد كان بصره حادا وسمعه مرهفا ، فكان يعرف كـــل شىء ، ويرى كل شىء . وكان الغيظ يغلى فى داخله .

كان ماخنو قد امر باعتقال الرجل الغريب الذى كان يرتدى معطف الضابط ، والذى ادعى بانه قادم من يكاترينوسلاف ، وطلب ارساله الى لوفكا . وبعد ذلك بوقت قصير حضر ماخنو نفسه الى المجلس الثقافى التعليمى ودخل مع دراجته الى الحجرة التى كان يجرى فيها الاستجواب . بعد الضربة الخاطئة التى وجهها لوفكـــا زادوف الى روتشين جلس لوفكا وراء الطاولة ، ووضع قبضة فوق قبضة ، واسند حنكه عليهما . نظر ماخنو الى الرجل المطروح على الارض ، واسند الدراجة :

— ماذا فعلت معه ؟

— ربتّ عليه فقط — اجاب لوفكا بذلك .

— احمق . . هل قتلته ؟

— لست جراحا ، فكيف لى ان اعرف ؟

— هل استجوبتـــه (هز لوفكـــا كتفيـــه) هل هـــو من يكاترينوسلاف ؟ ماذا يقول ؟ من استخبارات دينيكين ؟

وكان ماخنو يحدق بلوفكا تحديقة شديدة غير محتملة حتى ان عينى لوفكا احتجبتا تحت حاجبيه .

— لا بد ان لديه معلومات ، اين هى ؟ انت تلعب مع الموت . .

— بدأت من توى ، يا نستور ايفانوفيتش . . لم اكن اعرف ان الوغد بهذه الدرجة من الضعف .

اخذ روتشين يئن فى تلك اللحظة ، وطوى ركبتيه . قال لوفكا فرحا :

— لا شىء ، اعصاب .

امسك ماخنو الدراجة ، فوقع بصره على صورة كاتيا ملقاة على الطاولة . اختطفها وتمعن فيها :

— اخذتها منه ؟ من هى ؟ زوجته ؟

كانت لنستور ايفانوفيتش ذاكرة جيدة ، مثل جميع الناس ذوى الارادة القوية والتركيز والتشكك والتجربة الكبيرة فى الحياة . فقد تذكر على الفور رؤيته لكاتيا لاول مرة (حيث جعلها تطق اظافره) وتدخل الكسى كراسيلنيكوف وكل المعلومات التى استقاها عن هذه المرأة الجميلة . وضع الصورة فى جيبه ، وقاد الدراجة ، وتوقف . فقد رأى وجه روتشين تعود اليه الحيوية ، وفمه ينفتح قليلا .

— اجلبه الىّ . ساستجوبه بنفسى . . .

فكرة واحدة ترسخت فى ذهن نستور ايفانوفيتش فى ايام اللهو هذه ، وهى ضرورة الخروج بالجيش الى يكاترينوسلاف ، واجتياحها بالقوة ، ورفع راية الفوضوية على دوما المدينة . ان مثل هذه الغنيمة ستقوى عزيمة الجيش وتلاحمه فان يكاترينوسلاف مدينة غنية تكفى منتوجاتها من الانسجة والاشياء الاخرى ولاية كاملة ، بحيث يمكن ان تلقى على القرى والارياف من عربات القطار والعجلات قطع الاقمشة والاجواخ ، وينثر السكر بالارفاش ، ويغدق على الفتيات بالاشرطة والجدائل والجوارب والاحذية : «هذه لكم ، ايها الفلاحون ، هدايا من الاتمان ماخنو ! هذا هو النظام الحر اللاسلطوى ، بلا اصحاب اطيـــان ولا برجوازيين ، بـــلا سوفييتـــات ولا لجـــان استثنائية . . .»

اما سائر الاشياء ، فلم يجد لها حلا بعد . والآن ، وبعد ان القى نظرة على صورة كاتيا وجد الحل فجأة . وقد قفز الى ذهنه مثل عفريت الزنبرك فى علبة من لعب الاطفال . ولكنه لم يبد اى شىء يدل على ان كل شىء فيه كان يرقص طربا . . . ركب الدراجة ، وســـار فى الشارع الى بيت طويل ذى نوافذ كبيرة فى مقدمته اشجار حور عارية .

كان هذا البيت مدرسة كانت تستخدم مقرا للقيادة . وكان مرافقوه وهو نفسه يعيشون في غرفة واحدة .

بعد مضي ساعة جلبوا روتشين اليه . كان لوفكا يسير امامه ، وخلفه رجل من رجال ماختو يضع على راسه قبعة فرالية صنعت من ياقة معطف قسيس ، عليها شريط اسود مائل كان يدفع روتشين من ظهره بماسورة مسدسه . كان ماختو جالسا على اريكة صغيرة غطيت بقماش خشن تشقق حتى برزت اللوالب من تحته . صاح بصوت عال :

– ما هذا ؟كانكما تقومان بدور الجندرمة في العهد القيصري ؟ اترك السلاح ! اخرج .

ودفع بوجهه الاصفر الهزيل من اسفل الى فوق يشير الى الرجل بالخروج (فامتثل هذا في الحال ، وضرب الارض بحذاءه ، وخرج) نهض ماختو من الاريكة ، وضم قبضته اليابسة وضرب لوفكا على وجهه ، وشفتيه وانفه .

زعق :

– جزار ! سكير ! مصاب بالسفلس ! تلوث الفكرة ! وللوثني !

لم ينتظر لوفكا زادوف اعتمال الغضب في صدر الاتمان ، اذ كان يعرفه جيدا ، بل حشر راسه بين كتفيه السمينتين وحمى نفسه بيديه من الضربات ، ولاذ خلف الباب ، واغلقه خلفه .

خلع ماختو قبعته . كان جبينه عرقا . وجلس ثانية على الاريكة . ولو كانت لديه مسبحة لبدا مترهبنا متزمتا كليا .

– تفضل بالجلوس – واشار بيده الطويلة الى مقعد ليجلس عليه روتشين – لو نضطر الى رميك فان ذلك لا يغير من الامر شيئا . انه عار ، عار ان تهان الكرامة الانسانية . خذ سيكارة ودخن . هل انت من الاستخبارات ؟

– لا . .

قال روتشين بصوت لا رنة فيه وتبسم ابتسامة ساخرة ، وتناول سيكارة .

– من ضباط جيش المتطوعين ؟

– هربت ، وانتهيت منه . على اية حال لن تصدق بما سأقول لك فلا داعي للكلام .

– الناس لا يكذبون عليّ – قال ماختو بنفس الصوت العالي ذي النبرة المتميزة التي كان من الصعب تسجيله بعلامات النوتة . وخيل لروتشين انه يشبه صوت طائر جارح وكرر ماختو : «الناس لا يكذبون عليّ» وكانت عيناه الجافتان الجامدتان تعكسان قوة ارادة بالغة حتى كان ليصعب النظر اليهما ؛ وما كان في مقدور انسان ان يتحمل نظرتهما دون ان ترقرق عيناه بالدموع . ومع ذلك فقد تحملها روتشين . احس براسه يتصدع بعد حادث الامس . وغالب هذا الالم ، وجمع كل قواه للمناوشة الاخيرة .

– اذا كنت بحاجة الى معلومات عن جيش المتطوعين فلك ان تسال . ولكن معلوماتي قديمة . خرجت في اجازة منذ شهرين . وفي هذا الربيع قمت بعمل غير صحيح ، ثمنه حياتي . . . انت تنوي رمي بالرصاص . سواء بهذه الطريقة او باخرى ، الآن او فيما بعد فانني لن افلت من رصاصة ستكون من نصيبي بسبب غلطي . .

لاحت في عيني ماختو واختفت ومضة من السخرية . . . «انه لا يصدق بي . . .» ومص فاديم بتروفيتش نفسا عميقا من سيكارته ، ووضعها على حافة المنضدة ، ودس يديه في حزامه : «ستصدق بما اقوله لك . . .»

– قبل كل شيء : كيف انضممت الى معسكر البيض ؟ تدحرجت مثل تفاحة على منحدر . . . حسنا ، كنا مثقفين روسا ، يعني : ملح الارض ، وقد قرأنا ميخائيلوفسكي وكانت وكروبوتكين وحتى بيبل الى جانب الكتب الاخرى المهدئة . وانا اتذكر كم ليلة مؤرقة قضيتها في مثل هذه الاحاديث مع الكسي بوروفوي * (وحدث ما توقعه عند ذكر هذا الاسم ، فقد غامت عينا ماختو في الحال كالحمقاوتين ، ولكن للحظة واحدة لا غير) كنا مفعمين بالتوقعات الحماسية ، ثم جاءت ثورة شباط ! وانتهى كل ذلك بشيء حامض

---

* الكسي بوروفوي : منظر فوضوي في ذلك الوقت ، معروف بين الفوضويين المحيطين بماختو .

المذاق : فبدلا من العيد الضخم راينا البولفارات تتناثر فيها قشور بذور عباد الشمس ، والبحارة والجنود والهرج ، ولم نر بلادا عظيمة بل لبخة ، وعصيدة دخن بلا ملح . . . .

تململ ماختو على الاريكة ، وفجأة ودون ان يفطن الى ذلك ، جلس وكأنه في اجتماع عمال سرى في عيد اول ايار ، محتضنا ركبتيه الهزيلتين . بل ولاح في عينيه ما ينم على الانتباه .

— وظهر ان المثقفين خارج الموضوع . اما في اوكتوبر فقد امسكونا من مغاليقنا كالقطط الصغيرة ، والقونا في المزبلة . . . وهذا كل شيء على وجه التفصيل وجيش المتطوعين مزبلة عمـــوم روسيا . انه خال من كل شيء انشائي وحتى لا يمكن ان يكون فيه شيء مرمم . ولكنه قادر على ان يدمر ، بل وبشكل خطر . . . ومن المؤسف انني وعيت كل ذلك في وقت متأخر . . . ولكنني سعيد في انني وعيت . . ذلك هو الامـــــر ، يا نستور ايفانوفيتش . . . (وقد خرجت تسميته باسمه واسم ابيه بشكل طبيعي) . . وما كان لي ان اظل على قيد الحياة ، ولم ارد ذلك . . ولكن هناك مخلوقا اغلى عندي من كل الفلسفات ، واغلى من ضميري . . . وهـــــو الذى اوقفني . . .

— اهو هذه ؟

سأل ماختو فجأة مشيرا الى الصورة .

— نعم هي .

— خذها ، فانا لست بحاجة اليها . . .

اخفى روتشين صورة كاتيا في جيب قميصه . وتناول عقـــب السيكارة ، ودخن . ولم تكن يداه ترتجفان . ولم يفقد سيــــاق الحديث :

— مزقت الهوية العسكرية ، وجئت الى هنا مقتفيا اثرها . وما دمت قد عدت الى الحياة من جديد ، فمرحبا بالعودة الى الفلسفة والايديولوجية . فنحن لسنا من ارباب الحرف . . . والشيء الوحيد الذى اتقبله . . . بشكل مجرد كليا ، بالطبع ، بشكل مجرد . . . هو الحرية المطلقة ، الحرية الفائقـــــة . . . ولتكن جنونيـــة ، مستحيلة ، ومع ذلك . . . يجب ان يموت الانسان في سبيل شيء وراء حدود الخيال .

قال ماختو خافت الصوت :

— على اية حال اعطني الاستخبارات التي لديك ، اين خبأتها ؟

توقف روتشين ، وادار رأسه ، وهز ذراعه بوهن ويأس .

ظل ماختو وقتا طويلا على الاريكة لا يريم حراكا . وفجأة وثب ، واخذ ينبش في كومة من الاشياء في ركن الحجرة — اسلحة واسرجة وعدة وحقائب ورقية . . . ووجد بعض المعلبات ، وزجاجتين من الكحول ، ووضع كل ذلك على المنضدة ، ثم اخذ يدير المفتاح ليفتح علبة سردين . قال :

— سآخذك الى القيادة . زوجتك في السرية السادسة عنــــد كراسيلنيكوف في ضيعة بروخلادني . وسيأتي موفد من البلاشفة بعد قليل الى هنا . ادخل في ظنه انني متواطئ مع جيش المتطوعين . ان مهمتك ان تضلله . مفهوم ؟ هل تلعب الورق ؟

وبهت فاديم بتروفيتش في هذه المرة عن حق وظل يرمش بعينيه فقط دون ان يحاول حتى ان يفهم كيف انقلبت الامور هذا المنقلب ، ومـــا معنى هذا كلـــــه ، كسر ماختو مفتاح علبـــة السردين ، واخرج من جيبه مطواة من عـــــرق اللؤلـــــؤ لها عدة شفرات ، واخذ يستعملها في فتح علب من الاناناس ، ومعجـــون اللحم الفرنسي ، وسراطين البحر ، ففاحت روائحها القويـــــة في الحجرة .

— لدى دائما الوقـــــت الكافي لرميك ، ولكنني اريد ان استخدمك — قــــال ماختــــو وكأنـــــه يرد على افكار روتشين الشاردة — هـــــل انـــــت من ضباط الاركان ام مـــن ضباط الجبهة ؟

— في الحرب العالمية كنت في اركان الجنرال ايفرت . . .

— والآن ، ستكون في اركان الاتمان ماختو . . . في الاشغال الشاقة في عهد القيصرية رفعوني من رأسي ، ومن قدمي ، والقوني على الارض الآجرية . . . بهذا الشكل يتمرّس زعماء الشعب . . مفهوم ؟

رن التلفون في صندوق اصفر كان على الارض بين النفايات . فرفض ماختو ، وصرخ في الساعة بصوت الطائر الجارح :

— انا في الانتظار ، في الانتظار !

كان الموقد تشوغاى رجلا بطىء الحركة قويا جدا فى سترة من قماش خشن مستهلكة ولكنها نظيفة ، وطاقية لا ظليلة لها منسرحة على علباته . وكان يجلس ممسكا الورق بشكل لا يدع الآخرين يختلسون النظر اليه . وكان يراقب بعينيه اللامعتين الجاحظتين كل حركات نستور ايفانوفيتش . وكان وجهه الساكن العريض عند الوجنتين ذو الشاربين الاسودين خاليا من التعبير ، ولكن الكرسى المقوس كان يرسل تحت ثقله صريفا بين الحين والآخر . فكان هذا الشخص الذى لبس سروال بحارة حشره فى تهايتى حذاء عريض قصير لو جلس بين سبع تماثيل برنزية ذات اعناق منتفخة لسجدت له .

كانوا يلعبون لعبة «الماعز» وهى لعبة ابتكرت فى الجبهات لكى تلهى الرجال بالضحك عن جراحهم ومخاوفهم . وكان نستور ايفانوفيتش قد اقترح على ضيفيه حالما دخلا ، ودون ان ينهض من المنضدة ويصافحهما ان يلعبوا لعبة «التسعة» بالنقود (وكانما دعاهما لاجل ذلك) . ووزع الورق بسرعة حتى لتعذر على العيون ان تلاحق حركة يديه ، ووضع على المنضدة ورقة من فئة الف روبل ، وغطاها بعلبة سراطين البحر . الا ان تشوغاى تناول ورقتيه ، ووضعهما تحت نفس العلبة . فسأل ماختو :

– انت خائف ؟

اجاب تشوغاى :

– لا ، لا يمكن ان تلعب معى بالنقود . تعال نلعب لعبة «الماعز» .

جلس ماختو باسطا ساقيه ، واضعا الورقة تحت الطاولة ، مديرا ظهره الى الباب تاركا وراءه مكانا فارغا (وهذا ما لاحظه تشوغاى فى الحال) ، وكان روتشين يجلس الى يساره ، بينما جلس الى يمينه ليون تشورتى – عضو امانة اتحاد «التانوس» – وهو شخص اشعث الشعر لا يُحدس عمره ، ضئيل الجسم ، جاف جدا ، ناتىء عظم القص حتى لكان صدره بلا رئتين بشكل يخيل اليك انه يعيش بروحه فقط . وكانت قشرة الرأس والشعرات الشيب تتناثر على سترته المدعوكة ، ومن السراح فكره ترك اوراقه كلها مكشوفة للآخرين .

وكان فى مجيئه الى هنا قد استعد الى صراع قاس مع تشوغاى الذى كان ينوى اقتصاب ماختو وجيشه – الظاهرة الحافلة بالامكانيات التى لا تنضب . وكانت افكار ليون تشورتى معبأة كالديناميت فى علبة من القصدير . وكان مرتبكا بعض الشىء لانه بدلا من ان يدخل فى معركة عامة مع البلشفى صار عليه ان يلعب لعبة «الماعز» ، فكان يلقى الاوراق المغلوطة ، او يوقعها تحت الطاولة . حتى خسر اللعبة اربع مرات متتاليات ، وجعل ماختو يصيح عليه بنداء الخاسر «الماعز ، الماعز . . المنتن» ضاحكا باسفل وجهه فقط .

وكان ماختو ، بعد كل لعبة ، يمد يده بحركة كحركة القرد الى زجاجة الكحول ويصب فى الاقداح والكؤوس متاكدا من ان الجميع يشربون بالتساوى . وكان الحديث حول المنضدة فارغا للغاية ، وكانهم فى الواقع اصدقاء اجتمعوا فى مساء سيىء الطقس يضرب المطر فيه النوافذ السوداء ، وتهز الريح اشجار الحور العارية امام البيت متغلغلة فيها صافرة معولة وكانها روح شريرة .

كان ماختو يتحين الوقت . وكان تشوغاى ايضا يتحينه بهدوء مستعدا لكل المصادفات ، لا سيما حين ادرك من بعض تلميحات المضيف ان الشخص الرابع الجالس حول المنضدة الصموت البادى الوقار الاشيب وتحت عينيه كدمات زرق هو ضابط فى جيش دينيكين . وكانت كل الدلائل تشير الى ان ليون تشورتى لا بد ان يكون اول من فرغ صبره ، فقد اخرج منديل جيب قذر ، وكوره فى يده بعصبية ، وراح يدفعه الى انفه وعينيه بعد كل كأس من الكحول . وهذا ما حدث فعلا .

– بدأنا الجدل مع جماعتكم البلاشفة منذ ان كنا فى باريس – بدأ القول متمتما ، محركا اوراقه باتجاه تشوغاى – ولم ينته الجدل ، ولم يثبت احد حتى الآن ان لينين على حق . انشاء دولة عمال وفلاحين بدلا من الدولة الاقطاعية–البرجوازية ! . . . ولكن الدولة دولة ! استبدال سلطة بسلطة . خلع قفطان الاعيان وارتداء قميص الفلاحين ! وسيكون عندذاك مجتمع بلا طبقات !

وضحك ضحكة خفيفة ضاغطا منديله على شفتيه الجافتين . ولم يظهر على وجه تشوغاى ما ينم عن الاعتراض ، سوى انه

تفرس في علبة سراطين البحر ، وقربها منه ، وتناول ما استطاع ان يتناوله بالشوكة :

– ترى ، ماذا تقترح ؟ الفوضوية ، ام النظام ؟

– التهديم – همس ليون تشورلى له وقد سلبت الخمرة صوته . وتصلبت خصلات لحيته الرمادية كسبلة كلب الحراسة – تهديم المجتمع المجرم باسره ! تهديما لا رحمة فيه ، حتى يسوى ارضا فلا يبقى منه حجر على حجر . . . بحيث لا تخرج من البذرة اللعينة دولة او سلطة او رأسمال او مدن او مصانع مرة اخرى . . .

– ومن سيعيش عندكم في هذا المكان المقفر ؟

– الشعب !

– الشعب – صرخ ماختو مادا عنقه نحو تشوغاى – الشعب الحر !

قال تشوغاى :

– اذا بدأنا بالصراع فلا بد ان ننتهي باطلاق النار – وتناول الزجاجة وصب للجميع (دفع ليون تشورلى كاسه فانسكبت) – في امكانك ان تهدم ، فذلك لا يحتاج الى دهاء ، ولكن كيف تنوون ان تعيشوا بعد ذلك ؟

قال ليون تشورلى متوجسا ان يتصدى نستور ايفانوفيتش للجواب :

– ان مهمتنا هي التهديم السريع التام الذى لا يرحم ، وهي تستنفد كل طاقة وحماس جيلنا ، انت اسير ، ايها البحار ، اسير تفكير مقصوص الجناح جبان . كيف للشعب ان يعيش حين تهدم الدولة ؟ هاها ، كيف له ان يعيش ؟

فقال له ماختو في الحال :

– اعذرني ، يا رفيق تشورلى . المشاريع الصغيرة لا انوى ان اعدمها ، كما لا اعدم الفرق الجماعية ، ولا اعدم استثمارات الفلاحين . . . .

– اذن ، فانت جبان كهذا البلشفي .

– اوه عبثا الهامك اياه بالجبن – قال تشوغاى وغمز لنستور ايفانوفيتش مشجعا (كان وجه هذا احمر كالجمرة) – ان

نستور ايفانوفيتش لم يبخل بدمه ، وهذا شيء معروف . . . . لن نتخل عنه لكم بالسهولة التي تتصورها . . . . سنحارب عليه .

– تحاربون . ابدأوا ، حاولوا .

قال ليون تشورلى بهدوء غير متوقع . وارتخت خصلات لحيته على خديه . واخذ يلتهم معجون اللحم بنهم وسرحان الفكر . القى تشوغاى على روتشين نظرة من طرف عينه . كان روتشين يدخن بخلوبال رافعا عينيه الى السقف . كشف نستور ايفانوفيتش عن اسنانه الكبيرة الصفراء بضحكة صامتة . وفكر تشوغاى مع نفسه : «ان في الامر تواطؤا ، على ما يبدو» . وصر المقعد تحته . كان على تشوغاى ان ينفذ امر القائد العام باقناع ماختو في القيام بعمليات مشتركة ضد يكاتريتوسلاف بوجه خاص ، ولكنه الآن ، بالاضافة الى ذلك ، يجد كل مبررات للتخوف من الاستنتاجات التنظيمية الخطيرة في حالة الدخول في جدل غير موفق مع هذه الفوضوى الذى التهم ، في الغالب ، مئات من الكتب السميكة . كما لم يعجبه صمت الضابط الدينيكيني الذى يبدو – من بوزه – انه من المثقفين ايضا . ولكن تشوغاى لم يصدق بانه من ضباط الاركان لدى ماختو .

ثبت طاقيته على يافوخه بشكل اقوى .

– اريد ان اسألك سؤالا .

قال ليون تشورلى من فم مملوء :

– تفضل .

– قال الرفيق لينين : بعد نصف عام سيكون في الجيش الاحمر ثلاثة ملايين رجل . فهل تستطيع ، يا ليون تشورلى ، ان تعبئ في مثل هذه المدة ثلاثة ملايين ؟

– انا واثق .

– يجب ان يفهم من هذا ان لديكم الجهاز لهذا الغرض ؟

– هذا هو جهازى .

قال ليون تشورلى مشيرا بالشوكة الى ماختو .

– جيد جدا . لنتوقف عند هذه الشخصية . يعني ، تستطيعون ان تجهزوا نستور ايفانوفيتش بما يكفي ثلاثة ملايين مقاتل من الاسلحة والذخائر ، الى جانب المعدات والاطعمة والعلف

بالطبع . ان مثل هذا الجيش يحتاج الى نصف مليون راس من الخيول وحدها . يجب ان يفهم انكم تملكون كل ذلك ؟

دفع ليون تشورلي عنه العلبة التي افرغها . وانكمش جبينه في غضون صغيرة :

– اسمع ، يا بحار ، لا تخيفني بالارقام . ان وراء ارقامكم فراغا . محاولات بائسة في لم شعث روسيا القديمة الممزقة بتخييطها بخيوط متهرئة . انها قومية متسترة ! ثلاثة ملايين جندي في الجيش الاحمر ! اوه ، لكم خفت ! عبئوا ثلاثين مليونا . ومع ذلك فان الثورة الحقيقية المقدسة ستمر بملايينكم من الفلاحين–المالكين المزينين بالنجوم الحمر . . . ان جيشنا – وهنا شد قبضته – هو الانسانية ، وذخيرتنا هي حنق الشعوب المقدس ، تلك الشعوب التي لم تعد تطيق اي تنظيم للدولة ، ولا راسمالية ، ولا دكتاتورية البروليتاريا . . . الشمس ، والارض ، والانسان ! ولنقذف الى نار عظيمة جميع المؤلفات من ارسطاطاليس الى ماركس ! جيش ! خمسمائة الف حصان ! ان خيالكم لا يرتفع اعلى من شارب رقيب اول . خذها هدية . اننا سنسلح مليار ونصف مليار انسان . وما دامت لنا اسنان واظافر واحجار تحت اقدامنا فاننا سندحر جيشكم . وستحول المدنية وكل ما تتشبثون به مرتعصين الى كومة من خرائب ، ايها البحار . . .

«اها ، شيخ خفيف اللسان» فكر تشوغاي مع نفسه وهو يرى ماختو الذي ركز كل انتباهه في البداية ينزل كتفيه ، ويتطفىء التورد في خديه اللذين تفورا . وكف عن الفهم ، فان المعلم حاد عن الادراك السليم .

عندئذ قال تشوغاي :

– عندي سؤال ثان لك ، يا ليون تشورلي . . .

– هات . . . .

– الذي فهمته من كلامك انكم لم تستعدوا للتعبئة العامة . ولكن كل امر يحتاج الى ما يبدأ به : القنبلة تحتاج الى فتيل ، والنار الى عود ثقاب . فعلى اي شيء تعولون انتم ؟ اين ملاكاتكم ؟ الاثمان ماختو ؟ (تقلبت حدقتا ليون تشورلي ، فقد كان يبحث عن

ابرولة) جيشه ذو روح قتالية عالية ، صحيح ، ولكن نسبة الفوضويين ليست كبيرة . انه ليس جيشكم .

واختلس نظرة جانبية الى ماختو ليتأكد من انه لا يمد يده في جيبه ليخرج مسدسه . لا ، لقد رآه جالسا في هدوء . اخذ ليون تشورلي يبتسم ابتسامة ازدراء :

– يبدو ان حديثنا وصل الى نقطة تقتضيني ان اعلمك الالف باء ، ايها البحار .

– سيكون لطفا منك .

– ان العالم الخارج على القانون هو ما نعتمد عليه ، وهو ملاكاتنا . ان الخروج على القانون هو التعبير الاكثر احتراما عن حياة الشعب . . . ذلك يجب ان يُعرف ! والخارج على القانون العدو اللدود لكل تنظيم للدولة ، بما في ذلك اشتراكيتكم ، يا عزيزي . وفي الخروج على القانون دليل على قدرة الشعب على الحياة . . . الخارج على القانون لا يتصالح ولا يهاب ، يهدم من اجل التهديم ، وتلك هي العفوية الشعبية الاجتماعية الحقيقية . افرك عينيك .

وخلال هذا الدفق الحماسي من الافكار سار ماختو على اطراف اصابعه الى الباب ، وفتحه قليلا ، والقى نظرة على الممر ، ثم عاد الى المنضدة . صار روتشين الآن ينظر الى العجوز العجيب بحب استطلاع متسائلا مع نفسه : العله يتحامق عن قصد ؟

صاح ليون تشورلي :

– اراك ترف برموشك مذهولا ، ايها البحار . ان فضائلك قد ارتبكت ! فاعلم اذن : اننا كسرنا اقلامنا ، وافرغنا الحبر من محابرنا . فليرق الدم ! لقد آن الاوان ! والكلمة تتحول الى عمل . ومن لا يفهم في هذه الآونة الضرورة العميقة في الخروج على القانون كحركة عفوية ، ولا يتجاوب معها يُنبذ الى معسكر اعداء الثورة . . .

اخذ ماختو يقضم اظافره مقلصا عينيه . وفكر روتشين مع نفسه : «لا ، ان العجوز يعرف ما يقول» . مال تشوغاي نحو المنضدة ، ووضع عليها مرفقه ، ورفع اصبعه ، ليكون لليون تشورلي ما يركز عليه .

– السؤال الثالث : حسنا لنقل انكم عبأتم هذه الملاكات . وعملت هذه عملها . قلبت الاشياء راسا على عقب . . . ولكن الا ترى

ان هذا الشغب لا بد ان يصل الى نهاية ؟ لا بد . والخارجون على القانون – في رأينا هم لصوص – . الناس فاسدون ، لا يستطيعون العمل . انهم لا يعملون . ولِمَ يعملون ، وهم يأخذون كل ما يريدون . وماذا سيكون عندئذ ؟ مرة اخرى لا بد ان يكون هناك من يعمل لهم . لا ترى ذلك ؟ ولكن لم يبق شيء ينهبونه او يحطمونه . يعني لن يكون امامكم الا ان تسوقوا اللصوص الى تجاويف الارض وتقضون عليهم ؟ اليس كذلك ؟ اجبنى عن هذا السؤال . . .

ساد الصمت في الغرفة ، وكان المتحادثين ركزوا كل انتباههم على الاصبع التى رفعها تشوغاى ثم عكفها . نهض ليـــون تشورتى ضئيلا (كان يبدو في جلسته اطول قامة) عنودا كالفكرة الفلسفية . وقال ملتفتا نحو ماختو مادا ذراعه نحو تشوغاى :

–ارمه ! ارمه . . . انه مخبر عميل . . .

وثب ماختو في الحال الى المكان الفارغ من الغرفة نحو الباب ، وحك تشوغاى باظافره في حركة سريعة سطح المسدس المتدلى من حزامه تحت سترته . وتراجع روتشين عن المنضـــــدة ، وتعثر ، وجلس على الاريكة . ولكن سلاحا لم يشهر : فقد كان كل واحد يعرف انه لو اخرج سلاحه فلا بد له ان يرمى . برقت عينا ماختو من التوتر . وتكلم تشوغاى بلهجة ارشادية :

– عبثا ، يا جـــد . . . اللجوء الى طريقـــة رخيصة ليس بالجدل . . . وانت تستحق هذه على اتهامك لى بالعمالة (ولوح بقبضة كبيرة جعلت وجه ليون تشورتى يرتعش في الم) . ولكن لن ارد عليك رفقا بصدرك الضعيف . . . يا جد ، يجب ان تستخدم الالفاظ بعناية اكبر . . .

وفى هذه المرة ايضا لم يقف ماختو في صف المعلم . . غض ليون تشورتى بصره ، وكأنه يريد ان يختفى في خصلات لحيته ، وتناول معطفه بياقته البالية التى كانت من فرو القندس في يوم ما ، وقبعة مخملية بنفس التهرؤ ، ولبسها وخرج متحملا الخيبة برجولة .

قال ماختو وهو يعود الى المنضدة ، ويمسك بالزجاجة :

– الا تواصل الشرب ؟ يا رفيق روتشين ، اذهب الى الخفير ليخصص لك سريرا شاغرا .

ادى روتشين التحية ، وخرج . وسمع وهو خارج الباب صوت ماختو يقول لتشوغاى :

– هؤلاء ينادون : «الاتمان ماختو» واولئك «الاتمان ماختو» فماذا تقول انت للاتمان ماختو ؟

١٢

ما ان وصل الكسى كراسيلتيكوف الى قريته فلاديميريسكويه وسار في رماد بيته المذرور بالثلج ، وشم رائحة الدخان الآتى من بيت الجيران ، ورأى الوزات سمانا ، والبرد مـــا يزال في اوله ، ناشرات اجنحتها موزوزات ، واكشات مرتفعات قليلا عن الارض ، في المرجة المكسوة بطبقة رقيقة من الجمد ، حتى ادرك الى اى حد كان ضيقا بحياة قطاع الطرق .

فليس من عمل الفلاح ان ينطلق في السهب في عربة رشاشة بين الضياع المحترقة . بل عمله ان يفكـــــــر دائما حول الارض ويشتغل . اجتهد وستَر امنا الارض تهب نفسها لك . وكان كل شيء يدخل الفرحة الى قلب الكسى ايفانوفيتش : الافكار المتعلقة باقتصاد بيته ، وهى افكار نساها اثناء اقامته عند ماختو ، والنهار الناعم الرمادى ، ونثار الثلج البطيء المتقطع ، وسكون القرية ، ورائحة الدخان المالوف . وكان الكسى في سيره يلتقط من حين لآخر صفيحة صدئة من صفائح السطح ، ومسمارا ، وقطعة حديد محترقة فيكومها في كومة واحدة . لم يكن معتزا بما كسبه محمولا على ثلاث عربات ، بل كان معتزا بانه سيبنى ويقيم استثمارتـــه الفلاحية غير مدقق في كل روبل . ستكون امامه اعمال لا تحصى ولا تعد منذ اول وتد يدقه على الارض الغريبـــة حتى ذلك اليوم التى ستخرج ماترينا فيه خبز قمحه شذى الرائحة من الموقد قائلة : «موقد جديد يخبز بشكل رائع» . وهذا ايضا كان يدخل الفرحة الى قلب الكسى . لا بأس فان عرق الفلاح سيعوض . . . .

وجد ، وهو ينبش الرماد بطرف حذائـــــه ، فأسا احترق مقبضها ، وقلبها بين يديه طويلا ، وهز رأسه بابتسامة ساخرة ، فقد عرف انها نفس الفأس ! ومنها بدأت كل المصائب . وتذكر

كيف ان اخاه سيميون ، وقد سمع صيحة ماترينا الشاكية وثب مسعورا من البيت . وكان الكسى قد غرس الفاس فى قرمة فى الرواق عند الباب . ولو لم يقع بصر سيميون عليها لما حدث اى شىء ، فى الغالب . . .

«آه ، سيميون ، سيميون – والقى الكسى الفاس الصدئة على نفس الكومة – لو كنا معا لقمنا بالعمل اسرع واقوى . . . نعم ، يا اخى ، اخذت كفايتى من الضوضاء والضجيج . . .»

والقى نظرة على الارض مفكرا فى رسالة سيميون التى تلقاها وهو فى غولاى-بوليه . كتب اخوه هذه الكلمات : «قل لزوجتى ماترينا ان تصون نفسها – رجاء – من كل لهو ، فانها ليست بحاجة الى ذلك ، وليس الوقت وقته . . . وحين أُقتل ستكون حرة . . انه وقت عصيب يجعل المرء يعض على اسنانه . وانا اراكم فى الحلم فقط . لا تنتظرا مجيئى قريبا ، فان الحرب الاهلية تبدو بلا نهاية . . .»

وهز الكسى نفسه . . اللعنة عليها ، ومع ذلك فان المرء لا يستطيع ان يذهب ببصره بعيدا . ومرة اخرى اخذ الكسى ينظر الى الادخنة الهادئة تتصاعد هنا وهناك وراء الاسيجة ووراء الحدائق الجرداء ، وفوق الاكواخ المغطاة بالقصب والقش . كان الفلاحون يتهيئون لقضاء الشتاء فى الدفء . وهم على حق ، فان الجيش الاحمر سياتى الى هنا ان لم يكن بعد اسبوع ، فبعد اسبوعين . كيف ان الحرب الاهلية لا تبدو لها نهاية ؟ لعل سيميون يهذى ! ومن سياتى الى هنا اذن ؟ «آه ، سيميون ، سيميون . . . انك بالطبع تروح وتجئ على سفينة القام فى بحر قزوين ، والدم يتصاعد الى عينيك ويغشيهما . . .» .

ومع ذلك فان الكسى كان يستشعر اضطرابا داخل نفسه . اخرج علبة التبغ وقطن . اللعنة . ليس له ورق للفه . . . فى هذا الصيف قال احد المطببين ان جيش ماخنو يضم الكثيرين من ذوى الاعصاب المتوترة . تراه فى مظهره الخارجى رجلا معافى ، يلتهم صحونا من العصيدة . اما اعصابه فهى كامعاء قطة مشدودة على كمان . ودمدم الكسى مع نفسه «آوه ، اعصاب . من قبل حتى لم نسمع بها» . ووصل الى مدخنة موقد بارزة محروقة ، وحاول ان

يهزها ليرى هل هى ثابتة فى مكانها . دفعها بكتفه ، فترنحت . . . «اعصاب . . .»

نزل الكسى مع كاتيا وماترينا فى بيت ارملة من اقاربه . وكان المكان ضيقا وغير مريح . بيضت ماترينا الموقد ، وطلت الارض الترابية بطبقة من الطين الرمادى ، وعلقت ستائر من الدنتلا على النوافذ الصغيرة المغبرة . واشترى الكسى طحينا وبطاطس وكمية كافية من العلف للخيول ، ملء عربة من هذا وملء عربتين من ذاك . ولم يماحك مع احد فى سعر ، ولم يبخل بالفلوس . وحتى حين كان الناس يلحفون بطلب الملح ، الذى كان اغلى من الذهب ، كان يعطيهم قليلا منه . وكان يعرف ان اهل قريته يعتبرون انه قد حصل على فلوسه بطريقة سهلة . كما كان يعرف ان العربات الثلاث من الامتعة والخيول الخمسة ستظل طويلا تجلب الموجدة له .

وكان الاصعب من ذلك التغلب على معارضة اهل قريته فى بناء بيت له . وكان قد فكر فى تفكيك جناح فى ضيعة الامير كان يقع فى مجمع للاشجار الجرداء على مرتفع . وكان مهدما مهملا . وكانت دار الامير قد خربت ، ولم تبق الا النوافذ المحطمة فارغة بين الاعمدة التى تساقطت قشرتها . وكان هذا الجناح الذى كان يقيم فيه القيم سليما . ولم يكن صعبا تفكيكه ونقله الى مكان بيته المحروق .

الا ان الفلاحين كانوا ما يزالون تحت خوف ما . ولم تكن فى القرية اية سلطة . فقد طردوا ادارة الهيتمان ، والبيتلوريون ما يزالون متشبثين بالمدن فقط على نحو ما . والحمر لم ياتوا بعد . ولانهم تعودوا على السلطة فان غيابها كان يبث فيهم شيئا من الخوف . فقد يحاسبهم احد على افعالهم فيما بعد ، ولهذا قرروا انتخاب عمدة . ولكن لم يرد احد ان يصير عمدة . كان الاغنياء والاذكياء يكتفون بهز اذرعهم قائلين : «لا ، لا . وما حاجتنا الى ذلك . . .» ولم يرغب اهل القرية فى ان يضعوا فى هذا المنصب معدما ليس له ما يفقده . وقد سرت شائعة من الجانب السوفييتى عن هؤلاء المعدمين الوادعين الذين ينقلبون ، اذا تسلموا السلطة ، الى معاركين اشداء .

وجدت النساء الشخص الملائم . اقترحت واحدة للاخرى ، وتهامسن فى القرية كلها بان الرب نفسه امر بان ينتخب الجد افاناسى عمدة للقرية . وكان هذا العجوز يعيش بطمانينة مع كنتيه (فقد قتل ولداه فى الحرب مع الالمان) ولم يكن يشتغل فى الحقل ، فكان يقضى وقته فى رعاية الطيور الداجنة ، وما حول البيت ، ويزعق على كنتيه . وكان يهتم بالصغائر ، متسقطا للعثرات . وكان فى الزمان القديم يخدم عند الجنرال سكوبيليف .

ووافق الجد افاناسى على منصب العمدة فى الحال قائلا : «شكرا على تقديركم ، ولكن لا تتراجعوا ، ساحملكم على اطاعتى» . فكان يتجول فى القرية متفحصا متسقطا العثرات فى لحيته الرمادية المشطورة شطرين مثل لحية الجنرال سكوبيليف ، ومعطفه من جلد الاغنام محزم فى اسفله بحزام ، وبعصاه العالية من خشب الجوز .

وكان الكسى يرفع قبعته له كلما التقى به ، وينحنى احتراما . وكان الجد افاناسى يظلل عينيه بحاجبيه المخيفين ويسال :

– طيب . . كيف الحال معك ؟

– لا باس . شكرا ، يا افاناسى افاناسيفيتش ، ما ازال اتعذب فى نفس المكان .

– الا تستطيع ان تسوى امورك مع الفلاحين ؟

– املنا الوحيد فيك ، يا افاناسى افاناسيفيتش . . . وودت لو تزورنا مرة . . .

– الا يكون ذلك شرفا كثيرا عليك ؟

ومع ذلك فقد استمال الكسى العمدة افاناسى . ارسل ماترينا الى كنتيه لتشترى وزة سمينة قدر الامكان ، وتقول لهما انهم سيحتفلون غدا بيوم ميلاد ، وانهم لن يدعوا احدا ، لان المكان ضيق ولكنهم سيكونون سعداء فى استقبال الطيبين . وكان الجد فضوليا الى جانب صفاته الاخرى . فما كادت ظلمة الشتاء تغمر القرية حتى ذهب الى الحقل ودخل الكوخ المدفا تدفئة قوية ، وارضيته مفروشة بقطعة من بساط من العتبة حتى المائدة المثقلة بغالى الطعام . وكانت المسارج والقناديل الدهنية الموضوعة

فى علب المعلبات تشتعل فى كل مكان ، اما هنا ، فوق المائدة فاضئ مصباح كيروسين .

دخل الجد افاناسى جهما كما تقتضى السلطة ، وراى وهو يخلع قبعته ماترينا الجميلة بشفتيها المضمومتين وعينيها السوداوين الخبيثتين ، والمراة الاخرى – صاحبة يوم الميلاد – الجميلة ايضا التى كانت تدور عنها احاديث شتى فى القرية . وكانت كلتاهما – ماترينا وكاتيا – ترتدى فستانا من فساتين اهل المدن الاول احمر والثانية اسود . فك الجد افاناسى لفاحه ، وخلع معطفه ، ودفع لحيته على الجانبين بحركة سريعة . وقال فى كبرياء راضية :

– آها ، احترامى للمجمع اللطيف .

وجلس الاربعة الى المائدة . تناول الكسى من تحت المصطبة زجاجة فودكا قديمة ، وبدا حديث لطيف .

– افاناسى افاناسيفيتش ، دعنى اعارفكما . صاحبة يوم الميلاد ، خطيبتى . ارجو ان تعجبك وتكون عند مرضاتك .

– هكذا ، اذن ؟ بالتاكيد . النساء يحببن الحنان . من اين هى ؟

اجاب الكسى :

–ارملة ضابط . كنت مرافقا لزوجها المرحوم . . .

– هكذا ، اذن – مضى الجد فى تعجبه . وكان لديه ما يحدث به النساء فيما بعد . ورغب هو نفسه ان يتباهى فقال – عندما حصلت على نيشان غيورغى بالقرب من بلافنا ، جعلنى الجنرال سكوبيليف مرافقا له . . . كان يرسلنى تحت قصف القذائف والرصاص . . . كان يقول : اخرج على حصانك ، افاناسى . . . آه ، كم كان يحبنى . . . يعنى ، خطيبتك من طبقة الاعيان . . . سيصعب عليها عمل الفلاحين بعض الشىء . . .

– لا تقوى على عمل الفلاحين ، يا افاناسى افاناسيفيتش . الحمد لله على ان لدينا الكفاية من الفلوس لاستخدام الايدى العاملة .

– بالطبع . . . اذن ، لنشرب نخب صحة الخطيبة ، المر من اجل الحلو – شرب الجد قدحه وتنحنح ، ولكش بشدة شاربيه الاصفرين بيده – كنتاى تحملان اكياسا زنتها عشرات الكيلوغرامات . وفى

البداية ، عندما خرج الزوجان الى الحرب ، واضطرت الحمقاوتان الى القيام بعمل الرجال كانتا تتشكيان «اوى ، ظهرى انكسر» وتئنان «اوى ، يداى ، رجلاى !» فاكاد انفجر من الضحك — وضحك الجد فجاة ضحكة بلهاء — انا اعرف كيف اداري النساء . كان سكوبيليف يدعوني : ملك النساء . . .

نهضت ماتريتا فجاة كاتمة ضحكتها ، وذهبت الى الموقد وراء الستارة لتخرج الوزة المحمصة . وكانت كاتيا تجلس هادئة متواضعة غاضة بصرها . قال الكسى بحرارة وهو يصب الخمرة :

— ليس هذا مصدر المرارة والازعاج ، يا افاناسى افاناسيفيتش . يمكنني ان اقيم الزفاف ولو يوم غد ، ولكن هل استطيع ان اسكن زوجة شابة في هذا الخن ؟ انها وماتريتا تنامان على تخت واحد ضيق ، وانا على الارض العارية . . . المزعج ان اهل القرية ينظرون الينا وكأنهم ينظرون الى غرباء . . . لماذا عادوا ؟ ان ذلك الجناح يقف بمفرده بلا فائدة . والمصادفة هي التي سلمته من الحرق . ومن بحاجة اليه ؟ اينتظرون ان يعود الامير الى هنا ثانية ويشكرهم ؟

— هناك مثل هذا الظن .

قال الجد افاناسى وهو يكسر فخذ الوزة .

— الشيطان سيعود الى هنا قبل ان يعود صاحب الاطيان . . . حسنا ، استطيع ان اشترى هذا الجناح من المجمع ، واكون مسؤولا عن كل شيء . . . (حدجت ماتريتا الكسى بعينيها . وضرب الكسى المائدة) اشتريه ! . . . انا رجل قليل الصبر . . . لا باس . . . من اجل هذا اللقاء . اعطيني ، يا ماتريتا ، الشيء الملفوف في خرقة تحت المخدة . (عقدت ماتريتا حاجبيها ، وهزت راسها) هاتى ، هاتى ، ولا تبخلي . . فليس هناك شيء اغلى من الحياة .

اعطته ماتريتا . فك الكسى الخرقة واخرج ساعة منقوشة دقاقة لها سلسلة من الفولاذ . وهزها ، ووضعها على اذنه .

— حصلت عليها مصادفة ، وكأنما كنت اعرف لمن ساهديها . احملها موفقا ، يا افاناسى افاناسيفيتش .

— ما هذا ، اتقدم رشوة لي ؟ — سال الجد افاناسى بصرامة ، الا ان يده ارتجفت حين وضع الكسى الساعة في كفه .

— لا تزعلنا ، يا افاناسى افاناسيفيتش . انا اهديها لك من صميم قلبي . . . عندى حوالى عشرين من مثل هذه التوافه ، وقد قايضتها ماتريتا جميعها بالكحول . وهذه احسنها لانها تدق . وبدلا من سماع الديكة عند الصباح اضغط على هذا اللولب تدق لك ، فتلبس حذاءك اللبادى ، وتخرج لتفقد الماشية . . . .

— اها — قال الجد افاناسى وفتح فمه ذا الاسنان القليلة

— اها ، اذن ستوقظ كنتى ! الآن ، لا تستطيعان ان تناما الى الضحى ، السمينتان .

لف الجد رقبته المعروقة بلفاحه ، ولبس معطفه مترنحا ، وخرج . خلفت ماتريتا ذبالة المصباح فوق المائدة ، وجمعت وكاتيا الصحون وحملتها الاثنتان وراء الستارة . وظل الكسى جالسا الى المائدة ، وقال بصوت لا رنة فيه :

— أهذه الخمرة القديمة قوية ، ام لانني لم اشرب منذ زمان ؟ ماتريتا ، لطيف لو تخرجين لتفقد الماشية .

لم تجب ، وكأنها لم تسمع . وبعد برهة نظرت الى كاتيا ، وابتسمت ابتسامة هازئة .

قال الكسى مرة اخرى :

— انا لا افهم . . . اما انك تانفين منا ، واما انك ساذجة كليا . . .

حدجت ماتريتا كاتيا بنظرة نارية تامرها بالا ترد عليه ، وتوهج خداها .

— على الاقل ابكي . . . انا لاول مرة ارى من امثالك ، يا ربي . . . اعلنتها خطيبة لي ، وهي لا تحرك شعرة في راسها . . تجلس منكسة عينيها . . .لا هذا ولا ذاك . . . حورية ماء ، والله ، ماتريتا ! — هتف الكسى — انها لا تفهم ان الاطفال يشيرون اليها باصابعهم . جلبها الكسى على عربة ، وقد ربحها من ماخنو في لعب الورق . . . هذا لا يعنيها . . . اما انا — وصاح بجنون — دعوهم يعرفون الآن انها خطيبتي !

شحبت كاتيا ، وذهبت وراء الستارة ومعها فوطة وصحن . جذبت ماترينا كتفها بقوة .

— نحن نعرف الآن من اى طرق نمسك الحياة . . . قتلت اول رجل فى عام ١٩١٤ – وارســـل الكسى ضحكة مقتضبة – رايت المانيا يزحف ، ورفع الله فاطلقت عليه رصاصة اصابته وسقط على جنبه . وانتظرت لارى روحه تطير منه . انا قتلت الكثيرين ، ولكن لم ار روح احد منهــــم . . . اوه ، كفـــى ، شكـــرا على المعرفة . . . سنبنى بيتا على الحطام : الاول خشبى ، والثانـــى آجرى ، والثالث تحت سقف ذهبى . . . عبثا ، يا يكاترينـــا ديميتريفنا ، عبثا ان تسلكى هذا السلوك معى . انا لا امسكك بالقوة . اذا كنت لا اروق لك ، اذا كنت هولة يمكنك ان تذهبى الى حيث تشائين . خطيبة ! انا لا اتوقع اية متعة من خطيبتى هذه .

مست ماترينا بشفتيها خد كاتيا ، واسرت فى اذنها : «احمق سكران ، فلا تلقى بالا له . . .» علقت كاتيا الفوطة على حبل ممدود ، وخرجت من وراء الستارة . كان الكسى يجلس بانحراف على المائدة وقـــد وضع ساقـــا على ساق ، ودلى يده الكبيرة المنتفخة . نظر الى كاتيا بعينين غائرتين . جلست كاتيا على مقعد قبالته . كانت نظرة الكسى صاحية متفرسة ، فغضت كاتيا بصرها .

— الكسى ايفانوفيتش ، كان يجب ان نتحدث منذ وقـــت طويل . . . انا اعتبرك انسانا طيبا ، يا الكسى ايفانوفيتش . لم اجد منك غير الطيبة الاصيلة طوال حياتنا المتنقلة . وقد تعلقت بك . ولكن ما اعلنته اليوم لا يدهشنى . كنت اتوقع هذا منذ زمان . . . ان شيئا ما حصل لك منذ مجيئنا الى هنا . . . يـــا الكسى ايفانوفيتش . انت هنا انسان آخر . . . .

تنحنح الكسى منظفا حنجرته ، ثم سال :

— ما يعنى «انسان آخر» ؟ ثلاثين عاما كنت شخصا واحدا ، والآن صرت شخصا آخر ؟

— ان حياتى ، يا الكسى ايفانوفيتش ، كانت كنوم لا يقظة فيه . . وهذا ما اقوله لك . . كنت حيوانا بيتيا لا نفع فيه . . آه ، نعم ، كنت محبوبة . ولكن ماذا فى ذلك ؟ شىء من الاشمئزاز ، وشىء من القنوط . . . وحين احدقت بنا الحرب ، كان ذلك يقظة

لى : الموت ، والدمار ، والعذابات ، والنازحون ، والمجاعة . . . ولم يبق للحيوان البيتى العديم النفع غير ان يولول ويموت . . . وكان ذلك سيحدث لو لم ينقذنى فاديم . . . كان يقول لى وكنت اصدق بان حبنا هو معنى الحياة كله . . . ولكنه كان لا يبحث الا عن الانتقام والتدمير . . . الا انه كان طيبا ؟ انا لا افهم . . . (ورفعت راسها ، ونظرت الى ذبالة المصباح القصديرى المخفضة فوق المائدة) وقتل فاديم . . . عندئذ التقطتنى .

— التقطتك – قال الكسى بابتسامة هازئة غير صارف عنها بصره – ربما تتصورين نفسك قطة . . .

— كنت اياهـــا ، يا الكسى ايفانوفيتش . ولكننى الآن لا اريد . . . لم اكن طيبة ولا شريرة ، لا روسية ولا اجنبية . . . حورية ماء . . . – وارتفع طرفـــا شفتيها بمعابثة ، وتجهـــم وجه الكسى – وظهر انى لست الا امراة روسية . . . وساءل عن ذلك الآن . . . لقد رايت معكم الكثير من المصاعب والفظائـــع . . . وتحملت ولم اقل اف . . . انا اتذكر احد الامسيات . . . كانت عند العربات محلولة ، وجاء الخيالة . . . واجتمع حول القـــدر الفائر اناس محتدون صاخبون .

— تتذكر ! ماترينا ، هل تسمعين . . .

— وظلوا يتجمعون حول القدر الفائر . . . وتحدث كل واحد عن ضرباته المجيدة ، كيف بتر راسا ، وهجم ثانية وتشابك فى المعركة . . . يبدو انهم لقوا الكثير من ذلك . . . ولكن شيئا كبيرا قويا كان فى ذلك .

— ماترينا ، انها تتذكر المعركة مـــع الالمان قرب ضياع فيرخنى . . . كان قتالا جسورا . . .

— واتذكـــر كيف وثبت من عربـــة الرشاشـــة . . . كنت اخاف ان اتقدم منك – وصمتت كاتيا قليلا وكان حدقتيهـــا المشعتين كانتا تريان شيئا بعيدا – هذا ما كان . . . وعندمـــا سافرنا الى هنا قلت لنفسى : ان امامى حياة واسعة . . . وليست على قطعة صغيرة من الارض . . . هنا لا يوجـــد غير الخنافس والدجاج وحديقة الخضروات ، وراءها سياج اصم وايام رمادية لا ومضة فجر فيها . . . (وغضت كاتيا جبينها ، وكان عقلها البائس

الصمت الزمهريرى الخفيف رائحة بطيخ مقطع . وكان ايفان ايليتش يعرف كل شيء ، ويجيد كل شيء ، ويستطيع ان يجد جوابا لكل شيء ، وحلا لكل ريبة . ومن جديد تراءى الصندوق السحرى المزوق امام عينى داشا ، ولكن لم يكن يحوى العاسيس فالتة مستقلة ، ولا الغازا واحاجى ، بل كانت فيه هبات وافراح حياة قاسية واتراحها .

شيء واحد لم يكن مفهوما لها فى ايفان ايليتش ، وقد اضحى يغمها ، وهو تكتمه . فقد كان ايفان ايليتش كلما اويا الى فراشهما فى المساء يستغرق فى افكاره . كف عن النظر الى داشا . كان يتنحنح وهو يخلع حذاءه على المصطبة . واحيانا كان يقول لها وهو يخلع حذاءه «داشولكا ، عزيزتى ، نامى ، يا حبيبتى» . ويذهب حافى القدمين عبر الرواق البارد الى غرفة المكتب ، ويعود على اصابعه ويضطجع على حافة السرير حذرا من ان يصر تحته ، ويغفو فى الحال متغطيا بمعطفه حتى رأسه .

اما فى النهار فقد كان بادى المرح منشرحا مورد الخدين بروح ويجئ ، ويقبل داشا على خديها وعلى رأسها الاشقر الدافئ الحبيب .

— مرة اخرى ، مرحبا ، يا زوجة الآمر . . . خبرينى ، هل شؤونك آخذة فى الانتظام ؟

وكان يسأل عن ذلك ثلاثين مرة فى اليوم . وكان المفوض ايفان غورا قد اقترح على داشا تنظيم مسرح للفوج من بين المواهب المحلية .

ورفضت داشا فزعة : «يا ربى . . انا لا افهم شيئا من ذلك . . .» ربت ايفان غورا على يدها قائلا :

— ستقدرين على ذلك ، يا عزيزتى ، تعلمى من الاخطاء . لقد نهضت باشياء اصعب . فقط ان تتخلصى من هذا الروتين اليومى . اعثرى على شيء ثورى حماسى يجعل عيون المقاتلين تلتهب .

وكان المفوض عجولا على المسرح جدا . وكان فوج كاتشالين تساريتسين للتموين يستعد الى الخروج الى الجبهة قريبا . وكان الذى اعيد تعزيزه وكسوته من الاحتياطات الضئيلة لدى ادارة

المقاتلون رغم التدريبات المتعبة والساعتين من التثقيف السياسى اليومى قد بدأوا ، وقد شبعوا فى المزارع ، يتعابثون من فرط ما جمعوا من قوة . وعقد اجتماع .

وخطب سيرغى سيرغيفيتش سابوجكوف فيه ، وقد وجد الفرصة ، بعد سنوات عديدة من الصمت ، ليقذف الى العالم بمجموعة من الافكار تفجرت فيه . تحدث عن التحول الثورى فى المسرح ، وتحطيم كل الحدود بين خشبة المسرح والمتفرجين ، وعلى مستقبل المسرح تحت السماء المكشوفة او فى حلبات السيرك الضخمة التى تتسع لخمسين الف متفرج ، حيث ستشترك افواج بكاملها ، وتطلق المدافع ، وترتفع البالونات الهوائية ، وتتدفق الشلالات الحقيقية ، وتقوم الجماهير لا الممثلون الفرادى بتمثيل الشخصيات البطولية .

— اين انتم ، يا مسرحيى المستقبل ؟ — سأل سابوجكوف رجال الجيش الاحمر باسطا ذراعيه ، وكأنه يهم بالطيران حتى روافد السقف . وكان هؤلاء يستمعون اليه بمرح رغم غموض الكثير من كلماته التى كان ينطقها بعجالة واحدة فى ذيل الاخرى — اين انتم ، يا دراماتى عصرنا العجيب ؟ اين انتم ايها الشكسبيريون الجدد ؟ والسوفكلوسيون الذين نزلوا من قواعدهم المرمرية ليشاركونا مهرجان الفن ، ومهرجان الابداع ؟ أحقا ان الانسان كان فى يوم ما مكشوفا امامكم كما هو مكشوف الآن ؟ أحقا ان التاريخ قذف فى يوم ما مثل هذه الثروات الضخمة من الافكار ؟

وبالطبع كان التهيب يستولى على داشا تماما بعد امثال هذه الخطب . ولكن التراجع كان متعذرا .

سافرت مع سابوجكوف الى تساريتسين لجلب الكتب والجنفاص والاصباغ . واستطاعا الحصول على شيء من ذلك . وقدم سيرغى سيرغيفيتش لها الكثير من النصائح المفيدة وما يزيد عليها من النصائح الحمقاء . وتقرر انتقاء الممثلين دون اى تدقيق ومماحكة . والبدء فى اجراء التمرينات على تمثيلية «اللصوص» لشيلر .

وكان تليغين فى غبطة عظيمة لا ترجع الى لهفته لتمثيل «اللصوص» المقبل بقدر ما ترجع الى شعوره بان داشا وجدت اخيرا

ما تعمله وتنجذب اليه ، وتروح وتجيء ، وتتحدث الى رجال الجيش الاحمر ، وتغضب ، واحيانا تبكى من الانزعاج ، وهى الآن (كما بدا له فى بساطة قلبه) لا تعود الى التركيز الشديد على همومها الشخصية وحدها .

وبامر من الفوج ضم الى الفرقة الدرامية الفريبيتا واليسيا ولاتوغين (الذى ذهب الى المفوض يطلب ضمه الى هذا العمل) وكوزما كوزميتش وبايكوف وبعض العازفين على الاكورديون والبلالايكا والمغنين من رجال الجيش الاحمر .

وفى المساء قرات داشا التمثيلية فى السقيفة فى ضوء بقية من شمعة . وكانت وجوه الممثلين فى الضوء الباهت لا تكاد تبين من خلال البخار الطالع مع الانفاس . وكانت الريح المتصاعدة ترسل الثلج من خلال خصاص بوابة السقيفة . قرات داشا بصوت واضح صاف محاولة ان تتمثل - بمقدار ما تسعفها ذاكرتها - الطريقة التى كان يقرأ بها بيسونوف فى عهده : يد واحدة وراء طية سترته السوداء وصوت مفصول عن الحياة ، وكلمات مثل قطع الثلج ، تزدردها بنهم سيدات الادب المتنفسات بعسر وهن جالسات حوله على مقاعد وثيرة . . .

وادركت داشا وهى فى منتصف القراءة ان التمثيلية لا تحظى باعجاب ، رغم الحذف الكثير الذى اجرى عليها . وقرب النهاية استعجلت تماما . وعندما فرغت منها ، وبعد فترة من الصمت الثقيل قالت :

- هذه هى «اللصوص» شيلر التى يجب ان نمثلها . . .

اخذ الرجال يدخنون ، وقال احدهم ، وهو لاتوغين ، بصوت خافت :

- تمثيلية ذهنية .

عندئذ اخرج كوزما كوزميتش عقب شمعة من جيبه ، واشعلها ، وجلس الى جانب داشا .

- ايها الرفاق ، اطلعتنا داريا ديميتريفنا على النص والآن سأقرؤه لكم .

وتناول الكتاب منها ، واخذ يقرأ بصوت عال ملونا صوته ووجهه حسب جميع الشخصيات ، فمرة يصور الاسى الابوى للكونت

العجوز مور ، ومرة يهمس بازيز ، وقد تسطح انفه ، وتقلبت عيناه : «. . . كنت الآن مقفلا يستحق الاشفاق لو لم استطع انتزاع ابنى المحبوب من قلب الوالد ، ولو كان مشدودا اليه بسلاسل من حديد . . آه ، ايها الضمير ! يا فزاعة الطيور الممتازة . . . ليسبح من يقدر على السباحة ، وليغرق من يجد نفسه ثقيلا . . .»

وتراءت للمستمعين فى عين خيالهم ذلك الثعبان ، فرانس مور ، وهنا تحشرج صوت كوزما كوزميتش . غرس يده فى شعره دافعا اياه الى صلعته ومط شفتيه بشكل رهيب ، والتمعت عيناه بحقد نبيل : ايه ، ايها الناس ! ايها الناس ! يا ذرية التماسيح الكاذبة الخبيثة ! قبلة على الشفاه ، وخنجر فى اليد ليغرز فى القلب . . الى جهنم وبئس المصير ! التهب كالنار يا صبر الرجل النبيل ، وانقلب ذئبا ايها الحمل الوديع . . .»

اهت اليسيا نازاروفا آهة خافتة ، ومال لاتوغين بكل جسمه نحو الشمعة التى كانت تضىء الكتاب السحرى التى كانت اظافر كوزما كوزميتش تدب على صفحاته . وفى عتمة السقيفة كان يهدر كارل مور لفسه - الرجل المتمرد المفهوم بالنسبة للمستمعين والذى اثار قلقهم . فيا لها من كلمات استطاع ان يعبر بها عن المساءات التى لحقت به . انها لتمثيلية تنفذ الى الاعماق !

وحين وصلت الشمعة الى نهايتها ، ونطق كوزما كوزميتش عبوسا بآخر كلمات كارل الذى كان يتذكر ، وهو يسير الى الاعدام الرهيب ، الكادح المياوم البائس اخلت اليسيا والفريبيتا تفركان عيونهما بكمى معطفيهما وقال لاتوغين «قطعة صادقة من الحياة» . واتفق الجميع على ان كارل ما كان ينبغى له ان يقتل عبثا وبتأثير الغضب اماليا التى يحبها ، وكان يجب ان ياخذها الى العصابة ويعيد تقويمها . ولا بد من تعديل شيلر فى هذا الموضع ، والا فان رجال الجيش الاحمر لن يعجبوا بمثل هذه التمثيلية الجيدة بسبب هذه النقطة التافهة ، بل وقد تترك آثارا سيئة على المقاتلين . وتقرر فى نفس الجلسة الا تقتل اماليا ، بل يقول لها كارل «اذهبى الى البيت ، ايتها التعيسة» فتبكى بكاء مرا ، وتخرج .

وعهد بدور اماليا الى ايـبـيـا ، ودور كارل الى لاتوغين ، وارادوا اسناد دور فرانتس النذل والوغد الى بايكوف ، ولكنهم خافوا ان لا يضبط نفسه فيكون اضحوكة لدى المتفرجين ، لان الجنود ما ان يروا لحيته حتى ينفجروا ضاحكين . وتقرر ان يمثل كوزما كوزميتش دور فرانتس ، ولكي يبدو اصغر عمرا الزم بحلق وجهه تماما . وعهد الى رجل ذى صوت كثيف من رجال الجيش الاحمر دور العجوز الكونت ماكسيميليان فون مور . وتناهبت الغريبينا والمقاتلون الشبان بقية الادوار . ودخل شخص يحمل فتيلة علبة كيروسين ، واضيئت السقيفة بالفتيلة المشتعلة الداخنة . وبداوا التمرينات قبل ان يتفرقوا .

ولم تعد داشا الى البيت الا قبيل الصباح ، وظلت تحكى طويلا لايفان ايليتش ، فضحك مقهقها وهو جالس على السرير حافيا واضعا معطفه على كتفيه . . .

— لاتوغين يمثل دور كارل مور ؟ (وتخر وجعجع ماسكا بطنه) ساموت من الضحك . . . ولكن اتعرفين لماذا اخذ الملعون دور كارل مور ؟ انه يغازل اليسيا . . بينما القدره شاريغين بان يفرى كبده . . . وكوزما كوزميتش ؟ فرانتس . . . هذا ممكن . . . اى ملابس سيرتدون ؟ يتبخترون فى القمصان العسكرية ؟ سأرسل المسؤول عن الميرة . فى الضيعة العصر محام من بتروغراد وحده مع حقائبه . . . ربما نحصل على السترة الطويلة والفراك . . .

— انت تجعجع بشكل لا يجعل لى رغبة فى ان احكى لك . اتركنى — وانسلت داشا الى السرير ورقدت لصق الحائط ، وادارت ظهرها لزوجها ، وعندئذ حشر البطانية تحتها بحذر ، وغطى قدميها بالمعطف ، لان الموقد قد برد ، والبرد تسرب الى البيت . وقالت داشا ناعسة :

— كل شىء سيكون على ما يرام .

واخذ الفوج لا يتحدث الا عن المسرح . والقى سابوجكوف محاضرة عن الادب الالمانى فى عهد «العاصفة والهجوم» فشبه العباقرة العاصفين — شيلر وغوته وكلينغر — بالنسور الفتية التى ايقظتها بروق الثورة الفرنسية العظيمة . وامطر سابوجكوف بالاسئلة حتى اضطر الى ان يعلن عن سلسلة من المحاضرات عن

تاريخ نهاية القرن الثامن عشر . وقضى ليالى كثيرة مستضيئا بسراج ، محركا قلمه ، عاصرا ذاكرته قانعا بدخان التبغ لانعدام الكتب والمراجع . وكانت الاسئلة تتساقط عليه فى المحاضرات كالانهيار الجبلى ، فقد كان رجال الجيش الاحمر يريدون معرفة كل شىء . فما ان يذكر شيئا حتى يسأل عنه بالتفصيل . وما كاد يتطرق الى الديسمبريين حتى طلب منه ان يقص كل ما يعرفه عنهم .

وكانوا يستمعون اليه لساعات عديدة مغالبين التعب ، وكان بعضهم يهوّم فى غفوة ، ثم يهز راسه نافضا النعاس عنه . وكان يجذبهم الحديث عن الازمنة الغابرة ، والبلاد الاجنبية ، حيث كان الناس مثلهم وضعوا طربوشا احمر على راس رمح ، واندفعوا وحدهم ضد العالم كله ، وابتكروا ، وهم الجياع الحفاة ، تكتيكا حربيا جديدا يحقق لهم النصر . وحين انتصروا اُوثقوا من ايديهم وارجلهم من قبل الذين لم يفطنوا الى ان يقطعوا رؤوسهم فى الوقت المناسب .

وهتف سابوجكوف بصوت متقطع مبحوح :

— آوه ، ماكسيميليان روبسبيير ، كان فى وسعك ان تنتصر ، وكان فى وسعك ان تنقذ الثورة ! وقد عبثت يوم حتفك ، حين انزلت راية الكومونة السوداء من فوق بلدية باريس . . .

وكانت الديكة تصيح فى الافنية حين اقبل المفوض ايفان غورا ، ودمدم :

— يا رفاق ، بعد ثلاث ساعات سينفخ فى بوق الاستيقاظ .

قاطعت داشا وهى تلوم بالتلقين :

— توقف ! يا رفيق فاتين ، انت تمثل شخصا ميتا . فلماذا تسعل متعمدا ؟ من اين لك هذه الطبيعية المفرطة ؟ مثل بصورة اكثر حرارة ، ضع نفسك فى الدور . . . كل شىء من جديد . . .

عثرت داشا بين الكتب التى جلبت من تساريتسين على مجلة مسرحية فيها مقالة لكوغل بعنوان : «استخدم كل ما هو تحت يدك» وقد امتلأت بالنقد اللاذع للمسرح الفنى . وقد اشار المؤلف الى تقاليد ممثل الدراما الروس العظام الذين كانوا ياخذون بالالباب والقلوب بعبقريتهم الوحشية . عند ذاك كان المسرح معبدا وثنيا ، والستارة غطاء سحريا لتاليتا * . واسفاه ، ان تسل

* ربة القمر عند اليونان القدامى .

ممثل الدراما العبقريين قد انقرض ، وآخر ذرية له ، ماموليت دالسكي ، بدل جزمة الممثل التراجيدي التقليدية بشدة من الورق . وذهب اولئك العظام الذين كانوا يهزون النفوس ليحل محلهم المخرج ، السيد المتعلم الذي صار يعرض للجمهور المحترم مزاجا ، وستائر مهزوزة ، وابوابا حقيقية ، وطنين البعوض بدلا من نفس انسانية مصلوبة امام قاعة المشاهدين . ويهتف كاتب المقال : «لا ، ان المسرح الحقيقي هو قول العواطف الاشعث !» استقت دالنا من هذه المقالة بعض المعلومات العملية التي ساعدتها في التمرينات .

كان لاتوغين واليسيا جالسين في ناحية ينتظران دورهما . كان وجه اليسيا خلال هذه الايام القليلة قد بدا عليه التحول ، فليس من السهول تقمص نفس انسان آخر . وفقدت اليسيا شهيتها ، واضحى الطعام يثير غثيانها . فكرت طويلا ، كيف تجعل اماليا قريبة الى نفسها ، ووجدت المنقذ حين رات في الكتاب صورة تلك الآنسة في فستان عريض (تصور اماليا حزينة وقد وضعت خدها على يدها) . ظلت اليسيا تمعن النظر طويلا في الصورة مرسلة الزفرات ، وتصورت : عندما كنت واقعة في مصيبتي التي هي افدح منها بكثير كنت اهيم متعثرة متنقلة من قرية الى اخرى ولا ارى النور من خلال الدموع ، امد يدي من اجل قطعة يابسة من الخبز . . . لا ، ان الصورة غير صحيحة . لو كانت اماليا ، الرافلة بالحرير والمخمل ، قد تحملت مصيبة اليسيا لكانت يداها معوجتين في كميها القصيرين المدلدلين ، ولكانت الدموع في عينيها !

وعلى هذا الشكل ، وشيئا فشيئا انقلبت اماليا فون اديلريف محبوبة كارل مور الى اليسيا . بالامس اثناء التمرينات صمت الجميع حين خلعت اليسيا قبعتها العالية بنجمتها من القماش الاحمر ومست بيدها شعرها المتناثر ، وجلست على مقعد ، وتكلمت وكانها تمس شغاف القلب :

«آه ، بحق الرب ! بحق الرحمة الكاملة ! لم اعد بحاجة الى الحب . . . ولا اطلب منك الا الموت . . . انا مهجورة ، مهجورة ! اتفهم انت رنين هذه الكلمة الرهيب : «مهجورة . . .»

وصباح اليوم ، اثناء التدريب فرض رئيس القسم على اليسيا

مهمة اضافية جزاء على انسراحها التام . واضطر المفوض الى التدخل ، فاستبدل ذلك بتوبيخ شديد . وهي الآن جالسة هادئة الى جانب لاتوغين وفي عينيها الزرقاوين الواسعتين حلم ، وشفتاها تبتسمان تارة ، وترتعشان اخرى ، وهما تلفظان الكلمات بلا صوت .

قال لها لاتوغين بصوت خافت :

– كانت في قريتنا فتاة ذات عينين صافيتين تدعى ساشا ، وكنت آنذاك في الرابعة عشرة ، وهي في السابعة عشرة . لست ادري هل كانت مشيتها تلفت النظر ام شيء آخر ؟ كانت الفتيات ياتين من الحقل وهن معهن في شال صغير وبلوزة كنارية اللون تحمل كباشة ، فكانت تبدو وكانها ستعانقك في اللحظة التالية . . . وزوجوها شيخا هرما ، وذوت فتاتي ساشا . . . وانت تستغربين لماذا اخواتنا متلهفون (تورد خدا اليسيا قليلا وهو يتكلم ، وكانه يغازلها) نحن نبحث عن حياة جديدة غير معروفة من قبل ولم يجربها احد ، يا عزيزتي اليسيا . نحن جميعا نفكر في واحدة لا نرى حتى في الحلم . . .

– لا توجد مثل هذه النساء .

– انت لا تعرفين ! ان مثل هؤلاء النساء يعشن في جزيرة مرجانية في المحيط الهادي .

نظرت اليسيا الى وجهه العريض بعينيه المتباعدتين النور وارتعش شيء في داخلها مرة اخرى ، وسرت رقة حارة ندية في جسدها . ولكنه لم يكن في هذه المرة حتينا الثويا خاشعا – فقد انقضى ذلك بفضل الزمن – بل كانت تحس الآن بمرح . ضحكت ضحكة مقتضبة وقالت :

– وهل كنت هناك ؟

– لا يهم ذلك . . . ذلك مكتوب في سجل البحر .

– في اي سجل للبحر ؟

– في كتاب بحري عن مختلف العجائب .

– انت تكذب ، يا لاتوغين ، والاستماع اليك لا يريح .

– اسمعي انت ، وانا سامضي في كذبي . . ولكن ساقول لك الحقيقة . فكرت ذات مرة ، يا اليسيا ، بان اقدم على عمل سيء

تحوك ، ولكن احد الاشخاص تحدث معى ، مرغوا الفى ، كما يفعلون مع قطة . . آه . . لا باس . . . الانسان ملك الطبيعة ، شكرا على الدرس .

نظرت اتيسيا اليه ثانية ، ولكن بدهشة ، وكان لاتوغين قد رفع صوته حتى ان داشا نقرت بالقلم : «يا رفاق ، لا تعرقلوا التمارين» .

تابع لاتوغين كلامه همسا :

– فى منطقتنا كرجيتش توجد جماعة من طائفة الطواشية ، انهم يخصون انفسهم لانهم لا يستطيعون السيطرة على النفس ، وقد حكى لى احدهم قائلا «انا احلم بطائر النار ، احلم ولكن حين افتح عينى لا اجد غير التعاسة الشوهاء . . .» وهم ياتون باعمال منكرة ، ويسوطون زوجاتهم حتى حافة الموت . . . ويذهب احدهم الى بيطاره – الحمامة البيضاء – قائلا : «القد روحى . .» فيطفىء هذا روحه كما يطفىء الشمعة . . . «عش ، ايها المخصى ، بخير وسلام ، والله معك . . .» لا ، يا اتيسيا ، سنستحم بالدم ، وننسلق بالصودا الكاوية ، ولكن سنصيد طائر اليُمْن ، ولو طار الى آخر الدنيا . . .

دقت داشا بالقلم :

– ايها الرفيقان ، كارل ، اماليا ، المشهد الاخير ، غيروا ترتيب المسرح . . . .

حين لاح فجر الصباح القرمزى الزمهريرى وراء ادخنة الضيعة قفز فارس من فرسه قرب البيت الذى اتخذ مقرا لقيادة الفوج ، وترك فرسه المكسو بقشرة من الجمد ، واخذ يطرق الباب بضراوة . فتح ايفان ايليتش بنفسه الباب له ، فسلمه الجندى ظرفا . وفى ذلك اليوم ذاته جمعت كل العربات من الضياع المجاورة ، وبدا الفوج مسيرته .

بدا تطويق جيش الدون لتساريتسين للمرة الثالثة على التوالى منذ شهر آب . وفى هذه المرة وضع الجنرال مامونتوف

تساريتسين داخل كماشة من الجناحين . وعلى بعد خمسين فرسخا الى الشمال من المدينة خرقت افواج الخيالة الثلاثة للجنرال تاتاركين الجبهة بضربة مباغتة ، وطلعت على الفولغا قرب حاضرة دوبوفكا .

وبعد يوم بدا هجوم خيالة الجنرال بوستوفسكى جنوبا بالقرب من ساريبتا . وكانت وحدات من فرقة دميترى شيلست الفولاذية تدافع عن ساريبتا . ولم يكن شيلست نفسه موجودا ، فقد تشاجر مع المجلس العسكرى الذى حظر عليه الاستقلال بالتموين والتفرد بالامر ، ولخشيته من الاعتقال سافر الى موسكو ليقدم الشكوى . كانت الفرقة الفولاذية فى فوران ، كان البعض يقول ان الرئيس شيلست سيعود كقائد جيش ، والبعض الآخر ان الرئيس اعتقل ، ويجب الذهاب الى تساريتسين «فى كتلة واحدة» لانقاذه ، ولكن الغالبية صدقت بما راج عن هروب الرئيس الى استراخان ، حيث اخذ يجمع جيشا من المتطوعين . غادر حوالى الف وخمسمائة مقاتل خيال الجبهة وعبروا الفولغا ، وساروا بمحاذاة الضفة اليسرى الى استراخان . وتفككت الفرقة الفولاذية ، واستولى الجنرال بوستوفسكى على ساريبتا ، وصار يهدد تساريتسين من الجنوب .

كان المجلس العسكرى للجيش العاشر ، فى توقعه لهذه الضربات الجانبية ، اخذ قبل اسبوع منها يركز جماعة ضاربة مؤلفة من لوائين للخيالة : لواء الدون – ستافروبول ولواء سيميون بوديونى . الا ان هذين اللوائين لم يجدا الوقت الكافى للالتحام لحصل الاختراق ، وتحمل لواء الدون – ستافروبول الضربة كلها على نفسه . وكان بوديونى يحث الخيول ليل نهار لنجدته .

ووجه فوج كاتشالين الى مكان تمركز الجماعة الضاربة . ظل الفوج يسير طوال بقية النهار ، والليلة التالية – بعد توقف قصير – ميمما نحو وهج كدر كان يلوح فى الظلام القارس . وكان الوهج يحجب ضوء الفجر ، فارتفعت الشمس الى يمينه ، ولم تظهر الا قليلا بين السحب الرقائقية المتوهجة كالنحاس .

كان تليغين وايفان غورا وسابوجكوف يركبون الخيول ، ووراءهم كانت العربات الحاملة للجنود الحمر ، والمدافع وعربات المتاع تمتد صفوفا عديدة فى السهب الثلجى . وكانت خيالة

الاستطلاع تلوح على مسافة بعيدة . سمع الامران والملوحن ، وقد اخذتهم الدهشة ، اصوات القصف المدفعي القاضبة آتية من مكان ليس بالبعيد كثيرا . اطلقوا فرسانهم وخلفوا الفوج وراءهم ، واقترب احدهم من الآخر وتوقفوا ، واخرجوا الخارطة من الحقيبة ، واخذوا ينظرون فيها . كان المكان الذى امر الفوج بالتوجه اليه ما يزال بعيدا ، ولكن سماع قصف المدافع بهذا الشكل كان يدل على ان الجبهة قد اقتربت . ولم يكن لهم معها اى اتصال ، لا هاتفيا ولا بواسطة السعاة من راكبي الخيول . وكان من الممكن ان ينقلب هذا الغموض الى هلاك .

قال ايفان غورا :

— هذا السهب الملعون ، نحن فيه كالذبـاب الزاحف على مفرش مائـدة . ومن حسن الحظ ان القوزاق لم يكتشفونـا بعد .

قال تليغين :

— وكيف لم يكتشفونا ؟ ان لهم سعاتهم ، وهم يراقبوننا منذ خروجنا من الضياع .

انزل سابوجكوف قبعته حتى حاجبيه ، وارتقل نحـو رجـال الاستطلاع .

وصلت العربات الامامية تجرها خيول شعثاء الاعراف من العرق ، لاهثة الانفاس . امر ايفان ايليتش الجنود الحمر الذين نزلوا منهـا بان يهرعوا لينادوا ويلوحوا للذين تاخروا ليتقاربوا ويتراصوا . وشق طريقه بين العربات فراى كوزما كوزميتش ، وقد شد عنقه حتى اذنيه بالخرق ، يسوق الحصان ، وكانت داشا تجلس على كومة الديكور على العربة ، وهى ترتـدى قلنسوة ومعطفا ابيض من جلد الغنم ، ووجهها شديد التورد ناعسا كوجه الطفل . هتفت بشيء له وهى تقلص عينيها من نصاعة الثلج ، الا انه لم يتبين شيئا مما قالته بسبب صريف العربات ، وضجيج الاصوات . ثم راى الفريبيتا جالسة مع ثلاثة جنود حمر ، وهـى الاخرى اخذت تهتف بشيء ما مشيرة الى السماء بيدها المقفزة . ماذا كانت تريد من هناك ؟ القى ايفان ايليتش راسه الى الخلف ، وهو على سرجه فراى بوضوح طائرة تلوح كالطائـر الاسود ،

وتطير اسفل من سحابة رقائقية كانت اشعة الشمس المغيشة تنتشر تحتها .

ثم رآها الجميع . ضرب ايفان ايليتش حصانه وشق طريقه بين العربات صائحا : «تفرقوا !» . صاح ايفان غورا الضخم بصوت كثيف فارجا ساقيه على الركاب : «اطلقوا النار على الطائرة !» انطلقت عربة مارة بايفان ايليتش تحمل داشا وقد لاح الرعب فى عينيها ، وكوزما كوزميتش يسوط الحصان باطراف العنان . وبدا اطلاق نار مضطرب ، فاخذت الطائرة بجناحيها المعكوفين وهدير محركهـا الضارى تصعد وراء السحابة ، وتناثرت من بطنها بيضات اندفعت صافرة الى الاسفـل ، وانفجرت على الثلج الابيض كالاجمات السوداء .

كان الكثيرون من رجال الجيش الاحمر يلتقون بهذه التجربة القظيعة لاول مرة . تراكضت بعض العربات بعيدا فى السهب . وارتفع صوت البوق المطوط ليجمع الصف المشتت . وظل الفتيان ينظرون طويلا الى السحابة فى خوف .

لم يبق عليهم ان ينتظروا القوزاق انفسهم . سارت العربات متلاصقة فى صفوف متراصة . رفعت الاغطية عن المدافع التى كانت تسير بطيئة فى مربع ممدود . وفى الغروب لاحت معالم القرية الى الامام ملونة بلون ليلكى . اقبل سابوجكوف يعدو من تلك الجهة مع رجلين من رجال الاستطلاع . وتقدم من تليغين وايفان غورا منفعلا مرحا ، وخلع طاقيته ، ومشط شعره المبلل بيده .

— كل شيء على ما يرام . لا يوجد احد فى الضيعة غير النساء والاولاد . وبعدها ، على بعد خمسة فراسخ توجد قرية فيها قوزاق .

قاطعه ايفان غورا غاضبا :

— قوزاق ، قوزاق ، يا لها من اخبار مطمئنة ! ولكن ايـن قواتنا ؟

— اقول لك لا اعرف . . . تركت قواتنا القرية ، كما انها لم تكن فى الضيعة .

قال ايفان ايليتش :

— يجب احتلال الضيعة . ولكن لن اتقدم بعدها خطوة واحدة حتى اتصل بالجبهة .

احتلوا الضيعة فى الغسق . وكانت تمتد على حافة خندق مغمور بالمياه . اخذ الجنود الحمر يدقون على صفاقات النوافذ صائحين فى ترحيب : «يا اصحاب البيت ، اخرجوا !» ودخلوا البيوت المعتمة الدافئة . ولكنهم لم يجدوا غير امرأة مع طفل وراء الموقد فى احد البيوت ، وعجوز تدمدم من الخوف وراء موقد فى بيت آخر . وكان جميع الرجال قد هربوا الى القرية القوزاقية . امر تليغين بان يتخندقوا . وسُد طرفا الشارع بالعربات المتلاصقة . وكان تليغين قد ارسل سابوجكوف قبل زوال ضوء النهار مع جماعة من المتطوعين فى استطلاع فى العمق ليتصل بالجبهة خلال الليل .

مر الليل فى توجس . ورغم ان القوزاق ليسوا عشاق القتال فى الليل ، الا انه كان من الممكن توقع اية حيلة منهم . كان ايفان ايليتش وايفان غورا يقطعان الضيعة من طرف الى آخر ، ويسيران على الجليد الذى ما يزال غير متماسك ليعبرا الى الجانب الآخر من البركة . كانت السماء مليدة بالغيوم ، وهدأ القصف المدفعى فى الشمال الشرقى . وهبت الريح حاملة الرطوبة ، وخفت شدة القرس ، ولم يعد الثلج يخشخش تحت الاقدام .

دمدم ايفان غورا وعيقا وهو يسير الى جانب تليغين :

– مصيدة ، وقعنا فى مصيدة حقيقية . لم نستطع ان نسير بالفوج الى المكان المعين له . . . عار ! انهم يبحثون عنا ، ونحن نبحث عنهم . يا لها من لبخة ! من الملوم ، من ؟

– دع عنك . لا لوم على احد .

– ايا سيسالون اولا ؟ اياى ! وهذا حق . مفوض ضاع فى السهب مع فوجه ، آه ، لبخة ! . .

انطلقت طلقة منفردة بصوت رنان . توقف ايفان غورا بغتة ، وسمع دقات قلبه . وفجأة بدأ اطلاق نار عاصف ، ثم هدأ فجأة كما بدأ ، ولم تبق الا وشوشة الناس وهم يتبادلون الحديث وقد خرجوا من بيوتهم والنوم عالق فى اجفانهم . قال ايفان ايليتش :

– الفتيان متوترو الاعصاب . شباب لم يقع تحت النيران . تعال ندخن .

قبيل الفجر دخل البيت برهة متخطيا ارجل النائمين فى حذر ، ووصل الى الموقد بالتلمس . بحثت يد داشا عنه فى الظلام ، ومسدت خده . فالصق كفها الدافئة على شفتيه .

– لماذا لا تنامين ؟

– اتعرف فيم افكر ، يا ايفان ؟ اذا طال مكوثنا فى الضيعة فاننا فى آخر الامر سنمثل «اللصوص» فى العراء ، بل ونحن فى المعاطف ، فليس هذا المهم . . .

– بالطبع ، يا داشونكا . . .

– قمنا بالعمل فى حماس . وسيكون من المؤسف ان يضيع كل شىء هباء . . . .

– صحيح . . . غدا سأتحقق فى الامر ، فقد تكون هناك سقيفة . . . نامى ، يا حبيبتى . . .

وخرج الى الشارع ثانية ، واستنشق نفسا عميقا من الريح الرطبة . لم يستطع ايفان ايليتش حتى الآن ، بعد تلك السنوات العديدة من الاشتياق ، ان يعود ذهنه على انها قريبة منه ، راقدة تحت معطف من فراء الغنم على الموقد ، فى هذا البيت الواطىء .

«انها لا تنام من القلق . . . لم تقل كلمة واحدة . . . ولكنها سرت فمدت يدها لى . . . اية امرأة مدهشة هى ! . .»

وتأثر ايفان ايليتش تأثرا شديدا بتحسسها اياه فى الظلمة ، والطباق كفها على شفتيه ، حتى احس بان وجهه يلتهب فى الريح . . . أمن المعقول انه مخطىء على اية حال ؟ «لا ، يا عزيزى ، هذه سخافات ، فاتركها . . . . انها صديقتك ، نعم ، نعم ، نعم . . . ووفية . نعم ، نعم ، نعم . . . فكن سعيدا بذلك . . .»

انه لن يستطيع ان ينسى ابدا تلك الامسيات المظلمة فى بطرسبورغ ، حين كان يهرع الى البيت حاملا فطيرة ، او شيئا من الحلوى حصل عليها لداشا ، فلا يوحى لها بغير النفور والذعر . . . يعنى انه كان ينطوى على شىء من هذا ، وما زال كذلك . ولكن ، يا الهى ، كم احب هذه المرأة ، وكم حن اليها !

اقبل ايفان غورا من الظلمة ، وقد حشر يديه عميقا فى جيبى سترته .

– وكيف لو امسكوا بسابوجكوف ؟

– من المحتمل جدا . . سارسل في الفجر بعثة استطلاعية اخرى .

– كان يجب ان افعل ذلك في وقت ابكر من ذلك ، ابكر بكثير – واغرج ايفان غورا يده من جيبه ، وضرب جبهته بقبضته – لم تثبت اهليتك لما اوكل اليك ، ايها الشيوعي ! حتى اذا خرجنا من هذه الحادثة بسلام فانني لن اغفر ذلك لنفسي . . . لو كان الامر بيدي لقدت مثل هذا المفوض الى ما وراء عتبـــر الغلال ، وودعته الوداع الاخير !

– ايفان ستيبانوفيتش ، انا ملـــوم بنفس القدر اذا كان الامر كذلك .

– دع عنك ! حسنا ، لنذهب ، وندخن . . . .

سار سيرغي سيرغيفيتش سابوجكوف مـــع خمسـة من المستطلعين المتطوعين في السهب على امل العثور على اية دلائل تشير الى الجبهة . الا ان السهب كان خاويا دامسا لا ينفذ فيه البصر . اشعلوا اعواد الثقاب واستهدوا بالبوصلة . تعبت الخيول تعبا شديدا ، وهي لم تطعم ، واخذ الحصان الذي وضعت عليه الرشاشة يعرج ، ويجذب العنان . امر سابوجكوف بان يترجلوا ، ويفكوا اللجام وحزام السرج . اخرجوا القمح من الاكياس المشدودة على السروج ، وسكبوا منها مقادير في قبعاتهم واخذوا يطعمون الخيول ، مولين ظهورها وجه الريح .

– ايها الرفيق الآمر ، وجدت تفسيرا لاخفاقنا في الاتصال بالجبهة – قال شاريغين مختارا كلماته بروية ، كما هـو دائما – الجبهة متركزة . . . (وتثلج وعسر عليه تحريك شفتيه) نحن مددنا جناحينا في منطقة العمليات والقوزاق متمركزون . . . وربما هذا ممكن ؟

– آوه ، القوزاق ، القوزاق ، ذرية التماسيح الكاذبـــــة الخبيثة ! الى جهنم وبئس المصير !

قال لاتوغين ذلك بلهجة جادة . انفجر بالضحك الفتيان الشبان الثلاثة الذين جندوا من القرى القوزاقية . اجاب شاريغين راسما :

– ليس الوقت ملائما دائما للمزاح ، يا رفيق لاتوغين . يجب كبح البذاءة في الامور الجدية .

قال سابوجكوف بصوت خافت :

– كفى ، يا اولاد ، لا تتشاجروا .

صلصلت الخيول بشكائمها ، وهي تمضغ حبات القمـــح بقرقشة ، وكانت الريح وراء ظهور المستطلعين تصفر في مواسير البنادق .

– امضغ ، ولا تعبث يا وباء !

صاح لاتوغين حين اخرج فرسه بوزه من القبعة واخذ يحنـي له راسه .

قبل هذا بوقت قصير حين كان المحاربون الحمر مجتمعين عند البئر في الضيعة نادى سيرغي سيرغيفيتش سابوجكوف على مـن يريد التطوع في مهمة استطلاعية ، فكان شاريغين اول من جاء اليه قائلا «انا ذاهب معك» وفي نفس الوقت لم يحجم ليضيف منفعلا : «لا تظن ايها الرفيق الآمر ، انني قادم لا لاظهار شجاعتي ، بل عن وعي ، ككومسومولي . .»

وسمع لاتوغين هذا الكلام وهو يسوق خيول المدفعية الى البئر فضحك مع رجال آخرين من الجيش الاحمر ، ورأى وجـــه شاريغين الاحمر المنفعل . . . «آخ ، ايها الشيطان الافطس ، انت تكذب ، لن تتفوق عليّ» وهز كتفيه ، وتقدم من سابوجكوف :

– الا اكون زائدا عليكم ، يا سيرغي سيرغيفيتش ؟ في وسعي ان اذهب الى البطارية ، واستأذنها بالخروج .

وكان طوال الطريق يتحارش بشاريغين ، ويضحك الجنود الحمر ، والآن لعنه بالبذاءة ، فوبخه الامر . هكذا ! سكب لاتوغين بقية القمح في كفه ، والقاها في فمه .

– يجب ان نمسك اسيرا ، والافسندور في السهب بلا فائدة . . . عندئذ سنعرف اين تتمركز الجبهة . . .

قال شاريغين مؤكدا :

– حقا ! اقتراح معقول .

– الى الخيول ، ايها الرفاق !

لبس سابوجكوف قبعته ، والجم حصانه ، وشد حزام السرج

متنحنحا ، وقفز على السرج . وقبيل الفجر اشتد الصقيع ، ولم يكن الليل على حلكته السابقة . وكشف النور المخضوضر المبشر بالصباح عن حواف السحب الكدرة . وانطلق الفتيـــان في عدو منكبين على سروجهم .

— قفوا ! ها هم ! — قال لاتوغين ، واخرج بندقيته من فوق راسه موقعا قبعته — انهم ستة . . . سبعـــة ! — وفي تلك الكدرة المخضوضرة لم تستطع الا عيناه ، عينا بحار ، ان تتبينا شيئـــا ممسوح الملامح كلا — لا ، ليس هنا . اللعنة — همس للمستطلعين الذين اقبلوا عليه — ليس في هذه الجهة . . . اولئك هم ، يلوحون بالكاد . . .

وبينما كانوا ينزلون الرشاش من على ظهر الحصان على عجل ترددت كركبة خيول ، ولاحت اشباح خيالة متضخمة غير واضحة .

صاح لاتوغين بصوت وحشي :

— القوا اسلحتكم ، واستسلموا ، ايها الفســـاق ! وضرب حصانه بماسورة بندقيته بطريقة غريبـــة على راكبي الخيول ، وانطلق . فاندفع شاريغين في اثره ليلحق به . زعق سابوجكوف بصوت حاد «عُد ، عُد !» توقف القوزاق برهة — وكانوا من رجال الاستطلاع ايضـــا ، على ما يبدو — ثم اداروا خيولهم ، واخذوا يبتعدون . اطلق لاتوغين عدة طلقات من على سرجه . جنح فرس كان يرقل في المؤخرة فمال براكبه وسقط (اما الآخرون فكانوا على مسافة بعيدة فلا تكاد العين تراهم) . دار لاتوغين وشاريغين حول الفارس الذي قفز من فرسه . نادى لاتوغين وهو يتصـــارع مع الفارس قرب الفرس الساقط : «تعالوا ، يا رفاق !» وعندما اقبلوا عليه كان راكبا فوق القوزاقي وكانه راكب فرســـا ، وقد لوى يديه . «ليس كبيرا ، ولكنه رجل ركين . . .» كان القوزاقي منبطحا على وجهه ، وخده ممرغ في الثلج ، يشخر مقلصا عينيه في غضون .

امروه بالنهوض ، ودفعوه ، وقلبوه على ظهره . اخذ القوزاقي يشتم شتائم مقذعة بذيئة وكانه يحرضهم على قتله باسرع وقت . امتقع سابوجكوف ، وضربه بغمد سيفه : «انهض !» رفع القوزاقي راسه قليلا ، ونظر اليه نظرة وحشية ، ونهض مترنحا . كان رجلا

قصير القامة منحدر الكتفين ، ذا لحية عريضة كالهالة ملطخـــة بالثلج .

صاح سابوجكوف به :

— امسك لسانك ، يا بذئ اللسان ، يا خانق الدجاج ، امامك آمر الفوج ، فاجب عن اسئلتي .

مد القوزاقي ذراعيه المشدودتين في حزام وراء ظهره ، ونظر الى الواقفين امامه بعينين مستديرتين صفراوين مديرا لحيته . وفجاة لعق شفتيـــه . وقال لواحد من المحاربين الحمر مورد الوجنتين متهيئ* للضحك :

— انا اعرفك . انت ابـــن عم كوركين ، الا تستحـــي من نفسك ؟

— يوه . وانا ايضا اعرفك ، ياكوف فاسيليفيتش . . .

— مرحبا ، ياكوف فاسيليفيتش ، على الرحب والسعة — قال لاتوغين ، وضحك المحارب الاحمر ثانية غير ضابط نفسه — يا ذا اللحيـــة العجيب ، نحن نبحث عنك طوال الليل . . . اين فوجك ؟ ومن اى فيلق هو ؟

نحاه سابوجكوف ، واخرج خارطة ، وشرع بالاستجواب . كان القوزاقي يرد كارها ، ثم فكر على ما يبدو بان في الامكان ان يكسب الوقت في الحديث ، وان الحمر الملاعين سيبيدون قليلا ، وقد يجد مخرجا ، فاخذ يتحدث . ومن كلامـــه عرفوا ان الجنرال تاتاركين قد خرق الجبهة ، وان لواء الدون — ستافروبول اوقف نجاح تاتاركين عند حده ، وان معركة دامية تدور رحاها الآن قرب دوبوفكا حيث تتجمع قوات البيض والحمر على السواء .

وعثروا على راس الخيط اخيرا . وقرروا ارسال القوزاقي الى الفوج مع واحد منهم ، اما الآخرون فيجب ان يتوجهوا الى دوبوفكا غير مشفقين على خيولهم من التعب ليبلغوا القائد بوصـــول فوج كاتشالين . وهنا فقط تساءلوا : اين شاريغين ؟

نادى لاتوغين :

— ميشنكا ! هل غفوت مع الخيول ؟

كان حصان لاتوغين يقف وقد وطأ العنان . ومن تحت بطن حصان آخر دلى عنقه النحيل لاحت ساقا شاريغين معكوفتين بشكل

غريب . كان شاريغين يحتضن قربوس سرجه ضاغطا وجهه عليه .

— ميشكا ! — وامسك لاتوغين كتفه بفزع ، وجذبه اليه — يا اخ ، ماذا دهاك ؟

مال شاريغين الى الوراء ، وسقط عليه ثقيلا . كان وجهه بلون التراب ، ومعطفه مشبعا بالدم من صدره حتى حزام الخراطيش . القاه لاتوغين على الارض برفق ، وعرى بطنه الابيض ، وضغط بكفه على جرح دام من اثر طعنة .

— انت الذى طعنته بالسيف ؟ آخ ، ياكوف ، ياكوف . . .

خلع لاتوغين معطفه وسترته ومزق قميصه من ياقته ، ولفه كجديلة ، واخذ يشد بطن شاريغين بحيوية وخفة .

— سيرغى سيرغيفيتش ، يجب نقله الى الطليعة .

— ولكن كيف ؟

— ما هذه «كيف» ! . . . استطيع ان آخذه وحدى ، واسوق الاسير ايضا .

نضح عرق من وجه شاريغين الشبيه بوجوه الموتى ، ودبت الحياة فى عينيه المقلوبتين ، وعاد اليهما الوعى والاستغراب والذعر مما فكر فى نفسه : ماذا حصل له لينهار جسمه الفتى القوى الذى لم يعرف المرض قط . . .

— يا رفاق ، يا احبائى ، ماذا علىّ ان افعل الآن ؟

— عليك بالثلج ، يا عبيط .

وغرف لاتوغين الثلج ، ووضعه على شفتيه .

وخلال انشغالهم بشاريغين ، وانزالهم الرشاشة من فوق الحصان الذى اخذ يعرج تنورت الدنيا تماما ، وساقت الريح السحب الواطئة المهلهلة الثائرة مطرا خفيفا مثلجا . ولشدة انغماسهم لم يلاحظوا حشودا ضخمة من الخيالة آتية من الجنوب مع غمائم من الضباب .

دمدم السهب بوقع الحوافر . مرت طوابير متماوجة من الخيالة تعدو ، وعربات مدافع ورشاشات تجرها الخيول . نظر المستطلعون اليها ماسكين خيولهم من مقاودها . فات الاوان ولم يستطيعوا التراجع .

واكتشف امرهم ، فانفصل حوالى عشرين فارسا من مقدمة الطابور العابر ، وانطلقوا ليلحقوا بهم . التفت سابوجكوف فرأى لاتوغين وقد بدا عليه الجد والشحوب يستل سيفه ببطء ، وحرك المحارب الاحمر الضحوك ترباس بندقيته بلا غاية ، وغضن وجهه كله ، وكأنما من الم . . .

هتف الفارس الذى كان فى المقدمة بشىء ما ، واشار الى رجال الاستطلاع . كان فى قبعة مائلة من فراء الاغنام ، وعباءة قوزاقية سوداء واسعة عند الكتفين تغطى حصانه الصغير حتى اعلى ذيله . اطلق سابوجكوف النار ، الا ان لاتوغين اسرع فسقط عليه من السرج ، وامسك يده :

— اللعنة لا ! لا تطلق ! انهم جماعتنا !

واقترب الخيالة . ارتمى الذين جاءوا من الجانبين على خيولهم وهم يطوقون رجال الاستطلاع . اندفع الرجل الطويل ذو العباءة مصطدما بسابوجكوف ، وهزه من صدره بقوة افلتت كلتا قدميه من الركاب .

— اعمى ! من انتم ، ومن اى وحدة ؟

وتقلبت عيناه السوداوان ، ووقف شعر شاربيه ، وما كاد يمسك نفسه من ان يضرب سابوجكوف المرعوب بمقبض سيفه .

— نحن من فوج كاتشالين للمشاة . نحاول ان نتصل بالجبهة .

— لا داعى لمحاولتك والجبهة بالقرب من انفك . — اجاب الرجل ذو الشاربين وقد برد غيظه واعاد سيفه الى غمده فى ترقعة — اركب حصانك وتعال معنا .

— معنا جريح . . .

— آوه ، يا رب . هل فوجكم كله بمثل هذه البلاهة ؟ ضع الجريح على الحصان مع هذا الشاب الركين — واشار الى لاتوغين — وما هذا البطل ؟

— اسير قبضنا عليه .

— اعط الاسير لنا . (تلعثم سابوجكوف ليقول ان الاسير يجب ان يرسل الى الفوج) آه ، يصعب علىّ التكلم معك . سيتحدث

معك رئيس الاركان ، يجب ان يكون لك ادراك – وعدل العباءة بكتفه ، وانطلق بعدو سريع ، وكان الفرس يتخطر مرحا تحته ناثرا الثلج بحوافره اللامعة . وخب الجميع وراءه بمن فيهم لاتوغين يسند شاريغين ، والاسير القوزاقي المحلول اليدين الذي دفن عبوسه في لحيته العريضة خجلا وحزنا .

اندهش الخيالة بشدة من سؤال سابوجكوف : من هؤلاء الفرسان المنطلقون بسرعة في طوابير زاحفة ، وهم الآن يلوحون اشباحا مبهمة من خلال الضباب والمطر ؟

– الا تعرفهم ؟ انهم لواء سيميون ميخاليلوفيتش بوديوني ،

– هل استرحت قليلا ، يا داريا ديميتريفنا ؟ لماذا يبدو القلق على وجهك ؟ منذ الصباح لم تاكلي ؟ آها . . . حلبت ملء جردل من الحليب . صدقيني بودي ان اجلب منه شيئا لك ، ولكن المحاربين الحمر شربوه كله . وفتتنا الخبز ، واكلناه ثلاثتنا ، وهكذا ملأنا بطوننا .

كان كوزما كوزميتش يتفجر بعنفوان الحياة . وكانت داشا لا تستطيع النظر الى وجهه الحليق تماما بشكل يبدو خاليا من اللياقة : حنك صغير كثير الحركة وفم مكشوف اجرد ، كانه نفسه يتوسل ان يُغطى . استيقظت داشا في وقت متاخر فلم تجد احدا في البيت ولا في الفناء . كانت في الهواء رائحة من الرطوبة المصاحبة لذوبان الثلج ، ورائحة اسطبلات ، وكانت غمائم من الضباب معلقة على السطوح القصبية . رآها كوزما كوزميتش من الفناء المجاور فعبر السياج بحيوية واخذ يرقص حولها ماسحا يديه الصغيرتين القذرتين .

– اولا ، ان كل شيء بخير وعلى ما يرام ، يا داريا ديميتريفنا . . . وزوجك في الجانب الآخر من البركة ، اما انت فقد كنت تغطين بنوم عميق فلم تسمعي بالتراشق بالنار . اراد القوزاق ان يجسوا نبضنا ، فرددنا عليهم ردا حادا جعلهم يتراجعون الى قريتهم لا يلوون على شيء . ما زلنا نحفر الخنادق . ذهبت الى البطارية فعرفت ان كارل مور لم يعد حتى الآن من الاستطلاع . مرت انيسيا ومعها برميل ، وقد تغير وجهها ، فشفتاها مزمومتان ، وانفها مدبب ، ولم ترغب في الكلام معي . هذا ملخص الاحداث

الخارجية . اما بخصوصك فخذي جردلا ، واغرفي الماء الدافيء من المرجل ، ولنذهب لنحلب البقرة . فليس هناك مهديء للروح والجسد احسن من لمس حلمات البقرة لا سيما بالنسبة لمخلوقة حالمة .

ضحكت داشا ، الا انه اصر قائلا :

– شيللر هو شيللر ، ولكن اصحاب ضيعتنا رحلوا دون ان يسقوا ماشيتهم او يطعموها ، او يحلبوها . وهذا ليس بالاصول . اذهبي واجلبي الجردل .

– ولكنني لا اقدر على حلب البقرة ، يا كوزما كوزميتش .

– جواب نموذجي . لم تكوني تقدرين على شيء ، يا داريا ديميتريفنا . لم تكوني تقدرين على امساك الابرة ، وكدت تفقدين زوجك الى الابد بسبب عدم مقدرتك هذه . ولكن سنحلب الحليب ، واعلمك كيف تصنعين رقائق الحليب ، وكيف تقلين البيض على شظايا الخشب وسياتي ايفان ايليتش جائعا كالذئب . فتقدم له زوجته الجميلة المقلاة والشحم المقدد ينش فيها تشيشا مجنونا . فينكب عليها ، واذا بك تقدمين له الرقائق ! ثم تجلسين قبالته وتنظرين اليه بابتسامة هادئة . فتبدو له ملغزة كابتسامة الجوكنده . هؤلاء هن زوجات افراد الجيش الاحمر !

واصر كوزما كوزميتش على رايه ، فان اية فكرة تخطر له تبدو كشوكة في راسه ، والافضل ان توافقه عليها . طوت داشا تنورتها في الزريبة نصف المظلمة ، وقرفصت تحت البقرة فلم تضربها هذه بقرنها ولم تركلها . غسلت داشا الضرع بالماء الدافيء ، واخذت تسحب الحلمات المحرشفة ، كما علمها كوزما كوزميتش المقرفص خلفها . وكانت تخشى ان تنقطع الحلمات ولكنه كان يردد : «اسحبي اقوى ، ولا تخافي» . ادارت البقرة العريضة راسها وغلفت داشا بنشيقها الصاخب ونفسها الحار الطيب . رنت خطوط الحليب الدقيقة وهي تسقط على الجردل وتذكرها بالطفولة . لقد كان ذلك عالما ابكم «واطئا» و«لطيفا» لم تحس داشا بوجوده قبل هذا . وهذا ما قالته لكوزما كوزميتش همسا . فهمس لها ايضا وراء ظهرها :

– فقط الا تقــــولى ذلك لاحد ، فانهم سيضحكون منك قائلين : داريا ديميتريفنا كشفت فى زريبة الابقار عالما مجهولا . هل تعبت اصابعك ؟

– بشكل فظيع .

– اتركى . . . (وقرفص فى مكانها) . . بهذه الطريقة ، على هذا النحو . . . اى ، اى ، اى ، هؤلاء هم المثقفون الروس ! كانوا يبحثون عن الحقائق الازلية فوجدوا بقرة . . .

– وانت ؟

– انا ؟ ولرك الحلب من شدة الانزعاج .

– تجلس تحت بقرة وتتفلسف .

– يا عزيزتى ، من الافضل الا تحاول الدخول فى جدل مع قس سابق .

وتناول الجردل وخرج مع داشا من الزريبة الى البيت ، حيث اخذ يقطع قطعة خشب الى شظايا .

– التفلســف هو تجول الافكار . كان يوحان جورج هامان المدعو بالساحر الشمالى يؤكد ان «وجودنا ووجود الاشياء الاخرى خارجنا لا يخضعان للبرهنة ابدا ، ويتطلبان الايمان فقط . . .» أيعنى اذا لا يوجد ايمان لا يوجد عالم ايضا ؟ لا انا ولا انت ؟ وان هذه ليست شظيــــة بل لا شىء ؟ أفعلى هذا الـ«لا شىء» ستقلى البيض ؟

ووضع شظايا الخشب على افريز الموقد واخرج من الموقد بعض الجمرات ، واخذ ينفخ فيها .

– ولكن فلسفة الحياة شىء آخر ، يا داريا ديميتريفنا . ادرسى الحياة واعرفيها واستوعبيها . . . فالحياة بدون تدخل العقل الرفيع تسير فى طريق خبيث . ان وجودى حقيقة ، لا ذرة للشك فيها ، وهى بالنسبة لى مهمة للغاية . ولما كنت محبــــا للمعرفة والاستطلاع فاننى اريد ان ارى كل شىء ، وافهم كل شىء . ولن يمضى وقت طويل حتى اعرف كل ما يدور حولنا وفى داخل نفوسنا ، هذا ليس ظاهرة عفوية بل تحت توجيه العقل البشرى . ولكننى لا استطيع التحدث مع مفوضنا عن ذلك . غير انى اود ان اتحدث مع شخص آخر فى لباس مدنى ، واجلس معه ساعة من الزمن . . .

داريا ديميتريفنا ، اخرجى الى الفناء ، فهناك صومعة مؤنـــة فى آخره ، لاحظتها قبل حين ، بل وكسرت القفل على بابها ، اجلبى من هناك شيئا من الطحين ، حفنتين منه . . .

واعد الفطور . وبدلا من ايفان ايليتش الذى كانت داشا تنتظره من لحظة الى اخرى دخل البيت جندى احمر يحمل بندقية وكيس خراطيش مملوءا :

– امر الآمر بشد الخيول على العربة وتحميلها . . . وجمع المتاع !

واستنشق من الفه ، ودفع طاقيته على عليائه ، وتقدم من الموقد ممسكا بندقيته ، واخذ من المقلاة ما استطاع ان يمسكه من الرقائق الحارة ، وتشمم خجلان ، وخرج .

صاحت داشا :

– يا رفيق ، يا رفيق . ماذا حصل ؟

– كيف ماذا حصل ؟ انظرى الى الشارع .

وفى تلك اللحظة حدث انفجار بقوة شديدة فبدا قريبا جدا وكأنه فى الفناء المجاور ، حتى ان الزجاج تطاير متهشما فى كلتا النافذتين الصغيرتين .

كانت خطة الهجوم على تساريتسين فى كانون الاول قد وضعها الاختصاصيون العسكريون فى مقر قيادة دينيكين . وقد اشار البارون فرانغل وهو من اصغر الجنرالات سنا الى الاهمية الهائلة للسيطرة على تساريتسين . وصادق الاتمان كراسنوف على الخطة . وارسلت لمساعدة جيش الدون فرقـــة تحت امرة ماي-مايفسكى بقيت بلا مهمة بعد هزيمة الحمر فى شمال القفقاس ، وقد عززت باحســـن الوحدات القتالية من جيش كورنيلوف وماركوف ودرزدوف ، سار ماي-مايفسكى عبر الدونباس لتغطية مؤخرة جيش الدون الذى كان مكشوفا للضربات من الغرب ، من ناحية اوكرانيا ، ولم يترك على الحدود الشمالية غير قوات دفاع قوية . زحفت خمسون الفا من القوات المنتخبة من جيش الدون نحو تساريتسين .

وفى نفس الوقت كان المقر العام لقيـــادة الجيوش الحمراء للجمهورية يضع خطة لمجابهة الهجوم . فكان على الجيش الثامن الاحمر والجيش التاسع الاحمر المرابطين على الحدود الشماليـــة

لمقاطعة الدون ان يدخلا فيها من كلا جانبي الدون ، ويدفعا قوزاق كراسنوف البيض الى حراب الجيش العاشر . وبالجهود المشتركة للجيوش الثلاثة يسحق جيش الدون في سهوب تساريتسين . وبعد ان يدحر تنعطف الجيوش الحمراء في جهة مقابلة تماما وتتحرك غربا ، نحو الدنيبر ، وتطهر اوكرانيا من البيتليوريين .

في هذه الخطة اغفل شيء رئيسي ، وهو ان خطوط ودوائر الخارطة الحربية ، وشبكة الاشارات والارقام كانت تطوى تحتها صراعا طبقيا يغلي بقوانينه الخاصة واحتمالاته ، وان هذه الدوائر والخطوط مختلفة في نوعيتها . فبعضها كان يمكن ان يصب قوى جديدة في الافواج والالوية والفرق الحمراء ، وبعضها الآخر كان يضعفها .

ولم توجه خطة مقر القيادة العام الجيوش الحمراء في الاتجاهات التي تقتضيها الاستراتيجية العليا للحرب الاهلية . فان تحركها من الشمال الى الجنوب الشرقي عبر الدون وخوبر ومدفيدتسا وخلال القرى القوزاقية ذات الميول العدائيـــة قد اضعفت قوة الهجوم ، واطالت مدته ، واعطت للعدو امكانية المناورة واعادة التنظيم .

ومثل هذه كانت الخطوات الخطرة التي اتخذتها فيما بعـد الخيانة السرية في داخل المجلس العسكري الاعلى للجمهورية الذي صادق على تنفيذ الخطة الفاشلة التي وضعها مقر القيادة العام . فان الخطأ الذي كان يبدو في الوهلة الاولى خافيا ومن الصعب تلمسه قد كبر خلال ستة اشهر فصار خطرا جديا .

بدأ هجوم كانون الاول المضاد للجيوش الحمراء . وقد جرى في منطقة ابعد كثيرا في شرق الدونباس ، حيث كان النـاس في مناطق المصانع والمناجم ينتظرون الجيش الاحمر بنفـاد صبر ليقوموا بانتفاضة . الا ان فرقـة ماي-مايفسكي قد بدأت تدخل المنطقة من الجنوب ومعها مدكات البنادق والمشانق . ووقع الجناح الايمن للهجوم الاحمر تحت الخطر . وتوقف الهجوم . ومن جديد تحمل الجيش العاشر قوة الضربة كلها للمرة الثالثة منذ شهر آب .

كان العدو اكثر عددا واحسن تسليحا واغنى تموينا . وكان لديه اندفاع عارم نحـو الهجوم . وبدت القوتان غير متكافئتين

بشكل كبير . وارسلت تساريتسين الى الجبهة التعزيزات الاخيرة ، وهي خمسة آلاف عامل ، كل ما كان في وسعها ان تجمعه . وجاءت النجدة من الابداع الثوري .

في عام ١٧٩٢ ابتكر الشعب الفرنسي الجائع الحافي المسلح بمزاريق مصنوعة بيتيا ثار المدفعية الصاعقـة ليدحر القوات المدربة للائتلاف الاوروبي ، وخلافا لكل القواعد الحربية قام بهجوم كاسح للمشاة ضد تشكيلات المربعات الشهيرة للملك فردريك .

وابتكر الشعب الروسي اشكالا جديدة لتنظيم وحدات الخيالة. وكان من بينهـا لواء سيميون بوديوني الذي خرج من سهوب سالسك . ولم تكن قوته تكمن في البسالـة وحدها . فقد كان القوزاق البيض يجيدون ايضا شق الراكب الى نصفين . لقد كان لواء بوديوني محبوكا بالولاء والانضباط ابتداء من حامل الرايـة ذي الشاربين الطويلين وحتى حارس العربات الملتحي . وقد شكلت كل كتيبة ومفرزة من سكان قرية واحدة . وصار المحاربون الذين كانوا في يوم ما يصطادون الجنادب سوية في السهب وهم صغار يمتطون الخيول جنبا الى جنب . الابناء وابناء الاعمام في الصفوف ، والآباء والاعمام في عربات الحمولة والرشاشات . ومنذ اليوم الذي خرج فيه سيميون بوديوني من قرية بلاتوفسكايا بفصيلـة من حوالي ثلثمائة فارس وحتى اليوم لم تحدث حالة هروب واحدة ... ثم اين يذهب مثل هذا المحارب ؟ لا يمكن ان يعود الى قريته او ضيعته . فان ذلك يعني العار والمثول امام محكمة .

وكان في اللواء محكمتان حسب عرف لم يدون في نظامـه الداخلي : محكمة رسمية عسكرية ، ومحكمة رفاقية غير رسمية . كانت المحكمة العسكرية تحاكم المحارب المذنب سواء على جبنه في المعركة ، او عدم اطاعته للامر ، او وضع يده على مال الآخرين . وبالاضافة الى المحكمة العسكرية كان المحاربون انفسهم يحاكمون المذنبين في الحالات الخاصـة . كانوا يجتمعون في مكان بعيد عن الانظار ، ويبدأون محاكمتهم لهذا الشخص . وكان يحدث ان تبرئ المحكمة العسكرية ساحة المتهم آخذة بعين الاعتبار هذا الظرف او ذاك ، بينما كانت المحكمة الرفاقية تحاكمه بصرامة اشد ، وتصدر حكمها عليه ، فلا تستطيع ان تسأل احدا عن مصيره .

وكان نظام القتال هو الآخر قائما على قاعدة جديدة غير مدونة ايضا في اى من قواعد الميدان . كانت الكتيبة تنظم نفسها في صفين للهجوم باكتساح . في المقدمة يسير المحنكون من الطاعنين بالسيوف ذوى الايدى الثقيلة وهم في العادة فرسان لهم تجربة كبيرة . وكانت ضرباتهم من القوة بحيث ترسل فرس العدو يرفل وعليه الجزء الاسفل من جسم راكبه . ويأتي وراءهم فرسان ماهرون بالتسديد من المسدسات والبنادق ، وكل واحد يحمى في القتال الرفيق الذى يتقدمه . ويندفع الاولون ، وهم تحت حماية نار رفاقهم ، ليغرسوا سيوفهم في العدو بجرأة ودون تلفت الى الوراء ، ولم يحدث قط ان استطاعت خيالة للعدو حتى ولو كانت اقوى عددا بمرتين او ثلاث ان تصمد لهجوم البوديونيين المركز ، المؤلف من حلقات ذكية منفصلة متلاحمة فيما بينها .

كانت الضيعة تحترق في عدة اماكن . وتكور الدخان بين السقوف المتلاصقة ، واندلع اللهيب ناثرا الشرر وتلف القش المحترق تحت السحب العائمة على انخفاض . وكانت الحمائم تحوم وتقع في النار . وكانت الماشية ترسل الخوار في الزرائب ، حطم ثور اصيل السياج ، وتحرر طليقا مندفعا في الشارع في خوار . وخرجت النساء من البيوت المحترقة راكضات يحملن اطفالهن على ايديهن باحثات لهن عن ملجأ . ومن ناحية القرية القوزاقية وراء التلال ظلت المدافع تقصف بلا انقطاع .

وفي منتصف النهار ظهرت من هناك صفوف القوزاق المشاة الاولى كنقاط صغيرة مبثوثة على امتداد واسع ، وهي تنوى الاحاطة بالضيعة المحترقة ومحاصرتها ، ودفع فوج كاتشالين المتخندق في خنادق حفرت على عجل والقاءه في النار . وكانت هذه الخنادق تبدأ من دكان الحدادة في طرف الضيعة ، وتمتد على حافة البركة ، حيث الجليد الممزق بالقنابل اليدوية ، وتلتوى نحو الطاحونة الهوائية على الرابية .

سار تليغين وايفان غورا على فرسيهما بمحاذاة الخنادق تتبعهما الزيبينا مرافقة المفوض مرتدية قبعة مائلة من فراء الغنم على غرار ما تعلمته من القوزاق . كانا يتوقفان

تارة بالقرب من مفرزة متخندقة الى وسطها في الخدود ضيق ومتجهمة في مثل هذا الطقس ، او بالقرب من حظيرة للرشاشات . ايفان ايليتش مورد الوجه ذو عينين بشوشتين ، وايفان غورا مسود الوجه ناحل من متاعب الليل ، الا انه الآن قد هدأ حين اتضح الموقف . عدل تليغين جلسته على السرج ، ومرر يده المقفزة على شفتيه ، وكأنما يمسح الابتسامة منهما ، وتكلم مستغلا الصمت بين هدير الانفجارات :

– ايها الرفاق ، لديكم الفرصة لانزال خسائر دامية في العدو . اطلقوا النار بهدوء ودون فزع وبانتقاء : رصاصة لكل رجل ، انا والمفوض ننتظر مثل هذا التسديد منكم . انتقلوا الى الهجوم المضاد بالحراب في تعاون واندفاع . . . آمركم بالا تتراجعوا مهما تكن الظروف .

هز المفوض ايفان غورا رأسه ، وهتف :

– عاش الرفيق لينين ! ولتسقط الرأسمالية العالمية !

وبعد هذا الكلام ذهبا الى الجماعة التالية من المحاربين . وبعد ان فرغا من الجولان في الجبهة كلها ترجلا من فرسيهما عند الطاحونة الهوائية . خلال ذلك الوقت عرف رجال الاستطلاع ان قوات كبيرة من القوزاق قد دخلت القرية اثناء الليل . وكان من الممكن الاستدلال من الطريقة المتهورة التى هجموا فيها ان ظهور فوج كاتشالين في الضيعة قد فاجأهم بينما هم منهمكون في تنفيذ مهمة اخرى ، وانهم – على ما يبدو – قد عزموا على تنظيف الطريق من الحمر بضربة واحدة .

كانت الريح تصفر تحت سطح الطاحونة والتروس الخشبية تصر ، وفي الجو رائحة بيتية للطحين والفئران . تنهد ايفان غورا بقوة ، واخذ يطل برأسه من حين لآخر بين الالواح المخلوعة لعله يرى سيرغى سيرغيفيتش يلوح في السهب البنى الى الشرق . صاح تليغين بالتلفون في الاسفل ثم صعد السلم الشديد المرتقى ، وقال منفعلا وهو يرفع المنظار :

– نحن نعيد عملية تساريتسين .

– اية عملية لعينة هذه ! نحن محاصرون كالاغنام . . . اؤكد لك انه قتل ، فهذه هي الساعة الثانية .

– ليس من السهل قتل سيرغي سيرغيفيتش . . .
– لماذا انت بشوش بهذا الشكل ؟
– يجب ان نحارب بروح بشوش ، يا ايفان ستيبانوفيتش.

انتشر الدخان المنبعث من القش المحترق في اماكن درس الحبوب واطئا فوق الارض باتجاه المهاجمين . والآن صـــار من الممكن تبين شخوص متفرقة تتراكض . تراجعت النقاط الامامية للحمر الى الخنادق وهي تطلق النار . واستعدت جبهة فوج كاتشالين كلها ، وكانت تحيط بالضيعة المحترقة مثل حذوة حصان معوجة . هتف تليغين :

– اها ! اتخذوا وضع الاستلقـــاء . عصبيون لم يتحملوا الموقف . هؤلاء الاوغاد ! انظر ، انظر الى الصفوف تستلقي . . . ايفان ستيبانوفيتش ، اذهب بحق الرب واخبر الجنود بلهجة اكثر جدية بالا يطلقوا النار . . . لا رصاصة واحدة بدون امر مني .

. . . .

هتف بايكوف بتخوف مقصود :

– يااي المفوض ! الحظيرة في اماكنها !

ونهض طاقم الحظيرة التابعة للمدفع الاول والمؤلفـــة من بايكوف وزادوبيفيتر وغاغين واليسيا المساعدة ووقف كل واحد في مكانه . ظهر ايفـــان غورا من وراء حائط طيني لكوخ محترق تتبعه اغريبينا على بعد خطوة وراءه . سارا نحو المفرزة التي كانت تغطي البطارية . اخذ ايفان غورا يتحدث الى الجنود الحمر . بينما وقفت اغريبينا الى جانبه متوترة كالسوط حاملة مسدسا في يدها المسبلة .

وترامى صوت ايفان غورا الدافق :

– . . . لا تطلقوا رصاصة واحدة بدون امر خاص ، ايها الرفاق . احذركم من ان المخالفة تعني رمي المخالف في مكانه . . .

هز بايكوف لحيته المبيضة من قطرات المطر :

– يا اخوان ، اياكم من هذه الفتاة حاملة المسدس ، فانها ترمي دون ان يرف لها جفن . . .

اجابت اليسيا :

– لماذا تضحك منها ؟ اغريبينا رفيقة اصيلة . . .

تحول ايفان غورا الى الحظيرة بادي الجد حتى ان طاقمها قد جمد . وسارت اغريبينا خطوة بخطوة وراء زوجها ، وكأنها مربوطة به . كان المدفع الاول يقف فوق تركيب غريب من الواح متصلة بعضها ببعض وعجلات عربات ، وحوله تناثرت مناشير وفؤوس وقطع من الخشب . نظر ايفان غورا الى هذه الغرابة ، ورمشت جفونه وسأل :

– ما هذا ؟

اجاب بايكوف :

– من اختراعنا ، ايها الرفيق المفوض ، شبيه ببرج سفينة دائر .

– وما الغرض من عجلات العربات ؟

– لتدوير المدفع بسرعة . ابتكار حاذق . . .

– هكذا اذن – وواصل ايفان غورا سيره واغريبينا وراءه . اشار بايكوف اليها بحاجبه قائلا :

– انا وهي في فرقة مسرحية واحدة ، يا رفاق . انا لا اخاف من المفوض ، ولكن اخاف منها . . . عيناها مستديرتان كعيني الفارة ، وخاليتان من الرأفة . . . آه ، يـــا نسوان ، لاي شيء تقاتل ؟

– اوصلتها له ، يا داريا ديميتريفنا . . . لم يسمحوا لي بالدخول الى الطاحونة . . . هز راسه لي من الاعلى وقال : «احقا ان داشينكا نفسها قد صنعتها ؟» قلت «بنفسها ، ولكن الفطائر باردة مع الاسف . . .» فقال : «انا احب الفطائر الباردة اكثر . . . انقل لها الف قبلة . . .»

– كل هذا من اختراعك .

– والله ، لا . . . هل سمعت بما حدث ؟ . . . صاحبنا ايفانوف – اقصد الطبيب – استولى عليه الخوف ، كالطفل ، حتى اصيب بقيء واسهال . . . واغتاظ المفوض قائلا «اعصابه تحتاج الى تقوية !» وامر بخلع ملابسه وصب الماء عليه عند البئر . . .

اسمعي زعيقه ، انهم يصبون عليه الدلو الثالث . . . شيء مضحك ! انا ايضا جبان ، يا داريا ديميتريفنا . . .

كانت داشا تذرع الغرفة من النافذة الى الباب وكأنها في قفص . وقد صفت مواد التضميد ، وفاحت في جو الغرفة رائحة الفينول واليودفورم . وكان كوزما كوزميتش يحوم حولها :

– تعلق بي حلم ما يفتأ يراودني كل ليلة تقريبا . احلم بان في يدي بندقية وقلبي يخفق كالخرقة ، وانا اطلق النار . اضغط على الزناد بكل قوتي ، وكأنني اضع كل نفسي في هذه البندقية الملعونة . . . ولكن البندقية لا تطلق ، والزناد يتحرك ببطء شديد ، ويخرج من فوهة البندقية دخان باهت . والشخص الذي اطلق عليه النار بلا وجه ، او لا استطيع رؤية وجهه ابدا ، وهو يتحرك ويتسع . . فو ! فظاعة ! . . .

– لِمَ هذا السكون ؟

سألت داشا وطقطقت باصابعها ، وتوقفت بالقرب من النافذة . . . بدأت بواكير المساء تهبط ، وخمدت نيران الحرائق . ولم تعد تسمع الانفجارات وصفير القذائف الممزق للاعصاب ، وسكتت طلقات البنادق . تقدمت صفوف القوزاق زاحفة ، واوشكت على محاصرة الضيعة كليا . ابتعدت داشا عن النافذة وعادت تذرع الغرفة قائلة سيكون ثمة جرحى كثيرون . فكيف سنعالج الامر ؟

– المفوض سيرسل اغريبينا ، وتلك مساعدة كبيرة . وطلبت منه اليسيا ايضا وقلت له «ان مكانها ليس الى جانب المدفع . رومانسية محض ان تكون الى جانب المدفع . . . . » . . . لنعد الى حديثي . ما رأيك في حلمي ؟

– قل الصدق ! هل ايفان ايليتش سالم ؟ وكل شيء بخير ؟

– اخرج رأسه لي من ثغرة في السقف ، والابتسامة تملأ وجهه . وهو على ثقة مطلقة في النصر . . .

– آها !

وهزت داشا رأسها . كان يجب ان تجبر نفسها على عدم التفكير في هذه الآلاف من الرجال الزاحفين كالوحوش . فانها لا تفهم في ذلك ، على اية حال . . . وبذلت قصارى جهدها لتحول

فكرها ، وكأنها تجر غولا خرافيا مربوطا بحبل ، الى هذه الاشياء هنا ، الموضوعة على المنضدة ، الى الضمادات والقناني والادوات الجراحية . . . اليود قليل ، وذلك شيء مريع ! واطاعها فكرها بسلاسة ، ولكنه سرعان ما انسل الى هناك ، دون ان تلحظه ، وكأنما من خلال كوى غير منظورة ، موسعا عينيه كبحيرتين . . . آه . ما حاجة هؤلاء الناس الملحة الى ان يقتلوا كل الابرياء ، كل الطيبين ، كل المحبوبين ؟ اى شيء يمكن ان يكون اكثر فظاعة في الانسان من الكراهية ؟ وقد احدثت الكراهية بداشا وضايقتها متحفزة متصلبة لتغرز فيها حربة ستمسكها باصابعها المرتعشة . . . .

– لا ، هذه وقاحة صرف . نعم – قالت داشا ذلك ، وروعت النظرة الوحشية من عينيها المتسعتين كوزما كوزميتش – لماذا تنظر اليّ ؟ انا اشعر بالغثيان مثل طبيبنا تماما . . . لا استطيع تحمل الكراهية . . . الانني تربيت على الرقة ؟ وليكن ذلك . . .

واخذت تنقل القناني واللفائف من مكان الى آخر بلا هدف :

– ثم انا لا افهم : لماذا بدأت تقص عليّ مثل هذا الحلم ؟ . . .

– آها ، داريا ديميتريفنا ، الحلم تحقق . . . هناك كراهية مطهرة كالحب . . . كراهية كنجمة الصباح على جبين عال . . . وهناك كراهية راسخة في الاحشاء ، وحشية ، متحجرة . . وهي التي يجب ان تخافي منها . . . وانا ايضا قد خفت منها في عام ١٩١٤ . . . يقال ان بعض الروس كانوا في خارج البلاد حين اعلنت التعبئة ، فهرعوا الى آخر قطار . . جباة العربات الالمان يصفقون الابواب على ايدي الاطفال الصغار . . . اما حلمي ، الذي لا اجد في نفسي الرغبة لاقصه على المفوض او على اى شخص آخر غيرك ، وفي مثل هذه اللحظة ، فيعني انني عاجز ، وان رحلتي على الارض قد انتهت – ونشج فجأة – بندقيتي لا تطلق النار ، بل تهس فقط .

– انا اكرههم ! – صرخت داشا فجأة ، واخذت تضرب صدرها باصابعها المضمومة الاطراف – لقد شاهدتهم وانا اعرف

تلك الوجوه : عيون قتلة محترفين ، ووجنات عليها بثور العرامة وذقون غائصة ... اوغاد ! . . متبلدو الاحساس ، جهلاء ... ومثل هؤلاء لا مكان لهم تحت الشمس ! . .

— اهدئى ، اهدئى ، داريا ديميتريفنا . من الافضل ان ترى هل غلى الماء فى المرجل ؟

ذهبت داشا الى النافذة مسرعة . فى المساء الرمادى كان الجنود الحمر يمرون راكضين منحنين وقد وضعوا بنادقهم فى تأهب للهجوم . بل ولمحت وجوههم المتوترة الى حد التغضن . تعثر احدهم وكاد يسقط الا انه شمر ذراعيه ليوازن نفسه ، ومر راكضا ، ثم التفت مكشرا عن اسنانه .

. . . .

ارتفع صاروخ فوق السهب ، ونثر اضواء خضراء ساطعة اضاءت لدى سقوطها البطىء الظهور الرمادية المضغوطة فى الخنادق . وشخوص القوزاق الناهضة على مسافة قريبة لا تتجاوز مائتى ذراع . كان شخص يجرى بينهم وهو يدير سيفه فوق راسه . انطفأت الاضواء . وفى لحظة الظلام الدامس بدأ هتاف طل يتعالى كريح الزوبعة : «هوررررا !»

خلع تليغين قبعته ، ومرر كفه على شعره المبتل . لقد تم كل ما كان من الممكن التفكير فيه والتنبؤ به وانجازه . والآن بدأت المعركة النفسية ، كان العدو اقوى باربع مرات ، فى اغلب الظن ، اذا ما اخذت بعين الاعتبار تجمعات احتياطياته التى كانت تلوح بالكاد من خلال المنظار .

طلع ايفان ايليتش حتى كتفيه من ثغرة فى السطح وهو يراقب الوضع . وفجأة طوقت الضيعة بنيران الطلقات . ودار كل شىء فى عينى ايفان ايليتش ... تجمعت زمر من الرجال هنا وهناك فى الخنادق . . . اخذ يبحث عن قبعته مفكرا «من الاسف ان تضيع مثل هذه القبعة ! . .» هبط الى الاسفل على الفور ، ونزل من الرابية الى الخنادق .

ارتد هجوم القوزاق الاول فى كل مكان تقريبا وبالقرب من دكان الحدادة فقط كانت المعركة مشتدة ، كما توقع ايفان ايليتش . فقد نشب هناك اشتباك ، وتعالت صيحات وحشية ، وتفجرت

قنابل يدوية . وصل راكضا الى حائط السقيفة الطينى ، حيث كان يوجد الاحتياط . ولكنه لم يجد احدا ، فان المحاربين الحمر لم يضبطوا انفسهم ، وتصرفوا من تلقاء انفسهم ، وانطلقوا الى دكان الحداد لتقديم العون . كما هرع الى هناك ايفان غورا فى عدو وئيد منحنيا تحت ثقل كيس من القنابل اليدوية . . .

هتف ايفان ايليتش :

— يا مفوض ! ما هذا ؟ فوضى ! لا يجوز ذلك !

لم يلتفت ايفان غورا اليه الا بانفه الصارم الطالع من تحت الكيس . . . وبعد خطوتين راى ايفان ايليتش داشا تدخل البوابة وهى تسند محاربا يقفز على رجل واحدة . توقف ايفان ايليتش ، ورفع يده المنفرجة الاصابع وقال «اها . . . هذا ما جئت من اجله . . .» واستدار وعاد راكضا الى البطارية .

— هل كل شىء على ما يرام فى البطارية ؟

— كأحسن ما يكون الحال . مرحبا ، يا ايفان ايليتش .

— ايها الرفاق ، اطلقوا قذائف الشرابنيل على الاحتياطيين !

صعد ايفان ايليتش على سطح قريب ، والصق المنظار على عينيه . كان الاحتياطيون الذين لاحظهم قبل حين من الطاحونة يقتربون بكتل متراصة . صاح من السطح :

— نار سريعة !

اخذت قذائف الشرابنيل تتفجر واحدة تلو الاخرى فى عتمة السماء الرصاصية . تماوجت صفوف المهاجمين ، ولكنها واصلت تقدمها . وظلت قذائف الشرابنيل تتفجر فوق الرؤوس اوطأ فاوطأ ، الا ان الصفوف ظلت تتقدم . ارتفع صاروخ ، وتندل كالافعى ، كالرؤوس النارية فوق صفوف الجنود الصغار كجنود اللعب القصديرية ليضىء عملهم المالوف وكانه يقول لهم مشجعا «تقدموا الآن ، يا اخوان ، زاحفين على عظام البلاشفة . .» . . .
وما كاد الصاروخ ينطفىء حتى ارتفعت الى اليمين فى الشرق ثلاثة صواريخ متتالية وهبطت كاضواء حمراء كغرة متحوسة شاملة السماء كلها . وصاح تليغين :

— اجيبوا بثلاثة صواريخ حمراء متتالية !

. . . .

في عتمة المساء سار رجال بوديونى في قاع وهدة مسطحة ، ووثبوا على الجناح الايسر للمهاجمين مباغتة وبقوة شديدة مزقت صفوف القوزاق المشاة واكتسحتها في برهة قصيرة من الزمن ، وبدا الشيء الرهيب الذى يخشاه المشاة لدى التقائهم بالخيالة ، والذى لا منجى منه ، وهو الطعن في الراكضين . وكانت اضواء الصواريخ المنطلقة من الضيعة تضيء السهب حيث لا مكان يُنجي من الموت بنصل صافر . القى الرجال اسلحتهم وهم يركضون ، وغطوا رؤوسهم بايديهم ، وكان الظل الاسود للفرس وراكبه يلحق بهم ، ويقف الفارس البوديونى على الركاب مرنا ويميل جانبا ، ويطعن بكل سعة كتفه فيتدحرج جسم القوزاقى تحت حوافر حصانه .

ولما راى بوديونى ان قوات القوزاق قد دحرت في كل الميدان وهي تولى هاربة اوقف فرسه ، ورفع سيفه صائحا : «الى !» واستدار مع خمسين فارسا اقبلوا عليه ، وانطلق نحو الضيعة . كان حصانه سريع العدو . اندفع سيميون ميخاليلوفيتش بوديونى على فرسه دافعا جذعه الى الوراء على السرج ، مرخيا يده الممسكة بالسيف قرب الركاب لتستريح ، وقد انزل على علباته قبعته الفضية اللون من فراء الاغنام لكى تطرى الريح وجهه العرق ، وتتخلل شاربيه بحرية . وكان الفرسان الذين ينطلقون وراءه مضطرين الى همز خيولهم للحاق به . ساروا على حافة البركة التى كانت نجوم الصواريخ الساقطة تنعكس على البقع المتحررة من الثلج فيها . فر بعض الناس مبتعدين عن الفرسان ، وانبطحوا على الارض . لم يلق سيميون بوديونى بالا اليهم ، واشار بسيفه الى دكان الحدادة ، حيث ما يزال القتال ناشبا بين القوزاق ورجال كاتشالين . فكان هذا الجانب او ذاك يهجم بالسيوف مرة بعد اخرى ، ثم يتراجع ويستلقى على الارض .

انتشر فرسان بوديونى الخمسون كالمروحة واطلقوا العنان لخيولهم ، وعيونهم مصوبة نحو القبعة الفضية اللون القافزة امامهم ، واندفعوا من التلة عند البركة مهاجمين القوزاق المشاة ، وما من صلية رشاشة ، ولا انهمار رصاص ، ولا حراب مصوبة كانت في وسعها ان توقف اندفاع الخيول الناخرة من شدة الجهد .

واعملوا الطعن في كل من وقع في ايديهم ، ولم يوقف سيميون بوديونى فرسه الا في شارع الضيعة .

اسرع تليغين للقائه . لم يجبه سيميون ميخاليلوفيتش بوديونى راسا ، بل مسح نصل سيفه بمنديل ، ورمى المنديل على الارض ، واعاد السيف الكبير ذا المقبض النحاسى الى غمده ، ورفع كفا مستقيمة الى صدغه بالتحية وقال :

— مرحبا ، ايها الرفيق . مع من اتكلم ؟ مع آمر الفوج ؟ انا آمر اللواء بوديونى قائد الجماعة . آمرك بان تبقى سرية واحدة لحماية العربات والجرحى وان تتقدم بالوحدات الاخرى ومع المدفعية الى القرية فورا ، وتحتلها ، وتنظفها من القوزاق البيض .

— سمعا ، وسينفذ الامر .

— لحظة ، يا رفيق . . .

ووثب من على صهوة حصانه ، وحشر كفه تحت حزام السرج ، وضرب باصابعه مشفرى الحصان الذى جاهد ليمسك بكمه ، ومد يده الى ايفان ايليتش :

— هل الخسائر كثيرة ؟

— ليست كبيرة .

— هذا شيء جيد . اذن كان في امكانكم ان تصمدوا بقواكم الخاصة وبدوننا ؟

— نعم ، كان في امكاننا ان نصمد . فان الذخيرة كافية .

— هذا شيء جيد . يمكنك ان تنصرف .

— زالت الآلام في منطقة البطن تماما ، يا اليسيا كونستانتينوفنا ، بل ولا احس ببطنى . . . هذا سوء تركيب . . ان عضوا مهما للغاية كالبطن يترك مكشوفا بلا حماية . . . انغرز السيف اقل من بوصة واحدة فاحدث مثل هذا التخريب . . . مثل هذا التخريب . . . . اعطينى شيئا من الماء . . .

كانت اليسيا تجلس بالقرب منه متعبة صامتة . وكان المستشفى الآن يحتل بيتا آجريا من طابقين في القرية . ولم يبق فيه غير الذين اصيبوا بجراح خفيفة والذين كان من الصعب نقلهم

من هنا . اما الآخرون فقد ارسلوا الى تساريتسين قبل عدة ايام . كان شاريفين يحتضر . وكان لا يريد ان يموت ويتأسف كثيرا لمفارقته الحياة ، حتى ان اليسيا تعذبت معه ايضا . وقد كفت عن التسرية عنه ، واكتفت بالجلوس على مقربة من سريره ، والاصغاء اليه .

نهضت اليسيا لتغرف قدح ماء من الجردل وتقدمه له ليشربه . كان وجهه ملتهبا وعيناه الكبيرتان الزرقاوان تتبعان اليسيا ولا تنصرفان عنها . وكانت هى ترتدى كما ترتدى النساء اى مريولا ابيض ، وكان شعرها الذهبى الذى غالبا ما كان يحلم به قد ضفر فى ضفيرة واحدة لفت حول راسها . كان يخاف ان تنصرف فلا يبقى امامه الا ان يدفن راسه تحت المخدة ، ويصك اسنانه ، ويسمع الدم ينبض فى صدغيه بلا انتظام . وكان يتحدث بلا انقطاع . وكانت افكاره تتوهج مثل فتيلة قنديل موشكة على الانطفاء — مرة تلعق الحوافى ، ومرة ترتفع وتضيء بسطوع ، ثم تخفت وترف .

— لم تكونى فى ذلك الوقت جميلة ، يا اليسيا كونستانتينوفنا ، وكنت تبدين اكبر من عمرك بمرتين . . . تسندين خدك على يدك ، وتنظرين دون ان تبصرى شيئا . فقد كانت غشاوة المصيبة تغطى على بصرك . . . مع ذلك فانا لست من المشفقين ، فقد مسحت الشفقة من نفسى . . . المشفقون من الناس هم اكثرهم تيبسا . يجب ان يشفق الانسان مرة فى حياته . . . وكفى ! وينتهى الامر . . . يجب ان يوضع القلب على السندان ، ويلقى على الجمر المتوهج ، ومرة اخرى تحت المطرقة . . . على هذا النحو يجب ان يكون الكومسوموليون . . . عندما كنا على ظهر السفينة دعوت الى اجتماع سرى ، وقلت للرفاق انه لا يليق بالمقاتلين فى سبيل الثورة ان يمسوك . . . عند ذلك بدأ لاتوغين الحديث حول غاسلات الاوانى . . . آه ، لاتوغين ، لاتوغين ! . . . لا يليق هذا بك مطلقا ، يا اليسيا كونستانتينوفنا . . . الثورة اوقفتك على قدميك ، فصرت تتفتحين جمالا ، ولكن ليس له . . . ان ذلك طريق مسدود . ويجب ان تطرح هذه المسألة وتناضل فى سبيلها . . .

لعقت ذبالته حوافى الحياة ، وقاست الظلام الدانى ، وخفتت . مرر شاريفين لسانه على شفتيه الجافتين . قربت اليسيا قدح الماء منه . وعاد يتكلم مرة اخرى :

— انا اعرف من اجل اى شيء اموت . ذلك لا يثير اى شك فى نفسى . . . اود ان تذكرينى . . . انا من بتروغراد ، من جزيرة فاسيليفسكي . . . كان ابى نجارا ، وقد تعلمت فى المدرسة المهنية ، وعملت معه . . . كان يسحج فاسحج معه ، ويسحج فاسحج معه ، وكلانا صامت لا يتكلم . . . وذهبت للعمل فى مصنع البلطيق لبناء السفن . . . وهنا تكشف لى الشيء الرئيسى : لاى شيء انا موجود . . . وبدات حمى الافكار ، وعدم الاصطبار . وجذبنى العلو ، ولم تعد لى القوة على البقاء ساعة واحدة فى الاسفل . . . ثم جاءت الحرب واستدعيت الى الاسطول ، وصككت على اسنانى داخل فمى من الغيظ . كيف لا يمكن ان تفهمى ، يا اليسيا كونستانتينوفنا التى رايت السانا حيا ، ابتدعناه نحن ، واكتسبناه ، وصنعناه . . كيف نتركك تجوبين الارض ثانية منكسة الراس ؟ . . . لم الثورة اذن ؟ لن يكون ذلك صحيحا . . . يجب ان تكونى ممثلة . . . كنت كل مساء احوم حول هذه السقيفة واشاهد واسمع . . . «آه ، بحق الرب ، بحق الرحمة . . . انا مهجورة ، مهجورة . . .» ستهتز الجبهات كلها بتمثيلك . . . ستنتهى الحرب الاهلية وتصيرين ممثلة عالمية . . . عليك ان تسيرى فى هذا الطريق . . . ولا تضعفى . . . انه سيغنى لك ، ولكن لا تصغى اليه ، يا اليسيا كونستانتينوفنا . اود ان ابرهن لك انه لاحق لك فى حياة شخصية . . . عزيزتى . . . لماذا ادرت راسك ؟ سأستريح قليلا ، واجمع افكارى ، فاننى اريد ان اقول شيئا آخر . . . فقد اغفلت دليلا مهما . . .

وتقلب راسه على الوسادة ، ثم هدأ وصمت صمتا طويلا حتى ان اليسيا انحنت قريبا منه . كانت مقلتاه لا تلوحان من خلال جفنيه نصف المسبلين . لم يهتز قلب اليسيا لاحاديثه ، بل لتقلب عينيه فى جزع . وصار مفهوما لها كل ما جاهد ليعبر لها عنه بكلماته الحارة المشوشة . فى اغلب الظن ان طفليها الصغيرين قد ناداها على هذا النحو آنذاك ، وقد انزعتهما النار التى تلظت فى

كومة الدريس حولهما ، حيث كانا يجلسان متقاربين . ولم تكن اتيسيا حتى هذا الحين تسترجع فى ذاكرتها وجهيهما الطفولين خائفة من ذلك . وها هى الآن تراهما يطوفان فى عين خيالها كالاحياء ، بتروشكا فى سنه الرابعة ، والصغيرة اليونا . وكلاهما ذو شعر جعد وخدين ممتلئين وفم ضاحك ، وانف صغير . . . والآن هذا هو الثالث قد ناداها . وستودعه ، وترافقه حتى نهاية حياته .

اخذت اتيسيا تمسد بنعومة شعره المتلبد . اختلجت رموشه ، ورات بقعا زرقاء تنتشر على صدغيه .

١٤

كان القائد العام دينيكين يلعب فى مساء كل جمعة لعبة الورق «الفينت» مع يكاترينا الكسييفنا كفاشنينا قريبته البعيدة من ناحية امه . وكانت لعبة «الفينت» هذه قد بدأت منذ العقد الاخير من القرن الماضى ، حيث كان انتون ايفانوفيتش يدرس فى الاكاديمية ، ويستأجر غرفة فى شقة يكاترينا الكسييفنا الحسنة الترتيب – على الذوق البطرسبورغى – الواقعة فى الطابق الارضى فى الشارع الخامس فى جزيرة فاسيليفسكى . ولم يبق على قيد الحياة من اللاعبين الاربعة فى ذلك الحين الا هو وهى ، وقد القاهما الزمن العصيب فى يكاترينودار ، حيث اصبح انتون ايفانوفيتش ، بارادة الله ، على راس قوات البيض المسلحة ، بينما كانت يكاترينا الكسييفنا التى هربت من بتروغراد فى بداية عام ١٩١٨ تعيش عيشة متواضعة فى هذه البلدة مع ابنتها التى كان اسمها ايضا يكاترينا الكسييفنا ، الصغرى .

وقد عرض عليها القائد العام غير مرة تحت هذا العذر او ذاك ان يمدها بالعون ، الا انها كانت ترد قائلة «الافضل الا يكون هذا بيننا ، يا انتون ايفانوفيتش ، فان الفلوس تضيع الصداقة» . وكانت تعيل نفسها بتصحيح مسودات مطبوعات وكالة الاستعلامات فى بيتها ، كما انها كانت تحتفظ هى وابنتها ببعض الاشياء الثمينة الصغيرة لليوم الاسود .

وكان مساء الجمعة مقدسا ، ولم يكن احد ، حتى الجنرال لعبة «الفينت» التقليدية . ففى الساعة الثامنة مساء كانت عربة رومانوفسكى رئيس الاركان ، يجرؤ على انتزاع القائد العام من يجرها حصان واحد ولها ظليلة جلدية مرفوعة تقف امام بوابة بيت خشبى صغير متواضع فى الجزء السهبى البعيد من البلدة . ويأمر القائد العام الحوذى الملتحى الذى يعلق على صدره نياشين القديس غيورغى ، بان يعود ليأخذه عند منتصف الليل ، ويدخل البوابة بخطوات خافتة ويصعد الى مقدمة البيت الصغيرة ، حيث يبدو الباب وكانه ينفتح له من تلقاء نفسه .

وكان المخبرون الذين يرسلهم رئيس الاستخبارات كل جمعة الى هنا يحاولون الا يقع بصر القائد العام عليهم . كان احدهم يجلس على سقف البيت مختفيا وراء مدخنة الموقد ، والثانى وراء شجرة الحور الهرمية فى الجانب الآخر من الشارع ، والثان آخران وراء القاذورات فى الفناء . وكان دينيكين كرجل عسكرى لا يطيق المخبرين . وذات مرة ، والورق فى يديه ، روى هذه القصة عن القيصر الراحل نيقولاى الثانى بخصوص هذه الضرورة المؤسفة . كان هذا القيصر يهوى النزهات المنفردة فى المتنزه فى تسارسكويه سيلو . وكان المخبرون قد بثوا منذ الصباح وراء احواض الزهور والاجمات على طول الدروب التى يمكن ان يسلكها القيصر . وفى فصل الشتاء كان الثلج يتساقط فيحجب الرؤية عنهم . وذات مرة بينما كان القيصر يتمشى سمع وراءه صوتا يهس مكتوما : «الرقم السابع مر» واغتاظ نيقولا غيظا بالغا لان المخبرين سموه «السابع» فطرد رئيس البوليس السرى ، وبعد ذلك صار يسمى «الرقم الاول» .

وكان دينيكين يدخل الرواق الصغير المضاء بشمعة وينزع كالوشيه الجلديين بعقبيهما المؤطرين بالبرنز ، ويخلع بنفسه دائما وبدون معونة احد معطفه العسكرى الجوخ العريض ببطانته القرمزية ، ويصفف شعره الشائب المسرح الى الخلف بلمعته الرصاصية ، ويتقدم لينحنى على يد يكاترينا الكسييفنا . ويأخذ بين يديه يد ابنتها الصغيرة النحيلة الجميلة ، ويربت عليهما بلطف ، ويتوجه بتحية مقتضبة ناعمة : «مرحبا ، ايها السادة» الى

اللاعبين الآخرين وهما مرافقه الامير لوباتوف-روستوفسكى ، وفاسيلي فاسيليفيتش ستروبيه الرئيس السابق لقسم في احدى الوزارات ، وهو رجل عجوز لطيف المعشر من بطرسبورغ .

وفي غرفة الاستقبال تكون الطاولة قد اعدت ، ووضعت عليها شمعتان ، وصف الورق بشكل مروحة على الجوخ الاخضر . وحتى قطع الطباشير والمماسح المستديرة كانت تقليدية كتلك التي كانت في الاعوام المثيرة في جزيرة فاسيليفسكي .

وكانت يكاترينا الكسييفنا البادية المرح دائما ، القصيرة القامة جدا ، الممتلئة بافراط في الجزء الاسفل من جذعها تقبل متهادية نحو الطاولة بثوبها الاسود الملبوس كثيرا ، ووجهها المستدير ضاحك ، وفمها الكبير يهمس بلطافة ، وكان الكرسي القديم المعوج يصرف تحتها دائما من جراء تململها ، وكانت تضع تحته مصطبة صغيرة لتضع قدميها عليها . وقبل سحب الورقة التي تحدد شريكها في اللعب كانت تخمن ، وفي كل مرة كان يصادف ان يكون القائد العام شريكها . وكانت تصفق مرحة امام انفها :

— ها قد حزرت ، كما رايتم ، ايها السادة . . . ثانيا ، شريكي في اللعب انتون ايفانوفيتش مرة اخرى . . .

فيقول فاسيلي فاسيليفيتش بصوت كئيب :

— ممتاز !

ويجلس مختارا لنفسه طبشورة وممسحة .

وفاسيلي فاسيليفيتش بارد الدم ملم بكل شيء ، شكوكي حاضر البديهة ذو وجه نحيل صارم بدا عليه الهرم المبكر ، وكان منافسا خطرا للغاية في لعبة «الفينت» يعامل هذه اللعبة بلياقة صارمة مثل جميع البطربورغيين . وعاد يقول :

— ممتاز ، كما قال مستشار حكومي وهو يتخلى عن اوراقه الرابحة .

وتاخذ اصابعه الناعمة باظافرها الصلبة بتمشيط الورق بسرعة .

وكان اللاعب الرابع ، الامير لوباتوف روستوفسكي ، رغم شبابه ، شغوفا بالفينت ايضا . وكانت واجباته كمرافق قائد عام تقتصر على ذلك وعلى بعض المهمات الشخصية . وكان هناك اشخاص

آخرون من نمط حديث يقومون بالاعمال التنفيذية . وكان الامير ، مثل جميع آل لوباتوف روستوفسكي ، قبيحا له جمجمة مستطيلة صلعاء ، وجبهة ضخمة وقسمات وجه لا تلفت النظر . وكان الامير رفيع التهذيب ، اذا اغفلنا نقيصة وحيدة ، وهي دفع رجليه الطويلتين تحت الطاولة كما لو كان متضايقا من امتلاء مثانته . ولم يحدث قط ان اعرب عن رايه ، واذا سئل عن شيء اجاب ببلاغة غير متوقعة ، لانه كان يدرك جيدا انهم لن يتوجهوا اليه بامر جدي . وكان خدوما ، وفي هذا الصيف ، وقيل ان يجرح ويعطى ابدى شجاعة في المعارك .

كانوا يلعبون وكانهم يادون طقوسا . وكانوا لا يتطرقون الى السياسة او الحرب في تلك الساعات التي يقضونها في هذا البيت . فكان لا يسمع غير «ديناري . . . كوبه . . . من غير ورقة رابحة ، اثنتان من غير ورقة رابحة» . فرقعت الشمعة ، وارسلت الدخان سيكارة موضوعة على حافة منفضة زجاجية . واخيرا :

— اذن ، هل نستسلم ، يا يكاترينا الكسييفنا ؟

— مؤسف ، آه ، مؤسف ، يا انتون ايفانوفيتش . . .

وكانت يكاترينا الكسييفنا الابنة جالسة في الغرفة على اريكة صغيرة مغلفة بقماش البلش ، تحوك وتبتسم دون ان ترفع راسها . . . كان وجهها وعيناها ، وشعرها بلا لون ، وكان في الحناء جيدها الرقيق ، وفي يديها الجميلتين ظما الى الحنان لا يذبل . كانت يكاترينا الكسييفنا الصغيرة سريعة التعرض للحب ، في عامها السادس والعشرين ، وكانت كل علاقاتها العاطفية تنتهي نهاية محزنة ، احدهم جاء يودعها على عجل ، ويرحل الى الجبهة ، والثاني بوغتت بان له عشيقة ، وقد اعلن عن ذلك دون شفقة وهي الآن والعة في غرام لوباتوف-روستوفسكى الدميم ، واللطيف مع ذلك .

وكان يغازلها مازحا ، وكان ذلك يسر القائد العام الذي كان يعامل يكاترينا الصغيرة معاملة الابنة تقريبا . وكانت تحلم على الطريقة القديمة بان يشي الامير علبة سيكائره وفي صباح اليوم التالي ، وبغياب يكاترينا الكسييفنا الام ، يظهر امام شباك البيت راكبا فرسه ، ويدخل البيت ، ويحييها صافقا مهمازية (وهي في فستان

سوفى اسود ذى ياقة بيضاء وكفتين بيضاوتين فى طرفى الكمين) ، ويعتذر ، وتجمد احدى نكاته على شفتيه قبل ان يكملها ، ويتفرس فى وجهها ، ويفهم . ويدخلان غرفة الاستقبال ، والانفعال يعتمل فى نفسيهما . . . وفجأة يمسك عضد ذراعها ، ويجذبها اليه ، ويقول بادى الانفعال «لم اعرفك ، لم اعرفك ، انت مختلفة تماما ، انت شذية الرائحة . . .»وبهذه الكلمة كان تحليق خيالها ينقطع . كانت يكاترينا الكسييفنا تحوك وتبتسم دون ان ترفع عينيها الى الامير الجالس بين الشمعتين . كان يكفيها ان يكون موجــودا فى الغرفة ، وانها تشم رائحة تبغه الطيب . . .

كان ذلك هو العالم الصغير المقتطع من روسيا القديمة ، والذى كان القائد العام يستريح فيه ايام الجمع من المتاعــب الثقيلة .

اليوم جاء القائد العام متأخرا خلافا لعادته ، وقد بدا عليه الاستغراق وشىء من الذهول . وبينما كان يخلــع كالوشيه وطأ رجل قطة كانت تحوم عند قدميه . وزعقت القطة بصوت كريه . اختطفها لوبانوف-روستوفسكى ، وحملها الى المطبخ . ضحكــت يكاترينا الكسييفنا الام ، وقال فاسيلى فاسيليفيتش «توجد قطط لا تطاق» . وانتظر الجميع ان يدخل دينيكين غرفة الاستقبال ، الا انه علق معطفه غارقا فى افكاره ، وظل واقفا ، جاذبا شعر لحيته الشبيهة بالاسفين فى شكلها . عندئذ بدا الجد على جميع الوجوه ، واستمر الصمت المقلق حتى جاء الامير واعلن ان القطة فى حالــة جيدة . قال دينيكين :

– اها . . . هذا حسن . . . دعونا لا نضيع الوقت .

ولعب اسوأ من المعتاد ، ملقيا الورقات التى لا ينبغــى القاؤها ، متلفتا طوال الوقت نحو النوافذ رغم انها كانت مغلقــة بالصفاقات . نهضت يكاترينا الكسييفنا الصغيرة بهدوء ، والقت معطفها على كتفيها ، وخرجت الى الفناء لتتأكد من ان الحراس فى اماكنهم . اصطكت اسنان المخبر الذى كان جالسا على السطح وراء المدخنة حيث كانت الريح اللاذعة تصفر ، والى الاعلى كان الهلال الكدر يغوص فى السحب كالمجنون ثم يظهر ، وصاح المخبر :

– ايتها الآنسة ، اجلبى لى شيئا من الفودكا بحق الرب . .

وفى حوالى العاشرة وصلت سيارة . وضع القائد العام اوراقه ، ولمعت عيناه المجهدتان . دخــل الجنرال رومانوفسكى طويلا مورد الخدين متشامخا يرتدى معطفا من معاطف الضباط وقــد اصاب على صدره طرفا قلنسوته القوزاقيـــة . خلع الجنرال قبعته ، وضرب مهمازيه بطريقة جافة ، وانحنى انحناءة عامـــة للجميع :

– انتون ايفانوفيتش ، جئت لآخذك .

– اذن ، فقد حصل ؟

– بالضبط ، يا انتون ايفانوفيتش .

اسرع دينيكين يقول :

– ساعود ، يا سادة ، فاعذرونى ، فانهــا الظروف – وفى الرواق لم يستطع ان يدخل يده فى كم معطفــه الا بعد محاولات – ابق ، يا اميــر ، هنــا ، والعب بعض الوقت . . . اذن ، لا اتوادع معك ، يا يكاترينا الكسييفنا . . .

عاد اللاعبون الى الطاولة ، ولكن رغبتهم فى اللعب قد زالت . تنهدت يكاترينا الكسييفنا الام تنهيدة مكبوتــة . عقد فاسيلى فاسيليفيتش حاجبيه الكثيفين ، ورســم على المفرش الجوخ بالطباشير مشانق صغيرة وعقاريت . وجلس الامير على الاريكة قرب يكاترينا الكسييفنا الابنة ، فتالقت ، وتركت حياكتها . بدا الامير ، وهو يهز ساقه ، يحدثها بانه اكتشف هنا قارئة بخت مدهشة ، ويود ان يأتى بها الى انتون ايفانوفيتش .

– انها تأخذ شعرة من راسك وتحرقها من الشمعة فيظهر الزبد من فمها . . . .

– ماذا تنبأت لك ؟

– تنبأت بسفر على الحصان ، وباننى ساجرح ثلاث مرات ، ولكن كل شىء سينتهى بزفاف . .

وحرك رجليه ، وتمايل وكأن احدا كان يهزه من وراء كتفه ، واخذ يغص بالضحك . توردت رقبة يكاترينا الرقيقــة واذنها . وقالت يكاترينا الكسييفنا الام ، وهى تمسح عينيها :

– كل شىء مقلق حقا ، واعصاب الجميع متوترة . . . يــا الهى ، لم نتصور قط اننا سنكون بهذه الحال . . .

— نعم ، نعم ، كنا نتصور القليل – اجاب فاسيلي فاسيليفيتش ، ورسم فاسا ومقصلة – روسيا بلاد عجيبة . . .

وفى القائد العام بوعده ، فحين دقت الساعة الانجليزية الصغيرة بعلبتها دقا خفيفا معلنة الحادية عشرة بربرت السيارة خلف النوافذ ، وعاد انتون ايفانوفيتش دينيكين يخلع كالوشيه ، ويقول :

— كنت اعرف ، يا يكاترينا الكسييفنا انك قد هيأت اليوم ديكا روميا مع الكستناء . . . اذن ، ارجو ايهـا الامير العزيز ان تخرج من سيارتي زجاجة شمبانيا . .

كان بادي الحيوية ، يفرك يديه ، الا انه رفض اقتراح اكمال اللعبة . «اتركوها ، انا ويكاترينا الكسييفنا نستسلم مقدما ، متقلدين شرفنا فقط» . بل وتناول سيكارة من علبة سيكائر فاسيلي فاسيليفيتش الذهبية ، وشرع يدخن . وهذا شيء لم يحدث معه قط . واستعجلوا في اعداد العشاء ، ودخل الجميع غرفة الطعام الصغيرة ، حيث كانت شمعتان تضيء بضوء رقيق ، وعلى الطريقة القديمة ، اوراق الحيطان الرخيصة ، وعلى المائدة صفت اوان مثلمة عليها معجون اللحم والمشهيات . وكان الشيء الوحيد المفقود هو سمك الجلكي مع صلصة الخردل ، وهو الطبق المفضل لدى انتون ايفانوفيتش . كما لم تكن ايضا الطمأنينة المعتادة ، حين كان اللاعبون بعد انتهاء اللعب يتحلقون حول المائدة متابعين الجدل «اؤكد لك انه كان عليك ان تلقي البستوني . . .» او «يا سيدتي كنت اعرف ان في يديه آسا وملكا وملكة بينما كنت تضربين قدمي من تحت الطاولة . . .»

احس الامير ببعض التوتر فلفت الانتباه اليه بشهامة اذ اخذ يتكلم عن بواب في بطرسبورغ كان يملك قوة غامضة لمعالجة وجع الاسنان ، والحروق والالتهاب الجلدي ، وبالمناسبة ، انه تنبأ بالحرب الالمانية ، وهو ينظر في صحن فيه ترسبات القهوة . ولم يكن ذكر الحرب في محله تماما . فاسرع فاسيلي فاسيليفيتش في تناول القارورة ، وصب الفودكا قائلا :

— يتعين علينا ان نشرب نخب الا تحرم روسيا من البوابين المدهشين . . .

وفي ذلك الوقت جُلب الديك الرومي . القى القائد العام ظهره على المقعد ، وراقب ببصر حاد دخول هذا الطبق ، ووضعه على المائدة بين الاواني المتزاحمة ، وقد تصاعد البخار منه الى ضوئي الشمعتين فتمايلا تمايلا خفيفا .

قال القائد العام واقتطع لنفسه الجناح :

— في روسيا فقط توجد مثل هذه الديك الرومية .

نهض الامير ، وفتح زجاجة الشمبانيا دون ان يحدث صوتا ، وصبها في اقداح الشاي . خلع انتون ايفانوفيتش فوطة الطعام من وراء ياقته ببطء ، وتناول القدح ، ونهض ممسكا بمقعده ، وقال :

— ايها السادة ، لا استطيع ان امنع نفسي من اخباركم باخبار سارة . . . بان القوات الفرنسية قد نزلت صباح اليوم في اوديسا ، واحتلت القوات اليونانية خيرسون ونيكولاييف . ان معونة الحلفاء التي انتظرناها طويلا قد جاءت اخيرا . . .

في يكاترينودار هبطت طائرة انجليزية نزل منها رجل غريب جدا حتى ان الدوائر الحاكمة وذات النفوذ لم تعرف ماذا تعتبره : اهو عميل سري لكليمانصو ، او مجرد مغامر ، او ربما شخصية خطيرة الشأن . وكان اسم عائلته فرنسيا : جيرو ، واسمه بيتر بيتروفيتش ، وكان يتكلم الروسية بلهجة جنوبية ، وبطلاقة ، ويحمل جواز سفر اوروغوائيا ، رغم ان هذه الحقيقة لم تكن تشير الى قوميته ، بقدر ما تشير الى قدرته على التغلغل بدهاء . وكان قد جاء من باريس على ظهر باخرة افرغت في نوفوروسيسك حمولة من البنادق والذخيرة ومعدات اخرى . وكانت الوثائق التي قدمها لآمر المدينة العسكري في غاية الضبط ، وهي رسائل توصية من نواب في البرلمان ، ورسالة من وزير الشؤون الكنسية ، ورسالة اخرى من كونتيسة فرنسية يصعب تلفظ اسمها ، وبطاقة صحفية من جريدة «لو بيتي باريزيان» واخيرا عروض عملية من دوائر مختلفة اخذت في ذلك الوقت تطلع كالفطر على الاحتياطات الضخمة من كل اصناف البضائع والحمولات السريعة التلف الموردة الى فرنسا من كل انحاء العالم .

وجد القائمون بالامر انفسهم امام حقيقة واقعة مهما قلبوا الفكر : فهذا رجل قادم من باريس الى يكاترينودار التي ما تزال تحتفظ بآثار معارك آذار والصيف ، وكأنه نازل من السماء ، رجل انيق اللباس ، اوروبي بكامل قيافته ، في سترة قصيرة لها ياقة من فراء الظربان الامريكي ، ولفاع زاهي الالوان يغطي صدره كله ، يحمل حقيبتين جديدتين ، وآلة تصوير معلقة على كتفه . وكان ينتعل حذاء اصفر بديعا ذا نعلين سميكين بارزين لم يستطع حتى الامر نفسه ان ينتزع بصره عنه ، فكيف بجمهور الناس في الشارع ، حيث سار بيتر بيتروفيتش جيرو وراء قوزاقي يحمل حقيبتيه رافعا راسه بقبعته الرمادية الفاتحة الممالة باناقة .

انزلوا هذا الاجنبي في احسن فندق ، وفي غرفة «لوكس» بعد ان افرغوها من المسافر المضارب باكريكاكي وفتاته . وفي اليوم التالي قام جيرو بزيارة الجنرال دينيكين .

اضطرب انتون ايفانوفيتش دينيكين ، وارسل اليه الجنرال رومانوفسكي الى غرفة الاستقبال معتذرا بان القائد العام قد المت به وعكة خفيفة ولكنه سعيد من وجود ضيف بارز في بلدته .

فذهب جيرو لزيارة البروفيسور كولوغريفوف احد اساطين دوما الدولة ، والذي يحيط دينيكين هنا بجو الافكار السياسية تحت اسم «المجمع الوطني» . وكان البروفيسور كولوغريفوف يعرف باريس جيدا ، ويحبها فابقى جيرو العزيز عدة ساعات متذكرا بنشوة الغداءات في المطاعم الصغيرة والترفيهات الليلية في مونمارتر . وتذكر رائحة البولفارات ، وعلى الرغم من بطنته المترهل ولحيته الشعثاء الكثة فقد لاحت على وجهه بشاشة فتية .

– شير آمي * هذا لا يحتاج الى القول . ثم تلك الرائحة الفريدة الخاصة بالنساء الفرنسيات ! . . . انا مستعد ان اقبل الاحجار في شوارع باريس . نعم ، نعم ، وارجو الا يبدو ذلك غريبا لك ، فانك واجد في كل روسي وطنيا متحمسا لفرنسا . . . وهذا ما يجب ان تكتب عنه ! . .

---

* يا صديقي العزيز – كما تنطق بالفرنسية . (المترجم) .

وتقرر جمع حلقة محددة من ممثلي «المجمع الوطني» في بيت احد الافراد ، والاستماع اثناء الفطور الى ما يتحدث به السيد جيرو عن السياسة الدولية .

– شير آمي ! – هتف البروفيسور كولوغريفوف وهو يلوي لزرار سترة الضيف علامة على الالفة – انك ستجد اناس ادركوا قبلكم في اوروبا الخطر المريع لآلة فرم اللحم الحمراء . . ان البلشفية هي حقد الطبقات الواطئة المخرب لكل شيء ، وضراوة حثالات البشرية . . . انكم تزدون انحناءة الاحترام الى الاشتراكية ، ولا يسلم من ذلك حتى احسنكم واكثركم ذكاء . هراء ! وابتذال ! توجد اشتراكية ، ولكن لا يوجد اشتراكيون ، لان الاشتراكية غير قابلة للتحقيق . . . وسنثبت لكم ذلك ! وروسيا مدعوة بارادة التاريخ الى ان تكون حاجزا ستتحطم عليه الموجات الابدية للفوضوية . وبهذا ندفع لذلك جلودنا ، ونعطي الامكانية لتطور هادئ للحضارة الاوروبية . . . ومن اجل ذلك ، من اجل انقاذ اوروبا والعالم اجمع من الشبح الاحمر لنبسط لكم ايدينا ، فمدوا لنا يد المساعدة . . . نحن مستعدون للقيام باية تنازلات ، فان روسيا تتحمل كل تضحية . . . وهذا ما يجب ان تكتب عنه . . .

واقتضى الفطور كثيرا من المشاغل ، فلم يكن في يكاترينودار شيء من الاطعمة الرهيفة المذاق ، لا شيء غير شحم الخنزير المقدد والوز ولحم الخنزير ، وانت لا تستطيع ان تطعم الباريسي لقم العجين واللحم ! واقترح فون ليزه عضو «المجمع الوطني» والمعروف بذوقه الرهيف قائمة طعام تتالف من حساء اللحم والفطائر ، وطبق متلوت من سمك البربوط بالنبيذ الاحمر ، وطبق ثالث ، هو دجاجة مسلوقة في مثانة خنزير بدون اية قطرة من الماء . وحصلوا على نبيذ جيد عن طريق المضارب بابريكاكي . وفي تمام الساعة الواحدة اجتمع ستة اشخاص من ضمنهم بيتر بيتروفيتش جيرو في شقة شولغين عضو دوما الدولة ومحرر وناشر صحيفة «رودنايا زيمليا» . وكان الفطور رهيفا حقا . وحين قدمت القهوة المصنوعة من الشعير المحمص ، اخذ جيرو يدلي ببياناته :

– ساحدثكم ببعض الكلمات عن باريس ، ايها السادة . . . انتم على معرفة جيدة بها . كان الاجانب يتركون فيها كل عام اكثر

من اربعة مليارات فرنك ذهبا . فلا عجب ان تدير الرؤوس الابخرة المتصاعدة من شوارعها ، ومن ذلك رؤوس الحالمين الناظرين الى سيول السيارات اللامعة من علو نوافذ العليات . والآن ، واأسفاه ، لا وجود للحالمين في باريس ، فان جثثهم تتفسخ ملوثة الهواء على نهر سوم ، وفي شمبانيا ، وفي اردين . لم تعد باريس مدينة المرح ، حيث يرقص الناس في الشوارع ، ويقهقهون بكل حناجرهم على لحية الملك ليوبولد ، او على غراميات الغراندوق الروسي الفاشلة . ان باريس وفرنسا قد فقدتا مليونا ونصف مليون رجل صرعوا في الحرب . وباريس مملوءة بالصبيان الذين يحترفون اللواط . وعلى سطيحات المقاهي لا يجلس الا الشيوخ الكئيبون الذين لا يثيرون الاهتمام حتى بين المومسات ممن يتقاضين للخلوة بهن عشرين فرنكا . وتسير سيارات الاجرة التي بعجت في مارنه مترقعة على الارصفة المهشمة . وما يزال الجنود الامريكيون العرمون كالخيول المستريحة يقبلون في المطاعم والمقاهي الفاخرة . النساء ! أوه ، النساء دائما في المقدمة . قطعن فساتينهن الى حد الركبة والغين الملابس الداخلية .

اصوات حول المائدة :

– اوضح اكثر ، ارجوك .

– في المساء تخرج النساء الى المسرح والمطعم متغطيات من الخارج فقط بما لا وزن له ، وبعبارة ادق ان فساتينهن ليست الا قطعتين ضيقتين من القماش ربطت بهما تنورة قصيرة . . وكل رشاقتهن في سيقانهن العارية ، وسيقان الباريسيات فاتنة . فما الحاجة الى الملابس الداخلية ، اذن ؟ اللعنة ! لقد تحملنا الحرمانات في الخنادق من اجل شيء ما . ولكن كل هذه الاشياء توافه . ان باريس اليوم هي المدينة المنتصرة . وهي كئيبة ، شوارعها غير مكنوسة جيدا ، الا انها مشحونة كلها بالاحاديث المقلقة ذات الوجهين . كسبت باريس الحرب العالمية ، وهي تستعد لتكسب الثورة المضادة على مستوى العالم .

قال ثلاثة ممن حول المائدة «برافو» بصوت خافت . وامتنع الرابع عن التعليق لانه كان مشغولا بصنع كرة من فتات الخبز .

اما الخامس فهز كتفا واحدة بحركة غامضة اشفعها بابتسامة غامضة ايضا .

– باريس اليوم مغارة لمر هالج . وكليمانصو متعطش للانتقام . وقبل ان يعقد الصلح – وهذا لا يحدث قريبا – ستعاني المانيا جميع اهوال حصار الجوع . وستقلع انيابها وتقلم اظفارها الى الابد . وقد قال كليمانصو في حديث شخصي له «ساقتل لدى الالمان حتى الامل في ان يصبحوا اكثر من بلاد بلا مقام . وكمية البازلاء والبطاطس التي يملكونها لا تقيهم الا من الموت جوعا» . ولكن كليمانصو ، ايها السادة ، كان قبل خمسين عاما يعاني من ذل الرعب امام كومونة باريس الى جانب ذل العار في سيدان . وذات مرة ، في حفلة فطور للصحفيين استغرق في الذكريات ، وتحدث عن الاثر الذي خلفته في نفسه رؤيته لقطع عمود الامبراطور العظيم المقلوب في ساحة فاندوم . وكان الكومونيون قد اطاحوا بهذا العمود بمعونة عدد كبير من الحبال والرافعات . فقال «لم يصعقني التهديم بل الفكرة التي حمست العمال الفرنسيين للقيام بذلك . ان خطرا مميتا يزحف على الحضارة . وفي الامكان ابعاده ، ولكنه سيعود ، وسيعود في اليوم الذي يوضع فيه السلاح في يد الشعب . وسيكون ذلك يوم ثأرنا لسيدان ، يوما سيتعين علينا فيه ان نحارب في جبهتين» . ايها السادة ، لقد تبين ان كليمانصو كان على حق . الى باريس يعود المسرحون من الجيش ، وقد مروا بفظائع فردن وسوم ، واقامة المتاريس والقتال في الشوارع بالنسبة لهم مجرد تسلية . انهم في كل الحانات يجمعون حولهم المستمعين ويصرخون بانهم قد خدعوا . فالذين حاربوا تسلموا اشرطة ونياشين وسيقانا اصطناعية ، اما الذين حاربوا من اجلهم فقد كسبوا المليارات من النقود الصافية . . . . والبرجوازيون الذين دمرهم التضخم النقدي يقرعون الانخاب مع المتذمرين . وضواحي باريس مضطربة . والمصانع معطلة ، وقوات حامية باريس يشوبها الغموض . وفي المانيا فوضى الثورة ولا يكاد الاشتراكيون الديموقراطيون يتحملون ضغطها . وهنغاريا ستعلن السوفييتات ، ان لم يكن اليوم فغدا . . . وانجلترا تعاني من شلل الاضرابات ، وحكومة لويد جورج تجاهد فقط لان تسوق المركب بين الصخور

على الجانبين . وانظار الجميع مصوبة نحو كليمانصو . فهو وحده يدرك ان الضربة القاضية على ثورة اوربا كلها يجب ان توجه فى بلادكم ، فى موسكو . ان الصيادين الايطاليين حين يخرجون الاخطبوط من الشبكة يقرضون بالاسنان متانته الهوائية فترتخى اطرافه بمصاصاتها الفظيعة عاجزة عن الحركة . . .

تشعشت شعور الجالسين حول المائدة ، وعرقت نظاراتهم فخلعوها . وحين توقف جيرو ليقضم نهاية سيقار جديد انهالت الاسئلة عليه :

– كم فرقة فرنسية ارسلت الى اوديسا ؟

– هل ينوى الفرنسيون التوغل فى عمق البلاد ؟

– هل يعرفون فى باريس عن الاخفاقات الاخيرة فى هجوم كراسنوف على تساريتسين ؟ وهل ستقدم المساعدة لكراسنوف ؟

– هل تم تقسيم مناطق النفوذ فى روسيا ؟ وبالمناسبة من ينوى ان يساعد بشكل جدى جيش المتطوعين ؟

اطلق جيرو دخانا ازرق ببطء :

– ايها السادة ، انتم تسالوننى وكاننى كليمانصو نفسه . انا صحفى . وقد ابدت عدة صحف اهتماما بالمسالة الروسية ، فارسلتنى اليكم . ان مسالة المساعدة المباشرة بالقوات تتعقد . ولويد جورج لا يريد ان يثير الاعصاب بلا فائدة . فلو ارسل الى نوفوروسيسك مجرد كتيبتين من المشاة الانجليز فانه سيخسر دوزينتين من الاصوات فى الانتخابات التكميلية الى البرلمان . ومعلوماتى الاخيرة هى كالآتى : اسرع لويد جورج بالسفر الى باريس على طائرة ، مفضلا هذه الطريقة فى التنقل جوا لاحتمال وقوع انفجار فى البحر لان الماتش قد امتلأ مرة اخرى بالالغام العائمة بسبب العواصف ، وقبل ايام فليلة اعرب فى مجلس العشرة عن الافكار التالية : ان الامل فى انهيار سريع للحكومة البلشفية لم يتحقق ، وهناك معلومات تقول ان البلاشفة اقوى الآن من اى وقت مضى ، وان نفوذهم بين الشعب قد قوى ، وحتى الفلاحون ينحازون الى جانب البلاشفة . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان روسيا البلشفية قد عادت الى حدودها الطبيعية فى زمن دولة موسكو – سوزدال فى القرن الخامس عشر وانها لا تشكل خطرا

جديا على احد فانه ينبغى ان يقترح على حكومة موسكو ان ترسل من يمثلها الى باريس ، ليمثل امام مجلس العشرة على غرار ما فعلت الامبراطورية الرومانية حين استدعت زعماء المقاطعات البعيدة الخاضعة لروما ليقدم هؤلاء تقارير عن اعمالهم . . . هذا هو ، ايها السادة ، وضعنا فى الغرب . . . هل لديكم اسئلة اخرى ؟ . .

وبعد عدة ايام من هذا الفطور (الذى ادخله البروفيسور كولوغريفوف فى الحوليات) اعلن الآمر العسكرى فى تقريره للقائد العام :

– مقابل فندق «سافوى» تماما ، يا صاحب السيادة ، فتح محل مشتريات لا يقبل الا الذهب والماس ، ويدفع لقاءها اثمانا عالية للغاية من عملة الدون . . . ونوعية النقود مشكوك فيها ، لان الاوراق النقدية جديدة . . .

قال دينيكين غاضبا ، وهو ينظر فى الواح الطبعة التجريبية للنشرات العسكرية :

– انت تشك دائما ، يا فيتالى فيتاليفيتش . ها انت مرة اخرى جلدت يهوديا دون علمى ، بينما ظهر انه لم يكن يهوديا على الاطلاق ، بل صاحب اراض من مقاطعة اورال . . . بين سكان هذه المقاطعة يوجد اناس شعرهم اسود ، بل وحتى من أهم شبه بالغجر . . . آه ، يا لك ! . .

– اعتذر ، يا صاحب السيادة . حصل التباس . . . لنعد الى محل المشتريات هذا – الترخيص مسجل باسم المضارب بابريكاكى من سكان يكاترينوسلاف ، بينما اتضح لنا ان صاحبه الحقيقى الذى وظف فيه راسمالا مشكوكا فى قيمته هو (وهنا انحنى الآمر الانحناءة التى تسمح بها سمنته) الفرنسى بيتر بيتروفيتش جيرو . . .

القى دينيكين الالواح على الطاولة :

اسمع ، ايها العقيد . لعلك تريد ان تفسد علاقتنا بفرنسا بسبب صغائر ، بسبب سلاسل وخواتم صغيرة ! وماذا فعلت ايضا مع هذا المحل ؟

– ختمت على القاصة . . .

– اسرع على الفور ، وفض الختم ، واعتذر . . . بحيث . . .

– سمعا .

وسار الأمر على اطراف اصابعه ، وغاب بكرشه وراء الباب . وبعد ذلك ظل القائد العام ينقر باصابعه على المنشورات العسكرية وقتا طويلا وشارباه الاشيبان يرتعشان .

– شعب ماكر !

قال ذلك ، ولم يكن واضحا اى شعب يقصد به : شعبه ام الشعب الفرنسي . . .

١٥

في ضيعة بروخلادلى كانت في انتظار فاديم بيتروفيتش روتشين خيبة امل جديدة . راى الباب الخارجي للبيت الذى عاشت فيه كاتيا مع عائلة كراسيلنيكوف مفتوحا على مصراعيه ، وقد غطى الثلج النقي على آثار الاقدام كلها ، وتكوم على عتبة البيت المهجور كومة ثقبتها قطرات الذوبان .

ولم يستطع احد ان يقول لفاديم بيتروفيتش روتشين الى اين رحل كراسيلنيكوف مع المراتين . لم ينفوا ان شخصا يدعى كراسيلنيكوف كان يعيش هنا ، ولكن لا احد يعرف من اين هو ، ولا القرية التي جاء منها ، فان ناسا كثيرين من شتى الاوزاع قد جاءوا الى الاتمان ماخنو .

في البيت رائحة موقد بارد ، وعلى الارض قاذورات ، وقد تسرب الثلج من النافذة المحطمة . وعند الحائط تختان عاريان . ولم يبق من كاتيا الراحلة ولو مجرد ظل على الحيطان المقشرة . وبعد الجهود الكثيرة تقاطع طريقاهما ، ولكنه جاء متاخرا .

جلس فاديم بيتروفيتش على تخت قد صنع من الواح غير مسحوجة . ايا من التختين كان تخت الزوجية ، هذا او ذاك ؟ الكسى رجل جميل وقح . . . «بكيت موكفى . امسحى الآن عينيك» قال لها بلهجة غير فظة – فقد كان اذكى من ان يكون غليظا مع سيدة محترمة – قال بمرح وبشكل قاطع . . . وهدات القطيطة ، واستجابت وخضعت . وبشيء من الخجل والاحتشام تركته يفعل بها كل ما يشتهى . . . وفي القلب الظن لم تنطح الحائط براسها !

التصقت به والتفت حوله مسلوبة الارادة وبلا عاطفة كما يلتف الليلاب الشاحب ذو الازاهير المرة حول جذع شجرة . . .

دار فاديم بيتروفيتش في البيت ، واطنا علبا فارغة للمعلبات . تخيل فالت فاسق ، كذب ! – عاد فاديم يقول لنفسه – لا بد ان كاتيا صارت ، ولم تستسلم ، وبقيت وفية طاهرة ! انه لجبان ، ومبتذل ! ايظن انها ستظل نقية وفية اخلاصا لذكراه ؟ من الافضل ان تجيب : هل ستقتل الاثنين لو رايتهما على هذا التخت الصارق ؟ ام ستنظر اليهما من العتبة ، وترى عيني كاتيا ، عالمك المفقود ، وتقول : «اعذرانى ، يبدو انني زائد هنا . . .» وهذا هو امتحانك في الالم . . تلك هي المحنة الرهيبة اخيرا . . . والآن لا تقدر ان تتحمل اكثر ؟ لا ، تقدر ، تقدر ! ستظل تبحث عن كاتيا . تبحث ، وتبحث . . .

كان كاريتنيك ذو الوجه المعوج الذى يصاحب فاديم ينتظره في العربة . خرج روتشين من باب البيت الخارجي ، وصعد الى العربة ، ورفع ياقة معطفه محتميا من الريح . كان سائق ماخنو الشخصي وحارسه والصادع على الفور باوامره القصيرة ، هو الذى يسوق العربة . كان رجلا طويلا صموتا يكنى بالاخرس العظيم ، له وجه قد استطال جزؤه الاسفل ، وكانه منعكس على مرآة معكوفة . وقد ساق الخيول الاربعة بعنف شديد حتى ان الراكب لا يكاد يستقر في جلسته متشبثا بكلا جانبي العربة .

قال كاريتنيك رافعا الكلفة وهو ينط ويتمايل ويتخبط في العربة :

– كفى تكشيرا ، ايها الراس الاغبر . اذا امر الاتمان وجدنا زوجتك من تحت الارض . آه ، يا ربي ، كان ذلك شيء يقلق ! النساء مصبوغات من الخارج فقط ، ولكنهن من عجينة واحدة . بلاء . . . ابصق عليها ، لن ترحل عنه . ملا الكسى كراسيلنيكوف ثلاث عربات من الغنائم . . . كان فتى السرية الاول في النهب والسلب ، ومن حسن حظه انه غادر في الوقت المناسب . . .

ردد فاديم بيتروفيتش مع نفسه ، وهو يدفن وجهه حتى حاجبيه في ياقته المرفوعة : «انت تقدر ، تقدر ليست هذه الا بداية لمحنك . . .»

دخلت العربة غولاى – بوله منطلقة فى شارعها المرصوف بالحجارة دون ان تقلل من سرعتها . واوقف الاخرس العظيم الخيول الاربعة العرقة عند مقر القيادة . وكانوا يتوقعون روتشين هناك . وسرعان ما استدعى لمقابلة الاتمان . كان ماختو براس اجتماعا للمجلس العسكرى الكبير فى غرفة صف غير مدفأة ، حيث كان امراء الوحدات يجلسون على المقاعد المدرسية الصغيرة باوضاع غير مريحة . وكان نستور ايفانوفيتش ماختو فى سترة سوداء مشدودة بحزامين اصفرين متصالبين يسير امام المقاعد كالفهد . وكان وجهه وهو صاح ، يبدو اكثر نحولا ، وكان يضع يديه وراء ظهره ممسكا باليمنى يده اليسرى المرتخية كالسوط . وبرهة من الوقت اوقف فاديم بيتروفيتش بنظرة حادة ، وقال له بصوت نافذ :

– ستسافر الى يكاترينوسلاف . وتقدم التفويض الى اللجنة الثورية . وتراقب خطة الانتفاضة نيابة عن قيادتى . اذهب .

رفع روتشين يده الى قبعته بتحية قصيرة ، واستدار ، وخرج ، وكان لوفكا زادوف ينتظره فى الممر .

– كل شىء على ما يرام . التفويض معى – وطوق كتفى فاديم بيتروفيتش ، وقاده فى الممر ، ودفعه بردفه الى احد الابواب – عليك ان تخلع معطفك . وساهدى لك معطفا آخر بطيات عند الخصر – ودون ان يرفع ذراعه عن كتفه فتح الباب بثلاثة مفاتيح – انه عائد لى شخصيا ، ومبطن بالفراء الفاخر . يجب ان تكسب صداقة ليفا . فمن يكن صديقا لليفا يكسب ورقة رابحة .

وادخل روتشين فى غرفة لها نفس الرائحة الحامضة الموجودة فى المركز الثقافى ، واستمر فى المفاخرة بنفسه وباشيائه المتناثرة فى ارجاء الغرفة ، وقدم لفاديم بيتروفيتش معطفا جيدا حقا سوى انه مثقب ببعض ثقوب الرصاص على الصدر والظهر . واندس تحت التخت وهو يلهث لبدانته ، واخرج كومة القبعات واختار واحدة من فراء الحمل لها قمة قرمزية ، والقاها الى روتشين عبر الغرفة واثقا من ان هذا سيتلقفها وهى طائرة . ثم اخذته نوبة البذخ فاختطف من الحائط سيفا قفقاسيا مزينا بالفضة : «وليكن ذلك . تقلده ، انه عائد الى احد الفرسان . . .» ثم اخذ يهندم نفسه . شد على كل من معصميه ساعة ذهبية بسوار – وحزّم

سترته بحزام عليه مسدسان «موزر» وتقلد سيفا له غمد تساقطت قشرته ، بعد ان جرب حده باصبعه مقدما : «هذا . . . لعمل اليومى . .» وادخل رجليه فى كالوشين مطاطيين عاليين : «من يستطيع ان يقول انى لست فارسا ، على حد تعبير الناس فى اوديسا الام . . .» وفوق ذلك كله لبس فروة خروف : «لنذهب ، ايها الهر الصغير ، سارافقك . . .»

واوصلهما الاخرس العظيم بعينه الى محطة القطار وقال لوفكا بحضوره ، وبحيث لا يسمعه هذا :

– انه رجل ذو قوة نادرة ، من المحكومين . هرب الاتمان معه من السجن القيصرى . كن حذرا معه . الوحش لا يحب ان ينظر الناس اليه طويلا . . حتى انا اخافه . .

وانطرح لوفكا فى العربة راضيا عن نفسه ، منشرحا متوردا .

– اسعدك الحظ ، يا روتشين . اعجبتنى لسبب لا اعرفه .

. . . انا احب الارستقراطيين . . . قبل ايام تعين على ان اقتل ثلاثة اخوة امراء من آل غوليتسين . . . تصرفوا بروعة . . .

طلب لوفكا ان يجلب الى مقصورة العربة بعض الكحول والاطعمة الخفيفة من بوفيه المحطة ، واستمرت نفس الاحاديث . خلع لوفكا فروته ، وفك حزامه . وقال وهو يقطع شرائح سميكة من شحم الخنزير :

– انا لا افهم ، لا افهم كيف لم تسمع بى من قبل . اوديسا حملتنى على الايدى . فى بحبوحة من الفلوس والنساء . . . كان الامر يقتضى قوة عملاقة كقوتى ، آه ، الشباب ! كل الجرائد كتبت : زادوف شاعر ساخر . آوه ، امن المعقول انك لا تذكر ؟ سيرة حياتى طريفة . انهيت المدرسة المتوسطة حاصلا على الميدالية الذهبية . ابى سائق عربة بسيط من بيريسيب . بينما وصلت انا الى ذروة المجد رأسا . هذا شىء مفهوم فانا جميل بشكل الهى – لم يكن هذا الكرش موجودا – وجرى ، ووقح ، ولى صوت فاخر ذو نبرة عالية . وسيل من المثالى الشعرية اللاذعة . ثم انا الذى ادخلت فى الموضة السترة القصيرة ، والاحذية الطويلة المصقولة بالورنيش : الفارس المتجول الروسى ! كانت

الملصقات تملأ جدران اوديسا كلها . . . ولم يبخل زادوف بشيء ، وكان يهب كل شيء بسهولة ! الفوضوية هي الحياة ! وانا منطلق في دوامة من الدم . فلا تعتصم بالصمت ، ايهــا الهر الصغير ، وكن اكثر رقة مع لوفكا ، ام ما زلت غضبان ؟ احبني . الكثيرون يمتقع لونهم حين اتكلم معهم . . . والذي اكون له صديقا يصير وفيا لي حتى الموت . . . الناس يحبونني حبا جما .

كان فاديم بيتروفيتش يحس بدوار في راسه . فبعد الصدمة التي تلقاها في صباح اليوم لم يكن امامــه الا ان ينبح كالكلب في برية على ضوء قمر شاحب . وكانت المهمة المفاجئة – الامــــر المقتضب الغامض – امتحانا جديدا لقواه . وكان يدرك ان ايــــة خطوة خاطئة او مشبوهة ستكلفه حياته ، ومن اجل ذلك بعثــوا لوفكا معه . ما هذه اللجنة العسكرية الثورية التي يجب ان يذهب اليها لمراقبة الخطة ؟ وما هي خطة الانتفاضة هذه ؟ انتفاضة من وضد من ؟ كان لوفكا يعرف ، بالطبع . حاول روتشين عدة مرات ان يوجه اليه اسئلة استدلالية ، ولكن لوفكا اكتفى بان رفع حاجبيه الى الاعلى وجعله عينيه تبدوان كالزجاج ، وتابع ثرثرته ، وكانه لم يسمع شيئا ، واكل وتمطق ، دون ان يمسح شفتيه ، واحمر ، وفك ياقة قميصه المطرز .

احتسى فاديم بيتروفيتش قدحا من الكحول ايضــا ، وراح يمضغ شحم الخنزير بلا تذوق . وكبت بكل قواه نفوره من هذا الرجل المرعب المضحك البغيض . . . فمثل هؤلاء لم يصادفهم حتى في الروايات التي قراها . وردد مع نفسه : «يا له من متباه ، منطلق في دوامة من الدم . . .» وسرى الكحول في دمه ، وارتخت الكماشات التي كانت تضغط على دماغه ، دخلت لامبالاة والثقة محل الامــر الآلي تقريبا والعديم المفعول تقريبا «تقدر ، تقدر» .

وقال للوفكا :

– على كل حال ، كف عن التباله معي . لقد اعطاني الاتمان توجيها معينا ، وانا رجل عسكري ، ولا احب الالغاز فخبرني : ما القضية ؟

وتجمدت على فم لوفكا ابتسامته . وكانت يده المنتفخــــة بمساماتها الكبيرة تتدلى بالزجاجة فوق القدح :

– انصحك بان تقلل من اسئلتك وتقلل من استفهاماتك . فكل شيء قد نظم .

– يعني انا لست موضع ثقة . . اذن ما الغاية ؟

– انا لا اثق باحد . . . وحتى بالاتمان لا اثق . . . هيــا لنشرب . .

وفتح لوفكا فمه حتى مست حافة القدح حد اسنانه السفلى ، وجرع الكحول ببطء . وفاحت من الكحول عفونة حلوة ، كرائحـــة لحم نيئ مع سكر . . . هز شعره الغزير المشبع بالكهرباء ، واخذ يقتطع فخذ الدجاجة .

– لو كنت في مكانك لما قبلت هذه المهمة . ولا يهمك ان يكون الاتمان الآمر . . . فهو يحب ان يستغفل . ستقع في ورطة ، ايها الهر . . .

فرك روتشين وجهه براحتيه بقوة ، وضحك .

– اتنصحني بان اتملص ؟ ربما اذهب الى دورة المياه ، واقفز من القطار ، وهو منطلق ؟ اهتم نصيحتك ، كصديق ؟

– قلت لك ، وعليك ان تستخلص . . .

– تفاهة . . . اتظنني اخاف الموت ؟

– وما الداعي الى الظن اذا كنت انقذ من خلالك واراك دودة زاحفة . . . اخف اسنانك والا خلعتها . . . هيا ، صب قدحا . . .

زفر روتشين زفرة عميقة بعسر :

– اتعرفني ؟ لا ، يــــا زادوف ، انت لا تعرفني . . . لو وضعت امام الحائط لترمى ، ايها الوغد ، لصرت تقبع قبــــاع الخنزير . . .

كان لوفكا يهم بنهش فخذ الدجاج فاطبـــق فمه بشدة حتى ارتطمت اسنانه السفلى بالعليا وارتخى وجهه العـــــرق . وقال بامتعاض :

– العكس هو الذي حصل حتى الآن . آخرون غيري تبعــوا قباع الخنازير . . . العلك انت الذي تنوى القضاء عليّ ؟

– لو كنت وقعت في يدي قبل ثلاثة اشهر . . .

– لا تراوغ ، ايها الضابط الابيض ، واكمل جملتك .

– الا تنتظر ، ايها الجزار ؟ . .

– انا في انتظار ، فاكمل . . .

وتكلما بعجالة . والآن كان كلاهما يتنفس تنفســـا ثقيلا ، واقدامهما تحت التخت ، واحدهما يتفرس في حدقتي الآخر متوترا . ترتعت الشمعة ملتصقة على المنضدة الصغيرة المبسوطة ، واخذ الضوء يخفت . ولاحظ روتشين ان وجه لوفكا يربد ثم قال لوفكا له بصوت كامد الرنين :

– لنخرج الى الممر . . . اخرج في المقدمة .

– لا اخرج . . .

– هيا . .

– لا تأمر ، انا لن امتثل . . .

لم يبق الا بصيص ازرق في نهاية الذبالة مثل نفس تتعسر على الموت . والظاهر ان لوفكا كان يدرك ان التفوق في المقصورة الضيقة سيكون الى جانب روتشين المعروق الصغير اذا هاجم احدهما الآخر في الظلام . . . جار بصوت كصوت الثور :

– انهض . . . الى الممر !

سحب باب المقصورة ، ورق بصيص الشمعة ، والتهب ، ودخل تشوغاي .

– مرحبا ، اخوان – وانفرج فمه عن ابتسامة ساخرة تحت شاربيه الصغيرين ، وتنقلت عينـــاه الجاحظتان من لوفكا الى روتشين – انا ابحث عنكما في القطار كله .

وجلس الى جانب روتشين ومقابل لوفكا . وتناول الزجاجة الفارغة ، وهزّها ، وشمها ، ووضعها .

– ما سبب هذه الجهامة على وجهيكما ؟

– لم نتوافق بطبعينا .

قال لوفكا مشيحا وجهه عن نظرته الساخرة .

– وانت تصحبه على شاكلة مفوض ؟

– لست انا على شاكلة شيء ما ، بل اعلى . . ولكن لماذا تسأل ؟

– وهذا على الاكثر يقتضيك ان تفهـــم اي عمل مسؤول تصحب الرفيق اليه . اما الطبع فيجب ان تسيطر عليه . والآن ،

يا اخ ، اخرج من المقصورة ، فانا اريد ان اتكلـــم معه بدون حضورك .

كان تشوغاي يجلس متماسكا ، وذراعـــاه مطويتان على بطنه ، وفخذاه متباعدان ، وكان وجهه يبدو في ضوء الشمعة ورديا وكأنه من فخار ، وكانت قبعته الصغيرة ذات الاشرطـــة تقف على عذباته باعجوبة . انتظر بهدوء ان يتحمل لوفكا الاهانـــة ، ويخضع .

نخر لوفكا وعقا محمرا ونظر الى روتشين نظـــرة متوعدة ، ونهض صاخبا ، ولمع حذاؤه الطويل الصقيل عند الباب ، وخرج . رد تشوغاي الباب :

– ما الذي جعلك في غير وفاق معه ؟

– شيء تافه – قال روتشين – شربنا نحن الاثنان .

– جوابك صحيح . ولكن اريد ان اقول لك ، يا اخ ، انك قد دخلت تحت تصرفي ، فيجب ان تجيب عن كل سؤال اطرحه .

انتقل تشوغاي ليجلس قبالته ، وبالقرب من الشمعة نشر ربع صفحة من الورق موقع بتوقيع ماخنو ومطبوع على الآلة الكاتبة بحروف متلاصقة وباخطاء نحوية وبلا علامات ترقيم ، وقد ذكر فيه ان روتشين قد وضع تحت تصرف هيئة الاركان العسكرية الثوريـــة لمنطقة يكاتريتوسلاف .

– اهذا مقنع لك ؟ (هز روتشين رأسه) هذا شيء جيد . خبرني : ما الذي جاء بك الى هذه الجماعة ؟

– اهذا استجواب لتصفية التشكيلات ؟

– نعم . . حزرت . لا يجوز وضع ثقتك في شخص لا تعرفه ، ولا سيما في امر مهم كهذا الامر . هل توافقني على ذلك ؟ (هز روتشين رأسه) قمت ببعض التحريات عنك . . . ليس هناك شيء مطمئن : فانت عدو . عدو لدود ، يا اخ .

تنهد روتشين ، والقى بظهره على التخت . كان ليل دامس كالابدية ينطلق وراء النافذة السوداء ، التي انعكس ضوء الشمع على زجاجها . واحس روتشين بطمأنينة ، وراح جسمه يهتز اهتزازا خفيفا . لقد بدأ استجوابه الثالث ، والاخير على ما يبدو ، والنهائي خلال فترة لا تتجاوز ثلاثة ايام قضاها بلا نوم تقريبا . ومهما يكن من شيء

فاى حقيقة كان فى وسعه ان يقولها عن نفسه ؟ قصة معقدة مشربكة عن انسان قذفه اناس مجهولون خارج بيته القديم الذى ولد فيه ، وخارج شارعه ، ومملكته . ولكن اهذا الذى حصل ؟ اليس هو الذى امسك لنفسه من تلابيبها ، وقذفها فى القمامة ؟ ما الذى اخافه على وجه التحديد ؟ وما الذى كرهه على وجه التحديد ؟ وهل كان بيته القديم ومملكته المريحة القديمة ضروريين حقا لسعادته ؟ اوليس هما شبحين من صنع خياله المريض ؟ ولو ينبش ذاكرته لن يجد فى افعاله خلال هذا العام شيئا معقولا ومبررا . فى هذه المقصورة لا توجد محكمة فيها هيئة محلفين ومحام دفاع رائع يهز ناصيـــة شعره الرومانطيقية . فقد كان عليه ان يقوم – وجها لوجه – بشىء مستحيل تقريبا : ان يقول الحقيقة ، لا عن افعاله كانسان صغير ، فان ذلك غير مهـــم ، وليس لهـــا شـــان فى هذا الحديث ، بل عن نفسه كانسان كبير . . . انه هنا المتهم والحاكـــم فى آن واحد . . . كما ليس مهما الاستنتاج العملى من هذا الحديث اذا كان الامر قد مس هذا الانسان الكبير .

قال تشوغاى :

– ما بالك تغمغم . تكلم بصوت مسموع .

– لا ، انا لست عدوا . فان ذلك زيادة فى التبسيط – قال روتشين ضاغطا علباءه على متكأ التخت – ان للعدو هدفا ، ولؤما وسوء طوية . . اريد ان اسالك . . . .

– هيا .

– هل انا لازم لكم كاخصائى عسكرى ؟

صمت تشوغاى برهة متفحصا وجهه بظلاله العميقة والتجاويف فى خديه .

– ولكن كيف ستجيب انت عن السؤال ؟

– اظن اننى لازم ، وعلى الاخص لكم ، لا للالمان .

– من الافضل ان تخاطبنى بالمفرد ، فذلك يسهل الكلام .

– حسنا ، سافعل .

– زعم الالمان انهم جندوك فى صفوف جيش المتطوعين ، ولكنك فوضوى صادق ، وملائم من حيث المنشا ايضا .

– كل ذلك كذب . . . منشئى غير ملائم مطلقا ، كما اننى

انضممت الى جيش المتطوعين بمحض ارادتى ، وغادرته بمحض ارادتى .

– هل صرت تشعر بالعار ؟

– لا . . . ولكن لماذا تلقننى ؟ لا تحسبنى احاول التشبث بقشة ، فانا فى الحضيض منذ زمان . . . حبذا لو يؤمن الانسان بالتكفير عن الخطايا الثقيلة ! . . . ولكن حتى هذه السلوى لا املكها . . .

– هل قمت باعمال منكرة كثيرة ؟

– كان ، كان . . . طوال حياتى طالبت نفسى بالصفاء ، ولكن صفائى لم يكن صافيا . . . كل شىء كذلك ، قـــد تقلبت ظهرا على بطن ، وصار من الابيض اسود .

– ارو لى سيرتك ، يا اخ ، حسب الاصول .

– تخرجت فى جامعة بطرسبورغ . . . حقوقيا . . . آه ، انت تريد ان تعرف المنشا . . . كنت صاحب اطيان ، من اصحاب الاطيان الصغار . . . بعد وفاة والدتى بعت آخر ما تبقى مـــن الميراث : البيت ، والبستان والقبور وراء السياج . وتركـــت الفوج . . . ثم ماذا بعد . . . كنت ليبراليا ، مثل جميع الذين لهم شىء من التعقل (وغطى فاديم بيتروفيتش وجهه باشمئزاز) وطبيعى اننى كنت اتعاطف مع الثورة المقبلة ، وحتى فى زمن الاضرابات ، عام ١٩١٣ ، على ما يبدو لى ، فتحت نافذة التهويـــة وصرخت بكوكبة مارة من خيالة البوليس : «جزاوون ، جلاوزة . . .» وبهذا او نحوه كان ينحصر نشاطى الثورى . . . ولم تكن بى حاجة الى الاستعجال ، فقد كنت احيا حياة لذيذة . . . (وفى هذه المرة اهتز شاربا تشوغاى) لا ، لاتتعجل احتقارى . . . فانا اتحدث بصدق . فانا على الاقل لم ارفع فى الحفلات كاس الشمبانيا لاشرب نخـــب الشعب الروسى المعذب . وفى عام ١٩١٧ كدت اجن فى الجبهة خجلا وعارا . وقد قضيت عامين ونصفا فى الخنادق دون ان اعلن عن نفسى . ولم البس ملابس داخلية حريرية لاتقى القمل .

– جدارة .

– لاتسخر ، فلاداعى لذلك . . . (وغض فاديم بيتروفيتش جبينه ، وخددت وجهه النحيل ظلال عميقة) والآن اجبنى : ما هو

الوطن بالنسبة لك ؟ يوم حزيراني في الطفولة ، وازيز النحل في زيزفون ، وانت تحس بالسعادة تنصب فيك كجداول من العسل . . . والسماء الروسية فوق الارض الروسية . . وهل من المعقول انني لم احب ذلك ؟ امن المعقول انني لم احب الملايين من ذوي المعاطف العسكرية الرمادية تنزل من القطارات ، وتسير الى خط النار للقاء الموت ؟ . . . لقد عقدت اتفاقا مع الموت ، ولم احسب انني ساعود من الحرب حيا . . . الوطن كان انا نفسي ، انسانا كبيرا ابدا . . . فظهر انه لم يكن ذلك ، بل شيئا آخر . . . انه الآخرون . اجبني : ما هو الوطن ؟ ما هو بالنسبة لك ؟ اراك صامتا . . . انا اعرف ماذا ستقول . . ان الناس يسألون عن ذلك مرة واحدة في الحياة ، وذلك اذا فقدوه . . . آه ، انا لم افقد شقة في بطرسبورغ ، ولا مستقبل كمحام . . . بل فقدت في نفسي الانسان الكبير ، بينما لا اريد ان اكون انسانا صغيرا . . يمكنك ان تطلق النار علي لو رأيت ارتباكا ولو في كلمة واحدة من كلماتي . . . وتصرف ذوو المعاطف الرمادية على طريقتهم الخاصة . . . فماذا تبقى لي ؟ لقد كرهتهم ! . . واطبقت على دماغي كماشة من رصاص . لا ينضم الى جيش المتطوعين غير الانتقاميين والشقاوات المسعورين المتعطشين للدم «من اجل القيصر ، من اجل الوطن ، من اجل العقيدة ترفع اصواتنا هورا . .» فننطلق بعربة غجرية الى مطعم «يار» لنأكل فطائر السمك . . .

– انت ، يا اخ ، كعكة متهيئة للدخول الى فرن – قال تشوغاي ، وبدا المرح في النظرة المجهدة لعينيه الجاحظتين – تحفة ان تتحدث مع مثقفين ! من اين لك هذه الشربكة الدماغية ؟ انتم ، على اية حال ، روس ، اذكياء على ما يبدو . . اذن فهي التربية البرجوازية . انت الذي ضيعت نفسك ! انت لا تعرف حتى هل انت موجود ام لا . . آه ، ايها الدينيكيون ! سليتني . . . . كيف سنتفق انا وانت ؟ هل تريد ان تعمل لا من اجل ان تبقى في الحياة ، بل ليرضى ضميرك ؟

– ساعمل ، اذا كنت تضع المسألة بهذا الشكل .

– بدون رغبة ؟

– قلت ساعمل ، اذن ساعمل .

تناول تشوغاي الزجاجة الفارغة ثانية ، ورجها ، ونظر تحت الطاولة المبسوطة ، ورمى ببصره الى الشبكة التي توضع عليها الحقائب .

– لندع صاحبك ابن الكلبة ذاك – وفتح الباب ونادى – يا مفوض ، اين اخفيت الكحول ؟ – وغمز لروتشين غمزة ذات معنى – لا تتساهل معه ، واذا حدث اي شيء صوب المسدس اليه . انه اسوأ رجل لدى الاتمان .

نزل روتشين وتشوغاي ولوفكا الذي انتفخ بالشرب خلال الليل الى المحطة الاخيرة قبل الجسر . كان الضباب الطالع من الدنيبر يغطي يكاترينسلاف في الجانب الآخر من النهر . كان الثلاثة متكمشين من البرد الرطب صامتين . واخيرا تحرك القطار ودب عبر الجسر ومصدات عرباته تصطدم احداها بالاخرى . ظهرت على الرصيف المصنوع من الواح مصفوفة امرأة ملفوفة بمنديل صوفي لا يبدو منها غير عينيها السريعتي الحركة . مرت بالواقفين ثم عادت ثانية ، ثم ثالثة وهي تباطيء سيرها . قال تشوغاي وهو لا يوجه كلامه اليها ، بل غفلا :

– ترى اين يمكن ان نشرب الشاي ؟

توقفت المرأة في الحال واجابت :

– يمكن ان اجلبه لكم ، ولكن لا يوجد سكر .

– عندنا سكرنا .

عندئذ ازاحت المنديل الصوفي عن وجهها ، وبدا وجهها حلو القسمات بشكل مذهل ، فتيا له غمازة على الخد المدور ، وفم صغير بارز الشفتين .

– من اين انتم ، يا رفاق ؟

اجاب لوفكا بغضب :

– ما هذا السؤال ، من اين انتم ؟ قفي عند حدك ، ولا تتآمري ! دلينا على الطريق .

رفعت الفتاة حاجبيها دهشة ، الا ان تشوغاي قال لها «انهم نفس الاشخاص الذين تريد ان تستقبلهم» . قفزت من رصيف القطار وقادتهم عبر دروب وقفت على جانبيها عربات محطمة عديدة . ولم يصادفهم كائن حي في طريقهم عبر منبسطات القرملة ، وتحت

العربات حتى وصلوا الى عربة بضاعـــة . طرقت الفتـــاة ، ونادت :

– هذا انا ، ماروسيا . اليت بهم .

سحب شقا باب العربة بحذر ، واطل وجه ناحل صـــارم شاحب ذو عينين سوداوين كفحم الانثراسيت . قال الرجـــل بخفوت :

– ادخلوا بسرعة ، فانتم تدعون البرد ينفذ الى الداخل .

انسل الثلاثة ورائهم ماروسيا الى العربة . جذب الرجل شقى الباب سوية . كان الدفء يشيع في العربة من موقد حديدي محمى ، وكان الضوء المرفرف في علبة قديمة لطلاء الاحذية يلقي اضاءة باهتة على وجه صارم القسمات هو وجه رئيس اللجنة العسكرية الثورية ، وعلى شخصين غير واضحين في نهاية العربة .

عرض تشوغاى التفويض ، كما ان لوفكا اخرج ورقة صغيرة . جلس الرئيس القرفصاء قرب الضوء ، وظل يقرأ وقتا طويلا . ثم قال وهو ينهض :

– حسنا . هذه الليلة الثالثة ونحن في انتظاركم . اجلسوا

– ونظر بمؤخر عينه الى حذاء لوفكا الطويل الصقيل – الاتمان ماختو لا يبدو مستعجلا .

بادر لوفكا بالجلوس على المقعد الوحيد عند منضدة مـــن الواح خشبية . واتخذ تشوغاى مجلسه على كتلة خشبية ، وتراجع روتشين واتكأ على جدار العربة . هذا اذن مقر اركان البلاشفة . . . عربة فارغة ، ووجوه صارمة تبدو من سحناتها انها وجوه عمال سكك صموتين متوجسين .

تكلم الرئيس بصوت متوازن :

– نحن مستعدون . والشعب متحفز . ويجب ان نبدأ على الفور . . . وهناك معلومات تقـــول ان البتلوريين قد تشمموا شيئا ، فقد انزلوا في المدينة يوم امس مدفعية ثقيلة . وهـــم ينتظرون قوات من كييف . لا يوجد خونة بيننا ، ولهذا يمكن ان تكون المعلومات متسربة من غولاى-بوله فقط .

قال لوفكا بلهجة متوعدة :

– اياك ، اياك . . فكر فيما تقول !

وفي تلك اللحظة تحرك الشخصان خارجين من الظلمة . وتابع الرئيس كلامه بنفس الصوت المتوازن :

– كل شيء عندكم يجري على المكشوف . وهذا لا يجوز ، يا رفاق . . . في يكاترينوسلاف بدأت اعتقالات . . . انهم الآن يعتقلون لا على التعيين ، الا انهم اعتقلوا رفيقا لنا بالفعل . . .

– انه ميشكا كريفوماز ، الكومسومولي .

قالت ماروسيا ذلك بصوت رنان فيه شيء من التكسر الانثوي ، وكانت تقف بالقرب من فاديم بيترفيتش وقـــد القت منديلها على كتفيها .

– واستجوبه ناريفورودتسيف رئيس استخباراتهم نفسه . ومعنى ذلك انهم في حالة انذار . . . .

– ضربوا ميشكا كريفوماز بقضيب من المطاط على جبينه ، وطلعت عيناه ، المسكين – قالت ماروسيا بسرعة ، ونشجت من انفها فجأة – بتروا اصبعين من اصابعه ، وشقوا بطنـــه ، ولم يش بشيء .

وضع لوفكا سيفه بين رجليه ، وقال بازدراء :

– عمل رخيص . اتقولين انه ناريفورودتسيف ؟ سنتذكر ذلك . ومن المدعي العام هنا ؟ ومن هو رئيس البوليس ؟

– سنخبركم بالاسماء والعناوين . . .

اوقف الرئيس ماروسيا :

– لنلتزم بالنظام ، يا رفاق . سيقدم فديوك تقريرا لنا عن قوات العدو (واشار الى رجل ركين حشر في حزامه ردنا فارغا من سترته المتسخة) وساقدم انا تقريرا عن عمل اللجنة الثورية . وساعطي الكلمة لكم عن ماختو . والمسالة الرابعة حول المناشفة والفوضويين والاشتراكيين الثوريين اليساريين . ان هؤلاء الاوغاد يتشممون طعاما طيبا ، وهم كالوباء يتهيئون للعراك من اجل مقاعد في السوفييت والآن ، ابدأ ، يا فديوك .

بدأ فديوك كلامه بصوت صلب عن احداث الماضي فاشار الى الخطط الدموية للبرجوازية العالمية ، الا ان الرئيس قاطعه في الحال : «لست انت في اجتماع عام . فقدم الحقائق المجردة» وظهر ان الحقائق المجردة خطيرة جـــدا : فقـــد كان للبتلوريين في

يكاتريتوسلاف حوالى الفى رجل من المشاة ، وستة عشر مدفعا من بينها اربعة مدافع ثقيلة . وفضلا عن ذلك كانت توجد وحدات لجيش المتطوعين تتالف من العناصر البرجوازية والضباط لديهـا عدد كبير من الرشاشات . وحتى كييف كانت مستعدة لتقديـــم التعزيزات .

واتضح من التقرير الثانى ان اللجنة العسكرية الثوريـــة تستطيع ان تعتمد على ثلاثة آلاف وخمسمائة عامل سيقفون الى جانب المنظمة البلشفية دون تردد ، وعلى دفق من الشبيبـــة الفلاحية من القرى المجاورة ، حيث جرى نشاط تحريض فيها . الا ان السلاح قليل : «يمكن القول ان عشر العدد مسلح ، والبقية بايد فارغة» .

وحين راى الرئيس تململ تشوغاى ، وتدلى شفة لوفكا السفلى رفع صوته وقد التمعت عيناه بلون فحم الانتراسيت .

— نحن لا نصر ، اذا كان الاتمان ماخنو يخاف ان يهاجم المدينة بنفسه ليبقى فى غولاى-بوله ، فقط ان يعطينـــا السلاح والذخيرة .

احمر لوفكا ، وضرب الارض بسيفه :

— لا تشوش دماغى ، يا رفيق . . . نحن لا نتاجـــر فى السلاح . . . . الاتمان يستطيع ان يشتت الاوغاد البتليوريين كالذباب بحركة واحدة من ذراعه . . . .

عندئذ قال تشوغاى :

— لا تحتد ، يا رفيق لوفكا . اصمت لحظة . ايها الرفاق ، اننا توصلنا الى اتفاق مع الاتمان ماخنو . انـــه الآن خاضـــع للقائد العام للجيش الاوكرانى . وجيشه الشعبى — الذى هو الآن الفرقة الخامسة — سيهاجم يكاتريتوسلاف بامر من القائد العام ، وهذا الامر موجود فى جيبى . فلننتقل الى تنسيق العمليات . . . ان معنا اخصائيا عسكريا . يا رفيق روتشين ، اقترب ، ارجوك .

سافر تشوغاى فى نفس الليلة عائدا الى ماخنو فى غولاى-بوله . وقد اخذ لوفكا معه لكيلا ينظر العمال شزرا الى وجهـــه

المستل» ، وحذائه الصقيل ، وكالوشيه العاليين ، كما لم يرد ان يبقى هذا الاحمق وحيدا مع روتشين .

الحقوا ماروسيا بروتشين للاتصال والمراقبة . لم تكن الخطة العسكرية للجنة الثورية صالحة على الاطلاق ، وقد اعلن روتشين ذلك فى الحال وبكل صراحة . اقترحت اللجنة الثورية ان يقوم هو بتفقد المدينة ، ويضع خطته . فكان فى كل صباح يعبر مع ماروسيا الدنيبر المتبخر على زورق وسط كسر الجليـــــد ، وينزلان على الشاطىء الايمن فى ضاحية مالديروفكا ، ويطلبان من احد الفلاحين الذاهبين الى السوق توصيلهما الى المحطة ، ومن هناك كانا يصلان الى المركز مشيا او فى عربة ترام .

كانت المحطة بجسرها للخط الحديدى تقع فى الجهة الجنوبية ، ومنها كانت جادة يكاترينينسكى العريضة تمتد عبر المدينة كلها محفوفة باشجار الاقاسيا والحور الهرمية ، وعلى جانبى الجادة كانت تقف ابنية جديدة ضخمة لامعة النوافذ ، هى ابنية البنوك والفنادق والبريد والبرق ودوما المدينة ، وكانت الجادة تصعد فى مرتفـــع شديد نحو المدينة القديمة المحيطة بساحة الكاتدرائية . وهناك كانت تقع ثكنات الجنود .

علم فاديم بيتروفيتش ماروسيا ان تعد الخطوات ، وتحدد الزوايا بعينها ، وتحفظ بشكل خاص النقاط المهمة لاطلاق النار . وكان بين الحين والآخر يدخلان مقهى ، ويخططان خطة على ورقة . وتطويها ماروسيا على هيئة ظرف وتدعكها فى كفها ، لتدسها فى فمها وتبتلعها فى حالة اعتراض الشرطة لهما . الا ان احدا لم يختلس نظرة اليهما قط ، رغم ان الخامل وحده يمكن ان تغيب عن لحظه ماروسيا الجميلة بمنديلها الزاهى المشدود على الطريقة الاوكرانية ، وروتشين بقبعته ذات القمة القرمزية . الا ان الناس هنا كانوا فى شغل شاغل عنهما . فان السلطات البتليورية التى اعلنت نفسها جمهورية ديموقراطية شربكت نفسها بين لجان من شتى الاصناف الممكنة : جماعـــة «النضـــال» والاشتراكيين ، والصهيونيين ، والفوضويين ، والقوميين ، وانصار الجمعية التاسيسية ، والاشتراكيين الثوريين والاشتراكيين الشعبيين واعضاء الحزب الاشتراكى البولونى والمعتدلين والمتوسطين ، ولجان لها برامج واخرى بلا برامج .

وكان جميع هؤلاء الطفيليين يطالبون بالعلنية وبالمقرات والمال ، ويهددون بحرمانها من ثقة الجمهور . وزادت الطين بلة دوما المدينة التي كان يراسها بابريكاكي الصغير (فان بابريكاكي الكبير ، وهو اكثر ذكاء ، قد هرب الى دينيكن) . سارت دوما المدينة على سياسة الحكم المزدوج ، بل واصرت على تاليف فوج خاص يحمل اسم حاييم سولومتوفيتش تميستوري عمدة المدينـــة الراحل . والمفهوم ان السلطات البتليورية لم يبق لها الا مجال واحد للنشاط تطلق فيه يديها ، وهو الاغارة ليلا على العمال الشيوعيين في شققهم وحتى هذا كان يقتصر على الذين يعيشون على الضفة اليمنى .

وبعد يوم من التطواف كان روتشين وماروسيا يعودان باقصر طريق عبر الجسر الى الضاحية في الضفة اليسرى ، قاصدين بيتا ابيض صغيرا يقع على راس منحدر على الدنيبر .

كان الفرن في البيت متوقدا دائما ، ورائحة اقراص الروث المجفف المستعمل للوقود تفوح بنكهتها الخاصة المريحة في ارجاء البيت . وكانت والدة ماروسيا تدخل ومعها شمعة سميكة من تلك الشموع المستخدمة في عربات القطار (كان والد ماروسيا يشتغل في السكك الحديدية) وتمس الفرن بيدها ، وتسال بصوت خافت :

— هل البيت دافيء ؟

— دافيء ، يا ماما .

— هل تتعشيان ؟

— نحن جائعان كالكلاب ، يا ماما .

وتتنهد وتقول :

— تعشينا ، انا وابوك ، فاذهبا لتتعشيا . فالشبان جائعون دائما .

وكانت تمشي ببطء الى ما وراء الحاجز وكان فكرها مشغول بشيء حزين يعز عن الوصف ، وتتناول الملقط وتنحني من الجهد ، وتغمغم : «بحق المسيح اطلع سليما صحيحا» وتخرج من الفرن قدرا حديديا كبيرا فيه حساء «البورش» . وكان الاب يجلس على السرير في وضع غير مريح مدخنا غليونه . وكان وزوجته يحاولان ان يصرفا انتباههما عن روتشين (كانا يسميانه فيما بينهمـــا بـ«السري» ولكن حين كان روتشين يطلب شيئا ما كشيء من الماء

او علبة ثقاب — كان والد ماروسيا يثب من السرير بسرعة ، والام تتهيأ متحفزة لتلبية الطلب) .

كان روتشين وماروسيا يحتسيان «البورش» صابين اياها من القدر في صحنين مثلمين . وماروسيا لا تكف عن الحديث ، فقد كانت انطباعات اليوم تنطبع بادق تفاصيلها على الغضارة الشفافة لذاكرتها .

كانت امها تقول وهي واقفة عند الموقد :

— بحق المسيح ، كفاك كلاما . فالطعام لا يؤدي فائدته مع الكلام .

— ماما ، طوال النهار كنت صامتة — وتنظر ماروسيـا الى روتشين بعينيها الصغيرتين الزرقاوين بصفاء والمذهولتين . اريد ان اقول لك انني كثيرة الكلام بشكل مريع ، حتى انهم لم يريدوا ان يقبلوني في الكومسومول . فاين التكتم اذا كان الانسان يحب الهذر ؟ واجتزت الامتحان ، حين لزمت الصمت سبعة ايـام بلياليها .

وكانت ماروسيا ، بعد العشاء تلقي المنديل الصوفي عليها ، وتهرع الى الاجتماع الحزبي . وكان روتشين يشكر على حســن الضيافة ، ويذهب وراء الحاجز ، الى حجرة ضيقة وواطئة السقف بحيث كان يستطيع اذا رفع ذراعه ان يمس سقفها الخشن . وكان يحشر يديه تحت حزامه ، ويسير جيئة وذهوبا بين النافذة المغلقة بالصفاقة ، وصوان ماروسيا المصنوع من خشب الصنوبر . وكان يحل حزامه ويخلع قميصه ، ويجلس الى النافذة ، ومن خلال الصفاقة يصغي الى كتل الجليد ترسل خرخرتها الناعمة الصماء من بعيد اثناء تحدرها على الدنيبر . واهل البيت وراء الحاجـــز آووا الى مضاجعهم ، وفي صمت البيت الصغير كان لا يسمع غير فرقعـة التجصيص في الفرن ، وصرصرة الجدجد ، وهو يحز خشبة صغيرة مثل منشار ضئيل . وكان فاديم بيتروفيتش يحس براحة وطمانينة على نحو غير متوقع ، ولم تكن تطوف في راسه غير افكار بسيطة عن الحياة اليومية .

وكان لا يريد ان ينام قبل ان تعود ماروسيا ، فكان لكـي يطرد النعاس ينهض مرة اخرى ، ويذرع الحجرة ، وقد اعجبتـه

كثيرا هذه الحجرة الصغيرة للغاية ، المطلية جدرانها بالكلس . كانت اشياء ماروسيا فيها قليلة : تنورة معلقة بمسمار ، ومشط ، ومرآة صغيرة على كومودينـو ، وبعض الكتب الماخوذة من المكتبة . . . وعند الحائط سرير حديدى قصير تنازلت ماروسيا عنه لروتشين ، وفرشت لنفسها لبادة على الارض .

صفق الباب فى الرواق ، وصر باب المطبخ ، وظهرت ماروسيا موردة الخدين من البرد ، وحلت منديلها وقالت :

— لطيف انك قد انتظرتنى . هل تعرف الاخبار ؟ سيكون ماخنو هنا بعد ثلاثة ايام . وغدا يجب ان تقدم الخطة . . اما هذه الليلة فساحرة ! ساكتة والسماء مزدهرة بالنجوم .

كانت ماروسيا مغمورة جدا بالشؤون المهمة والانطباعات المختلفة ، وبسيطة القلب كثيرا حتى انها كانت تفرش لنفسها على الارض ، وتخلع ملابسها بحضور فاديـم بيتروفيتش دون خجل . وكانت تقلق تنورتها وبلوزتها وجوربها حسبما اتفق ، وتجلس على اللبادة لحظة محتضنة ركبتيها :

«آه ، متعبة» وتضرب الوسادة بجمع يدها ، وتستلقى ساحبة اللحاف حتى راسها . ولكنها سرعان ما كانت تخرج وجهها بانفه الصغير والغمازة وهو ما يزال محتفظا بتورده ، وتلقى ذراعيها العاريتين فوق اللحاف :

— حر شديد ! اسمع هل انت نائم ؟

— لا ماروسيا ، لا .

— اصحيح انك كنت ضابطا ابيض ؟

— صحيح ، ماروسيا .

— اليوم تجادلت . . . وبعض الرفاق لا يثقون بك . عندنا مثل هؤلاء ، متعنتون . . . يرتابون حتى بامهاتهم . . . ولكن كيف لا تثق بانسان اذا كنت صادقا مع نفسك ! انا افضل ان اكون مخطئة على ان اسىء الظن بكل شخص . انا اقول لهم مع من ستقومون بالثورة اذا كنتم تسيئون الظن بكل من حولكم ؟ . . نحن نقوم بثورة عالمية . . . والثورة قوة خاصة . هل تفهمون ذلك؟ تصوروا ماذا كان عساى ان افعل بدون الثورة ؟ ان الصق العلب فى مشغل للكارتون لمدة اثنتى عشرة ساعة يوميا . . . والتسلية

الوحيدة ان اقرض بذور عباد الشمس ايام الاحاد فى بولفار بكاتريننسكى . . او ربما اقتر لاحصل على حذاء طويل الرقبة ، فيا له من مكسب ثمين ! واقول لهم : كيف لا تثقون به يا رفاق ؟ هب انه ، وهو المثقف ، قد اخطا وخدم طبقته ، ولكنه انسان . . . والثورة تجلب اناسا من اصناف اخرى ايضا . هل يستطيع ان يتحول عن طبقته العفنة ؟ يستطيع . . . انه ينحاز الينا عن وعى ، ويقاتل فى سبيل قضيتنا العمالية . . . لا بد ان تكونوا متعنتين اذا كنتم لا تؤمنون بذلك . . . حسنا ، لقد اقنعت الكثيرين .

كان روتشين مستلقيا على السرير القصير منكمشا ينظر الى ماروسيا التى كانت تشمر ذراعيها العاريتين تارة ، وتطويهما بحرارة تارة اخرى . وكانت الحجرة الواطئة تبدو وقد امتلات بنضارة عذرتها ، وكان غصنا من الزنبق الابيض قد جلب اليها .

— والامر يختلف اذا كان يتعلق بوجوب اعادة تكوين المثقفين الفكرى . . وسنعيد تكوينك انت ايضا . . . لماذا تضحك ؟

— انا لا اضحك ، يا ماروسيا . . . منذ سنين عديدة وانا لم اشعر باننى نافع لقضية خيرة مثل شعورى فى هذا الوقت . . . انا افكر الآن بان اخرج مع الفصيلة الاولى للاستيلاء على الجسر .

— آه ، أحقا ما تقول ؟

وخرجت ماروسيا من تحت اللحاف بخفة ، وجلست قربه على حافة السرير :

— الآن ، اومن بانك معنا عن حق . . . بينما ظللت اجادل واجادل لاننى لا املك دليلا صريحا على اية حال .

فى نهار السادس والعشرين انطلق خمسون فارسا بتليبوريا على الجسر الحديدى عبر الدنيبر طارقين صفائحه الحديدية بسنابك خيولهم ، وهجموا على محطة البضائع ، واعملوا سيوفهم فى العمال الذين كانوا يحرسون قطارا من اربع عربات اقيمت عليها متاريس من اكياس الرمل ، وتفرقوا على الخطوط مطلقين النار على العربات.

وقد حصل كل ذلك بعجالة واحتراس . وكان يتوقع ان توجه هذه الغارة الى مقر قيادة اللجنة العسكرية الثورية ، الا ان البتليوريين خافوا من المكائن في الحيز الضيق بين العربات ، وخرجوا الى مكان مكشوف باسرع ما يستطيعون ، وعادوا من حيث اتوا .

وضعوا رشاشـــات في الجانب الآخر من الجسر ، وراحوا يطلبون من كل عابر ابراز هويتـه . واشتد التوتر ، وتواردت معلومات من احياء المدينة عن غارات تفتيشية شاملة . وفي ذلك اليوم لم يات فلاحو الضـواحي فرادى ، بل جماعات من عشرة اشخاص حزموا معاطفهم من فراء الاغنام بقوة ، ولم يحملوا شيئا من متاع . وقد شكلت اللجنة العسكرية الثورية فوجا منهم وكانت التشكليات قصيرة ، اذ كان كل واحد منهم يسال :

– لماذا جئت ؟

– جئت . اعطوني سلاحا .

– وما حاجتك الى السلاح ؟

– يجب انشاء سوفييتات ، والا فستبدا الهرجلة من جديد .

– وهل تعترف بالسلطة السوفييتية بدون تحفظ ؟

– ليس عندي تحفظات ...

– انضم الى السرية الثانية ...

ولكن السلاح لم يكن كافيا حتى جاء تشوغـاي عند الظهر بصورة مفاجئة في قاطرة تجر عربة واحدة ، جالبا معه ثلثمائـة بندقية تمساوية مع العتاد . وخفف ذلك الوضع قليلا . واخيرا ، وفي ساعة متاخرة من المسـاء اخذ جيش ماختو المرتقب طويلا يقترب منمدا قارعا السهب .

وكان اول من وصل الى الحاضرة «فرسـان كروبوتكين» – رجال الاتمان البواسل – وجميعهم متساوون في الطول ، وقد احتلوا المدرسة في الحال ، وقذفوا منهـا الكتب والمقاعد الدراسيـة والمعلمة ، واخذوا يدقون ابواب البيوت بطريقة تسلطية ، ودخل بعدهم زهاء مائتي عربة وعربة رشاشة تحمل المشاة . وبعد هؤلاء جميعا توقفت قرب المدرسة مركبة سفر كبيرة ، لعلها كانت تعود الى مطران ، تجرها اربعة خيول ، وقد جلس الاخرس العظيم على مقعد السائق ، ونزل منها ماختو ولوفكا وكاريتنيك بعظمة .

وسارع الاتمان فطلب ان يجتمع به اعضـاء اللجنـة العسكرية الثورية في الحال . وخلال ذلك الوقت كان عدد غير قليل من العمال المنفعلين قد تجمهر قرب عربة اللجنـة العسكريـة الثورية . وصاحوا برئيسها :

– يا ميرون ايفانوفيتش ، اذهب بنفسـك والق نظرة . ليست هذه قوات سوفييتية ، بل قطاع طرق ... استمع الى العمة غابكا ، فانها ستروي لك ماذا فعلوا بها ...

قالت العمة غابكا وهي تذرف الدمع :

– ميرون ايفانوفيتش ، انت تعرف احوالي ... اقتحم اثنان بيتي ... وصارا يطلبان حليبا ، وشحم خنزير ... ذئبـان جائعان ... وطلبا ان اخرج الى الفناء ، وادلهمـا على الخنزير والدواجن والتهم اللعينان كل شيء ، عسى ان يصابا بالزحار ...

واضطر الرئيس ان يشرح لهم بصوت حاد ان الامر ما دام قد وقع – اذ هم الذين دعوا ماختو وقواته – فان مجال التراجع قد فات ، ولم يبق امامهم الآن الا مهمة واحدة : الاستيلاء على المدينة اجتياحا ، ونقل السلطة الى السوفييتات . ثم صاح بالعمة غابكا فجاة :

– لا يكفيك خنزيران ؟ سنهديك قطيعا من الخنازير ... فكفي عن اثارة الناس ...

في الاجتماع سلك ماختو سلوكا غريبا – فقد ابدى وقاحة وجبنا . طلب بان يعين قائدا عاما لجميع القوات ، وفي حالة الرفض هدد بان يعود الجيش نفســه من حيث اتى . وكرر القول بان السلطة السوفييتية لا تملك قوة قتالية اخرى ، وانها يجب ان تحرص على هذه القوة ، والا تبددها بهجمات متهورة . وكان يقرض اظافره ، ويحشر يده تحت سترته بين الآونـة والاخرى ويهرش جلده . واتضح ان اكثر ما يخشاه هو مدافع بيتليورا الستـة عشر .

عندئذ قال تشوغاي له :

– حسنا ، اذا كنت تخاف من هذه المدافـع فانني ذاهب الليلة الى المدينة لاتحدث مع آمر المدفعية .

– كيف تتحدث معه ؟

– هذا شيء يخصني ...

– تكذب !

– لا ، لا اكذب . من هو آمر مدفعيتهم ؟ مارتينتكو ، وهو من جماعتنا في اسطول البلطيق ، كان مدفعيا في المدمرة «غانكوت» وهو من ابناء منطقتي ، او لعله من الرياني او ربما عرابي ... وهو لن يطلق النار علينا ...

– تكذب ! – كرر ماختنو ناشبا اظافره بكمه . والظاهر انه قد صدق ، فقد هدأ فجأة ، واتخذ قراره :

– حدثنا عن خطتكم للهجوم .

وعرضت اللجنة العسكرية الثورية هذه الخطـــة له : تعبر فصيلة من العمال المسلحين بالقنابل اليدوية الى الضفة الاخرى ليلا ، ويتسلل هؤلاء واحدا واحدا الى جسر السكك الحديدية ، وفي الفجر يهاجمون رجال الرشاشات المستحكمين عند راس الجسر ، ويستولون على الرشاشات . ويضعون تحت النيران الشـــوارع المؤدية الى الجسر . وحين تندلع انفجارات القنابل اليدوية يتحرك نحو الجسر القطار المصفح (ذو العربات الاربع) بعماله المسلحين وجزء من فوج الفلاحين المؤلف حديثا ، ويهاجم محطة المدينة . وفي اثناء ذلك يبلغ اعضاء القيادة اللجـــان البلشفيـــة في المناطق مستخدمين في ذلك عناوين وتلفونات معروفة لهم وحدهم ، فتقوم هذه اللجان بالانتفاضة في المدينـــة ، وتوزع على المجتمعين عند المحطة الاسلحة التي يجلبها القطار المصفح . وفي ذلك الوقت تنقل القيادة عملياتها الى هناك . ويخترق فرسان ماختنو المدينة من خلال جسر المارة ، ويعبر المشـــاة الدنيبر بطابورين من يمين الجسر وشماله ، ويلتقون في اماكن محددة في جادة يكاترينينسكي ، ومن هناك يقومون بهجوم الى الاعلى للاستيلاء على مؤسسات المدينة والثكنات. ان نجاح الانتفاضة يتوقف على السرعة والمباغتة في الهجوم ، ولهذا يجب ان تحدد هذه الليلة موعدا للهجوم .

قال ماختنو :

– الرجال تعبوا من المسيرة ، والخيول محطمة الحدوات ، ويجب دق حدوات جديدة لها .

فرده رئيس اللجنة العسكرية الثورية على ذلك :

– يمكن ان يستريح الرجال بعد ان تستولى على المدينة ، اما الخيول فيمكن ان توضع بعد ذلك حدوات سوفييتية لها .

وقال تشوغاى :

– هل عسكرت على مرأى من المدينة كلها لتستريح ، ايها الاثمان ؟ سيغدقون عليك غدا من مدافعهم من عيـــار الست بوصات . باختصار : اما ان تبدأ اليوم ليلا واما ان ترحل ...

جمد الدنيبر في تلك الليلة ، الا ان الجليد لم يكن مأمونا ، وخلال الليل كله اخذ العمـــال يجرون الالواح الى ضفـــة النهر لاستخدامها في العبور قالعين اياها من مصاريع البوابات ، واسيجة بكاملها . كما عمل على قدم المساواة معهم جميع اعضاء اللجنـــة العسكرية الثورية ورئيسها .

وكان رجال الاتمان وحدهم يتجولون على الشاطئ مدججين بالسلاح بأبهة خائفين من تصبيهم بالعرق ، واحدهم يغمز للآخر نحو اضواء المدينة القليلة في الجانب الآخر من النهر . لقد كانت يكاترينوسلاف كبيرة وغنية .

قبل حوالي ساعتين من بزوغ الفجر نزل اربعة وعشرون رجلا الى الجليد بقيادة روتشين . وكان كل شيء قد اوضـــح سلفا . وتشقق الجليد في الالتصاقات بين كتل الجليد ، فاضطروا الى مد الالواح التي كانوا يحملونها في ايديهم . ومرة واحدة فقط شـــع وميض في الضفة الاخرى بالقرب من الكتلة السوداء الغامضـــة للجسر المشبك ، وانطلقت رصاصة منفردة . استلقى الجميع . ومن بعدها اخذوا يزحفون متباعدين بعضهم عن بعض قدر الامكان.

خرج روتشين في النقطة التي حددهـــا بالضبط بالقرب من مركب غاطس ، ومن تلك النقطة كان زقاق صغير يصعد في التل ، وقد صعد فيه ، واستدار نحو الجهة الخلفيـــة للفناء الذى عين مكانا للالتقاء – وهو فناء مستودع للبضائع خال الآن . ارسلت انوار المحطة ضوءا باهتا . كانت المدينة كلها تغط في نوم عميق . قضى روتشين بعض الوقت يسير بمحاذاة السياج بخطوات خفيفة مكررا عبارة واحدة منغمة وبلا معنى واضح . ونظر باستمتاع الى

السياج العالى عارفا انه يستطيع بلا جهد ان يقذف عبره جسمه العديم الوزن . اخذ الرفاق يتوافدون واحدا واحدا كالاشباح ، امر الجميع بان يقفزوا الى الفناء ، وصلوا الى البوابة . وعاد ثانية يسير بخطو خفيف .

اجتمع ثلاثة وعشرون رجلا من الرجال الاربعة والعشرين ، وضل واحد طريقه او امسكه رجال الدورية . وثب روتشين ، وتعلق بيديه على حافة السياج ، مخربشا ببوزى حذائه على الواحه، وقفز الى الجهة الاخرى ، ولكن ليس بالسهولة التى تصورها ، ونزل على آجر مهشم .

كان العمال واقفين عند البوابة صامتين يحدقون فى روتشين وهو يتقدم منهم . وكان البعض جالسا على الارض ، واضعا وجهه فى ركبتيه المرتفعتين . لم يبق وقت طويل على بزوغ الفجر . وكانت لحظات الانتظار الاخيرة هذه حاسمة واحفل بالارهاق ، لا سيما بالنسبة للذين يخوضون قتالا لاول مرة . كان روتشين يلمح بغير وضوح الافواه المطبقة بجهد عازم ، واللمعان الجاف فى العيون التى لا ترف . لقد كانوا فتيانا مخلصين يفكرون بثقة وصفاء ، روسا ثقال الايدى . وقد اقدموا بمحض ارادتهم على امر خطر لا تعرف مغبته ، فى سبيل الثورة العالمية ، على حد قول ماروسيا فى تلك الحجرة البيضاء الصغيرة المضاءة بشمعة . وداهمه احساس بنشوة خاطفة ، وعادت اليه نفس الخفة ، وغص بالعاطفة المؤثرة .

وكل شىء يختلف عما كان يحسه من قبل ، كل شىء جديدا عليه . قال وقد قطب حاجبيه :

— يا رفاق ، اذا قمنا بهذه المهمة بهدوء ، فسيحالفنا النجاح فيما بعد ايضا . وعلينا الآن يتوقف نجاح الانتفاضة بكاملها (نهض الذين كانوا جالسين على الارض ، واقتربوا) واكرر مرة اخرى : الامر لا يتطلب دهاء كبيرا . والشىء الرئيسى هو السرعة والهدوء . والعدو يخاف من ذلك اكثر من اى شىء آخر . يخاف من الانسان لا من السلاح . . . اذا كنت تشعر — وصعد النظر فى شاب ذى رقبة جرداء قوية — اذا كنت ، ايها الرفيق . . . — وراودته رغبة لا تكبح ، فوضع يده على كتف الشاب ، ومس رقبته الدافئة — اذا كنت تشعر ببرودة فى قلبك ، فان العدو يشعر بنفس

البرودة . . . اذن ، فالذى هو احق من الآخر هو صاحب الغلبة .

هز الشاب راسه وضحك :

— قولك صحيح ، سيغلب من له ذكاء اكثر . . . انهم بلهاء ونحن الاذكياء . . . فنحن نعرف من اجل اى شىء . . . — وفجأة ارخى رقبته المنتفخة ، والتوى فمه الجميل — نحن نعرف فى سبيل اى شىء نموت .

وسأل شخص آخر ، وهو يشق طريقه :

— خبرنى : اذا القيت قنابل اليدوية فهل ساصبح بعد ذلك بلا سلاح ؟

اجابه شخص بهمس اجش :

— وبيداك ما نفعهما ؟ مغفل !

قال روتشين :

— يا رفاق ، اعيد عليكم العملية كلها مرة اخرى . سننقسم الى جماعتين . . .

وراح ينظر ، وهو يتحدث ، الى فجر الصباح يبزغ اخيرا فى الظلام الحالك وراء الدنيبر . . . كانت سحب كثيفة تحجبه . لا معنى الآن فى ارهاق الرجال اكثر .

عدّل حزامه وقال :

— حان الوقت . لننقسم . افتحوا البوابة .

فتحت البوابة بحذر ، وخرجوا واحدا واحدا ، متسللين ووصلوا الى نهاية السياج . ومن تلك النقطة كان الجسر يرى بشكل واضح فى منبسط النهر المتجمد . وامامه كانت تلوح معالم مبهمة لحدبة الخندق فى راس الجسر مع رشاشاته والطاقم النائم ، على ما يبدو .وكان ثمة خندق ثان مماثل فى الجانب الآخر من السدة .

— تناولوا القنابل اليدوية ، واركضوا . . .

وركض الثلاثة والعشرون دفعة واحدة ، كما يركض لاعبو الكرة . وركضوا صامتين بكل قواهم . اتجه نصفهم نحو الخندق مباشرة ، والثلاثة عشر الآخرون انحرفوا يمينا نحو السدة . جاهد روتشين الا يتاخر وراى كيف تقفز اشباح طويلة فى السترة المحزمة عبر سدة السكة الحديد قفزات عالية .

استدار فى اثرها . وادرك ان خطأ قد وقع ، فانهم لن يلحقوا فى الوصول الى الخندق الثانى ، وان اشارة الانذار ستصدر . صدر انفجار خلفه ، وزعقت اصوات وحشية ، وتفجرت مرة بعد الاخرى قنابل يدوية . . . واحتل الخندق الاول . صعد السفح غير ملتفت يعب الهواء الجارح بفمه المفتوح . كان الرجال الثلاثة عشر امامه ينطلقون بوثبات جبارة . . . واقتربوا . . . واستقبلهم لهب الرشاش مثل فراشة مسعورة . واحس روتشين وكان خفقة ريح خفقت على راسه . وفكر فى نفسه «يا رب ، اصنع معجزة . ذلك يحدث . والا سنهلك . . .» ورأى الشاب ذا الرقبة الجرداء يلقى قنبلة يدوية دون ان ينحنى ، ووثب الثلاثة عشر كلهم الى الخندق احياء . ورأى اجسادا تتخبط وتلهث . وقع شخص ملتح فى كتافية ضابط جسمه الى الاعلى منتفضا ، وراح يطعن بسيفه فى غضب كل من يمسك به . اطلق روتشين النار ، وتهاوى الضابط الملتحى ، ولوى راسه . وفى اللحظة التالية زحف آخر فى معطف من معاطف الضباط رافسا صارخا . امسكه روتشين ، فاطلق الضابط يديه ، واطبقهما على رقبته قائلا «وغد ، وغد !» وفجأة ارتخت اصابعه :

– روتشين ! . . .

اللعنة ، من هذا ؟ يبدو انه من قيادة ايفرت . لم يجب روتشين وضربه بمسدسه على صدغه .

واحتل هذا الخندق ايضا . وادار العمال الرشاشة . صفرت قاطرة وراء الدنيبر . ودب القطار المصفح مدمدما على الجسر ليحتل المحطة .

. . . .

كانت الشمس قد ارتفعت منذ وقت طويل ، وراحت تلهب بحرارتها . عبر القطار المصفح الجسر ثانية نافثا دخانا اسود ، حاملا الناس والسلاح الى المحطة المحتلة . شيعه الرجال من خنادقهم بالصياح . وسارت الامور سيرا حسنا . قبل وقت طويل عبر مشاة ماخنو جليد النهر كالنمل ، وزحفوا على الضفة الشديدة الانحدار ، واجتاحوا نقاط الشرطة ، وانتشروا فى الشوارع . وكانت الطلقات تتردد بلا فتور تارة على بعد وتارة على مقربة دانية .

– ساشكا ، اذهب الى المحطة ، واعثر على القائد العام ، وقل له اننا هنا منذ الخامسة صباحا ، تجمدنا ولم ناكل شيئا ، دعهم يرسلون من يحل محلنا .

قال روتشين ذلك لصاحب الرقبة الجرداء الذى كانت الخدوش الدامية تغطى وجهه الرجولى الفتى الامرد الا من شعيرات زغبية ملتفة . وكانت هذه الخدوش اثارا تركها عليه مسدد الرشاشة القوى ، وهو يفارق الحياة .

اندفع ساشكا خفيفا وهو يرتجف فى سترته الخفيفة طالعا الى مكان مكشوف رغم صفير الرصاص المتكرر فى الهواء . صاحوا به «ستقتل ، يا احمق . . . ساشكا ، اجلب لنا سيكائر . . .» وعاد سريعا ، وقرفص امام الخندق والقى علبة سيكائر الى رفاقه ، وقدم لروتشين مذكرة عليها ختم ما زال طريا : «انتظروا . سارسل . ماخنو» .

وقال لروتشين :

– تحية لك من ماروسيا .

فغر فاديم بيتروفيتش فمه من المفاجأة ، ورمق ساشكا المقرفص بنظرة خاطفة من مكانه فى الخندق .

– انها فتاة مليحة ، يا رفيق روتشين . اسعدك الحظ . . .

– اين رأيتها ؟

– انها نشيطة فى المحطة . . . لولاها لما وصلت الى ماخنو . ما اكثر الناس هناك ، يا فتيان ! لا يلحقون فى توزيع الاسلحة . يكاترينوسلاف لنا .

. . . .

اتخذ ماخنو المحطة مقرا لقيادته . جلس الاتمان فى صالة الدرجتين الاولى والثانية وراء منصة المشرب بنخيلها الاصطناعى . وازاحوا كل ما عليها من اوان ، فوقعت على الارض ، واخذ ماخنو يكتب الاوامر . وكان كاريتنيك يدمغها بالختم . وكان من يتسلمها ينطلق بها فى الحال . وكان رجال منفعلون لا يفتأون يدخلون يطلبون العتاد والتعزيزات ومطابخ الميدان والسيكائر والخبز ورجال الاسعاف . . . ذات مرة جاء آمر وحدة استولى عليه الغيظ لانه شق طريقه الى البنك التجارى الصناعى ، ولم يبق بينه وبين

بايه غير خطوتين ، الا ان النقص فى العتاد اجبره على القعود بعض الارض من التكدر ، تقدم من الاثمان ، وامسك بقنبلتين معلقتين فى حزامه ، وخبطهما على المنصة للتخويف ، وقال :

— ماذا تفعل هنا ، تصلى للرب ؟ قدم العتاد لنا ، يا كذا ويا كيت ! . .

وكان ماختو لا يعطى الاوامر الا لمن يطالب بها . ارتجف فكاه ليثير الخوف ، وتظاهر بانه صاحب الامر والنهى . ولكنه فى واقع الامر كان مشوش الفكر كليا ، تقلب ورقة ، ورسم صلبانا على خارطة المدينة ، فى الاماكن التى هجمت او تراجعت فيها القوات . ليس فى هذه المدينة الملعونة مجال للتحرك ، والشوارع كلها ضيقة ، والعدو فى الاعلى والاسفل وعلى الجانبين . . . حملق ماختو فى الخارطة ولم ير لا هذه الشوارع ولا تلك البيوت . وفقد القابليــــة على تعيين الاتجاه . وصارت اللعبة خبط العشواء . فلا عجب فى انــه كان يعتبر المدن اشياء ضارة ، آفة جميع الآفات .

وفضلا عن ذلك كان يقلقه الغموض فى علاقته بمارتينيتكو . اكد تشوغاى ان مارتينيتكو لا يريد ان يطلق النار على جماعته . وقد يكون تشوغاى قد التقى به هذه الليلة ، او انهما اتفقا من قبل . حقا ان كل شىء هادئ فى مستودع المدفعية ، ونصف طاقم المدفعية قد هرب ومارتينيتكو نفسه قد سكر غاية السكر من دقة الموقف دون شـــك . لم يكن فى المحطـــة غير مدفعين من مستودعه وقد تركهما البيتليوريون . وسُر ماختو الذى لم يستول على مدافع قط ، وطلب ان يخرجا الى الجادة ، وجلب بنفسه حبل الاطلاق ، وطلعت على وجهه ابتسامة متغضنة حين هدر المدفع — حتى الناس القوا على الارض — وانطلقت القذيفة صافرة فوق اشجار الحور .

واتخذت اللجنة العسكرية الثورية مقرا لها فى ساحة ملحقة بالمحطة . وكانت النيران قد اوقدت هناك ، وقف حولها العمال الذين جاءوا من مختلف مناطق المدينة . وكان اعضاء اللجنة العسكرية الثورية يعرفون الجميع تقريبا بوجوههم والمنطقة التى جاءوا منها . نادوا العمال باسماء المصانع والورش — عمال التعدين ، والطحانين والدباغين وعمال النسيج — فترك هؤلاء النيران ، واصطفوا كل

خمسين رجلا او نحوهم على حدة . واذا كان بينهم شخص مناسب عينوه آمرا واذا لم يكن تسلم احد اعضاء اللجنة قيادتهم . ووزعوا البنادق ، وفى نفس المكان عرضوا على غير العارفين بها كيفيـــة استخدامها . كانت تستند للفصيلة مهمة قتالية ويرفع الآمـــر البندقية ويهزها :

— الى الامام ، يا رفاق . . .

ويرفع العمال ايضا هذه القطعة الثمينة التى وقعت فى ايديهم اخيرا :

— فى سبيل سلطة السوفييتات ! . . .

وسارت الفصائل نحو جادة يكاتريتيتسكى للقتال .

. . . .

شق روتشين طريقه نحو القائد العام وابلغه بالتفصيل عن احتلال التعزيزات عند راس الجسر ، وعن الخسائر فى الرجال : اربعة جرحى وواحد قتل تحت الاقدام . سلط ماختو ، وهو يقضم القلم ، نظرة قاسية الى حد العجرفة وشبه بلهاء على وجه روتشين البتى الناحل .

— حسنا ، ستكافأ بساعة فضية — قال ماختو ذلك ، ودفع خارطة المدينة الموضوعة امامه الى حافة المنصة — انظر الى هنا — وخط بالقلم خطا بين الصلبان — الهجوم لا يتقدم . ونحـــن وصلنا الى هنا — شارع ، زقاق ملتو ، بولفار ، . وابعد مــن ذلك ، الصلبان تبدا بالانعطاف . . . اريد ان اعرف لماذا نراوح هكذا ، وكاننا غطسنا فى روث ؟ — صرخ بصوت حاد كصوت طائر — اذهب واعرف جلية الامر — وخربش على قطعة من الورق بعض الكلمات ، ونفخ كاريتنيك على الختم ، ومد الختم من تحت مرفقه ، ودمغ به الامضاء — يمكنك ان ترمى الجبنـــاء . اعطيك الحق فى ذلك . . .

خرج روتشين الى الساحة حيث فصائل العمال ما تزال تصطف فى صفوف غير مستقيمة ، وترتفع الاصوات بالاوامر . وهتافات النصر . دار راسه من الدخان المتصاعد من النيران ، وكان على بعضها لصاع تطبخ فيها العصيدة ، فطاف فى ذاكرته قدر الحساء الحديدى الذى كانت ماروسيا تقفز من وراء المائدة وتختطفه من

يدى امها ، واسنان ماروسيا وهى تقضم قطعة الخبز الشذى .

وخرج وراء روتشين ، ساشكا وشخصان آخران يحملون البنادق . كان احد الشخصين مجدر الوجه مرحا ضخما كالقدر الكبير يدعى تشيج ، وكان الثانى فتى جميلا له وجه قاس وعين مغمشة وقد انزل طليلة طاقيته السوداء على حاجبيه ، وكان يبتسم طوال الوقت . انه عامل سمكرة يسمى نفسه روبرت . واضطروا الى ان يتسللوا انسلالا فى جادة يكاتريننسكي محتمين وراء بروزات البيوت ، متنقلين من مدخل الى مدخل . وكان الرصاص ما يزال يلعلع . وكان البولفار خاليا ، ولكن الوجوه الفضولية كانت تلوح وتختفى وراء الحشايا التى تغطى النوافذ فى كل مكان . وعلى مدخل محل للمصوغات جلس رجل يرتدى فروة خروف ، دفع وجهه الصغير الذى انحله البؤس الى الوراء وكانما رفعه مع لحيته الشائبة نحو السماء القديمة هامسا : ما هذا ، يا ربى ؟

سال تشيج :

– ماذا تفعل هنا ؟

اجاب الرجل مكروبا :

– ماذا افعل ؟ انتظر ان يقتلونى .

– اذهب الى بيتك .

– ولماذا اذهب الى بيتى ؟ سيقول السيد يابريكاكى ايها الغل : حياتك التعيسة ام محل ؟ . . . الان ، فالافضل ان اموت بالقرب من المحل . . . .

وما كادوا ينصرفون حتى اخرج الحارس لحيته مـــن بروز الباب :

– يا شباب ، ابعد من هنا يقتلون الناس . . .

وحين وصلوا الى المنعطف اصابت صلية رشاشة تجصيص الحائط فوق رؤوسهم . استداروا الى شارع جاليى وظهورهـــم محنية ، وضغطوا اجسامهم على تجويف بوابة . وتظروا لاهثـــى الانفاس وراوا على الرصيف عند مفترق الطرق سبع جثث وبنادق مرمية . فلا بد ان فصيلة من العمال قد وقعت هنا تحت النار . ضحك روبرت بمرارة وقال مقطعا الكلمات فى غيظ :

– انهم يطلقون النار من علية فندق «استوريا» . اقترح القضاء على هذه البؤرة .

وبدا الاقتراح معقولا . كان فندق «استوريا» الـــذى كان روتشين قد نزل فيه شهرين واقعا فى الجانب الآخر من البولفار ، وكان لا بد من الوقوع تحت النار اذا اريد الوصول اليـــــه . ضغط روتشين رفاقه على البوابة بذراعيه المبسوطتين :

– التسلل واحدا بعد واحد . . وعلى فترات وبسرعة ، ولا حاجة للمخاطرة ابدا .

انحنى روتشين حتى كاد يمس الارض ، وركض الى المفرق ، واستلقى وراء جثة . انطلقت طلقتان من علية الفندق . وثب ، واندفع فى خط متعرج كالحية نحو اشجـــار الحور فى منتصف البولفار . لعلعت النار متلاحقة من العلية ، ولكن بعـــد فوات الاوان ، بعد ان وصل الى المنطقة «الميتة» . اتكا على جذع شجرة حور وخلع قبعته ومسح بها وجهه ، وعبّ الهواء وصاح :

– ساشكا ، اركض . . .

واضطروا الى طرق باب الفندق الزجاجى بالقنابل اليدويـــة حتى ازاح شخص من الداخل الصوان ، وفتح الباب . دفع روبرت البواب الضخم الذى صاح فيه «الى اين ، ايها الشيطان ؟ . . .» وانطلق وفى يده قنبلة يدوية . كان بهو الفندق غاصا بالمقيمين الذين نزلوا من جميع الطوابق . ولكنهم حين راوا الشاب المشوق الحلو الملامح وفى يده قنبلة يدوية ، ووراءه ثلاثة آخرون مسلحون راحوا يصعدون السلم صامتين لاهثين منضغطين على السلالم . عرف روتشين الكثيرين منهم وهو يصعد الدرج . كما انهم عرفوه ايضا ، ولو كان من الممكن ان تقتل النظرات لكان قد وقع صريعا مائـــة مرة من نظراتهم . ولكن واحدا منهم فقط ، وهو نفس ذلك الرجل السمح صاحب الاطيان الذى ينوء بثلاث بنات غير متزوجات ، كان خارجا من غرفته متاخرا بعد ان تناول وجبة من الطعام البارد ، فراى روتشين ، فكاد ياخذه بالاحضان نافثا عليه رائحة نبيـــذ «الماديرا» :

– عزيزى ، فاديم بيتروفيتش . هذا انت ، بينما بناتـــى يثرثرن زاعمات ان بعض البلاشفة اقتحموا . . .

ولكن الكلمات جمدت على شفتيه حين رأى ساشكا الضخم والخدوش الدامية على خديه ، والسمكري الذي يغطي عينا واحدة بطلبلة طاقيته ، وتشيج البادي المرح المتورد ولو كان مظهره لا ينم كثيرا عن تلطف طبقي .

كان السمكري يعرف جميع مداخل الفندق ومخارجه . وحين صعد الى الطابق الثالث اتجه الى سلم جانبي ارتقاه الى العليّة . كان الباب الحديدي الى هنا مواربا . وهمس السمكري «هم هنا !» وفتح الباب على سعته ، واندفع بعرامة شديدة حتى كأنه كان ينتظر تلك اللحظة طول حياته . وحين وصل روتشين الى نافذة الروشن منحنيا في الظلام الشاحب تحت روافد السقف ، كان روبرت يغرز حربته برجل في معطف فرائي منبطحا بالقرب من رشاشة :

— كنت اقول انه صاحب الفندق نفسه !

عندما نزلوا من العليّة اضطرب الفتى فجاة ، واصطكت اسنانه ، وجلس على درجة ، وغطى وجهه بطاقيته . اخذ ساشكا بندقيته منه ، وقال بغلظة : «لا تتصور اننا سننتظرك !» وقال تشيج له «آه ، يا لك ، وتسمى نفسك روبرت ...» . قفز وانتزع بندقيته من ساشكا ، وركض نازلا الى الاسفل قافزا الدرجات . تركه فاديم بيتروفيتش مع تشيج لحراسة الفندق . وارسل تذكرة مع ساشكا الى مقر القيادة ليرسلوا فصيلة الى «استوريا» وعاد وحده الى البولفار .

كان النهار في اواخره . وقد احتلت فصائل العمال البريد والتلغراف ودوما المدينة والخزانة . وقد طاف روتشين في كل هذه الاماكن ، وارسل من كل منها مراسلين الى مقر القيادة . وكانت جميع الدلائل تشير الى ان القتال قد طال . واستنفد مشاة ماختو الدفعة الاولى من الحماس ، وبداوا يضجرون من القتال في ظروف المدينة ... فلو كان القتال في السهب لكانوا الآن قد قسموا الغنائم منذ وقت طويل وطبخوا الطعام في القدور ، وتحلقوا ، ليتفرجوا على الراقصين المتحمسين يرقصون رقصة «الكوباك» الاوكرانية باحذية جيدة انتزعوها من اقدام القتلى . وكان البيتليوريون ، من جانبهم ، قد افاقوا من حالة الارتباك ، وبعد

ان تراجعوا الى منتصف الجادة تخندقوا ، واخذوا في بعض الاماكن ينتقلون الى الهجوم المضاد .

لم يعد روتشين الى المحطة الا عند هبوط الظلام . الا انه لم يجد ماختو هناك ، فقد انتقل مقر قيادته الى فندق «استوريا» . وذهب روتشين الى هناك . وكان روتشين لم يصب طعاما منذ يوم امس ، ولم يشرب غير قدح من الماء . وكانت قدماه متخدرتين من التعب ، والمعطف يثقل على كتفيه كالرصاص .

لم يسمحوا له بالدخول الى الفندق . كان باب الفندق محروسا برشاشتين ، وكان فرسان ماختو يتجولون على الرصيف هازين بمهاميزهم وشعورهم طويلة مسبلة على جباههم على الموضة الشائعة في غولاي — بوليه . وكان احدهم قد القى معطفا من فراء الظربان فوق سترته الفروسية المبطنة وقاية من الاصابة بالبرد ، ولف آخر على عنقه لفاعا من فراء السمور . طلب الفارسان من روتشين ابراز هويته ، ولكن تبين ان كليهما لا يعرف القراءة ، وهددا بانهما سيقتلانه في مكانه اذا اصر على الدخول . قال لهما روتشين واهن الصوت «اذهبا الى الشيطان ، انتما واتمانكما» وعاد الى المحطة ثانية .

وفي المحطة دخل روتشين المشرب المحطم نصف المظلم حيث كانت التماعات النيران تسقط من خلال النوافذ العالية ، واستلقى على اريكة من خشب البلوط ، وغفا في الحال ، رغم الصيحات وصفير القاطرات والطلقات . ولكن لُمَعا مشوشة من احداث اليوم ظلت تنفذ اليه من خلال الارهاق الشديد . . . انه قضى يومه بنزاهة . . . لا ، ليس تماما ، على ما يظن . . . لماذا ضرب ذلك الرجل على صدغه ؟ مع انه قد استسلم . . . لكي يغطي على آثار الجريمة ؟ نعم ، نعم ، نعم . . . وتراءت له اوراق اللعب على المنضدة ، واقداح النبيذ المسخن . . . والوصول الكابتن فيدنيابن — القتيل — باسنانه المتآكلة ، وفمه المبلل مثل عجيزة دجاجة ، المضموم وكأنه متهيئ لقبلة لقائد الجيش الجنرال ايفرت ، الجالس الى لعبة ورق . . . اوه ، اللعنة عليه . . كان محقا في ضربه . . . .

تصارع النوم ودقات قلبه المرتاعة . فتح روتشين عينيه ، ورأى وجها رصينا قاتما يضيؤه النور الاحمر المتسلل من النافذة .

زفر واستيقظ . كانت ماروسيا تجلس الى جانبه ، وهي تمسك على ركبتيها قدحا من الماء المغلي وقطعة خبز . وقالت :

– خذ ، اشرب وكل .

. . . .

في تلك الليلة تسلل تشوغماي ورئيس اللجنة العسكرية الثورية الى مستودع المدفعية ، الذي لم يبق في حراسته الا الرجال المتعاطفون مع السلطة السوفييتية ، وايقظا مارتينينكو ، وقال تشوغماي له ما يلي :

– جئنا لتوبيخك ، يا رفيق ، فانك تتصرف اسوأ تصرف . . . . اما ان تنحاز الى بتليورا بشكل صريح ، ولكن لن نتركك حيا ، واما ان تهيء المدافع للانطلاق . . .

– هذا ممكن . . . في الصباح سارسل لكم المدافع . . .

– ليس في الصباح ، بل الآن . . . آخ ، مارتينينكو ستشبع من النوم في الآخرة . . .

– حسنا ، فليكن الآن . . .

وفي اليوم التالي كانت جميع نوافذ يكاترينوسلاف تهتز من قصف المدافع . وفي جادة يكاترينينسكي تطايرت في الهواء البلاطات واغصان الحور ومزق اكشاك البولفار . وهجمت فصائل العمال وفوج الفلاحين ومشاة ماخنو على البيتليوريين وقد حمستهم هذه الموسيقى ، ودفعوهم الى منتصف الطريق الى المرتفع . عندئذ وفي وجه مخاطر كبيرة شق مندوبون عن مختلف المنظمات الحزبية واللاحزبية وكذلك باابريكاكي الصغير طريقهم الى اللجنة العسكرية حاملين الاعلام البيضاء ، وعرضوا الوساطة لاحلال الهدنة في اسرع وقت ممكن ، وانهاء الحرب الاهلية .

كان ميرون ايفانوفيتش يجلس الى منضدة في بهو «استوريا» مكور الكتفين في معطف صغير تقطعت ازراره وكبيبه لقذرة ، وقد قال للموفدين ، وهو يمضغ خبزا يابسا وفمه خال من اي قطرة من اللعاب :

– ليس من مصلحتنا نحن ان تهدم المدينة . وانا اقترح انذارا نهائيا : على جميع الوحدات البيتليورية ان تلقي السلاح في مدة لا تتجاوز الساعة الثالثة نهارا ، وان تكف الشراذم المعادية

للثورة عن اطلاق النار من عليات المباني . وفي حالة الامتناع ستقوم مدفعيتنا في الساعة الثالثة والدقيقة الواحدة بفتح نيرانها على المدينة بخطوط متقاطعة .

وكان الرئيس يتحدث ببطء ، ويمضغ ببطء اشد ، ووجهه مسود من السخام . واصيب الموفدون باليأس . وتشاوروا طويلا هامسين ، وارادوا ان يجادلوا . ولكن في تلك اللحظة نزل الدرج المرمري الى البهو اناس صاخبون في ملابس زاهية ومتنوعة يتقدمهم شخصان يحملان في ايديهما رشاشتين من طراز لويس ، ووراءهما دوزينة من شبان ارتسمت على وجوههم الوقاحة ، وكل واحد مزود بسلاح ، وفي الوسط رجل طويل الشعر ذو عينين لعينتين .

اختطف الموفدون ورقة الانذار النهائي من يدي الرئيس ، وهرعوا خارجين الى البولفار في الهواء الطلق تحت الرصاص المتطاير .

رفضت القيادة البتليورية الانذار النهائي . وفي الساعة الثالثة والدقيقة الواحدة استشاط الاتمان ماخنو غيظا ودق بالمسدس على الطاولة التي كان المجلس العسكري الثوري يجتمع حولها وطلب ان تقصف المدينة بلا رحمة وبخطوط متقاطعة . واشفق على المدينة اعضاء المجلس العسكري الثوري والعمال الذين ولدوا وعملوا فيها . ومع ذلك فقد كان من المتعذر اظهار الضعف ، فتقرر تخويف البرجوازيين . وهدرت مدافع مارتينينكو الاربعة عشر بعد تاخير . وتطايرت هنا وهناك قطع الآجر والتجصيص من جدران البيوت الكبيرة المرتفعة كمدرج . وتراكض ممثلو اللجان كالفئران من البتليوريين الى المجلس العسكري الثوري . ولم تنقطع هجمات فصائل العمال . واخذ البتليوريون يتراجعون في نهاية البولفار الى التل .

وفي ليلة اليوم الرابع للانتفاضة اعلن المجلس العسكري الثوري السلطة السوفييتية في المدينة .

. . . .

قضى المجلس العسكري الثوري الليلة كلها في تاليف الحكومة . وكما توقع ميرون ايفانوفيتش في تلك المرة في العربة

كون الفوضويون والاشتراكيون الثوريون اليساريون تكتلا مع الالمان ماختو ، وتحت حمايته اقتحموا الاجتماع ، وصاروا يتصارعون بضراوة على كل منصب . ولسبب ما كان جميع الاشتراكيين الثوريين قصار القامة ، وان كانوا اقوياء البنيان يبدو عليهم الارتياح بعد نوم جيد . وكان النقاش معهم صعبا جدا .

كان كل واحد منهم يشب وعلى فمه ابتسامة طرية ويبادر بمخاطبة الالمان قائلا بانه ، اى ماختو ، زعيم حقيقى واستراتيجى عظيم ، ونار تطهر كل شىء ، ومكنس من معدن حديدى . . . اما فتيانه فغاية فى الروعة وبواسل متفانون !

وكان ماختو يزم شفتيه الشاحبتين ويصغى مكتفيا بهز وجهه الذى اضر به السكر . رفع اشتراكى ثورى متصلب صوته بقوة حتى نفذ من خلال الابواب التى تفتح وتغلق الى الرواق حيث ازدحم رجال ماختو وجمهور من شتى الانواع لا احد يعرف كيف نفذوا الى الفندق .

– ايها الرفاق البلاشفة عم تتجادل معكم ؟ انتم الى جانب السوفييتات ، ونحن الى جانب السوفييتات . . . واختلافنا تكتيكى محض . نحن نرث جهازا برجوازيا لادارة المدينة . وانتم تريدون ان تجعلوه سوفييتيا خلال يوم واحد . ونحن نعلم ان جهاز المدينة لن يعمل مع الشيوعيين . والتخريب واقع لا محالة . والمجاعة والخراب محتومان . بينما هم يرغبون فى العمل معنا . وهناك قرار لدوما المدينة . ولهذا السبب نؤيد ترشيح الرفيق فولين لمنصب مفوض التموين . واقترح غلق باب النقاش ، واجراء التصويت . . .

كان الفوضويون حتى تلك اللحظة يتصرفون بغموض بل وبازدراء فاذا بهم قد تصرفوا تصرفا مفاجئا جعل الالمان يدير رقبته الهزيلة .

ورشح ممثلهم ، وهو طالب فى طربوش قانى الحمرة ، بابريكاكى الابن لمنصب المفوض .

– سننتصر عليه بكل الوسائل التى نملكها . . . ان بابريكاكى الابن هو شريكنا فى المعتقد ، فوضوى متعلم ، وخبير بالمالية ، وسيكون فى ايدينا سلاحا طيعا مفيدا للشعب الثائر

الحر . . . اقترح عدم اجراء النقاش ، والتصويت برفع الايدى فقط .

كانت ماروسيا وفاديم بيتروفيتش يجلسان عند الحائط على مقعد واحد . تهيجت ماروسيا وراحت تعصر يديها فى حنق ، وتنهض لتهتف بصوت متكسر عال : «هذا عار !» او «اين كنتم حينما كنا نحارب ؟» وعادت الى جلستها ووجنتاها متوهجتان . كانت لا تملك غير صوت استشارى .

وكانت قد نحفت وتلوحت بشرتها خلال تلك الايام . وكانت تشعر بالحر وهى فى معطفها المفتوح القصير من فراء الغنم ، وشعرها مسترسل . وفى الفترات بين خطاب وآخر كانت تحدث روتشين بعجالة عن تنقلاتها . . . عملت فى البداية فى لجنة تموين الفصائل بالخبز والماء المغلى . . . ثم نقلت الى فصيلة الاسعاف ، واخيرا عينت مراسلة . . . وكانت تنطلق ضاربة فى عرض المدينة وطولها . . . وتعرضت للرصاص «مائة مرة» وعرضت لروتشين ثقوبا فى حاشية التنورة . . .

– ولو لم اكن خفيفة الحركة لكنت فى عداد الموتى . كنت اسمع من يناديني ، فالتفت فاذا بقنبلة تنفجر فى البقعة التى كنت واقفة عليها قبل لحظة . بينما انا مختفية وراء شجرة حور . . . وتملكنى الذعر حتى اننى احس بارتجاف ركبتى حتى الآن .

وكانت حيوية ماروسيا يمكن ان تكفى لعشر انتفاضات وبينما كانت تتحدث ظهر فى الباب وجه ساشكو المخدش . وشق طريقه بصعوبة ، واومأ لماروسيا باصبعه . فهرعت واسر هو لها بشىء . فبسطت ماروسيا ذراعيها .

هدر تشوفاى معترضا على المرشحين :

– ايها الرفاق ، نحن لم نجتمع للجدل والنقاش ولم نجتمع لتقديم البراهين ، بل اجتمعنا لنحكم ، والحكم لمن لديه القوة . . .

تعذر على ماروسيا الانتظار ، فهرعت نحو الطاولة ، واعلنت :

– فى المدينة يعم نهب شامل . . . فاستمعوا الى الرفاق . . . هم يمنعونهم من الدخول الى هنا . . . وقد لووا ايديهم . . .

عندئذ ترامى من وراء الباب ضجيج ولغط واصوات زاعقة ،

واقتحم الغرفة ساشكو وبعض العمال ببنادقهم . وتكلموا دفعة واحدة :

– ما هذا الامر ؟ لقد بثت الشرطة في الفندق . من الخير ان تذهبوا . ان تلقوا نظرة . . . والبولفار كله محاط . وفتيان ماختو يقتحمون المخازن . . . وينقلون البضائع بالعربات .

مد ماختو شفتيه ، وكأنه يهم بقضم شيء . . . ونهض من وراء الطاولة ، وخرج . تراجع فتيان ماختو في الممر والبهو حين رأوا الاتمان يكشر عن اسنانه الصفراء كأسنان كلب هرم . ولم يكن مضطرا الى ان يذهب ابعد من ذلك . فقد رأى اشباحا تروح وتجيء في الجانب الآخر من الجادة عند نوافذ مخزن كبير . وما كاد يغادر باب الفندق حتى ظهر لوفكا على الرصيف .

سأل لوفكا وقد ترنح :

– ما المسألة ، ما سبب الهبهبة ؟

صاح ماختو :

– اين كنت ، ايها الرذيل ؟

– اين كنت . . . اثلمت حد سيفي . . . ستة وثلاثين قتلت بهذه اليد وحدها . . . ستة وثلاثين . . .

– حافظ على النظام في المدينة – زعق ماختو ، ودفع لوفكا من صدره بقوة ، وعبر البولفار راكضا نحو المخزن وتبعه لوفكا وبعض الحراس . ولكن الذين كانوا هناك حدسوا ان عليهم ان يتفرقوا ، فاختفت الاشباح عند النوافذ . ولم يبق الا عدة اشخاص كانوا يركضون على مسافة بعيدة ومعهم صرر ضـــاربين الارض بخطى ثقيلة . ومع ذلك فقد باغت الحرس احد فتيان الاتمان في المخزن ، وهو ذو شاربين كبيرين ، واخرجوه من المخزن . فدمدم متباكيا بانه لم يأت الى هنـــا الا ليرى كيف شرب البرجوازيون الملاعين دم الشعب . حدق ماختو فيه وكيانه يرتجف . وحين جاء فضوليون آخرون متراكضين من ناحية الفندق هز يده في وجه الرجل .

– هذا عميل معروف للمعادين للثورة . . . لن ندعك تمضي في عملك القذر بعد الآن . . . اقتلوه واكفونا شره . . .

اعول ذو الشاربين وسلا «لا تفعلو . . .» جـــــرد لوفكا سيفه ، وجار ، ورفع سيفه عاليا وهوى به على عنقه بلهاث . . .

وقال متباهيا ، وتراجع :

– سبعة وثلاثين .

اخذ ماختو يضرب بقدمه في حنق جثوني الجسد المرتعش المخضب ببركة من الدماء .

– سيكون ذلك عبرة لكل انســـــان . . . فوضى النهب قد انتهت . . . – واستدار بحدة نحو الجمهور الذي ارتد عنه ، وقال – يمكنكم ان تعودوا الى منازلكم بهدوء .

. . . .

غفت ماروسيـــــا على المقعد فجـــاة ، واسترخت على كتف روتشين ، وارتخى رأسها بشعره المرسل على صدره شيئا فشيئا . كانت الساعة قد تجاوزت السادسة صباحا . وكان خادم الفندق العجوز الجهم الذي استبدل بدلته الفراك بسترة منزلية مستهلكة ذات جديلتين بمناسبة اقامة السلطة السوفييتية ، يقدم الشاي وقطعا كبيرة من الخبز . وكان قد تم تشكيل الحكومة ، الا ان قضايا ملحة كثيرة بقيت معلقة . فمثلا قدم عمال السكك الحديديـــــة منذ يوم امس استفسارا يسألون فيه عمن سيدفع لهم اجورهم وبأية مقادير ؟ فاقترح ماختو الذي ايده الفوضويون هذه الصيغة : ليحدد العمال انفسهم اثمان التذاكر ، ويجمعوا النقود بانفسهم ، ويدفعوا الاجور لانفسهم . . .

ولكن ما كاد النقاش يشتد حتى اهتز فجأة زجاج النوافذ في القاعة التي تلون هواؤها بلون دخان السيكائر الازرق . وترامى صوت انفجار اصـــــم . وبربر مارتينيتكو الذي كان نائمـــا على الاريكة . واهتز الزجاج ثانية فاستفاق مارتينيتكو : «اللعنـــــة عليهم ، حماقة . . .» واخذ يضرب سدارته على رأســـه الحليق . وتناهت هبدة ثالثة ثقيلة . انزل تشوغاي وميرون ايفانوفيتش قطعتي الخبز اللتين كانتا في يديهما ، وتبادلا النظرات في قلق . واقتحم الباب لوفكا واحد الفرسان يهز رأســـه الحاسر كالدب . وقال الفارس ودفع يده فوق اذنه :

– هلكنا . هلكت كتيبة الفرسان كلها . . .

صاح لوفكا هازا خديه :

– قرب ديبفكا ! وانت تقضى الوقت فى الكلام ، يا اتمان ! . . العقيد ساموكيش يزحف بست كتائب . . . ويقصف المحطة بالمدفعية الثقيلة . . .

. . . .

راقب سكان جادة يكاتريتينسكى رحيل جيش ماخنو من جميع النوافذ بتشنف وعلى المكشوف ودون حاجة الى الاختفاء وراء الحشايا كما فعلوا من قبل . انطلق الفرسان شاربين خيولهم بالمقارع يمينا وشمالا . ورفعت الريح فوق اكتافهم معاطفهم وعباءاتهم القوزاقية وستر الفرسان القصيرة والاغطية الحريرية . . . وكانت الخيول المثقلة بالعدول تتعثر على الرصيف المغلف بطبقة من الجيد ، ويتدحرج الحصان وفارسه والقنينة هالكة تحت السنابك . . . فكان الواقفون فى النوافذ يصيحون «اها ! . . واحد آخر !» وكانت العجلات تعدو محملة بالاشياء المنهوبة . وعربات الرشاشات ذات الخيول الاربعة تنطلق مكتسحة كل شيء فى طريقها بسرعة تقدح الشرر من تحت العجلات . وكان المشاة الذين لم يستطيعوا الصعود الى العربات يركضون وراءها .

وكان كل ذلك يصعد منطلقا فى الجادة مصحوبا بعويل وحشى وهدير وفرقعة ، متجها الى منطقة التلال من المدينة ، لان العقيد ساموكيش قد احتل جسر السكة الحديد ومحطة القطار .

وقيل ان الاتمان ماخنو الذى كان قد خرج راكضا من المجلس العسكرى الثورى طبطب بقدميه فى غيظ شديد عاجز ، بكى ، والقى نفسه فى عربة الرشاشة التى جلبها لوفكا له الى الفندق ، وغطى راسه بمعطفه من فراء الغنم خجلا او حتى لا يعرفه احد ، وخرج من المدينة اللعينة الى جهة غير معلومة .

وبينما كان جيش الاتمان هاربا من المدينة دون ان يطلق رصاصة واحدة اصطدم بغتة بنقاط الحراسة الامامية التابعة للبتليوريين ، فاختلطت صفوفه من الذعر ، واستدار بخيوله نحو الدنيبر ، الى هلاك محقق . كان الشاطئ فى تلك الناحية شديد الانحدار . حطم رجال ماخنو الاجمات والاسيجة دائرين من العربات ، وانزلقوا على جليد النهر . ولكن جليد النهر كان رقيقا ، فاخذ يلتوى ويتصدع واخذ الرجال والخيول والعربات يتخبطون

فى الماء الاسود وسط كتل الجليد ، ولم يخرج الى الضفة اليسرى الا جزء صغير من جيش ماخنو ، فلول ضئيلة .

فى تلك الليلة طلب عمال كثيرون من افراد الفصائل العودة الى بيوتهم ليتدفأوا ، ويغيروا احذيتهم ويحتسوا شيئا ساخنا . ولم يبق تحت السلاح غير فصائل الدورية ومحاربى فوج الفلاحين الذين لم يكن لهم مكان يذهبون اليه . فاضطر هذا الفوج ان يتلقى كل الضربة التى وجهتها وحدات العقيد ساموكيش البتليورية فى الظروف غير المتساوية . وحوصر الفوج بالقرب من ساحة محطة القطار ، وابيد بكامله تقريبا فى معركة بالحراب ، ولم يستطع الا نفر قليل ان يتسللوا ويهربوا من خلال الافنية الخلفية ، ويعودوا الى قراهم ، ويحكوا عن الموقعة الرهيبة التى قتل فيها ثلثمائة من الفتيان الطيبين الذين جاءوا الى يكاترينوسلاف ليقيموا السلطة السوفييتية .

واسرع ميرون ايفانوفيتش وتشوغاى عضوا المجلس العسكرى الثورى ليجمعا فصائل العمال والدوريات . ولم يكونا يؤملان الاحتفاظ بالمدينة ، بل كانت مهمتهما اتاحة الفرصة لجميع الذين اشتركوا فى الانتفاضة بالانسلال عبر جسر السابلة الى الضفة اليسرى من النهر . واختفت الفصائل المجموعة وراء زوايا البيوت ، والحجارة المقلوبة والمتاريس تطلق نيران الرشاشات على البتليوريين المهاجمين . ومن كل الانحاء تراكض مئات العمال مع زوجاتهم واطفالهم الى الجسر وعبره . . . وكان بعضهم يحمل فى يديه متاعا هزيلا كان من الممكن ان يتخلى عنه دون اسف . . . وكانت الطلقات تصوب عليهم من السطوح ومن الاسفل ، من الشاطئ .

كان آخر من تراجعوا تشوغاى وميرون ايفانوفيتش وروتشين وماروسيا وساشكا وتشيبج وعشرة رفاق آخرين . تراكضوا من زاوية الى اخرى ، ومن مكمن الى آخر ساحبين رشاشة . وكانت قبعات رجال ساموكيش الرمادية تظهر بين الحين والآخر غير بعيد عن مداخل البيوت . وبقى اصعب عمل ، وهو النزول الى الجسر حيث لم تكن توجد اية حماية غير الجثث والصرر المتناثرة . . . ادار تشوغاى الرشاشة واستلقى وراء درعها مبقيا ساشكو بالقرب

منه ، وصاح بالآخرين «اركضوا خفافا . . .» وركضوا جميعا تحت لعلعة الرشاشة التي بدت وكأن ماسورتها ستذوب من حدة النار .

تعثرت ماروسيا في وسط الجسر ، وسارت بتثاقل وبلا ثقة . . . لحق روتشين بها ، واسندها . نظرت اليه بدهشة تريد ان تقول شيئا ، ولكنها اكتفت بالنظر اليه فقط . تعد روتشين نصف قعود ، وحملها في يديه كما يحمل الطفل . كانت ماروسيا تضغط جسمه عليه اكثر فاكثر . وها هي نهاية الجسر ، واذا بفاديم بيتروفيتش يحس وكأن عصا حديدية تصيب فخذه . جاهد لكي يبقى على قدميه حتى لا يسقط ماروسيا من يديه ولا يصيبها بأذى . جاء تشوغاي راكضا من الخلف . فقال له روتشين «ساتركها تسقط . . امسكها . . .» وفي الحال وقعت القبعة من على رأسه ، وبدأت الدنيا تغيم في عينيه . وكان ما يزال يسمع صوت تشوغاي :

– ساشكو ، لا يجوز تركه . . . .

١٦

لم تمثل مسرحية «اللصوص» الا في شباط ، اثناء فترة استراحة قصيرة نالها فوج كاتشالين . وكانت قد تخلفت في الماضي المسيرات الطويلة في الصقيع والزوابع الثلجية ، حين كانوا لا يرون امامهم ، بدلا من المبيت الدافئ ، غير الشفق الكئيب تحت السحب ، ولا يجدون في السهوب الثلجية جذامات من الحطب يشعلون النار بها ليدفئوا اجسادهم المتجمدة ، كما تخلفت في الماضي المعارك الطاحنة ، والانذارات الصباحية ، والمناوشات القصيرة الضارية مع القوزاق . كان ماموتتوف مع فلول افواجه الممزقة بعيدا وراء الدون . فقد تحلل جيشه . ولم يعد موضع ثقة . لقد ضيع عبثا عشرات الالوف – زبدة قوات الدون – في ثلاث هجمات على تساريتسين .

بعد ان احتل رجال كاتشالين قرية قوزاقية كبيرة استسلمت دون قتال شعروا بالفرح ، وشبعوا ونالوا غايتهم من النوم في

دف» . والربيع على الابواب ، ولربما ستنتهي هذه الحرب الطويلة بحلوله .

انهكت داشا مسيرة متعبة استغرقت شهرا ونصف شهر ، ولم يخطر بخلدها قط ان تشغل نفسها بهذه التمثيلية من جديد . فقد تبددت اللوازم المسرحية ، وجرح عدة اشخاص من الفرقة ، كما ان كتاب المسرحية نفسه قد ضاع . وكانت داشا تود لو تقضي ولو بعض الامسيات في دفء مع ايفان ايليتش ، وتجلس الى جانبه دون كلمات ولا افكار غارقة في السكينة الهادئة عند الغسق على الاغنية المستديمة للجدجد تحت الموقد .

وكان عليها ان تغسل البياضات وتصلحها ، وترسل حذاء ايفان ايليتش اللبادي ليرقع ، وتصلح من هيئتها ، والا فان زوجها وجميع الخلق ، ومن بينهم هي نفسها ، قد نسوا انها امرأة . في المساء الاول خرجت داشا واغريبينيا من الحمام فوق البرك المتجمدة ، وكان الصقيع الخفيف يداعب خدودهما الحارة المبخرة . فيا لها من سعادة ! هيأت داشا اغريبينيا ، واعدت العشاء . كما ان ايفان ايليتش وايفان غورا عادا من الحمام ايضا وجلس الاربعة حول المائدة ، وصحم الرجلان من السرور ، فقد كان في الجو رائحة حساء الكرنب ، كما ان رائحة طيبة اخرى كانت تنبعث من السماور ! قال ايفان غورا :

– هكذا ، يا ايفان ايليتش ، راحة بعد الاعمال . . .

ولم تحظ داشا بالراحة . ففي اليوم التالي ، وقبل الساعة التي يعود فيها ايفان ايليتش عادة جاءت انيسيا ومعها كتاب شيللر وعليها سيماء الجد والتحفظ ، وتكلمت رافعة عينيها الحالمتين :

– ضجرة انا ، يا داريا دميتريفنا . . . ام لعل قد فسدت . . . كل الناس يبدون اعتياديين ، اما انا ففاسدة . . . ، وقد ظهر ذلك علي منذ الصغر . . . ثم ، فيما بعد ، بالطبع تزوجت في سن مبكرة ، وانجبت اولادا . . . ثم المت بي محنتي . انا في الرابعة والعشرين يا داريا دميتريفنا . وستنتهي الحرب فالى اين اذهب ؟ اعيش مع فلاح في كوخ ريفي ، واحدق في السهب الخاوي ؟ انا بعد كل ما رأيت وسمعت بحاجة الى شيء آخر . . . .

ونهد صدر اليسيا تحت معطفها ، وغمضت عيناها نصف المغمضة .

– لقد قرأت هذا الكتاب كله ، ولم افترق عنه في المعارك ... قد اكون لليلة الوعي جاهلة وغير متعلمة ، ولكن في الامكان ان يصلح ذلك ، يا داريا دميتريفنا ، فان اصواتا كثيرة تتردد في داخل . . . . انا لا اعرف شيئا عن نفسي ، ولكنني اعرف عن الناس . . . عيناي تغرورقان بالدمع حين افكر في انني نادرة حتى على ان اروي شيئا عن الكونتيسه اماليا هذه . . . واذذاك ستنهض حية من هذا الكتاب . وقد حدثني المرحوم شاريغين عن ذلك ... يا داريا دميتريفنا ، اليوم وجدنا مكانا ، في المدرسة يسع لحوالي ثلثمائة شخص . . . . كما يوجد نجارون عندنا ، ويمكن الحصول على خشب وجنفاص . . . فما الذي يمنعنا عن تمثيل «اللصوص» ؟ نحن نتذكر ادوارنا . . . اليوم تذكرها الاولاد ، ويودون لو تتاح لهم فرصة للضحك . . .

وجاء ايفان ايليتش ، واعجب بالفكرة بالطبع : «فكرة رائعة ! سنمكث هنا اسبوعا . . . وسيكون ذلك عيدا ممتازا للاولاد ! . .» كان ايفان ايليتش انسانا عجيبا . لا شيء يمكن ان يضعف من استبشاره بالحياة . وما دامت داشا الى جانبه فمعنى ذلك انطلاق تام نحو السعادة . . . مثل تلك الايام الحزيرانية البعيدة الزرقاء النسائمية على السفينة . . .

وهكذا لم يكتب لداشا ان تسمع في الغبش الى دقات قلب حبيبها ، وتتسلل حذرة كانسلال القطة الى افكاره الخفية . . . ولكن هل كان من الممكن ان يكون لديه شيء خفي ؟ ثم ما حاجة داشا الى ذلك ؟ ان ايفان ايليتش رجل بسيط كريم يهب كل ما لديه الى آخره . ووجهه المتيبس من الصقيع والريح بسيط كالشمس . . . آه ان كل شيء سيكون مختلفا لو ان داشا ستحمل حياة جديدة ، لحما من لحمه في الظلام الغض لجسدها النحيل . . .

بدات فرقة التمثيل تتمرن . واية عذابات كانت ! بكت داشا في صمت ، وكان الممثلون يخجلون من تبادل النظرات فيما بينهم ، واظهروا غلظة وقساوة ، وبحت اصواتهم من البرد . . . وابدى

سابوجكوف العون بالقائه محاضرة عن نشأة التمثيل بشكل عام حيث اثبت ان التمثيل متأصل حتى بين بعض الطيور والحيوانات ، فالثعلبة – مثلا – حين تصيد فارا ، تقوم معه امام صغارها بعرض حقيقي ، فتقفز ، وتنقلب على ظهرها ، وتسير على قدميها ، وتدير ذيلها . . . . وتنشطت الفرقة ، وسار الامر سيرا حسنا بعض الشيء . وضعوا خشبة مسرح في المدرسة ، وطلوا الجنفاص ، واعدوا اضواء مقدمة المسرح من القناديل المشتعلة بالسلاء ، وعثروا فجاة بين الامتعة في العربات على ستر الفراك ومعاطف السهرة ، وهي الاشياء التي صادرها ايفان ايليتش من محام عابر بينما كانوا في المزرعة .

واخيرا جاء اليوم الموعود : ما ان غربت الشمس حتى طاف في القرية جندي على حصان رمادي تابع للمدفعية (وهذا ابتكار لايفان ايليتش) ، ونفخ في البوق النحاسي ، وانشأ يصيح : «ايها المواطنون والرفاق ، بعد قليل سيبدا عرض «اللصوص» لشيللر . . .» .

وهرعت القرية كلها الى المدرسة ، واقتحم الناس مقدمة المبنى والمدخل الى القاعة حتى دخلوا اليها وعيونهم جاحظة وقد فقدوا في الزحام قبعاتهم وازرار معاطفهم . . . والذين لم يتسن لهم حضور العرض زايلهم الندم بسرعة . اذ كان يطل على القرية هلال في اوائله في السماء الزرقاء قبيل الربيع . وارتفعت اصوات الاكورديون امام المدرسة وادهش رجال الجيش الاحمر بغنائهم المحبوب القوزاقيات اللواتي قبلن بالوضع منذ وقت قصير : «طار الملاك في سماء منتصف الليل . . .» وجرى تعارف وقيلت نكات و«الغزل للعيون ، والقبل للشفاه . .» او من مثل «يريد العسكري ان يتزوج ، والزواج ليس بعطسة ، ويمكن ان يؤجل . .» .

في البداية اخذ الجمهور في القاعة يهدر ضاحكا حين اكتشف ان العجوز المموه بالمكياج بخصلات شعره من الكتان ، والرداء المصنوع من مسوح راهب هو الجندي الاحمر قانين . . . فصاح المتفرجون : «انه هو ! هيا ، قانين ، ابد شطارتك ، ولا تخف ! . .» وحينما ظهر من وراء الكواليس رجل في ملابس فضفاضة وذيلين يرتدي جوارب نسائية – وقد برزت اسنانه كلها وتباعدت عيناه – يدلف بخطى زاحفة ذات نمط خاص ، وفح فحيح الافعى «يا

ابى ، انا هنا ، ابنك الوفى ، فرانتس» عرف الجمهور على الفور ايضا انه كوزما كوزميتش ، فانفجر ضاحكا . . .

كانت داشا وراء الكواليس تمسك بصدغيها وتردد لسابوجكوف :

– هذه النهاية . الفشل المريع ، كنت اتوقع ذلك . . .

الا ان الممثلين تغلبوا على المرح الذى شاع فى القاعة . تعرف الجمهور على الجميع ، واخذ يصغى . تقدم لاتوغين من القناديل الساخنة الداخنة ، فاضاءت من الاسفل وجهه الضخم الذى الصقت به لحية من صوف الغنم ، وحاجبيه الكثين المعوجين ، وطوى يديه على صدره بقوة جعلت سترة السهرة السوداء التى كانت تعود للمحامى فى وقت ما تتفتق ، وقال بصوت قوى :

– «آه ، لو كان فى مستطاعى ان ادعو الى الانتفاضة الطبيعة كلها والهواء والارض والمحيط ، وارمى بالحرب ضد عشيرة بنات اوى هذه كلها . .» .

وهدا الجمهور حالا فاهما الاتجاه التى تتجه اليه المسرحية . ولم يغير الديكور ، ولم تجر تبديلات تلفت النظر . وقبل بداية كل مشهد كان سيرغى سيرغييفيتش يطل براسه من بين الستارتين وعلى وجهه ابتسامة ، وكانه على علم بشىء ما خاص يقول :

– المشهد الثالث . تصوروا القلعة المترفة للكونت مور ، ومن النافذة يأتى عبق الحديقة . واماليا الجميلة تجلس فى غرفتها . . . .

ويختفى وجهه الذى اضاءته القناديل . وتنفرج الستارة . وما من احد كان يريد ان يقر بان هذه الجميلة الحانقة بتنورتها العريضة ومنديلها الزاهى اللون المربوط بعقدة على صدرها ، الفتاة الموردة الجعداء الشعر الواسعة العينين هى اليسيا نازاروفا من السرية الثانية .

تكلمت بصوت واطىء وارتجاف وكانها تصدح ودقت الطاولة بقبضتها لفرانتس «ابتعد عنى ، ايها العاطل . .» وسارت التمثيلية مثل قصة اسطورية ساحرة من تلك التى كان الجد

يرويها فى الطفولة ، فى امسية شتائية ، وانت تصغى مطرقا براسك من الموقد . . . .

وكان كوزما كوزميتش يخاف اللحظة التى تصفعه فيها اماليا على خده . فقد كانت يدها رغم استغراقها فى الحلم يد محاربة فى الجيش الاحمر . وقد همس كوزما كوزميتش لها : «اخف . . .» ولكنها صاحت بكل قلبها «آه ، ايها الكاذب المشين !» ورفعت ذراعها وكان كل ثقل الحياة الماضية قد هبط عليها وضربت فانقذف كوزما كوزميتش على الكواليس . ولكن احدا لم يضحك . وصاح بعض المتفرجين «يستحق . . .» وصفق الجميع لان كل واحد منهم ود لو يضرب هذا الوغد تلك الضربة .

ثم قطعت القلادة من رقبتها ، والقتها وسحقتها بحذائها :

– «البسوا انتم الذهب والفضة ، ايها الاغنياء ! واتخموا بطونكم وراء الموائد الفاخرة ، واريحوا اطرافكم على اريكة اللذة الناعمة ! كارل ! احبك . . .» .

ابتسم سيرغى سيرغييفيتش وهو يسحب الستارة وراءه وقال بدلالة كبيرة : «فاصل . . .» تقدمت اليسيا وراء الكواليس من داشا ، وانضغطت عليها وضمت وجهها فى صدرها مرتعشة ارتعاشة خفيفة مقشعرة :

– لا تمدحينى ، يا داريا دميتريبفنا ، لا حاجة لذلك . .

وبعد ذلك سار التمثيل بانسياب . فى الفصل الاول عرق الممثلون عرقا شديدا ، وخف التوتر من عضلاتهم المتوترة ، وصارت اصواتهم المشدودة السائبة ، ولم يعودوا يعباون اذا لم يسمعوا همس سيرغى سيرغييفيتش الصافر وهو يلقنهم ، فلم يتورعوا من ان يبتكروا كلاما من عندهم اكثر مضاضة مما لدى شيللر ، او على اية حال اكثر افهاما .

وسر الجمهور سرورا كبيرا بالعرض . كان تليغين يجلس فى الصف الاول جنب المفوض ، وقد دمعت عيناه عدة مرات . وكان ايفان غورا المفروض فيه ان يكون رابط الجاش ينشج من انفه بصوت عال ، وكانه يشترك فى عملية حربية موفقة . وكان الممثلون مسرورين بشكل خاص ، فلم تكن لديهم الرغبة فى خلع ملابسهم وازالة المكياج ، وكانوا يودون لو يقيمون عرضا ثانيا

غير ملتفتين الى صياح الديكة فى القرية كلها معلنة اقتراب الفجر .

وانتهى المهرجان . وهدأت الاغانى والاكورديونات ، ولم يسمع غير باب حديقة يصفق هنا وهناك . وحتى الديكة كفت عن صياحها . وهجعت القرية . وسارت اليسيا ببطء فى الشارع والى جانبها لاتوغين وقد القى معطفه على كتف واحدة ، فقد كان ما يزال يشعر بالحر .

– نعم ، يا اليسيا ، نعم ، شيء عجيب . . . تسيرين فى غلافك هذا ، فى معطفك ، ولكننى اراك من خلاله . . . . الكلمات الاعتيادية غير ملائمة ، ولا اريد ان اقولها لك . . . .

سارا فى نهاية القرية ، الى حيث كان السهب فى المدى البعيد يندمج فى الظلام . وقد تسلق الهلال عاليا فى السماء التى دكن لونها . وما زالت القناديل تتراءى امام عينى اليسيا مشتعلة ، ووراءها فى الظلمة الحارة المكتومة تلقت كل كلمة تفوهتها صدى قويا ، وتصاعدت اليها زفرات عميقة ، وكان فى قوتها هذه شيء تسوى فريد لا قرار له . وقد طاب لها ان تستمع الى لاتوغين . . . .

– عرفت الكثيرات ، يا ملاكى . . . الى الشيطان بهن جميعا . . . انا لم اصادق مثلك . . . لقد اجتنى حبك ، فان شئت اسمعى ، وان شئت لا . . .

وتوقف وتوقفت . وعانقها ، وسقط معطفه من كتفه على الثلج . وقبل شفتى اليسيا الباردتين قبلة قوية طويلة . وابعدها عنه ، ونظر فى وجهها الذى بدا غير مكترث بوجنتيه المحمرتين بحمرة البنجر . بينما هى لم تنظر اليه ، كانت عيناها المطليتان تحدقان فى الهلال .

– ذلك هو عذابى . . . آوه ، لا بأس . . .

رفع معطفه من الارض ، وتابعا سيرهما من جديد . . .

فى تلك الليلة لم تنم داشا ايضا . اسندت كوعها على الوسادة وراحت تقول :

– انا افهم ان ذلك لا يمكن تحقيقه الآن . . . ولكن اسمع . عندنا اليسيا وعندنا لاتوغين . وكوزما كوزميتش موهبة حقيقية . . . سيكون ياغو . . . سنمثل «عطيل» . . . ستضيف الى الفرقة عناصر

جديدة ، غدا اصدر امرك فى الفوج . . . وسترى . سنمثل امام الفرقة ، امام الفيلق . . ولكن من الضرورى ، اولا : الاحتفاظ بديكورنا . تحدث مع المفوض ليخصص لنا عربات خاصة . . . هل رايت كيف استمعوا ! تكون لدى انطباع بان المتفرج اسفنجة تمتص الفن . . .

– انت على حق .

اجاب ايفان ايليتش . كان يسير واضعا يديه وراء ظهره فى قميص محلول وقد خلع حذاءه الطويل الرقبة وانتعل خفين خفيفين – كانت داشا قد اشترتهما من قوزاقية ، وفى كل مرة كان يحجب ضوء القنديل على الطاولة بجسمه الضخم الاسود ، وكان ذلك لا يريح داشا لسبب ما . وحين اقترب من النافذة الصغيرة استدار ، وانار الضوء وجهه الباسم القوى الاحمر الذى بدا وكأنه من البرنز ، ودق قلب داشا بقلق .

– انت على حق . . . الروسى يحب المسرح . . . الروسى يملك ولعا خاصا بالفن . احتياجا غير اعتيادى ، تعطشا . . . انظرى . شهر ونصف من المعارك ، والناس قد انهكوا ، ولم يبق منهم غير الجلد والعظم ، والكلب نفسه يمكن ان يفطس . . . فما حاجتهم الى شيللر ؟ ولكن اليوم اقبلوا على العرض كما يقبل الناس على العرض الاول فى المسرح الفنى فى موسكو . . . ثم خذى اليسيا ! . . انا لا افهم . . انها ممثلة بالفطرة . . . اية حركات واية رهافة . . . اية عواطف ! وهى فضلا عن ذلك حسناء .

وحجب الضوء مرة اخرى وهو يهز ذراعيه ، وقالت داشا :

– ايفان ، الا يمكنك ان تكف عن السير فى الغرفة ؟

وكان فى صوتها ضيق لم يسمعه منذ زمن بعيد . كانت وهى ترتفق الوسادة تتفرس بعينين غائمتين . توقف ايفان ايليتش على الفور ، وتقدم من الفراش ، وجلس على حافته . وبان عليه تخوف مكشوف .

– ايفان – وقعدت هى على الفراش – ايفان ، منذ زمان وانا اريد ان اوجه اليك هذا السؤال – ومررت اصبعيها على عينيها بسرعة – ذلك شيء صعب ، ولكن لا استطيع الاصطبار اكثر من ذلك . . .

ورات من وجهه انه فهم اى سؤال سيكون ، ومع ذلك فقد قالته لانها قد رددته مع نفسها الف مرة :

– ايفان ، الم تعد تعتبرني امرأة كليا ؟

اخذت كتفاه ترتفعان ، وغمغم بشيء غير مفهوم ، وامسك براسه . حدقت داشا فيه تحديقة ثاقبة ، وكان ما يزال لديها امل ما . . . امن الممكن ان يكون ذلك حكما صادرا عليها ؟

– داشا ، داشا الى هذا الحد انت لا تفهمين . . على اية حال يجب ان تكوني شهمة .

– شهمة ؟ (ذلك هو الحكم ! . . .)

– ان حبي لك كبير يا داشا . . . يمكنك ان تكرهيني . . . رغم انني في الحقيقة لا اعرف لاى شيء ؟ . . . وربما هو نفور عضوي . . . وانا افهم ذلك جيدا . . . لقد احببتك لمدى الحياة . . ولا يهم ، واقولها لك بكلمة شرف ، ان يكون ذلك صعبا على او يسيرا . انت معي مثلما قلبي معي . . . فلا تقلقي ، وكوني سعيدة . . .

كانت داشا تصغى ، وهي تهز راسها . تغضن وجهه ، وقال بجهد :

– لا ادرى لماذا كنت اتخيل دائما قدميك الصغيرتين المسكينتين : كم ضربتا في الارض بحثا عن السعادة ، وكل ذلك بلا جدوى ، بلا جدوى . . .

اطلعت داشا من تحت البطانية قدميها العاريتين النحيلتين وقفزت على الارض الترابية ، وركضت واطفأت القنديل على الطاولة .

. . . .

بعد ان عاد ايفان غورا من العرض مع اغريبينا اشعل شمعة محترقة الى النصف واستعرض الاوراق المختلفة التي تراكمت خلال اليوم وكان من عادته ان يهيىء كل شيء قبل ان ينام . جلست اغريبينا على مصطبة قرب الباب ، في ناحية دون ان تخلع معطفها ولا قبعتها .

قال ايفان غورا متثائبا حاكا رقبته :

– وانت ايضا لم يكن تمثيلك سيئا . لم اسمع ماذا صايت

على المسرح . كان دورك صغيرا جدا . . . ولكن اليسيا ، اليسيا ! – وانزل انفه نحو الشمعة ، وابتسم ابتسامة ذات معنى ، واخذ يتصفح الاوراق – وربما ذلك لانها ادارت تنورتها – على حد تعبيركن – بشكل مفرط . انها تشعر ان هناك رجلا . . . يجب ان تصان ، ان تصان . وماذا تظنين ؟ ما اكثر ما رفعت الثورة من امثالها ! وفي ذلك تكمن المسألة كلها . . . كل شيء مخطط على ذلك . . لا ، ليس الشعب جاهلا . . . الشعب غني بالمواهب . . . ونحن نقاتل ببذخ تام . . . نحن بحاجة الى آلات . . . هاك ، اقرئي . . . – ومر بيديه على احدى الاوراق – استولينا على دبابة بايدينا العزلاء . . . تلك همجية . . . لو كان لي ابن لوشمت على صدره : تذكر ولا تنس من انت مدين اليه بالسعادة ، لا تنس الذين ترقد عظامهم في اعشاب السهب . . .

استندت اغريبينا على الحائط ، واغمضت عينيها ، واطبقت شفتيها ، وراحت تتذكر امضّ شيء على نفسها يخطر على بالها . كيف كان ايفان غورا يرقد ليلا في السهب بلا حراك ولا نفس ، ولم يكن يهمها آنذاك احي هو ام ميت . كان في بندقيتها آخر مشط من الرصاص . . . ولم تود الرحيل مع الآخرين ، ولم تتركه وحيدا في هذا السهب ليلا . . . ومن المؤسف ان عظامها منذ ذلك الحين لم ترقد بيضاء هناك . . .

– لماذا لا تاوين الى فراشك ، يا اغريبينا ؟

وحجب ايفان غورا الشمعة عن عينيه براحة يده ، ونظر . كانت الدموع تنزل من عيني اغريبينا المطبقتين ، وغالبا ما تقطر من رموشها الطويلة ، بينما ارتفع حاجباها الاسودان عاليا . . . جمع الاوراق في حقيبة الميدان ، واقترب من اغريبينا ، وقرفص امامها :

– ما هذا ، يا بلهاء ؟ . . . لعلك متعبة ؟

– اوشم صدره ، علمه ، علمه عن العظام البيض . . .

– ماذا وراءك ، يا اغريبينا ؟

اجابت بصوت بائس لفتاة صغيرة :

– انا في الشهر الثاني . . . وانت لا ترى شيئا . . . لا تعرف الا شيئا واحدا : اليسيا ، اليسيا . . .

فجلس ايفان غورا عند قدمى الغربينا . وانفتح فمه من تلقاء نفسه كما ينفتح فم الابله . . .

— الا تكذبين ، يا فتاة ؟ اية سعادة هذه ، احقا انك حامل ؟ يا عزيزتى ، يا حلوة . . .

وعندما قال ذلك قالت بصوت خافض ، صوت امراة :

— دعك عنى ، اغرب عن وجهى . . .

ومالت نحوه ، وطوقته ، وهبطت بثقلها عليه وهى ما تزال تنشج ، وفى كل مرة يزداد نشيجها تقطعا ووهنا .

اثار اندحار الاتمان كراسنوف للمرة الثالثة قرب تسارتسين حيوية فى الجبهة الجنوبية كلها حيث كانت تتسلط بجيوشها الثلاثة — الثامن والتاسع والثالث عشر — على الدون والدونباس . كان القوزاق المعادون يبدون وكانهم على استعداد لنبذ العداء ، وتعليق سروجهم فى السقيفة — ومحطا للزرق الحمام — ولف البنادق فى الخرق المزيتة ، ودفنها عميقا فى الارض . فاى شيطان ظن ان العيش متعذر فى ظل البلاشفة ؟ فالارض لم تذهب عنهم ، ها هى ترسل البخار على الاكمات الجرداء تحت شمس الربيع ، وايديهم ما تزال معهم ، والخيول تنشد الاطواق ، والثيران تسال عن النير . . . .

كان القائد العام فى سيربوخوف يستعجل الهجوم . وكانت خطة القائد العام الاولية الناقصة قد تغيرت بعض الشىء ، وجرى تعديل فى تشكيلات الجيوش اثناء المسيرة ، فبدلا من الزحف على طول الدون الى الجنوب الشرقى اضطرت الجيوش الحمراء الى ان تستدير الى الجنوب الغربى نحو دونيتس فى الوعورة وفى موسم تسوء فيه الطرق . ولكن الوقت كان قد فات للقيام بذلك ، فان طريق الثورة الرئيسى — الدونباس البروليتارى — قد اغلق باحكام . ذلك لان فرقة ماى — مايفسكى قد شقت طريقها الى الدونباس اثناء الشهرين اللذين انقضيا فى السكوت فى البقعة ، وعززت بوحدات قوية من جيش المتطوعين اخذت من شمال القفقاس بعد ان شتت الجيش الاحمر الحادى عشر على رمال استراخان . والآن كان يقف على الضفة اليمنى من الدونيتس خمسون الفا من قوات

البيض المختارة بقيادة ماى — مايفسكى وبكروفسكى وشكورو .

بدا الربيع دفعة واحدة . فتحت الشمس الشعثاء ذابت الثلوج ، وامتلات منخفضات السهوب بماء ازرق ، وانتفخ نهر دونيتس ، وجرت فيضانات لا مثيل لها . ولما كانت خطوط السكة الحديد فى تلك الاتجاه تسير بخطوط طول ، فقد لزم الامر ان تجرى اعادة تشكيل الوحدات فى الارض الترابية ، فى وعورة الطريق . ولصقت العربات العسكرية بالوحل اللزج متخلفة عن وحداتها . وكل هذه المصاعب اوقفت وابطات اعادة تشكيل الوحدات . وكان البيض قد احتلوا المعابر على نهر دونيتس الطافح على مساحة عريضة . وتحول الهجوم الى معارك مطولة . وفى ذلك الوقت بالذات اندلعت فجاة فى المؤخرة فى قرية فيشينسكيا المتصالحة انتفاضة قوزاقية دموية عنيدة دبرها عملاء دينيكين . وتلقت طائرات البيض اليها المحرضين والمال والسلاح .

وبناء على امر القائد العام تابع الجيش العاشر وحده ، وكان يشكل الجناح الايسر ، التحـــــرك نحو الجنوب على طول الطريق الحديدى العام دافعا ومحطما فلول وحدات كراسنوف .

وسار الجيش العاشر للقاء حتفه .

فى الظهيرة ، وفى السهب حيث كانت تهب ريح حلوة كان يؤذى العين النظر الى البرك والجداول وبحيرات الربيع ، فقد كـــانت الشمس تلتهب عليها . وفى السماء النيلية الشفافة كانت عصائب الطيور تصفـــق باجنحتها ، وتحلـــق الغرانيق زاعقـــة بصوت الابواق . فكان النـــاس يرفعون رؤوسهم وهم على درجة العربة يشيعونها بابصارهم ! . . . الى اين ، ايها الاحرار ؟ الى اوكرانيا ، بوليسيه ، الى فولين ، وابعد من ذلك ، الى المانيا وراء الرين ، الى الاوكار القديمة . . . ايه ، يا غرانيق ، بلغى التحية للطيبين ، وحدثيهم ، وانت تضعين ساقا حمراء على السقف كيف طرت فوق روسيا السوفييتية ، ورايت الجليد قد تشق فيها ، ومياه الربيع تطفح على الحوافى ، ربيع لا مثيل له فى اى صقع بضراوته وعصفه وخصوبته . . . .

كانت داشا والفريبينا واليسيا غالبا ما يجتمعن الآن على فسحة العربة تعبات من الشمس والريح . وكان القطار يتجه جنوبا ، والربيع مقبل للقياء . وكان المقاتلون قد خلعوا معاطفهم واكتفوا بالقمصان وحدها غير مزررة عند العنق . وبين الحين والآخر كانت تترامى فرقعة وهدير من وراء الافق الى الامام ، حيث كانت الوحدات الامامية للجيش العاشر تطرد من الضياع العصابات الاخيرة من القوزاق . واحتلت فليكوكنياجسكيا دون صعوبة كبيرة . وبعد ان تجاوزها قطار فوج كوتشالين افرغ حمولته على ضفة نهر مانيتش ، واخذ يحتل مواقعه في الجبهة .

تمتد سهوب سالسكيه منبسطة خالية مثل منبسط اخضر متجمد من البحر ، وفي الربيع يغدق عليها نهر مانيتش مياها كدرة تغطي عيدان القصب . وهنا ، في الازمنة الغابرة ، كانت السهام تطير على مانيتش من ضفة الى اخرى ، وكان الرُحل الاسيويون يتقاتلون مع السكيثيين والالانيين والقوط . ومن هنا جعل الهونيون الارض قفراء حتى شمال القفقاس . وهنا كان الكالميكيون يستمعون وهم جالسون عند خيامهم اللبادية الى القصة المأثورة عن بطولات ماناس . وكانت السهوب باذخة في الربيع ، فقد كانت الارض التي اترعت بالماء تتعجل التدثر بالاعشاب والزهور ، وكانت الغروبات المسائية البليلة تورّد حواف السماء باتجاه البحر الاسود ، والنجوم الكبيرة تسطع حتى حافة الافق . وكانت الشمس الضارية تخرج من وراء قزوين مثل درع فارسي .

نزلت قيادة فوج كاتشالين في المبنى الوحيد الصالح للسكنى في هذا القفر ، في بيت طيني مغطى بالقصب وراء سياج زريبة خيل مهملة . ولم يكتشف اثر للعدو في مكان قريب ، وتوغل رجال الاستطلاع بعيدا في الجنوب باتجاه تيخوريتسكيا ، وفي الغرب نحو روستوف . وكان من الصعب اقناع المقاتلين بانهم لم ياتوا الى هنا لينسفوا السمك بالقنابل اليدوية ، ولا يضيعوا العتاد الغالي بالتسديد على الوز في الشفق المسائي ، فان امامهم قتالا صعبا ، لان الجيش قد قذف في مؤخرة العدو ، وهذا العدو ليس بسيطا ، كما انه لم ينهزم بعد .

ذات مرة عاد ايفان غورا من قيادة الفرقة ، واستدعى ايفان ايليتش ، وسار الاثنان صامتين على الشاطئ ، وجلسا عند الماء ، واشعلا سيكارتين : كانت الشمس الحمراء المسطحة تنحدر محجوبة بالابخرة المتصاعدة من الارض ، وكانت الضفادع تنق على مانيتش كله نقيقا عاليا خبيثا .

قال ايفان غورا :

– الخبيثات ، يضعن البيض .

– اها . ماذا عرفت هناك ؟

– الوضع السابق . قلق . الجميع مدركون ، وليس من الممكن عمل اى شيء . ان امر القائد العام القاطع هو الهجوم على تيخوريتسكيا . ما رايك في هذا ؟

– ليس النقاش عمل ، يا ايفان ستيبانوفيتش ، بل تنفيذ الامر عمل .

– انا اسالك ماذا تفكر فيه بينك وبين نفسك ؟

– ماذا افكر ؟ . . . وانت الا تنوى رمي بالرصاص ؟

– تفو ، يا عبيط . . . الجميع يجيبون بهذا الجواب . . . انتم جبناء جميعا . . .

ودفع ايفان غورا طاقيته وحك راسه ، ثم شعر بان جنبه يحكه : انقلعت كتلة من الارض من الشاطئ تحت قدميه ، وسقطت في الدوامات المائية الكدرة بطرطشة خافتة . نقت الضفادع بضراوة عارمة ، وكانها تود ان تسكن عشيرتها الزلقة رحاب الارض كلها .

– اذن ، فانت تعتبر ايعاز القائد العام صحيحا ؟

– لا ، لا اعتبره .

اجاب ايفان ايليتش بخفوت وثبات .

– اها ! لا ! حسنا . . . . لماذا ؟

– نحن هنا قد انقطعنا تقريبا عن الاحتياطات ، عن قواعد التموين . وسيقطع العدو في مكان ما الخيط الرقيق الذى يربطنا بتساريتسين . وعندئذ سنقع في المصيدة . ان الامر كله لا يبدو ركينا .

– اذن ؟ . . .

– ان هجومنا ابعد الى الجنوب ، على ليخوريتسكيا يعني ان نكون كالقط وهو يضع راسه في بوز الحذاء . ولن يحصل من ذلك اى خير . يمكن ان افهم المغزى لو ان جيشنا أرسل تظاهرا لاخراج قوات البيض من الدونباس باى ثمن . . .

– وبعد . . .

– ولكن ذلك متعة غالية الثمن : ان تحطم جيشا لمجرد التظاهر . . . .

– وما هو استنتاجك ؟

نفخ ايفان ايليتش خديه ، والقى في الماء سيكارته المنطفئة الملفوف تبغها بورق الجرائد :

– لم اضع استنتاجا ، يا ايفان ستيبانوفيتش . . .

– انت تكذب ، يا اخ ، تكذب ، تكذب . . . حسنـــــا ، اسكت . كـــــل شيء مفهوم من دون ان تقول شيئـــــا . . . ذات مرة حكيت لى ، يا ايفان ، عن مفوضـــــك غيمزا ، وكيف ارسلك . . . الى القائد العام في تبليغ سرى عن الخائـــــن سوروكين . . . وعلى هذا . . . (وتلفت ايفــــان غورا وخفض صوته) اشعر وكأنني اود الآن لو اسافر بنفسي لا الى القائد العام في سيربوخوف ، بل الى موسكو مباشرة . . . هناك وغد مندس اما في القيادة العامة او في المجلس العسكرى الاعلى . . . نعم ، ولا يمكن غير ذلك ، فانها الحرب . . . ونحن نثق كثيرا . . . فاذا كان لنا ومن لف لفنا افكار سامية ، وقلوب كبيرة فاننا نظن ان العالم كله فاضل اذا استثنينا البرجوازيين ، فلنضرب باخلاص ذات اليمين وذات الشمال . . . لقد تمعنت في فلاديمير ايليتش في بتروغراد . انه له عينا روسية متقلصة فاحصة . . . انه متحمس ومفكر ، يضع يديه خلف سترته ، ويسير جيئة وذهابا ، وفجأة يوجه جبينه وعينه نحو الشخص ، ويفهم كل شيء . . . هذا ما ينبغى . . انا وراءك اراقب كل حركة ، وكل كلمة تقولها . . . اما انت فلا تراقبنى ، بل تثق بى ثقة عمياء . . . سأقدم لك مهمة مؤذية . ما عليك الا ان تصمت وتنفذ .

– لا ، لا انفذ .

– منذ لحظة قلت : ليس النقاش عمل . حسنـــــا ، ماذا ستعمل ؟

– احاول ان اوقظ ، ان اقنع . . .

– تقنع ! متلف . . . يجب ان ترمى ! . . . آه ، يـــــا الهى . . .

وضع ايفان غورا يديه الكبيرتين على طاقيته ، على راسه مسندا مرفقيه على ركبتيه . انه لم يخبر تليغين بالشيء الاهم ، بالبرقية التى قرئت يوم امس في الاجتماع الحزبي للفرقة ، برقية رئيس المجلس العسكرى الاعلى للجمهورية مرسلة من موسكو – ردا على الاستفسار المقلق لقائد الجيش العاشر – برقية متعجرفة مهددة تؤكد بشكل قاطع على التوجيهات التى اعطيت من قبل .

– واليك آخر الاخبار : على جناحنا الايمن تتركز اربع فرق للجنرال بوكروفسكي جلبت من الدونباس ، وفيلـــــق الجنرال كوتيبوف يزحف للقائنـــــا ، وقد قطع علينـــــا الطريق الى ليخوريتسكيا بالفعل . حزر خطة القائد العام . . . وعلى الجناح الايسر تتجمع خيالة الجنرال اولاغاى . . . والى الوراء على بعد اربعمائة فرسخ يوجد خواء .

قال ايفان ايليتش :

– وهذا ما سيحسم كل شيء . اذا تريد رايى فهو ان يجلى على الفور جميع المرضى ، وترسل جميع الاشيـــــاء الزائدة الى المؤخرة لنكون اخف . لن نستطيع الاحتفاظ بمانيتش . . . .

لم يرد ايفان غورا بشيء . صمت قليـــلا ثم بصق في النهـــر بحنق :

– ان مثل هذه الاحاديـــث كان من الممكن ان ترسلنـــا انا وانت الى محكمـــــة عسكرية . . . . كفى ان يقال لك : مت على مانيتش فتموت . . .

– لم ارفض ذلك قط ، ولا ارفض على ما يبدو .

في اليوم الثانـــى من ايار ظهرت دوريات الجنرال كوتيبوف وراء النهر . في بادىء الامـــر كانـــت مجموعـــات صغيرة حذرة من

الخيالة . كانوا يستكشفون السهب ، فتارة يتوقفون قليلا ، وتارة ينطلقون باقصى سرعتهم تحت الرصاص على البرك اللامعة . وظلوا يتجمعون اكثر فاكثر ، ويقتربون من الجبهة بجراة اشد ، ويترجلون مرقدين خيولهم ، ثم اخذوا يطلقون النار على النقاط الامامية .

وفي الثالث من ايار اقتربت قوات كوتيبوف الرئيسية وسط هدير قصف المدافع وخلال تركزها في منطقة الخط الحديدي اخذت تهاجم ساحل مانيتش بوثوق وبموجات متعاقبة . وحلقت طائرات استطلاعية ذات جناحين مختلفة عن الطائرات الروسية وعن الالمانية . وتقدمت لوريات تحمل عوامات الجسور ثائرة الماء والوحل . وفي نفس اليوم اخترقت النهر الوحدة الضاربة من قوات كوتيبوف في الموقع الذي تحتله فرقة موروزوف . الا انها ابيدت في معركة بالحراب .

ومع هبوط الليل تراجعت الصفوف وتخندقت . ولم تشعل النيران في اي مكان . وهدأ التراشق ، وخيم على السهل ليل هادئ، رطب عبق بالزهور . ونقت جوقات الضفادع الوقحة وكان لا شيء مهما قد حصل . وتوهم بعض الرجال النائمين وآذانهم على الارض انهم يسمعون حفيف العشب الخفيف ، والظلام الدامس المتحرك ببراعمه الرقيقة القوية .

استمر الاجتماع طول الليل في مخبأ الاركان عند ايفان ايليتش . كانوا ينتظرون بنفاد صبر امر الفرقة بالهجوم ، فقد كان واضحا للجميع ان عدوا كهذا العدو لا يجوز ان يترك ساعة واحدة للتناور دون عقاب ، وتوجيه الضربات في الاماكن التي يريدها على الجبهة النحيلة للجيش العاشر الممتدة الى ما يقرب من خمسين فرسخا ، والمكشوفة من الجناحين ومن المؤخرة . وتحدث امراء الوحدات عن مزاج وحداتهم . ان رجال الجيش الاحمر متهيجون ولا ينامون ويتهامسون في الخنادق بانه لو كان هذا في عام ١٩١٨ لهرع الفوج كله لاجتماع عام مهددا بانه سيمزق آمره اذا لم يصدر امرا بالزحف الى الامام ! فهناك لحظات من اليأس والحنق يبدو وكان في الامكان اكتساح كل شيء في الطريق .

دخل الى المخبأ موشكين وهو آمر سرية ، وكان قد عبر لتوه

نهر مانيتش وغطس فيه حتى رقبته من الضفة التي توجد فيها حظيرة من سريته . كان عاملا من عمال التعدين في تساريتسين ، وقد هوى الفن العسكري هوى الصياد .

– رائحة المخبأ لطيفة ، يا رفاق ، – قال ذلك مقلصا عينيه من دخان التبغ الكثيف بحيث ان الشمعة لم تكد ترف . وخلع حذاءه الطويل قافزا على هذه الرجل ثم على الاخرى ، وسكب الماء من باطن الحذاء ، وتابع قوله : – جرح رجالي واحدا من الكاديت . واردت ان اجلبه معي ، ولكنه مات مع الاسف . . . فتى صغير ، غر ، ولكنه مملوء بالضغينة . ظل يصرخ «اوغاد ، اوغاد !» حتى ان فتياننا ذهلوا . . . مزود يرتدي الجوخ والحذاء الطويل والاحزمة . . . شتان بينه وبين القوزاقي ! القوزاقي احمق ، ريفي ، من اخواننا ، اذا ضربته رد لك الضربة مثلها ، وارتد . . . اما هؤلاء ذوو الايدي البيض فلا يرأفون باحد . . . الحضيرة متكونة من ضباط فقط ، وآمر الحضيرة عقيد . . وكل واحد منهم يشد ساعة في معصمه . . . لقد قلت لرجالي : يا صعاليك ! اخرجوا الساعات من ادمغتكم ولا تزحفوا على مواقع البيض من اجل الساعات ، ساكسر اسنانكم . . .

وضحك موشكين كاشفا عن اسنان جيدة ، واثارت الطيبة وجهه القبيح المجدور الذكي .

– الوضع كالآتي ، يا رفاق : ترامت من السهب ضجة لا نزال نسمعها منذ زمان منذ هبوط الظلام . فارسلت المستطلع ستيبكا لشافيليف ، وهو ليس انسانا بل روحا قدسيا . . . وزحف وجاء وقال ان مدفعيتهم قد اقتربت ، ويبدو ان المشاة محملون على عربات . . . استعدوا ، يا رفاق . .

احس ايفان ايليتش بالدوار من الدخان ، فخرج من المخبأ الى الهواء الطلق لبرهة من الوقت . كان هلال حاد الطرفين كالمنجل منير بشكل نافذ يطل وسط النجوم الوامضة . وكانت ثلاثة شخوص نسائية تجلس على سياج من ثلاثة الواح . اقبل ايفان ايليتش نحوها .

– طلب الى الجميع ان يناموا في الخنادق فقط . انا لا افهم .

– لا نستطيع النوم .

قالت داشا ذلك من اعلى الحواجز منحنية نحوه .

وبدت ثلاثهن جميعا – داشا وانيسيا والغريبينا – وضيعات العيون لخيالات غير اعتياديات . . . ولم يقدر ان يتبين اهن يبتسمن له او يتعبسن بطريقة خاصة .

قالت الغريبينا :

– نحن ننتظر هنا انتهاء اجتماعكم .

وقالت انيسيا :

– اما انا فاسمح لى بالبقاء معهما ، ايها الرفيق آمر الفوج .

– انزلن الى الارض ، لماذا قعدتن فعود الدجاج ؟ الرصاص يتطاير ، الا تسمعن ؟ . . .

قالت داشا :

– فى الاسفل روث وبراغيث ، اما هنا فالريح رخاء . .

وقالت الغريبينا :

– ليس هذا رصاصا ، بل خنافس بيضا ، فلا تخدعنا .

وانحنت داشا ثانية :

– الضفادع خرجت عن اطوارها ، ونحن جالسات نستمع . . .

التفت ايفان ايليتش الى النهر ، وفى هذه اللحظة فقط انجذب انتباهه الى الزفرات والانات الايقاعية للهفة والانتظار ، وها هو المنتصر ، المغنى المنفرد الكبير الفم ، بطول ثلاث بوصات ، وذو العينين الزرقاوين الجاحظتين يبدأ غناءه ويغرد بثقة بان النجوم نفسها تسمع ثناءه على الحياة . . .

– لطيف ، برافو – قال ايفان ايليتش وابتسم – حسنا ، اجلسن ، ولكن اذا ما حدث شىء اسرعن بالدخول فى الخندق فورا . . . – وجذب كتف داشا نحوه ، وهمس فى اذنها – بديع . . . حقا ؟ انت بديعة جدا . . .

وهز ذراعه ، وسار نحو المخبأ . وحين عادت النساء الى الانفراد قالت انيسيا بخفوت :

– وددت لو تطول الجلسة العمر كله . . .

الغريبينا :

– السعادة تكسب بالدم . . . ولهذا فهى غالية . . .

داشا :

– يا فتاتى ، كم رأيت فى حياتى من اشياء ، وكل شىء قد مر دون ان مسنى . . . كنت طوال الوقت انتظر شيئا غير اعتيادى ، شيئا فريدا . . . عذبنى قلبى الاحمق وعذب آخرين . . . الافضل ان يحب المرء لليلة واحدة ، ولكن بشكل جيد . . . ان يفهم كل شىء ، ويمتلىء بكل شىء ، ان يعيش مليون عام فى ليلة واحدة . . .

ومالت برأسها الى كتف انيسيا ، وفكرت الغريبينا مع نفسها ثم مالت هى ايضا على انيسيا من جانبها الآخر . وظللن جالسات هذه الجلسة طويلا على الحواجز ، وظهورهن الى النجوم .

. . . .

كانت الطائرات الجديدة تصحح مرمى مدفعية كوتيبوف بتحليقها فوق الانفجارات بعد ان تلقى على الحمر بعض القنابل ، وترتفع فوق السهب كالعقبان باتجاه الافق ، نحو البطاريات التى اخلت عند الفجر تقصف ماليتش بشدة .

ولتخويف العدو طارت من الفرقة طائرة وحيدة مرتفعة فى الجو ، وهى طائرة قديمة بطيئة السرعة كانت قد ادت خدمتها كاملة الحرب الامبريالية ، ورمت فى تساريتسين ترميما بدائيا .

وكان من المرعب النظر اليها بهيكلها الخشبى وبجناحيها المرقعين خلافا لكل قوانين علم الطيران ، تقرقع وتكاد تنطفىء مارة فوق الرؤوس . الا انه كان يديرها فالكا تشيرداكوف الشهير فى الجبهة الجنوبية كلها والمعروف جيدا عند الطيارين البيض . وفالكا رجل ضئيل الجسم كالقرد اعرج مائل الكتف محطم العظام كانما مشدود بعضا الى بعض بالغراء . كانوا يسألون «فالكا ، أحقا ما يشاع عنك من انك فى عام ١٩١٦ اسقطت طيارا المانيا مجربا ، وفى اليوم الثانى طرت الى المانيا لتلقى الورود على قبره ؟ » فكان يرد بصوت موصوص : «وماذا فى ذلك ؟ » وكانت طريقته معروفة : حين ينفد لديه شريط الرشاشة كان يهوى على العدو من فوق ويضربه بجسم طائرته . «فالكا ، وكيف لا تسقط انت ؟» – «ماذا لو سقطت ؟ غير مهم . . . » .

حين راى الرجال طائرته تحلق فوق السهب على انخفاض سروا جميعا ، رغم انه لم يكن ما يسر به . كانت القذائف العالية الانفجار تنفجر على كلتا ضفتي مانيتش حاصرة رجال الجيش الاحمر في الخنادق . كان هناك ست بطاريات للعدو على الاقل تهدر بلا انقطاع ضد بطارية واحدة للحمر ، وكانت صفوف العدو تقترب بوثبات سريعة وحماس واندفاع لا يكبح .

طار فالكا تشيرداكوف فوق الرؤوس وجناحا طائرته يترنحان ، وهبط على مسافة غير بعيدة ، ونزل من الطائرة ، وسار بالقرب منها يعرج ، هرع جنود حمر اليه . كان زيت الطائرات يغطي وجهه كله .

– اعندي فرجة ؟ – قال ذلك غاضبا ، واخرج من الطائرة حقيبة الادوات والقطع الاحتياطية – ابعدوا طائرات العدو عني ، اريد ان اعمل .

وبالفعل كان العدو قد لاحظه ، فراحت ثلاث من طائراته تحوم فوق المكان محلقة بعلو شاهق لان الجنود الحمر اخذو يطلقون النار عليها . تساقطت القنابل تترى ورقصت نوافير من التراب . وكان فالكا يصلح انبوب الزيت وهو لا يلقي التفاتا لما حوله . وانفجرت قنبلة على مسافة قريبة جدا حتى ان طائرته تمايلت ، وتساقطت على جناحيها كتل من الارض . عند ذاك رفع بصره الى السماء ، وهدد باصبعه ، وحين فرغ من التصليح صاح بالجنود الحمر :

– هيا ، تعالوا ، وادبروا المروحة – وصعد الى الطائرة واستقر في مكانه . – كيف تديرون ، يا رفاق ؟ ليست هذه ضفيرة امراة ، هيا ، لا تخافوا من العرق !

اخذ المحرك يعطس ، وارسل صوتا مصما ، وهدر وقفز الجنود الحمر مبتعدين ، وتدحرجت الطائرة على السهب متمايلة متوثبة الى مسافة بعيدة حتى بدا وكانها لن تترك الارض ، ثم ارتفعت . حلق فالكا صاعدا في الجو ، واخذ يتقلب لكي يختلط في خزان الوقود الخليط الوسخ من البنزين والكحول بشكل جيد ، ورسم في الجو انشوطة عريضة ، وهوى بكل سرعته على العدو . إلا ان الطائرات الثلاث اخذت تبتعد مسرعة رافضة القتال .

بعد ان طار فالكا تشيرداكوف فوق الجبهة بالقدر الذي اعتبره كافيا هبط على الارض مرة اخرى وارسل مذكرة الى تليقين :

«شاهدت ثماني سيارات ركوب جديدة في الجبهة . انه دينيكين مع الاجانب . تلك حقيقة ، فالتفتوا الى ذلك . حطم مدفعان للعدو . اطلقت النار على طابور للمشاة . انا ذاهب الى القاعدة للتزود بالبنزين . . .»

كان دينيكين في الجبهة . وقد انقضى اكثر من عام بقليل منذ ان كان يهتز في عربة مصابا بالتهاب القصبات وملتفا ببطانية من فراء النمر في قافلة من سبعة آلاف من مقاتلي جيش المتطوعين تحت قيادة كورنيلوف . شقوا لهم طريقا دمويا الى يكاترينودار . والآن كان دينيكين دكتاتورا مطلق الصلاحية على الدون الاسفل كله وعلى كوبان الغنية كلها وعلى تيريك وشمال القفقاس .

اخذ دينيكين معه في هذه الجولة في الجبهة الى الجنرال كوتيبوف عميلين عسكريين انجلترا وفرنسا ليشعرا بالحرج الشديد والخجل على اوديسا وخيرسون ونيقولاييف التي اعطيت للبلاشفة بشكل مشين . لو كان الجيش الاحمر النظامي اخرج من هناك الفرنسيين واليونانيين لهان الامر ! بل ان الفلاحين الانصار قتلوا بالسيوف لواء يونانيا كاملا في نيقولاييف على مرأى من المدمرات الفرنسية . وتراجع المنتصرون في الحرب العالمية امام الفلاحين الروس ، فزعا على ما يبدو ، وبعد ان سلم الفرنسيون خيرسون جبنا اجلوا فرقتين من اوديسا . . . شيء لا يقبله العقل ! خافوا من شيوعيي موسكو . عزم انتون ايفانوفيتش على ان يُري الاوربيين الامجاد رأي العين كيف يحطم جيشه الشيوعيين حاملا شعارا من اكليل الغار والسيف .

وكان يضمر في نفسه مساءة اخرى من قرار مجلس العشرة في باريس عن تعيين الاميرال كولتشاك الحاكم الاعلى لروسيا كلها . راق لهم كولتشاك ! في عام ١٩١٧ نزع عنه سيفه الذهبي ، والقاه من سلم الاميرالية في البحر الاسود . وقد ذكرت ذلك الصحف في جميع العالم تقريبا . وفي ذلك الحين كان الجنرال دينيكين سجينا في

سجن بيخوفسكيا ، وقد صمتت الصحف عن ذلك . وفى عام ١٩١٨ يهرب كولتشاك الى امريكا الشمالية ، ويدرس فن الالغام فى اسطولهم الحربى ، والصحف تنشر صوره الى جانب نجوم السينما . . . ويهرب الجنرال دينيكين من سجن بيخوفسكيا ، ويشترك فى الحملة الجليدية ، ويتسلم عند جثة القتيل كورنيلوف عبء القيادة الثقيل ، ويحتل مساحات اكبر من فرنسا . . . فتكتفى صحيفة باريسية هزيلة بنشر ثلاثة اسطر عن ذلك ، مع صورة متخيلة له بسبلتين : «الجنرال دينيكين» ! بينما يعين كولتشاك حاكما لروسيا ، وهو دعى شهير ، مصاب بهستيريا وجنون العظمة مولع بالكوكايين !

لم يكن البارون ايفانوفيتش يؤمن بنجاح سلاح كولتشاك . فى كانون الاول كان بيبلايف وهو احد جنرالات كولتشاك الحديث الرتبة قد استولى على بيرم ، فاذا بكل الصحف الاجنبية تزعق : «قبضة حديدية تطل على موسكو البلشفية» . وحتى البارون ايفانوفيتش نفسه قد صدق بذلك برهة ، وتحمل لجاح بيبلايف على مضض . الا ان موسكو قد ارسلت الى كاما (كما ابلغت الاستخبارات) المفوض ستالين ، نفس الشخص الذى حطم فى الخريف كراسنوف مرتين قرب تساريتسين ، واسرع بتدابير جذريـــة فى تنظيم الدفاع ، وسدد لبيبلايف الشهير ضربة اخرجته من بيرم الى الاورال . وبهذه النتيجة كان لا بد ان ينتهى دون شك هجوم كولتشاك الحالى على الفولغا ، الذى يجرى دون استعداد حازم ، وبطريقة خادعة مصحوبـة بهرج عالمى لا يصدق وهدير التصـــــار من قبل تجار سيبيريـــــا السكارى . — تكتيكتـــــا يختلف قليلا عن التكتيـــــك الذى استخدمتموه واستخدمناه نحن والالمـــان فى الحرب العالميـــة : الصفوف اقل كثافة ، وبفواصل كبيرة جدا ، وكل حضيرة تنفذ مهمة مستقلة .

قال دينيكين ذلك واقفا على سيارة جديدة مكشوفة انيقة من نوع «فيات» واشار بيده المقفزة بقفاز ابيض من الشموا الى لواء الفريق تبلوف ، وهو يقوم بحركة انتشار حاذقة وكانما هو فى استعراض .

وكان الى جانب القائد العام يقف الفرنسى فى سترة من الجوخ الناعم السماوى اللون ، وبنطلون عسكرى فاخر مثلها ، وعلى رأسه

كيبيه مخملية صغيرة قاطسة ومالة بشكل حاذق ولها شريط مذهب . ومن تحت المنظار الذى كان يحدق فيه برز شاربان صغيران ناعمان ، وعلى جانبه زمزمية من الالمنيوم للكونياك . الى هذا الحد كان الفرنسى مزودا باسباب الارتياح ! كما كان الانجليزى واقفـــا على موطئ السيارة ينظر فى منظار ايضا ، ولكنه اقل رهافة وابسط ملبسا فى لباس كاكى له جيوب عريضة محشوة بصور فوتوغرافية وتبغ وغلايين وقداحات ، وطاقيته المسطحة كالفطيرة ، المفرطة فى نزولها على الانف كانت موضع نقاش من قبل الحاشية الروسية الواقفة على مسافة تنم عن الاحترام . «مهما تقل فان الانجليز لا يعرفون كيف يلبسون البزة ، انهم من النوع البلدى ! والامر مختلف مع طاقية الفرسان ! ثم كيف كان فرسان جلالتها يرتدون القبعات ؟»

كان كوتيبوف الوعق يمتطى صهوة حصان كالميكى صغير قرب السيارة ، رجل وخط الشيب رأسه عريض المنكبين فى فروة خروف محلولة الازرار ، وبمناسبة الاستعراض ارتدى قفازين وشد مهمازين . كانت عيناه الصغيرتان ملتهبتين فقد جاء اليوم الخامس وهو ما يزال يشرب مانيتش اللعين ، وكان يدرك جيدا ان هذه الحركة الاستعراضية التى يقوم بها لواء تبلوف امام هذين المدللين ما هى الا باليـــه ستكلف اللواء غاليا .

شرح دينيكين قائلا :

— ان خاصية هذه الحرب هى قدرتها الكبيرة على المناورة . ومن هنا تنبثق كل الاهمية التى تكتسبها الخيالة عندنا . وهنـــا لدى الافضلية الحاسمة : تيريك وكوبان والدون تقدم لى مائة الف خيال نظامى . . .

— او لا — لا — لا — لا . . .

ترتم الفرنسى بذلك رخى البال غير تارك المنظار من فوق عينيه .

— والحمر لا يملكون خيالة ، وليس لديهم القوة التى ينشئونها منها باستثناء لواء بوديونى الذى سبب متاعب كثيرة للاتمان السابق كراسنوف المسكين . . .

قال الانجليزى من خلال اسنانـــه دون ان يترك المنظار ايضا :

— يجب ان يكون لك مائة الف سرج ولجام .

— نعم ، هنا تكمن المسألة كلها .

قال دينيكين ذلك بصوت جاف ، وامسك نفسه رغم انه كان يود كثيرا ان يقول الحقيقة كلها لهذين الحليفين في هذه اللحظة بالذات ، وسط قرائه ، وتحت هدير المدافع (كانت السيارة تقف على بعد فرسخ واحد فقط من البطاريات) ، ان يقول لهم انهم تافهون ، وان سياستهم برمتها قصيرة النظر وجلة وبخيلة في غاية التقتير ... فقد اثبت لهم مثل عملية حسابية بسيطة ان البلشفية اخطر عليهم من مائتين وخمسين فرقة المانيـــة ... فقدموا السلاح بالقدر الذي احتاجه ، ايها السادة ، اذا كنتم تخشون ارسال جنودكم الى روسيا ... سنتحاسب بعد ذلك ، في موسكو .

— اذا لم يكف ما عندي من السروج فسادع القوزاق يجلسون على ظهور الخيول عارية .

قال دينيكين ذلك دون ان يضبط نفسه ان لم يكن بحدة فليس بزيادة في الطيبة . والتفت الى المترجم ، وقال :

— ترجم ما تعني كلمة عارية ليفهمها كلاهما .

ولكن المترجم ، وكان شابا على النمط الجنوبي مطواعا الى حد القرف عب الهواء بنهم فجاة ، بدلا من الجواب . وفي تلك اللحظة هتف كوتيبوف جاذبا راس حصانه ، وهامزا اياه :

— ايها السادة ، «اسرعوا» ، تحت السيارة !

مع هدير المعركة لم يلاحظوا كيف طارت فوق السيارة طائرة صفراء مترنحة ، بل ولم يسنح الوقت لاي واحد منهم لاطلاق النار عليها ، فقد حلقت في زاوية حادة طلع منها فالكا تشيرداكوف الضئيل الخشن الشعر ، والقى قنبلتين يدويتين احداهما على غطاء «القيادة الفاخرة مباشرة» ، والثانية على مقربة ... ثم كشف في تكشيرة عن اسنانه البيض ، وحلق عاليا .

ومـــع ذلك استطاع الجنرال دينيكين والانجليزي والفرنسي الانزلاق تحت السيارة ، وقد صعب ذلك على انتون ايفانوفيتش بشكل خاص بسبب كرشه ومعطفه الثقيل . ولم يصبهم الا الذعر ، وتطاير افراد الحاشية في جميع النواحي كالرشاش ، كما استطاع كوتيبوف نفسه ان يتنحى .

هاجم جيش المتطوعين بعنف لا مثيل له . وبقي الكثيرون منهم يرقدون منطرحين على السهب . الا ان صفوفا جديدة متزايدة ظلت تزحف نحو مانيتش . كانوا يظهرون هنا وهناك تحت النار المتوازية المنطلقة من الرشاشات الخفيفة ويركضون منحنين ، ويتجمعون على الضفة الاخرى من النهر . امر تليغين اخراج راية الفوج من المخبأ ، وخلع الغلاف منها .

لقد حلت اللحظة الحاسمة . كانت مدفعية البيض توجه نيرانها على احتياطات كاتشالين ، وتطايرت هناك اسدال كثيفة من التراب . ومن الضفة الاخرى كان ينهمر وابل غزير من الرصاص . واندفعت صفوف المتطوعين الاخيرة دون ان تنبطح على الارض . وتوقفت نار الرشاشات فجاة ، وقفز مئات الرجال في النهر ، بضراوة غلى بها الماء ، وخوضوا في الماء الى صدورهم والى رقابهم هازين البنادق ، وسبحوا وقفزوا من الماء مصابين بالرصاص ، وتخبطوا وغرقوا ، بينما انزلق على جثثهم آخرون جدد وجدد ... لم يكن عرض النهر هنا يزيد على ثلاثين ذراعا ... لم يعد في مستطاع اية نيران من الرشاشات ايقاف هؤلاء الرجال المسعورين الزاعقين الى حد الجنون . ولكن عبثا كان صياح الفريق تبلوف وهو يقف وسط القصب في الضفة الاخرى ملوحـــا بسيفه : «الى الامام ، الى الامام !» ظانا ان زخم الهجوم المفزع سيترك الحمر في حالة ذعر فيتقهقرون ، ويفرون .

كان رجال فوج كاتشالين ينتظرون هذه اللحظة طيلة اليوم ، والذين اكل القلق قلوبهم ، وعانوا انفعالهم تقسوا في توتر خانق . حين بدا الهجوم صاح امراء الوحدات والشيوعيون بالجنود الحمر ممسكين اياهم من قمصانهم او بناطيلهم لئلا يخرجوا قائلين «اطلقوا ، اطلقوا ...» وترددت شتائم مريعة في الخنادق . اذ لم يكن بالعدد القليل منهم من شارك وهو فتى او في سن الشباب في مناوشة بقبضات الايدي في الشتاء على الجليد ، على الجسر او في وسط الشارع شادا حزامه بقوة ، مرتديا قفازات جلدية . لقد كانت في دمائهم الرغبة القديمة في العراك بالقبضات . «آه ، اوغاد ، آه ، اوغاد» ويملأ الحنق افئدتهم ... «اتركني ، يا ... ابن !! ..» وكان لاتوغين اول من قفز من الخندق شاكا حربته صارخا صرخة وحشية .. وانطلق الجنود الحمر وراءه منحدرين على الساحل الصعب للقاء المهاجمين «هورا» ،

هورا ، هورا ! . . .» فيرد الاوغاد بهتاف مثلـــــه «هورا ، هورا ، هورا ! . . .» . كان هجوم رجال كالشالين بالحراب لا يكبح في جماحه . بعد ان صدوا الذين وصلوا الى الشاطئ من الاعداء ، خوضوا في الماء ، وقاتلوا في وسط النهر ، ضاربين باخامص البنادق ، ملقين القنابل اليدوية ، متقاتلين مع العدو بالسلاح الابيض . . . وكيف يستطيع الضباط ابناء الاعيان ذوو الاجسام المتانقة ان يصمدوا ، مهما تكن روح القتال عندهم ، ضد فتيان الريف الاقوياء ، وعمال مناجـــم الدونباس ، وعمال التفريغ والشحن على الفولغا ، وقاطعي الاخشاب الذين كانوا يظهرون فجاة من تحت الماء ويقفزون على اكتافهم . وتعالت فوق النهر المضطرم المحمر بالدم اصوات اللغط وقعقعة السلاح وهدير القنابل اليدوية المتفجرة . ودحر البيض ، وارجعوا الى الوراء ، فاخذوا يخرجون على الجانب الآخر من النهر ، انزل الفريق تبلوف تعزيزات جديدة . عندئذ تناول المفوض ايفان غورا من حامل الراية راية الفوج المصنوعة من الحرير القرمزي بنجمتها الذهبية ، والمثقبة برصاص المعارك السابقة ، ورفعها عاليا ، وركض بخطوات ثقيلة نحو ماتيتش محاطا بالشيوعيين .

والى الاعلى في مجرى النهر ، حيث اخذ الماء ينزل بمستواه ، وتلوح فيه رؤوس القصب كان تليغين قبـــل بدء الهجوم قد وضع الاحتياط تحت قيادة سابوجكوف . وحين تناول ايفان غورا الراية ترك تليغين نقطة القيادة ، ووثب على فرسه ، وعدا به الى مرج مغمور بالماء . وعندما وصل الى القصب صاح بالجنود الحمر الذين ظلوا نصف نهار باركين في الوحل كالخنازير البرية :

— يا رفاق ، العدو يهرب . لا تدعوه يفيق على نفسه !

عبر مائة وخمسون مقاتلا تحت غطاء القصب الى الجانب الآخر من النهر جارين بايديهم رشاشات ثقيلة ، تاركين احذيتهم في الطين اللزج زاحفين تارة وسابحين تارة اخرى ، وخرجوا الى جناح رجال كوتيبوف واخذوا يضربونهم . وتقررت نتيجة المعركة . تراجع البيض من ماتيتش ، واخذوا يتراجعون تحت غطاء من النيران ويفرون . وعلى مسافة بعيدة من جناحهم الايمن ، المنتشر فوق السهب كالحمم الخفيفة هبت لمساعدة فوج كالشالين الخيالة من القطاع المجاور لقطـــع الطريق عليهم .

خرجت فلول لواء تبلوف من الحصار ، ولم يقع تحت حراب المقاتلين الحمر غير شراذم منفصلة من البيض متخلفة . واضحت الملاحقة ابعد من ذلك خطرة . امر تليغين سابوجكوف بتسوية خط الجبهة والتخندق ، وذهب بفرسه الى حيث كانت راية الفوج تلوح على بعد نصف فرسخ في السهب . وكان يراقبها منذ زمن كيف عبرت النهر ، وتقدمت الى الامام ، وتوقفت ، وفجاة ارتخت ، وارتفعت من جديد ، ورفرفت وتحركت الى الامام .

غطت سحب سوداء الشمس الآفلة ، ودكن السهب بسرعة ، ولمعت في الافق مدافـــع كوتيبوف ، وصفرت القذائف متجهـــة الى مكان ما ، وهدا كل شيء ، وغطى الليـــل ميدان المعركـــة الدامية .

ظل تليغين يبحث عن المفوض ايفان غورا طالما كان في الامكان رؤية الاشياء . والمقاتلون الحمر الذين التقى بهم اختلفوا فيما قالوا عنه . كان الجميع قد راوه يعبر النهر حاملا الراية . ولكن الراية بعد ذلك كانت في يد آمر السرية موشكين . ولكن حتى موشكين هذا قد جرح . واخيرا تبين ان الراية في يدي شاب متين البنيان ، جاء لاتوغين وغاغين الى تليغين . وقد بقيا وحدهما حيين من طاقم المدفع ، بعد ان حطمت القذائف مدفعهم تماما ، وقد اكمل خدمته الوفية .

قال لاتوغين محركا شفتيه بصعوبة :

— كم كان ذلك رهيبا . ان تذكره يبعث الذعر .

وقال غاغين الصموت عادة بصوت خافت ايضا :

— حتى الآن من الخطر الاقتراب من اي واحد من الفتيان . انهم يتنفسون ، كما لو باضلاعهم . . واذا نظرت اليهم يبدو وكانهـــم يطعنونك بحربة . . .

— الملك تبحث عن ايفان ستيبانوفيتش ، يا ايفان ايليتش ؟

— نعم ، نعم ، هل رايته ؟

— تعال .

ساروا نحو النهر ملتفين حول الجثث . ومن الظلام تراءت هنا وهناك انات وتمتمات . وكان رجال الاسعاف يتنادون فيما بينهم باحثين عن الجرحى . وميز ايفان ايليتش همس كوزما كوزميتش الناشج . كان لاتوغين يمشي في المقدمة فتوقف فجاة ، وقرفص .

— انت الآن عزيزة علينا عزة مضاعفة . . . وسيكون طفلك ابن الفوج . . فكرى بالمهمة التى تحملينها — ومسد على شعرها — تناولى البندقية ، ولنذهب . . .

احنت الفريبتا راسها بحداد الى المكان الذى جلست بالقرب منه طوال الليل . ونهضت ، وتناولت بندقيتها وقبعتها ونزلت من الرابية .

استمرت المعارك الداميـــة على مانيتش الى منتصف ايار ، وهدات . حنق الجنرال دينيكين لجهود كوتيبوف العقيمة فى غرق جبهة الجيش العاشر ، وللخسائر الفادحة للغاية ، فاستدعــاه الى يكاترينودار . وتكلـــم التون ايفانوفيتش فى مكتبـــه وبحضور رومانوفسكى المتعالى المزدرى ، وكانـــت نبرته مرتفعـــة وفى غير وجـــه حق ملقيا القلم السميك على الاوراق الموضوعة امامه :

— قل لى : هل نحن نقاتل ام نقوم باستعراضات بهلوانيـــة للسادة الحلفاء ؟ لسنا العبيد الذين كانت تلقيهم روما لمصارعة الاسود ، يا صاحب السيادة ! ما الداعى لكل هذا التهور ؟ فضيحة ! عملية غير متحضرة البتة ، حرب عصابات !

كان كوتيبوف يعرف دينيكين جيدا ، وفهم السبب فى فورانه هذا . صمت جهما ، ونظر بطرف عينه الى باقـــة الزهور الصغيرة بالقرب من المحبرة .

— تفضل ، اقرأ ، وابتهج — وتناول دينيكين الورقة الاول من ضمة الاوراق — خرقت جبهـــة الجيش التاسع الاحمر بخسائر تافهة ، وخرقت بشكل ممتاز . . . ونحن ندخـــل منطقـــة القوزاق المنتفضين . والظاهر اننا سنحتل قرية فيشينسكيا بعد ايام . . . الا انه كان من الممكن ان تتحول العمليات على دونيتس الى هجوم واسع ، لو لم يستخدم ذلك العدد الكبير من قواتنا على مانيتش . انا خجل ، يا سادة ، من استراتيجيتنا . . . العالم كله ينظر الينا . . . ولدى الناس هناك حساسية مرتفعة جدا ، كونوا على ثقة . . . تفضلوا هنا . . .

وبحث عن نظارته الانفيـــة بين الاوراق وسار مع كوتيبوف ورومانوفسكى الى طاولة من خشب البلوط حيث بسطت خرائط عسكرية .

كانت الخطة هى ان يقوم الجنرالان بوكروفسكى واولاغاى بعد فراغهما من تركيز قوات خيالـــة كبيرة على جناح الجيش العاشر باختراق مؤخرته وتحطيم قوة الخيالة البلشفية ، والاستيلاء على محطة فيليكوكنياجيسكيا ، والانتهاء خلال اربعة او خمسة ايام من محاصرة الحمر كليا على مانيتش .

اخرج دينيكين من جيب جانبى منديلا قطنيا نظيفا فواحا بماء الكولونيا ، واخذ يمسح به نظارته الانفية . وارتعشت قليلا اصابعه القصيرة بجلدها الجاف اللامع .

— ان جيش المتطوعين يحل قضايا السياسة العالمية . وقد اخذ الغرب يفهم ذلك بعد سقوط اوديسا وخيرسون ونيقولاييف . . . ويجب ان نقوم بضربات خاطفة ماحقة . والثناء فى هذه الحرب يتحول الى ناقلات الاسلحة . . . وقـــد كنت دائما احذر من المجازفة . وانا لا احب الالعاب المغامرة . ولكننى ايضا لا احب الخسارة . . . واذا نجاحاتنا فى الدونباس لا تكتسب نطاق هجوم عام فى عمق البلاد ولا تنتهى بموسكو فساضع رصاصة فى صدغى ، ايها السادة . . .

دق رومانوفسكى الوسيم طرف سيكارته على علبة سيكائره الفضية بابتسامة متشامخة . والقى الجنرال كوتيبوف نظرة جانبية من تحت جبينه المغضن الواطئ وحدس من اين لانتون ايفانوفيتش هذا الافق فى الافكار . اذن ، فانهم يلفون له ذيله بقوة ، يوبخونه . ولكن كوتيبوف كان جنرال ميدان لا جنرال اركان . اى ان قضايا الاستراتيجية كانت تبدو له ضبابية جدا ومتعبة ، وكان عمله ان ينحر العدو فى مكانه . قال :

— سنفعل كل ما فى وسعنا ، يا صاحب المقام الرفيع . اذا امرت بان نحتل موسكو هذا الخريف فسنحتلها . . . .

ظل رجال كاتشالين خلال ثلاثة ايام يشقون طريقهم نحو الطريق الحديدى دون ان ينالوا جرعة من ماء او قطعة من خبز . لقد صدر فى

الحادى والعشرين من ايار امر بالتراجع . وتراجع الجيش العاشر من مانيتش شمالا الى تساريتسين شاقا الحصار بجهود وضحايا ضخمة . وكانت ريح جافة تهب ، وتسطع الافسنتين على الارض ، وكان السهب رماديا ، والافق البعيد كدرا حيث كان خيالة اولاغاى تقف كقطعان الذئاب .

وكانت خيول العربات تسقط هالكة ، والجرحى والمرضى من الرفاق ينقلون الى عربات كانت مكتظة بدونهم . وكان ذوو الجراح الخفيفة والممرضات يسيرون وراء العربات متعثرين . وكانت الشفاه تتورم وتتشقق من العطش . وكانت العيون الملتهبة المتقلصة اتقاء الريح الشرقية تبحث في الافق عن معالم مضخة الماء التابعة للسكة الحديد . ومن منخفضات السهب العريضة لم تفح حتى رائحة رطوبة ، بينما كانت المياه هنا تصل الى الوسط قبل مدة قصيرة . فليت هنالك بعض القطرات من ذلك الماء ليبل الافواه السوداء !

في احد هذه المنخفضات حين نزلت العربات على منحدر معشب وتعوا في كمين ، وارتفعت الطلقات من مكان قريب ، وهجم القوزاق على العربات المضطربة حاثين خيولهم ، طالعين من مخبأ لا يعرفه الا الشيطان ، مؤملين غنيمة سهلة . انحدر زهاء خمسين من النهابين القتلة على المنحدر شارعين لحاهم . الا انهم رجعوا بنفس الخفة ، حين اخذ الرصاص يتصدى لهم من وراء كل عربة . فقد كان كل جريح مزودا ببندقية ، وحتى داشا اطلقت النار مقلصـــــة عينيها بكل قوتها .

استدار القوزاق بافراسهم ، ولم يقع الا واحد منهم تدحرج مع فرسه . وتراكضوا نحوه آملين ان يأخذوا منه زمزمية الماء . وتبين انه يضع كتافيتين فضيتين . سحبوه من تحت الفرس القتيل فراح يكرر مذعورا : «استسلم . . . استسلم . اعطيكم معلومات قودونى الى الآمر . . .»

انتزعوا منه زمزمية الماء . كما وجدوا زمزميتين اخريين في عدل السرج .

– اجلبوه حيا الى هنا !

صاح آمر السرية موشكين الذى كان يجلس في العربة مكسور الذراع مضمد الرأس .

وقف الضابط الاسير امامه في هيئة استعداد . كانت له سحنة رذيلة قلّ ما صادف ان رأى مثلها : وجه مترهل ذو فم رخو وعينين ميتتين . وكانت رائحته حريفة ثقيلة .

– هل انت نظامى ام من رجال العصابات ؟

– من وحدة غير نظامية مساعدة .

– أتقومون بالانتفاضات في مؤخرتنا ؟

– نحن بموجب امر الجنرال اولاغاى نقوم بتعبئة الذين انهوا مدة الخدمة . . .

وسارت العربات من جديد ، وسار الضابط الى جانب العربة . وكان يرد بأمر استعداد وطواعية وبدقة . كان يعرف كيف يشترى حياته ، والظاهر انه كان من رجال الاستطلاع ذوى الدراية . سار بعض المقاتلين الحمر بالقرب من العربة ليسمع ما يقوله . واخذ الرجال يتبادلون النظرات حين تحدث عن دونيتس في رد على سؤال عـــن تراجع الجيش الاحمر التاسع ، وكيف ان فيلق الجنرال سيكريتوف للخيالة قد احدث ثغرة بين الجيشين التاسع والثامن ، وراح يغير على مؤخرات الحمر .

– تكذب ، تكذب . لم يحدث هذا .

قال آمر السرية موشكين ذلك في غير وثوق ، ودون ان ينظر اليه .

– ابدا . هذا صحيـــــح . ارجو المعذرة : لدى نشرة القيادة العليا . . . .

نزلت اليسيا ناززوفا من العربة ، وسارت ايضا مع جماعة المقاتلين الحمر بالقـــــرب من الاسير . قرأ موشكين اوراق النشرة المرفرفة بالريح . وانتظر الجميع ما سيقوله . كانت اليسيا طوال الوقت تبعد الرفاق بيدها الضعيفة لتقترب من الاسير اكثر . فكانوا يقولون لها : «ما هذا ؟ لا يوجد شيء يلفت النظر . . .» كانت قدماها متقلتين ، ورأسها موجعا ، وعيناها كأنما ذر فيهما رمل جاف . لم تستطع الوصول الى الاسير فلحقت برفاقها ، وتعثرت وامسكت بعنان الفرس ، واوقفت العربة . لم يدرك احد في الحال ما هى مقبلة عليه . التعت رقبتها ، ونظرت الى الاسير بعينيها الشاحبتين الواسعتين على كل وجهها المسود الناحل . وقالت :

– انا اعرف هذا الرجل ! يا رفاق ، ان هذا الرجل هو الذى احرق ولدى حيين ، وضربنى ضربا مميتا . . . وجلد فى قريتنا تسعة وعشرين رجلا حتى الموت . . . .

اكتفى الضابط بابتسامة ساخرة ، وهز كتفا . واطبق المقاتلون الحمر فى الحال ، ونقلوا ابصارهم بينه وبين اليسيا . قال موشكين :

– حسنا ، حسنا ، سنتحقق من ذلك . اذهبى ، وانطرحى على العربة ، يا عزيزتى ، اذهبى . .

كررت اليسيا ، وكأنها فى الغماءة :

– يا رفاق ، يا رفاق . لا يجوز ان يترك حيا . انا افضل على ذلك ان تقطعوا قلبى . . . فتشوه . . . اسمه تيميشايف ، وهو يتذكرنى . . . انظروا ، لقد عرفنى !

صاحت فرحة مشيرة اليه باصبعها .

امتدت عشرات الايدى ، ومزقت سترة الضابط القوزاقيـــة المشبعة بالعرق ، ومزقت قميصه ، وقلبت جيوبه ، وصدقت اليسيا ، فقد وجدوا هوية عسكرية باسم آمر السرية نيقولاى نيقولايفيتش تيميشايف .

ظل يكرر مدلهم السحنة :

– انا لا اعرف شيئا ، لا افهم . المرأة تكذب ، تهذى ، انها مصابة بالتيفوس .

عرف المقاتلون الحمر مأساة اليسيا ، وتراجعوا فى صمت حين تناولت اليسيا البندقية من احدهم ، واقتربت من تيميشايف ومست كتفه بيدها ، وقالت :

– لتذهب .

تلفت بوحشية فى وجوه المقاتلين الحمر الرصينة وزفر واراد ان يقول شيئا لموشكين الذى استدار عنه ماضيا فى قراءة النشرة . وامسك الاسير بجانب العربة ، وكان فى ذلك انقاذا له . الا انهم فصلوه عنه ، ووخزوه فى ظهره :

– اذهب ، اذهب . . .

عندئذ سار فى السهب مذهولا ، غارزا رأسه بين كتفيه ، متعثرا كالاعمى . وسارت اليسيـــا على بعد عشر خطوات وراءه ، ورفعت البندقية الثقيلة ، وضغطت الاخمص على كتفها :

– التفت نحوى .

التفت تيميشايف خفيف الحركة متهيئا للقفز ، واطلقت اليسيا النار فى وجهه ، ولم تلق نظرة اخرى ، وعادت الى رفاقهـا دون ان تلتفت . وكان هؤلاء ينظرون بلا حراك وبجهامة وهم يشهدون عملية اعدام محقة .

وقالت اليسيا :

– يا صاحب البندقية ، خذها .

وسارت نحو العربــة الاخيرة ، وصعدت اليها ، واستلقت ، وتغطت بدثار الفرس .

١٧

كانت كاتيا تصحح الاملاء فى الدفاتر المدرسية . كانت هذه الدفاتر المقطوعة والمخاطة من انواع مختلفة من ورق الجدران (كانوا لا يكتبون الا على الجانب الخلفى منها) انجازا هائلا فى حياتها البائسة . ومن اجلهـا سافرت بمفردهـا الى كييف . كان الوصول الى مفوض الشعب لشؤون التعليم سهلا . حين علم المفوض بشخصيتها وبالسبب الذى جاءت من اجله ، امسكها من مرفقيها ، واجلسها فى مقعد ، وسكب شاى الجزر من سخان شاى مسود موضوع على طاولة فاخرة ، وقدمه لها مع نصف قطعة من الملبس . وسار على البساط جيئة وذهابا ملقيا على كتفه معطفا فرائيا مرتديا حذاء لباديا . وراح يبسط لها برنامجا للتعليم الشعبى يدير الرأس .

– خلال عشر او خمس عشرة سنة سنكون بلادا متعلمة ، وستيسر كنوز الثقافة العالمية لجماهير الشعب – قال ذلك بابتسامة خيالية ماسا لحيته – امامنا عمل جبار فى محو الامية . ان هذا العار يجب ان يمحى . انها قضية شرف لكل مثقف . . . يجب ان يغمر الجيل الجديد بالتعليم من دور الحضانة ورياض الاطفال حتى الجامعة . . . نحن البلاشفة ، لن يعيقنا احد ولا اى شىء من التحقيق عمليا ما كان احسن ممثل مثقفينا يحلمون به فقط . . . .

ووعد مفوض الشعب كاتيا بعشرة آلاف دفتر وبكتب مدرسية وادبية واقلام والواح كتابة ، ولوحات للصفوف . وخرجت منه عبر درج مرمرى ، وكأنها تحلـم . ولكن بعد ذلـك حصلت مصاعب

وتعقيدات . وكلما اقتربت كاتيا من الدفاتر والكتب المدرسية صارت هذه اكثر بعدا عن الواقع ، واصبح الناس الذين يتوقف عليهم امر تسليمها الدفاتر والكتب المدرسية اكثر موارية وسخرية او جهامة . وعادت كاتيا يائسة الى غرفتها في الفندق ، حيث السرير بلا حشية ، والمصباح الكهربائي العالي في السقف يبدو محترقا ويكاد يلفظ انفاسه ، وجلست في معطفها على اريكة متخلخلة .

ذات يوم دخل عليها الغرفة دون استئذان رجل ضخم في قبعة شعثاء وسترة محزمة جيدا ، ودخل الموضوع راسا ، وسالها بصوت اجش :

– ما تزالين هنا ؟ انا اعرف قضيتك . اريني الاستشهادات التي لديك .

وراح يفحص الوثائق وهو واقف تحت المصباح المحمر . نظرت كاتيا بولوق الى وجهه الفكه القوي الجميل . قال :

– اوغاد . مخربون محتالون . . . غدا تعالي في ساعة مبكرة لمقابلتي في لجنة المدينة . سنفعل شيئا ، تفكر في شيء . . . الى اللقاء .

وبواسطة هذا الرجل حصلت كاتيا من المستودعات على ورق الجدران ، واقلام وعلى مكتبة كاملة مصادرة من صاحب معمل سكر ذواقة جمال كان نصفها باللغة الفرنسية . ولعل اتعب شيء لها كان طريق العودة بهذه الكنوز في عربة بضاعة كان يندفع اليها في كل محطة فلاحون ملتحون مخيفو العيون يحملون اكياسا ، ونساء هالجات منتفخات كالابقار بكل ما يحملن من الماكولات يخفينها تحت الستر والتنورات .

وظهر ان لكاتيا شيئا من القوة . ليست هي قطيطة لا حول لها – ذات ظهر هش وعينين جميلتين – ترسل صوتها الرائي عند اسرة الآخرين .

وجدت في نفسها شيئا من القوة منذ ذلك المساء الذي اعلن فيه الكسي خطوبته لها في غير توفيق . نظرت كاتيا في النعمة المعدة لها كزوجة صاحب حانوت ريفي ، وتراجعت كرجل يرى في الطريق قبرا محفورا له ، فيتوقف ، ويهتز اشمئزازا . لقد بدت لها عينا الكسي النهمتـــان المترعتـان بالخمرة قبرا ! الكسي رب البيت والزوج !

واضطرب كل شيء في داخل كاتيا ، وتمرد ، وكان ذلك بالنسبة لها اكثر الاشياء مفاجأة وابهاجا ، مثل الاحساس بالقوة بعد مرض طويل . كما كان مفاجأة قرارها في الفرار الى موسكو ، حين يكون الجو اكثر دفئا . كما وجدت في نفسهــا الحيلــة لتخفي كل ذلك . فلم يلاحظ الكسي وماتريتا سوى انها ابتهجت ، وانها بدأت تعمل وتغني .

اضحى الكسي الآن يغمز باستمرار سواء عند الغداء او العشاء (وكان لا يرى في البيت في غير هذه الاوقات) :«خطيبتنـــــا هذه مرحة . . .» . وكان هو يبدو مبتهجا بحصوله على قرار من اجتماع القرية فك جناح ضيعة الامير ، ونقل خشبه وآجره الى قطعة ارضه .

حين استولى الجيش الاحمر على كييف في بداية كانون الثاني مرت وحدة عسكريــة بقرية فلاديميرسكويــه وكان الكسي اول من هتف للسوفييتات في اجتماع عام . ولكن الامور اتخذت اتجاها آخر بعد وقت قصير .

جاء الرفيق باكوف الى القريــة . فصادر الدار الحسنــة البناء التابعة لقس القرية ، ونقل القس وزوجته ليعيشا في الحمام . ودعا الى اجتماع عام ، وطرح القضيــة على الشكل التالي : «الدين افيون الشعوب . ومن يعارض غلق الكنيســـــة يعارض السلطـــة السوفييتية . . .» وفي ذلك الاجتماع ودون ان يعطى كلمة لاحد اجرى التصويت ، وختمت الكنيســة بالشمـــع . وبعد ذلك عزل العمال الزراعيين والمعدمين من الفلاحين والفلاحات – وكانوا زهاء اربعين في القرية – عن سائر الفلاحين الآخرين . ونظم من هؤلاء الاربعين لجنة الفلاحين الفقراء . وتكلم بحنق دافق في اجتماع لها في بيت القس :

– الموجيك* الروسي وحش جاهـــل . عاش الف عام في الروث ، ليس له ولا يمكن ان يكون له غير الحقد المكلوم والجشع ، ونحن لا نثق بالموجيك ولن نثق به ابدا . سنشفق عليه ، ما دام سائرا معنا ، ولكن بعد قليل سنكف عن ذلك . انتم – بروليتاريو الريف – يجب ان تتسلموا السلطة بقوة ، ويجب ان تساعدونا على قص جناحي الموجيك .

---

* فضلت استخدام اللفظة الروسية لرفع الالتباس بينها وبين كلمة فلاح التي لها لفظة اخرى مختلفة الدلالة . **(المترجم)** .

واخاف ياكوف القرية كلها ، وحتى اعضاء اللجنة . وكل كلمة تقال فى القرية يعرفها الجميع ، وسرى تهامس فى البيوت :

«لماذا يقول ذلك ؟ لسنا وحوشا ، بل روسا ، ونعيش فى وطننا ، وفجاة لا تجوز الثقة بنا .. ثم كيف تقص اجنحتنا ؟ قصوا جناح الكسى كراسيلنيكوف ، فهو لص . قصوا جناح كوندراتنيكوف ، وليتشيبوروف . ذلك حق ، لانهما مصاصا دماء معروفان . . . فكيف يكسر جناحى على قميصى البالى ؟ لا ، ليس الامر كذلك ، خطأ . . .» وكان آخرون يقولون : «يا رب ، هذه هى السلطة السوفييتية ! . .»

وعندما كان ياكوف يخرج من الفناء لشأن من شؤونه السيئة قذرا لم يحلق وجهه منذ زمن بعيد ، فى معطف جندى ممزق ، وقبعة مخلوعة الظليلة – ولكنه فى حذاء طويل جيد ، على اية حال ، والمعطف يخفى جيد اللباس – كان الجميع يراقبونه من النوافذ ، وكان الفلاحون يهزون رؤوسهم فى حيرة كبيرة ، وينتظرون ماذا سيحدث بعد ؟

فى آذار حين بدأ نقل الروث من توه الى الحقل دعا ياكوف الى اجتماع عام ، وطالب مهددا مرة اخرى بتهمة معاداة الثورة بتسجيل رؤوس الخيل كلها ، ومصادرة الخيول الزائدة ، واقامة استثمارة جماعيـة على الفور فى ضيعـة الامير . . . وقطع هذا الشيطان القذر ايصال الروث ، والحراثة الربيعية !

وبعد ذلك بوقت قصير وصلت الى القرية فرقة تموين ، وعرف فى الحال ان ياكوف قدم لاعضائها قوائم لفائض الحبوب ضخمة بحيث قيل انهم بسطوا ايديهم مندهشين . وطاف ياكوف بنفسـه على البيوت ومعه الشهود مؤشرا بالطباشير على الابواب الكمية التى ستؤخذ من هذا البيت او ذاك .

وكان الفلاح يصرخ «فى حياتى كلها لم تقع عينى على مثل هذه الكمية» وهو يحاول ان يمسح الرقم بكمه ، وكان ياكوف يقول لاعضاء الفرقة : «فتشوا فى سردابه . . .» كان الفلاح يخاف ان يرسم علامة الصليب بحضور ياكوف ، فكان يشق فروته وهى عليـه ذارفـا الدموع : «لا شىء هنا ، يا الهى . . .» فيأمر ياكوف «حطموا موقده ، فقد خبأ شيئا تحت الموقد . . .»

ونظفت جهوده القرية الى الصفر ، وتلفت منها حتى تقاوى القمح . استدعى ياكوف الكسى كراسيلنيكوف الى مكتبه فى اللجنة ،

واغلق الباب الذى دقت عليه بالمسامير صورة رئيس المجلس العسكرى الاعلى للجمهورية ، ووضع المسدس على الطاولة بالقرب منه ، ونظر ساخرا الى الكسى المتجهم .

– حسنا ، هل نتبادل الحديث ؟ اعندك حبوب ؟

– من اين لى الحبوب ؟ فى الخريف لم احرث ولم ابذر .

– والى اين سقت الخيول ؟

– وزعتها على الضياع ، على المعارف .

– واين اخفيت الفلوس ؟

– اية فلوس ؟

– المنهوبة .

جلس الكسى مطرق الرأس ، سوى ان اصابع يده اليمنى كانت تنطوى وتنبسط دلالة على السماح والاخذ . قال :

– سيكون هذا غير لطيف . حسنا ضريبة ، انها مفهومة . . . ولكن ذلك مثل امساك الانسان من رقبته ، وتخليعه لقميصه . . . .

– سنضطر الى تحويلك الى اللجنة الاستثنائية . . .

– ولكننى لا ارفض . الواجب هو الواجب . سأجلب الفلوس .

عندما وصل الكسى الى البيت اندفع الى السرداب رأسا ، واخرج من هناك محفظات السفر وزكائب وصرر القمشة . فى احدى المحفظات كان يخبئ الفلوس القيصرية وفلوس الدون ، وقد حشرهـا فى الجيوب تحت القميص ، واعطى محفظة اخرى لماتريونا مملوءة بعملة كيرينسكى ، فانها سقط متاع لا تساوى شيئا قائلا :

– خذيها الى اللجنـة ، وقولى ليست عندنا غيرها . واذا لـم يصدقوا ، وجاءوا الى هنـا ليرفعوا غطاء السرداب لا تقاومى . القى الساعات والسلاسل فى البئر . وضعى القماش فى العربـة ، وغطيها بالتبن ، وفى الليل خذى حصان الجد افاناسى ، وانقليه الى ضيعة دميتتييف . سانتظرك هناك .

– الكسى ، الى اين تنوى الذهاب ؟

– لا ادرى . لا اعود فى وقت قريب . وحين اعود ستسمعاننى كلتاكما بطريقة اخرى .

سحبت ماتريونا منديلها الصوفى الى حاجبيها ، وغطت باطرافه محفظة نقود كيرينسكى ، وذهبت الى اللجنـة . اغلق الكسى الباب

بالمزلاج ، والتفت نحو كاتيا التي كانت واقفة قرب الموقد . كانت عيناه شامتتين ، ومنخراه منتفخين .

– ضعي عليك ملابس ادفأ ، يا يكاترينا ديميتريفنا ، معطفا فرائيا وجوربين صوفيين . . . وفي الداخل ملابس دافئـــة . . ثـم اسرعي . . ليس لنا وقت نضيعه . . . .

ونظر الى كاتيا موسعا عينيه ، وبدا وكأن شررا يقدح من حول حدقتيه ، واهتز طرفا شاربيه القاسيان الكتانيان فوق اسنان عارية . اجابت كاتيا :

– لن اذهب معك لاى مكان . . .

– اهذا جوابك ؟ لا يوجد جواب آخر ؟

– لن اذهب .

تقدم الكسي منها ، وابيض منخراه المنتفخان .

– لن اتركك وحدك ، فلا تأمل ذلك . انا لم اطعمك يا كلبة ليفسدك شخص آخر . . . شبيهة من حلوى . . . انا لم امسسك حتى الآن ، وستأتين ، ايتها البهيمة ، حين الوى يديك وقدميك . . .

وامسك كاتيا بيدين حديديتين ، وشخر – اذ ضغطت كوعها على تفاحة آدم من رقبته – وحملها بخطوتين الى السرير ، جمعت كاتيا القوة التي لا تعرف كيف واتتها ، وخلصت نفسها مرددة : «لا اريد ، لا اريد ، وحش ، وحش . . .» ووثبت ، ولكنه سقط عليها من جديد . وكان يشعر بالثقل والحر وهو في فروته المحشوة بالنقود . واخذ يضرب كاتيا خبط عشواء . خبأت كاتيا رأسها ، وراحت تكرر بكراهية وحشية من خلال اسنانها المصكوكة «اقتلني ، اقتلني ، وحش ، وحش . . .»

تحرك المزلاج في الباب . وصاحت ماترينا من الرواق «افتح ، يا الكسي ! . . .» تراجـــع عن السرير ، وامسك بوجهـــه . اخذت ماترينا تدق بقوة اشد ، ففتح الباب . قالت ماترينا وهي تدخل :

– احمق . ارحل باسرع وقت . انهم قادمون الى هنا .

نظر الكسي اليها لحظة ، وادرك ، ولاح وجهه اكثر استيعابا للامر . جمع صرر القماش والزكائب وخرج . وركب الحصان الوحيد المتبقي في البيت ، وانصرف من الفنـاء الخلفي عبر ثغور السيـاج

الخارجي ، وهبط يعدو نحو النهير ، وعبر الى الجهة الثانية . واختفى وراء الحرش .

بعد وقت قصير اخرجت ماترينا من الصندوق تنورة وبلوزة ، والقتها على السرير ، حيث كانت كاتيا ترقد ممزقة الثياب .

– البسي ، واذهبي الى حيث تشائين . انا اخجـل من النظر اليك .

فتش ياكوف والشهود بيت الكسي من السرداب الى العلية ، الا انهم لم يجدوا الذي كان مخبئا في العربة . وفي الليل جلبت ماترينا الحصان ، وغادرت الى الضيعة . ظلت كاتيا جالسة طوال الليل دون ان تخلع معطفها في البيت المظلم البارد منتظرة بزوغ الفجر . وكان عليها ان تقلب الفكر جيدا بكل الامور . ستغادر ما ان يطلع الفجر . الى اين ؟ وضعت كوعيها على الطاولة وضغطت على رأسها ، واخذت تنشـــج . مضت الى الجردل عند الباب ، وشربت من المغرفـــة . الى موسكو بالطبع . ولكن من بقي هناك من المعارف القدامى ؟ كلهم قد تبعثروا . . . وغفت على الطاولـــة ، وحين اخذتها رجفة قويـــة واستيقظت ، كانت الدنيا قد تنورت . لم تعد ماترينا حتى الآن . سوت كاتيا المنديل على رأسها ، ونظرت في المرآة على الحائط . يا للفظاعة ! وذهبت الى اللجنة .

قضت وقتا طويلا على المدخـــل الخلفي تنتظر ان يستيقظ الناس في بيت القس . واخيرا خرج ياكوف يحمل جردل الماء القذر ، ودلقه على كومة ثلج وسخ ، وقال لكاتيا :

– كنت انوى استدعاءك . . . تعالى . . .

وقاد كاتيا داخل البيت ، وطلب اليها الجلوس ، وبحث في جرار الطاولة بعض الوقت .

– ستُرمى بالرصاص زوجك او لا اعرف من هو بالنسبة لك . ردت كاتيا بسرعة :

– انه ليس زوجي . . ارجو فقط ان توفر لي الفرصة للخروج من هنا . اريد السفر الى موسكو . . .

كرر ياكوف ساخرا :

– «اريد السفر الى موسكو» وانا اريد ان انقذك من الرمي .

ظلت كاتيا جالسة عنده حتى المساء راوية له كل شيء عنها ،

وعن علاقتها بالكس . وكان ياكوف يخرج بين الحين والآخر مدة طويلة ، ويعود ليجلس مستلقيا ويدخن . قال :

— تلقى توجيهات مفوضية الشعب للتعليم بضرورة فتح مدرسة في القرية . انت غير ملائمة كثيرا ، ولكن على الاقل لتجرب . . . وواجبك الثاني ان تخبريني بكل ما يحدث في القرية . وستتفق فيما بعد على تفاصيل هذه المراسلة . واحذرك من العقاب الشديد اذا اخللت لترثرين بذلك . وانصحك بان تنسي موسكو في الوقت الحاضر .

وهكذا اضحت كاتيا معلمة دون توقع . خصص لها بيت صغير فارغ قرب المدرسة . وكان المعلم السابق العجوز قد مات فيه في تشرين الثاني لاصابته بالتهاب الرئتين . وكان البتليوريون الذين اتخذوا المدرسة في وقت من الاوقات مقرا لوحدة عسكرية قد استهلكوا جميع الكتب والدفاتر وحتى الخارطة الجغرافية بلف سيكائرهم باوراقها . وكانت كاتيا لا تعرف باي شيء تبدأ ، وذهبت لتستشير ياكوف . الا انه لم يعد في القرية . فقد غادرها فجأة مثلما جاء اليها بعد ان تلقى برقية مرسلة بيد رسول خاص ، ولم يلحق ان يخبر احدا غير الجد افاناسي الذي راح الآن يتردد على لجنة فقراء الفلاحين خائفا ان يفقد نفوذه :

— خبر الرفاق بان لا يتهاونوا مع الفلاحين الموجيك ، ساعود واتحقق . . . .

وهدأت القرية بعد مغادرة ياكوف لها . وكان الفلاحون لدى مجيئهم الى بيت القس يجلسون قليلا عند مدخله ، ويقولون لاعضاء اللجنة :

— قمتم باشياء واشياء ، يا رفاق . وكيف تتحملون المسؤولية عنها ؟ اى ، اى . . .

وكان اعضاء اللجنة انفسهم يعرفون ماذا تعني «اى ، اى . .» وان القرية هادئة في الظاهر فقط . ولم يعد ياكوف وسرت شائعة عن الكس كراسيلنيكوف تزعم انه جمع فصيلة في القضاء وتسلل الى الاتمان غريغوريف . وسرعان ما اخذت القرية كلها تتحدث عن غريغوريف هذا ، الذي اصدر مرسوما ، وهب للقضاء على السلطة السوفييتية . وعاد الناس من جديد ينتظرون تغيرات .

وعد العاملون في سوفييت القرية كاتيا بمساعدتها بشيء ما : اصلاح المواقد ، ووضع الزجاج . وقامت كاتيا نفسها بغسل ارض المدرسة والنوافذ ، وصفت المقاعد المدرسية المخلخلة . وكانت امرأة صافية الضمير ، وفي الامسيات كانت تبكي وحدها في بيتها الصغير لانها كانت تخجل من خداع الاطفال . اي شيء كانت تستطيع ان تعلمهم دون كتب ودون دفاتر ؟ واي اصول الصلاح يمكن ان تلقنهم ، بينما كانت تعتبر نفسها غير صالحة كليا . . . . وجاء اليوم حين ارتفعت اصوات الصبيان والصبيات مرحة في بكرة الصباح قرب المدرسة . واضطرت ان تجمع رباطة جأشها كلها . مشطت شعرها بنعومة ، وشدته بعقصة قوية ، وغسلت يديها جيدا . وفتحت باب المدرسة ، وابتسمت ، وقالت للصبيان والصبايا الصغار الذين رفعوا اليها الوقهم الصغيرة :

— على الرحب والسعة ، يا اطفال .

— مرحبا ، يكاترينا دميتريفنا .

صاح الاطفال باصوات صافية رنانة مرحة حتى احست بنفحة من الشباب تمر على قلبها . اجلست الاطفال على المقاعد ، وصعدت المنصة ، ورفعت سبابتها وقالت :

— يا اطفال ، ما دمنا بلا كتب ولا دفاتر ولا شيء نكتب به فساحدثكم انا ، واذا استعصى عليكم فهم شيء اسالوني . . اليوم سنبدأ بروريك وسنيوس وتروفور . . .

كانت ادوات كاتيا المنزلية ضئيلة جدا . فلم ترد ان تأخذ شيئا من بيت الكس ، كما انه صعب عليها ان تلتقي بماتريونا بوجهها النحيل الكئيب . كانت في بيتها مكنسة من العساليج قرب العتبة ، وقدران فخاريان على الرف ، وحوض خشبي قديم للماء . وكانت سلوتها حديقة صغيرة محاطة بسياج فيها شجرتا كرز ، وشجرة تفاح وعنب الثعلب . ووراء السياج يبدأ حقل .

وعندما ازهرت شجرتا الكرز احست كاتيا وكانها في السابعة عشرة من عمرها .

وكانت في العادة تهيئ دروسها في الحديقة ، وتقرأ الروايات الفرنسية من مكتبة صاحب معمل السكر ، وكثيرا ما تتذكر باريس في السديم الازرق للاعوام الماضية . في عام ١٩١٤ كانت تعيش في

ساحية لباريس فى شقة فى الطابق العلوى تحت سقف منحن لها شرفة تطل على شارع هادئ ضيق ، فوق سقف بيت صغير عاش فيه بلزاك فى وقت من الاوقات ، وكانت نوافذ مكتبه لا تطل على الشارع ، بل على الحدائق المتحدرة نحو السين . وفى زمانه كانت هذه منطقة ريفية . وحين كان دائنوه يظهرون من جانب الشارع كان هو يبتعد عنهم عبر الحدائق الى السين . والآن صارت تلك الحدائق ملكا لامرأة امريكية ثرية ، وفى الامسيات ، حين كانت كاتيا تخرج الى الشرفة كانت تسمع الطواويس تصيح باصوات ربيعية حادة ، فكان يبدو لكاتيا – التى جاءت الى باريس بعد انفصالها عن زوجها – فى وحشة وانعزال ان الحياة قد بلغت نهايتها .

احب الاطفال كاتيا ، وكانوا فى الدروس يصغون اليها بانتباه شديد وهى تروى قصصا من التاريخ الروسى تبدو كالحكايات . وبالطبع كانت مسائل الحساب وجدول الضرب والاملاء اكثر صعوبة بالنسبة للاطفال ، وبالنسبة لكاتيا نفسها ، ولكنهم تغلبوا على ذلك بالجهود المشتركة . وصارت معاملة اهل القرية لها افضل بكثير ، فقد عرف الجميع ان الكسى كاد يقتلها . وكانت النساء يحملن اليها الحليب والبيض والخبز . فكانت كاتيا تقتات على ما يحملنه اليها .

كانت كاتيا تصحح الدفاتر وهى جالسة تحت شجرة التفاح القديمة المغطاة بالصوفة . وكان صبى صغير ينشج منذ وقت طويل وراء السياج الواطئ الواهن ايضا .

– يا عمة كاتيا ، لن افعل ذلك مرة اخرى .

– لا ، يا ايفان غافريكوف ، انا زعلانة عليك ، ولا اتكلم معك يومين .

كان ايفان غافريكوف ذو العينين الزرقاوين البريئتين كثير المشاكسة . كان يجر الفتيات من ضفائرهن فى الدروس ، وحين وبخوه على ذلك تظاهر بالاغماء ، وعوى تحت المقعد . ومشاكساته الاخرى لا حد لها .

– لا ، لا ، يا غافريكوف . انا ارى تماما انك لن تندم على افعالك ، وانك جئت الى هنا لانه لا شئ لك تفعله .

– حق الإله ، لن افعلها مرة اخرى . . .

دخل شخص البيت من الشارع ، ونادى صوت ماترينا كاتيا .

ماذا كانت تريد ؟ عفوت كاتيا عن غافريكوف بسرعة ، ودخلت البيت . استقبلتها ماترينا بنظرة متفرسة غير طيبة .

– هل سمعت ؟ الكسى فى مكان قريب . . اسمعى ، يا كاترينا ، لن اريد ان يتكرر ما حدث من قبل ، انت لست منا . . . انه سيقتلك على اية حال . . اضحى وحشا يسفك الدماء ! وانت مذنبــة فى كل شئ . . . قبل برهة قال شخص ان الكسى قادم على عربات . . . ارحلى ، يا كاترينا عن هنا . ساعطيك عربة وانفودا .

كان لفاديم بيتروفيتش الوقت الكافى لمختلف الافكار خلال مكوثه فى المستشفى فى خاركوف . لقد وجد نفسه فى الجانب الآخر من خط النار . وكان هذا العالم الجديد غير جذاب فى ظاهره : ردهة غير مدفأة ، والثلج الرطب يتساقط وراء النوافذ ، والطعام ردئ – حساء رمادى اللون مع سمك – واحاديث المرضى اليومية عن الطعام والتبغ البيتى وعن الحرارة وكبير الاطباء . ولا كلمة عن المستقبل غير المعروف الذى كانت روسيا تعدو نحوه ، ولا عن الاحداث التى تهزها ، والصراع الدموى الذى لم ينته والذى كان المشتركون فيه – هؤلاء المرضى والجرحى ذوو الرؤوس الحليقة والمباذل القطنية المتسخة – يقضون اوقاتهم نائمين اياما بكاملها ، او لاعبين على الاسرة بقطع الداما التى صنعوها بانفسهم ، او ان يغنى احدهم اغنية شجية بصوت خافض .

لم يجتنب الناس فاديم بيتروفيتش ولكنهم لم يحسبوه من جماعتهم . فلم يكن امامه غير ان يحادث نفسه ، فقد تراكم فى نفسه الكثير مما لم يقلب الفكر فيه ، ولم يبت الراى ، وانقطعت عنه ذكريات جمة ، مثلما تنقطع من كتاب صفحة فى اشوق موضع . لقد قبل فاديم بيتروفيتش هذا العالم الجديد دون تردد ، لان ذلك قد حدث فى وطنه . والآن كان عليه ان يفهم كل شئ «ويتروى فى كل شئ» .

ذات مرة جلب كبير الاطباء اليه جرائد موسكوفية . وقد قرأها فاديم بيتروفيتش بعينين مختلفتين كليا ، دون ان يهزأ بها بخبث متعمد ، كما كان يفعل . . . لقد انتشرت الثورة الروسية فى المجر وفى المانيا وفى ايطاليا . وكانت سطور الجرائد مفعمة بالجراة والثقة والتفاؤل . ان روسيــــا المسحوقة بالحرب ، بالصراع الداخلى ،

والمقسمة مقدما بين الدول الكبرى تأخذ بقيادة السياسة العالمية ، وتصبح قوة يعتد بها .

اخذ فاديم بيتروفيتش يفهم الطمانينة اليومية لرفقائه ذوى المباذل الرمادية ، فقد كانوا يعرفون اى قضية قد انجزت ، وانهم قد اسهموا فى العمل . . . ان طمانينتهم دائمة ثقيلة اليدين والقدمين تاملية استغرقت خمسة قرون ، وما اكثر ما حدث فى تلك المدة . . . ان تاريخ الشعب الروسى والدولة الروسية عجيب وله خاصيته . والافكار الجبارة غير المتخذة اشكالها تطوف فيه من قرن الى قرن ، افكار ذات نطاق عظيم عن الحياة الحقة . وتتحقق بدايات خارقة جريئة تقلق العالم الاوربى ، وتتطلع اوربا بذعر وحنق الى هذا الغول الشرقى الضعيف والجبار ، والفقير والغنى غنى لا حد له ، المولد من بطونه المعتمة توهجات بكاملها من الافكار والنظريات على نطاق البشرية كلها .

واخيرا ان روسيا بالذات تختار طريقا جديدا لم يجربه احد من قبل ، ومنذ الخطوات الاولى يسمع العالم وقع خطاها على هذا الطريق . . .

وطبيعى ان فاديم بيتروفيتش لم يكن وهو بهذه الافكار ، ليعبا لجداول المياه القذرة وراء النوافذ تحمل فى الشارع ثلج آذار ، او للمستخدم السوفييتى النكد المتذمر ذى الحذاء الطويل المتهرى* يحمل كيس الطعام وصفيحة كيروسين وراء ظهره ليشترك فى اجتماع احدى الهيئات التى لا حصر لها . ولم يكن ليكترث بالحساء الذى يجرعه ، ولا بما فيه من سمك . فقد كان يضطرم بنفاد الصبر ليعاون بنفسه فى هذه القضية باقرب وقت .

بدات اوكرانيا تطهر من البتليوريين . وقبل مدة قصيرة استولى الجيش الاحمر على يكاتريتوسلاف . وما زال بتليورا متشبثا ببيليا تسيركوف ، الا انه اخرج من هنا اخيرا ، فعبر الحدود مع فلول وحداته الى غاليسيا . وكانت موجة واسعة من انتفاضات الانصار قد سبقت قوات الجيش الاحمر المهاجمة . وكانت لسعة نطاقها تصعب على التعداد والسيطرة . كانت تندلع كالحرائق فى القرى والاقضية التى يمزقها صراع ضار بين الفلاحين ممن يملكون قطعا صغيرة من الارض

وبين الكولاك الاقوياء . وكان هؤلاء واولئك يشكلون الفصائل الخيالة والمشاة التى كانت تشتبك فى معارك دموية بكل ضراوة . وكان العملاء السريون للبتليوريين والدينيكيين والبولونيين ولمنظمات سرية اكثر غموضا يجوبون فى كل مكان متخفين ومستفزين . وكانت السلطة السوفييتية تقام فى المدن وعلى طول الخطوط الرئيسية للسكك الحديدية ، وعلى جانبى هذه الخطوط كانت الحرب مستعرة على مدى الطلاق قذيفة من قطار مصفح .

واخيرا تلقى فاديم بيتروفيتش التعيين الذى انتظره طويلا – فى اركان لواء للطلبة العسكريين كان تشوغاى مفوضا له ، وخرج من المستشفى فى اواسط آذار ، وهو ما يزال يعرج ويتكئ على عصا ، وسافر الى وحدته فى كييف .

كانت عصابة زيلينى التى انفصلت عن الاتمان غريغوريف تقترب من كييف تقسها على مئات من عربات الرشاشات محطمة سوفييتات القرى ومتصيدة الشيوعيين . وقد خلف زيلينى وراءه على طول الطرق التى سلكها اناسا سلخت جلودهم ، وآخرين ارغموا على الجلوس على قرم حادة الاطراف . وكان يحرق اعضاء لجان فقراء الفلاحين احياء فى الاهراء ، ويسمر اليهود بالمسامير على الابواب ، ويبقر بطونهم ، ويخيط قطة بها . وضعت خطة القضاء على هذه العصابة بمساهمة روتشين فى مقر مفوض الشعب للشؤون العسكرية . ولم تكن القوات المخصصة لها كثيرة . خرج مفوض الشعب للشؤون العسكرية لاوكرانيا من كييف على سفينة ليوجه العملية فى مكانها .

كان الدنيبر ما يزال ممتلئا بالمياه . دارت دواليب السفينة فى مياه صافية لا يعكرها غير دوامات دائبة . ولم يستطع ضجيج الدواليب ، ولا اصوات الطلبة العسكريين ان تغطى على تغريد البلابل على الضفاف المطرزة بالخضرة المعطارة اللزجة فى بوادر الاوراق والزغب والصفرة الفاقعة . وكان سطح السفينة حارا من وهج الشمس التى نهضت فوق منبسط الفيضان . كان فاديم بيتروفيتش يقف عند الحاجز ينظر فى الماء المتلالئ* .

لقد عاش فصول ربيع كثيرة ، ولكن نبيذ الحياة لم يغل هذا الفوران في اعماقه قط . . . . وفي وقت هو اقل الاوقات ملاءمة وابعدها عن القبول . . . . كان راسه غائما بهواجس غير صافيـــة . . . من الخير الا تبحث في جيبك عن سيكارة ، ايها الرجل الجاد ، ولا تقطب حاجبيك ، ولا تنفض عنك المفاتن المقبلة . . . هذا هو انبشاش الربيع ، يرتفع فوق مياه الفيضان ، فوق الجزيرات ، فوق البيوت الريفية الغريقة وقد نفذت فيه الشمس الهائلة المتدلية . وضوءها يرقد على الماء ، وعلى الاشجار وانعكاساتها الشاحبة الرجراجة ، وعلى ظهور الابقار الداخلـــة في الماء حتى ركبهـــا ، وعلى ربوة معشوشبة صعد اليها احد الثيران ليتمعن في اعجوبة الربيع الفريدة البكر .

من الغريب ، ومن الغريب جدا ان كاتيا لم تخطر على بال روتشين الا قليلا طيلة هذا الوقت ومنذ ان كان في يكاتريتوسلاف . وكانها رحلت مع ماضيه ، فقد كانت مرتبطة كليا بالحياة التي يتنقدها الآن بشدة . . . حين كان فكره يعود الى كاتيـــا كان يعود لنفســـه الى روتشين ذاك الذي رآه مرة في مرآة الحلاق . حينذاك لم يكن له من النفور ما يكفي لاطلاق الرصاص على الصورة والبصق عليها على الاقل . بينما في امكانه ان يفعل ذلك الآن .

قبل ربيعين كانت عاطفته نحو كاتيا تبدو وكانها تملأ الكون كله ، كل الكون خارج جبينه المجعد ، جبين رجل مبلبل ومتكدر بشكل مميت ، آنذاك كان بحاجة الى حب كاتيا ، لا سيما في ساعة وحدته في فندق يكاتريتوسلاف ، حين كان ينظر الى مقبض الباب الذي كان من الممكن ان يشنق نفسه منه . . . . والآن : لا حاجـــة له بها ؟ وكيف ذاك ؟ في روستوف خان كاتيا للمرة الاولى ، وفي يكاتريتوسلاف للمرة الثانية ؟

تطلع الى الشفاق البارد ، واستنشـــق بكـل صدره الهواء البليل المضمخ بالعسل ، ولم يشعر بتانيب ضمير ولا بندم . لا ، لم تحدث خيانة في يكاتريتوسلاف . . فقد صفى هناك حسابه مع الماضي . . . وكانت ماروسيا . . . ترنمت باغنية قصيرة برينة عاطفية عن الحياة الجديدة ، عن هذا الفيضان الربيعي ، عن السعادة التي لا تسبر ولم تلق .

جار الثور الواقف على التل المعشوشب ، وضحك الطلبة العسكريون عند مؤخرة السفينة ، وجار واحد منهم محاكيا . اغمض روتشين عينيه رغى البال . احقا ان الموت باس ؟ لقـــد كان موت ماروسيا وضاء . لقد كان موتها بمثابـــة هتاف راحل للباقين : احبوا الحياة ، امسكوا بها بكل عنفوان ، واجعلوا منها سعادة ! . . .

انه لم يؤجل جهوده للبحث عن كاتيا . وبناء على طلبه ارسل من مفوضية الشعب العسكريـــة الى اللجان التنفيذيـــة في الشبية يكاتريتوسلاف وخاركوف استفسار عن الكمى كراسيلنيكوف الا انه لم ترد حتى الآن معلومات عن مكان وجوده . ولم يكن في وسع قاديم بيتروفيتش الآن ان يقوم باكثر من ذلـــك . لقد كانت هذه الساعات القليلة على ظهر السفينة هي وقت الفراغ الوحيد المتاح له منذ شهر ونصف من العمل ثماني عشرة ساعة في اليوم .

تقدم منه تشوغاي ومفوض الشعب للشؤون العسكرية . كان الاخير رجلا نحيلا في سترة محزمة من الجنفاص له وجهـــه محمر من الشمس وعينان نديتان كعيني السكران ، رغم انـــه لم يشرب الخمرة قط ، ويكره السكارى حتى كاد يطلق النار على آمر اللواء ، وهو رجل طيب ، حين وجده في بيته مع زجاجة من الفودكا . . . اشار الى الضفة العالية حيث لاح برج جرس ابيض وقال :

– هذه قريتي . . . كانت جدتي حين تسمع صفير سفينة – كانت عجوزا لا تهدا – ترسلني في الحال مع منخل مملوء بالاجاص والكمثرى والجوز الى الرصيف لابيعه . . . ولكن لم اطلع تاجرا . . .

قال تشوغاي :

– اما جدتي فكانت تقية . كانت تتردد دائما على الاماكن المقدسة ، وحتى بلوغي العاشرة كانت تاخذني معها للتسول . . .

قال مفوض الشعب دون ان يصغي :

– ثم اعطوني الى دكان حدادة لاتدرب . ومن المحتمل انه ما يزال هناك ، اسفل برج الجرس . وما زلت احب رائحـــة فحم الخشب ، والغاز المتصاعد منه . وحين نلت كفايتي من الضرب على القفا سافرت الى كييف لاشتغل في مستودع القاطرات . . . هذا مـــا حصل . . ثم رحلت الى خاركوف ، الى مصنع ميكانيكي . . .

قال تشوغاي دون ان يصغي :

– كنت ماهرا فى الغناء من انقى فى غناء الكنيسة . كنت اذا خدشت فى مكان ما ، او الطخ وجهى بالدم ارفع عينى ، وانشد «الصلوات» . . . ثم كان يحدث ان اتخاصم مع جدتى على كوبيك .

وكرر تشوغاى فى سهوم :

– اتخاصم مع جدتى على كوبيك . . . .

ونظر الى الشاطئ الذى نتأ الآن براس دار الدتيبر حوله نحو غيضة مغمورة بالماء . وتفرست عيناه الجاحظتان . وضرب بيده على قبعته ذات الشريطين ، وسار سريعا الى جسر القبطان .

وصاح بالقبطان الذى كان عجوزا جاف العود متدلى الشاربين :

– هاى ، يا جد . ابتعد نحو المروج !

– لا يمكن ، يا رفاق ، نحن نسير فى الجزء الصالح للملاحة ، بينما الماء ضحل فى الميسرة .

– لا تسر فى الجزء الصالح – وضرب تشوغاى على غلاف مسدسه – استدر استدارة احد ! . . .

استدارت السفينة حول الراس ، وشيئا فشيئا تكشفت على الضفة المنحدرة قرية كبيرة لها برج جرس عال وطواحين وبيوت بيضاء ، وبساتين واطئة ذات خضرة غضة .

كان مفوض الشعب يقول لروتشين :

– انظر الى ذلك البيت الصغير الذى يرى وحده هناك ، يلوح بالكاد . انه البيت الذي ولدت فيه .

صاح تشوغاى بلهجة جادة :

– هيا ، يا وياه ، ادر الدفة الى اليسار بحدة !

كان جمع كبير من العربات يقف على الشاطئ ، وزوارق كثيرة عنده . وكان الناس يتزاحمون نحوها قافزين فيها ، بينما لحق احد الزوارق ان يجنق . نزل تشوغاى السلم ، ومسترته ترفرف ، وهبط الى ظهر السفينة . ازت طلقات من الشاطئ والزوارق مصوبة على السفينة فى ان واحد تقريبا ، ولعلعلت الرشاشات من السفينة . وتناثر الناس من الزوارق الآتية والعين فى الماء . واضطرب الجمهور الواقف على الشاطئ مندفعا الى عربات الرشاشات ، وعدا بها مثيرا الغبار ، صاعدا فى الاعلى الى الشارع العريض . ودق جرس البرج دقات الانذار .

لم يستمر التراشق والعدو غير بضع دقائق . وخلا الشاطئ . صعد تشوغاى السلم وعيناه الجاحظتان تلمعان بمرح :

– انه زيلينى ! تسلل الى هنا ، ابن الكلبة . يا فاديم بيتروفيتش يا لها من خطة للمحاصرة هذه ! حسنا ، يا مفوض الشعب ! لا بد من ان تقوم بالانزال . . . .

واضطربت عصابة زيلينى فى طوق الحصار مثل قطيع من الذئاب ، وضغطت اخيرا على سدة السكة الحديد تحت نار القطار المصفح ، وابيدت فى حرش كثيف للجوز اندفعت اليه عربات العصابة آملة ان تحدث ثغرة . وكان الحقل كله قد حفر مقدما حفرا متفرقة فطلعت العربات الرباعية من حرش الجوز مزبدة مذعورة بالرصاص والقنابل اليدوية . ارتدت الخيول التى فى المؤخرة الى العربات ، وكسرتها وقلبتها . واندفع قطاع الطرق نحو الاجمات حيث كان الموت بانتظارهم . ولم يحاول احد منهم ان يلتمس الرأفة . وجدوا الاتمان زيلينى تحت كومة من عساليج العام الماضى ، واخرجوه من هنا من قدميه ، ودهش الطلاب العسكريون لانهم تصوروه عملاقا يثير الذعر ، فاذا به نحيل مجذوب لا يستحق بصقة ، سوى ان عينيه الصغيرتين الناصلتين البغيضتين كانتا تنمان عن اصله الذئبوى . لووا يديه ورجليه ليحملوه الى كييف حيا .

ومع ذلك فان احدى فصائله قد اخترقت الحصار فى ناحية ، واتجهت نحو الشرق . ارسل مفوض الشعب لملاحقتها فوجا مؤلفا من ثلثمائة فارس ومعهم تشوغاى وروتشين . وبدأت ملاحقة طويلة حذرة . كان قطاع الطرق يغيرون خيولهم فى الضياع ، بينما سار الحمر فى اثرهم دون تغيير الخيول . وتبين ان قطاع الطرق يتجهون نحو قرية فلاديميرسكويه حسب ما رواه الفلاحون فى قرية كان قطاع الطرق قد مروا بها قبل يوم واحد وصادروا الخيول فيها ، ونهبوا كل ما استطاعوا اخذه فى عجالتهم .

وقال الفلاحون لتشوغاى وروتشين عند البئر حيث كان الفرسان يسقون خيولهم :

– اقضوا عليهم باسرع وقت ممكن ، يا رفاق . نصارحكم باننا ضجرنا من العمليات العسكرية . ونحن نعرف اتمانهم جيدا ،

وهو من قرية فلاديميرسكويه ويدعى اليوشكا كراسيلشيكوف . لقد كان فلاحا صالحا ، ولا جدل في ذلك ، ولكنه فسد ، واضحى غريبا . . .

وهكذا وقع قاديم بيتروفيتش فجأة على اثر الكسى الذى كان يلاحقه للاسبوع الثانى ، وقع على اثر كاتيا . واضطرب اضطرابا شديدا . لم يعد يفصله عن كاتيا غير مسيرة يوم واحد . في اية حالة سيجدها ؟ معذبة متغيرة بشكل لا تعرف فيه ؟ بحيث لا يستطيع ان يفعل سوى ان يضع راسها الشائب على صدره . . . . الشائب ، الشائب . . . «حسنا ، يا كاتيا ، استريحى الآن ، سنعيش ، ويجب ان نعيش . . . » لا ، لا ، لا يعقل ان تكون قد اصبحت زوجة الكسى الطيعة ! والاكثر احتمالا ان يتوقف حصانه في نهاية مسيرة اليوم على قبر كاتيا . . . وربما ذلك افضل لها . . . وتكون صورة كاتيا طاهرة غير ملوثة . . .

سار الفوج بسرعة في الطريق المترب . وكان قاديم بيتروفيتش يترنح على السرج . واهتزت صورة كاتيا وغامت في ذاكرته الكالحة . سيعيدها الى حياته مهما تكن الحالة التى يجدها فيها .

كانت البيوت المحترقة في قرية فلاديميرسكويه ما تزال ترسل الدخان ، والاطفال ما يزالون يأتون لينظروا بذعر الى برك الدماء التى لم يمتصها الرماد بعد ، والنساء مازلن في مخابئهن في بيوت الآخرين مرتجفات منتفخات الوجوه بالدموع حين التحم تشوغاى وروتشين القرية في تشكيلتين من طرفيها . ولكن كراسيلشيكوف لم يكن هناك . فقد نبهه احد الناس فخرج مع شقاله قبل نصف ساعة تقريبا من ظهور الحمر بعد ان نكل باعضاء لجنة فقراء الفلاحين ، واعمل وشقاله الطعن بسيوفهم في سبعة عشر رجلا ، وجعلوا الجد الفاناسى ثامن عشرهم لمجرد اظهار الشقاوة .

كان حنق الفلاحين عليه شديدا جدا حتى ان القرية طلعت عن بكرة ابيها تقريبا ، واحاطت بالفرسان ، الذين كانت خيولهم تترنح تحتهم متعبة . وصاح الفلاحون :

– الحقوا به ، اقتلوا الكسى . فان قواه ضعيفة ، ولا يملك عتادا . . . لم يذهب بعيدا ، فنحن نعرف اين ذهب اولئك الاوغاد . . . تستطيعون ان تمسكوهم بايديكم دون سلاح .

سأل تشوغاى :

– وهل تعطوننا خيولا مستريحة ، يا رفاق ؟

– نعطيكم . . . لاجل ذلك نعطيكم .

– كم ؟

– يمكن ان تجمع خمسين حصانا او نحوها . . . اتركوا خيولكم لنا ، وسنتبادل بعد ذلك . . . يا الهى ، انه لا يتركنا نعيش .

وبينما كانوا منشغلين بجلب الخيول ، ووضع السروج عليها تقدم قاديم بيتروفيتش من النساء وئيد الخطو ، ولما رأين ان الرجل يريد ان يسأل عن شىء اقبلن نحوه . قال قاديم بيتروفيتش :

– كنت اعرف كراسيلشيكوف في الحرب الالمانية . كان له اخ متزوج ، اما هو فيبدو لى انه كان اعزب . . . فكيف هو الآن ؟ متزوج ؟

لم تكن النسوة يعرفن بعد ما يرمى اليه فقلن لهوقات :

– متزوج ، متزوج . . .

– اى متزوج هو ! انها لم تكن زوجته . . . .

– حسنا ، كان يعيش معها فقط . .

– ليس كذلك . . . ايها الرفيق العسكرى ، ساحكى لك . . . لقد كسب هذه المرأة من ماخنو في لعبة ورق ، وجلبها معه الى هنا ، واراد ان يتزوجها . . طبعا قالت له : تزوجنى ، ولكننى لم اتعود على عيشة الفلاحين . . . فقد كانت من الاعيان ، جميلة شابة . . . بينما الالمان احرقوا بيت الكسى في الربيع الماضى . . فانشأ يبنى له بيتا . . . ثم حصلت الامور مع ياكوف . . .

تدافعت امرأة ثالثة لتقترب من قاديم بيتروفيتش ، وكانت اكثر معرفة :

– اسمع . ايها الرفيق الآمر ، لقد ضربها ضربا شديدا ،

ولكن الشيطان اللعين لم يستطع ان يقتلها . . وهي منذ شهر آذار تشتغل معلمة عندنا .

– هكذا ، اذن – قال فاديم بيتروفيتش ، وسعل – وهل هي الآن في القرية ؟

اخذت النسوة يتبادلن النظرات . عندئذ قالت امرأة رابعة اقتربت لتوها :

– اخذها معه تحت التبن في احدى العربات ، ولا نعرف ان كانت ميتة ام حية . . .

كان صبي صغير ينظر بعينين مفتونتين الى روتشين – الى سيفه ذي المقبض النحاسي ، والى حذائه المترب ذي المهماز ، والى الساعة الكبيرة في معصمه ، والى المسدس المتدلي . وقد القى رأسه الى الخلف كليا لينظر الى وجهه ، وقال بصوت غليظ :

– انهن يكذبن ، يا عم . هن لا يعرفن شيئا عن العمة كاتيا . انا اعرف كل شيء .

وقالت صبية قبيحة نحيلة على شفتها قرحة كانت تقف وراءه :

– صدق به ، يا عم . هذا الصبي يعرف كل شيء .

– حسنا ، ماذا تعرف ؟

– ماتريونا اخذت العمة كاتيا الى محطة القطار ، لم تكن العمة كاتيا راغبة في الذهاب ، فبكت بكاء شديدا ، وكذلك ماتريونا . . . ثم قالت العمة كاتيا لي : «قل للاطفال انني ساعود . . . » وعندما دخل الكسي القرية مع عرباته غادرت ماتريونا والعمة كاتيا من طرف القرية الآخر ! وعندما صعدنا الى التل الزلتاني من العربة . . .

صاح تشوغاي :

– الى الخيول ! . . .

ولم يتح لفاديم بيتروفيتش الوقت ليسمع الحديث الى نهايته . غادرت الفصيلة القرية على خيول مستراحة وعربات رشاشات . كان فلاح قصير داكن البشرة ، من اولئك الذين اضطروا الى قضاء اليوم بطوله جالسين في البئر غاطسين الى سررهم في الماء والطين يخب بحصانه الى جانب تشوغاي وروتشين رافعا مرفقيه . وقد امتطى حصانه بلا سرج بالهيئة التي كان فيها حافيا ممزق

القميص مقشى كله منفوش اللحية . قاد الفصيلة في حركة التفاف الى غابة لاشجار البلوط ، كانت الطريق الوحيدة للشقاة في هذه الاتجاه .

وصلوا قبل انقضاء النهار ، واخذوا يحيطون بالغابة تاركين مخرجا واحدا للشقاة ليقعوا في كمين . كانت الشمس الواطئة تنفذ باشعتها من وراء الاوراق اللامعة الى جذوع الشجر المعوجة . كان الحصان الذي يمتطيه فاديم بيتروفيتش كثير الحركة ، يهز رأسه ويتوقف ويعض ركبته ، ويضرب بطنه برجله . القى فاديم بيتروفيتش المقود اخيرا ، وامسك القربينة بكلتا يديه على اهبة الاستعداد . كانت اشعة الشمس المبقعة بسحب البعوض الذهبية تشعشع الغابة وتشرطها ، فكان يصعب تبيان اي شيء الى الامام وعلى الجانبين ، حيث كان الطلبة العسكريون المترجلون يزحفون يمينا ويسارا في صف نحيل وهم يطاون العساليج المخشخشة بحذر خلال الاجمات النامية والسرخس الطويل .

نبه الدليل الى انهم سيقعون في مكان ما هنا على كوخ حارس الغابة ، وعلى الطريق الوحيد الذي من الممكن ان يسلكه الشقاة للنفاذ الى قلب الغابة . وفجأة ظهر للعيان سقف مغطى بالصوفة له حافة كالسرج على بعد خطوات من روتشين . توقف فاديم بيتروفيتش محدقا من تحت الاعشاب الكثيفة . وصفر صفيرا خافتا . كانت الاغصان تتكسر بخشخشة اشد وعلى مسافة اقرب تحت اقدام الطلاب العسكريين . همز الحصان من جديد ، ومر خلال الاحراش ، وشاهد الكوخ المتروك في فرجة صغيرة من الغابة كانت تقف بالقرب منه بضع عربات محلولة منها خيولها ، وتتناثر اسمال وخرق . لقد رحل الشقاة من هنا .

امسك فاديم بيتروفيتش قربينته في هيئة استعداد ، واخذ يدور حول الكوخ بحذر . وكان الكسي كراسيلنيكوف يتراجع امامه بحذر ايضا من ركن الى آخر ، وهو ينوي الاستيلاء على حصان هذا الفارس . تلفت روتشين ، وتوقف عند الحائط الجانبي . بينما وقف الكسي عند الحائط الامامي بنافذته المحطمة وبابه المخلوع . ولكي يقوم بكل شيء دون ان يحدث ضجة امسك بسكينه فقط بهيئة استعداد . وحينما خرج روتشين من وراء الركن ، هجم الكسي عليه

بسكينه الا ان روتشين استطاع ان يحمى نفسه بقربينته ، وثب الكسى الى الوراء فارتطم ظهره بحائط الكوخ بشدة . وسقط السكين . نظر الى فاديم بيتروفيتش ، وكأنه ينظر الى ميت يبعث حيا . وزعق زعيق الهول ، وركض منحنى القامة ، هازا ذراعيه بارتباك .

– الكسى !

صاح روتشين ، وجذب المقـــود وانطلق فى اثره . وصل الكسى الى شجرة ، والقى ذراعيه حولها فجأة ، وضغط وجهه على جذعها . وثب روتشين من على السرج ، وراح يطلق الرصاص فى تسديد مباشر تقريبا على ظهر الكسى العريض المهتز .

– كانت تعيش هنا ؟

– اها .

انحنـى روتشين ، وتخطى العتبة الى كوخ صغـير مائل ذى نافذة صغيرة واحدة واطئـــة جدا حتى ان الارقطيون فى الخارج كان يغطيها تماما . رأى روتشين دفاتر مصنوعة من ورق الحيطان وبعض الكتب موضوعة على منضدة صغيرة واطئة ايضا فى الضوء المخضوضر قرب النافذة . وكان احد الدفاتر مفتوحا وبالقرب منه محبرة وريشة . يعنى ان كاتيا لحقت فقط ان تهرب بنفسها . قرفص روتشين امام المنضدة . غطى الطفل الصغير فمه بيده خلسة واخذ يكبت ضحكة ، ويشير لروتشين بعينيه الى الموقد .

كان غراب قيظ صغير ذو عينين مستديرتين بلهاوين يجلس امام فتحة الموقد . ولعله سقط من المدخنة حيث كان عشه . ولما راى الغراب الانظـــار مصوبة نحوه قفز داخل الموقد خافقـــا بجناحيه ليعين نفسه . قال الطفل :

– انها اربعة غربان قيظ هناك . وساصطادها كلها ...

قلب فاديم بيتروفيتش الدفاتر الموضوعة على المائدة فوجد دفتر يوميات كاتيا المدرسية ، حيث كانت تسجل فيـه الدروس وبعض الحوادث المعينة . وكانت كل يومية تقريبا تنتهى بما يلى : «شاغب ايفان غافريكوف مرة اخرى ... » او «اقطـــع على نفسى عهدا بالا اكلم ايفان غافريكوف ثلاث ايـام ...» او «مرة اخرى

سار ايفان غافريكوف على حافة السطح ليخيف البنات . انـــا فى يأس تام ...»

سأل روتشين :

– من ايفان غافريكوف هذا ؟

– انا .

– ولماذا تشاغب ، وتزعج يكاترينا دميتريفنا ؟

زفر ايفان غافريكوف زفرة عميقة ، واكتست عيناه الزرقاوان براءة تامة .

– يحصل ... انـا مجتهد فى الدراسة ... انظر فى دفاتر الخط للبنات : خربشة . وهذا هو دفترى . ستندهش . وانا اعرف جدول الضرب كله . هل تريد ان تسأل ؟

وقلص عينيه بكل قوته .

– اصدق بك .

جلس فاديـم بيتروفيتش على الارض وقد طوى رجليـــه ، وواصل تقليب دفتر اليوميات . فلم يعثر فيه على كلمة عن كاتيا . ولكنه احس وكأن شباب كاتيا الدائم ورقتها النقية الواثقة بالآخرين ينهضان من كل صفحة فيه ، وتراءت له يداها بعروقهـا الخفيفة الزرقة ، وعيناها الدافئتان الصافيتان ...

قال ايفان غافريكوف :

– تسعة فى تسعة تساوى واحدا وثمانين . أليس صحيحا ؟

– شاطر ، شاطر ... اسمع ، الم تقل لك الى اين سافرت ؟

– الى كييف .

– ربما تكذب ؟

– وما حاجتى الى الكذب ؟

– قد تكون لديها رسائل ودفاتر اخرى مخبأة فى مكان ما ، الا تعرف ؟

– كل شيء هنا ... سآخذ هذه الى البيت الآن ، طلبت منى ان احرص علـى الدفاتر ، والا فان الفلاحين سيلفون باوراقهـــا سيكائرهم .

قرأ روتشين فى صفحة الدفتر الاخيرة :

« ... لا ادرى لماذا انا مؤمنة بانك حية ، وستلتقـى يوما

ما . . . تصوري انني خرجت من ليل طويـل طويـل . . . واود ان احدثك عن عالمي الصغير الذي اعيش فيه . توقظني الطيور وراء النافذة . فاذهب الى الجدول للاستحمام . ثم في طريق العودة اشرب الحليب عند العمة اغافيا . صرت مدينة لها بروبل وستين كوبيكا ، ولكنها ستنتظر . ثم يتوافد الاطفال ، وندرس . ولا شيء يعيقنا ، وليست لنا اية هموم . تبين ان الانسان لا يحتاج ابدا الى ما كان يبدو لنا ضروريا ، ولم نستطع العيش بدونـه . اشعر بالخجل الشديد حين اقول انني احس وكانني قـد عدت الى السابعـة عشرة . وانا اعرف ، يا داشنكا ، انك تفهمين ما اريد ان اقول . . . يضايقـني فقط بعض الاحيان الصبي العزيز على ايفان غافريكوف . . . انـه فريد في . . . »

والقطعت الرسالـة عند هذا الحد لنفـاد الفراغ في الدفتر . جذب فاديـم بيتروفيتش الصبـي ايفان غافريكوف ، وحصره بين ركبتيه :

– ها !ماذا تريد ان اهدي لك ؟

– طلقة .

– لا توجد عندي خرطوشة فارغة . . .

– اطلق رصاصة ، لنخرج الى الفناء .

نهض فاديم بيتروفيتش من الارض ، واطبق الدفتر ، واخذ يحشره وراء قميصه .

– ساآخذ هذا الدفتر ، يا ايفان .

– لا ، ستوبخني .

– سارى العمة اغافيا قريبا ، واخبرها بانني اخذتـه . . . لنخرج الى الفناء لاطلق . . .

١٨

كانت الشمس في الهواء الساكن تشوي شوارع تساريتسين المقفرة ، حيث كانت اكوام القاذورات تتكدس عند مداخل البيوت بابوابها المفتوحة على مصراعيها . كان اهل المدينة مختبئين . وعلى منحدرات الفولغا فقط كانت العربات المثقلة بالممتلكات الحكومية

وارشيفات المؤسسات تندفع بضجيج . لقد كانت المدينة تعيش ساعاتها الاخيرة . وفي مشارفها كان الجيش العاشر الذي استنزف كثيرا بعد ماليتش لا يكاد يصمد لضغط جيش شمال القفقاس الحديث التشكيل بقيادة الجنرال فرانغل .

كانت محطة التلفونات ما تزال تعمل ، ولكن المدينة اضحت بلا ماء ولا كهرباء . وتوقفت المصانع . وفك كل ما يمكن ان يؤخذ منها وخلع وجمع وحمل الى رصيـف النهر . ولم يبـق في المناطق العمالية غير الاطفال والشيوخ . فلم تكن بروليتاريا تساريتسين التي تحملت ضحايا فادحة في الدفاع عن المدينة خلال الشهور العشرة الاخيرة تنتظر رافة من البيض . فمن كان ما يزال ذا مقدرة انخرط في الجيش ليقـاتل والآخرون سافروا على سطوح العربات وعلى ظهور السفن وبطونها . وكان الناس يرحلون شمالا الى مكان ما . وكانت مستودعات الاخشاب على ضفة الفولغـا تحترق ، وهدير المدافع يشتد ويقترب اكثر فاكثر .

كانت كل حياة المدينـة تتركز في محطات القطار وارصفـة النهر . وامتلأ شاطىء الفولغا بالاكياس والصناديق وقطع الآلات والمخارط ، وكان مئات الناس المتصببين عرقا يقلبون هذه الاشياء في صياح وسباب ، ويجرونها على خشبات الصعود الى السفن . وكان آلاف الناس يقفون بانتظـار الصعود الى السفن في صفوف كثيفة او يستلقون صامتين جياعا يحدقون خلال الغبار الساكن الى الماء المزيت الملتمع في اشعة الشمس . وكانت الفولغا العريضة في نهاية حزيران قد ضحلت حتى ان الجرف الرملي في الضفة الاخرى قد اقترب الى حد لا مثيل لـه ، فكان الناس يخوضون فيه عـراة ويسبحون فيه . كما كانوا يسبحون في هذه الضفة ايضا في الماء الفاتر بين المباني على الشاطىء ، ووسط النفايات العائمة ، ولكن حتى من صوب النهر لم تهب طراوة .

كانت المراكب المسلوخة القذرة ترسو على الارصفة واحدا تلو الآخر ، وكانت ترتفع منها صيحات هاذيـة . كانت سطوح المراكب غاصة بالنازحين ومقاتلـي الجيش الاحمر الاحياء وسط الجثث ، والمصابين بالتيفوس المتوجعين المتمشين الهاذين . كانت عشرات المراكب والمقطورات تحتك بعضهـا ببعض وهي تنتظر

التفريغ والشحن ، وتصفر صفيرا مبحوحا . وقد جاءت جميعا من الجنوب ، من استراخان وتشورني يار .

كان رجال الاسعاف الملطخون ببقع الكلس يركضون على ظهور المراكب ، ويتخطون عبر المرضى الراقدين ، ويرفعون جثث الموتى ، ويلقونها على الشاطئ ليوفروا مكانا للاحياء . كان الكلس يتناثر ، وحامض الكاربوليك يرش . وقد صدرت الاوامر بوضع الجثث في اكشاك بيع المرطبات والكفاس * . وبدأت الجثث تنتفخ من الحر ، وتشققت السقائف الخشبية المقامة على عجل ، ورائحة النتانة الخانقة بشكل خاص كانت تحمل الناس على مغادرة شاطئ تساريتسين . وكانت طائرات فرانغل تطير فوق المدينة كالظلال من خلال نقاب الغبار . وكانت تلقي قنابلها على النهر .

كان الناس يتسللون عبر نقاط حراسة الرصيف ، وزكائبهم تعلق بحراب الجنود الحمر ، ويهرعون الى ظهور المراكب . وكانت الصناديق والزكائب تتطاير الى هناك مقرقعة . فكان المركب يثقل حتى يصل الماء الى مقربة من حاجزه .

بين هذا الجمع كانت عربة تقف على الشاطئ بالقرب من خشبات الصعود تماما وقد استلقت فيها انيسيا وداشا . وقد جلبهما كوزما كوزميتش من الجبهة بموجب امر صارم لآمر الفوج بان تجلى المراتان لا عن طريق السكة الحديد ، بل في سفينة قطعا ، ولو كلفه ذلك حياته . قال تليغين له :

— يا رفيق نفيدوق ، انك لم تقم قط بمهمة اكثر مسؤولية . انزلهما في مكان الارساء ، واعتن بهما قدر وسعك . اسرق او اقتل ، ولكن عليك ان تطعمهما جيدا . . . ستكون مسؤولا عن حياتهما . . . .

كانت المراتان مستلقيتين في العربة على القش تغطيهما الخرق ، مثل هيكلين . وكانت انيسيا قد عادت الى وعيها ، ولكنها كانت واهنة بحيث لا تستطيع ان تفتح فمها . فكان كوزما كوزميتش يضطر الى ان يباعد بين صفي اسنانها باصبعه ليجعلها تشرب الماء الدافئ من زجاجة . وكانت داشا التي اصيبت بالتيفوس بعد انيسيا تهذي متمتمة دون انقطاع بصوت خافت غاضب .

---

* مشروب شعبي روسي غير كحولي . (المترجم) .

مرت عدة مراكب دون ان يستطيع كوزما كوزميتش ركوبها . توسل والدموع في عينيه ، ولجأ الى مختلف الحيل ، طالبا من الناس مساعدته في حمل المراتين الى ظهر المركب ، ولكنهم في ذلك الوضع الصعب لم يكلفوا انفسهم حتى الاستماع اليه . اتكأ على العربة ، وحدق بعينين ملتهبتين في ذلك السراب ، في انعكاسات الشمس المحمرة من خلال الغبار على النهر الدافئ الوغر ، والى المراكب الصافرة بنفاد صبر محملة بالجثث . وترامى من جديد هدير المحركات المتوعد ، واثارت القنابل التراب في هذه المرة على مسافة قريبة ، وغطى الغبار الشاطئ كله . القى الكثيرون انفسهم في الفولغا ، وسبحوا الى مركب مقبل صائحين : «القوا الحبال . . . » الا ان الحبال لم تلق لهم ، فظلت الرؤوس تحوم طويلا قرب المركب مثل بطيخ اسود .

والآن لم يبق الا المركب الاخير تقريبا ، وهو مقطورة صفراء واطئة ذات مراوح الدواليب المعوجة . لم تتجه نحو رصيف الرسو ، بل بالقرب منه ، الى رصيف خال من الناس . ادار كوزما كوزميتش العربة على الرمل العميق ، وكان الاول في الوصول الى الرصيف عدوا وركض عليه ملوحا بذراعيه باستماتة :

— هاي ، يا قبطان ، يا رفيق — صاح بعجوز مربد الهيئة من العهد القديم كان يقف على قنطرة القبطان — معي زوجة قائد الجبهة واخته لاجلو بهما ، والتهاون في الموضوع يعرضك للرمي ، ارسل لي اثنين من البحارة ليحملا المراتين الى المقطورة . . .

وترك وجهه المنفعل وكلماته الحاسمة مفعولها . تخطى وقاد جهم قذر عار الى النصف حاجز المقطورة ، ونزل الى خشبة الصعود . كان يرتدي بنطلونا مهلهلا :

— اين هما ؟

— لا تستطيع حملهما وحدك ، يا رفيق .

— وكيف لا . . .

تقدم الوقاد من العربة ، والقى نظرة الى المراتين الراقدتين ، واشار الى انيسيا :

— اهذه زوجة قائد الجبهة ؟

— نعم ، هى . . . واذا حصل لها مكروه عوقب الجميع بالرمى . . .

قال الوقاد هادئا :

—لا تحاول ان تغشنى ، انها طباختنا انيسيا .

— ربما فقدت عقلك ، يا رفيق . . اية طباخة هى ! . . .

— لا تصرخ بى يا مغفل .

واخرج انيسيا بسهولة من العربة ، والقاها على كتفه ، وعدل وضعها .

— ساعدنى فى اخذ هذه ايضا . . .

حمل كلتا المرأتين بين ذراعيه ، وسار الى المقطورة . انعكفت الالواح تحت ثقله حتى مست الماء .

سحب كوزما كوزميتش وراءه كيس الخبز وشحم الخنزير المقدد ، وحقيبة الادوية وهو فى غاية الرضا . . . .

فى صباح الثالث من تموز اخرج ستيبان الكسيبيفيتش ، وهو معلم مدرسة ، من مطبخ السرداب الى الفناء الصغير حشايا ووسائد ومقاعد وثيــرة مفروشة بقماشــة خضراء ، ورزمــا من الكتب والمخطوطات . وحمل وهو يترنح اضمامة ملء ذراعيه من البناطيل والسترة المتربة والتنورات والفساتين الصوفية ، والقى كل حمله على الارض ، وفتح فمه ماسحا سيول العرق بكمـــه . كان مبللا بالعرق بكليته : شعره الاصفر ولحيتــه ، وبنطلونــه من قماش القنب ، وقميصه المتسخ ، المتلصق مع حمالة البنطلون بدفتى كتفيه المكورتين .

كانت امه المترهلة المرتدية ثوبا اسود تضرب سجادة بعصا وهى جالسة على كرسى من الخيزران واخته المشلولة ذات الجبين البارز بحيث يبدو سائر وجهها صغيرا منكمشا تستلقى متنعمة فى كرسى على عجلات فى ظل شجرة الاقاسيا ، وكان الحر شديدا حتى ان العصافير نفسها كانت تفتح مناقيرها .

قال ستيبان الكسيبيفيتش :

— ماما ، هذا كل شىء ، على ما يبدو . ولن استطيع اكثر

من ذلك ! يا الهى ، كم سادفع الآن لقاء قدح من البيرة المثلجة !

— يا ستيبان ، ليست عندنا قطرة من الماء . يتعين عليك يا عزيزى ، ان تتناول الجردل وتذهب لملئه .

— مستحيل ، يا ماما ! الا يمكن الاستغناء عن ذلك ؟ اها ! تلك هى اللعنة حقا !

ووقع ستيبان الكسيبيفيتش فى يأس حاد . ان جلب الماء يعنى النزول الى شاطئ الفولغا ، حيث مــا تزال اكوام الرماد والجثث المحروقة التى احرقت فى اكشاك المرطبات والكفاس ، ويعنى الدخول فى النهر الى الصدر ليصل الى ماء انظف ، واغتراف جردل من الماء ، وحملــه على المرتفــع خلال الرمــل السميك فى هذا الحــر الجهنمى .

— لو استخدمنا احدا من الناس لدفعت ، على ما يبدو عشرة روبلات على الجردل الواحد . ان قلبى الحن ، حسب ما اظن . . .

— افعل ما تراه صائبا . . .

— نعم ، ولكنك ، يا ماما ، تفضلــين ان اجهــد نفسى بهذه الجرادل . . . .

لم تجب الام ، وتابعت ضرباتها الضعيفة على السجادة . اخذ ستيبان الكسيبيفيتش يتنفس بعسر ، وهو ينظر الى وجهها الممتلئ المخطط بخطوط العرق . سال خافت الصوت :

— اين الجردل ؟ اين جردلك هذا ؟

صرخ بالجملة الثانية بصوت قبيح ، حتى ان اخته المريضة قالت متضرعة وهى فى مكانها تحت الاقاسيا :

— لا حاجة ، يا ستيبان .

— لا ، لازم ، لازم ! ساجلب لكمــا الماء ، وساجلب لكمــا القصريات! وحتى آخر حياتى ساعمل مثل البغل الذى يجر عربة الماء! وليذهب الى الشيطان مستقبلى ، وتدرجى فى الحياة ، واطروحتى ! كل شىء قد انتهى وتحطم ! فراغ مقمل ، جثث محروقة ، مقبرة ! . . . لا ديتيكين ولا غيره يستطيع ان يبعث شيئا ! . . .

واخذ يفرقع اصابعه المبللة بالعرق ، كما فعل ذات مرة امام داشا . وعزم ان يتخلص من جردل الماء بطريقة او باخرى . وفجأة دق جرس برج الكاتدرالية الكبير رنانا بعد صمت دام اكثر من عام .

دق ، وسرى فوق المدينـــة المهجورة صوت متهلل مهدئ لكـل المخاوف . وتوقف ستيبان الكسيبيفيتش في منتصف الجملة ، ورف هدوء مفاجئ على وجهه الناحل المرتعش ، بل لاح عليه قليل من البله بسبب إبتسامته . قالت الأم :

– ستيبان ، على اية حال ينبغي عليك ارتداء اللباس الجيد والذهاب لحضور القداس ايضا .

– انه لا يؤمن ، ملحد يا ماما .

قالت الاخت الجالسة تحت الاقاسيا بحنق خافت .

– وليكن . على الاقـــل ليتظاهـــر ، فلا يحسبوننـــا من الحمر .

صاح ستيبان الكســيبيفيتش بنكد :

– ما هذا الكلام ، يا ماما ؟ ما كدنا نتحرر من مسرات البلاشفة حتى اخذت تدفعينني الى مستنقع البرجوازية الصغيرة . . تماما ، بالضبط ! – وكشر باتجاه الاقاسيا ، حيث كانت الاخت تغمض عينيها لكيلا تسمعه . وتابع قوله : – من يعتبرني احمر ؟ اصحابك آل شافيردوف ، وبريس . . . السوقة ، التافهون . . . يا الهي ، ان النزول الى مستواهم يعني الشطب على نفسك ذاتها ! لم تكن لنا حاجة اذن الى التعلم والتفكير والتمني ! انا اكره البلاشفة ، لا لانهم حصروني في السرداب ، ولا لانهم اخذوا جميع الفحم من محطة اسالة الماء ، بل لانهم داسوا على حريتي الذاتية . . . انا احب التفكير كما يملي ضميري ، عبقريتي . وانا احب قراءة الكتب التي تلهمني ، ولكن لا احب ان اقرأ كارل ماركس ، ولو كان على حق الف مرة . . . انا هو انا ! . . . وبنفس القدر تماما لن اقبل ، يا امي ويا اختي ، بد صاحبكما ديتيكين . . . لنفس الاعتبارات تماما . . .

وبعد ان قال ستيبان الكسيبيفيتش كل ذلك بإيماءات قوية جدا في شمس حرارتها اربعون درجة مئوية ، قام بلا ترابط كلي ايضا بسحب سترة طويلة وبنطلونا من كومة الملابس ، ونزل الى السرداب . وظهر بعد نصف ساعة في ملابسه الكاملـة وفي قميص منشى ماسكا بيده قبعة رسمية وعصا . وبعد ذلك لم ينطق احد في الفناء بكلمة واحدة . خرج ستيبان الكسيبيفيتش الى الشارع وسار في الجانب الظليل الى ساحة الكاتدرائية .

كانت اشجار الاقاسيا الواطئة حول الكاتدرائية رمادية من الغبار ، وقد جلس تحتها بعض الاشخاص في ثياب مهلهلة . نظر احدهم الى المعلم اثناء مروره نظرة دعابية مصعدا بصره من الاسفل ليتفرس في عينيه .

وقال بصوت عميق واضح :

– الوجه المدهش يزهو بعدد من التغيرات السحرية .

وراء السياج كانت كوكبة من الخيالة القوزاق تقف مترجلة في قمصان كاكية ، بينما استلقت على العشب المسفوع حظيرة من طلاب المدارس العسكرية في بزة الاستعراض التامة ، والمعاطف على الاكتاف ، والقصعات والارفاش مقربة . . . وكان جمع من المدنيين يقف على درجات الكاتدرائية . وقع بصر ستيبان الكسيبيفيتش على تاجر الخردوات شافيردوف المجامـل المتنمـــق في قميص روسي مطرز ، ومعه زوجتـه وطفلاه ، وعلى بريس وهو صاحب مطبعـة صغيرة ضئيل الجسم مهمل الهندام كثير الحركة ، يهودي متنصر ، ومعه زوجته واطفاله الستـة . احنى ستيبان الكسيبيفيتش راسـه لهما بلا اهتمام ، ودخل الكاتدرائية الطرية الهواء ، وجعلوه يمر دون اعاقة لسترته الرسمية بل وتنحى بعضهم ليفسح له الطريق .

على الرغم من ان اثار الاهمال ما زالت تلوح على الكاتدرائية (في عهد البلاشفة استخدمت مستودعا للاطعمـــة) فقد كان زجاج النوافذ الضخمـة مهشما ، وبقيت على الجدران المسلوخة كتابات من مثل «٩٤ كيس بطاطس . . . المتسلم (غير مقروء)» الا ان لألاء الشموع العديدة على منصة الايقونات المذهبة ، والبخور المتصاعد الى القبة ، وترديدات الشماس المتداح صداها كزئير الوحش تحت عقود السقف ، واصوات الجوقة الطفولية الخالية من الحرارة ، كل ذلك قد ترك خليطا من الانطباعات في نفس ستيبان الكسيبيفيتش ، فقد احس بالمهابة على مألوف العادة وفي نفس الوقت وبحكم العادة ايضا عانى من الشعور بالضعة ، فان ذيل المثقف البارز باستقلال ذات قد انكمش بين رجليه من تلقاء نفسه .

الى الامام ، كان الرؤساء العظام ، اصحـاب السطوة يقفون ووجوههـم الى المحراب : عشرة جنرالات قصار وطوال ، ممتلئون ونحاف ، في قمصان عسكريـة ناصعة البياض ، وكتافيات ذهبية

وفضية عريضة ناعمة . وكان كل واحد منهم يمسك قبعته بيده اليسرى المطوية ، ويمسح بثلاث اصابع يده اليمنى على صدره مع ترديد الشماس : «لنصل للرب !» . وفي المقدمة ، وعلى بساط مفصول وقف جنرال متوسط القامة في قميص كاكي فضفاض ، وبنطلون طويل ذات شريط في موضع الدرز . كان شعره نصف الاشيب الممشط الى الخلف يبدو محكوكا عند القفا . وكان يرفع يده الصغيرة المثلثة الشديدة البياض مرات اقل بكثير من الجنرالات الآخرين ، ويرسم علامة الصليب عريضة بطيئة ، واضعا اضمامة اصبعيه وسبابته بقوة على غضون جبينه المنحدر قليلا .

وعرف ستيبان الكسييفيتش انه دينيكين . تفحصه بنهم ، دون ان يرفع عن شفتيه الدقيقتين ابتسامة التشكك اللاذع ، ولكن عن غير وعي تماما في هذه المرة . كان احد الضباط يراقبه باهتمام ، وقد انسل مقتربا ووقف الى جانبه . كان ستيبان الكسييفيتش منغمرا باحساساته المتناقضة . وقد جذبته بشكل خاص يد دينيكين البيضاء تلك ، ومن لا يعرف يدى الجنرال ، ورخاوتهما المتباطئة بشكل خاص . والمرء مهما حاول لن يستطيع ان يجعل ليده هذه الاهمية الفريدة ، وهذه المحاولات غير المجدية تجعل يد الجنرال مضحكة ، ولا سيما حين يمدها الرئيس اليه متلطفا لتصافحها ، او حين يعطي اهمية لاصابعه الرخوة الشبيهة بالسجق ، وهو يوزع الورق على اللاعبين ، او حين يحشر الفوطة وراء ياقته . كل ذلك لا يقبل النقاش . ولكن يد دينيكين البيضاء امسكت بخناق التاريخ نفسه ، وحركتها ترسل الجيوش مندفعة الى المعركة الدامية .

وانفعل ستيبان الكسييفيتش انفعالا شديدا بهذه الافكار حتى لم يلحظ كيف انتهى القداس ، وصعد الى المنبر قسيس قصير القامة يضع نظارة ، واخذ يتكلم ، وهو ينظر الى دينيكين :

– ان الامر التاريخي لزعيمنا المحبوب القائد العام للقوات البيضاء لجنوب روسيا ، الفريق انتون ايفانوفيتش دينيكين قد طبع باحرف من نور في قلب كل ارثدوكسي . والقائد العام يبدأ امره بالكلمات التالية : «بالنظر لان هدفي الاخير هو الاستيلاء على موسكو ، قلب روسيا ، فانني آمر ببدء الهجوم العام في هذا اليوم ، الثالث من تموز ...» ايها السادة ، ان ذلك وكان السماء انشقت

فوقنا ، وصوت القديس ميخائيل يدعو عسكره الابيض الطاهر ...

احس ستيبان الكسييفيتش بدغدغة في داخل انفه ، وصدره يعلو ويهبط بسرعة تحت القميص المنشى المبلل ، واستولى عليه الانشراح . ورأى دينيكين يرفع كفه الى جبينه ببطء . وادرك ستيبان الكسييفيتش فجأة انه يجب ان يقبل تلك اليد ... وبعد بضع دقائق حين كان دينيكين اول من قبل الصليب ، وسار على الممر المفروش ببساط بسيطا ذا لحية رمادية مشذبة مثل شيخ لطيف ، غمرت النشوة ستيبان الكسييفيتش فتقدم منه مندفعا . تراجع دينيكين ، وحجب بيده وجهه الذي تلوى بتقطيبة بائسة . وهرع الجنرالات لحجبه في الحال . وامسك شخص ستيبان الكسييفيتش بمرفقيه من الخلف ، وجذبه الى الاسفل بقوة شديدة حتى انحنت ركبتاه :

– اسمعوا ، كنت اريد ...

قلب الضابط الذي امسكه عينيه في وجهه :

– كيف جئت الى هنا ؟

– اردت ان اقبل يده فقط ...

– اين اذن الدخول ؟

وواصل الضابط دفع ستيبان الكسييفيتش نحو الجمهور دون ان يطلق قبضتيه عنه . وبالقرب من باب الخروج الجانبي دعا الضابط بهزة من راسه طالبين فتيين من طلبة المدرسة العسكرية يحملان بندقيتين :

– خذا هذا الى آمرية الموقع ...

«كما ترى ، ايها العزيز المبجل ايفان ايليتش ، اننا وصلنا الى كوستروما نفسها . ولم اجازف ان انزل في الطريق في اى مكان ، وحتى ليشني نوفغورود لم تبد لي مكانا مأمونا من ناحية الحوادث الطارئة الحربية . فنزلنا في ضاحية من كوستروما ، في بيت خشبي على الفولغا في حديقته الغبراء واشجار الحور ، وكل شيء كما يجب ... والبلدة صغيرة طليقة تقع على تلال مثل روما ، تجدها ساكنة ونائية وهذا ما نحتاجه فعلا .

داريا ديميتريفنا تتماثل للشفاء ، ولو ببطء ، وهى ما تزال ضعيفة جدا ، وانا احملها كالطفل الصغير من السرير واخرج بها الى الفناء . وشهيتها ، على ما يبدو ، مثل شهية الذئب ، رغم انها لا تستطيع الكلام ، ولكنها عندما تريد ان تأكل تشير بعينيها . . . ولم يبق فيها غير عينيها ، على ما اعتقد – وجهها صغير كقبضة اليد ، وغالبا ما تبكى من الضعف– بلا صوت سوى الدموع تسيل على خديها . ظلت ثلاثة اسابيع تقريبا فى حالة هذيان واغماء ، طوال رحلتنا على الفولغا . وكان هذيانها مضطربا موجعا ، وروحها تصارع بلا انقطاع اشباح الماضى . هناك كنز ما ، جواهر او شىء من هذا القبيل حصلت عليه بعد جريمة مزعومة ، قد لعب دورا كبيرا فى هذيانها ، مهما بدا ذلك غريبا . وكان كل الهذيان يتلخص فى ان داريا ديميتريفنا كانت تتحدث بصوتين : احدهما كان يدين ، والآخر كان يبرر ، وهو صوت نحيل مولول . وما كنت اكتب لك عن ذلك لولا اكتشاف عرضى غير اعتيادى . . .

لقد انتابنى الجزع والذعر غير مرة ، وانا اراعى بثبات الامر الذى اصدرته باطعام مريضتينا جيدا ، وقد جعلت ذلك مهمتى الاساسية . ان الزمن عصيب . والناس اما يفكرون بمذاهب كبيرة ، ويحسون بمشاعر لا تقل عن الكرة الارضية رحابة ، واما يخلصون جلودهم بكلبية عارية . وكلتا الحالتين تفتقران الى الرحمة الحياتية : هناك من تستطيع ان تجذبه ، وهناك من تستطيع ان تخيفه . ولكنك غالبا ما تفشل فى تليين القلوب والتماس عشرة ارطال من الخبز بدموع الجوع وحدها .

بادلت كل التوافه الزائدة مما اخذناها معنا بالخبز والبيض والسمك . وكم من مرة وقعت فى اغواء بيع معطف داريا ديميتريفنا السميك الذى هربت فيه من سامارا فى الخريف . ولكننى امسكت نفسى ، لا بسبب الادراك السليم ، وانا انظر الى الخريف ، بل لان هذا المعطف قد شهد دائما فى هذيان داريا ديميتريفنا كتهم غير مفهوم لى . ومعنى ذلك اننى اضطررت الى اللجوء الى الحيل ، الى خداع النفوس الميالة الى التصديق ، والى السرقة المحضة . ومرة اخرى تعلمت قراءة الكف . اصادف امرأة ريفية على رصيف النهر تحمل كيسا فاثرثر معها وابحث عن نقطة ضعف . وهى موجودة دائما ، فان

لتجربة الحياة شأن كبير . وادير الحديث حول عدو المسيح ، والناس فى الفولغا يتحدثون عنه كثيرا الآن ، ولا سيما الى الشمال من قازان . وهل تحتاج الى الشىء الكثير لتخيف امرأة بلهاء ؟ لا احتاج الا لان انال ثقتها ، حتى يكون نصف كيسها لى . . .

يوم امس فقط ، فى صباح الاحد انشغلت فى توضيب ملابس داريا ديميتريفنا . يبدو اننى فى كوستروما الشخص الوحيد الذى يملك بكرة خيوط كبيرة ، وهو امر لا يستهان به ، حتى ان الناس يجيئون الينا ليخيطوا زرا فى بنطلون او ليرقعوا . . . وانا آخذ على ذلك مختلف المأكولات دون خجل . كنت جالسا على مدخل البيت ، وقد نشرت معطف داريا ديميتريفنا ، وبطانته من الفانيلة المربعة كما تعرف ، على ما اظن . فيدور فى ذهنى : اخلع البطانة ، واصنع منها تنورة رائعة . فان تنورتها القديمة مهلهلة كالمنخال . . . والبطانة الجديدة اصنعها من قماش آخر . وسحرتنى هذه الفكرة فسألت انيسيا كونستنتينوفنا ، فقالت هى ايضا «ستكون تنورة جيدة ، فاخلعها . . .» فاخذت اخلع البطانة ، فاذا بالجواهر تندلع من هناك ، قيمة كبيرة ، اربعة وثلاثين حجرا . . . وهكذا فان الهذيان تحول الى حقيقة ! وفى نفس اليوم عرضت الجواهر على داريا ديميتريفنا ، وفجأة اراها تتذكر ! ظهر فى عينيها استعطاف وفزع ، وعلى شفتيها شىء تريد ان تقوله . . . لقد نسيت الكلام . . . انحنيت الى شفتيها المتقعتين ، فتمتمت بالكلمة الاولى خلال مرضها كله «ارمها ، ارمها . . . » .

انا بدون اشارتك ، يا ايفان ايليتش ، لا اجرؤ على ان افعل شيئا . لا ادرى من اين لها هذا الكنز ولماذا يبدو كريها لها بهذا الشكل . وانا لا اعرف كيف اتصرف ؛ فانا اخاف من الاحتفاظ به فى البيت ، واعتبر رميه امرا غير معقول . حلفت لداريا ديميتريفنا باننى ركبت زورقا ، وسبحت لمنتصف الفولغا ، والقيت الجواهر فيها . فهدأت فى الحال ، ولاح لمعان فى عينيها ، وكأنها تخلصت اخيرا من شىء لزج .

اعذرنى ، يا ايفان ايليتش ، على كتابتى لك عن كل شىء بمثل هذا الاسهاب . ولكننى دائما كثير الكلام ثرثارا . اعلمنا بطريقة من الطرق عن صحتكم ، وهل تقضى الشتاء هنا ، فى كوستروما ، ام تسافر

الى موسكو ؟ وانا باق على عهدى مخلصا الى آخر العمر لك ولداريا ديميتريفنا . كوزما نيفيدوف ...»

– جلبت البريـــد معى – قـــال سابوجكـــوف ، وصعـد الى العربة المصنوعة من الاغصان المضفورة واتخذ مجلسه على القش الى جانب تليغين قائلا – اعتزك ، يا ايفان .

– كل ذلك محزن ، يا سيرغى سيرغييفيتش . لو كان الامر بارادتى لبقيت آمر فوج كوتشاليين ، اناس جدد ، وهموم جديدة ، وليس ذلك كله فى ميسورى .

– لماذا تجعل من نفسك عجوزا ؟

– سينتهى ذلك ، تعبان بعض الشىء ...

راح الحصانان يعدوان على الطريق الريفية ، كان جانبا العربة المضفوران يهتزان ، والى اليسار تلوح غابة بلوط والى اليمين ، فى حقل محصود كانت اكوام الحصاد المتصالبة لا تكاد تلوح فى الغسق ، وفى الجو رائحة قش القمح . وكانت نجوم المسطس تطلع .

– من سيكون رئيس الاركان فى لوائك ؟

– سيعينون شخصا ما .

انحرفت الطريق اقرب الى الغابة حيث كانت تهب رطوبة خفيفة ، وبدا الحصانان يحمحمان . سأل تليغين :

– لا توجد رسالة لى ، بالطبع ؟

– اوه ، اعذرنى ، يا ايفان . لك رسالة .

كان ايفان ايليتش يجلس محنى الظهر متعبا غافيا ، وفجاة دفع جسمه الى الامام :

– اوه ، يا سيرغى سيرغييفيتش ! اين هى ؟

نبش سابوجكوف فى حقيبته وقتا طويلا . اوقفا الحصانين ، واشعلا اعواد الثقاب فهست وانقدحت . اخذ تليغين الرسالة ، وكانت من كوزما كوزميتش ، فقلبها باصابعه . قال سابوجكوف همسا :

– سميكة . كتابة كثيرة .

سأل تليغين همسا ايضا :

– وماذا فى ذلك ؟ أهو شىء سيئ ؟

وقفز من العربة ، وسار الى حافة الغابة ، واخذ يكسر العساليج بعجالة ، واشعل عود ثقاب ، ونفخ فى العساليج .

– خذ حزمة من القش ، وستشتعل فى الحال .

وحمل سابوجكوف اليه حزمة من قش القمح راكضا ، وابتعد عنه . واشتعلت حزمة القش على الفور . قرفص تليغين وراح يقرأ الرسالة . راقبه سابوجكوف يقرأ ، ويمسح عينيه بكمه ، ثم يعود للقراءة ثانية . القضية واضحة ، اذن . نشق سابوجكوف من انفه ، وصعد الى العربة ، واشعل سيكارة . كان العجوز الجالس على مقعد السائق يريد ان يعود الى البيت باسرع وقت فقال :

– اخشى ان تتاخر على القطار ، والطريق بعد هذا سيكون رمليا بحتا ، ثم علينا ان نعثر على مكان نخوض فيه ... نحن نضيع الوقت ...

لم يعد سابوجكوف ينظر الى تليغين ، حين تقدم من العربة ، ومالت العربة بثقله حين تسلق عليها ، وحط على القش . انطلق الحصانان عدوا . كان درب المجرة يمتد فوق راس سابوجكوف على مسافة ثلاثة ملايين سنة ضوئية . قرقعت العجلة الخلفية المتراخية ، الا ان العجوز السائق لم يعر لها التفاتا ، فلتتكسر اذا كتب لها ان تتكسر . فما فى اليد حيلة ...

قال تليغين بصوت مكتوم :

– ما اعظم قوة نفسها ... صراع دائم من اجل اعادة القوى ، من اجل النقاوة ، والكمال ... انا مندهل تماما ...

– هل هى حية ؟

– اجل ، وما تظن ؟ انها فى كوستروما ، وتتماثل للشفاء ...

التفت سيرغى سابوجكوف نحوه بقوة ، وضحك الاثنان . دفعه سابوجكوف بقبضته فدفعه تليغين ايضا . ثم قص عليـــه محتوى الرسالة بالتفصيل ، تاركا قضية الجواهر فقط . انها نفس الجواهر التى كتبت لابيها عنها فى الصيف الماضى ، حين كانت تصارع من اجل الحياة بصورة سافرة ومحطمة نفسها فى الوقت ذاته . والظاهر ان داشا فى ايام حيرتها تلك خاطت الجواهر فى المعطف . ولم تذكرها مرة واحدة لايفان ايليتش . ومن الواضح انها قد نستها وليس هذا بغريب عنها . نستها ثم تذكرتها فى حالة هذيانها ، وقولها «ارمها ، ارمها»

جعل القاسى تليغين تحتبس . . . بالطبع هناك الكثير من الغموض يكتنف هذه القضية ، ولكنه لم يحاول قط ان يتوغل فى فهم داشا الى النهاية .

– هناك شيئا واحدا واضحا لى ، يا سيرغى سيرغييفيتش ، هو ان اكون اهلا لحب امراة مثل داشا ، مثلا ، انه مكسب كبير فى الحياة .

– نعم ، اسعدك الحظة كثيرا ، كنت اقول ذلك دائما . .

– آه ، كم يجب ان يرتفع الانسان دائما ، يا سيرغى سيرغييفيتش ! وقد يسقط . . وانت ايضا امن المحتمل ان تسقط ؟

– فضيق شىء آخر . . .

– أمن المعقول انك لا تتحرق دائما الى العثور على امراة مثل داشاى ؟

– النساء لا يلعبن مثل هذا الدور فى حياتى . . . انا انظر الى هذه الاشياء ابسط بكثير . . . دون متاعب . . . .

– كفاك حديثا معادا ! انا اعرفك . . . . سيرغى سيرغييفيتش ، حياتنا شامخة : النصر او الموت ، وكل شىء منحصر فى ذلك . ولحن مديرو امورنا ، بل ونحن نحيا بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ! وفى العلاقة مع النساء يجب ان تبعد كل الصغائر . . . ويجب الحرص على الحب . . . وكن على يقظة دائما ! هل جربت ان تحدق فى عينين محبتين ؟ تلك اعجوبة الحياة . . .

لم يجب سيرغى سيرغييفيتش . وبالتدريج انسرحت طاقيته الى قفاه كليا . ومرة اخرى نظر الى درب المجرة . وقال :

– فى مكان ما فى ذلك الجانب هناك ثغرة فى الكون . مكان اسود بلا نجوم ، له شكل راس حصان . . . وهو فى الصورة الفوتوغرافية مخيف جدا . وسيأتى زمن نفهم فيه ببساطة تامة ووضوح ان الفضاء اللانهائى لا يثير الرعب . وكل ذرة من جسمنا هى الاخرى نظام نجمى لا يُسبر . وفى هذا وفى ذلك لانهائية . ونحن انفسنا لانهائيون ، وكل شىء فينا لانهائى . وانا وانت نقاتل فى سبيل اللانهائيـة وضد النهائية . . . .

لاحت الى الامام ملامح مبهمة لاشجار ضخمة ، ولكنه تبين انها اجمات واطئة عند الشاطئ . وفاحت طراوة النهر . وانحدرت العربة

على المتحدر . وتهيب الحصانان ، وحمحما بصوت عال ، وخوضا فى الماء الضحل . قال العجوز :

– عسى ان لا تقع فى حفرة .

الا انهم عبروا النهر الصغير بسلامة . وعندما وصلوا الى الجانب الآخر قفز العجوز من مقعده بخفة صبى ، وركض الى جنب العربة هازا اللجام ، صائحا على الحصانين . انطلق الحصانان على المرتقى الرملى وتوقفا لاهثين . صعد العجوز الى مقعده . لم تبق الا مسافة قصيرة للوصول الى المحطة . التفت العجوز وقال :

– لن يحصل على شىء من كل هذه الامور ، فقط ان يقتل الناس عبثا . واهل قريتنا يقولون : اننا فى كل الاحوال لن نرجع الارض التى اخذناها ، ولن تجدى القوة معنا . لا يشبه الامر الآن ما كان فى عام ١٩٠٦ ، فالفلاح قوى ، ولا يهاب شيئا . فى قرية كولوكولتسيفكا – واشار بسوطه الى الظلام – القوا منشورات من الطائرة ، وقراها الفلاحون . يعنى انه يريد ان يشترى الارض من جديد . وصل الى هذا الحد . لم يعد يامل بان نهبها له بلا ثمن . . . لا باس ، سننتظر : سيرحل من حيث اتى . . . آه ، ديتيكين ، ديتيكين !

. . . .

فى الصباح وصل تليغين وسابوجكوف الى مقر قيادة الجبهة الجنوبية فى كوزلوف ، مملكة التفاح . تلك هى أمنا روسيا ! بيوت صغيرة ذات سطوح كالحة ، والجيرانيوم فى النوافذ الصغيرة ، وعمود متطاير من الغبار من تحت عجلات عربة متضعضعة وهى تنط على الطريق غير المستوى المرصوف بالحجارة على جانبيها اعمدة التلغراف الموحشة التى تعلقت على اسلاكها مزق الطائرات الورقية ، ودكان مبنى بالآجر بطلبلية ، وقد دقت على ابوابه خشبتان متصالبتان ، وفتاة حافية القدمين تعبر الطريق مذعورة وهى تجر اخاها الصغير المعوج الساقين ، المترنح ، وحطام مهمل لبرج جرس صغير مهدم بالقرب من مسلخ عام فى ساحة قذرة كانت من قبل سوقا ، وهى الآن خواء ، ووراء الاسيجة المتزعزعة نصف المحطمة اشجار التفاح المثقلة بالثمار المحمرة والخضراء بلون الشمع . وفوق

البساتين والسطوح يطير سرب مرح من الزرازير تظهر جميعا بطون اجنحتها .

يبدو ان الناس هنا كان من الممكن ان يعيشوا خارج الزمن الف سنة اخرى لو لم يقع هذا الحدث غير الاعتيادى ، الثورة . وعلى كل حال لا يوجد هنا ما يحزن عليه ، فان الحياة زهيدة . فقط ان الناس ناموا كثيرا .

قال سابوجكوف ، وهو يهتز الى جانب تليغين في العربة المؤجرة :

— فقط فكر ان الثوانى وراء البحر تتحول الى نقود ، والانسان يضغط في آلة هائلة ليكون ملائما للانتاج ، والبضائع تنهال من المعامل كما في هذيان حمى ، ولزم الامر قتل عشرة ملايين انسان لتباع جميع البضائع في فترة وجيزة . مدنية ! اما هنا فالطائرات الورقية تتدلى من اسلاك التلغراف . انظر الى ذلك الرجل في النافذة هناك يحك رأسه الاشعث والنوم عالق في عينيه . . . . ونحن من هذه البقعة ذاتها نقفز الى ما لا مثيل له ، تحقيق حلم الانسانية جمعاء . . . تلك هي امنا روسيا ! انعم عيشا ، يا ايفان . . الجو مضمخ برائحة تفاح ثوية ، مثل رائحة التى قتية . . . حبذا لو اعيش الى ذلك الوقت ! لشعر التى سأؤلف كتابا . . . .

اوصلهم الحوذى الى مقر قيادة الجبهة ، وكانت طقطقة الآلات الكاتبة تتسرب من كل نوافذ المقر .

عرف تليغين وسابوجكوف اثناء انتظارهما لدورهما في المقابلة ، كل الانباء الحربية . وكان الوضع العام كالآتى : القوات العسكرية للقائد العام دينيكين تواصل الهجوم نحو موسكو بثلاث تشكيلات ، بعد توقف قصير . وجيش شمال القفقاس بقيادة فرانغل يتقدم على طول الفولغا قاطعا وسط روسيا عن مناطق الحبوب — ما وراء الفولغا وسيبيريا — (وكان الجيش العاشر قد استطاع في تموز ان يفلت منه بعد ان ضحى بكاميشين) والاتمان سيدورين على رأس جيش الدون ، الذى اعاد تنظيمه بوغايفسكى اتمان الدون الجديد المشمول برعاية دينيكين يضغط باتجاه فورونيج بتقدمه فيلقان صداميان للخيالة بقيادة مامونتوف وشكورو . وجيش المتطوعين بقيادة ماى — مايفسكى الجنرال الموهوب ، وان كان سكيرا دائما ، يقوم بهجوم على جبهة عريضة منظفا اوكرانيا من القوات الحمراء وفصائل الانصار ومسلطا

في نفس الوقت قبضته ، المتمثلة بفيلق الجنرال كوتيبوف على اوريل وتولا وموسكو .

ان نجاحات دينيكين العسكرية واضحة وتموينه جيد ، وافواجه من المتطوعين رغم تطعيمها الكثير بفصائل الفلاحين تقاتل بثقة واقتدار . الا ان الشعور السائد في مؤخراته يزداد اضطرابا يوما بعد يوم (وهو يستهين بذلك بصورة خطرة) . فكوبان يريد الانفصال والاستقلال الكامل ، وقد اضطر دينيكين لتثبيت سيادة الدولة الكبرى هناك ، الى شنق عضوين بارزين جدا في رادا كوبان . وفي تيريك مصادمات دامية ، وقوزاق الدون حين اعلن الزحف على موسكو صاروا يقولون : «لقد كان الدون الهادى' لنا ، وسيظل لنا ، فليستول دينيكين وحده على موسكو» ، والقضية الفلاحية في المناطق التى يستولى عليها جيش المتطوعين تحل ببساطة عسكرية : بالعقاب بالجلد . وحكام الولايات ورؤساء الاقضية والجندرمة القيصرية يعادون الى مراكزهم والفلاحون يقطعون سبطانات بنادقهم كما كانوا يفعلون في عهد الالمان وفي السنة الماضية ، وينتظرون الجيش الاحمر . اما ماخنو فبعد ان تحايل فقتل بنفسه منافسه الرئيسى الاتمان غريغوريف اعلن على الملأ اقامة نظام فوضوى في كل مقاطعة يكاترينوسلاف ، وجمع زهاء خمسين الف من قطاع الطرق ، وهدد بان يقتطع من دينيكين روستوف وتاغانروغ والقرم ويكاترينوسلاف واوديسا . . . وظهر اتمانات خضر وهم نوع خاص من الاتمانات — هاربون مهووسون كانوا يهاجمون دينيكين في كل مكان اينما وجدت غابات وتلال .

عدّل الجيش الاحمر خط الجبهة بعد النكسات القاسية للجيشين الثالث عشر والتاسع والتراجع البطولى للجيش الثانى عشر من دنيستر وبوغ . ومعنويته تتحسن ، وقدرته القتالية تزداد لسبب رئيسى هو تدفق الشيوعيين الضخم من بتروغراد وموسكو وايفانوفو والمدن الشمالية الاخرى . وكان الرجال يتوقعون امر القائد العام بالهجوم المضاد من يوم لآخر .

بعد ان ثبت تليغين لتعيينه الجديد كآمر لواء مستقل ، وسابوجكوف كآمر فوج كوتشالين عاد الاثنان في نفس اليوم ، واستغرقا الطريق كله في مناقشة الاخبار التى عرفاها ، وقد اتفق كلاهما على ان خطة دينيكين الضخمة مبنية في الفراغ ، وانه لن

يستطيع ان يعيد في روسيا ما استطاع ان يحققه في كوبان في العام الماضي . ففي كوبان استطاع ان يدحر سوروكين ، اما هنا فعليه ان ينازل لينين نفسه ، والبروليتاريا الاصلية ذات التقاليد الموروثة ، ثم ان الفلاح هنا عنيد معروق من احفاد الذين طردوا نابليون بالمذراة.

. . . .

– الراية الى الامام ! ارفع الغلاف !

تقدم حامل الراية الى الامام ومعه لاتوغين وغاغين الواقفان الى جانبه للحراسة . سلـــم تليغين الفوج الى آمره الجديـــد سيرغي سيرغييفيتش سابوجكوف ، وكان بادي الجد مستغرق الفكر مقطب الجبين ، وحتى التورد المألوف قد زال عن وجهه الملوح . كانت في يده ورقة خط فيها خطبة .

– يا رجال فوج كوتشالين !

قال ذلك ونظر الى المحاربين الحمر الواقفين بهيئة استعداد والسلاح في ايديهم ، وكان يعرف كل واحد منهم ، ويعرف ايا منهم باي جرح اصيب ، واي هم يشغل باله ، لقد كانوا رجاله الاقربين :

– ايها الرفاق ، لقد قطعنا معا اكثر من الف ميل في زمهرير الشتاء وحمارة القيظ . . وتكللتم بالمجد مرتين قرب تساريتسين . . . ولا تراجعتم لسبب لا يخصكم كبدتم العدو ثمنا باهظا لقاء نصر مؤقت واه . وكانت لكـــم افعال مجيدة كثيرة ، لم تذكر في بلاغات مضخمة ، وقد ضاعت التقارير عنها في خضم الانباء العامة . . . ولا باس في ذلك (ونظر تليغين بطرف عينه الى الورقة الموضوعة في راحته المطوية) احذركم من ان امامكم اعمالا اخرى كثيرة ، فان العدو لم يدحر بعد ، ولا يكفي دحره بل تجب ابادته . . . في هذه الحرب يجب ان يحرز النصر المؤزر ، ولا يجوز غير ذلك . ان الانسان ينازل وحشا ، ويجب ان ينتصر الانسان . او لنضرب مثلا آخر : حين تطلع سنابل القمح تكون غضة رخوة ، ولكنها تشق الارض السوداء ، تشق الصخر . وفي البذرة النابتة تكمن كل قوة الحيـاة الجديدة التي ستاتي ولا يمكن ايقافها . . . لقد خرجنا في صباح غائم بارد الى القتال في سبيل نهار وضاء ، بينما اعداؤنا يريدون ليلا داكنا ليل الشقاوات . وسيطلع النهار ، ولو تمزق العدو غيظا (ونظر ثانية الى الورقة مشغول البال ودعكها) اعترف لكم ، ايها الرفاق ، انني لست

فرحا ، وسافتقدكم كثيرا . انه لشيء كبير ان تقضي سنة كاملة معا حول النيران هنا وهناك . سأغادركم مودعا رايتكم القتالية . . اود واطلب تكون دائما ان تقود فوج كوتشالين المجيد للانتصارات . . . .

وخلع ايفان ايليتش طاقيته ، وتقدم من الراية ، وامسك بطرف قماشها الناحل المثقب بالرصاص ، وقبله . ولبس قبعته ، وادى التحية العسكرية ، واغمض عينيه ، وقلصهما بقوة جعلت كل وجهه يتغضن .

. . . .

كان رأس ايفان ايليتش يضج بعد التوديعات التي اقامها له سابوجكوف بالتعاون مـع امراء الوحدات . جلس في عربة الغصان مضفورة متأبطا كيس المتاع (الذي كان يحتوي على قطة وكلب داشا الخزفيين الى جانب الاشياء الاخرى) وتذكر بعفوية الخطب الحارة التي قيلت حول المائدة . وبدا وكأن ليس في الامكان ان يحب الناس بعضهم بعضا اكثر من هذا الحب . تعانقوا وتبادلوا القبل وتصافحوا بقوة . آه ، يا لهم من الناس طيبين اصفياء مخلصين ! نهض امراء الوحدات الشبان وشربوا نخب الثورة العالمية بكلمات بسيطة بل ومقتبسة ، ولكنها قيلت بثقة . وواتت احد امراء الكتائب ، وهو رجل متواضع هادئ ، رغبة مفاجئة في ان يعتلي المائدة ، فصعد عليها ، ورقص رقصة قوزاقية عارمة بين عظام البط المقضومة وقشور البطيخ ، وضحك ايفان ايليتش بكل قوته ، اذ تذكر ذلك .

توقفت العربة عند مشارف القرية ، وتقدم ثلاثة هم لاتوغين وغاغين وزادوريفيتش ، وحيوه ، وقال لاتوغين :

– اعتمدنا انك لن تنسانا ، ومع ذلك فقد نسيتنا .

واكد غاغين :

– نعم ، لقد انتظرناك .

– انتظروا ، انتظروا ، يا رفاق ، عم تتحدثون ؟

وضع لاتوغين قدمه على عجلة العربة وقال :

– انتظرناك . عشنا سنة واحدة سوية ، ووهب بعضنا بعضا حياته . . . حسنا ، اذن وداعا اذا كان سيان لديك .

وكان صوته حانقا مرتجفا .

– انتظر ، انتظر .

ونزل تليغين من العربة . قال زادوريفيتر :

– ماذا تفعل هنا مع المشاة ؟ انهم صنف آخر ! هل ستعفر اقدامنا بالغبار الى الابد ؟

وقال غاغين وقد لمعت عيناه :

– نحن من رجال المدفعية البحرية ، فهل تجد مثلنا ؟

قال لاتوغين :

– عندما كنا في نيشني كنا اثنى عشر ، فبقينا ثلاثة ، وانت الرابع . . . فاذا بك تجلس في عربة ، ومع السلامة . اما نحن فلسنا بشرا ، نحن ذوى المعاطف الرمادية ، نحن من سواد الناس . . . كنا معك ثم مضينا . . . ولكن ما الفائدة من الكلام معك وانت سكران ؟

قال زادوريفيتر :

– عندك الآن لواء ، يا ايفان ايليتش ، وستكون تحت قيادتك مدفعية ثقيلة .

صاح لاتوغين :

– لتذهب ومدفعيتك الى جهنم . يمكن ان انظف المرحاض اذا اقتضت الضرورة ! ولكن يعز عليّ ان افقد انسانا ! وثقت بك ، يا ايفان ايليتش ، واحببتك . . . وانت تعرف ماذا يعنى ان تحب انسانا ؟ فاذا انا بالنسبة لك غريبا . حسنا ، لننته الحديث . . . ستفهـم البقية في الطريق . . .

– يا رفاق ! – وحتى خمار البارحة زايل ايفان ايليتش من هذه الاحاديث – كنتم متسرعين في ادانتي . هذا ما نويته بالضبط : ان اسجلكم جميعا في مدفعيتي حال وصولي الى اللواء .

تالق زادوريفيتر وقال :

– شكرا على هذا .

اما لاتوغين فقد ضرب الارض بحذائه المهلهل غيظا :

– انه يكذب ! لقد لفق هذا الآن – ثم قال بلهجة اخف ، وان هدد تليغين باصبع معوجة – النية وحدها لا تكفى ، يا رفيق ، لا تستطيع ان تذهب بها بعيدا . ولو اشكر على ذلك ايضا .

ضحك تليغين ، وضربه على ظهره :

– يا لحدة طبعك ! كما انك لست شخصا منصفا . . .

– ليذهب الانصاف الى الجحيم . فانا لا انوى ان اخدع الناس ، ومن الممكن التسامح معك لسبب واحد ، لانك بسيط . ولهذا السبب تحبك النساء . حسنا ، لا تزعل ، واصعد الى العربة – ثم امسكه من كوعه بقوة ، وقال – اتعرف كيف يلقى الانسان نفسه على سيف العدو من اجل رفيقه ؟ الم يحدث ذلك ؟ – وادار عينيه الوضاءتين المشعتين الباردتين والمشبوبتين عاطفـــة في وجه ايفان ايليتش وعينيه – الم تكذب ؟ ها ؟ الم تكذب ؟

قطب ايفان ايليتش ، وهز راسه قائلا :

– حسنا ، كذبت . وانتم فعلتم خيرا حين ذكرتموني . اشرتم على بمخرج . . .

– الآن ، تقول الشيء الصحيح . . .

دندن غاغين :

– اتركه . . . لا تتشبث به . . . عدت لتكون ملك الطبيعة .

ودعهم ايفان ايليتش دون ان يقول كلمة اخرى ، وصعد الى العربة ، وظل وقتـــا طويلا في الطريق يبتسم مع نفسه ، ويهز راسه .

كانت المسافة الى مقر اللواء المنفصل يمكن ان تستغرق في الطائرة ساعة واحدة ، وعلى الحصان اكثر من اربع وعشرين ساعة بقليل . ولكن ايفان ايليتش سافر بالسكة الحديد اربعة ايام متنقلا من قطار الى آخر ضجرا الى حد الغيبوبة في المحطات القفرة الخالية من الطعام ، وبالطبع لم يجد عربة الصالون المنفصلة التي وعدوه بها وعدا قاطعا ، واضطر ان يقطع المرحلة الاخيرة من الطريق في عربة مواش مملوءة الى النصف بطباشير لا احد يعرف لاى غرض يرسل في مثل هذا الوقت . وفضلا عن ذلك وجد على احد الرفوف مسافرا له وجه سمين كالجرة يرتدى نظارة انفية . وكان طوال الوقت يردد مع نفسه مقاطع من اوبريت اوفينباخ : «لحم خنزير مقدد من تولوز ، من تولوز . . . سيكون مالحا بلا نبيذ . . .» وحين بدا الظلام يعتكر اخذ ينشغل باكياسه ، ناقلا اشياء من هذا الكيس الى ذاك ، مخرجا اشياء ليشمها ويحشرها ثانية .

كان ايفان ايليتش تعبا الى حد الاعياء وجائعا فاخذ يتشمم مميزا بين روائح مختلف الماكولات . وحين بدا هذا الوضيع يدق بيضة

مسلوقة تاخرا من انفه ويقشرها وياكلها لم يصطبر ايفان ايليتش فقال :

— اسمع ، يا مواطن ، بعد قليل سيقف القطار ، فما عليك الا ان تنزل فى الحال مع اكياسك هذه .

اوقف هذا تحريك فمه فى الظلام على الفور ، ولم يبد حركة . وبعد قليل شم ايفان ايليتش رائحة سجق قوية قرب انفه ، ابعد ايفان ايليتش اليد الممدودة غير المرئية بحركة حانقة .

قال هذا الرجل بصوت ناعم عالى النبرة :

— لم تفهمنى جيدا ، ايها الرفيق العسكرى . لم ارد الا ان تنال شيئا من الشراب والطعام . آه ! — وتأوه ، واحس تليغين بانفه ثانية ان السجق يمد اليه — اليوم ليس عندنا غير المبادئ ولا شئ غير المبادئ . ولكن ما علاقة المبادئ بسجق اوكرانيا ؟ مع الثوم وشحم الخنزير . وعندى خمرة . جرعــة واحدة لكل واحد منـا — وسكت منتظرا ، ولزم تليغين الصمت — لعلك تحسبنى مضاربا او مشتغلا فى السوق السوداء ؟ ارجو المعذرة ! انا فنان . ربما لست بمستوى كاتشالوف ولا يوريف ولا مامونت دالسكى رحم الله روحه السوداء . كان ممثلا تراجيديا عظيما ! فتصور نفسه ، البهيمة ، زعيم الفوضوية العالمية ، وراق له ان ينهب بيوتات موسكو . وفى القمار كان من الصعب ان يكسب المرء فى اللعب معه . . . لقبى العائلى باشكين-رازدورسكى لقب لــه صيت فى الاقاليــم . واسمى يبرز فى عناوين ضخمـــــة . . . — وانتظر ، لعــل تليغين يهتف : «آ ! باشكين-رازدورسكى ، بالطبع ، فرصة سعيدة . .» ولكن تليغين ظل صامتا . — مثلت موسمين فى موسكو ، فى مسرح ارميتاج ومسرح كورش . . . ، واخذ فلاديمير ايفانوفيتش ليميروفيتش-دانتشنكو يحوم حولى . فاقول لــه «لا ، دعنى ، يا فلاديمير ايفانوفيتش امثــل حتى ارتوى ، ثــم خذنى . . .» وفى عام ١٩١٨ افتتحنا الموسم بـ«موت دانتون» فى مسرح كورش ، ومثلت انا دور دانتون ، اسد مزمجر ، شخصية بارزة ، شفتان بارزتان ، ثور ، وحش ، عبقرى ، جشع ، حساس . . . ياله من تمثيل ! نجاح رائع ! بينما لا يوجد وقود ، والظلام يسود موسكو ، ولا بيع فى شباك التذاكر . فتشتتت الفرقة . وكنا خمسة تحولنا الى الاقاليــم لنمثل «موت دانتون» كيفمــا اتفق . فى موسكــو منعتنـا

لوناتشارسكى مفوض الشعب للتعليم من التمثيل ، فاخذنا حريتنا فى الاقاليم . وفى الفصل الاخير حملنا المقصلة على خشبة المسرح ، ففصلت راسى عن جسدى . . . والتذاكر تباع بسرعة ! ولا احسبك تصدق حين تسمع الجمهور يهتف : «اقطع راسه مرة اخرى . . .» ومثلنــا فى خاركوف وكييف وكان الحمر مــا يزالون هناك ، ثم فى اومان ، فى سقيفة الحريق . وبعد ذلك فى نيقولايف ، وخيرسون ، ويكاترينوسلاف . وقادنا الشيطان الى روستوف على الدون . ومثلنا ، وكان النجاح هائلا . حتى ان احد الضباط اخذ يرمى من مقصورته على روبسبير . . . وفى اليوم التالى استدعانى عمدة المدينة ، وضربنى على وجهى حسب الطريقة القديمة قائلا : «ادع الله ليبارك القائد العام دينيكين ، لــو كان الامر بيدى لشنقتـــك . . اخرج من روستوف حالا . . .» نعــم ، حال الفن صعب الآن . . . تتنقل من اقليــم ناء الى آخر كالغجر . . . . وديكورنا قد اضحى مزقا ، ومن العيب ان تضعه على مسرح . . . وفى كوزلوف لم يسمحوا لنا فى شحن المقصلــــة باعتبارها شيئا لا تعرف الغاية من استعماله . . . . تفضلوا ! ليقطع راسى بفأس ! هل لديك علبة كبريت ؟ فى امكانى ان اريك : راسى موضوع فى كيس . صنعه خازن ادوات التمثيل فى مسرح «مال» فى موسكو . انه عبقرى . . . ثم تأتى الرقابة . تأخذ النص اليها فيظل الرفيق يقرأ ويقرأ . . . وتشرح له ان هذه حقيقة تاريخية . . . فيعود لتقليب الصفحات . . . «اين الاثبات على انها حقيقة تاريخية ؟» فتقدم له عرضا للوناتشارسكى يبدى فيه اعجابه . . . فيقرؤه ايضا ويقول «الا تستطيعـــون ان تبتكر شيئـــا امرح من هذا ؟» وهكذا يخدش اعصابك . . . انا لا اعرف ماذا سيحصل لنا الآن . . . نحن ذاهبون للتمثيل فى مدينة «س» ، فى قيادة اللواء المنفصل .

سأل تليغين بصورة غير متوقعة له :

— واين فرقتك ؟

— فى العربة المجاورة مع الديكور . وروبسبير فى القاطرة ، وهو الممثل تينسكى . لا بد انك قد سمعت به طبعا . احسن روبسبير فى الجمهورية . . . . اطمئن على ذلك . انه يحصل على الكحول من تحت الارض . عبقرى ! يركب القاطرة حالا فتسافر باطمئنان . . ما رايك ، ايها الرفيق العسكرى ، الا تأكل قليلا ؟ . . . لا ترفض .

– الآن ، لا ارفض .

– سأكون ممتنا جدا – ونبش باشكين-رازدورسكي في الاكياس هامسا ومدمدما : «اين حشرته . . .» ووقعت في يد تليغين بيضة وقطعة سجق وبقسماطة وتابع باشكين-رازدورسكي قوله – حين ننتهي من التمثيل في مدينة «س» ، سنسافر الى موسكو . . . شكرا . . . كفانا تجوالا ! في ممر نيغليتني ، وفي فناء الدار رقم ٥ ، اقام احد الارمن محلا لتناول الاطعمة الخفيفة . انه عبقري ! تجد النقانق واللحم المقلي مع البطاطس ، وكل ما تشاء . ورجال الميليشيا يفتشون كل يوم . ما السبب ؟ لان جميع المترددين عليه تفوح منهم رائحة الكحول . ويفتشون ، ولا يستطيعون ان يجدوا كحولا ، ولن يجدوا . . . انه يحتفظ بصفيحة في العلية في الطابق الرابع مربوطة في انبوب الماء الفارغ . فينزل الكحول الى الاسفل ، الى محل الطعام حيث توجد حنفية ومغسلة اعتيادية . ولك ان تفتح الحنفية ، وتصب لك قدحا من الكحول ، وتكون مرتاحا .

قال تليغين وهو يمضغ السجق بتلذذ شاعرا بعذوبة من جرعة الكحول :

– سأحاول ان ارتب كل وسائل الراحة . استريحوا وتمرنوا ، ولا تستعجلوا ، وقدموا لنا عرضا جيدا . ستكونون ضيوف في مدينة «س» . انا آمر اللواء . . . .

فتعجب باشكين-رازدورسكي :

– آووو ! اذن فهذا انت . . . وانا طوال الوقت انظر اليك ، واقول هذا هو حتفي ! كم ارعبتني ! اتكلم واتكلم ولا افهم لماذا لم أرم من القطار . . . يا عزيزي ، سنمثل لكم ، سنمثل من كل القلب ، كفنانين حقيقيين .

. . . .

نزل تليغين من العربة يحمل كيس متاعه . كان مصباح كيروسين مهشم يضيء بالكاد بضعة اشخاص عسكريين على الرصيف .

– مرحبا ، يا رفاق – حيا ايفان ايليتش وتقدم منهم – اتنتظرون آمر اللواء ؟ هذا انا ، تليغين . اعذروني على هيئتي هذه . . .

وصافحهم ونظر بدهشة الى احدهم ، وهو رجل اشيب قصير القامة جاف العود صارم ذو قيافة جيدة . . . وحينما ساروا عبر

المحطة الى ساحة مظلمة حدجه مرة اخرى من وراء كتفه بنظرة من طرف عينه ، ولكنه لم يستطع ان يتبين وجهه . اجلسوا ايفان ايليتش في عربة ، فسارت به وقتا طويلا في حقل دامس تفوح منه رائحة القاذورات . وتوقفت العربة عند بيت طويل كالسقيفة له سطح عال . وقد اعدت فيه لايفان ايليتش غرفة فارغة حديثة الطلاء . وقد وضعت على افريز النافذة شمعة مضاءة وصحن طعام مغطى بصحن آخر . القى كيس المتاع على الارض ، وخلع قميصه العسكري ، وتمطى ، وجلس على سرير ضيق مفروش بفراش نظيف ، واخذ يخلع حذاءه الملطخ بالطباشير .

دق الباب دقة خفيفة . وفكر ايفان ايليتش بانزعاج : «كان يجب ان اطفئ الشمعة في الحال . انهم سيأتون ، وتبدأ الاحاديث . والساعة قد تجاوزت الرابعة الآن . اللعنة . . .» ثم اجاب :

– نعم ، ادخل . . .

ودخل بسرعة ذلك الرجل العسكري القصير القامة الاشيب ، واغلق الباب من دونه ، وبحركة قصيرة رفع كفه المستقيمة الى صدغه مؤديا التحية العسكرية .

وقف تليغين على ساق الحذاء الطويل الذي كان قد خلعه الى النصف ، وتفرس في هذا **الشبيه** . . . وقال :

– اعذرني ، يا رفيـــق . حصل بعض الحرج على الرصيف ، ولكنني قررت ان اوجل التعارف والقضية كلها الى الغد . . . اذا كنت غير مخطئ ، فانت رئيس اركاني ؟

اجاب العسكري باقتضاب ، وهو ما يزال واقفا عند الباب :

– بالضبط . . .

– اعذرني ، ما اسمك ؟

– روتشين ، فاديم بيتروفيتش .

اخذ تليغين يجول ببصره فيما حوله في عجز من امره .

وفتح فمه وابتلع عدة جرعات من الهواء .

– اها . . . يعني . . . – واختلج وجهه ، فتحول الى الهمس :

– فاديم ؟

– نعم .

– افهم . . . افهم . . . غريب جدا . . . انت من الحمر . . . انت رئيس اركاني . . . رحمتك يا رب !

قال روتشين بنفس الصلابة والجفاف :

– ايفان ، لقد عزمت ان اتحدث اليك الآن ، لكى لا تكون فى موضع محرج غدا .

– اها . . تتحدث . . .

لبس ايفان ايليتش بسرعة حذاءه المخلوع الى النصف ، ورفع قميصه من الارض واخذ يلبسه . ازل فاديم بيتروفيتش جبينه ، وتابع حركاته ، وكانه يراقبه بلا اى نفاد صبر ، ولا قلق .

– اخشى ، يا فاديم ، ان احدنا لا يفهم الآخر بعض الشىء .

– سنتفاهم . . . .

– انت رجل ذكى . . . نعم ، نعم . . . لقد احببتك بحرارة ، يا فاديم . . . انا اتذكر لقاءنا قبل اكثر من عام فى محطة روستوف . . . لقد اظهرت شهامة كبيرة . . . لقد كان لك دائما قلب حار . . . آه ، يا الهى ، يا الهى . . .

وشد حزامه ، ولوى ازراره ، وفتش فى جيبه اما من فرط ذعوله ، واما ليؤجل قليلا حتمية حديث ثقيل . . .

– يبدو انك تعتبر اننا قد تبادلنا الاماكن ، وان علىّ ، بدورى ، ان ابدى عاطفة كبيرة . . . ان مثل هذه العاطفة موجودة لدى نحوك ، عاطفة كبيرة جدا . . كنا مرتبطين مع بعض اكثر من اى انسانين آخرين . . . ولكن ، فاديم ، ماذا تفعل هنا ؟ ولماذا انت هنا ؟ حدثنى . . .

– لاجل هذا جئت ، يا ايفان . . .

– جيد جدا ربما تظن اننى قادر على ان اخفى شيئا . . . انت رجل ذكى ، فلنتفق : اننى لا استطيع ان افعل لك شيئا . . . نحن هنا مختلفان جذريا . . .

وتجهم تليغين ، وصرف بصره عن روتشين . اما هذا فقد سمع وابتسم .

– وراءك شىء ما . . . وذلك مفهوم . . . والاشاعة حول موتك داخلة فى هذه الخطة على ما يبدو . . . حدثنى . . . ولكن احذرك من اننى ساعتقلك . . . آه ، كيف يحصل هذا . . .

وهز تليغين يده علامة يأس منه ، ومن نفسه ومن حياته كلها التى اضحت الآن محطمة . تقدم فاديم بيتروفيتش منه بحركة سريعة ، وعانقه ، وقبله من شفتيه بقوة :

– انت رجل طيب ، يا ايفان . . . نفس بسيطة . . . وانا سعيد بان اراك بهذه الصورة . . . احبك ، لنجلس – وجذب تليغين الى السرير ، وكان ما يزال فى عناده – لا تتصلب . انا لست من الاستخبارات ، ولست عميلا مدسوسا . . فاطمئن . انا فى الجيش الاحمر منذ كانون الاول .

لم يكن ايفان ايليتش قد تخلص تماما من عزمه الذى هز كيانه حتى النخاع ، ولم يزل بين الشك واليقين ، فنظر فى وجه روتشين الداكن الملوح ، القاسى والرقيق معا ، ونظر فى عينيه السوداوين الذكيتين الجافتين . وجلس الاثنان على السرير ويداهما ما تزالان متشابكتين . واخذ فاديم بيتروفيتش يقص كل ما قاده الى هذا الجانب ، الى بيته ، الى وطنه .

وكان تليغين قد قاطعه فى بداية القصة :

– واين كاتيا ؟ هل هى حية وفى عافية ، واين هى الآن ؟

– آمل ان تكون كاتيا الآن فى موسكو . . . تفاوتنا مرة اخرى . وصلت الى كييف فى وقت متاخر ، قبيل الاجلاء . . ولكن وجدت اثرها . . .

– وهل هى تعرف انك حى ، وانك معنا ؟

– لا . . . وهذا الذى يخرجنى عن اطوارى . . .

١٩

مضى شهران .

ولم يكن من الممكن ايقاف هجوم جيوش الجنرال دينيكين . وكان كولتشاك حاكم روسيا الاعلى يضغط على الاورال باخر جهد مستميت . وفى منطقة البلطيق انثالت النوائب على الجيش الاحمر السابع الذى تقهقر عبر الوحول اللزجة امام الجنرال يودنيتش قاصدا بسكوف ولوغا وكاتشينا ، فاصدر هذا الجنرال امره فى قواته بـ«اقتحام بتروغراد . . .» .

وقطعت الجمهورية السوفييتية كليا عن مناطق الحبوب والوقود . وكانت المواصلات لا تكاد تكفى لنقل القوات والذخيرة ، كانت سماء تشرين الاول تبكى على الارض الروسية ، وعلى المدن الجائعة المشلولة ، حيث كانت الحياة تخمد فى انتظار شتاء اكثر بعدا عن التفاؤل ، وعلى مداخن المصانع الخامدة والورش المهجورة ، التى تركها عمالها الى مختلف الجبهات ، وعلى مقابر القاطرات والعربات المحطمة ، وعلى السكون العريق للقرى ذات السقوف القشية ، حيث لم يبق الا القليل من الفلاحين ، وحيث عادت المسارج ، كما كانت فى زمن الاجداد ، وعاد النول اليدوى يدمدم فى بعض البيوت .

فى ذلك الفصل الردىء الطقس اخترق الجنرال ماموئتوف جبهة الجيش الاحمر للمرة الثانية وتوغل بفيلقه القوزاقى فى غارة عميقة محطما المؤخرة قاطعا جميع المواصلات .

كان تليغين وروتشين والمفوض تشيستوكوف (وهو رجل جديد ارسل قبل فترة وجيزة الى اللواء ليحل محل مفوضه الذى اصيب بالتيفوس) متكبين على خارطة مقطعة لصقت باللعاب . كان تشيستوكوف عاملا من موسكو انهكت صحته الاشغال الشاقة فى العهد القيصرى ، وانحله الجوع ، وشاب قبل اوان الشيب . راح يمسد جبهته الصلعاء ، وكانه يحس بالم فوق حاجبيه ، ويقرأ للمرة العاشرة امر القائد العام عن العمليات .

كان تليغين يمص غليونه . وكان فى المدة الاخيرة قد ترك لف السيكاير ، وتعلق بالغليون الذى اهداه لـه لاتوغين وكان هذا قد حصل عليه من ضابط ابيض اثناء الاستطلاع . واصبح الغليون تسرية ووسيلة للتهدئة فى اللحظات الصعبة – وما اكثرها فى الايام الاخيرة – وكان اذا لم ينظفه مدة طويلة يصفر صفيرا مريحا كصفير السماور الموضوع على المائدة فى امسية باردة .

اتضح لفاديم بيتروفيتش من النظرة الاولى كل ما ينطوى عليه الامر من هستيريا يائسة فكان ينتظر ان ينهى المفوض تأملاته فى كتابة هيئة الاركان هذه متكئا على الجدار المصنوع من كتل الخشب ، وكانت عيناه تلمعان يخبث من تحت جفنيه نصف المطبقين .

كانوا فى بيت الضيعة الذى اتخذ مقرا لهيئة اركان اللواء على بعد حوالى عشرة فراسخ من الجبهة . ولم يبق فى كلا الفوجين اللذين تسلمهما تليغين فى آب ، اى قبل شهرين ، غير ما يقل عن ثلثمائة مقاتل ، اما الذين يرسلون للتعزيزات فقد كان من الصعب ان يسموا مقاتلين . فقد كانت القيادة العامة تشكلهم على عجل ، وبالدرجة الاولى من الهاربين من الجندية ، ملتقطة «الخضر» من المدن والقرى ، التى كانوا يأوون الآن اليها خوفا من امطار الخريف . وكانوا يحشرون دون اعداد ولا تمرين فى سرايا التعزيزات ، ويرسلون الى الجبهة ، حيث كان عليهم ان ينفذوا مهمات حربية لا تتحقق بدقة الا فى حركة القلم الاحمر على خارطة العمليات فى مكتب القائد العام الهادىء المهيب .

– انا لا افهم – قال تشيستوكوف ونظر الى ظهر الورقة ، رغم انه لم يكتب عليها شىء – انا لا افهم الفكرة العامة . . .

اجاب روتشين :

– وليس هناك شىء لتفهمه . انه امر اكاديمى للجبهة . يبدو ان القائد العام اكل فى فطوره بيضتين وشرب كوبا من الكاكاو ، ودخن سيكارة جيدة ، وتقدم من الخارطة . وكان رئيس اركانه ينتظر ان يزول فى احد الايام هذا الكابوس اللعين فى غمضة عين ، كما فى الحلم ، فاخرج باصبعيه على الخارطة علم الاشارة الاحمر الذى يعلم فوجنا الـ١٢٣ – وهو حسب معلومات قسم الملاكات مؤلف من الفين وسبعمائة محارب – وغرزه بحركة رشيقة الى بعد مائة فرسخ الى الجنوب «وبهذه الطريقة ، وبعد ان تحتل قرية درموفكا ، ستهدد جناح العدو . . .» ثم اخذ العلم الذى يعلم فوجنا الـ٣٩ – وهو حسب معلومات قسم الملاكات مؤلف من الفين ومائة محارب – ونقله الى بعد خمسة وتسعين فرسخا الى الجنوب الشرقى «وبهذه الطريقة سيقوم الفوج التاسع والثلاثون بهجوم امامى ، وهكذا . . .» عندئذ قلص القائد العام عينيه من خلال الدخان لينظر الى الخارطة ، ووافق ، لان رئيس الاركان ، على اية حال ، قد قضى الليل متروبا فى كل شىء ، وان الخطوط والسهام قد خطت بدقة بالحبر الاحمر والازرق ، ولان النتيجة واحدة – مهما يكن موضع اعلام الاشارات – وهى انعاش الحركة فى الجبهة . . . وهذا هو المطلوب . . .

قاطعه تشيستوكوف وهو يهز راسه الكبير الاصلع :

– اسمع ، ليس هذا تقدا ، يا اخ ، بل حمقا . . .

– نعم ، حمق . . . ولماذا علىّ ان اصمت اذا كان هذا ما افكر فيه . وهذا ما يفكر فيه تليغين ايضا ، وما يفكر فيه مقاتلونا ، ويتحدثون عنه . . .

زفر تليغين زفرة قوية ، دون ان يرفع الغليون من فمه . وتصاعدت فى نفس المفوض مرارة الشك والحيرة ، كل ما حاول ان يكبته فى نفسه . انه لم يتخلف عن الحياة خلال عشرة اعوام من الاشغال الشاقة فى العهد القيصرى ، بل ان اشياء كثيرة معقدة قد ظهرت فيها ، دوامات اينما يممت وجهك . . . وكان قلبه الذى طهرته سنوات العذاب يجد صعوبة فى تقبل التشكك فى الذين يقاتلون فى صف الثورة . فكان يحب مثل هؤلاء الناس فى الحال ، ولكنه كان يكتشف غير مرة ان بعضهم كان يضمر الشر . وقد احب روتشين ، لانه كان حادا مستقيما ولا يهاب شيئا ، حتى ولو وضعت بندقية بين عينيه . سأل المفوض :

– وماذا يمكن ان يقول المقاتلون ؟ عن قريب ستوزع عليهم السترة المبطنة والاحذية اللبادية . فتدور احاديث اخرى . من الذى يهذر ؟ الهاربون ؟ ان المطر ينفذ الى عظامهم ، وبطونهم خالية ، فلهذا تصطك اسنانهم . . .

سأل روتشين :

– متى ستوزع السترة المبطنة والاحذية اللبادية ؟

– مفوضية التموين وعدتنى وعدا قويا . . . وقد رايت امر الصرف . . . وعدونى بالف وخمسمائة بطة ، ونصف عربة من شحم الخنزير المقدد . . .

– الم يعدوا بطيور محمصة من الجنة ؟

دمدم المفوض مع نفسه ، ولم يجب عن ذلك . وبالفعل لم يستطع ان يجلب للواء غير وعود واوراق . وكان قد سافر الى سيريوخوف ، وتشاتم فى التلفون ، وقضى ليالى مؤرقة ذارعا حجرته من زاوية الى اخرى ، كعادته القديمة فى السجن . . . لقد حدث شىء غير مفهوم . فاينما دفعه فكره الثورى السليم وجد فى طريقه عقبة مبهمة تشربك كل شىء فيها واختلط .

سأل المفوض :

– ماذا يقولون ، على اية حال ؟

نقر روتشين ورقة الامر باصبعه محتدا :

– الامر يقول : ان نحتل قرية ميتروفانوفكا وضيعة دالنى بسرعتين ، ونحتفظ بهما . لقد احتللنا ذات مرة قرية ميتروفانوفكا وضيعة دالنى بناء على امر القائد العام . وخرجنا منهما طائرين كالطلقة . وسيتكرر هذا بحذافيره بعد غد ، حين ننفذ ما كتب هنا .

– ولماذا ؟

– لانه . . . لان من المستحيل الاحتفاظ فى هذا الموقع ، ولا ينبغى ان نقدم على ذلك .

قال تليغين هازا غليونه : صحيح .

– هَبْ انا اقدمنا على ذلك ، وخسرنا مائة مقاتل فى هذه العملية ، ونفذنا فى جبهة البيض دون ان يكون لنا اتصال بقواتنا . عند ذاك سيطبقون علينا من اليسار واليمين ، فنخرج سراعا من هذا الكيس ، وفضلا عن ذلك سنضطر الى ان نعبر النهر ثلاث مرات حيث سنتعرض للرمى عند العبور ، ثم هناك الارض المنبسطة حيث سيهاجمنا الخيالة ، والمستنقع حيث سيغطس نصف العربات .

– ولكن هذه القرية وتلك الضيعة ضروريتان لنا فى الخطة الاستراتيجية العامة .

– لا . . . انظر الى الخارطة . . . وهذا ما يقوله المقاتلون : لا توجد فكرة ولا هدف ولا خطة فى كل عملياتنا خلال الشهرين الماضيين . . . نحن نراوح فى مكاننا دون اى توقع مأمول ، ونكيل ضربات لا معنى لها ، ونتكبد خسائر فى الرجال ، ونخسر الايمان فى النصر . . . سترى : اليوم ليلا سيغادر بضع عشرات من الرجال الجبهة من تلقاء انفسهم . . وبعد شهر سيجلبونهم الينا ثانية . . . انا اتساءل : ما الذى حدث ، وماذا يحدث ؟ شلل !

قال تليغين بعد ان حشرج فى غليونه :

– اليوم ابلغونى فى كوكبتنا للخيالة – وانا لا ادرى من اين يعرفون ؟ – ان ماموتتوف ، على حد زعمهم ، قد عبر الدون ثانية ، وهو يتوغل فى مؤخراتنا .

اختطف روتشين الامر ، ومرر عليه بصره ، ثم القاه ، واتكأ على الحائط ثانية .

— محتمل جدا . . وهذا الامر خال حتى من التلميح الى ذلك . . .

ودخل المكلف بالحراسة وهو رجل كهل قصير القامة ملتح يحمل كيس عتاد قذرا :

— ايها الرفيق آمر اللواء ، يطلبونك على التلفون شخصيا .

نظر تليغين الى المفوض مندهشا ، والقى معطفه على كتفيه بعجالة ، وخرج . قال المفوض ، وهو يمسح جبينه مرة اخرى :

— اذا صدق الانسان بك ، يا روتشين ، فقد كل ايمانه . فما الذى يحصل ؟ هل هناك خيانة بيننا ؟

— انا لا افترض شيئا ، ولا اؤكد ، ولكننى اعرف ان من المستحيل الاستمرار فى القتال بهذه الطريقة .

— والامر العسكرى يجب ان ينفذ ؟

— نعم ، يجب . . . وسانفذه غدا . . .

فكر المفوض لحظة ، ثم ضحك باقتضاب :

— لعلك تبحث عن الموت ؟

— ان هذا لا يتعلق فى المسالة كليا ، وابعد من ان يمسك . . . وانا ، فضلا عن ذلك ، لا ابحث عن الموت . . . وحتى لو جئت الينا منذ فترة لا بأس بها لعرفت ، على اية حال ، ان الفوج لا يريد ان ينفذ هذا الامر . . . ولكن يجب ان ينفذه . . . ان حياة الجيش هى فى تنفيذ الامر الصادر اليه . فاذا انتفى ذلك كان مآله الى التحلل والفوضى والموت . . . سأقرأ الامر بنفسى ، واقود الفوج الى الهجوم . . . فاعتبر هذه العملية تجربة للضبط . . . ولننه الحديث بذلك . . .

عاد تليغين ، وجلس دون ان يخرج يديه من جيبى معطفه . وكانت عيناه مستديرتين .

— ايها الرفيقان ، رئيس المجلس العسكرى الاعلى يطوف فى الجبهة . وبعد ساعة سيكون عندنا . . .

ومرت ساعة واخرى . ونزل المطر رذاذا . وكانت كوكبة الخيالة فى كامل نصابها ووحدة الموقع تصطفان فى المرعى وراء بيت

الضيعة . وكانت قطرات المطر تلتمع على اعراف الخيول المتدلية ، وخصلها الممشطة جيدا ، وعلى معاطف الفرسان الناصلة اللون . وكانت الخيول تدوس الوحل بسنابكها فتزداد شبها بالجيف المستخرجة من الماء ، فقد كانت ضلوعها بادية ، واكفالها نائئة ، واشفارها متدلية . وكان ايمرمان ، آمر الكوكبة ، وهو ملازم سابق فى الخيالة القيصرية ، ذو وجه مدور ، وانف مرفوع كأنف الصبى ، ينظر الى تليغين فى يأس . فضيحة ! وعلاوة على ذلك ظهر من حيث لا يدرى جرو قذر طويل القوائم وقبع امام الكوكبة يراقب مستغرقا بفضول رخى البال .

هش ايمرمان عليه هازا ذراعه ، الا ان الجرو وتر اذنيه فقط ، ومال برأسه الى جانب . وفى تلك اللحظة استدار الفارس المكلف بالاشارة ، والواقف على مرتفع غير بعيد بحصانه ولكزه بعجالة ، وبرقل فى عدو سريع نحو تليغين نائرا الوحل .

لاحت مقدمة سيارة ضخمة لامعة يحف بهما مصباحان متباعدان صاعدة المرتفع فى زاوية قائمة تقريبا ، ثم ظهرت السيارة مكشوفة طويلة رمادية فاتحة .

اخذت الخيول ترفع اقدامها من هديرها الشديد وتهز رؤوسها . اصدر ايمرمان امره : «استعداد !» وتوقفت السيارة وهى تكاد تسحق الجرو الذى قفز جانبا ، كقطعة من القطن ، وقبع ثانية . تقدم تليغين ، رافعا سيفه بالتحية مختارا حسبما اتفق احد الثلاثة العسكريين الجالسين فى السيارة ، وكانوا جميعا يلبسون معاطف صهباء فوق معاطفهم . نهض الجالس الى جانب السائق واضعا يديه على الزجاجة الامامية ، واستمع الى التقرير دون ان ينظر الى تليغين .

ثم استدار نحو الكوكبة بحركة حادة . نهض العسكريان الجالسان فى المقعد الخلفى — احدهما شاحب بلون الورق مبتل اللحية ، والثانى ممتلئ منتفخ ضارى الهيئة — واديا التحية العسكرية . واخذ الرجل يتحدث بصوت نابح دافعا رأسه الى الاعلى حتى لاح منخراه اسودين ، ورقصت نظارته الانفية المدلاة على قصبة انفه :

— ايها المقاتلون ، باسم سلطة العمال والفلاحين آمركم بان تشحذوا سيوفكم اشد ، وتركزوا حرابكم بصلابة اعظم . من منكم لا

يريد ان يروى حصانه من مصب الدون الهادى*؟ الجبان وحده لا يريد ذلك . . . لماذا ما تزالون هنا ، وليس هناك ؟ ان الجمهورية تتوقع منكم مآثر بطولية خارقة . فالى الامام ! ادحروا العدو ، وانثروا رماده فى سهينا الام . . .

وظل يتحدث باندفاع اشد على هذا المنوال . وانتهى من خطابه ، واجال بصره فى الكوكبة ، وهتف «هورا !» رافعا فوق راسه قبضته المطوية . فردد المقاتلون هتافه باصوات متنافرة . فقد اقلقهم خطابه . وكانه رجل نازل عليهم من القمر . فوجئوا بان ينعتوا بالجبناء ، ولم يكونوا يتوقعون ذلك .

دعا تليغين بهزة من راسه :

– لست راضيا عن وضع مقاتليك . انهم رعاع على خيول ! ولست راضيا عن حالة خيولك ، انها كفشان لجر العربات ! اتبعنى . . . .

واتهبد على المقعد قرب السائق . وانطلقت السيارة الضخمة من مكانها نحو الضيعة .

وتبعها تليغين على فرسه ، متصورا فى عجالة ان الامر ربما يضمر احتمالا قويا يرميه . . .

توقفت السيارة عند مقر قيادة الميدان . ووصل تليغين وراءها وفى اثره تشيسنوكوف يلط على سرج حصانه فى غير اقتدار . وكان على مقدمة البيت جندى الخفارة على التلفون ، وقد ادى التحية مرتجف اليد والفزع مرتسم على وجهه . وتوسل بعينيه الى تليغين يطلب اذنا بالحديث . وتكلم متلجلجا من الجهد ليلتزم بالرسميات ، وابلغه ان مقر اللواء قد تلفن يستدعيه قبل دقيقة (وكانت جميع اقسام اللواء وممتلكاته وخزائنه وارشيفه فى قرية غايفورونى على بعد حوالى اربعين فرسخا الى الشمال) . واستطاعوا ان يبلغوه بان دورية من البيض من رجال ماموتتوف فى اغلب الظن – قد اغارت على القرية ، وان الاتصال التلفونى قد انقطع اثر ذلك .

زحف العسكرى الممتلئ* الجسم على ركبته ثقيل الحركة – كان رئيس اركان القائد العام – وانحنى على المقعد الامامى ، واخذ يهمس لرئيس المجلس العسكرى الاعلى . فهز هذا راسه ، وقال لتليغين عبر كتفه :

– ستتسلم تعليماتى ببريد الميدان .

ظل تليغين وتشيسنوكوف ينظران طويلا بصمت وذهول الى الطريق الاسود الذى انطلقت فيه السيارة الشبيهة بالغول وذابت كالشبح فى عتمة المطر .

اشتغلت داشا فى قسم تحسين الارض التابع للجنة التنفيذية كمساعدة ثانية لرئيس «مكتب المشاريع» . كانت فى بعض الاحيان تقوم برسم البقع بالالوان المائية على خارطة ولاية كوستروما فى الاماكن التى يفترض ان تجفف مستنقعاتها للحصول على الفحم النباتى وخام المستنقعات بكميات لا تنفد . وفى احيان اخرى كانت تستنسخ القوائم التى يعدها المهندس قريبوسولوف ليجعل اللجنة التنفيذية فى حالة دائمة من التاثر العصبى بضخامة مشاريعه العقيمة تماما فى واقع الحال ، لان القسم لم يكن يحوى غير صندوق الاصباغ وبعض الفرش وكمية غير كبيرة من ورق وثمان ، فلا ارفاش ، ولا عربات ، ولا خيول ولا مضخات ماصة ، ولا نقود ، ولا ايد عاملة .

وحصلت داشا على جراية – هى ربع رطل من الخبز المخلوط بالقش ، واحيانا بعض اوراق الغار او حب الفلفل . وكانت اليسيا تشتغل مراسلة فى اللجنة التنفيذية ، وكانت تحصل على جراية اكبر لخدماتها القتالية . فالى جانب ثمن رطل من الخبز والفلفل كانت تتلقى سمكة ونصف من السمك المجفف ، واحيانا سمكة رنجة صغيرة بلون الصدا .

وكانت اليسيا الى جانب عملها الاصلى تعمل فى حلقة التمثيل للهواة ، وتتردد لسماع المحاضرات المبسطة فى كلية الآداب والتاريخ التى اجليت من قازان الى كوستروما . وكانت اليسيا تنظر بترفع بالغ الى واجبها المباشر – وهو الجلوس فى مقعد متداع عالى المتكا عند باب نائب رئيس اللجنة التنفيذية – فكانت اما ان تطوق راسها لتصم اذنيها باصبعيها ، وتنحنى نحو ركبتيها وتقرا تراجيدات شكسبير ، وحين كانت تستدعى ، كانت تجيب بسهوم : «الآن ، الآن . .» بل وترد بحدة على الطلبات المتكررة فى ان تنقل هذا الظرف او ذاك الى احدى الغرف العديدة المزدحمة بالمناضد ، والمكتظة

بالناس الذين شغلوا انفسهم بعمل من الاعمال ، واما ان تتغيب عن مكانها . وذات مرة كانت احدى المشتغلات ، وهى امرأة ذات وجه مصفر ، لفتت نظرها بهذا الخصوص . فنظرت انيسيا اليها نظرة سوداء قائلة «لا ترفعى صوتك علىّ ، يا رفيقة ، فانا لم اخف حتى من سيوف القوزاق . . .» حتى ان هذه المستخدمة المثقفة التى عملت كثيرا من قبل فى قضية تحرير المرأة وجدت من الافضل الا تتورط مع هذه العاملة الفلاحة السليطة . . .

كانت داشا تعود الى البيت بعد الساعة الخامسة بينما كانت انيسيا لا تعود احيانا الا فى ساعة متأخرة من الليل . وكانتا تعيشان فى بيت خشبى مطل على الفولغا . وكان كوزما كوزميتش يطعم داشا وانيسيا الى حد الشبع ملتزما بامر ايفان ايليتش تماما ، ويتابع ، خلافا لضميره ، القيام باعمال غير صافية فى الحصول على الماكولات والحطب ، رغم ان ذلك كان يشق عليه فى بعض الاحيان : فقد كان كبر السن يؤثر فيه ، والطقس الخريفى يميل به من اللغب واللغط الى التاملات الفلسفية الهادئة عند الموقد المشتعل ، والمطر يضج ضجيجا خفيفا فوق السطح .

وحين يزرورق الغبش الصباحى فى النافذة كانت داشا وانيسيا تحتسيان فى العادة الشاى المصنوع من الجزر مع شىء من الادام ، وتخرجان الى العمل . وكان كوزما كوزميتش يغسل الاوانى ، ويسكب جردل الماء القذر ، ويكنس بالمكنسة كلتا الغرفتين ، ثم يبدأ على مهل ويزفرات فى الغالب فى تقليب الفكر والتخمين ممن يمكن ان يقتنص اليوم بيضتين وقطعة من شحم الخنزير ، زجاجة من الحليب ، نصف قبعة من البطاطس . . . وكان كوزما كوزميتش لا يستجدى ، لا سمح الله ! بل كان يقوم فقط بتبادل الافكار الفلسفية والخلقية بالماكولات تبادلا لا غبار عليه . وخلال هذين الشهرين عرفه كل اهالى كوستروما تقريبا ، بل طاف اكثر من مرة فى القرى القريبة من المدينة .

وكان وهو يفكر يقوم فى العادة برتق وخياطة شىء ما فى النور المتزايد عند النافذة . فالحياة قوة جبارة . وحتى فى زمن التحولات التاريخية العميقة والمحن الصعبة يخرج الناس من ارحام امهاتهم ورؤوسهم فى المقدمة ، وبصراخ حانق يطالبون لهم موضعا فى هذه الدنيا سواء اكان يلائم هذا آباءهم وامهاتهم ام لا . ويتحايب الناس

دون اعتبار الى انهم يملكون من وسائل الدعم الخارجية اقل نسبيا مما لدى الطاووس على سبيل المثال حين ينشر ذيله الترف ، وهو يرقص على مرج الربيع . ان الناس ينشدون السلوى ، ومستعدون الى ان يقدموا نصف رغيفهم الى من يسكب طمانينة غير متوقعة فى نفوسهم التى يمزقها الشك : «ماذا سيحل بنا ؟ هل سناكل العشب ، ونغطى عوراتنا باوراق الكرنب ؟» وآخرون يكونون ممتنين لو وجدوا مستمعا فهيما يمكن ان يكشفوا امامه كل ما يفور فى اعماقهم من غيظ دون ان يخافوا اللجنة الاستثنائية فى الولاية .

وكان كوزما كوزميتش يخرج للطواف فى البيوت . وكان يمسح قدميه فى الاروقة المظلمة ، ويدخل المطبخ . وفى بعض الاحيان تصرخ ربة البيت عليه فى غضب :

— جاء الطفيلى مرة اخرى ! لا يوجد شىء اليوم ، لا شىء ، لا شىء . . . .

— جئت اسال عن ماريا سافيشنا — كان كوزما كوزميتش يرد بذلك هازا وجهه الاحمر بالتحية مقلصا شفتيه — اهى فى حالة سيئة ؟

— سيئة .

— ليس الموت بحد ذاته رهيبا ، يا انا ايفانوفنا . بل ما يرهق ارواحنا هو شعورنا باننا عشنا حياة عقيمة . ومن هنا يحتاج الانسان الى السلوان . ضعى يدك على جبهتها الباردة وقولى : كانت حياتك شحيحة ، يا ماريا سافيشنا ، فلا تتاسفى عليها . ولكنك كنت تكدحين مثل اصغر نملة وحملت قشتك بلغب وبلا مسرة . والاعمال لا تذهب عبثا ابدا ، وكل شىء يتجمع ، ويزداد بيت الانسان سعة وعلوا ، ويكون لقشتك شىء تسنده . لقد ربيت اولادا واحفادا ، وها هو مساء حياتك قد حان . فاغمضى عينيك ، وارقدى مطمئنة . ولا تاسى على شىء ، فانت لم تكونى ملومة فى شقائك . . .

وثرثر كوزما كوزميتش وهو يجلس على مقعد عند الباب . وكانت المرأة تكسر شظايا الخشب فاذا بها تلقى الفاس فجاة ، وتزفر عدة مرات متتالية ، ويتبلل خداها بالدموع . . . .

— يسعى الانسان ليعيش . . . واذا قطس لا احد يقول له كلمة شكر . . .

– لان حياتنا ما زال فيها ظلم . . . بينما يجب ان يقام لكل انسان نصُب جزاء على افعاله . . . وسيكون ذلك فى المستقبل ، يا آنا ايفانوفنا ، فى المستقبل ستكون الحياة طيبة . . .

– ذلك فى العالم الآخر ؟

– لا ، فى هذا . . .

– انت وحدك الابله الطيب . . .

– هذه مهنتى ، يا آنا ايفانوفنا ، ولكننى لست طيبا . . . انا محب للاستطلاع . والانسان لا يحتاج الى شفقة . الانسان يحب حين يجد اهتماما من الناس به . حسنا ، يعنى يمكن ان ازور ماريا سافيشنا ؟

– اذهب . . .

وكان كوزما كوزميتش لا يخرج من مثل هذا البيت خالى الوفاض . وفى المساء كان ينشر ويكسر الخشبة التى يكون قد اخذها من احد البيوت ، ويشعل الموقد فى النصف النسائى من البيت ، وينفخ الرماد من السماور الفائر ، ويضعه على الطاولة ، ويقص على داشا وانيسيا عن روحاته . فيقول وهو ينفخ فى صحن الشاى :

– ظهر لى منافس . صار عجوز يطوف على البيوت حافى القدمين لا يضع على جسده غير قميص من قماش الاكياس ، وقد نشر لحيته عن قصد ، وانفه المهيب بشكل غير اعتيادى يملأ وجهه . وهو يدعى الاب الغل . وقد اختلق هذا المحتال حكاية بسيطة . فهو يلج البيت ، ويجلس على الارض ويبدأ بالترنح وتشمير الذراعين ، ويولول : «هذا جزاؤك ، يا الغل . وانت لم تصدق ، تفو ، تفو . . رأيت بعينيك ، ولمست بيديك . تفو ، تفو ، تفو . . .» والمستمعون اليه يفغرون افواههم ،فيمثل برهة اخرى ويقول : قبل ايام ، فى ليلة الجمعة وضعت امرأة زوجها فى الجيش الاحمر مولودا ممتلئا له اسنان . وقد غسلوه وقمطوه ، ووضعوه على يدى امه . فتخرج الام ثديها ، وتقدمه له ، فلا يأخذه ، بل ينظر اليها نظرة ذات معنى ويقول : «ماما ، ماما ، ها انا قد جئت ! . . .» – رشف كوزما كوزميتش من صحنه بصوت عال وضحك – سيأخذ الغل زبائنى منى . انه غيور ! اليوم التقينا فى احد البيوت فاشار باصبعيه على صدغه اشارة ساخرة وقال :

هل جئت يا كوزما لتأخذ فضلاتى ؟ اذا اخذت تتعقبنى فستعرف طعم عصاى . . .

قالت داشا بحدة :

– اترك كل هذه الحماقات ، يا كوزما كوزميتش ، والتحق فى الخدمة السوفييتية ، لا بأس ، لا بأس ، ستدبر امرنا على الجراية وحدها . . . والا فقد بدأ الناس يتحدثون عنك حديثا غير جميل ، وهذا يزعجنى كثيرا . . . .

وافاقت اليسيا من احلامها المرفرفة كعادتها دائما وقالت :

– اليوم تحدثت مع شخص ، انـــه خنزير – ولوت تعابير وجهها ونغمات صوتهـا – كنت جالسـة اقرأ بالطبع ، فيأتى رجل يشتغل عندنا فى قسم التموين المدنى ، مهدم رخو معوج الفم .

«اود كثيرا ان اتعرف بعمك . .»

«اى عم ؟»

«الذى تعيشين معه . . . بحاجة الى ان استمع الى نصيحة روحية منه . . .»

«انه لا يقدم اية نصائح . . .»

«ولكننى سمعت العكس . الكثيرون يأتون اليه ويجدون عنده تسرية . . .»

«يا رفيق ، لا وقت لى لسمـاع سخافاتـك . ها انت ترانى مشغولة . . .»

فيسر فى اذنى مع لعابه :

«الم تسمعى بالطفل الذى يتكلم ؟ . . .»

«اذهب الى الشيطان . . .»

«لا حاجة الى الذهاب بعيدا ، نحن منذ زمان مـع الشيطان . . وذلك الطفل اليس المسيح الدجال ؟

قالت داشا : – شىء مزعج جدا جدا .

– نعم ، وحشة – قال كوزما كوزميتش ذلك ، وصب لنفسه قدحـا آخر من الماء الفائر وهو ساهـم – وحشـة تزرع الرنين فى الآذان . ومـع ذلك فان الروسى مولـع بالاستقصاء ، وهو الى ذلك سريـع التأثر . وله رأس نفيس . وكل ما يحتاج اليـه هو المعرفة والطريق الصحيح للخروج من هذه الشربكة البيزنطيـة . منذ زمن

طويل تراودني الرغبة ، يا صاحبيّ العزيزتين النفيستين ولكن دون ان اعقد العزم ، تراودني الرغبة في ان اقترح عليكما الانتقال الى موسكو .

– الى موسكو ؟

تساءلت اليسيا واتسعت عيناها الزرقاوان .

– الى النور ، الى الافكار ، اقرب الى القضايا العظيمة . واقطع لكما عهدا بان اكف عن شيطنتي . . . فانا نفسي قد قرفت منهـا منذ زمان . . . منـا ان رايت صورتي – الاب الغل – حتى اصابتني الغم ، وتملكني كليا . . .

قالت داشا :

– الى موسكو ، الى موسكو ! عندنا هناك مكان نلجأ اليه ، فقد بقيت لكاتيا شقة تعيش فيها ماريا كوندراتيفنا . . . ربما لم يبق منها شيء الآن ؟ آه ، يا كوزما كوزميتش ، ايها العزيز ، دعنا لا نماطل في الامر . . . فنحن هنا نعيش على ما يقع في اليد ، ونبيع اعز الاشياء لدينا . . . وانت اصبحت هنا انسانا اخر اسوا . . . اسمع ، في موسكو ، ستدخل اليسيا مدرسة المسرح في الحال . . .

لم تقل اليسيا شيئا في الرد على ذلك ، سوى انهـا احمرت ، واسبلت جفنيها .

– كوزما كوزميتش ، اذهب غدا لتعرف هل هناك سفن ذاهبة الى ياروسلافل ؟ . . .

واستولى الانفعال على داشا ، فصمتت وتنهدت . قوس كوزما كوزميتش ظهره ، وضغط براحتيه على بطنه ، وفكر في ان من المحتمل الا تكون في موسكو مجازفة تذكر بخصوص اطعام المراتين ، وعند الضرورة القصوى فان لديهم جواهر داشا الغالية المخفية سرا . . . . ثم ان في الامكان ان ياخذوا معهم من كوستروما زهاء بودين من طحين الجودار . . . ثم كيف افلت من لسانه موضوع السفر هذا ! ولكن الى الاحسن ، بالطبع . . . واخذ يؤلف في ذهنه رسالة توضيحية لايفان ايليتش الذي تلقى منه قبل فترة بطاقة بريدية قصيرة يعلن فيهـا انه حي ومعافى مع الحب والقبل .

اتكأت اليسيا بمرفقها على المنضدة ، وحدقت في الضوء الواهن لقنديل الصفيح ، وتراءى لها ذلك السلم (الشبيـه بسلم اللجنـة التنفيذية) الذي ستنزل فيه عارية الكتفين ساحبـة ذيل فستانهـا

الحريري وتفرك يديها الملطختين بالدم ، ثـم الصندوق الطويـل المصنوع من خشب الصنوبر – التابوت – الذي ستنهض منه وترى روميو ، وترى قارورة السم . . . .

وهكذا ظل الثلاثة جالسين طويلا قرب السماور الهامس . وكان الليل يرشق زجاج النافذة الصغيرة بدفقات حادة من المطر . ولكن لم يكن تعنيهم رداءة الطقس ، ولا تعاسة الماوى ، ولا كل الحرمانات العابرة ، فقد كانت قلوبهم تخفق بحرارة وثقة على عتبة الحياة ، وكانهم وُهبوا شبابا دائما . . . .

كان ايفان ايليتش يعتبر نفسه رجلا موزونا ، فاتـه لم يفقد صوابه مهما يكن من شيء . ولكن الذي حدث هو انه فتح زر قراب مسدسه باصابع لم تطاوعه كثيرا وبدون تفكير ، وكانما اصيب بعمى فجائي ، وسحب مسدسه ، وصوبه على راسه ، وداس على الزناد . ولكن رصاصة لم تطلق ، لان احد الاشخاص كان قد افرغ الرصاص من مسدسه لغرض من الاغراض .

التفت اليه روتشين والمفوض تشيستوكوف واخذا يعنفانه بشدة ناعتين اياه بالغر الساذج ، وبالمثقف ، وبخرقة لا تصلح حتى لمسح عجيزة حصان عجوز . وقد فعلا ذلك في حقل ، حيث ترجلوا من خيولهم عند تل دريس اسود من المطر . وعلى مسافة غير بعيدة كانت تقف كوكبة الخيالة ووحدة المقر على صهوات الخيول . وكان ذلك كل ما تبقى من لواء تليغين .

فقد نفذ فيلق مامونتوف الى مؤخرته بجبهة عريضة وقطع كل اتصالاته ، وحطم وسائل الاتصال ودمر مستودعات التموين والذخيرة في قرية غايفوروني وفي يوم واحد تحولت مؤخرة اللواء كلها الى فوضى انعدم فيها كل اتصال باية نقطة قيادية ، فتراجع الرجال في وحدات مشتتة وفرادى واختباوا ، وراحوا يهيمون على وجوههم .

ان كلا الفوجين للمشاة وجد نفسه في المصيدة قبل ان يفيق على نفسه . فقد هاجمهما رجال مامونتوف من الخيالة من المؤخرة ، والخيالة القوزاق المترجلون من المقدمة . وترك المقاتلون الحمر الجبهة ، وتشتتوا شذر مذر .

واتضحت حجوم الكارثة شيئا فشيئا ، وبالتدريج ، سار تليغين ومعه كوكبة الخيالة ووحدة المقر فى البحث عن لوائه . كان ما يزال يأمل فى ان يجمع بعض الفلول ، فقد زال الذعر ، وكان مامونتوف بعيدا ، الا انه سرعان ما اتضح ان من المستحيل ان يجمع اناسا من تحت السماء الرصاصية ، وبين اكداس الدريس المنتفخة ، والحقول التى يتعذر فيهــا السير ، والمنخفضات والاجمات حيث يخيــــم الضباب . . . فقد ذهب رجال للبحث عن احدى وحدات الجبهة للانضمام اليها ، وراح بعضهم يجوبون الضياع يسالون اهلها من تحت النوافذ اذنا فى ان يدخلوا ليدفئوا انفسهم بينما اهتبل آخرون الفرصة فولوا هاربين بعيدا عن هذه الاماكن الى مواطنهم وزوجاتهم ومواقد بيوتهم .

عثر تليغين وروتشين والمفوض تشيستوكوف مصادفة على رجلين من الفوج التاسع والثلاثين منهكين الى حد الاعياء ، حتى لم يبق لهما الا ان يجلسا وراء تل دريس ، وقد رويا للثلاثة قصة بائسة جدا . .

قال احدهما :

– عبثا تجوالكم فى الحقل ، فانكم لن تعثروا على احد . كان هناك فوج وزال .

وبقى الآخر جالسا وظهره الى كومة الدريس وكشر عن اسنانه :

– باعونا ، وهذا كل ما فى الامر . . . اتظنون اننا لا نفهم فى الاوامر العسكرية ؟ نحن نفهم كل شىء . . باعونا . . . اللعنة على القيادة ! اعطونا العلة من الكارتون لاحذيتنا ! – وحرك اصابعــــه البارزة من حذائه وقال : – انتهينا من القتال . . . النهاية . . . آمين !

وعند كومة الدريس هذه انهار تليغين . طافت فى ذهنه مقدمة السيارة المريعة بمصباحيها المتباعدين . اين فرصة التبرير امام هؤلاء ! لقد ضيع كل شىء بسماحته الكسول ، وتركه يفلت من بين يديه ، ويزيغ . . .

قال لروتشين وتشيستوكوف :

– كفاكما صياحا على . حسنــا ، ضعفت ، جبنت ، وانـــا الملوم . . . وغضن وجهه بصورة مقرفة ، واخذ يضع مسدسه فى قرابه – كنت محظوظا طوال حياتى ، وكنت انتظر دائما الانهيار فى يوم ما . . . حسنا ، دعوا المحكمة العسكرية الثورية تصدر حكمها . . .

– اذهب الى الشيطان ! ليس الامر يخصك الآن ! – صاح روتشين به وقد اختلجت عضلة خده – الى اين تقود الكوكبة ؟ الى الشرق او الى الغرب ؟ ما هى خطتك ؟ ما هى المهمة الآتية ؟ فكر !

– اعطنى الخارطة . . .

تناول تليغين الخارطة من يدى روتشين فى غضب ، وتمتم ، وهو ينظر اليها ، شاتما نفسه بشتى العبارات الفاحشة . وتراقصت امام عينيه اسماء المدن والقرى والضياع . ولكنه تغلب على ذلك ايضا فى آخر الامر . وبعد نقاش تقرر السير شرقا فى محاولة للاتصال بوحدات الجيش الثامن .

وقضوا بقية النهار يسيرون عدوا كلما كان ذلك ممكنا . وحين ادلهم الليل حتى لم يعودوا يرون آذان خيولهم ارسلوا رجال الاستطلاع للبحث عن قرية روجدستفينسكويه التى اختفت غير بعيد فى الظلام الدامس . وتوقفوا دون ان يترجلوا عن خيولهم وانتظروا طويلا . قرب فاديم بيتروفيتش حصانه من حصان تليغين ، ومس ركبته بركبته وتساءل :

– حسنا ، ربما يمكن ان توضح الآن ؟ هل يمكن ان اتحدث اليك ؟

– ممكن .

– لماذا قمت بذلك المشهد المسرحى ؟

– اى مشهد مسرحى ، يا فاديم ؟

– مع المسدس الفارغ . . .

– ربما فقدت عقلك ! . . – وانحنى ايفان ايليتش على سرجه نحوه ، ولكنــــه لم يتبين فى الظلام غير كتلـــة غامضة ذات عينين سوداوين – فاديم ، اذن لم تكن انت الذى افرغ الطلقات ؟

– لســت انا الذى افرغ الطلقات من مسدسك . . . بدات افكر فى انك اكثر مكرا مما تبدو . . .

– انا لا افهم . . . جبنت . . . لا علاقة للمكر هنا . . . لو كنت فى مكانك لما ذكرت ذلك . . .

– لا تراوغ ، لا تراوغ . . .

كانا يتحدثان بخفوت . وكان روتشين يرتجف بكل كيانه مثل كلب صيد فى طوق .

– ان رجال الكوكبة جميعا رأوا ذلك المشهد المقزز عند كومة الدريس . . . اتعرف ماذا يقولون ؟ يقولون انك مثلت كوميديا . . . تريد ان تنقذ حياتك عند المحاكمة العسكرية . . .

– لا افهم ماذا تعنى فى كلامك !

– لا ، يجب ان تصغى الىّ ! – وبدا الحصان تحت روتشين يضطرب ايضا – يجب ان ترد على بكل اخلاص . . . ففى مثل هذه الايـــام يعرف معدن الانسان . . . هل تحملت المحنة ؟ اتدرك ان لطخة قد علقت بك ؟ . . . وانت لا تملك الحق فى ان تلطخ نفسك . . .

وثب حصانه ، وضرب وجه تليغين بذيله بقوة . عندئذ قال ايفان ايليتش بصوت مبحوح يكبته تشنج فى حلقومه :

– ابتعد عنى ، والا طعنتك ! . . .

وفى تلك اللحظة قال المفوض تشيستوكوف فى الظلمة :

– كفاكما ثرثرة ، ايها الرجلان . انا الذى افرغت الطلقات .

لم يرد روتشين ولا تليغين بشىء عن ذلك . كانا يتنفسان تنفسا ثقيلا احدهما من المساءة الشديدة والثانى من امتلاء النفس بالبغضاء ، وكلاهما لا يرى الآخر . ومن الظلام تردد اصوات قصيرة كالطلقات :

«قف ، قف !» «من انتم ؟» «اتركنى» «من اين انتم ؟» «نحن رجالنا ، وانتم من اى جانب ؟ اللعنة عليكم» .

كان ذلك اصطدام دورية باخرى . دار الخيالة بعضهم حول بعض خائفين فى هذه الظلمة الحالكة ان يجردوا اسلحتهم ، وغير راغبين فى نفس الوقت من ان ينفصلوا لما تملكهـــم من الحماس الحانق ، فتصايحوا وتشاتموا ، حتى احس الطرفان من قوة التعابير ان كليهما من الحمر .

«لماذا تمسك لجام فرسى ؟»

«من اى وحدة ؟»

«لا شان لك فى هذا ، يا ابن . . . نحن وحدة فرسان كبيرة» .

«اين وحدتكم ؟»

«تعال معنا . . .»

وتعبت كلتا الدوريتين اخيرا ، وسارتا بهدوء الى الكوكبة . وتبين ان قرية روجدستفيتسكويـه على مسافـة غير بعيدة ، ووراء

غابة ونهر صغير . وحين سئل احد رجال الدورية الاخرى عن الوحدة الموجودة فى القرية اجاب بغير كثير من الادب :

– ستصلون ، وتعرفون . . .

كان سميون ميخائيلوفيتش بوديونى واثنان من قواد فرقه يجلسون وراء طاولة فى احد الاكواخ يشربون الشاى من سماور كبير . وحين راى سميون بوديونى الرجال الثلاثـــــة – تليغين وروتشين وتشيستوكوف – يدخلون قال بلهجة مرحة :

– وصلت تعزيزاتنا . اهلا وسهلا . اجلسوا واشربوا الشاى معنا .

اقتربوا من الطاولة ،وتصافحوا مع بوديونى الذى كان ينظر نظرة مبطنة الى آمر اللواء الهائم واركان حربه (وكان مطلعا على كل شىء) وتصافحوا مع قائد الفرقة الرابعة ، وهو رجل قصير القامة له شاربان مهيبان يمكن ان يصلا الى ما وراء اذنيه بسهولة – ومع قائد الفرقة السادسة الذى مد لكل واحد منهم يدا كبيرة ، وضغط بها على ايديهم بقوة وكانه يلوى حدوة فرس ، وقد انطبعت على وجهه الفتى المورد طمانينة عميقة .

سال سميون بوديونى عمـــا اذا كان قد هيىء لوحدتهـــم مبيت جيد ، وهل لديهـــم شكاوى او طلبات . رد روتشين بانهم قد نزلوا فى احسن مـــا استطاعوا ان يوفروه ، وانـــه لا شكاوى لديهم .

– خير على خير ، اذن – اجاب بوديونى الذى كان يعرف جيدا ان القرية التى نزل فيها فيلقه لقضاء راحة قصيرة فى الليل لا توفر موضع راحة حتى لذبابة – ولماذا انتم واقفون ؟ اسحبوا المصطبة واجلسوا . انا اتذكرك جيدا يا رفيق تليغين . ان رجالك استقبلوا قوزاق الدون بحمام حار ، آنذاك . . . – واجال بصره فى الجالسين حول المائدة مقلصا عينيه فى رضى شديد ، وهز قائد الفرقة السادسة راسه مؤكدا ان القوزاق بالفعل قد استقبلوا بحمام حار ، بينما هز قائد الفرقة الرابعة وجهه الكالميكى بفخر وجفاف ، وتابع بوديونى

قوله – اذن فى هذه المرة عيث بكم ماموتتوف بعض الشىء . . . ماذا جلبتم معكم ، جماعة المقر او وحدة قتالية ؟

قال تليغين :

– وحدة قتالية ، كوكبة معززة .

– وما هى حالة خيولكم ؟

– فى حالة ممتازة – اجاب روتشين بسرعة – قوائمها الامامية بحذوات .

قال بوديونى مندهشا :

– تصوروا ، حتى القوائم الامامية بحذوات . اظن لا حاجة لكم فى الذهاب للبحث عن الجيش الثامن ، فقد لا يكون فى مكانه الآن . . .

قال تليغين :

– يجب ان ارفع تقريرا لقائد الجيش .

– قدم التقرير لى . . . ماذا تقولان ، يا قائدى الفرقتين ، فى ان نضم آمر اللواء وكوكبته المعززة ؟

هز كلا القائدين رأسيهما موافقين . تناول بوديونى قبضة تبغ من علبة صفيح ، واخذ يلف سيكارة . وكرر قائلا :

– لا حاجة لكم فى الذهاب بعيدا . انضموا الينا . لقد جلسنا ذات مرة نفكر انا وقائدا الفرقتين وقررنا بعد التفكير بان خيولنا اخذت تسمن ، ومقاتلينا يضجرون ، فلنذهب شمالا للبحث عن ماموتتوف . وهكذا نجرى ، هو يبتعد عنا ، ونحن نلاحقه . . .

كان سميون بوديونى يمزح ، بينما كانت الامور شديدة الخطورة . فبعد ان عرف بوديونى ان فيلق ماموتتوف قد خرق جبهة الحمر جازف برأسه وخالف الامر الشخصى لرئيس المجلس العسكرى الاعلى فى الاستمرار بلا هوادة فى تنفيذ الخطة العسكرية التى – ان لم تكن تنطوى على خيانة ، فان غباءها وفشلها المحقق قد تبديا الآن بوضوح . وانطلق بمبادرته الخاصة لملاحقة ماموتتوف . وكان بوديونى وقائدا فرقتيه يتصورون جيدا لانفسهم صريف الاقلام القوى على الورق فى مكتب القائد العام ، والمخاطر الفواحة برائحة الموت تلك التى تنتظرهم فى نهاية الخط المباشر . ولكن انقاذ موسكو كان

اغلى لديهم من رؤوسهم . ولم يروا انقاذ موسكو الا فى ملاحقة ماموتتوف فورا ، وفى دحر فيلق الخيالة الذى هو افضل فيلق لدى البيض . وكانوا لا يشكون فى ان هذا الفيلق لن يصمد لضربات سبعة آلاف مقاتل بالسيف فى فيلق بوديونى ، وانه سيصرع لا محالة فى مكان ما فى الحقول العريضة بين تسنا والدون . وكان عملا باسلا ان يلحق بماموتتوف الذى كان قد اخذ من قطاع الطرق عادة تبديل الخيول المنهكة المصابة فى القرى والضياع .

كانت افواج ماموتتوف من قوزاق الدون – وهى افواج جريئة اسكرتها الانتصارات – تضم عددا اكبر بكثير . ولكن ماموتتوف كان لا يسعى الى الالتقاء ببوديونى ، فقد كان يخاف هذا الخصم المحنك الذى يلاحقه . اذ لم تكن القوة التى تتصدى له خيالة من الانصار بل ارهب قوة لا يعرف الا الله عقبة الالتقاء بها فى ارض مكشوفة . انها خيالة روسية نظامية . كان بوديونى يزحف باقل سرعة ، ولكن بذكاء اشد . فتارة كان يختار طريقا اقصر او اكثر ملاءمة ، وتارة كان يحصر ماموتتوف فى اماكن كان من الصعب الحصول فيها على علف للخيول او على خيول مستراحة . .

واستمرت هذه المطاردة ، هذه اللعبة الخطرة لقوتين جبارتين من الخيالة تسير من يوم الى يوم . وكانت الادخنة والحرائق فى ضباب الخريف تشير الى الطريق الذى يسلكه ماموتتوف . وكان ماموتتوف يهاجم الوحدات الحمراء فى المؤخرة ، وينسحب سريعا فى ناحية . واخيرا راوغه بوديونى ولحق به . ففى صباح باكر ، وحالما لاحت معالم الصفصاف القديمة سوداء على خلفية حدائق الخضروات وثب سميون بوديونى ومعه كوكبة الفرسان الى قرية بائسة كان ماموتتوف يقضى ليلته فيها .

الا ان عربة من ثلاثة خيول صهباء خرجت فى الحال من بوابة بيت فى الطرف الآخر من القرية وراحت تبتعد . كان ماموتتوف فى هذه العربة المكشوفة يتلفت على مقعده حاسر الرأس محلول المعطف ، وقد اطلق عدة رصاصات على فارس فى المقدمة ذى شاربين وعباءة قوزاقية سوداء كان يلاحقه ، فقد عرف انه بوديونى ، ولكن القربينة تراقصت فى يديه . وطوردت العربة ، الا ان خيول الدون الصهباء حملتها بعيدا كالريح .

كانت الصرخات الوحشية وصلصلة السلاح والطلقات المنفردة ما تزال تتردد فى افنية البيوت . لقد كان حرس ماموتتوف الشخصى من القوزاق يقاتل باستماتة . طاف رجال بوديونى فى القرية ، واخذوا يخرجون من المخابئ والزوايا الى الشارع اناسا ركبهم الذعر ، منهم من خرج فى لباسه الداخلى فقط ، ومنهم من خرج فى حذائه لا غير ، وتبين انهم موسيقيون . احاطوا بهم ، واخذوا يضحكون منهم . تقدم سميون بوديونى ، ولما عرف جلية الامر طلب ان تجلب لهم آلاتهم الموسيقية .

ولما راى الموسيقيون ان البلاشفة لا يقتلونهم بالسيوف ، بل يضحكون منهم فقط ، تراكضوا وارتدوا ملابسهم بنشاط ، وجلبوا آلاتهم الهوائية — هيلوكونات ضخمة ، وابواقـــا وترومبيطات — وكانت جميع الابواق من الفضة الخالصة . واندهش رجال بوديونى ، وتمطقوا . انها لغنيمة عظيمة !

قال سميون بوديونى :

— على الاقل حصلنا على شعرة من جلد خنزير . . . اتعرفون عزف «النشيد الاممى» ؟

كان الموسيقيون يعرفون عزف كل ما يشتهى المرء ، فقد كان بينهم طلاب من كونسرفاتور موسكو ، وقد قضوا عاما ونصف عام فى البحث عن مورد رزق ، وخبز ابيض متنقلين من مدينة الى اخرى ، هاربين من اعمال الاباحة والاستجوابات وقتال الشوارع حتى وصلوا الى روستوف فجندوا . بل ان قائدهم — وهو رجل ذو انف اسفنجى ومشبع بالكحول — اعلن انه ثورى اصيل قديم ، نظروا الى انفه المورد المزرق وصدقوا بانه لن يلحق بهم اذى .

وتملص ماموتتوف مرة اخرى من النزال ، وخرج فيلقه بمناورة سريعة من التماس . واستمرت الملاحقـــة .ولكن مقصده اضحى واضحا ، وهو الخروج من خلال جبهة الحمر الى جماعته . وكان بوديونى يخشى ذلك اكثر من اى شىء آخر . ذلك لان حملته كلها ستكون بلا جدوى ، وعند ذلك لن يقتصر الامر على تحمل المسؤولية امام القائد العام ، بل اسوا من ذلك ، امام رئيس المجلس العسكرى الاعلى .

كما شاء سوء الحظ الا يفلح فى اقامة اى اتصال ويعرف ما يدور فى العالم حوله فى تلك الايام . . .واخيرا وصلوا الى السكة الحديد .

هرع بوديونى على حصانه الى محطة القطار ومعه رئيس اركانـــه والمفوض ، وقعد الى جهاز الارسال . وتلقى عن طريق التلفون اخبارا جعلته يرسل فى طلب قائدى الفرقتين وامراء الوحدات الكبار للوصول الى المحطة على الفور .

واجتمعوا فى مشرب المحطة ، حيث كانوا يرون من خلال النوافذ الكبيرة المحطمة تقدم كوكبات الخيالة ، وعبورها سدة القطار . والى الخلف منها يمتد غروب موحش ملاصق للارض تحت ثقل السحب . صعدت صفوف الفرسان—والاشارات على رماحها—على المنحدر، وبدت مقدودة من حديد ، شديدة البأس على خيول قوية . ذهل تليغين من التعبير المرتسم على وجه فاديم بيتروفيتش روتشين ، الذى كان ينظر فى النافذة — فى انعكاس الغروب . فقد كان وجها ترتسم عليه الانفة والجمود وكانما فى حالة انفعال قوى .

— يجب ان نعرف اى شىء هى . . . — قال بصوت كامد ، وتقدم تليغين ليسمع بشكل اوضح — لقد نسينا . . . ليس هناك عقاب يساوى مثل هذه الخيانة . . . قبّل الارض على غفرانها لك . . .

كان فاديم روتشين يتحدث على هذا النحو لاول مرة بعد الشجار عند كومة الدريس . وكان تليغين يدرك انه يتعذب ، وانه يصمت لا عن انفة ، بل عن يأس لانه لم يكن فى وسعه ان يطلب غفرانا من تليغين بكلمات عادية من مثل «اعذرنى ، يا ايفان . . .» والآن ، وفى حالة التوتر الطويلة والتعب وصل الى لحظة الاحساس الطافح بوطنه المضاع والمنسى والمكسوب من جديد ، وكان ذلك فى نفس الوقت دعاء الى الصفح عنه . . . .

سعل ايفان تليغين ، واراد ايضا ان يقول شيئا طيبا لروتشين شاطبا على شجارهما الاحمق ، وكانه لم يكن . . . . وفى تلك اللحظة خرج بوديونى من قسم التلفون ، واحاطوا به فقال :

— ايها الرفاق ، هناك اخبار كبيرة الشان . . . ولنبدأ بالاخبار المنغصـــة . ان كوتيبوف استولى على اوريل . ودورياتـــه قد بلغت مسافة قريبـــة من تولا ، وهو فى هذا الهجوم دق اسفينا عريضا فى جبهتنـــا . وتراجع الجيشان الثامن والعاشر الى الشرق ، والتاسع والثالث عشر الى الغرب . . . وكان ذلك فى الاسبوع الماضى — وصمت بوديونى والتمعت عيناه بالق مرح — ومنذ ذلك الحين تغير الوضع

تغيرا كبيرا ، يا رفاق . . . اولا يمكنني ان افرحكم بان القيادة العليا كلها قد استبدلت ، ولم يعد رئيس المجلس العسكرى الاعلى يتصرف في الجبهة الجنوبية . . . واسترجعت قواتنا اوريل . . . ومزقت افواج كورنيلوف وماركوف ودرزدوف الممجدة شر" ممزق ما بين اوريل وكرومى . . . ان ما انتظرناه طويلا قد بدأ . . . والتفاصيل غير معروفة حتى الآن . . ولكن مجموعة صدامية خاصة تعمل بنجاح ضد كوتيبوف . . .

وتوقف سميون بوديونى ثانية مديرا في يديه قصاصة من شريط التلفون اللاسلكى ، وتحرك شارباه ، والقى نظرة ضارية على امراء الوحدات الملتفين حوله .

— ان عمليات فيلقنا لم تجر وفق امر القائد العام ، ولكن خلافا له . . . فقد امرنا بالتحرك جنوبا الى سهوب سالسكيه ، الى مانيتش ، حيث كاد الجيش العاشر ان يتحطم ، وصعدنا الى الشمال . وبدلا من ان نكون على الجانب الايسر من الدون كنا على جانبه الايمن ، وبدلا من ان نبتعد عن خيالة الدون ، تشبثنا في ذيلها . وهذا غير صحيح ، ولا يجدى شيئا ! . . . اما بالنسبة لتفكيرنا البسيط ، فان لنا عقولا فلاحية قوزاقية ، ولا يجدر ان يكون لنا تفكيرنا الخاص ، وبالمقابل فان في اركان القائد العام عقولا متعلمة ، مثقفة . . . والذى حدث اننا سرنا واوامر القائد العام سارت وراءنا وانا لم استلمها ، ولم اقراها : قالت اذا بدات تقرؤها فان السيف سيسقط من يدك في اغلب الظن . . . ومع ذلك ، فسواء اردت ام لم ارد فان الامر قد لحق بى . . . والامر خال من الكلمات المطولة — وبسط شريط التلفون حتى لا يلتف حول نفسه ، وقرا — «الى قائد فيلق الخيالة بوديونى . . . تشير معلومات الاستطلاع الاخيرة الى تحرك خيالة العدو من منطقة فورونيج الى الشمال . آمر قائد فيلق الخيالة بوديونى بتحطيم خيالة العدو . . .» وهكذا كل شيء باختصار ووضوح . يعنى ان عقولنا قد اصابت بتفكيرها . . . والامر موقع من قبل رئيس المجلس العسكرى الثورى للجبهة الجنوبية ستالين ، في مقر القيادة العامة في سيربوخوف .

عادت كاتيا الى موسكو ، الى نفس زقاق ستاروكونيوشنى قرب شارع اربات ، حيث يقع البيت ذو الطابق العلوى (الذى انتقل اليه

نيقولاى ايفانوفيتش سموكوفنيكوف في بداية الحرب مع داشا قادما من بطرسبورغ والذى عادت كاتيا اليه من باريس) ونزلت في تلك الحجرة التي شهدت جزع حياتها اليائس في ذلك اليوم الكئيب ، يوم دفن نيقولاى ايفانوفيتش . آنذاك استلقت على الفراش ، وتغطت بمعطفها الفرائى ، وتمنت ان تغادر الحياة ، وتنهدت وانسلت من تحت معطفها ، وسارت الى غرفة الطعام لتجلب شيئا من الماء ، ولتشرب المورفين ، وفي ضوء الغبش رأت فجاة حياتها الثانية : كان فاديم بيتروفيتش روتشين يجلس في انتظارها . . . .

والآن انتهت هذه الدورة الثانية من حياتها ، مترعة بالجهد والحب والعذاب ، وخلفت وراءها طريقا طويلا جدا من الخسائر التي لا ترد . وقد احست كاتيا بذلك احساسا حادا حين خرجت في اواسط تموز من محطة كييف تحمل صرتها . . . رأت اطفالا صغارا يسبحون في نهر موسكو الناضب واصواتهم تتردد في السكون مجلجلة موحشة ، ورجلا عجوزا يجلس على العشب الذابل عند الشاطئ ومعه عود لصيد السمك . ولما خرجت الى شارع سادوفيا حيث اختفت الاسيجة المشبكة التي كانت تحيط بالممشى الاوسط المشجر كله ادهشها السكون المخيم ، فلا صوت غير حفيف اشجار الزيزفون الهائلة مغطية الفيلات الصغيرة المقفرة بظلها الاخضر المهيب . وفي شارع اربات الذى كان يزخر بالناس لم تجد تراما ولا عربات اجرة ، بل وجدت بعض السابلة يمرون عبر سكة الترام الصدئة مطرقى الرؤوس . سارت كاتيا حتى زقاق ستاروكونيوشنى ، وانعطفت فيه حتى رأت بيتها ، فارتخت رجلاها . وقفت طويلا على الرصيف المقابل . كان هذا البيت يتراءى لها في ذكرياتها بيتا جميلا ذا لون ذهبى واعمدة بيضاء مسطحة ، ونوافذ نظيفة تنسدل عليها الستائر . . . وخلفها كانت تعيش ظلال كاتيا وفاديم روتشين وداشا . . . أمن المعقول ان يختفى كل ما كان دون ان يترك اثرا ؟ أحقا ان الحياة تولى كالحلم في راس على وسادة ، وبعد ان تخادع خداعا عقيما تتلاشى بعد زفرة الاستيقاظ ؟ لا ، لا ، في تلك الايام الخوالى تجمد اثنان : كاتيا في مكان ما في غمرة المسرة غير المتوقعة حينما القت قارورة المورفين على البساط وتدلت فاقدة القوى على ذراعى فاديم بيتروفيتش روتشين المتصلبتين والثانى هو الذى كان يهمس لها بكلمات الحب وكانا قد اسود من الانفعال . لا ، لم يكن

ذلك حلما ، ولم يختف . انه ما يزال هناك وراء النوافذ السوداء وهناك ايضا ليلتهما المؤرقة الاولى ، فى القبل الصامتة العميقة كالعذاب ، وفى الكلمات المتكررة والمتجددة ابدا والمعبرة عن الدهشة من ان تكون هذه المعجزة الوحيدة على الارض ، المعجزة التى شابكت بمثل هذه القوة يدين سمراوين قويتين ويدين بيضاوين رقيقتين هما اكثر الاشياء رقة واكثرها رجولة . . .

كان البيت يقف معوجا بادى البؤس مسلوخ الجدران ، وليس فيه اعمدة بيضاء ، اختلقتها كاتيا اختلاقا . كانت النافذتان الاخيرتان من الطابق الاول قد غطيتا من الداخل باوراق الجرائد ، اما النوافذ الاخرى فقد تلطخت بلطخات من الوحل اليابس مما يدل على خلوها من الساكنين . . . وكان زجاج الطابق العلوى حيث كان مخدع داشا ، قد هشم كليا .

عبرت كاتيا الشارع ، ودقت الباب الخارجى الذى تعمقت فى طلائه البنى خطوط طويلة . دقت كاتيا طويلا حتى تنبهت الى ان ثقبا مغلقا بالغبار كان فى موضع المقبض . عندئذ تذكرت ان الوصول الى الباب الخلفى يقتضى الانعطاف فى شارع جانبى . كان باب الحديقة مفتوحا ، وقد سارت منه عبر فناء صغير لما فيها العشب فى ممشى مطموس المعالم . اذن ، فالمنزل لم يكن خاليا ، على اية حال .

دقت كاتيا باب المطبخ . وبعد قليل فتح الباب رجل صغير القامة شاحب بلون الورق اشقر الشعر يرتدى نظارة له راس كبير اشعث :

– صحت باعلى صوتى ان الباب غير مغلق . ماذا تريدين ؟

– اعذرنى ، اردت ان اسأل : اما تزال ماريا كوندراتيفنا العجوز تعيش هنا ؟

– نعم ، هنا – رد بصوت تناقش فيه المسائل الحسابيـــة – ولكنها توفيت .

– توفيت ! متى ؟

– منذ زمن غير بعيد . لا اتذكر بالضبط .

– ماذا سأفعل الآن ، اذن ؟ – قالت كاتيا حائرة – وهل شقتى مشغولة ؟

– انا لا اعرف ، سواء اكانت شقتك ام لا ، فانها مشغولة . . .

واراد ان يغلق الباب ، الا انه رأى عينى المرأة الجميلـــة مغرورقتين بالدمع فتريث .

– انه لامر مزعج . . . انا قادمة من محطة القطار راسا ، فاين سأذهب الآن ؟ غبت عن موسكو عامين ، وقـــد عـــدت الى بيتى ، فاذا . . . .

– عدت الى بيتك ؟ – اعاد السؤال بدهشة – الى موسكو ؟ . . .

– نعم . قضيت الوقت كله فى الجنوب ، ثم فى اوكرانيا . . .

– عجيب ، انت مجنونة ؟

– كلا . . . ولماذا ؟ هل العودة الى البيت امر غير معقول ؟

اختلج احد طرفى شفتيه الرقيقتين فى وجهه الناحل الشاحب كلون الورق ، وتغضن خده الرخو :

– الا تعرفين ان الناس يموتون جوعا فى موسكو ؟

– سمعت ان الطعام عسير . . . ولكننى لا احتاج الى الكثير منه . . . ثم ان ذلك شىء مؤقت . حين تشتد الضائقة يجب ان يكون الانسان فى بيته .

– من انت ، على اية حال ؟

– انا المعلمة يكاترينا روشتينا . . . انتظر ، سأريك . . .

واخذت كاتيا تفك عقدة كيس الجنفاص باسنانها . واخرجت شهادة مفوضية الشعب للتعليم .

– عملت فى مدرسة روسية للاطفال الصغار فى كييف حتى الجلاء . . . ثم طلب مفوض الشعب منى الا ابقى مع البيض مهما كلف الامر . . انا نفسى ما كنت اريد ان ابقى . . . واعطانى هذه الرسالة لمفوض الشعب لوناتشارسكى . . . ولكنها مسدودة بالختم . . .

قرأ الرجل الشهادة ، وقرأ العنوان على طرف الرسالة . وكانت كل حركاته متباطئة .

– فى الحق ان غرفة العجوز غير مشغولة . فاذا كنت تودين ان تسكنى هنا بالذات . . . فانتقلى اليها . . . ولكن كل شىء هنا متآكل ومتحطم . . . فى موسكو يمكنك ان تنزلى فى اى فيلا فارغة . . .

وتنحى ، وترك كاتيا تدخل المطبخ شبه المظلم الذى تكدس فيه اثاث محطم . واشار الى مفتاح غرفة العجوز المتدلى من مسمار فى الممر الملطخ بالسخام ، وانصرف بخطوات بطيئة الى غرفته (التى

كانت من قبل مكتب نيقولاى ايفانوفيتش) . فتحت كاتيا بصعوبة باب غرفة محبوسة الهواء لها نافذتان تلطخت من الخارج بلطخات جافة . كانت هذه غرفة نومها ، وسريرها ما يزال في موضعه ، وكان صندوق الادوية المحلور الذى تناولت منه المورفين آنذاك ما زال معلقا على الحائط وعلى صفاقتيه صورتان باهتتان من الفولكلور الروسى . وكانت المرحومة ماريا كوندراتيفنا قد جلبت الى الغرفة احسن ما في الشقة من اشياء – ارائك وكراسى ورفوفيات مكدسة بعضها فوق بعض ومضعضعة ومغطاة بنسيج العنكبوت والغبار .

واستولى اليأس على كاتيا . فقد كان عليها ان تبدأ العيش ، ان تبدأ الدورة الثالثة من حياتها في هذه الغرفة المكتومة الهواء المكدسة بالاثاث الزائد عن الحاجة ، في موسكو الهائلة الخاوية الجائعة المتلظية بشمس تموز . جلست على الحشية العارية ، وبكت بصمت . كانت متعبة جدا وجائعة . وبدت المصاعب المقبلة والتعقيدات اقوى من ان تتحملها قواها الهزيلة . وتذكرت كوخها الصغير المتداعى الحبيب المعبود بالقرب من المدرسة ، والحديقة الصغيرة ، والحقل ذا التلال الممتد وراء السياج ... المكنسة عند عتبة الباب ، وبرميل الماء في الرواق ، والضوء المخضوضر المتسرب عبر اوراق الشجر الى النافذة الصغيرة والساقط على دفاتر الاطفال ... والاطفال المرحين الطلقاء ، وطفلها المفضل ايفان غافريكوف ..

لماذا لم يكن من الممكن ان تبقى هناك مدى العمر ؟

نزلت كاتيا من السرير لتجلب لها شيئا من الماء لتبلل الخبز الجاف الذى جلبته من كييف . ولكنها لم تجد حتى قدحا تبدأ الحياة معه ! مسحت كاتيا عينيها وقد تملكها الغضب ، وذهبت الى الرجل الشاحب .

دقت بابه دقا خفيفا ، وقالت بصوت ناعم :

– اعذرنى ، ارجوك ، ما زلت اضايقك ...

سار ببطء ، وفتح الباب ، وتفرس في كاتيا وكأنما صعب عليه ان يفهم .

– اعذرنى ، ارجوك .. هل لديك قدح ؟ اريد ان اشرب ماء

– اسمى ماسلوف ، الرفيق ماسلوف ، اى قدح تريدين ؟

– قدحا زائدا ...

– حسنا ...

وذهب الى اعماق الحجرة تاركا الباب مفتوحا ، فرأت كاتيا كتبا كثيرة على رفوف تنوء بها مصنوعة من الخشب غير المسحوج ، وكتبا مفتوحة ومخطوطات على منضدة كتابة ، وسريرا حديديا بالسما لتناثرت الكتب عليه ايضا ، ووساخة على الارض ، وجرائد مصفرة تغطى النوافذ ، وعاد ماسلوف نحو كاتيا بنفس البطء ، واعطاها قدحا قذرا .

– يمكنك ان تاخذيه كليا ...

في المطبخ وصلت كاتيا بجهد الى حوض الغسيل الذى تكدست فيه الفضلات ولكن الماء كان جاريا فيه . غسلت القدح ، وشربت الماء بتلذذ ، وعادت الى غرفتها . ارادت كاتيا ان تفتح النافذتين ، وان تغتسل قليلا قبل ان تاكل خبزها . ولكنها وجدت من الصعب فتح الصفاقات الملتصقة . انشغلت كاتيا طويلا . ونبشت ، ودقت على المفاصل برجل مخلوعة من كرسى ، وزفرت عالية . وجاء ماسلوف على الضجة ، ووقف بعض الوقت ينظر الى كاتيا بدهشة صامتة :

– لم تريدين ان تفتحى النافذتين ؟

– من الممكن ان يختنق المرء هنا .

– أتظنين ان هواء الشارع سيكون احسن ؟ غبار وسخام ، والعفونة تتصاعد من كل افنية البيوت ...انا لا انصحك بذلك –

استمعت كاتيا لذلك وهى واقفة على افريز النافذة ، واطبقت شفتيها ، وعادت تدق برجل الكرسى من جديد – لتفرض انك ستفتحين النافذتين ، ولكن سيتعين عليك ان تسديهما في الليل من جديد ... فلا ضرورة لتضييع الجهد ...

واستجاب المفصل اخيرا . وثبت كاتيا من افريز النافذة ، وفتحت النافذة ، واطلت برأسها وتنفست هواء الشارع بنهم .

قال ماسلوف باستغراق :

– نعم ، نعم . لم تحل مشكلة المدينة بعد . – واهتزت ركبتاه فجأة ، وانطوتا ، فتلفت ليجد مكانا يجلس فيه . واتكأ على عضادة الباب ، ودس اصابعه الكبيرة وراء الحبل الذى يحزم رخوا قميصه الجنفاصى المتسخ وقال – ذاب الثلج ، وانتشر الوحل وبقيت القاذورات وجثث الكلاب والقطط الميتة ، وحتى فطائس الخيول في

الشوارع والافنية ... جرفت الامطار بعضها ، ولكن هذا ليس حلا للمشكلة ...

قاطعته كاتيا :

– قل لى ، هل الحمام يعمل عندكم ؟

– لا علم لى به ... فى احد الاوقـــات كان يعيش هنـــا سمكرى ... وكان فى ايام الاحاد ينشغل فى المطبخ والحمام بمبادرة تلقائية منه ، ولكنه رحل الى الجبهة ...

قالت كاتيا بحزم :

– من الافضل ان تنصرف . سانظف الغرفة بعض الشىء ، واغتسل واجىء الى غرفتك ... قبل كل شىء احتاج الى ان اعرف بعض العناوين ... فانا لا اعرف شيئا فى موسكو .. ايمكنك ان تساعدنى ؟

– نعم ، نعم . اليوم يوم احد ، وساظـــل طوال اليوم فى البيت ...

وسحب جسمه من عضادة الباب ببطء ، وانصرف . ادارت كاتيا مفتاح خلفه . لقد كان من المهم ان تحتد ، عندئذ ستفتقد حمية العمل . خلعت بلوزتها وتنورتها خوفا من ان تلوثهما ، وبدلت حملتها ضد الغبار . كانت الخرق متوفرة فى مختلف الصناديق بكمية وافية . نبشت كاتيا ورات بياضات سريرها مع العلامات التى وضعتها عليها . ثم وجدت قمصانها وسراويلها الداخلية ، وبعض الازواج من الجوارب المرفوءة . ان ماريا كوندراتيفنا امراة طيبة ، فقط احتفظت حتى بالاشياء القيمة هذه ! .. وبشكل عام كانت العجوز المتوفاة نهاية وجشعة ... ولكن لا باس ... لتستشرح عظامها فى التراب ...

. . . .

فى ذلك المساء اطلع ماسلوف كاتيا على مخطوطاته ، بل وقرا شيئا منها . كانت بحثـــا تاريخيـــا عن الاشتراكيين ـ الطوباويين الكلاسيكيين . قال لكاتيا الجالسة على سريره غير المرتب :

– ايبدو لك غريبا انه من الممكن ان يدرس الطوباويون فى مثل هذا الوقت ؟ الطوباوية فى عهد الدكتاتورية البروليتارية ! اين اذن المنطق الداخلى ؟ اعترفى بانك مستغربة ؟

هزت كاتيا راسها مؤكدة استغرابها ، وكانت لا تكاد تفتح عينيها .

– ومع ذلك ففى الامر منطق ... انا اتوقف بالتفصيل على محاولات بعض الاشخاص وجماعات صغيرة فى منتصف القرن التاسع عشر فى تطبيق الافكار الطوباوية . وهذه صفحة من اطرف صفحات تاريخ الحركة الاشتراكية ...

واستدار عن كاتيا ليحجب عنها ابتسامة ساخرة كشفت عن اسنانه الصغيرة .

– ولكننى مضطر الى الكتابة فى ايام الآحاد فقط . فانا منشغل بالعمل فى لجنة المنطقة الحزبية ، ونحن قليلون اذ لم يبق فى موسكو غير عدد ضئيل من الحزبيين ... وانا لم اعف من التعبئة للجبهة الا بسبب صحتى الضعيفـــة للغايـــة ... انـــا منهك جسمانيـــا ومعنويا ...

وعلى رغم من اعتلال صحته وضموره الظاهرى التام فقد كان على قدر كاف من النشاط . فى اليوم التالى اصطحب كاتيا الى مفوضية الشعب للتعليم ، وعرفها بالرفاق الضروريين لها ، وساعدهـــا فى التسجيل والحصول على بطاقات التموين .

ولولاه لضاعت كاتيا تماما فى المفوضية الضخمة باقسامهـــا المتعددة ومكاتبها ورؤساء الاقسام لا سيما وان روح القلق والنفور من الروتين كانت تدفع المستخدمين مرة فى الاسبوع على الاقل من مكان الى مكان ، ومن طابق الى طابق مع مكاتبهـــم ودواليبهـــم وارشيفاتهم ، بل وتغير النظام الداخلى للتبعية والارتباط والمسؤولية .

حصلت كاتيا فى الحال على وظيفة معلمة فى مدرسة ابتدائية فى منطقة بريسنا . وفى المكتب الآخر سجلوها فى عمل اجتماعى مجانى فى الدورات المسائية لمحو الامية . وفى المكتب الثالث امسك بها رجل نحيل للغاية ذو بشرة زيتونية وعينين هالتين محمومتين ، وقادها عبر الممرات والسلالم الى قسم الدعاية للفن . واضافوا لها هناك محاضرات خارجيـــة فى المصانع . وقال لهـــا الرجل ذو البشرة الزيتونية :

– ستحدد مضمون المحاضرات فيما بعد ، ستقدم لك الادبيات المناسبة والخطة . ولا حاجة الى الفزع . فانت امراة مثقفة ، وهذا يكفى . ماساتنا اننا لا نملك غير عدد ضئيل جدا من المثقفين ، فان نصف المثقفين يقومون باعمال التخريب ، وسيندمون على ذلك كثيرا .

والآخرون ابتلعتهم الجبهة . ان مجيئك ترك انطباعا طيبا جدا لدى الجميع . . .

واخيرا ، وفي احدى الممرات التقى بكاتيا رجل مكتنز شديد الحركة كليا ذو شفتين غليظتين يرتدى بلوزة من قماش الشيت مخضرة عن الابطين .

– هل انت ممثلة ؟ اشاروا لي عليك الآن – تكلم بعجالة ، ودون ان يلقي بالا الى جواب كاتيا بانها معلمة طوق كتفيها بذراعه ، وقادها عبر الممر قائلا – ساضمك الى فريق ترفيـــه متنقـــل . ستسافرون الى الجبهة في عربة خاصة ، ولدى خروجكم من موسكو ستحصلون على كمية غير محددة من الخبز والسكر واحسن الزبدة . . . البرنامج ، اها ! بقوامك هذا يمكنك ان تغني وترقصي ، وسيصفق لك مقاتلو الجيش الاحمر . . . ارسلت الى الجبهـــة البروفيسور تشيبوتيكين ، وهو في الستين من العمر ، وهو كيمياوي او فلكي . وهل اعرف ؟ الآن يسمونه «ملك فريق الترفيه» وهو يغني المثاني من برانجيه . . . يمكنك الا تشكريني ، انا مجرد متحمس . . . .

– اسمع ! – صاحت كاتيا ، وقد تحررت من تحت ذراعه – عندي مدرســـة ومحاضرات ومحو اميـــة . . . لا تتحمـــل قواي الجسدية . . . .

– ما يعني قواك الجسدية ؟ وهل تتحمل قواي الجسديـــة ؟ شاليابين ايضا لا تتحمل قواه الجسدية . ومع ذلك فقد حصلت له على صندوق من زجاجات الكونياك ، وهو الآن يسأل بنفسه ان يرسل الى الجبهة . حسنا ، فكري في الامر . . . ساجدك . . .

سارت كاتيا الى البيت مثقلة بالمسؤولية . كانت الريح الحارة تعصف في الشوارع الخالية فتدير دوامات من الغبار والاوراق على الرصيف المرصوف بالحجارة . انعطفت الى بولفار تفيرسكويه . واخذت تحسب لتجد هل سيكفيهـــا الوقت اذا نامت ست ساعات ؟ . . يعني ستبقى ثماني عشرة ساعة . . قليلة ! ساعات الدروس في المدرسة ، وتصحيح الدفاتر ، وتحضير الدروس ليوم الغد . . . ولمحو الامية ساعتان على اقل تقدير . . . يا الهي ، والسير ذهابا وايابا ؟ والقاء المحاضرات والذهاب الى هناك وطريـــق العودة ؟ ثم يجب الاعداد للمحاضرات . . . ثماني عشرة ساعة لا تكفي !

جلست كاتيا في البولفار ، وخيل اليها انها تجلس في نفس المكان الذي التقت فيه – هي وداشا – ببيسولوف عام ١٩١٦ . وقد سار معفرا بالغبار كليا لا يكاد يجرجر قدميه . يا للبلاهة ! ان امرأتين لا تصلحان لشيء ولم تكونا تعرفان ماذا تفعلان بالوقت الفائض ، مرّتا بمأساة مجهولة الهوية حين حياهما بيسولوف – وكأنه خارج من احد قصائد بلوك : «ما اصعب على الميت ان يتحرك بين الاحياء متظاهرا بالحياة وجيشان العاطفة !» – ومر بهما ببطء ، فشيعتاه بنظريهما ، وبدا لهما بائسا بشكل خاص بنطلونه شبه العسكري الذي لاح وكأنه سيسقط عنه . . . .

يجب ان تنام اربع ساعات ، وتأخذ كفايتها من النوم في ايام الآحاد . ثم سيكون عليها ان تقف في طوابير الطعام ! اغمضت كاتيا عينيها ، وانت . . . حركت الريح خصلات الشعر على رقبتها النحيلة ، وضجت الاوراق بقوة على شجرة الزيزفون العتيقة فوق رأس كاتيا . . . وعلى هذا الضجيج كفت كاتيا اخيرا من تعذيب نفسها بمشكلة كيف لها ان توفر اكثر من اربع وعشرين ساعة في اليوم الواحد . لا بأس ، ستدبر امرها على نحو ما ! . . . ودارت افكارها حول هذا التغير الغريب الذي حدث فيها ، والذي ما انفك يمدها بالدهشة والفرح . حالما قالت : «لا . .» وهي تنظر في وجه الكسى المغتاظ واضعة علباءها على جدار الموقد بدأ يشيع فيها توقع هادئ رائق لسعادة جديدة في حياتها . وقد احست بقليل من هذه السعادة في الربيع : في كل مساء قبل ان تنام كانت تتذكر اليوم المنقضي فلا تجد فيه شيئا مظلما مقبضا للنفس . واعجبت كاتيا بنفسها ، وها هي الآن تتوهم الفزع واليأس بشكل مبالغ فيه ، وكان من المستحيل ان تنهض بالاعباء الاجتماعية . . . المسألة تختلف تماما : ان القطيطة اليائسة الملتقطة تنقلب بين عشية وضحاها الى مخلوق مهم ، بل وصار الناس – على مـــا يبدو – محتاجين الى كاتيـــا ، وكـــان الرفيق المسؤول ذو الوجه الزيتوني والعينين الجميلتين جدا يتحدث معهـــا باحترام كبير . . . وكان عليها ان تكون على مستوى المسؤولية في هذا كله ، فسيكون فظيعا لو قالوا في مفوضية الشعب للتعليم : «ونحن وضعنا املنا فيها . . .» ان الامر في موسكو يختلف كليا عن الجلوس في عربة

تسير وراء عربة الكنس مهتزة في السهب وهي تقضم قشة وتفكر : «ما الذي يجديه لك جمالك ، ايتها الاسيرة ؟»

طلب ماسلوف من كاتيا ان تقدم تقريرا مفصلا . وعندما نقلت له الحديث مع الرفيق ذي الوجه الزيتوني تجمع خد ماسلوف الايمن في غضون مركزة لابتسامة ساخرة معوجة . واشاح وجهه عن كاتيا قائلا :

— نعم ، نعم . ماساة المثقفين هي نصف المصيبة . . . هناك ما هو اكثر ماساوية منها .

. . . .

افتتحت كاتيا المدرسة في اول آب . وجاءت بهدوء صبايا صغيرات حافيات لهن ضفائر شدت بخرق او قطع من الخيوط السميكة ، وصبية حليقو الرؤوس كليا في قمصان ممزقة ، وجلسوا على المقاعد بهدوء ايضا . وكانت وجوه الكثيرين شفافة تبدو شاحبة من النحول .

قضت كاتيا اليوم الاول كله في التعرف على الاطفال ، والجلوس معهم على المقاعد ، والاستفسار منهم ودعوتهم الى مبادلة الاحاديث ، وكانت لها تجربتها غير الكبيرة في اثارة اهتمام الاطفال في اقصر وقت ممكن . كانت تتناول كتابا وتفتحه وتقول : «هذا كتاب . صفحات بيضاء وحروف سوداء ، وسطور رمادية . مهما تمعنتم النظر فيه لن تجدوا شيئا آخر . ولكن اذا تعلمتم القراءة والكتابة ثم عرفتم التاريخ والجغرافية والحساب ، واشياء كثيرة اخرى فان الحياة تدب في هذا الكتاب فجاة . . .» .

وتذكرت كيف كان الفضول يلتمع في عيون الصبايا والصبيان في مدرسة قرية فلاديميروسكويه . وكانت تتحدث بانجذاب شديد عن «القيصر سلطان» :

«ها انت قد بدات بالتعليم ا ب ت ، ثم كتابة الحروف على اللوحة ، ثم اخذت تتهجى الكلمات ثم القراءة بصوت عال بالتاكيد كلمة وراء كلمة من البداية حتى النهاية . . . وفجاة ، وفي احد الايام السعيدة تاخذ السطور بالاختفاء امام عينيك ، فترى بدلا منها بحرا ازرق وموجة زاحفة على الساحل ، وتسمع حتى تكسر الموج على الساحل ، حينذاك يخرج من زبد البحر اربعون عملاقا

في دروع حديدية وخوذا مرحين مبللين ومعهم رجل ملتح هو تشيرنومور . . .»

وكانت تشعر وهي تتحدث هنا ، في حي بريسنا ، ان كلماتها تبدو وكانها لا تقع في آذان الاطفال بل تذبل بوحشة في الصف ، حيث نصف مربعات النوافذ قد ركمت بخشب الابلكاش ، والطبقة الخارجية للجدران قد تساقطت حتى لاح الآجر . وكانت الصبايا بايديهن النحيلة جدا بحيث يمكن امرارها باسطوانة من فوطة الطعام ، والصبيان بغضونهم الصغيرة وكدماتهم يصغون بهدوء فلا ترى في عيونهم نجم التسامح . . . فقد كان الجميع يفكرون في شيء آخر .

في فترة الاستراحة الكبيرة كان الاطفال يخرجون الى الفناء ، ولكن بضع فتيات فقط كن يحجلن على رجل واحدة ملقيات الحجارة ، وصبيين فقط يديران شجارا شكسا . اما الغالبية فكانت تجلس في ظل السياج حيث نما الارقطيون ، وتظل جالسة هناك ولا احد منهم قد جلب معه طعاما . فقد كانوا جميعا ابناء وبنات عمال يعيشون في ذلك الحي ، والكثيرون من آبائهم قد خرجوا الى الجبهة . القى احد الاطفال يديه على الارض ، وحدق في السحابة المخيمة على بريسنا كالدخان . جلست كاتيا على مقربة وسالت بلهجة جادة :

— انت ميتيا بتروف . اليس كذلك ؟

— اها .

— اين يعمل بابا ؟

— بابا في الحرب منذ زمان .

— وماما ؟

— ماما في البيت ، مريضة .

— وهل يكتب بابا من الجبهة ؟

— لا .

— ولماذا لا يكتب ؟

— لا شيء يكتب عنه . . . الاخبار المفرحة قليلة . . . عندما رحل قال لماما : سأقتل عشرة جنرالات جزاء على مرضك من جراء الكد . انه جريء للغاية .

— ماذا تريد ان تكون حين تكبر ؟

— لا ادري . . . ماما تقول اننا لن نعيش هذا الشتاء . . .

. . . .

كانت جحافل البيض تزحف على موسكو ، وكان الخريف يزحف بسرعة اكبر . وتألقت بعض الايام الذهبية الكئيبة في بواكير الخريف، ثم هبت ريح عنيفة من الشمال تسوق السحاب بقطعان حالكة .

ولم يكن في المدرسة ما يدفأ به . ذهبت كاتيا لزيارة ذي الوجه الزيتوني في مفوضية الشعب للتعليم لتشتكي له . فاكتفى بان هز رأسه دون ان يصرف بصره عن وجه كاتيا الحلو . «افهم . يا يكاترينا ديميتريفنا ، قلقك واقدر حرارتك ، ولكن نقص الوقود سيكون فظيعا في هذا الشتاء . وعدوا مفوضية الشعب للتعليم بتقديم الحطب . ولكن الحطب في ولايـــة فولوغدا ويجب نقلـه من هناك بالعربات . . . وعلى العموم تكلمي في الموضوع واضغطي حيثما يمكنك ذلك . . .»

وكان الاطفال يأتون الى المدرسة مزرقين مبللين في معاطف خفيفة ، او في سترِ امهاتهم التي لا تصلح الا لتعليقهـا في الحدائق لتخويف الطيور حتى ان كاتيا قررت اخيرا اللجوء الى طريقة النهب الصريحة ، وعينت يوم عمل تطوعي لتحطيم الاسيجة . وفي مساء داكن وتحت ضجيج الريح العاصفة قام حارس المدرسة – وهو عجوز اصم ذو رجل خشبية ، وكاتيا ، والاطفال (الذين جاؤوا جميعا تقريبا) بتحطيم الاسيجة ، وحملوها جميعا الى رواق المدرسة . ونشر العجوز الخشب ، وفي الصباح كانت غرفة الصف دافئة رطبة ، وخرج البخار من الجدران الرطبة ، وجلس الاطفال يشوشين ، فحدثتهم كاتيا من منصتها عن الطاقة الشمسية (وكانت هي نفسها لم تعرف بذلك الا يوم امس من الكتاب المفيد «قوى الطبيعة») .

– كل ما ترونـه ، يا اطفال : هذه المنصة ، وتلك المقاعد والنار في الموقد ، وانتم انفسكم ، من الطاقة الشمسية . . امتلاكها هي مهمـة الانسانيـة . . . ولهذا الغرض يجب ان يتعلـم الانسان ويتعلـم ، ويناضل ويناضل . . . والآن لنتحول الى درس اللغـــة الروسية . . . ان اللغـة الروسية هي ايضا طاقة شمسية ، ولهذا يجب امتلاكها جيدا . . .

وكان الاطفال في فترات الاستراحـــة يروون لكاتيـا مختلف الاخبار . فقد كانوا يعرفون ما كان يجرى في حي بريسنا في موسكو ، وحتى عند اللوردات وراء الحدود . واستنبطت كاتيا الشيء الكثير من هذه الحكايات . وهكذا عرفت قبل ان تعرف من الصحف عن الثغرة التي احدثها البيض عند اوريل التي اخذ الجرحى يصلون منها . وذهبت صبيتان الى عائلة ميكولين لغرض تقصي الاخبار حيث سمعتا ان ستيبان ميكولين الخراط قد عاد من توه الى بيته وقد ثقب الرصاص جسده . رفع المسكين جسده على السرير قليـلا – وكان الاطباء قد الزموه الزاما قاطعا بالاستلقاء على السرير – وسمعته الصبيتان بآذانهمـا يصرخ في حضور زوجته وامه بصوت موحش :

– عندنا خيانة في الجبهة ، خيانة ! اعطياني ورقـا وحبرا لاكتب لفلاديمير ايليتش لينين ! ان افضل البروليتاريين يشخبون دما ، وتغطيهم الارض الرطبـــة ، ولكنهم لا يريدون ان يسلموا موسكو للجنرال الابيض . . . لســنـا الملومين في سقوط اوريل ، بل الخيانة .

وحين سمع ميتيا بتروف بحكاية الصبيتين امتقع لونه فصار بلون الحائط المجصص ، واتسعت عيناه معذبتين حتى ان كاتيا جلست الى جانبه على مقعده ، وضمت راسه الى صدرها ، الا انـه حرر نفسـه صامتا ، فلم يعد مكترثا بالتسرية والمداعبة .

هطل المطر غزيرا لعدة ايام ، وبدت بريسنا غاطسة الى الركبة بوحل سائل بلون كامد . وكان الاطفال يأتون مذعولين تماما من الاشاعات المريعة التي كانت تنتشر في المدينة كالطاعون . وكان من الصعب حمل الاطفال على تركيز اذهانهـم على الدروس . لم تحضر الفتاة الصهباء كلافديا الجمع والطرح فانفجرت باكية بمرارة في منتصف درس الحســاب . دلت كاتيا منصتها بالقلم :

– كلافديا ، اضبطي نفسك حالا .

– لا اقــدر ، يـــا ع . . . ء . . . ة . . كا . . . ت . . يا . . .

– ماذا حصل ؟

اجابت الفتاة بصوت فيه حشرجة :

– تقول ماما : على اية حال لا جدوى لك من تعلم الحساب ، يا كلافديا . . .

– ما هذه البلاهة ! امك لم تقل ذلك قط .

– لا . انهـــا قالت : لا فرق في الامر . خرجت من الوحـــل

وستعودين الى الوحل ... الضباط سيدوسوننا جميعا بخيولهم ...

عند هبوط الظلام ذهبت كاتيا الى دورة محو الامية متسللة في درب الصق ما يكون بالاسيجة لكيلا تبلل قدميها قدر الامكان ، وتوقفت بيأس عند مفترق طريق غير عارفة كيف تعبر الشارع . في ذلك المساء لم تأت اية امرأة من بين النساء العشر التي كانت تعلمهن في شقة العامل تشيستوكوف الذى ارسل الى الجبهة قبل فترة قصيرة ليكون مفوضا . قالت لها زوجته التي تزوجته قبل ستة اشهر ، وهي الآن حبلى ونحيفة للغاية تنتشر البقع الصفر على وجهها كله :

– توقفي عن المجيء الينا وانتظرى قليلا . مالنا ولهذا الامر الآن ! ... ثم ان ذلك سيكون افضل لك .

واطلعت كاتيا على رسالة صغيرة لزوجها من الجبهة : «لوبا ، هيئي امرك اذا استولوا على تولا ، فاننا لن نتخلى عن موسكو الا عبر آخر جثة ... اكتب لك على عجل مع شخص ذاهب الى موسكو ... ربما يأتي اليك ضابط هو الرفيق روتشين ، كوني على ثقة به . سيخبرك بكل شيء – ولطيف لو يسمعه رفاقنا ... وليساعدوه اذا احتاج الى شيء . انا رغم كل شيء حي ومعافى ، وقد تعلمت ركوب الخيل ، وذلك ما لم يخطر على بالي قط .»

– نحن في انتظار الرفيق روتشين هذا . ولا ادرى لماذا لا يأتي – قالت زوجة تشيستوكوف وهي تنظر الى النافذة المبللة – عندئذ تعالي واستمعي .. سأرسل صبية لتستدعيك ... من روتشين هذا ، لعله زوجك ؟

اجابت كاتيا :

– لا ، زوجي قتل منذ زمان .

ولدى عودتها الى بيتها اشعلت النار في الموقد الحديدى الصغير بمدخنته المتصلة بفتحة في نافذة التهوية – كان يسمى «النحلة» لان هذه المواقد المسماة بهذا الاسم كانت كالنحل تئز حين تشعل بقطامات الخشب – وقد صنعه عمال بريسنا ، ونصبوه بانفسهم في حجرة كاتيا ، مفترضين ان معلمتهم ستكون اكثر مقدرة على العمل اذا نامت في غرفة فيها شيء من الدفء . خلعت كاتيا حذاءها المبلل وجوربها وتنورتها الملطخة بالوحل ، وغسلت قدميها في ماء شديد البرودة ، ولبست ملابس جافة ، وصبت الماء في السخان ووضعته على «النحلة»

واخرجت من جيب معطفها قطعة من الخبز الرمادى الخشن وقطعتها الى قطع صغيرة ووضعتها على فوطة نظيفة الى جانب كوب الشاى وملعقة فضية . وقامت بكل ذلك وهي في ذهول . وحين انصفق باب المطبخ وترددت في الدهليز خطوات ماسلوف الشاحطة البطيئة بشكل لا يحتمل ، سارت كاتيا ودقت باب غرفته .

– اها ! احتراماتي ، يا يكاترينا ديميتريفنا . تفضلي اجلسي . طقس شرير ... بينما اراك تزدادين ملاحة ... نعم ...

ولسبب ما كان مغتاظا في ذلك المساء بشكل غير مألوف وحين سألته كاتيا : ما الذى يحدث ولماذا هذا الفزع في كل مكان ؟ لم يشح بوجهه عنها ، ورسم على شفتيه الرقيقتين ابتسامة من اكثر ابتساماته الهازئة سخرية :

– يهمك ان تعرفي الاخبار الحزبية ام شيئا آخر ؟ الجبهة ؟ رجالنا يتضربون . وماذا يمكنني ان اقول لك بعد ؟ يتضربون ! اما في موسكو فهناك مزاج تفاؤلي بشوش ، كما هو دائما ... تعبئة عامة للشيوعيين ضد دينيكين ... وفي بتروغراد تفتيشات عامة في الاحياء البرجوازية . واتخذ قرار باغلاق جميع المعامل والمصانع بسبب نقص الوقود ... ثم الخبر الاخير المشجع كليا : اعلن عن اعادة تسجيل البطاقات الحزبية ، اى التطهير الشامل ... وبهذه الطريقة تحسب اننا سننتصر على دينيكين ويودينيتش ، وكولتشاك ...

وجرجر قدميه في الغرفة التي تناثرت فيها اعقاب السيكائر ، وقد تدلى شريطا سرواله الداخلي المحلولان على رسغيه من تحت بنطلونه المبلل القذر ... كان اثناء سيره يطقطق بسلاميات اصابعه طقطقة موهنة بسبب رخاوته . وكرر بصوت هازئ :

– وبهذه الطريقة تحسب اننا سننتصر ، طبيعي ان هذا كله غير مفهوم لك ... ولا غرابة في ان يكون غير مفهوم لك ... والاغرب من ذلك بكثير ان يكون غير مفهوم لي ايضا ... انا لا افهم شيئا بعد الآن ... الاشتراكية تقام على قاعدة من الحضارة المادية ... الاشتراكية اعلى شكل لانتاجية العمل .. نعم . ومن الضرورى وجود طبقة عاملة عالية التطور كثيرة العدد ؟ وكيف لا ! لقد قرأنا كارل ماركس ، قرأناه بتمعن ... لا بأس ، سنشغل انفسنا باعادة التسجيل ... ما تزال لنا فضلة من قوة ...

وهكذا لم تعرف كاتيا منه شيئا ذا جدوى . وفي مفوضية الشعب للتعليم ، حيث ذهبت في اليوم التالي لتتلقى التعليمات كان هناك تيار من الهواء البارد في الممر الرئيسي ، وذلك شيء لم يحدث من قبل قط (فلعل نافذة تحطمت او فتحت عن عمد) ومع ذلك فقد كان المستخدمون يجتمعون في كل مكان في جماعات متهامسة . ولم تجد كاتيا طائلا من تنقلها من غرفة الى اخرى ، الا ان مستخدمة واحدة فقط ابلغتها ، وهي تخفي انفها في ياقتها المحكوكة من فرو الظربان :

– لعلك ما زلت نائمة ، يا مواطنة ، فلا تعرفين ان من المحتمل ان نجلو الى فولوغدا .

ثم حدث تغير حاد بنفس الفجاة . في الصباح ، وحالما تنورت الدنيا ، هرعت كاتيا الى المدرسة . وفي شارع سادوفيا اضطرت الى التوقف والانتظار . مرت فصائل مسلحة من العمال على الوحل المتحجر محطمة البرك المتجمدة تحت اشجار الزيزفون الضخمة الجرداء والريح تعول فيها كما تعول في الشتاء . ومرت وراءهم عربات ثم طوابير اخرى متكاتفة الصفوف تسير ببطء ، وكانها تحت تعويذة من السحر . وهنا وهناك كانت اصوات خشنة ناشزة تنشد «النشيد الاممي» . وكانت قطع القماش الحمراء التي يحملونها قد كتب عليها بعجالة وبحروف معوجة : «الجميع الى النضال ضد عصابات دينيكين البيضاء !» ، «عاشت الثورة البروليتارية في جميع العالم !» ، «الموت للبرجوازية العالمية !» . وظلت الطوابير تتابع طالعة من ظلمة صباح غائم . حدقت كاتيا في تلك الوجوه غير الحليقة النحيلة المرهقة الداكنة ، وبدا وكانما انطبع على عيونهم وشفاههم المطبقة تماما تعبير واحد عن عذاب مقهور وتصميم وارادة لا تغلب . . .

وفي المدرسة ما لبث الاطفال حتى قصوا الاخبار لكاتيا : بالامس كان لينين في المصنع الميكانيكي في بريسنا ، وبدا اسبوع الحزب .

على مسافة غير بعيدة عن فوروليج الضم فيلق كوبان تحت قيادة شكورو الى فيلق مامونتوف . فاضحى لمامونتوف ست فرق خيالة مقابل فرقتين لدى بوديوني . توقف مامونتوف واخذ ينتظر بوديوني . كان مامونتوف حذرا . خصص جزءا من القوات لتعزيز

الدفاع عن فورونيج واعاد تنظيم الفيلقين وشكل منهما ثلاثة طوابير واختار موقع المعركة الذي ستطوق فيه خيالة الحمر وتباد – وكان حقلا شاسعا ينتهي بسدة خط حديد يسير عليه قطار مصفح كالسلحفاة الفولاذية ذات مدافع من ست بوصات .

كان بوديوني جريئا وشديد الاحتراس في الوقت ذاته . وقد تلقى معلومات مفصلة عن جميع استعدادات الجنرال مامونتوف ومناوراته . . . . كانت احدى الفتيات الصغيرات تخفي تحت منديل راسها تحت الضفيرة مذكرة بخط مخربش او احدى العجائز المسكينات تحمل كيسا لقطع الفضلات تعبران نقاط حراسة البيض – وما اقل من تغويه فتاة فقيرة او عجوز يعافها اي قوزاقي باشمئزاز – وتتصلان برجال بوديوني للاستطلاع وتقدمان لهم المعلومات .

توقف بوديوني بين الغابة والمستنقعات دون ان يتقدم الى الحقل العريض الذي عين لهلاكه . وامر بان تطعم الخيول حتى الشبع ، وان تفحص حدواتها فحصا جيدا (كانت الحدوات مدقوقة في قوائم الخيول الامامية فقط) . وامر بان تستكمل عدة الذخيرة وان تستبدل عصيدة الدخن التي ضجر المقاتلون منها ، وان يقدم لهم اللحم المملح المفتوم مع الفول ، والحليب المعلب المحلى والبسكويت المسكر من مختلف الانواع ، والتبغ العبق لينعموا حول النيران . وكل ذلك قد اخذ من «الترسانة المتنقلة» وهو الاسم الذي اطلق على طوابير عربات البيض الثرية . وكانت في تلك الآونة تخرج ليلا ونهارا من فورونيج الى مامونتوف . وكان سميون بوديوني حريصا بشكل خاص على الاستيلاء على البنادق اليابانية الجديدة لتستبدل بها ، حسب الامكان ، البنادق القديمة التي استهلكت في المعارك ، وعلى ادوات الكتابة ايضا .

وبالاحتماء بالغابة والمستنقعات كان من الممكن ان ياخذ المقاتلون قسطا وافيا من النوم قبل العملية الخطيرة . ولكن هذه العملية – الاشتباك بالسلاح الابيض مع ست فرق من فرق الدون – بدت للمقاتلين خطيرة جدا حتى ان القليل منهم اخلد للسكينة . فنظفوا خيولهم تنظيفا لامعا جدا ، لا تنظيفا عابرا واصلحوا السروج ، وشحذوا السيوف . ولم تسمع في الوحدات اغان ولا اكورديونات ، وجرت

احاديث عميقة المعاني . وحين تقع ابصارهم على المفوض يلوحون له قائلين «تعال هنا ، يا شيوعي .. قل لنا ايها الرفيق العزيز .. اذا قضينا على مامونتوف فهل نستولي على فورونيج ، فان لهم هناك ثروة لا تخطر على بال ...» وكان المفوض يرد بان سميون بوديوني لم يصدر امرا حتى الآن بخصوص فورونيج . وعند ذلك كانت المناقشات تبدا : هل تستطيع الخيالة الاستيلاء على منطقة محصنة ؟ فكان بعضهم يقول : ممكن بالحماس الشديد ، والبعض الآخر يؤكد ان ذلك مخالف لكل احتمال .

كانت كوكبة تليغين المكلفة بواجب الحراسة تتخذ مواقعها عند حافة مستنقع . والى الجنوب حقل كانت تلوح فيه دوريات البيض بين الآونة والاخرى . وكان معروفا ان احد طوابير مامونتوف الثلاثة يتجمع في تلك الناحية . وفي المساء كانت السحب تعكس وميضا خافتا لنيرانهم .

في هذه الكوكبة ايضا كانت تدور احاديث كثيرة حول المعركة المقبلة التي حشدت لها من الخيالة هذه الحشود الجبارة الضخمة على نحو لا مثيل له . وقد ذكر فارس قديم يدعى غوربوشين ان معركة واحدة مثل هذه قد وقعت في عام ١٩١٤ قرب برودي ، اذ هاجمت فرقة خيالة نمساوية مؤلفة من اربعة افواج فرقة خيالة خفيفة روسية هجوما محتما ولكن النمساويين بعد هذه المعركة سحبوا كل خيالتهم الى المؤخرة ... قال الفارس القديم : قد هاجموا من الاعلى ، من تل يريدون ان يحصروا جماعتنا في واد ، الا ان رجالنا خرجوا للقائهم من الوادي الى التل ، وعلى كل جناح اربع كوكبات من الخيالة القوزاق من حملة الرماح ، والاولانيون في الوسط حاملين الرماح والفرسان الاختيريون (الهوسار) بقبعاتهم ذات الاشرطة الصفراء والحواشي الصفر لبزاتهم – وقد كانوا فرساننا جسورين ! ثم يدرك رجالنا ان النمساويين لن يستطيعوا ان ينعطفوا بخيولهم من التل بتلك السرعة . وحين بداوا يقتربون منا ، بوغتوا بموجة من العرامة من جانبنا لم يكونوا يتوقعونها فحاولوا ايقاف خيولهم ، ولكن الوقت قد فات ! وهاجمهم رجالنا بالرماح من الاسفل مما يسهل الامر . تزرق لنمساويا برمح وتتركه ، ثم تنطلق مخترقين صفوفهم ، وتتحول وتطعن بالسيف ، ليس على الكتفين – فقد كانوا يضعون صفائح فولاذية تحت

كتافياتهم – بل في خط مائل على جذوعهم ... وهكذا خلفت الافواج الاربعة مطروحة في التل مطعونة مغروزة بالرماح في الارض . شيء فظيع !

كان لاتوغين يتضايق حين يتحدث شخص بحضوره بشكل جذاب ، فقاطع المحارب القديم هذا :

– اها ، كان ، وما اكثر ما كان . انها مجرد صدفة ... ولكن حدثنا كيف استولى ثلاثة من رجالنا الحمر على كتيبة المانية ... لا تعرف ؟ اها ! كان يجب عليك ان تعرف ...

– هيا ، حدثنا ، يا لاتوغين .

ترددت اصوات بذلك . فركع على ركبتيه قرب النار ، وليضيء جمراتها التي اضاءت وجهه الناحل الذي لم يبق فيه غير العروق بعد ثلاثة اسابيع من التقلب على السرج . وكان تليغين منذ البداية قد سجله في كتيبة المقر مع غاغين وزادوريفيش ، وخلال شهرين امتلات خدودهم بعض الشيء ، وهم الآن فرسان في الكوكبة .

– كان معنا في الجيش العاشر رجل يدعى لونكا شور لا تكاد تجد مثيلا له في الطعن حتى ولو احسنت التفتيش – بدا لاتوغين حديثه ، وقد وضع يديه على مقبض سيفه الذي انغرست نهايته في الارض – في الخريف الماضي . وقبل ان يخرج من لوائه الاوكراني ، طلع في دورية استطلاعية مع رفيقين له . وبينما هم سائرون ودون ان يخطر لهم على بال اصطدموا بالالمان ، وبكتيبة كاملة منهم لا اكثر ولا اقل . الزوى الالمان في مكان قصي يطبخون لهم حساء ...

قال احد المستمعين :

– ما هذا الكذب ! الماني يطبخ حساء في مكان قصي ..

القى لاتوغين نظرة ثقيلة على هذا الرجل :

– هل اشرح لك لماذا كانوا يطبخون الحساء ؟ .. حسنا .. كان الالمان في طريقهم الى وطنهم ، فقد قامت ثورة هناك ... وفي اوكرانيا هبت جميع القرى في تلك الانحاء ونصبت الرشاشات في كل مكان ، وقطعوا الطرق ، فجاع الالمان ... هل فهمت الآن ؟ وقبل ان يستطيع الالمان ان يتهيأوا للقتال ، اخرج لونكا من حقيبته قطعة نظيفة من لفافة الساق ، وغرزها بالسيف ، وسار نحوهم بجراة قائلا «استسلموا . انتم محاصرون بقوة كبيرة من الفرسان ، ونحن لا ننوي

حتى تلويث سيوفنا بالدم ، بل ندوس عليكم بخيولنا . . .» وكان بينهم مترجم ترجم لهم هذه الكلمات . رد آمر الكتيبة ، وهو الماني ركبي برتبة ضابط صف ، رد على لونكا : «اشك فى صحة كلماتك . . .» فقال له لونكا : «انت محق فى شكك . امتط حصانك ولنذهب الى مقر الاركان ، وهناك سنقترح عليك شروطا معتبرة . . .» تشاور الالمان فيمـــا بينهم بشكل جدى ، وقال الآمر «لا باس ، سنخرج ثلاثة مقابلك ، وفى حالة اكتشاف تحايل منك ، سنقتلك فى الطريق . . .» قال لونكا له «تفضل ، لن يكون هناك اى تحايل ، انت تتعامل مـع مقاتلى الثورة . . .» وخرجوا ، ووصلـــوا الى مقر الاركان ، وتبدا المفاوضات مع الالمان . ويطالبون بالسماح لهم بالمرور على السكة الحديد ، وباعطائهم خمسة وعشرين بودا من الدخن . ويطالب رجالنا بان يسلـم الالمان اسلحتهم ومدفعين . ويعاند الالمـان ، ويعاند رجالنا . ولونكا يحضر طوال الوقت ويقول : «ايها الرفيق آمر اللواء، انهم جياع ، ولهذا السبب يصعب الاتفاق معهم . . دعنى ارضيهم ، اطلب لهم شيئا من لحم الخنزير الجيد وخبز القمح» اما عن الخمرة فان الشيطان لم يذكرها بشكل رسمى ، فقد كان مدير الميرة صديقه الحميم ، فاقتطع منه ربع جردل ، وجلس مع الالمان فى احد الاكواخ ، وقطع شحم الخنزير والخبز ، وصب الكحول فى قدح ، وبدا يتحدث عن هذا وذاك : كيف ان الناس عندنا فى اوكرانيا ياكلون ويشربون بشكل جيد ، ثم ان الشعب بشكل عام يميل الى التعاطف . ومدح الالمان ايضا لانهم اطاحوا بغليوم . وعلى الرغم من ان حديثهم كان يجرى بلا مترجـم فى هذه المرة فان الالمان فهموا كل شىء . وربت لونكا على ظهورهم بقبضته بطريقة ودية ، وامسك آذانهم ، وقبلهم . وبعد قليل لم يبق وراء المائدة غير اثنين : هو وآمرهم ضابط الصف . لونكا يبذل كل جهده ، والالمانى يكتفى بالضحك وهز الاصبع . . . وجاء رسول من مقر الاركان ليعرف كيف يجرى الامر ؟ ويجيب لونكا «بشكل سيئ . الامر لا يستجيب للتحريض ، نحتاج الى ربع جردل آخر . . .» وحين فرغا من الربع الثانى لم يبق وراء المائدة غير لونكا وحده . ولفى الالمان ليلتهم هناك . وفى الصباح ابقى ضابط الصف رفيقيه رهينتين – على اية حال لم يكونا قادرين على امتطاء فرسيهما بعد تلك السكرة – وخرج مع لونكا . وفى المساء قاد الكتيبة كلها –

زهاء اربعمائة رجل – والعلم الاحمر فى المقدمة . . . بهذا الشكل اعجبه تحريض لونكا . . .

وعندما انتهى لاتوغين من قصته – وهى اروع بكثير من قصة غوريوشين – قصة المعركة عند برودى – اخذ المقاتلون يضحكون ضحكا شديدا ، فمنهم من صهل وابدى كل اسنانه ، ومنهم من مسح دموعه ، ومنهم من تأوه فقط هازا ذراعه . وتقدم روتشين من النار ، وانحنى نحو لاتوغين وقال :

– ابحث عن غاغين وزادوريفيتر ، وتعال معهما الى الخيمة .

. . . .

فى الضباب الصباحى الابيض المنطبق على الحقل كله انطلق خمسة فرسان : كان روتشين على فرس كميت مقصوص العرف وعلى مسافة ذراع امامه كان دونديتش الصربى الصغير الجسم آمر احدى كتائب بوديونى يمتطى جوادا اسحم . كان دونديتش خلال طريق حياته الصلب قد وجد وطنه التالى ، واغرم بروسيا الشاسعـة الاطراف وثورتها المترامية الحدود بكل حماسة رجل بسيط النفس محب للحياة شديد الجراة . كان دونديتش وروتشين يرتديان معطفى ضباط فاتحى اللون بكتافيات ذهبية . والى الخلف منهما لاتوغين وغاغين وزادوريفيتر يرقلون على افراسهم فى قبعات مائلة بشدة وستر من فراء الاغنام ، وعلى اكتافهم كتافيات برتبة رقيب .

لقد اعطيت لهم مهمة النفاذ الى فورونيج ، ومعاينـة مواقـع المدفعيـة ومقدار قوات الخيالة والمشاة ، ومن بعد ذلك تسليم الجنرال شكورو قائد الدفاع ظرفا مختوما فيه رسالة من بوديونى .

كان دونديتش يحب الحياة ، ويحب الدخول معها فى لعبة خطرة . اما فى ايام تشرين الاول المنشطة هذه حيث كانت العضلات تتوتر من تلقـاء نفسهـا تحت القميص العسكرى من مجرد استنشاق الهواء المنعش المملوء بمختلف الروائح الزكية فى الضباب الصباحى فقد كان يجد البقاء بلا عمل شيئا لا يحتمل ابدا . وقد تبرع بنفسه ان يسلم شكورو الظرف المختوم . راح يبحث عن روتشين حتى وجده وقال له :

– فاديم بيتروفيتش ، انت رجل ملائم كليا لمغامرة صغيرة ، فانت تعرف عادات الضباط ومختلف تسلكاتهم . لعلك توافق على الذهاب معى الى فورونيج ؟ ان ذلك يستغرق يوما واحدا . وسيكون

ذلك مسيرة طيبة على ظهور الخيل . وقد وعدنا بوديوني بفرسين لنا هما بيتوشوك وافرورا . . .

وكان من المضحك ان يخير بين ان يوافق او لا يوافق . الا ان فاديم بيتروفيتش تضايق فقط من تذكيره بتسلكات الضباط . ولكنه في واقع الامر اضطر ان يقضي المساء كله بتعليم رفاقه كيف ينبغي على ذوي الرتب الواطئة ان يقفوا بهيئة استعداد ، ويؤدوا التحية العسكرية ويردوا ، وما هو المظهر الخارجي لضباط جيش المتطوعين ، وكيف ان رجال دروزدوف بمسحة التهكم البادية على وجوههم يحبون لبس النظارات الانفية تكريما لرئيسهم الراحل ، وان رجال كورنيلوف يتميزون في العادة بنظرات كابية ، وعلى وجوههم خيبة امل مشمئزة ، وان رجال ماركوف يتباهون بمعاطف قذرة ولغة فاحشة .

واتفق على انهم اذا اوقفوا وسئلوا فانهم سيرددون : «نحن نحمل ظرفا سريا الى فورونيج من آمر الفوج الاحتياطي التطوعي الذي وصل الى منطقة كاستورنايا من الجنوب» . فان ذلك جواب مبهم ومقنع .

وبعد زهاء ثلاث ساعات من السير الحثيث ، لاحت فورونيج في الضوء الشاحب الذي كان يفلت لفترة قصيرة من تحت سحب رصاصية ، فبدت القباب وابراج الحريق والسطوح الضاربة الى الحمرة . لم تعترضهم دورية واحدة خلال الطريق كله . فقد كان رجال الدورية ينظرون في منظاراتهم الى الفرسان الخمسة الذين يخبون بافراسهم باتجاه المدينة ، ويواصلون طريقهم بدون عجل ، وقد حصل التاخير الاول عند الجسر . فقد كان هذا الجسر الخشبي غير المتين موضوعا تحت الحراسة يسير عليه رجال مهيبون يرتدون طاقيات بلا ظليلات ، ومعاطف بيضاء من فراء الاغنام كتلك التي ترتديها النساء في اوكرانيا ، وجميعهم قد ارسلوا لحاهم لسبب ما . وفي الجانب الآخر وقفت جماعة من طلاب المدارس العسكرية قرب خنادق راس الجسر تدخن .

اوقف دونديتش فرسه ، وقفز منه ، واخذ يشد احزمته . وقال بصوت خفيض :

– ليس من المستحسن تماما ابراز الهويات المزيفة ، ثم ان النهر ممتلئ بالمياه . وخوضه في موقع ما ، والتبلل حتى الرقبة امر ينطوي على عاقبة اسوأ . سنضطر الى عبور الجسر على خيولنا .

قال لاتوغين بلهجة كئيبة :

– حسنا . سنتخلص منهم بالشتائم .

وهنا قال زادوريفيتر وهو يكاد يختنق بضحكته :

– اوي ، يا رفاق . أصاب بالعمى اذا لم يكن الذين على الجسر قسسا ، اصحاب اللحى . . .

– الى الامام سر ، واظهر المرح .

قال دونديتش ، وقفز الى سرجه كالقط . ضج ذوو اللحى على الجسر باصوات متنافرة : «قف ، قف» . اتجه دونديتش نحوهم ممسكا العنان بقوة لاكزا بيتوشوك بمهمازيه . الا انهم رفعوا اصواتهم بصياح شديد ملوحين بالبنادق حتى ان فرسه اخذ يتراجع على رجليه الخلفيتين ضاربا بذيله في غيظ . اضطر دونديتش الى التوقف . ارتفعت بعض الايدي لتمسك باللجام . فصرخ لاتوغين دافعا بحصانه :

– جننتم ! تمسكون بلجام سيادته ! من انتم على اية حال ؟ اروني الوثائق !

– سكوت ! اوقف حصانك ! – قال دونديتش له بهدوء وعبر كتفه ، ثم انحنى على سرجه نحو ذوي اللحى وقد ابتسم عن اسنان بيض من تحت شاربيه البارزين :

– هل تطلبون ترخيصا لعبور الجسر ؟ ليس لدي . . . انا المقدم دونديتش ، ومعي حراسي . . هل يكفيكم هذا ؟ شكرا لكم . . .

وانطلق بيتوشوك الى الامام ضاحكا حتى ان الحصان حمحم وشب على رجليه الخلفيتين مبديا بطنه الرمادي المخملي ، وقفز مارا بذوي اللحى ، وهم لا يكادون يجدون الوقت لان يتنحوا . الا ان دونديتش شد على العنان في الحال ، وتحول الى السير الوئيد . وعلى الشاطئ الآخر بدا فزع . القى الطلاب العسكريون سيكاراتهم وتراكضوا نحو الخنادق الطينية واذيال معاطفهم الطويلة حتى الارض تتشابك بين ارجلهم ، ومن هناك وجهوا فوهتي رشاشتين نحو الفرسان . وصاح آمر استحكام الجسر – وهو ضابط طويل له وجه رخو مشورب – ماطا الكلمات ببطء بصوت وقح مالوف جعل روتشين يطبق اسنانه باشمئزاز :

– هاي ، يا من على الجسر ، ترجلوا واعدوا الوثائق . . . ساعد الى اثنين ، وافتح النار . . .

فتح دولديتش فمه باتجاه روتشين :

– لا مفر من المهاجمة . . .

وامتدت يده الى سيفه . فاوقفه روتشين بحركة سريعة .

– تبلوف – نادى روتشين على الضابط الطويل – اترك الرشاشتين . . هذا انا ، فاديم روتشين . . .

وترجل عن حصانه على مهل ، وقاده من مقوده ، وسار عبر الجسر وحده . كان هذا الضابط هو نفس الشخص المسمى فاسكا تبلوف السكير المتباهي الاحمق – الذي كان في فوج روتشين في الماضي – والذي حذره روتشين ذات مرة عن جد من انه سيحطم وجهة على تخرصه وبذاءته . نظر تبلوف بارتياب الى روتشين وهو يقترب ، معيدا مسدسه الى قرابه ببطء .

– لم تعرفني . . . ربما من فرط السكر ؟ مرحبا ، يا فتى – ومد روتشين له يده دون ان يخلع القفاز – ماذا تفعل هنا ؟ اراك قد جمعت لنفسك جماعة من ذوي الكروش واللحى ، يا للحماقة ! لقد حان الوقت لان تكون آمر فوج . . . أانزلت رتبتك مرة اخرى على السكر ، بالطبع ؟

– اوه ، يا للشيطان ! – قال تبلوف صافرا بالحروف بسبب الثغرة السوداء التي لاحت تحت شاربيه بدلا من الاسنان الامامية – فاديم روتشين ! . . . – واختلج الكيسان الصغيران الاحمران تحت عينيه – يا للسماء التي انزلتك . . . اعتبرناك هاربا . . .

– شكرا ! . . .

وحدق روتشين في عيني تبلوف تحديقة صلبة حارة (شعر تبلوف بالحرج من هذه النظرة ، فراى من الافضل الا يستمر في الحديث عن الهروب) وقال روتشين :

– ان لكم رأيا جيدا جدا عني . . . كنت طوال الوقت في اوديسا عند غريشين-المازوف . . . وانا الآن رئيس اركان الفوج الاحتياطي الحادي والخمسين . ربما تريد ان اريك وثائقي حقا ؟ – سأل روتشين متحديا واستدار ولوح مناديا – دولديتش ، تعال . . تستطيع ان تبقى على فرسك . .

نخر تبلوف في غضب لا غير ، وكان دائما يتوجس من روتشين :

– كف عن التحذلق . . . اراك قد اتخذت طريقة خاصة في التحدث معي ، يا روتشين . . . الى اين انت ذاهب ؟

– الى الجنرال شكورو . . جلبنا لكم فوجا ليعاونكم . يقولون انكم خائفون من بوديوني كثيرا . . .

– عندنا فوضى . . . جندنا جميع المدنيين ، والجنرالات المتقاعدين ، والموظفين البهائم . . . وحتى القساوسة البسوهم البزات العسكرية ، وارسلوهم لي .

اخرج روتشين علبة السيكائر ، وكانت فيها سيكائر اجنبية استولى عليها يوم امس من طابور مقر القيادة . دخن تبلوف ونفث الدخان الزكي الرائحة على شاربيه . وقال متعجبا :

– هذه السيكائر الاجنبية الحقيقية ! من اين هي ؟ اما نحن فيقدمون لنا التبغ البيتي . . . وهو يسبب حرقة جهنمية . اعطيني ارجوك سيكارتين على الاقل للاحتياط . . .

– كيف تعيش ، يا فاسكا ؟

– اعيش عيشة الخنازير . بلا نقود . . ضجرت من كل شيء – والقى من تحت حاجبيه نظرة جانبية الى دولديتش الذي قفز من حصانه ، والى الفرسان الجهمين الثلاثة وراءه . وقال – اذا كنتم تظنون يا سادة ، انكم ستقضون وقتا ممتعا في فورونيج فانتم على خطأ . . . الاوغاد الحمر اتوا على كل شيء . ما من حانة واحدة ، ولا ماخور واحد . لا مكان للراحة مطلقا . . .

قال روتشين :

– لاعرفكما : المقدم دولديتش .

– الكابتن تبلوف .

وتبادلا التحية العسكرية . غض دولديتش بضحكة وجهه الاسمر وعيناه تتقلبان بسرعة ، وقال :

– مع الاسف ، مع الاسف . بينما كنا نحلم في الواقع بان نقضي وقتا ممتعا . . عندنا ما يكفي من النقود . . .

– طبعا توجد فتيات في الشقق الخاصة ، ويمكن الحصول على الفودكا الممتازة ، والشمبانيا مخفية عند المضاربين . . ثمن الزجاجة خمسمائة روبل ! فظاعة ! – وتراءى الحنق في عينيه

المتورمتين اللتين تسحان دمعا باستمرار – السلطة العسكرية تعامل هؤلاء المضاربين معاملتها للقديسين ... منقذو الوطن ! ... في تامبوف صادف ان شربنا كثيرا . وكانت قائمة الحساب فظيعة ، وليس لنا ما ندفعه ، فضربت صاحب المحل في وجهه وانصرفت .. فانزلوا رتبتي ... وهكذا ، يا فاديم ، يسود شعور الكبت في وحداتنا . اننا ، على اية حال ، نضحي بحياتنا .. والشباب يزول ... وماذا ينتظرنا في المستقبل ؟ موسكو المهدمة ؟ افلاس ... من حسن حظك انك انهيت الجامعة . يمكنك ان تخلع البزة العسكرية المقملة وتلقي محاضرات ايا كانت ... اما انا فسامضي في هذا العمل الرتيب المضجر .. وفضلا عن ذلك لن يسمحوا لنا بالاحتفاظ بجيش حقيقي ...

قال دولديتش :

– انت بحاجة الى تغيير الجو ، يا كابتن . لنذهب الى المدينة . ليس لنا من عمل سوى ان نسلم الظرف للقائد ، وبعد ذلك نمرح طوال الليل ... انا مسؤول عن الشمبانيا ...

– اوه ، اللعنة ! – قال تيلوف ذلك وحك ما وراء اذنه – لا يليق ان اترك موقعي بدون سبب معقول ...

قال روتشين :

– سلم القيادة الى الاقدم في الحظيرة ... وقل لآمر الموقع انك اشتبهت بان نكون رجال استطلاع حمرا متخفين ... في اسوا الحالات سينعتونك بالمغفل ...

فتح تيلوف فمه الخالي من الاسنان ، وقهقه وقال وهو يمسح عينيه :

– هذه فكرة ! بل وحتى اردت ان اعتقلكم ...

– عين الصواب ...

– يا ضابط الصف الاقدم غفوزديف ! – صاح تيلوف بصوت مرح رنان ، واستدار نحو الخندق ، حيث عاد الطلاب العسكريون يتجرون حول الرشاشة . وعندما تقدم ضابط الصف الاقدم – وهو غلام في نحو الثامنة عشرة ذو عينين زرقاوين وقحتين – وادى التحية بخفة رافعا كوعه بموازاة كتفه ، سلمه تيلوف القيادة ، وامر بتهيئة فرس .

في الطريق الى المدينة روى تيلوف ، وهو يتقلب على سرجه من نفاد الصبر ، كل المعلومات المطلوبة : ما هي الوحدات العسكرية الموجودة في فورونيج ، وكم يوجد فيها من مدفعية ، واين مواقعها ...

– فزع حيواني ، ولا شيء غير ذلك ... اريد ان اخبركم بان كوتيبوف اصيب بالفشل بالقرب من اوريل ، حتى ان رجالنا اصيبوا بهزة فظيعة ... ان ذلك لم يحدث من قبل قط ... انت تذكر الحملة الجليدية ، يا فاديم ! ليس عندنا الآن غير تعبير واحد يتكرر : «فقدنا العزيمة ...» نعم ، نعم ، ان شيئا قد فقد – الحماس السابق .. ثم ان الفلاحين هنا انقلبوا اوغادا . ينظرون كالذئاب ... ان الجنرال كوتيبوف على حق تماما . يقولون انه رد على القائد العام بحدة : «يمكن الاستيلاء على موسكو بشرط ان يقدم للسكان الاصلاح الزراعي والمشنقة ...» بحيث لا يبقى عمود تلغراف واحد فارغا ... ان يجري الشنق كما حدث ايام بوغاتشيف ليشمل قرى بكاملها ... كل ذلك على اية حال ، قصة مضجرة ... اعطوني احد العناوين : اختان خدومتان للغاية تعزفان على القيثار وتغنيان الاغاني الرومانسية .. تخلبان اللب ، يا فتى ! دعونا نذهب اليهما راسا ...

والظاهر ان تيلوف كان معروفا جدا ، فان بعض الدوريات التي التقت بهم اكتفت باداء التحية حتى دون ان تلقي نظرة جانبية على دولديتش وروتشين . وفي الشارع الرئيسي انعطفوا الى مدخل حديقي لاحد الفنادق . نزل تيلوف من فرسه ، ومد رجليه ، وقال بشيء من الخجل :

– لا احب ان اؤذي العين اكثر من اللازم . من الافضل ان انتظركما هنا ... القيادة العامة في الطابق الثاني .. فقط ان تستعجلوا ، يا سادة ... – ثم توجه بكلامه الى القوزاقي الكوباني المجدور الوجه ذي الشاربين القصيرين الواقف عند المدخل وقال بحدة – دعهما يدخلان ، يا ابله ...

ارتقى دولديتش وروتشين سلما من الحديد . كان قد كتب على ظرف رسالة بوديوني «الى اللواء شكورو . شخصي وسري ...» وكان قد تقرر ان يسلم الظرف عن طريق المرافق . كان ديوان الاوراق يحتل قاعة المطعم ذات النوافذ مفقودة الطلاء . دخل

دولديتش وروتشين القاعة ، وفي نفس اللحظة ومن الباب الاخر دخل شخصان : احدهما طويل ضخم في وجهه الجميل الخشن الملامح سيلتان غزيرتان ، وكان يسير على عكازة نفخت ابط معطفه الرمادي الفاتح ، معطف الجنرالات . وقد عرف روتشين انه الجنرال ماموتتوف . اما الثاني الذي كان يرتدي سترة جركسية بنية فقد كان له وجه ملتهب عالي الوجنتين شقي الملامح فتحتا منخريه واسعتان ، وانفه مرتفع . لقد كان ذلك الجنرال شكورو . دخلا وتوقفا عند منضدة كان يجلس اليها ضابط اركان صغير في بنطلون لركوب الخيل عريض كجناحي خفاش ، يملي شيئا على فتاة شقراء حلوة القسمات كانت تشمر يديها عاليا وتطبع على الآلة الكاتبة .

اشار روتشين لدولديتش على شكورو سائلا «هذا العمل الآن ؟» وفي تلك اللحظة التفت ماموتتوف فوقع بصره على ضابطين غير معروفين له ، فامر بصوت عالي النبرة :

– تقدما ، ايها السيدان . . .

اتخذ روتشين هيئة الاستعداد عند الباب ، وتقدم دولديتش من شكورو :

– لدي رسالة لاسلمها الى فخامتكم .

كان شكورو يقف وظهره الى دولديتش تقريبا ، ولم يلتفت ، واكتفى بان حرك رقبته القوية الحمراء التي انغرزت فيها ياقته المطرزة ، ورفع شفته العليا كالذئب ، وسأل دون ان ينظر الى وجه محدثه :

– من اين الرسالة ؟

– من آمر الفوج الاحتياطي الحادي والخمسين الذي وصل الى الشاطئ* الايمن للدون انتظارا لاوامركم . . .

– من اين هذا الفوج الحادي والخمسون ؟ – واستدار شكورو ، الا انه ظل على جفائه ، وتناول الرسالة ، وادارها في يده وقال : من الآمر ؟

احس فاديم روتشين الذي كان واقفا عند الباب ببرودة غير مريحة ، وانزل يده في جيب معطفه الى مقبض مسدسه . لقد تحولت الامور الى درجة عالية من الحماقة والتخلخل واللاجدوى . . الآن سينطق دولديتش باسم سخيف . . . يا للاسف ! كان من الممكن ان ينقلوا لبوديوني معلومات قيمة .

– يقود الفوج الحادي والخمسين الكونت شامبرتين – رد دولديتش بذلك على الفور ، وجابه بنظرة مرحة نظرة شكورو الجانبية الناعسة العابسة : هل تسمح لي بالانصراف ، يا صاحب الفخامة ؟

– انتظر ، انتظر ، يا مقدم – قال ماموتتوف واخذ يستدير نحوه على عكازته بحركة غير متقنة – يبدو لي انه اسم مالوف – وفجأة لوى الالم وجهه الجميل اللحيم ، فان حركته غير المتقنة جعلت الجبيرة تحتك بساقه التي حطمتها رصاصة في الاسبوع الماضي ، حين كان يهرب من بوديوني على عربته . وتمتم : – اوه ، اللعنة ، اللعنة . يمكنك ان تنصرف ، يا مقدم . . .

ادى دولديتش التحية العسكرية ، وقام بنصف استدارة متقنة ، واتجه نحو الباب . ورأى روتشين شكورو يتحدث الى ماموتتوف الذي ما يزال متلوي الوجه من الالم ، ويفض ببطء الظرف الذي يحتوي على رسالة سميون بوديوني التي كان روتشين ودولديتش على علم بمحتواها : «٢٤ تشرين الاول ، في الساعة السادسة صباحا ساكون في فوروتيج . آمرك ، يا جنرال شكورو بان تصف جميع القوات المعادية للثورة في الساحة ، عند السوق ، حيث شنقت العمال . وآمرك بان تقود الاستعراض بنفسك . . .»

هبطا السلم الحديدي . قابلهما طلاب عسكريون يحملون البنادق ويسيرون في خط واحد . وبدا لروتشين ان دولديتش الصغير الذي يسير امامه مرفوع الرأس مصلصلا بمهمازيه يسير على مهل شديد للغاية . وتلك شجاعة فارغة حمقاء لا ضرورة لها ! . . .

في الطابق الثاني في الاعلى ترددت صيحة حادة مبحوحة . خرج دولديتش وروتشين الى مدخل الفندق ، ومن الرصيف اندفع تبلوف نحوهما . كان وجهه الرخو بشاربيه المتدليين يتعطش الى الشمبانيا ، والاغاني الرومانسية ، والفتيات . . . .

– الحمد لله ، يا سادة . . . لنذهب . . .

دس قدما واحدة في الركاب وحجل على القدم الاخرى قرب الحصان الحرن . كان روتشين على سرجه . اخرج دولديتش علبة السكائر ، واشعل سيكارة – كانت اصابعه السمراء الجافة

ترتجف قليلا – والقى عود الثقاب المشتعل ، وتناول المقود من لاتوغين وقال بصوت حاد :

– اول زقاق الى اليسار انطلق عدوا !

كان الزقاق الاول لا يبعد غير مسافة عشرة بيوت . كان لاتوغين وتماقين وزادوريفيتشر اول من استدار اليه ضاربين بلاط الشارع بسنابك خيولهم . زعق تبلوف وهو يشد عنان فرسه ويلتفت :

– يا سادة ، يا سادة . . . الزقاق التالي ، الى اليمين . . .

الا ان حصانه انطلق به مع الجميع الى اليسار . التفت روتشين عند الزاوية ، وهو يستدير ، ورأى طلابا عسكريين يخرجون راكضين من مدخل الفندق ، ويتلفتون عجالى ساحبين ترابيس اسلحتهم .

– روتشين ، ما هذه اللعنة ؟

صاح تبلوف وهو يكاد يبكي منتقلا الى العدو مع الجميع . التصق دونديتش بحصانه اثناء العدو وانحنى ، وقبض على مشط يده بقوة ، وقطع حبل مسدسه ، وسحب المسدس من غلافه .

وصاح كاشفا عن اسنانه :

– انا مدين لك بشمبانيا !

الآن كان هو وروتشين والمقاتلون الثلاثة ينطلقون في الزقاق الملتوي بكل سرعة خيولهم مارين بالبيوت الصغيرة والاسيجة واشجار الزيزفون المعمرة التي كانت اغصانها العارية تحتك بقبعاتهم . وترددت طلقات الى الخلف . عبروا حقلا دون ان يخففوا من سرعتهم ، وبالقرب من الجسر تحولوا الى الخبب الخفيف ، ثم الى السير عند خنادق اول الجسر . نادى دونديتش مربتا على عنق الفرس المتصاعد منها البخار :

– يا ضابط الصف الاقدم غفوزديف ! – وعندما اقترب هذا يخفي سيكارته في ردنه اضاف – طلب الكابتن تبلوف مني ان انقل لك انه سيعود بعد نصف ساعة . سنعود نحن الى هنا في صباح الرابع والعشرين ، فلا تخفنا بالرشاشات . . .

– سمعا ، يا حضرة المقدم . . .

وعندما صار الجسر بعيدا خلفهم ، وقد هبط المساء ،

اعطوا فترة استراحة لخيولهم المزبدة التي بدأت تتعثر . عند ذلك قال دونديتش لروتشين :

– انا محرج جدا امامك وامام الرفاق . . . كثيرا ما لعنت نفسي على اظهار الفتوة . الخطر يسكر ، والعقل يحتد . وانا العاشق نفسي انسى الغاية والمسؤولية . وبعد ذلك احس بالندم . . . لو ان الرفاق الآن نزلوا من خيولهم ، وسحبوني من رجلي ، وضربوني لما احسست بالتكدر ، بل ولشعرت بالتنفيس . .

دفع روتشين راسه الى الخلف وقهقه عاليا . فقد كان هو الآخر يحتاج الى تنفيس التوتر الطويل الذي ارهقه تماما .

– هذا صحيح ، يا دونديتش ، تستحق ان تضرب بشكل جيد ، لا سيما على السيكارة في المدخل . . .

. . . .

ونجح دهاء بوديوني . فبعد ان قرأ مامونتوف وشكورو رسالته التي سلمت الى ايديهما شخصيا بمثل تلك الوقاحة المنقطعة النظير استولى عليهما غيظ لا يوصف . فان كتابة مثل هذه الرسالة وتعيين اليوم والساعة لاحتلال فورونيج يحتاجان الى ثقة . ومعنى ذلك ان بوديوني كان يملك مثل هذه الثقة . وفقد الجنرالان الاحساس بالتوازن .

كانت خطة بوديوني في دحر الخيالة البيض مبنية على ان تقوم كل قواته المتركزة بشن هجوم مضاد مباشر ضد الطوابير الثلاثة لفرقتي الدون وكوبان الساعيتين لتطويقه . ابطأ الاعداء بالهجوم واقتصروا على اعمال الاستطلاع . والآن اضحى بوديوني واثقا انهم سيهجمون عليه دون ان يحفلوا بالعواقب .

في ليلة الثامن عشر من تشرين الاول اشار رجال الاستطلاع الى بدء تحرك للعدو . وحانت ساعة المعركة الدموية . قال سميون بوديوني وهو منكب مع قائدي فرقتيه على الخارطة في ضوء شمعة : «حظا سعيدا» واصدر امره الى الفرقتين والافواج والكوكبات: «الى الخيول ! »

ورنت تلفونات الميدان سواء في كوخ مظلم او في حقل ، في خندق مغطى بالاغصان والتبن او تحت كومة دريس ، وسمع رجال الاتصال من السماعات ما كان الجميع ينتظرونه من ساعة الى اخرى .

هرع المراسلون الى صهوات خيولهم ، وانطلقوا في الظلام وهم يضعون اقدامهم على المهاميز اثناء العدو . كان المقاتلون نائمين بثيابهم في تلك الليلة الحالكة كالقبر ، الساكنة الريح فاستيقظوا على الصياح الممدود : «الى الخيول ! » ووثبوا على اقدامهم نافضين النوم عنهم ، واندفعوا الى مرابط الخيل ، واسرجوا خيولهم على عجل ، واوثقوا السيور بقوة جعلت الخيول تترنح .

تجمعت الكوكبات في الحقل ، ومن صيحات امراء الوحدات المترامية في الجبهة ، وجدت مكانها في الظلام . انتظمت في صفوف ، وانتظرت طويلا ملقية بابصارها الى الناحية التي يوشك الفجر ان يطلع منها . كانت الخيول ما تزال تتنفس بثقل من اثر النوم . وكانت برودة رطبة تتغلغل من خلال الستر المبطنة وفروات الاغنام ومعاطف الجنود الخفيفة . وصمت الرجال ، وكفوا عن التدخين .

وها هي الطلقة الاولى تصدر مبربرة من بعيد . وترددت اصوات المفوضين : «ايها الرفاق ، امرنا سميون ميخائيلوفيتش بوديوني بتحطيم العدو . ان ماجوري البرجوازية يسعون الى شق طريقهم الى موسكو — الموت لهم ! كللوا سلاح الثورة بالمجد» .

لم ينور الفجر الحقل بسبب جثوم الضباب . انطلق سيل ثمانية افواج بوديونية على امتداد فراسخ في كركبة ثقيلة وصفوف متلاصقة . وفي الضباب الكثيف لم يكن المحارب يرى غير رفيقه الى اليسار ورفيقه الى اليمين ، وعجائز الخيول امامه تنط في الضباب الحليبي المتخلخل .

كان العدو على مسافة قريبة تتناقص . وصارت طلقاته تسمع مترددة بلا نظام . واخذ المقاتلون وهم يحثون خيولهم بلهفة يتلعون رقابهم ساعين الى ان يروه . ثم سرت في السيل كله صيحة راحت تتردد اعلى واكثر حنقا وضراوة . فان الصفوف الامامية قد رأته . . . .

اخذت تطلع من الضباب اشباح فرسان يتعطفون على خيولهم . لم يصطبر قوزاق الدون ، فاندفعوا للقائهم بنفس السيل العارم . . . . الا انه يبدو ان الشيطان حملهم بهذا البعد عن قراهم الاصلية ليطاعنوا هؤلاء الشياطين الحمر . سمعوا هدير الحقل كله وارتجافه فادركوا اية قوة رهيبة توشك ان تعصف بالخيول والرجال وتخلط وتلف .

وتتعالى اكوام الاجساد المدماة . . . وليت ذلك لسبب وجيه ! وكرّ القوزاق الى خيول الدون الوثابة الخفيفة الحركة فاخذوا يرتدون ويجولون . . . وقليلون منهم فقط ، المستميتون للغاية ، السكارى من الجراة خرقوا سيل البوديونيين طاعنين بالسيوف في تهور وخبط عشواء . . . .

ولم تنقذهم خيول الدون الوثابة . والذين استداروا اصطدموا بالذين ما زالوا يندفعون الى الامام . . . اوقع بعضهم بعضا . . . راح رجال بوديوني يطعنون ويدوسون ويطاردون . . . بدأت صيحات وحشية . . . في الضباب لم يرى غير فارس منكب على عرف فرس ، وآخر يلاحقه منحنيا على السرج لتوجيه ضربة بسيفه . . . . صهلت الخيول المهتاجة قاضمة باسنانها . . .

الآن استدارت جميع افواج القوزاق لتولي الادبار . الا ان عربات الرشاشات التي انغرزت عميقا في جناحها قطعت الطريق عليها ، ودفعتها بنيرانها الى ناحية ، حيث اخترقت كوكبات جديدة من خيالة بوديوني كتلها المختلطة المرتبكة وهي تسعى الى الفرار .

استمرت مطاردة فرقتي ماموتتوف حتى طلوع النهار . وتناثرت في الحقل آلاف الجثث في الستر القوزاقية الزرقاء ، وفي السراويل المزينة بالاشرطة الحمراء عند خطوط الدرز . وانطلقت الخيول المذعورة بلا فرسانها .

في وقت الغداء تجمع رجال بوديوني كمعسكر هائل في حقل منبسط متجمهرين حول مطابخ ميدان جيدة من النحاس الصافي انتزعوها من العدو . وتصاعد البخار من قدور عصيدة الدخن المعتادة المطعمة بقطع من شحم الخنزير ، وقد اضيفت ، هذه المرة ، المكرونة والرز والفول واللحم المملح واشياء اخرى من هذا القبيل خلطها الطباخون لتحسين نكهتها .

وبعد ان شبع المقاتلون تماما دخنوا وتفاخروا فيما بينهم بما غنموا في القتال من سيف فرسان من الفضة او قربينة يابانية ، او جواد من خيول الدون اصهب محجل وذي غرة .

ولم يهدأ الهياج الذي خلفته المعركة ، وما كان له ان يهدأ ! عزفت الاكورديونات في كل مكان . وترددت اصوات تناغمها اخرى «انتشرت السحب تحجب السماء ، وجثم الضباب على وجه

الحقل . . . » وعلى انغام البلالايكا دق الراقصون الارض بكعوبهم وسط الصفير مشمرين اذرعهم كما يشمر البجع جناحيه ، مقرفصين وضاربين الارض ضربات متتابعة .

ولكن الابواق تصدح من جديد داعية الى القتال ، الى العمل الصعب ! من بعيد مر بوديونى على فرسه فى عباءته القوزاقية وقبعة من فراء الاستراخان الفضى ، ومعه قائدا فرقتيه كلاهما . وبدا الافواج تصطف من جديد ، وتوغلت فى صفوفها ثمانى رايات حمر رفرافة .

. . . .

ان الاندحار الذريع للطابور الاول اجبر البيض على التخلى عن تطويق بوديونى ، واحبطت خطتهم الاولى ، وسارع بوديونى بالاستفادة من الارتباك . ففى تلك الليلة عند الفجر هاجم رجال بوديونى الطابور الثانى من رجال ماموتتوف ، ولم يتحمل الضربة هذا الطابور ايضا وتراجع الى سدة السكة الحديد تحت حماية القطار المصفح . خرج القطار من فورونيج لقبلا مقرقعا عبر الجسور . كان الضباط المدفعيون تحت الابراج الفولاذية وقرب مدافعه من عيار ٦ بوصات ورشاشاته يمعنون النظر فى الضباب الآخذ بالتحول ببطء . وبين الحين والآخر كان يظهر على السدة رجل من رجال الاتصال يلوح بعلم صغير ، فيتوقف القطار دقيقة ليتلقى المعلومات . وهكذا اضحى معروفا الوضع الحرج للطابور الثانى الذى رده رجال بوديونى الى سدة السكة الحديد .

زاد القطار المصفح فى سرعته . وظلت الصافرة المبحوحة فى قاطرته تزعق بلا انقطاع لتنبئ رجال ماموتتوف بمعونة عاجلة .

لمح المدفعيون الذين كانوا يعاينون من خصاص الابراج شبحا غير واضح فى الضباب . وقد انطلق على السدة للقاء القطار المصفح . اوقف القطار حركته ، وعاد يتحرك الى الوراء . واطلقت المدافع قذائفها على الشبح المتنامى بسرعة . ولكن الوقت كان قد فات . فان قاطرة بضائع كبيرة اطلقت باقصى سرعتها خالية من الناس ارتطمت بالعربة الفولاذية الامامية للقطار المصفح . وكانت القاطرة كلها قد عبئت بالديناميت من امام ومن الجانبين . ودوى انفجار . وفى الحال تفجرت القذائف فى العربة المصفحة من التماس ، ووقفت

العربة المصفحة على طرفها فى دوامة من التراب والرمل والنار والدخان والبخار ، وتدحرجت مسحوقة ساحبة على منحدر السكة السلحفاة الفولاذية الضخمة برمتها .

وهرب الطابور الثانى من رجال ماموتتوف الى فورونيج . وبدا الطابور الثالث يتراجع الى هناك ايضا — بدون قتال الا انه اجبر على خوض المعركة فى اليوم الرابع من هذه المذبحة التى لا سابق لها ، وحطم كليا ، وتناثرت جثث القوزاق المطعونة على مسافة فراسخ من الحقول والتلال .

وتراجعت الى وراء النهر جميع فرق الدون وكوبان محصورة متكبدة فى بعض افواجها ما يصل الى النصف من عدد رجالها . وفى الصباح الباكر من الرابع والعشرين تحركت قوات بوديونى الرئيسية الى هناك ، حيث وجدت الجسر الخشبى الذى كان محروسا من قبل القساوسة والطلاب العسكريين بقيادة تبلوف متروكا لم يلحقوا ان ينسفوه . كانت بعض البطاريات تطلق النيران من ناحية المدينة رافعة اعمدة من الوحل والماء . . . وصل بوديونى الى الجسر ، ورأى الجسر واهى البناء . استدعى الموسيقيين ذوى الابواق الفضية ، وامرهم بان يعبروا الجسر الى الجانب الآخر من النهر ، وان يعزفوا هناك امرح الالحان واكثرها اثارة من موسيقى المارش والرقصات . كان طلاب الكونسرفاتور بالهيئة التى اخذوا فيها آنذاك — فى معاطف قصيرة ذات تطريزات صفراء وحمراء على الاكتاف — وقد تراكضوا عبر الجسر ، وما كادوا يعبرونه حتى اصابته قنبلة فانهار . وفى وسط هدير الانفجارات اخذ الموسيقيون شبه الاحياء من الفزع ينفخون فى ابواقهم الفضية ويصدحون . . . .

وسلم كل مقاتل خيال قذيفة مدفع ليحملها فى يده . وصاح امراء الوحدات والمفوضون «الى الامام ! » وقذفوا بانفسهم قبل وحداتهم فى الماء القارس البرودة الفائر المتطاير من القذائف المتفجرة . وفى وسط النهر انزلق الرجال عن سروج خيولهم وسبحوا وقد وضع كل فارس يدا على عرف فرسه ، ورفع القذيفة على الاخرى . وقفزت خيول المدافع الى النهر الغاضب ساحبة المدافع على قاع النهر . وعبر رجال بوديونى النهر واخذوا يهاجمون فورونيج بحرارة غضابا مبللين وعلى خيول مبللة . الا ان فرق ماموتتوف وشكورو هنا

ايضا لم تتقبل المعركة ، وابتعدت بسرعة الى ما وراء الدون باتجاه كاستورنايا .

. . . .

كان دحر احسن خيالة البيض والاستيلاء على فورونيج احد العمليات الاولية لخطة عسكرية ضخمة وضعتها القيادة الجديدة للجبهة الجنوبية .

وقد تلقى قواد الجيوش والفيالق والفرق والالوية وامراء الافواج نسخا من هذه الخطة مطبوعة على ورق مزرق وموقعة بتوقيع ستالين . وصفت فيها — بالتفصيل ، وبشكل مفهوم لكل مقاتل احمر وممكن التنفيذ فعليا — عمليات جميع وحدات الجبهة الجنوبية ابتداء من منطقة اوريل وكرومى ، (التى كان يتراجع عنها تحت ضربات التشكيلة الخاصة بقيادة سيرغى اوردجونيكيدزه فرسان دينيكين المسحوقون تحت قيادة الجنرال كوتيبوف الذى اقسم بان يكون اول من ينفذ الى موسكو) ومن عمليات منطقة فورونيج وكاستورنايا (حيث اعطيت لفيلق بوديونى مهمة شطر جبهة البيض عند نقطة التقاء جيش الدون بجيش المتطوعين) وانتهاء باحتلال روستوف على الدون التى كان الطريق اليها يمتد عبر الثغرة التى احدثت خلال منطقة دونباس المنجمية البروليتارية .

وخلافا لتوقعات الجميع سواء اولئك الذين كانوا جالسين فى الفنادق المنتنة على حقائبهم فى اهبة السفر واثقين من ان الفرنسيين سيجلبون الى موسكو فى عيد العام الجديد الشمبانيا والمحار وحتى بنفسنج بارما ، او اولئك الذين كانوا يقضون الساعات فى غرفة استقبال حاكم اوربا فى باريس ، وهم الآن مرفوعو الرؤوس ، وروسيا الدستورية فى ايديهم تقريبا ، حتى انهم لم يضبطوا انفسهم فدخلوا فى مكتب كليمانصو حيث يشتعل موقد ، وحيث جلس الدكتاتور الضئيل المكور الكتفين وحاجباه الاشيبان متدليان على مشروع مكون كالقبر يعم العالم ، ونهض الفرنسى ليقدم اصابعه المعقدة للروسى الذى كان يضغط عليها من شدة الفرح ، بل وخلافا لما توقع انتون ايفانوفيتش دينيكين نفسه الذى هجر منذ زمان لعبة «الفينت» فى ايام الجمع ، والذى بالرغم من ضعفه الذى يشترك فيه مع الجميع اخذ يؤمن بان له رسالة سامية — قام

البلاشفة الذين كانوا فى آخر رمق بشىء لا يتصوره العقل ، ونظموا هجوما مضادا جبارا رغم تفشى التيفوس والمجاعة الحادة للغاية والدمار الاقتصادى الكلى ، حتى تصدعت كل السياسة العالمية لخنق وتقطيع اوصال روسيا الحمراء . تلك البلاد المترامية الاطراف التى كانت تمثل — اذا اردت الحق — لغزا لعقول اوربا الغربية .

وكانت لغزا ينابيع الهام الشعب الروسى . كما ان افكار السعادة للجميع والنظام الاجتماعى العادل — تلك الافكار التى ظُن انها قد اقبرت الى الابد تحت تلال جثث الحرب العالمية — قد انتشرت وكان عاصفة نشرت بذور سفرة الجنة فى روسيا المعدمة المخربة ، حيث ما يزال الريفيون الاميون يقص بعضهم لبعض حكايات اسطورية عن ايفان الابله ، وعن الساحرة بابا ياغا ، وعن الابسطة الطائرة ، والشيوخ العميان — رجالا ونساء — ينشدون اشعار الملاحم المطولة عن معارك الجبابرة ومآدبهم وحفلات زفافهم .

وربت هذه الافكار فى شعوب روسيا مرونة وصلابة النصل الفولاذى . ان الفلاحين الذين ما يزالون يحكون الحكايات ، وعمال المعامل نصف المتهدمة التى همدت مداخنها منذ زمان ، من خلال تغلبهم على المجاعة والتيفوس والخراب الاقتصادى التام يدحرون ويطاردون جيش دينيكين ، وهو جيش من الدرجة الاولى ، وقد اوقفوا عند مشارف بيتروغراد جيش يودنيتش الصدامى ودفعوه الى استونيا ، وحطموا وشتتوا فى ثلوج سيبيريا جيش كولتشاك الكبير العدد ، وقبضوا على حاكم عموم روسيا هذا ، واعدموه رميا بالرصاص ، وهم الآن يدحرون ويطاردون اليابانيين فى الشرق الاقصى . انهم ، الملهمون بافكار لينين — بالافكار فقط لان فى روسيا لا شىء يؤكل ولا شىء يلبس — يؤمنون بانهم اقوى من جميع من فى العالم ، وانهم سيبنون على خرائب دولتهم المعدمة ، وفى اقرب وقت مجتمعا شيوعيا عادلا .

٣٠

خيل الى كاتيا ان معدتها الآن ، لا تزيد على الارجح عن حجم محفظة صغيرة لحفظ قطع النقود المعدنية . ليس فيها ما يكفى الا

لما يزيد قليلا عن خمسين غراما من الخبز ، والقطعة من سمك الفوبلا المسلوق ، ولبضع ملاعق من الحساء . وكانت المصيبة التى تجابهها هى فى التنورات التى اضحت فضفاضة عليها وليس لها ما تخيطها به ، ولا الوقت الذى يسمح لها بذلك . وبمقابل ذلك اضحت عينا كاتيا اوسع بكثير مما كانتا فى الخريف الماضى ، حيث كانت ماتريتا تطعمها الفطائر الدسمة عن قصد .

كانت الصبايا فى المدرسة يقلن لها احيانـــا ، وهن يلوين افواههن الجائعة :

«يا عمة كاتيا ، ما احلاك . . . .»

وكان ذلك يبعث السرور فى نفس كاتيا ، لان كل الحياة كانت فى المستقبل . والتذكار الوحيد عن الماضى – خاتم زمردى بومضته الخضراء الساطعة – قد ضاع وهى ما تزال فى قرية فلاديميرسكويه . اما الاشباح المحبوبة التى كانت تسكن هذا البيت المتداعى فى زقاق ستاروكونيوشنى ، فلم تعد تخطر فى ذاكرتها بينما كانت تتصور المستقبل الذى تتجـه نحوه كل الآمال ، كل افكار الناس المعذبين بالجوع وشدة القرس والخراب والحرب طريقا عريضا لامعا كزجاجة فى الشمس ، وسط المروج الخضراء والبحيرات المضببة المحاطة بكتل الاشجار الناعمة – طريقا يؤدى الى معالم مدينة خفيفة الزرقة معقدة فاخرة رائعة يجد الجميع ضالتهم من السعادة .

ذات مرة تحدثت كاتيا عن ذلك فى الدرس . واصغى الاطفال وقد اخلدوا للهدوء . والصبايا العاطفيات اعجبن بشكل خاص بان الطريق الى المستقبل يتلوى عبر المروج الخضر ، حيث من الممكن ان يطاردن الفراشات ، ويجمعن باقات من الزهور الصغيرة ، على شكل نجيمات . ووجد الاولاد الحكاية غير مرضية . فان كاتيا لم تقل شيئا عن القطارات المنطلقة فى كل مكان خلال هذه المروج ، مارة بمؤشرات الاتجاه ، وعبر الجسور المشبكة والانفاق ، ولم تذكر المداخن الضخمة التى يتصاعد منها الدخان مراحا . واتفق الجميع على ان مدينة المستقبل زرقاء بالطبع ، لهـا بيوت عالية تناطح السحب ، وترامواىات شديدة السرعـــة ، ومراجيح فى جميع البولفارات ، واكشاك تبيـع الفطائـر والسجق . سالت كاتيا : «والدلدرمـــه ؟» . الا انـــه تبين ان الاطفـــال لـــم يتذوقـــوا

الدوندرمه قط ، او ربما تذوقوها عندما كانوا صغارا ونسوهـا .

وكان على كاتيـا ان تحرص كثيرا على قوتهـا . قبل فترة قصيرة حملت جردلا مملوءا الى الفناء واحست فجاة بانها لا تستطيع ان تمضى بـه ، فوضعته على الارض ، واتكات على الحائط مغالبة الغشاوة التى غطت على بصرها . ومن حسن الحظ ان المحاضرات عن الفن ظلت مؤجلة ، فقد اقفرت موسكو تماما ، وكان من الممكن ان يسير المرء من اربات الى شارع ستراستنايـا دون ان يلتقـى بعابر سبيل . ومع ذلك فقد كانت «الازفستيا» تنشر فى كل يوم انباء انتصارات عسكرية . وتدفقت الجيوش الحمراء الى الدونباس فى سيل عريض عبر ثغره فى الجبهة عند كاستورنايـا ، واندلعت انتفاضات الفلاحين فى مؤخرة البيض . والآن لاحت للنظر نهايـــة للحرب والنكبات .

فى المساء ، والساعة تقترب من الثامنة ، كانت كاتيا جالسة فى حجرتها ، دون ان تشعل الفتيل . فقد كان الموقد «النحلة» يلقى ضوءا كافيا من خلال بابه نصف المفتوح . جلست كاتيا على مقعد واطئ ، والقت قطع الحطب بحذر ، فاشتعلت بضوء ساطع ، وفرقعت فرقعة لطيفة لانها كانت من نفس الطاقـة الشمسيـة التى تحدثت كاتيا عنها فى المدرسة .

كانت كاتيا تقرأ «الجريمة والعقاب» . يا الهى ، الى اى حد كانت تلك الحياة بلا مخرج ! وضعت كاتيـا يدها على الكتـاب ، وحدقت فى النار . ما ارهب الليلة التى قضاها سفيدريغايلوف فى الحانة الخشبية ، فى الجادة الكبيرة ! لقد كان نفس المطعم التى جلست فيه كاتيا مرة واحدة فى حياتها مع بيسونوف ، ولربما فى نفس الحجرة التى كـــان سفيدريغايلوف يزجى فيهــا الوقت ساعـــة بعد ساعـــة وقد عرف انـــه غير قـادر على قهر الرعب والنفور من الحياة .

ان هذه اللعنة قد حطمت واحرقت وبددت . والآن يستطيع المرء ان يجلس هذه الجلســة ويقرأ بهدوء عن الماضى ، ويكـوم الحطب فى الموقد ، ويؤمن بالمستقبل .

ترددت فى الممر خطوات غير متوازنة ، ومن الارجح انهم عادوا مرة اخرى الى ماسلوف للتشاور . فى المدة الاخيرة اخذ الناس

يترددون عليه باستمرار فى غبش المساء ، وكانت اصواتهم الغاضبة تسمع حتى فى غرفة كاتيا . ومهما كانت الساعة التى ينتهى فيها الاجتماع كان ماسلوف يوصل الناس الى المطبخ ، ويدق باب كاتيا بحذر :

«امعقول انك آويت الى الفراش ؟ عيب ، عيب ان ينام المرء مبكرا . . . وانت امراة عصرية . . . اى ،اى ، اى . . . »

وكان يدير مقبض الباب بالحاح ، وكانت كاتيا ترتجف من الغيظ . فقد كان ماسلوف عنودا ومعتدا بنفسه بشكل فظيع ، ويستطيع ان يبقى وراء الباب حتى الصباح .

«يكاتريشا ديميتريفنا اريد فقط ان اجلس بهدوء قرب موقدك . . . اعصابى توترت . . اسمحى لى بطريقة رفاقية . . . »

وكان من السخف الاستمرار فى الصمت ، وفى آخر الامر تفتح كاتيا الباب . فيجلس امام الموقد ويأخذ بوضع قطع الخشب – وكانت كل قطعة منها اغلى من الذهب – وكان يضحك بغموض ويمد كفيه الضيقتين فوق حديد الموقد الحامى ، ويشرع فى الحديث عن موضوع قوة الجنس الرهيبة كالقضاء . . . والاستجابة لهذه القوة جمال ! وسائر الاشياء بيوريتانية عفنة . وفضلا عن ذلك فان كاتيا جميلة ووحيدة و «متحررة من الايواء» على حد تعبيره . وكان واثقا ثقة لا تتزعزع من انها ستسمح له ان لم يكن اليوم فغدا بان يتسلل تحت لحافها .

واليوم ، وقد قرات كاتيا دستويفسكى كانت الاصوات فى غرفة ماسلوف تترامى الى سمعها موحشة . فقد كانت تتردد هناك هتافات عنيفة ، لم تسقط بين الحين والآخر اشياء تبدو وكان كتبا تقذف على الارض . واليوم لا بد انه سيأتى لتهدئة نفسه .

سمعت خربشة على الباب ، وانسل صوت خفيف عبر ثقب الباب : «يا عمة كاتيا ، هل انت فى البيت ؟» انها صبية ، كلافديا فى حذاء لبادى ضخم ربط بحبل .

– ارسلتنى زوجة تشيستوكوف لاستدعائك . عندها روتشين من الجبهة .

– وهل الجو بارد فى الخارج ؟

– قطاعة ، يا عمة كاتيا ، ريح شديدة تجعل العين تزغلل ،

ليت الثلج يتساقط ، ولكن لا ثلج . . . شتاء جنونى ، ولكن غرفتك دافئة ،يا عمة كاتيا . . .

كانت كاتيا غير راغبة فى الخروج الى البرد وجرجرة نفسها الى بيت زوجة تشيستوكوف فى بريسنا ، وكان الشىء الاكثر ارهاقا انها ستضطر الى حديث حتمى فى الليل . ارتدت معطفها ، والقت لفاعا دافئا على راسها فوقه . وخرجت مع كلافديا الى الشارع بحذر لكيلا يتنبه ماسلوف . اندفعت الريح الليلية نحوهما من الزقاق المظلم بقوة جعلت كاتيا تغطى الفتاة الصغيرة باطراف منديلها . وكان الغبار يلذع الوجه ، والسطوح الحديدية تقرقع . كانت الريح تعول وتصفر وكان كاتيا وكلافديا آخر مخلوقين على الارض . فقد مات كل شىء ، ولن تخرج الشمس بعد لتطل على العالم .

بالقرب من نافذة شاحبة الضوء فى بيت خشبى صغير ادارت كاتيا ظهرها للريح لتلتقط انفاسها . ومن خلال شق بين ستارتين لم توصلا بعضهما ببعض بشكل محكم رات كاتيا حجرة مكتظة بالاثاث ، ومدخنة سوداء متصلة فى موقد بشكل ملتوى ، وفى وسط الحجرة ضوء «تحلة» وقد جلس بعض الاشخاص فى مقاعد وثيرة . وكان الجميع قد اسندوا رؤوسهم على اكفهم ، وراحوا يصغون الى شاب واقف امامهم يقرا شيئا فى كراسة وقد رفع بشمم انفه المتجه الى الاعلى . وكان يرتدى معطفا مهلهلا مفتوحا على صدره العارى وحذاء لباديا ملفوفا بحبل رفيع ، كحذاء كلافديا . ومن حركة يديه والطريقة البطولية التى يهز بها شعره الكثيف غير الممشط عرفت كاتيا انه يلقى اشعارا . واحست كاتيا بدفء فى قلبها ، وابتسمت وادارت وجهها للريح ، وهرعت الى اربات دون ان تدع كلافديا تخرج من تحت منديلها .

كان بيت زوجة تشيستوكوف حافلا بالناس – جميع زوجات العمال الذين خرجوا الى الجبهة ، وبعض الشيوخ يجلسون مجلس الصدارة عند طاولة ، حيث كان القادم يتحدث عن الشؤون العسكرية . اخذت النساء يسالنه والبعض يقاطع بعضا : هل سيخف وضع الخبز عن قريب ؟ هل يمكن توقع وصول الوقود

الى موسكو فى عيد الميلاد ؟ وهل توزع الاحذية اللبادية والمعاطف الفرائية فى وحدات الجيش ؟ وذكرت اسماء ازواج واخوان ليعرفن هل هـم احيـاء معافون ، وكان هذا العسكرى كان قادرا على ان يعرف بالاسمـاء جميع العمال المقاتلين بالالوف فى جميـع الجبهات .

لم تستطع كاتيا ان تشق طريقهـا فى الحجرة فوقفت عند الباب . وقفت على اطراف اصابعها ووقع بصرها خطفا على القادم يسجل شيئا فى ورقة صغيرة ، وقد انزل راسه الملفوف بضمادة . وسال :

– أهذه كل الاسئلة ، يا رفاق ؟

وسرت رجفة فى جسد كاتيا ، وكان هذا الصوت الواطئ القاطع النبرة قد لفت فيهـا ممزقا قلبهـا . واستدارت فى الحال لتصرف . لم يغب عن ذاكرتها شيء ، على ما يبدو . . . ان رنين الصوت الشبيه بذلك الرنين الحبيـب الذى صمت الى الابد اثار فى نفسها اسى قديما ، الما قديما غيرمدعو وعديم النفع . . . وبهذا الشكل تعود فى الحلم الى ذاكرة انسان وحيد ذكرى ماضيه البعيد ، فيرى بيتا صغيرا فى غابة لم يقع عليه عيناه قط ، منارا بضوء باهت ، وبالقرب من البيت امه المتوفاة تجلس وتبتسم كمـا فى الطفولة البعيدة ، فيود ان يمد لها ذراعيه ، ويدعوها من الحلم الى الحياة ، ولكنه لا يستطيع ان يمسها ، وتظل هى صامتة تبتسم ، عندئذ يدرك ان ذلك مجرد حلم ، فتتحدر دموع نابعـة من الاعماق على صدر النائم .

ولعل وجه كاتيا كان بهذا الشكل ، بحيث ان احدى النساء عند الباب قالت :

– يا مواطنات ، افسحن الطريق للمعلمة لتتقدم ، ضيقتن عليها تماما . . .

وفسحن الطريق لكاتيـا لتتقدم الى الامام . فدخلت ورفع الرجل الجالس الى الطاولـة راسه المضمد فرات وجهـه الصارم . وقبل ان يضيء الفرح ويوسع عينيـه الداكنتين ترنحت ، واخذ الدوار يطوف براسهـا ، والوعى يتخلى عنهـا شيئا فشيئـا ، وطنين الاصوات المتصاعد يبتعد ، والضوء يعتم ، كمـا حدث لها

حين كانت تحمل الجردل فى الرواق . . اجتست كاتيا فى احساس بالذنب ، وتتابعت انفاسها ، وشحبت ، واخذت تتهاوى . .

– كاتيا ! – صاح هذا الرجل شاقا طريقه بين الاشخاص – كاتيا !

امسكتها عدة ايد ، ولم تدعها تسقط على الارض . ووضع فاديم روتشين بين كفيه وجهها المنكس الحبيب الفاتن حيث الفم هامد نصف مفتوح ، والمقلتان مختفيتان وراء الجفنين .

– هذه زوجتى ، يا رفاق ، هذه زوجتى .

كرر روتشين محركا شفتيه المرتجفتين .

سارا والريح تهب على ظهريهما . كان فاديم روتشين يضغط كاتيا عليه من كتفيها الواهنتين . وكانت كاتيا تبكى طوال الطريق ، وتتوقف وتقبل روتشين . اخذ يحكى لها لماذا اعتبره الجميع ميتا ، بينما كان طوال عام يبحث عنها فى كل روسيا . الا ان ذلك كان حديثا مشربكا طويلا ولا حاجة له الآن على الاطلاق . وكانت كاتيا تقول احيانا «قف ، سرنا فى غير طريقنا . . .» ويستديران ، ويجوبان شوارع جانبية مظلمـة خالية ، حيث كانت ديك الرياح الصدئة تصرف على المداخن ، وتقرقع صفائح الحديد نصف المخلوعة على السطوح ، وتحرك شجرة زيزفون عتيقة بعويل يمزق القلب اغصانها السود من وراء سياج مهدم . . .

فى زقاق ستاروكونيوشنى قالت كاتيا :

– هذا بيتنـا ، هل تتذكره ؟ ولكن كنت تدخل من الباب الامامى فقط . انا اعيش فى نفس الغرفة ، يا فاديم .

عبرا الفناء ركضا . كان باب المطبخ مغلقا .

– آه ، غير لطيف . . . سنضطر الى دق الباب . . . اطرق باقصى ما تستطيع . . .

ضحكت كاتيا ، ثم بكت قليلا ، وقبلت فاديم وعادت تضحك من جديد . دق فاديم الباب بشدة بكلتا قبضتيه .

– من هناك ؟ من هناك ؟

سال ماسلوف منفعلا وراء الباب .

— افتح ، انا كاتيا .

فتح ماسلوف الباب ، وكان القنديل الصفائحي يرتعش في يده بقطائه الزجاجي . وحين راى عسكريا وراء كاتيا تراجع خطوات ، وقد انكمش خداه في غضون طولية ، وتقلصت عيناه ببغضاء .

— شكرا .

قالت كاتيا ، وهرعت الى حجرتها دون ان تطلق يد فاديم . وخلا الحجرة ، حيث ما تزال بقية من دفء . سالت كاتيا هامسة :

— هل معك اعواد ثقاب ؟

وكان شديد الانفعال ، حتى انه اجاب بهمس ايضا :

— معى . . .

واشعلت الضوء ، وهو قبس صغير في علبة كان يكفيهما تماما لان يحدق احدهما في الآخر طوال الليل . فكت لفاعها دون ان تصرف بصرها عن فاديم . وكان قد شاب تماما ، بل كانت في حاجبيه بعض الشعرات البيض . وظهرت الرجولة على وجهه ، واكتسى مسحة غير مالوفة لها من الصرامة والسكينة . وقد سحرها ذلك . فقد كان اكثر شبابا ورجولة ووسامة من ذلك الذى كانت تتذكره في روستوف . رات الضمادة ، ففتحت فمها ، وتنهدت قائلة :

— هل انت جريح ؟

— خدش . . . ولكن بسببه حصلت على اجازة اسبوعين في موسكو . . . كنت اعرف انك هنا . . . ولكن هل كان يمكن ان اجدك ؟ (ابتسمت ابتسامة فرح ذات معنى ضمنى وقد رفعت طرفى فمها) كنت ان الحق بك وانت في القرية . . . لقد طاردت كراسيلنيكوف . . (اختلج حنك كاتيا ، وهزت راسها بغضب) كاتيا ، لقد قتلته . . . (اسبلت جفنيها واحنت راسها) كاتيا ، كنت قد بدات ان اروى لك الملابسات التى جعلتك تتلقين نبأ موتى . . . في الحقيقة اننى قد مت . . . (اخذت كاتيا تنظر اليه بفزع ، وامتلات عيناها الواسعتان بالدموع مرة اخرى) . كنت مسافرا في عربة قطار في الليل ، وقد فقدت كل ما اعيش من اجله ، وكنت مخطئا في الشىء الرئيسى ، وكان واضحا لى اننى ساقتل او انتحر . . . . اعذرينى ، يا كاتيا ، ذلك شىء مرهق وقاس ، ولكننى اريد ان ارويه . . . كنت افكر فيك ، لم يكن ذلك حبا ، اذ لم

يبق في نفسى ما احب به ، ولكنه تفكير مجهد فيك ، كما يفكر المرء في شىء لا يمكن تمزيقه ، وتركه ونسيانه ، لا يمكن ان يُخان . وهذا هو الشىء الوحيد الذى يربطنى . . كانت تلك الليلة في عربة القطار تحطيما لكل شىء في . . . والآن ، حين اتعرف في الطرف الآخر من بندقيتى على وجوه مالوفة ، ادرك اى نفس سوداء محطمة ساصيب برصاصتى . . . .

وضعت كاتيا ذراعيها على كتفيه ، وضغطت خدها على قلبه وهو يدق دقات قوية متتابعة . ظلا واقفين وسط الغرفة ، هو في معطفه غير المزرر ، وهى في معطفها الفرائى . كانت تعرف انه سيحدث الآن عن الشىء الاهم . . . الرجل العزيز الرائع . . . انه يريد ان يبرز نفسه امامها لتحب فيه ذلك الشىء الجديد النزيه الصارم المشبوب العاطفة . . . عندما خرج في روستوف عن اطواره ، وهجرها كانت تعرف انه سيتعذب عذابا قاسيا ، ويفهم كل شىء . . . استمعت وهى تضغط نفسها عليه ، الى كلماته المبهمة المتقطعة ، وكانه يخطط على عجل هيروغليفية عذاباته الجسيمة . . . ولكن كاتيا كانت تفهم كل شىء بدون كلمات . . .

— كاتيا ، المهمة جبارة فوق كل مقياس . . . لم تحلم قط بالنا سنتنقذها . . . انت تذكرين — فقد تحدثنا عن ذلك كثيرا — كم بدا لنا مرهقا وبلا معنى دوران التاريخ ، وانهيار الحضارات العظيمة ، والافكار التى تحولت الى محاكاة تهكمية بالسنة لها . . . تحت القميص المنشى لسترة السهرة نفس الصدر المشعر للانسان البدائى . . . كذب ! ان الغشاوة تمزقت عن العين . . . كل حياتنا الماضية جريمة وكذب ! روسيا خلقت الانسان . . . والانسان طالب بحق الانسان في ان يكون انسانا . . . ان ذلك ليس حلما . انه فكرة ، وهى على رؤوس حرابنا وقابلة للتحقيق . . . والضوء الباهر اضاء الاقبية لصف المهدمة لجميع العصور الماضية . . . كل شىء قائم على اساس ، كل شىء طبيعى . . . والهدف قد وجد . . . ويعرفه كل مقاتل احمر . . . كاتيا اتفهميننى الآن قليلا ؟ بودى لو اعبر لك عن كل ما في نفسى . . . يا فرحى ، يا قلبى ، يا معشوقتى ، يا نجمتى . . .

وفجأة عصرها بين ذراعيه بقوة حتى طقطقت كل عظامها ،

فزادت من انضغاطهـــا على موضع القلب من صدره ، ولا غير . دق الباب ، وصوت ماسلوف :

– يكاترينا ديميتربيفنا ، هل تسمحين للحظة واحدة . . .

– ولمـــا لم يرد عليـــه احد ، اخذ يديـــر مقبض البـــاب على عادته – المسالة انك تعرفين حالة الطوارئ في المدينة . وفي غرفتك رجل بعد الساعة العاشرة ، . . ولما كنت مسؤولا . . . .

– انتظرى ، ساتحدث معه .

قال روتشين وهو ينزل ذراعى كاتيا عن كتفيه .

– فاديم ، لا تخرج عن اطوارك ، سأتكلم معه بنفسى . . . اتوسل اليك ، ارجوك . . .

وخرجت وراء الباب في الحال ، واغلقته وراءها . كان ماسلوف يقف مبتسما ابتسامته الساخرة وهو ما يزال يمسك بالقنديل .

– لا يمكن ان تدخل فى غرفتى ، يا رفيق ماسلوف .

قالت بلهجة صلبـــة لم تتحدث بها معه قط . اخذ ماسلوف يتراجع عن الباب مشيرا اليها بان تتبعه متفرسا فيها بهستيرية . سالت ، وهى تسير وراءه :

– ماذا ؟ ما تريد ؟ انا لا افهم . . .

– اريد ان انبهك ، يا يكاترينا ديميتريفنا ، بان لا تلقى اهمية لكارثتى . . . لا وجود لها . . . لقد ابلغوك ، بالطبع . . . فى المنطقة كلها استبشار واحتفال بالنصر . . . ما زال الوقت مبكرا للاحتفال والاستبشار . . .

اجابت كاتيا غاضبة :

– انا لا افهم شيئا . باختصار ارجو الا تدق بابى . . .

– لا تكذبى ! انت تفهمين كل شىء . . . آه ، كم جربتك ! اسمعى ، اولا : استمرى فى الحديث معى كمـــا وكان البطاقـــة الحزبيـــة لم ياخذوها منى . . . سيكون ذلـــك اكثر تبصرا . . . (واصدرت حنجرته غرغرة ، رغم انه كان يتكلم بخفوت وخمول) . لم يتغير شىء يكاترينا ديميتريفنا ! . . . ثانيا : ان ضيفك الليلى يجب ان يخرج فى الحال . . . تريدين ان تسالى : لماذا اصر على ذلك ؟ هذا هو جوابى . . . (ووضع يده فى الجيب الصدرى لسترته الملطخة المقطعة الازرار واخرج مسدسا مسطحا ، وامسكه فى

راحتـــه ، لتراه كاتيـــا) وبعد ذلك ، سنتبحث فى علاقاتنـــا السابقة . . . .

تملكت كاتيا رجفة شديدة ، حتى انها لم تستطع غير ان ترمش رمشا بطيئا . دفع روتشين الباب ، وخرج :

– ماذا تريد من زوجتى ؟

تغضن وجه ماسلوف حتى اذنيه ، وقرفص ليضع القنديل على الارض ، والمسدس يدور فى يده .

– اى ، اترك هذا – قـــال روتشين وهو يتقدم منه ، وانتزع المسدس من يده ، ووضعـــه فى جيب معطفـــه – غدا سأسلمه الى اللجنة الاستثنائية فى المنطقة ، ويمكنك ان تتسلمه هناك . واذا اقتربت من بابنا مرة اخرى سألوى رقبتك . . .

وعادا الى الغرفة . طقطقت كاتيا باصابعها صامتـــة . خلع روتشين معطفها عنها .

– كل شىء مفهوم ، يا كاتيا . وهو لن يحشرنفســه هنا بعد الآن . الفلب الفظ الذى سمعت عن ماسلوف هذا وانا فى الجبهـــة . انه من اولئك الذين يفسدون الجيش . . .

وخلع معطفـــه ، وحط بالقرب من كاتيا الجالســة على مقعد ذاهلة ، ووضع راســـه على ركبتيها . اخذت يداهـــا تمران على شعره وخديه ورقبته . وكلاهمـــا قد نسى فورا حادثـــة ماسلوف الحمقاء . جلسا صامتين . واخذ يعتمل فى نفسيهمـــا قلـــق جديـــد وشديد وغريب الى الابد وبكر – فى نفسه فرح اشتهائها ، وفى نفسها فرح الاحساس بفرحه . . .

– اقوى بمليون مرة ، يا كاتيا .

– وانا ايضا . . . ، رغم اننى دائما ، دائما ، يا فاديم . . .

– أتشعرين بالبرد ؟

– لا ، لا . . . مجرد اننى احبك جدا . . .

جلس الى جانبها فى المقعد العريض القديم وقبل عينيها وفمها وطرفى شفتيها . وقبلها من صدرها ، وتذكرت كاتيا ان فى ثديها الايسر شامـــة الولادة التى كان معجبا بها لسبب ما . فكت ازرار بلوزتها الصوفية ليقبل الشامة .

برد الموقد «النحلـــة» بالفعل ، وصارت الغرفـــة باردة . فرقص قاديم عند الموقد ، وهو يلقى بنظراتـــه الى كاتيا طوال الوقت ، ويبتسم عن اسنان منظومة ، وتفخ فى الجمر واضعا كتل الخشب المقطوعة من قوائم وظهور المقاعد من الخشب الاحمر . وعاد الدق، من جديد . واحمرت كاتيا وهى تخلع ملابسهـــا ، وضحك قاديم ، واحتوى وجهها براحتيه ، وقبله .

ظلت الريح تعول فى المدخنة طوال الليل ، وتخفق فى صفائح الحديد . نهضت كاتيا عدة مرات كالرية التى احبها كيوبيد وعدلت فتيلة المصباح ، وهى لا تصرف بصرها عن وجه قاديم النائـم . كانت ممتلئة بالسعادة وعارفة انه ممتلئ سعـادة ايضا ، ولهذا السبب كان وجهه على هذه السكينة والرصانة .

— كاتيا ، كاتيا ! — صاحت داشا وهى تندفع فى المطبخ — كاتيا ، حبيبتى كاتيا !

وتردد فى الممر وقع حذائها اللبادى المتجمد . واندفعت نحو كاتيا ، وطوقتها ، وقبلتهـا ، وابتعدت عنها ، ونظرت مشبوبة العاطفـة ، وعادت تحتضنها وتمسد لها . كانت تفوح منها رائحة ثلج وفراء الغنام وخبز اسود . وكانت ترتدى سترة من فراء الاغنام، منديلا ريفيا ، وقد تدلت صرة وراء ظهرها .

— كاتيا ، حمامتى ، عزيزتى ، شقيقتى . . . كم اشتقت لك وحلمت بك . . . لا ، تصورى فقط اننا اضطررنا ان نمشى على الاقدام من محطة يارسلافسكى . ان موسكو كالقرية : هدوء وغربان زرع وثلج ، ودروب علمتهـا الاقدام فى الشوارع . . . مسافـــة بعيدة ، ورجلاى تكادان تنطويان . . . اما كوزما كوزميتش فيحمل بودين من الطحين . . . وصلنـا الى ستاروكونيوشنى . . . ولم استطع ان اجد البيت ! قطعنا هذا الزقاق بطوله ثلاث مرات . . . ويقول كوزما كوزميتش ليس هو الزقاق المقصود . . . وتملكنى الغيظ ، فقد نسيت البيت ! . . . وفجاة . . . لا ، تصورى فقط ! من الركن خرج رجل فى لباس عسكرى . تقدمت منه : «من فضلك ، يا رفيق . . . » اما هو فقـد تفرس فى" بملء عينيـه . . . فتحت فمى

دهشـة ، وجلست على الثلج . . . قاديم ! واتصور ان عقلى قد غاب عنى ، الموتى صاروا يمشون فى شوارع موسكو الخلفية . . . والغرب هو فى الضحك ، وقبلنى . . . ولم استطع ان انهض . . . كاتيا يا حسنائى ، يا شقيقتى الذكيـة . . . نحن بحاجـة الى عشر ليال لكى تروى الواحدة للاخرى ما لديها من اخبار . . . يا ربى ، انا اعرف هذه الغرفة . . . والسرير وصندوق الادوية . . . حدثنى قاديم عن ايفان . بعد ايام سيتوجه قطار اسعاف الى وحدتهم وقد قررت ان اسافر عليه كممرضـة ، وستصحبنى اليسيـا وكوزما كوزميتش . . لن نتركه وحده هنا ، فيتعفرت . . . كاتيا ، نريد اولا ان ناكل . . ضعى السخان . . . ثم نغتسـل . . . قضينـا اسبوعا فى عربة بضائع قادمين من يارسلافل . . . يجب ان نخلع ملابسنا كلها ونغليهـا . سنبقـى الآن فى المطبـخ ولا تدخل الى غرفتك . . . تعالى اعرفك بصديقى" . . السانان رائعان ، يا كاتيا ! وانا مدينة لهما بحياتى وبكل شىء . . . سنسخن الموقد بانفسنا ، ونغلى الماء . . هناك عدد كبير من مختلف الاثاث . . . كاتيا ، امن المعقول انك لم تشيبى قط ؟ يا الهـى ، تبدين اصغر سنـا منى بعشر سنين . . . انا واثقة من ان اليوم الذى سيجتمع فيه شملنا قريب ، قريب جدا . . . .

فى موسكو كان الشوفان يوزع ببطاقات التموين . ان عاصمة الجمهورية لم تمر قط بوقت عصيب يشابه شتاء عام ١٩٢٠ . فان هجوم الجيوش الحمراء قد ابتلع كل القوى الحية . ولفدت بسرعة احتياطات القمـح والفحم المستولى عليهـــا من البيض . وكانت الولايات الغنية التى مر بها القوزاق وجيش المتطوعين قد خربت . فكانت فصائل التموين العمالية لا تجد فيها غير فرائش هزيلة من القمح .

فى الذكرى السنوية للحملة الجليدية هرب جيش المتطوعين الى نوفوروسيسك تاثرا فى وحول كوبان المتعثرة الاجتياز العربات المهملة المحملة بالامتعة ، والمدافع الغاطسة فى الوحل ، وجيف الخيول . انتهى كل شىء . وهاجر انتون ايفانوفيتش دينيكين على

ظهر باثة القام فرنسية وقد تفشى الشيب فى شعره واحدودب ظهره ، ليكتب مذكراته فى الهجرة . وعبرت الفلول الهزيلة لافواج المتطوعين على سفن النقل الى القرم . وادرك قوزاق الدون وكوبان اخيرا انهم قد خدعوا بقسوة ، ودفع القوزاق ثمن عنادهم بقبورهم المجهولة المنتشرة من فورونيج الى نوفوروسيسك .

كان الشتاء ما يزال فى موسكو . وزوابع آذار ترمى المدينة بالثلوج . وقد استنفدت المواقد جميع الاسيجة والاثاث الزائد . وتوقفت المعامل والمصانع . وكان المستخدمون فى الدوائر يجلسون الى مكاتبهم فى معاطفهم وينفخون بانفاسهم على اصابعهم المنتفخة لكى يستطيعوا ان يحتفظوا بالاقلام بايديهم بطريقة من الطرق ، فقد تجمد الحبر فى المحابر تماما فى انتظار الايام الدافئة . وكان الناس يمشون ببطء ، وهم يحملون على الدوام حقائبهم الظهرية . وقليلون منهم كانوا قادرين على السير من بيوتهم الى اماكن عملهم دون ان يتوقفوا ليستريحوا فى كومة ثلج او يتكئوا على مداخل البيوت اتقاء من الريح . وكانت المجاعة رهيبة وكان الناس يحلمون فى نومهم بخنوص مسلوق موضوع فى صحن ، وقد وضعت فى فمه قطعة بقدونس . وفى الحلم كانوا يمضغون باسنان فارغة لحم الخنزير المقدد الدسم والبيض المسلوق . الا ان افكار الجميع كانت متاججة ، فقد دمر غول العداء للثورة العنيد الدموى الخانق ، والحياة تاخذ خطا صاعدا ، ولم تبق الا شهور قليلة من الحرمان والعذاب ، وسياتى قمح جديد ، وتشتغل الجيوش الحمراء المسرحة بالعمل السلمى ، بترميم جميع الاشياء المخربة وبناء ذلك الشىء الجديد الذى ستنتسى فيه جميع العذابات ، كل مرارة المسافات الماضية . . . .

تحققت رغبة داشا . فقد اجتمع شملهم من جديد . حصل ايفان ايليتش وروتشين على اجازة قصيرة فسافرا الى موسكو فى قطار الاسعاف الذى تعمل فيه داشا ، ووصلوا اليها فى صباح غائم من آذار . حين كانت السحب الرمادية تتلبد فوق المدينة ، والثلج

ينحدر من السطوح ، وتتساقط دلايات الجمد الضخمة ، والهواء الثقيل فواح ومنذر بالقلق .

استقبلتهم كاتيا فى محطة القطار . كان روتشين اول من رآها من بسطة العربة ، فقفز والقطار لم يتوقف بعد . ركضت كاتيا نحوه متألقة بالفرح — فى عينيها وابتسامتها — خلال دخان القطار المتلوى بين الاعمدة الحديدية . فبدت له اغلى مما بدت له فى لقائهما فى كانون الاول . وكانت كل حياة حبهما فى هذه اللقاءات القصيرة . انزويا فورا فى ناحية تحت الساعة . الا ان داشا الغيور جرت زوجها تليغين اليهما . وكانت تريد ان تسمع شقيقتها تبدو اعجابها بايفان ايليتش بصوت عال :

— كاتيا ، انظرى اليه . . . اتلاحظين كيف تغير ؟ فى بطرسبورغ كان فى وجهه عدم اكتمال . . . كما كانت عيناه ايضا مختلفتين . . . ارجو المعذرة ، يا ايفان . . . ولكن عندما كنا فى السفينة التى اقلتنا الى سامارا كانت لك عينان زرقاوان فاتحتان ، بل بمسحة من الحماقة حتى ان ذلك اقلقنى . . . اما الآن فهما بلون الفولاذ . . .

كان ايفان تليغين يقف امام كاتيا ، وقد زقر بتشنج من امتلائه بالاحاسيس ، وبدا لكاتيا ايضا جذابا جدا اليفا هادئا ومتزنا .

— واليك صورته كاملة ، يا كاتيا . . . اثناء المسيرات — بل تصورى — حتى حين كان يطارد مامونتوف على ظهر حصانه كان يحمل معه فى عدل سرجه — احزرى ماذا ؟ — دميتين خزفيتين لقطة ولكلب كان قد اهداهما لى فى يوم زفافنا الثانى فى تساريتسين . . . لاننى قد اعجبت بهما كثيرا . . .

هرع كوزما كوزميتش نحو كاتيا ، وقد قفز من العربة لدقيقة . وظل يهز يدها بكلتا يديه وقتا طويلا والتمع وجهه الاحمر الحليق تماما سرورا ووفاء . وكان يبدو فى مريوله الابيض مضللا حتى ان الناس النحاف المارين به على الرصيف نظروا اليه بعداء .

— احببتك ، يكاترينا ديميترييفنا خلال ايام قصيرة قدر محبتى لداريا ديميترييفنا . . . انا اقول دائما ليس فى العالم نساء اروع من الروسيات . نقيات فى مشاعرهن ومتفانيات ، ويعشقن الحب وشجاعات حين تقتضى الشجاعة . . . انا فى خدمتك دائما ، يكاترينا ديميترييفنا . . . . ما ان انتهى من شؤونى حتى اهرع

اليك عند الغداء لاجلب لك اشياء جلبتها من روستوف . . . الفصل ربيع عندنا في روستوف . . . ومع ذلك فان الشمال احلى على القلب . . . حسنا ، اعذريني . . .

واقبلت انيسيا في مريول ايضا . كانت خيبة الامل تبدو على وجهها بعينيه الواسعتين . فقد كانت تريد ان تبقى في موسكو في هذه السفرة ، الا ان كبير الاطباء — بطريقة غير سوفييتية على الاطلاق — وحتى دونما رغبة في الاصغاء قال : «الى مدارس مسرحية هذه ! عن قريب ستحدث معارك كبيرة مجددا ، وتتخلف الجرحى . لا اسمح لك ! »

— لا باس ، سانتظر حتى الخريف — قالت لداشا ومسحت انفها بطرف منديلها — الاعوام تمر ، وانا افقدها ، وهذا هو المؤسف . . . لاتوغين هنا ، وقد جاء لاستقبالي ، عفريت ايضا . . . جاء مندوبا الى المؤتمر . اصبح فخورا وجديا . . . وهو يقول انه لليوم الثالث يهرع الى محطة القطار ليستقبل قطارنا للاسعاف . . . ذهب ليقنع كبير الاطباء ليسمح لي باجازة ليوم واحد . . . داريا ديميتريفنا ، حدثتني عن اغريبينا ، انها في ساراتوف ، وقد وضعت مولودا لا اعرف ان كان ولدا او بنتا ومرضت مدة طويلة . . . وعادت الى الفوج مع وليدها . . مسكينة ، لها خلق صعب ، لا تحب الا مرة واحدة . . .

خرجوا من محطة القطار ومشوا خلال موسكو كلها على الاقدام الى زقاق ستاروكونيوشني ، فقد اعدت هناك غرفة لداشا وتليغين ، وهي نفس غرفة ماسلوف . وقد انقضى شهران وهو غائب ، في بداية الامر حمل كتبه ، ثم اختفى هو الآخر . . . ساروا ببطء بسبب كاتيا . اراد فاديم روتشين ان يضعها على يديه ، ويحملها تحت هذه السحب الربيعية الشعثاء المخيمة على موسكو . وتأخر تليغين وداشا عنهما لكيلا يضايقاهما . قالت داشا :

—انا اخشى على كاتيا . موسكو وهذه المدرسة ستقضيان عليها . وهي لا تأكل شيئا . . . خلال ثلاثة اشهر صارت نحيلة جدا . . . يجب ان نأخذها معنا في القطار . . . سيكون في امكاني ان اطعمها . . . اما هنا فهي لا تأكل شيئا ، وهذا غير معقول .

قال تليغين بخفوت وبدلالة :

— نعم ، ثم ان فاديم يتعذب بدونها ايضا . . .

ولحق بهما لاتوغين وانيسيا بعد قليل . وكانت انيسيا قد خلعت مريولها ، وقد تورَّدت وجنتاها . سلم لاتوغين الجهم الجدي بطريقة متحفظة ، واخرج من ردن معطفه اربع تذاكر للضيوف الى مسرح البلشوي ، في اعلى طابق . وقال وهو يوزع التذاكر :

— نعم ، في الجبهة اسهل مما عندكم في موسكو . كان عليّ ان اخوض معركة كبيرة من اجل هذه التوافه . . . ومن حسن الحظ ان الملاحظ كان من بحارتنا على الطراد «افرورا» . . . ولهذا يجب الا تتأخروا . اليوم اجتماع مهم . حسنا ، يا انيسيا ، لنذهب . . .

كانت مئات المصابيح الكهربائية لا تكاد تضيء بضوئها المحمر الداكن صالة مسرح البلشوي بطوابقه الخمسة حيث ارتفع الضباب المتخلف من انفاس الحاضرين . وكانت الصالة باردة ، وكأنها قبو . وعلى المسرح الواسع الذي سدت مؤخرته بالواح من الجنفاص جلس اعضاء الرئاسة حول منضدة قائمة في الجانب ، وقريبة من اضواء مقدمة المسرح الشاحبة . اتجهت رؤوس الجالسين جميعهم الى نهاية المسرح حيث علقت على كلاليب الديكور في اعلى المسرح خارطة روسيا الاوربية وقد تغطت ببقع ودوائر من مختلف الالوان تكاد تملأ كل سطحها . وامام الخارطة وقف رجل صغير الجسم في معطف فراني حاسر الراس . وكان شعره المتدلي من جبينه الواسع يلقي ظلا على الخارطة وكان يمسك في يده عصا بلياردو طويلة ، يشير بطرفها من حين لآخر ، وهو يحرك حاجبيه الكثيفين الى هذه البقعة الملونة او تلك فكانت تضاء في الحال بضوء ساطع حتى ان ذهب الطوابق الكامد في الصالة يأخذ بالتلألؤ . وتبدو للعيان الوجوه النحيلة المجهدة بعيونها المتسعة باهتمام .

وتكلم بصوت عالي النبرة في السكون المتوتر :

—عندنا في روسيا الاوربية وحدها من الخث المجفف بالهواء مما يقدر بعشرات التريليونات من البودات . ونحن نملك من احتياطياته ما يكفي لقرون . والخث وقود محلي . ومن فدان واحد من مستنقع الخث يمكن ان نحصل من الطاقة على ما يزيد خمسا وعشرين مرة على ما نحصل عليه من فدان واحد من الغابة . ويحتل الخث المرتبة الاولى تليه القوة المائية والفحم ، وكلها تحل المشكلة

التي تجابهنا ، مشكلة البناء الثوري . لان الثورة التي انتصرت في ميدان القتال فقط ولم تنتقل الى التحقيق الفعلي لافكارها ، ستخمد مثل عصفة ريح . لقد اشار فلاديمير ايليتش لينين الجالس بيننا ، والذي الهمني تقريري لهذا اليوم قد اشار الى الخط العام للثورة الخلاقة : الشيوعية هي السلطة السوفييتية زائدا الكهربة . . .

— اين لينين ؟

سالت كاتيا ، وهي تطل من علو الطابق الخامس . كان روتشين يمسك بيدها النحيلة طوال الوقت ، فاجاب بهمس ايضا :

— انه هناك ، صاحب المعطف الاسود . انظري ، انه يكتب بسرعة ، ها قد رفع راسه ، ويلقي قصاصة ورق عبر الطاولة . . . انه هو . . . اما الشخص النحيل ذو الشاربين الاسودين عند الحافة فهو ستالين ، الرجل الذي هزم دينيكين . . .

وكان الخطيب يقول :

— في الاماكن التي تكمن فيها مليارات البودات من الفحم في صمت روسيا المزمن ، وفي الاماكن التي تهبط عليها الشلالات او يسوق نهار جبار مياهه ستبنى المحطات الكهربائية ، وهي الفنارات الحقيقية للعمل الجماعي . لقد تحررت روسيا الى الابد من نير المستثمرين ومهمتنا ان نضيئها بوهج لا يخبو من النار الكهربائية . ان لعنة العمل الماضية يجب ان تصبح سعادة العمل .

ورفع عصاه واشار الى مراكز الطاقة المقبلة ، ومررها على الخارطة راسما الدوائر التي كانت تومئ الى مواقع الحضارة الجديدة المقبلة ، وتالقت البقع كالنجوم في اغشاش المسرح الواسع . لقد كلفت اضاءة الخارطة بهذه الاضاءة ولهذه اللحظات القصار تجميع كل طاقة المحطة الكهربائية في موسكو ، وحتى في الكريملين فكت جميع المصابيح في مكاتب مفوضي الشعب ما عدا واحدا بقوة ١٦ شمعة .

في القاعة كان الناس الذين كانوا يحملون في جيوب معاطفهم العسكرية وسترهم المثقبة بالرصاص حفنة من الشوفان وزعت عليهم اليوم بدلا من الخبز يستمعون مبهوري الانفاس الى آفاق الثورة العظيمة والقابلة للتحقيق بالفعل على الرغم من ذلك ، فالثورة تدخل الآن في طريق الخلق .

كان تليغين يقول لداشا خافت الصوت :

— تقرير مفيد . انا اعرف المهندس كرجيجانوفسكي هذا بشكل جيد . ستنتهي الحرب واعود الى المصنع ، فانا ايضا عندي افكاري . . . لدي رغبة شديدة في العمل ، يا داشنكا . . . اذا كانوا يضعون مثل هذه القاعدة الكهربائية ، فسيكون في الامكان القيام بكل شيء . فما اعظم ثرواتنا ! واذا قمنا بعمل حقيقي في هذه البلاد الجبارة ، فاننا سنتفوق على امريكا ! نحن اكثر غنى . . . سنذهب سوية الى الاورال . . .

قالت داشا له :

— وسنعيش في بيت من جذوع الشجر نظيف تماما ، فيه قطرات من صمغ الصنوبر ، ونوافذ واسعة . . . وفي صباحات الشتاء ستشتعل المواقد . . .

وهمس روتشين في اذن كاتيا :

— اتدركين اي معنى ستتخذ جهودنا كلها والدم الذي ارقناه ، وجميع عذاباتنا الصامتة غير المعروفة . . . ستحول العالم بجهودنا الى مكان للخير . . وكل الذين في هذه القاعة مستعدون للتضحية بحياتهم من اجل ذلك . . . ليس هذا مجرد خيال انهم يستطيعون ان يروك الندوب والبقع الزرق التي خلفها الرصاص . . . وهذا في وطني ، هذه روسيا . . .

— لقد استقر العزم ! — كان الرجل عند الخارطة يقول متكئا على العصا وكانه يتكئ على رمح — اننا نقاتل وراء المتاريس من اجل حقنا وحق العالم في ان نقضي مرة والى الابد على استثمار الانسان للانسان .

٢٢ حزيران ١٩٤١